

الحملة الفرنسية في مصر

بونابرت والإسلام

تأليف: هنري لورنس

شارل جيليسپي - جان - كلود جولڤان - كلود ترونيكر

ترجمة: بشير السباعي

الحملة الفرنسية في مصر
بونابرت والإسلام

الكتاب : الحملة الفرنسية في مصر
بونابـــرت والإســـلام
الكاتب : هـنري لورنـس وآخـرون
ترجمة : بشـــير الســـباعي
الطـــبعة الأولـــى ١٩٩٥

الناشـــر : ســـينا للنشـــر
المدير المسئول : راويـة عبد العظيم

١٨ ش ضـريح سـعد - القصـر العـيني -
القاهـرة - جمهـورية مصـر العـربية -
تليفـــون / فاكـــس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢

هذه ترجمة لكتاب :
L'EXPÉDITION D'ÉGYPTE
1798 - 1801
تألـــيف :
HENERY LAURENS
الناشـــر :
ARMAND COLIN



صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعـــثة الفرنســـية
للأبحـــاث والتعـــاون
قسم الترجمة - القاهرة

الغـــلاف : منير الشعراني
الاخـراج الداخلـي : إيناس حسني
الصـــف : سـينا للنشر

تأليف: هنري لورنس
شارل جيليسبي - جان - كلود جولفان - كلود ترونيكر

الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام

ترجمة: بشير السباعي



إلى القارئ

شكلت حملة مصر الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) نقطة تحول مهمة في التاريخ المصري، وهو واقع يسلم به المؤرخون على اختلاف مدارسهم، ويسلط أضواء جديدة عليه هذا الكتاب المهم الذي صدر بالفرنسية في عام ١٩٨٩ ضمن الجهود العلمية المواكبة لإحياء الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية الكبرى. ويصدر هذا الكتاب بالعربية مع اقتراب الذكرى المئوية الثانية لحملة مصر الفرنسية، والتي نأمل أن تواكبها جهود علمية من جانب المؤرخين المصريين، من شأنها توضيح دلالات هذا الحدث المهم، بالنسبة لمجمل تطور المجتمع المصري الحديث والمعاصر.

ولابد من الاعتراف بأن ما حفزنا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية هو الرغبة في تنشيط نقاش جاد بين المؤرخين المصريين، حول سياق ونتائج هذا الحدث، وهو نقاش طال أمد انتظاره، بالرغم من عدد من الإسهامات - النادرة - التي لا يخامرنا شك في أهميتها.

بشير السباعي

شكر وتقدير

ما كان يمكن إنجاز هذا العمل دون تصور معين للتاريخ وللمجتمع الشرقي، تبلور عبر مشاركة دامت أكثر من عشر سنوات في نشاطات مركز تاريخ الإسلام المعاصر بجامعة السوربون - باريس (باريس ٤). ويعني كثير بوجه خاص للأستاذ دومينيك شوڤالييه مؤسس المركز ومحركه. أما جورج بوهاس، مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، فقد أتاح لي، ضمن إطار منحة دراسية لمدة سنة قدمها معهده في عام ١٩٨١ - ١٩٨٢، أن أكرس جانباً كبيراً من وقتي للقراءة المتأنية لحوليات الجبرتي، بصحبة الأستاذ فاخوري بجامعة حلب. وقد وفر لي جان - لوي باكي - جرامون، مدير المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية باسطنبول، كل تسهيلات العمل بمعهده خلال إقاماتي المتعاقبة في تلك المدينة. وهكذا تسنّى لي الاطلاع على الوثائق التاريخية العثمانية بشكل أفضل. أما السيدة بوزينيه، مديرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، فقد تكرمت باستقبالي في معهدها خلال زياراتي المختلفة لمصر وأبدت اهتماماً خاصاً بدراساتي حول الجنرال كليبر. وكان عونها ضرورياً بالنسبة لنشر الأوراق الشخصية لهذه الشخصية الكبيرة. وأما الأب مارتان بكلية العائلة المقدسة بالقاهرة فقد أتاح لي كل الحرية للاستفادة من المكتبة الضخمة التي يتولى أمانتها والنقاش معه يُعَدُّ - دائماً - إثراءً - لمعارف المستمع إليه. وقد استقبلني أندريه ريمون وفيليب دي لانو مرحبين في مناسبات عديدة وساعدا عليا إثراء معارفي بعلمهما الغزير بأحوال مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفتح لي جان تولار أبواب معهد نابوليون بينما فتح لي ميشيل فوڤيل أبواب مكتبة السير - سوربون.

وخلال كل هذه الأعوام، حظيت بمعاملة كريمة فائقة من جانب جميع أفراد قسم التاريخ بالجيش البري بقلعة ڤانسان. إن مناخ العمل الممتاز بهذا القسم إنما يدين لهم كثيراً.

وقد أعاد جاك لورنس والسيدة مها باكليني لورنس ونيكولا فاتان عن طيب خاطر قراءة مخطوط هذا العمل وقدموا عونهم.

تمهيد

بالرغم من مؤلفات مؤرخين كبار، كمؤلفات جورج لوفافر وجاك جوديشو، فإن فترة الثورة الفرنسية التي تبدأ مع (حكومة) الإدارة تظل بوجه عام موضع إهمال وازدراء. وبالنسبة لعدد من بيننا أيضاً، فإن الثورة تنتهي مع سقوط روبسبيير، وما يحدث، بين عامي ١٧٩٤ و ١٧٩٩، ليس غير احتضار طويل للنظام الجمهوري. والملحمة النابليونية الوليدة هي وحدها التي تُعدّ جديرة بالاهتمام وتتحول جميع الأبصار نحو رجل، نحو الفاتح. أمّا المناقشات الأيديولوجية والسياسية التي شارك فيها بنشاط فهي لا تُدرس إلاّ من زاوية سيرته.

وهكذا فإن حملة مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١) وحروب الائتلاف الثاني قد شكلت تلاحق واقعات غريباً وبلا طائل. وخلال السنة الأولى، يجتذب وجود بونابرت في مصر الانتباه، ثم يقود تعزز الوضع الفرنسي في أوروبا، بفضل عمل القنصل الأول، إلى إهمال المغامرة المصرية التي تستمر سنتين.

على أن الحملة، حتى خلال دورانها، قد حركت مشاعر أوروبا. وقد أسهبت صحافة العصر في نقل أخبارها المباشرة. وظهر تحليل كامل لأحداثها. وفي السنوات التالية، قُـدم عمل فيفان دينون، ثم «وصف مصر» تعميماً لصورها إلى درجة خلق جمالية متمصرة ومتمشرقة، نجدها ماثلة في جميع فنون مستهل القرن التاسع عشر. وقد دام هذا الافتتان إلى أيامنا. ومنذ عام ١٨١٥، وعلى مدار الأعوام، تظهر مذكرات أو دراسات عن الحملة. والواقع أن صورة الفاتح – الواقف على أرضية أهرامات مصرية – إنما ترمز بشكل بليغ إلى هذا اللقاء بين عجائب مصرية سرمدية والقدر الفريد لبطل.

فما الذي يمكن إذاً لكتاب جديد أن يقدمه إلى مثل هذه الأدبيات التي لا أول لها ولا آخر؟ سؤال لا مفر من طرحه على النفس. لكننا إذا ما درسنا الأمور عن قرب، فسوف نرصد وجود ثغرات مهمة. إن الأسطورة النابليونية والأسطورة السوداء التي ترافقها قد

جعلتا من أحداث معينة موضوعات للجدل. والفترة التي تتلو رحيل بونابارت تظل مهملة، خاصة فترة قيادة كليبر. والأثر القيم للحملة في العمل العلمي بحاجة إلى تقييمه بدقة؛ وتاريخ الشرق الإسلامي ما يزال بحاجة إلى دراسة.

إن الكتابة التاريخية الليبرالية في الشطر الثاني للقرن التاسع عشر، في أوروبا كما في الشرق، قد جعلت من حملة مصر نقطة بداية الحداثة في الشرق العربي. فهي تذهب إلى أن عالما مغلقا وراكدا قد شهد – عبر العنف – انفتاحا قسريا على العالم الحديث أدى إلى نهوض ثقافي وقومي ما يزال تأثيره محسوسا في أيامنا. ونجد صورة غير مغايرة جذريا لهذه الفكرة عند الإسلاميين المعاصرين؛ فهم يذهبون إلى أن تجانس وانسجام الحضارة الإسلامية المصرية وشرق الأوسطية قد تمزقا بشكل لا يمكن علاجه من جراء العدوان الثقافي الذي رافق هذه الحملة العسكرية وتلاها – وهي صورة باطلة – في نظر عدد من المؤرخين الأنجلو – ساكسونيين، الذين أعلنوا منذ وقت مبكر أن هذه المسألة لم تك غير حدث بلا أثر مقيم في تاريخ مصر العارم في أواخر القرن الثامن عشر.

وبالنسبة للمشجعين على الحملة، كان الشرق يبدو على حافة التمرد، وكان العالم العثماني يبدو مفعما بالحركة، وعلى وشك أن يشهد «أحداثا جساما». وهذا التصور له مبرراته، شأنه في ذلك شأن واقع التطورات السياسية والاجتماعية في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية.

لقد كان الثوار الفرنسيون ينتمون إلى عالم التنوير، ولم يك بوسع تناول اقتصادي للمشكلات أن يكفيهم. ومن المؤكد أن فكرة الاستيلاء على مصادر المواد الأولية والاستحواذ على أسواق جديدة لمنتجات المتروبول الصناعية لم تك غريبة عليهم. لكنهم – تمشيا مع ما قاموا به في أوروبا – كانوا يفكرون من زاوية إدخال تحويل شامل على المجتمعات الإسلامية. وقد أكدوا على ذلك باستمرار وحاولوا تحقيقه.

وبعيدا عن المغامرة الشخصية لبونابارت وعن ملحمة جيش الشرق الفرنسي الأول، فمن المؤكد أن حملة مصر هي مواجهة بين ثورة فرنسية على طريق التوسع العسكري وإسلام، عزيز بتراثه التليد، لكنه في مجمعات تجهد اجتماعي واقتصادي.

فلماذا تنتهي الثورة الفرنسية بحملة استعمارية ؟ وما هو واقع المجتمعات العربية شرق الأوسطية في أواخر القرن الثامن عشر؟ وما الذي كانت عليه العلاقات بين الفرنسيين والمصريين خلال تلك الفترة المؤثرة بالحركة ؟ وما هي الأهمية الفعلية التي

مثلها هذا الحدث بالنسبة للشرق الأوسط ؟ إن دراسة الهياكل والأحداث هي وحدها التي تسمح بتقديم إجابات على هذه التساؤلات. وهذا يفسر اختيارنا، هنا، لمنظور كرونولوجي (متتبع لتسلسل الأحداث) صارم.

ومن نواح عديدة تبدو تلك العشريات الثلاث بمثابة ذروة بالعقود التالية. وتكشف كل لحظة من أصالتها وتستحق دراستها في ذاتها. وهذا هو السبب في أننا، مجازفين بالاتجاه إلى استشهادات طويلة، قد تركنا الكلام قدر الإمكان للاعبي الأدوار أنفسهم. إن كلامهم – الذي غالبًا ما يجري إيراده من جديد بألسنتهم – إنما يحمل قوة وشحنة أزمنة البدايات.

وسعيًا إلى الإبقاء على نكهته، فقد حافظنا في غالبية الحالات على تهجئة للكلمات الشرقية قريبة من التهجئة المستخدمة في أواخر القرن الثامن عشر. لكن الأمر قد استلزم– حرصًا على التماسك – توحيدها، بما في ذلك في غالبية الاستشهادات. ونأمل أن المستعربين سوف يستعيدون – دون صعوبة – الصيغ العربية الأصلية. ومن جهة أخرى، فقد اخـــترنا تهـجئة علمية مبسطة، مستخدمين الأحرف الإيطالية (المائلة)، للمصطلحات المتصلة بمؤسسات وبوظائف المجتمع شرق الأوسطي سعيًا إلى إبراز أصالتها الراسخة في وجه محاولات الفاتحين.

الفصل الأول

الحملة

جيوبوليتيكا التنوير

العالم القديم

شهد الشطر الثاني للقرن الثامن عشر تحولا ملحوظاً للجغرافيا السياسية العالمية، التي كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى. فدفعة واحدة، توصد أمريكا أبوابها في وجه التوسع الأوروبي: فحرب السنوات السبع تؤدي إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣)، وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصة إنجلترا التي تضطر إلى التسليم باستقلال ذاتي متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة، وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر– في مستقبل قريب – إلى الاعتماد على الولايات المتحدة. وكل الاعتبارات تسمح بتصور أن أمريكا اللاتينية – التي تملكها القوتان الأيبيريتان (أسبانيا والبرتغال) – سوف تتبع تطوراً مماثلا لتطور أمريكا الشمالية. وينتهي الفصل الأوروبي في تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهي أول إمبراطورية استعمارية أقامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية. ومع إدراك تحرر القارتين الأمريكيتين، يحل مصطلح «الغرب» محل مصطلح «أوروبا» للإشارة إلى المجال الجغرافي للثقافة الأوروبية.[١]

لم يكن العالم القديم قد تعرض بالكاد لتغير مبكر منذ القرن السادس عشر. ففي أثر التوسع الأوروبي في هذه الأرجاء يشهد القرن التالي انكفاءً، فالصين واليابان توصدان أبوابهما، والإمبراطورية العثمانية وفارس لا تسمحان إلا بعلاقات تجارية ودبلوماسية. والانغراس الإقليمي الأوروبي الحقيقي لا يوجد إلا في أرخبيلات المحيطين الهندي والهادي وفي بعض أقاليم أفريقيا.

إلا أن هناك استثناءً ملحوظاً: الهند. إن انهيار القوة المغولية يسمح ببروز توازن محلي بين القوى التي تستخدم في نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها، ومنذ

تلك الصين، في القرن الثامن عشر، يقف الفرنسيون والإنجليز وجهاً لوجه بالفعل في «لعبة كبرى» قاصرة على شبه القارة (الهندية– المترجم) هدفها السيطرة على تجارتها. وقد كسبتها إنجلترا خلال حرب السنوات السبع، فأصبحت بذلك قوة إقليمية، تشارك بلا مواربة في لعبة التوازن المحلي المعقدة، حيث يُؤدى نظام سياسي جديد مزدوج إلى الحفاظ في آسيا على توازن أوروبي هش، ففرنسا يمكنها العودة بشكل هجومي إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية المناوئة لإنجلترا؛ وروسيا كاترين الثانية تبدأ في التفكير في تغلغل صوب المحيط الهندي، مروراً بأفغانستان، الطريق التقليدي للغزوات البرية التي تستهدف شبه القارة الهندية.

إن الهند غواية وإنجلترا نموذج. أمَّا فارس فهي غير متاحة إلاَّ لروسيا. ومنذ عصر بطرس الأكبر، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية. لكن البلد ليس ضعيفاً بالدرجة التي يبدو عليها. والمغامرة غريبة العهد التي قام بها نادرشاه، الذي سارت جيوشه في بغداد إلى دلهي في ثلاثينيات وأربعينيات القرن، ما تزال حية في الأذهان للتذكير بذلك. ومع صعود سلالة القاجاريين الحاكمة، يبدو أن البلد يستتلو بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التي أثارت مشاعر أوروبا.

الإمبراطورية العثمانية

والإمبراطورية العثمانية أقرب (إلى أوروبا – المترجم)، وهي تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها، في القرن السابع عشر أيضاً، على حساب أوروبا المسيحية. وهذه الدولة العظمى تُعَدُّ – منذ القرن السادس عشر – مندمجة في النظام السياسي الأوروبي. وتُوجد في عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية. ومن حين لآخر، توفد الحكومة العثمانية رسلاً مفوضين إلى كبرى بلدان أوروبا. ويوجد تحالف تقليدي مع فرنسا.

لكن هذه الإمبراطورية تبدي علامات اضمحلال، والظاهرة معقدة، لعملية انهيار المركزية السياسية، والتي بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر، تشهد عندئذ أوجها. وتحت قيادة سلطوية من جانب الباشاوات الولاة على الولايات، تتشكل أشباه دول في الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية – الباب العالي – تجد صعوبة كبيرة في كسب

الانصياع لها، لكن الجميع يظلون داخل النظام العثماني. وإذا كان بوسع حروب أن تدور بين الولاة، فإنه لا توجد في الواقع حدود غير الحدود الإدارية، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء في اللعبة السياسية. والباب العالي، العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال، بالشكل الذي يتمداه، إنما يلعب على هذه التنافسات ويدير بمفرده ما يمكن تسميته بالتوازن العثماني.

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف للانضباط الداخلي. ومن جراء التعرض لضغوط قوية، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيرًا عن المجتمع المدني الإسلامي، لا تتمتع السلطة المركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الأداة العسكرية التي عرفتها زمن العصور العثمانية الأولى. وبينما يبلغ التحكم في سلوك الرجال، في أوروبا، ذروته في الانضباط البروسي، فإن الجيش العثماني يبدو مفككًا بشكل مطرد.

والشيء الأهم هو أن الإمبراطورية لا تعرف – في القرن الثامن عشر – نموًا سكانيًا مساويًا لنمو سكان أوروبا، التي تتحرر من الأسباب الرئيسية للارتفاع الكبير لنسبة الوفيات، فتدشن بذلك ثورتها الديموغرافية. ففي المجال العثماني الشاسع، تتكرر أوبئة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح الداء متوطنًا هناك، وثقل البداوة وانعدام الأمن – اللذين يؤكد البدو والتركمانيون هيمنتهما – يحدان من المجال الزراعي. وتزايد الضرائب ونظام جباية غير ملائم – بالرغم من التدابير التي اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه – لا يحفزان الفلاحين على زيادة إنتاجهم، على الرغم من ظهور تنويع للمحاصيل، بسبب طلبات السوق الأوروبية المتزايدة. وعلى المستوى الديموغرافي، تظل الإمبراطورية العثمانية في مرحلة تاريخ راكد، مرحلة تباين لعدد السكان بين قواعد متغيرة وسوف لن يتسنّى تجاوزه إلا في القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية. وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكننا رصد ارتفاع لعدد السكان في الولايات الآسيوية على الأقل، لكن هذا الارتفاع لا يتناسب البتة مع الأرقام الأوروبية.

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل فأقل قياسًا إلى جارتيها الطموحتين اللتين – تحت قيادة مستبدين مستنيرين – تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكري وتُشْرِفان بذلك – عبر الانضباط – على النمو الملحوظ لعدد السكان. وفي الشطر الثاني للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية، من جهة، والنمسا

وروسيا، من جهة أخرى، اختلالا حاسماً. وتوضح ذلك حربان: حرب ١٧٦٨ – ١٧٧٤، حيث تهب الإمبراطورية العثمانية، استجابة لنداء من فرنسا، إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية؛ وتُمْنَى الإمبراطورية بهـزائم مـريرة بحيث أن مستقبلها يصبح محـل شـك. وحرب ١٧٨٧– ١٧٩٢، حيث تنضم النمسا إلى روسيا، متصورة أن بوسعها المشاركة بذلك في اقتسام للبلقان مطابق لاقتسام بولندا. أمّا فرنسا الغارقة في قلاقل ما قبل الثورة، ثم في الثورة نفسها، فهي لا تهتم باللعبة، ويضطر العثمانيون للحاصرون إلى مناشدة بروسيا وإنجلترا، القادمتين الجديدتين إلى الساحة. ويؤدي التوتر المتزايد الذي أفرزته الثورة والتقسيم الثاني لبولندا إلى إنقاذ الإمبراطورية العثمانية – مؤقتاً في نظر المعاصرين – من الفناء الذي توقعه المراقبون الأذكياء.

فرنسا والشرق

بينما تبدأ الثورة، يرى الحس المشترك الأوروبي أن «المسألة الشرقية»، أي مستقبل الأراضي العثمانية، هي المسألة الجوهرية التي سوف تهيمن على أواخر القرن. وما يجري في فرنسا يبدو لكثيرين بمثابة حادث عابر لن يدوم طويلا، فسوف يحدث استقرار مؤقت للثورة ثم ترجع بالضرورة إلى الاهتمام بالشرق. (٢)

إن فرنسـا النظـام القـديم هـي الشـريك الأكبر للإمبراطـورية العثمانية، والشبكة التجارية الرائعة في ثغور شرقي البحر المتوسط، والتي أقامتها بأناة غرفة مارسيليا التجارية وأمانة الدولة للبحرية منذ زمن كولبير، إنما تجعل من فرنسا الدولة الأوروبية الأفضـل انغـراساً فـي العالـم العثمـاني. ويعمـل كـادر مؤلـف مـن القناصـل والتراجمة (المترجمين العليمين باللغات الشرقية) على مساعدة التجار الفرنسيين ويُطلعُ الملكية (الفرنسية– المترجم) بشكل دقيق على شتى المجريات المهمة في تلك المنطقة من العالم، ويؤدي مجملٌ إلزامي من الأحكام التنظيمية، تم إضفاء قدر من المرونة عليه في أواخر القرن – تحت تأثير الاقتصاديين – إلى احتواء كافة نشاطات الثغور، والحال أن تجارة شرقي البحر المتوسط، المراقبة بصرامة من جهة أخرى في فرساي، إنما تشهد مَـرْكَـزَةً حقيقيةً لها حول مارسيليا، دون تأطيرها بشركة قانونية. وهذا الرأسمال الراسخ في الدراية والخبرة يسمح بانتهاج سياسة متماسكة ومتمشية مع الحقائق الواقعية. (٣)

لكن ذلك ليس ممكناً تماماً إلاّ إذا ما واصلت الإمبراطورية الوجود، ومن هنا أهمية الجدل الذي دب بين القيادات السياسية الفرنسية منذ أواخر عهد لويس الخامس عشر، ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه إذا ما تفككت الإمبراطورية العثمانية وانحلت؟

لم تك هذه المناقشة تنتمي إلى عالم التجار المارسيليين. فالنظرة السياسية إلى المدى البعيد لم تكن تهمهم وهم لا يمارسون ضغطاً على حكومتهم. والأشخاص المعنيون هم في آن واحد بعيدون عن الغرفة التجارية المارسيلية وإلى جانبها. (٤)

فإلـى جانبهـا، نجـد تراجـمة مستشـرقين، مثل فينتور دو بارادي، وقناصل، مثل ماجاللون، وضباطاً ومستشارين عسكريين للباب العالي في ظل الملكية، كالبارون دو توت، وفي ظل الثورة، مثل لازوفسكي. وهؤلاء كلهم موظفون يحتلون مناصب مرموسة، وتدخلاتهم، على شكل خطط لفتوحات، لا تستمد شرعيتها إلاّ من الكفاءة التقنية لأصحابها. وهي آراء خبراء لا أكثر ولا أقل. وبعيداً عنها (عن الغرفة التجارية المارسيلية – المترجم)، نجد المستوى الأعلى للدولة، مديري الإدارة المركزية، كسان – ديديه، وسفراء فرنسا لدى القسطنطينية، كسان – بريه أو شواسول – جوفييه. وشخصيات بارزة، كلافاييت، ووزراء، كسارتين أو تاليران في ظل (حكومة – المترجم) الإدارة، بل و «وزيراً أول» كشواسول. (٥)

وأولئك الذين يمكن وصفهم بدعاة التدخل يرون أن شبكة الثغور محكوم عليها بالدمار من جراء وجود الإمبراطورية العثمانية ذاته. فإذا ما استولت روسيا والنمسا على الجزء الأكبر من المجال العثماني، فإن سياستهما التجارية سوف تؤدي إلى طرد الفرنسيين من هناك لا محالة. والصداقة العثمانية التقليدية لم يعد لها مبرر مع ضعف النظام القديم لتحالف نكبات، فالسويد لم تعد قوة عظمى؛ وبولندا بسبيلها إلى الزوال؛ والنمسا – منذ قلب تحالفات حرب السنوات السبع – تصبح الشريك الحتمي لفرنسا. ومن ثم، فإن هذه الأخيرة لا يمكنها بعد دعم إمبراطورية عثمانية مصيرها زوال سريع. على العكس، إن إنشاء امبراطورية استعمارية فرنسية في شرقي البحر المتوسط سوف يسمح بتعويض الخسارة المحتمة لجزر السكر، وذلك بفضل استثمار عقلاني لإمكانيات ضخمة غير مستغلة بسبب الاستبداد الشرقي. ومن شأنه أن يوفر لفرنسا السيطرة على تجارة ترانزيت، من شأنها أن تصبح إحدى أهم تجارات الترانزيت في العالم إذا ما توصلت إلى إعادة فتح طرق تجارية كطريق السويس، قليل الاستغلال منذ الدوران حول أفريقيا. وهناك

حجة إضافية تتمثل فى أن النمسا وروسيا تعرضان تعويضاً لتوسعهما بمنح فرنسا حصة كبيرة من الأراضى الآسيوية والأفريقية للإمبراطورية العثمانية تُعَدُّ مصر مركزها، ونادراً ما يُشار إلى إنجلترا فى مشاريع الفتح الاستعمارى هذه، وهى لا تظهر إلا فى ثمانينيات القرن الثامن عشر حيث تعزى إليها أطماع فى مصر وهذا التأكيد هو بوجه خاص وسيلة لانتزاع القرار النهائى من الهيئات الحاكمة.

والواقع الأساسى هو أن دعاة التدخل لا يفكرون من زاوية المجريات الواقعية المباشرة كالأوساط الاقتصادية المارسيلية، بل وفق تحليلات جيوبوليتيكية وتوقعات بعيدة الأجل. ومثل هذا التصور للمشكلات إنما ينتمى إلى مجال جهاز الدولة لا إلى مجال تجار يفكرون على المدى القصير.

وبالرغم من تصوراتهم المذهلة للمستقبل ومواقعهم الراسخة فى الإدارة، فإن دعاة التدخل يفشلون فى محاولاتهم الرامية إلى تعديل سياسة الملكية الآفلة. فحرب أمريكا التى تعبئ جميع الإمكانات المتاحة وتحرك ائتلافاً قارياً ضد إنجلترا التى لا تتمتع (وهو واقع فريد فى التاريخ الحديث) بتحالف نكبات ضد فرنسا، إنما تعنى بالتحديد عدم تدخل فى مجال جد حساس (كالمجال العثمانى – المترجم) بالنسبة لروسيا والنمسا. ثم إن الأزمة المالية التى عجلت بها نفقات هذه الحرب نفسها سرعان ما تتحول إلى أزمة سياسية وتلغى فى الحال كل مشروع مكلف لمغامرة شرقية.

وثمة رجل يجسد السياسة المضادة، هو فيرجان. فالسلم الأوروبى يبدو بالنسبة له قائماً على توازن قارى يحد من دور إنجلترا ويشكل عقبة أمام توسع روسيا الإقليمى. وهو يشارك بنشاط فى النهضة السياسية للسويد فى ظل جوستاف الثالث، الذى يجنب هذا البلد مصيرا مماثلا لمصير بولندا. وهو يحسب التحالف النمساوى بحرص حتى لا يزعج المصالح الأساسية لفرنسا. كما أنه يرى أن الإمبراطورية العثمانية، التى يعرفها معرفة جيدة لأنه كان سفيراً لوقت طويل لدى القسطنطينية، بعيداً عن أن يكون محكوماً عليها بالزوال، يمكنها على العكس من ذلك تجديد نفسها وتحديث نفسها. وهو يرى أن دور فرنسا هو أن تكون مهندس هذا المشروع، الضرورى للتوازن الأوروبى، والمفيد للجميع. إن فرنسا سوف تكسب من ذلك، علاوة على صون صدارتها فى الإمبراطورية، الفائدة الأدبية والسياسية المتمثلة فى كونها ملهمة أفكار التنوير التى يجرى إدخالها إلى العالم الإسلامى.

وشأنه فى ذلك شأن خصومه، لم يكن بوسع فيرجان أن يتصور إمبراطورية عثمانية

غارقة فى ركودها الواضح. فمثل هذا الوضع إنما يعنى دنو أجلها. وتتصل معارضة فيرهان لدعاة التدخل بطابع التحولات التى لا يمكن للشرق الإفلات منها، فهو نتيجة فرعية حتمية لتحول الغرب الذى حان، عشية الثورة الصناعية، الأسس العلمية والتكنولوجية والتربوية والثقافية الضرورية لتأكيد سيطرته على الطبيعة وعلى العالم. وبالنسبة لآخر وزير عظيم للملكية، فإن هذه التحولات لابد لها من أن تجىء من الداخل لا أن تفرض عن طريق سيطرة استعمارية. ومع بقائه ضمن استمرارية سياسة شرقية قوامها الصداقة مع الإمبراطورية العثمانية وترجع إلى القرن السادس عشر، فإنه يوسع حدودها بإرساء أسس تعاون ثقافى وعلمى فى إطار تجديدات الشرق. إنه ليس بالمحافظ الذى يصفه خصومه، بل هو حامل توقع سياسى للمستقبل أغنى من توقع دعاة التدخل. وموته لا يدع الساحة مفتوحة أمامهم، فمنذ ذلك الحين تؤدى مقدمات الثورة إلى إصابة الدولة الملكية بالشلل. (٦)

مفهوم جديد: الحضارة

إن المسألة تنتقل من المجال السياسى البسيط لتمس أسس التحليل الاجتماعى والثقافى عينها. فعلمنة الفكر لم تعد تسمح بوضع المسيحية فى مواجهة الإسلام. ولما كانت السيطرة الاستعمارية ذات أهداف اقتصادية خالصة، شأنها فى ذلك شأن السياسة التى ينتهجها الانجليز فى الهند، فإنها تستثير انتقادات مهمة فى عصر جد «أخلاقى» كأواخر القرن الثامن عشر. وكان نقد الاستعمار الذى صاغه أنصار التنوير قد نسف التبريرات الدينية المقدمة خلال تأسيس أول إمبراطورية استعمارية أوروبية. ولتبرير سيطرة جديدة، لابد من أيديولوجية جديدة، ترتبط ارتباطاً عضوياً بأيديولوجية التنوير الأعم.

ونقطة الانطلاق هى إدراك أوروبا لتفوقها المادى على مجمل البيئات الثقافية الأخرى. وهذا الحدث يرجع بشكل تقريبى إلى عام ١٧٥٠. فمنذ ذلك الحين، تظهر فكرة تأخر شرقى بشكل، بالإحالة إلى ماضى أوروبا، المعلم الذى لا غنى عنه لقياس التقدم الأوروبى. وإذا كان للشروع الاستعمارى ممكناً، فإن ذلك لا يرجع إلى اضمحلال شرقى ظاهر، يمكن التشكيك فيه فى الواقع، بل يرجع بالأحرى إلى أن أوروبا تملك إمكانات جديدة أرقى – بما لا يقاس – من إمكاناتها السابقة.

وهذا التفوق يفسره الغربيون من زاوية العقل، وهو عقل له تاريخ بل هو التاريخ

نفسه، فهو قد ولد في مصر، وانتقل عبر الإغريق والرومان، ثم عبَر العرب ووجد أخيراً مستقره النهائي في أوروبا، وهذه الأسطورة / التاريخ حديثة النشأة، حتى وإن كانت تستند إلى عناصر قديمة، وهي تقود إلى التأكيد على أن كل ثقافة، لا تنتمي إلى مسيرة العقل في المكان كما في الزمان، إنما تُعدّ بلا أهمية ومن ثم بلا شرعية، وهي تدار من جانب خصم العقل عينه، الاستبداد، وهذا الأخير، الذي لم يك شرقياً إلاّ من باب الاصطلاح لدى المنظرين الأوائل، يتمشرق في التحليلات السياسية عندما يتصل الأمر بتفسير وفهم تأخر الشرق. فالصينيون والفرس، نماذج الحكمة القدماء، والعثمانيون، موضع الرهبة والإعجـاب فـي الماضـي، ليسـوا بعـد غـير ضحايا تعساء خاضعين لنير لا يرحم يفرضه استبداد عدو للازدهار العام مثلما هو عدو لهناء الأفراد.

إن فهم تأخر الشرق إنما يعني العثور من جديد على تقدم أوروبا، وظهور مفهوم الغرب إنما يولَد من هذه المقابلة مع الشرق. والحدس الرئيسي للعلوم الإنسانية لزمن التنـوير هـو الاتحـاد الذي لا ينفصـل للمـادي والمعنوي في إطار التحليل الانتقادي. وكل مؤسسـة، كـل ممارسـة، كل سلوك لابد من فحصه بدقة عبر هذا التحليل للمزدوج المعيار. وهـو واثق علاوة على ذلك من أن درجة الازدهار (العام) وهناء (الأفراد) واحدة دائماً.

ومثل هذا التصور للعالم يسمح بتجاوز التناقض الذي طرحه روسو بين الطبيعة والمجتمـع. فمـع حـالة الطـبيعة، نقطة انطلاق التاريخ الإنساني، تتطابق حالة طبيعة في المجـتمع، تتـويج التاريـخ ذاتـه، المتمـيز بأقصى درجة ممكنة من الازدهار والهناء. وحركة التاريخ هذه اسمها الحضارة، التي لا تعتبر شيئاً آخر غير عملية تدجين العنف ومن ثم تدجين مشاعر الأفراد، وما التقدم التقني غير أحد أشكال هذه العملية، فمجمل الخبرة الإنسـانية إنما يقاس وفق معيار الحضارة.

وهذا المفهوم الدينامي للتاريخ لا يجد تعريفاً محدداً له بالفعل إلاّ في زمن الثورة. وإذا كانت كلمة «الحضارة» نفسها تظهر في منتصف القرن، فإنها لا تكتسب كامل مغزاها إلاّ في تسميديات القرن الثامن عشر، في أوساط الأيديولوجيين، الجيل الأخير من مفكري التنوير، والمشاركين النشطين في الثورة. إنهم يسعون إلى تغيير العالم وفق قواعد عقلانية وقد لعبوا دوراً عظيماً في مستهل الثورة، وكانوا ضحايا للإرهاب (اليعقوبي – المترجم)، لكنهم، بعد سقوط روبسبيير، يصبحون من جديد جد مؤثرين في الأوساط الحاكمة.

والحال أن المفهوم الجديد إنما يتضمن، بنزوعه إلى إعادة تعريف الممارسات الإنسانية تعريفاً عقلانياً، مجمل الطموح البروميثيوسي للثوار الفرنسيين. والحضارة، حركة التاريخ، تسمح أيضاً بتأسيس مفهوم مراتبي للماضي بين العصور والبلدان المنتجة أو العقيمة. وهي إذ تستعيد مراحل أسطورة – تاريخ العقل، إنما تسمح باستخلاص لحظاتها الأساسية.

والحضارة شرقية في نشأتها. فهي تولد في مصر حيث تتجلى على شكل الحكمة. وهي تنتقل بعد ذلك إلى اليونان وإلى روما حيث تصبح قبل كل شيء نزعة مواطنة. ويستأنف العرب حمل الراية فيبرزون الحضارة على شكل علوم. وهي تصل أخيراً إلى أوروبا وترث على مدار الزمن كافة خصائصها: أولا العلم، وهو جزء من التراث العربي، ثم، مع الثورة، نزعة المواطنة. والتاريخ الفني للثورة حافل بالصور الرومانية واليونانية والمصرية، ويجيء زمن الحكمة مع إنجاز البرنامج الثوري لإعادة تعريف التجربة الإنسانية تعريفاً كاملا. وهكذا فإن عقلانية التنوير والأيديولوجيين المعلنة تعاود استعارة التصورات الغنوصية والباطنية القديمة وتعبر الماسونية عن ذلك تعبيراً جيداً في إعلانها الدائم لانتسابها إلى مصادر مصرية وشرقية. وهي تنشر بشكل واع إلى هذا الحد أو ذاك هذه الأفكار وهذه الأساطير، التي تتغلغل من ثم في الأذهان، وبشكل مشوش، يشعر الجميع أن الشرق لا يمكن إلاّ أن يكون «الأصل». (٧)

وتسمح الحضارة بالحكم على حالة العالم عشية الثورة. فأوروبا هي الأكثر تقدماً في طريق الحضارة وهي بوجه خاص تتحرك. أما الشرق فإنه يظل في الخلف بسبب حاجز الحركة الذي لا يحتمل والذي يتمثل في الاستبداد. وأمّا المتوحشون فإنهم ليسوا إلا في بداية العملية. وبشكل مشروع، يمكن للمرء أن يتصور أن الشعوب التي كانت، قديماً، حاملة للحضارة، الشعوب المصرية والإغريقية – الرومانية والعرب، تُعدُّ مؤهلة للمشاركة في التجربة الجديدة للحضارة، والتي لن تكون بالنسبة لها غير استعادة لطبيعتها الحقيقية. ومما يدعو للدهشة أن البرنامج الثوري ينزع إلى أن يكون عودة إلى الأصول (هذا هو أحد معاني الكلاسيكية الجديدة المميزة للعصر الثوري). بل إن الأتراك الذين يمارسون الاضطهاد سوف يُحررون من اضطهادهم الخاص. ومن الواضح تماماً أن مثل هذا المشروع إنما يفترض تدمير هذا الوحش المتمثل في الاستبداد الشرقي. وهذا التدمير، الذي ترجوه كافة شعوب الشرق، لا يمكن أن يجيء إلاّ من الخارج.

وعبر الثورة، تجد فرنسا نفسها على رأس الحضارة. والثوار يعلنون طابعها العالمي. فمثل هذا البرنامج لا يمكن أن يكون قاصرا على أوروبا وحدها. وما أن يتم صد الأعداء المباشرين، سوف تمتد الثورة إلى مجمل الجنس البشري.

بونابارت والثورة والشرق

إخفاق الجمهورية

يؤدي فتح بونابارت لإيطاليا وانتهاء الحرب مع النمسا (١٧٩٧) إلى إطلاق أيدي المسئولين الفرنسيين أخيراً. وهكذا يمكن أن يبدأ عهد جديد. والحال أن تحرير الشرق، ونشر الحضارة، والتوسع الاقتصادي والسياسي لـ «الأمة الكبرى» والمتمم تماماً لهذا المشروع، قد وجدت، في بونابارت الشاب، الرجل العظيم ذا الأبعاد المتناسبة مع أبعاد مثل هذا البرنامج. لكن الثورة، حتى في اللحظة التي تبلغ فيها أيضاً أكبر توسع إقليمي لها، يظل بالإمكان تصور، كما تصور ذلك بعض معاصريها، أنها قد انتهت بالفعل.

والواقع أنه إذا كان يبدو أن على الثورة أن تمتد إلى مجمل العالم، فإنها قد أخفقت في عملها الداخلي. وكان الإرهاب قد أشار بالفعل إلى «انزلاق» في مشروع تأسيس حكومة نهائية، لكن التاسع من ثيرميدور (شهر الحرارة بحسب التقويم الثوري، ويوافق هذا اليوم التاسع ٢٧ يوليو ١٧٩٤، تاريخ الانقلاب المعادي لليعاقبة - المترجم) قد سمح بالتفكير في إمكانية إقامة جمهورية مستقرة تحترم شرعيتها الخاصة. والواقع أن الجمهوريين كانوا أقلية في عالم الوجهاء الذين أعطوهم السلطة مع دستور العام الثالث (للثورة - المترجم). وإذا يسعى الثيرميدوريون إلى تخليد وجودهم في مناصب المسئولية، وهي مسألة وجود شخصي بالنسبة لهم، فإنهم يصطدمون بالغالبية المنبثقة من التجديدات السنوية للمجالس النيابية. وهذه الغالبية، والتي لا تعتبر بالضرورة ملكية بل ليبرالية، إنما تهدد غلبة الكادر السياسي المنبثق من إعدامات المؤتمر (القيادي اليعقوبي. - المترجم). فهي، برعونة، تحارب الثيرميدوريين حول المسألة الجوهرية المتعلقة بمصير الفتوحات العسكرية التي شهدتها السنوات السابقة. فالمعتدلون، المتحرقون إلى السلم، مستعدون للتنازل عن الجزء الأكبر من الفتوحات. وقد أدركوا أن أوروبا لا يمكنها قبول هيمنة فرنسية ساحقة وأن الوصول إلى الاستقرار الداخلي إنما يمر عبر التسوية الإقليمية مع الخارج. ومثل هذا

للموقف يدفع العسكريين إلى مساندة الكاتو الجمهورى، ولكى يحافظ هذا الأخير على وجوده فإن عليه قبول مواصلة حرب الفتوحات والتجاوب مع مطالب الجنرالات، والتواطؤ بين العسكريين والجمهوريين بالغ السهولة بقدر ما أنهم يتكلمون بلغة سياسية واحدة وبقدر ما أنهم أخر ممثلين للزخم العظيم لعامى ١٧٩٢ - ١٧٩٣. ومن ثم فإن هوش على ضفاف الراين وبونابارت فى إيطاليا سوف يحفزان لاحتياجات «جمهورية» من جانب جنودهما وسوف يعملان بوجه خاص على تزويد السلطة التنفيذية بالعسكريين الضروريين لانقلاب ١٨ فروكتيدور من العام الخامس (للثورة - المترجم) (٤ سبتمبر ١٧٩٧) الذى يلغى الانتخابات ويقضى بالقوة على معارضة المجلس.

وحتى إذا كانت الوثائق التى تم العثور عليها بعد الانقلاب تسمح بكشف تواطؤ بعض الزعماء المعتدلين مع الملكيين والدول المعادية، فإن الضربة الموجهة إلى الجمهورية كانت قاتلة. فلم يعد هناك أحد يخامره وهم حول طابع حكومة لم تنجح قط فى أن تكون تمثيلية.

وهكذا يندرج العسكريون فى اللعبة السياسية. والحال أن مورو وهوش وبونابارت قد ورطوا حاشيتهم المباشرة. إن ديزيه وريبنيه وكليبر ومينو، قادة فرقة جيش الشرق فيما بعد، هم فى أن واحد شهود على صيف ١٧٩٧ المضطرب هذا وفاعلون فيه. (٨) ومع احتفاظهم بإيمانهم بمبادئ الثورة، يتعين عليهم التصالح مع الاعتراف بإخفاق دستور العام الثالث. وسوف يكون وزن كل ذلك عظيماً فى موقفهم تجاه بونابارت، المنقذ المحتمل.

والحال أن استئناف حكومة الإدارة لسياسة توسع أيديولوجى وإقليمى إنما يندرج ضمن منطق خيار فروكتيدور. والحرب النابوليونية تنبع منه بشكل مباشر. وفى خريف ١٧٩٧ هذا، يقدم بونابارت الشعار السياسى الذى يحدد هذا البرنامج، «الأمة العظمى». وأصل هذا التعبير غنى بالإيحاءات. فهو ينبع من الاسم الذى يعطيه، فى مراسلاتهم الرسمية مع الفرنسيين، مختلف القادة العثمانيين لولايات البلقان فى بحثهم عن صيغة بروتوكولية جديدة لمخاطبة هذا الواقع غير الواضح والذى تمثله الجمهورية الفرنسية. ونجد فى ذلك صدى البيانات التى وجهها الفرنسيون إلى العالم فى السنوات السابقة وعندئذ يدرك بونابارت أهمية هذه الصيغة التى تصبح بعد معاهدة كامبو - فورميو مع النمسا (٢٦ فينديميير من العام السادس، ١٧ أكتوبر ١٧٩٧)، التيمة الدائمة فى البيانات الحكومية. (٩)

بونابارت والشرق

إن الانتصارات الخرافية لحملة إيطاليا تبرز بونابرت في صدارة المسرح، وجيشه يعبده، والفرنسيون - المعادون في غالبيتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذاً محتملاً، ذلك الذي سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكاسبها. وهوش، منافسه الرئيسي الذي قام مثله، وربما أكثر منه، بدعم حكومة الإدارة ضد أغلبية المجالس، يموت في ١٩ سبتمبر ١٧٩٧. لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكري، أو إخفاق في محاولة إنزال في إنجلترا، التهديد بتعريض وضع لم يتعزز بعد للخطر.

ثم إن الشرق يجذبه بشكل عفوي.

ففي شبابه، قرأ وسجل ملاحظات على أعمال ماريني (تاريخ العرب) والبارون دو توت (مذكرات حول الأتراك والتتر). وعشية الثورة، كتب حكاية «عربية» قصيرة، «القناع النبي»، تحكي قصة شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ الإسلامي تحاول الظهور - بدافع من الرغبة في نيل المجد والقوة - في مظهر رسول للرب عبر اللجوء إلى مختلف أشكال الحيل، وينهي بونابارت الشاب عندئذ حكايته بالتساؤل: «إلى أي مدى يمكن للمرء دفع جنون الشهرة؟» (١٠). وسوف يرى فرويد في هذا العشق للشرق وخاصة لمصر أثر «عقدة جوزيف» لدى بونابارت، إرادة الانتقام من الأخ الأكبر، المنافس المكروه والذي يصبح فيما بعد أكثر من محبوب، بعد تسليط الكراهية على أشياء أخرى. إن الذهاب إلى مصر، الأرض الأثيرة ليوسف (جوزيف) التوراة، أو الزواج من جوزيفين (يوسفة، مؤنث جوزيف، يوسف - المترجم) لن يكونا غير تجليات لهذه العقدة الأصلية التي يستمد منها نابوليون كل قوته. (١١)

والحال أن إخوته يشاركون تماماً أحلامه الشرقية. ففي عام ١٧٩٣، يعبر لوسيان عن رغبته في إيفاده إلى السفارة الفرنسية في القسطنطينية (عاصمة الإمبراطورية العثمانية، اسطنبول - المترجم). وفي السنة التالية، كان بوسع جوزيف أن يفكر «في استغلال المساحات الشاسعة للإمبراطورية العثمانية» بفضل زواجه من فتاة اسمها كلاري كانت أسرتها مرتبطة بالتجارة المارسيلية في شرقي البحر المتوسط. وقد ثناه نابوليون نفسه عن ذلك مع تفكيره في عام ١٧٩٥ في الانخراط في صفوف الخبراء العسكريين المرسلين لخدمة سليم الثالث. وقد حالت أحداث ١٣ فينديميير دون أن يصبح رئيساً للبعثة العسكرية الفرنسية في القسطنطينية. (١٢)

وشأنه في ذلك شأن كثيرين من معاصريه، فإن مفهومه عن الشرق كان مزدوجاً

فمن جهة، نجد نقداً صارماً للاقتصاد السياسي: بلد استبداد واضطهاد، ليس فيه أي شيء إيجابي بالفعل، حيث يتوجب إعادة بناء كل شيء عبر إدخال الحضارة. ومن جهة أخرى، فإن هذا الغياب نفسه (للحضارة – المترجم) بالتحديد هو الذي يفتنه. فالشرق، بسبب تأخره، هو المكان الذي يمكن للمرء أن يحلق فيه «أشياء عظيمة»، إنه أرض الفاتحين والمشرعين العظام. وبونابارت هو ممثل الروح البروميثيوسية للثورة. وهو يرى أن بوسع المرء تحويل كل شيء وابتكار كل شيء في الشرق، بأكثر مما في أوروبا. (١٣)

وفي تأملاته، يقدم الشرق الميزة المزدوجة التي تتمثل في انتظار رجل وعدم الحد من أشواقه. إن ثورات تعلن عن نفسها في أرض الإسلام، وهي لا تستطيع بلوغ مراميها إلاَّ عبره. وعلى مدار حياته، وخاصة في زمن الأسف هذا الذي يمثله أسره في سانت – هيلين (في جنوب المحيط الأطلسي – المترجم)، سوف يشدد بونابارت على هذا الدور الذي كان مدعواً إلى لعبه والذي لم يتسن له تحقيقه إلاَّ بشكل جزئي. (١٤) وهو ينظر إلى نفسه باعتباره فاتحاً لا تمثل قوة السلاح بالنسبة له غير وسيلة. فهو سوف يحول هذا العالم بقوة الكلمات أساساً، ونموذجه هو محمد فولتير. والشخصية وحالة الشرق المعاصر تبدوان له متماثلتين:

انظر ماذا يكون محمد. نحن وحدنا؛ انصت:

طموح أنا؛ ولا مراء أنَّ كل إنسان طموح؛

لكن أي ملك أو حَبْر أو زعيم أو مواطن لم تدر بخلده قط رسالة في عظمة رسالتي.

كل شعب تفوق بدوره على الأرض بالقوانين، بالفنون، وبالحرب خاصة. وأخيراً جاء زمن بلاد العرب

هذا الشعب السخي، المنسي منذ زمن بعيد، سمع بطن مجده في صحرائه؛

والآن تحين الأيام الجديدة التي تحمل شارة النصر.

انظروا من الشمال إلى الجنوب خراب العالم، ما تزال فارس تنزف الدماء وعرشها يذهب أدراج الرياح؛

والبهاء يذهب عن أسوار قسطنطين؛

انظروا إمبراطورية الروم تسقط من جميع الجهات،

هذا الجسد الهائل الممزق، الذي يهوي أعضاؤه المبددون

مشلتين الآلاء بلا رمق؛

على أنقاض العالم هذه سوف تبنى بلاد العرب. لابد من دياة جديدة، لابد من نصال جديدة، لابد من رب جديد للكون الضرير.

[...]

أجيء بعد ألف عام، لتبديل هذه الشرائع الضالة؛

أحمل إلى أمم بأكملها عبودية أنبل؛ أزيل الأرباب الزائلين؛ وبيانتى الطاهرة

أول درجات عظمتى الوليدة.

لا تتهمونى البتة بأننى أغش وطنى

فأنا أدمر ضعفه ووثنيته.

أجيء لتوحيده فـــى ظل ملك، فـى ظل إله، ولا مفـر مـن إخضاعـــه حتى يكتب له المجد (١٠)

الاستشراق والثورة

هذا الشرق، الرومانسي بالفعل، هو محصلة قرن من الاستشراق. وبونابارت لا يخترع شيئاً، لكنه، بشكل أحسن من أى أحد آخر، يترجم كلية المعارف الاستشراقية لزمانه إلى عدد من المبادئ البسيطة.

إن هذا العلم، الذى تكون فى البداية ضمن إطار اهتمام عادى بالمعرفة الإنسانية، يجد نفسه مواجهاً بالضرورات التى أوجدها الانزلاق الذى لا يقاوم للتوسع الأوروبى نحو العالم القديم.

وفى زمن التنوير، لا يمكن بعد لنشر الدين المسيحى أن يكون مبرراً ذى مصداقية للنضال ضد الإسلام. لكن الإسلام بالتحديد، من حيث كونه القوة التى تكفل التلاحم للإمبراطورية العثمانية، إنما يظل العدو الذى تجب محاربته. والإمبراطورية العثمانية يُنظر إليها آنذاك على أنها النموذج الكامل للنظام الاستبدادى فى مظهره العسكرى. والأوروبيون يضعون عنصراً تركياً فاتحاً ومطلقاً فى تعارض مع كتلة من الجماعات السكانية المستغلة ولكن المستعدة للتمرد. وهم يشرعون بإيجاد مماثلة، فالأتراك هم المثيلون الشرقيون

للأرستقراطيات الإقطاعية في أوروبا، وغير الأتراك يشكلون فئة ثالثة شرقية حقيقية (مماثلة للفئة الثالثة الفرنسية التي كانت تتألف من غير النبلاء ومن غير رجال الاكليروس؛ أي من الفلاحين والحرفيين والبورجوازية - المترجم). واستلهاماً لصيغة سييس الشهيرة (في كتابه: ما هي الفئة الثالثة؟ [١٧٨٩] - المترجم)، فإن هذه الفئة الثالثة الشرقية هي كل شيء في المجال الاجتماعي ولا شيء في المجال السياسي وتتوق إلى أن تصبح شيئاً.

والتمردات اليونانية في أواخر القرن الثامن عشر هي البرهان الملموس على صحة هذا التفسير. فهذه الحركات، الدينية في جوهرها، تمكنت من اتخاذ الشكل الخارجي المطلوب لكي تكون مقبولة في نظر الغرب. والغرام الأوروبي بالهيلينية يرى فيها البعث القريب لليونان القديمة. أما البعد الديني، والواقع أن كلمة «يوناني» إنما تعني في ذلك العصر، حتى في البلقان، أحد أتباع المسيحية الأرثوذكسية وليس شخصاً يعبر عن نفسه باستخدام اللغة اليونانية، فهو بعد لا يوضع في المقدمة. إن الطائفة الدينية تعامل بوصفها أمة.

وكل شيء يجري إسقاطه على مجمل هذه الفئة الثالثة الشرقية: فالعرب والمصريون والأرمن واليهود ربما كانت لديهم القدرة على أن يصبحوا أو بالأحرى يصبحوا من جديد أمماً. ومن ثم فإن الحضارة سوف تمر، ليس عبر إنشاء أمم جديدة، بل عبر بعث الأمم القديمة. وهذا التصور طرحه الأيديولوجي والمستشرق فولني منذ عام ١٧٨٧ وأعاد التأكيد عليه في عام ١٧٩١ في «الأطلال». وقد استخدم بونابارت إيطاليا كمنصة تجريب لهذا المشروع الإحيائي الهائل.

إن هذا البعث الحديث للأمم هو الواقعة التي يخطط الجنرال الفاتح للاعتماد عليها. فالإمبراطورية العثمانية سوف تتفكك عبر ثورة شرقية عظمى، والأمم سوف تصطف خلف محررها؛ بونابارت وجيش الشرق.

والحال أن الإشارة إلى العصور الذهبية سوف تكون السمة الدائمة للخطاب الثوري الصادر عن بونابارت. فسوف يجري تذكير الفرنسيين بالغاليين وخاصة بالمآثر الحربية لإغريق الأسكندر وبرومان قيصر، وسوف يجري تذكير المصريين بجلال مصر القديمة، والعرب بأمجاد سلالاتهم الحاكمة في زمن الخلافة.

مفارقة بونابارت

إن مصدر قوة بونابارت إنما يكمن في هيمنته الأبدية على الوسائل وقدرته، في ذلك العصر على الأقل، على حسابها بدقة في الوقت الذي تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد. وعلى الرغم من انه كثير الكلام، فإنه رجل وحيد. وما أندر الأفراد الكبار الذين كان يمكنه الإفصاح لهم بما يعتمل في صدره. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتشف تاليران، العائد من منفاه في الولايات المتحدة ليصبح – بفضل حسه التآمري – وزيراً للعلاقات الخارجية (١٦ يوليو ١٧٩٧). والرجلان لم يلتقيا من قبل. إنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابارت فيها أن الوزير يفكر مثله في مصر، وهو يكشف له آنذاك عن التوتر القائم في فكرة بين الخطاب السياسي للتهوس الذي يوحي به الأيديولوجيون – والاثنان تلميذان لهما – والبعد شبه الكوني لغاياته والواقعية الناجمة عن الحساب الدائم للوسائل. (١٦)

وهو يشير إلى أنه لا يؤمن، من زاوية الفعالية على الأقل، ببياناته الخاصة بإحياء الإيطاليين. «منذ أن كنت في إيطاليا، لم أجد البتة عوناً في حب الشعوب للحرية وللمساواة، أو أن هذا العون، بالأحرى، كان عوناً هزيلاً للغاية. لكن الانضباط الرائع للجيش، مع الاحترام الكبير الذي نكنه كلنا للجمهورية، والذي وصلنا به إلى حد التزلف لوزراء العدل، وخاصة النشاط الكبير والسرعة الكبيرة في قمع ذوي النوايا الشريرة وفي معاقبة أولئك الذين يجهرون بالعداء لنا، كان العون الحقيقي لجيش (حملة – المترجم) إيطاليا: ذلك هو الواقع التاريخي. وكل ما لا يكون جميلاً إلاّ إذا قيل في بيانات وخطابات مطبوعة لا يعدو أن يكون روايات».

إن الشيء الجوهري يكمن في حسابات الوسائل: «فالمرء لا يمكنه الوصول إلى غايات عظيمة ولا يمكنه اجتياح جميع العقبات إلاّ بالتعقل، بالحكمة، بالحذق الكبير؛ وإلاّ فإنه لن ينجح في أي شيء. ولا يفصل بين النصر والسقوط غير خطوة واحدة. وقد رأيت، في أضخم الظروف، أن مالا يُحسب له حساب قد قرر دائماً مصير أعظم الأحداث».

وتكمن المفارقة في اجتماع وهج الخيال وبرودة الوسائل، «إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسة الحقيقية، وهي ليست غير نتيجة الحساب والتوليفات والفرص، فسوف نكون لزمن طويل الأمة العظمى وحَكَمَ أوروبا؛ وأنا أقول علاوة على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن، وأننا سوف نجعله يميل كما نشتهي، بل إنني – وهذا هو حكم القدر – لا أرى استحالة في أن يصل المرء في غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج العظيمة التي يحلم بها الخيال الجامح والمتقد، وأن الإنسان البارد في تقديره للأمور والصبور والحكيم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها».

إن هذا الاجتماع لجموح الخيال ولبرودة الحسابات، والذي سوف يميز بونابارت في مصر، إنما يتكون في إيطاليا عندما يفتتح طريق الشرق مع تدمير البندقية وفتح الجزر الأيونية خلال صيف ١٧٩٧. وهو يرى، منذ تلك اللحظة، أن هذا الفوز الجديد يُعدّ حيوياً بصورة مطلقة، فهو القاعدة الضرورية لكل مشروع في شرقي البحر المتوسط.

الانزعاجات الروسية

هذا التوسع الثوري الجديد يزعج كثيرين، خاصة العثمانيين والروس. فبالنسبة للأوائل، تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافي، فملكية النظام القديم لم يكن بوسعها أن تستهدف الأرض العثمانية. لكن استقرار الفرنسيين في الجزر الأيونية، واتصالاتهم مع اليونانيين المستعدين دائماً للتمرد، بينما يميل كبار الباشوات (الولاة – المترجم) إلى زيادة درجة استقلالهم (عن الباب العالي – المترجم) بلا توقف، ليس من شأنه إلاّ أن يزيد انزعاجات الباب العالي. أمّا فيما يتعلق بالروس، فإن هذه الدعاية نفسها الموجهة إلى اليونانيين، إنما تهدد بخلق منافسة رهيبة لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد المفيدين لهم منذ عام ١٧٧٠. ثم إن سان بطرسبورغ، وهو ما يشكل مفارقة مميزة لكل وضع دبلوماسي معقد، تخشى من أن يؤدي التدخل الفرنسي إلى تقديم عون لإمبراطورية عثمانية يسبيلها إلى الاستسلام في أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية. إن عملاً فرنسياً في البلقان انطلاقاً من البحر الأدرياتي إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالسيطرة على تلك المنطقة، والوجود الفرنسي في البحر الأدرياتي يعدل التوازن السياسي في البحر المتوسط ومن ثم في أوروبا.

تاليران

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه في البحر المتوسط هو تاليران. فهو وريث

دعاة التدخل فى زمن الملكية الآخذة بالزوال. وقد عرف شوازسول وتعرف على المسائل الشرقية من الدبلوماسيين الذين تولوا مناصب فى الشرق. وتريد، فى الولايات المتحدة، على فولنى الذى كان عليه أن يكون أول من يطلعه على شخصية بونابارت وعلى مصر نفسها. (١٧)

وعلى المستوى السياسى، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية يثمر شيئاً وقد أدت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور. والانحطاط العثمانى لا علاج له. وقد استنفدت فرنسا نفسها بلا طائل فى دعم إصلاحات مستحيلة. واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الوسيلة الوحيدة لمهاجمة انجلترا فى الهند.

والهند، فى أواخر القرن الثامن عشر هذه، هى العماد الرئيسى للقوة الإنجليزية. إنها لم تصبح بعد سوقاً كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التى زادتها الثورة الصناعية الإنجليزية. وهدف جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية. وفى ذلك العصر، بفضل عمل جماهير غفيرة من الحرفيين، تعتبر صناعة القطن أول صناعة فى العالم، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها، وحجم صادراتها. ثم إن الهند، عبر شبكاتها التجارية، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية. وفى أواخر القرن الثامن عشر، تسيطر إنجلترا، بفضل عملها الدءوب، على نسبة ٨٥ إلى ٩٠ فى المائة من تجارة الهند الخارجية. (١٨)

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد، فإنه تاليران أساساً. وخلال إقامته فى الولايات المتحدة، فكر فى عدة مشاريع للمضاربات التجارية. (١٩)

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع القارتين الأمريكيتين تظل الأهم. والشىء الرئيسى هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذى تلعبه بداية الثورة الصناعية فى اقتصاد الجزر البريطانية، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا فى السنوات الأخيرة للنظام القديم. وبالنسبة لأهل القارة، فإن سر القوة الإنجليزية لا يمكن إلا أن يكون كامناً فى تجارة إنجلترا، وهى ظاهرة جد مصطنعة، قياساً إلى الرسوخ الطبيعى، الزراعى، للسكان الفرنسيين، وهذا البنيان التجارى الهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوى، التجارة الهندية. (٢٠) والمسؤولون الإنجليز يتقاسمون هذا التفسير نفسه للمجريات الواقعية. فبالنسبة لهم هم أيضاً، لا تُعَدّ إنجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند. وقبل أن يمر أسبوع على تعيينه

ومنوا، يوجه تاليران إلى (حكومة) الإدارة، فى ٢٣ يوليو ١٧٩٧، ثلاث مذكرات تدعو فى النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقاً من الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى. (٢١)

ومن ثم يجرى تدشين المشروع الهندى عندما يُبلغ بونابارت (حكومة) الإدارة، فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧، بفتح الجزر الأيونية ويختتم رسالته قائلاً: «لن يمر وقت طويل حتى ندرك أننا، لكى ندمر انجلترا فعلاً، يجب أن نستولى على مصر. إن الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف والتى تهلك كل يوم إنما تملى علينا التفكير فى اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التى تسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا فى شرقى البحر المتوسط».

وفى اليوم نفسه، يكتب إلى تاليران: إن مما لا طائل من ورائه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا؛ إننا سوف نشهد سقوطها فى أيامنا [...] وكورفو وزانت تجعلاننا سادة للبحر الأدرياتى ولشرقى البحر المتوسط».

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس: «لا شيء أكثر أهمية من اعتمادنا على ألبانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية فى أوروبا، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط، كمصر خاصة، التى يمكننا أن تصبح عظيمة النفع لنا» . (٢٢)

القرار

بونابارت فى باريس

وهكذا، فمنذ صيف ١٧٩٧، تلتقى أفكار تاليران وبونابارت، رغم اختلاف الدوافع، حول حملة مصر. وهما بحاجة إلى مؤازرات واحدة. ففى ٣ يوليو ١٧٩٧، ذكر تاليران الجمهور فى مذكرته الموجهة إلى المعهد الوطنى، حول الفوائد المترتبة على إيجاد مستعمرات جديدة فى الظروف الحاضرة، بمشروع شوازول. والحال أن المعهد الوطنى، حديث التأسيس، إنما ينبثق من وسط الأيديولوجيين جد المؤثرين فى السياسة الجمهورية.(٢٣)

وبونابارت يدرك ذلك، فهو عند عودته من إيطاليا، يصبح منتخباً هو أيضاً فى المعهد ويبرز فى بياناته إلى الجنود انتماءه إلى تلك المؤسسة. وهكذا يظهر بونابارت وتاليران، فى تلك اللحظة من تاريخهما، كممثلين للأيديولوجيين فى الأوساط الحاكمة. (٢٤)

والواقع أن العودة إلى استقلال أوروبى نسبى، منذ معاهدات بال فى عام ١٧٩٥، إنما

تسمح بعودة ظهور مذكرات، موجهة إلى المسئولين السياسيين الفرنسيين، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية في مصر. وما ذلك غير أمارة على أن تراخي الحرب الثورية يعيد المسئولين السياسيين تدريجياً إلى مشكلات ما قبل عام ١٧٩٢.

وصلح كامبو – فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧) مع النمسا لا يترك بعد غير خصم عنيد واحد، هو إنجلترا. وبما أنها لا تملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لا يمكن مواصلته إلا عبر «نزول» على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند. هذا هو الخيار الذي تفرضه قوة الأشياء على زعماء «الأمة العظمى».

وفي ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧، يحمل بيرثييه ومونج، رفيقا بونابارت الوفيان، نص معاهدة كامبو – فورميو إلى باريس. ويتمثل القرار، المتخذ في اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة، في الأمر بتكوين جيش لحملة انجلترا تحت قيادة بونابارت. ويتولى ديزيه قيادته مؤقتاً بينما يشارك بونابارت في مفاوضات راستات حول تطبيق بنود معاهدة كامبو – فورميو على ألمانيا. (٢٥)

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧، يبدأ الجهاز الإداري لحكومة الإدارة في تنظيم جيش انجلترا. إن النزول ممكن، إذا ما توافرت، في لحظة محددة في نقطة محددة، هيمنة على البحر تكفي لنقل الجيش الفرنسي. ولكي يتسنى ذلك، لابد من توافر المبادرة في العمليات ولابد من توافر عدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعياً إلى إرباك إنجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة الفرنسية. وسوف يجيء الجانب الرئيسي من «الجيش الكبير» في إيطاليا بينما يصدر بونابارت الموجود بعد في موقعه، الأوامر الضرورية.

وهو يصل إلى باريس في ديسمبر ١٧٩٧. ويقابل لأول مرة تاليران. ويحمل فاتح إيطاليا معه التصديق الذي قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو – فورميو. ويقدمه إلى حكومة الإدارة في اجتماع مهيب في ١٠ ديسمبر ١٧٩٧. ويتميز خطابه بالتصور السياسي شبه الخلاصي الذي تبناه الأيديولوجيون: «إن أجمل جزأين في أوروبا، جد الشهيرين في سالف الزمان بالفنون وبالعلوم وبالعظماء واللذين كانا مهداً لهم، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من لرماس أسلافهما».

والحال أن روح الحرية، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية، قد أبرزها فولني في «الأطلال» في عام ١٧٩١. وفي هذا النص، فإنه يجعل الروح (بألف ولام التعريف – المترجم) تتنبأ بانهيار الإمبراطورية العثمانية،وببعث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ «الأمة العظمى» في هذا المشروع. وفي ذلك العصر، يُعدّ الأيديولوجي فولني الولي الفكري والسياسي لبونابارت الشاب. (٢٦)

والصورة واضحة، فالمسألة هي مسألة بعث قومي، كما أن بونابارت ينبه حكومة الإدارة: «عندما ترتكز سعادة الشعب الفرنسي على أفضل القوانين الأساسية، سوف تصبح أوروبا كلها حرة».

والحال أن دستور العام الثالث، بعد انقلاب ١٨ فروكتيدور، هو دستور بالغ الهشاشة بالرغم من استئناف الزخم الثوري لـ «الأمة العظمى». وفي مراسلاته مع تاليران، كان بونابارت قد فكر بالفعل في مشروع إصلاح دستوري ينطوي على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية. (٣٧)

الجيش وحكومة الإدارة

عند وصوله إلى باريس، اقترح عليه جنرالات مثل مورو وكليبر وكافاريللي تنظيم انقلاب جديد يضع حداً لنظام حكومة الإدارة، وهم يقدمون إليه هيبتهم في جيوش حملة ألمانيا. وهؤلاء الجنرالات كلهم يواجهون بهذه الدرجة أو تلك صعوبات مع حكومة الإدارة. فمورو، بسبب موقفه في ١٨ فروكتيدور، كان قد أحيل إلى الاستيداع. أمّا كليبر، الجمهوري المخلص، فقد عانى باستمرار من تصدي لجنة الخلاص العام في وقت كان يمكن لذلك أن يعني فيه إعدامه ولم يك يحتمل عيوب الحكومة. وهو يلوم الحكومة على أنها، خلال حملة ألمانيا الكبرى في عام ١٧٩٦، قد تركت الجيوش الجمهورية في شلله مريع مع سيطرتها جد الصارمة على تحركاتها من باريس. وهو يُحمّل حكومة الإدارة المسئولية عن فشل الحملة بينما تمكن بونابارت في إيطاليا من التخلص من تعليمات كارنو ونجح، اعتماداً على خيرات البلاد، في أن يوفر للجنود أخيراً شروط وجود لائقة. وقد أثر الجنرال الألزاسي عندئذ التنحي.

أمّا كافاريللي، المولود في عام ١٧٥٦ لأسرة تنتمي إلى صغار النبلاء، فهو نتاج المدارس الحربية التي عرفها النظام القديم، خاصة مدرسة ميزيير الهندسية. وهذا القارئ لأعمال الفلاسفة، يرشح نفسه للأركان العامة، لكنه لا ينتخب. وهو يستأنف الخدمة في عام ١٧٩١ ويجرب الاعتقال في زمن الإرهاب (اليعقوبي – المترجم). وهو يشارك كليبر في حملات ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ولما كان صاحب عقل رائع، فهو ينتخب عضواً في المعهد في عام ١٧٩٦ في شعبة العلوم الأدبية والسياسية. ويعتبره مؤرخون تالون له أحد رواد الاشتراكية الطوباوية. ونحن لا نعرف متى أصبح صديقاً حميماً لبونابارت، الذي يقدم إليه كليبر.

أمّا ديزيه، المولود في عام ١٧٦٨، فهو ينحدر هو الآخر من صفوف النبلاء وهو

خريج مدارس عسكرية فى زمن الملكية. وبالرغم من أن تأييده للثورة كان مخلصاً بالرغم من الضغوط العائلية، فقد أدانه اليعاقبة مراراً بوصفه أرستقراطياً. وقد لمع فى العمليات فى ألمانيا، وخلال صيف ١٧٩٧، استفاد من توقف الأعمال الحربية لكى يزور فاتح إيطاليا وقد أصبح أحد المقربين إليه. وقد حدثه بونابارت عن مشروعاته الشرقية. (٢٨) ولا يبدو أنه كان شريكاً فى المؤامرة، التى أصبحت أسهل من جراء موت هوش الذى كان هو نفسه ضحية لليعاقبة. وقد اقترح فى المقابل على بونابارت انقلاباً بقيادته هو. (٢٩)

ويرى بونابارت أن من السابق لأوانه التخطيط للإطاحة بحكومة الإدارة عبر انقلاب عسكرى (٣٠). لكنه يعرف الآن أن كوادر جيش حملة ألمانيا مستعدة لدعمه وأن عداء الجيش لليعقوبية، والذى يترافق مع ضغط متزايد على عجز حكومة الإدارة عن تصريف شئون الحكم بشكل جيد، يمكن أن يكون سنداً له فى تحقيق طموحاته. وعليه أن ينتظر تآكلا أكبر للسلطة، مع حفاظه على رأس مال الثقة الذى عادت عليه به انتصاراته فى إيطاليا ودعايته حول فكرة «الأمة العظمى». وحتى إذا كانت حكومة الإدارة تجهل تفاصيل أفكار بونابارت السياسية، فإنها تملك أسباباً جدية للانزعاج من أفكاره ومن مشاريعه.

فى الحادى عشر من ديسمبر، تحدد حكومة الإدارة المواقع المختلفة للحشد البحرى، من البحر الأدرياتى إلى بحر الشمال. وهذه الحكومة التى سوف يصورها الأحفاد على أنها ضعيفة وعديمة الكفاءة، إنما تمتلك خبرة رهيبة فى استخدام الإمكانات الحربية، وهى خبرة موروثة من نحو ست سنوات من الحرب المستمرة. وتبدأ بشكل عام حركة نقل لوحدات بحرية وبرية من إيطاليا إلى فرنسا.

وفى يناير ١٧٩٨، يبدو مشروع النزول (على الجزر البريطانية – المترجم) بسبيله إلى التحقق، لكن تعقيدات سياسية تظهر على المسرح. ففى روما، يلقى الجنرال دوفو حتفه خلال عصيان. وتأمر حكومة الإدارة بيرثييه، الذى خلف بونابارت فى قيادة جيش حملة إيطاليا، باحتلال روما. ويستولى الفرنسيون أيضاً على ميناء سيفيتا – فيتشيا المهم، وهو ما سوف يسمح بتخفيف أعباء ميناء طولون. ويجرى طرد البابا من روما ويتم إعلان جمهورية رومانية (نسبة إلى روما لا إلى رومانيا – المترجم) فى ١٥ فبراير ١٧٩٨.

وفى ١٢ يناير ١٧٩٨، تحدد حكومة الإدارة الوحدات المشاركة فى جيش حملة إنجلترا. وهى تعزز أعداده القادمة من جيش حملة إيطاليا بقوات قادمة من جيوش أخرى. ويقود هذا الجيش الهائل الكبير ثمانية عشر جنرال فرق وسبعة وأربعون جنرال ألوية وواحد وعشرون جنرالا مساعداً وثلاثة عشر قائد ألوية مدفعية وأربعة قادة ألوية هندسة.

إنجلترا أو مصر

فى فبراير ١٧٩٨، يتجه بونابارت إلى فحص الإمكانات التى تتيحها الموانئ المواجهة للبلاد الواطئة (بلجيكا - المؤلف) بينما يتفقد كافاريللى الشمال، ويتفقد كليبر نورماندى، ويتفقد ديزيه بريتانيا. ويدرس جميع هؤلاء الجنرالات ببالغ الدقة إمكانات نجاح النزول ويتهمكون على الساحة فى أعمال تمهيدية.

وخلال تلك الوقت، فإن أسطول البحر الأطلنطى، تحت قيادة بروى، بدلا من أن يتجه إلى بريست كما كان متوقعاً، يتجه إلى طولون. والسبب الرئيسى هو نقص الملاّن الذى لا يسمح له بالإبحار مباشرة فى البحر الأطلنطى. ولا يعود بإمكان بونابارت الاعتماد على هذا الأسطول لحماية الإنزال فى إنجلترا.

وفى ٢٣ فبراير، يوجه بونابارت إلى حكومة الإدارة تقريراً لا يخفى مصاعب المشروع: «إن حملة إنجلترا لا تبدو من ثم ممكنة إلا فى العام القادم؛ على أن من المرجح أن المتاعب التى سوف تحدث فى القارة سوف تعترض سبيلها. وربما تكون اللحظة المناسبة للاستعداد لهذه الحملة قد ضاعت إلى الأبد».

وإذا ما تخلى المرء عن النزول فى إنجلترا، فإنه لا يبقى عندئذ غير حلّين للنضال ضد هذه القوة البحرية، والحل الأول هو انتزاع هانوفر منها والاستيلاء على هامبورج فى ألمانيا، وبمعنى آخر، تكثيف الحصار الاقتصادى الذى خاضته حكومة الإدارة ضد إنجلترا منذ الانتصارات الفرنسية لعام ١٧٩٧. ويتألف هذا الحل من الانخراط فى عملية توسع لا حدود له سعياً إلى سد ثغرات الحصار القارى. وسيكون ذلك هو حل نابوليون بعد عشر سنوات، بما يشير إلى التواصل بين سياسة حكومة الإدارة وسياسة الإمبراطور.

أمّا الحل الثانى فهو: «القيام بحملة فى شرقى البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند». ولابد من ملاحظة أن بونابارت يدرك خطر «العقبات الأوروبية»، تشكل «ائتلاف ثان» ضد فرنسا، حتى وهو يقترح حملة شرقية.

وتجرى دراسة تقرير بونابارت فى ٢٤ و ٢٥ فبراير. وعلى مدار أسبوع أيضاً، تكثف حكومة الإدارة التدابير التحضيرية للنزول. لكن ديزيه، الذى يرجع من بريتانيا فى ٢٧ فبراير، يبدو جد متشائم بشأن حالة القاعدة البحرية الفرنسية الرئيسية، قاعدة بريست. ووزير البحرية يؤكد مشروعية مخاوف ديزيه.

منئذ تتخلى حكومة الإدارة عن مشروع النزول. والحق أن تاليران يقترح عليها، منذ بعض الوقت، خطة عمل أخرى.

إن تاليران هو ممثل الاتجاه الاستعماري المنبثق من النظام القديم. ومنذ صعوده إلى منصب وزير العلاقات الخارجية، تسنّى له جمع المشاريع المتراكمة منذ ثلاثين سنة. وتعليماته المؤرخة في ١٩ يناير ١٧٩٨ والموجهة إلى برنانوت، الذي عُيِّنَ سفيراً في فيينا، إنما تتميز بهذه الشواغل التدخلية: «من المؤكد أن كاترين وجوزيف قد فكرا في اقتسام تركيا. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن وريثتهما لم يتخلوا عن هذه الخطة. وقد سعت فرنسا في الزمن الغابر مراراً إلى تعزيز هذه الدولة إلى حد ما؛ لكن جميع هذه المحاولات ظلت غير مثمرة، ولم تؤد إلا إلى التعجيل بخراب العثمانلية. واليوم، فإن الجمهورية عازمة بثبات على عدم السماح لخراب الباب العالي أن يتم دون أن تكفل لنفسها حصة جد ملحوظة حتى لا يتسنى تجريدها من تجارة البحر المتوسط». (٣١)

وترد مذكرات جديدة في تلك اللحظة، خاصة مذكرات لازوفسكي، مفهد سلاح الهندسة البولوني الأصل (كانت أسرته قد رافقت ستانيسلاس ليجينيسكي في اللورين) والذي أوفدته الجمهورية كمدرب للجيش العثماني، ومذكرات ماجاللون، القنصل فرنسا في الإسكندرية.

والحال أن لازوفسكي، الذي تحمل مذكرته تاريخ ٤ يناير ١٧٩٨، إنما يؤكد على الانحطاط العسكري للإمبراطورية العثمانية. وعلى ضرورة اشتراك فرنسا في اقتسام الإمبراطورية وفتح مصر، الذي سوف ينتزع «المصري المُمَجَّدُ من العبودية التي يرزح تحت نيرها منذ زمن طويل». (٣٢)

أمّا ماجاللون «الذي أقام في مصر لمدة ثلاثين سنة كتاجر ولمدة خمس سنوات كقنصل للجمهورية»، فهو نصير قديم لفتح مصر. وشأنه في ذلك شأن فينتور دو بارادي، فإنه يتمتع بدراية متخصص بالشئون المحلية. وهو يقضي أجازته في باريس في الفترة الحاسمة لأواخر عام ١٧٩٧. وتاليران يطلب منه إعداد مذكرة عن مصر، يفرغ من كتابتها في ٩ فبراير ١٧٩٨. وينهل تاليران منها عندما يقدم مذكرته الخاصة إلى حكومة الإدارة في ١٤ فبراير ١٧٩٨.

والأسلوب قريب من أسلوب بونابارت: «لقد كانت مصر ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية. ولابد من أن تصبح ولاية من ولايات الجمهورية الفرنسية. لقد كان فتح الرومان

(لمصر – المترجم) عصر انحطاط لهذا البلد الجميل. أما فتح الفرنسيين له فسوف يكون عصر ازدهاره».

وهو يصف بشكل سريع النظام السياسي المصرى ليتوصل إلى أن مصر لا يمكن أن تعتبر – منتمية بعدُ – إلى الإمبراطورية العثمانية. إن المماليك يضطهدون التجار الفرنسيين والسكان المصريين وسوف تحمل «الأمة العظمى» الازدهار إلى الجميع بفضل استغلال عقلانى للبلد. وعبر إعادة فتح طريق السويس، سوف يجرى توجيه ضربة قاتلة إلى التجارة الإنجليزية فى الهند.

والحكومة العثمانية جد منشغلة بالمتاعب البلقانية بحيث لا يمكنها التدخل فى مصر وسوف يكون بوسع مفاوض بارع (يفكر تاليران فى نفسه)، يجرى إرساله إلى القسطنطينية، أن يحصل على اعتراف من الباب العالى بالوجود الفرنسى (فى مصر – المترجم) فى مقابل الاعتراف بالسلطة الاسمية للسلطان على البلد. أما إنجلترا فهى مشلولة بالخوف من نزول الفرنسيين القريب فى الجزر البريطانية. ودول القارة الأوروبية تخشى من حرب مع فرنسا. ولن تصمد قوة المماليك العسكرية طويلا فى وجه الفرنسيين الذين سوف يستقبلهم المصريون كمحررين. والحال أن الفتح سوف يكون سريعاً ويمكن إرسال قوة حملة فرنسية ثانية عبر البحر الأحمر سوف تدعم انتفاضة شاملة من جانب الأمراء الهنود ضد الإنجليز. ومن ثم فإن فتح مصر يعتبر «سهلا بل ومضموناً». ولابد من اتخاذ القرار فوراً بسبب نظام الرياح فى البحر المتوسط وفى البحر الأحمر.

وربما لم يحدث من قبل قط أن مذكرة أعدها دبلوماسى كبير وسياسى شهير قد كذبتها الأحداث التى تلتها كما حدث لهذه المذكرة...

القــرار

إن حكومة الإدارة تجد نفسها مضطرة إلى التخلى عن مشروع النزول فى إنجلترا والذى اعتبره العسكريون غير عملى. ومن شأن التدخل فى ألمانيا أن يعقد وضعاً شائكاً بالفعل ولن يهدد بإشعال الحرب القارية. ومشروع فتح مصر مشروع بالغ الجاذبية. وبوسعه أن يجبر إنجلترا علـى عقـد صلـح يعـترف بهيمـنة الأمـة العظمى على القارة الأوروبية. وهناك احتمال لثورة من جانب الفئة الثالثة الشرقية بحسب آراء المتخصصين

وهى تتطابق مع مالية البرنامج الثورى. وسوف تنتزع الأمة العظمى من ذلك مكاسب اقتصادية وتجارية ملحوظة. ويبدو أن تاليران وبونابارت على اقتناع بحججهما ويبدو أنهما على ثقة من أن مخاطر المشروع قليلة. والنشر العالمى لمبادئ الثورة يستهوى جميع أولئك الرجال السياسيين القريبين إلى هذا الحد أو ذاك من الأيديولوجيين. ثم إن بونابارت جد مزعج فى فرنسا، ومن شأن ابتعاده عنها أن يكون مريحاً.

ومن ثم فإن السلطة التنفيذية تقبل المشروع فى ٥ مارس ١٧٩٨.

ويبدو أن الجميع قد نسوا، وأولهم بونابارت، خطر «الإحراج» الأوروبى المنتظر فى عام ١٧٩٩، والذى كان قد أشير إليه مع ذلك قبل أيام قليلة.

تنظيم الحملة

الجيــش

كان تاليران قد أكد فى تقريره على ضرورة الوصول بسرعة إلى مصر. على أن السرعة التى جرى بها تجهيز الحملة تعتبر مذهلة. لقد كانت التدابير المتخذة للنزول فى إنجلترا جد مفيدة، إلا أنه لابد الآن من تركيز كل شىء على طولون وبشكل إضافى على مارسيليا وجنوه وسيفيتا - فيتشيا. وفى يوم صدور القرار نفسه، كانت حكومة الإدارة القرارات المنظمة للمجهود الحربى. ويجرى إنشاء لجنة تسليح لسواحل البحر المتوسط، وتتلقى القوات أمر التحرك إلى طولون.

ويحصل ديزيه على قيادة سيفيتا - فيتشيا، النقطة الثانية لحشد القوات (٦ مارس ١٧٩٨). وفى ٢ أبريل، يصل إلى طولون أسطول البحر الأدرياتى تحت قيادة برويى. وفى ١٢ أبريل، تنظم حكومة الإدارة بشكل نهائى جيش الشرق الذى ما يزال يسمى رسمياً بـ «الجناح الأيسر لجيش إنجلترا المرابط على سواحل البحر المتوسط». وسعياً إلى خداع العدو، يجرى الحفاظ فى العلن على مشروع النزول فى إنجلترا. وتنتشر أكثر الشائعات تنوعاً عن غايات المهمة؛ وتسمح إشاعات عديدة للأسرار فى الصحافة بتصور أن مصر هى الهدف، لكن الحيرة عظيمة بحيث أن جميع التخمينات تجد مجالا رحباً لها. وفى ٤ مايو، يغادر بونابارت باريس ليشرف على الاستعدادات الأخيرة. وفى ٦ مايو تبدأ القوات فى ركوب البحر.

وما يشكو منه الجيش الفرنسي، في تلك اللحظة كما خلال كل الفترة الثورية، هو نقص النقود. إن وحدات عديدة لم تحصل على رواتبها منذ وقت طويل، وحتى في جيش حملة إيطاليا، الذي استفاد مع ذلك كثيراً من الضرائب المتنوعة المفروضة على البلد، حدثت حالات عصيان. والجنود يحتجون على تأخر رواتبهم بينما يثرى بعض الضباط الكبار كماسبينا على حساب البلد. وكثيراً ما كان من الصعب العثور على الإمكانات المالية الضرورية لتسوية حساب المشتريات اللازمة لمشروع بهذه الضخامة. وسعياً إلى التمتع بموارد جديدة وتدعيم وضع الأمة العظمى في أوروبا، فإن حكومة الإدارة تأمر باحتلال سويسرا بجيوش فرنسية وتضيف الجمهورية السويسرية إلى الجمهوريات الشقيقة الأخرى (يناير – أبريل ١٧٩٨). وهذه العملية تسمح فعلا بضمان تصفية متأخرات النفقات إلا أنه لا يمكن ضمان أي احتياطي مالي ثابت.

والجيش الذي يتم تكوينه في النهاية يضم نحو ستة وثلاثين ألف جندي منهم أكثر من ألفين ومائتي ضابط. وهذا العدد الزائد عن الحد للضباط إنما يجد تفسيره في الانخفاض المتواصل لأعداد جنود الجيوش الجمهورية بعد التجنيدات الضخمة التي شهدتها بداية الثورة. فبعد عام ١٧٩٤ لم يتم تجنيد غير أعداد قليلة وقد انخفض إجمالي الجنود العاملين من أكثر من سبعمائة ألف إلى أقل من أربعمائة ألف في عام ١٧٩٧. وعدد الضباط ينخفض بنسبة أقل بكثير ويصبح من الضروري الاتجاه إلى تركيبة ثانية في عامي ١٧٩٥ و ١٧٩٦. ومن ثم فسوف يستفيد جيش الشرق من إمكانية الاحتفاظ بقيادة جيدة بالرغم من خسائره. وكان نصف الضباط جنوداً أو صف ضباط في جيوش النظام القديم، أما النصف الآخر فقد جاء من متطوعي عامي ١٧٩١ و ١٧٩٢. (٣٣) وبوجه عام، فإن مزاج الضباط مزاج «جمهوري».

وتجيء القوات من جيش حملة ألمانيا (في خريف ١٧٩٧ تم تجميع كافة الجيوش المختلفة التي حاربت وراء الراين) ومن جيش حملة إيطاليا. وسوف توجد دائما منافسة معينة بين هذين العنصرين. فحاشية بونابارت سوف تنبثق من جيش حملة إيطاليا، أما غالبية قادة الفرق فسوف تنبثق من جيش حملة ألمانيا، وتتألف الوحدات العسكرية من مخضرمي حروب الثورة. ومن المؤكد أنها تشكل أفضل جيش في ذلك الزمان. ولما كانت تعرف معرفة تامة كافة تقنيات القتال، فإنها قادرة على الزحف زمناً لطول. والضباط يتميزون بروح مبادرة عظيمة. وسوف يتمكن الجيش على المستوى التقني من التكيف مع

الصعوبات الجسيمة لحملة مصر. وينبع تفوق القوات الفرنسية على جميع الجيوش الشرقية من القدرة الرائعة على الابتكار والتكيف مع المسلحة والتي يتميز بها جندي منبثق من الطبقات الشعبية للمجتمع الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر. وليست الكفاءة التكنولوجية حكراً على الأجهزة الفنية وأعضاء لجنة العلوم والفنون، فهي ماثلة على جميع مستويات الهيراركية العسكرية، بما في ذلك أدناها. ويترافق الانضباط في المعركة مع قدر كبير من المرونة. والهيبة الشخصية للضباط وصف الضباط لها دور كبير. والخطر الدائم هو أن ينهار هذا الجهاز العسكري الرائع إثر تفسخ تدريجي، وقد أدرك الإنجليز ذلك. وسوف يخوضون حرباً سيكولوجية حقيقية ضد الفرنسيين.

بونابارت والعلماء

إن بونابرت، وهو أيديولوجي حقيقي، قد حرص على أن يصحب معه علماء ومهندسين، ومبرراته لذلك عديدة. فالتعلق النزيه الذي يبديه تجاه العلوم يعود عليه بقدر كبير من العطف من جانب جماعة الأيديولوجيين البالغة الأهمية. ومع رغبة الفاتح في الهيمنة على العالم، تتطابق، في مجال العلوم، رغبة توحيد كافة (للمعارف – المترجم) في معرفة موحدة. ومجد «الرجل العظيم» إنما يستند أيضاً إلى العلماء والفنانين والكتاب الذين يحشدهم حوله، والحال إن بونابارت يريد أن يقدم نفسه، اعتماداً على قوة المفاهيم الجديدة، بوصفه البطل نصير الحضارة بامتياز. وبرنامجه الخاص بالحضارة التي تواصل مصيرتها إنما يتأسس على الفكرة المستعادة بلا ملل والتي تتمثل في أن حملة مصر تشكل عودة العلوم والفنون إلى وطنها الأصلي. والعمل الذي يتوجب الاضطلاع به كان قد تم تحديده في الإنسيكلوبيديا نفسها في مادتها عن «مصر»: «لقد كانت في الزمن الغابر بلداً يستحق الإعجاب وهي اليوم بلد يستحق الدراسة». وفي هذا المشروع، فإنه يجد عوناً قوياً من كافاريللي، الذي يبدو في أعين الجمهور بوصفه أحد ملهمي هذا المشروع المثير(٢٤).

وفي باريس ينشغل بونابارت بكل شيء. فهو مهموم باختيار الضباط كما باختيار العلماء. والاهتمام الذي تستثيره الحملة، التي يظل هدفها لغزاً، هو اهتمام عظيم. لكن الخيار الذي يتجه إليه، يتميز أيضاً باعتبارات سياسية : ففي هذا المجتمع جد الممزق، مجتمع فرنسا التي تحكمها حكومة الإدارة، يقترح بالفعل صيغة وحدة قومية حول

شخصه. والجانب الرئيسي من التجنيد يتألف بوجه خاص من مهندسين شبان، خاصة خريجي المدرسة الهندسية حديثة الإنشاء، بالرغم من وجود جنود مخضرمين متفانين بواسل مثل مونج أو دولوميو.

وسوف تتمثل مهمة العلماء في توحيد جميع المعلومات المتوافرة عن مصر. وهذا العمل الضخم، وهو رصد للأحوال الغابرة والمعاصرة على شكل بيان وتبيان للتحولات التي يجب الاضطلاع بها، سوف يصبح ذلك المصنف الرائع الذي يحمل عنوان «وصف مصر»(٣٥).

التعليمات

في١٢ جيرمينال من العام السادس (١٢ أبريل ١٧٩٨) يجرى تحرير التعليمات النهائية الصادرة عن حكومة الإدارة: إن المماليك هم حلفاء إنجلترا ومن هنا إهاناتهم للفرنسيين، ولابد من فتح طريق جديد إلى الهند لأن الانجليز قد احتلوا مستعمرة الكاب الهولندية، وخيار (فتح – المترجم) مصر يفرض نفسه. إن بونابارت: «سوف يطرد الإنجليز من جميع الممتلكات الشرقية التي يمكنه الوصول إليها، وسوف يقضي بشكل خاص على جميع وكالاتهم التجارية على البحر الأحمر [...] وسوف يحتل خليج السويس، ويتخذ جميع التدابير الضرورية لضمان تمتع الجمهورية الفرنسية بالملكية الحرة والقاصرة عليها للبحر الأحمر. [...] وسوف يُحسِّن، بشتى الإمكانات التي تتوافر له، حالة أهل مصر. [...] وسوف يحافظ، بقدر توقف ذلك عليه، على وفاق مع السلطان (العثماني – المترجم) ورعاياه المباشرين» (٣٦).

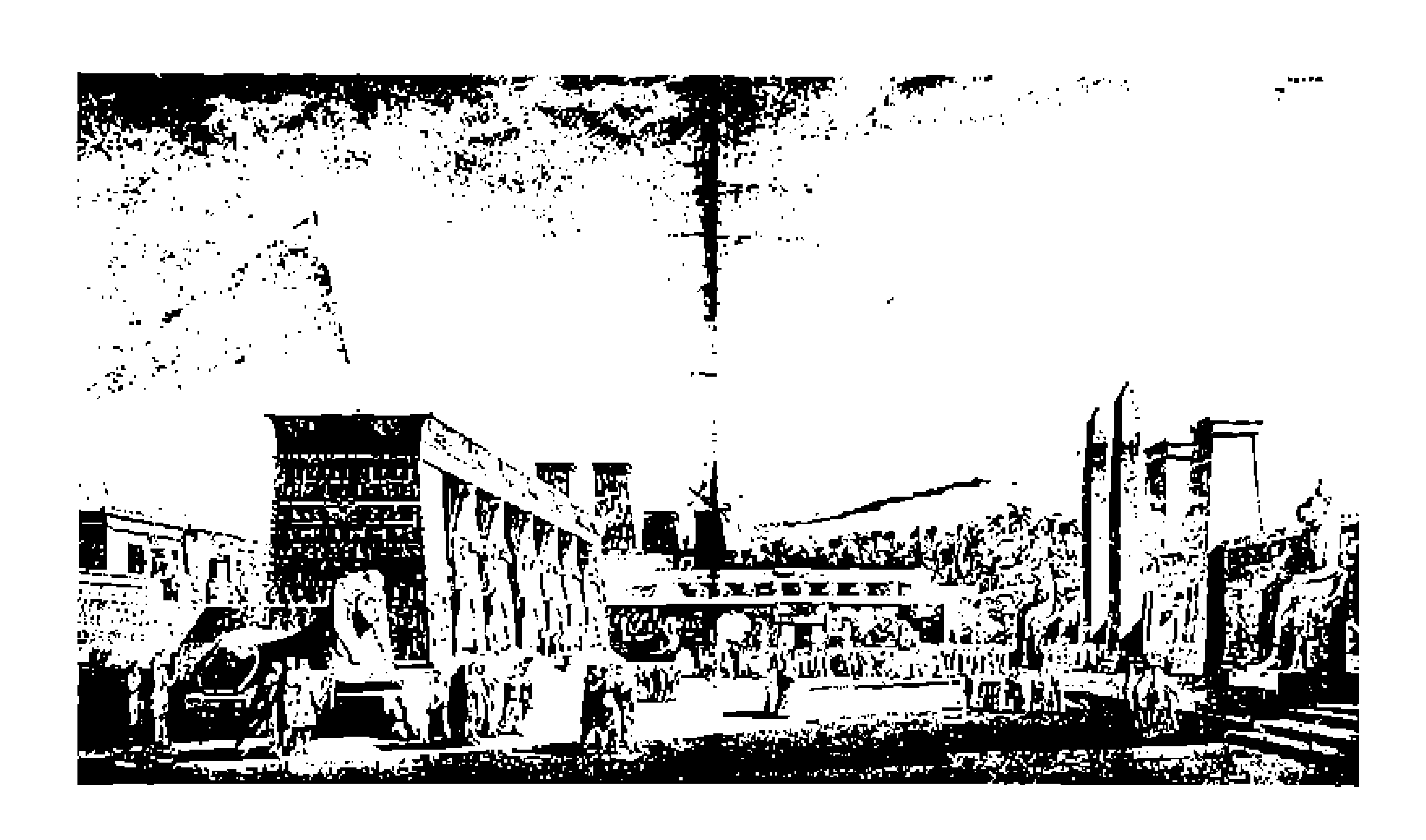
ولا يتخلى بونابارت بالكامل عن مشروع النزول في إنجلترا. وهو يدرس إمكانيته خلال غيابه. فالجمهورية تتمتع بقوات مسلحة كافية ومشروعه الشرقي يرغم إنجلترا على بعثرة أسطولها في الأطلسي لمحاصرة الأسبان حلفاء الفرنسيين، وفي البحر المتوسط للنضال ضده، وفي البحر الأحمر والمحيط الهندي لحماية الهند (٣٧). إن الحرب مع إنجلترا تتخذ أبعاد حرب عالمية.

وفي ٢٢ أبريل تحرر حكومة الإدارة أوراق اعتماد الرسل الفرنسيين إلى الأمراء الهنود لحثهم على التحالف مع الفرنسيين:

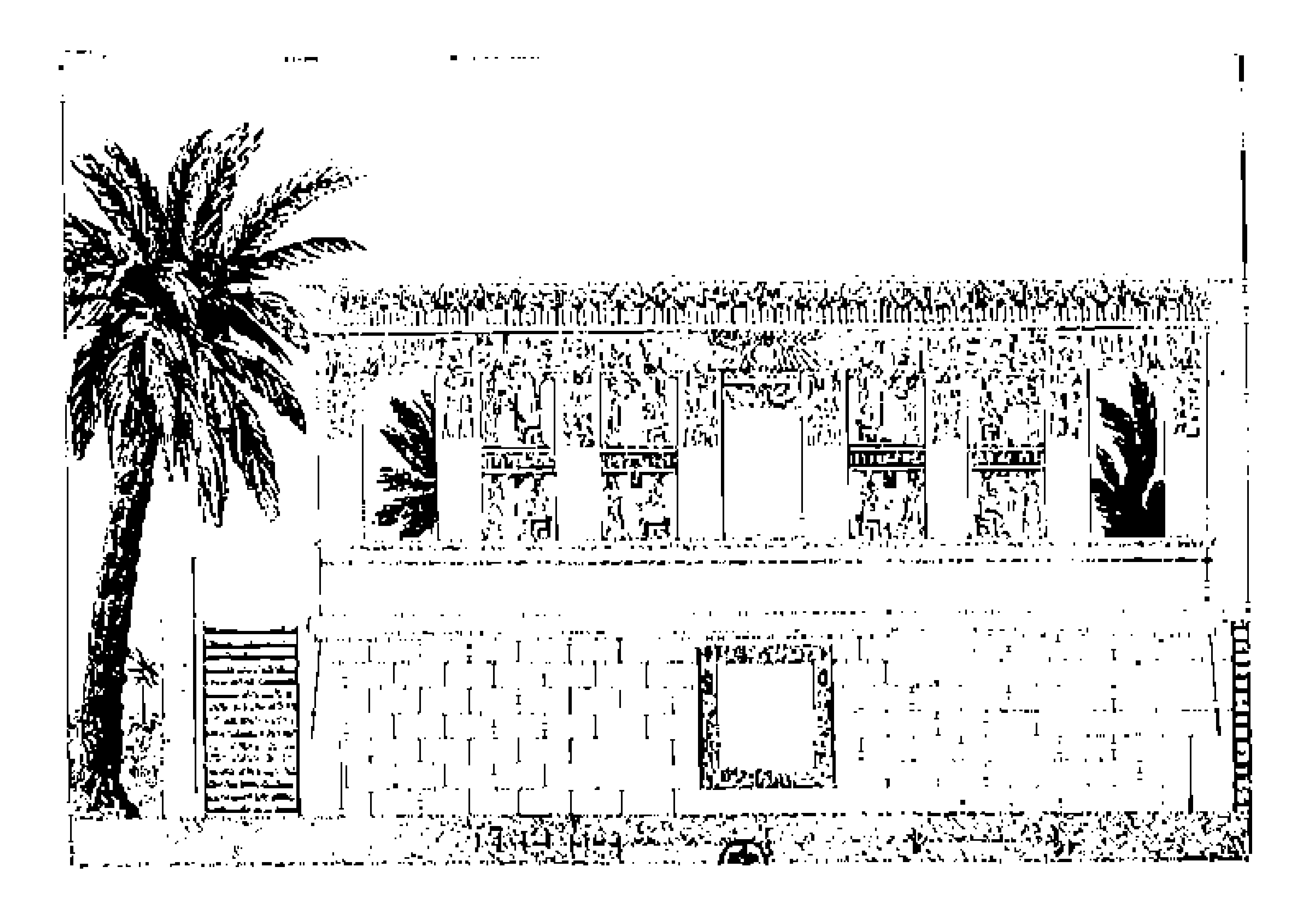
«السلطان المعظم

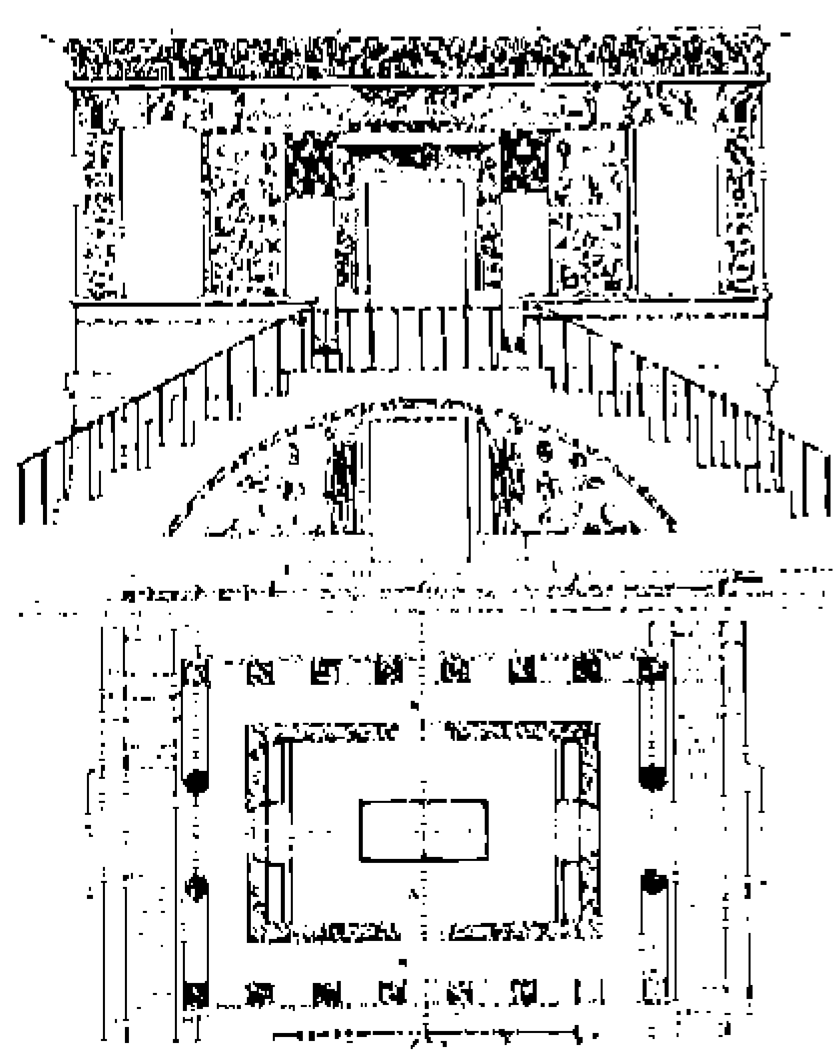


١ – مسلة هليوبوليس.



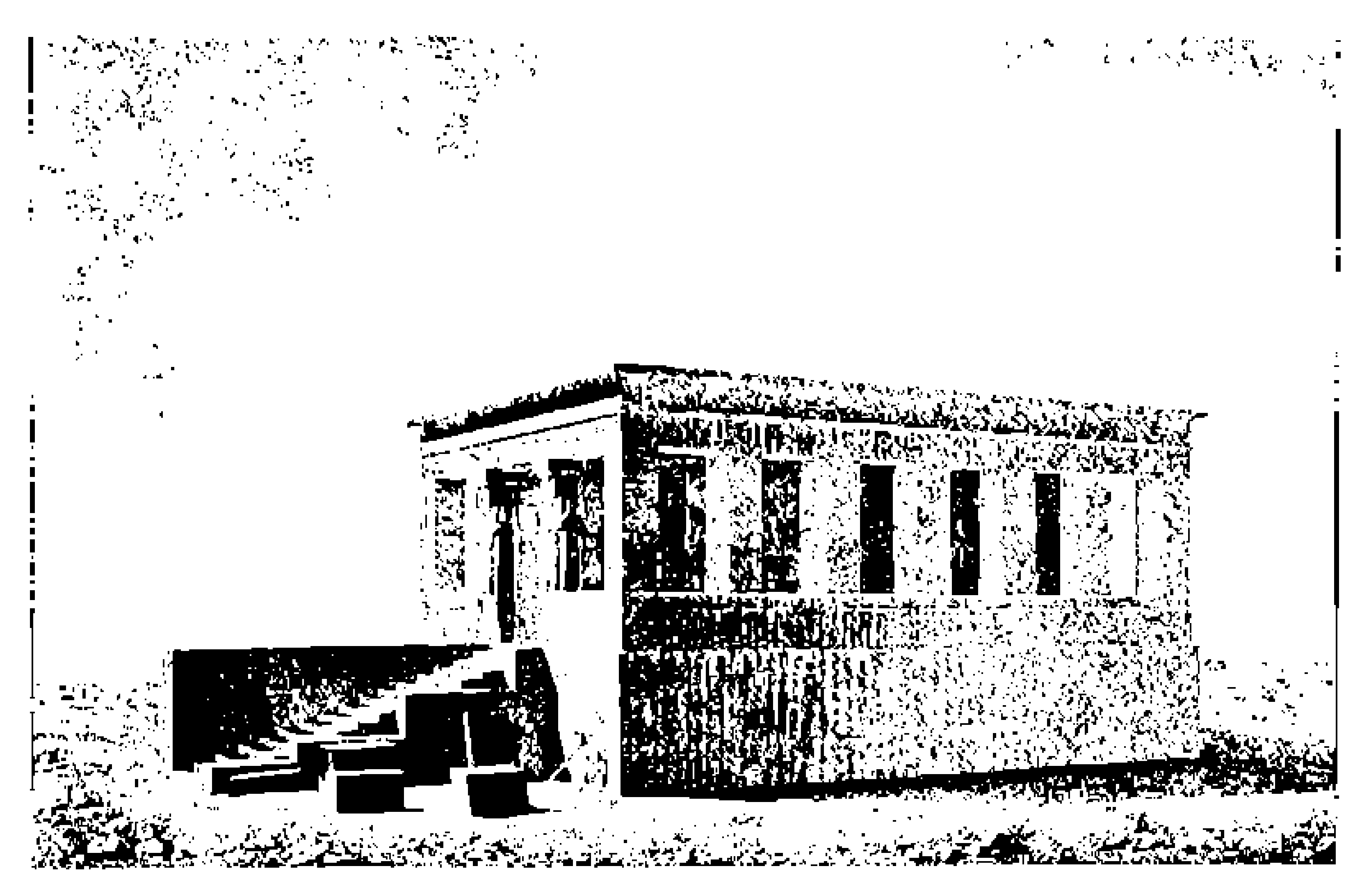
٢ – ساحات القصر والمعابد.



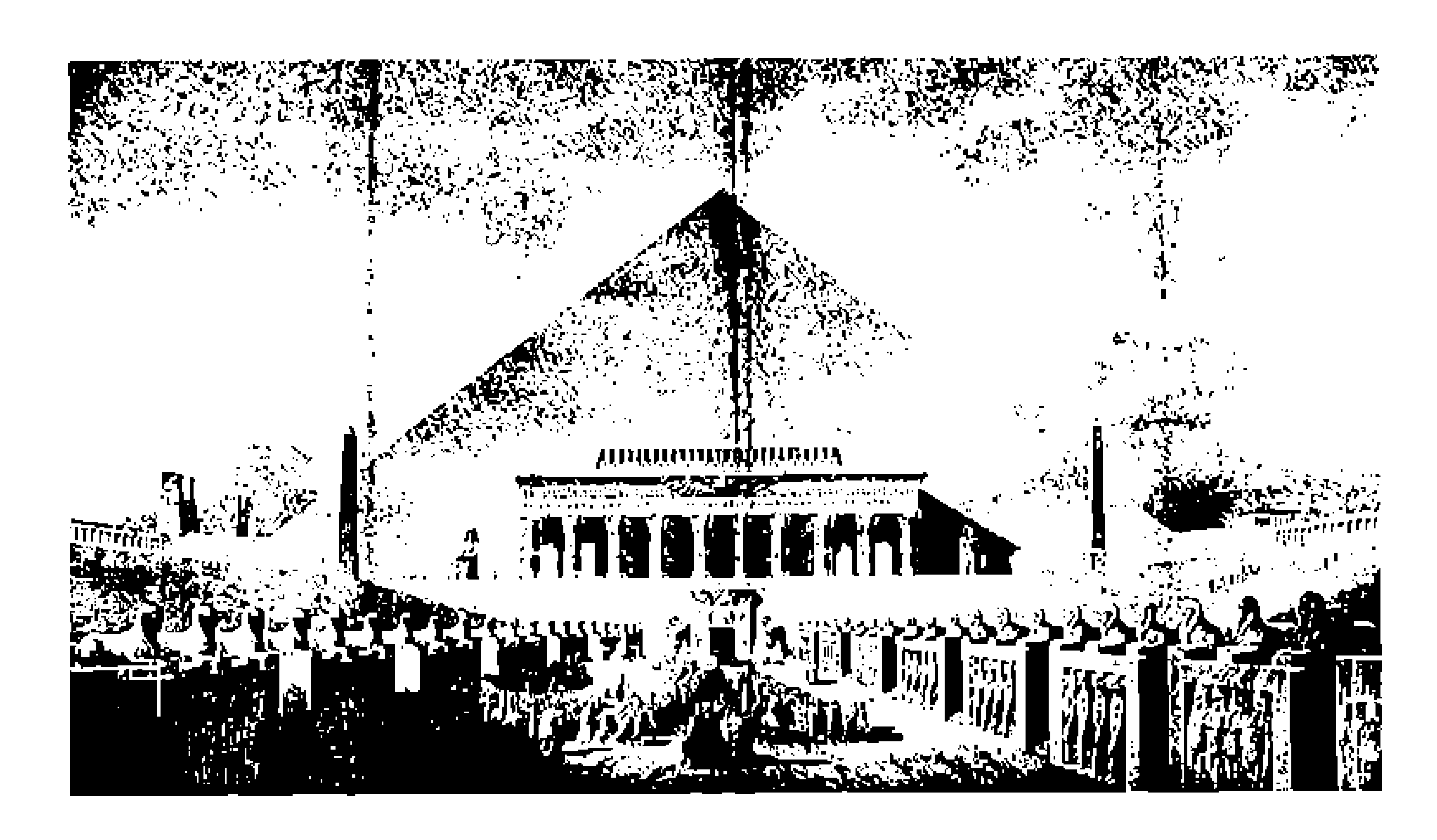


٣ - الجناح المصرى كما رسمه كليبر، الجنرال فيما بعد.

(ب) الواجهة.



٤- (أ) معبد أمينوفيس الثالث ذو الأعمدة في الفنتين.



(ب) موكب.





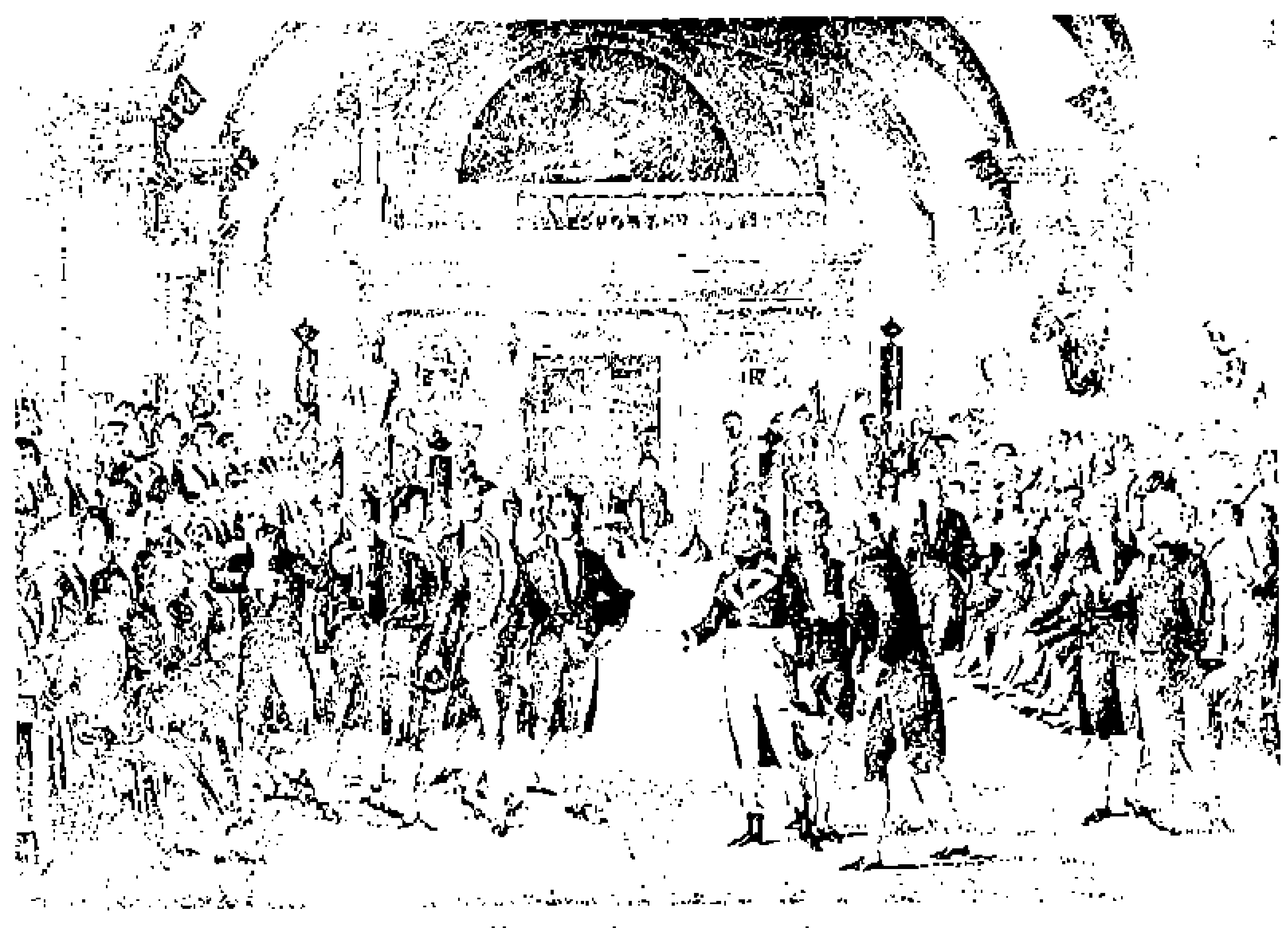
٥ - «مجمع الآلهة» المجتمعين في فناء معبد مدينة - هابو لـ «إملاء شرائع الحكمة» على الملك.



٦ – (أ) بيرتولليه.



(ب) دولوميو.



(ج) استقبال بونابارت فى المعهد.



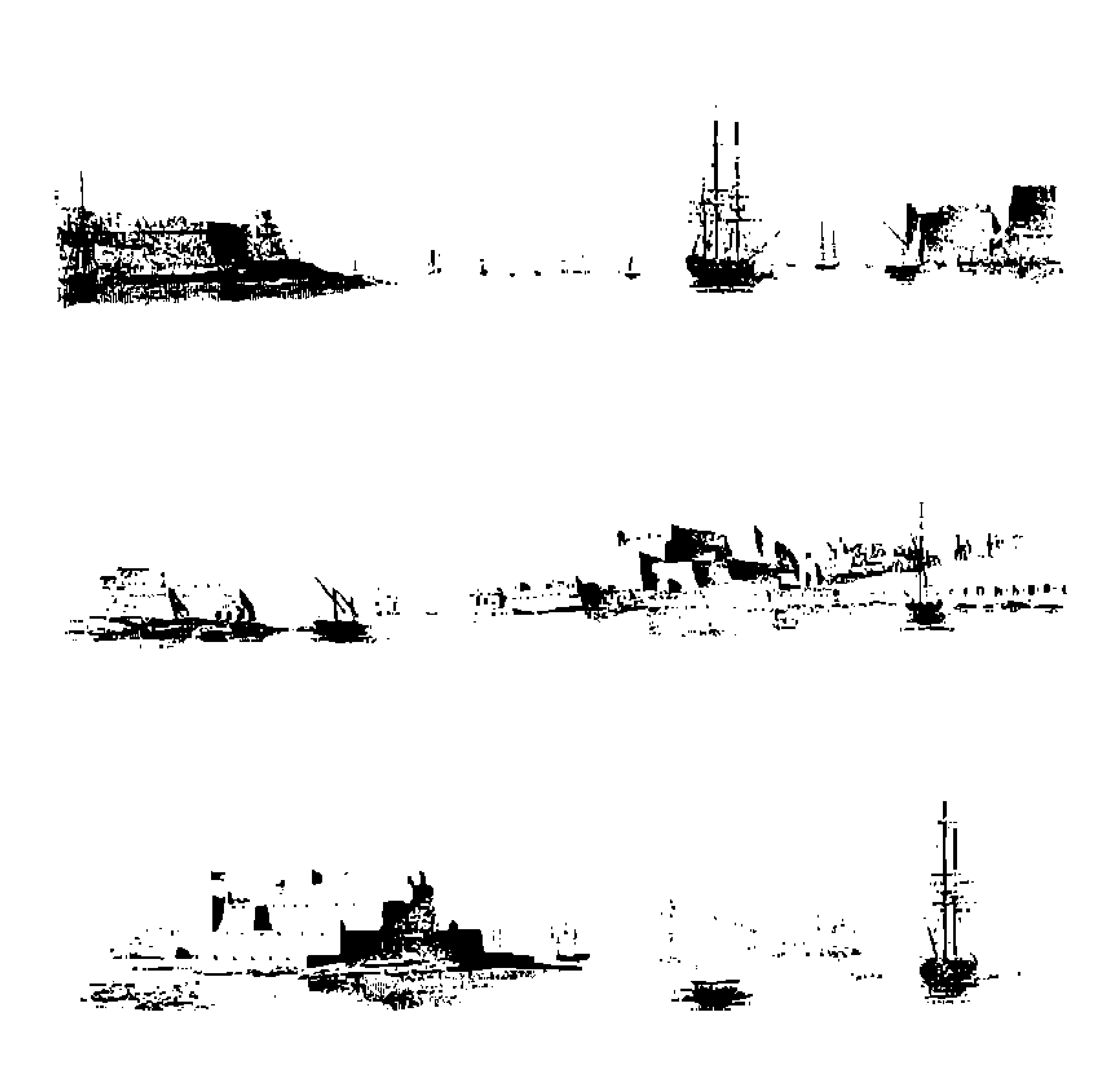
٧ – (أ) كافاريللى.



(ب) بلزاك.



(ج) جومار.



٨ – مشاهد من مالطه.

«بارك الله أيامكم وعزز منعتكم!

«منذ وقت طويل والإدارة التنفيذية للجمهورية الفرنسية تود إشعاركم بتوليها الحكم. ووسط مشاغل ضخمة تسببت لها فيها عصبة هالكة، غالباً ما وجهت فكرها إليكم. ولم يك بوسعها نسيان أن فرنسا تعتبركم من بين أصدقائها، وقد تألمت ألماً يفوق الوصف وهي تراكم عرضة لهجمات أعدائكم، دون أن تتوافر لها إمكانية تزويدكم، بوصفكم حليفاً مخلصاً، بإمكانات ضخم. لكن الأزمنة تغيرت. فالجمهورية الفرنسية ظافرة. وقد أملت الصلح على أعدائها، باستثناء عدو واحد ما يزال عدواً لها وعدواً لكم أيضاً. إن اللحظة التي تنشغل فيها بالقضاء إلى الأبد على طغيانه في أوروبا، لابد من أن تبدو لكم مواتية لنزع النير الذي يدمغ بكلكله على آسيا»(٣٨).

والحال أن هذه الأوراق – الرسائل لن تستخدم أبداً وذلك بسبب الحصار الذي فرضه الأسطول الإنجليزي على مصر. وهي غير مفيدة على أية حال. ذلك أن ريتشارد كوللي ويلسلي، كونت مورنتجتون الثاني (شقيق من سوف يصبح في المستقبل دوق ويلينجتون)، يسافر بالفعل إلى الهند كحاكم عام. وهو، منذ وصوله في مايو ١٧٩٨، يشرع ببناء إمبراطورية إنجليزية حقيقية عبر القضاء على قوى الأمراء الهنود. وحتى دون أن يكون لديه علم بمشاريع الفرنسيين، وخروجاً على تعليمات حكومته، فإنه يتهمهم بأنهم على اتصال بفرنسا، وفي غضون شهور قليلة يجعل من الأراضي التي استولى عليها الإنجليز القوة المهيمنة في الهند. إن الهيمنة البريطانية قد حلت محل توازن السلطات المحلي. وقد أصبح الأمراء الهنود ضحايا لالتقاء الآراء بين تاليران وويلسلي (٣٩).

وفي أواخر أبريل هذه، فإن تمرداً في فيينا ضد سفارة فرنسا استثارته رعونة برنادوت، قليل الموهبة فيما يتعلق بالدبلوماسية، إنما يهدد بإعادة الحرب إلى القارة. وعندئذ تفكر حكومة الإدارة في وقف استعدادات الحملة سعياً إلى مواجهة هذا الخطر الجديد. ويتأخر رحيل بونابارت إلى طولون. وفي النهاية، سعياً إلى تجنب التضحية بالعمل الضخم المبذول في الإعداد للحملة، تبحث الحكومة عن تسوية مع النمساويين؛ فسوف يجري اقتراح جزء من الغنيمة العثمانية عليهم. لكن النمساويين لا يهتمون إلا بتعديلات إقليمية مع إيطاليا وألمانيا (٤٠).

على أنه يتعين الإسراع بالرحيل. وأوروبا كلها تتساءل عن غاية الاستعدادات في طولون. أهي نابلي أم البرتغال أم شرق البحر المتوسط؟ إن الإنجليز ما يزالون منشغلين

بمحاصرة الموانئ الأسبانية والفرنسية على المحيط الأطلسي، لكن بوسعهم من حين لآخر إدخال أسطول إلى البحر المتوسط. ومن شأن أي تأخير إضافي زيادة المخاطر زيادة ملحوظة. ويفكر بونابارت للحظة في أن يترك في فرنسا كليبر وديزيه لقيادة الجيوش في حالة استئناف الحرب في القارة. لكن حكومة الإدارة ترفض، فهي ترتاب كثيراً في هذين الجنرالين، المقربين من المشتبه فيه مورو خلال ١٨ فروكتيدور، والمقربين الآن من بونابارت.

بونابارت في طولون

يصل بونابارت إلى طولون في ٩ مايو. وكعادته، يوجه بياناً إلى الجيش:

«أيها الجنود!

«لقد كنتم أحد أجنحة جيش حملة انجلترا. وقد خضتم حرب الجبال والسهول والحصارات؛ ويبقى أمامكم خوض الحروب البحرية.

«إن الفيالق الرومانية، التي قلدتموها أحياناً، ولكن دون معادلتها بعد، قد حاربت قرطاجنة قبلاً إثر أخرى في هذا البحر نفسه وفي سهول زاما. إن النصر لم يتخل عنها قط، لأنها كانت على الدوام مقدامة وصابرة على الشدائد ومنضبطة ومتحدة فيما بينها.

«أيها الجنود! إن أوروبا تحول أبصارها شطركم. وأمامكم حسم مصائر عظيمة ومعارك تخوضونها ومخاطر ومتاعب تتغلبون عليها. إنكم سوف تفعلون المستحيل من أجل ازدهار الوطن وسعادة البشر ومجدكم أنتم أنفسكم.

«أيها الجنود، أيها البحارة، أيها المشاة، يارجال المدفعية أو الفرسان، اتحدوا؛ تذكروا أنكم ساعة المعركة، بحاجة أحدكم إلى الآخر.

«أيها الجنود – البحارة، لقد كنتم حتى الآن مهملين. أما اليوم فإن أوفر اهتمام من جانب الجمهورية إنما يتركز عليكم. وسوف تكونون أهلا للجيش، الذي تشكلون جزءاً لا يتجزأ منه.

«إن روح الحرية، التي جعلت الجمهورية منذ ميلادها حكَمَ أوروبا، تشاء أن تجعل منها حكَمَ البحار والأقصى البلدان»[41].

إن تأثير فولني واضح. وهذه الحملة هي بالفعل تحقيق لبرنامج «الأطلال»: فـ «الأمة العظمى» سوف تمد ملكوت الحرية إلى كل الإنسانية.

والإحالة إلى العصر القديم ثابتة، فإنجلترا، القوة التجارية والبحرية، هى قرطاجنة الجديدة التى يجب تدميرها. وبونابارت هو سيبيون الأفريقى الجديد، الذى يمكنه التوحد معه دون صعوبة. ومن المعروف إلى أى حد كانت الجمهورية الرومانية تخشى على مؤسساتها من مجد قاهر قرطاجنة.

والثالث العام يعرف أيضا العداوة الدائمة بين القوات البرية، التى حققت كثيراً من الانتصارات للجمهورية، والقوات البحرية، الأدنى دائماً من قوات الإنجليز البحرية. ولعلاج ذلك، يجرى توحيد البحرية بالجيش البرى. فالبحارة «جنود» والأسطول الفرنسى هو «الجيش البحرى».

الأسطول

هذا الجيش البحرى للجمهورية هو وريث الأسطول الرائع الذى كانت الملكية الفرنسية الآخذة بالزوال قد اعادت بناءه بعناية. وإذا كانت توجد بعض الوحدات القديمة التى لا تحظى برعاية جيدة فى أسطول طولون، فإن هذا الأسطول يضم أيضاً سفناً حديثة مثل لوريان (الشرق)، أضخم سفينة حربية فى تلك الزمان، والتى دشنت فى عام ١٧٩٠ وكذلك سفينة لوفرانكلين، حديثة البناء، والتى تعتبر مواصفاتها العامة أرقى بكثير من مواصفات السفن الإنجليزية من النوع نفسه، ويبدو مؤكداً أن البناء البحرى الفرنسى قد بلغ أوجه فى أواخر القرن الثامن عشر مع بناء سفن حربية متفوقة على الوحدات الإنجليزية المناظرة من حيث قوة نيرانها (٤٢).

على أن الهجرة قد اختزلت بشكل ملحوظ سلاح ضباط البحرية الذين يصعب إحلال ضباط جدد محلهم بشكل سريع. والحال أن هوش، خلال استعداداته للإنزال فى أيرلندا فى عام ١٧٩٦، قد وجد الأميرال فيلاريه جويوز يرد عليه: «ضباط البحرية؟ لقد ماتوا كلهم فى كيبيرون» (٤٣).

أمَّا نقص البحارة المدربين، الجسيم جسامة نقص الضباط الجيدين على الأقل، فهو يرجع إلى حروب العصيان الملكى البريتونى التى كانت قد أدت إلى عزل بريست على مدار شهور، مما قاد إلى نسبة وفيات مرتفعة بين البحارة وإلى وقف التجنيد. كما أن معارك طولون فى عام ١٧٩٣ قد أدت بدورها إلى التأثير بشكل قاس على أعداد بحارة البحر

المتوسط. وقد عانت البحرية الفرنسية من الحروب الأهلية للثورة بأكثر مما عانت من المعارك ضد الإنجليز. وهى تفتقر بشكل قاسٍ إلى الكوادر المؤهلة.

إن الشجاعة الفردية لجنود بحرية الجمهورية لا جدال فيها. وسوف تثبت أبوكير ذلك. لكن إدراك التفوق التقنى لجنود البحرية الإنجليز، الأوفر عدداً، والأفضل تأهيلا والأكثر دربة، وإدراك عدم كفاية الأطقم الفرنسية فى حالة القتال إنما ينحط فى أغلب الأحوال إلى شلل للإدارة وإلى رفض لكل عمل جسور. وهذا الضعف المعنوى للبحرية سوف يكلف الحملة غالياً جداً.

وعندما يصل بروى إلى طولون، فإنه سوف يسعى إلى إعادة تنظيم أطقمه. وهو يتجه إلى تغييرات فى القيادة وإلى عمليات تجنيد إضافية. وهو يحظر على أطقمه النزول إلى البر، خوفاً من تزايد حالات الفرار. وهذا الوضع يزيد سخط رجال البحرية الذين ينتظرون منذ عدة أشهر تسلم رواتبهم. (٤٤)

والأسطول الذى يتمتع به بونابارت ضخم: ١٣ سفينة حربية، ٦ فرقاطات، حراقة و ٣٥ سفينة أخرى من أحجام مختلفة لابد من أن نضيف إليها سفن النقل (أكثر من ٣٠٠). وتؤدى إضافة جنود البحرية إلى الجنود وإلى الكوادر الأخرى التى تركب البحر إلى إجمالى نحو أربعة وخمسين ألف رجل يتحركون من موانئ مختلفة. ولا يملك المرء غير الإعجاب بالجهد الإدارى الذى بذلته حكومة الإدارة فى مثل هذا الوقت القصير.

اجتياز البحر المتوسط

مالطــــه

بدأ رحيل أسطول طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨. وتتمثل مهمته الأولى في تحريك الحشد مع القوافل الأخرى القادمة من موانئ البحر المتوسط الأخرى. وتنضم إليه قافلة جنوه في عرض هذا الميناء بعد يومين. ثم يحاذي الأسطول كورسيكا حيث يتم الارتباط بقافلة أجاكسيو. واعتباراً من ٢٩ مايو، تجرى محاذاة ساحل سردينيا بحثاً عن قافلة سيفيتا - فيتشيا. وعندئذ يبلغ أحد القراصنة بوناپارت بوجود نيلسون في البحر المتوسط، ويثير مصير القافلة الأخيرة حيرة وانزعاج للمسئولين الفرنسيين. وتقدم سفن محايدة تم اعتراضها معلومات تؤكد ضعف الأسطول البريطاني. وعندئذ يقرر بوناپارت عدم انتظار نيزيه والتحرك مباشرة صوب مالطه. والواقع أن قافلة سيفيتا - فيتشيا توجد بالفعل أمام هذه الجزيرة ويتم الارتباط بها في ٩ يونيو أمام الهدف الأول للحملة.

والحال أن الاستيلاء على مالطه يعتبر مشروعاً قديماً من مشاريع بوناپارت. وقد خطط لذلك منذ فتح الجزر الأيونية في يوليو ١٧٩٧. وقد ظلت أخوية مالطة محايدة خلال حروب الائتلاف الأول، وكانت الجمعية التأسيسية قد حظرت في ٣٠ يونيو ١٧٩١، تحت طائلة فقد الجنسية، انتماء الفرنسيين إلى أخوية فرسان أجنبية. وكانت ممتلكات الأخوية في فرنسا قد صودرت وضمت إلى الممتلكات القومية (الفرنسية - المترجم) الأخرى (في ١٩ سبتمبر ١٧٩٢، وهذا القرار هو أحد القرارات الأخيرة للجمعية التشريعية). وحتى تتمكن الأخوية من البقاء، فقد كان عليها عندئذ التقارب مع روسيا والنمسا. وخلال صيف ١٧٩٧، يكتب بوناپارت عدة مرات إلى حكومة الإدارة وإلى تاليران حول ضرورة الاستيلاء على مالطه، القاعدة الأساسية للعمليات في شرقي البحر المتوسط.

وهو يوفد إلى مالطة پوسيلج، الأمين الأول للمفوضية الفرنسية في جنوه، وذلك بحجة تفقد ثغور شرقي البحر المتوسط، وإن كان الهدف الفعلي هو الاطلاع على دفاعات الجزيرة وعقد صلات مفيدة في الساحة. وفي تلك اللحظة (نوفمبر ١٧٩٧)، يخطط للاستيلاء على الجزيرة من جانب أسطول البحر الأدرياتي الذي يقوده بروى في تحركه نحو الأطلسي للمشاركة في النزول في إنجلترا. ويتحرك بروى متأخراً من الموعد وهو

بفضل خاصية التحرك مباشرة إلى طولون بسبب نقص مؤنه. ويسمح تحرك الحملة بتحقيق هذا المشروع المؤجل حتى ذلك الحين، ومن ثم يفتح هذا الموقع الاستراتيجي الرئيسي.

والواقع أن أخوية مالطة كانت قد اضمحلت كثيراً منذ زمن مجدها في القرن السادس عشر وقوتها العسكرية لا تعدو أن تكون ظاهرية. لكن أعمال التحصين ضخمة ويمكنها أن تشكل عقبة حقيقية في وجه الفرنسيين. وهي القوة الوحيدة القائمة، لأن الأخوية لا تتمتع إلا بألف وخمسمائة مقاتل متفرغ أما الميليشيات فهي لا توجد إلا على الورق.

والواقع أن الفرسان - وكثير منهم من أصل فرنسي - لا ينوون القتال. ورجال الميليشيا المجندون من بين المالطيين الأصليين لا يشتهون الموت من أجل الفرسان. وقد نجح بوسيلج والقنصل فرنسا في اجتذاب كثيرٍ من المتعاطفين.

ويطلب بونابارت السماح له بدخول ميناء فاليتا للتزود بالمياه. لكن الفرسان، المرتابين عن حق، لا يسمحون إلا بتواجد أربع سفن في المرة الواحدة، الأمر الذي من شأنه تأخير تحرك الأسطول. ويجرى استخدام هذه الذريعة لتبرير الهجوم على الجزيرة. وكما كتب القنصل فرنسا إلى الراعي الأكبر لأخوية مالطه، فإن: «الجنرال بونابارت عازم على أن يأخذ بالقوة ما يتعين تقديمه له، استرشادا بمبادئ كرم الضيافة، التي تُعَدُّ أساس أخويتكم. [...] والجنرال لا يريد شيئاً غير أن أعود إلى سفينة يرى أنه مضطر منذ ذلك الحين إلى معاملتها كعدو وأنها لم يعد لها أمل إلا في استقامة الجنرال بونابارت. وقد أصدر الأوامر الأكثر صرامة بالاحترام التام لديانة وعادات وممتلكات المالطيين» (٥).

وقد أصدر القائد العام الأوامر في ٩ يونيو ١٧٩٨. وينجح إنزال رباعي في ١٠ يونيو. ومنذ ١١ يونيو، يطلب الراعي الأكبر وقفاً لإطلاق النار وإجراء مفاوضات. وسوف يلعب دولوميو، عالم المعادن، والفارس القديم، دور الوسيط مع بوسيلج. ويتم توقيع اتفاق في ١٢ يونيو: إن الأخوية تتنازل لفرنسا عن جميع حقوقها في السيادة على مالطه وتوابعها. وسوف يحصل الراعي الأكبر على تعويض مناسب ويحصل الفرسان على معاش هزيل سوف يتلقونه في بلدهم الأصلي.

ويقبل عدد معين في فرسان مالطه الانضمام إلى الحملة. والحال أن بعضاً منهم، مثل شانالييس ولاسكاريس، سوف يلعبون دوراً مهماً في إدارة مصر. لكن جميع

الآخرين، إذا كانوا دون الستين من العمر، يجري طردهم على الفور. ويلقى القساوسة الذين ليست لهم أصول مالطية المصير نفسه. ويتعين على رجال الدين الباقين الامتناع عن الاعتراف بسلطة البابا في إدارة الشئون الدينية.

ويجري الاهتمام بنهب جميع دور الخزانة العامة وكنائس الأخوية سعياً إلى التمتع بإمكانات نقدية في مصر. ولا تتمتع الحملة باحتياطيات نقدية كافية، ثم إن المصادرات التي جرت في مالطة سرعان ما سوف يتضح أنها غير كافية.

وينشغل بونابارت بتنظيم فتحه الجديد. فهو يعين لجنة حكومية تتألف من تسعة وجهاء محليين ومن مفوض فرنسي، وهي مكلفة بالتنظيم المدني والقضائي والإداري. والمفوض الفرنسي هو الذي يملك بطبيعة الحال سلطة القرار.

ويفرض بونابارت على المالطيين النظام الفرنسي. فهم يصبحون متساوين أمام القانون. ويجري حظر جميع الألقاب والعلامات الأرستقراطية. والشارة الثلاثية الألوان إلزامية، لكن ارتداء الزي القومي الفرنسي، وهو علامة المواطنة الفرنسية، ليس مصرحاً به إلاّ لأولئك الذين يثبتون تعلقهم بالجمهورية الفرنسية أو يتميزون باضطلاعهم بعمل رائع ما. ويصبح الانتماء إلى الأمة العظمى شرفاً في ذاته. ويتعين إرسال الأبناء الذكور للوجهاء إلى فرنسا على نفقة عائلاتهم والحصول على تعليم فرنسي؛ ومن المؤكد أن هذا يمثل تذكراً لممارسات الرومان القدماء. ويجري إنشاء بلديات وحرس قومي تحت قيادة ضباط فرنسيين. ويتم تقسيم البلد إلى كانتونات ودوائر. ويحصل الأرثوذكس اليونانيون واليهود على حق ممارسة عباداتهم بحرية.

والواقع أن كل شيء يعتمد على الحاكم العسكري الفرنسي، الجنرال فوبوا، الذي يتعين عليه البقاء هناك مع نحو ثلاثة آلاف جندي. ويجري إجبار جنود الأخوية السابقين على الانضمام إلى الحملة. وبشكل ما، فإن مالطه تمثل التطبيق الأول للأفكار النابوليونية في مجال الحكم.

والواقع أن سقوط أخوية مالطه سوف يخدم سياسة بونابارت الإسلامية. وهو يخبر القناصل (فرنسا – المترجم) في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بما حدث، ويكلفهم بإعلان الخبر السعيد لبايات هذه الولايات التي تتمتع بقدر من الاستقلال. وهو يأمر بتحرير العبيد المسلمين الألفين الذين كانوا يخدمون في السفن الشراعية للأخوية ويطلب معاملة مماثلة من القوى المغربية. وهو يرسل مراقبه لاقاليت إلى الجزر الأيونية للاتصال

يعلى باشا الجانينارى واقتراح عروض سياسية عليه. فالواقع أن باشا الباتيا يمكنه القيام بعمل مهم فى البلقان من شأنه تحويل أنظار العدو عن بؤرة الصراع.

كما أن الاستحواذ على مالطه يسمح بتهديد مملكة نابولى تهديداً مباشراً وفرض ضغوط قوية عليها. لكن أسطول نيلسون يرسو فى الحقيقة فى نابولى.

الرحلة البحرية

فى ١٨ يونيو، يستأنف الأسطول الفرنسى طريقه إلى مصر. وهو بالغ الهشاشة فى مواجهة معركة بحرية. وصحيح أن بونابارت كان قد ارتأى إجراء مناورات تدريب يومية حيث يتعين على رجال مدفعية الجيش البرى مساعدة رجال مدفعية البحرية. والقائد العام يقنع نفسه بهذا الشكل بقوة وضعه. لكن جنود البحرية كانوا أقل ثقة بشكل واضح، فالسفن محملة أكثر من الممكن بالرجال والعتاد، الأمر الذى يختزل قدرتهم على المناورة.

وفى المساء، تعزف فرقة الموسيقى العسكرية ألحاناً حربية تهدف إلى الحفاظ على العزيمة القتالية لدى الجنود وإلى إعدادهم لمواجهة تالية مع الأسطول الإنجليزى. وعندما تتقارب السفن، تتوقف الموسيقى ويجرى التساؤل عن أنباء البحرين الآخرين. وبعد غروب الشمس، يمثل الجنود كوميديات من بنات خيالهم ،كان موضوعها دائماً تقريباً هو تخليص جارية من جوارى السراى واختطافها من أيدى تركى عجوز وزواجها من الجندى الفرنسى محررها. (٤٦)

كما يجرى اللعب كثيراً بأوراق الكوتشينة ويتعين على الجنرالات التدخل لوقف القمار. ويشكو الجميع من الازدحام والتكدس وتتفجر شجارات صغيرة عنيدة على الصدارة وعلى مكانة متميزة بين ضباط البحرية وضباط الجيش البرى والعلماء.

وعلى متن « لوريان »، سفينة الأميرالية وأضخم سفينة فى تلك العصر، يحب بونابارت التناقش مع العلماء وضباطه الرئيسيين. ومحادثوه المعتادون هم مونج وبيرثوليه وكافاريللى. وتتصل موضوعات الحديث بالكيمياء والرياضيات والدين. ويعرض كافاريللى نظرياته، المستلهمة من روسو، حول إلغاء الملكية. كما يقف القائد العام على شئون المناورات البحرية من برويى. (٤٧)

ويبدى دينزيه وكليبر الفضول الفكرى نفسه مع حاشيتهما. أما رينييه، وهو أحد

أروع ضباط الجيش (قائد لواء وهو في الرابعة والعشرين من عمره في عام ١٧٩٥ وقائد فرقة في العام التالي) والمعروف بشخصيته المندفعة. لقد طلب أن يحضر إلى سفينته جيفروا سانت – هيلير وهو من نفس عمره، لكي يتحدثا سوياً عن التاريخ الطبيعي، أحد موضوعي شغله الكبيرين (حيث كان موضوع شغفه الكبير الآخر هو البحث عن المجد كما هو واضح) (٤٨).

وعند رحليهم عن مالطة يبدأ العسكريون البحريون في إدراك الوجهة الحقيقية للحملة، الأمر الذي يشكل مفاجأة للكثيرين (٤٩). لكن سفينة منفصلة عن الأسطول كانت قد رصدت أسطولاً إنجليزياً يتجه نحو الغرب، ويدرك بونابارت أن عليه إسراع الحركة. ويحول بينه وبين ذلك عدم تجانس السفن التي تشكل القافلة الفرنسية وتؤدي عاصفة عاتية إلى تفرق السفن. ومن ثم فإن السير أمام كريت يتعطل.

نيلســـون

من الواضح أن الانجليز كانوا على علم بحشد القوات الفرنسية في طولون. لكن الفرنسيين كانوا قد استخدموا هذا الميناء ملتماً للالتفاف على الحصار الإنجليزي لموانئ المحيط الأطلسي. وعندئذ ترى القيادة البحرية أن الأولوية يجب أن تولى للدفاع عن الجزر البريطانية ضد نزول الفرنسيين الذي ذاع الحديث عنه. ومن ثم فإن الحصار يمتد من تيكسيل إلى كاديكس، لأن أسبانيا حليفة لفرنسا في الحرب ضد انجلترا.

وفي ١٧ أبريل، تفرض الحكومة الإنجليزية على القيادة البحرية إرسال قوة بحرية إلى البحر المتوسط في مستهل يونيو. وفي أواخر أبريل، تتلقى جميع السفن المتوافرة الأمر بالاتجاه إلى البحر المتوسط. ومن ثم فإن الحكومة الإنجليزية تغامر بتعرية الجزر البريطانية من الحماية لحساب الدفاع عن الهند.

ويتولى نيلسون قيادة هذه القوة البحرية التي تتعاظم بسرعة. إلا أنه ينقصه الأكثر أهمية: السفن الصغيرة السريعة التي يمكنها قطع شوط أطول في مجال الاستطلاع وإبلاغ الأسطول بالمعلومات الضرورية حول تحركات الفرنسيين. ولا يعرف الإنجليز أية وجهة يتخذون: فإن لم يهاجم الفرنسيون الجزر البريطانية، فلابد أنهم يستهدفون الهند. إلا أن بوسعهم السعي إلى الوصول إليها عن طريق المحيط أو مصر أو بلية شرقي البحر المتوسط. وتؤكد تقارير جواسيس كثيرة أن الهدف هو مصر، لكن المعلومات متناقضة. ويبدو طريق الهند عبر سوريا وبلاد الرافدين والخليج الفارسي بوصفه الطريق الأرجح في نظر المسئولين البريطانيين.

وفى ١٥ يونيو، لم يعثر نيلسون على شىء فى غربى البحر المتوسط. وهو يرى أن الفرنسيين قد وصلوا بالفعل إلى شرقى صقلية، والأرجح أنهم قد وصلوا إلى الإسكندرية. ونبأ الاستيلاء على مالطه، الذى عرفه فى ميسينا فى ٢٠ يونيو، يؤكد رأيه. وهو يتجه بسرعة إلى مصر بمحاذاة الساحل الأفريقى وفى ليلة ٢٣/٢٢ يونيو يتجاوز الأسطول الفرنسى. والحال أن الغمام والعاصفة التى أشرنا إليها بالفعل يمنعانه من رؤية الفرنسيين. ويؤدى تأخر الأسطول (الفرنسى - المترجم) إلى إنقاذ بونابارت. وفى عصر البحرية الشراعية، يصعب تحديد موقع أسطول متحرك. وكانت المعارك تدور قرب المراسى.

وفى ٢٨ يونيو و٢٩ يونيو، يصل نيلسون إلى الإسكندرية. وهو يثير الانزعاج فى المدينة، لكن أحداً لم ير الفرنسيين. ومن ثم فإنه يتجه إلى الساحل السورى، ثم إلى قبرص. وإذ لا يرى مجىء شىء فى جميع الأحوال، فإنه يرجع إلى غربى البحر المتوسط ويرسو فى سيراكوز وهو بحاجة إلى التزود من جديد باحتياطياته من المياه ومن المؤن كما أنه بحاجة إلى الاضطلاع بأعمال على سفنه. وهو لا يعرف البتة نوايا الفرنسيين عندما يغادر سيراكوز فى ٢٥ يوليو. وفى ٢٨ يوليو فقط يعرف أن الأسطول الفرنسى قد شوهد متوجهاً إلى مصر قبل شهر. وهو (نيلسون - المترجم) يصل أمام الإسكندرية فى ٣١ يوليو.

بيان بونابارت إلى الجيش

فى اللحظة التى يسبق فيها نيلسون بونابارت فى توجهه إلى الأسكندرية، يحرر الأخير بيانه إلى الجيش، والذى يعلن أخيراً بشكل رسمى غاية الحملة:

«إلى الجيش البرى،

«من على متن لوريان، فى ٤ ميسيدور من العام الرابع [٢٢ يونيو ١٧٩٨]

«أيها الجنود!

«إنكم سوف تجترحون فتحاً يصعب قياس آثاره على الحضارة وتجارة العالم

«إنكم سوف توجهون إلى إنجلترا الضربة الأكيدة أكثر من سواها والمحسوسة أكثر من سواها انتظاراً للحظة التى يتسنى لكم فيها توجيه الضربة القاتلة إليها.

«إننا سوف نقوم ببعض التحركات المرهقة؛ وسوف نخوض عدة معارك وسوف ننجح فى جميع مساعينا؛ فالأقدار معنا.

«والبكوات المماليك، الذين لا يحابون غير التجارة الإنجليزية والذين كالوا لتجارنا صنوف المهانات ويستبدون بسكان ضفاف النيل التعساء، لن تقوم لهم قائمة بعد أيام قلائل من وصولنا.

«إن الشعوب التي سوف نحيا معها شعوب محمدية؛ وأول أعراف إيمانها هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلا تخالفوهم؛ تعاملوا معهم مثلما تعاملنا مع اليهود، ومع الإيطاليين؛ احترموا رجال الفتوى بينهم واحترموا أئمتهم، مثلما فعلتم مع الحاخامات والقساوسة. ولتبدو تجاه الشعائر التي يوصي بها القرآن، وتجاه المساجد التسامح عينه الذي أبديتموه تجاه الأديرة المسيحية والمعابد اليهودية، تجاه ديانة موسى وديانة يسوع المسيح.

«لقد حمت الفيالق الرومانية جميع الأديان

«وسوف تجدون هنا أعرافاً مختلفة عن أعراف أوروبا؛ وعليكم التعود على ذلك.

«والشعوب التي سوف نتجه إليها تعامل النساء معاملة مختلفة عن معاملتنا لهن؛ لكن من يمارس الاغتصاب هو، في جميع البلدان، وحش.

«والنهب لا يثرى غير عدد قليل من الرجال؛ وهو يجردنا من الشرف؛ إنه يدمر مواردنا؛ ويجعلنا أعداء للشعوب، التي من صالحنا أن تكون صديقة لنا.

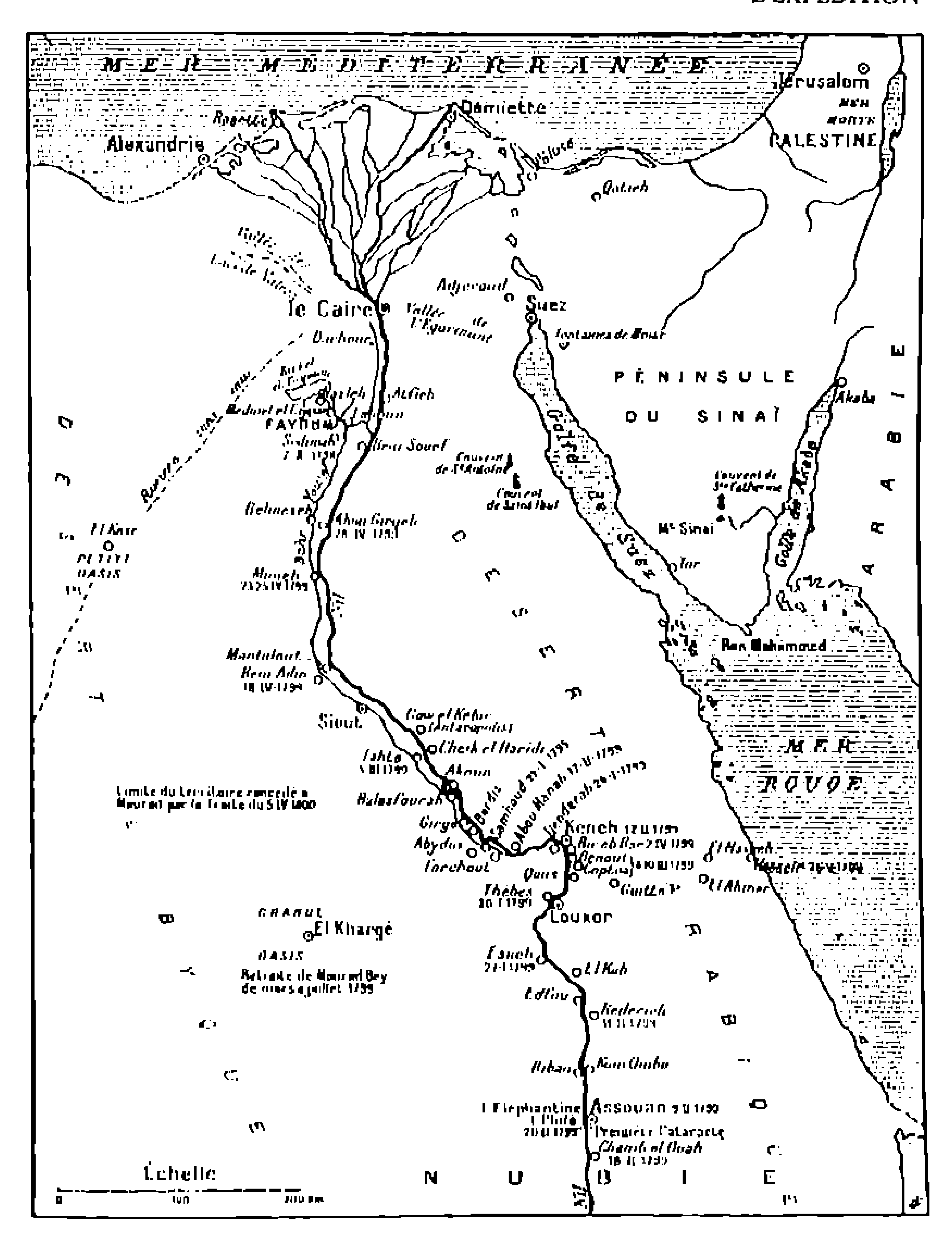
«إن المدينة الأولى التي سوف نقابلها قد بناها الإسكندر. وسوف نجد في كل خطوة تذكارات عظيمة جديرة بأن يستلهمها الفرنسيون».

إن الإسكندر الأكبر، فاتح آسيا الشاب، ذلك الذي رعى امتزاج الغرب والشرق، من الواضح أنه الأسطورة الأساسية لبونابارت الشاب مثله والذي يتهيأ لتجديد مأثرة الزحف مع جيشه على ضفاف البحر المتوسط إلى الهند وتوحيد العالمين في ثقافة واحدة.

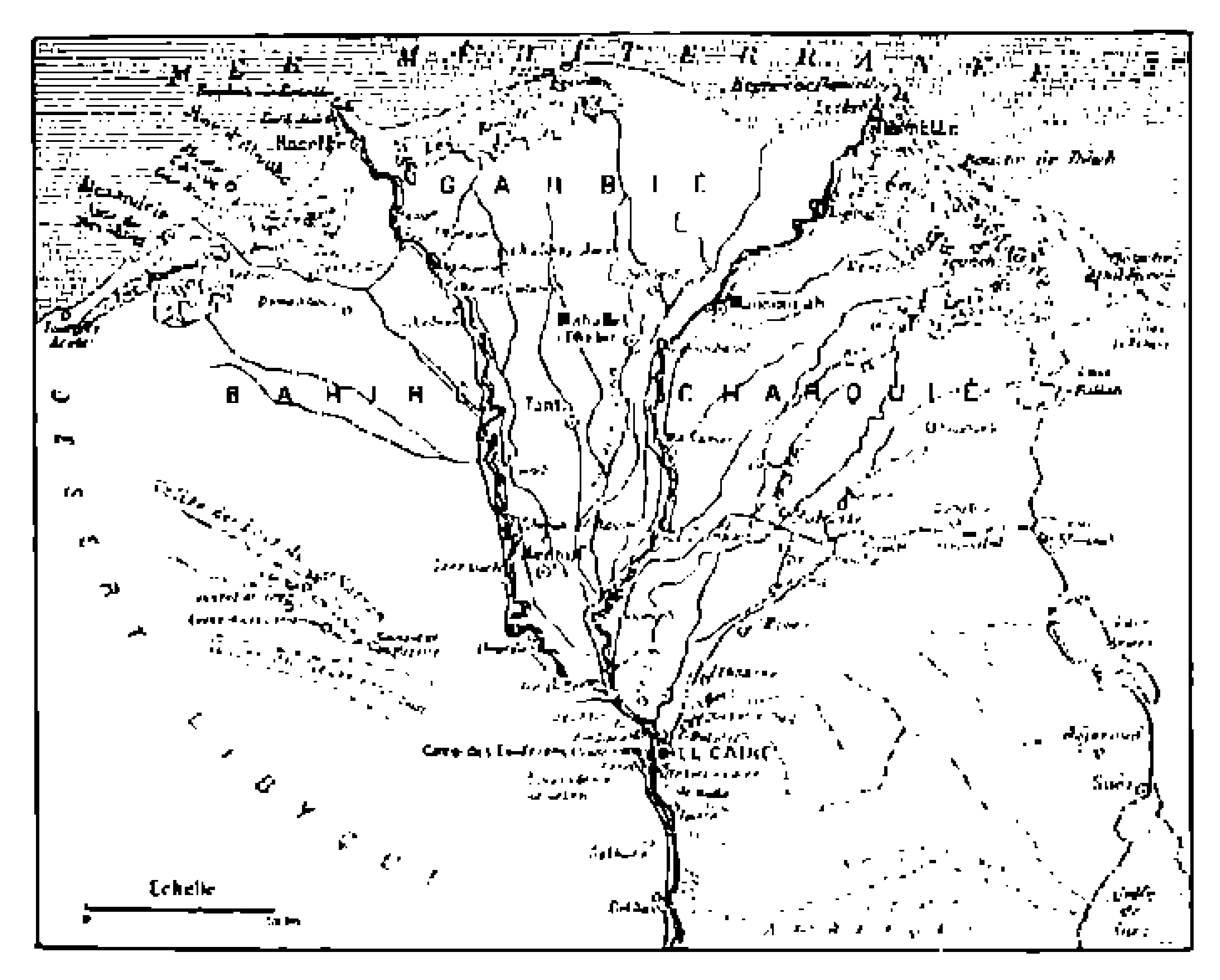
وسوف يتهيأ لأول اتصال فعلي بين عالم التنوير وعالم الإسلام أن يتأسس. فالحقيقة الفريدة في التاريخ هي أن هذا الجيش الفرنسي لا يتألف إلا من ملحدين ومؤلهين للطبيعة ولا أدريين. وهذا التسامح، الذي يضع الديانات التوحيدية الثلاث على قدم المساواة، إنما هو تعبير أصيل عن تيار أعمق يعبر عن نفسه في مفهوم الحضارة. والمصطلح، الذي يظهر هنا لأول مرة في نص سياسي بشكل مباشر، إنما يملك قوة الأفكار الجديدة. ومكانته لا تنحسر بعد من جراء استهلاكه المفرط وتغطيته لقضايا جد مريبة.

والحضارة، لنعكس الغرب على نفسه، على تاريخه، على مستقبله، هي أيضاً برنامج لتغريب الآخرين. وسوف تكون مصر أول أرض من أراضي الإسلام، أول أرض غير غربية، تواجه هذا التحدي العظيم.

لكن مصر هذه، ما هي؟

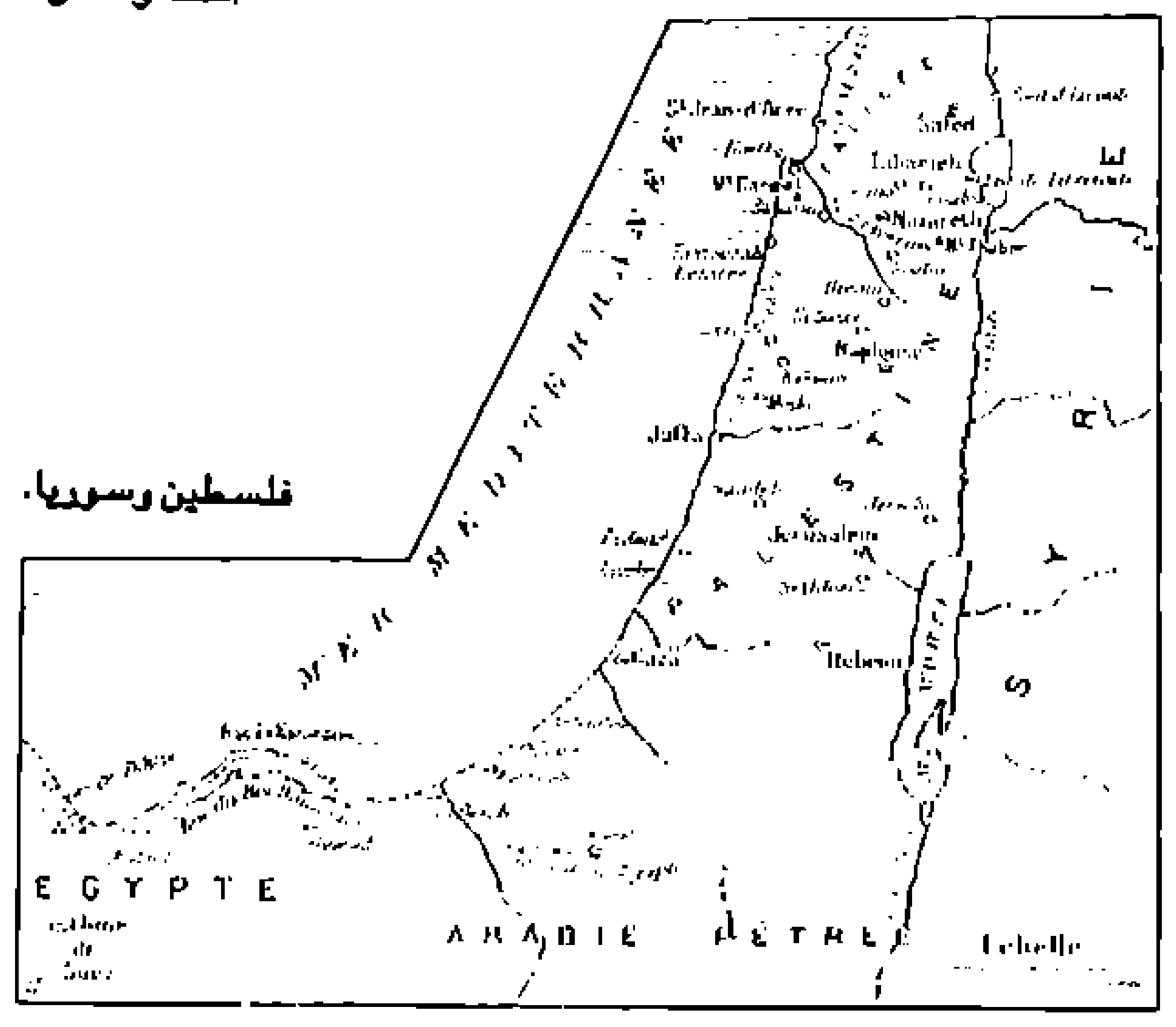


مصر الوسطى والعليا.




الدلتا ومصر السفلى.

فلسطين وسوريا.



هوامش الفصل الأول

١ - يظهر الغرب بمعناه الحديث منذ كوندورسيه.

٢ - Sur la vision culturelle et politique de l'Orient musulman en France au XVIII[e] siècle, voir mon ouvrage sur les *Origines intellectuelles de l'expédition d'Égypte, l'orientalisme islamisant en France 1698 - 1798*, éditions Isis, Institut Français d'Etudes Anatoliennes, Istanbul - Paris, 1987.

٣ - Voir Paul Masson, *Histoire du commerce Français dans le Levant au XVIII[e] siècle*, Paris, 1911.

٤ - Sur l'absence du rôle de Mareille dans la formulation des projets d'intervention, voir Charles CARRIÉRE, "Économie et Imaginaire" in *Le Miroir Égyptien*, Robert Ilbert et Philippe Joutard Editeurs, Marseille, 1984, pp. 133 - 138. La position inverse, celle de Peter GRAN, "The changing meaning of merchant capital in Egypt", in *L'Égypte au XIX siècle*, C.N.R.S., 1982, pp. 267 - 282, n'est pas convaincante.

٥ - Sur les projets de conquêtes de l'Égypte, voir les travaux de F. CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris, 1910; *Autour d'une route. l'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Égypte au XVIII[e] siècle*, Paris, 1922; *Le projet français de conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XV*, Le Caire, 1929. Sur La Fayette en particulier, Charles L. LOKKE, "La Fayette et l'Expédition d'Égypte", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 1954.

٦ - Sur ces problèmes, voir mon article, "Le siécle des Lumiéres face à l'Empire Ottoman : l'élaboration d'une image", in *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Jean - Louis Bacqué - Grammont et Hâmit Batu éditeurs, Éditions Isis, Institut Français d'Études Anatoliennes d'Istanbul, Istanbul - Paris, 1986.

٧ - Sur ces thémes, voir H. LAURENS, "La Raison dans l'histoire", in *Le Miroir Égyptien*, Marseille, 1984; "La vision de l'Orient aux XVII[e] et XVIII[e] siécles", in *L'Orient : Concept et images*, XV[e] colloque de l'Institut de Recherches sur les civilisations de l'Occident moderne, Presse de

l'Université de Paris - Sorbonne, 1988; "Orient et origine", *in Primitivisme et mythes des origines, 1680 - 1820*, chez le même éditeur.

٨ – Sur cette question, voir Jacques GODECHOT, *Regards sur l'époque révolutionnaire*, Toulouse, édition Privat, 1980. En particulier, pp. 159 - 161, *Moreau et les papiers de Klinglin*, et son livre sur *La Contre - Révolution*, Paris, 1984, pp. 282 - 314.

٩ – Voir H. Laurens, "Bonaparte, l'Orient et la Grande Nation", *Annales Historiques de la Révolution Française*, n° 273, juillet - septembre 1988, pp. 289 - 301.

١٠ – Tous ces textes dans MASSON et BIAGI, *Napoléon, manuscrits inédits*, Paris, 1910.

١١ – Ernest JONES, *La vie et l'oeuvre de Freud*, Paris, 1969, III, pp. 520 - 521, lettre de Freud àThomas Mann, le 29 novembre 1936 «لقد كان غرامه بجوزيفين بوارنيه نتيجة إكراه نفسي، وذلك بسبب الاسم الذي حمله، لكن ذلك بالطبع لم يكن توحداً مع جوزيف. إن هذا التوحد يتجلى بأكثر الأشكال وضوحاً في حملته المصرية الشهيرة. فإلى أين يذهب المرء، إن لم يكن إلى مصر، عندما يكون جوزيف [يوسف] الذي يريد أن يبدو عظيماً في نظر إخوته ؟ وإذا ما درسنا عن قرب أكثر الدوافع السياسية لهذه المغامرة التي قام بها الجنرال الشاب، فسوف نجد بلا ريب أنها لم تكن غير تبريرات عنيفة لفكرة استيهامية [...].

وإن النية التي دفعت نابوليون إلى الذهاب إلى مصر تتحقق فيما بعد في أوروبا، فهو يرتب لإخوته مكانات بجعلهم أمراء وملوكاً. [...] وفيما بعد، يصبح خائناً لأسطورته ويسمح لنفسه بأن تجره اعتبارات واقعية إلى هجر جوزيفين المحبوبة حباً جماً. وإلى هذا الفعل يرجع تاريخ انحداره. إن المدمر العظيم يعمل منذ ذلك الحين على تدمير نفسه. وحملة روسيا، الخطرة، المسيئة الإعداد، تجر إلى سقوطه. ويبدو ذلك كما لو كان عقاباً ذاتياً على خيانته لجوزيفين، على ارتداد حبه إلى العبارة الأصلية لجوزيف. لكن القدر، هنا أيضاً، وخلافاً لنوايا نابوليون، قد استنسخ جزءاً آخر من قصة جوزيف [يوسف]. إن حلم يوسف، الذي سجدت فيه الشمس والقمر والنجوم له، قد ترتب عليه رميه في الجب» (Voir aussi pp. 218 - 219 du même ouvrage la lettre à Arnold Zweig du 6 novembre 1934 et le commentaire de Jones).

١٢ – MASSONE, Napolén et sa famille, Paris, 1902, T.I, p. 81, pp. 96 - 97, pp. 120 - 124.

١٣ – إن السر الذي باح به فيما بعد لمدام دو ريموسا هو سر شهير: «في مصر، وجدت نفسي متحرراً من كوابح حضارة مزعجة. لقد كان بوسعي أن أحلم بكل شيء وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به. فسوف أؤسس ديانة، وسأجد نفسي على طريق آسيا، راكباً فيلاً، وعلى رأسي عمامة وبين يدي قرآن جديد أؤلفه على هواي. وسوف أجمع في مشاريعي بين تجارب وخبرات العالمين، نابشاً لحسابي ملكوت جميع التواريخ والقصص، مهاجماً الجبروت الإنجليزي

في الهند ومستعيداً بهذا الفتح ربط صلاتي مع أوروبا العجوز. لقد كان ذلك الوقت الذي قضيته في مصر أجمل أوقات عمري، لأنه كان الوقت الأكثر مثالية». *Mémoires de Madame de Rémusat*, Paris, 1881, p. 274.

١٤ – بشكل غريب، سوف تعاود هذه الفكرة الظهور عند عبد الناصر الشاب : «إن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أدري لماذا يخيل إليَّ دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذا يخيل إليَّ أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به.

«وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة.

«إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها». جمال عبد الناصر، «فلسفة الثورة»، القاهرة، دون تاريخ، ص ٦٠.

١٥ – VOLTAIRE, *Mahomet ou le fanatisme*, acte II. في عام ١٨١٧، في سانت – هيلين، عاد نابوليون إلى قراءة هذه المسرحية وأملى بالملاحظات التالية :

«هناك أبيات جميلة، لكن هذا [العمل] يجور على التاريخ. [إنه يزعم] أن محمداً كان شهوانياً ! ثم ماذا ؟ [إنه يزعم] أنه قد لجأ إلى الاغتصاب، وأن هذا هو كل ما في الأمر. فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذاً دخل إلى مكة ركوناً إلى الهدنة ؟ لقد جاء إليها بعد معركة بدر البطولية.

«لماذا لا نتحدث عن الجهاد ؟ وهذا الدس للسم الذي يتم في الوقت المناسب تماماً ! إن فولتير يريد تحقير كل شيء، لقد اعتدى على يسوع – المسيح في شخص محمد ! وهو يتصور أن العظماء يستخدمون وسائل دنيئة؛ يستخدمون دس السم، لكن الأمر لم يكن كذلك. لقد جاء محمد في وقت كان الرأي العام كله مهيئاً فيه للإيمان بإله واحد. ومن المرجح أن شبه الجزيرة العربية كلها كانت تمور بحروب أهلية، هي، وحدها، التي تنجب الشجعان. ومنذ بدر، أخذ الناس ينظرون إليه بوصفه بطلاً. إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنساناً في جميع الأحوال، لكنه، غالباً، ما يستطيع عمل الكثير ; إنه، غالباً، ما يكون قداحة شرر وسط مواد قابلة للاشتعال. إنني لا أعتقد أنه كان بوسع محمد أن ينجح لو كان قد ظهر في شبه الجزيرة العربية الآن.

«إن ديانة يسوع تنبع من أخلاق سقراط؛ وفي ذلك الزمن البعيد أيضاً، كان الرأي العام ميالاً إلى الإيمان بإله واحد. وما هو أرقى في محمد، هو أنه قد تمكن في غضون عشر سنوات من فتح نصف الأرض، بينما احتاجت المسيحية إلى ثلاثمائة سنة لكي تثبت وجودها.

«إن ديانة المسيح جد مرهفة [بحيث يصعب] على الشرقيين [اتباعها]، فهم بحاجة إلى أداة سياسية أكثر. والحال أن محمداً يبدو في نظرهم أرقى من يسوع، فقد رآه الناس يتحرك ويفعل [...]

«إنه مثلي [...] لقد كان هناك سأم من الفوضى، وكانت هناك رغبة في وضع حد لها. إنتهى

ما كنت لأظهر لو كان من المرجح أن يجيء شخص آخر ويقوم بما قمت به. لقد كان بوسع فرنسا أن تنتهي إلى فتح العالم ! إنني أكرر، إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنساناً. ووسائله لا طائل من ورائها إن لم تكن الظروف، إن لم يكن الرأي العام مؤيداً لها. إن الرأي العام يحكم كل شيء. هل تظنون أن لوثر هو الذي أتى بالإصلاح ؟ كلا، إن الرأي العام هو الذي هب ضد البابوات» [...].

«ثم يقرأ جلالته [مسرحية] محمد، ويجد فيها أبياتاً جميلة. «لكننا، نحن المسلمين الآخرين، نود لو أنها كانت على مستوى أعلى من حيث العمق التاريخي، لو أنها كانت لها نكهة عربية أكثر» . GÉNÉRAL BARON GOURGAUD, Sainte - Hélène, Journal inédit de 1815 à 1818 avec préface et notes de M. le Vicomte de Grouchy et Antoine Guillois. Paris, 1889, pp. 77 et 152. ويسجل برتران من جهته فيما يتعلق بالحديث نفسه : «إن أي إنسان لا يعدو أن يكون إنساناً. وهو بحاجة إلى قوى لكي يتحرك ويفعل. ما هي النار التي أدت إلى غليان المرجل ؟ لابد من معرفة وضع شبه الجزيرة العربية قبل قرنين من ظهور محمد.

ما هو المدد الذي وجده ؟ هذا ما لا نعرفه. هذا ما ينبغي لنا معرفته. كيف أمكن لمحمد ولخلفائه أن يقوموا بمثل هذه الفتوحات الكثيرة والمدهشة بشعب هزيل ؟ إنهم ما كانوا ليفلحوا في القيام بها اليوم بالعرب على نحو ما هم عليه الآن. إن الناس إنما يندفعون إلى اجتراح مآثر عظيمة في أعقاب الثورات دائماً. وإذا كانت فرنسا قد نجحت في السيطرة على أوروبا، فإن مرجع ذلك إلى الثورة. ولا مراء في أنني الذي توليت قيادتها [فرنسا]، لكنني فعلت ذلك مستفيداً من قوى». BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène*, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, Albin Michel, 1959 I, p. 225.

١٦ – *Correspondance inédite*, III, pp. 209, lettre confidentielle à Talleyrand le 16 vendémiaire an VII (7 octobre 1797). Comme pour beaucoup de textes de la *Correspondance inédite*, on peut toujours avoir un doute sur l'authenticité. Mais il m'est arrivé de retrouver les originaux de certaines lettres avec des variantes non significatives. G. DOUIN, dans *La Flotte de Bonaparte sur les côtes d'Égypte, les prodromes d'Aboukir*, Le Caire, 1922, a démontré que ce regroupement de textes correspond à ce que les éditeurs de la *Correspondance de Napoléon* appellent la Collection Napoléon.

١٧ – في نص كتبه تاليران في عام ١٨١٦، وإن كان، بما يمثل شيئاً له دلالته، قد أورده في مذكراته حول نهاية النظام القديم، يحدد [تاليران] مستقبل فرنسا في البحر المتوسط : «على فرنسا أن تكف عن الاهتمام بالقارتين الأمريكيتين وأن توجه أبصارها شطر البحر المتوسط. وتجيء الفكرة من مراسلي تاليران في الشرق :

«إن عدة سنوات من المراسلات المتصلة مع السيد شوازول – جوفييه، الذي كان آنذاك سفيراً لدى القسطنطينية، ومع السيد بيسونيل، القنصل في ثغور شرقي البحر المتوسط، قد

التعتني علماً بجميع المزايا التي كان يمكن أن يحققها لنا، واليوم أيضاً، تحول أبصارنا السياسية والتجارية شطر العالم القديم أساساً». TALLEYRAND, *Mémoires*, I, 1754 - 1807, introduction, notes et établissement du texte par Paul - Louis Gouchoud et Jean - Paul Gouchoud, Paris, Plon, 1957, pp. 63 et suivantes.

وقد تسنّى لتاليران أن يقابل فولني، قبل الثورة، في الصالونات الثقافية كصالون سوار وصالون مدام هيلفيتيوس. وكانا زميلين في الجمعية التأسيسية. وتواجدا في الولايات المتحدة التي لم يكن فولني قد عاد منها بعد في بداية الحملة. كما تردد فينتور دي پارادي أيضاً على صالون سوار، انظر Attia AMER, *Venture de Paradis, Orientaliste et Voyageur, 1739 - 1799*, Thèse de doctorat, Université de Paris, s.d., multigraphiée p. 61. وفي مذكراته، يشيد تاليران على دور الصالونات، على دور ما يسمى بالمجتمع:

«إن قوة ما يسمى في فرنسا بالمجتمع كانت عظيمة في السنوات التي سبقت الثورة، بل وفي مجمل القرن الماضي، ومن المرجح أن الأشكال الخفية والمتنوعة التي تميز بها قد منحت مؤرخينا من رصد أصل، وتتبع هذا الأثر للحضارة الحديثة العظيمة».

١٨ – Pour l'Inde au XVIII[e] siècle, je m'inspire directement de Fernand BRAUDEL, *Civilisation matérielle, Économie et Capitalisme*, Paris, Armand Colin, 1979 tome III, *Le temps du monde*, pp. 428 - 450.

١٩ – Sur Talleyrand et l'Inde, voir M. Michel PONIATOWSKI, *Talleyrand aux États - Unis*, Paris, Librairie Académique Perrin, pp. 236 - 356.

٢٠ – Sur les Français et l'économie anglaise au XVIII[e] siècle, voir M. François CROUZET, "Les sources de la richesse de l'Agleterre vues par les Français du XVIII[e] siècle", in *De la supériorité de l'Angleterre sur la France, Paris*, 1985, pp. 105 - 119.

٢١ – CHARLES - ROUX, *Les origines de l'Expédition d'Égypte*, Paris 1910, p. 320. Les différents ouvrages de Charles - Roux sur les origines de l'expédition d'Égypte restent essentiels et sont suivis ici pour tout ce qui concerne l'élaboration des différents projets.

٢٢ – LA JONQUÉRE, *L' Expédition d'Égypte*, I, pp. 29 - 30.

٢٣ – بشكل تدريجي بالغ فقط، تتمكن الكتابة التاريخية عن الثورة الفرنسية من إدراك أهمية حركة الأيديولوجيين كحركة سياسية متميزة عن القوى السياسية التي كان يجرى تقديمها عادة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة من حركة الجيروند، فإنه ليس بالإمكان التوحيد بينهما، وذلك بالرغم من وجود عدو مشترك هو الجبل. كما أن جانباً كبيراً من العمل التأسيسي لحكومة الإدارة إنما يرجع إليهم، ومن شأن الاكتفاء بتحليل حكومة الإدارة على أنها مجرد وسط برجوازي

موزع بين الجمهورية المتطرفة من جانب والثورة المضادة من الجانب الآخر، أن يكون إهمالا جسيماً لما لا يعدو أن يكون استمرارية للتجربة الثورية في محاولة تأسيس وطيد. حول الطبيعة السياسية للأيديولوجيين، انظر Brigitte SCHIEBEN - LANGE et Franz KNAPSTEIN, "Les idéologues avant et aprés Thermidor", *Annales Historiques de la Révolution Française*, 217 (1988), pp. 35 - 59, en paticulier pp. 37 - 38. إن من يدرس النشاطات السياسية للأيديولوجيين، سرعان ما يتوصل ليس إلى مجرد تحديد الطابع النسبي لنزاهتهم، وإنما أيضاً إلى القطيعة مع الأسطورة التي تتحدث عن براءتهم السياسية. إن الأيديولوجيين - وبوسع المرء قول ذلك دون مبالغة - هم أيضاً سياسيون يتحركون ويريدون التحرك من أجل تحقيق غايات فلسفية مع مراعاة «القوانين السياسية» التي يجب الخضوع لها بادئ ذي بدء، وإلا فإنه سوف يكون من الصعب إحراز الانتصار الضروري لصوغ مجتمع جديد وأفضل، بالتأكيد. [...]. وسعياً إلى تجنب أية تورية خادعة في تحليل الممارسة السياسية للأيديولوجيين، فإنه لا يجب حجب النظر عن واقع أنهم قد شاركوا بنشاط في النضال من أجل الفوز بالسلطة، وهو نضال كان ينطوي بالضرورة على قدر معين من الواقعية القاسية».

٢٤ - لا ينفصل الأيديولوجيون عن بونابارت إلا اعتباراً من نهاية القنصلية. وفي ظل الإمبراطورية، سوف يخوضون نوعاً من المعارضة الأدبية للنظام. إن نابوليون الذي يتقارب باطراد مع النظام القديم سوف يأخذ عليهم تبني فكر مجرد لا يأخذ في اعتباره دروس التاريخ. وليس هناك ما هو أكثر توضيحاً لهذا الأمر من خطابه في مجلس الدولة في أواخر سبتمبر ١٨١٢ إثر حملة روسيا الكارثية :

«إلى الأيديولوجية، إلى تلك الميتافيزيقا المدلهمة، التي، في بحثها برهافة عن الأسباب الأولى، تريد على هذه الأسس تأسيس شرائع الشعوب، بدلا من استخلاص القوانين من إحساس القلب الإنساني ومن دروس التاريخ، [إلى الأيديولوجية] يجب إرجاع جميع المصائب التي حلت ببلدنا الجميل فرنسا. وكان لابد لهذه الأخطاء أن تجتذب وقد اجتذبت بالفعل حكم رجال دمويين. فالواقع، من هو الذي أعلن مبدأ الانتفاضة بوصفه واجباً ؟ ومن هو الذي تملق الشعب معلناً له سيادة كان عاجزاً عن ممارستها ؟ ومن هو الذي دمر قدسية واحترام القوانين، بجعلها متوقفة، ليس على المبادئ المقدسة للعدالة، وطبيعة الأشياء والعدالة المدنية، وإنما فقط على إرادة جمعية، مؤلفة من رجال غرباء عن معرفة القوانين المدنية، والجنائية والإدارية والسياسية والعسكرية ؟

«وعندما يكون المرء مدعواً إلى تجديد دولة، فإن عليه اتباع مبادئ متقابلة باستمرار. إن التاريخ هو الذي يلون قلب الإنسان؛ وفي التاريخ يجب البحث عن مزايا وعيوب مختلف التشريعات. ذلكم هو المبدأ الذي لا يجب أبداً أن يغيب عن نظر مجلس دولة إمبراطورية عظمى؛ وعندئذ يجب عليه أن يواجه كل محنة بشجاعة وأن يكون مستعداً، على غرار الرئيسين هارلاي وموليه، لأن يهلك في الدفاع عن الملك والعرش والقوانين». P.J.B. BUCHEZ et P.C. ROUX, *Histoire parlementaire de la Révolution Française*, Paris, 1838, T. 39, p. 395. إن بونابارت حملة مصر ليس بعد معهد العروش والكنيسة. فالواقع أن الحكومات النيابية هي التي يريد نشرها بين البشرية كلها. وإذا كان يخدم الأيديولوجيين، فمن الواضح أن

لديه نية في أن يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وإلى حد ما، فإن مشاريع [الأيديولوجيين وبونابارت] متلاقية؛ لكن الالتباس لن يزول إلا فيما بعد.

٢٥ – Pour tous les détails d'ordre militaire et administratif, je suis l'ouvrage fondamental de C. DE LA JONQUIÉRE, *L'Expédition d'Égypte*, Paris, 1899 - 1907, 5 volumes. Les quelques trois mille pages de ce grand historien militaire ont été la base de toutes les études sur la première année de l'Expédition. La richesse en documents cités a été d'une trés grande utilité, en particulier pour les historiens égyptiens qui n'avaient pas accés aux sources archivistiques.

٢٦ – كان فولني قد استقر في كورسيكا في عام ١٧٩١ لكي ينشئ استثمارة زراعية حديثة وقد لعب دوراً سياسياً مهماً في الصراع بين باولي وبونابارت. ووفقاً لشابتال، «قال لي فولني ذات مرة إنه عندما رأى بونابارت، فيما بعد، وهو يتجه إلى تقسيم الممالك وتوزيع التيجان، تذكر أنه، خلال إقامتهما في كورسيكا، قد أرغمه تقريباً على أن يتنازل له، في مقابل مبلغ جد زهيد، عن جزء من مزرعته؛ وقد أضاف أنه ربما أمكن القول إنه كان يمهد عندئذ لتقسيم حلوى الملوك». CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon*, Paris, 1893, p. 188.

٢٧ – TALLEYRAND, *Mémoires*, pp. 262 - 264.

٢٨ – Arthur CHUQUET, *Journal de voyage du génêal Desaix, Suisse et Italie (1797)*, Paris, 1907. Desaix s'est enthousiasmé pour le projet de conquête de l'Égypte (pp. 254 - 255).

٢٩ – Mathieu DUMAS, *Souvenirs du comte Mathieu Dumas de 1700 à 1836 publiés par son fils*, Paris, 1839, III, pp. 156 - 157.

٣٠ – Sur cette affaire, voir l'introduction historique de l'édition de la correspondance de Kléber en Egypte, H. LAURENS, *Kléber en Égypte, Kléber et Bonaparte* (par abréviation *Kléber et Bonaparte..*) Le Caire, I.F.A.O., 1988, pp. 93 - 95.

٣١ – H. DE SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution française*, Paris, 1886, T.V, p. 168.

٣٢ – Sur LAZOWSKI, Adam SKALKOWSKI, *Les polonais en Égypte, 1798 - 1801*, Paris, 1910, et Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires franais à Constantinople, 1784 - 1789*, mémoire de maîtrise, Université de Paris - Sorbonne, 1987. Son compatriote Joseph Sulkowski aussi est important : il avait été chargé par la République en 1793 - 1794 d'une mission d'information en Inde. Il ne dépassa pas Constantinople. Un peu

plus tard, il devint l'un des aides de camp de Bonaparte en Italie. Il avait épousé la fille de Venture de Paradis, lui - même fervent patisan d'une conquête de l'Égypte depuis les années 1770. Voir aussi Marcel REINHARD, *Avec Bonaparte en Italie d'aprés les lettres de son aide de camp Joseph Sulkowski*, Paris, 1946.

٣٣ – Jean Paul BERTAUD, *La Révolution armée, les soldats - citoyens et la Révolution française*, Paris, Robert Laffont, 1979, p. 271. Sur les officiers de l'armée d"Orient, voir G. RIGAULT, *Invertaire des états de services des officiers de L'armée d'Egypte*, Paris, 1911.

٣٤ – يجعل ميشيليه من كافاريللي المسؤول الرئيسي عن الجانب العلمي للحملة : «إن هذه الآلة العظيمة قد جهزت، ليس على طريق أنتان، في بيت جونيلين الصغير، بشارع هانتريان، بل في باريس الضفة اليسرى، الأقل شروداً بكثير، والأوسع خيالا. [...].

«وعلى رأس كل ذلك، ومن أجل بث الثقة، كان هناك [وهو شيء نادر]، كان هناك رجل، كافاريللي، وهو رجل محب، ومحب حبه للناس كلهم». *Histoire du XIXe siècle, II, Jusqu' au 18 brumaire*, Paris, 1875, pp. 260 - 261.

٣٥ – إن شهادة تيبو دو لها دلالتها :

«لقد اتخذ بوناپارت موقف الكاهن الأكبر الذي يملك وحده مفتاح سر عميق؛ ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهوري أو ملكي، أرستقراطي أو يعقوبي، شريطة أن يتسنى له استخدامهم جميعاً في تحقيق أهدافه [...].

«لقد جند الجنرال بوناپارت من كل حدب وصوب ضباطاً وجنوداً، علماء وأدباء، عمالا وفنانين. وحشد معدات وأدوات وكتباً وآلات، ونماذج؛ والواقع أنه بدا بكل هذه الاستعدادات كما لو كان يتجه، في صورة كولومبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه. وقد تجمع كل ذلك في طولون؛ وكان يمكن القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، لقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع. وكان الأمر أشبه بمهرجان؛ وكان عند أولئك الذين اشتركوا فيها حماسة جد مختلفة عن تلك التي تسبق المعارك؛ ولم يكن يبدون يتحدث إلا عن الراقصات الشرقيات، وعن صفو السماء وعن العطور التي تفوح بها أرض الميعاد.
THIBAUDEAU, *Mémoires sur la Convention et le Directoire*, Paris, 1824, II, p. 348.

٣٦ – *Correspondance de Napoléon*, IV, pp. 68 - 71.

٣٧ – LA JONQUIÉRE, I, pp. 351 - 352, Note sur la guerre à l'Angleterre datée du 13 avril 1798.

٣٨ – LA JONQUIÉRE, I, pp. 368 - 369.

٣٩ – Edward INGRAM, *Commitment to Empire : Prophecies of the*

Great Game in Asia, 1797 - 1800, pp. 115 - 195, Oxford, Clarendon Press, 1981.

٤٠ – لقد قدمت هذه المقترحات من جانب فرانسوا دو نيفشاتو إلى مؤتمر سيلز المكلف بتسوية الخلاف مع فرنسا، في ٥ يونيو ١٧٩٨ ؛ وبما أن كوبينتزل قد قاوم بحزم فيما يتعلق بالمسألة الألمانية، «فقد صاح فرانسوا، لنر إذًا ما هي الوسيلة الأخرى التي يمكن أن ترضيكم. ما الذي يناسبكم ؟ ألن تخدم ولايات تركية مشاريعكم ؟ ومن جديد يرفض كوبينتزل، فهو يقول إنه لكي يتم ذلك لابد من حرب جديدة لم يقدم لنا الباب العالي حتى الآن أبسط ذريعة لها. وبطبيعة الحال فإن ذلك سوف يحدث يومًا ما» وسوف يكون من السهل عليكم أن تتفاهموا حول هذه المسألة معنا ومع روسيا؛ لكن ذلك لن يحدث إلا عندما تتم تسوية كل شيء في راستات H. DE SYBEL, *Histoire de l'Europe pendant la Révolution française*, Paris, 1886, T.V, p. 274.

٤١ – LA JONQUIÉRE, I, pp. 416 - 465. كان بونابرت قد ألقى خطبة أولى على الجنود بأسلوب أبسط مذكرًا بمكاسب حرب إيطاليا وواعدًا كل جندي بأنه «عند العودة من هذه الحملة، سوف يكون معه ما يمكنه أن يشتري به ستة أفدنة من الأرض». والواقع أن هذه إشارة أخرى إلى الفيالق الرومانية.

٤٢ – Georges DOUIN, *La flotte de Bonaparte sur les côtes de l'Égypte, les prodromes d'Aboukir*, Le Caire, Société Royale de Géographie, 1922, pp. 34 - 35.

٤٣ – Robert GARNIER, *Hoche*, Paris, Payot, 1986, p. 272. في عام ١٧٩٥، كان جيش من المهاجرين قد نزل في كيبيرون لشن انتفاضة ملكية جديدة في غربي فرنسا. وقد ألحق بهم هوش الهزيمة وتم إعدام جميع المهاجرين الأسرى رميًا بالرصاص.

ومن أول يناير ١٧٩٣ إلى ٣١ ديسمبر ١٧٩٧، كان الأسطول الفرنسي قد خسر ٢٠٤ سفن، من بينها ٣٥ بارجة و٦١ فرقاطة و١٠٨ سفن من درجة أدنى. ولم تكن الخسائر الإنجليزية سوى ٧٧ سفينة، من بينها ١٤ بارجة و ٢٠ فرقاطة و ٤٣ سفينة من درجة أدنى. (LA JONQUIÉRE, I, P. 17).

٤٤ – DOUIN, op. cit. pp. 40 - 42.

٤٥ – Le 10 juin 1798. LA JONQUIÉRE, I, P. 585.

٤٦ – A. MARTIN, *Histoire de l'Expédition française en Égypte*, Paris, 1815, p. 148. Ce livre trés précieux est la premiére histoire de l'Expédition écrite par un de ses témoins, qui ne soit pas un ouvrage de propagande napoléonienne.

٤٧ – *Mémoires de M. de Bourrienne sur Napoléon*, édition de Désiré Lacroix, Paris, s.d., I. pp. 247 - 249.

٤٨ – Étienne GEOFFROY SAINT - HILAIRE, Lettres d'Égypte, Paris, 1910, p. 27 et pp. 44 - 45 ; *Dictionnaire Napoléon*.

٤٩ – مذكرة كليبر: «لم يكن هناك ٤٠ شخصاً من الحملة على علم بالوجهة التي سنتجه إليها. احتجاج بلانكو على حملة مصر، التي لم يشأ تصديقها. إنه يريد الذهاب إلى القرم، لماذا ؟ إن آخرين في المورة، وآخرين في صقلية، وآخرين ثالثاً في البرتغال، وإن كنا قد تجاوزنا الطريق؛ وأخيراً يجري الإعلان عن الوجهة. وعندئذ يسود كثير من الشك، ويتبادل [أفراد الحملة] النظرات... إذن فقد كنت على علم بها ؟... وأنت ؟ إلخ». *Kléber et Bonaparte*, I, p. 534

الفصل الثالث

السلطة والمجتمع في مصر العثمانية

الإمبراطورية العثمانية ومصر

الفتح العثماني

قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر في ١٥١٦ – ١٥١٧، بما يشكل مرحلة كبرى في العملية المزدوجة الخاصة بتكوين اقتصاد – عالم عثماني وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين. وينبع إدماج العالم العربي في النظام العثماني من هذه الأزمة المزدوجة: بداية تحول الطرق التجارية التقليدية إلى الهند، والراجع إلى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري الذي يمر برأس الرجاء الصالح، وتصدع المجال الإسلامي السني في القرون الأخيرة للعصور الوسطى، والناشئ عن تحول الإسلام الشيعي في فارس إلى دين للدولة تحت قيادة الأتراك الصفويين.

والحال أن السلطنة العثمانية، البارزة بالفعل في عالم الإسلام السني بفضل فتحها للبلقان على حساب القوى المسيحية وبفضل الاستيلاء على القسطنطينية الذي يمنحها الاستمرارية الإمبراطورية لروما ولبيزنطة، إنما تصبح أكثر من ضرورية للدفاع عن مصالح الجماعة في وجه هذا الخطر القاتل المزدوج. وبعد سنوات قليلة من فتح مصر، فإن أفريقيا الشمالية، فيما عدا المغرب الأقصى، تنضم بدورها إلى العثمانيين، ومما له دلالته أن خلافة العباسيين الشبحية في القاهرة تختفي دون ضجيج وأن الشارات التي ترمز إلى شرعية واستمرارية الخلافة تنتقل إلى السلالة الحاكمة العثمانية التي تصبح حارسة للمدن المقدسة وحامية للحج. وخلال الأزمنة التالية، يكتفي الباديشاهات، أو السلاطين من آل عثمان، بدمج لقب الخلافة في الألقاب السلطانية، المتوفرة بما يكفي بالفعل. لكن أحداً لا

تخامره شكوك حول ذلك، فهم يمارسون بالفعل كامل الوظائف الضرورية للدفاع عن الإسلام السنى ضد جميع خصومه.

والواقع أن الصفويين، في إثر نزاعات عسكرية عنيدة ضاعفت منها مواجهة أيديولوجية وحرب دعائية بين الإسلام الشيعى والإسلام السنى، قد جرى ردهم إلى الحدود السياسية الحالية بين الإسلام الشيعى والإسلام السنى. وفى داخل الإمبراطورية العثمانية، تعرض السكان الشيعة لقمع قاس من جراء محاولاتهم الانتفاضية وتعرضوا بشكل متواصل للتصميم وللسيطرة وغالبًا ما جرى إبعادهم أو دفعهم إلى الهرب بعيدًا عن المناطق الاستراتيجية. وهذا التصدع لمجال الإسلام يجعل من الإمبراطورية العثمانية الممثل الجديد للجماعة الإسلامية. فهى لا جار لها غير للمغرب الأقصى الذى يتميز بتقاليده الدينية الخاصة والإمبراطورية الفارسية الشيعية وهى (الإمبراطورية العثمانية – المترجم) لا تحتفظ إلا بعلاقات باهتة مع القوى السنية فى أفغانستان والهند.

وفى البحر الأحمر وفى الخليج الفارسى وفى المحيط الهندى، يبنى العثمانيون أساطيل ويحاربون البرتغاليين. بل إن أسطولا عثمانيًا يتحرك فى عام ١٥٢٨ من السويس لكى يصل إلى الهند، ويجرى إنشاء قاعدة أمامية فى اليمن. وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر، ويعاد مؤقتًا فتح الطريق التقليدى لتجارة الهند. ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والإمكانات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستديمة.

وكان لابد من انتظار الشكل المتقدم التقنى التى عرفها القرنان التاليان وظهور سفن الإنجليز والهولنديين البحرية الضخمة حتى يمكن للبحر الأحمر، المنظور على الأوروبيين، أن يكف عن أن يكون مهمًا من الناحية الاقتصادية كطريق للمرور بين أوروبا والهند. وقد رأى المستشرقون والمؤرخون فى القرن الثامن عشر فى نهاية تجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا أحد الأسباب الرئيسية للانحطاط المتصور للإمبراطورية العثمانية.

تجــارة مصــر

الواقع أنه يتشكل اقتصاد – عالم يتميز بأبعاد هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، وهى أكبر إمبراطورية مطلة على البحر المتوسط منذ زمن الرومان (١). وقد اتخذت الإمبراطورية مشروعها التأسيسى الخاص بإعادة بناء للمجال الإسلامى.

إن تجارة منتوج جديد، هو بن اليمن، تحل محل تجارة التوابل التى يجرى نقلها إلى

الأوروبيين. ويسمح ترامى أطراف المجال العثمانى بتكوين شبكة رائعة من الطرق التجارية البرية التى تستخدمها قوافل الجمال. والتى تضاعفها طرق بحرية تستعار بشكل متزايد فى البحر المتوسط من سفن أوروبية مؤجرة من جانب تجار عثمانيين، مسلمين بشكل خاص(٢).

والواقع الرئيسى هو أن اختصاصات أقاليم الإمبراطورية المختلفة تصبح مكملة أحدها للآخر. وتتراكب وحدة الجماعة، بالرغم من التنوع الدينى والإثنى، مع الوحدة التجارية، وبالرغم من الاتجاهات الماثلة إلى تمتع الولايات بقدر من الاستقلال، فإن الواقع الإمبراطورى يظل واقعاً دائماً وإطاراً ذهنياً ضرورياً.

وهكذا، ففى البحر الأحمر، لا يتردد التجار والبحارة المصريون كثيراً على الهند مثلما كانوا يفعلون فى العصور الوسطى. وإذ يتحركون من السويس، فإنهم لا يتجاوزون جدة حيث يتولون شحن المنتجات القادمة من اليمن والمحيط الهندى. كما أن بحارة الأقاليم الأخرى للبحر الأحمر والمحيط الهندى لا يتجاوزون المدينتين المقدستين. ويضطر الأوروبيون إلى الإذعان لهذا المنع الذى تعلنه السلطات العثمانية رسمياً، فى حالتهم (٣).

ويصدر المصريون إلى الحجاز منتجات أوروبية (منسوجات) ومنتجات محلية (مؤن غذائية بشكل خاص)، مصحوبة بكميات مهمة من العملات النقدية. وهم يستوردون من الحجاز بن اليمن وتوابل وعقاقير متنوعة ومنسوجات واردة من الهند. ومن ثم فإن اقتصاد الحجاز يعتمد بشكل حيوى على اقتصاد مصر لكن التجارة المصرية تتغذى، بدورها، على نقل منتجات من البحر الأحمر إلى أوروبا وبقية الإمبراطورية العثمانية.

وترحل تجارة قوافل عبر الصحراء من خلال «طريق الأربعين يوماً» نحو دارفور وسنار. وهى تتألف بشكل خاص من استيراد منتجات أفريقية متنوعة (العبيد، الجمال، الصمغ، الجلود...)، وتصدير منسوجات ومصنوعات حرفية. وهى أقل أهمية بكثير من التوجهات التجارية الأخرى (٤).

وإذا كانت التجارة مع أوروبا مهمة (سُبع إجمالى تجارة مصر)، فإنها لا تمثل غير جزء صغير من التبادلات مع بقية العالم العثمانى (نصف إجمالى تجارة مصر). والاقتصاد - العالم العثمانى ليس مندمجاً بعد بالفعل فى السوق العالمية التى تهيمن عليها أوروبا.

وهذه التجارة يهيمن عليها أفراد غير منحدرين من سكان مصر الأصليين.

فالعلاقات مع أوروبا فى أيدى إيطاليين وخاصة فرنسيين. والصلات مع المغرب يحتكرها مغاربة مقيمون فى القاهرة وفى الإسكندرية (بوجه عام، يلعب المغاربة دوراً متزايداً فى مصر فى القرن الثامن عشر). والسوريون المسيحيون والمسلمون يسيطرون على التجارة مع سوريا الطبيعية (*)، بينما يسيطر الأتراك على التجارة، جد المهمة، مع اسطنبول. وتجارة البن هى وحدها التى تظل مصرية بشكل لخص، وسوف يتعين الانتظار حتى نهاية القرن الثامن عشر لكى نشهد اقتحام السوريين المسيحيين لها.

والحال أن وجود هذه العناصر غير المتمصرة من صفوف سكان البلد الأصليين إنما يفسر الوجه الكوزموبوليتى والعثمانى الخاص لمصر فى القرن الثامن عشر كما يفسر صعوبة انبثاق هوية مصرية بشكل حقيقى.

التنظيم السياسى

إن ترامى أطراف المجال العثمانى واستحالة السيطرة على كل شىء من العاصمة قد فرضا على الباب العالى ضرورة نزع مركزية السلطة. ومنح سلطة جد واسعة للوالى، الباشا - الحاكم للولاية، إنما يعنى السماح بالفعل بقدر كبير من إغراءات الانفصال السياسى. والحال أن أول والٍ عثمانى على مصر قد تمرد، منذ عام ١٥٢٤، على السلطان معتمداً على المماليك قبل أن يتم اغتياله فى تمرد شعبى فى السنة التالية. ويضطر العثمانيون إلى القيام بحملة جديدة على مصر وإلى إعادة تنظيم البنية المحلية للسلطة.

وتشير التجربة إلى أنه يتعين الحد من هامش سلطة كل جهاز من الأجهزة المحلية للدولة. وعندئذ فإن المسئولين العثمانيين يحشدون نظاماً مركباً من التوازن والكوابح المتبادلة، وهو نظام، بالرغم من اختلالاته، سوف يثبت فعاليته على مدار أكثر من قرنين.

وتصبح مصر التزاماً ضريبياً ضخماً يديره الوالى، وهو بلقب يحمل رتبة وزير، يتعين عليه أن يرسل سنوياً خزينة إلى الباب العالى (الإدارة المركزية العثمانية) وأن يفى بعدد معين من الواجبات الموروثة عن السلطة المملوكية، كتنظيم قافلة الحج القادمة من أفريقيا وإمداد المدينتين المقدستين فى الحجاز بالمؤن. أما كبار الموظفين الآخرين فهم يعينون من قبل الباب العالى مباشرة ويشرفون فى آن واحد على الوالى، الذى تعتبر مدة ولايته قصيرة الأجل، وأعمال زملائهم و، بوجه عام، على حسن تطبيق القوانين السلطانية.

ويقيم فى البلد بشكل دائم عدد معين من فرق القوات المشاة (الإنكشارية خاصة)

والفرسان. وهذه الأوجاقات أو الميليشيات بحسب المصطلح الذي استخدمه الرحالة الأوروبيون، والمؤلفة من أناضوليين أو بلقانيين، هي وحدات عسكرية نظامية تحصل على رواتبها من الخزانة المالية. وحيازة أي امتياز ضريبي محظورة بشكل صارم على أفرادها. وفي حالة حرب كبرى، فإنها تخدم خارج مصر.

ويعهد بإدارة الأقاليم إلى الكُشّاف (أربعة عشر كاشفا في القرن السادس عشر)، وهي وظيفة كانت موجودة بالفعل في ظل النظام السابق، وهم يستندون إلى حاشيتهم المؤلفة من مماليك. أمّا مصطلح السنجق بك، «الفارس القائد»، والذي يساوي مصطلح الأمير في العربية، فهو مصطلح شرفي بشكل خالص ويستخدم في الإشارة إلى أكثر المماليك أهمية. وتدريجياً، يجري تجنيد الكُشّاف من بين المماليك ويحملون رتبة السنجق بك، والتي تختصر إلى بك. ومن ثم فإن كل جماعات السلطة هذه ذات تجنيد مختلف وتراقب إحداها الأخرى، الأمر الذي لابد له، بحسب تصورات الباب العالي، أن يحول دون أية محاولة للانفصال وأن يسمح بإدارة عادلة ومفيدة بالنسبة لمجموع السكان. أمّا الجهاز الرئيسي فهو الديوان الذي يمثل فيه مختلف ضباط الميليشيات، وكبار موظفي الإدارة وكبار رجال الدين المسلمين في القاهرة. ويدير ديوان مصغر الشئون الجارية.

المماليـــك

قام نظام المماليك في القرن الثالث عشر لمواجهة الخطر الذي شكله، بالنسبة للإسلام، المغول ثم الصليبيون. ويتعلق الأمر بالاضطلاع، إثر تدجين بشري حقيقي، بتأهيل عبيد فتيان من أصل مسيحي، يجيئون غالباً من القوقاز، لكي يصبحوا محاربين محترفين ومنضبطين. والواقع أن المحصلة قد حققت التوقعات، ذلك أن المماليك قد صدوا المغول. وانزلوا الهزيمة بصليبييّ القديس لويس، الذين كانوا قد انخرطوا في حملة أولى على مصر ودمروا مستعمرات الفرنجة الأخيرة في الأرض المقدسة. لكن هؤلاء العبيد قد استولوا أيضاً على الحكم ومع تأبيدهم لنظام تجنيد العبيد شيدوا سلطنة هيمنت على مصر وسوريا على مدار نحو قرنين.

ولا يرى العثمانيون أية مشكلة في تمديد هذا النظام شرط التمكن من السيطرة عليه. ويسمح وجود وحدات عسكرية أخرى ذات أصل غير عربي بموازنة دور المماليك. وهكذا فإن الميليشيات والمماليك يقدمون الموظفين الرئيسيين لإدارة مصر.

وفي العصر العثماني، كانت غالبية المماليك منحدرة من القوقاز، حيث كان

الشراكسة يتمتعون بالتقدير الأعلى. لكننا نجد بينهم منحدرين من البلقان بل ومن أوروبا الغربية. بل إن بعض المصريين الأصلاء والعبيد السود يصبحون مماليك – وخلافاً لما كان عليه الحال في العصر الوسيط – فإنه لا يبدو أنه قد حدث تنافر بسبب الأصول الإثنية والعرقية.

وغالباً ما كان يتم تأهيل أولى في اسطنبول أو في أجزاء أخرى من الإمبراطورية، قبل الوصول إلى مصر. وفي العصر الوسيط، لم يك بوسع أبناء المماليك اتخاذ وضعية آبائهم. وفي العصر العثماني، يصبح ذلك ممكناً وإن كان قليل الشيوع، بينما تلعب الارتباطات الزواجية دوراً أهم. ويتأبد النظام عبر لجوء دائم إلى عبيد جدد. ولا يستثير ذلك أية صدمة لأن للتصور أن الإدارة السلطانية لا تتألف إلاّ من عبيد (قول) للسلطان، فيما عدا الهيئات القضائية الدينية كما هو واضح.

وبوجه عام فإن العبيد يباعون لمملوك محرر، عضو بيت مملوكي. وهم يتلقون عندئذ تأهيلاً عسكرياً طويلاً يجعل منهم فرساناً موهوبي الجانب. ويتألف البيت المملوكي من مجموعة من المماليك حول رئيس مؤسس (أستاذ، أب، مولى، سيد) . وهؤلاء المماليك إما أنهم أحرار بالفعل أو ما يزالون عبيداً. ويترافق التحرير مع الصعود إلى وظيفة مهمة في الإدارة لكنه لا يلغي أواصر الولاء تجاه السيد السابق. وهذا الأخير محاط أيضاً بأخوية من المماليك المنبثقين من البيت نفسه ويواصلون ويدعمون مسيرته العملية (خُشداشية). والمملوك الذي يصل إلى أرفع مكانة، ينشئ بيته الخاص. وتؤدي روح الفصيل إلى توحيد كل أفراد البيت الواحد وتدفعهم إلى ازدراء أفراد البيوت الأخرى (٦).

كما أن المعاونين الرئيسيين يرتبطون بسادتهم عبر أواصر زواجية، فهم يتزوجون أخت أو ابنة أو مطلقة أو جارية سيدهم. وتشكل النساء المملوكيات وسطاً على حدة فهن يتميزون بنفس الأصل الإثني والعبودي. وبوجه عام فإن بنات المماليك يتزوجن مماليك. بل إن بعض النساء يلعبن دوراً بالغ الأهمية في السياسة المصرية.

وعلى الرغم من أن المماليك ليسوا مصريين من حيث أرومتهم، فهم الوحيدون الذين يحملون اسم «المصريين»، تحت شكل المصرلية للتَّرْك المشتق من مصطلح مصر الذي يعني في آن واحد مصر على اتساعها والقاهرة. ومعناه الأول على الأرجح هو «الحضري» وهو يتطابق مع مصطلح «العثمانلي»، أي عضو الطبقة الحاكمة. وفي تيار القرن الثامن عشر، يبدو من الواضح أن شكلاً معيناً من الوعي «المصري» يظهر في أوساط الأمراء المماليك الكبار.

وأياً كان الأمر، فإن أولئك الذين نسميهم بـ «المصريين الأصلاء» لا يشار إليهم بهذا الاسم. فالتمييز الرئيسي، الضروري لتعريف الهوية، إنما يمر أولاً بالفارق الديني بين المسلمين وغير المسلمين. وبالنسبة للأقليات، فإن هذا التعريف كاف، وأياً كان الأمر، فإن مصطلح القبطي يحيل بالفعل إلى مصر ما قبل الإسلام وقد استخدم في البداية للإشارة إلى مجموع المصريين.

ولتسمية المسلمين المصريين، يجرى استخدام عدة مصطلحات، فمصطلح «ابن البلد» شائع وضئيل الاتصال بمعناه، فهو يتطابق مع مصطلح «الأصيل». ومصطلح أولاد العرب يحيل إلى خليط اثنى حفزته الفتوحات العربية في القرون الأولى للإسلام. وهو أقرب إلى «المعربين» من «العرب». ويوجد هؤلاء الأخيرون في مصر على شكل قبائل بدوية تنتسب لنفسها عبر سلاسل نسب طويلة أصلا يرجع إلى العرب الأوائل والحقيقيين في شبه الجزيرة المجاورة. وحتى اليوم، فإن كلمة «عربي» في اللهجة الشائعة في مصر تعني «البدوي» ولا تستثير توحدا تلقائيا معها من جانب المصري العادي.

ومصطلح «فلاح» يستخدم استخداما تحقيريا ويستوعب أبرز المصريين بمن في ذلك رجال الدين الأشهر بعلمهم أو أحفاد النبي. وهو مصطلح احتقار يستخدمه كبار الموظفين العثمانيين الذين لا يعرفون أنفسهم هم أنفسهم بأنهم «أتراك» والذين يسميهم المصريون على نحو بليغ الدلالة بالروميين (٧) للتذكير بالخضوع المفروض على هؤلاء الريفيين من جانب السلطة المركزية(٨). وهو يتطابق (مصطلح الفلاح – المترجم) مع مصطلح الرعية، أي ذلك الذي لا ينتمي إلى الطبقة الحاكمة. وهكذا فإننا نجد في مصر في القرن الثامن عشر جماعة من المماليك ذوي الأصل المصري وتلعب دوراً مهماً في السياسة المملوكية، تحمل بشكل له دلالته اسم جماعة الفلاح (٩).

أما الأقباط، وهم مصريون مسيحيون قائلون بوحدة طبيعة المسيح، فهم الأحفاد المباشرون أكثر من سواهم لمصريي العصر القديم. وهم معربون بالكامل على المستوى اللغوي منذ نهاية العصر المملوكي. ومن حيث كونهم جماعة سكانية فلاحية، فإننا لا نجدهم إلا في مصر الوسطى بين بني سويف وجرجا، وذلك إثر تقلبات التاريخ. وهم لا يشكلون غير نسبة نحو ٧ في المائة من إجمالي سكان مصر. وفي القرن الثامن عشر، عرفت كنيستهم انحطاطاً مادياً عميقاً، فعدد الأسقفيات يقل؛ وقد تم هجر الأديرة فيما عدا

استنتاجات قليلة؛ ولا تتمتع جماعات عديدة من الأقباط بكنائس. والآباء غائبون وعندما يوجدون، فإنهم بوجه عام جهلاء ومشعوذون. وقد قامت كنيسة روما القوية بعمل تبشيري موجه إلى مساعدة هؤلاء المسيحيين الشرقيين المنشقين سعياً إلى إعادتهم إلى حظيرة الكاثوليكية. وإذا كانت المحاولات الرامية إلى توحيد الكنائس تفشل، فإن أشكال الولاء التي ولدت في أوروبا من الإصلاح المضاد يجرى إدخالها، بما يسمح بإحياء معين للأدب العربي – المسيحي.

وهـذا العمـل يمس بشـكل أسـاسي الأعيـان المستنيرين لكنه لا يمس رجال الدين والجماهير الشعبية القبطية المتعلقة بالطقوس، الملاذ الأخير لوعي الانتماء إلى جماعة متميزة. وهؤلاء الأعيان الحضريون يشكلون جماعة الأمناء المسئولين عن الضرائب وعن إيرادات الدولة والالتزامات الضريبية، بما يشكل تخصصاً طائفياً حقيقياً لأن الأقباط دائماً هم الذين يتولون على المستوى الأدنى للإدارة الضريبية مهمة أعمال مسك الدفاتر الحسابية والكتابة، والحال أن ثقل الأعيان في الطائفة يعتبر بالغ الأهمية بحيث أن وضع الهيراركية الكنسية ينحط بشكل متواصل. والواقع أن الأعيان المنفتحين نسبياً على الغرب بفضل المبشرين ولأهمية التعليم في عملهم، إنما يلعبون دوراً أساسياً في إدارة مصر العثمانية (١٠).

تحولات القرنين السابع عشر والثامن عشر

التحولات السياسية

لا يعمل النظام العثماني بشكل دقيق إلاّ لبضعة عقود. وهو يتأسس على المبدأ المزدوج للسلطات وعلى تهميشها قياساً إلى المجتمع. وواقع أن تجنيد وتمويل الطبقة الحاكمة يجب أن يتما دون علاقة مباشرة مع الجماعات الاجتماعية المختلفة إنما يشكل ضمانة حماية متساوية بالنسبة للجميع.

على أن العسكريين يندمجون بسرعة بالغة في المجتمع. ومنذ أواخر القرن السادس عشـر، يدخـل المـماليك فـي الميليشـيـات وينخون بنفـوذ البيـوت المملوكية على السلطة النظرية المضادة لهم. وهذه الميليشيات نفسها، بدلا من أن تجرى تجنيدها خارج مصر، إنما تفتح صفوفها لأوساط التجار والحرفيين الحضرية. والحال أن الانتماء إلى قوة ميليشيا

إنما يؤول إلى ضمان دخل منتظم وإلى الاستفادة من شكل معين من أشكال الحماية. وفي المقابل، فإن رجال الميليشيا يبدلون في المطالبة بفرض تحصيلات مالية على النشاطات الاقتصادية الحضرية. وهذه العملية تعاود الظهور في مجمل الإمبراطورية العثمانية، وذلك بقدر ما إن من الصحيح أن تطور مصر يتبع تطور البلدان العثمانية الأعم.

وتتمثل ظاهرة أكثر أهمية أيضاً في أن سلطة الوالي العثماني تأخذ في الانحطاط. فالعسكريون يشعرون أنهم جد أقوياء بحيث يمكنهم تنحية الباشاوات عن مناصبهم وتعيين مسئول كبير من صفوفهم ليتولى مهام الحكم المؤقت إلى حين إرسال الباب العالي والياً جديداً إلى مصر. وقد حدثت أول تنحية في عام ١٥٨٦.

ويسمح ضياع سلطة الوالي بإعادة توزيع الالتزامات الضريبية الحضرية والريفية لحساب الطبقة الحاكمة المحلية وعلى حساب الإيرادات الإمبراطورية ودافعي الضرائب. ويستمر إرسال الخزينة إلى القسطنطينية، ولكن مع الحفاظ على قيمتها الاسمية في فترة تضخم أسعار واضحة. وسعياً إلى تجنب تدهور جديد لسلطته، يتجه الباب العالي من جهته إلى زيادة حدة التنافسات الداخلية. والجانب الرئيسي من نشاط الباشوات، المجردين من بقية سلطتهم، إنما يتمثل في صون روح التحيل لدى الطبقة الحاكمة. وتفشل جميع المحاولات الرامية إلى قطع شوط أبعد في تعزيز مرجعية السلطة المركزية.

والواقع أن هذه الصراعات تعتبر بالغة العنف بقدر ما إن رهانها هو إعادة توزيع الإيرادات الضريبية. والسلطة القائمة تنقسم إلى مجموعات، إلى أحزاب يوحد كل منها بكوات مماليك وميليشيات بل وأنصاراً حضريين وأحلافاً بدوية. وخلال القرن السابع عشر، تشهد هذه الصراعات غلبة البكوات المتتالية، ثم، في أواخر القرن، غلبة ميليشيا الانكشارية. واعتباراً من عام ١٧١١، يستعيد البكوات تدريجياً هيمنتهم. والواقع أن المماليك كانوا بسبيلهم إلى إعادة توحيد الطبقة الحاكمة باحتكارهم لحسابهم جميع المناصب الرسمية، في الإدارة كما في الميليشيات على حد سواء.

والحال أن الانحطاط الحاسم لقوة الميليشيات، التي تحولت في أواخر القرن الثامن عشر إلى قوات شرطة عادية وأصبحت تحت سيطرة المماليك المحكمة، إنما يعد بالغ الضرر بالنسبة للحرفيين وللتجار الحضريين. وهذه المهن، المؤطرة تأطيراً راسخاً عن طريق نظام طوائف كابح يكبت المنافسة ويبدو معادياً لكل روح تجديدية، كانت، في آن واحد، مستغلة بشكل جيد نسبياً من جانبها، في الوقت نفسه. لمّا البكوات للمماليك لهم يبدون أكثر

جشعاً بقدر ما أنهم، خلافا لرجال المماليك المصريين، يعتبرون معزولين تماما من السكان المصريين. وفي أعقاب تنظيم اجتماعي سياسي منفتح نسبياً يجيء نظام مغلق لا يؤدي فيه أي شيء بعد إلى تخفيف صرامة استغلال الرعايا من جانب حكامهم الجدد.(١١)

الاقتصـــاد

هذا التحول السياسي معاصر لتطور بالغ الخطورة بالنسبة للاقتصاد المصري. فالواقع أن التغلغل الاقتصادي الأوروبي يبدأ في ممارسة آثاره على التجارة والإنتاج الحرفي للبلد.

إن اقتصاد – العالم العثماني ينشطر. فالبن، المنتوج الرئيسي البديل لتجارة التوابل التي عرفتها العصور الوسطى، يجد نفسه محل منافسة في الأسواق الأوروبية من جانب بن جزر الأنتيل الذي تبدأ زراعته في تلك الجزر اعتباراً من عام ١٧٢٦، وهو، بفضل نظام الزراعة، ينتج بتكلفة أقل وبكميات أضخم. ومنذ عام ١٧٣٠، يجري إدخال هذا البن الجديد إلى أوروبا. وسرعان ما يتجه العثمانيون إلى استيراده بينما يتجه المصريون أنفسهم إلى استهلاكه. والنتيجة أن تجارة البن الكبرى تدخل في انحطاط. وهو عين ما يحدث لتجارة الأقمشة الهندية عن طريق البحر الأحمر. فالكميات تنخفض بشكل ملحوظ بسبب تدابير الحظر الأوروبية ومنافسة المنتجات الأوروبية.

ويشهد إنتاج السكر تطوراً مماثلا في وجه منافسة الجزر الأمريكية. ويتراجع السكر المصري في جميع أسواقه المعتادة وينهار نشاط أساسي للصناعة التقليدية المصرية.

وتنحط تجارة وحرف المنسوجات المصرية في الفترة نفسها. فالمنتجات الأوروبية وأساساً الفرنسية تحل محلها جزئياً في السوق العثمانية وفي مصر نفسها. وتعتبر النتائج جد سلبية بالنسبة للأوساط الحضرية المصرية(١٢). لكن جماعات أخرى تفيد من هذا التطور.

وهكذا فإن بورجوازية من المسيحيين السوريين، من الكاثوليك اليونانيين أساساً (من الملة الأرثوذكسية وإن كانت عربية الأصل)، تثرى عن طريق دورها كوسيط وتصبح إحدى القوى الصاعدة في المجتمع المصري. وهذه الطائفة حديثة النشأة. ويرجع أصلها إلى المدن التجارية الكبرى في أعماق سوريا، دمشق وحلب، لكنها تتطور مع نمو المدن الساحلية في سوريا ومصر والمرتبط بالتجارة مع أوروبا. والحال أن تحول العرب

الأرثوذكس إلى الكاثوليكية، في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، إنما يجد تفسيره في الحاجة إلى تأكيد درجة من الاستقلال المحلي تجاه الكنيسة الأرثوذكسية التي يهيمن عليها رجال دين من أصل أثني يوناني، على ارتباط وثيق ببطريركية القسطنطينية والتي تمثل قريناً كنسياً للسلطة المركزية التي يمثلها الباب العالي. ويرمز (هذا التحول – المترجم) أيضاً إلى رغبة في التقارب مع أوروبا الكاثوليكية المطلة على البحر المتوسط. ومن جهة أخرى، فإنه إذا كانت روما تدعم الانشقاق من خلال مبشريها، فإن فرنسا تعد معادية له بسبب التعقيدات الدبلوماسية التي يخلقها لحميتها الدينية وبسبب المنافسة التجارية التي يمكن أن تتسبب لها فيها الشبكة الكاثوليكية اليونانية في موانئ شرقي البحر المتوسط. على أن النشاط التجاري للكاثوليك اليونانيين غالباً ما يصبح مكملا لنشاط التجار الإفرنج (الفرنسيين – المترجم). وفي مصر، يصل عددهم إلى نحو أربعة آلاف يقيمون في القاهرة والإسكندرية وخاصة دمياط، ميناء العلاقات مع سوريا.

والباب العالي لا يعترف رسمياً بهذه الطائفة الجديدة التي تضعف الكنيسة الأرثوذكسية، إحدى الروافع الأساسية للإدارة المركزية للإمبراطورية. ثم إن الكاثوليك اليونانيين يتضامنون مع نزعات الاستقلال المحلية. كما أنهم يدخلون في تنافس مع الشبكة اليهودية التي تمتد إلى القسطنطينية في حين أن شبكتهم تقتصر على الشرق الأدنى. ورهان الصراع هو الإدارة المالية لأشباه الدول (شبه المستقلة – المترجم). وفي عكا كما في مصر، ينجحون في الحلول محل اليهود في إدارة الجمارك وفي وظيفة ممولي السلطات شبه المستقلة. ويكمن مفتاح نجاحهم في كفاءتهم التقنية وتضامن جماعاتهم كما يكمن في تبعيتهم الوثيقة تجاه الحكام المحليين. ولما كانوا يدينون بكل شيء للسيد المحلي، فإنهم لا يغامرون بالخيانة.

ويؤدي الانشقاق الملكي إلى إنشاء جماعة من رجال الدين العرب بشكل خالص والمنفصلين عن النفوذ اليوناني. وفي التسميات المحلية، غالباً ما يسمى أفراد الطائفة الجديدة بأولاد العرب بدلا من الروم. ويوجد هنا الإيحاء العربي في الإبداع الأدبي والثقافي الذي يلهمونه في اللغة العربية والذي يستشرف النهضة، الحركة الكبرى للتجديد الأدبي العربي في القرن التالي والتي تبشر بالعروبة. ومع ارتباطهم بأوروبا وانفتاحهم عليها، فإن الكاثوليك اليونانيين يشكلون أحد أهم عوامل تجديد الشرق الأدنى (١٣).

ويؤدي انحطاط السلطة العثمانية والتغلغل الاقتصادي الأوروبي إلى تعديل هياكل الإنتاج الزراعي بشكل ملحوظ (١٤).

الأريـــاف

في القرن الثامن عشر، نجد أنفسنا في المرحلة النهائية لنظام الزراعة المؤسس على فرشة فيضان النيل. فكل فيضان يفرش على ضفاف النهر أثقل الجزيئات التي يحملها الماء. ومن ثم، فإن النهر يصبح مؤطراً بيطانتين غرينيتين تصبحان، بفضل الجهد البشري، سدين شطيين عاليين أعلى من أعلى مستوى لمياه الفيضان، في حين أن السهل التحتي يبدو منخفضاً بشكل انسيابي حتى بداية النجد الصحراوي حيث تترسب المياه الأكثر صفاءً.

ومنذ العصر الفرعوني، كانت الأرض الزراعية المصرية تدار عبر سلسلة من أحواض فرشة الفيضان التي تغذى بقنوات تبعاً لانحدار الوادي، ويبدأ الفيضان نحو منتصف الصيف وينفتح السد الشطي نحو منتصف أغسطس. وكانت الأحواض تُملأ بالتتالي من الأقرب إلى النهر إلى الأبعد.

وفي العصر الوسيط، حَسَّن العرب النظام بتوسيع طرائق رفع المياه في مصر السفلى حيث كان ارتفاع الفيضان أضعف بكثير مما في مصر العليا. ومنذ ذلك الحين، ظلت مصر العليا في نظام استغلال جماعي من جانب الجماعة القروية مع دفع ضرائب عينية بينما عرفت مصر السفلى عملية فرزنة لقطع الأرض في إطار الاستغلال العائلي والدخول في مجال الاقتصاد النقدي.

والحال أن الخيار الذي اتخذه العثمانيون في القرن السادس عشر باستغلال مصر إداريًا عن طريق الالتزام الضريبي قد أدى إلى نظام الالتزام. فشريطة الدفع المقدم لضريبة (ميري) واجبة السداد للدولة، يحصل الملتزم، الحاصل على الامتياز الضريبي، على حق الانتفاع بجزء من الأملاك العامة. وهو يلتزم بجباية الميري من الفلاحين وبرعاية السدود والقنوات. ويتولى تحصيل إيراد، هو الفائض، ثمناً لخدماته.

ويغطي الالتزام قرية أو عدة قرى. وهو ينقسم، من جهة، إلى الأراضي الفلاحية (فلاح) التي تدفع الضريبة وتتولى أعمال السخرة، ومن جهة أخرى، الأراضي المخصصة للملتزم، أراضي الوسية، وهي الأفضل عموماً. وفي أغلب الأحوال يتولى الملتزم استغلالها عن طريق عمل مقابل أجر أو عن طريق تأجيرها. ومن الناحية النظرية، فإن الأراضي المخصصة للملتزم (الوسية) تشكل الجانب الرئيسي من الفائض.

والحال أن الملتزم، المقيم بوجه عام في المدينة، يقسم التزامه إلى قطع تشمل نوعي الأرض (أرض الفلاح وأرض الوسية) ويعهد بهما إلى قدم فلاح في الجماعة القروية، وهو شيخ البلد (رئيس القرية). وهذا الأخير هو الشخصية الأهم في العالم الفلاحي لأنه يقسم ويجمع الضرائب ويقود مجمل نظام استغلال الأرض الزراعية القروية (١٥). ومن ثم فإن الدولة ليست لها اتصالات مباشرة مع العالم الفلاحي. وشيخ البلد يمثلها في الساحة، لكن الملتزم يتوسط بالكامل بينه وبقية النظام الإداري.

وفي القرن الثامن عشر، يتحول الالتزام من التزام ضريبي مؤقت بسيط إلى شبه ملكية خاصة لحساب الملتزم. وبفضل حيل قانونية، يصبح قابلا للتوريث، وقابلا للرهن بل وقابلا للبيع. ثم إن الملتزم يزيد الحيل التي تسمح له بزيادة حصته على حساب الأراضي الفلاحية ويختلق ضرائب جديدة تنوخ بكلكلها على الفلاح. ومن القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، تزيد غلة الضرائب المفروضة على الفلاحين أربعة أضعاف. ولا تحصل الدولة منها إلاّ على ثلث (١٦).

ويتعزز العبء الضريبي الإضافي على الفلاحين من جراء الاتاوات التي يفرضها البدو المجاورون عليهم فرضاً تعسفياً. وهؤلاء البدو يهيمنون بشكل خاص في مصر العليا وعلى تخوم الدلتا. وهم يفرضون على الفلاحين التعساء إتاوات حماية باهظة.

إلاّ أنه لا يجب لنا أن نستنتج من ذلك أن القرى المصرية، على الأقل قرى مصر السفلى، تجد نفسها خارج اقتصاد التبادل وأنها في حالة اكتفاء وعزلة. على العكس، فالريف المصري يرتبط بالمدن عن طريق شبكة من الأسواق الدورية في المدن والقرى (١٧). كما أن الأوساط الحضرية تدفع مبالغ ملحوظة للفلاحين مقدماً مقابل المحاصيل.

والانتقال الواسع للثروات يسمح بتمايز معين للمجتمع الفلاحي إلى منتفعين كبار ومتوسطين وصغار وأناس محرومين من الأرض، كما يسمح بسوق حقيقية للانتفاع الفلاحي الذي يصبح هو أيضاً شكلا من أشكال الملكية (١٨). وهذا الوضع يسمح بتعزيز دور مشايخ البلد الذين هم في آن واحد رؤوساء شبه وراثيين للجماعات الفلاحية ومنتفعون بأهم الاستثمارات الزراعية ووكلاء للطبقة المسيطرة. ودورهم الإداري يعزز سلطتهم كما يعزز دخولهم، المؤلفة أساساً من حصانات ضريبية مهمة. ومن الواضح أن العلاقات الزواجية تعزز تلاحم هذه الجماعة الاجتماعية التي تحوز السلطة الفعلية في الأرياف (١٩).

وتساعد فئة مشايخ العرب الاجتماعية على توسيع فئة مشايخ البلد. وتتألف الفئة

الأولى من شيوخ من أصل بدوى يتفاخرون بنسب عربى يرجع إلى شبه الجزيرة العربية، وهم يقيمون فى قرى للبدو المستقرين خاصة فى مصر العليا والوسطى. وغالباً ما يغتصب أهم مشايخ البلد صفة شيخ العرب. وهذا الأخير يتزعم عموماً قرية قوية تجمع ائتلافات من البدو والفلاحين. وهو يمارس دوراً شبيهاً بدور شيخ البلد، لكنه خلافاً له، يستطيع أن يضيف إلى هذه الصفة صفة الملتزم. وكل هذه الخصائص تمنحه قوة محلية عظمى قياساً إلى السلطات العامة وذلك بقدر ما أنه، خلافاً للملتزمين الآخرين، يقيم فى الأرياف وليس فى المدن (٢٠). وهذا التداخل البدوى – الفلاحى يقود إلى حروب بين القرى، سعياً للاستيلاء على الأرض، وخاصة المياه. وتسعى كل قرية إلى أن تدير لحسابها أقرب جزء إليها من نظام الرى، وذلك على حساب الصالح العام كما هو واضح. وما أن تنحط مرجعية السلطة المركزية، حتى يتوقف المنطق العام لنظام الرى عن أن يكون محل مراعاة. وفى المقابل، فإن هذا التداخل يسمح للسلطات المحلية بالتصدى على نحو فعال لتعديات المماليك. وعندئذ فإن جباية الضرائب من جانب السلطة المركزية لا تتم إلاّ عبر مفاوضات، وهى ظاهرة واضحة بشكل خاص فى الجزء الشرقى من الدلتا.

على أن العلاقة بين الفلاحين والبدو إنما تنهض، بوجه عام، على حساب الفلاح. ولقد رسم لنا جومار عنها لوحة جد كالحة: «إن عدد المضايقات والأوزار الصغيرة التى يرتكبونها [العرب] يفوق التصور؛ وعلى سبيل المثال، ففى أسواق القرية، حيث يتجمع الناس لبيع المواشى والبلح والذرة والتبغ... إلخ، يتمتعون بكل ميزة عصبيتهم، ويهيمنون بسهولة على الجمع. ولا يمكن لك أن تجد فلاحاً يملك الجرأة على منازعتهم فى أى شىء أو على الامتناع عن تقديم سلعته إليهم بالسعر الذى يحددونه. والشومة التى يغرزها العربى بوقاحة إلى جانبه فى قلب السوق، يبدو أنها تقول: أنا الذى أفرض القانون هنا».

إن أعمال السلب والعنف على حساب الفلاحين جد متكررة ومتواترة وهى لا تتعرض للعقاب البتة. وتتراجع المحاصيل بسبب تعديات البدو(٢١).

وانعدام الاستقرار السياسى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر يجد ترجمة له فى تدميرات دورية للأرياف من جانب الأحزاب المملوكية المتنافسة ومن جراء تفاقم غارات البدو المستفيدين من فترات انعدام الأمن. كما أن أوبئة الطاعون والجدرى والأمراض المعوية تنزل كوارث رهيبة بمجموع السكان. والنتيجة هى ثبات لسكان مصر حول أربعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة وتراجع للمحاصيل قياساً إلى عصور سابقة معينة. (٢٢)

الاستثمار الريفى والرى الجديد

إن الالتزامات الريفية هي أساس القوة الاقتصادية للمماليك. وهم يسيطرون على نحو ثلثها. أما الالتزامات الأخرى فيحوزها كبار القادة الجنديين وكبار التجار المصريين، لكن الملتزمين غير المماليك يعانون في أواخر القرن من تعديات كثيرة يفرضها البكوات على الأرياف، وقيمة التزامهم تميل إلى التدهور.

ويرمز انتصار المماليك على الميليشيات الحضرية في منتصف القرن إلى انتصار الاستغلال الريفى الزائد على علاقات الاستغلال المعتدل للأوجاقات. كما أن الارتفاع السريع للضرائب المفروضة على الأوساط الحضرية يشير إلى ترادف للاستغلال الحضرى مع الاستغلال الريفى. كما يمكن تفسيره على أنه انحياز للاقتصاد الحضرى لحساب الاقتصاد الريفى.

وبدايات التغلغل الاقتصادى الأوروبى غير مؤاتية للعالم الحضرى، لكنها تجعل الاستثمار الريفى أكثر جاذبية. وتشير خصخصة الالتزام إلى ذلك بشكل واضح. وتبدأ السوق الأوروبية فى طلب مواد أولية زراعية، كالقطن، وسلع غذائية. وفى حين أن أسعار السلع المصنعة تظل مستقرة من حيث القيمة الثابتة بسبب المنافسة الأوروبية، فإن المنتجات الزراعية تشهد ارتفاعاً مماثلا لارتفاع المنتجات الأوروبية (٢٢).

ويتفكك اقتصاد – العالم العثمانى لحساب البناء البطيء لهيكل جديد لمبادلة المواد الأولية الشرقية بالمنتجات المصنعة الأوروبية والتى تصاحبها قلة، على التبادل العثمانى الداخلى، لعلاقات مباشرة بين كل جزء من أجزاء العالم العثمانى وأوروبا.

وهذا التطور الذى يبدأ فى أواخر القرن الثامن عشر لن ينجز إلا فى النصف الثانى من القرن التالى. وفى مصر نهاية القرن الثامن عشر، تتواجد هذه العملية فى إرساء وفى توسيع تقنيات زراعية جديدة، خاصة فى الإقليم الشمالى للدلتا، بشكل له دلالته قرب مرفأى دمياط ورشيد كما فى إقليم المنصورة. وفى هذا الجزء من مصر السفلى (٢٤)، فإن مستوى مياه النيل المنخفضة يتطابق مع مستوى السهل الفرينى.

وهذا الوضع يسمح بإيجاد رى دائم لا يعود بحاجة إلى فيضان النيل ويقود إلى استغلال مكثف للأرض دون أية إراحة لها. وهذه الثورة الزراعية ترتبط على نحو مباشر بتوسيع زراعة الأرز (٢٥)، لكن هذا الأخير يزرع فى تفاوت مع الحبوب والخضروات (٢٦).

ولا يمكن لنا أن نحدد بدقة لحظة ظهور الأسلوب الجديد للرى. والأرجح أنه يرجع

إلى العقود الأخيرة للسلطنة المملوكية، لكن توسعه وضبطه المنهجي يصبحان أكيدين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. والحال أن إدخال الري الدائم بشكل تحولا أساسيا سوف يمتد، بفضل نظام السدود، إلى مجمل مصر السفلى في القرن التاسع عشر وإلى الوادي بأكمله في القرن العشرين. وهذا التحول الرئيسي الأساسي بالقياس إلى النظام الموروث من الفراعنة، إنما يستثيره الطلب المتزايد للسوق العثمانية والسوق الأوروبية بالفعل (٢٧). إلا أنه يظل في منشئه كما في تطبيقه من فعل المجتمع المصري. فهو يرتبط بإعادة استثمار رؤوس الأموال الحضرية في الريف المصري (٢٨).

ومن الواضح أن مصر في القرن الثامن عشر، تتحرك بالفعل، ولكن ليس في الاتجاه الذي يتخيله الأولو الفرنسيون.

علي بك ومصر وإنشاء الدولة المملوكية الجديدة

علي بك

إن صعود المماليك في اتجاه السلطة هو حركة طويلة الأمد. وهو يتخذ طابعاً ملموساً نحو عام ١٧٢٠ عبر ظهور وظيفة جديدة في الهيراركية المملوكية، هي وظيفة شيخ البلد «سيد البلاد» (هنا لا تعني البلد القرية بل مصر كلها). وهذه الوظيفة يعهد بها إلى أهم زعيم مملوكي، الزعيم الذي ينجح في فرض سلطته على البكوات الآخرين. والحال أن شخصية غير عادية سوف تنجز هذا التطور بإنشاء ما أمكن للمؤرخين تسميته بالدولة المملوكية الجديدة. إنه علي بك الكبير (الكبير سناً). وهو ينحدر من بيت مملوكي، بيت القازدغلية (من اسم مؤسسه مصطفى كَتخُدا القازدُغلي، الذي مات نحو ١٧٠٣ - ١٧٠٤). وهذا البيت، في النظام السياسي، يستفيد من النزاعات التي تستنفد البيوت الأخرى ويصبح في أربعينيات القرن الثامن عشر البيت المهيمن (٢٩).

ويخطو علي بك الخطوات العادية لمملوك. وفي عام ١٧٦٠ يصبح شيخاً للبلد. ونحو ذلك التاريخ، يحصل على مملوك شاب، محمد، أبو الذهب فيما بعد، الذي يرفعه بسرعة إلى وظائف مهمة. وفي عام ١٧٦٤، يجرى التصريح لهذا الأخير بإطلاق لحيته، رمز الإعتاق، ويجد نفسه وقد صعد إلى رتبة البك ذات الاعتبار. وبدلا من القيام بفعل السخاء المعتاد المتمثل في توزيع قطع من الفضة على الجمهور خلال الاحتفال، يستعيض عنها محمد بك بقطع من الذهب، ومن هنا لقبه، أبو الذهب.

وعلي بك رجل طموح وله أعداء كثيرون. وخلق بكوات جدد هو بالنسبة له وسيلة لتعزيز سلطته. وهو يشرع في تحويل بيته إلى أهم بيت بين جميع البيوت المملوكية. ففي عام ١٧٦٦، يضم هذا البيت ثلاثة آلاف مملوك من مماليك مصر الذين يصل عددهم إلى عشرة آلاف. ولابد من توافر قدر كبير من المال لإعاشة مثل هذا الجيش الشخصي الخاص. ويجد علي بك التمويل اللازم بزيادة الضرائب غير العادية وغير المشروعة المفروضة على التجار اليهود أو المسيحيين أو الأجانب، «الأتاوات»، وبزيادة التعديات والمظالم المفروضة على الأوساط الحضرية المسلمة.

وفي عام ١٧٦٦، بعد فترة نفي قصيرة إلى سوريا من جراء دسائس الوالي

العثماني، يرجع على بك إلى مصر عازماً على الاستيلاء على السلطة المطلقة. ومنذ أواخر عام ١٧٦٧ وحتى عام ١٧٧٠، يتمكن، عبر القتل أو النفي، من القضاء على جميع المماليك المهمين الذين لا ينتمون إلى بيته. ولأول مرة، تتركز قوة المماليك في بيت واحد تحت زعامة زعيم طموح وليس في عدة بيوت منشغلة بالتنازع فيما بينها. ويجرى اختزال ميليشيات المشاة المختلفة اختزالاً حاسماً إلى مستوى قوات شرطة عادية (٣٠).

واعتباراً من عام ١٧٧٠، فإن توازن السلطات، المبدأ الرئيسي للسياسة العثمانية، لا يعود له وجود في مصر. ونلاحظ الظاهرة نفسها في مجمل الإمبراطورية حيث تبدأ أشباه دول حقيقية في الظهور في أفريقيا كما في آسيا وفي أوروبا.

والحال أن أحد صحابة (خُشداشية) على بك، أحمد الجزار (الذى يبدو أنه حمل هذا اللقب بسبب وحشيته)، وهو مملوك من أصل بوسني، يرفض المشاركة في ذبح أصدقائه، وذلك بالرغم من أن على بك كان قد رفعه إلى سنة البكوية. وإذ يتحسس نحو انتقام على بك، فإنه ينجح في الهرب في الوقت المناسب إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية حيث يدخل في خدمة الباب العالي. ويدرك هذا الأخير أهمية استخدام هذه الشخصية القوية لإخضاع سوريا الثائرة. وهكذا يبدأ أحمد باشا الجزار مهمته السورية التي سوف تقوده إلى التصدى لبونابارت أمام عكا. وفي السنة نفسها (١٧٦٨)، يشترى أبو الذهب لبيته مراد الشاب الذى يجرى تصعيده على الفور تقريباً إلى رتبة البك.

إخماد المنازعات فى مصر

يشرع على بك، سيد القاهرة، في إخماد الفتن في مصر. وهو يصطدم بالتحالفات البدوية القوية. وفي مصر السفلى، يتهيأ تحالف نصف سعد لتمرد في ناحية البحيرة بتحريض من الجزار الذى قَيِمَ سراً من سوريا. وعن طريق القمع، ينجح إسماعيل بك، أحد مساعدى على بك، في إرهاب بدو مصر السفلى الذين سوف يعتصمون بالسكينة في الأعوام التالية.

وفي مصر العليا، كان تحالف الهوارة القوى تحت قيادة الشيخ همام قد شكل دولة مستقلة حقيقية تستند بشكل خاص إلى محصول قصب السكر. وكان البدو قد تجاوزوا مرحلة النهب صعوداً إلى مرحلة الزراعة التجارية. وفي عام ١٧٦٩، يقضى أبو الذهب على

سلطة الهوارة. ويتمثل واقع جديد بالانتباه فى أن جيشه، إلى جانب للماليك التقليديين، يضم قوات تحصل على رواتب مؤلفة من مغاربة ولبنانيين ومتاولة (شيعة من جنوب لبنان الحالى) بل ومن مسيحيين سوريين. وهو ما يعنى أن على بك يبدأ فى استهداف سوريا وفى تدشين سياسة مسيحية حقيقية. وكما هو شأن حرب للماليك، فإن الدسائس والمفاوضات تلعب دوراً أعظم من الصدام المباشر. والحال أن إعادة فتح مصر العليا إنما تتم أساساً عن طريق تفكيك التحالفات المحلية إلى جماعات مختلفة.

ويتيح إخماد الفتن فى مصر انفراجة كبرى للسكان الفلاحين الذين يتخلصون من جانب من الاضطهاد البدوى. لكن سياسة سيد مصر التوسعية تستتبع نفقات باهظة ومن ثم تعزيزاً لزيادة العبء الضريبى على المدن والأرياف.

والواقع أن نزع السلطة العثمانية فى مصر يتحقق فى اللحظة التى تجد فيها الإمبراطورية نفسها مواجهة بأول امتحان رئيسى لقدرتها على البقاء، الحرب مع روسيا كاترين الثانية التى تبدأ فى عام ١٧٦٨.

وفى البداية، يبدو على بك متصاعاً إذ يرسل وحدات الجيش التى يطلبها الباب العالى. وما يهمه بشكل خاص هو تجارة البحر الأحمر، فهو يرى فيها وسيلة تمويل تكوين قوات مسلحة قوية ضرورية لصون سلطته. وتتألف حاشيته فى جانب منها من تجار أوروبيين كالتاجر البندقى كارلو روزيتى، ومن مسيحيين الباط متخصصين فى الشئون المالية ومن مسيحيين سوريين مهتمين على نحو متزايد بتجارة بن البحر الأحمر. ويرى مجمل هذا الفريق أن من الضرورى إعادة فتح طريق البحر الأحمر أمام التجارة الدولية الكبرى. وفى فرنسا وفى إنجلترا، يتجمع تجار وقناصل لتكوين جماعة ضغط تهدف إلى دفع حكوماتها أيضاً فى هذا الاتجاه وذلك بالرغم من امتيازات الشركات الاحتكارية التى تباشر تجارة الهند وبالرغم من المعارضة الحازمة التى يبديها الباب العالى الذى لا يريد السماع عن وجود سفن أوروبية على مقربة من المدينتين المقدستين فى الحجاز(٢١).

والحال أن نزاعاً على ولاة الإمارة فى صفوف الأسرة الشريفية (المنتسبة إلى النبى) التى تحوز إمارة مكة تحت السلطة الاسمية للإمبراطورية العثمانية، سوف يكون ذريعة للتدخل المملوكى. والباب العالى نفسه هو الذى يطلب إلى على بك تأمين صعود المرشح الذى تدعمه إسطنبول. ويقود أبو الذهب قوة الحملة التى تحتل الحجاز خلال صيف

١٧٧٠. وتذكر بعض المصادر الأوروبية أن على بك يحصل عندئذ من شريف مكة على لقب سلطان مصر، بما يعيد دولة المماليك التي عرفها العصر الوسيط. ويبدو ذلك قليل الرجحان، لكن انتشار هذه الشائعة يشير إلى الأهمية التي اكتسبها عمل سيد مصر. بل إن الأمر سوف يصل به إلى حد ضرب العملة في مصر باسمه إلى جانب اسم سلطان القسطنطينية.

بيان على بك

في أواخر عام ١٧٧٠، ينخرط على بك في مشروع أوسع بكثير: فتح فلسطين وسوريا. وهو يتمتع هناك منذ وقت طويل بحليف مضمون: ضاهر العمر الزيداني، سيد عكا. وسعيًا إلى تبرير مسلكه، فإنه يدفع ديوان القاهرة إلى توجيه بيان إلى سكان سوريا. وهذا النص، الذي أورده وأصف أفندي، المؤرخ الرسمي للباب العالي، في حولياته، يمكن اعتباره أفضل مثال للرطانة السياسية العثمانية في ذلك العصر: «صدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة العالي، دامت له المفاخر والمعالي، بأمر من مَنَّ به الكريم المنان على أهل هذا الزمان، فأظهر العدل والأمان، وعم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان، وأرغم أنوف أهل الجور والطغيان: أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء العظام، المختص بمزيد عناية الملك العلام، أمير اللواء الشريف السلطاني، والعلم المنيف الخاقاني، الأمير على بك أمير الحج سابقًا والقائمقام بمصر المحروسة حالا دام عِزُّه وبقاؤه آمين.

«مضمونه حمد الباري النسم ومحيي الرمم. الذي قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم، وأمر بالعدل في سائر الأمم، وأوعد الظالم بالهلاك والندم، القائل في كتابه المبين، والله لا يحب الظالمين، أن الله لا يصلح عمل المفسدين [...]

«وبعد مزيد السلام والتحيات، وتوالي الأمن والبركات وجزيل النعم والخيرات في سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء المحدثين المتقين بشريعة سيد الأنام، والقضاة الإسلام، وأرباب المناصب والحكام، والأكابر والأعيان الكرام، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أعزهم الله بنور العدل وأحكامه وأجارهم من الظلم وظلامه وعاملهم بألطافه وإكرامه، وأفاض عليهم جزيل إنعامه آمين

«الذى يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة. وقد علمتم ما فعله عثمان باشا فى أرضكم وفى غيرها من الظلم والجهالة، وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والفجار بالأذية والأضرار وظلم للمسافرين والتجار، وأذى أهل الأماكن الشريفة وبدل أمن الحرمين الشريفين بالخيفة، وتعدى على حدود الدين وصنع مالا يليق بالمسلمين [...]. ولما بلغنا عنه ما بلغ وأنه فى إيذاء الأرض المقدسة قد ولغ، فبادرنا لسوء فعله بالنقض [...] وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض نصرة للدين وغيرة على المسلمين [...].

«وبلغنا أيضاً ما فعله بالعلماء فى غزة، وقد أذاقهم الذلة بعد العزة، وبطشهم فى الأرض بالحياة، والحديث المقدس عن الإله؛ من آذى ولياً فقد آذنته بالحرب. والعلماء لا شك أولياء الله لقوله فى كتابه الأسمى «إنما يخشى الله من عباده العلماء»، وإذا كنتم بذلك راضين، وعلى دفع ضرره غير قادرين، فنحن إن شاء الله قادرين على إزالة ما هنالك وقد أفتتنا المذاهب الأربعة بذلك، فاستخرنا الله، وهو نعم المولى، وسألناه أن ينصر دين محمد بعلى. وقد صرفنا الهمة والأموال فى خدمة الملك المتعال، ووجهنا العساكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا المظالم [...].

«والمقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم، ومن يتوله منكم فإنه منهم. وأن تجتهدوا فيما ينفع الشرور ويوجب لكم الفرحة والسرور والغبطة والحبور [...].

«وها نحن قد أخبرناكم، وللمعاونة على الخير قد اخترناكم، ومن قبول هذا الظالم فى أرضكم حذرناكم. فالعساكر قاصدة إليه وجميع ما لديه، وقد سلطها غضب الله وسخطه عليه، فاحفظوا منه سائر أموالكم وأحوالكم ولا تدعوه يقيم فى أرضكم وبين عيالكم ورأى العلماء والأكابر أعلى وأنتم بالمعاونة على الخير أولى.

«وعلى القريب منكم والبعيد والطارف والتليد، والأحرار والعبيد، أمان الله ورسوله وأماننا السعيد، والله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام» (٣٢).

مظاهر الفقر

كما فى بقية أرجاء الإمبراطورية العثمانية، فإن الهيكل الاقتصادى الرئيسى فى

سوريا – فلسطين هو الالتزام الضريبى، المقاطعة، التى تصبح، فى القرن الثامن عشر، وراثية تحت اسم المكاتة. ويستمد الأعيان المحليون قوتهم من هذه الالتزامات الضريبية التى تنطوى، بشكل أكبر مما فى مصر، على تفويض حقيقى للسلطات من جانب الدولة العثمانية. وهكذا ففى فلسطين، تتمكن عائلة عربية من أصل بدوى، هى عائلة الزيدانى، من أن تركز لحسابها عدداً كبيراً من الالتزامات الضريبية إلى درجة إنشاء شبه دولة لها عاصمتها، عكا، وتمتد من البحر المتوسط إلى الجليل. والحال أن رئيس العائلة، ضاهر العمر، وهو عجوز ما يزال بالغ الحيوية برغم أنه فى الثمانين من عمره فى عام ١٧٧٠، قد حارب دائماً الباشاوات العثمانيين فى المنطقة بالتعاون مع كبار أعيان الجبل اللبنانى، الشيعة والدروز والموارنة. وهو يطور فى ممتلكاته زراعة القطن بهدف التصدير إلى الأسواق الأوروبية، الأمر الذى يشكل هناك أيضاً علامة على التحويل التدريجى لتوجه اقتصاد الشرق الأدنى.

وهو على ارتباط وثيق بالكاثوليك اليونانيين الذين يمثلهم بشكل خاص صرافه وحائز ثقته، الشهير إبراهيم الصباغ. وفى بداية صعوده، كان ضاهر قد سعى إلى التحالف مع يهود طبريه، الذين كان بوسعهم التوسط لحسابه لدى الباب العالى من خلال المراجع اليهودية فى القسطنطينية. ورغبته المتزايدة فى نيل قدر من الاستقلال تقوده إلى الاعتماد على الكاثوليك اليونانيين إلى درجة جعله إبراهيم الصباغ أغنى رجل فى المنطقة وصفيه الأمين على سره. وهكذا فإن عائلة الصباغ تتوحد مع عائلة ضاهر (٢٤).

وكان على بك قد تعرف على ضاهر العمر خلال فترة نفيه القصيرة فى عام ١٧٦٦(٢٥). وقد ظلا على علاقات طيبة وقد قدم له سيد فلسطين الشمالية وحدات مسلحة خلال حملاته. والواقع أن الهزائم العثمانية فى مواجهة الروس الذين أرسلوا أسطولا إلى البحر المتوسط، يبدو أنها تتيح لهما فرصة فريدة لتأكيد استقلالهما بشكل حاسم ونهائى. وإبراهيم الصباغ هو الذى يدفع إلى التحالف بين الرجلين سعياً إلى إنشاء دول مستقلة تماماً. وينسب إلى الرجل المتمتع بثقة ضاهر التصريح الذى يذهب إلى أن «الإمبراطورية العثمانية لم يعد لها وجود، وأنه لا يوجد على الأرض غير أمة واحدة، هى روسيا، مثلما لا يوجد فى السماء غير رب واحد» (٢٦).

الفشـــل

يوجد على بك أعداداً ضخمة من الجنود، بل ويلجأ إلى مستشارين عسكريين

أوروبيين. وهو يبقى فى القاهرة، بينما يسلم القيادة الميدانية لمساعديه الرئيسيين إسماعيل وأبو الذهب. وفى ٨ يونيو ١٧٧١، يستولى أبو الذهب على دمشق. لكنه فور ذلك – وبما يشكل مفاجأة للجميع – ينسحب إلى مصر ويرجع إلى القاهرة. ويبدو أن أسباب هذا التغير المفاجئ إنما تكمن فى عزوف المماليك عن الابتعاد عن مصر. فهم يتحمسون تجاه هذه الأرض المتبناة تعلقاً حقيقياً. وسوريا تبدو لهم منفى. ثم إن محاربة السلطان العثمانى خارج مصر وليس مجرد التحلل من الانصياع له إنما تبدو لهم بمثابة خيانة للإسلام. وقد تعرضوا لدعاية جد فعالة من جانب الباب العالى الذى يدعو، سعياً إلى مواجهة ملمات الحرب مع روسيا، إلى اتحاد جميع المؤمنين للذود عن الإسلام المهدد من المسيحيين.

وليس من شأن عودة أبو الذهب إلى مصر إلا أن تنفتح على حرب أهلية بين صفوف المماليك. ويتعرض على بك للهزيمة ويضطر إلى اللجوء إلى فلسطين (أبريل ١٧٧٢) بينما يصبح أبو الذهب شيخ البلد الجديد. ويدخل على بك فى تحالف سافر مع الروس ويدشن مع آل الزيدانى حصار يافا، وهو أول حصار بين حصارات طويلة لمدن فلسطين الساحلية. وتسقط المدينة فى فبراير ١٧٧٣، بعد صمودها لمدة ثمانية أشهر. ويتصور على بك أن بوسعه وسط الاضطراب السائد إعادة فتح مصر بحشد جميع العناصر المناوئة لخصمه. ويمول إبراهيم الصباغ عودة على بك إلى مصر.

وعندئذ يدعو أبو الذهب إلى اتحاد جميع المماليك ضد هذا الخائن عميل المسيحيين. وهو يذكر بما حدث للهند التى سقطت فى أيدى الإنجليز الذين ذهبوا إليها فى البداية كتجار عاديين. ويؤدى النضال ضد على بك إلى تعبئة مجمل السكان المصريين. وسرعان ما يُمنى بالهزيمة ويموت متأثراً بجراحه فى ٨ مايو ١٧٧٣.

التصور الأوروبى

لقد جعل على بك مصر مستقلة عن الباب العالى وسياسته تهدف بشكل واع إلى إحياء السلطنة المملوكية القديمة. وفى عام ١٧٧٢، أمر بأن يوضع فى الضريح، الذى قام بترميمه، والذى يضم رفات الفقيه الإسلامى الكبير، الإمام الشافعى، لوح يحمل اسم عزيز مصر، وهو مصطلح مستخدم فى القرآن للإشارة إلى يوسف، وزير فرعون، والذى يستخدمه الكتاب فى العصر العثمانى أحياناً للإشارة إلى السلاطين المماليك السابقين(٣٧).

لكن مصر تلك هى مصر المماليك. أما جمهرة السكان المصريين فهى تعيد صياغة الهوية الإسلامية فى مواجهة عدو الإسلام الذى أصبح الزعيم المملوكى رمزاً له.

وفي أوروبا، خلافاً لذلك، يجرى تتبع مغامرة علي بك بحماس. فالصحف تنشر كل يوم تقريباً أخبار الزعيم المملوكي الكبير. بل إن الجازيت دو فرانس تذهب إلى حد وصفه بـ «سودان [سلطان] مصر، خليفة الفراعنة، محرر أرض النيل ومكة». وينظر الأوروبيون إلى مغامرة علي بك بوصفها تجلياً لانبعاث الشخصية المصرية وإلى مغامرة ضاهر العمر بوصفها علامة النهضة العربية (٣٨).

كما يرى البعض، في النهاية المتوقعة للهيمنة العثمانية في فلسطين، إمكانية إنشاء دولة يهودية في تلك البلد. وينسب إلى علي بك، خاصة في ألمانيا، إجراء اتصالات مع يهود ليفورنو بهذا الصدد (٣٩). والواقع أنه يتخذ بالأحرى موقف العداء تجاه يهود مصر الذين يجردهم من صلاحيات اقتصادية عديدة لحساب الكاثوليك اليونانيين مباشرة، خاصة في إدارة الجمارك (٤٠).

وهكذا فإن علي بك يجد نفسه حائزاً – في المخيلة السياسية الأوروبية – لدور رجل عظيم، فاتح ومجدد للدولة. وهذا الدور، بالنسبة للأوروبيين، إنما تعلمه طبيعة المجتمع الشرقي ذاتها (٤١). أما خليفته، أبو الذهب، وخصمه، أحمد باشا الجزار، وهما من كبار السياسيين، فقد جرى تصويرهما خلافاً لذلك – وإن كان بموجب منطق المخيلة ذاته– كممثلين للاستبداد الأكثر مقتاً والأكثر تدميراً.

أبو الذهب والحكم الإسلامي الصالح

الخلافة

في ٢١ يوليو ١٧٧٤، توقع الإمبراطورية العثمانية معاهدة صلح كوتشوك كاينارجها مع روسيا. ويتميز هذا الصلح، بين أمور أخرى، بالتنازل عن السيادة العثمانية على القرم، التي تصبح بذلك من الناحية النظرية مستقلة ثم تضمها روسيا بسرعة. وعلى غرار حق الحماية الدينية لمسيحيي الشرق والذي حصلت عليه الدول الأوروبية، يجد سلطان القسطنطينية نفسه وقد تم الاعتراف له بسلطة دينية على مسلمي القرم، التتر. وسعياً إلى إيجاد أساس حقوقي لهذه البدعة المؤسسية، يتخذ السلطان لقب الخليفة، القليل الاستخدام منذ القرن السادس عشر. ووقع ذلك شديد بقدر ما أن الأوروبيين يتصورون هذا المنصب الديني كنوع من بابوية إسلامية (٤٢).

ومسألة الأساس الحقوقي للادعاء العثماني معقدة. فمن جهة، من المؤكد أن العلماء

بوجه عام يرون أنه منذ نهاية الخلافة العباسية لا يوجد خليفة في أرض الإسلام مع أن وجوده ضروري لتأمين نظام الجماعة. وموانع الزمن هي التي تحول دون تحقيق هذه الحالة المنشودة (٤٣).

ومن جهة أخرى، من المؤكد بدرجة غير أقل أننا نجد بين الألقاب السلطانية العثمانية عدداً معيناً من الألقاب المرتبطة على نحو مباشر بفكرة الخلافة (٤٤). والأرجح أنه يتعين البحث عن حل في تصورات سياسية كتصورات ابن خلدون الذي يعاد اكتشافه من جهة أخرى في تلك العصر في الأوساط الحاكمة في إسطنبول. والحال أن هذا الكاتب المسلم العظيم الذي عاش في أواخر العصر الوسيط، في زمن لم تكن الخلافة موجودة فيه من الناحية العملية، قد ميز بين النظم السياسية بحسب قيمتها الأخلاقية؛ «إن المُلْك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة؛ والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، ودفع المَضار؛ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به». (٤٥)

ومن ثم فإن النظام السياسي الأمثل هو النظام الذي تسود فيه شريعة الله. وجميع الأشكال الأخرى للحكم يمكن أن تكون لها قيمتها ووجوه استحقاقاتها الخاصة، لاسيما تلك الأشكال المؤسسة على النظر العقلي، لكنها تظل أدنى منزلة من شكل الخلافة المعرّف على هذا النحو. وهذه الوظيفة المزدوجة المتمثلة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به كانت على الدوام وظيفة السلاطين العثمانيين. والكون العثماني بحكم اتساعه نفسه يضم إجمالي عالم الإسلام السني الغربي. ومن المؤكد أن دولاً سنية قد توجد خارج الإمبراطورية، لكن هذا الواقع إنما يترتب على موانع جغرافية بشكل خالص (تحول دون اندراجها فيها – المترجم). و بشكل أساسي، فإن الإمبراطورية يجرى النظر إليها من الناحية الأيديولوجية بوصفها جماعة المؤمنين التي أعيد توحيدها. وجيوشها التي يشار إليها في النصوص، كنصوص واصف، هي جيوش المسلمين. ولا وجود لإشارة إثنية محددة.

وبالنسبة للباب العالي، فإن بحث الخلافة إنما يسير في اتجاه دعوة الذود عن الإسلام التي تستخدم كأداة للتصدي لتحديات روسيا ويظهر كأداة لتعزيز تلاحم

الإمبراطورية فى وجه التأكيد للتواصل لأشباه دول فى الولايات. لكن حكام الولايات يرون فيه أيضاً إمكانية مؤسسية لإقامة نوع من كومنولث عثمانى كما فى زمن عباسيىّ بغداد المتأخرين.

توطيد سلطة أبو الذهب

فى مصر، ينجز أبو الذهب تحقيق قدر من الاستقلال الفعلى لدولته. ويسيطر مماليك بيته على جميع وظائف الإدارة الرئيسية. ويجرى التصريح للباشا العثمانى بالعودة إلى القاهرة، لكنه لا يزيد عن كونه أشبه ما يكون بسفير للباب العالى، مهمته التصديق على قرارات شيخ البلد.

وهذا الأخير يتزوج زوجة على بك الأولى بينما يتزوج مراد بك زوجته الثانية، الست نفيسة خاتون بنت عبد الله البيضاء، «السيدة نفيسة ابنة عبد الله (أى التى تحولت عن دينها إلى اعتناق الإسلام) البيضاء (الشركسية الأصل)». وهى تقدم إليه ثروات زوجها الراحل والمزيد من الهيبة السياسية. أما المساعد الآخر لأبو الذهب، إبراهيم بك، وهو أكبر سناً من مراد بقليل، فهو ينال أخت سيده كما ينال جاريته المعتقة. وهذه المصاهرات تعزز الأواصر بين أفراد المجموعة الحاكمة المنبثقة الآن من بيت أبو الذهب، بيت المحمدية.

وتسيطر هذه المجموعة على أهم الالتزامات فى مصر. وتتواصل زيادة العبء الضريبى، لكن النظام الذى يستتب فى مصر يخلص الفلاحين من الجانب الرئيسى من الضغط البدوى ويسمح للتجار بتوزيع سلعهم بحرية.

العلمـــاء

يبرر أبو الذهب تمرده على سيده بالذود عن الإسلام. وهو يلتزم بالحكم عبر مراعاة كبار رجال الدين فى البلد، العلماء. وهؤلاء العلماء، جهابذة الفقه الدينى، إنما ينقسمون إلى فريقين.

فالفريق الأول يتطابق مع الهيراركية القضائية، وهى عنصر أساسى من عناصر السلطة العثمانية وإحدى أدوات صون مرجعية السلطة المركزية. ورئيس الهيراركية القضائية فى مصر هو القاضى عسكر، «قاضى الجيش»، المهيمن على محاكم مصر الست

والثلاثين، التي يتولى مهمامها القضاة بمساعدة نواب. وفي الأصل، كان جميع هؤلاء القضاة عثمانيين منبثقين من نظام العلمية، وهي وظيفة إدارية جيدة التنظيم لها عدة درجات وعدة مراتب في داخل كل درجة. وكانوا يعينون لسنوات قليلة في مصر وكانوا على دراية أفضل بالتركية، اللغة الإدارية المستخدمة في المراسلات مع السلطة المركزية، من درايتهم بالعربية لغة مرءوسيهم وتابعيهم. وكانوا تابعين من الناحية الإدارية للقاضي عسكر الأناضول الذي يسهر على التعيينات والتحركات. أما نوابهم، خلافاً لذلك، فقد كانوا بوجه عام من أرومة مصرية. وهؤلاء القضاة موظفون عثمانيون حقيقيون بالرغم من أنهم يعتبرون أحراراً لا عبيداً للسلطان. ويعمل علي بك وأبو الدهب على تقليل عدد القضاة القادمين من الهيراركية العثمانية كما يعملان على تمصير الهيراركية القضائية؛ ففي عام ١٧٩٨ لن نجد عثمانيين غير القاضي عسكر وخمسة قضاة آخرين. وسوف يكون الآخرون كلهم مصريي الأرومة، يدينون بمناصبهم لعلاقاتهم مع الأمراء المماليك وللمال المدفوع، ومن هنا تزايد برطلة النظام القضائي وانحطاطه (٤٦). والمفارقة، التي سوف نرصدها في القرن التاسع عشر من جديد إنما تكمن في واقع أن هذه التأكيدات الإقليمية، والتي تتمثل محصلتها النهائية في تعريب وتمصير الدولة، هي من عمل فريق حاكم، يتحدث بالتركية أساساً، وغير قادر غالباً على التعبير عن نفسه بالعربية. والحال أن التأكيد من جانب السلاطين على الخلافة إنما يعد، بين أمور أخرى، وسيلة لمواجهة هذا التطور السلبي ولاستعادة السيطرة على الهيراركية القضائية في الولايات.

أما الفريق الثاني فهو يمثل الوظيفة الدينية ويتولى قراءة الوعظ والتدريس في المساجد وأرفعها منزلة هو الجامع الأزهر في القاهرة. وهم يمثلون العنصر المصري الأرومة في جهاز السلطة، ويعتبرون أنفسهم مستشارين ضروريين للأمراء. ولما كانوا ينتمون قانوناً إلى الديوان، فإنهم يسهرون على تمشي القرارات المتخذة مع مبادئ الشريعة الإسلامية كما أنهم يعتبرون أنفسهم وسطاء لا غنى عنهم بين الأقوياء والشعب يلتزمون بمراعاة جانب الضعفاء لصون الوحدة الاجتماعية لجماعة المؤمنين.

وقوتهم الاقتصادية مهمة. فهم يسيطرون على الأوقاف، المؤسسات الخيرية المكلفة بتمويل جميع النشاطات الدينية للمجتمع. وهم جزء لا يتجزأ من استغلال الالتزامات الحضرية والريفية، لكن حصتهم أقل بكثير وأكثر تشرذماً من حصة كبار المماليك. وعندما تسنح الفرصة، فإن بعضهم يشاركون في المضاربات التجارية. وجماعاتهم العائلية تتحالف

مع كبار التجار لكنها تتحالف أيضاً مع المماليك أنفسهم الذين يشكلون معهم طبقة حاكمة حقيقية (٤٧).

لكن أصولهم الاجتماعية بشكل أساسي، فهم عين ممثلي الإسلام، وهيبتهم ملحوظة، ثم إن عدداً من بينهم يحوزون نفوذاً قوياً أو ينتمون طرقاً صوفية تغذي الجانب الرئيسي من الحياة الدينية للشعب وتؤطر النشاطات الدينية والاجتماعية لجماهير السكان المصريين. ويستنكر عدد صغير، من أنصار إسلام أكثر نقاء، انحرافات دين الصوفية الشعبي ويتحمسون قربهم من الإصلاحية الدينية التي يروج لها شخص كمحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية المجاورة. أما الشعب فإنه يعتبر إسلامه الإسلام الحقيقي الوحيد والضغط الاجتماعي شديد بحيث أن المصلحين المسلمين يترددون في البوح بآرائهم(٤٨).

وهذا الوسط من العلماء حامل لنوع من الإحياء الفكري خلال السنوات المائة الأولى. فالثقافة الإسلامية الكلاسيكية تصبح من جديد محل تكريم، إذ يجري إعداد القواميس وبحوث في النحو وتعليقات على النصوص المقدسة. كما أن الشعر ممارسة شائعة بين هؤلاء العلماء. وبعضهم، كالشيخ حسن الجبرتي، والد المؤرخ، يهتمون بالعلوم وخاصة الفلك. وقد قاد هذا النشاط من جهة أخرى إلى دراسة الميكانيكا. بل إن ابنه، عبد الرحمن الجبرتي، سوف يصل به الأمر إلى حد الادعاء بأنه قبل نصف قرن من حملة مصر، كان عدد من «الإفرنج» (الفرنسيين – المترجم) يتلقون العلم من والده في القاهرة وأنهم، في انتقالهم من النظرية إلى التطبيق، قد اخترعوا الطاحونة الهوائية وماكينات نقل (٤٩).

ولا يجب المبالغة من شأن النهضة الفكرية. فهي تظل قاصرة على دائرة محدودة تماما من المثقفين وتعتمد بالكامل على تداول نصوص مخطوطة. فالمطبعة، الناسخة والمروجة الهائلة للمعارف، والمعروفة بالفعل في لبنان في بعض الأوساط المسيحية، مجهولة في مصر. والبحوث التقنية التي تستهدف تحسين أدوات العمل لا تهم طوائف الحرف، المعقل الحقيقي للنزعة المحافظة. على أن علماء الحملة سوف يتسنى لهم العثور على بعض المحاورين التواقين إلى المعرفة في مجال العلوم.

حملة سوريا الثانية

بالنسبة للعلماء، يمثل حكم أبو الدهب (١٧٧٢ – ١٧٧٥) عصراً ذهبياً حقيقياً. فهو يقبل مشوراتهم ويكن المودة لأشخاصهم ويتخذ موقفاً سخياً تجاه نشاطاتهم. وعديدون



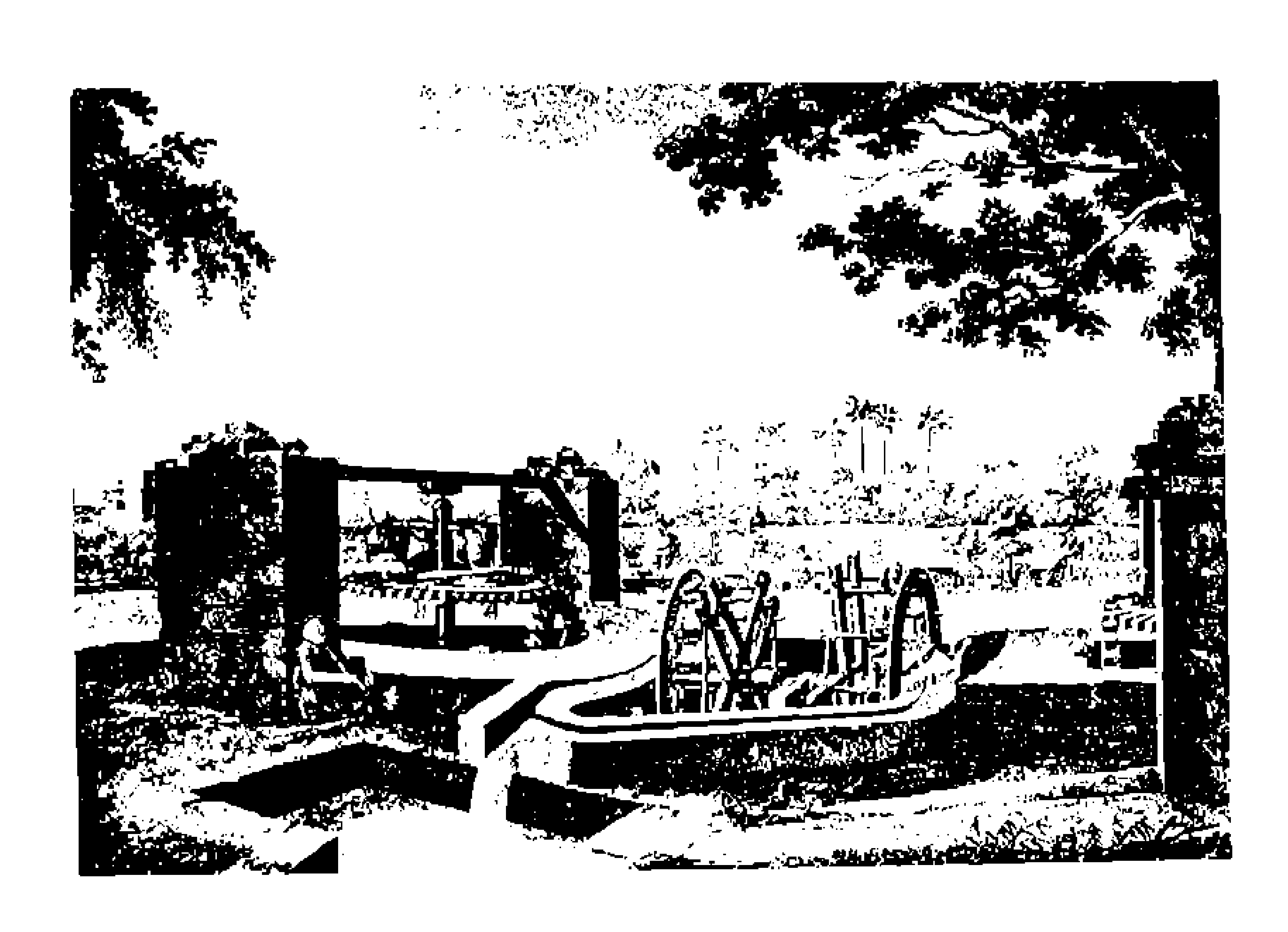
٩ - المملوك.



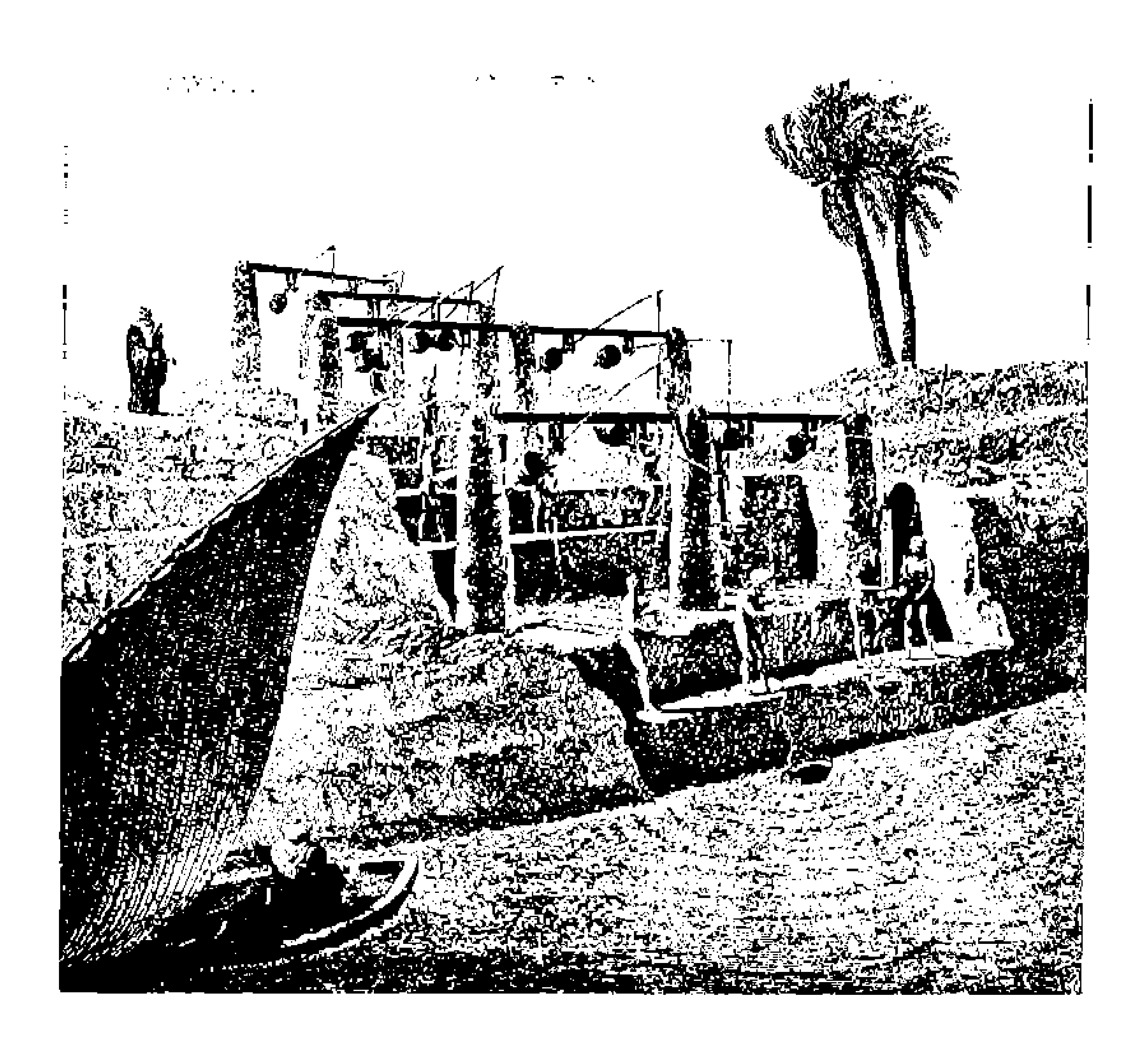
١٠ - ثياب المصريين.



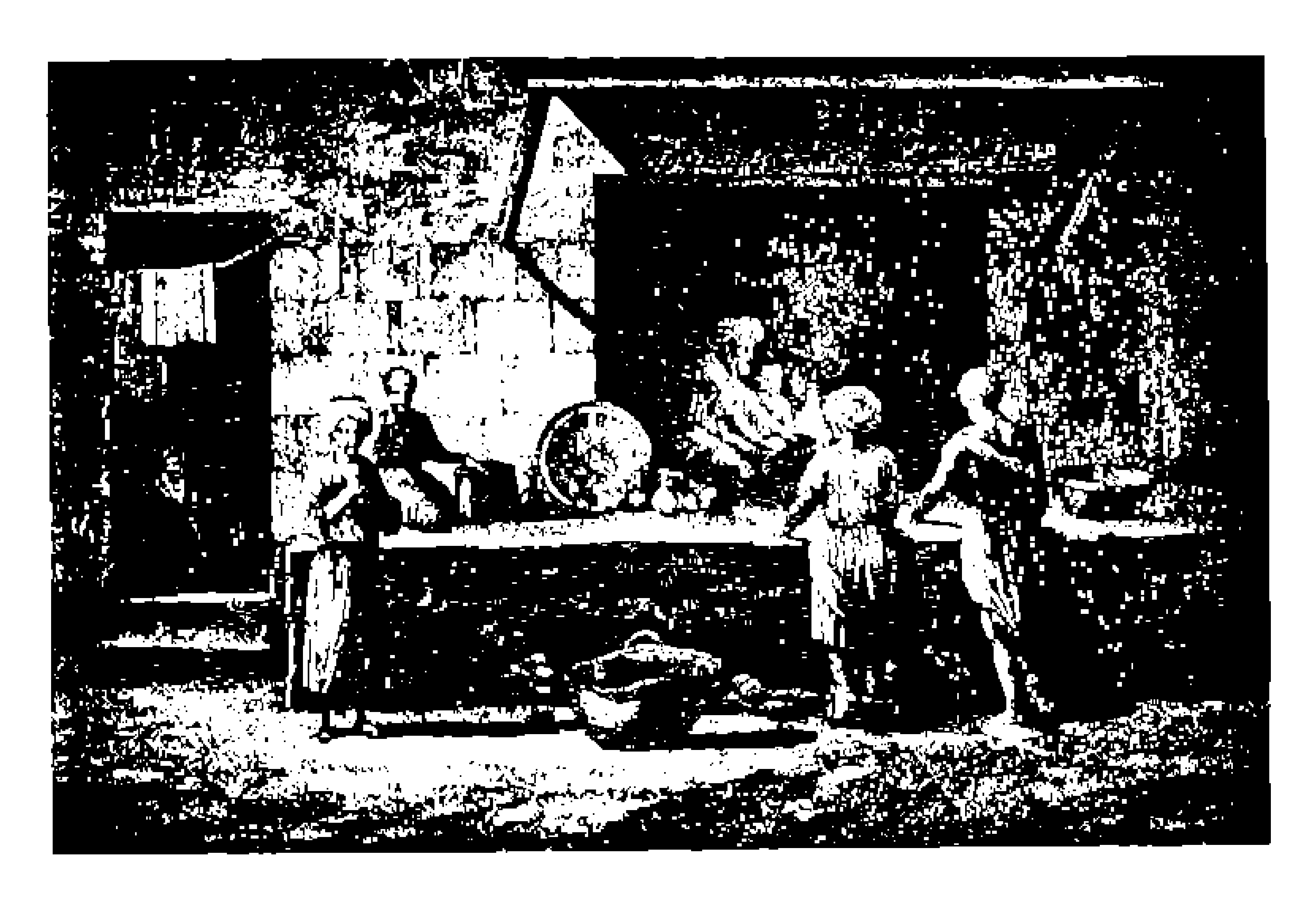
١١ – زواج مصرى.



١٢ – رى الأراضى.



١٣ - دولاب الأوعية أو آلة الري.





١٤ – نحاسون وحدادون.



١٥ – مشهد داخلي لقصر قاسم بك.





١٦ – شخصيتان مصريتان : الشاعر (إلى اليسار)، عالم الفلك (إلى اليمين).

منهم يصبحون أصدقاء حميمين له. وهو يبدو بالنسبة لهم تجسيداً لمثال الأمير المسلم الصالح.

وإذا كان يراعي جانب الأقباط، فإنه يتخذ موقفاً معادياً من الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. وخلال حملته الثانية على سوريا، سوف يمارس عنتاً حقيقياً تجاه رجال الدين الكاثوليك في الأرض المقدسة.

وقد استأنف العلاقات الطيبة مع الباب العالي. فهو يدفع الخزينة للقسطنطينية إلى جانب الأقساط السنوية المتأخرة منذ زمن على بك، وهو يستخدم لقب الخليفة عندما يتعين عليه ذكر سلطان القسطنطينية (٥٠).

لكن هذا الاعتراف بالسلطة العثمانية اعتراف شكلي. فهو يواصل، مثلاً، التفاوض مع التجار الإنجليز على إعادة فتح البحر الأحمر أمام تجارة الهند.

وسعياً إلى استنهاضه ضد ضاهر العمر، كان الباب العالي قد منحه التزام جنوب فلسطين (غزة، يافا، نابلس، الرملة). ومنذ عام ١٧٧٤، يجهز أبو الذهب الحملة الثانية القادمة من مصر على سوريا. ويبدأ الغزو الذي طال انتظاره في مستهل ربيع عام ١٧٧٥. وبعد الاستيلاء السهل على غزة والرملة، تجرى محاصرة يافا في ٢ أبريل ١٧٧٥. وتصمد المدينة حتى ٢٩ مايو. وعندما تسقط، يقرر أبو الذهب ضرب مثل لترويع السكان الفلسطينيين؛ إن جيشه يذبح المدافعين عن المدينة وسكانها.

وهذا التكتيك فعال لكل المراكز المصرية في فلسطين تسقط دون مقاومة عملياً. وسوف يتذكر بونابارت هذه الحادثة ويستلهمها في عام ١٧٩٩.

وفي عكا، يبدي أبو الذهب عنفاً فائقاً، ويهدد المسيحيين بمذبحة جماعية، لكنه يموت فجأة في ١٠ يونيو ١٧٧٥. ويؤدي موته إلى الإخفاق الثاني لمحاولة إنشاء دولة مملوكية سورية – مصرية. والحال أن الأمراء المماليك، الذين كانوا معادين لفكرة الرحيل عن مصر، يسارعون إلى العودة إلى القاهرة للانخراط في صراعات وراثة الحكم. ويستشعر مراد بك ضغطاً خاصاً وقد أرغمته كثيراً مشيئة سيده في إبقائه في سوريا.

لكن الحملة المصرية الثانية قد كسرت مع ذلك شوكة ضاهر العمر. وأحمد باشا الجزار هو المستفيد من ذلك في نهاية الأمر. فهو يدمر القوى الأخيرة لآل الزيداني ويصبح السيد الجديد لعكا وللجليل. ويجرى إلقاء القبض على إبراهيم الصباغ ومصادرة ثروته. وهو يموت بعد وقت قصير من ذلك في ظروف غامضة (٥١). وتلجأ أسرته إلى مصر.

وكان أبو الذهب قد أمر بأن يُنقش على قبره وهو ضريح بالغ التواضع قرب الأزهر، ما يفيد أنه قبر عزيز مصر، مقتفياً بذلك أثر سيده الذي خانه. والحال أن الجبرتي، الشاهد الرئيسي على التاريخ المصري، والمعبر عن وجهة نظر العلماء، يشير بشكل واضح إلى أن حكم أبو الذهب هو آخر حكم صالح عرفته مصر:

«وبالجملة، كان (أبو الذهب – المترجم) آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعداً وحزماً وعزماً وحكماً وسماحة وحلماً وكان قريباً للخير يحب العلماء والصلحاء ويميل بطبعه إليهم ويعتقد فيهم ويعظمهم وينصت لكلامهم ويعطيهم العطايا الجزيلة ويكره المخالفين للدين، ولم يشتهر عنه شيء من الموبقات والمحرمات ولا ما يشينه في دينه أو يخل بمروءته، بهي الطلعة جميل الصورة أبيض اللون معتدل القامة والبدن مسترسل اللحية مهاب الشكل وقوراً محتشماً قليل الكلام والالتفات ليس بمهذار ولا خوار ولا عجول، مبجلاً في ركوبه وجلوسه يباشر الأحكام بنفسه ولولا ما فعله أخيراً من الإسراف في قتل أهل يافا بإشارة من وزرائه لكانت حسناته أكثر من سيئاته، ولم يتفق لأمير مثله في كثرة المماليك وظهور شأنهم في المدة اليسيرة وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا إلى طرق الجهالة واشتروا المماليك فنشئوا على طرائقهم وزادوا من سوابقهم وألفوا المظالم وظنوها مغانم وتمادوا على الجور وتلاحقوا في البغي على الفور إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم وبالناس ما نزل وسيتلى عليك من أنباء أخبار وما حل بالإقليم بسببهم من الخراب والدمار والله تعالى أعلم». (٥٢)

عودة العثمانيين ومشكلة المجتمع المدني الإسلامي

إبراهيم ومراد

يوضح لنا الجبرتي أن زمن الفتن، والذي سوف تكون حملة مصر (الفرنسية – المترجم) إحدى لحظاته القوية، إنما يبدأ مع موت أبو الذهب. فالروح الحزبية تستأنف غلبتها والصراع على السلطة ينشب في الفور والحال وينقسم المماليك إلى فصيلين: فصيل العلوية الذي يجمع أنصار علي بك السابقين وعلى رأسهم إسماعيل بك، وفصيل المحمدية المنبثق من بيت محمد بك أبو الذهب عينه والذي يقوده مساعداه إبراهيم بك ومراد بك. وعلاوة على ذلك، فإن هذين الزعيمين الأخيرين يتنافسان فيما بينهما ويجازفان بالدخول في حرب لا تهدأ أحدهما ضد الآخر.

أمّا ابراهيم بك فهو رجل يتميز بشخصية متزنة ورزينة. ولما كان مقاتلا ممتازا لكنه يكره إراقة الدماء، فإنه يسعى إلى تجنب احتدام النزاعات فيما بين الأمراء. وروح الاعتدال هذه تحول بينه، خلافاً لسلفيه، وبين لعب دور الزعيم الأوحد للمماليك. وهو لا يملك السلطة الكافية لمنع تعديات وتجاوزات الأمراء (٩٣).

وأمّا مراد بك فهو يتميز، على العكس من ذلك، بمزاج عنيف وأهوج. ويتهمه الجبرتي بالجبن وبانعدام الكفاءة في الشأن العسكري، إلاّ أنه لابد من الاعتراف له بسمة أساسية في هذا المجال: الإصرار والمثابرة في وجه المحن. وسوف تؤدي تعدياته الكثيرة وعنفه إلى خراب النظام المملوكي، لكن أحد أسباب احتياجه الدائم إلى المال هو إدراكه لضرورة تغيير وتحديث الجيوش المملوكية. وشأنه في ذلك شأن كثير من الأمراء، فإنه يحب محاورة العلماء والمثقفين. وهذه المحاورات لا غنى عنها لهم لإنجاز تكوينهم كمماليك في شأن معين من شئون الحكم كإدارة القضاء (٩٤).

زمـــن الفـــتن

عندما تكتب الغلبة لحزب، فإنه يطرد الحزب الآخر من القاهرة. وعندئذ يلجأ هذا الحزب الأخير إلى مصر العليا أو إلى فلسطين ويعد لعودته الهجومية. كما أن للمماليك يلجأون إلى طلب عون البدو والمرتزقة الذين يدمرون الأرياف. وهذه الصراعات المتواصلة تبقي على حلقة من الفوضى والخراب. وحتى عندما يصبح المحمدية القوة السائدة، فإن النظام العام لا يعود. وهكذا يقدم لنا الجبرتي صورة جد كالحة لعام ١١٩٨ للهجرة (١٧٨٣-١٧٨٤):

«انقضت السنة كالتي قبلها في الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجبي الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ورفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم فحولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين في بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ماهم فيه من المصادرات الخارجة عن ذلك وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما يقدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة ولما تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ثم مدوا أيديهم إلى المواريث فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو

لا. [...] وفسدت النيات وتغيرت القلوب [...] وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى به إلى الظالم حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام وفقد الأمن ومنعت السبل إلاَّ بالخفارة وركوب الغرور وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئاً يكنسه من ذلك. [...] ومات الكثير من الفقراء بالجوع. [...] ولولا لطف الله تعالى ومجيء الغلال من نواحى الشام (سوريا) والروم (البلاد التركية) لهلكت أهل مصر من الجوع».

وهكذا فإن مصر المصدرة تقليديا للحبوب تجد نفسها مضطرة إلى استيرادها من بقية الإمبراطورية العثمانية. والمدينتان المقدستان فى الحجاز، المعتمدتان اعتماداً وثيقاً على مصر فى مؤنها، تعانيان بدورهما معاناة جسيمة. ويعم السخط مجمل البلد.

مـاجالـلــــون

كما أن التجار الفرنسيين هم أيضاً ضحايا للتعديات المفروضة من جانب البيكين. ويبدو مور، قنصل فرنسا، عاجزاً عن التصدى لهذا الوضع. ويرجع الدور الرئيسى إلى تاجر غير عادى، هو شارل ماجاللون. وهو أحد ممثلى الأمة الفرنسية منذ عام ١٧٦٨. وفى عام ١٧٧١، يستقر فى البلد ويعمل لحسابه الخاص. وهو يتزوج بزوجته، وهى أرملة تاجر بندقى، تقوم بتجارة الأقمشة، وهو ما يسمح لها بالاتصال بنساء المماليك الأعلى مكانة. وبسبب هذا الوضع، جرى إعفاء ماجاللون من جانب السلطات الفرنسية من الحظر المفروض على تجار الثغور والذى يحرم عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم.

وتتوسط مدام ماجاللون بصورة منتظمة لدى الست نفيسة وتحصل فى أغلب الأحيان على تخفيفات للتعديات التى يتعرض لها الفرنسيون. وفى عام ١٧٧٧، إثر البعثة التفتيشية التى قام بها البارون دوتوت، والمكلف فى واقع الأمر بدراسة إمكانية الاستيلاء على مصر، يجرى نقل قنصلية القاهرة إلى الإسكندرية وذلك من جراء انعدام الأمن المهيمن على عاصمة مصر. ولا يؤدى ذلك إلاَّ إلى تعزيز دور ماجاللون. وفى عام ١٧٨٥، يوقع البيكان مع المبعوث الفرنسى تروجيه معاهدة تسمح للفرنسيين بالملاحة فى البحر الأحمر، ومن المؤكد أن دور ماجاللون فى المسألة دور مهم. لقد شغل إلى حد ما المكانة التى كان يتمتع بها روزيتى، عند على بك (٥٥).

وفى عام ١٧٨٦، يصل مراد إلى الإسكندرية، ويزيد التعديات المفروضة على الإفرنج

(الفرنسيين) ويهدد بهدم كنيستهم. ويطلب القناصل عون سفاراتهم فى القسطنطينية. ومن جديد تتوصل مدام ماجالون إلى الست نفيسة التى تتدخل لدى زوجها وتتوصل إلى وضع حد للتعديات، لكن السفراء الأوروبيين فى القسطنطينية كانوا قد احتجوا احتجاجاً شديداً بالفعل لدى الباب العالى وطلبوا مراعاة أدق للامتيازات (٥٦).

الباب العالى ومصر

فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، تبدأ السلطة المركزية ببطء فى التفكير فى إصلاح نفسها وإعادة تدعيم صلاحياتها. وهى لا يمكنها التسليم بأن يكف مراد وإبراهيم، وقد أصبحا سادة مصر، عن إرسال الخزينة السنوية إلى الباب العالى وبأن يتصرفا كحكام «إيالات» أفريقيا الشمالية فيوقعان على اتفاقيات تجارية مع الدول الأوروبية. ولا يقتصر الأمر على أنهما يتجاوزان حدود صلاحياتهما الإدارية، بل إنهما يتصرفان أيضاً بشكل يتعارض مع الأوامر الرسمية للباب العالى فى مجال حساس هو مجال حماية المدينتين المقدستين، وهو اختصاص رئيسى من اختصاصات الخلافة. ثم إنهما يستنزلان بعد ذلك الدول الأوروبية فى لحظة يجرى فيها ضم القرم إلى روسيا وتحتاج فيها الإمبراطورية تماماً إلى مؤازرات فى النزاع الجديد الذى يوشك أن ينشب مع روسيا والنمسا. وتصرفهما يعتبر غير محتمل بقدر ما أن الظرف السياسى المصرى يبدو ملائماً لاستعادة سلطة الباب العالى المباشرة. ومنذ عام ١٧٨٥، فإن الباب العالى، وقد استحوذ عليه بدوره الجنس الأدبى جد الرائج فى جهاز الدولة الفرنسى، يطلب إلى الرجل القوى أحمد باشا الجزار، سيد فلسطين وحائز السلطة الأهم فى سوريا، أن يقدم إليه تقريراً عن إمكانية فتح مصر(٥٧).

ويفكر الجزار فوراً فى قيادة الحملة. وهو يقترح حشد قوات عثمانية فى غزة بحجة النضال ضد آخر أحفاد ضاهر العمر، خصومه فى فلسطين. ومن هناك، سوف يؤدى زحف سريع (لا تزيد مدته عن اثنين وثمانين ساعة!) إلى تمكين القوات العثمانية من الوصول إلى بركة الحاج التى لا تفصلها عن القاهرة غير مسيرة أربع ساعات. وسوف تتلو المفاجأة التامة حرب دعائية من شأنها نسف قوة المماليك. ويؤكد الجزار على المبدأ الأساسى لكل سياسة مصرية؛ الاعتماد على كبار العلماء، ومشايخ الطرق الصوفية، خاصة الشيخ البكرى، سليل أول خليفة مسلم، والشيخ السادات، سليل النبى من على، واللذين سوف يحاوران بوناپارت فيما بعد. فهذان الرجلان، «بوسعهما أن يجمعا فى يوم واحد قوة ضخمة من الجنود قوامها ما بين سبعين ألفاً وثمانين ألفاً على الأقل من الرجال التابعين والمخلصين لهما، ومن ثم فإن بوسعهما مساعدة الوالى».

وبعد هذين العاملين الكبيرين، لابد من الحصول على مساندة رجال الأزهر الذين يقودهم مفتو مصر الأربعة: «فلما كان طغاة مصر قد اعتدوا عليهم واغتصبوا حقوقهم، فإنهم سوف يكونون على اتفاق مع الجماعة الأولى فى النقمة والرغبة فى التخلص (من الطغاة)» (٥٨).

ولإثارة السكان على المماليك، لابد من وعد الفلاحين بالقضاء على جميع الضرائب التى أضيفت بشكل غير مشروع فى العقود السابقة والتى تعتبر مخالفة للشريعة. وسوف يجرى التصرف عبر بيانات، توزع فى مجمل البلد وتتلى على السكان من جانب موظفين، تعد السكان بالعودة إلى تشريعات القرن السادس عشر الصالحة. وهكذا يتسنى بسرعة القضاء على «الطغاة» عبر التمرد الشعبى وتبدأ إعادة تنظيم تامة لمصر وفق نموذج إعادة التنظيم التى عرفها القرن السادس عشر.

ويحتفظ الباب العالى بالنصائح، إلا أنه من الواضح تماماً أنه يفضل أن يعهد بتنفيذها إلى رجل آخر غير باشا عكا القوى، الذى يسعى، بشكل واضح، إلى تحقيق وحدة سوريا ومصر، شأنه فى ذلك شأن سلفيه، على بك وأبو الذهب.

إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات

إن الحملة العثمانية، تحت قيادة حسن باشا الجزايرلى («الجزائرى»)، وهو أحد المصلحين العثمانيين الكبار الأوائل، تهبط فى رشيد فى يوليو ١٧٨٦. واعتقاداً منهم أن الفرنسيين يتحملون المسئولية عن هذا التدخل، يطلب البكوات إلى ماجاللون، عبر الست نفيسه، التدخل لدى قنصل فرنسا حتى يتوصل إلى وقف الحملة العثمانية. وهم يجهلون أن دوافع العثمانيين أكبر أهمية بكثير من شكايات التجار الفرنسيين. على أن فكرة عمل مشترك من جانب الباب العالى والفرنسيين ضد المماليك تبدو وجيهة فى نظر البكوات. وسوف نجد هذه الفكرة من جديد فى عام ١٧٩٨. أما فيما يتعلق بآل ماجاللون، فسوف يتعرضون للخراب من جراء المشروع، لأن لهم ديوناً تزيد عن خمسمائة ألف جنيه مستحقة على البكوات الرئيسيين.

ويشرع العثمانيون على الفور بتطبيق السياسة التى أوصى بها الجزار. فحسن باشا يرسل بيانات إلى السكان احتفظ الجبرتى لنا بنموذج منها:

«إلى مشايخ العرب أولاد حبيب بناحية دجوة وفقهم الله تعالى، نعرفكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب هذا خائنو الدين إبراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكر منصورة بحراً لدفع الظلم ولايقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة براً بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر إسكندرية ثم إلى رشيد فى سادس عشر رمضان فحررنا لكم هذا الفرمان لتحضروا تقابلونا وترجعوا إلى أوطانكم مجبورين مسرورين إن شاء الله تعالى فحين وصوله إليكم تعلموا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم».

ويُدعى علماء القاهرة ويذهبون فى وفد إلى رشيد لمقابلة قائد الحملة العثمانية. وهم يشكون عجزهم أمام قوة المماليك. ويذكر الجبرتى:

«دعاهم (حسن باشا الجزايرلى – المترجم) فى ثانى يوم وكلمهم كلمات قليلة وقال له الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر قوم ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس فقال لا تخشوا من شىء فإن أول ما أوصانى مولانا السلطان أوصانى بالرعية وقال إن الرعية وداعة الله عندى وأنا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى فدعوا له بخير ثم قال كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم فأجابه إسمعيل أفندى الخلوتى بقوله يا سلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس ويد واحدة فغضب من قوله ونهره وقال تخوفنى بأسهم وقال إنما أعنى بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضعفوا الناس ثم أمرهم بالانصراف».

وبالرغم من شبه الفشل هنا، فإن بوسع العثمانيين أن يصلوا بسهولة إلى القاهرة. وتحركهم ثورى بشكل مناسب، فهو يتمثل لأول مرة فى إبراز التعارض المباشر بين طبقة المغلوبين (رعية مصر) وطبقة الحاكمين المصرلية المساوية فى بقية الإمبراطورية العثمانلية. ولا يمكن فهم مثل هذا التحرك إلا فى إطار الفكر السياسى الإسلامى السنى. فالسلطة السياسية لا أساس لها إلا بقدر ما تحمى جماعة المؤمنين من التهديدات الخارجية وإلا بقدر ما تطبق الشريعة فى الداخل. وهذه الشريعة هى من ثم دعامة ما يمكن تسميته، دون أية مبالغة، بالمجتمع المدنى الإسلامى. ومن ثم فالسلطة السياسية لا تملك غير وجود وظيفى: فهى قائمة خارج المجتمع. ولهذا بالتحديد تتألف الطبقة الحاكمة العثمانية

(العثمانية) أو المملوكية (المصرلية) من الناحية القانونية من عبيد (الول). وإذا تعدت السلطة السياسية على المجتمع فطغت وظلمت ونهبت، فإنها تنتهك الشريعة الإسلامية نفسها التي تكفل أمن الأفراد والممتلكات. وسلعتها فإن الثورة التي يقرر العلماء مشروعيتها تصبح فريضة. ومن ثم فإن هذا المفهوم عن المجتمع الإسلامي يؤكد شرعية الحق في مقاومة الجور. والثورة على انتهاك الحقوق المتضمنة في الشريعة الإسلامية شرعية، وهو ما يحيل إلى جوانب معينة من جوانب الثورة الفرنسية (٥٩).

والحال أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمرد هو من ثوابت تاريخ الإمبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر؛ كما أن مشاريع التحديث الغربي الطراز سوف تعتبر انتهاكاً للشريعة الإسلامية وسوف يجري تفسير تعزيز الدولة التحديثية اعتباراً من أواسط القرن التاسع عشر باعتباره انتصاراً لاستبداد خلقه الغرب(٦٠).

والواقع الرئيسي هنا هو أن العثمانيين يخاطبون السكان باسم الإسلام لكنهم يسمونهم أيضاً بالمصريين، ولو أن من الصحيح أن الهوية المصرية (أو العربية) في ذلك العصر إنما توجد أولا في نظر الآخر، العثماني أو الأوروبي سواء بسواء.

الفشل العثماني

ينهج مراد وإبراهيم النهج المعتاد من جانب المماليك في هذه الظروف، فهما ينسحبان إلى مصر العليا لخوض حرب عصابات نشيطة ضد أعدائهما. ويصادر العثمانيون ممتلكات المماليك المتمردين ويتتبعونهم حتى أسوان عند الشلال الأول للنيل. وكما سوف يدرك الفرنسيون ذلك بعد اثني عشرة سنة، فإن المماليك هم سادة هذه الحرب المتحركة، ويتعذر القضاء عليهم بسبب استحالة الإمساك بهم. وهم (العثمانيون) يحاولون، في مصر السفلى، استعادة سلطة الميليشيات (الأوجاقات) لكنهم يلحظون أن هذه الأخيرة لم تعد لها قوة عسكرية حقيقية. ومن ثم يتعين عليهم الاعتماد على العلوية، الحزب المملوكي المناوئ لمراد ولإبراهيم. ويعيدون إسماعيل بك إلى سدة السلطة في القاهرة.

وكل هذه الحملات تكلف ثمنا جد باهظ وسرعان ما يضطر العثمانيون إلى إعادة فرض المغارم الثقيلة وغير المشروعة التي كان من المتصور أنهم إنما جاءوا للقضاء عليها.

وقد سعوا إلى إصلاح تسجيل مسح الأرض وتحصيل إيرادات الالتزامات، وذلك سعياً، من جهة أخرى، إلى زيادة الخزينة المدفوعة للباب العالى، لكن ذلك يبدو غير كاف والصبر العمر بشكل خاص(٦١). وتصبح خيبة أمل السكان المصريين كاملة. وفى عام ١٧٨٧، يجرى استدعاء القوات العثمانية، بسبب استئناف الحرب مع روسيا. ويوضح الجبرتى أبعاد الفشل العثمانى بإشارته إلى مرور حسن باشا بمصر، «لم يحصل من مجيئه إلى مصر ونهايه إلا الضرر ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقررت به المظالم والحوادث فإنهم كانوا يفعلونها قبل ذلك مثل السرقة ويخافون من إشاعتها وبلوغ خبرها إلى الدولة (الدولة العثمانية) فينكرون عليهم ذلك وخابت فيه الآمال والظنون وهلك بقدومه البهائم التى عليها مدار نظام العالم وزاد فى المظالم التحرير لأنه كان عندما قدم أبطل ورفع المظالم ثم أعاده بإشارة إسمعيل بيك وسماه التحرير فجعله مظلمة زائدة وبقى يقال رفع المظالم والتحرير فصار يقبض من البلاد خلاف أموال الخراج عدة أقلام منها للضاف والبرانى وعوائد الكشوفية والفرد المتعددة ورفع المظالم والتحرير ومال الجهات وغير ذلك ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد لهلك عليه أهل الإقليم أسفاً وبنوا على قبره مزاراً وقبة وضريحاً يقصد للزيارة».

ومن عام ١٧٨٧ إلى عام ١٧٩١، يحكم إسماعيل بك مصر السفلى. وغالباً ما يدخل مماليك مصر العليا فى صلح معه بل ويحاولون إعادة صوغ التحالف مع الروس كما حدث فى زمن على بك. وتدفع السلطات العثمانية مماليك القاهرة والعلماء إلى محاربة متمردى الجنوب. ويدرك إسماعيل بك ضرورة تسليح أرائى، ويرسل إلى ملجاللون، وهو مجرد تاجر آنذاك، فى مارس ١٧٨٩، طلباً بإرسال بعثة عسكرية فرنسية (٦٢). وكانت الرغبة فى التنصل من الشئون العثمانية فى وقت تخوض فيه الإمبراطورية حرباً مع روسيا والنمسا قد أدت إلى سحب البعثة العسكرية الفرنسية من القسطنطينية منذ عام ١٧٨٧. والحق أن فيرجان يموت فى تلك اللحظة. وهذا السبب، علاوة على الظرف السياسى المتقلب فى عام ١٧٨٩، يفسران واقع أن السلطات الفرنسية لا تستجيب لهذا الطلب.

عودة إبراهيم ومراد

فى نهاية الأمر، يصيب وباء طاعون رهيب مصر السفلى فى عام ١٧٩١، بما يؤدى إلى وفيات خطيرة بين السكان. كما يسقط إسماعيل بك ومساعدوه الرئيسيون ضحايا له. وهكذا يصبح بوسع مراد وإبراهيم استعادة مصر السفلى بسهولة. ويضطر الباب العالى

إلى الاعتراف بالأمر الواقع. لكنه عازم بشكل واضح على عودة مصلحة ما إن تتيح له الظروف إمكانية ذلك. وهذا أحد ثوابت سياسة السلطة المركزية فى عصر سليم الثالث، أول سلطان مصلح للدولة العثمانية.

وفى مدن مصر السفلى، تتم عودة الأميرين فى مناخ عنف وأزمات. ويحاول العلماء استخدام نفوذهم على الشعب للحد من تعديات المماليك. وهذا واضح بشكل خاص فى الإسكندرية حيث لا يتسنى للشريف الكريم، وكيل مراد بك، السيطرة على إيرادات الجمارك إلا بالقوة، وذلك بسبب مقاومة العلماء المحليين الذين يتزعمهم الشيخ المسيرى ويدعمهم جزء مهم من السكان (٦٣)؛ وفى هذه الحالة المحددة، فإن العلماء يدافعون، علاوة على الإنصاف والعدالة، عن المصالح التجارية في الأجل الطويل لمدينتهم. وهكذا فإن الشيخ المسيرى يجعل من نفسه حامياً للتجار الفرنسيين في المدينة ويحاول «التصدى، والقرآن بيمينه، لهوى الطاغية» (٦٤).

سياسة مراد بك العسكرية

لمواجهة عودة محتملة للعثمانيين، ينظم مراد بك أسطولا حربياً صغيراً على النيل، وهو يعهد بتنظيمه إلى مغامر يونانى هو نيكولاس باباس أوغلو، الذى تحول إلى اعتناق الإسلام، والمعروف باسم الحاج نقولا أو الريس نقولا. وتتألف أطقم الأسطول الصغير من يونانيين مخلصين لرئيسهم (٦٥). بل إنهم على استعداد لحمل السلاح ضد الزعيم المملوكي عندما يحاول هذا الأخير الانقضاض عليهم إثر مشاجرات مع سكان القاهرة. ويضطر مراد إلى التراجع بحكمة، الأمر الذى يثير عظيم سخط الجبرتى الذى يتهمه بمحاباة المسيحيين على حساب المسلمين (٦٦).

كما أنه لكى يجهز نفسه بالمدفعية، يلجأ إلى يونانيين من زانت (وهى من ممتلكات البندقية آنذاك)، هم الأخوة جايتا الثلاثة. وإذ يتحولون هم أيضاً إلى اعتناق الإسلام بل ويصبحون مماليك، فإنهم ينظمون مسبكاً للمدافع قرب قصر مراد فى الجيزة. والحال أن الأخ الأكبر، أحمد أغا، سوف ينهمك فى عام ١٧٦٩، تحت رعاية روزيتى، فى إنشاء سلاح مدفعية لمملكة دارفور السودانية. وهو يصبح مستشاراً عسكرياً للملك فى الوقت الذى يعد فيه لغزو للبلد من جانب رجال مراد بك. وطبيعى أن الغزو الفرنسى يقلب خططه(٦٧). وفى تلك الأثناء، كان أخواه قد نجحا فى تزويد مراد بمدفعية خفيفة وخاصة بعمال قادرين على إنتاج المدافع.

وهكذا ففى مصر كما فى بقية الإمبراطورية العثمانية يصبح اليونانيون وسطاء فى إدخال التقنيات الغربية. وحركة الالتجاء إلى المستشارين العسكريين الأوروبيين، والتى بدأها على بك، تتواصل فى ظل مراد.

التحديات

إن أشكال الكيد للتجار الفرنسيين تصبح جسيمة بشكل مطرد. وماجاللون، الذى جاء إلى باريس لنقل شكايات زملائه، تعينه الجمهورية، فى ٣٠ يناير ١٧٩٣، قنصلاً للجمهورية الفرنسية فى القاهرة. وعندما يصل إلى منصبه، فإنه يصطدم بعداوة كارلو روزيتى، المستشار السابق لعلى بك، والذى أصبح وكيلاً قنصلياً إمبراطورياً (للنمسا)، وعاد إلى الفوز بحظوة البكوات للماليك (٦٨). ويكسب الفرنسى مساندة الست نفيسة. لكن ذلك لا يكفى، وفى عام ١٧٩٤، ينقل ماجاللون القنصلية التى كان قد أعيد فتحها فى القاهرة إلى الإسكندرية لتجنب ضراوة الأمراء. وعند فشل جميع التدخلات الدبلوماسية، يصبح ماجاللون نصيراً لحملة فرنسية ويسافر لتأييد هذه القضية فى يوليو ١٧٩٧ فى اللحظة ذاتها التى يبدأ فيها تاليران فى طرح للوضوع (٦٩).

والصدمات المتواترة بشكل مطرد بين العلماء والمماليك تصل إلى ذروتها فى عام ١٧٩٥ فى القاهرة حيث يثير أحد العلماء، وهو الشيخ الشرقاوى، تمرداً شعبياً عظيماً ضد المماليك إثر تعديات جديدة على الفلاحين. ويضطر الأمراء إلى المصالحة وقبول مختلف المطالب الشعبية، ثم إنهم:

«التزموا [...] بأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة وكان القاضى حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بيك وأرسلها إلى مراد بيك فختم عليها أيضاً وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة ونزل عقيب ذلك مراد بيك إلى دمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك» (٧٠) .

وبحسب الجبرتى، فإنه لا يحدث شىء مهم بين عامى ١٧٩٥، ١٧٩٨. وهو يذكر لنا فى سطور قليلة أن الأمراء يزيدون بشكل متواصل تعدياتهم وأن الوضع لا يأخذ إلا فى التزايد سوءاً.

أزمة نهاية القرن

على هذا النحو ينتهى بالنسبة له عهد الكوارث الأول الذى بدأ عند موت أبو الذهب. والواقع أن الوضع الاقتصادى يصبح مترديا باطراد. فالفتن السياسية التى أعقبت موت أبو الذهب وأعمال التخريب والتدمير والمجاعات وتعديات البكوات المماليك قد وضعت نهاية للأيام السعيدة لأواسط القرن. بل إن التوجهات الجديدة، التى حفز إليها التغلغل الاقتصادى الأوروبى، تشهد فشلا محققا. وقيمة الالتزامات، أى الاستثمارات فى الاقتصاد الريفى، تأخذ فى الانحطاط. والتجارة مع الأوروبيين تتدهور ويشهد رخاء الكاثوليك اليونانيين التطور نفسه. وتعديات البكوات على التجار يصبح من الصعب بإطراد احتمالها. وانحسار التجارة مع مصر يصبح أحد المبررات الرئيسية لحملة على مصر فى الأوساط الحكومية الفرنسية.

وتتزايد جسارة البدو. وبعيدا عن أن تملك مصر الدولة القوية والمركزة التى جرى العرف على تخيلها، فإنها تجد نفسها بالأحرى فى واحدة من فتراتها الانتقالية التى تتداخل فيها الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية مع صعود نزعات استقلالية محلية.

لكن هذه الفترة ثورية أيضا. فالجماعات الاجتماعية المختلفة تنخرط فى التنافس على السلطة منذ أن توجه العثمانيون إلى الشعور الإسلامى سعيا إلى إثارة المصريين تحت قيادة العلماء ضد المماليك. وقد نجح رجال الدين فى خلق تحالف مع الشعب ضد المماليك فلم يعودوا مجرد وسطاء وانفصلوا عن الجماعة السائدة المملوكية بالرغم من الروابط الاقتصادية والعائلية التى جعلتهم شركاء للطبقة الحاكمة. والواقع أن إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات مع التأكيد على حق مقاومة الجور إنما يمثل النظير الشرقى للثورة الفرنسية. والحال أن بونابارت، بفضل مستشاريه من أمثال ماجاللون وفينتور دو بارادى اللذين كانا شاهدين على التغيرات السياسية المصرية، سوف يسعى إلى أن يستغل لحسابه هذه القوى وإلى إحياء الائتلاف المعادى للمماليك والذى خلقه العثمانيون فى عام ١٧٨٦.

وبالنسبة للجبرتى، فإن عام ١٧٩٨ إنما يرمز إلى بداية نهاية العالم: «سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، هى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»(٧١).

حواشي الفصل الثالث

١ – حول الاقتصاد – العالم العثماني، انظر BRAUDEL, *Civilisation matérielle...*, Tome III, *Le temps du monde*, pp. 402 - 417. وإنا هنا نقصد بمصطلح «اقتصاد – عالم» مجالاً جغرافيًا تهيمن فيه التبادلات الداخلية هيمنة كبيرة بحيث يمكن اعتبار التبادلات الخارجية هامشية.

٢ – Sur le commerce maritime dans l'Empire Ottoman, voir les travaux de Daniel PANZAC, par exemple "Négociants ottomans et capitaines français : la caravane maritime en Créte au XVIII[e] siécle", in Hamit BATU et Jean - Louis BACQUÉ - GRAMMONT, *L'Empire Ottoman, la République de Turquie et la France*, Istanbul - Paris, éditions Isis, 1986, pp. 99 - 118.

٣ – Pour tout ce passage sur le commerce, je suis étroitement les analyses de M. André RAYMOND dans ses *Artisans et commerçants au Caire au XVIII[e] siécle*, Damas, Institut Français d'Études Arabes, 1973.

٤ – Ce commerce a été étudié par Terence WALZ, *Trade between Egypt and bilâd as - Sûdân*, Le Caire, I.F.A.O., 1978.

٥ – La Grande Syrie ou bilad al sham (pays de Damas), d'où le nom générique donné à ces Syriens en Égypte, Shami pluriel Shawwam.

٦ – Sur l'organisation des Mamlouks au XVIII[e] siécle : David AYALON, "Studies in Al - Jabarti, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of Economic and Social History of Orient*, III, 1960, pp. 148 - 174 et pp. 275 - 325.

٧ – أي «بيزنطيين». وفي مصر كما في الولايات العربية الأخرى في الإمبراطورية العثمانية، انتهى هذا المصطلح إلى الإشارة إلى جميع غير الناطقين بالعربية، من مسيحيي أو مسلمي الإمبراطورية، من أصل أناضولي أو بلقاني. والحال أن هامر، الذي عمل مترجمًا في الجيش الإنجليزي في عام ١٨٠١، قد حدد على النحو التالي الفرق بين «التركي» و «العثماني» : «إن الوصف بـ «التركي» ينظر إليه على أنه مهين، كان ذلك على لسان العربي، أم على لسان العثماني، وإذا ما اتجهنا إلى أساس الأمور، فسوف نجد أن دوافع ذلك واحدة عند العربي والعثماني على حد سواء. ففي نظر العثماني، ليس «التركي» غير الابن الفظ والجلف للبراري، الذي يظل غريبًا عن كل ثقافة وكل تمدن؛ وفي نظر الأوروبي، فإنه [التركي] البربري الآسيوي، المتعصب لأشكال حكمه وديانته. ويعامل العثماني التركماني الجلف على أنه تركي بينما يخلع الأوروبي هذا

Histoire de l'Empire Ottoman, postface, Paris, 1841, pp. اللعب على العثمانى».
ورد فعل Bernard LEWIS, *Islam et laïcité* انظر أيضاً في XXXVI - XXXVII.
السفير التركي في فرنسا، الذي «إذ يضفي نفسه على إمبلط متاورة معادية، [...] يشير إلى أنهم لم
يكونوا هذه المرة يواجهون «السفير التركي» – في الفلاح الأحمق – الذي كانوا يتخيلونه». Paris,
1988, p. 292.

٨ – Cette analyse des termes ethniques s'appuie sur les usages trouvés chez le grand chroniqueur égyptien JABARTI (mort en 1825) et sur l'article de M. Louis AWAD, "L'Égypte face à son passé", in Robert Ilbert et Philippe Joutard éditeurs, *Le Miroir Égyptien*, Marseille, Jeanne Lafitte, 1984, pp. 271 - 280.

٩ – AYALON, op. cit. p. 314.

١٠ – Synthése essentielle de la question dans l'article du Pére Maurice MARTIN, "Note sur la communauté copte entre 1650 et 1850", *Annales Islamologiques*, XVIII, Le Caire, I.F.A.O., 1982, pp. 193 - 216.

١١ – André RAYMOND, *Artisans et commerçants au Caire...*, II, 817.

١٢ – Sur ce sujet, voir André RAYMOND, "L'impact de la pénétration européenne sur l'économie de l'Égypte au XVIII siècle", in *Annales Islamologiques*, Le Caire, Institut Français d'Etudes Orientales, 1982, XVIII, pp. 217 - 235; du même "Les effets négatifs de la pénétration commerciale européenne sur l'économie égyptienne", in *Le Miroir Égyptien*, pp. 101 - 109.

١٣ – Sur les Grecs catholiques, le livre essentiel est celui de Thomas PHILIPP, *The Syrians in Egypt, 1725 - 1975*. Stuttgart, 1985.

١٤ – Pour l'évolution de l'agiculture égyptienne, je suis de près le travail de Mlle Christine de SAINTE - MARIE, *Les agricultures égyptiennes, les transformations du systéme agraire de la vallée du Nil dans l'Égypte indépendante*, thèse deIII° cycle, Université de Paris I, juin 1987, multigraphiée.

١٥ – *Description de l'Égypte*, Paris, 1822, XI, pp. 477 et suivantes, Michel - Ange LANCRET, *Mémoires sur le systéme d'imposition de l'Égypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks* :

«إن كل ملتزم يختار من الفلاحين الذين يحوزون الأرض والذين يدفعون له الضريبة، مزارعاً رئيسياً، هو رئيس الآخرين، ويحمل اسم شيخ البلد. ويحدث أيضاً أنه إذا كانت حيازات أحد

للملتزمين جد واسعة في القرية الواحدة، فإنه يقسمها بما يتراءى له إلى عدة أقسام، ويوزع المسؤولية عنها على مشايخ مختلفين، بحيث إن هناك قرى [...] يوجد فيها عدد كبير من المشايخ. والعدد المتوسط ثمانية أو عشرة؛ إلا أنه ليس من النادر أن نشهد ارتفاعه إلى عشرين وأكثر. ويمارس شيخ البلد مسؤولية الإشراف على الفلاحين الذين يزرعون ذلك القسم من الأرض الذي يتحمل المسؤولية عنه، وإليه هو وحده يطلب الملتزم غلة الضريبة، وهو يترك له الاهتمام بجمعها من أيدي فلاحين مختلفين ؛ ومن ثم، فإن له حق ضربهم بالعصا أو سجنهم [...] حتى يؤدوا ما عليهم. والمشايخ لهم مصلحة أيضاً في عدم التقصير في دفع الفلاحين إلى سداد ما عليهم وذلك بقدر ما أنه إذا ما تعرض الملتزمون لحالات تأخر في تحصيل إيراداتهم، فإن المشايخ هم الذين سوف يعاقبون على ذلك. [...].

«وفي كل قرية، يوجد شيخ بلد أول، هو بمثابة نائب البلد؛ وهو الذي يؤدي بشكل شخصي وظائف قاضي الصلح، ويناقش أمامه الخلافات التي تتميز بقدر من الأهمية. وتمتد سلطته ليس فقط على الفلاحين المزارعين، وإنما أيضاً على جميع سكان قريته. وهذه المكانة ليست مجرد مكانة شرفية، فهي تعود عليه أيضاً بعدة منافع مالية ؛ وعلى سبيل المثال، فإنه إذا ما طلب المماليك قدراً معيناً من المال، أو من المواد الغذائية، من إحدى القرى، فإن الشيخ الأول يأمر بتقديم المطلوب دون أن يدخل فيه شيء من ممتلكاته الخاصة. وهذا الحق لا ينازعه أحد فيه. [...]. وفي جميع الحالات تقريباً، فإن مكانة الشيخ الأول إنما يحوزها الأغنى، وهي تنتقل عادة من الأب إلى الابن. على أنه ليس من النادر أن نراها تخرج من الأسرة التي كانت تحوزها لتصبح من نصيب أسرة أخرى أكثر ثراءً وتلك مكانة أعلى».

١٦ – Sur l'évolution de structures rurales au XVIII^{e} siècle, voir l'article de synthèse de Kenneth M. CUNO "The Origins of Private ownership of Land in Egypt : a reappraisal". in *International Journal of Middle East Studies*, 12, 1980, pp. 245 - 275. Cette évolution se retrouve dans l'ensemble de l'Empire Ottoman.

١٧ – CUNO, *Landholding, Society and Economy in Rural Egypt, 1750 - 1850, A Case Study of al Daqahliyya Province*, thèse multigraphiée, University of California, Los Angeles, p. 188.

١٨ – Ibid, pp. 280 - 291.

١٩ – Ibid, pp. 33 2 - 345.

٢٠ – Ibid, pp. 345 - 352.

٢١ – «إن أحد مظاهر العنف الذي لا يمكن للفلاحين كبحه، هو ذلك العنف الذي تقترفه قبيلة عندما تستأجر أرضاً بينهم. ففي البداية يخيم جزء من القبيلة في حقل يعد كلأه بالوفرة؛ وما إن يصبح المكان ملائماً للعرب وما إن يقيموا فيه، فإنهم يدخلون في مساومة مع المزارعين على ثمن الإيجار ؛ لكن الجمال والجياد تكون قد أكلت بالفعل جزءاً كبيراً من الكلأ وتكون الخيام منصوبة في كل مكان. فكيف يحدث ذلك ؟ إن زعيم العرب يعرض ثمناً غالباً ما لا يكون غير عشر القيمة، ولا يملك الفلاح خياراً آخر غير القبول. [...]. إنه لشيء محزن أن نجد أقاليم بأكملها شبه

مرهوبة من ابنائها إلى اتصالها بمخيمات العرب : «فالواقع أن المخيمات هناك منتشرة انتشار القرى، وهي تتزود دون توقف بفرسان جدد لا يشكلون البتة جزءاً من القبيلة، لكنهم يجيئون للفوز بحق النهب والسلب، لأن المشايخ يحرزون ملكيات. وما أكثر الأراضي البور والمهجورة في مواقع الخيام والمناطق المجاورة لها وما أكثر الأراضي التي نمت فيها الأعشاب الضارة على الحبوب لأن الفلاحين قد اضطروا إلى الهرب ولا يتجرأون على مقاومة الظهور لا في موسم الحصاد ولا في موسم إلقاء البذور» JOMARD, "Observations sur les Arabes de l'Égypte moyenne", in *Description de l'Égypte*, Paris, 1823, T. XII, pp. 285 - 290.

٢٢ – Voir Daniel PANZAC, "Endémies, Epidémies et Population en Égypte au XIX° siècle", in "*L'Égypte au XIX^e siècle*", op. cit., pp. 83 - 100; du même, "The population of Egypt in the nineteenth century", *Asian and African Studies*, Vol. 21, 1987, pp. 11 - 32.

٢٣ – CUNO, *Landholding*... p. 60.

٢٤ – يرى دولوميو أن هذه المنطقة قد تحد من الخط الذي يقود من الرحمانية إلى المنصورة ، "Quelques notices sur l'agriculture de la Basse - Égypte", in *Dolomieu en Égypte*, Mémoires présentés à l'Instiut d'Égypte par A. LACROIX et G. DARESSY, T. III, Le Caire, 1922, pp. 81 - 82.

٢٥ – «بما أن النيل يفيض بدرجة جد قليلة على الدلتا، خاصة نحو الجزء الشمالي الذي يزرع الأرز فيه، فإنه يجري غمر الأراضي بالمياه بمساعدة آلات هيدروليكية؛ وهكذا فإن زراعة الأرز لا تتوقف على ارتفاع منسوب النيل، كزراعة الحبوب التي تنتجها مصر العليا، ومن الممكن أن تكون جد وفيرة، حتى عندما لا يكون هذا الارتفاع موجوداً بالمرة»، Jean - Baptiste TRÉCOURT, *Mémoires sur l'Égypte, année 1791*, édités et annoté par Gaston WIET, Publication de la Société Royale de Géographie, Le Caire, 1942, p. 8. Ce mémoire trés important a appartenu à Monge, mais il semble n'avoir été connu qu'aprés le retour de Bonaparte d'Égypte.

Pour une vue comparative, voir l'article de Halil INALCIK, "Rice Cultivation and the *Celtükci - Re'aya* System in the Ottoman Empire", *Turcica*, XIV (1982), pp. 69 - 141.

٢٦ – DOLOMIEU, pp. 87 - 88 يوضح هذا الأخير أن زراعة الأرز تمارس في أقاليم «رشيد ودمياط والمنصورة ولربتين فقط في الغربية» (P. 86) . وفيما يتعلق ببعض أساليب الري، يلاحظ أن : «المزارعين ليسوا محرومين من كل تكلفة» (P. 85) .

٢٧ – «إن تصدير الأرز يخضع لعقبات أقل، إذ يسمح بتصديره إلى تركيا، بل إن الحكومة تسمح في بعض سنوات الوفرة بتصديره إلى أوروبا وذلك في مقابل نسبة ١٥ في المائة. وكانت عمليات شحنه تتم في دمياط. وفي عام ١٧٧٦، صدر منه ٧٠٠٠٠ قنطار) إلى مرسيليا» TRÉCOURT, p. 27.

٢٨ – «لا يكاد يوجد ملاك أو مستأجرون أغنياء بما يكفي لدفع مقدمات النفقات التي تتطلبها مزارع الأرز؛ وهم لا يلتزمون عادة بهذه النفقات إلا اعتمادًا على المال الذي يقترضونه من التجار، الذين لا يقرضون إلا بالشرط المعلن والذي يتمثل في شراء كل أرز المحصاد بسعر يقل عن سعر السوق بسلطانين للأردب». DOLOMIEU, p. 106 ويوجد بالطبع هذا النوع من الاستثمار في جميع المحاصيل، لكنه مهم في هذا المجال.

٢٩ – l'étude la plus complète sur le début du régime néo - mamlouk, est le livre de Daniel CRECELIUS, *The roots of modern Egypt, a Study of the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Bey Abu Dahab, 1760 - 1775*, Minneapolis, Bibliotheca Islamica, 1981. Voir aussi André RAYMOND, ALI BEY AL KABIR, in *Les Africains*, Paris, 1977, II, pp. 17 - 41, et John W. LIVINGSTON, "The rise of shaykh al - balad Ali Bey al - Kabîr : A study in the accuracy of the chroincle of Al Jabarti", *Bulletin of the school of Oriental and African Studies*, 1970, pp. 282 - 294.

٣٠ – حول الأوجاقات في أواخر القرن الثامن عشر انظر عراقي يوسف محمد، *الوجود العثماني المملوكي في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر*، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥، ٤٥٧ صفحة.

٣١ – L'étude essentielle reste celle de F. CHARLES - ROUX, *Autour d'une route, l'Angleterre, l'isthme de Suez, et l'Égypte au XVIII^e siècle*. Paris, 1922. Voir aussi David KIMCHE, "The Opening of the Red Sea to European ships in the late Eighteen Century", *Middle Eastern Studies*, VIII, 1972, pp. 63 - 71.

٣٢ – Vasif WASSIF, Istanbul, 1805, II, pp. 215 - 216.

٣٣ – Bibliographie essentielle dans Abdul Karim RAFEQ, *The Provinces of Damascus*, Beyrouth, 1966, Amnon COHEN, *Palestine in the 18 th Century*, Jérusalem, 1973 et Moshe Ma' oz éditeur, *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jérusalem, 1975. Je n'ai pu consulter le livre de Ahmad Hasan JOUDAH, *Revolt in Palestine in the Eightenth Century : The Era of Shaykh Zahir al - Umar*, Princeton, Kingston Press, 1987.

٣٤ – PHILIPP, op. cit., pp. 28 - 29.

٣٥ – Sur les relations entre les Mamlouks égyptiens et la Palestine, voir Daniel CRECELIUS, "Egypt's Reawakening Interest in Palestine During the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Abu al Dahab, 1760 - 1775",

in David Kushner (ed.), *Palestine in the Late Ottoman Period, Political, Social and Economic Transformation*, Jerusalem, 1986, pp. 247 - 262.

٣٦ – PHILIPP, p. 29.

٣٧ – P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, Londres, 1966, p. 96.

٣٨ – Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, pp. 159 - 169. "Soudan" terme médiéval pour "Sultan".

٣٩ – Ben HALPERN, "A Note on Ali Bey's "Jewish State "Project", *Jewish Social Studies*, XVIII, pp. 284 - 286.

٤٠ – John W. LIVINGSTON, "Ali Bey al Kabir and the Jews", *Middle Eastern Studies*, 1971, VII, pp. 221 - 228.

٤١ – لقد استمد بونابارت الكثير من أسطورة علي بك الكبير. وقد أمر بمعاملة خاصة للست نفيسة أرملته التي تزوجت فيما بعد مراد بك. وفي ١١ بلوفيوز من العام السابع (٣٠ يناير ١٧٩٩)، كتب إلى برسيلج : «إن السيدة الست نفيسة، أرملة علي بك وزوجة مراد بك الآن، يجب أن تحتفظ بذلك الجزء من ممتلكاتها الذي ورثته عن علي بك، فنحن نريد بذلك أن نقدم دليل احترام لذكرى هذا الرجل الشهير». Correspondance..., V, p. 376.

٤٢ – «إن لقب «الخليفة المحمدي الأعلى» – في المادة الثالثة – والذي يشير إليه النص الأصلي، الإيطالي، للمعاهدة إنما يجد توسيعاً له في الترجمة الفرنسية ليصبح «خليفة الديانة المحمدية صاحب السيادة»؛ أما في النسخة التركية، فهو لا يعدو أن يكون «إمام المؤمنين وخليفة الموحدين» [...]، وهو لقب لا ينطوي على الابهام شديد العمومية والاتساع الذي تزعمه الصيغ التي يستخدمها الأجانب». Bernard LEWIS, *Islam et laïcité*..., p. 470.

والواقع أن كل شيء يبدأ منذ عام ١٧٧٢ عندما يرسل الباب العالي مفوضين عثمانيين للتفاوض مع الروس على ضفاف الدانوب. وكان أحد الرجلين العثمانيين هو ياسينجي زاده «شيخ أبا – صوفيا»، الذي يتمتع برتبة قاضي القسطنطينية [...] والمكلف بشكل خاص بمناقشة المواد التي قد تكون لها صلة بالدين». وحرصاً منه على ألا تغيب عن باله «مبادئ شريعة الأوروبيين»، فإنه ينكب على قراءة العهد الجديد». ونحن نرى في ذلك دليلاً على عدم فهم السياسة الغربية في ذلك العصر.

وخلال اللقاء الثاني، يطالب الروس باستقلال التتر، أي بالحماية الروسية على القرم في واقع الأمر : «وقد رفض المفوضان التركيان بقوة المطلب الخاص باستقلال التتر، وهو مطلب أعلنا أنه لن يكون بوسعهما أبداً تلبيته، لأنه يتعارض مع شريعة ديانتهما. وقد أشارا إلى أن السلطان، بوصفه خليفة، إنما يمارس السلطة الروحية على جميع أهل السنة، وأنه إذا كان لا يدعي لنفسه هذه السلطة في الهند، وفي بخارى وفي إمبراطورية المغرب الأقصى، التي يحكم شعوبها كلها أمراء ينتمون إلى المذهب السني، فإن السبب الوحيد لذلك إنما يتمثل في بعد هذه البلاد ، وقد زعما أنه إذا ما تخلى في أي وقت عن سيطرته على التتر، فإنه سوف يكون بذلك منتهكاً للواجبات

التي تفرضها عليه صفته كخليفة». HAMMER, *Histoire de l'Empire Ottoman*, T. XVI, pp. 319 - 325.

ويستند هامر بشكل أساسي على نصوص عثمانية وعلى الأرشيفات الدبلوماسية النمساوية. أما واصف أفندي، وهو أحد مصادره الأساسية، فهو أكثر تحديداً فيما يتعلق بهذا الحادث :

«لقد أشار الوزراء العثمانيون إلى أنه إذا ما كف خان القرم عن الخضوع للسلطان، فإنه سوف يصبح خليفة ثانياً للنبي».

CAUSSIN DE PERCEVAL, *Récit historique de la guerre des Turcs contre les Russes, tiré des Annales de L'historien turc Wassif Effendy*, Paris, 1822, pp. 207 - 208.

وهذه النقطة الأساسية تقود إلى قطع المفاوضات التي لا يجري استئنافها إلا بعد ذلك بعامين. وتجب الإشارة إلى أن الروس يقومون على الفور بحملة إعلامية لدى الدول الأوروبية لكي يثبتوا لها افتقار الادعاء العثماني إلى الأسس. وهم يشددون على واقع أنه قد وجد، في فترات معينة من تاريخ الإسلام، عدة خلفاء في وقت واحد وأن «المسألة لا تتعلق من ثم بديانة محمد، بل بالسياسة العثمانية» (voir mes *Origines intellectuelles*, pp. 32 - 33) ومن المؤكد أن التشديد الذي قامت به الدول الأوروبية على فكرة الخلافة المفهومة على غرار البابوية الكاثوليكية هو الذي يقود المسؤولين العثمانيين إلى تكثيف دور الخلافة في العلاقات الدولية. والحال أنني لم أتبين على أي شيء استند لوي ماسينيون عندما قال في عام ١٩٢٠ إن عودة الخلافة إلى الظهور في «الفكرة [...] تصورها بذكاء الكونت سان - بريست بمناسبة معاهدة كوتشوك كاينارجها».
"Introduction à l'étude des revendications islamiques (1920)", in *Opera Minora*, Paris, 1969, I, p. 273.

٤٣ – Gilbert DELANOUE, "La doctrine scolaire de l'Imamât", in *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIXe siècle*, Le Caire, I.F.A.O., 1982, I, pp. 32 - 41.

٤٤ – Samir GIRGIS, *The Predominance of the Islamic Tradition of Leadership in Egypt during Bonaparte's Expedition*, frankfort, 1975, pp. 5 - 30.

٤٥ – *Discours sur l'Histoire Universelle*, traduction nouvelle, préface et notes par Vincent Monteil, Paris, 1967, I, p. 370.

٤٦ – S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, Harvard University Press, 1966, pp. 95 - 100, et Charles BACHATLY, "L'administration de la justice en Égypte à la veille des réformes de l'an IX", *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, XVIII, 1935, pp. 1 - 18.

٤٧ - Sur le groupe familial du alim al Jabarti, voir André RAYMOND, "La Fortune des Gabarti et leurs liens avec la caste dominante et les milieux commerçants", in Ahmad Eizzat Abd al Karim éditeur, Abd al Rahman al Jabarti, *dirasat wa buhuth*, Le Caire, 1974, pp. 73 - 84.

٤٨ - Sur les ulama dans la société égyptienne, voir André RAYMOND, "Le Caire, économie et société urbaines à la fin du XVIII[e] siècle", in *l'Égypte au XIX[e] siècle*, op. cit. pp. 121 - 139. Afaf Lutfi al - Sayyid Marsot, "The Political and Economic Functions of the ulama in the 18 th Century", *Journal of the Economic and Social History of Orient*, Vol. XXVI, pp. 130 - 154.

A la lecture de Jabarti, se dégage un esprit très proche finalement des réformistes de la Salafiyya du XIX[e] siècle. D'ailleurs, Jabarti a été attiré par la prédication wahabite (Gilbert DELANOUE, op. cit. I, pp. 49 - 53).

٤٩ - JABARTI, nécrologie de l'année 1188. Cet épisode se situe au temps du voyage de l'abbé d'Orvalle qui est arrivé en Égypte en 1747 et qui prétend avoir fréquenté des shaykh d'Al Azhar. Il avait été chargé de faire L'acquisition de manuscrits orientaux (R. CLÉMENT, *Les Français d'Egypte aux XVII[e] et XVIII[e] siècles*, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 188 - 189).

٥٠ - CRECELIUS, *The Roots of Modern Egypt*, p. 148.

٥١ - PHILIPP, op. cit. p. 30.

٥٢ - JABARTI, nécrologie de l'année 1189.

٥٣ - JABARTI, nécrologie de l'année 1231.

٥٤ - JABARTI, nécotologie de l'année 1215.

٥٥ - Voir Moustapha FAHMY, "La première convention commerciale franco - égyptienne au XVIII[e] siècle (10 janvier 1785)", *Cahiers d'Histoire Égyptienne*, VII, 1955, pp. 21 - 34. Sur la réaction anglaise, Edward INGRAM, "From Trade to Empire in the Near East - I : The End of the Spectre of the Overland Trade, 1775 - 1801," *Middle Eastern Studies*, XIV, 1977, pp. 3 - 21.

٥٦ - Sur cette affaire, R. CLÉMENT, *Les Français d'Égypte aux XVII[e], et XVIII[e] siècles*, Le Caire, I.F.A.O., 1960, pp. 219 - 229.

٥٧ - L'étude essentielle et novatrice sur l'expédition ottomane est celle de Abd AL WAHAB BAKR, *Al dawlat al utmâniyya wa misr fi al nisf al*

thâni min al qarn al tâmin ashar, Le Caire, 1982, dâr al ma ârif, p. 240 (l'État ottoman et l'Égypte dans la seconde moitié du XVIII[e] siècle).

٥٨ – Standford J. SHAW, *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, The Nizamname -i Misir*, Oxford University Press, 1964, pp. 22 - 23.

٥٩ – هل يجب التذكير بالمادة الثانية من إعلان حقوق الإنسان الصادر في عام ١٧٨٩: «إن غاية كل اجتماع سياسي هي صون حقوق الإنسان الطبيعية والثابتة. وهذه الحقوق هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الاضطهاد»؟ وإذا كانت الحقوق متماثلة، فإن الشرعية هنا لا تنبع من الطبيعة، بل من الله.

ويرى برنارد لويس أن هذا المذهب الإسلامي الخاص بواجب مقاومة الحكومة الجائرة هو أقل أهمية بوضوح من المذهب المقابل والذي يدعو إلى الطاعة لأطول زمن ممكن سعياً إلى تجنب حدوث فتنة في الأمة. ("Les concepts islamiques de révolution", in Le retour de l'Islam, Paris, 1986, pp. 50 - 63). وإذا كان صحيحاً أن العلماء قد كفلوا للموانع في وجه تجاوزات مذهب واجب العصيان، فإن ما لا يعتبر أقل صحة هو أن الإسلام العثماني، في إطار تهميشه في القرن الثامن عشر، قد عرف تحولاً سياسياً – دينياً عميقاً (والأمثلة على ذلك هي نص علي بك الكبير الذي أوردناه أعلاه، ومسألة الخلافة، وسياسة أبو الذهب).

٦٠ – Je m'inspire ici très directement de la pensée de M. Sherif MARDIN et, en particulier, du cycle de conférences qu'il a tenues à Paris en 1986 sur la légitimation islamique des révoltes.

٦١ – S.J. SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution...*, pp. 164 - 167.

٦٢ – «إن رغبة إسماعيل بك هي استقبال رئيس مهندسين مع ما بين أربعة وخمسة أشخاص يمكنهم معاونته، وضابط مدفعية معه عدد مماثل من الأشخاص ورئيس سباكين مع عدد من العمال يمكنهم أن يسبكوا له مدافع، ومدافع هاون، وقنابل وكرات مدافع، وبنائين يمكنهم أن يبنوا له عمارات خاصة بالنيل وحصوناً خشبية، إلخ، وسوف يلقى هؤلاء المذكورون معاملة لائقة، لأنه إذا كان البك غير مبذر بالطبع، فإنه لا يبذر مالاً عندما يكون بوسع هذا المال أن يسهم في توفير الأمن له». cité par H. DEHÉRAIN, "L'Égypte turque", in *Histoire de la nation égyptienne*, T.V, p. 148.

٦٣ – Sur la situation intérieure à Alexandrie dans les années 1790, voir *Kléber et Bonaparte...*, T.I., pp. 31 - 37.

٦٤ – DEHÉRAIN, op. cit., p. 217.

٦٥ – GUÉMARD, *Les réformes en Égyote, d' Ali Bey El Kébir à Méhémet Ali*, Le Caire, 1936, pp. 63 - 65.

٦٦ – JABARTI, nécrologie de l'année 1215.

٦٧ – AURIANT, "Histoire d'Ahmed Aga le Zantiote, un projet de conquête du Darfour", *Revue d'Histoire des Colonies Françaises*, 1926, pp. 181 - 234.

٦٨ – كان روزيتي قد تزوج أرملة يوسف البيطار، وهو كاثوليكي يوناني من حلب ينتمي إلى حاشية إبراهيم الصباغ، وزير مالية ضاهر العمر (GIBB and BOWEN, *Islamic Society and the West*, T. II, Londres, 1957). ثم مسئول نيابة الجمرك ومنظم عودة علي بك الكبير إلى مصر. (PHILIPP, op. cit. p. 48). ومن ثم فإنه حليف لطائفة الكاثوليك اليونانيين السوريين الصاعدة.

٦٩ – يرى سكالكوفسكي (*Les Polonais en Égypte*, Paris, 1910, p. V) معتمدا على تيبودو «التاريخ العلمي»، أن ماجالون هو مؤلف «التأملات السياسية» المنشورة في عام ١٧٨٢ والتي أعيد نشرها في عام ١٧٩٨، والتي ترى فتح مصر (sur ce texte, voir mes *Origines Intellectuelles*, pp. 180 - 181). ويبدو ذلك قليل المعقولية، بقدر ما أن مصير ماجالون، في عام ١٧٨٢، كان يتوقف بدرجة وثيقة على مصير المماليك.

٧٠ – C'est le récit de Jabarti. Sur ce sujet, voir les commentaires de Peter HOLT, "The last phase of the neo - mamluk regime in Égypt", in *L'Égypte au XIXe siècle*, op. cit., pp. 142 - 151. Voir aussi Afaf LUTFI AL SAYYID, "The role of the ulama in Egypt during the early nineteenth Century", in P.M. Holt éditeur, *Political and Social change in Modern Egypt*, Londres, Oxford University Press, 1968. pp. 264 - 291. Dans le même ouvrage, voir pour une vision d'ensemble des révoltes cairotes, l'article d'André RAYMOND, "Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIe siècle", pp. 104 - 117, du même. "Deux leaders populaires au Caire à la fin du XVIIIe siècle, et au début du XIXe siècle", *La Nouvelle Revue du Caire*, I, Le Caire 1975, pp. 281 - 298. Voir aussi Gabriel BAER, "Popular Revolt in Ottoman Cairo", *Der Islam*, 54, 1977, pp. 212 - 242.

٧١ – Traduction de Gilbert DELANOUE *Moralistes et politiques musulmans dans l'Égypte du XIXe siècle, (1798 - 1882)*, Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1982, p. 82.

الفصل الثالث

الانتصارات والانتكاسات

الاستيلاء على الإسكندرية

البيان الموجه إلى الشعب المصري

في ٩ ميسيدور من العام السادس (٢٧ يونيو ١٧٩٨)، يصدر بونابارت من على متن لوريان تعليماته بشأن إنزال ثلاثي في الإسكندرية ورشيد ودمياط. فبفضل السيطرة السريعة على موانئ مصر الثلاثة الكبرى على البحر المتوسط، يرى أنه سيكون بوسعه تمكين القوات الفرنسية من التدفق على القاهرة. وهو يرى أن المماليك، وقد فوجئوا، لن يجدوا الوقت لتنظيم المقاومة. وكل ذلك يتطلب التزامن والسرعة في العمليات. وفي اليوم نفسه، يحرر الفاتح بيانه الشهير الموجه إلى المصريين. ويساعده في ذلك فينتور دو بارادي الذي يقدم إليه مشورته في تحرير البيان ويتولى ترجمته. والحال أن الترجمان المستشرق العجوز عليم جيد بشئون مصر، التي كان قد عاش فيها سنوات عديدة في عهد علي بك، كما أنه أحد واضعي خطط فتح مصر. ونحن نحوز نسختين من البيان، واحدة عربية والأخرى فرنسية. وهذه الأخيرة مسخ مقصود للنص العربي خاصة فيما يتعلق بدعاوى بونابارت الإسلامية (١). ويجرى استخدام الرطانة الثورية المألوفة للأمة العظمى، «السلم للأكواخ، الحرب على القصور» والتي ميزت الحروب الأولى للثورة، لكن هناك سعياً، في تيار الفكر نفسه، إلى أسلمتها وتمصيرها باستعادة لغة بياني علي بك وحسن باشا.

وفي تمشٍ تام مع المشروع العثماني لعامي ١٧٨٦ و ١٧٨٧، يحاول بونابارت، بمساعدة مستشاريه، أن يصور نفسه في صورة القائم للقضاء على المظالم ولإعادة تأكيد السلطة الشرعية العثمانية. فهو يريد استعادة (خطاب - المترجم) إضفاء الشرعية الإسلامية الذي استخدمه حسن باشا الجزايرلي، قبل ذلك باثنتي عشرة سنة، لكنه يضيف إليه استيهاماته كفاتح شرقي،

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك في ملكه».

«من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على أساس الحرية والتسوية؛ السر عسكر الكبير بونابارت، أمير الجيوش الفرنساوية، يُعرف أهالي مصر جميعهم أنه من زمان مديد، السناجق الذين يتسلطنون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم. وأحسرتا من مدة عصور طويلة، هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فقد حكم على انقضاء دولتهم.

«يا أيها المصريون قد يقولون لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين؛ إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمداً والقرآن العظيم.

«وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس يتساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضاً هو العقل والفضائل والعلوم فقط.

«وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق و المساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم. ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم، وبعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة.

«وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

«أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة

وطوبوا منها الكوالليرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة للمسلمين، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم.

«طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

«المادة الأولى: جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للعسكر وكلاء من عندها كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.(٢)

«المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار.

«المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه.

«المادة الرابعة: المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد لئلا يضيع أدنى شىء منها.

«المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئناً وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية». (٣)

الإنزال فى الإسكندرية

منذ مرور نيلسون، من ٢٢ إلى ٢٥ يونيو، بحثاً عن الأسطول الفرنسى، وسلطات الإسكندرية منزعجة. وتهيمن الريبة على الشريف محمد كريم(٤) الذى يحكم المدينة

لحساب مراد بك. لقد قبل تزويد الأسطول الإنجليزي بالماء والمؤن الطازجة بشرط رحيله بأسرع ما يمكن. وطلب عون بدو البحيرة، سعياً إلى تعزيز دفاعات المدينة الهزيلة. (٥) لكن الإسكندرية التي لا يتجاوز سكانها ستة آلاف نسمة بعد أوبئة الطاعون الكارثية في أواخر القرن الثامن عشر لا يمكن اعتبارها مكاناً حصيناً. ويستمر الانزعاج بالرغم من رحيل الأسطول الإنجليزي. ووجود سفينة حربية عثمانية مهمة، هي الريال، في مرسى الميناء القديم، لا يكفي لتهدئة الخواطر.

ويرسل بونابارت في مهمة استطلاعية فرقاطة، هي جونون، لجمع المعلومات الأخيرة عن حالة المدينة ولكي تأخذ على متنها القنصل فرنسا، وهو ابن أخ لماجاللون. وتود السلطات الاعتراض على رحيل القنصل، لكن قبطان الريال يعطي موافقته شريطة أن يصحب القنصل مسلمان. (٦)

وعندئذ يعلم الفرنسيون بمرور الأسطول الإنجليزي ويقلقون على الاستعدادات الدفاعية للإسكندرية. وعندئذ يجري تغيير خطط بونابارت الأولية (٧). فهو يقرر تحقيق الإنزال الرئيسي في الإسكندرية.

ويصبح الاستيلاء على رشيد عملية تكميلية لا تتميز بأثر رئيسي على سير العمليات. والخيار جسيم، لأنه يحرم الجيش من نقل عتاده الثقيل عبر النيل، انطلاقاً من مصبي رشيد ودمياط، ويفرض، بالنسبة للزحف، اجتيازاً جد صعب للصحراء لا يملك الجنود الفرنسيون استعداداً له بالمرة. ولابد من الإقدام على هذه المخاطرة لأنه من غير الوارد إبقاء الجنود على الأسطول بسبب خطر معركة بحرية. وكان من شأن دمياط ورشيد أن تشكلا موقعي إنزال أكثر ملاءمة للزحف التالي للجيش، إلا أنه لا يمكن التفكير في ذلك بقدر ما أن المماليك يحوزون الإمكانات، مع شيء من الجهود، لجعل صعود فرعي الدلتا صعباً.

ومن ثم فإن الأسطول يتمركز، في أول يوليو، في جوين مريوط في غربي الإسكندرية (٨). ويتعين القيام بعمليتين: فرق كليبر وبون، المرابطة على سفن الجبهة، تظل تحت سلطة بونابارت؛ وفرق مينو ولبيزيه وربنييه التي تنقلها القوافل، تظل تحت قيادة جنرالات فرقها.

ويبدأ الإنزال في ليلة ١ – ٢ يوليو، بالرغم من ثورة أمواج البحر. فبونابارت يفضل

عدم الانتظار. وتصل فرقة مينو إلى الشاطئ قبل الفرق الأخرى. ونحو ساعتين ونصف صباحاً، يتمتع القائد العام بما يكفي من القوات من فرق بون ورينييه ومينو لكي يتسنى له الزحف في ثلاثة طوابير نحو الإسكندرية، بالرغم من غياب المدفعية والفرسان.

وقبل الفجر، يبدأ بعض البدو في مطاردة الطوابير إلى جانب وحدة فرسان قادمة من الإسكندرية بقيادة كاشف المنطقة. وبسبب غياب الجياد، يكتفي الفرنسيون بالزحف في نظام. وعند الاقتراب من المدينة، تتوزع الفرق الثلاث على أنحاء مختلفة من النطاق المسمى بـ «برج العرب»، القريب من المدينة الحديثة. وعندئذ ينسحب الكاشف إلى رشيد بحثاً عن العون. ويحاول بونابارت التفاوض، لكن سكان الإسكندرية المحتشدين على الأسوار يلجأون إلى المقاومة. وبدون مدفعية، لا يملك القائد العام إلا إصدار الأمر باجتياح الأسوار في ثلاث هجمات متزامنة. وتحت قيادة الجنرالات والضباط، يتمكن الجنود من الاستيلاء على الحصون بسهولة ويصاب كليبر بجرح في الرأس خلال ذلك الهجوم، ويصاب مينو إصابة أقل جسامة.

وفي بداية ما بعد الظهر، يجري تراشق نشيط بالرصاص في المدينة نفسها، فالسكان يواصلون المقاومة. وفي نهاية الأمر، فإن السكان، الذين يقودهم الأعيان، يستسلمون، وذلك بسبب تفوق أعداد (الجنود الفرنسيين) وبسبب افتقارهم إلى الذخيرة. ومحمد كريم هو آخر من يستسلم.

وبالنسبة للسكندريين، تعتبر الصدمة قاسية، فالفرنسيون جد عديدين بحيث أنهم يظهرون حول المدينة، بحسب تعبير الجبرتي، «كالجراد»(٩). وعرب البحيرة، تحت قيادة الكاشف المملوكي، ينسحبون فوراً إلى الداخل. أما الأعيان، وفي صدارتهم العلماء، فقد تفاوضوا على إنهاء المعارك.

وبونابارت، المقتنع بالطابع الثوري للوضع المصري، يفسر المقاومة على إنها سوء فهم (١٠). وهو يأمر السكان على الفور بحمل الشارة الثلاثية الألوان ويحفظ للعلماء حق الاحتفاظ بأسلحتهم وارتداء الشال الثلاثي الألوان (١١). ومن الواضح أن الهدف هو جعل المصريين «جمهوريين».

سياسة الأعيان

يعتبر بونابارت الإسكندرية منصة لاختبار لسياسته الشرقية. فخلال المعارك من أجل الاستيلاء على المدينة، جرى البدء بتوزيع البيان الشهير والاكتفاء بنزع سلاح المقاتلين

وتركهم يعودون إلى بيوتهم (١٢). ويصدر القائد العام أوامر صارمة بأن يحترم الجنود السكان وأماكن العبادة. وهو يرسى بشكل خاص سياسة تجاه الأعيان. ففى ٤ يوليو، يحصل على التوقيع على اتفاق بينه والعلماء يشكل ميثاقاً حقيقياً للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين. (وبموجب هذا الاتفاق) يحتفظ العلماء بإدارة القضاء، ويتعهدون بعدم إثارة الفتن والمؤامرات ضد الفرنسيين. ويعد الفرنسيون بعدم المساس بالسكان وباحترام الممتلكات وبعدم إكراه السكان على تغيير دياناتهم وبعدم إدخال بدعة فى الممارسات الدينية (١٣).

ويتقبل العلماء عن طيب خاطر عروض بوناپارت والتى تمثل بالنسبة لهم ثأراً من المهانات التى خلفها نظام مراد بك. وخلال الحملة العثمانية، كان رجال الدين قد توصلوا، تحت قيادة الشيخ المسيرى، إلى السيطرة على المدينة التى أصبحت، إن صدقنا الجبرتى، المجتمع الإسلامى المثالى (١٤).

وبعد عام ١٧٩١، اضطر محمد كريم، وكيل مراد بك، إلى فرض سلطته بالقوة، بما فى ذلك اللجوء على ما يبدو إلى اغتيال شريف. وبالنسبة للشيخ المسيرى، فإن وصول الفرنسيين إنما يسمح باستعادة السيطرة على المدينة. وهذا هو معنى حلفه واتفاقه الموقع فى ٤ يوليو. ومن سوء الحظ بالنسبة له، إن الفرنسيين يجهلون هذا الوضع السياسى ويرون أن من المناسب كسب كريم نفسه إلى النظام الجديد. ومن ثم فإن رجل مراد يحتفظ بالسلطة فى المدينة حيث يحمل اللقب الجديد عليه، لقب «محافظ دائرة الإسكندرية(١٥)» ويفضل العلماء الترقب والانتظار.

وبشكل موازٍ، يجرى التوصل إلى اتفاق مع بدو المنطقة. ويصل الأمر بهم إلى حد ادعاء أن المعارك الأولى إنما كانت نتيجة سوء فهم والتباس، «لقد قلتم لنا إنكم إنما جئتم من أجل صالحنا وأنكم لا تحاربون غير المماليك، ظالمينا، لكنكم هبطتم سراً وزحفتم بأسلحتكم علينا، ولم نك ندرى أنكم فرنسيون ولم يك بوسعنا أن نتصور إلا أنكم روس، أعداء صديقنا السلطان (١٦)».

ويبدو أن السياسة المصرية تبدأ بداية طيبة. لكن السفارة البدوية تصطدم بوحدة فرنسية لم يتم إخطارها بالاتفاق ولا تتمهل لتقرأ تصريح المرور الذى يبرزه البدو. ويلقى أربعة من بينهم مصرعهم وتنقطع الاتصالات (بين البدو والفرنسيين).

وفى لحظة الاستيلاء على الإسكندرية عينها، كانت القوات الأخرى قد نزلت. وتجرى الاستفادة من توقف العمليات فى المدينة لإعادة تنظيم الوحدات التى كان الانتقال قد بعثرها بالكامل. وبالنسبة للجنود، الذين يتذكرون راحة المعارك الهانئة فى إيطاليا، فإن خيبة الأمل مريعة. فالساحل الصحراوى والمدينة شبه الخربة والقسوة للمناخ وعداوة السكان تسمح بتوقع أن الإقامة فى مصر سوف تكون أقل هناءً. ومنذ البداية، يبدأ الجيش فى النفور من مصر، بينما لا يملك بونابارت غير تعزيز الانضباط مراعاةً للسكان.

رهان بونابارت

مع استكمال الإنزال، تبرز مسألة الأسطول المهدد على الدوام بعودة هجومية من جانب الإنجليز. ويملك بونابارت خيار إدخاله إلى ميناء الإسكندرية أو إعادته إلى أوروبا أو توجيهه إلى المرابطة فى خليج أبو قير شرقى الإسكندرية، المرسى الحقيقى الوحيد الآمن من الرياح على الساحل.

وبالرغم من إصرار الأميرال بروى، فإن بونابارت الذى يريد التمتع بإمكانية العودة إلى فرنسا فى أية لحظة، يرفض فكرة إعادة الأسطول إلى كورفو. والاختبارات التى أجريت فى الميناء تشير إلى أن للممرات خطرة. وهذا التقييم يؤكده بشكل محزن غرق سفينة النقل لوپاتريوت التى كانت تحمل عديداً من المعدات العلمية، تحديداً فى ممر كان قد تم مع ذلك استكشافه بشكل جيد (٤ يوليو). ومن ثم يرفض بروى إدخال السفن إلى الميناء ولا يبقى عندئذ غير الحل الوسط الذى يمثله مرسى أبو قير.

وبما أن الإسكندرية، بسبب ضعف سكانها، لا تستطيع تقديم المؤن الضرورية، فإنه يجرى استنزاف احتياطيات البحرية بشكل واسع لتغذية الجيش. ومنذ ذلك الحين، يتعين انتظار فتح مصر السفلى كلها حتى يتسنى جمع ما يكفى من الإمدادات الغذائية والسماح للأسطول بالعودة إلى كورفو. لكنه، فى الواقع، يظل حبيس أبو قير حيث يستقر فى ٧ يوليو.

وهكذا يجرب بونابارت الحظ. إن حملته المصرية سوف تكون سلسلة من الرهانات المسورة ومن العقبات غير المتوقعة. وسوف يكون الأسطول، فضلاً عن الجيش، ضحيتها.

ومع إعادة تنظيم الجيش وإرسال السفن إلى أبو قير، ينقل بونابارت قيادة الإسكندرية إلى كليبر الذى يضطر، بسبب جرحه، إلى ترك قيادة فرقته. ويتمتع الأزاسى فى الساحة بنصف لواء كامل يتألف من ألف وثمانمائة رجل وبعناصر احتياطية من الجيش تصل بالإجمالى إلى أكثر من ستة آلاف وخمسمائة رجل، أى أكثر من إجمالى سكان المدينة.

عندئذ يمكن استئناف الزحف على القاهرة. والطريق الأفضل هو الطريق المحاذى للنيل على امتداد فرع دمياط، لكنه يفرض إعادة صعود للجنود إلى السفن ومسيرة ست وثلاثين ساعة، وهو ما ينطوى على قدر كبير من المخاطر بسبب احتمال عودة نيلسون. ومن ثم يتعين الارتداد إلى فرع رشيد (١٧). ولاعتبارات تتعلق بالسرعة وسعيا إلى تجنب لقاءات المماليك المكثة على النيل، يفضل بونابارت اجتياز طريق الصحراء عبر دمنهور. ويتعين على فرقة دوجا الاستيلاء على رشيد وشغل المماليك ثم تحقيق التوحد مع بقية الجيش عند نقطة التقاء طريق النهر وطريق الصحراء (١٨).

الزحف على القاهرة

رد فعل المماليك

ووفقا لما ذكره كلوت بك، الطبيب والعلامة الذى خدم محمد على، قام روزيتى، بعد استيلاء الفرنسيين على مالطه، بزيارة مراد بك لتحذيره من الخطر المحدق بمصر. ويقال إن مراد بك قد رد عليه :

«لتحسب أن هناك ما يدعونا إلى الخوف من الفرنسيين، خاصة إن كانوا كهؤلاء الكاثانيات (التجار) الموجودين عندنا ؟ عندما يهبط منهم مائة ألف، يكفينى أن أرسل للقائهم التلاميذ المماليك الشبان، الذين سوف يقطعون رؤوسهم بحد ركاب سروج خيولهم».

ولا تحصل الإسكندرية على قدر من الذخائر إلا بعد إلحاح من روزيتى.

وبعد الاستيلاء على المدينة، يستدعى مراد القنصل الإمبراطورى ويبوح إليه باعتزامه أن يكتب إلى الفرنسيين لإنذارهم بالرحيل فوراً «فيشير روزيتى، لكنهم لم يجيئوا إلى هذا البلد لكى يرحلوا عنه لدى أول إنذار.

«ويواصل مراد نافد الصبر، ما الذى يريده إذاً هؤلاء الكفار؟ هؤلاء الموتى من الجوع؟ أرسلوا إليهم عدة آلاف من البوطاقات (نحو خمسين ألف فرنك)، وسوف يرحلون.

«عندئذ يرد القنصل، لكن ذلك المبلغ يا سيدى لا يكفى لسداد ولو نول أصغر السفن التى حملتهم. إن عليكم الاستعداد للدفاع»(١٩).

ويؤكد الجبرتى تخاذل الأمراء. ففى ٢٧ يونيو ١٧٩٨، يصل خبر مرور الأسطول الانجليزى بالإسكندرية وهو ما يستثير انزعاجاً قوياً بين صفوف سكان القاهرة. لكن الأمراء يردون بالتأكيد على أنهم سوف يدمرون الأوروبيين بسهولة عبر حملات للفرسان. والواقع أن نزول الفرنسيين سوف يكشف عن التوتر القائم بين المماليك والعثمانيين. وكان محمد كريم قد كلف المراسلات لإبلاغ القاهرة بالوضع. وخبر الاستيلاء على الإسكندرية يهيج سكان القاهرة. ويقرر الأمراء عقد ديوان بحضور الوالى العثمانى ومشايخ الدين الرئيسيين وأهم الأعيان.

ويلوم الشيخ السادات مراد علناً على تعدياته على الفرنسيين والتى تعتبر سبب

الغزو. ولا يرد الزعيم المملوكي بشيء، لأنه مضطر إلى مداراة الشيخ القوى، لكنه يقرر الثأر لنفسه عندما تسنح الفرصة لذلك (٢٠). ويتهم شيوخ أخر للمماليك بأنهم تركوا موانى مصر بلا دفاعات. ويرد عليه مراد بأنه لو كان الأمراء قد اتجهوا إلى تحصين الموانى، لاتهمهم العلماء بالتحضير لتمرد على السلطان (٢١).

والأرجح أنه كان على علم بمحتوى بيان بونابارت، بل وربما برسالته إلى والى مصر والتى جرى التأكيد فيها على أن الفرنسيين لم يجيئوا إلاّ لإنزال العقاب بالمماليك الذين كالوا المهانات للتجار الفرنسيين، وأن «الباب العالى قد أعلن أن البكوات، وهم أناس يحركهم الهوى والشره، لا يراعون مبادئ العدل وأنه ليس فقط لا يجيز الفظائع التى يرتكبونها فى حق أصدقائه الفرنسيين الصالحين والقدماء، بل إنه يشملهم بحمايته» (٢٢).

ويهاجم مراد بك العثمانيين الذين يشتبه فى تواطؤهم مع الفرنسيين. وهو يهاجم بشكل خاص الوالى العثمانى، بكر باشا:

«- إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا على هذه الديار إلاّ بإذن الدولة العثمانية، ولابد أن الوزير عنده علم بتلك النية، ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم.

«فأجابه الوزير - لا يجب عليك أيها الأمير أن تتكلم بهذا الكلام العظيم. ولا يمكن أن دولة بنى عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على بلاد الإسلام. فدعوا عنكم ذلك المقال وانهضوا نهوض الأبطال واستعدوا للحرب والقتال» (٢٣).

ولاستجلاء الأمر، يقرر الديوان الكتابة إلى الباب العالى. وكان قد جرى قبل ذلك إرسال رسول إلى الفرنسيين لسؤالهم عن أسباب مثل هذه الأعمال التى تتعارض مع الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. لكن التأكيد، الوارد من روزيتى، والخاص بالاستيلاء على الإسكندرية يضع حداً للترددات. وعندئذ يقرر الديوان أن يعلن العلماء الجهاد - فمصر تعتبر أرضاً للإسلام - كما يقرر طلب العون العاجل من الباب العالى (٢٤).

وفى مرحلة أولى، يبدو تكتيك الفصل بين العثمانيين والمماليك ناجحاً. ومن المؤكد أن التعارض بين الطبقتين الحاكمتين أقوى من التعارض بين المماليك والمصريين الأصلاء. والدفاع عن الإسلام هو الشعار الوحيد الذى يسمح بخلق جبهة مشتركة ضد الفرنسيين. وهذا الوضع ليس إلاّ وضعاً مؤقتاً وخلال السنوات الثلاث للحملة، يفكر العثمانيون

والمماليك فى الصراع الذى لابد أن يجرى فى أثرها من أجل السيطرة على مصر. والمماليك المعرضون للتهديد بالفعل من جانب العثمانيين، عليهم أيضاً أن يواجهوا تمرد العلماء. وقد شهدت الأعوام السابقة تعاظم الخلافات بين أرباب السيف وأرباب الشرع والآن يتهم هؤلاء الأخيرون المماليك بالعجز عن التصدى للفرنسيين. والاتهام من أخطر الاتهامات لأنه يشكك فى مبرر وجود هذه الجماعة العسكرية عينه. فالقتال الشرعية هو جزاء هزائم المماليك وهؤلاء يعرفون ذلك جيداً.

كما يناقش الديوان مصير المسيحيين والأوروبيين المقيمين فى القاهرة، والذين يهددون بتشكيل طابور خامس فى داخل المدينة. ويؤيد الوالى العثمانى احتجاز الأوروبيين وتفتيش بيوت المسيحيين بحثاً عن الأسلحة التى قد تكون هناك. وبعض المماليك، يدعمهم عمر مكرم، نقيب الأشراف، يقترحون تدابير أكثر تجاوزاً كإبادة النصارى قبل الخروج لمحاربة الكفار. لكن الوالى يغلب رأيه بمساعدة إبراهيم بك مذكراً بالمبادئ الأساسية للسياسة العثمانية: «غير ممكن أننا نسلم إلى هذا الغرم والرأى، لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان، صاحب النصر والشان» (٣٥).

ويحصل مراد بك على تكليف بالخروج لمحاربة الفرنسيين، بينما يجرى حشد بقية القوات فى القاهرة. ويكثف الجنود المصادرات التعسفية على حساب سكان القاهرة بينما ينتاب النصارى الذعر. وينشغل إبراهيم بك والوالى العثمانى يومياً بتهدئة خواطرهم. ومن جهة أخرى فإن الأوروبيين، ومن بينهم روزيتى، يجرى احتجازهم فى القلعة. ويجد آخرون من بينهم مأمناً فى بيت الست نفيسة (٣٦).

دمنهـــور

إن الطريق الذى اختاره بونابارت هو الطريق الذى يحاذى الترعة التى تربط الإسكندرية بالنيل. وهذه الترعة، قبل تعميق حفرها من جديد فى القرن التاسع عشر، ترعة جافة فى الجزء الأعظم من السنة. وهى لا تمتلىء بالماء إلا خلال فيضان النيل. وفى تلك الفترة القصيرة، تساعد على رى المحاصيل وتغذية خزانات الإسكندرية، وهى تعتبر المعون الرئيسى لها بالماء. ومن جهة أخرى فإن توزيع هذه المياه هو رهان نزاع سنوى دائم بين المدينة والريف. على أن المسئولين الفرنسيين يأملون فى أن يجدوا الماء بكمية تكفى لتغذية الجيش.

ومنذ ٢ يوليو فإن ديزيه، الذى حصل على قيادة القوة الأمامية، يرحل مع فرقته

وتصف لواء من المشاة الخفيفة بقيادة مارمون. وخيبة الأمل مريعة، فالأمر يتطلب اجتياز منطقة جافة لا يوجد بها غير القليل من مصادر المياه. وهذا الوضع يرغم القيادة الفرنسية على توزيع قواتها حتى يتسنى لها الاستيلاء على الآبار والخزانات النادرة. والجنود غير المهيئين لهذه البلاد حارة والذين يحملون أمتعتهم يشكون من الحر. ويغادر رينييه وفرقته بمورهما الإسكندرية فى ٥ يوليو ويتمان الالتقاء مع ديزيه فى دمنهور، فى ٧ يوليو. وكان القائد العام قد أمرهما بمراعاة السكان إلى أقصى حد ممكن وبأن يدفعا بصورة منتظمة ثمن مشترياتهما، وبأن يوزعا البيانات الشهيرة. ويتعين عليهما اختزال استخدام المدفعية قدر الإمكان سعياً إلى توفير الذخيرة والتحضير بشكل خاص لمفاجأة تقنيات المعارك الأوروبية، «إن الفن هنا إنما يتمثل فى إخفاء كافة إمكاناتى غير العادية، وعدم اللجوء إلى استخدامها، وبالأحرى عدم مفاجاتهم باستخدامها، إلا عندما يكون علينا قتال قوات ضخمة» (٢٧).

والواقع أن زحف القوات الفرنسية يتم دون مشكلات عظيمة مع المصريين باستثناء هجمات البدو. أما التهدئة التى تمت فى الإسكندرية فإنها لا تدوم طويلاً، وربما كان ذلك بسبب صيحة الجهاد التى أطلقها العلماء (٢٨). ويجرى إلزام الجنود بالمراعاة الصارمة لانضباط الزحف (٢٩) وفى الليل، تتكاثر الاستنفارات التجريبية.

وفى دمنهور، فإن أحد كبار رجال الدين هو الذى يستقبل الفرنسيين بأمارات الصداقة. على أن جندياً يلقى مصرعه. ويتم إلقاء القبض على الجناة، إلى جانب رجل الدين المشار إليه، ويجرى إعدام أربعة أشخاص رمياً بالرصاص ويتم نزع سلاح المدينة.

رشـــيد

فى الإسكندرية، كان بونابارت قد قرر أن يعهد بالعتاد الثقيل للجيش (خاصة المدفعية) إلى دوجا الذى تولى قيادة فرقة كليبر. ويتعين عليه الزحف بمحاذاة الساحل على رشيد وصعود النيل من هناك. وهو يغادر الإسكندرية فى ١٦ يوليو ويخيم فى العراء مسلةً فى أبو قير فى اللحظة ذاتها التى يتمركز فيها الأسطول فى الخليج. ويقدم له السكان الزوارق الضرورية لاجتياز الممر بين بحيرة المعدية والبحر. وتبدو الساعات الأخيرة للزحف جد مرهقة ويموت عدة جنود من العطش والتعب. على أن الفرنسيين لا يصادفون أية مقاومة. بل إن عدداً من الفلاحين يرتدون الشارة الثلاثية الألوان.

وفى القرن الثامن عشر، كانت رشيد هى المدينة المصرية الأكثر انفتاحاً على

الأوروبيين فى رأى الرحالة، ومن هناك شهرتها بأنها أنسب مكان فى مصر. وكان تدفق اللاجئين من الإسكندرية قد أدى إلى إثارة ذهول السكان. ويود عدد من التجار الكريتيين المسلمين حمل السلاح وذبح الأوروبيين الموجودين. ويلقى خادم فرنسى مصرعه على أيدى العوام. لكن تلاوة بيان بونابارت تساعد على تهدئة الخواطر وتقرر السلطات جعل رشيد مدينة مفتوحة. أمّا أولئك الذين يريدون المقاومة والصراع فإنهم يرحلون إلى الداخل(٣٠). ويبدو أن السكان يؤمنون على نحو خاص بجبروت المماليك ويخشون من وقوع أعمال إنتقامية فى حالة تقديم خدمة للغزاة.(٣١).

ويصدر دوجا بياناً يهدف إلى دعوة الأعيان الذين فروا إلى العودة إلى المدينة. وهو يضع تحت الحراسة مختلف الخزائن العامة التى سوف تخضع لرقابة لجنة مؤلفة من التاجر الفرنسى فارسى وجان باسكى، وهو تاجر يونانى على ما يبدو، وثلاثة أعيان مسلمين من بينهم السيد بدوى، نقيب الإشراف (٣٢). وبعد أن أراح القوات وحصل على تعزيزات، يواصل الرحيل فى ٩ يوليو محاذياً النيل فى اتجاه الرحمانية. ويصحبه أسطول صغير من الزوارق المسلحة المكلفة بمساندة الجيش. وعندئذ يتولى مينو نيابة رشيد ونواحيها.

زحف الجيش

اعتباراً من ٦ يوليو تزحف بقية الجيش – فيما عدا حامية الإسكندرية – على دمنهور. ويغادر بونابارت وأركان حربه الميناء فى اليوم التالى ويتولون حشد القوات فى دمنهور فى يومى ٨ و ٩ يوليو. وكانت القوة الأمامية قد استنفدت احتياطيات المياه المحلية إلى حد بعيد. وقعر الخزانات يبدو أكثر شبهاً بالوحل منه بالسائل الثمين. كما أن أوجاع الجنود مبرحة. فهم يرتدون بزات عسكرية تتلاءم مع المناخات الأوروبية. وظناً منهم أن بوسعهم شن غارات سلب ونهب كما فى إيطاليا، فإن كثيرين منهم قد تخلصوا من احتياطيات المؤن الغذائية التى تكفى لأربعة أيام والتى كانت قد سلمت إليهم. وعندئذ يضاف الجوع إلى العطش. وتتحول خيبة الأمل التى أصيبوا بها فى الإسكندرية إلى نفور تام من بلد الحرمانات هذا. وتتململ القوات وتفتر همتها. بل إن البعض سوف ينتحرون. ثم إن جنرالاً من سلاح الفرسان، هو مهريور، إذ يرى أن شرفه العسكرى قد أهين بنقله من وحدة إلى أخرى، يبحث عن الموت طوعاً على أيدى البدو. ويتصور الجندى أن هذا المصير إنما يرجع إلى شكوى الجنرال إلى بونابارت من معاناة القوات.

والواقع أن الفاتح لم يك أمامه أي حل آخر غير الإسراع بالتحرك مع صون انضباط الجيش. وانطلاقاً من دمنهور، تبدأ المناوشات الأولى مع المماليك، ولكن هؤلاء لا يصمدون أمام تلاحم القوات. وفي ١١ يوليو، تصل الوحدات الأمامية إلى شفاف النيل وتتوزع بعرض النهر وبالتدفق على حقول البطيخ. ويتم الالتقاء مع قوات دوجا التي صعدت النيل دون صعوبات. ويفقد الجيش الاتصال بقاعدته في المؤخرة، الإسكندرية وأبو قير ورشيد. ويتصرف كجسم غريب تماماً في الطبيعة المصرية. وقد أجاد سولكوفسكي وصف هذا الوضع:

«ربما كان من الجائز تشبيه مجهود الجيش بمجهود كتلة لا تقاوم تنبثق من جسم لدن مطاط، لكن هذا الجسم سرعان ما ينكمش بعد خروجها. ولم يك يعنينا إلا ما يوجد في مرمى أسلحتنا؛ وكان المجال التالي مأهولاً بالعرب وبالسكان. وكنا نجهل أيضاً وضع العدو، نجهل تلك المعلومات الضرورية التي لا يمكن دون توافرها تحديد أية حركة بإيمان كامل بالنجاح». (٣٣)

المماليك والحرب

كان مراد بك قد تولى مسئولية التصدي لغزو الفرنسيين بينما حشد إبراهيم بك بقية القوات في بولاق، قرب القاهرة. والواقع أن المماليك لم يكونوا مهيئين البتة لهذا النوع من المعارك. وهم يجهلون تماماً الانضباط الأوروبي. ثم إنهم، باستثناء حملات علي بك وأبو الدهب السورية، لا يملكون أية ممارسة قتالية في المعارك. والحرب، بالنسبة لهم، ليست غير إحدى أدوات سياسة قائمة على المكائد والدسائس. ويقدم فولني وصفاً مهماً لذلك: «إن الفريق الأقوى أو الأكثر جسارة يطارد الآخر؛ فإذا كانا ندين في الشجاعة، فإنهما يتمهلان أو يتواعدان، وعندئذ، ودون مراعاة لمزايا الوضع، تتقارب القوتان على شكل ركام؛ وتختار كل قوة رجلها، ويبدأ الرمي، إن أمكن، ويجري الانتقال بسرعة إلى الحسام؛ عندئذ يتجلى فن الفارس ومرونة الجواد، وإذا ما سقط الجواد، ضاع الفارس [...]. وغالباً ما تحسم المعركة بمصرع رجلين أو ثلاثة رجال». (٣٤)

أمّا جوزيف لنت، وهو مبشر ألماني عاش في القاهرة من عام ١٧٧٠ إلى عام ١٧٨٢، فإنه يقدم هذه الصورة الأعم: «ما زال في القاهرة الكبرى كتاب لأخبار حرب يروون الأخبار الأكثر تهجماً عن معركة تافهة وبلا طائل بين البكوات المصريين، لا يموت فيها على الأرجح غير خمسة أو ستة رجال من عدة آلاف. وإنا على ثقة من أن المرء لو قرأ رواياتهم

بعد بضعة قرون لتصور أن مثل هذه المعارك كانت أعظم بكثير من أية معركة بين ملك بروسيا والنمساويين خلال حرب السنوات السبع. (٣٥)

على المستوى الفردى، يعتبر الفارس المملوكي أكثر تفوقاً من الفارس الفرنسي؛ فهو أكثر دربة وأفضل تسليحاً. وقبل أن يهجم، يستخدم ستة أسلحة، قربينة، وطبنجة وزوجين من المسدسات، حيث يحمل الزوج الأول في قربوس السرج والزوج الآخر على صدره. وخلال الهجوم، يعيد خادم السلاح شحن أسلحة سيده الذى يمكنه بذلك تكثيف الهجمات. على أن نابوليون يرى أن سلاح الفرسان الفرنسى الكبير العدد (أكثر من مائتى جواد) يعتبر أكثر تفوقاً من سلاح فرسان المماليك وذلك بسبب الانضباط الجماعى والمساندة التى يقدمها سلاح المشاة. (٣٦)

ومنذ على بك، يطور البكوات قوات من المرتزقة المنحدرين من أصول مختلفة، وذلك لتخفيف نقص المشاة الراجع إلى انحطاط القيمة العسكرية للوحدات العثمانية القديمة. وقد رأينا أنهم كانوا مدركين لضعف مدفعيتهم وقد بدأوا فى علاج ذلك الضعف. وهم يتمتعون فى المقابل بقدرة فائقة على الحركة وهم متخصصون فى حرب العصابات فى مصر العليا. والواقع أن الفريق المملوكى الذى ينسحب إلى مصر العليا يستحيل عملياً القضاء عليه أو يستحيل الإمساك به على الأقل. على أن مراد وإبراهيم سوف يتبعان، بسبب عدم الإدراك أو بسبب واجب المدافعين عن جماعة المسلمين، نوع الحرب الذى يفرضه الفرنسيون. وسوف يبدوان عاجزين عن المزاوجة بين التطور الجديد لأسلحتهما (المدفعية، المشاة، الأسطول النهرى) وسلوكهما التقليدى كفارسين والذى سرعان ما سوف يعود إلى الصدارة.

شــبرا خــيت

يقرر بونابارت تحقيق الحشد الجديد لإمكاناته فى الرحمانية عند مخرج طريق الصحراء. ويسمح له ذلك بإراحة رجاله. وفى ١٢ يوليو، يعلم أن مراد يقترب، وعندئذ يأمر قواته بالخروج. وفى ١٣ يوليو، تبدأ المعركة قرب شبراخيت، على الأرض وعلى النيل(٣٧). وكان المماليك قد نصبوا بطارية مدفعية تغطى النهر وتساند أسطولهم الحربى الصغير.

وعلى الأرض، يتسنى لبونابارت استخدام مفاجأته الشهيرة، التشكيل الذى يأخذ شكل مربع. وكان النمساويون والروس قد طوروا هذا النوع من التشكيل فى حروبهم ضد

العثمانيين في مستهل القرن الثامن عشر، لمواجهة سلاح الفرسان العثماني المماثل لسلاح فرسان المماليك. والجيش الفرنسي يعرف هذه المناورة لأنها مقررة منذ عام ١٧٧٦، لكنه لم يمارسها قط من قبل (٣٨). وهي الابتكار العسكري الكبير للحملة؛ وسوف يجرى تعميمها خلال حروب القنصلية والإمبراطورية. وعلاوة على هجر الأشكال الكلاسيكية التي عرفها القرن الثامن عشر، فإن التشكيل الذي يأخذ شكل مربع إنما يرمز إلى ازدهار القيمة العسكرية لجنود الثورة بعد الأعوام الأولى حيث كان الحماس يعوض انعدام الخبرة.

ومن ثم تتخذ الفرق الخمس شكل مربعات أو بشكل أدق شكل متوازيات أضلاع يتم داخلها حماية معدات الفرق والقليل من سلاح الفرسان(٤٠). وعلى الزوايا، يجرى توزيع قطع المدفعية. ويجرى توزيع القوات بشكل يسمح بتغطية إحداها للأخرى.

وبحكم جدة التشكيل بالنسبة للجندي الفرنسي، فقد كان يتوجب «أخذ الفصائل والكتائب باليد واحدة إثر الأخرى لتوزيعها على المواقع التي يتعين عليها شغلها في التوزيع العام» (٤١).

ويحيط المماليك بالمربعات بحثاً عن نقطة ضعيفة، ولا يجدون نقطة كهذه، ويبدو أنهم يندهشون لدقة تراشقات الجنود الذين يقتلون عدداً من المهاجمين. والواقع أن هذه الخسائر الطفيفة إنما تكفي، بحسب المنطق المملوكي، لوقف معركة تبدأ بداية سيئة. وعندما ينسحبون، يتركون بطارية المدفعية للفرنسيين، وهو ما سوف يسمح بتخليص الأسطول النهري من وضع صعب.

والواقع أن مراد وباباس أوغلو كانا قد وضعا زوارقهما ومدافعهما في منحنى للنهر، وهو ما يسمح لهما بإخضاع الوادي لنيران متتابعة على امتداد فرسخ. ويطلق رجال المدفعية نيرانهم بدقة على الهدف ويلحقون خسائر جسيمة بالسفن الفرنسية التي يتولى قيادتها بيرييه. وتخرج عدة سفن من المعركة النهرية وتتخذ أطقمها والجنود النازلون منها تشكيل مربعات على الضفة انتظاراً لمجيء بقية الجيش لنجدتها، وهو ما يصبح ممكناً من جراء انسحاب المماليك. وهذا الحادث يثبت كفاءة بحرية مراد بك النهرية التي كانت أن تجهز بالكامل على بحرية الفرنسيين بالرغم من الخسائر الفادحة التي لحقت بها. وفي الجانبين، فإن العدد الرئيسي من القتلى والجرحى إنما يجيء من المعركة النهرية. وبالنسبة للمسئولين الفرنسيين، فإن الشيء الأهم هو البرهان الماثل، إن بوسع الجيش الصمود أمام هجمات سلاح الفرسان المملوكي.

عندئذ يمكن استئناف الزحف. لكن الجنود، الذين يعانون من الحر، وتعوزهم المؤن وينتابهم السخط على الوجود في بلد بؤس جد مختلف عن إيطاليا الثرية، ينهمكون في نهب كل ما يجدونه في طريقهم. بل إنهم يفعلون ذلك أمام القائد العام. وديجا، المكلف باستعادة النظام في فرقته، يجد أن جنرالات الألوية يعلنون سخطهم على حال الجنود. ويمتد الضيق إلى الكوادر الوسطى التي لا تفهم سبب وجودها في مصر. وسوف يتذكر نابوليون ذلك في سانت – هيلين:

«كان الجيش مصاباً بمزاج سوداوي كئيب لم يك بوسع أي شيء قهره؛ وكان هدفاً للسأم؛ وقد رمى عدة جنود بأنفسهم في النيل حتى يجدوا فيه موتاً عاجلاً. وعلى مدار الأيام، بعد أخذ المخيمات في العراء، كانت الضرورة الأولى للرجال هي السباحة. وعند خروجهم من النيل، كان الجنود يبدأون في الانشغال بالسياسة، وفي الإعراب عن سخطهم، وفي إبداء الأسف تجاه الحالة المزعجة للأمور. «لأجل أي شيء جئنا إلى هنا ؟ إن حكومة الإدارة قد حكمت علينا بالنفي!». وأحياناً ما كانوا يشفقون على قائدهم، الذي يخيم بشكل متواصل على ضفاف النيل، والمحروم من كل شيء شأنه شأن آخر جندي؛ فعشاء أركان الحرب يتألف غالباً من طبق من العدس. وكانوا يقولون «لقد أرادوا التخلص منه؛ لكنه بدلاً من أن يقودنا إلى هنا، كانت تكفي منه إشارة واحدة حتى نطرد أعداءه من القصر كما طردنا الكليشيين من قبل» (٤٢)

والأوامر اليومية تذكر الجيش بأنه لم يأت إلى مصر لمحاربة المصريين، بل لمحاربة المماليك، وتجعل الضباط مسئولين عن مسلك جنودهم. لكن أعمال النهب، الراجعة أساساً إلى نقص المؤن، تستمر بالرغم من الأوامر التي تنهى عنها. وللمرة الأولى منذ الإنزال، يهرب السكان جماعات عند وصول الفرنسيين. وبما أن الفترة فترة انخفاض للمياه، فإن الأسطول النهري يجد صعوبة في صعود النيل ويتخلف عن زحف الجيش. وهذا يزعج كثيراً القيادة الفرنسية التي تجد نفسها أمام استحالة إصدار الأمر للجنود بعبور النيل. وإذا حشد المماليك قواتهم على الضفة اليمنى (ضفة القاهرة)، فسوف يضطر الفرنسيون إلى العودة إلى الدلتا، لتعزيز مؤنهم قبل بدء الفيضان مباشرة. ومن ثم يغامر بونابارت بالزحف قدماً، للحصول على معلومات ولإرهاب العدو وإرغامه على القتال (٤٣).

يؤدى خبر معركة شبراخيت وانسحاب مراد بك إلى إثارة الذعر فى القاهرة. وعندئذ يقرر الأمراء المماليك إقامة تحصينات على ضفتى النيل على مشارف القاهرة. ويتولى إبراهيم بك المسئولية عن الضفة اليمنى بدءاً من مدينة بولاق، بينما يتولى مراد بك المسئولية عن الضفة اليسرى، مجاله التقليدى (كان قصره فى الجيزة)، بدءاً من امبابة، وتجرى دعوة سكان الناحية إلى العمل من أجل إقامة هذه التحصينات. كما يطلب الأمراء عون الأحلاف البدوية الكبرى حتى أحلاف مصر العليا. ويؤدى وصول البدو إلى إثارة رعب سكان عاصمة مصر. ويجرى إغلاق الدكاكين والأسواق.

وينزعج الجميع من بيان بوناپارت، «من الناس من يقول هذا أمر سلطانى وأن الفرنج صحبتهم بشوات من عند السلطان وغالب بلاد الريف والفلاحين يعتقد ذلك بسبب المكاتبة التى أرسلوها إلى البلاد»[٤٤].

وكلما ازداد الفرنسيون اقتراباً من المدينة، كلما تجلى انقسام المماليك وعجزهم عن اتخاذ قرار. وبالنسبة للجبرتى، فإن الهوة سحيقة بين سلوك كل من الخصمين، فالفرنسيون يتحلون بالنظام وبالانضباط، وهما خاصيتان تقربهما من مجاهدى الإسلام الأوائل. أمّا المماليك فإنهم لا يستحقون بالمرة مثل هذه الصفة. لقد كانوا «منحلين العزايم متنافرين القلوب، مختلفين الآراء، متحاسدين لبعضهم، محرصين على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مغمورين فى غفلتهم وغرورهم، مختالين فى زينتهم وكبرهم، خايفين من نقص عددهم، متبخترين فى حُلِيهم وحُليهم، غير مفكرين فى عاقبة أمرهم، محتقرين لعدوهم، فاسدين العقل فى رويتهم ورأيهم، بخلاف الطايفة الأخرى الفرنساوية، فإنهم بالعكس فى جميع ما ذكر كأنهم مقتدين لآثار الأمة فى صدر الإسلام، ويرون أنفسهم مجاهدين ولا يستكثرون عدد عدوهم ولا يبالون بمن قتل منهم، ويرون أن من ولى منهم كفر ملته وخرج من دينه وطريقته، يمتثلون لأمر أميرهم ويمتثلون طاعة لكبيرهم، مظلة لحدهم شبكته التى على رأسه، ومركبه قدميه، وطعامه وشرابه بلغة وجرعة معلقان تحت إبطه، ومتاعه وما يحتاجه من ملبوسه معلق خلف ظهره كالوسادة، فإذا نام اضطجع عليها كالعادة ولهم علامات وإشارات فيما بينهم يقفون عندها ولا يتعدون حدها»[٤٥].

الأهـــرام

عندما يصل بونابارت على مقربة من المواقع المملوكية، فى ٢١ يوليو ١٧٩٨، يأمر جيشه باتخاذ تشكيل المربعات ويبقى مع فرقة ديجا. وهو يلقى خطبة قصيرة فى الرجال المحيطين به، وهو يشير إلى الأهرام: «تقدموا، وخذوا فى اعتباركم أن أربعين قرناً تطل علينا من فوق هذه الآثار». وهذه الكلمات القصيرة سوف تستعاد بشىء من التحوير من جانب كتاب القرن التاسع عشر لتصبح العبارة الشهيرة: «إن أربعين قرنا ترقبكم من ذرى هذه الأهرامات» (٤٦). ويهاجم المماليك القوات الفرنسية، لكن هجماتهم تتحطم تحت وابل من نيران مدفعية ومشاة الغزاة المتلاقية. وفى تلك الأثناء، تجتاح فرقتا بون وميتو تحصينات مراد بك وتشنان هجوماً مضاداً على القوات المملوكية ويتبعثر شمل هذه القوات الأخيرة وتلقى بنفسها فى النيل بما يؤدى إلى غرق الكثيرين. وفى ختام هذه المعركة القصيرة، التى لا تدوم أكثر من ساعتين، يجمع مراد مماليكه الرئيسيين وينسحب إلى مصر العليا.

وهذه المعركة، التى دارت فى امبابة، سوف تسمى، لاعتبارات الفخر والهيبة، بـ «معركة الأهرام». والحق أن بالإمكان رؤية الأهرام على بعد مسافة معينة. وسوف يتفاخر بونابارت أمام حكومة الإدارة بأنه قد دمر الجانب الرئيسى من المماليك: «إننى أقدر خسائر المماليك بألفى رجل من صفوة الفرسان. إن جزءاً كبيراً من البكوات قد جرحوا أو قتلوا» (٤٧). والواقع أن خسائر المماليك بالمعنى الحقيقى للمصطلح تافهة، فالجانب الرئيسى من القتلى يتألف من المشاة وخدم السلاح. ويذكر الجبرتى «لم يمت فى هذه الواقعة إلا أيوب بيك الدفتردار، وإبراهيم بيك الوالى الذى بنفسه ولرمحه إلى البحر فغرق ومات وثلاثة كشاف ونحو العشرين مملوك وأسروا منهم جماعة» (٤٨).

والأرجح أن الخسائر كانت أكثر من ذلك بكثير، وهو ما لا يذكره المؤرخ المصرى، لكن اتساع المقاومة المملوكية اللاحقة يشير بوضوح إلى أن الجانب الرئيسى من قوات المماليك المقاتلة يظل سليماً. والمماليك، مرة أخرى، أوفياء لعاداتهم الحربية: فإذا كان عدد القتلى فى صفوفهم يأخذ فى أن يصبح مهماً، فإنهم ينسحبون، حتى لو ترتب على ذلك هجر عاصمة مصر.

وفى مثل هذه الظروف، يحمل المماليك معهم الحد الأقصى من الذهب والمجوهرات،

فهم يتركون بقية ممتلكاتهم فى القاهرة. كما أن الجنود الفرنسيين ينقضون على جثث المماليك القتلى فى المعركة، ويستولون على ثروات حقيقية.

وعلى الضفة الأخرى للنيل، يرى إبراهيم هزيمة مراد. وعلى الرغم من أنه فى وضع قوة على الدوام، لأن الفرنسيين لا يحوزون إمكانات عبور النهر، فإنه يفضل الهرب إلى الدلتا مع مماليكه والوالى العثمانى، تاركاً القاهرة بلا أية سلطة شرعية.

وكان السكان قد تابعوا المعارك من بولاق. وقد أكثر أفراد الطرق الصوفية جد العديدين صيحات التوسل إلى الله. ويشير الجبرتى إلى فشلها التام. وبعد انتصار بونابارت على الضفة اليسرى، فإنه يأمر بقصف الضفة اليمنى. وعندئذ يرتد السكان إلى القاهرة.

وسرعان ما ينتشر الذعر هناك. وما أكثر الأعيان والسكان الميسورين الذين يسعون إلى الهرب دون أن يعرفوا ما إذا كان الأفضل هو التوجه إلى الجنوب أم التوجه إلى الشمال. وما أن يبتعدوا قليلاً عن المدينة، حتى يجرى سلبهم من كل ما معهم، من الأشياء الثمينة إلى جميع ثيابهم، على أيدى البدو، المستفيدين الرئيسيين، هم والجنود الفرنسيون، من هذه المعركة.

استسلام القاهرة

فى المدينة نفسها ينهمك السكان – الغاضبون من تخلى السلطات الشرعية عنهم – فى نهب دور وقصور المماليك. ويتزايد الرعب بقدر ما أن أسطول مراد بك النهرى يأخذ فى الاحتراق وتؤدى ألسنة اللهب والانفجارات إلى تصور أن الفرنسيين يزحفون فى الليل وهم يحرقون ويدمرون كل شيء.

وفى صباح اليوم التالى، يجتمع العلماء فى جامع – جامعة الأزهر. وهم يمثلون ما بقى من السلطة الشرعية. وكان بعضهم قد حاول الهرب من المدينة لكنهم تراجعوا عن ذلك خوفاً من البدو. وتمكن بعضهم الآخر من اللحاق بإبراهيم بك. وتلك هى حالة عمر مكرم، نقيب أشراف القاهرة.

ويذكر الجبرتى أنه جرى اتخاذ قرار بإرسال تاجر مغربى يتحدث بالفرنسية إلى الغزاة، سعياً إلى دخول سلمى من جانب الفرنسيين. أما نقولا الترك، فهو يذكر أن تجاراً

فرنسيين هم الذين اختيروا لهذه المهمة. ويبلغ أن بونابارت يرد بأنه يريد لقاء وفد من العلماء وأنه سيعهد بجزء ملحوظ من الإدارة إلى هذه الجماعة الاجتماعية من خلال ديوان.

ويوجه بونابارت إلى الوفد الذى وصل مؤخراً بياناً يشكل استمراراً لسياسته: «يا أهل القاهرة، إننى راض عن مسلككم. فقد أحسنتم عملا بالامتناع عن الوقوف ضدى. لقد جئت للقضاء على جنس المماليك ولحماية التجارة وأهل البلد.

«فليطمئن كل من انتابه الفزع؛ وليرجع كل من رحلوا إلى بيوتهم؛ وليجر أداء الصلاة اليوم كالمعتاد، فأنا أود أن تستمر على الدوام. لا تخافوا من شيء على عائلاتكم وبيوتكم وممتلكاتكم، وخاصة على دين النبى الذى أحبه. وبما أن من اللحّ ألاّ يعكر الطمأنينة شيء، فسوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سوف يجتمعون فى الجامع الأزهر. وسوف يوجد منهم هناك بشكل دائم اثنان إلى جانب قائد الموقع، وسوف يهتم أربعة بحفظ السكينة العامة والسهر على الأمن» (٤٩).

وهذا الضمان المقدم إلى السكان يطمئن أهل القاهرة ويعود الهدوء تدريجياً. كما ينجح بونابارت فى الحصول من الأعيان على القوارب الضرورية لنقل وحدة كافية من الجنود إلى الضفة الأخرى. ومنذ مساء ٢٢ يوليو، تدخل القوات الفرنسية إلى القاهرة، وفى ٢٣ يوليو، يكتمل احتلال المدينة.

القاهـرة

بونابارت فى القاهرة

إن العصر العثمانى - بعيداً عن أن يكون عهد انحطاط - قد عرف نمواً حضرياً وديموغرافياً قوياً للقاهرة بما يجعل من هذا التجمع مركزاً حضرياً غير متناسب مع المدن المصرية الأخرى نظراً لما هو عليه من ضخامة. إذ يبدو أن المدينة قد انتقلت من نحو مائة وخمسين ألف نسمة فى أوائل القرن السادس عشر إلى مائتين وستين ألف نسمة فى أواخر القرن الثامن عشر. وهذا التطور يرجع إلى السوق العثمانية الواحدة الضخمة إثر الفتح. وعلاوة على أرستقراطية المماليك وكبار العلماء السائدة، تضم المدينة بورجوازية مهمة من التجار والحرفيين. على أن الأزمة السياسية والاقتصادية فى أواخر القرن قد عرقلت بالتأكيد نمو عدد البشر، وعززت وجود بروليتاريا مهمة تتألف من ستين ألف شخص، بما يشكل «طبقة خطيرة» حقيقية فى نظر الأرثوذكسية الدينية، لأنها غالباً ماكانت دون محل شك وسريعة إلى المشاركة فى التمردات. والأعيان ينزعجون دائماً من أعمال هذه الجماعة السكانية (الجعيدية، أوباش الناس)، حتى عندما ينجحون فى نهاية الأمر فى تسريح حركاتها، بفضل الطرق الصوفية (٥٠).

ويقيم بونابارت فى البداية فى الجيزة، فى سكن مراد بك السابق. وهو ينشغل بإعادة نشر الجيش فى اتجاه الوجهتين اللتين اتخذهما إبراهيم ومراد. ويتخذ ديزيه موقعاً فى جنوب الجيزة للتصدى لعودة هجومية محتملة من جانب مراد. ومنذ ٢٤ يوليو، وسعياً إلى حل المسألة المالية، يشكل القائد العام لجنة، مؤلفة من مونج وماجاللون وبيرتوليه، مكلفة بالسيطرة على جميع الموارد الضريبية ووضع الأختام على كافة ممتلكات المماليك، التى يجرى اعتبارها ممتلكات عامة، شأنها فى ذلك شأن ممتلكات المنفيين السياسيين الفرنسيين (٥١).

ويجرى إرسال بوجين بوأرنيه من جانب صهره إلى الست نفيسة، لطمأنتها، هى وجميع نساء المماليك. وتتقدم إليه ماسة جميلة، شكراً له.

ويتم تعيين قائد اللواء دوبوى قائداً لمدينة القاهرة. وبهذه المناسبة تجرى ترقيته إلى رتبة جنرال لواء (٥٢).

وفي اليوم نفسه، يدخل بونابرت إلى القاهرة ويقيم في قصر محمد بك الألفي في ساحة الأزبكية، حيث الأعيان والأمراء المماليك ببركة المتصلة بالنيل خلال الفيضان وحدائقه الواسعة. وكان القصر قد تم الانتهاء من بنائه للتو ولم يك مأهولا بعد.

ويكتب القائد العام تقريره إلى حكومة الإدارة حول زحفه الظافر على القاهرة، ويمجد ثروات مصر الممكنة بالرغم من فقر السكان الرهيب ويشير إلى ضرورة استثمار رشيد. ويهتم بسفر تاليران إلى القسطنطينية، ويرى أن وجوده لدى الباب العالي ضروري للحيلولة دون دخول إلى الحرب من جانب الإمبراطورية العثمانية.

على أن بونابرت يمر في الفترة بأزمة فتور همة معينة. فالحملة – على أية حال– كانت أصعب مما تصور والجيش كاد يشهد في مرات عديدة تمرداً صريحاً. وكان على بونابرت أن يحافظ على رباطة جأشه وسط فتور الهمم العام وأن يكثف المغامرات المحسوبة. لكنه، وسط كل هذه المحن، يسمع من جانب رفاقه شائعات عن خيانة زوجته له. وهو يصف لأخيه جوزيف، في رسالة سوف تسقط في أيدي الإنجليز، شعوره المتزايد بالنفور من الناس وحاجته إلى الوحدة: «حاول أن توفر لي منتجعاً ريفياً حال وصولي، إما قرب باريس، أو في بورجونيا؛ فأنا أريد قضاء الشتاء هناك والخلو إلى نفسي؛ إنني متبرم من طبائع البشر. وأنا بحاجة إلى الوحدة والعزلة؛ والأمجاد تصيبني بالضجر؛ وينابيع الحماس تجف. والمجد بلا مذاق في التاسعة والعشرين؛ لقد استنفدت كل شيء، ولم يعد أمامي غير أن أصبح متوحداً حقاً. إنني أريد حماية بيتي، فلن أدعه أبداً لأيٍ كان ولم أعد أملك ما يبقيني على ظهر الدنيا» (٥٤).

السياسة الإسلامية

لكن هذه الانهزامية لا يجب أن تتكشف أمام حاشيته. وعليه بادئ ذي بدء أن يعيد النظام إلى القاهرة نفسها وأن يطبق خلاصة سياسته «الإسلامية» (٥٥) المنبثقة من تأملاته ومناقشاته مع المستشرقين.

وكان فولني قد تنبأ منذ عام ١٧٨٨ بأنه «للإقامة في مصر لابد من تحمل ثلاث حروب، الأولى ضد انجلترا، والثانية ضد الباب العالي، لكن الثالثة، والأصعب مما عداها، هي الحرب ضد المسلمين، الذين يشكلون سكان هذا البلد. وسوف تتسبب هذه الحرب الأخيرة في كثير من الخسائر، الأمر الذي قد يجعل من المحتم اعتبارها عقبة يستحيل التغلب عليها».

ولقد أمعن بونابارت النظر في هذه التحليلات، ويحاول، بمساعدة مستشاريه المستشرقين، دمج الخطاب الثوري الفرنسي بالرطانة السياسية الإسلامية المصرية. وفي التو والحال، يصطدم بعداوة السكان العميقة: «لقد كانت نبوءة فولني بسبيلها إلى التحقق؛ فإما الرحيل أو التوافق مع الأفكار الدينية، الإفلات من لعنات النبي، عدم السماح للفتات بالاندماج في صفوف أعداء الإسلام؛ وكان لابد من اقناع وكسب رجال الإفتاء والعلماء والأشراف والأئمة، حتى يتولوا تفسير القرآن بما يناسب الجيش».

وكما قال أحمد باشا الجزار للباب العالي، قبل إحدى عشرة سنة، فإن عماد السلطة إنما يكمن في كبار العلماء ومشايخ الأزهر، وهو مؤسسة يسميها بونابارت بـ «سوربون الشرق». فهم الذين يصوغون الرأي العام. ومن ثم فإن عليه ربط السلطة الفرنسية ربطاً وثيقاً برجال الدين هؤلاء. فسوف تجد الأمة العظمى فيهم الوسطاء الضروريين لمد مجال الحكومات النيابية إلى الشرق (٥٦).

ويجري تشكيل ديوان مؤلف من علماء وكبار موظفين، ويصدر الأمر بتاريخ ٢٥ يوليو:

«بونابارت، عضو المعهد الوطني، القائد العام، قرر:

١ – تحكم القاهرة من جانب ديوان مؤلف من تسعة أشخاص.

٢ – يجتمع الشيوخ السادات والشرقاوي والصاوي والبكري والفيومي والعريشي وموسى السرسي ونقيب الأشراف السيد عمر (مكرم) ومحمد الأمير هذا المساء، في الساعة الخامسة في دار كيايا الشويد (؟). ويشكلون الديوان.

«يتولون تعيين واحد منهم رئيساً، واتخاذ أمين من خارج صفوفهم، وأمينين مترجمين يعرفان الفرنسية والعربية.

«يتولون تعيين لجنة من ثلاثة أشخاص لمراقبة الأسواق وتزويد المدينة بالمؤن. ويعينون لجنة مكلفة بدفن جميع الموتى الذين يموتون في القاهرة على بعد نحو فرسخين.

٣ – يجتمع الديوان كل يوم ظهراً ويوجد فيه بشكل دائم ثلاثة أعضاء بلا انقطاع.

٤ – يوجد عند باب الديوان حرس فرنسي وحرس تركي.

٥ – يوجد الجنرال بيرتييه وقائد الموقع هذا المساء، في الساعة الخامسة، في الديوان، لإقامته واخذ اليمين من أعضائه بعدم فعل شيء يتعارض مع مصالح الجيش» (٥٧).

ويطلب الفرنسيون ألا يوجد أى مملوك (جنس مملوك) بين كبار الموظفين؛ لكن رجال الدين يرون بأن للمماليك وحدهم هم الذين يمكنهم توفير الاحترام من جانب سكان القاهرة. وفى المقابل، يطلب المحتلون اشتراك موظفين عثمانيين باقين فى القاهرة، مصطفى بك كتْخدا الباشا (المعتمد، نائب الباشا) والقاضى العسكر (رئيس الهيراركية القضائية). ويتمشى ذلك مع رغبة بونابارت فى التوصل إلى ترضية مع الباب العالى. ومن جهة أخرى فإنه يكتب عدة مرات إلى الباشا سعياً إلى حثه على العودة إلى القاهرة. (٥٨)

إنشاء إدارة جديدة

ويستمر نهب منازل المماليك، بالرغم من الأختام التى وضعها الفرنسيون عليها. ويشارك الجنود الفرنسيون بنشاط فى هذا الفعل، فاتحين الطريق على رحابته أمام اللصوص المصريين. ويتخلى الديوان عن أية مسئولية فى مجال حفظ النظام العام الذى يختص به الحكام وحدهم. عندئذ يعين الفاتحون مغامراً، هو بارثيليمى سيرًا، وهو يونانى من شيو (٥٩)، ومدفعى سابق فى خدمة الألفى بك، رئيساً (كتْخدا) للمستحفظان، قوة الشاة المكلفة باستعادة الهدوء. ويعيد سيرًا تنظيم وحدته ويقمع الفتن قمعاً لا يرحم، مما يثير عظيم سخط سكان القاهرة الذين يرون مسيحياً (من الشرق) يحتل مثل هذ المنصب (٦٠). وسرعان ما يرجع السلم إلى عاصمة مصر.

هكذا ينظر الجبرتى إلى إعادة تشكيل القوات المحلية المكلفة بحفظ النظام. والواقع أن الفرنسيين قد شكلوا خمس سرايا من رجال الشرطة منبثقة من الميليشيات العثمانية السابقة. وقائدها، أغا الشرطة، يتبع بشكل وثيق قائد الموقع، الجنرال ديبوى. (٦١)

وفى البداية كان دور الديوان استشاريا وكان يلعب دور وسيط مع السكان المصريين(٦٢). وأعماله الأولى تتمثل فى استصدار تصاريح مرور تسمح للأعيان بالعودة إلى القاهرة (٦٣).

ومنذ ٢٧ يوليو، يمد بونابارت إلى مجمل الأراضى المفتوحة نموذج التنظيم الإدارى المطبق فى القاهرة؛ ديوان لكل مديرية، أغا انكشارية مسئول عن الأمن، أمين مسئول عن الضرائب وإيرادات ممتلكات المماليك، وكيل فرنسى يشرف على عمله (٦٤).

وفى ٢٨ يوليو، يجرى تطبيق نظام القاهرة فى الضواحى المجاورة، حيث تصبح

بولاق ومصر العتيقة الدائرتين التاسعة والعاشرة بحسب الترتيب من دوائر القاهرة. وتحصل كل ضاحية من الضاحيتين على تنظيم الشرطة ذاته وتنظيم العاصمة. وفى ٣٠ يوليو، يتم تعيين القبطى جرجس الجوهرى أميناً عاماً لمجمل مصر يملك سلطة على أمناء المديريات. والحال أن جميع الموظفين المدنيين، بمن فى ذلك موظفى التزامات المماليك، يجرى الإبقاء عليهم فى مناصبهم. وفى ٣١ يوليو، يتم إقرار جميع الممتلكات، ما عدا ممتلكات المماليك. ويتعين على السكان تسليم أسلحتهم. وفى أول أغسطس، يجرى فرض ضرائب باهظة على نساء المماليك حتى يتسنى لهن الحفاظ بشكل شرعى على ممتلكات أزواجهن. ويتعين على الست نفيسة وحدها أن تدفع خمسمائة ألف جنيه. وأمام فداحة هذه الضريبة، تتصور أن بونابرت الشاب قد خدعها (٦٥). وهى تبرز سخطها بالتخلى عن ساعة مشغولة بالماس كان ماجاللون قد قدمها إليها منذ عهد قريب باسم الحكومة الجمهورية اعترافاً بالامتنان لمساعيها الحميدة (٦٦). على أن بيرتييه، بناءً على طلب ماجاللون، قدم إليها أماناً عاماً لها ولجميع أهل بيتها (٦٧).

وتبدو العلاقات الأولى بين الجنود والسكان طيبة. وصحيح أنهم يجدون متعة فى المحاكاة الساخرة للشعائر الإسلامية بتقليد شعائر الصلاة فى ثكناتهم (٦٨)، لكن ذلك يحدث دون أن يلحظه السكان. وينشأ نشاط تجارى حقيقى حولهم. فالمسلمون يفتتحون محال للمأكولات والمشروبات؛ وبما أن الفرنسيين يشترون كل شيء بأعلى من سعره الجارى، فإن حالات الغش تتزايد من حيث النوعيات والكميات. ويتخصص المسيحيون فى الخمارات؛ وتشهر الموائد والكراسى والأسعار المعلن عنها إلى إدخال أسلوب الحياة الأوروبى(٦٩).

وسعياً إلى تدبير إمكانات مالية بسرعة، يجرى فرض ضريبة باهظة على تجار المدن الرئيسية. وتتكاثر لجان جرد للممتلكات العامة. ويلعب ماجاللون دور مستشار مالى ويبين المصادر الرئيسية لإيرادات مصر. (٧٠) وعلى المستوى العسكرى، يجرى إنشاء مستشفيات فى القاهرة. وسعياً إلى تأمين ركوب الفرسان، تجرى مصادرة جميع الجياد المتوافرة. ويتم تكوين مجلس للكساء؛ فالقائد العام يميل إلى تغيير للزى الرسمى الفرنسى يقربه من الملبس الشرقى. لكن الضباط يعادون ذلك ويتلون الإبقاء على الأزياء الأوروبية (٧١).

ويتخذ بونابارت تدابير وقائية للتصدى لتمرد محتمل. ويتم تأسيس نظام للاستنفار، يسمح للقوات أن تتخذ مواقع لها فى المدينة بأسرع ما يمكن. ويتم الإمساك

بزمام العاصمة، بفضل يقظة دؤوبة، من جانب مالا يزيد عن ألفين من الرجال. ومن جديد تصبح قلعة القاهرة موقعاً حصيناً تحرسه المدفعية في جانب منه. ويصدر الأمر بتدمير جميع البوابات التي من شأنها إغلاق الدروب وقطع المواصلات. ويتعين على السكان تسليم جميع أسلحتهم؛ ويجازف المخالفون لهذا الأمر بالتعرض لعقوبات بدنية (مائة جلدة) ولغرامات فادحة، وإذا كانت المخالفة تتعلق بحيازة مدافع أو احتياطيات من البارود، فإن المخالفين يجازفون بالتعرض للإعدام. وهذان الإجراءان سوف يكونان باعثين على ضيق شديد، فهما يطالان على نحو مباشر التمثيلات الذهنية للأفراد وللجماعات، فالرجل الأعزل يكف عن أن يكون رجلا كاملا ويجرى النظر بوجه خاص إلى فتح الأحياء بوصفه انتهاكاً حقيقياً لتضامنات الجماعات. (٧٢)

ويروق لبونابارت أن يكون المستبد الشرقي الجموح ولكن العادل. وهو يكتب عن ذلك إلى مينو، في ٣١ يوليو: «إن الأتراك لا يحسنون التصرف إلاّ عبر أكبر قدر من القسوة؛ إنني أصدر الأمر كل يوم بقطع خمس أو ست رؤوس في شوارع القاهرة. وكان قد تعين علينا حتى البارحة أن نراعي جانبهم سعياً إلى تبديد سمعة الإرهاب تلك التي سبقتنا؛ أمّا اليوم، خلافاً لذلك، فلا مفر من استخدام اللغة الملائمة حتى ينصاع هؤلاء الناس؛ والانصياع، بالنسبة لهم، مستحيل دون الخوف»(٧٣).

الأثر الفعلي للبيان

لكنه كان على حق تماماً في تصور أن المسلمين يكنون له عداوة عميقة. ولم يك لبيان بونابارت أن يكون مؤثراً إلاّ بقدر تمكنه من إقناع عدد كبير من المصريين بأن الفرنسيين قد تحركوا بالاتفاق مع الباب العالي لتحريرهم من المماليك أو بتعبير أكثر تمشياً مع لغة ذلك الزمان، لمعاقبة هؤلاء الأخيرين على المظالم التي اقترفوها في حق السكان.

لكن أحداً لم يك من الممكن أن ينخدع بالمظهر الإسلامي لدعاية الفرنسيين. فالمزج بين اللغة الثورية الأوروبية التي تنقل مفاهيم لم يك لها بعد معنى في الشرق والمصطلحات الإسلامية للغة السياسية العثمانية إنما يمثل مظهر شذوذ كامل في نظر النخبة المصرية. ويقدم لنا الجبرتي، في تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، شرحاً حقيقياً لنص بيان بونابارت إلى الشعب المصري بعد تفنيداً تاماً له.



١٧ – مراد بك.




١٨ – شيخ من القاهرة (إلى اليسار)، ترجمان مراد بك (إلى اليمين).



١٩ - بحّار من الإسكندرية.



٢٠ - بوناپارت يمنح سيفاً للقائد العسكرى للإسكندرية.



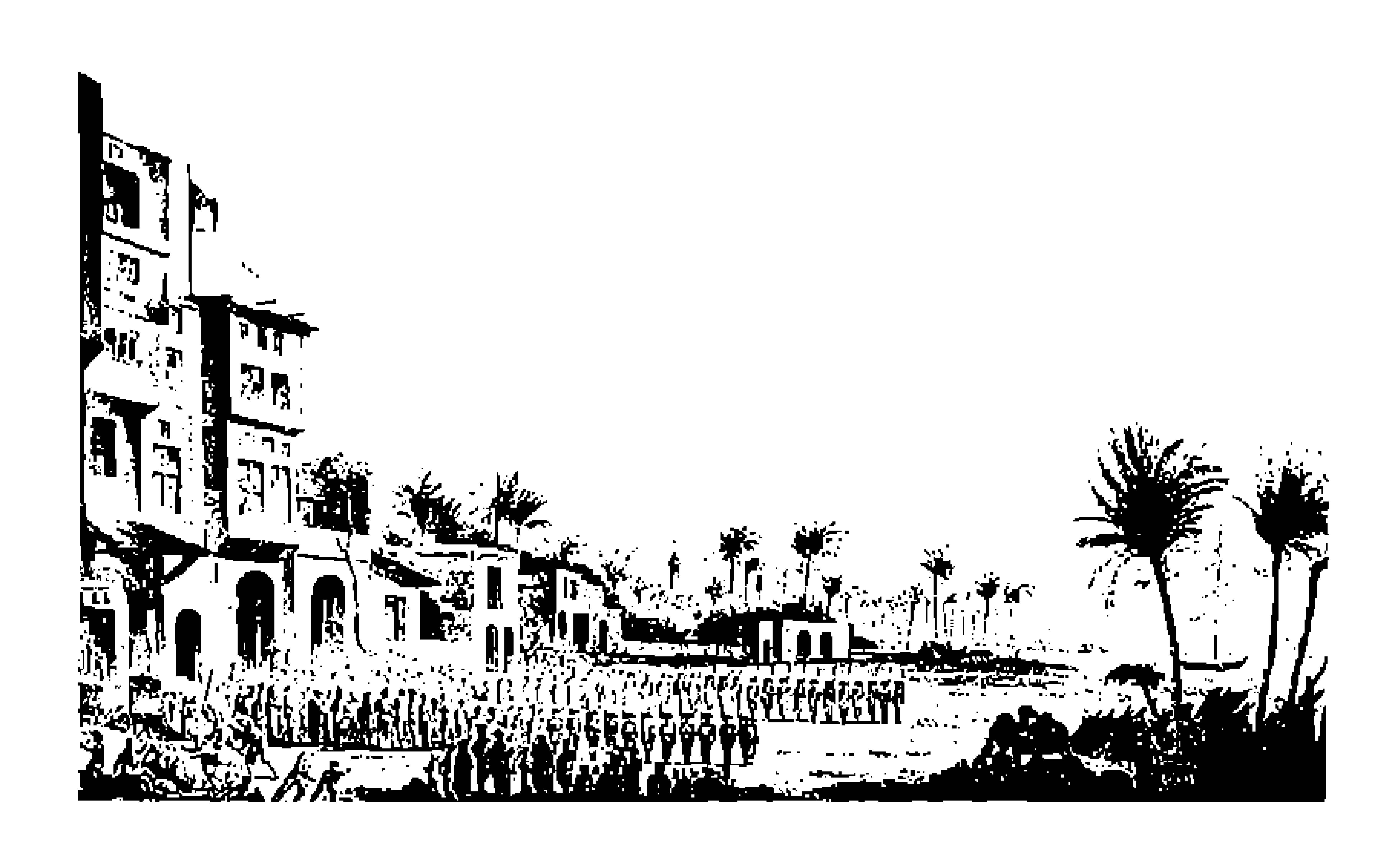
٢١ - (أ) عرب بلدية رشيد.



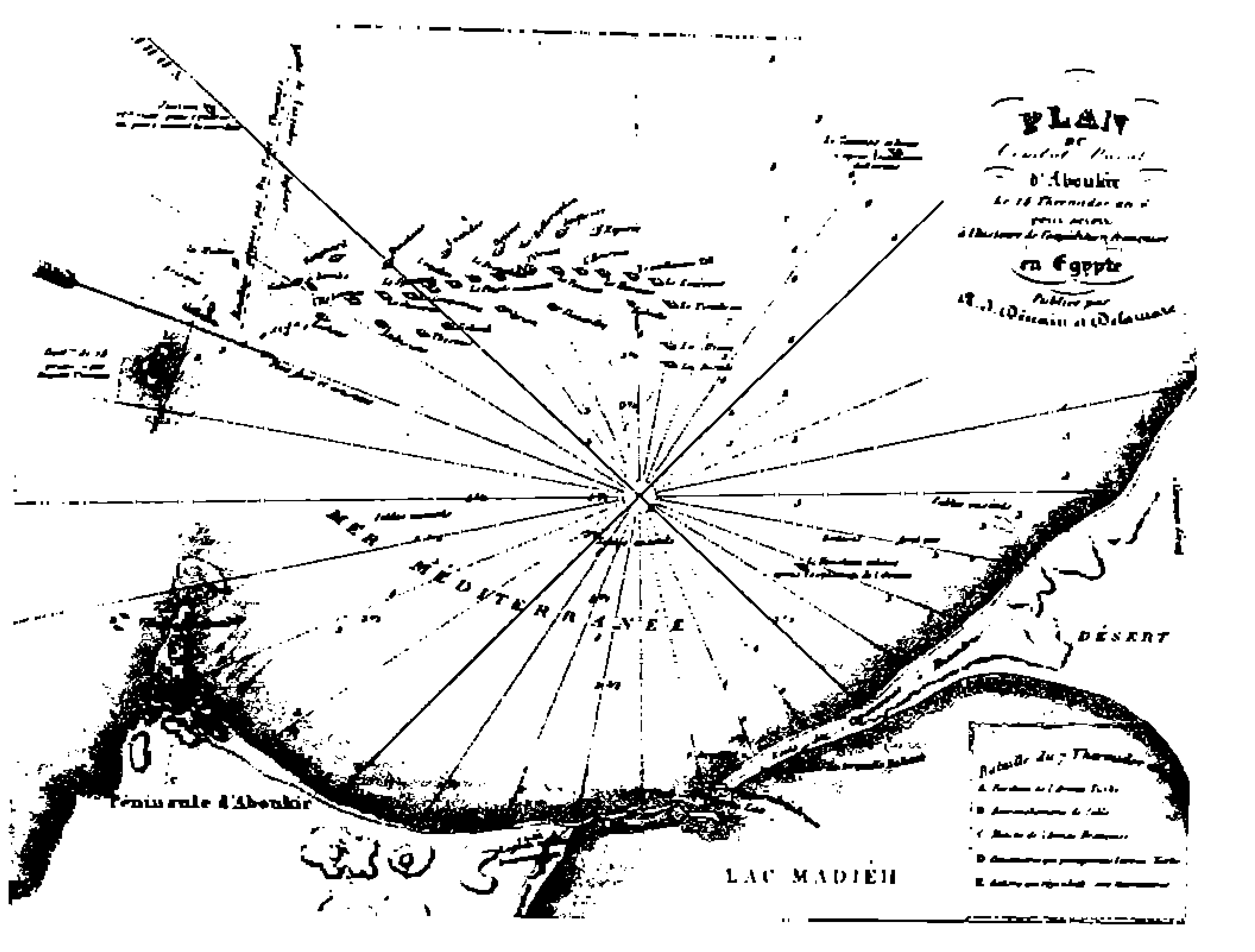
(ب) عضوان بحكومة الإسكندرية (إلى اليسار)، رأس عربي (في الوسط)، الشريف كريم، حاكم الإسكندرية (إلى اليمين).



٢٢ - مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي.



٢٣ - رشيد.



٢٤ - خريطة معركة أبو قير.

إنه يشير غير مرة إلى الأخطاء النحوية والأسلوبية. وجانب (البيان) المعادى للكاثوليكية، بدلاً من أن يخدع المسلمين كما يظن كاتبه، يصدمهم على الضد من ذلك صدمة عميقة: «قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه»، فى ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للملل الثلاث ومخالفون لهم بل ولجميع الملل، موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ونفى الولد والشريك ومخالفون لهم فى عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضاً ورفض دياناتهم وقتل القسوس وهدم الكنايس».

والصلاة الجمهورية لا تستثير فى حد ذاتها موقفاً سلبياً:

« وقولهم «من طرف الجمهور» إلخ، أى هذه الرسالة مرسلة من جهة جمهورهم أى جمعيتهم لأنهم ليس لهم كبير ولا سلطان تجتمع كلمتهم عليه كغيرهم ويختص بالخطاب عنهم فإنهم لما خرجوا على سلطانهم من مدة ست سنوات وقتلوه واجمع رأى الجمهور منهم على عدم الانفراد بل يكون أمر دولتهم وممالكهم وتدبير أمورهم لأصحاب الرأى والعقل فيهم ورتبوا أشخاصاً اختاروهم وجعلوهم روساً للعساكر ودونهم قواداً وأمراء ألوف ومئتين وعشراوات وأصحاب تدبير ومشورة بشرط المساواة وعدم الترفع على بعضهم نظراً للمساواة فى أصل الخلقة والطبيعة وجعلوا ذلك قاعدة وأساساً لطريقتهم، فهذا معنى قولهم «المبنى على أساس الحرية والتسوية». فقولهم الحرية أى ليسوا أرقاء كالمماليك والتسوية للمعنى السابق [...] وعلى هذا القانون سلكوا فالكبير والصغير والجليل والحقير والذكر والأنثى متساويان، وربما ارتكبوا خلاف ذلك فى بعض الأحيان بحسب شهواتهم وميل نفوسهم وتحكيم عقولهم».

أما موقف نسائهم فهو فى المقابل موقف صادم تماماً: «نساؤهم لا يستترون ولا يحتشمون ولا يبالون بكشف العورات [...]. قوله: «بونابارته» هذا لقب سارى عسكرهم وليس باسم ومعناه المجلس الطيب لأن بونا معناه الطيب وبارته المجلس. [...] قوله: «يتعاملوا... بالذل والاحتقار» (فى حق الملة الفرنساوية – المترجم)... هم أحق بتلك المعاملة [...]».

لكن الأمر كله، فى الواقع، كذب ورياء، «قوله: «فأما رب العالمين»، كلام مستأنف، «القادر على كل شىء»، ومن قدرته الباهرة وآياته الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين إلى مراتع

للملوك والسلاطين وبخروج الكرة عليهم والطمع بأمرهم ونواصيهم. وقوله: «قد حتم» إلخ، هذا تحكم على الغيب وما بعد الكفر عيب. [...] قوله: «ولو لم للمفترين»، جمع مفترى وهو الكاذب، وما أحقهم بهذا الوصف ومصداق ذلك قوله: «إنني ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين»، هذه أول كذبة ابتدروها وفرية ابتكروها، ثم ترقى إلى ما هو أعظم من ذلك رماه الله في المهالك بقوله : «وإنني أكثر من المماليك أعبد الله» إلخ، لا شك أن هذا خبل في العقل وغلو في الجهل، أي عبادة فضلا عن كثرتها مع كفر غطى على فؤاده وحجبه عن الوصول إلى طريق رشاده. [...].

«قوله: «وأحترم نبيه»، معطوف على ما قبله عطف الكذب على الكذب، لأنه لو احترمه لآمن به صدقه واحترم أمته.

«قوله: «والقرآن العظيم» [...]، هذا كذب أيضاً، فإن احترام القرآن تعظيمه وتعظيمه بالتصديق بما فيه وهو من آيات النبي الدالة على صدقه وأنه نبي آخر الزمان وأن أمته أشرف الأمم، وهؤلاء لجميع ذلك نافون ولهما عندوه كاذبون وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. قوله: «متسلوين عند الله تعالى»، هذا كذب وجهل وحماقة، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض. [...]. قوله: «الحجة التي كتبها لهم الله»، هذا من الجهل والكفر بمكان، فإن الله لا يملك الناس شيئاً بحجة يكتبها لهم. غايته أن القوم يتداولون البلاد من أسلافهم كهؤلاء أو عن أعقابهم أو بالغلبة والقهر. [...]».

والواقع أنه يبدو أيضاً أنه كانت هناك خيبة أمل من جانب العلماء تجاه وعود الفرنسيين الزائفة، «قوله: «في المناصب السامية»، أي المرتفعة، فيه احتراز عن دفع اللوم عنهم بتقليدهم مناصب الأحكام الجليلة للأسافل والرعاع منهم كجعلهم برطلمان الطبجي كتخدا مستحفظان. قوله: «وبذلك يصلح»، نعم بتدبير العقلا والفضلا والعلما يصلح حال الأمة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك [...]».

وتتكشف طبيعة الفرنسيين الحقيقية: «إن إسلامهم نصب. قوله: «وخربوا فيها كرسي الباپا»، بهذه الفعلة خالفوا النصارى كما سبقت الإشارة إليه، فهؤلاء القوم خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلون وللمعاد والحشر منكرون وللنبوة والرسالة جاحدون ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية وظهور الملل وانتقال الدول بموجب طبع القرانات وامتزاج

المناظرات، وربما اعتقدوا تناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح، فلذلك لا يذبحون حيواناً يأكلوه ولا يقطعون رأس القتيل حتى يقتلوه لئلا يتفرق أجزاء روحه ويتناثر فلا يلتئم في جسم آخر ومثل ذلك من الخيالات وأنواع الضلالات. [...].

«عجل الله لهم الوبال والنكال وأخرس منهم عضو المقال وفرق جمعهم وشتت شملهم والصد رأيهم وأخمد أنفاسهم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير».

والحال أن الثوار الفرنسيين، بدلا من أن يظهروا في أعين العلماء في صورة مبتكرين لعالم جديد، إنما يجرى النظر إليهم بوصفهم أتباعاً لماضي العصر القديم وزمن الإسلام الكلاسيكي. ويعتمد الجبرتي على عقد مقارنات؛ فما دام الفرنسيون نافون للديانات السماوية، فإنهم يتوحدون مع من تسميهم كتب العلم الإسلامي عن الملل والنحل المارقة بالملاحدة، في أحسن الأحوال مع أولئك الذين لا يؤمنون إلاّ بالعقل، أي بنمط معرفة أدنى من نمط المعرفة الذي يوفره الوحي، وفي أسوأ الأحوال مع عبدة النجوم، الذين يؤمنون بالتناسخ.

ومسلكهم العام، خاصة عاداتهم السيئة، إنما تجعل منهم كائنات قليلة التمدن وجديرة بالاحتقار. وما يستحق الإعجاب فيهم هو ما يتوصلون إلى استخلاصه، في العلوم والتقنيات، من إعمال العقل. أمّا فيما يتعلق بما عدا ذلك، فإن مسلكهم وخطابهم إنما يدلان بشكل واضح على أنهم ليسوا أكثر من منافقين.

إخراج إبراهيم بك من ساحة النزاع

سوف يستسلم بونابارت للأوهام حتى النهاية فيما يتعلق بمشاعر العلماء الحقيقية. وسوف يواصل ذلك الخطاب الذي يضطر الآخرون، بحكم الضرورة السياسية، إلى سماعه. أما الآن، فإن عليه الانشغال بإنجاز فتح مصر السفلى.

ومنذ ٢٥ يوليو، أصدر الأمر باحتلال منوف، القريبة من القاهرة. وصباح اليوم التالي، يبدأ فيال مع فرقته زحفه على دمياط. وفي ٤ أغسطس، يصل الفرنسيون إلى المنصورة ويدخلون دمياط في ٦ أغسطس. وتمر هذه العملية دون صعوبة. فالقرى تستقبل الجنود بأمارات الصداقة ويؤدي المشايخ يمين الولاء للجمهورية الفرنسية والسلم مع السلطان والحرب على المماليك والعرب، حيث يرجح أن هذا الشعور الأخير كان الأكثر إخلاصاً.(٧٤)

وإذ يصل إلى علم بونابارت أن مراد قد انسحب إلى مسافة بعيدة عن القاهرة، فإنه يقترح عليه تسوية، يتقلها روزيتى الذى يزور الزعيم المملوكى سراً. فالفرنسيون مستعدون لمنحه مصر العليا من جرجا إلى الشلال الأول بشرط اعترافه بالتبعية لهم ودفع إتاوة لهم.

وفى تلك الأثناء، يركز القائد العام عمله على إبراهيم الموجود فى بلبيس على بعد عدة كيلو مترات من القاهرة. وبالنسبة للقائد، فإن من الأهمية بمكان إنجاز فتح الدلتا وتأمين حرية مرور قافلة الحج العائدة من مكة لإظهار أن الفرنسيين قادرون على حفظ النظام وإقناع مجمل أفريقيا الشمالية بأن العلاقات التجارية والدينية تظل ممكنة دائماً. والحال أن القوات الأمامية، تحت قيادة الجنرال لوكليرك، تتحرك فى اتجاه إبراهيم بك اعتباراً من ٢ أغسطس. وفى ٥ أغسطس، فى الخانكة، تصطدم بالمماليك المتحالفين مع الفلاحين المحليين. وتستعر المعركة، لكن انضباط الفرنسيين يجعلهم سادة للساحة. وفى ذلك اليوم، يغادر الجانب الرئيسى من القوات العاصمة فى ترتيب محزن. ومن جديد، يتذمر الجنود أمام قسوة الحملة. (٧٥)

ويتم حشد الفرق المختلفة فى الخانكة، فى ٨ أغسطس. وفى ٩ أغسطس، يدخل الجيش إلى بلبيس التى رحل عنها المماليك. وهو يجد هناك جزءاً من قافلة الحج ويكفل لها حرية المرور إلى القاهرة. وكان الجزء الآخر قد ترك لقدره من جانب أمير الحج، صالح بك(٧٦)، حائز أحد أعلى المناصب فى مصر العثمانية، الذى فضل اللحاق بمماليك إبراهيم بك.

وكان الحجاج قد طلبوا من البدو توفير حمايتهم. ويتعهد هؤلاء الأخيرون مقسمين بعدم خيانتهم، لكنهم ينهبون القافلة بالكامل فى منتصف الطريق. وسوف يرغم الفرنسيون البدو على رد جزء كبير من أسلابهم. وكان للمحروقى، رئيس تجار القاهرة، والذى كان مشاركاً فى القافلة، قد قدم طلباً فورياً بذلك إلى السلطات. وهو أيضاً الذى سوف يوجه البحث عن الجناة وتقدير ثمن الأسلاب لإعادة سداده (٧٧).

وفى ١١ أغسطس، يتم الوصول إلى الحد الشرقى للدلتا عند الصالحية. وتتلقى وحدة الفرسان الفرنسية الأمامية ضربة للمماليك. ويدرك الفرسان قدرة المماليك الرهيبة فى هذا النوع من القتال: فإن عين الفرنسى الذى يصاب بضربة غدارة يتلقى فى الساحة ضربة سيف من اليد نفسها، هكذا يرسم ديترو صورة لما يحدث فى يومياته. (٧٨) لكن

للمماليك يفضلون الاستفادة من الميزة التى يتمتعون بها للإسراع بانسحابهم إلى سوريا. وعندئذ يوقف بونابارت المطاردة ويعرض على إبراهيم بك إمكانية تسوية، يمكن بموجبها التنازل له وللمماليك كلهم عن جميع ممتلكاتهم فى مصر فى مقابل تعهدهم بخدمة الجمهورية. ويبدو أن إبراهيم يهتم بالعرض ويرسل رسولاً مكلفاً بالتفاوض بشأنه (٧٩).

وخلال تلك الزحف، تبدو ردود أفعال السكان متباينة. وهكذا، ففى جهات معينة، يتكون لدى الجنود الانطباع بأنهم محل ترحيب (حيث يصل الأمر إلى حد الامتناع عن أخذ ثمن ما يحصلون عليه) بينما يضطرون بعد وقت قصير من ذلك إلى مواجهة تجمعات الفلاحين الذين يقذفونهم بالحجارة التى يردون عليها بأعيرة نارية قاتلة؛ وبحجة البحث عن الخبز، يقترف الجنود «تجاوزات» فى القرى، وهو ما يدفع الضباط إلى فرض عقوبات قاسية ومن هنا «الشكايات والسخط الشامل» (٨٠).

وقبل العودة إلى القاهرة، يأمر بونابارت بإقامة موقع حصين فى الصالحية، سوف يسمح بتغطية الدلتا وبأن يكون قاعدة انطلاق للعمليات التالية ضد سوريا (٨١).

وعندئذ يمتد الانتشار العسكرى الفرنسى إلى كل الدلتا، ويتعين على دوجا بشكل خاص احتلال إقليم المنصورة. وفى ١٣ أغسطس، على طريق العودة، يصل إلى علم القائد العام من خلال أحد مساعدى كليبر نبأ كارثة أبو قير.

الإسكندرية ورشيد وأبو قير

كليبر فى الإسكندرية

على مدار نحو ثلاثة أسابيع، اعتباراً من ٨ يوليو ١٧٩٨، لا تصل إلى الساحل، الذى يحتله الفرنسيون، أنباء عن أحداث الداخل. لكن الانتشار العسكرى قوى: فكليبر فى الإسكندرية ومينو فى رشيد يحوزان قوات كافية، بفضل احتياطى الجيش، للإمساك بزمام الضواحى وللبدء فى السيطرة على بلاد المؤخرة؛ وبوجه خاص فإن الأسطول قد اتخذ موقعه فى خليج أبو قير بين المدينتين بالضبط.(٨٢)

وفى الإسكندرية، فإن العلماء هم أول من يتم اجتذابهم، ثم يليهم الشريف محمد كريم، ممثل مراد بك. إلاَّ أنه، منذ ٨ يوليو ١٧٩٨، تتردد شائعة فى المدينة بإبادة الجيش الفرنسى، ويضطر كليبر إلى تهديد أولئك الذين يروجون هذا النوع من الشائعات بعقوبات جسيمة. وإثر حوادث مع السكان، يشكل الجنرال الفرنسى دوريات مشتركة مكونة من فرنسيين ومسلمين ويحظر على الجنود الإتيان بأية أفعال من شأنها استفزاز السكان. وهو ينهمك بنشاط فى تحصين المدينة للتصدى لهجوم محتمل من البحر. وشاغله الرئيسى هو نقص الأموال الذى يقوده إلى أن يطلب من أمين صندوق الجيش، باسم ضرورات حيوية للخدمة، أكثر مما صرح له بونابارت بتسليمه.

وفى الظاهر، يتعاون محمد كريم دون تردد. لكن جندى مدفعية فرنسياً يتعرض فى ١٢ يوليو لاعتداء عليه فى الليل، الأمر الذى يستثير هياجاً عاماً بين صفوف الفرنسيين والمصريين. ويطلب كليبر من الأعيان الرئيسيين أن يسلموا إليه رهائن. ويبدى الشيخ المسيرى استعداده للتعاون. والواقع أنه يبدو من الواضح أن ما حدث هو محاولة للتمرد نظمها كريم الذى يعتمد على مشاركة بحارة السفن العثمانية الراسية فى ميناء الإسكندرية القديم. ويستفيد الجنرال من الموقف لكى يعيد النظام والانضباط إلى الحامية وبدءاً فى الارتياب فى إخلاص القائد المسلم.

وبناءً على تعليمات من بونابارت، يرسل طابوراً متحركاً تحت قيادة الجنرال دوموى مكلفاً بتذكير سكان دمنهور بتواجد سلطة الفرنسيين (١٧ يوليو). ويشكو الطابور من نقص حيوانات الجر، التى اختفت بشكل غريب من الإسكندرية. وعلى بعد مسافة قليلة من دمنهور، يتعرض للهجوم من جانب البدو الذين جاءوا بأعداد ضخمة. وفى المدينة

نفسها، يجرى لقاء الفرنسيين بأمارات الصداقة الخارجية، ثم يحاطون فجأة بعدة آلاف من الرجال الذين ينقضون عليهم. ولأول مرة، يواجهون ائتلافاً من الفلاحين والبدو يتزعمه الأعيان المحليون، وهو ما سوف يكون الشكل المعتاد للمقاومة فى الوسط الريفى. ويتمكن دومـوى مـن الإفـلات بفضـل مدفعيه، لكـن الطـابور يضطـر إلى العودة إلى الإسكندرية ويخمـن رئيسه أن متمردى الداخل قد حصلوا من الإسكندرية على معلومات عن تحركات الطابور (٨٣).

وفى ١٩ يوليو، تتفجر الأزمة بين كليبر وكريم. فلما كان الفرنسيون بحاجة إلى المال، فإنهم يجمعون التجار لإبلاغهم بجباية قرض إجبارى قدره ثلاثون ألف جنيه موزعة بالتساوى بين المسلمين وغير المسلمين. ويصل الشريف والمدعوون المسلمون متأخرين ساعتين ويبدون بشكل خاص أن يتحمل اليهود وحدهم الجزء الرئيسى من المساهمة المطلوبة منهم. وعندئذ ينفد صبر كليبر، ويأمر بالقبض على محمد كريم الذى يشتبه فى خيانته منذ حادث الطابور المتحرك، ويحتجزه على متن إحدى سفن الأسطول ويلزم التجار المسلمين بدفع مائة ألف جنيه تحت تهديد المساس بالرهائن.

ويسمح إقصاء كريم لفريق العلماء بالصعود إلى مناصب المسئولية. ويجرى تعيين محافظ مسلم جديد، هو محمد شوربجى الجوريانى، لكن القائد الحقيقى لهذه الجماعة ليس أحداً آخر غير الشيخ المسيرى. لكن حزب المماليك لا تقطع رأسه مع ذلك. فهو ينظم نفسه تحت قيادة عميل آخر لمراد بك اسمه عبد الله باشى. وهو تاجر من أصل مغربى، كان قد تزوج أخت أحد كبار التجار فى المدينة ويبدو أنه كان واسع الثراء فقد فكر الفرنسيون فى تحويل داره إلى مستشفى. وقد عمل بالتناظر مع محمد كريم على تأمين هيمنة مراد على الإسكندرية وشكل شبكة راسخة من العلاقات مع قبيلة أولاد على البدوية القوية التى ترتحل بين الإسكندرية وبرقة. وعند الاستيلاء على الإسكندرية، قدمه محمد كريم إلى بونابارت الذى منحه جواز مرور. وقد استفاد منه للخروج من المدينة، وشارك على الأرجح فى معركة الأهرام، وهو الآن يحرك المقاومة ضد الفرنسيين. (٨٤)

وفى ٢٥ يوليو، تصل السفينة أرتيميس إلى الإسكندرية، وعلى متنها الجنرال لانوس وتاليان. ووصول هذا السياسى يثير استياء العسكريين. وفى المأدبة التى أقيمت على شرفه، يهاجم كليبر عجز السياسيين. ورداً على تاليان، الذى يحاول الدفاع عن المؤتمر، يشير كليبر إلى: «الإدارة السيئة لتلك الجمعية. ويصورها فى صورة دنيئة

ومحتقرة، ويشير إلى أن الأمة أصبحت عظيمة ومحترمة فى الخارج بسبب الرعب الذى تستثيره حروبها، ويقارن بين الاحتقار الذى يستثيره العدد الأكبر من هؤلاء المشرعين والاحترام والإعجاب الذى يستثيره فى البلدان الأجنبية خاصة، اسم ووجود ضابط فرنسى.» (٨٥).

ويشير الحادث إلى مدى تباعد العسكريين عن سياسيىّ الثورة. ويدفع نجاح جمهور البدو إلى الاحتشاد بأعداد كبيرة حول الإسكندرية. ويرسل كليبر وحدات من الخيالة تنجح فى مواجهة البدو مواجهة ظافرة. وفى ٢٠ يوليو، يصل إلى علمه من خلال مينو خبر الانتصار الفرنسى فى معركة الأهرام. وتحتفل الحامية بالحدث عبر طلقات المدفعية. وفى المساء، تضاء دكاكين وأسواق الإسكندرية، بينما يختلط الأعيان المسلمون بالضباط الفرنسيين خلال حفل الاستقبال الرسمى. «مكث الزعماء المسلمون فى قاعة رحبة دخلها الفرنسيون والأتراك على حد سواء. ولقد بقيتُ هناك قليلا ورأيت توزيع المرطبات هناك بشكل واسع وبدون مقابل على من يريد تناولها. وشوهدت هناك بعض زوجات الضباط والتجار الإفرنج اللاتى ظهرن، لأول مرة فى حياتهن، فى هذا المكان. وبوجه عام، فقد بدأ الحبور وبدا غير مصطنع» (٨٦).

وموقف المسلمين تجاه النساء الأوروبيات يبدو فى أعين الضباط الفرنسيين دالا على التغيرات الآخذة فى الحدوث. «بالإمكان الإشارة، تدليلا على أن الأتراك يتجرعون بشكل محسوس من غلاظة سلوكهم، إلى أن النساء الأوروبيات اللاتى كن فى السابق، عند مرورهن فى الشوارع، يتعرضن للكثير من الإهانات، وربما للملاحقة والقذف بالحجارة، وهناك عدد من الأمثلة على ذلك، أصبحن يُعاملن معاملة مهذبة من جانب الأتراك، الذين يظهرون احتراماً لهن عند اقترابهن» (٨٧).

ويحاول محمد كريم التصالح مع الفرنسيين، لكن كليبر يتخذ موقفاً متصلباً. إذ يجرى إرسال الحاكم المسلم السابق، بأكبر قدر من المراعاة، إلى أسطول أبو قير، حيث يتسنى الاطمئنان إلى أنه لن يتمكن من إجراء أية اتصالات مع سكان الإسكندرية. ويجرى ترقب أن يبت بوناپارت فى قضيته.

مينو أحد رشيد

شخصية مينو جد مختلفة عن شخصية كليبر. إن هذا الرجل، الذى ولد فى عام ١٧٥٠، هو أكبر قادة فرق بوناپارت سناً (لا يصغره كليبر إلاَّ بثلاث سنوات). ولما كان قد

لنحدر من أسرة تنتسب إلى نبالة جد قديمة (ترجع إلى القرن الحادى عشر)، فقد خدم فى جيوش الملكية حيث يصل، لكونه من غير العوام، إلى رتبة الكولونيل. وفى عام ١٧٨٩، حين كان نائباً فى المجالس العامة، يشارك بنشاط فى الثورة فى صفوف النبالة الليبرالية التى تقبل اندماج الفئات الثلاث. وفى الجمعية التأسيسية، يصبح مشرعاً نشيطاً، خاصة فى المجال العسكرى، وينتمى إلى أنصار الملكية الدستورية، مما يجر عليه عداوة وسطه الأصلى. وهو يستأنف فى عام ١٧٩١ الخدمة فى الجيش، بالرغم من أن دوره كان بالأحرى سياسياً: فهذا المسئول العسكرى عن قصر التويليرى فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢، يدع الكوميون الثورى يأسر الملك. وفى السنة التالية، تجرى ترقيته إلى جنرال فرقة فى الفانديه، حيث يُهزم عدة مرات. وإذ يواصل الخدمة فى الحروب الأهلية، فإنه يصبح قائداً عسكرياً لباريس فى عام ١٧٩٥، ويقمع تمرد ٢ بريريال الشعبى الكبير الأخير. وفى الوضع السياسى المضطرب خلال الأشهر التالية، وبالرغم من صفته كقائد عام لجيش الداخل، فإنه يتصرف بشكل ملتبس فى وجه خطر العصيان الملكى بحيث أن باراً يفضل تنحيته ويعين فى مكانه بوناپارت الذى سوف يصبح بذلك رجل ١٣ ڤينديميير. ولن ينسى فاتح المستقبل أبداً أنه يدين ببداية صعوده الخاطف لترددات مينو وسوف يتصرف نحوه بتواطؤ غير عادى مع أشكال افتقاره للفطنة للانضباط العسكرى. وبوناپارت هو الذى يدعوه إلى الخدمة فى حملة مصر بعد أن كانت حكومة الإدارة الرتابة فيه قد أحالته إلى التقاعد. وعلى الرغم من أنه يملك العمر الوظيفى العسكرى الأطول بين قادة فرق جيش الشرق، فإنه لا يملك من الناحية العملية أية خبرة حربية حقيقية، خلافاً لزملائه الذين يرون فيه بالدرجة الأولى فاراً من صفوف الأرستقراطية ورجلاً سياسياً ذا ماضٍ مشحون. والواقع أنه لن يفعل شيئاً لتبديل هذا المظهر للأمور، فهو يفضل الأعمال الإدارية على المعارك، بالرغم من أن جراحه العديدة فى الفانديه وخلال الاستيلاء على الإسكندرية تشهد على شجاعة شخصية مؤكدة.

وفى رشيد، حيث تولى مهام القيادة فى ١٠ يوليو، يتمتع مينو بأعداد جنود أقل أهمية بكثير من الأعداد التى يتمتع بها كليبر، فهى تتراوح بين أربعمائة وخمسمائة جندى تقريباً. والحق أنه يواجه مصاعب أقل فى المدينة نفسها. فأنصار المماليك يهربون. ثم إن التجار الفرنسيين، خاصة أسرة فارسى المستقرة فى المدينة منذ زمن بعيد، قد ساعدوه كثيراً فى تهدئة السكان. ولا يبقى غير حزب «المحمديين الأنقياء» وهو الحزب الأوفر عدداً،

«إن حزب الرجال المغضوب عليهم من الحكم ليس وفير العدد؛ لكنه سوف يوجه ويقاد بسهولة لحسابنا شأنه في ذلك شأن الحزب الثاني». والموقف السائد بين صفوف السكان هو موقف الترقب والانتظار؛ «إن الاستيلاء على القاهرة سوف يتم توظيف الجميع بما يتمشى مع مصالحنا. فجميع الأفراد يخشون المماليك بأكثر بكثير من خشيتهم منا؛ وهذا هو ما يبقيهم في انعدام اليقين» (٨٨).

وهكذا يتسنّى لمينو الاتجاه إلى تشكيل مجلس من ثلاثة أعيان يسميه بشكل له دلالته «بلدية» رشيد: عبد الله بدوى الذى كان مرجحاً قد عينه بالفعل، وسيد أحمد الخازندار وعلى شاويش. ويتعين عليهم العمل على استتباب الأمن والانضباط في دائرة رشيد، وهم يتمتعون لذلك الهدف بصلاحيات شرطة واسعة، تطال أيضاً الفرنسيين الذين يعكرون النظام والذين سوف يسلمون فوراً إلى قائد الموقع كما أنهم يعملون على كفالة انتظام المعاملات في الأسواق. (٨٩)

وبعد وقت قصير من ذلك، يحصل بدوى على رتبة الأغا، محافظ رشيد المسلم(٩٠). ومينو، خلافاً لكليبر، ينهمك في الجنس الأدبى الخاص بتوجيه بيانات إلى السكان: فهو سوف يحمى الدين الإسلامى، وغاية الفرنسيين هى القضاء على المماليك وإنهاء المظالم العديدة التى يعانى منها السكان؛ وهم يريدون «تشجيع التجار والمزارعين وتأمين السعادة للجميع تحت حكمهم. إن الفرنسيين يحبون عظمة السلطان ويساندونه، أدام الله عزّه. وهم ليسوا أعداء إلاّ للمماليك وحدهم» (٩١).

والـواقـع أنـه، شأنه فـى ذلك شـأن كليبر، لا يسيطـر بصـورة مطلقة على داخـل الأراضى، وهو يتعرض لهجمات من البدو. ومن ثم فإنه يكتفى بتأمين الاتصال بين رشيد وأبو قير حيث يوجد الأسطول.

وشاغله الرئيسى يتميز بطابع مالى. إذ تعوزه الأموال اللازمة للمهام المختلفة التى عهد بها إليه بونابارت قبل رحيله. وكان هذا الأخير قد أصدر تعليمات صارمة فيما يتعلق بالمصادرات، المحرمة، مالم يصدر تصريح من القائد العام، إلاّ فى حالة الضرورة الملحة (٩٢). ثم إن مينو، وهو نصير مخلص بالفعل للمشروع الاستعمارى ومقتنع بضرورة اجتذاب السكان المصريين، ينفر من اللجوء إلى هذه الأساليب.

مشكلة الأسطول

الواقع أن اجتياز البحر المتوسط قد أدى إلى استهلاك جزء كبير من احتياطيات مؤن

الأسطول. ثم إن الجيش، فى زحفه على القاهرة، قد سحب الكثير مما تبقى. ومن ثم فإن المسئولين الفرنسيين يجدون أنفسهم فى الوضع المحرج الذى يتمثل فى ضرورة إعادة تكوين احتياطيات دون أن تتوافر لديهم الإمكانات المالية لإتمام المشتريات الضرورية أو الرغبة السياسية فى طلب تسليمات إلزامية وقروض إجبارية تتناسب مع الاحتياجات. والإسكندرية، وهى موقع تجارى بشكل خالص جد قريب من الصحراء، لا يمكنها تقديم مؤن ملائمة. ويتوقف كل شئ على رشيد ومينو، لكن إمكاناته محدودة. «وسط الوفرة، لا أستطيع عمل شيء، لأننى لا أملك الأرض الزراعية. على أن المستشفيات والأفران والبطاريات، وتغذية القوات، وعوز الجيش البحرى والإسكندرية، تلك هى الأشياء التى تتطلب إنفاقاً يومياً بالغ الأهمية. وسوف أسعى إلى عقد قروض، باسمى الخاص والشخصى... والخلاصة، أيها الجنرال، إننى أملك حماسة تزيد ألف مرة عن الإمكانات التى أملكها...» (٩٣).

وفى ٢٠ يوليو، يقرر جباية ضريبة من المدينة، بالاتفاق مع بوسليج واستيف، المسئولين عن مالية جيش الشرق: «لقد كابدنا الكثير حتى نجعلها تتمشى مع قراركم المؤرخ فى ٣ ميسيدور؛ لكننى أخشى تماماً من أن نكون قد تجاوزنا صلاحياتنا إلى حدٍ ما»(٩٤).

ولا يبدأ إشباع طلبات الفرنسيين إلاّ فى أواخر الشهر.

وفى ٢٠ يوليو، يجرى نقل محمد كريم إلى السفينة لوريان فى رشيد. ويحتفى السكان بالرجل. وعندئذ يأمر مينو باحتجازه فى سفينة حربية صغيرة. ولا يثق الشريف بعد إلاّ فى مينو. فهو يكتب إليه فى عدة مناسبات، ويطلب إليه أن يرسل إليه صديقهما المشترك، جان باسكى، لأنه يريد التنبيه إلى أشياء مهمة: فوضع الإسكندرية ينذر بأن يتدهور تدهوراً جسيماً، إذا لم يجر الاهتمام بإصلاح الخزانات والأجهزة الهيدروليكية التى ألحق بها الجنود الفرنسيون الأضرار، وإذا ما تركت الحرية للقرويين وللعرب فى عملهم الرامى إلى تحويل مياه الترعة التى تربط الإسكندرية بالنيل، والتى لا تعمل إلاّ خلال فيضان النيل: إن الحرمان من المياه «سوف يؤثر تأثيراً سلبياً على الأسطول والقوات»(٩٥). وسوف تؤدى أحداث الأيام التالية إلى دفع الفرنسيين إلى إهمال تحذير الشريف.

وفى ٣١ يوليو، يتوجه بالنداء من جديد إلى مينو ويطلب إرسال أحد أفراد عائلة ثاوسى إليه، حتى يتسنى له أن يوجه عبره تهانيه إلى السلطات الفرنسية على نجاحها. وفى أول أغسطس، يكرر طلبه (٩٦)، لكن ذلك اليوم هو يوم معركة أبو قير.

وكانت السلطات العثمانية قد حظرت على الدوام دخول السفن الأوروبية إلى الميناء القديم. وهكذا فإن البحارة الفرنسيين كانوا يجهلون عمق ممرات هذا الميناء. ومن ثم فقد اضطر برويس إلى اتخاذ موقع في خليج أبو قير لأن الميناء الجديد لا يكفل أمناً كافياً بسبب انفتاحه على عواصف البحر المتوسط العنيفة. وهو ينتظر نتائج اختبارات ممرات الميناء القديم التي اضطلع بها القبطان باريه. وعندما تصله في ١٣ يوليو فإنه يرى، محقاً على ما يبدو، أنها غير مرضية. إن أضخم السفن لن يكون بوسعها دخول الميناء القديم دون المجازفة على نحو خطير بأن تنقلب على جوانبها.

وفي أبو قير نفسها، لا يملك برويس الخرائط الدقيقة ولا الدليل. وهو يأمر باصطفاف أسطوله على مسافة بعيدة من الضفة. وبسبب ضعف إمكاناته، فإنه يفضل الاستعداد لصد هجوم محتمل من جانب العدو في وضع ثابت، وسفنه راسية وليست متحركة. وينتقد عدد من مرؤوسيه علناً هذا الاختيار. والحال أن البحر البالغ الاضطراب والأولوية الممنوحة لمواصلة تفريغ سفن الأسطول يمنعانهم من الاتجاه إلى اختبارات أدق لخليج أبو قير. وكان من شأن هذه الاختبارات أن توضح لهم أن بوسع العدو المناورة بين الضفة وصف السفن الفرنسية. وأياً كان الأمر فإن برويس يرى أن موقفه بالغ الهشاشة في وجه هجوم من جانب العدو. وشأنه في ذلك شأن مينو وكليبر، فإنه لا يتلقى أي نبأ من القائد العام، وذلك في لحظة كان بحاجة فيها إلى تعليمات واضحة.

وتصبح حالة المؤن كارثية؛ فإن الأسطول لم يعد في وضع يسمح بالتصدر، إنه يجازف بأن يسقط ضحية للجوع؛ كما أنه لا يمكنه البقاء في المرسى دون الحصول على مؤن غذائية فهو يجازف بأن يجد نفسه مختزلاً إلى آخر كسرة خبز. ومن المهم ألا يضطر، من جراء إعانات متأخرة، إلى أن يستهلك ما بقي له من الخبز، لأن مما لا مراء فيه أن غذاءً يومياً يتألف من الأرز إنما يهدد صحة الأطقم» (٩٧).

ولا يملك مينو سفناً قادرة على اجتياز فتحة مصب النيل، ذلك أن جميع الزوارق قد استخدمت للحاق بالجيش على طول النهر. ولا يبدأ الموقف في التحسن إلا في أواخر الشهر بالفعل.

معركة أبو قير البحرية

لكن نيلسون هو الذي يصل، في أول أغسطس، مع أسطوله. والفرنسيون لا يتوقعون وصوله بعد، فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى غربي البحر المتوسط

لإعادة التزود بالمؤن وللاهتمام بالإصلاحات التي تتطلبها إقامة طويلة في البحر. ولم يتوقعوا الاستقبال الذي تم في سيراكوز والذي سمح للإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن الغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدي هاميلتون على بلاط نابولي. وقد تسنى لنيلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر، لكن مملكة نابولي تعتبر في نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيادها، وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب في إيطاليا.

وفي أول أغسطس، في بداية ما بعد الظهيرة، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية. وبعد اجتماع مجلس حرب قصير، يقرر بروى التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة. ويمسك نيلسون بزمام المبادرة في العمليات، ويرى تركيز نيران سفنه، الموضوعة في المواقع الأنسب، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية. وعندئذ يلاحظ أنه يملك الموقع وخاصة العمق الكافي اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسي. ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين (٩٨). وجسارته تسمح له بالأ يقوم إلاّ باختبارات سريعة في منطقة لم يقم فيها البحارة الفرنسيون بأى شيء على مدار شهر.

وعند غروب الشمس، يتخذ الأسطول الإنجليزي تشكيله القتالي. والمدفعية الفرنسية على البر، جد البعيدة، لا يمكنها أن تطال الإنجليز. وعندئذ تبدأ المعركة. وبسرعة بالغة، ينهار رأس الصف الفرنسي تحت نيران السفن الإنجليزية المتلاحقة. ويبدى البحارة الفرنسيون شجاعة رائعة في ضراوة مقاومتهم للهجمات الإنجليزية، لكن الموقف يتدهور أكثر فأكثر. ويصاب بروى بجراح في بداية المعركة ويلقى حتفه على متن سفينة الأميرالية، في الساعة السابعة والنصف، حيث يتمزق فخذه. ومع اختفاء الأميرال، لا يوجد بعد من يصدر الأمر إلى فيلنيف، الذي يقود آخر الصف الفرنسي غير المشارك في المعركة، بالإقلاع والهجوم على السفن الإنجليزية.

ونحو الساعة التاسعة، ينشب حريق على متن السفينة لوريان، بينما يواصل البحارة القتال بضراوة. ونحو الساعة العاشرة، يأمر العميد البحري جانتوم بإخلاء السفينة، عندما يرى أن من المستحيل إغراق البارود. وبعد ذلك بربع ساعة، تنفجر أعظم سفينة حربية في ذلك العصر. ويعقب انفجار سفينة الأميرالية صمت طويل، ثم يجرى استئناف المعركة. وتدريجياً يضطر رأس الصف الفرنسي إلى الاستسلام.

وأخيراً، نحو ظهيرة اليوم التالي، يقرر فيلنيف (الذي سوف يهزم فيما بعد في الطرف الأغر)، والذي يقود المؤخرة الفرنسية، الاتجاه إلى أوروبا بالسفن التي ما تزال قادرة على الإبحار، تاركاً السفن غير القادرة على الإبحار، بالرغم من أنها لم تستسلم. وفي ٢ أغسطس فقط تستسلم السفن الفرنسية الأخيرة أو يتم إحراقها على أيدي أطقمها.

والخسائر الفرنسية جسيمة، فقد تم إغراق أو إحراق سفينتين عظيمتين وفرقاطتين، وسقطت تسع سفن في أيدي الإنجليز، بينما تمكنت سفينتان وفرقاطتان من الإفلات مع فيلنيف. وقتل أو غرق ألف وسبعمائة من البحارة الفرنسيين، وجرح ألف وخمسمائة، سقط ثلثاهما في الأسر. وكان الإنجليز قد أسروا ثلاثة آلاف، لكنهم أفرجوا عنهم، بسبب نقص مؤنهم، في ختام أيام قليلة، وذلك بشرط عدم المشاركة في بقية قوات الحملة. والحال أن موقف هؤلاء الأسرى السابقين الذين لا يريدون سوى العودة إلى فرنسا سوف يثير غضب ضباط القوات البرية وغضب كليبر (٩٩). وفي الأعوام التالية، سوف يتهم الإنجليز الفرنسيين على نحو منتظم بأنهم قد أخلفوا الوعد حول هذه المسألة.

وإذا كانت أية سفينة إنجليزية لم تغرق أو تحترق، فإن الجانب الأكبر من هذه السفن يشكو من إصابات بالغة، الأمر الذي يفسر العجز عن مطاردة فيلنيف. ويرتفع حجم خسائرها في الرجال إلى ٢١٨ قتيلا و ٦٧٧ جريحاً.

وفي الإسكندرية كما في رشيد، سمعت على مدار الليل أصوات دوي مدافع المعركة وشعر الناس برجة انفجار السفينة أوريان. ولا يتمكن كليبر إلا بعد ظهيرة اليوم التالي من إدراك حجم الكارثة الفرنسية، ويبلغ بونابارت بها.

وسوف يحمل هذا الأخير برويى، في تقريره إلى حكومة الإدارة، كامل المسئولية عن الهزيمة. فهو يذكر أن الأميرال قد خرج على طاعته بالبقاء في أبو قير بدلا من أن يذهب إلى الميناء القديم أو ينسحب إلى كورفو. والواقع أن ممرات الميناء القديم كانت جد خطيرة بالنسبة للسفن الفرنسية الضخمة ولم يصدر بونابارت قط أمراً واضحاً بالذهاب إلى كورفو، الذي يبدو علاوة على ذلك عسيراً بسبب نقص المياه ومؤن الأسطول (وإن كان فيلنيف قد تمكن من الوصول إلى مالطه). ودعماً لزعمه، يقدم القائد العام مقتطفات مزيفة من مراسلاته مع الأميرال. ثم إنه، ما إن يصبح قنصلا أول، سوف ينتزع من الأرشيفات العسكرية الوثائق الأكثر إساءة إليه وسوف يدخل تعديلات على وثائق أخرى(١٠٠).

ومن الواضح أن الأسباب الرئيسية للهزيمة الفرنسية إنما تكمن فى الموقع السئ الذى تمثله أبو قير – الموقع الوحيد الممكن بمجرد اتخاذ قرار بإبقاء الأسطول قرب الساحل المصرى – وفى النقص العددى وهزال تكوين البحارة، وهى أمور لم يك بإمكان أعمال البطولة الفردية العديدة أن تعوضها. ومن المرجح أن رسوا أكثر قربا من الساحل ما كان بوسعه أن يغير شيئاً من حيث الجوهر. والأسطول العاجز عن كسب معركة بحرية واسعة النطاق لا يملك حلاً سوى اللجوء إلى ميناء. ولما كان ميناء الإسكندرية غير آمن، فلم يبق هناك سوى كورفو. لكن بوناپارت اتخذ قراراً آخر.

إعادة تنظيم الانتشار الفرنسى

بعد المعركة، ينهمك كليبر بنشاط فى التصدى لهجوم عسكرى إنجليزى مباغت محتمل على الساحل وهو يحرك سلسلة كاملة من البطاريات لحماية الإسكندرية، ويرسل دوموى وطابوره المتحرك للتمركز فى أبو قير. وهو يكلف جانتوم بإعادة تنظيم البحارة الذين يتنقلون على المدينة. وهو يشكو من جهة أخرى من مسلكهم السيئ. ويجرى تدريجياً نقل البحارة إلى أشباه ألوية الجيش البرى أو أنهم يشكلون وحدة خاصة سوف تسمى بالفيلق البحرى. كما يتزعج كليبر فى هذه الظروف المضطربة من عدم تلقى تعليمات من القائد العام. وهو يفضل تكريس الأموال الهزيلة المتاحة له لتلبية احتياجات الجيش البرى بدلاً من تلبية احتياجات البحرية وذلك بالرغم من أوامر سابقة. ويبدو له أن الموقف يبرر هذا الانتهاك لتعليمات بوناپارت.

وفى ١٥ أغسطس فقط، فى لحظة يبدو فيها أن الأسطول الإنجليزى يريد اتخاذ مواقع لقصف المدينة، يتلقى رسالة من بوناپارت مؤرخة بتاريخ يوم معركة أبو قير نفسه. لمبررات احتجاز محمد كريم تؤكدها معلومات تم الحصول عليها فى القاهرة عن رياله، وهو ما يسمح بافتراض أن المندوب السابق لمراد بك له أعداء فى العاصمة. وعندئذ يتجه كليبر إلى إلقاء القبض على القارب محافظ الإسكندرية السابق. ويتعين على دوموى وطابوره التمركز فى الرحمانية بينما يتعين على كليبر سحب قوات من الإسكندرية للحفاظ على أبو قير. وفى الرحمانية، يتعين على دوموى أن يعهد بطابوره المتحرك إلى العميد بريب المكلف بالخروج لتأديب سكان دمنهور على سوء مسلكهم.

ويواصل مينو عمله التنظيمى فى رشيد ويهتم بتأمين الاتصال مع الداخل. وسعيا

إلى ذلك، فإنه لا يتردد في انتهاج سياسة إرهاب (لقد خدم مينو شأنه في ذلك شأن كليبر في الفانديه). وبيانه، الموزع في ١٢ أغسطس في الإقليم كله، حول تدمير قرية السالمية الواقعة على ضفاف النيل بيان واضح، «لقد كان سكان السالمية أشراراً ومتوحشين. إن عدداً منهم، وعلى رأسهم شيخهم الكريه سلامه وأكد، قد قتلوا، منذ شهر، ثمانية فرنسيين كنت قد أرسلتهم إلى القاهرة، لحمل رسائل إلى الجنرال بونابارت. وأمس، انتقلت إلى السالمية مع جنود فرنسيين؛ وأصدرت الأمر بقتل جميع المسلحين؛ وأمرت بمصادرة البهائم؛ كما أمرت بإحراق القرية، حتى تعرف مصر كلها لأي شيء يتعرض الناس إذا ما قتلوا فرنسيين...» (١٠١).

وفي ١٣ أغسطس، يعاود مخاطبة سكان القرية بمنحهم عفوه. ويقيل شيخ القرية ويصادر ممتلكاته. ويعين شيخاً آخر يبدو أنه كان قد جرد فيما سبق من هذه الوظيفة على يد الشيخ الذي تم نفيه. (١٠٢)

ومنذ ٥ أغسطس، كان قد أمر بنقل محمد كريم إلى القاهرة. ويبدي مينو منذ بداية قيادته خصاله كإداري، بالرغم من تظاهره بأنه يفضل العمل العسكري على الحياة في رشيد. هذا هو ما يكتب عنه، بأسلوبه المبالغ دائماً، إلى بيرتييه: «إن ما يهمني بشكل خاص، عزيزي الجنرال، هو ألا أترك طويلاً هنا؛ فأنت تعرف أنني أفضل مائة مرة أن أكون على رأس فرقتي بدلاً من الهرب في هذا المكان. لقد جئت إلى مصر طلباً للمجد، أو أن أقتل فيها، لا لكي أجمع المال منها» (١٠٣).

ويرد عليه بيرتييه بأن الوضع الذي خلقته معركة أبو قير يجعل وجود مينو في رشيد ضرورياً في الوقت الحالي (١٠٤).

وفي ١١ أغسطس، يوجه مينو دعوة إلى جميع مشايخ البلد لحضور اجتماع في ١٧ أغسطس. وهو يخبرهم بأن عليهم أن يمارسوا مهام الحكم بالقوانين وليس بالتعسف ويطلعهم على التنظيم الجديد للدائرة. (١٠٥)

ويترقب بريب دائماً دوموي للزحف على دمنهور، فهو لا يتمتع بقوات كافية، وخاصة الفرسان، لمواجهة البدو. والحال أن أعيان تلك المدينة، المنزعجين، يرسلون إليه رسائل ولاء لا يثق فيها. (١٠٦)

رحيل الإنجليز

يتأخر كليبر، بالرغم من تحذيرات محمد كريم، في إدراك الضرورة القصوى،

بالنسبة لبقاء الإسكندرية، والخاصة بمنع القرى القريبة من «استنزاف» القناة التى تربط المدينة بالنيل، خلال الفيضان. وينشغل الشيخ المسيرى باستئناف الاتصالات مع أعيان دمنهور. ويتم التوصل إلى تهدئة ويتعهد الأعيان بأن يقدموا، كما فى الماضى، الجياد والرجال الضروريين لتنظيف القناة وتشغيل الآلات الهيدروليكية. (١٠٧) ويتحمل الأمير إبراهيم الشوربجى المسئولية عن هذا العمل، وهو يتعهد بتسليم رهائن لضمان حسن سلوك دمنهور والقبائل المجاورة.

ويثق كليبر فى خطر هجوم إنجليزى على الإسكندرية. ويذكر له بونابارت مأثره الضامنة فى طولون، لكن الأسراسى يذكره بعدم كفاية للدفعية المتاحة فى الميناء المصرى(١٠٨). ويتزايد انزعاجه من جراء محاولة بريطانية رامية إلى حفز انتفاضة شعبية فى الإسكندرية، فى ١٧ أغسطس ١٧٩٨. وكان الإنجليز قد سعوا إلى الاتصال بالأعيان المعينين من جانب الفرنسيين عبر تجار مغاربة كانوا يقيمون فيما قبل فى الإسكندرية. ويسارع من يخاطبهم هذا البريد الخطر، وعلى رأسهم الشيخ المسيرى، إلى لقاء القائد الفرنسى بمجرد وصول الرسائل، ودون أن يفتحوها، يقومون بتسليمها إلى كليبر. «بعد قراءة الرسائل، سألت الشيخ ما إذا كان يعتقد أن من شأن النزول على مقترحات الانجليز أن يسهم فى هناء السكندريين، فأجابنى «إننى أبعد ما أكون عن تصور ذلك»، فمثل هذه الخيانة ليس من شأنها، على العكس من ذلك، غير أن تجر عليهم سلسلة طويلة من النوائب والكوارث. وأضاف إننى ليس هناك ما يدعونى إلى الخوف من حدوث شىء كهذا من جانبهم» (١٠٩).

والواقع أن نيلسون جد ضعيف فيما يتعلق بالهجوم على المواقع الفرنسية. فعليه قضاء خمسة عشر يوماً لإصلاح الأعطاب التى تسببت فيها المعركة. وهو يستقر فى جزيرة أبو قير الصغيرة. ويكتفى دومرى بمراقبته دون استفزازه. ويحاول الفرنسيون الحيلولة دون أى اتصال مع المصريين، بينما يمنع الإنجليز كل استخدام للطريق البحرى بين رشيد والإسكندرية، ويبدعون فى حصار الموانئ المصرية. وفى ١٣ أغسطس، يتلقى نيلسون تعزيزات، هى الفرقاطات التى افتقدها خلال بحثه عن أسطول العدو. ويأمر بالرحيل التدريجى للجانب الرئيسى من سفنه إلى غربى البحر المتوسط. ويغادر هو نفسه الضفة المصرية فى ١٩ أغسطس، تاركاً ست سفن، تحت قيادة القبطان هود لمراقبة الشواطئ البحرية المصرية. ثم يتجه إلى نابولى التى يصل إليها فى ٢٢ سبتمبر. ويجرى استقبال الأسطول بحماس من جانب السكان ثم يذهب هو نفسه إلى لقاء الليدى هاميلتون...

حواشى الفصل الثالث

١ – خلال زمن الإمبراطورية، لم يجرؤ سلفيستر دى ساسى على نشر هذا النص العربى فى كتابه *Chrestomathie arabe* ، «عند إعداد الطبعة الأولى للمختارات، طبعت الترجمة العربية لهذا النص فى المجلد الأول، وكنت خائفاً من اتهامى بسوء النية إذا ما وضعت تحت نظر الجمهور هذا البيان الذى يتفاخر فيه قائد الجيش الفرنسى بأنه قضى على البابا ؛ فالواقع أن ذلك الزمن كان هو الزمن الذى توصل فيه، وقد تبدلت مبادئه مع غايات طموحه، إلى عقد اتفاق مع الحبر الأعظم. ومن ثم فقد حذفت ورقة النص العربى التى كان موجوداً فيها واستبدلت به نصاً آخر. وقد رأيت أن من واجبى أن أعيد، فى هذه الطبعة الثانية، وضع هذا النص الذى يستحق، بما يتميز به من غرابة ومن أسلوب متعجرف ومثير للسخرية، أن يحفظ للأجيال القادمة».
SILVESTRE DE SACY, *Chrestomathie arabe*, Paris, 1827, III, pp. 368.

وللوقوف على تحليل للمعجم المستخدم وللفارق بين النصين الفرنسى والعربى، انظر دراسة عبد العزيز محمد الشناوى، صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ص ١٤ – ١٧.

٢ – فى ذلك الزمن، كان العلم الثلاثى الألوان يتألف عموماً من مُعَيَّن كبير أو مربع أبيض فى وسط العلم، بينما كان اللونان الأزرق والأحمر يتخذان فى الزوايا الأربعة توزيعات متباينة. (LA JONQUIÉRE, II, p. 63)

٣ – ينتهى المنشور العربى الموزع بعد الاستيلاء على الإسكندرية على النحو التالى : «تحريراً بمعسكر إسكندرية فى ١٣ شهر ميسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوى، يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٢ هجرية» (الأول من يوليو ١٧٩٨).

٤ – الشريف هو أحد أحفاد النبى. وهذا اللقب يتيح حق احترام معين يتميز بطابع دينى (ومن هنا العدد الكبير للأشراف فى الهيئات القضائية الدينية)، لكنه لا يشكل فى حد ذاته علامة من علامات الأرستقراطية. ونحن نجد أشرافاً فى جميع الفئات الاجتماعية المصرية فى الإمبراطورية العثمانية وهم يشكلون جماعة قوية، تمارس نفوذاً قوياً على عوام المدن. وسوف نرى فيما بعد أن محمد كريم يمكن النظر إليه بوصفه منشقاً على جماعته الاجتماعية.

٥ – Je préfère utiliser la graphie Bahireh, extrêmement courante dans les texte européens du temps plutôt que celle de Buhaira plus proche de l'original arabe. C'est la province occidentale de la Basse - Égypte, entre Alexandrie et le Nil.

٦ – Je me réfère ici le récit envoyé par le diwan du Caire à la Porte pour l'informer du débarquement des Français. Ce texte a été publié dans une translittération en turc moderne par Enver ZIYA KARAL dans son

Fransa - Misir ve Osmanli Imperatorlugu, 1797 - 1802. (France - Égypte et Empire Ottoman), Istanbul, 1938, pp. 160 - 163. Je remercie M. Nicolas VATIN de m'avoir fourni une traduction littérale de ce texte difficile.

٧ – Pour tout le détail des opérations militaires, je suis les analyses de La Jonquière. Ce dernier a bien démontré la modification de plan originel en raison du passage de Nelson, mais n'insiste pas suffisamment sur les implications concernant la marche sur le Caire.

٨ – محطة حمامات العجمي الآن.

٩ – CUOQ, op. cit. p. 23.

١٠ – انظر تقرير بيرتييه إلى حكومة الإدارة في ١٨ ميسيدور من العام السادس (٦ يوليو ١٧٩٨) : بعد فشل محاولة الدخول السلمي إلى الوادي، «توجب اتخاذ قرار بمهاجمة أولئك الذين كانت هناك رغبة في أن يكونوا أصدقاء» وعند الاستسلام، «جاء الأئمة والمشايخ والشريف إلينا، كأصدقاء، مؤكدين أنهم قد أخطأوا في فهم نوايا الفرنسيين» (LA JONQUIÉRE, II, pp. 42 - 49).

١١ – Ordre du 15 messidor (3 juilllet 1798), LA JONQUIÉRE, II, p. 64, voir aussi CUOQ, p. 23 : Jabarti compare la cocarde à un tournesol.

١٢ – فنسان (الهيئة التاريخية للجيش البري)، B6 4 ، تقرير للمواطن سوهيه، رئيس كتيبة الهندسة، حول أحداث يومي ١٢ و ١٤ ميسيدور من العام السادس. وهو يذكر : «إن البرابرة قد ضربوا بلا رحمة، من النوافذ، جنودنا أثناء مرورهم وانضباطهم إلى كبح الميل إلى الثأر». La série B 6 regroupe l'ensemble des archives concernant l'armée d'Orient.

١٣ – Texte dans LA JONQUIÉRE, II, pp. 65 - 66.

١٤ – توجد الشهادة الأصلية من الإسكندرية في «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر» الذي حققه وترجمه س. موريه تحت عنوان *Al Jabarti's chronicle of the first seven months of the French occupation of Egypt*, Leyde, 1975. ص ص ٤١ – ٤٣ من النص العربي وص ص ٦٨ – ٧٠ من الترجمة الإنجليزية. وهذا النص هو التحرير الأول لروايته من الاحتلال الفرنسي، والتي تعتبر معاصرة للأحداث من الناحية العملية، ومن هنا أهميته بالقياس إلى عجائب الآثار، الذي يرجع تحريره الأخير إلى ما بعد الحملة بعدة سنوات : «وعندهم رجل من الفقهاء المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري يلقي لهم الدروس ويقرر لهم فقه الإمام مالك ويظهر التزهد عما بأيديهم ويتورع عن الشبهات [...] فاجتمعت قلوبهم على محبته وعكفوا على طاعته بحيث صار مرجعهم في كل الأمور، فإذا دهمهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رأيه فيه [...] فإن أمرهم بأمر امتثلوه أو نهاهم عنه اجتنبوه، فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأدنى شخص منهم من غير وجه وأعلموه بذلك، أمرهم فيه بأمر بادروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بينهم».

أما نص عجائب الآثار في جزئه المتعلق بالحملة الفرنسية في مصر، فقد ترجمه جوزيف كوك، تحت العنوان غير الدقيق *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française*, Paris, 1979.

وبعيداً عن أن يكون نصاً كتب يوماً بيوم، فإنه قد عرف إعادات تحرير متتالية تتألف من عمليات حذف وإضافات مهمة أحياناً. وهناك نص متوسط بين المدة والنسخة النهائية [من عجائب الآثار]، معروف تحت عنوان: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس. وهو عمل كتب بناء على طلب الصدر الأعظم عند عودة العثمانيين في عام ١٨٠١. وهو يتميز بالرغبة في مراعاة جانب العثمانيين وفي تبرئة ساحة العلماء الذين، شأنهم في ذلك شأن الكاتب نفسه، كانوا قد تعاونوا مع النظام الفرنسي. وسوف أعطي الأولوية هنا لتاريخ المدة، الذي لم يستخدم حتى الآن إلا بدرجة قليلة والذي يعتبر أقرب من الأحداث ولعجائب الآثار الذي يقدم صورة ملطفة أكثر لما جرى. وبالنظر إلى تعدد طبعات هذا النص الأخير، فسوف أشير إلى اليوم والشهر سعياً إلى تبسيط الإحالات أو إلى ترجمة كوك الفرنسية عندما أستشهد بها على نحو مباشر.

Sur ces questions, voir Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans*..., essentiel pour la compréhension de l'œuvre de Jabarti et dont je m'inspire pour analyser le texte de Jabarti et Ismail K. POONAWALA, "The Evolution of Al Gabarti's Historical Thinking as reflected in the *Muzhir* and the *"Aja'ib"*, *Arabica*, 15, 1968. pp. 270 - 288.

١٥ – Acte de nomination dans La Jonquière, II, pp. 101 - 102.

١٦ – LA JONQUIÉRE qui cite Laugier, II, p. 66.

١٧ – SULKOWSKL, "Notes sur l'expédition d'Égypte", in- SKALKOWSKI, *Les Polonais en Égypte*, Paris, 1910, pp. 29 - 30.

١٨ – يرى لاجونكيير (II, pp. 103 - 104) اعتماداً على المعلومات التي قدمها المهندسون – الجغرافيون، أن اتخاذ طريق النيل لم يكن من شأنه تأخير بونابارت غير يومين أو ثلاثة أيام. لكن بونابارت لم يكن يحوز في تلك اللحظة هذه المعلومات، علاوة على أنه قد جرى تصوير طريق دمنهور له على أنه طريق سهل؛ ويشير سولكوفسكي إلى ذلك: «إن هذا الطريق أقصر من الطريق الآخر، ويبدو أن الوصول إليه يحتاج إلى مسيرة يوم؛ وقد قيل لنا إنه مأهول؛ وجرت الإشارة إلى أسماء المناطق المأهولة؛ والحق أنها توجد وسط هذه الصحراء، لكن ذلك ليس من شأنه إلا أن يجعلها أكثر بشاعة». Ibid, p. 30.

١٩ – Clot BEY, *Aperçu général sur l'Égypte*, Bruxelles, 1840, T. II. pp. 164 - 165. وهو يؤكد أن هذه الحكاية «صحيحة تماماً». والحال أنه لم يتمكن من سماعها من روزيتي نفسه الذي كان قد مات قبل وصوله. ومن المحتمل أن هذه الشهادة، التي اختلقت تماماً، إنما ترجع بالأحرى إلى مهمة روزيتي التالية لدى مراد بك.

٢٠ – JABARTI, nécrologie de l'année 1228.

٢١ – الجبرتي، المدة، النص العربي، ص ٤. في تتمة نصه، يرى الجبرتي في زعم مراد بك أمارات سوء نية جد كبير. فبالنسبة لكاتب الحوليات، يتلخص الأمر في أن الأمراء قد حولوا، لاستعمالهم الشخصي، الأموال المرصودة للدفاع عن مصر.

٢٢ – *Correspondance de Napoléon*, IV, p. 267. Rédigé à bord de l'Orient, le 12 messidor an VI (30 juin 1798).

٢٣ – Nicolas TURC, *Chronique d'Égypte, 1798 - 1840*, éditée et traduite par Gaston WIET, Le Caire, 1950, p. 19. إن نقولا الترك هو المصدر العربي الكبير الآخر حول الحملة الفرنسية في مصر. وهو كاثوليكي يوناني ولد في عام ١٧٦٣ في دير القمر في لبنان. وهو أحد أفضل ممثلي النهضة الأدبية العربية للكاثوليك اليونانيين. ولما كان شاعر بلاط بشير الثاني، أمير الجبل اللبناني، فإننا نملك ديوانًا شعريًا مهمًا له. وقد كانت له أسرة في دمياط، المركز الكبير للكاثوليك اليونانيين وقد زار مصر في عدة مناسبات. وفي عام ١٧٩٨، أرسله بشير الثاني إلى هذا البلد لكي يجمع معلومات عن عمل الفرنسيين الذين يدخل في اتصال معهم، خاصة مع المستشرق ج. ج. مارسيل. وهو يرجع في عام ١٨٠٤ إلى دير القمر ويموت في عام ١٨٢٨ بعد أن عاني من أمراض جعلته شبه عاجز على مدار عشر سنوات.

ونحن نملك نصين جد مختلفين أحدهما عن الآخر عن تاريخه للحملة الفرنسية، يحمل الأول عنوان «ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية»، ويحمل الثاني عنوان «مذكرات نقولا الترك». وقد نشر ديجرانج نص التملك في عام ١٨٣٩ وجرى دمجه في كتاب حوليات حيدر الشهابي (الذي كان قريبًا من نقولا الترك)، الذي نشره أسد رستم وفؤاد البستاني، وأعيد نشره عدة مرات منذ عام ١٩٣٢. أما نص المذكرات فقد نشر جزء منه على يد كاردان في عام ١٨٣٨ (تكملة لطبعته الأولى للجبرتي) ونشر كاملاً على يد جاستون ويت (انظر أعلاه). وتشير دراسة المخطوطات والمقارنة بين النصوص إلى أن التملك هو النص الأصلي الذي يرجح أنه قد كتب قبل عام ١٨١٠ في حين أن للمذكرات تنقيح سابق على عام ١٨٣٩، قام به شخص مجهول لابد أنه قد عاش في مصر في زمن الأحداث وكان، هو الآخر، قريبًا من الفرنسيين. ولا ندري إلى أي من الكاتبين يمكن رد الجزء التالي لعام ١٨٠١ في المذكرات. والدراسة الأساسية التي تتبع منها كل هذه التعديلات هي عمل Margarethe Elise WEYERGANG, *Niqula al Turk as a source on the French Occupation of Egypt*, Thesis for the Master of Arts Degree, Université Américaine du Caire, juin 1985.

٢٤ – إنني أتبع هنا النص الذي قدمه كارل للرسالة المرسلة إلى الباب العالي (pp. 160 - 163) ومصر أرض مقدسة من حيث إنها أرض إسلام ومن حيث إنها مجاورة للمدينتين المقدستين في الحجاز.

٢٥ – Nicolas TURC, pp. 19 - 20.

٢٦ – يتحدث نقولا الترك عن القلعة؛ ويشير سولكوفسكي بشكل واضح إلى أن فرنسيين آخرين قد وجدوا ملاذًا عند زوجة مراد بك (P. 44)؛ أما الجبرتي (المدة، ص ٤٩)، فهو يتحدث عن «بيوت الأمراء».

٢٧ – Bonaparte à Desaix, le 3 juillet 1798, LA JONQUIÉRE, T. II, p. 106.

٢٨ – إن العرب – البدو – بما أنهم قد تحركوا لتسليم الجياد والجمال التي كانوا ملزمين بتقديمها بموجب معاهدتهم في الإسكندرية، قد حصلوا على فتوى من العلماء ومن مشايخ القاهرة، تأمرهم باللجوء إلى السلاح للذود عن دين النبي، للجهاد من الكفار. وقد أعلنوا لمحمد كريم أنه بما أن دينهم قد تعرض للانتهاك، فإنهم يعتبرون المعاهدة كأن لم تكن» : NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte et de Syrie*, in *Correspondance de Napoléon Ier*, Tome XXIX, Oeuvres à Sainte - Hélène, Paris, 1869, p. 524.

٢٩ – «إن الطوابير الفرنسية المحاطة بالبدو، قد بدت كأساطيل تتبعها أسماك القرش حيث، كما كان الجندي يقول، «كانت الماريشالية هي التي تحافظ على الأمن». وكان هذا الحفاظ على الأمن قاسياً، لكنه كان يساعد على النظام، وقد تعود الجندي على ذلك». Ibid, p. 525.

٣٠ – La principale source pour les événements de Rosette est le livre de souvenirs tardifs de CHALBRAND, *Les Français en Égypte ou souvenirs des campagnes d'Égypte et de Syrie par un officier de l'expédition, recueillis et mis en ordre par J.J.E. Roy*, Tours, 1875, pp. 51 - 53.

٣١ – انظر المقتطف من يوميات لوجييه في LA JONQUIÉRE, II, pp. 123 - 127، «إن المصريين خوافون كما أنهم شحيحون؛ ولذا فإنهم لم يتجرأوا على عمل شيء لخدمة الفرنسيين، وذلك خوفاً من عودة المماليك، ولو ألهمهم بعمل أبسط شيء، فإنهم يعبرون عن أكثر أمنياتهم جسارة في أن ننتصر على المماليك. ولم تكن لديهم فكرة عن استعداد قواتنا لغرض الحرب، وفي هذا الصدد كان الفرنسيون المقيمون في رشيد يشاطرونهم خوفهم».

٣٢ – B6 4, du général Dugua du 21 messidor an VI (9 juillet 1798).

٣٣ – SKALKOWSKI, op. cit. p. 70.

٣٤ – *Voyage en Égypte et en Syrie*, publié avec une introduction et des notes par Jean Gaulmier, Paris - La Haye, 1959, p. 106.

٣٥ – Cité par CRECELIUS, *Roots of Modern Egypt...*, op. cit. p. 61.

٣٦ – *Campagne d'Égypte, Correspondance...*, op. cit., XXIX, p. 615.

٣٧ – Pour le nom de Shubrâkhit, je suis la graphie arabe de la carte de Jacotin dans la *Description de l'Égypte*. SHANAWI propose Shubrârît (op. cit. p. 24).

٣٨ – Colonel Roger MICHALON et chef de bataillon J. VERNET, *L'adaptation d'une armée française de la fin du XVIIIe siècle à un théâtre*

d'opérations proche - oriental, Colloque International d' Histoire Militaire, Téhéran, juillet 1976, Château de Vincennes, 1976, p. 9.

٢٩ – Voir l'article Infanterie du *Dictionnaire Napoléon*.

٤٠ – من هنا التسمية الشهيرة «الحمير والعلماء في الوسط».

٤١ – Le général Pelleport cité par Jacques BAINVILLE, *Bonaparte*, Paris, 1936, p. 32.

٤٢ – *Campagne d'Égypte*..., op. cit., pp. 534 - 535. Les Clichyens sont les royalistes et les constitutionnels battus au 18 fructidor.

٤٣ – Sulkowski, in SKALKOWSKI, op. cit. p. 72.

٤٤ – JABARTI, *Mudda*, 19 (texte arabe).

٤٥ – Ibid, pp. 20 - 21.

٤٦ – Voir l'étude de LA JONQUIÉRE, II, pp. 584 - 586.

٤٧ – LA JONQUIÉRE, II, p. 181. *L'Histoire Scientifique* reprend ce chiffre.

٤٨ – *Mudda*, p. 23.

٤٩ – *Correspondance de Napoléon Ier*, IV, p. 431. يلاحظ الجبرتي أن كلمات البيان محرفة وأن ألفاظه مهجورة (المدة، ص ٣٧)، وقد كتبه فنتور، «ولقد كان المستشرق الأول في أوروبا؛ وكان يتحدث دائماً بلباقة وبسهولة وبأسلوب من شأنه إحداث الأثر المطلوب». (Napoléon Ier, *Campagne d'Égypte*..., XXIX, p. 541).

٥٠ – Sur le Caire au XVIIIe siècle, voir l'ensemble des travaux de M. André RAYMOND et, en particulier "Le Caire sous les Ottomans, 1517 - 1798, in *Palais et maisons du Caire, II, époque Ottomane*, Paris, 1983, pp. 15 - 90 et *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Paris, 1985.

٥١ – LA JONQUIÉRE, II, p. 203.

٥٢ – LA JONQUIÉRE, II, p. 198.

٥٣ – Sur ce quartier, voir Doris BEHRENS - ABOUSEIF, *Azbakiyya and its environs from Azbak to Isma'il, 1476 - 1879*, Le Caire, I.F.A.O., 1985.

٥٤ – LA JONQUIÉRE, II, p. 208 et MASSON, *Napoléon et sa famille*, Paris, 1902, I, p. 236. لم تصل هذه الرسالة إلى المرسل إليه والحال أن جوزفين هي نفسها التي سوف تختار في نهاية الأمر المنزل الشهير «المالميزون» (MASSON, "La Malmaison

pendant le Consulat", in *Jadis*, Paris, 1905, I, p. 294). ويمكن للمرء أن يرى في هذه الرسالة إلى جونيف بشأن جوزفين تصويرًا رائعًا لـ «عقلية جونيف» تلك التي شخصها فوريه لدى نابليون (انظر أعلاه).

ونحن نجد الشعور نفسه لدى كثيرين آخرين من المسؤولين الفرنسيين، وهكذا، فإن القائد اللواء الجنرال دوماس يكتب، في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ إلى صديقه الحميم كليبر :

«لقد وصلنا أخيرًا إلى البلد الذي طالما اشتهيناه. فما أبعده حتى عما تصوره الخيال الأكثر اتزانًا. [...] إن حي المماليك وحده هو الحي الصالح للسكنى، ويسكن القائد العام في منزل جميل لأحد البكوات [...]. ولقد سكنا نحن كلنا في بيوت مهجورة وجد رديئة. [...]. ولقد تلقى الجنرال لانوس أمرًا بالتحرك لتولي قيادة فرقة مينو بدلاً من فيال الذي تحرك مع كتيبة إلى دمياط، وهو يؤكد لي أنه سوف يرفض تنفيذ الأمر» Vincennes, B6 4, copie certifée d'un original communiqué par M. Charavay.

٥٥ – يستخدم المؤرخون المصريون الحاليون عادة هذا المصطلح للإشارة إلى سياسة بونابرت خلال الحملة. كما يستخدمون مصطلح «السياسة «الإسلامية القومية».

٥٦ – NAPOLÉON Ier, *Campagne d'Égypte*..., T. XXIX, pp. 572 - 573. C'est lui - même qui cite Volney.

٥٧ – *Correspondance de Napoléon Ier*, IV, p. 359. J'ai ici modifié les transcriptions des éditeurs de la correspondance. يحدد الجبرتي عدد الأشخاص في الديوان بعشرة، ولا يحضر السادات الجلسة الأولى لأنه يريد الشفاء من الأذى النفسي الذي تعرض له (كان البدو قد اعتدوا عليه عندما حاول الهرب من القاهرة)، أما عمر مكرم فهو مع إبراهيم بك ولا يريد العودة بالرغم من عهد الأمان الذي أرسله إليه الفرنسيون، وأما الأمير فهو غائب عن القاهرة، وهذا أيضًا شأن محمد المهدي ومصطفى الصاوي ويوسف الشبراخيتي ومحمد الدواخلي. ولا يتحدث نقولا الترك إلا عن ثمانية علماء واثنين من التجار، إلا أن من الواضح أنه يشير إلى التركيب التالي للديوان. وتشير بطاقات الدعوة المرسلة إلى الأشخاص الغائبين إشارة واضحة إلى أننا بإزاء قائمة أعدت سلفًا من جانب فينتور دي بارادي بالتأكيد. ووفقًا لـ ج. ج. مارسيل، وهو شاهد من الدرجة الأولى، فإن فينتور قد تبع الحملة «بوصفه ترجمانًا أول للقائد العام، لكنه كان في الواقع بالأحرى وزيره الأول في كل ما يتعلق بالبلد وبسكان الشرق».

Supplément à toutes les biographies, Souvenir de quelques amis d'Égypte, Paris, 1834, p. 7.

٥٨ – SHANAWI, op. cit. pp. 30 - 31.

٥٩ – يوناني، أي رومي، ومن هنا لقبه بالعربية، فرط الرمان، على أن الجبرتي، في هذه الفترة، يسميه بالإفرنجي.

٦٠ – JABARTI, *Mudda*, pp. 29 - 30.

٦١ – LA JONQUIÉRE, II, pp. 283 - 284, et B 6 4.

La Correspondance de Napoléon (IV, p. 367), à la suite de la – ٦٢
Correspondance inédite, met une Correspondance entre Bonaparte et le diwan sur les réformes essentielles à faire. C'est une erreur chronologique, car il s'agit des questions posées au diwan général d'octobre 1798, voir infra:

B 6 5, le août 1798; c'est la seule trace conservée par les archives – ٦٣
d'activités du diwan du Caire dans cette période.

٦٤ – بونابرت إلى اللجنة الإدارية، ٢٨ يوليو ١٧٩٨ : «إن ما أرمي إليه، أيها المواطنون، ليس هو أن يكون الأمين فوق المفوض الفرنسي [فكل ما هنالك] هو أنني على ثقة من أنه يجب ترك المسؤولية كلها إلى الأقباط وإلى أن يتمكن الفرنسي من أن يكون أكثر دراية بمعاملات ولغة البلد. ويجب على الفرنسي أن يكون هناك فقط للوقوف على المعاملات المشار إليها وللإشراف وللتمكن من تقديم جميع المعلومات التي قد تكون مطلوبة. إنه أشبه ما يكون بمراقب».
Correspondance de Napoléon, IV, p. 380.

٦٥ – هذا هو ما سوف توضحه لهون كيث في مارس ١٨٠٠ : «لقد كانت هذه السيدة تحمل اسم الفرنسي نفسه. وقد حدثتني عن السمة التالية لشهامتهم. لقد جاء الشاب بوارنيه ليراها، وقدم لها سواراً جميلاً من الماس. والحال أن بونابارت، عندما رأى الجوهرة، أصدر قراراً بأن تدفع ضريبة قدرها ٥٠ كيساً [من الدراهم] أجبرت على سدادها». Public Record Office, Adm 402.

Histoire Scientifique, III, pp. 228 - 229. – ٦٦

Le texte ٥٦ سيدة أو فتاة واثنان من الخصيان LA JONQUIÉRE, II, 288 – ٦٧
est conservé dans B 6 6.

Histoire Scientifique, III, p. 132. – ٦٨

JABARTI, 12 safar 1213. – ٦٩

LA JONQUIÉRE, II, p. 291. – ٧٠

LA JONQUIÉRE, II, p. 335. – ٧١

Domminique حول التدابير، انظر LA JONQUIÉRE, II, pp. 327 - 332. – ٧٢
وحول CHEVALLIER ed., *L'espace social de la ville arabe*, Paris, 1979.
Domminique CHEVALLIER, *La ville arabe : notre* مشكلة المجال الاجتماعي، انظر
إنه «مجال يصوغه هيكل للمجتمع العربي، الذي تعتبر الجماعات *vision historique*, p. 11.
العائلية والقبلية، على أساس نظام قرابة أصلي، أساساً له، والذي يؤدي إلى انزواء وحجب البيوت والأحياء وجميع عناصر الشبكة الحضرية» وهكذا فإن التخطيط الحضري ينتج التماسك الداخلي للمجتمع؛ إن تدابير فتح الأحياء إنما تمثل عدواناً حقيقياً، جد اضطراري، من جانب الفرنسيين.

يبالغ بونابارت في معنى *Correspondance de Napoléon*, IV, 403. – ٧٣
سياسته، وهو يستلهم فولني مباشرة : «إن الباشا، على غرار السلطان، هو رئيس كل شرطة

حكومته؛ وتحت هذه الصفة، يجب أن نفهم القضاء الجنائي أيضاً. فهو يملك الحق المطلق تماماً على الحياة والموت؛ وهو يمارسه دون مراعاة للشكليات، ودون استئناف. وحيثما صادف جريمة، فإنه يأمر بإلقاء القبض على المتهم؛ ويتولى الجلادون الذين يرافقونه هنالك أو قطع رأسه فوراً».
Voyage..., p. 366.

٧٤ – LA JONQUIÉRE, II, pp. 305 - 306.

٧٥ – إن الجيش «ما إن عرف أنه سوف يغادر القاهرة، قد أخذ يعبر عن تذمرات. وقد اتخذ السخط لون عصيان وتآمر، لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين. وقد أرسلت الوحدات مندوبين عنها. وأخذ عدد من الجنرالات يتساءلون الأمور بينهم. فقد كان من الغريب أن يدور حديث، في عز القيظ، من إصدار أمر بتحريك القوات في صحراء بلا ماء، وتعريضها، دون ظل، لشمس الصيف الحارقة». NAPOLÉON I^er^, *Campagne*..., XXIX, pp. 543 - 544.

٧٦ – إن صالح بك هذا سوف يلجأ إلى القدس لكي يودع هناك مهمات الحج، وسوف يستقر بعد ذلك في غزة حيث يسقط مريضاً ويموت (الجبرتي، المدة). وفي مذكراته، يزعم رستم، مملوك نابوليون، الذي كان ينتمي إلى هذا الأمير، والذي رافق سيده إلى عكا، أن هذا الأخير قد جرى دس السم له من جانب الجزار وأنه مات بعد ذلك مباشرة، *Souvenirs de Roustam*, صحيفة لها introduction et notes de Pal COTTIN, Paris, s.d. pp. 40 - 41. لوكوربيه دو ليهيبيت. فهي تذكر في عدد ٣٠ فينديميير من العام السابع (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) «إن صالح بك، أمير الحج السابق، قد مات في القدس. وهناك تأكيدات بأنه قد جرى دس السم له سعياً إلى الاستحواذ على خزائنه». ويقدم نقولا الترك رواية أخرى :

«وحينما شاهدوه أهالي المدينة [القدس] بدوا يشتمون ويقولون : لعنكم الله يا ملاعين، ويا أظلم الظالمين، سلمتم مدينة الإسلام إلى الفرنساوية اللئام، وهربتم من وجه الكفار، وأبقيتم تخربوا هذه الديار. فلما سمع صالح بك تلك الشتايم المقمة والألفاظ المسمة، اتقدت بقلبه النيران وغاص في البحران. ونزل في منزله وهو مثل النشوان، ومرض جملة أيام من قهرة ثم توارى في قبره. وهكذا جرى إلى إبراهيم بيك ولمن معه لما حضروا إلى أراضي الشام؛ فكانوا يسمعون من الناس غليظ الكلام وقد ذاقوا المشقة والأتعاب وتقسوا الإهانة والعذاب، في البراري والقفار من الذل والإضرار، وكانوا لأهالي الشام يعيرونهم في الكلام، ويلومونهم وهم لا يستحقون الملام».
(WIET, pp. 29 - 30).

٧٧ – Voir sa correspondance avec les Français, Vincennes, B 6. 2. JABARTI (CUOQ, p. 45) minimise l'ampleur des restitutions.

٧٨ – LA JONQUIÉRE, II, p. 375.

٧٩ – NAPOLÉON I^er^, *Campagne d'Égypte*..., XXIX, p. 564.

٨٠ – B 6 6, Mouvements de la division aux ordres du général de brigade Lannes depuis le 19 thermidor jusqu' au 28 thermidor inclusivement.

٨١ – Textes dans LA JONQUIÉRE, II, pp. 380 - 381.

٨٢ – Sur Alexandrie durant l'été 1798, voir *Kléber et Bonaparte*.

٨٣ – B6 5 , Rapport de Dumuy du 3 thermidor an VI, 21 juillet 1798.

٨٤ – B6 15 ، سلسلة الشهادات المتعلقة بعبد الله بلشي : «لقد انتقل إلى معسكر العرب الذين يتمتع على العانهم بسطوة كبيرة شأنهم في ذلك شأن سكان رشيديين في مدن إقليم البحيرة، والذين تعاهد معهم – هؤلاء وأولئك – على حمل السلاح ضد الفرنسيين؛ وهناك تأكيدات في الوقت نفسه بأن هذا المغربي يقف على رأس تلك القوة من الجنود المسلمين التي تقوم الآن بأعمال قرصنة في البحيرة وتعترض سبل المواصلات وتنهمك في جميع التجاوزات ضد الفرنسيين».

٨٥ – *Kléber et Bonaparte*..., I, pp. 161 - 162. Sur Tallien, la réhabilitation du personnage par Marie - Hélène BOURQUIN, *Monsieur et Madame Tallien*, Paris, 1987. كان تاليان صديقاً لبونابارت (كان شاهداً على زواجه)، وبعد أن عرف فشلاً سياسياً إثر فشل سياسي، أخذ يطمع في التمكن من الاستفادة من صعود الفاتح.

٨٦ – Kélber à Bonaparte, le 13 thermidor (31 juillet 1798), *Kléber en Égypte*..., pp. 166 - 167.

٨٧ – *Journal des opérations du général Kléber pendant toute la durée du commandement qu'il exerça à Alexandrie*, in LA JONQUIÉRE,II, p. 234. L'intégralité de ce manuscrit a été publiée par la *Revue d'Égypte*, 1895, II, pp. 17 - 50, et pp. 31 - 111.

٨٨ – Menou à Bonaparte, le 27 messidor an VI, 15 juillet 1798, LA JONQUIÉRE, II, pp. 238 - 239 et B 6 4. على أن شخصاً يدعى عبد الله الشوربجي يشكو إليه من أنه وقع ضحية للمماليك مقدماً إليه رواية مشوشة عن عدم الإنصاف، ويطلب أن يأخذ الفرنسيون مصالحه في الحسبان (B6 2 ، دون تاريخ). والأرجح أن هذا الشخص هو [عبد الله] بدوي أغا (انظر أدناه).

٨٩ – B 6 2, Instruction pour le commandement égyptien de la ville de Rosette.

٩٠ – إن بدوي، الذي لابد وأنه كان نقيباً للأشراف، كان يحمل بالفعل رتبة شوربجي «عليه ميليشيا [أوجاق] الإنكشارية». (B 6 4, sans date mais mois de juillet, nomination de l'aga de Rosette).

٩١ – B6 2, sans date.

Ordre du 6 messidor an VI, 24 juin 1798, LA JONQUIÉRE, II, p. – ٩٢
25.

Menou à Bonaparte, le 28 messidor VI, 16 juillet, LA – ٩٣
JONQUIÉRE, II, p. 239.

Menou à Bonaparte, LA JONQUIÉRE, II, p. 239. – ٩٤

Al Kurayyim à Menou, B6 5, sans date, mais à bord d'un navire – ٩٥
français, extrait dans *Kléber en Égypte...*, I, pp. 168 - 169.

B6 4, lettres de al Kurayyim à Menou, textes arabes et – ٩٦
traductions.

Jaubert, ordonnateur en chef de l'armée navale, à Menou, le 18 – ٩٧
juillet, DOUIN, *La floue de Bonaparte...*, p. 99. C'est le livre indispensable sur cette question, je ne fais qu'en suivre la démonstration.

Pour le récit de la bataille, je suis essentiellement les analyses et – ٩٨
les nombreux documents cités par La Jonquiére.

٩٩ – كان كليبر قد عرف أيضاً اتفاق تسليم يلزمه أدبياً بعدم العودة إلى القتال خلال لحملة ماينس في بداية حروب الثورة، لكنه استأنف الخدمة على الفور مقاتلاً في الفانديه. وكانت السلطات الثورية قد رأت أن بنود الاتفاق لا تنسحب على الحرب الأهلية.

١٠٠ – تتفق تعليقات لاجونكيير وديوان تماماً بشأن التنكيلات التي قام بها بونابرت.

LA JONQUIÉRE, II, 453 et B6 5. Voir aussi pour cette affaire, – ١٠١
Histoire Scientifique, III, pp. 259 - 261. Vivant Denon assiste à la destruction du village et en fait un dessin à lueur de l'incendie *(Voyage dans la Basse et Haute - Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte*, Paris, 1802, p. 33.

B6 5. – ١٠٢

LA JONQUIÉRE, II, p. 452. – ١٠٣

Berthier à Menou, le 14 août 1798, B6 5. – ١٠٤

Proclamation de Menou, B6 5. – ١٠٥

Bribes à Menou, le 16 août 1798, B6 5. – ١٠٦

١٠٧ – Kléber à Bonaparte, le 20 août 1798, *Kléber en Égypte*..., I, p. 223.

١٠٨ – *Kléber en Égypte*..., I, p. 263.

١٠٩ – Kléber à Bonaparte, le 19 août 1798, Ibid, I, pp. 226 - 229.

الفصل الرابع

التعاون والمقاومة

محاولة الإغراء

حظ بونابارت

إن كارثة أبو قير بعد مرور نيلسون الأول بالإسكندرية، إنما تبدو لبونابارت بوصفها تجلياً مثلثياً جديداً من جانب القدر. لكن الحظ لم يفته، كما يوضح ذلك لحكومة الإدارة: «لقد شاءت الأقدار، في هذا الظرف كما في كثير من الظروف الأخرى، أن تثبت لنا أنها إذا كانت تمنحنا هيمنة عظمى على القارة (الأوروبية – المترجم)، فإنها قد وهبت إمبراطورية البحر لخصومنا (البريطانيين – المترجم). إلا أنه على الرغم من جسامة هذه النكسة، فإنها لا يمكن أن تُعزى إلى خيانة الحظ؛ وهو لم يخنا أصلاً؛ على العكس، لقد خدمنا في هذه العملية بأكثر مما فعل من قبل [... فقد كان الإنجليز غائبين لوقت طويل بما يكفي للسماح بالاستيلاء على مصر السفلى]. ولم يترك الحظ أسطولنا لقدره، إلا عندما أدرك أن كل محالفاته لنا بلا طائل» (١).

على أن هذا «الحظ» يحرمه الآن من أي أمل في العودة إلى أوروبا، وهي إمكانية لم يتخل عن التفكير فيها. وإذ يجد نفسه حبيس فتحه، فإنه يتعين عليه إنجازه ويعاود تأمل أحلامه في إنشاء إمبراطورية شرقية. وفي سانت – هيلين، سوف يروق له أن يحكي كيف أنه، في مواجهة فتور همة جنوده، جلجل لهم بهذا الخطاب: «حسناً، ها نحن ملزمون باجتراح أشياء عظيمة؛ وسوف نجترحها؛ إننا ملزمون بتأسيس إمبراطورية عظمى؛ وسوف نؤسسها. إن بحاراً، لا نهيمن عليها، تفصلنا عن الوطن؛ لكن أي بحر لا يفصلنا لا عن أفريقيا ولا عن آسيا. إن عددنا كبير، ولن يعوزنا رجال لاختيار كوادرنا. ولن تعوزنا ذخيرة حربية، فلدينا منها كثير؛ وعند الحاجة، سوف ينتجها لنا شامبي وكونتيه» (٢).

والواقع أن الحالة النفسية لجنود الثورة هي من الرهافة بحيث أن رد الفعل على

الهزيمة فى صفوف الجيش البرى يتميز على نحو خاص بالرغبة فى الثأر. والحق أن البحارة هم الذين هُزموا...

عيد وفاء النيل

عندما يصل بونابارت إلى العاصمة فى ١٥ أغسطس، يتخذ التدابير التى يحتمها تغير الوضع والمصاعب التى قوبلت فى الدلتا. والحال أن الاحتفال بسلسلة كاملة من الأعياد يبدو له وسيلة لتخفيف الأثر المعنوى على السكان المصريين لهزيمة أبو قير، التى يحاول من جهة أخرى التستر عليها لأطول وقت ممكن.

وفى مواجهة القاهرة، على جزيرة الروضة، يوجد مقياس النيل. وعندما يصل ارتفاع الماء إلى ستة عشر ذراعاً، يجرى فتح السد المقام عند مدخل القناة التى تربط النيل بالقاهرة وعندئذ يغمر الماء جزءاً من المدينة. وهذا العيد هو أحد الأعياد الرئيسية التى تحدد إيقاع حياة السكان القاهريين. ويحتفل به بونابارت بأقصى حد ممكن من البهارج فى الأول من فروكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس ١٧٩٨). والعدد الأول من الصحيفة الأولى المطبوعة فى مصر، لوكوربييه دو ليجيبت، يقدم وصفاً لما حدث: «فى الساعة السادسة صباحاً، حضر إلى المقياس القائد العام، يرافقه جميع الجنرالات وأركان حرب الجيش، وكتخدا الباشا والديوان والقاضى وآغا الأنكشارية. وقد اعتلى جمع غفير من الناس جميع الكثبان المتاخمة للنيل وللقناة.

«وشكل كل الأسطول الصغير المزين بالأعلام وجزء من الحامية المسلحة مشهداً بالغ العظمة وبالغ الجلال والحسن. وجرى استقبال وصول الموكب إلى المقياس بإطلاق عدة طلقات من المدافع. وعزفت الموسيقى، الفرنسية والعربية، عدة ألحان خلال عملية فتح السد.

«وبعد ذلك مباشرة، عبر النيل السد وتدفق كسيل فى القناة التى ينقل عبرها الخصوبة إلى ريف القاهرة.

«ونثر الجنرال عدة آلاف من الميدينات على الناس [...]. ثم عاد الموكب إلى ساحة الأزبكية، يتبعه جمع غفير من الناس الذين يتغنون بمدح النبى والجيش الفرنسى، لاعنين البكوات وطغيانهم. وقيل بلى لقد جئتم من أجل إنقاذنا بأمر الله الرحمن الرحيم؛ لقد حالفكم النصر وجاء لجمل فيضان للنيل منذ قرن، وهاتان نعمتان لا يقدر على الإنعام بهما سوى الله وحده» (٣).

ويرسم الجبرتي صورة للحدث أقل تفاؤلا بشكل واضح، فمما لا مـراءَ فيه أن الفرنسيين مرغمون حين يطلبون من الناس التنزه والاستمتاع في الوقت الذي يزيدون فيه الضرائب والأتاوات على سكان القاهرة. ثم إنه، فيما عدا القليل من البطالين (الصنايعة)، لم يشارك في الأفراح النهارية والليلية غير الإفرنج و الأقباط و النصارى الشوام .

مولد النبي

في اليوم نفسه ، يؤدي الرحيل السريع لوحدات فرنسية متجهة إلى تعزيز دفاع الساحل إلى تأكيد الشائعة التي تتحدث عن دمار للأسطول الفرنسي على أيدي الإنجليز، والتي تروج في القاهرة منذ بعض الوقت (٤). ويحظر الفرنسيون أي تعليق على هذا الموضوع، وبالرغم من تدخلات الديوان، يفرضون غرامات فادحة على كل مخالف. ويستفيد الجبرتي من الحادث لكي يتحدث عن تفوق الإنجليز البحري وتفوق الفرنسيين البري وكذلك عن رهان حملة مصر، السيطرة على الهند. (٥)

ويعرف بونابارت أن المشايخ لا ينوون تنظيم احتفال عام بالعيد السنوي لمولد النبي. ومن المرجح أن ذلك كان شكلا من أشكال الاحتجاج المعنوي. وعند سؤالهم، يجيب كبار رجال الدين بأنهم لا يحوزون الأموال الضرورية للاحتفال. وسعياً إلى تعزيز صورته كصديق للإسلام، يعطي القائد العام للشيخ البكري المبالغ الضرورية للمصابيح والفوانيس والمشاعل المعتادة. (٦)

ويستمر مولد النبي عدة أيام منذ ٢١ أغسطس. ويدهش الفرنسيون لعروض البهلوانات القصيرة والرقصات المنتشية التي يقوم بها أفراد الطرق الصوفية. وهذه الموسيقى تبدو لبيتريا باروكية غريبة. (٧)

ويشارك الجيش في الأفراح باستعراضات عسكرية وبحفلات موسيقية وألعاب نارية. ويستفيد بونابارت من الاحتفالات ليخلع على الشيخ البكري منصب نقيب الأشراف، حيث تكون له السلطة على جميع أشراف مصر. وكان حائز المنصب، عمر مكرم، قد لحق بإبراهيم بك في سوريا. وقد تم التنصيب في دار الشيخ. وفي المأدبة التي تتلو ذلك، يكابد الفرنسيون من الاضطرار إلى أن يأكلوا بأيديهم أصنافاً جد متبلة تعافها نفوسهم (٨).
ويجري طبع منشور بالعربية عن العيدين لتوزيعه في مصر وفي البلدان المجاورة. (٩)

وكل هذه الأعياد توحي للجنرال ديبوي، قائد موقع القاهرة، بملاحظات متفائلة: «إننا نخدع المصريين بتعلقنا الصوري بديانتهم التي لا يؤمن بها بوناپارت ولا نحن بأكثر من إيمانه أو إيماننا بديانة [البابا الكاثوليكي – المترجم] بي الراحل. [لأ أنه، ومهما كان رأي المرء في ذلك، فإن ذلك البلد سوف يصبح بالنسبة لفرنسا بلداً لا يقدر بثمن، وقبل أن يفيق [كذا] هذا الشعب الجاهل من غيبوبته، سوف يتاح الوقت لجميع الكولون لتدبير شئونهم. إننا نحل هنا محل مجرمين لم يتركوا للشعب غير ما يستر العورة، وسوف يشهد أيضاً تغيراً عظيماً حين نجعلهم يسهمون بشكل موحد. والحال أن فظاظة السكان تأخذ بالفعل في التحول إلى لطف. وتبدو رقتنا بالنسبة لهم غير عادية؛ وشيئاً فشيئاً سوف نجعلهم أقل فظاظة، وإن كنا سوف نضطر إلى كبحهم في ظل نظام قاسٍ حتى نبث قدراً من الخوف الضروري في نفوسهم، فمن شأن معاملة بعضهم من آن لآخر أن تبلغهم هذا الحد الذي يجب عليهم عدم تجاوزه» (١٠).

إنشاء المعهد المصري

هذا التفاؤل يعاود الظهور في قيام بوناپارت بإنشاء المعهد (المجمع العلمي) المصري، في ٥ فروكتيدور من العام السادس (٢٢ أغسطس ١٧٩٨). وهدف هذه المؤسسة يتطابق تماماً مع فلسفة الأيديولوجيين، فهو معهد «للعلوم والفنون»، يهدف إلى:

«١ – ترقية ونشر الأنوار في مصر؛

٢ – بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر؛

٣ – إبداء رأيه حول مختلف المسائل التي تستشيره فيها الحكومة».

وهو ينقسم إلى أربع شعب (الرياضيات، الفيزياء، الاقتصاد السياسي، الآداب والفنون)من اثني عشر عضواً. وسوف تعقد جلستان عموميتان كل عشرة أيام. ومن بين المذكرات التي تتلى في هذه الاجتماعات، سوف يجري نشر المذكرات التي تعتبر الأكثر أهمية؛ وأخيراً «سوف يقدم المعهد كل سنة جائزتين؛ الأولى لموضوع يتصل بتقدم الحضارة المصرية، والثانية لموضوع يتصل بتقدم الصناعة»(١١).

ويجري تعيين ستة وثلاثين عضواً للمعهد. وهم أهم شخصيات لجنة العلوم والفنون. والحال أن الأوقات الأولى لإقامة العلماء لم تك جد سعيدة وذلك بسبب الضرورات

العسكرية التى دفعت المسئولين إلى مراعاة الأمور الأكثر إلحاحاً وإهمال الكوادر المدنية. وكان العلماء قد تركوا فى البداية لشأنهم فى الإسكندرية ورشيد أو أنهم قد رافقوا الأسطول الصغير على النيل، الأمر الذى عاد عليهم بمحن معارك أكثر قسوة من محن الجيش البرى. وبوجه عام فإن رواتبهم لم تك تدفع. وقد قدم بعضهم مثل كونتيه فى الإسكندرية خدمات جد نافعة لسلاح المهندسين ولسلاح المدفعية. وتجمعهم فى القاهرة وإنشاء للمعهد يشيران بوضوح إلى أن الاستقرار يبدو الآن مؤكداً بشكل راسخ. (١٢)

وتعقد الجلسة الأولى فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨. ويجرى انتخاب مونج رئيساً، وبونابارت نائباً للرئيس وفورييه أميناً دائماً. وينشر تقرير عن عمل الجلسة فى العدد الأول من صحيفة للمعهد، لاديكاد ايجيبسيان. والمسائل الواردة فى جدول الأعمال هى بالدرجة الأولى مسائل عملية: تحسين الأفران التى يستخدمها الجيش، إيجاد بديل لحشيشة الدينار فى صنع البيرة، تنقية مياه النيل، الاختيار بين طواحين الهواء أو طواحين الماء فى القاهرة، موارد إنتاج البارود. ولكن المشروع التمدينى ماثل أيضاً «ما هى فى مصر حالة القضاء، والنظام القضائى المدنى والجنائى، والتعليم ؟ ما هى التحسينات الممكنة فى هذه المجالات، والمرغوب فيها من جانب أهل البلد ؟».

وسوف تكون تلك هى الأسئلة المطروحة على ديوان القاهرة. ومن جهة أخرى، فإن عدداً من أعضاء المعهد سوف يتولون مهام موفدين إلى الديوان. والحال أن رئيس تحرير الصحيفة، وهو تاليان على الأرجح، يختتم هذا العدد باستدعاء الفكرة الأيديولوجية الرئيسية المهيمنة على الحملة:

«إن أوروبا المثقفة لا يمكنها أن تنظر بلا مبالاة إلى قوة العلوم المطبقة على بلد أعادتها إليه الحكمة المسلحة وحب الإنسانية، بعد أن نقلتها منه لزمن طويل روح البربرية والهوس الدينى». (١٢ مكرر)

لوكورييه دو ليجيبت

فى ٢٩ أغسطس، يستكمل بونابارت العدة بإصدار صحيفة خاصة بالجيش، هى لوكورييه دو ليجيبت. وهى تواصل تقاليد صحيفتى حملة إيطاليا، لوكورييه ديتالى و لافرانس فو دو لارمييه ديتالى. ويتوجب عليها أن تكون أداة دعاية وسط جيش يشعر بالفعل بأن وجوده فى مصر هو نفى لا يستحقه. وفى البداية يتحمل مسئولية النشر شخص مستقل، هو مارك أوريل، وهو صديق للقائد العام منذ إقامته فى أثينس قبل

الثورة. والمحرران لهما غير فينتور دو بارادى وسكرتير بونابارت، بوريان. والصحيفة صحيفة رسمية تقدم المعلومات بما يتمشى مع آراء القائد العام (١٣).

وهكذا، يجرى التذكير بمسلك برويى البطولى فى أبو قير، حتى يتسنى بعد ذلك على نحو أفضل إلقاء مسئولية الهزيمة على كاهله (١٤). ويجرى الحديث عن النجاحات الباهرة للانتفاضة الأيرلندية ضد السيطرة الإنجليزية (١٥). ويجرى اختراع رسالة منسوبة إلى بحار إنجليزى مرسلة إلى عضو فى البرلمان واستولت عليها سفينة مالطية من سفينة إنجليزية وأرسلت إلى مصر عن طريق تونس؛ حيث يجرى التهوين من شأن الانتصار الإنجليزى فى أبو قير بينما يجرى الادعاء بأن فتح مصر قد جعل من البحر المتوسط بحيرة فرنسية بل وربما أكثر من ذلك.

«لقد أصبحت مصر بشكل حاسم تحت هيمنة الفرنسيين، الذين يمكنهم فى غضون خمسين يوماً تلقى الرد على رسائلهم المرسلة إلى الهند. إنهم سوف يعززون أمل أنصارهم، ويستثيرون سخط أعدائهم؛ وسوف يحتلبون كل التجارة عبر السويس. ولكن ماذا أقول ؟ من يدرى الآن أين هم بالفعل ؟ ولماذا لا يصنع هذا الجيش الذى اجتاز الألب الجوليانية والسوداء، وهى طريق غير معروفة فى التاريخ الحديث، لكى ينقض على قلب الدنيا، ما صنعه المقدونيون والرومان ؟ وإذا ما وصل مجرد ظل هذا الجيش، غير المقهور حتى الآن، إلى هناك، فما هو مصير القوة الإنجليزية... إنها ستصبح أثراً بعد عين» (١٦).

بونابارت والأعيان

فى الأول من سبتمبر، يجرى تعيين مصطفى كتخدا («وكيل») الباشا، المسئول العثمانى الكبير الوحيد الذى اختار البقاء، أميراً للحج مسئولاً عن القافلة (المحمل) التى تحمل كسوة الكعبة، حرم مكة (١٧). ويتعهد بونابارت بتأمين الأموال اللازمة لمجمل استعدادات قافلة العام التالى.

وفى اليوم نفسه، يجد مشايخ الديوان أخيراً استجابة لطلباتهم المتكررة حول الأتعاب المتصلة بوظائفهم. وهم يندهشون إذ يعرفون أنهم سوف يحصلون على راتب منتظم وليس، كما هى العادة العثمانية، على حقوق ضريبية. وهذه البدعة تستتبع خسارة ملحوظة للدخل قياساً إلى النظام القديم. (١٨)

ثم إن الفرنسيين يطلبون مقدمات (حلوان) من إيرادات الالتزامات أكثر أهمية من تلك التي أرتأها التنظيم العثماني الذي ما يزال سارى للمفعول من الناحية النظرية. وهم يعدون بأخذ ذلك في الحسبان عند تسوية الحساب الإجمالي القائمة على تسجيل مجمل الحقوق الضريبية. وهذا الإجراء يمس بوجه خاص للمشايخ الذين يشكلون الفئة الأهم بين حائزي الالتزامات، منذ مصادرة التزامات للمماليك. على أن بعض أعضاء الديوان يتمكنون من الاستفادة من وظائفهم للاستيلاء على ممتلكات تخص للمماليك أو لتقاضي أموال لقاء توسطاتهم لدى الفرنسيين. والحال أن نساء المماليك سوف يكن ضحايا بشكل خاص لهذه التصرفات.

ويرجع ذلك إلى أن الفرنسيين قد قرروا الإبقاء على النظام الضريبي القائم. فلم تك لديهم بعد غير أفكار مشوشة عن تنظيم الإيرادات الضريبية وتوزيعها الجغرافي. لكنهم قد أصبحوا ملاكاً للالتزامات المملوكية وهم يستغلونها بشكل عام [١٩]. وبما أن خزانة الجيش تشكو بشكل دائم من نقص الأموال، فإنهم يجبون، في الأرياف، رسوماً إضافية يعدون بخصمها من إجمالي الضريبة العقارية. والحال أن الأقباط، وهم الوكلاء المعتادون للإدارة الضريبية، هم الذين يتولون جباية هذه الضرائب. وهم يبدون متشددين بشكل خاص، فلا يترددون أمام الاستخدام للتواصل للتهديد باستدعاء الجنود الفرنسيين [٢٠]. والحق أن للمصريين قد تأكدت سمعتهم على مدار القرون بأنهم لا يدفعون ضرائبهم إلا بعد استخدام القوة.

وفي ٦ سبتمبر، يجرى إعدام محمد كريم. وكان بونابارت على ثقة من خيانته، وقد تردد لحظة قبل إدانته. وكان العفو عنه يتوقف بشكل وثيق على الهموم المالية للفرنسيين. وكان هؤلاء الأخيرون قد بحثوا بلا جدوى، بما في ذلك في خزانات الإسكندرية، عن كنوز الشريف التي تقدرها الشائعات العامة بأنها بالغة الأهمية. ولما لم يجدوا شيئاً له قيمته، فإنهم يقررون أن يدعوا له إمكانية افتداء حياته. ويوجه الشريف التماساته إلى العلماء، المعادين له من جهة أخرى، ولمحمد المحروقي، كبير التجار. وكلهم مهتمون بما يكفي بمجاملتهم الشخصية ويرفضون مساعدته. وعندئذ يجرى إعدام محمد كريم رمياً بالرصاص على الملأ وقطع رأس جثته. ويرى الجبرتي في ذلك عقاباً يستحقه لعجرفته ورغبته في الاستعلاء. [٢١] لكن كريم يصبح بالنسبة لسكان القاهرة، خلافاً لذلك، شهيداً من شهداء الإسلام.

كما أنه لا غرابة فى أن يتهيأ أعضاء الديوان للمعارضة. وفى يوم إعلام كريم ذلك، يدعوهم بونابارت إلى الاجتماع (٢٣). وهو يريد أن يفرض على رئيس الديوان، الشيخ الشرقاوى، ارتداء وشاح أو شال ثلاثى الألوان. وهذا الأخير يرمى به إلى الأرض. ويعبر بونابارت عن استيائه بينما يطلب المشايخ مهلة للتفكير قبل ارتداء الشارة. ويجد الشيخ السادات نفسه هدفاً لمحاولة إغراء حقيقية (فالقائد العام يتبسط إلى أبعد حد فى التعامل معه ويقدم إليه هدايا ثمينة) لكنه ينزع شارته بمجرد خروجه من الاجتماع مع الفرنسيين. وبصورة مؤقتة، يجد السكان أنفسهم ملزمين بارتداء هذه الشارة، لكن ذلك سرعان ما يقتصر على الأعيان. وأخيراً، وبسبب تطور الأحداث، تسقط هذه القاعدة فى هوة النسيان. فغالبية المسلمين يرون فيها رمز انحطاط جديد لوضعهم (٢٤). وينظر البعض، بموجب مقولات الشريعة، إلى فعلة ارتداء الشارة على أنها مجرد مكروه، وإن كانت لا تستحق عقاباً؛ ومن ثم، فإنهم يرتدونها لتفادى المنغصات (٢٥).

وتشير صحيفة الكورييه دو ليجيبت إلى الحدث مستحضرة ذكرى «المأسوف عليه كاميل ديمولان الذى كان قد أعلن فى ١٢ يوليو ١٧٨٩ أن: «الشارة الثلاثية الألوان سوف تعم العالم»؛ وبسبب انزعاجات سكان القاهرة، توجه بونابارت إلى الديوان والأعيان، «لقد استمع إلى اعتراضاتهم؛ وانتقدها على نحو مفيد؛ بل إنه قد دخل فى هذا الصدد فى مناقشات فقهية أدهشت بل وأقنعت الأتراك. وهكذا بعد انزعاجات الرجال الذين استولت عليهم الوساوس، وبعد اجتماعين جد طويلين جاء أعضاء الديوان إليه مرتدين الشارة الثلاثية الألوان، وأكدوا أن جميع سكان مصر سوف يرتدونها فى أقرب وقت ممكن». (٢٦)

بل إن الفاتح الشاب يفكر فى إحدى اللحظات فى ارتداء الملبس الشرقى لكى يظهر به أمام الديوان ويجعله يرى أنه لا يتردد فى تبنى ما يميز الطرف الآخر. لكن تاليان ينجح فى إقناعه بأنه سوف يكون مضحكاً إلى أبعد حد ويتخلى عن الفكرة. (٢٧)

ويشكر بونابارت المسيرى على حسن سلوكه فى القاهرة. ويكلف مارمون بإبلاغه «إننى أعقد ثلاثة أو أربعة اجتماعات كل عشرة أيام مع الأئمة وأشراف القاهرة الرئيسيين وإن أحداً لا يفوقنى إيماناً بطهارة وقدسية الديانة المحمدية» (٢٨).

ثم إن رسالته إلى الشيخ أكثر وضوحاً: «إنك تعرف الاحترام الخاص الذى تكون لدىَّ نحوك فى اللحظة الأولى التى التقيت بك فيها؛ وأرجوك ألاَّ تتأخر اللحظة التى يتسنى لى

فيها جمع كل الرجال الحكماء والمثقفين فى البلاد، وإقامة نظام متسق، قائم على مبادئ القرآن، وهى المبادئ الصحيحة الوحيدة، والقادرة وحدها على تحقيق سعادة البشر» (٢٩).

وقد فرض الإنجليز حصارهم على سواحل البحر المتوسط، لكنهم لا يوجدون بعد فى البحر الأحمر. ويعلق بونابارت الكثير من الآمال على العلاقات مع شريف مكة الذى يتحمل المسئولية أيضاً عن إدارة المدينتين المقدستين. وفى ٢٥ و ٢٧ أغسطس، يتوجه إليه بالخطاب لطمأنته على نواياه السلمية وعلى رغبته فى الحفاظ على قافلة الحج وتزويد الحجاز بالمؤن وعلى الأوقاف الخيرية التى تعمل فى مصر من أجل رعاية الأماكن المقدسة. «إننا أصدقاء للمسلمين ولديانة النبى، ونحن نود عمل كل ما من شأنه أن يرضيكم وأن نكون مفيدين للدين» (٣٠).

ويضيف بونابارت إلى هذه الرسائل رسالة طويلة إلى ديوان القاهرة، هى نوع من منشور معمم مطبوع بالعربية يهدف إلى نشر الأفكار الرئيسية للدعاية الفرنسية. ويجرى توزيعها فى البلدان المجاورة لمصر. وهى تذكر جميع الأحداث منذ نزول الفرنسيين: فهؤلاء لم يجيئوا إلاّ لمحاربة المماليك؛ وهم حلفاء السلطان؛ ويحترمون الدين الإسلامى؛ وقد قضوا على البابا وأخوية فرسان مالطه، العدو الأزلى للإسلام ويحرصون على إرسال قافلة (الحج) التالية. (٣١)

ومنذ ٢٢ أغسطس، كتب بونابارت إلى الصدر الأعظم فى القسطنطينية، طالباً إليه تقديم إيضاحات تاليران الذى من المفترض وصوله إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية كرسول. وإذا لم يك هذا الأخير قد وصل إلى عاصمة الإمبراطورية، فإن بونابارت مستعد لأن يرسل هو نفسه رسولاً إلى الباب العالى. إن الفرنسيين والعثمانيين لهم عدو مشترك، المماليك. ومن ثم فإن عليهم التوصل إلى تفاهم متبادل. (٣٢)

وقد وجهت رسائل أخرى ذات طابع مماثل إلى والى مصر الموجود فى المنفى لحثه على العودة، وإلى باشا دمشق، للإعراب له عن صداقة الفرنسيين ورغبتهم فى العيش فى سلام (٣٣). وبشكل خاص، يسعى بونابارت إلى الاتصال بأقوى شخصية فى المنطقة، أحمد باشا الجزار.

بعثة بوفوازان

فى ٥ فروكتيدور (٢٢ أغسطس)، كلف بونابارت قائد الأسطول النهرى، والمفوض

لدى ديوان القاهرة، بوشوازان، بالذهاب إلى سيد عكا، حاملا رسالة من بونابارت تتضمن التأكيدات المعتادة التي تتميز بها دعايته حول نوايا الفرنسيين السلمية. كما كلفه بتكذيب الشائعات الخاصة باعتزام الفرنسيين الزحف على القدس، حيث راجت شائعة بذلك في سوريا، وطمأنة الباشا على رغبة الجنرال الفرنسي في امتداره صديقاً. (٣٤)

ويبحر الرسول الفرنسي من دمياط في ٣٠ أغسطس على متن سفينة تنتمي إلى الجزار. ويقبل القبطان التستر عليه خلال اعتراض السفن الإنجليزية التي تمارس حصار الساحل المصري. وفي يافا، تحظر السلطات نزوله إلى البر وتبلغه بأن الجزار قد حصل على قيادة جميع الولايات السورية. وهو يصل أخيراً إلى عكا في ١٨ فروكتيدور (٤ سبتمبر ١٧٩٨). وهناك أيضاً، يجرى منعه من النزول. ويهدده سكان وجنود عكا بسوء المصير. ويأمر الباشا بإبلاغ بوشوازان بأنه لا يستطيع مقابلته بسبب وجود رسل عثمانيين وبأنه «سوف يلتقي به كما سوف يلتقي بي أكان ذلك في غزة، أم في الصحراء، وأخيراً في القاهرة الكبرى إلى الحد الذي يمكنه اللحاق بنا عنده. وقد جرى ترديد هذا التبجح على مسامعي [...] أكثر من عشر مرات، حتى لا أنساه».

وأمام هذه التهديدات، لا يملك الفرنسي إلاّ أن يعجل بعودته إلى مصر التي يصل إليها في ٧ سبتمبر (٣٥).

وكان بوشوازان قد أخذ معه تاجرين مسيحيين من المؤكد أنهما من الكاثوليك اليونانيين. وقد أمرهما الجزار بالنزول إلى البر وأمر بحبسهما. ووفقاً لحيدر شهاب ونقولا الترك، فإن قبطان السفينة عندما تحدث عنهما مع الباشا قد قدمهما على أنهما «نصارى من أبناء العرب». وهذه واحدة من الحالات النادرة التي نجد فيها ذكر مصطلح «العرب» بمفهوم جد جماعي في نص عربي في ذلك العصر. وهذه الإحالة إلى العروبة، بالشكل الكلاسيكي تماماً عن طريق النسب والأصل، إنما يكتسب ملاءمته عندما يساعد على تمييز مسيحيي الشرق عن مسيحيي الغرب. لكن ذلك لا يؤثر ساعتها على الجزار الذي يأمر بإعدامهما بعد وقت قصير من ذلك. (٣٦)

وهكذا فإن الجزار، بتأكيداته المتشددة كما بمسلكه الذي يحظر أي اتصال مع الفرنسيين الموجودين في مصر، إنما يشير إلى عزمه على عدم الاعتراف بالوجود الفرنسي وتحريك المقاومة المضادة لأهدافه التوسعية. والحال أن الرجل الذي يمثل في نظر الفرنسيين منذ وقت طويل التجسيد الأكمل والأكثر دموية لاستبداد الشرقيين العسكري،

إنما يصبح فى نظر السكان المسلمين السوريين وفى نظر مجمل مسلمى الإمبراطورية العثمانية بشكل أعم بطل الإسلام الذى يتصدى للثوار الفرنسيين. ويضطر بونابارت إلى مراعاة ذلك ويفكر بالفعل فى حملة على سوريا للقضاء على هذا الخطر. وهو يطمح الآن مع ذلك إلى كسب ولاء الجزار ويتصرف على أية حال كما لو أن هذا الأخير قد أصبح صديقاً للفرنسيين.[٣٧] وهو يختار رسولاً جديداً للذهاب إلى باشا حلب. وهذا الرسول هو ميلى دو شلتوونو، وهو ابن نائب فى الجمعية التأسيسية وفى المؤتمر. ويجرى رميه فى السجن عند وصوله إلى اللاذقية وسوف يجرى إعدامه بأمر من الجزار خلال الحملة على سوريا (٣٨).

حصار مصر وتزايد الضغط الضريبي

إن الخطر جدى بقدر ما أن المؤشرات على تشدد عثمانى تتزايد منذ بداية سبتمبر. وهكذا فإن سفينة تجارية تنتمى إلى أحد سكان دمياط تصل إلى هذا الميناء قادمة من قارس بعد تفادى الحصار الإنجليزى. ويشير استجواب رجالها إلى سخط مسلمى الإمبراطورية العام المترتب على ضياع أرض من أراضى الإسلام جد قريبة من المدن المقدسة وإلى ضرورة أن يبدو السلطان حازماً فى هذه المسألة حتى لا يجرى اتهامه بالتواطؤ مع الفرنسيين وإلى ضرورة فرض حظر عام على جميع الصلات مع مصر وهو ما يعزز الحصار الإنجليزى(٣٩).

وتصل معلومات من جميع الجهات حول تدابير إلقاء القبض على القناصل والتجار الفرنسيين فى ثغور شرقى البحر المتوسط. وفى ١٢ سبتمبر ١٧٩٨، يحتج بونابارت لدى باشا حلب ويرجع هذه التدابير (٤٠) إلى سوء تفاهم مؤقت. وهو يأمر بتوزيع بياناته بالعربية فى جميع الأراضى العثمانية المجاورة (٤١).

وتسمح التدابير العثمانية الأولية بالاعتقاد بأن حرباً مع الباب العالى وليس مع الجزار باشا وحده قد أصبحت واردة. وفى التو والحال، لا يمكن للعزلة التجارية التى تجد مصر نفسها فيها إلاّ أن تؤدى إلى زيادة مشاكل الوضع المالى للحملة. ولا يتسنى للمسئولين الفرنسيين الأمل فى دخولٍ مترتبة على الرسوم الجمركية، التى تعتبر أحد المصادر الرئيسية لإيرادات الدولة. وهم يضطرون إلى زيادة الضغط الضريبى على السكان ومن ثم مواصلة «المظالم» التى اقترفها أسلافهم المماليك. وشأنهم فى ذلك شأن العثمانيين فى عام ١٧٨٧، فإن السكان المصريين سوف ينظرون إليهم على أنهم مناظلون.

وتمر هذه الزيادة للضغط الضريبي عبر إعادة تنظيم الشبكة التجارية والضريبية المصرية، ففي ١٠ سبتمبر ١٧٩٨، ينشئ بونابارت محكمة تجارية في القاهرة وفي الإسكندرية وفي رشيد وفي دمياط. وأعضاء هذه المحكمة تجار يمارسون وظائفهم بلا مقابل. وتجرى تغطية النفقات عبر رسم قضائي نسبته المئوية ٢ في كل مائة من المبالغ المتحصلة من الأحكام (٤٢).

أمّا الإجراء الأفدح من حيث النتائج فهو إنشاء مكتب لتسجيل الممتلكات. ومهمته هي التحقق مما يخص المماليك ومن ثم الجمهورية ومما يخص الأفراد. ويتوجب على هؤلاء الأخيرين إثبات ملكيتهم بحجة. ويجرى فرض ضرائب على جميع حالات نقل الحيازة. كما يجرى فرض ضرائب على جميع الأوراق الشرعية كصكوك الزواج والتوصية، بما يعني إدخال الإدارة الفرنسية إلى داخل خصوصيات الأسر نفسها. ويتعين على جميع التجار الحصول على رخصة.. إلخ. و باختصار، فإنه يجرى دفعة واحدة تطبيق النظام الفرنسي الخاص بالضرائب غير المباشرة والأوراق المدموغة، حيث يتعين عمل كل شئ في غضون شهرين. ويجرى إنشاء إدارة لضريبة التسجيل ولإدارة الممتلكات من أجل إدارة كل هذه الضرائب والممتلكات العامة. ومن آخرين، يتولى قيادتها تاليان وباليانو وملطي ومصطفى أفندي (٤٣). ويسمح التطبيق الفوري لهذه الترتيبات بالأمل في عوائد مالية مهمة والتخلص من الضرائب غير العادية الباهظة التي تم اللجوء إليها منذ دخول القاهرة مع إقامة إدارة من النمط الأوروبي (٤٤).

انزعاج السكان

بالنسبة للمصريين، يشكل مجموع هذه التدابير كارثة حقيقية. إن للمحكمة التجارية في القاهرة تعطي مساواة عددية للمسيحيين والمسلمين (ستة مسلمين وستة أقباط)، والذي يرأسها قبطي، هو ملطي، بينما يمتد مجال اختصاصها إلى شئون الميراث والشكاوى الرسمية. وبعبارة أخرى، فإن للمحكمة لها صلاحيات في مجال الأحوال الشخصية، أحد المجالات الأكثر أساسية للشريعة الإسلامية. وينظر الجبرتي إليها باستياء على أن لها «قواعد من الخبث وأساساً من الكفر ودعايم من الظلم وأركاناً من البدع السيئة».

أما الوثائق المقدمة لإثبات ملكية للممتلكات فلا يُنظر إليها البتة على أنها جديرة بالاعتبار ولا يستطيع عدد كبير من الملاك إثبات حقوقهم بالرغم من شهادة الشهود (تولى الشريعة الإسلامية أهمية كبيرة لشهادة الشهود) (٤٥).

وتستولى الريب على الفرنسيين لأنهم يخشون من إفلات ممتلكات للمماليك من الخزانة من جراء تدابير شكلية لنقل الحيازة. وهم يعتمدون على الوكلاء الأقباط الذين يجتهدون فى زيادة المصادرات بهمة إلى الدرجة التى يتوجب معها التخفيف منها. (٤٦) وهكذا يجد عدد معين من الملتزمين أنفسهم بلا حيازة. بل إن الحائزين على الأوقاف، الممتلكات الدينية المحبوسة، والتى لا تعتبر، من الناحية النظرية بالنسبة للشريعة، ممتلكات خاصة، يتعين عليهم تسجيل صكوكهم.

ويصبح مناخ القاهرة بالغ التوتر. وتصل رسائل من إبراهيم بك، تعلن أن الباب العالى سوف يرسل قريباً جيوشه لطرد الفرنسيين. ويرد هؤلاء الأخيرون بأن هذا الكلام كذب يروج له للمماليك. ويُرَحِّل كليبر إلى القاهرة وجيهاً عثمانياً، كان قد تم حبسه فى الإسكندرية. ويميل السكان إلى أن يروا فى ذلك علامة وصول قريب لجيش عثمانى. وفى ١٥ سبتمبر، يذهب بونابارت إلى الشيخ السادات ليطرح عليه عدة أسئلة بشأن رسالة يقال أن الشيخ تلقاها من العثمانيين. وينفى الشيخ وجود مثل هذه الرسالة (٤٧). وينزعج السكان على الشيخ ويشكلون تجمهراً أمام البيت. ويتصور بعضهم أن بونابارت سوف يطلب من الشيخ تصريح أمان لمغادرة مصر؛ ويقول آخرون إنه يخشى من تمرد شعبى وإنه، خوفاً على حياته، أصبح مستعداً للتحول إلى اعتناق الإسلام. وهم يتلون الفاتحة عند خروج القائد العام. وينزعج هذا الأخير، إلا أنه تهدئ طمأنته بإبلاغه أن السكان يدعون له. والواقع أن الموقف صار قريباً جداً من التمرد الشعبى. (٤٨).

المقـــاومة

فى هذه الفترة نفسها، يشتبه الفرنسيون فى وجود شبكة للمقاومة. ويبدأ كل شىء فى أواخر شهر أغسطس عندما يقومون، إثر معلومات قدمها عملاء أقباط، بتفتيش بيت زوجة رضوان كاشف الشعراوى، إحدى نساء المماليك الباقيات فى القاهرة. وهم يجدون فيه ملابس للمماليك وبشكل خاص أسلحة. ويجرى احتجاز السيدة ثلاثة أيام ثم الإفراج عنها بشرط دفع غرامة جد باهظة (٤٩). ويرى الفرنسيون أن هناك مؤامرة تحركها الست نفيسة. ويقومون بتفتيش بيتها بحجج مختلفة، لكن مشايخ الديوان وأمير الحج وقاضى القاهرة يتولون الدفاع عن زوجة مراد بك. وفى النهاية، يفرض الفرنسيون عليها إتاوة جديدة وباهظة. (٥٠)

وبعد ذلك بشهر، يفشلون فى آخر لحظة فى القبض على تاجر مغربى تسنى له

الإقلات بفضل تدخل مُعَوِّق من جانب الشيخ الشرقاوى، الأمر الذى يستثير غضب بونابارت، ويبحث الفرنسيون عنه بسبب صلاته مع عبد الله باشى (أو باشا)، وهو، بحسب تعبير الجبرتى «من شياطين الإنس يقتل القتيل ويمشى فى جنازته». وتتفق رواية كاتب الحوليات المصرى مع رواية الفرنسيين. فقد تظاهر عبد الله بخدمة الفرنسيين ليكون فى وضع أنسب للتجسس عليهم، فهو عميل لمراد بك (٥١) وقد ذهب للقائه فى مصر العليا بصحبة روزيتى (٥٢). وقد اضطر إلى العودة إلى القاهرة بعد فشله فى محاولته الرامية إلى احتجاز مياه قناة الإسكندرية. ولما كان رجلا من رجال مراد يتمتع بثقته منذ زمن بعيد شأنه فى ذلك شأن محمد كريم ومستعداً لاستئناف الاتصال به، فليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب فى اتصاله بالست نفيسة. وكما يقول الجبرتى فى خاتمته: «والله أعلم بحقيقة الحال».

النظام العام والصحة وانضباط الجيش

تجد إعادة تنظيم قوات الشرطة المحلية ترجمة لها فى إنشاء سرية جنود «تركية»، يقودها انكشارى سابق، اسمه عمر. ويجرى إدخال للمماليك الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاماً فى الجيش، حيث يتولى أصغرهم سناً ضرب الطبول. ويتم إنشاء حرس وطنى أوروبى فى القاهرة. (٥٣)

كما يهتم بونابارت بالجيش. ويجرى اتخاذ احتياطات صحية بالنسبة للقوات وفى المستشفيات. ويتم تكليف أشخاص برعاية الحمامات، وتصدر أوامر بإنتاج زى جديد، يتألف من ثوب قصير دون ثنيات، وبنطلون ذى ثلاثات تحتية، وقبعة من جلد الماعز المدبوغ تنثنى على الأذنين، ولها واقية وجه و «بوفة» (أو خصلة خيوط) من الصوف فى جزئها الأعلى. والثوب من القطن، إلا أنه بسبب برودة الليل وبداية الشتاء، يضاف إليه معطف عسكرى. ويترتب على هذه التدابير ظهور حاجة ماسة إلى الأقمشة فى السوق المصرية(٥٤).

ويجرى اتخاذ تدابير لمكافحة أوبئة الطاعون. ووفقاً للاعتقاد الشائع فى القرن الثامن عشر فى أوروبا، فإن المقابر هى بؤر الوباء بسبب الأبخرة المنبعثة من تحلل الجثث. وهكذا فإن نظرية الأبخرة الفاسدة قد قادت السلطات إلى إزالة المقابر المدينية وطرد الموتى إلى خارج الضواحى. وكان الحادث الأشهر هو القيام، فى عام ١٧٨٦، بإزالة جبانة سانت – إينوسينت فى باريس. ويجرى تكييف القاهرة مع الواقع الأوروبى؛ ويتم إغلاق المقابر

المرجونة داخل المدينة ويتوجب بشكل إلزامى دفن الموتى فى خارج المدينة. ويسجل الجبرتى هذه التدابير وباعثها دون أى تعليق محدد. (٥٥)

وتتكاثر التعليمات الموجهة إلى الجنرالات فى الأقاليم لتنشيط توفير الخيل لسلاح الفرسان. ففى ١٨ أغسطس، لا تجد غير ثمانمائة وستة وأربعين جواداً لألفين وتسعمائة وخمسة عشر فارساً. ولا يصبح هناك مناص من اللجوء إلى مشتريات إجبارية وممارسات تؤدى إلى زيادة عدد الفرسان الراكبين فى بداية ديسمبر إلى ألف وثلاثة وعشرين فارساً(٥٦). وينشئ شامبى ونورى وكونتيه معملاً للبارود. (٥٧) وتجرى إقامة سلسلة من الاستحكامات الدفاعية حول نطاق القاهرة للتحصن فى حالة هجوم خارجى كما فى حالة تمرد داخلى (٥٨). ويتم إخلاء قلعة القاهرة من ساكنيها لكى تستعيد مهمتها العسكرية الخالصة. وتؤدى تدابير الفرنسيين إلى أعمال هدم ملحوظة تحزن سكان العاصمة. (٥٩)

ويصبح من الضرورى السهر على انضباط الجيش. ويسيء الترجمانات والأتراك الذين يعملون فى خدمة الفرنسيين استغلال مناصبهم لكى يُدخلوا بيوت الأفراد غير رسميين فى الخدمة، وينشئ بوناپارت لجنة مكونة من ڤونتيى وچونو والشيخ السادات مكلفة بتلقى الشكاوى (٦٠). وكان الجنود قد اكتسبوا عادة استئجار الحمير فى القاهرة وكانوا يسلون أنفسهم بتنظيم سباقات حقيقية فى الشوارع مما أثار عظيم هلع السكان. ويجرى إنذارهم بأنهم فى حالة وقوع حوادث وتلقى شكاوى فإنهم سوف يحكم عليهم بدفع ثمن الخسائر... (٦١)

ويجرى إصدار كلمات سر محددة للحراس، حيث أن العرب قد اعتادوا الرد على أى سؤال بكلمة «الرانس» (٦٢). ويتجول الضباط فى المدينة للتأكد من عدم جرح الجنود لحياء نساء البلد. (٦٣)

عيد الجمهورية

فى القاهرة وفى كبرى مدن الأقاليم، يجرى الاحتفال فى صخب بالعيد السنوى للجمهورية، الأول من ڤنديميير (٢١ سبتمبر ١٧٩٨)، اليوم الأول من العام السابع. وفى العاصمة، يجرى رسم دائرة واسعة فى ساحة الأزبكية تتوسطها مسلة خشبية تحمل أسماء البواسل الذين لقوا حتفهم خلال فتح مصر. ويتحرك الجيش فى أرتال أمام الأركان العامة والأعيان المصريين. ثم يجرى تنظيم سباقات عدو على الأقدام وسباقات جرى على الجياد. وكان بوناپارت قد أمر باستخدام أكبر عدد ممكن من القوات للتأثير على سكان القاهرة. وتتبارى أعداد الجنود وقوة المدفعية ودقة المناورات فى تحقيق هذه النتيجة. (٦٤)

وتعلب الاحتفال مأدبة عظيمة حيث «تتحد الأعلام الفرنسية بالأعلام التركية وتصطف على خط واحد قلنسوة الحرية والهلال ولائحة حقوق الإنسان والقرآن. وتترك الحرية للمسلمين لاختيار أصناف الطعام والشراب ويبدو أنهم جد مرتاحين لأشكال المراعاة التي تُبدى لهم». (٦٥)

ولا يسمح هذا الاحتفال الصاخب بإخفاء واقع أن معنويات الفرنسيين هي في أدنى مستوى. إنهم يدركون شيئاً فشيئاً أن دخول الباب العالى في الحرب قد أصبح حتمياً وأنهم سوف يبقون في مصر مدة أطول. (٦٦) وعقب تلاوة بيان القائد العام الذي يشيد فيه بمآثر الجنود، يخيم صمت شبه شامل، بدلاً من هتاف «عاشت الجمهورية» المعتاد. (٦٧)

نوايا بونابارت

تجرى مواصلة الأعياد بعيد مولد الحسين. ولم تك لدى الشيخ السادات نية في الاحتفال به، لكنه، إذ يجرى إخبار الفرنسيين بعزمه، يجد نفسه ملزماً بتنظيم الاحتفالات. وفي تلك المساء، يتناول بونابارت العشاء عند الشيخ. (٦٨)

ودون أن يصاب الجنرال بخيبة الأمل في فتحه الشرقي، فإنه يواصل متابعة الموقف الأوروبي. على أن الأخبار تصبح نادرة باطراد من جراء الحصار الإنجليزي. وتقريره إلى حكومة الإدارة والمؤرخ في ١٦ فينديميير صريح: «عندما يصل إلى علمى القرار النهائي الذي سوف يتخذه الباب العالى، ويصبح البلد أكثر تقدماً، وهو ما لن يتأخر حدوثه، سأتخذ قراراً بالانتقال إلى أوروبا، وبوجه خاص، فإنه إذا ما دعتنى الأخبار الأولية إلى الاعتقاد بأن السكينة لم تسد أوروبا بعد، فسوف أقرر الانتقال». (٦٩)

لكنه يؤمن بقدره. ومما له دلالته أنه يأمر بالاحتفال بعيد ١٣ فينديميير (٤ أكتوبر ١٧٩٨)، التاريخ التذكارى لبداية صعوده السياسى (من الناحية الرسمية، يجرى الاحتفال بذكرى سحق الملكيين) (٧٠). وفي إحدى المآدب، يجرى رفع سلسلة من الأنخاب. والنخب الخامس هو النخب الأقنى بالإيحاءات:

«لنشرب نخب حضارة مصر».

«إننا نضرب للعالم أول مثال على مُشْـرِّع فاتح. وقبلنا، كان الغالبون يتبنون دائماً شرائع المغلوبين. فلنحرز عليهم انتصار العقل، والأصعب من انتصار السلاح ولنظهر لهم أننا أرقى من الأمم الأخرى، بقدر ما أن بونابارت أرقى من جنكيز». (٧١) ومن الواضح أن هذا الرهان الثقافى هو الهدف الرئيسى للحملة...

فتح الدلتا

الانتشار الفرنسى

منذ غداة دخوله إلى القاهرة، أصدر بوناپارت أوامر، تنتظم احتلال الدلتا. ويجرى تكليف الجنرال فيال بالاستيلاء على دمياط، الميناء الأخير على البحر المتوسط الذى لا يسيطر عليه الفرنسيون، بينما يجرى تكليف زايونشيك بالاستيلاء على الجزء الجنوبى من الدلتا بدءاً من منوف (٢٥ يوليو ١٧٩٨). ويتعين على القائدين نزع سلاح البلاد، وتأمين جباية الضرائب وإنشاء إدارة جديدة قائمة على الدواوين المحلية، التى يساعدها وكيل فرنسى وأمين قبطى للتعامل مع المسائل المالية.

ويتم زحف فيال على دمياط دون مشكلات. بل إن القوات الفرنسية يتكون لديها انطباع بأن الأعيان والسكان يرحبون بها (٧٢). ويكتمل استقرار المهمة فى ٦ أغسطس. على أن زايونشيك، الذى لحق به الجنرال لوجيير، يواجه صعوبات أمام مقاومة قريتى غمرين وتتا. وهو يضطر إلى خوض معركة شوارع حقيقية ويقدر خسائر الفلاحين بما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة. وهو يفشل فى محاولته الرامية إلى أسر أبو شاعر، الشيخ – الملتزم العربى القوى فى المنطقة. وفى منوف، يأمر بإلقاء القبض على الديوان الذى يشتبه فى تواطئه مع المتمردين كما يأمر بإلقاء القبض على الأمين القبطى. (٧٣)

وهذه التدابير تستتبع توبيخاً من جانب بوناپارت: «إننى لم أنظر بعين الرضا إلى الأسلوب الذى تصرفت به تجاه القبطى؛ إن مقصدى هو مراعاة هؤلاء الناس وإبداء حسن النوايا نحوهم. قل ما هى موضوعات شكواك منه وعندئذ أقوم بإحلال شخص آخر محله. كما أننى لا أوافق على إصدارك الأمر بإلقاء القبض على الديوان دون التأكد مما إذا كان مذنباً أم لا، ثم الإفراج عنه بعد ساعتين: ليست تلك هى الوسيلة للتصالح مع طرف من الأطراف. ادرس الناس الذين تجد نفسك بين ظهرانيهم؛ وميز أولئك الأكثر استعداداً لتوظيفهم؛ واضرب أحياناً أمثلة عادلة وقاسية، دون أن تُقدِم أبداً على أى شىء يقترب من الهوى والاستخفاف» (٧٤).

ويسمح انتهاء العمليات ضد إبراهيم بك بتعزيز انتشار القوات. فيبقى رينييه فى الصالحية لمراقبة طريق سوريا، ويحصل مورا على إقليم قليوب، بينما يحصل دوجا على

المنصورة وإقليم الدلتا الشرقى (١٢ - ١٣ أغسطس ١٧٩٨). وتصبح الطرق البرية غير عملية من جراء فيضان مياه النيل، ومن هنا ضرورة التزود بزوارق يعزف الفلاحون من تقديمها (٧٥). ويشير ذلك إلى الوضع الصعب الذى كان يمكن أن يشهده بونابارت، لو كان مراد قد رفض القتال على الضفة الغربية للنيل.

المنصــورة

عند وصول دوجا إلى المنصورة، فى ١٧ أغسطس، لا يجد الجنود الذين كان من المفترض أن يتركهم فيال هناك. وهو يعلم آنذاك أن الحامية الفرنسية المؤلفة من مائة وعشرين رجلا قد هوجمت من جانب العرب وأنها قد خرجت بعد ذلك لمطاردتهم. ولا يرضى ذلك دوجا الذى يرسل قواته للنهب فى الريف المجاور. وهذه القوات، خلال نهبها لإحدى القرى، تكتشف جندياً لاجئاً عند الفلاحين وأنه الوحيد الذى بقى من الحامية. ومنذ رحيل فيال، كانت الوحدة الصغيرة ضحية لهجمات من جانب السكان وقد تحصنت فى ثكناتها. على أن الأعيان قد واصلوا تزويدها بالمؤن الغذائية. وفى نهاية الأمر، فى مجازفة بالاجتياح من جانب حشد مسلح تمكن من حصار منافذ الثكنة الفرنسية، يقوم الجنود بعملية خروج من أجل التخلص من هذا المأزق والعودة إلى القاهرة. وفى الريف، يتعرض الطابور الفرنسى باستمرار لهجمات من جانب الفلاحين والعرب ويجد نفسه وقد أبيد من الناحية العملية (١٠ أغسطس ١٧٩٨) (٧٦).

وعندئذ يحاول ديوان المنصورة التنصل من المسئولية عما حدث بتقديم روايته للأحداث: إن المعتدين قد جاءوا من الشرق ومن الغرب بأعداد لا حصر لها. وقد حارب السكان إلى جانب الفرنسيين. وبعد انسحاب هؤلاء الأخيرين، فر الجزء الأعظم من السكان، والديوان يطلب ضمانات للسماح لهم بالعودة إلى المدينة (٧٧).

ويهتم دوجا بادئ ذى بدء باستعادة الثقة وذلك بإظهار الاعتدال فى القمع وفى جباية الضرائب والمصادرات. ونقص المدفعية وخاصة الذخيرة يبرر هذا المسلك، الذى ينتقده مع ذلك مرءوسوه (٧٨)، على أنه يهتم بمعاقبة المذنبين بالإقدام على هجمات ضد الفرنسيين سبقت تمرد المنصورة. وفى ٢٨ أغسطس، يطلب إلى بونابارت منح عفو لسكان المدينة ولكن ليس لسكان القرى التى تعتبر، على أية حال، عصية المنال بسبب فيضان النيل. والواقع أن جزءاً عظيماً من السكان لا يرجع البتة، بسبب الخوف، الأمر الذى يؤدى إلى

إصابة الحياة الاقتصادية بالشلل. وبالنسبة لبونابارت، فإن القمع هو بوجه خاص وسيلة لفرض ضرائب جديدة مهمتها إغاثة خزائن الجيش الخاوية بشكل ميئوس منه؛ وهذا هو معنى تعليمات الصادرة إلى دوجا.(٨٠)

دمياط

في ٢٢ أغسطس، كان فيال، الموجود في دمياط، قد أبلغه بأن جماعة من سكان المنصورة قد لجأوا عند حسن طوبار. وهذا الأخير هو أفضل مثال على ظهور سلطة شبه مستقلة في الأقاليم في أواخر العصر المملوكي الجديد. فهو ملتزم لجميع عمليات الصيد التي تتم في بحيرة المنزلة. لكن ذلك ليس غير قاعدة واحدة من قواعد قوته. ووفقاً لأندريوسي، «فإنه كان علاوة على ذلك أحد أغنى الملاك في مصر، وربما كان الوحيد الذي تجاسر على مراكمة عقارات بالضخامة التي توافرت له؛ لعائلته من المنزلة؛ وخلفها ما بين أربعة إلى خمسة أجيال من المشايخ. لقد كانت سلطة حسن طوبار جد ملحوظة؛ وقد تأسست على سمعته وثرواته وضخامة عدد أقاربه والعدد الكبير للأجراء المعتمدين عليه ومساندة البدو الذين قدم لهم أراضي لفلاحتها وغمر زعماءهم بالهدايا» (٨١).

وهكذا فإنه يجمع شتى الخصائص التي جعلت من كبار مشايخ العرب والملتزمين قوى محلية يتعين على المماليك مراعاتها. ويدخل الجنرال الفرنسي في مراسلات مع الشيخ الذي أعلن ولاءه للسلطة الجديدة. لكن اللاجئين، بالرغم من تأكيدات دوجا الذي وصل به الأمر إلى حد التعهد بالسماح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وجيادهم، يرفضون العودة. (٨٢)

البدو

يسمح احتلال المحلة الكبيرة الذي قام به فوجيير بإيجاد ارتباط بين مختلف الوحدات الفرنسية، مع إثارته لمشكلات تحديد إقليمي لدوائر لاختصاصها المختلفة، بينما تستفيد أربع قرى على فرع رشيد من الفيضان لتنجز انفصالها (٨٣). وسرعان ما يتعين على فوجيير طلب العون من دوجا، لأن ائتلاف القرى يهدد بمهاجمة المحلة الكبيرة التي تجد نفسها مزودة بعدد غير كاف من القوات (٨٤). ثم إن فيال لا يستطيع تقديم عون له من دمياط، وذلك بسبب انقطاع المواصلات المترتب على الفيضان (٨٥).

وبعد مصاعب بداية استقرار زايونشيك، فإنه ينجح، بالرغم من ضعف عدد قواته، في استعادة النظام في إقليم منوف. وإذ يجد أن أسلوبه في الإدارة يواجه اعتراضاً في القاهرة، فإنه يطلب استدعاءه لتولى مهمة أخرى، وهو طلب يلبى في نهاية شهر أغسطس، ويحل الجنرال لانوس محله. أمّا مورا، الموجد في إقليم قليوب الأكثر قرباً من القاهرة، فإنه لا يصطدم أيضاً بمصاعب رئيسية. ويوسعه أن يسمح لنفسه بأن يقترح تقديم مساعدته في حالة الضرورة إلى دوجا (٨٦) ويتجه إلى الجزء الشمالي من إقليمه لمواجهة احتشادات العرب (٨٧). وهو يجد نفسه مواجهاً بمسألة نزع سلاح الفلاحين في حين أن هؤلاء الأخيرين مهددون دائماً بأن يكونوا عرضة لهجمات البدو. وهو يقترح إرجاء اتخاذ هذا الإجراء: «هنا يعتبر العرب المزارعون المسلحون نافعين؛ إنهم حماة البلد من العرب المترحلين [...]. وأنا أعتقد أن من المستحيل، من الآن ولوقت جد طويل - دون التسبب في تمردات شهدتم مثالاً لها في أقاليم أخرى - تجريد هؤلاء الناس - الذين يحسنون معاملتنا من جهة أخرى - من الأسلحة التي يعتبرونها ملكية طبيعية لهم والتي يحتاجون إليها كل يوم للدفاع عن بلادهم وممتلكاتهم ضد أعدائهم. ومن ثم فإنني أعتقد أنكم سوف ترون أن من الحكمة انتظار تعزيز الحكم الجديد قبل التفكير في تنفيذ إجراء على هذه الدرجة من الحساسية» (٨٨).

وفي هذه المراسلات مع القائد العام، يوضح مورا أنه قد حدد الجماعة البدوية المسئولة عن الهجوم على المنصورة : عرب سنباط. ومن سوء الحظ أن الفيضان يمنعه من شن هجوم مباشر عليهم. ويقدم لوجيير المعلومات الجادة الأولى حول هذا العدو ومنشأه: «منذ نحو خمس سنوات وجد في هذه القرية فريقان متصارعان. وعلى مدار الأيام، دارت معارك أزهقت أرواح عديد من السكان. وسعياً إلى وضع حد لهذه الشقاقات المحلية، قام أيوب بك، سيد هذه القرية، بإحضار نحو مائتي عربي للقيام بأعمال الحراسة فيها. وفي المقابل، وزع عليهم أراضي. لكنه بتثبيتهم هناك، لم ينجح مع ذلك في محو روح أعمال السلب والنهب المميزة لأمتهم. وكانت القرى المجاورة تشكو يومياً من أعمالهم التكديرية ولا تتمنى سوى القضاء عليهم» (٨٩).

وينقل دوجا إلى بونابارت هذه المعلومات بشكل شبه حرفي. وهو يضيف أنهم عرب متحدرون من درنه في طرابلس الغرب (وهو ما يوحي بأنهم من أولاد علي، نفس الذين يواجههم كليبر في البحيرة). ويؤكد أنه إذا كان سكان سنباط حلفاء للبدو، فإن سكان القرى المجاورة سوف يبدون الحياد أو حتى سوف يشاركون في العمليات إلى جانب

الفرنسيين (٩٠). ويأمر بونابارت ديجا بأن يرد: «عرب قرية سنباط الأشرار إلى صوابهم. احرقوا تلك القرية؛ اضربوا مثلاً رهيباً ولا تسمحوا بعد لهؤلاء العرب بالعودة إلى سكنى هذه القرية إن لم يسلموا لكم عشرة رهائن من الأشخاص المهمين ترسلونهم إلىَّ لاحتجازهم في قلعة القاهرة» (٩١).

وبعد حصوله على الذخائر الضرورية لاستئناف عملياته، يكلف ديجا الجنرال فيردييه على رأس خمسمائة وخمسين رجلاً مزودين بمدفع عيار ٣ رطل للقنبلة بالهجوم على سنباط. ويقع الهجوم في ١٤ سبتمبر ١٧٩٨. ويتم تدمير عرين البدو. ويشير فيردييه في تقريره إلى الدور الرئيسي الذي لعبه الشيخ موسى من قرية حنوت «والذي واصل السير على رأسنا، محدداً لنا بسرور الطرق التي من شأنها أن تقودنا بأسرع ما يمكن إلى العدو» (٩٢).

وهذا الشيخ نفسه ينبهّ الفرنسيين إلى أن العرب بسبيلهم إلى التجمع من جديد للثأر (٩٣). ويصدر بونابارت الأمر إلى مورا وإلى لانوس بمحاربة عرب درنه «حيثما وجدوا»(٩٤). ويلحق بهم الجنرال خسائر فادحة، لكن قرية حنوت قد تعرضت مع ذلك للإحراق على أيدي البدو الذين ينقضون على جميع مجموعات الفرنسيين الصغيرة المعزولة في المنطقة (٩٥). وفي النهاية يتعين على مورا مواصلة صدهم عن طريق عمليات محدودة (٩٦).

والحال أن بونابارت، البعيد عن أفكار شبابه الرومانسية، يصف على النحو التالي لحكومة الإدارة هذا العدو السريع الحركة: «إن العرب في مصر هم كالباربيت في كونتيه نيس، مع هذا الفارق الكبير الذي يتمثل في أنهم بدلاً من العيش في الجبال، يمتطون كلهم الجياد ويحيون وسط الفيافي. وهم ينهبون ويسلبون الأتراك والمصريين والأوروبيين سواء بسواء. وقساوتهم كقساوة الحياة التي يحيونها، فهم معرضون على مدار أيام بأكملها في الرمال المحرقة لأوار الشمس، دون ماء يرويهم. وهم بلا شفقة وبلا عهد. إنهم أبشع مثال للإنسان المتوحش يمكن للخيال تصوره» (٩٧).

مشايخ البلد

• ينتهي مورا إلى إزالة الجانب الرئيسي من الضغط البدوي بإجباره القبائل المنهكة على توقيع اتفاقات سلام. وهكذا ينجح الفرنسيون تدريجياً في كسر التحالفات بين البدو وبعض الجماعات الفلاحية. وبالنسبة لمشايخ البلاد، فإن هذا العمل يتناسب مع استعادة

للنظام العام يخشونها من صميم أنفسهم، وهو ما يؤدى إلى تسارع ولاء جزء عظيم من هذه الفئة الاجتماعية جد المؤثرة فى الأرياف. ويوضح مورا ذلك جيداً لبونابارت، «إن عديداً من زعماء القرى يجيئون ليشهدوا لى بأننا عثرنا على الوسيلة التى من شأنها جعلهم [العرب] أكثر رقة فى التعامل معهم؛ وهم يقولون أنهم يمرون اليوم أمامهم منكسرى الأعين وسائلينهم حمايتهم» (٩٩).

وسوف يعتاد المشايخ على اللجوء بصورة منتظمة إلى العسكريين للقضاء على بدو الدلتا. وسوف يشكل ذلك العمل الرئيسى للطوابير المتحركة التى ستكفل النظام خلال سنوات الاحتلال الثلاث. ويتبلور عقد اجتماعى ضمنى بين المشايخ، الذين يكفلون سداد الضرائب وخضوع السكان، والفرنسيين الذين يقضون على الخطر البدوى (١٠٠). وفى هذا العمل، الذى يجذب للمرة الأولى إلى الفرنسيين جماعة اجتماعية أساسية، تبدو السلطة الجديدة مواصلة للعمل النشيط الذى قام به على بك الكبير ومحمد أبو الدهب اللذان حافظا بنشاط على هذا النظام العام الذى كثيراً ما تمناه الفلاحون. وهكذا فإن معركة سنباط تشكل أحد المنعطفات الحاسمة فى تاريخ حملة مصر. لكن الفرنسيين، قبل أن يقطفوا ثمارها بالكامل، يضطرون إلى مواجهة خطر رهيب فى شرقى الدلتا.

حسن طوبار

بمجرد عودة فيردييه من حملته فى سنباط، يرسل دوجا الجنراليين داماس وديستان للزحف على قريتى المنية والقباب القريبتين من المنزلة واللتين كانتا قد رفضتا دفع الضرائب والإذعان للمصادرات. وهو يشتبه فى أن شيخيهما على تفاهم مع حسن طوبار، السيد القوى لبحيرة المنزلة. ويتعين على العملية أن تعمل على تخويف هذا الأخير الذى يشتبه فيال فى أنه يعد لانتفاضة واسعة (١٠١). وفى ١٩ سبتمبر، يصطدم داماس بمقاومة قوية فى قرية الجمالية. وبعد معركة شوارع رهيبة تؤدى إلى سقوط عدد كبير من الضحايا بين صفوف المصريين (١٠٢)، ينسحب داماس إلى المنصورة محرقاً فى طريقه قرية يتهمها بالاشتراك فى الانتفاضة (١٠٣).

ومنذ ١٧ سبتمبر، فإن فيال نفسه هو الذى يضطر إلى صد هجوم على دمياط فى حين أن المراكب التى تكفل المواصلات بين مختلف أماكن تواجد الفرنسيين، تتعرض للهجوم من جانب الفلاحين. ويتخذ السكان موقف الانتظار والترقب ويرفضون الانضمام

إلى العرب والفلاحين. وينقلب الرهب مسيحيي المدينة، الذين يتألفون بشكل أساسي من الكاثوليك اليونانيين، ذلك أن المهاجمين يهددون بذبحهم. وفي اليوم التالي، يتمركز المتمردون في قرية شوارا على مقربة من دمياط، ويبدون في الحصول على تعزيزات قادمة من بحيرة المنزلة. والحال أن للمسيحيين الذين يشتبهون في أن الفرنسيين يريدون الجلاء عن المدينة بما يؤدي إلى تركهم في مواجهة للمتمردين، يناشدون الجنرال أن يبقى. وهم يحملون السلاح ويقاتلون إلى جانب الفرنسيين (١٠٥).

وبعد أن طمأنهم فيال الذي حصل على تعزيزات فإنه يشن الهجوم في ٢٠ سبتمبر بالاشتراك مع الجنرال أندريوسي الذي يقود أسطولاً صغيراً على البحيرة. ويجرى دفع العرب عن إقليم دمياط. والحال أن الأمر اليومي العسكري المؤرخ في ٣ فنديميير من العام الثامن (٢٤ سبتمبر ١٧٩٨) يحول هذه العملية إلى مأثرة حربية مجيدة: إن الفرنسيين لم يخسروا غير قتيل واحد وأربعة جرحى في حين أن العرب قد خسروا أكثر من ألف وخمسمائة بين قتيل وغريق (١٠٦). «ثم إن ما بين أربعمائة وخمسمائة فرنسي قد هاجموا وغلبوا ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً من العرب» (١٠٧). والشيء الأكثر إزعاجاً هو المعلومات التي قدمها الأمين القبطي: إن حسن طوبار هو الذي يقف وراء التمرد بالرغم من نفيه للتكرر لذلك؛ وقد تلقى رسائل من سوريا والبرص تبلغه بأن الجزار يَعِدُّ لإنزال في تلك المنطقة؛ ثم إنه على اتصال مع «إبراهيم بك» (١٠٨). والأمر اليومي، الذي أشرنا إليه بالفعل، يوضح تماماً ضرورة تحرك الفرنسيين بسرعة ضد الحرب الدعائية التي تبدأ في شرقي الدلتا والتي تنذر بالامتداد إلى مصر كلها. «إن طوابير متحركة عديدة تجوب كل قرى دمياط والمنصورة، لإنزال العقاب الصارم بقادة المتمردين، وإنزال ثأر نموذجي بهؤلاء التعساء، الذين خدعتهم مكاتبات إبراهيم بك ووعوده الزائفة».

والواقع أنه لا يمكن بدء العمليات إلاّ مع عودة القوات التي أرسلت إلى القاهرة، خلال عيد الجمهورية، للتأثير بعددها على سكان العاصمة. ويحصل دوجا على القيادة العليا لإقليمي المنصورة ودمياط ويصل إلى هذه المدينة الأخيرة. وهو ينتقد بقسوة إدارة فيال الذي لم يتمكن من الاضطلاع بالأعمال الضرورية لتحصين المواقع ومن كسب ود السكان. وسوف يصل الأمر ببعض الضباط إلى حد الاعتقاد بأن اختلاسات فيال المالية وأعماله الوحشية تجاه السكان تعتبر مسئولة جزئياً عن القلاقل في المنطقة (١٠٩). ويجرى تكليف أندريوسي بالعمليات البحرية وتكليف دلماس بالعمليات البرية، حيث يتمثل هدفها المشترك في الاستيلاء على المنزلة. ويبدأ تحركهما في ١١ فنديميير من العام السابع (٢

أكتوبر ١٧٩٨). وهما في سباق مع الزمن، فقد كلانا يتصوران أن قوات الجزار لابد وأن تبدأ الوصول اعتباراً من ٤ أكتوبر (١١٠).

ويبلغ حسن طوبار الفرنسيين بموقفه حول مصالحة تالية: «إنني لا أريد رؤية الفرنسيين لا من بعيد ولا من قريب. وإذا ما قدموا لي برهان استعدادهم لتركي وشأني دون مضايقات، فسوف أدفع لهم الضريبة التي كنت أدفعها دائماً، لكنني لا أريد البتة الاتصال بهم» (١١١).

ويصطدم أندريوسي بمعاكسات قوية في البحيرة، الأمر الذي يقوده إلى تغطية دمياط بهجوم جديد. ويقع العبء الرئيسي من العمل على عاتق داماس. ويتزايد إدراكه للشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الشيخ في الإقليم: «على مجمل الطريق حتى المنزلة، بل وفي هذه الناحية، اقتنعنا كلنا بأن حسن طوبار يتمتع بحب للمصريين. إنه ثرى يملك عدة ملايين، أكان ذلك من خلال أراضيه أم منتوجاته القطنية أم تجارته» (١١٢).

وفي ١٥ فينديمير (٦ أكتوبر)، يستولى داماس دون قتال على المنزلة. ويتمثل الشاغل الرئيسي للضباط الفرنسيين في منع القوات من الإغارة من أجل السلب والنهب. وفي اليوم التالي، يتمكن أندريوسي من اللحاق به وتدعم القوتان احتلال منطقة البحيرة. ويلجأ حسن طوبار وأسرته إلى غزة، بينما يستأنف السكان وسيلة عيشهم الرئيسية، الصيد. وعبر السيطرة على دمياط والمنصورة، يهيمن الفرنسيون على منافذ هذا النشاط الاقتصادي الحيوي بالنسبة للسكان. كما أن التهدئة تتم بسرعة. ويعين فيال شيخاً جديداً للإقليم، هو المدعو عبد الفتاح، وهو عدو لحسن طوبار تعاون منذ البداية مع الفرنسيين(١١٣). ويأخذ رهائن من الضواحي ويأمر بإحراق أبواب القرى المحصنة في الإقليم (١١٤). ويبقى أندريوسي على البحيرة حتى نهاية أكتوبر. ويستكشف بشكل منهجي كل تعرجاتها؛ وعلاوة على الاهتمام العلمي، فإن مثل هذا التحديد للمعالم ضروري، بالنسبة للعمليات التالية في اتجاه سوريا.

الشرقية

في الشرقية (الجزء الشرقي من الدلتا)، يجد رينييه، بوجه عام، مصاعب أقل بكثير من تلك التي يقابلها زملاؤه. وعدا حفظ النظام وجباية الضرائب، فإن مهمته الرئيسية تتمثل في مراقبة ما يجري في سوريا، وإقامة مواقع حصينة ومستودعات عسكرية. ويتعين على هذه المنشآت أن تساعد على مواجهة غزو محتمل لمصر قادم من سوريا أو أن تكون مواقع حشد لجيش فرنسي يتحرك في الاتجاه المضاد. (١١٥)

وعند وصول الفرنسيين، يلجأ فلاحو الإقليم إلى الصحراء مع مواشيهم وأقوات نداعتهم. ويكرر رينييه الشكايات الدائمة إلى مرؤسيهم، مستخدماً التعبيرات المألوفة للدعاية الفرنسية، لكنه لا يستطيع منع جنوده، الذين تعوزهم الأغذية، من زيادة المصادرات التعسفية ومن ثم إخافة السكان (١١٧). ويتحالف هؤلاء الأخيرون في روابط قروية حقيقية لحماية أنفسهم من الغزاة (١١٨). ويطرق الجنرال التجمعات ويأخذ رهائن يهدد بقتلهم رمياً بالرصاص إن لم يجر تزويده بالجياد الضرورية لركوب الفرسان.

ويقوده نقص الإمدادات الغذائية إلى ترك الصالحية والتمركز في بلبيس الأفضل من حيث توافر الإمدادات بها (٢٧ أغسطس ١٧٩٨). ويمنعه الفيضان من تنفيذ المصادرات، ولذا فإنه يسمح للفلاحين بالاحتفاظ بجيادهم حتى لا ينضموا إلى الثائرين الآخرين في الصحراء. ويتيح السماح للممنوح إحصاء الجياد من أجل عمليات تمهيد تتم في المستقبل(١١٩). وهو يواصل إرسال جواسيس إلى سوريا، يبلغونه بأن إبراهيم بك ومماليكه يرابطون في غزة، وأن الجزار قد منعهم من الصعود إلى مسافة أبعد إلى حين وصول أوامر من القسطنطينية. ومن جهة أخرى، فإن عملاءه يبلغونه بالانتقال المتواصل للرسل بين سوريا ومصر العليا للاتصال بمراد بك (١٢٠). ويرسل بونابارت قائد الأسطول الصغير بوفوازان، الذي عاد من مهمته في فلسطين، لمساندة رينييه حيث يتولى قيادة بلبيس (١٢١). ويأمل القائد العام في الاستفادة من فيضان النيل لإرسال احتياطيات مهمة من المؤن إلى الصالحية وبلبيس، استعداداً لعمليات تالية في سوريا. إلاّ أنه يجرى تأجيل المشروع لعدة أسابيع بسبب نقص الزوارق وضرورة تهدئة الأقاليم أولا. وبسبب التأخر وبداية هبوط مياه النيل، فإن مستودعات الشرقية تجد نفسها من جديد ذات احتياطيات غير كافية بالمرة لجيش في الميدان. (١٢٢)

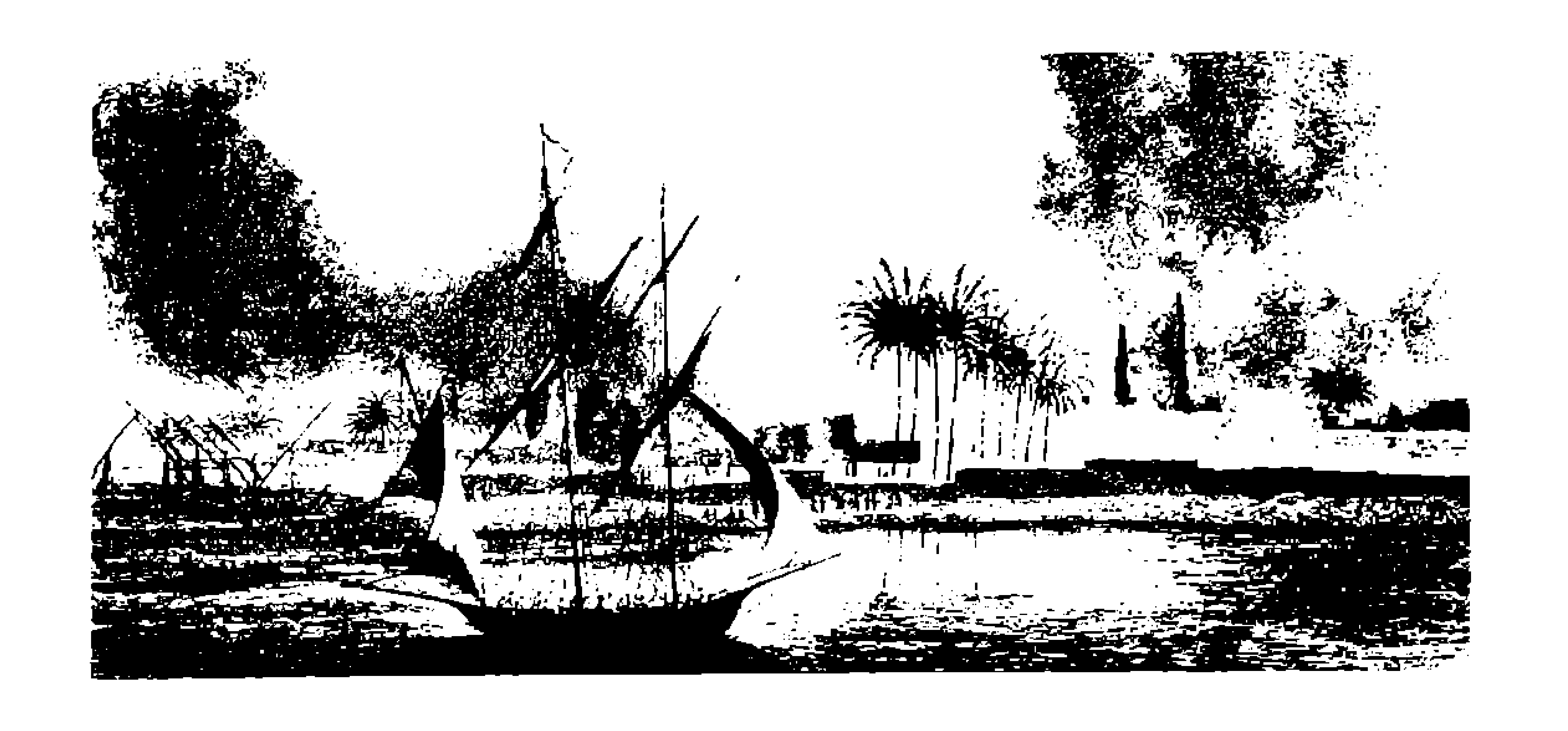
والحال أن مرءوسي رينييه، بوفيه وبوفوازان، القادمين إلى القاهرة، يشكوان علناً من الحالة المادية الكارثية التي توجد فيها فرقتهما. وعندئذ يستغل بونابارت أول ذريعة لإقصاء بوفوازان ويعيده إلى فرنسا. أمّا بوفيه، الذي يتضامن مع زميله، فإنه يلقى المصير نفسه. ويبدو أنه علاوة على الضرورة المشروعة المتمثلة في الحيلولة دون ترويج شائعات من شأنها تهديد معنويات الجنود، فإن بونابارت قد استفاد من الفرصة لمعاقبة بوفوازان على فشل مهمته لدى الجزار (١٢٣). وفيما عدا ذلك، فإن رينييه، شأنه في ذلك شأن قادة الأقاليم الآخرين، ينشغل بإنجاز التهدئة، أي بمحاربة قبائل البدو والتفاوض معهم (١٢٤).

الإدارة الجديدة

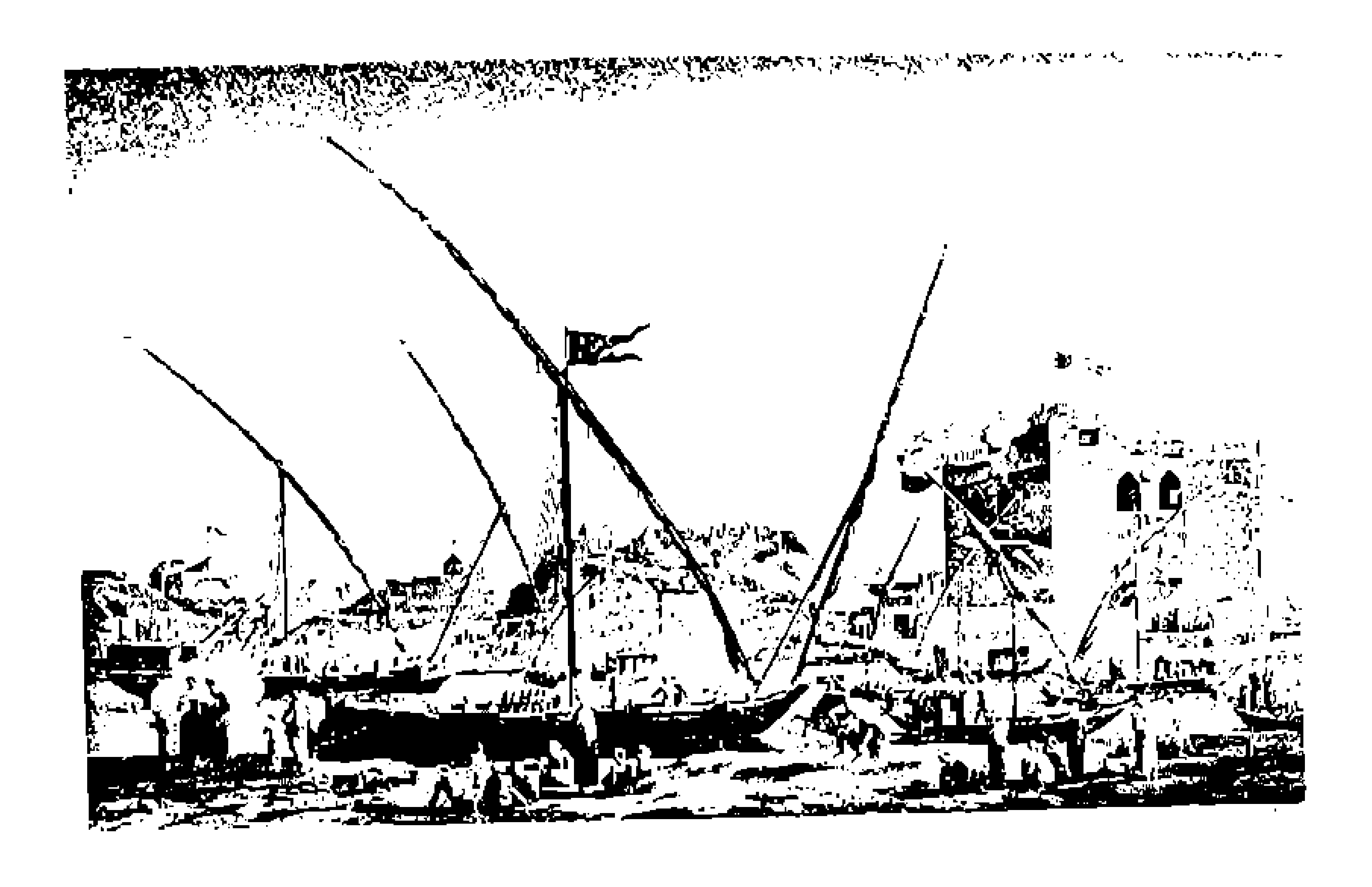
إن أهداف فتح الدلتا ليست ذات طابع عسكرى بشكل وحيد. فبونابارت يفكر بالفعل فى إقامة إدارة جديدة تحل محل إدارة المماليك. وعلى المستوى الضريبى، تجرى إقامة نظام قائم على تعاون أمين قبطى ووكيل فرنسى. ومشاركة الأقباط لا غنى عنها، فهم وحدهم الذين يعرفون التعقيدات الموروثة من الإدارة العثمانية. وولاؤهم للفرنسيين هو بالدرجة الأولى ولاء موظفين يواصلون ممارسة وظائفهم الإدارية. ويضاف إلى ذلك على الأرجح شعور بالتحرر وبالثأر من وضعية «الذميين»، التى كانت وضعيتهم فى العصر الإسلامى، كما تضاف إليه، بدرجة يصعب قياسها لكنها واقعية، حساسية خاصة تجاه «النزعة المصرية» التى طورها الفرنسيون. ومن حيث أصلهم التاريخى، فإن الأقباط يعتبرون– ويعتبرون أنفسهم – الممثلين الأصدق لمصر. لكن قدراً من سوء الفهم يتولد، لأن الفرنسيين لا يرون فى البداية فيهم غير أدوات ضرورية لاستكمال درايتهم بالحقائق الضريبية والإدارية للبلد، وإعادة تنظيم البلد، المفهومة وفقاً لنموذج الإدارة العقلانية الذى طورته الثورة الفرنسية، لن تمنح لهم فى المستقبل غير دور ثانوى. ومن جهة أخرى، فإن ضرورات سياسة بونابارت «الإسلامية» وواقع أن الفرنسيين يرون، بوجه عام، أن المسيحيين سوف ينحازون دائماً إلى جانبهم، إنما تدفع سلطة مصر الجدد إلى تجاهل المطالب الخاصة للأقليات، خاصة فى مجال المساواة.

كما تستند السلطات العسكرية إلى نظام دواوين إقليمية على غرار ديوان القاهرة. وقوامها أكثر أصالة. فمن الواضح أن العلماء يدعون على الفور إلى المشاركة فيها، لكن الفرنسيين يضيفون إليها الأعيان، وأغلبهم من التجار المنتمين إلى الميليشيات العثمانية (١٢٥). وليس فى ذلك ما يثير الانزعاج بشكل خاص وذلك بقدر ما أن كبار ضباط الميليشيات كانوا ينتمون بالفعل إلى الإدارة. ويكاد ذلك يمثل عودة للفترة الزائلة التى كانت الميليشيات تشكل فيها مراكز سلطة مستقلة عن مراكز سلطة الأمراء المماليك. وفى نسق الأفكار نفسه، يجرى تشكيل قوة شرطة مجندة بشكل خاص من قوة الانكشارية السابقة تحت المراقبة الدقيقة من جانب مسئولين فرنسيين.

ويظهر التغير الكبير مع مشاركة مشايخ البلد فى الديوان. وبقدر ما هو متوافر لدينا من معلومات، فإن ذلك لم يك نتيجة فكرة مسبقة لدى الفرنسيين، بل نتيجة إدراك



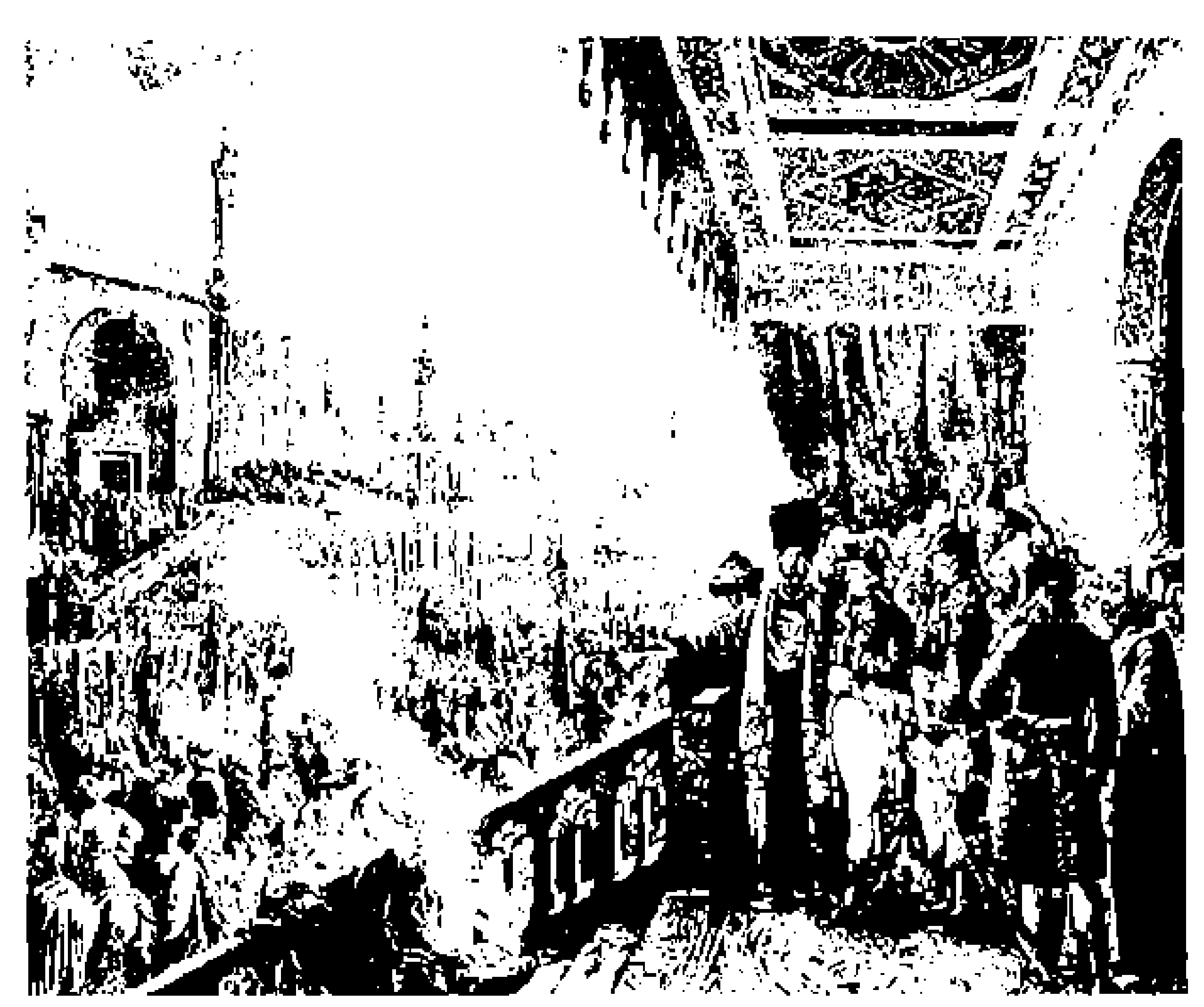
٢٥ – حريق المسالمة.



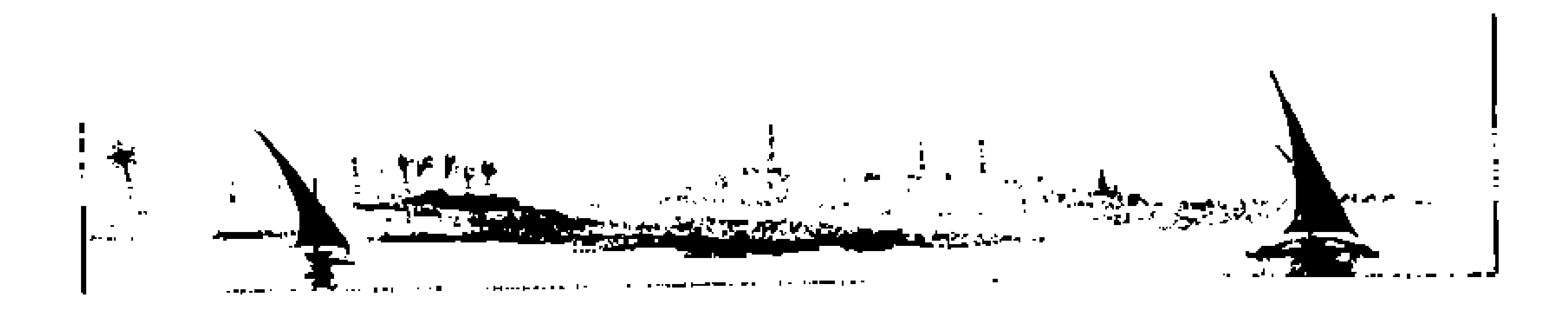
٢٦ - مأخذ الماء من قناة القاهرة.



٢٧ - (أ) الوشاح الثلاثي الألوان يهديه بوناپارت إلى أحد بكوات مصر.



(ب) بوناپارت يشهد عيد مولد النبي محمد.







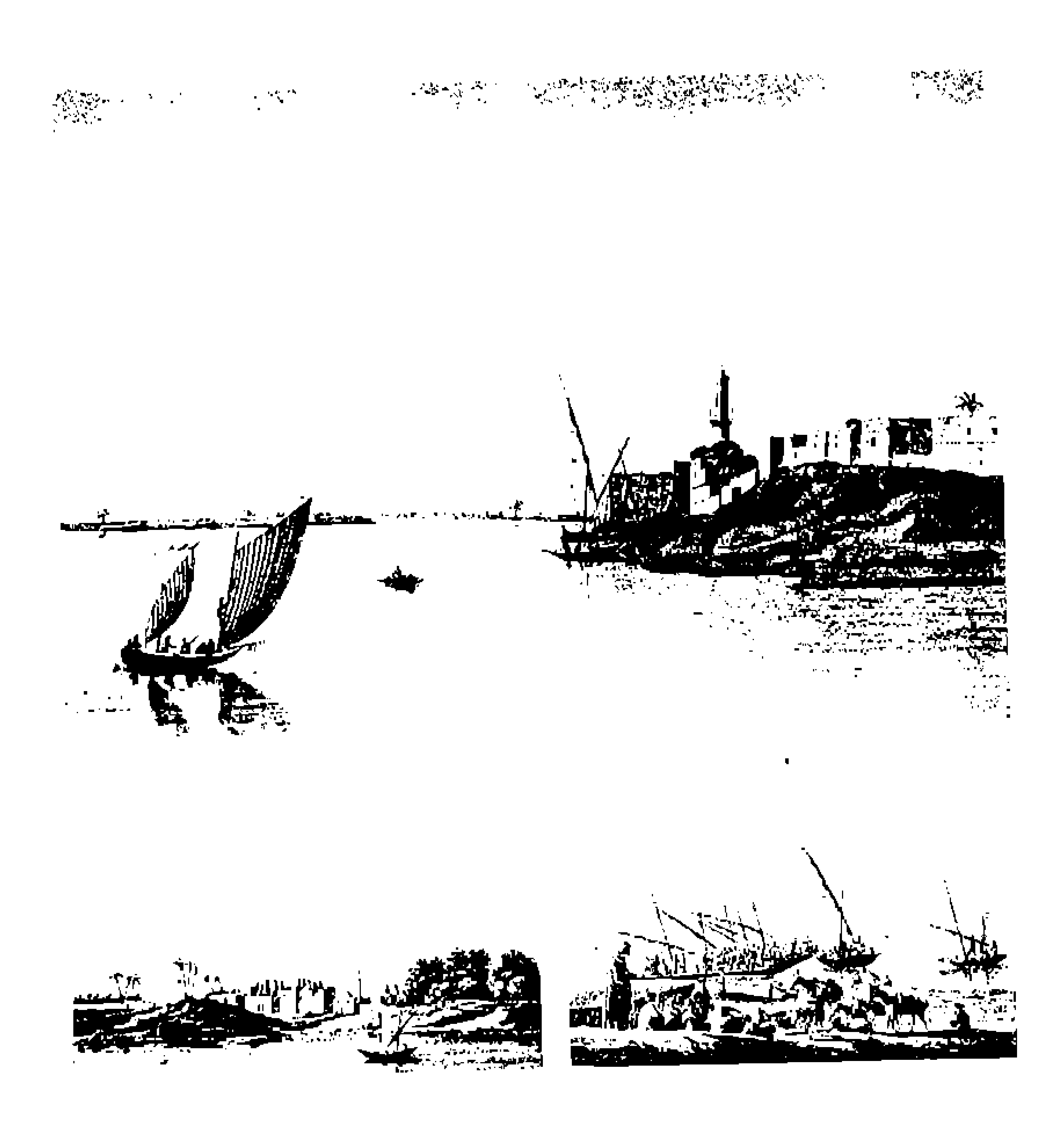
٢٨ - مشاهد من مصر السفلى.



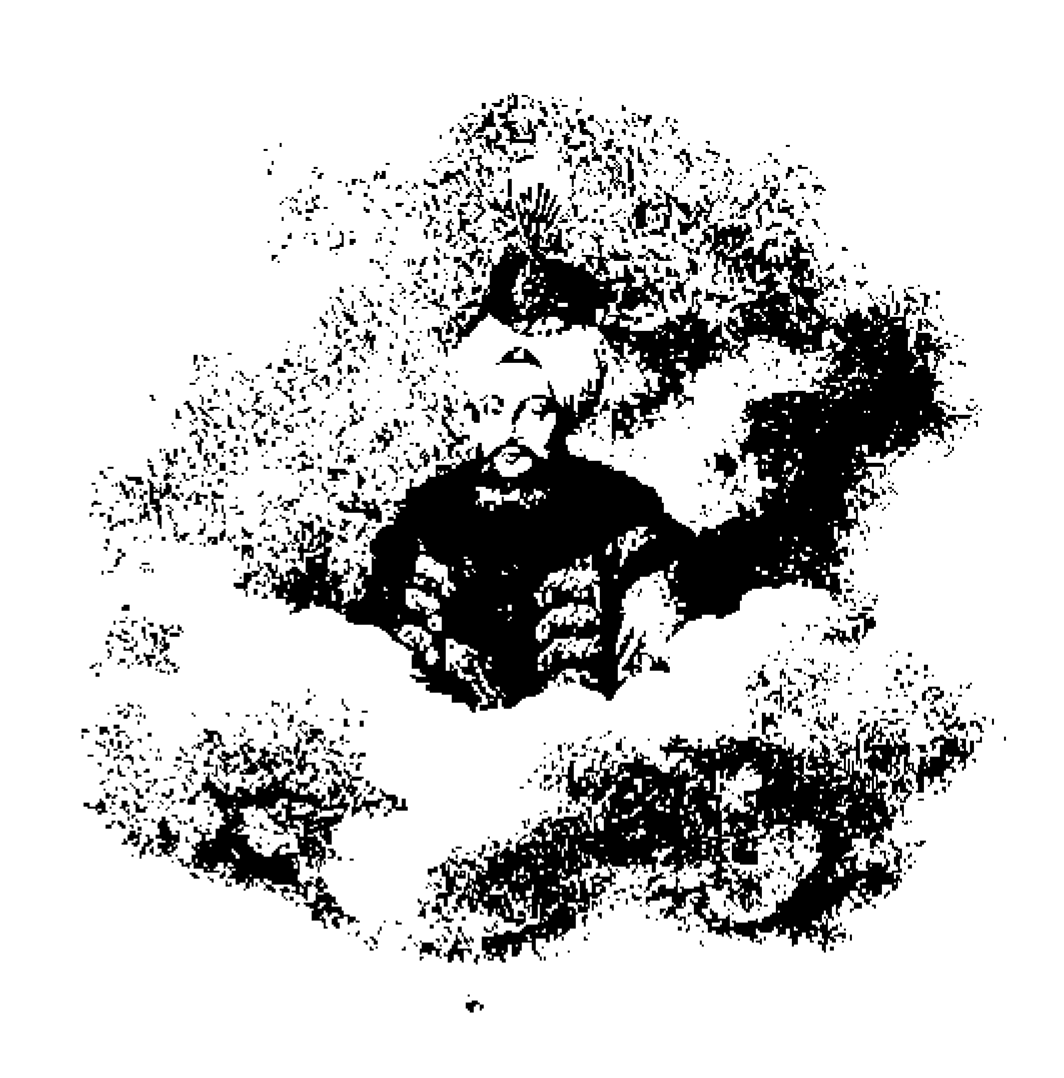




٢٩ - مشاهد من مصر السفلى.



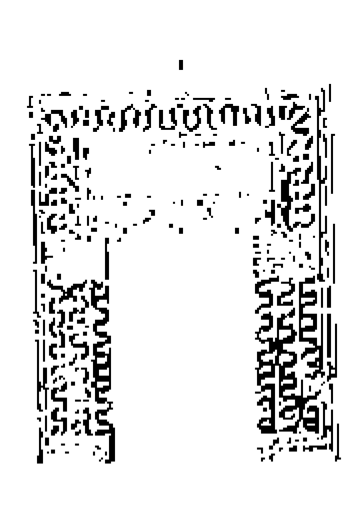
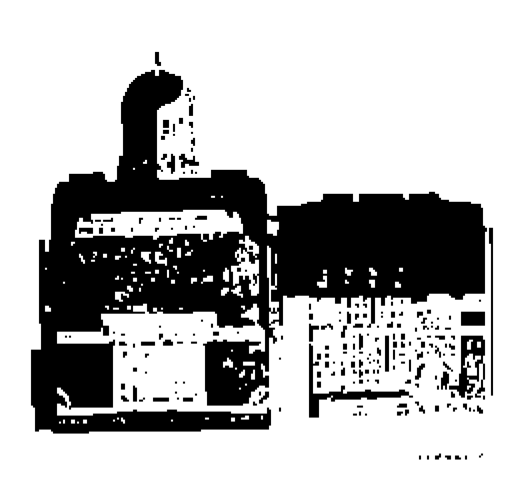
٣٠ - ثلاث قرى على فرع دمياط.



٣١ - (أ) بورتريه سليم الثالث.



(ب) قصر الأبراج السبعة.

٣٢ – المعهد (المجمع العلمى) المصرى.

من جانب السلطات المهيمنة للدور الأساسي لهذه الجماعة الاجتماعية في الأرياف. وإذا كانت أشكال المقاومة الإقليمية والفلاحية للاحتلال قد نبعت بشكل خاص من كبار مشايخ العرب، الذين كانوا يكفلون وظائف متولي إدارة الأراضي، الملتزم، وكانوا رأس التضامنات القبلية والعائلية (العصبيات) الفلاحية والبدوية، فإن مشايخ البلد قد أدركوا بسرعة أهمية التحالف مع العسكريين الفرنسيين للقضاء على الضغط البدوي. ولم يك من شأن إخفاء الجزء الأعظم من الالتزامات، التي جرى تحويلها إلى ممتلكات عامة كما حدث لممتلكات أعداء الثورة (في فرنسا – المترجم)، والوعود الملتبسة التي قدمها الفرنسيون (١٣٦) الذين تركوا الناس يتصورون إعادة توزيع تالية للملكية العقارية، إلا أن تشجع على هذا الولاء الذي يتعارض معه بشكل طبيعي شعور بأن الفرنسيين أعداء للإسلام.

ومنذ البداية، يتصرف الفرنسيون في اتجاه استعادة النظام. ولا يعني ذلك مجرد القضاء على عمليات السلب والنهب التي يقوم بها البدو، بل يعني بوجه أشمل استعادة تماسك النظام الهيدروليكي للوادي، الذي تدهور خلال فترة الفتن التي بدأت بعد موت أبو الذهب. والأمر اليومي الصادر في ٦ فروكتيدور من العام السادس (٢٣ أغسطس ١٧٩٨) يوضح جيداً طموح هذا البرنامج :

«إن نجاحات فيضان النيل إنما تتوقف على صيانة القنوات أو على الأقل الحفاظ عليها. وماليات الجيش، شأنها في ذلك شأن ماليات المصريين، من مصلحتها أن يتم توزيع المياه بنظام وبراعة واقتصاد وتساوٍ.

«وعندما يصل فيضان النيل، يسعى المزارعون متنافسين إلى الاستحواذ على مياه القنوات وإلى تحويلها لحسابهم.

«وبناءً على ذلك فإن القائد العام، إدراكاً منه لوجود عدة محاولات تحت الفعل، يأمر جميع الجنرالات ومساعدي الجنرالات الذين يتولون القيادة في الأقاليم أن يتقدموا في التو والحال إلى أمناء الأقاليم المذكورة بيد العون التي قد يحتاجون إليها، وأن يوفروا الحراس الذين قد يكونون ضروريين.

«ويأمر القائد العام بوجه خاص قائد إقليم القليوبية بحراسة ومراقبة ترعة أبو منجي، وهي إحدى أهم الترع في مصر. لقد اعتاد العرب على مدار الأعوام بذل كل جهودهم لتحويل مياهها؛ وأن يأخذ بعين الاعتبار أنهم إذا نجحوا في ذلك، فإن الجزء الأعظم من الأرض الذي ترويه هذه الترعة سوف يظل مجدباً» (١٣٧).

من الطبيعي أن هذه الاستجابة للنظام أكثر تقدماً في إقليم غرب الدلتا التي سقطت بشكل مبكر أكثر في أيدي الفرنسيين. ومنذ رحيل الإنجليز، يهتم كليبر بإقامة ديوان[128]، الذي يتولى أموره حزب العلماء، وعلى رأسه الشيخ المسيري. وهو يأمر باحتفال مهيب بمولد النبي (٢٣ أغسطس ١٧٩٨). ويواصل إنشاء تحصينات جديدة. وتتزايد ضرورة ذلك بقدر ما أن السفن البرتغالية تنضم إلى السفن البريطانية التي بقيت لفرض الحصار على الميناء. وتحدث تبادلات لنيران المدفعية، حيث يسعى الإنجليز بشكل خاص إلى رصد مواقع البطاريات الفرنسية (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). ثم إن الفيلق البحري، المشكل من البحارة السابقين الناجين من أبو قير، يحل محل الوحدات الموجودة في أبو قير (٢ سبتمبر ١٧٩٨).

والشواغل الأساسية ذات طابع مالي. فالأعمال التي يجري الاضطلاع بها في الإسكندرية تكلف غالياً ثم إنه يجب تأمين النفقات الضرورية لتوجيه مسار المياه خلال فيضان النيل، وشراء حبوب لسكان المدينة التي تجازف بأن تشهد مجاعة. ومن ثم فإنه يتعين فرض ضرائب إلزامية جديدة على التجار واستخدام الأموال التي خصصها بونابارت للبحرية في أغراض أخرى. وكل ذلك يجر على كليبر توبيخاً قاسياً من جانب القائد العام الذي يتهمه بالتبذير البالغ. ويثور الألزاسي (كليبر – المترجم) على ما يعتبره ظلماً ويرد بإباء :

«لقد نسيت، أيها المواطن الجنرال، وأنت تكتب تلك الرسالة، أنك تمسك بإزميل التاريخ وأنك تكتب إلى كليبر، على أنني لا أظن أنك قد راودتك أدنى فكرة غير الفكرة التي أعربت عنها، وإلاَّ فإن المرء لن يصدقك.

«إنني انتظر، أيها المواطن الجنرال، عبر عودة البريد، الأمر بإعفائي من وظائفي ليس فقط في موقع الإسكندرية وإنما أيضاً في الجيش إلى أن تتكون لديك فكرة أفضل عما يجري وعما جرى هنا. إنني لم آت البتة إلى مصر لكي أكوّن ثروة. وقد تمكنت إلى الآن من احتقارها أينما كنت. على أنني لن أسمح أبداً مع ذلك بإحاطتي بأية شبهة».

ويسعى بونابارت إلى تدارك وقع رسالته باستعادة كلمات مخاطبه: «إذا كنت أمسك بإزميل التاريخ، فإن آخر إنسان يمكنه أن يخشى من ذلك هو أنت» [129].

وكان بونابارت قد أرسل مارمون إلى البحيرة وإلى الإسكندرية لتفقد الوضع. والواقع أن القائد العام كان ينوي الاستجابة لمطالب كليبر الذي كان يريد استئناف قيادة

قيادته، وكان يفكر فى أن يحل محله الجنرال مانسكور، الذى وصل مع مارمون إلى الإسكندرية. ويرى مارمون، وهو لم يخطىء فى ذلك، أن البديل المرشح غير كفء. وليس من غير المرجح أنه قد فكر فى نفسه لهذا المنصب(١٣٠). والنتيجة المباشرة للصدام الأول بين بونابارت وكليبر هى تأخير استبدال الثانى فى الإسكندرية.

ويشهد هذا الميناء توافد الحجاج المغاربة العائدين من مكة والذين لا يستطيعون ركوب البحر بسبب الحصار الإنجليزى. ويأمر بونابارت بترحيلهم عبر الطريق البرى وذلك بالرغم من الخطر الذى يتهددهم من جانب البدو (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). وهؤلاء البدو أنفسهم، تحت قيادة عبد الله باشى، يتمكنون فى سد القناة التى يتعين عليها نقل المياه إلى الإسكندرية. وهم يهاجمون أولئك الذين يتعهدون، لدى الفرنسيين، بتأمين انتقال المياه، الأمير إبراهيم الدمنهورى واتباعه. وأمام هذا الخطر الذى ينذر بهلاك المدينة بالكامل، يجن جنون الديوان ويطلب على الفور إلى كليبر اتخاذ أكثر التدابير صرامة. ويقرر هذا الأخير القيام بحملة تأديبية ضد قرية بركة غيطاس المتحالفة مع أولاد على. ويتم نهب القرية وتدميرها بينما يجرى ذبح جانب من السكان (١٤ – ١٥ سبتمبر ١٧٩٨). وعندئذ يقود مارمون طابوراً متحركاً مكلفاً بضمان الأمن على طول القناة. ولا يمنع ذلك الأمير إبــراهيم، الــذى كان قــد طــالب مــع ذلك بهــذا الإجــراء، مــن الانتقــال إلى صف عبد الله باشى.(١٣١)

أمَّا فيما يتعلق بكليبر، الذى لم تنجح رسالة بونابارت فى تهدئة خاطره، فهو يتذرع بعودة الآلام، الناشئة عن الجرح الذى أصيب به خلال الاستيلاء على الإسكندرية، لكى يسلم قيادته للجنرال مانسكور الذى يبدو مع ذلك جد متردد فى قبولها (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). وبعد ذلك بوقت قصير، يطلب عودته إلى فرنسا. وكان لابد من تدخل كافاريللى لمصالحة الجنرال الألزاسى مع بونابارت. وعندئذ يرحل كليبر إلى القاهرة التى يصل إليها لحظة الانتفاضة الأولى للمدينة. وفى رشيد، يصطدم مينو بالمشاكل ذاتها تماماً التى يصطدم بها كليبر فى الإسكندرية: التهديد البحرى الإنجليزى، انعدام الأمن الذى يتسبب فيه البدو، والارتباكات المالية الملحوظة. لكنه يرد على ذلك بشكل مختلف؛ فهو يتحمس لفتح مصر، التى يريد لها أن تتحول إلى مستعمرة فرنسية غنية، تحل محل مستعمرات جـزر الأنتيـل الضــائعة. وســوف تنتــج مصــر وفــرة مــن الــبن والســكر والقطن والنيلة والقرمزية. وبفضلها سوف تصبح فرنسا سيدة تجارة أفريقيا والهند.(١٣٢) وهو يتمسك بانتهاج سياسة نموذجية تجاه أهل البلاد. فهو يحدد مبادئ تاجرة للديوان، الذى أنشأه فى رشيــد، حيث يســرف فــى تقــديم نصــائح حســنة إليه بشــأن ضــرورة ممارسـتـه لمهمتـه بإنصــاف(١٣٣). وهــو يقــوم بجــولة استطــلاعية داخــل إقليمه مــع مارمون والقبطان نيتون

وبولوميو للتوصل إلى تأكيد السلطة الفرنسية وتأمين الاتصالات مع القاهرة (١٢ - ١٩ سبتمبر). ولما كان قد تحرك دون حذر، فإنه يسقط فى كمين فى قرية كفر شباس عامر (شباسى الملح ؟) التى يتم إحراقها انتقاماً. (١٣٤)

وفى ٢٠ سبتمبر يبدأ مارمون عملياته على طول قناة الإسكندرية. وهو يتمتع بقوة مؤلفة من ألفى رجل. ويقوم بتوزيع جزء منهم على مواقع ثابتة بينما يكرس الجزء الآخر لأداء مهام طابور متحرك. وهو يجد عذراً لتخلى الأمير إبراهيم (عن الفرنسيين - المترجم)؛ «وفقاً لكل ما تسنى لى جمعه من معلومات، فإننى أعتقد أن إبراهيم الشوربجى ليس متهماً إلا بالخوف. لقد كان موقفه صعباً، وكان مواجوداً فى وسط يهيمن عليه العرب؛ ولم نقدم إليه أية حماية، وكان يواجه مخاطر عظيمة. إن كثيرين من الشجعان كان من شأنهم أن يتصرفوا بالشكل الذى تصرف به». (١٣٥)

وفى ٣٠ سبتمبر، تصل المياه إلى الإسكندرية، ويجرى البدء بملء الخزانات. وخلال عدة أيام تصبح القناة نفسها صالحة للملاحة، الأمر الذى يسمح بنقل الجزء الأكبر من المدافع والعتاد الحربى الذى ظل فى الميناء بعد النزول إلى القاهرة.

عقد الديوان العمومى

منذ بداية سبتمبر، يبدو فتح الدلتا، بالرغم من العمليات التى ما تزال جارية، متقدماً بما يكفى فى نظر بوناپارت، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومى فى القاهرة لعموم مصر. ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفاً من ثلاثة «فلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب». ويتعين على الجنرالات اختيار هؤلاء الأعيان «من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس، والأكثر تميزاً فى البلاد بمعارفهم ومواهبهم وبأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين؛ وعليهم أن يحرصوا على عدم اختيار أحد من أولئك الذين يقفون ضدنا بشكل سافر» (١٣٦). وموعد الاجتماع هو العاشر من فينديميير من العام السابع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨). وبسبب تأخر وصول بعض الوفود، يجرى تأجيله إلى ١٤ فينديميير (٥ أكتوبر).

وفى ذلك اليوم، تبدو عملية تهدئة الدلتا ناجزة وتسمح أمور كثيرة بتوقع انحياز عام إلى صف الفرنسيين. على أن الحدث الرئيسى، والذى يتمثل فى دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التى تلته، سوف يقلب الوضع.

تحول الإمبراطورية العثمانية
إلى الحرب وحرب الدعاية
سليم الثالث

خلال الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، أدرك المسئولون السياسيون العثمانيون انقلاب علاقة القوى بين الدول الأوروبية والإمبراطورية الإسلامية العظمى. وقد أوضحت لهم حرب ١٧٦٨ – ١٧٧٤ أن مصير دولتهم نفسه قد صار مهدداً. على أنهم كانوا مؤمنين إيماناً عميقاً بالتفوق المتأصل للحضارة الإسلامية، القائمة على الدين الحق، وانتهوا إلى تفسير الوضع القائم بوصفه نتيجة لانحطاط المؤسسات السياسية، الصحيحة من حيث أسسها، ومن ثم فإن للمصلحين الأوائل يثنون على عودة إلى روح وأشكال السلطة التى عرفها عصر السلاطين الفاتحين العظام فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومثل هذا البرنامج، على الرغم من أنه لا يمثل محاكاة لأوروبا، هو بالفعل برنامج ثورى، بقدر ما أنه يهدد الاستحواذ على مغانم ضخمة من جانب جماعات اجتماعية وسياسية مختلفة.

وفى المجال العسكرى بالتحديد يبدو الإصلاح أكثر ضرورة. لكن التحرك فى هذا القطاع ينطوى على مجازفات سياسية كبرى. فالمؤسسات العسكرية القديمة كمؤسسات الأنكشارية (المرتبطة كما فى القاهرة بطبقات التجار والحرفيين المدينية) ترفض أية دعوة إلى الانضباط القديم كما ترفض أى تكيف مع التقنيات القتالية الجديدة. وهى مستعدة للتصدى بالسلاح لأى تغيير سياسى يهدد هيمنتها فى المجتمع ويمكنها تبرير تحركها باسم الدفاع عن المجتمع الإسلامى ضد تعسف سلطة مستبدة. وهذا الدفاع عن الإسلام، يتذرع به أنصار الإصلاحات بدورهم عندما يطالبون بتزويد الدولة بالإمكانات اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية التى تتزايد خطورتها باستمرار كما يشهد على ذلك ضم القرم إلى روسيا.

وقد أدركوا أن المقاومة لا يمكن أن تتم إلاّ عبر اللجوء إلى الفنيين العسكريين الأوروبيين، لكنهم يتمنون قصر هذا اللجوء إلى أوروبا على مسائل التقنية الخالصة حتى لا يضطروا إلى نبذ أسس مجتمعهم ذاتها. وأياً كان الأمر، فمن الخطر بما يكفى بالفعل الهجوم على التنظيم العسكرى التقليدى. وهكذا، فعلى مدار القرن، بذلت محاولات مختلفة باستخدام أوروبيين، متحولين بهذه الدرجة أو تلك من الإخلاص إلى اعتناق الإسلام، فى البداية، ثم باستخدام خبراء موفدين من جانب دول أوروبية، كفرنسا.

ويتجلى هذا الوضع في أزمة النموذج الوزاري للحكم، الذي يتمثل في تخفيف عجز السلاطين، من خلال عمل رجال دولة أقوياء. والتعاقب السريع للصدور العظام في القرن الثامن عشر يترجم بوضوح الارتباك السياسي المميز للعصر. ويجري إدخال تغيير جذري مع صعود سلطان يملك نية الحكم، أو، على أية حال، إعطاء جهاز الدولة توجهات جديدة، وهذا السلطان هو سليم الثالث. (١٢٧)

والحال أن سليم الثالث، الذي ولد في ٢٤ ديسمبر ١٧٦١، قد تلقى تعليماً مفتوحاً بشكل غير عادي على العالم الخارجي بالنسبة لأمير عثماني جرت العادة على أن يكون معتكفاً في السراي. وبسرعة بالغة، فإنه يحيط نفسه بمجموعة من الشباب الذين يشاطرونه الحس الإصلاحي عينه. بل إنه قد قام في عام ١٧٨٦ بإرسال أحد رفاقه، إسحق بك، إلى بلاط فرساي لطلب عون لويس السادس عشر ضد الخطر الروسي. وقد ذكر دون طائل بالصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، فهو لم يتلق غير رفض مهذب من جانب بلاط فرنسا. وعلاوة على ذلك، فإن الحكومة الفرنسية تأمر بسحب مستشاريها لحظة بدء الحرب الثانية. وهكذا فعندما يرتقي سليم الثالث العرش، في إبريل ١٧٨٩، تجد الإمبراطورية نفسها منخرطة، دون حليف حقيقي، في حرب مشئومة مع النمسا وروسيا. ويتعين إيلاء الأولوية للمسائل العسكرية، والسلطان الجديد هو أحد الأنصار الأكثر عزماً لسياسة مقاومة الغزوات الأوروبية. على أن الوضع يتزايد تدهوراً في أواخر عام ١٧٨٩.

وتؤدي الثورة إلى الإسراع بفك ارتباط السياسة الفرنسية بالمسائل الشرقية، الذي بدأ بعد موت فيرجان. ومن ثم يتعين على العثمانيين الاتجاه إلى حلفاء جدد. وتمهيداً لما سوف يشهده القرن التاسع عشر، فإن مصير الإمبراطورية يستند بشكل مطرد على الآليات المعقدة للتوازن الأوروبي. وفي عام ١٧٩٠، كان أبطال المشهد هما دولتا الشمال، إنجلترا وبروسيا؛ الثانية لأنها لا تستطيع السماح بتوسعات دون تعويضات من جانب جيرانها النمساويين والروس، والأولى لأن التوسع الروسي على حساب الدول الإسلامية يهدد إمبراطوريتها الهندية الآخذة في التشكل. وهذه الدوافع التي تقود إلى تقارب مع الإمبراطورية العثمانية تجعل هذا الالتقاء هشاً تماماً، لأن هذه الدول، بمجرد تحقيق مصالحها، مستعدة للتخلي دون أسف عن مصالح الإمبراطورية العثمانية. وسيدرك الباب العالي ذلك إدراكاً أليماً في السنوات التالية.

والحال أن الثورة والتقسيم الثانى لبولندا يدفعان دول القارة الأوروبية إلى التخلى مؤقتاً عن المسألة الشرقية. كما أن عودة إنجلترا إلى البحر المتوسط تسهم فى ذلك إلى حد بعيد. وترتبط هذه اللحظة الجوهرية بأزمة أوشاكوف الدولية فى ربيع عام ١٧٩١. فإذا ما استولى الروس على هذا الحصن العثمانى، فإنهم يصبحون سادة لجميع الضفاف الشمالية للبحر الأسود. وكان بيت وبونداس (المتحدث بلسان المصالح الأنجلو - هندية) على استعداد لإرسال أسطول إنجليزى إلى البحر الأسود للتصدى لذلك الخطر. وفى نهاية الأمر، يتغلب الروس، ويسمح التدخل الإنجليزى بالتسوية النهائية لصلح ياسى فى يناير ١٧٩٢. ولأول مرة، يضطر المسئولون الإنجليز إلى الفصل فى نزاع بين مصالحهم المباشرة فى أوروبا، وهى هنا تجارة البلطيق المهمة، ومصالحهم الطويلة الأجل فى الشرق. ويستهل اللورد إيلجين عندئذ بداياته السياسية، بتحذيره من مخاطر سيطرة روسية فى البلقان والقوقاز، ومن مخاطر سيطرة فرنسية فى البحر المتوسط كما يستهل بداياته الدبلوماسية بالتفاوض مع بروسيا على العون الذى يجب تقديمه إلى العثمانيين، ويبدا الدفاع عن وحدة أراضى الإمبراطورية العثمانية فى الاندراج فى المذهب السياسى للمسئولين الإنجليز، إن حماية الهند إنما تمر عبر البحر الأحمر ومصر وشرقى البحر المتوسط. (١٣٨)

الإصلاحات والثورة الفرنسية

إن عودة السلم بالنسبة للإمبراطورية العثمانية معاصرة لنشوب حروب الائتلاف الأول. وتسعى لجنة الخلاص العام وخليفتها إلى الحصول من الباب العالى على دور إلهاء فعال ضد النمسا وروسيا. كما أنها تسعى إلى انتهاج سياسة شرقية تدفع الإمبراطورية إلى الدخول فى الحرب (١٣٩). وبشكل حكيم، يرفض الباب العالى ذلك مع احتفاظه بصلات صداقة مع الدولة الثورية، الأمر الذى يثير عظيم سخط دول الائتلاف الأول.

والشىء الأهم، بالنسبة للسلطان، هو تكوين جيش جديد، النظام الجديد، وفق النموذج الأوروبى وفى توازٍ مع القوات العسكرية التقليدية التى يجرى الإبقاء عليها بسبب ثقلها السياسى. واعتباراً من عهد حكومة الإدارة، تقبل فرنسا أداء هذا العمل بإرسال مستشارين مدربين إلى القسطنطينية. (١٤٠)

كما أن جهد الإصلاحات يجد ترجمة له فى الظهور، الحاسم والنهائى هذه المرة، للطباعة باللغة التركية فى القسطنطينية وفى انفتاح أعظم على العالم الخارجى. ولأول مرة، تنشئ الإمبراطورية سفارات دائمة فى أوروبا. فمنذ عام ١٧٩٣، يجرى افتتاح سفارة فى لندن؛ وفى عام ١٧٩٥، يجىء الدور على برلين وفيينا، ثم يجىء الدور على باريس فى عام ١٧٩٦. وهؤلاء السفراء، خاصة فى فرنسا، يستثيرون فضولا عظيماً من جانب الجمهور.(١٤١)

بل إن الثوار الفرنسيين قد حاولوا الاضطلاع بجهد دعائى (١٤٢). فسفارة فرنسا تتمتع بدار نشر صغيرة تصدر بشكل عرضى، بالفرنسية، صحفاً تورد أخبار أحداث فرنسا؛ ثم إن النصوص الأكثر أهمية، مثل إعلان حقوق الإنسان أو مختلف الدساتير الفرنسية، قد ترجمت إلى التركية، بالرغم من الصعوبات الواضحة فى العثور على مصطلحات (تركية) مناظرة بدقة لبعض المصطلحات (الفرنسية). والحال أن عناصر الأقليات المسيحية، خاصة اليونانيين والأرمن، يبدون جد متجاوبين مع هذه الأفكار الجديدة ولا يترددون فى ارتداء الشارات الثورية كالشارة الثلاثية الألوان. ويستثير هذا الموقف انزعاج الحكومة العثمانية.

ويتزايد الانزعاج عندما يقوم فرنسيو جيش حملة إيطاليا خلال صيف عام ١٧٩٧ بتدمير البندقية وبالاستيلاء على الجزر الأيونية. إن بونابرت الذى يفكر فى الشرق، يجرى اتصالات مع حكام الولايات البلقانية الأقوياء ومع يونانيى الإمبراطورية. وهذا التحرك لا يمر دون رصد من جانب الباب العالى. فهو يحتج رسمياً لدى السلطات الفرنسية ويعيد غالبية المستشارين العسكريين الفرنسيين ويرفض الاعتراف بمعاهدة كامبو – فورميو التى تكرس اختفاء البندقية. إنها ثانى شريك تقليدى للباب العالى يختفى (حيث كانت بولندا أول شريك يختفى). ويرى العثمانيون فى ذلك محقين نذير خطر جديد، وتبدو فرنسا بالنسبة لهم قوة عظمى توسعية إضافية قائمة على حدودهم وذات أطماع إقليمية خطرة. ومع موت أوبير – دوبايه، سفير فرنسا، يتأخر تاليران فى تعيين خلف له، ويترك بيير روفان، وهو ترجمان يملك دراية عظيمة بالشئون العثمانية، كقائم بالأعمال. فوفقاً للخطة التى وضعت بالاشتراك مع بونابرت، يتعين على تاليران نفسه الذهاب إلى القسطنطينية، وهو يحرر تعليماته الخاصة التى يقدمها إلى حكومة الإدارة فى ١٦ مارس ١٧٩٨،

«إن كل ما قيل في هذه التعليمات يجب أن يقنع المواطن... (١٤٣) بأن حكومة الإدارة لا تريد لا الحرب ولا القطيعة مع الإمبراطورية العثمانية. إنها، في واقع الأمر، عازمة على احتلال مصر للدوافع المبينة أعلاه، ولأنه وسيلة أكيدة لإضعاف وتدمير الإنجليز في الهند؛ لكن ذلك لا يمكنه على أية حال أن يدفعها إلى المساس بحقوق السلطان في الأجزاء الأخرى من إمبراطوريته. فهي تدرك جيداً أن دمار هذه الإمبراطورية لا يمكن إلا أن يصبح في صالح النمسا وروسيا. ومن ثم فإن وجودها، من أكثر من زاوية، إنما يندرج ضمن المصالح الواضحة للجمهورية، شريطة أن تظل هذه الأخيرة حائزة لمصر. ومن ثم فإن المواطن... سوف يبذل كل ما في وسعه لدفع الباب العالي إلى سبل التصالح ولإقناعه بأن حكومة الإدارة التنفيذية ليس لديها أي مخطط للاتحاد مع أعدائه الطبيعيين في أوروبا وأنها مستعدة أكثر من ذي قبل لأن تقدم إليه البراهين المقنعة على ذلك». (١٤٤)

والحال أن الاستعدادات في طولون في ربيع عام ١٧٩٨ قد فسرها الباب العالي، محقاً، بأنها خطر أكيد على أرض عثمانية، بينما حصل بوناپارت من تاليران على تأكيد بأن يؤخر لأطول وقت ممكن التحرك الدبلوماسي سعياً إلى الحفاظ على سرية مشروعة. وسرعان ما تتكشف فائدة الشبكة الجديدة من السفارات. فبالرغم من نفي الفرنسيين المتكرر، يحذر العثمانيون جميع الولايات من خطر العدوان، ويوضحون أن من شأن عمل كهذا أن يستتبع بالضرورة دخول الإمبراطورية إلى الحرب (١٤٥). ولا يصل التحذير إلى المماليك والفرنسيين إلا في أواخر يوليو ١٧٩٨ (١٤٦).

ومما يزيد من تعقيد الأمور أن الإمبراطورية تضطر إلى التصدي في الفترة نفسها لتمرد پاسفانوغلو الرهيب في بلغاريا الغربية. فخلافاً للسلطات شبه المستقلة الأخرى، ينتهج پاسفانوغلو سياسة حرب سافرة ضد الباب العالي ويسعى إلى أن يحشد حوله جميع خصوم الإصلاحات. وتنشغل الجيوش العثمانية الرئيسية بمحاربته، وتتم محاصرته في عاصمته ڤيدين، عندما يصل نبأ الاستيلاء على مالطة. (١٤٧)

القطيعة مع فرنسا

تكثف السفارة الإنجليزية تحركاتها لدى العثمانيين المقتنعين بالفعل بالخطر الفرنسي. وفي ١٧ يوليو يصل نبأ الاستيلاء على الإسكندرية عبر شهادات شفهية. ويتأكد بمزيد من التفصيلات عبر رواية قبطان ميناء الإسكندرية (ليمان ريس) الذي تمكن من

الهرب إلى قبرص. وينقسم المسئولون العثمانيون إلى من يريدون الدخول فى حرب ضد فرنسا، ومن يحلمون بالتوصل إلى تسوية مع الفرنسيين ويستعدون لتبنى جانب من مبرراتهم.(١٤٨)

لكن ترددات الحكومة العثمانية لا تستمر طويلا. ويبدى سكان العاصمة سخطهم، فيما عدا أنصار فرنسا، «حملة الشارة الثلاثية الألوان» وأنصار پاسڤانوغلو الذين يبتهجون لظهور جبهة جديدة تحول الأنظار من جبهة بلغاريا الغربية. وكانت حجج فرنسا قد شقت طريقها إلى شريحة من النخبة البيروقراطية الإمبراطورية، لكن خطر التذمرات الشعبية، وضغوط الدول الأوروبية الأخرى، وعزم السلطان قد حسمت الموقف (١٤٩). وبوجه خاص، فإن الباب العالى يرى فى إنجلترا الدولة العظمى التى حتم القدر أن تصبح حليفة له. ومنذ أول أغسطس، يقترح على سپنسر سميث عقد معاهدة تحالف أبدىّ تضمن حرمة أراضى الإمبراطورية العثمانية ووحدتها. وعلى الرغم من أن القائم بالأعمال الإنجليزى لا يملك الصلاحيات الضرورية لعمل كهذا، فإنه يؤيده بحرارة. (١٥٠)

ويتدهور موقف الفرنسيين بسرعة؛ فهم يجدون أنفسهم مجبرين على عدم الخروج من منازلهم، أكان ذلك فى العاصمة أم فى الولايات، ثم يجرى احتجازهم ببساطة لاستخدامهم كرهائن لضمان أمن المصريين (١٥١). ومن ثم فإن عمل بوناپارت قد دمر بالكامل كل شبكة الثغور التجارية التى كانت الثورة قد أربكتها بالفعل. وتأمر السلطات بإعداد فتوى من جانب العلماء ضد الفرنسيين إلى جانب رسالة بابوية من جانب بطريرك القسطنطينية اليونانى؛ (١٥٢) والحال أن بيانات بوناپارت التى زعمت أنه يتصرف بناءً على رضاء من جانب الباب العالى إنما تعزز السخط الشعبى ضد السلطة. (١٥٣) وتضطر هذه الأخيرة إلى اتخاذ الموقف الأكثر تشدداً لإثبات صلابتها. ومن المؤكد أن بوناپارت لم يكن يتوقع هذا الأثر السيىء لدعايته، وسعياً إلى النضال ضد العدوان الفرنسى، يدعو الباب العالى إلى تضامن كافة المسلمين.

البيان العثمانى

إن نبأ تدمير الأسطول الفرنسى فى أبو قير، والذى وصل إلى القسطنطينية نحو ٢١ أغسطس ١٧٩٨، إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين. وفى ٢ سبتمبر، يجرى

احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين، وفقاً للعرف، في قصر الأبراج السبعة. والحال أن تاليران، الذي كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير في القسطنطينية ينذر بألاَّ يكون سعيداً البتة، كان قد تخلى منذ وقت طويل عن هذا المنصب ومهن فيه السفير السابق للمؤتمر، ديكورش دو سان – كروا. (١٠٤) وكان هذا الأخير قد أجرى استعداداته، لكن قطع العلاقات الدبلوماسية يحول دون رحيله. والواقع أن الباب العالي ينشر في ٩ سبتمبر ١٧٩٨ بيانه الحربي: إن فرنسا قد خانت بفظاعة الصداقة التقليدية التي كانت تربطها بالباب العالي؛ وهذه الخيانة جد مشينة، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية، خلال ائتلاف دول أوروبا ضد فرنسا، قد تمسكت بحياد عطوف وسمحت بإمداد فرنسا التي تتهددها المجاعة بالمؤن. وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب في الولايات الأوروبية للإمبراطورية، ثم اقتحمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويفية لدى الباب العالي.

«واستناداً إلى ما شهدناه حتى الآن من تصرفات تعسفية وتحكمية من جانب حكومة الإدارة، فإنها لا تهدف إلاَّ إلى زعزعة نظام وانسجام العالم برمته وتمزيق الأواصر التي تربط بين الشعوب والأمم. وتبعاً لما يناسبها، فإنها تستخدم تارة الدسائس السرية وتلجأ إلى الوسائل المستترة، وتستخدم الحديد والنار على المكشوف تارة أخرى، لكي تطيح بدساتير الدول، وتقيم، كما فعلت في إيطاليا، كثرة من الجمهوريات الصغيرة التي تود فرنسا أن تكون الجمهورية الأم لها، ومن الواضح أنها تنتزع لنفسها في كل مكان حق تسوية الشئون العامة على هواها.

«ولما كانت مصر هي بوابة المدينتين المقدستين، المدينة ومكة، فإن هذه المسألة تتميز بالنسبة للمسلمين بالأهمية الكبرى ووفقاً للبيانات التي أصدرها الباب العالي بالفعل في هذا الشأن [...] فإن الهجوم الجائر والمباغت والأعمال الحربية من جانب فرنسا يجب، بموجب شرائع العدل والرحمة وعون الله سبحانه وتعالى، دفعها بالقوة، وعلى ثقة تامة من رحمة وعون الله سبحانه وتعالى، فقد اتخذنا ترتيباً على ذلك جميع التدابير لدفع الاعتداءات براً وبحراً، وتقرر، لقهر وسحق الأعداء، أن من الواجب الديني على كل مسلم الخروج للحرب ضد فرنسا» (١٠٥).

وبإعلان الجهاد على هذا النحو، فإن الباب العالي يتعين عليه تحديد سبل تحركه. ويجرى إرسال سلسلة بأكملها من الفرمانات (١٠٦) إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات. (١٠٧)

وساعتئذ، يصبح الشيء الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزار. فإذا ما اختار هذا الأخير الوفاق مع الفرنسيين، فإن وضع الباب العالى سوف يصبح صعباً. ومما يسعد هذا الأخير، أن سيد عكا قد أدرك أن الفرنسيين فى مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالى، الأبعد بكثير، والذى يحتفظ معه دائماً، بوجه عام، بعلاقات طيبة. وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذين يبدى لهم رغبته فى القتال. (١٥٨)

التحالف مع روسيا وإنجلترا

تأثر قرار الدخول فى الحرب بالضغوط الروسية أيضاً. على أن بول الأول كان قد أبدى فى بداية عهده رغبته فى اتباع سياسة سلمية وساعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التى خيضت فى زمن كاترين العظيمة. لكن وجود الفرنسيين فى البحر المتوسط، وخاصة فى البحر الأدرياتى، إنما يشكل فى نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية فى المنطقة. وقد جرى تفسير حشد القوات فى طولون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا، ويتم وضع أسطول البحر الأسود فى حالة استنفار. ويقود الاستيلاء على مالطه إلى اتخاذ قرار بمحاربة فرنسا، فمن اللازم حشد جيش يتألف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية – العثمانية، ويتمركز الأسطول البحرى الروسى على مقربة من المضائق، ومنذ ٢٤ يوليو يجرى اقتراح تحالف على إنجلترا. (١٥٩)

وهكذا يجد الباب العالى نفسه مدفوعاً إلى التعاون مع روسيا ؛ وترسو السفن الروسية قبالة القسطنطينية فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨ وتبدأ المحادثات العسكرية فى ٥ سبتمبر. وبالرغم من المطالب الإنجليزية، فإنه يجرى إيلاء الأولوية للبلقان. والحال أن الجزء الرئيسى من الأسطول العثمانى، الذى أصبح من جديد مهماً بفضل عمل سليم الثالث، يجرى إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأيونى، بالتعاون مع الأساطيل الروسية. وينجز الفريقان حشدهما فى ١٩ سبتمبر فى عرض الدردنيل الذى يغادرانه فى الأول من أكتوبر. وتسقط الجزر بسرعة فى أيدى الأتراك والروس (سيرجيو فى ١٣ أكتوبر، زانت فى ٢٤ أكتوبر، سيفالونيا فى ٢٨ أكتوبر، سانت – مور فى ١٣ نوفمبر، وإيثاكا فى ١٥ نوفمبر). وعندئذ يجرى حصار كورفو، القاعدة الفرنسية الرئيسية. (١٦٠) وسوف يقاومه الجنرال شابو حتى ٣ مارس ١٧٩٩.

وكانت إنجلترا قد أولت الأولوية للدفاع عن الهند. وبمجرد تلقى خبر رحيل الفرنسيين فى لندن، سارع دونداس، الذى كان آنذاك وزيراً للحربية، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند. وبما أن قوات إنجلترا البرية ضعيفة، فإنها تضطر إلى سحب قوات من البرتغال، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد. (١٦١) والمسافة جد طويلة لأنه يتعين المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح. ويأمل البريطانيون فى أن تصل قواتهم إلى الهند قبل الجيش الفرنسي الذى تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر. ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر. والباب العالى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزى إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب المدينتين المقدستين، ومن ثم فإن الحظر العثماني القديم يختفى بسبب الظروف. (١٦٢)

والحال أن انتصار أبو قير (الذى سماه الإنجليز بمعركة النيل) يوهم البريطانيين بأن الجيش الفرنسي قد بات محكوماً عليه بالهلاك بسرعة. ويؤكد نيلسون بقوة أنه قد أجهز من الناحية العملية على الخطر الذى يمثله جيش بونابارت. ورسائل الفرنسيين، التى يعترض الأسطول البريطاني سبيلها ويستولى عليها والتى يسارع الإنجليز إلى نشرها (١٦٣)، تعطى صورة مبالغاً فيها عن جيش يائس ومتفسخ بالكامل. وحتى نهاية الحملة، سوف تقلل حكومة لندن من شأن القدرة القتالية للجيش بالسماح لنفسها بأن تنخدع بمظاهر مزاج الجنود الفرنسيين المنحرف. إلا أنه يتعين عليها الآن إنجاز سد مدخل شرقى البحر المتوسط بمحاصرة مالطة. وهذا أمر سهل بقدر ما أن المالطيين يتمردون من تلقاء أنفسهم ضد الفرنسيين الذين يقودهم الجنرال فوبوا، فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨، ويحاصرونهم فى لافاليت. ثم أن الأسطول البرتغالى، العائد من سواحل مصر، وبعد رسوه فى نابولى، سوف يقدم دعمه إلى المتمردين فى ١٩ سبتمبر. وفى ٢٤ أكتوبر، ينضم إليه نيلسون الذى كان عليه أن يصلح أولاً فى نابولى الأعطاب التى أصيبت بها سفنه خلال معركة أبوقير. على أن فوبوا سوف يقاوم فى لافاليت حتى ٤ سبتمبر ١٨٠٠.(١٦٤)

والحال أن الانتهاكات الدائمة للحياد من جانب مملكة نابولى والصقليتين لا يمكن اغتفارها من جانب الفرنسيين، وذلك بقدر ما أن الحزب الداعى إلى الحرب والذى تقوده الملكة قد أصبح الحزب المهيمن فى نابولى. وهو يلجأ إلى جنرال نمساوى، هو الجنرال ماك، لتنظيم جيش نابولى. وبالرغم من تحفظات ماك على حالة جيشه، فإنه يضطر إلى

الانتقال إلى القتال، ومنذ ٢٣ نوفمبر ١٧٩٨، يهاجم جمهورية روما، وهي دولة تابعة للجمهورية الفرنسية (١٦٥). وينفتح مسرح جديد للعمليات في جنوب إيطاليا.

حكومة الإدارة وحملة مصر

أدت كارثة أبو قير والقطيعة مع الباب العالي إلى إفهام حكومة الإدارة أنه لم يعد من الوارد إرسال تعزيزات إلى مصر. فالموارد البحرية الهزيلة المتوافرة في البحر المتوسط يجب تخصيصها للجزر الأيونية. والتعليمات الصادرة إلى بونابارت والتي تمت الموافقة عليها في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لا تفعل سوى الاعتراف بواقع فعلي. إن جيش الشرق معزول بالكامل عن المتروبول في حين أن الحرب تعاود النشوب في أوروبا. ولما كانت حكومة الإدارة عاجزة عن إصدار أوامر محددة إلى بونابارت، فإنها تترك له حرية اتخاذ قرار بشأن ما يجب عليه عمله: البقاء في مصر بالصمود في وجه الهجمات التركية، أو مواصلة طريقه إلى الهند بهدف إثارة الانتفاضة الهندية الكبرى ضد انجلترا أو الزحف على القسطنطينية للتعجيل بالاقتسام العظيم للإمبراطورية العثمانية (الأمر الذي يمكنه أن يؤدي إلى شقاق بين أعضاء الائتلاف الآخذ في التشكل): «إن عليك الاختيار، بالاتفاق مع نخبة البواسل والرجال المتميزين المحيطين بك، إلا أننا، أيا كانت الوجهة التي تتجه إليها جهودك، لا ننتظر من عبقرية وحظ بونابارت غير ترتيبات واسعة ونتائج باهرة». (١٦٦) والعزلة شديدة بحيث أن البرقية المؤرخة في ٤ نوفمبر ١٧٩٨ لن تصل إلى الشخص المرسلة إليه إلا في ٢٥ مارس ١٧٩٩...

وفيما يتعلق بشرقي البحر المتوسط، فإن الحكومة الإنجليزية تقرر أن ترسل إلى هناك سيدني سميث، أخ سبنسر سميث، لتولي قيادة حصار مصر ولتنسيق العمليات مع العثمانيين. وهذا التدخل للمهمات سوف يكون مثقلا بالعواقب بقدر ما أن اللورد إيلجين يُعين، في الوقت نفسه، سفيرا لدى القسطنطينية. لكن هذا الأخير سوف يتأخر في تسلم مهام منصبه، تاركا حرية التصرف في تلك الأثناء للأخوين سميث.

الصعاية العثمانية

وهكذا، ففي غضون أشهر قليلة، تجد أصداء حملة مصر ترجمة لها في تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا الثورية يوحد إنجلترا والإمبراطورية العثمانية وروسيا والصقليتين. ومن المفارقات أن المؤتلفين يضطرون إلى إهمال مصر لأن الجزء الرئيسي

من أسطولهم يوجد في البحر الأدرياتي ووسط البحر المتوسط ولأن إنجلترا لا تحوز قوات كافية لجيشها البري. ومن جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العثمانية تحتاج إلى وقت لكي تحشد قوات مهمة وتهاجم مصر براً. ولا يعني ذلك أن العثمانيين لا يفعلون شيئاً من أجل تحرير مصر. على العكس تماماً، ففي مواجهة الدعاية المرائية من جانب الفرنسيين الذين يصورون أنفسهم على أنهم إنما يتصرفون بالاتفاق معهم، سوف يردون سلاح الدعاية إلى صدورهم.

فهم يوزعون في جميع أرجاء الشرق الأدنى نصاً يزعم أنه «صورة ما وقع من الاتفاق بين طائفة الفرانسة الفراعنة الأبالسة والأمر الذي دبروه، والمجلس الذي قرروه وحرروه، وإعمالهم في ذلك على أخذ إقليم مصر وغيرها، بأنواع الحيل ومكرها، وأبواب الحرب والقتال، والطعن والجدال؛ [...] نقلت هذه الصورة منهم بيد بعض عيون المسلمين بالتركية، لعربت بالعبارة العربية». (١٦٧)

وتبدأ هذه المداولات المزعومة باستعادة الأفكار الرئيسية؛ ثراء مصر، الحكومات السيئة ومظالم المماليك، ضرورة محاربة الإنجليز في الهند. وبعد تأكيد صحة نسب النص على هذا النحو، يجري الانتقال إلى صميم الموضوع، حيث لا يعدو الأمر كله أن يكون خداعاً من جانب الفرنسيين؛ «وترسلون أخباراً إلى أمراء مصر البهية، وتعرفونهم بطريق المكر والخديعة، إننا مقصدنا يا أمراء مصر وأعيانها، أن نعمل معكم كل خير، ونبعد عنكم كل ضير، ونجعلكم مستقلين ومنفردين بأحكامكم في سائر إقليمكم، ولا نجعل لأحد عليكم سبيلا، وتكونوا أقوى قبيلا، ونخرجكم من تحت يد من يحكمكم من الأنام، من كل خاص وعام، بحيث لا تكون عليكم يد من أحد ونكون وإياكم حالة واحدة إلى الأبد، وإذا أخذنا بلاداً أخرى من غير بلادكم، جعلناها لكم، فأنتم أولى بها وأحرى، ونفوض أمر البلاد إليكم، ونعتمد في أمورنا عليكم، فإذا كنتم أيها الأمراء على هذا المنوال، حصل لنا ولكم المقصود الأعظم وامتنع الاختلال، ومعلوم عندنا أن فيكم قوة لذلك، واستعداداً لما هنالك، بل همتكم أعلى، ورأيكم أجلى، لأنكم موصوفون بالقوة والشجاعة، معروفون بالمهابة والبراعة، فبناءً على ذلك أردنا أن نكون معكم أيها الأمراء على هذا المجال [كذا]. ومعينين لكم في سائر الأحوال». (١٨٦)

والواقع أن نوايا الفرنسيين شيطانية، «فقد اتفقت آراؤهم وارتبطت أفكارهم على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأقطار عباد الله الموحدين [...] فإذا وصلنا أقطارهم

وحللنا بديارهم، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب، والقتل والنهب، والقوى منهم تنصب له شرائك المكر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمن ضمائرهم، إلى أن يقعوا فى أشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا ونلقى بين سائر المسلمين المكائد الخفية بالفساد، لإيقاع العداوة المباينة للاتحاد، فى أحوالهم وأديانهم [...]. فإن أعظم ما يشتت جموع الإسلام ويفل حد سنانهم عن الانتظام، هدم قبلتهم، وحرق مساجدهم، وإذا ظفرنا بأقطارهم وهدمت كعبتهم، ومسجد نبيهم، وبيت مقدس لهم، انقطع أملهم وتفرق شملهم، وملكنا ديارهم، فإن الأمور لا يحركها إلا اتفاق الجمهور، فنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم، فحينئذ تقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم ويحوّل بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا ولساننا وديننا، فيمتحى الإسلام وقواعده وشرائعه، وتندرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها وعربها وعجمها».

وبالرغم من فجاجة التعبيرات، فإن مرامى برنامج الحضارة فى الأجل الطويل يجرى إدراكها بوضوح.

وختاماً، يدعو العثمانيون جميع المسلمين إلى الاتحاد فى مقاومة الفرنسيين، وإلى التزام الحذر وتفادى الشراك التى ينصبها هؤلاء الأخيرون لبث الفرقة بين صفوفهم. وفى تلك الأثناء، يجهز الباب العالى للمساعدات لتحرير مصر: «ونحن فى طرف السلطنة السنية، نشرنا راياتنا العلية وبحول الله وقوته وباهر عظمته، تملكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة، وقد سيرنا عليهم شجعان لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الله، وغزاة يقتحمون على النار محبة فى دين الله، فنتغلب بقدرة الله لديارهم، لعل الله تعالى يرزقنا بهلاكهم ودمارهم، فنجعلهم إن شاء الله هباءً منثوراً، كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً [...] «باءوا بغضب من الله» [...] آمين، آمين» (١٦٩).

وعلاوة على المواجهة العامة بين الإسلام والثورة الفرنسية، فإن الهدف المباشر واضح. وهو يتمثل فى مواجهة انعقاد الديوان العمومى الذى دعاه بونابارت إلى الانعقاد. والحال أن شهر أكتوبر ١٧٩٨ سوف يشهد المواجهة بين دعايتين، وسوف يسمح بمعرفة الاتجاه الذى يميل إليه الرأى العام المصرى.

حواشي الفصل الرابع

١ - Bonaparte au Directoite, le 2 fructidor an VI (19 août 1798), *Correspondance...*, IV, pp. 503 - 504.

٢ - *Campagnes...*, XIX, p. 547 إذا كان مصطلح الإمبراطورية لا يظهر في مراسلاته آنذاك، فإن مصطلح الأمور العظيمة يوجد فيها في مناسبات عديدة.

٣ - *Courier de l'Égypte*, n° 1, le 12 fructidor an VI, 29 août 1798. J'ai maintenu l'orthographe du texte. Voir aussi B6 6, le procés - verbal de la rupture du canal du Caire fait en présence du général en chef Bonaparte (en arabe et en français).

٤ - عهد بونابرت إلى مارمون، في الأول من فروكتيدور من العام السادس (١٨ أغسطس ١٧٩٨)، بقيادة طابور متحرك يجمع قوات دوموي ويريب ومكلف بتأمين وصول المياه العذبة إلى الإسكندرية ومراقبة الأسطول الإنجليزي.

٥ - *Mudda*, pp. 25 - 26.

٦ - Récit équivalent dans les *Aja'ib* et *la Mudda*.

٧ - LA JONQUIÈRE, II, pp. 481 - 482.

٨ - *Histoire Scientifique*, III, pp. 376 - 376.

٩ - Texte dans B 6 6. Il est analogue à celui du *Courrier d'Égypte* et a été imprimé à Alexandrie.

١٠ - B6 6, copie datant de l'an VII à Toulouse d'une lettre du général Dupuy au citoyen Deville négociant à Toulouse

١١ - Arrêté portant création de l'institut d'Égypte, *Correspondance...*, IV, pp. 534 - 539.

١٢ - Liste dans la *Correspondance...*, IV, pp. 539 - 540.

١٢ مكرر - *Décade Égyptienne*, I, 15. Cela correspond au début de l'an VII (fin septembre 1798). *La Décade Égyptienne* s'inspire de *la Decade Philosophique, Littéraire et Politique*, organe des idéologues. Ce journal salue d'ailleurs la naissance de sa cadette : "C'est une sœur que notre Décade a en Égypte, comme l'Institut national y a un frére.: (an VII, 1er trimestre, pp. 563).

١٢ – Étude essentielle sur la question, Amin Sami WASSEF, *L'information et la presse officielle en Égypte jusqu' à la fin de l'occupation française*, Le Caire, I.F.A.O., 1975 et Ahmad Husayn AL SAWI, *Fajr al sahâfat, dirâsat fi i' lam al Hamla al firansiyya*, Le Cire, 1975 (L'aube de la presse en Égypte : étude sur les moyens d'informations de l'expédition française).

١٤ – N°2, le 16 fructidor an VI (2 septembre 1798).

١٥ – N° 3, le 20 frimaire (sic pour fructidor) an VI (6 septembre 1798).

١٦ – N°4, le 24 fructidor an VI (10 septembre 1798).

١٧ – JABARTI, COUQ, p. 50 et *Mudda*, p. 40.

١٨ – الجبرتي، المدة، ص ٤٠؛ من المحتمل أن الهبوط قد انتقل من ٢٢٠٠٠ بارة يوميا إلى ١٠٠٠ بارة. ويحدد قرار أصدره بونابارت في ١٨ فروكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) مرتبات أعضاء الديوان بـ ١٥٠ فرنكا في الشهر. أما نفقات عمل الديوان ونفقات شرطة المدن فقد غطيت عن طريق ضريبة على الدور، *Correspondance*..., IV, p. 641.

١٩ – إن بوسيلج هو الذي يوجه بونابارت إلى هذه السياسة، *Histoire Scientifique*, III, p. 146.

٢٠ – في المدة، يتهم الجبرتي الأقباط بالتصرف كـ «الحكام» وبالتكثيف المتعمد للمعاملات السيئة ضد المسلمين (ص ص ٤٠ – ٤١). وفي عجائب الآثار، تختفي الإشارة الطائفية. (COUQ, p. 50). Cuoq traduit hukkam par gens de tribunaux, il me semble qu'il s'agit là de gouvernants comme l'a traduit Moreh (rulers).

٢١ – المدة، ص ص ٤٤ – ٤٥. تختفي هذه الملاحظات من عجائب الآثار (COUQ, p. 150) بل إن موت محمد كريم لا يشار إليه إلا في وفيات سنة ١٢١٢ وليس في سياق تداول الأحداث.

٢٢ – بل إن نقولا الترك يرى في ذلك سببا رئيسيا لسخط المسلمين، حيث إن محمد كريم هو من نسل النبي. (WIET, p. 32)

٢٣ – إننا ما تابعنا تسلسل أحداث المدة الذي يضع الحادث في اليوم نفسه (وفيه). أما كتاب عجائب الآثار، فإنه يتضمن الصيغة نفسها، لكن الإشارة إلى موت محمد كريم لا يجري إدخالها فيها بعد، ومن هنا تاريخ سابق بخمسة أيام. ويعزز ذلك الافتراض حدوث تعديلات متأخرة لهذا النص الأخير وإمكانية حدوث ارتباكات في تحديد التواريخ. ومن جهة أخرى، لابد من الإشارة إلى أنه، وفقا لمراسلات نابوليون الأول، فإن الأمر الخاص بارتداء الشارة الوطنية الفرنسية إنما يرجع إلى ١٨ فروكتيدور من العام السادس (٤ سبتمبر ١٧٩٨) (IV, p. 647)

٢٤ – *Mudda*, p. 46.

Aja'lb, 20 Rabi al awwal 1213. – ٢٥

٢٦ – اليوم الثاني المتمم للعام السادس (١٨ سبتمبر ١٧٩٨). يستمر النص على النحو التالي: «إن النجاح الذي أحرزه بونابرت في هذه المسألة إنما يثبت أن جميع الناس، حتى الأقل تعليماً ومن ثم الأكثر عرضة للأوهام والتخمينات، ليسوا غير مستجيبين البتة للغة العقل والحكم، خاصة عندما ينطق بها من يملك بين يديه القوة والسلطة. إلا أنه ما أكثر الدم الذي أريق من أجل آراء ومن أجل التفاهات فهم في التعاقب الطويل للعصور والثورات الإمبراطوريات! إن بوسع نهاية القرن الثامن عشر، الرائعة تماماً بالمآثر العسكرية لأمة عظيمة، أن تكون رائعة أيضاً روعة بالغة بالانتصار المتواصل للعقل على الأوهام والتخمينات».

Detroye, cité par LA JONQUIÉRE, III, p. 16. – ٢٧

Correspondance..., IV, p. 585, à Marmont le 28 août 1798. – ٢٨

Ibid, p. 586. – ٢٩

Correspondance inédite..., Égypte, II, p. 5. – ٣٠

B6 7, 1er septembre 1798, *Courier (sic) de l'Égypte*, du 2e jour complémentaire de l'an VI (18 septembre 1798). – ٣١

Correspondance..., IV, pp. 528 - 529. – ٣٢

Correspondance..., IV, pp. 621 - 622, le 31 août 1798. – ٣٣

Instructions dans LA JONQUIÉRE, II, pp. 534 - 535 et *Correspondance*... IV, pp. 529 - 530. يقدم حيدر الشهابي النص العربي للرسالة المرسلة إلى الجزار (Asad RUSTUM et Fouad E. BOUSTANY, *Le Liban à l'époque des émirs Chéhab de l'émir Haidar Ahmad Chéhab*, Beyrouth - Jounieh, 1984, II, pp. 239 - 240) وهو جد مختلف عن النسخة الفرنسية الواردة في مراسلات نابليون بالرغم من تشابه الحلم مع أسلوب الدعاية الفرنسية آنذاك (لقد تحرك الفرنسيون بناءً على طلب من الباب العالي لإخضاع المماليك المتمردين. وهم يريدون بعد ذلك الزحف على الهند...). – ٣٤

Texte du rapport de Beauvoisins dans LA JONQUIÉRE, II, pp. 536 - 539 et B6 7. – ٣٥

WIET, texte arabe, pp. 34 - 35 et RUSTUM, II, pp. 329 - 240. – ٣٦

Courrier de l'Égypte, du 24 fructidor an VI (10 septembre 1798), وصول عبّارة قادمة من عكا إلى دمياط: «علمت منها أن الجزار بلغنا بما دعا شعب باشاليكه إلى مواصلة تجارة مع مصر، وإلى التعايش في ود مع الفرنسيين». – ٣٧

LA JONQUIÉRE, III, pp. 66 - 68. – ٣٨

٣٩ – B6 8, septembre 1798 Réponses du Douanier de Damiette aux demandes qui lui ont été faites.

٤٠ – Correspondance..., IV, pp. 679 - 680. إن مالطي هو المكلف بحمل هذه الرسالة.

٤١ – Le 13 septembre, *Correspondance...*, IV, p. 681.

٤٢ – LA JONQUIÉRE, III, p. 10 et *Correspondance...*, IV, pp. 667 - 670.

٤٣ – *Histoire Scientifique*, IV, p. 93. كان هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يحملون اسم مصطفى في خدمة الفرنسيين : أمير الحج، والشيخ الصاوي وأحد أغوات الإنكشارية، إلا أنه لابد وأن الأمر يتعلق هنا بموظف عثماني من موظفي الشؤون المالية.

٤٤ – Ensemble des textes dans la *Correspondance...*, IV, pp. 705 - 716.
إن إجمالي التحصيلات في أواخر العام السادس يرتفع إلى أقل من ثلاثة ملايين، جزء واحد فقط منها هو الذي يتألف من نقود، وهو ما يعتبر غير كاف إلى حد بعيد بالنظر إلى نفقات الجيش الضخمة. (LA JONQUIÉRE, III, p. 39).

٤٥ – الجبرتي، المدة، ص ص ٥٢ – ٥٤. ويستعيد كتاب مهذب الآثار النص نفسه، لكنه لا يتضمن العبارة الواردة هنا. وحتى نفهم جيداً اتساع الهوة، فإن بعض الحالات التي جرى المساس بها لن تسحب من اختصاص القانون الإسلامي (الشريعة) إلا بعد ثورة ١٩٥٢. كما يشير الجبرتي إلى أن ديوان القاهرة، خلال تلك الفترة، لم يدع إلى الانعقاد من جانب الفرنسيين وأن أعضاءه قد كفوا عن الذهاب إليه. على أن بونابارت كان قد عين تاليان مفوضاً لدى الديوان لكي يخلف بوفوازان، في ١٤ فروكتيدور من العام السادس (٣١ أغسطس ١٧٩٨)، Correspondance..., IV, 622. وكان عليه أن يقدم إلى بونابارت تقريراً يومياً عن الشكايات والمناقشات في الديوان.

٤٦ – «لو كانت حكمة الإداريين الفرنسيين قد نجحت في كبح حماستهم، لما بقي في القاهرة شخص ثري واحد إلا واعتبروه عميلاً للمماليك». *Histoire Scientifique*, IV, pp. 96 - 97.

٤٧ – يؤكد نابليون أن الرسالة كانت فرمان إعلان حرب من جانب الباب العالي وأنه عندما «وجد [نابليون] نفسه وحده معه، طلب منه أن يسلمه أصل الفرمان. وقد نفى المسلمات أن لديه أي علم به، وتردد وارتبك، وأخيراً سلمه إليه». (XIX, p. 594).

٤٨ – JABARTI, *Aja'ib*, 3 Rabi al Thani et *Mudda*, pp. 48 - 49. La *Mudda* ne mentionne pas la réponse à Bonaparte, mais donne les paroles de la foule.

٤٩ – JABARTI, *Mudda*, p. 39. C'est *l'Histoire Scientifique* (IV, p. 96) qui mentionne les Coptes et fit le lien avec Sitt Nafisa et la seconde affaire.

٥٠ - JABARTI, *Mudda*, pp. 50 - 51. *Correspondance...*, IV, p. 649.

٥١ - *Mudda*, pp. 61 - 63.

٥٢ - Je suis l'avis de C.F. Beckingham, le mystérieux "Rashitruh al - afranji" présent aux côtés de Mourad ne peut ête que Rosetti et non un certain "Rachiteau" que traduit avec un point d'interrogation Moreh (compte rendu de la *Mudda* dans le *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 1977, pp. 655 - 656).

٥٣ - LA JONQUIÉRE, III, pp. 12 - 15 كانت قوة للمرشدين قد أنشئت خلال حملة إيطاليا. وكانت تلعب دور حراسة ورديف للقائد العام. أما السرية التركية، التي أنشأتها ودربتها كوادر فرنسية، فيبدو أنها قد اندمجت بالكامل في قوة للمرشدين في يونيو ١٧٩٩.
(VERNET et MICHALON, p. 22 et p. 28).

٥٤ - [لا يورد الأصل الفرنسي هذه الحاشية. - المترجم]

٥٥ - JABARTI, *Mudda*, p. 55.

٥٦ - LA JONQUÉRE, III, pp. 37 - 38 et VERNET et MICHALON, pp. 37 - 38.

٥٧ - VERNET et MICHALON, p. 42.

٥٨ - LA JONQUIÉRE, III, p. 47.

٥٩ - LA JONQUIÉRE, III, pp. 57 - 58.

٥٩ - *Mudda*, pp. 55 - 56.

٦٠ - Ordre du jour du 6 fructidor an VI (23 août 1798).

٦١ - Ordre du jour du 16 fructidor an VI (2 septembre 1798).

٦٢ - Ordre du jour du 29 fructidor an VI (15 septembre 1798).

٦٣ - Ordre du jour du 7 fructidor an VI (28 septembre 1798).

٦٤ - *Histoire Scientifique*, III, pp. 384 - 385.

٦٥ - *Courrier de l'Égypte*, n° 8, du 6 vendémiaire (27 septembre 1798).

٦٦ - LA JONQUIÉRE, III, p. 27.

٦٧ - Joseph - Marie MOIRET, *Mémoires sur l'expédition d'Égypte*, Paris, 1983, pp. 63 - 64.

٦٨ – *Mudda*, pp. 57 - 58.

٦٩ – تؤكد هذه النية رسالة إلى أخيه جوزيف في الفترة نفسها.

٧٠ – Sur la place du 13 vendémiaire dans les fêtes républicaines, voir Mona OZOUF, *La fête révolutionnaire*, Paris, 1976, pp. 217 - 218.

٧١ – *Courrier de l'Égypte*, n° 11, le 20 vendémiaire an VII (11 octobre 1798).

٧٢ – Voir le rapport du capitaine de génie Sabatier à Caffarelli, LA JONQUIÉRE, II, pp. 305 - 306.

٧٣ – Rapport du Lazowski au même et surtout lettre de Zayonchek à Bonaparte du 26 thermidor an VI (13 août 1798) (SKALKOWSKI, pp. 75 - 77 et pp. 80 - 82).

٧٤ – ٢٩ تيرميدور من العام السادس (١٦ أغسطس ١٧٩٨) *Correspondance*, IV, p. 488. وهو ينهي رسالته قائلا : «إنني أحس أن وضعك حرج غالبا، وأنا على ثقة تامة من حسن نواياك ومن درايتك بقلب الإنسان؛ كن على ثقة من أنني أمنحك الإنصاف الذي تستحقه»

٧٥ – Voir le journal de Damas sur la marche vers Munsoura, LA JONQUIÉRE, II, pp. 385 - 388.

٧٦ – Voir le récit du survivant dans le journal de Laugier, LA JONQUIÉRE, II, pp. 467 - 470. إن نقولا الترك الذي يضع حادث المنصورة بعد حادث دمياط بشهر ونصف الشهر، قد كتب «نصاً بارع الأسلوب» ، بحسب تعبير ويت ، «لم يكن بوسع المصريين أبداً احتمال الفرنسيين، وذلك بسبب الاختلافات في الدين واللغة والملبس، ناهيك عن عداوة قديمة كانت موجودة بين الفرنسيين والمصريين منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس، ولقد خلدت ذكرى ذلك من خلال الاسم الذي سميت به المدينة، المنصورة» (أعدنا الترجمة إلى العربية من الفرنسية لتعذر العثور على نسخة من مذكرات نقولا الترك. – المترجم] (pp. 35 - 36 de la traduction de Wiet).

ويقدم كتاب *L'Histoire Scientifique* (III, pp. 321 - 322) تدقيقات ثمينة. لقد استغل المهاجمون من يوم سوق كي يتسللوا بعدد كبير دون أن يؤدي ذلك إلى الإحساس بالخطر. ومنظم الهجوم هو شيخ عربي اسمه أبو قوره، من القبيلة البكرية. وكان هناك دليلان آخران : «الفتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، وأمها، وهي زوجة جندي خيال. والحال أن أبو قورة قد اشترى الفتاة الصغيرة بمائة تالر ثم تزوجها بعد ذلك. (في الحاشية :) مات أبو قوره في عام ١٨٠٨ . والحال أن أرملته، ابنة الجندي الخيال الفرنسي، قد ورثت ممتلكاته ونفوذه، بوصفها وصية على الأبناء الذين أنجبتهم منه. وهذه المرأة، المبجلة من جانب عربها، والمحترمة من جانب قادة الإقليم، ما تزال تحكم حتى اليوم (١٨٣٠) القبيلة البكرية، وعند جميع سكان الضفة اليمنى للنيل لا يكون التذرع باسمها بلا طائل أبداً.

والواقع أن مورا يخبر دوجا، في ١٧ فينديميير من العام السابع (٨ أكتوبر ١٧٩٨)، بأن الزعيم العربي «الد اشترى امرأة فرنسية سبيت في المنصورة. وهذه المرأة حبلى» (B6 9).

Le diwan de Mansoura au diwan du Caire, B6 4. Comme l'a – ٧٧ remarqué LA JONQUIÉRE, ce texte comporte une erreur de date de 10 jours (II, pp. 470). VIAL écrira à Dugua le 4 fructidor (21 août 1798) qu'il ne croit pas à la véracité du rapport du diwan (B6 6).

LA JONQUIÉRE, II, pp. 471 - 472. – ٧٨

Ibid, II, pp. 545 - 546. – ٧٩

Ibid, II, pp. 548 - 549. – ٨٠

ANDRÉOSSY, "Mémoire sur le lac Menzaleh, d'aprés la – ٨١ reconnaissance faite en vendémiaire an 7", *Décade Égyptienne*, I, p. 188.

٨٢ – Nicolas TURC, p. 21 : فيال إلى دوجا، ١٤ فروكتيدور من العام السادس B6 6. وفي ٧ فروكتيدور، في رسالة إلى دوجا أيضاً، ينصح بالاتصال بمصطفى أغا، عضو الديوان، للحصول على التفصيلات بشأن تمرد المنصورة. والحال أن مصطفى أغا هذا قد ولد نمساوياً وهو يتحدث بالإيطالية بطلاقة تامة. ومن جهة أخرى، فإنه يكتب إلى مينو، في الأول من فروكتيدور (١٨ أغسطس ١٧٩٨)، ويعبر عن الثور همه بسبب متاعبه وضياع متاعه على الأسطول، وهو يفكر في أن يطلب إعادته إلى فرنسا (B6 6).

٨٣ – فوجيير إلى دوجا، ٩ فروكتيدور من العام السادس (٢٩ أغسطس ١٧٩٨). والقرى الأربع هي محلة دياي وديماي وجمجمون وبسوق (B6 6). وقد أمر باستجواب شهود عن حادث المنصورة. وأرسل إليه دوجا ثلث الكتيبة كازال مع وحدة قوية لتعزيزه (Dugua à Bonaparte le 28 août 1798, LA JONQUIÉRE, II, pp. 545).

٨٤ – فوجيير إلى دوجا، ١٧ فروكتيدور من العام السادس (٣ سبتمبر ١٧٩٨)، B6 7. والقرى هي بين بين وبيلا وبهوت وكفر بهوت والسيرة وبمبيره وكفور.

Vial à Dugua, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), B6 7. – ٨٥

٨٦ – Murat à Dugua, le 10 fructidor an VI (27 août 1798) من جهة أخرى، فإن بونابارت يهنئ مورا في ١٢ فروكتيدور على مسلكه في منطقته LA JONQUIÉRE, II, pp. 550 - 551.

Murat à Bonaparte, le 15 fructidor (1 er septembre 1798), B6 7. – ٨٧

Murat à Bonaparte, le 18 fructidor VI (4 er septembre 1798), LA – ٨٨ JONQUIÉRE, III, 132. وفقاً لنقولا الترك، كان مورا يسمى بـ «مراد بيك الفرنساوي»، P. 25.

٨٩ – Fuglère à Dugua, le 13 fructidor an VI (30 août 1798), B6 6.

٩٠ – Dugua à Bonaparte, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, 130.

٩١ – Bonaparte à Dugua, le 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), *Correspondance...*, IV, p. 656.

٩٢ – Rapport de Verdier, LA JONQUIÉRE, III, pp. 134 - 136 (outre l'original, on trouve un texte un peu différent venant de la collection Napoléon en B6 7). يؤكد فيروس، مقيد الهندسة، في تقريره إلى كافاريللي : «إن هذه العملة قد أحدثت أثرًا ممتازًا في البلاد باجتذابها لنا ثقة السكان» (٣٠ فروكتيدور من العام السادس، ١٦ سبتمبر ١٧٩٨)، B6 8 .

٩٣ – Fugière à Dugua, le 5ᵉ jour complémentaire de l'an VI (21 septembre 1798), B6 8.

٩٤ – Bonaparte à Berthier, le 5 vendémiaire an VI. L'ordre du jour du 1ᵉʳ vendémiaire an VII (le premier jour de l'année républicaine, 22 septembre 1798) rapporte le fait d'armes de Verdier.

٩٥ – في ٥ فينديميير (٢٦ سبتمبر)، يرى لانان القرية وهي تحترق، عند زيارته لدمياط ، لانان إلى بونابرت، ١١ فينديميير (٢ أكتوبر) B6 9 .

٩٦ – Ensemble de la correspondance militaire dans LA JONQUIÉRE, III, pp. 170 - 176. Voir aussi le rapport de Crespin sur les opérations de Murat et Lanusse, le 10 vendémiaire an VII (1ᵉʳ octobre 1798), B6 8.

٩٧ – Au Directoire, le 26 vendémiaire an VII (17 octobre 1798), *Correspondance...*, V, p. 91. استفادت القبائل العربية فورًا من الفوضى التي أدى إليها وصول الفرنسيين، ووفقًا لكتاب *Histoire Scientifique* (IV, p. 55)، فإن الهنادي راحوا ينشدون :

«عاش الشعب الذي طرد مرادًا من القاهرة !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا رؤية القرى !

«عاش الشعب الذي أتاح لنا أكل الفطير !

[أعدنا ترجمة النشيد من الفرنسية لتعذر العثور على الأصل العربي – المترجم].

٩٨ – إن أندريوسي، الذي يسأل أحد المشايخ عما إذا كانت قريته قد شهدت الطاعون في تلك السنة، يسمع الرد التالي : «لقد شهدنا الطاعون والعرب». *Histoire Scientifique*, IV, p. 51.

٩٩ – مونا إلى بونابارت، ٢٥ فنديميير من العام السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)، B6 10. إن الشيخ موسى، الذي يبدو له هو الذي بادر بهذا العهد للولاء للسلطة الفرنسية، سوف يرحل لتقديمه إلى بونابارت. لوجيير إلى بونابارت، ١٧ فريمير من العام السابع (٢٧ نوفمبر ١٧٩٨)، «ليس هناك مصري أكثر حزماً في تعلقه بنا من هذا الرجل» (B6 12).

١٠٠ – وهكذا، فإن الفلاحين في بشبيت هم الذين يقومون في ١١ برومير من العام السابع (الأول من نوفمبر ١٧٩٨) بإرشاد الجنود الفرنسيين مباشرة إلى البيوت التي يوجد فيها البدو، لوجيير إلى بونابارت، ١٢ برومير من العام السابع (٢ نوفمبر ١٧٩٨)، B6 11.

١٠١ – Les instructions sont du 16 septembre 1798, LA JONQUIÉRE, III, pp. 138 - 139.

١٠٢ – انظر تقرير كازال إلى كافاريللي، إنه يقدر خسائر الفرنسيين بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً ويقدر خسائر العرب بخمسمائة قتيل، B6 8.

١٠٣ – Extraits du journal de Damas dans LA JONQUIÉRE, III, pp. 139 - 152.

١٠٤ – Nicolas TURC, pp. 22 - 24 بمجرد تحرير دمياط من جميع التهديدات، لا يذكر الكاتب بعد اسم حسن طوبار.

١٠٥ – *Histoire Scientifique*, IV, p. 7.

١٠٦ – في رسالته إلى دوجا في يوم المعركة، يقدر فيال بشكل أكثر تواضعاً خسائر العرب بثلاثمائة قتيل (B6 8). ويستعيد كتاب *Histoire Scientifique* هذا الرقم، IV, P. 8.

١٠٧ – Le texte est signé de Berthier, B6 8.

١٠٨ – Lettre du 21 septembre 1798, B6 8, texte arabe et traduction française.

١٠٩ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 154 - 155.

١١٠ – فيال إلى بونابارت، ١١ فنديميير B6 9. في هذه الرسالة، يشدد على تواصل هجمات الفلاحين على مراكب الاتصال والتي تكبد الجنود الفرنسيين خسائر جسيمة في الأرواح.

١١١ – Dugua à Bonaparte, le 14 vendémiaire an VII (5 octobre 1798), B 6 9.

١١٢ – Journal de Damas, LA JONQUIÉRE, III, p. 164.

١١٣ – Damas à Dugua, le 21 vendémiaire an VII (12 octobre 1798), B6 9.

١١٤ – Vial à Bonaparte, le 23 vendémiaire an VII (14 octobre 1798), B6 9.

١١٥ – Bonaparte à Reynier, le 26 thermidor an VI (13 août 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 382 - 383.

١١٦ – «لقد جاء الفرنسيون إلى مصر لتخليص الشعب من العبودية وللقضاء على استبداد المماليك، إننا لا نريد إلحاق أى أذى بسكان هذا البلد. والحال أن عدداً من بينهم قد لجأوا إلينا، بينما حمل آخرون السلاح ضدنا. وبيوت هؤلاء الأخيرين وحدها هى التى قام الفرنسيون بنهبها. إننا نعرف أن عدداً من المشايخ قد هربوا بجهالهم. وعندما تصل هذه الرسالة إلى علمهم، فإنه يجب عليهم أن يعودوا للعمل على إحياء رفاهية بلدهم...». B6 5, B 6 5, proclamation du mois d'août 1798, texte arabe et français.

١١٧ – Reynier à Bonaparte, le 30 thermidor an VI (17 août 1798), B6 105 (correspondance du général Reynier), publication partielle dans LA JONQUIÉRE, II, pp. 526 - 527.

١١٨ – رينييه إلى بونابرت، ٢ فروكتيدور من العام السادس (٢٠ أغسطس ١٧٩٨) من الصالحية:

«إن العرب الفلاحين الراكبين للجهاد من اثنى عشرة قرية قريبة من هنا بمسافة أربعة أو خمسة فراسخ قد اجتمعوا وشكلوا قوة من مائة فارس وألزموا السكان الآخرين بحمل السلاح دفاعاً عن قراهم. وقد طلبت إبلاغ الشيخ صميدة زعيمهم، بالمجيء والتحدث معى. إلا أنه لم يأت».

١١٩ – Reynier à Bonaparte, le 14 fructidor an VI (31 août 1798), B6 105.

١٢٠ – Reynier à Bonaparte, le 20 fructidor an VI (6 sptembre 1798), B6 105.

١٢١ – LA JONQUIÉRE, III, p. 182.

١٢٢ – LA JONQUIÉRE, III, p. 191. Voir aussi la lettre de Reynier à Bonaparte du 7 vendémiare an VII (28 septembre 1798), B6 105 et B6 8.

١٢٣ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 189 - 190.

١٢٤ – Voir par exemple sa lettre du 24 vendémiaire an VII (15 octobre 1798), B6 105.

١٢٥ – إن لقب الشوربجى، «معلمه للباشا»، واسع الانتشار. وهو أعلى رتبة يحوزها غير المماليك.

١٢٦ – على سبيل المثال، هذا البيان الصادر عن رينييه والموجه إلى سكان الشرقية فى ١٩ فروكتيدور من العام السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨) والذى يعطى فكرة واضحة عن التنظيم الجديد وعن علاقاته بمشايخ القرى: «إنكم تصلون فى لحظة سوف تشعرون فيها بفوائد طرد المماليك وبفوائد الحكم الشعبى الذى يقيمه الفرنسيون فى هذا البلد. لقد جرى تنظيم إدارة للإقليم، وأقيم

فى بلبيس ديوان مؤلف من عبد الرحمن الندى بلهر والشيخ إبراهيم شحاته والشيخ عبد الرحمن محمدى والشيخ محمد ثروت والشيخ على المالكى وشيخين آخرين سوف أختارهما من بين مشايخ قرى الإقليم، وهذا الديوان مكلف بالسهر على مصالحكم وبتنفيذ القوانين وبالاطلاع على الشكاوى التى قد يتلقاها عن المضايقات التى تحدث من جانب الموظفين ومأمورى الإدارة وجباية الضرائب وكذلك إيرادات ممتلكات المماليك التى تنتمى الآن إلى الجمهورية الفرنسية، كما أنه مكلف بالإشراف على التوزيع المناسب لمياه الفيضان ومنع غش التجار فى الموازين والمكاييل وكذلك فى أسعار المواد الغذائية وقيمة النقود، وبمنع الحروب التى تقوم بين القرى وأعمال اللصوصية وقطع الطرق وبمعاقبة الأشرار والقرى التى تلجأ إلى التمرد. وسوف أزود [الديوان] بالقوة المسلحة اللازمة لذلك.

«إن سرية من الإنكشارية بقيادة أحد الأغوات سوف تكلف بالانصياع للديوان وبتنفيذ أوامرى.

«وسوف يكلف الأمين المعلم جرجس فيلاتوس بجباية الإيرادات التى كانت تخص المماليك فى السابق وبجباية الضرائب.

«وسوف يتواصل مشايخ القرى مع هذه السلطات المختلفة وينقلون أوامرها فى المجالات التى تتحمل المسؤولية عنها. وإذا ما رفض البعض ذلك، فإننى أنذرهم بأننى سوف أعاقبهم بقسوة.

«عاشت الجمهورية الفرنسية، الحمد لله ولنبيه محمد». B6 105 ، مما يؤسف له أن الملف لا يضم النص العربى.

١٢٧ – B6 6 ، يحظر الأمر اليومى أيضاً على قادة الإقليم فرض مصادرات دون تصريح من القائد العام.

١٢٨ – Ensemble des textes dans *Kléber et Bonaparte*..., I, pp. 238 - 244.

١٢٩ – Kléber à Bonaparte, le 21 fructidor an VI (7 septembre 1798), *Kléber en Égypte*..., pp. 300 - 302 et réponse de Bonaparte, *Correspondance*..., IV, pp. 672 - 673.

١٣٠ – تقرير مارمون إلى بونابرت، ١٩ فروكتيدور من العام السادس (٥ سبتمبر ١٧٩٨)
«إن مدينة الإسكندرية، فى الحالة التى تمر بها اليوم تكون من ثم قادرة على الدفاع، لكنها تحتاج إلى نشاط ومواهب فى الشخص الذى سوف يعهد إليه بالمسؤولية عنها. إن هناك حاجة إلى شخصية قوية قادرة على قيادة سكان مقهورين وعلى إثارة حمية كبيرة حيث لا يوجد جنود [بحريون]! ولابد أخيراً من منح عزيمة لهؤلاء الجنود البحريين الذين حل الفتور الهمة فيهم محل الاختيال».

«وأود أن أضيف أيضاً أن قائد الإسكندرية يجب أن يتحلى بالحصافة وبالبراعة وذلك بسبب العلاقات التى تنشأ يومياً مع العرب ويبدو لى أن ذلك الذى يبدو مرشحاً للحلول محل الجنرال

كليبر لا يملك أيا من الخصال التي تعتبر ضرورية. إن الإسكندرية إنما تتميز بأهمية جد عظيمة اليوم خاصة وأنها تضم جميع ذخائر الجيش، بحيث إنني أرى أن من واجبي أن أحتفظ من الجنرال مانسكور؛ لقد انبعث لي الفرصة لكي أحكم عليه مباشرة في الأيام القليلة التي قضيتها معه وأنا أعترف بأنني قد أصبت بالهلع عندما خطر ببالي أن من المحتمل تكليفه بتولي مسئوليات هذا الموقع» B6 7 .

وكان مارمون قد عرف بونابارت في طولون وكان مساعده في إيطاليا، الأمر الذي يفسر مثل هذه الرسالة الإعلامية. وهو من جهة أخرى بالغ الثناء على عمل كليبر في الإسكندرية الذي «قدم للجمهورية خدمات لا حد لها».

١٢١ - *Kléber et Bonaparte*..., I, p. 340.

١٢٢ - Lettre à Bonaparte, le 15 fructidor an VI (1 er septembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, p. 108.

١٢٣ - Menou au Diwan de Rosette, le 22 fructidor an VI (8 septembre 1798), B6 7.

١٢٤ - Rapport de Menou à Bonapart, le 23 e jour complémentaire (19 septembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 113 - 116. سوف تعود عليه هذه المغامرة بتوبيخ من جانب بونابارت.

١٢٥ - Marmont à Menou, le 5 vendémiaire an VII (26 septembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, p. 125 et B6 8.

١٢٦ - Ordre du jour du 20 fructidor an VI (6 septembre 1798), B6 7; c'est le même ordre du jour qui rend obligatoire la cocarde tricolore.

١٢٧ - L'ouvrage essentiel dont je suis ici les analyses est le livre de Standford J. SHAW, *Between Old and New, The Ottoman Empire under Selim III*, Harvard University Press, 1971.

١٢٨ - Sur cette question, voir Allan CUNNINGHAM, "The Oczakoc Debate", *Middle Eastern Studies*, I, 1965 et A.I. BAGIS, *Britain and the Stuggle for the Integrity of the Ottoman Empire, Sir Robert Ainslie's Embassy to Istanbul, 1776 - 1794*, Istanbul, Editions Isis, 1984.

١٢٩ - Sur cette question, les ouvrages de référence restent E. de MARCÉRE, *Une ambassade à Constantinople, la politique orientale de la révolution française* (surtout consacré à Descorches de Sainte - Croix), Paris, 1927 (2 volumes), A. DRY, *Soldats Ambassadeurs sous le Directoire* (le général Aubert - Dubayet), Paris, 1906, et H. DÉHÉRAN , *La vie de Pierre Ruffin, orientaliste et diplomate*, Paris, 1929.

١٤٠ - Voir Frédéric HITZEL, *Le rôle des militaires français à Constantinople*, Mémoire de maîtrise, Paris IV, 1987 et Avigdor LEVY, "Military Reform and the Problem of Centralization in the Ottoman Empire in the Eighteenth Century", *Middle Eastern Studies*, 18, 1982.

١٤١ - Voir l'ouvrage classique de M. HERBETTE, *Une ambassade turque sous le Directoire*, Paris, 1902.

١٤٢ - Voir en particulier Bernard LEWIS, "Les répercussions de la Révolution française en Turquie", in *Le retour de l'Islam*, Paris, 1985.

١٤٣ - هناك بياض محل اسم السفير لأن القرار لم يكن قد اتخذ بعد.

١٤٤ - LA JONQUIÉRE, II, p. 592 إن حكومة الإدارة مستعدة لأن تعرض على الباب العالي تحالفاً لاسترداد القرم، أي لخوض حرب مع روسيا.

١٤٥ - بيان الحرب العثماني ضد فرنسا : «بمجرد إبلاغ الباب العالي باعتزام فرنسا مهاجمة مصر، استدعى السيد روفان [...] على الفور إلى اجتماع وسئل رسمياً عن هذا الأمر. وقد أجاب بأنه ليس لديه أي علم عن مشاريع حكومة الإدارة، وإن كان رأيه الخاص هو أنه إذا خاضت فرنسا بالفعل هذه الحرب، فمن الأرجح أن ذلك لن يكون إلا للثأر من البكوات ولإيذاء تجارة الإنجليز في الهند. وقد جرى الرد عليه بأنه إذا ما هاجم الفرنسيون مصر بهذه الذريعة أو استناداً إلى أي دافع أياً كان، فإن الباب العالي سوف يعتبر هذا التحرك إعلاناً للحرب؛ وأن السلم والمسالمة القائمين بين الدولتين منذ زمن طويل سوف يتحولان من الناحيتين القانونية والسياسية إلى حرب وعداوة وأنه، بما أن الباب العالي لا يمكنه البتة التنازل عن شبر واحد من أرض ولايته المصرية، فإن الأمة الإسلامية سوف تهب عن بكرة أبيها لإنقاذ هذه الأماكن المقدسة؛ وأنه، إذا كان بكوات مصر يستحقون عقاباً ما، فإن إنزاله بهم يجب أن يتم من جانب الباب العالي الذي يتبعونه، وأن تدخل فرنسا في هذا الشأن سوف يكون مخالفاً تماماً لحقوق الأمم؛ وأن بلاط إنجلترا، لكونه الصديق جد الحميم للباب العالي، لن يكون بوسعه البتة السكوت على مرور الجيوش الفرنسية عبر ولاياته لإيذاء تجارة الإنجليز، وأنه، بناءً على ذلك، حتى وإن لم يكن لإنزال الفرنسيين في مصر من هدف آخر غير هذا المشروع، فإنه سوف يدعو للجهل لإعلان حرب؛ وأن عليه أن يدرك ذلك تماماً وأن يسارع إلى إبلاغ حكومة الإدارة به» (HERBETTE, *OP. CIT.*, PP. 319 - 320).

١٤٦ - SHQW, *Between Old*..., pp. 255 - 256. L'envoyé ottoman doit être celui signalé par Kléber (*Kléber et Bonaprte*, I, p. 249) et par JABARTI (*Mudda*), pp. 48 - 49.

١٤٧ - سبنسر سميث (القائم بالأعمال الإنجليزي) إلى لندن، ١٠ يوليو ١٧٩٨ : «بما أن الصمت الغريب نفسه يجري التمسك به باستمرار فيما يتعلق بحصار قبرص، فإن القلق العام في

للحظة المطمرة موزع أساساً بين ذلك وتقدم حملة طولون؛ والتى لا نعرف عنها بأى شكل مؤكد غير نجاحها الأول فى مقلطة الذى وصلتنا أخباره عن طريق أزمير. Public Record Office, FO 78 19.

١٤٨ – سبنسر سميث، ٢٥ يوليو ١٧٩٨. تقرير مخبر يوقع بالحرف م ويكتب بالفرنسية، عن مداولات الديوان العثماني : «قبل يومين، كان الأتراك يريدون القضاء على الجمهوريين وكان هؤلاء يريدون الهرب» (للعودة إلى السكينة بفضل الشرطة وانخفاض أسعار المواد الغذائية) «الأسباب التى ساقها أحد أعضاء الديوان الرئيسيين لبيان أن الباب العالي لا يجب أن يعلن الحرب على الفرنسيين إن لم يذهبوا إلى سوريا إلا للتشفى من البكوات الذين أهانوهم وإن لم يكونوا يريدون غير المرور بمصر للذهاب إلى الهند». FO 78 19 . من الممكن أن يكون م هو مرادجى دوسون، الترجمان الأرمنى لسفارة السويد، صاحب الكتاب الشهير *Tableau général de l'Empire Ottoman* (Paris, 1788 - 1824) ومستشار سليم الثالث ونصير فرنسا. (SHAW, p. 429, note 35).

١٤٩ – يخترع نابوليون قصة ضابط من ضباط السراى، قريب من سليم الثالث، جاء إلى مصر عبر طرابلس الغرب بفضل قافلة الحج : «رأى القائد العام؛ واطلعه على المواقف الحقيقية للباب العالى. وطلب – وهو ما أجيب إليه فى الحال – أن يتم التأكيد له على جميع حقوق الملكية فى مدينة مكة؛ وأن يجرى تعيين أحد العثمانيين فى منصب الأمير – أغا وأن يتم تجنيد قوة من جنود مسلمين لحراسة قافلة مكة؛ وأخيرا أن يقدم له القائد ايضاحات حول مشاريعه، مؤكداً له أن الباب العالى عازم على عدم عمل شىء دون تروٍ وعلى عدم السماح لنفسه بأن تتغلب عليه أية عاطفة. وقد أقام هذا الضابط أكثر من أربعين يوماً فى مقر القيادة العامة. وقد حدث أنه ارتاح إلى ما قاله له المشايخ عن مواقف السلطان الكبير [بونابارت] والفرنسيين؛ ورحل عن طريق البحر الأحمر، بحجة الذهاب إلى مكة، ووصل إلى القسطنطينية خلال شهر ديسمبر» (XXIX , PP. 565 - 566) . وهذا الأمر لا يتمشى مع التسلسل الزمنى للأحداث (إن الفرنسيين يصلون لحظة عودة الحجاج) ولا تؤكد حدوثه أية شهادة أخرى. إن الرسول العثمانى الوحيد هو ذلك الذى وصل بعد فوات الأوان إلى الإسكندرية للتحذير من هجوم الفرنسيين (انظر أعلاه). وهذا المثال مميز لأقوال نابوليون فى سانت – هيلين حول الحملة، والتى غالباً ما تتمشى مع رغبات نابوليون بأكثر مما تتمشى مع الواقع.

١٥٠ – Spencer Smith, le 3 août 1798, FO 78 19.

١٥١ – على سبيل المثال، ذلك المقتطف من فرمان الباب العالى إلى سلطات روميليا : «إننى أصدر الأمر إليكم بأن تقوموا بإلقاء القبض على وحبس جميع الفرنسيين المقيمين ومحميهم – مع تخصيص أماكن مناسبة لهم بحسب الحاجة – المتواجدين فى مدن وقرى ولاياتكم ونواحيكم، والذين صدرت إليكم الأوامر باحتجازهم، وذلك فى مقابل الرعايا والتجار العثمانيين المتواجدين فى مصر فى مقابل سكان مصر، وكذلك ممتلكات وسفن [الفرنسيين]؛ وبأن تقوموا بجرد ووضع الأختام على متاجرهم دون السماح بضياع أى شىء منها، وبإيداع كل شىء فى مكان أمن وبحراسته وبإرسال سجل له على وجه السرعة إلى القسطنطينية؛ وبعدم السماح لأحد بزيارتهم وبعدم السماح لهم بالاتصال سراً أو علناً أو بالتراسل مع أىٍّ كان، وبالسهر بحرص

خاص على حراستهم ليل نهار. Joseph KABRDA, "Quelques firmans concernant les relations franco - turques lors de l'expédition de Bonaparte en Égypte (1798 - 1799). *Cahiers de la Société Asiatique*, T.X, 1947, pp. 72 - 73. ويهدد

وزير العلاقات الخارجية عند الفرنسيين للموجودين في ثغور الشرق بـ ١٨٤٢ (LA JONQUIÉRE, II, p. 237).

١٥٢ – Sur la réaction de l'Eglise Orthodoxe et sa condamnation de la Révolution Française, voir Richard CLOGG, "The Dihdhaskalia Patriki (1798) : an Orthodox Reaction to French Revolutionary Propaganda", *Middle Eastern Studies*, V, 1965.

١٥٣ – Ruffin à Talleyrand, le 23 thermidor (10 août), LA JONQUIÉRE, II, p. 601.

١٥٤ – كان بوسع حكومة الإدارة إلزام تاليران بالذهاب إلى القسطنطينية، حيث إن وزير الشؤون الخارجية ليس غير موظف وليس سياسياً في نظام دستور العام الثالث. وإذا كانت حكومة الإدارة لم تفعل ذلك، فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى أنها رأت أن وجود تاليران في باريس أكثر فائدة، في لحظة عرفت فيها فرنسا أزمة سياسية خطيرة مع الولايات المتحدة. وكان تاليران يعرف الأمريكيين بشكل أفضل من معرفته للعثمانيين. ومن جهة أخرى، فإن ديكورش كان المتخصص في الشؤون العثمانية الذي كانت هناك حاجة إليه. Voir Carl Ludwig LOKKE, "Pourqoui Talleyrand ne fut pas envoyé à Constantinople", *Annales Historiques de la Révolution Française*, X (1933), pp. 153 - 158.

١٥٥ – HERBETTE, op. cit., pp. 322 - 323.

١٥٦ – من الناحية النظرية، يعتبر الفرمان أمراً رسمياً يحمل شعار (طغراء) السلطان، خلافاً للبويورلدي (الأمر المكتوب)، القرار الصادر عن الوزراء وعن موظفين من درجة أدنى. ومن الناحية العملية، جرت العادة على أن تسمى بالفرمانات أيضاً الأوامر الصادرة عن أهم الوزراء، بمن في ذلك والي مصر (SHAW, *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, p. 115).

١٥٧ – انظر FO 78 22 ، موجز لعدة أوامر صادرة من الباب العالي وموجهة إلى الباشوات مير – ميران والسلطات الأخرى المكلفة بالعمل على إنقاذ مصر وحراسة الجزر والسواحل والأماكن الأخرى التي تحتاج إلى حماية والاضطلاع بالاستعدادات الضرورية لحرب البلاد وإحصاء الميليشيات المخصصة لهذا الهدف وفق العدد المقرر تجنيده حصراً من جانب الزعماء والتيماريين والعسكريين الآخرين في مختلف ولايات الإمبراطورية الذين تلقوا أمراً بالزحف.

١٥٨ – Lettre de Samuel Hood commandant la flotte anglaise devant Alexandrie le 16 septembre 1798 FO 78 20.

١٥٩ – INGRAM, *Commitment to empire...*, pp. 69 - 78.

١٦٠ - SHAW, *Between Old...*, pp. 263 - 266 ; Boris MOURAVIEFF, *L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes*, Neuchatel, 1954; p. PISANI, "L'expédition russo - turque auxî les Ioniennes", *Revue d'Histoire Diplomatique*, II, 1888, pp. 190 - 222.

١٦١ - CHARLES - ROUX, *L'Angleterre et l'expédition française en Égypte*, I, I, p. 27, Le Caire, 1925.

١٦٢ - Ibid, pp. 65 - 68.

١٦٣ - *Copies of original letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the fleet under the command of Admiral Nelson, Londres, 1798 - 1799*, 2 volumes et plusieurs éditions, édition française à Hambourg en 1799 et à Paris (avec des observations de E. Th. Simon), an VII.

١٦٤ - LA JONQUIÉRE, III, pp. 246 - 252.

١٦٥ - Albert SOREL, *L'Europe et la Révolution française*, V, *Bonaparte et le Directoire*, pp. 345 - 349.

١٦٦ - Texte intégral de la lettre du Directoire à Bonaparte dans La Jonquière, III, pp. 261 - 268.

١٦٧ - B6 5. Ce texte a été publié par la première fois par Martin en 1815 (I, pp. 243 - 251) et par *l'Histoire Scientifique* (IV, pp. 142 - 153). Bernard Lewis en a traduit des extraits (*La Révolution Française...*, pp. 93 - 94) à partir d'une biographie arabe de Jazzar Pacha conservée au British Museum, Karal en a donné le texte turc (*Fransa Misir...*) p. 108 et suivante. Plus récemment, une version arabe a été publiée. Sayyid Mustafa Salim *Nusus yamannyya an al hamla al firansiyya ala Misr* (textes yéménites sur la campagne française d'Égypte), Le Caire, 1975. Michel TUCHSCHERER a traduit l'ensemble de ces textes yémenites dans son mémoire de D.E.A. à l'Université d'Aix - en - Provence en septembre 1982, *Présentation et traduction commentée de textes du chroniqueur yéménite Lutf Allah Jihaf, relatifs à l'expédition de Bonaparte en Égypte*. Je suis ici deux versions qui se complètent, l'une venant des archives françaises et l'autre étant celle de Martin.

١٦٨ - Texte de B6 5.

١٦٩ - Texte de Martin dans les deux dernières citations.

الفصل الخامس

توطيد الوجود الفرنسي

التمردات والتشدد

ثقة الفرنسيين

من الواضح تماماً أن الفرنسيين على علم بوجود رسائل وخطابات مرسلة من جانب العثمانيين. لكنهم، من الناحية الرسمية، يكتفون بتكذيب محتوياتها؛ فإعلان الحرب من جانب العثمانيين ليس غير فرية اخترعها المماليك لأجل خداع الشعب المصري (١). على أنهم إذا ما نجحوا في إلقاء القبض على حملة الرسائل، فإنهم ينزلون بهم عقوبة – عبرة، هي الإعدام (٢). ويجري اتخاذ تدابير تحسب إضافية كمنع التحدث في الشئون السياسية، وطرد غير المصريين، خاصة المغاربة (وهو إجراء سرعان ما يجري التخلي عنه بسبب استحالة تطبيقه، فمصر لم يعد لها اتصال بالعالم الخارجي)، وإرغام سكان القاهرة على تعليق المصابيح ليلاً في الشوارع على حسابهم (٣).

لكن هذه هي تدابير التحسب الوحيدة التي يجري اتخاذها. فمن الواضح أن بونابارت يثق في رسوخ سيطرته على مصر وفي كفاءة دعايته. واجتماع وفود الأعيان القادمين من كل أرجاء مصر السفلى هو في نظره برهان هذا النجاح. وقد تقرر عقد الديوان العمومي الذي سيشارك فيه مفوضان فرنسيان هما مونج وبيرتولليه (٤). وهو يعرض على هذين الأخيرين مقاصده :

«إن الهدف من عقد الديوان العمومي [...] هو السعي إلى تعويد أعيان مصر على أفكار الاجتماع (النيابي) والحكم. وعليكما أن تبينا لهم أنني قد دعوتهم إلى الاجتماع لأخذ مشورتهم ولمعرفة ما يجب عمله من أجل سعادة الشعب، وما سوف يقومون به هم أنفسهم إذا ما نالوا الحق الذي منحنا إياه الفتح».

وسوف يتوجب مناقشة شئون تنظيم الدواوين الإقليمية، والقضاء المدنى والجنائى والميراث وحقوق الملكية، وجباية الضرائب؛ «سوف يتعين عليكما إطلاعهم على أننا نرغب فى عمل كل ما من شأنه الإسهام فى سعادة البلد، الذى يتعرض لإرهاق وكدر من جراء نظام سيء للضرائب أكثر سوءاً من دفعها بالفعل» (*).

اجتماع الديوان

يعقد الديوان اجتماعه الأول فى أحد بيوت حى الأزبكية فى ٧ أكتوبر ١٧٩٨. ويعرض المفوضان، أمام النواب، خطاباً يبدو للجبرتى كلاماً جد مزخرف وجد حافل بالتحريفات كالعادة (٦)، أى مراءً باختصار، ولابد من الإشارة إلى أن جمهوراً عربياً بهذه الأهمية إنما يستمع، للمرة الأولى على الأرجح، لموجز قصير للفلسفة التاريخ التى صاغها عصر التنوير: إن قطر مصر هو مهد الفنون والعلوم والقراءة والكتابة؛ وقد ملكته إمبراطوريات عظمى: أهل بابل واليونانيون والعرب والترك. وهؤلاء الأخيرون هم الأسوأ بين جميع الفاتحين، فقد خربوا البلد خراباً تاماً. وقد جاء الفرنسيون لتحريره، وهم ينتظرون من المجلس نصائحه حول التدابير الواجب اتخاذها من أجل ازدهار البلد.

والخطاب قليل الوضوح بالنسبة للمستمعين؛ فعربهم هم البدو وأتراكهم فلاحون بليدو الحس وجهلاء (٧). وبالنسبة للجبرتى، فإن الشئ الأكثر إثارة للاستغراب فى هذا الكلام هــو الحــديث عــن جهــل وغبــاء الحكومــة التركية وعــن حســن ســلــوك الجــيش الفرنسى(٨).

وعنــدئذ يقــترح المفــوض الفــرنسى اختيــار رئيس للاجتمــاع ولمناقشات الديوان. ويعرض أحد الأعضاء على الفور اسم الشيخ الشرقاوى. لكن الفرنسيين يوضــحون أنه يلزم إجراء اقتراع مكتوب. ويتبع المشاركون هذا الأسلوب الغريب والمعقد فى الاختيار، وبطبيعة الحال، فإن الشرقاوى هو الذى يتم انتخابه.

والحال أن الشرقاوى، المنحدر من أسرة متواضعة بإحدى قرى الشرقية، والمولود فى عام ١١٥٠ للهجرة (١٧٣٧)، قد حقق صعوداً وظيفياً رائعاً بفضل الأزهر الذى التحق به فى البداية كتلميذ. وعندما يصبح أستاذاً، فإنه يكتب تعليقات عديدة على أعمال لها قدسيتها ويصبح زعيماً صوفياً كبيراً، الأمر الذى يعود عليه بهبات ملحوظة تضع نهاية

البؤس الذي عاش فيه حتى ذلك الحين. وهو يصل إلى مرتبة شيخ (عميد) الأزهر السامية، بفضل دسائس معقدة، وذلك بالرغم من منافسة الشيخ الصاوى. ولما كان مُحدَث نعمة على المستوى الاجتماعي، فإنه يحيط نفسه بأبهة تجعله مثيراً للسخرية؛ إن ضخامة عمامته تصبح مضرب الأمثال. على أنه يعرف كيف يتصدى للمماليك، باسم الدفاع عن الفلاحين، وخاصة الملتزمين الذين ينتمي هو نفسه إليهم. وهو يستفيد من الوظائف التي يمنحه إياها الفرنسيون لكي يزيد ثروته عبر الحصول على أتعاب من أسر العسكر المتوسط لدى السلطات وعبر الاستيلاء في هذه الفترة المضطربة على ممتلكات النازحين أو الأموات المهجورة [٩]. وهو لا يتردد في إبلاغ القائد العام بوجود رسل من طرف أحمد باشا الجزار مكلفين بالدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين [١٠].

وفى عام ١٨٠١، لحظة عودة العثمانيين، سوف يبرر تعاونه مع الفرنسيين بهذه الكلمات: «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قاتوليقية [كاثوليك]، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان في ذلك رحمة بأهل مصر فإنهم جعلوا في جملة دواوينها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذي أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وفرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وأنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن وأنهم يحبون العثمانلي ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء [١١]».

وهذه الشهادة غير البريئة من الحرص على المصلحة الشخصية والتي تجد تكملة لها في وصف الفظائع التي اقترفها الفرنسيون، إنما تشير، حتى في المبررات التي تسوقها إلى النجاح الأول لدعاية بونابارت. ومن الواضح أن الحجة الرئيسية – علاوة على الخيانة

المتهاونة من جانب المماليك العاجزين عن حماية الأمة المسلمة - إنما تتمثل في الشعور بأن العمل الذي أقدم عليه الفرنسيون قد تم بموافقة الباب العالي. وبوسع المرء التعاون مع الفرنسيين لتخفيف الأضرار التي تلحق بالسكان وللاستفادة من ذلك في تنمية مصالحه الشخصية أو مصالح جماعته الاجتماعية. ولم يك كبار العلماء مستائين بالمرة من تصدرهم للمسرح السياسي، إن تصفية شركائهم للمماليك إنما تبرز هذا الدور الذي كان صعودهم الاجتماعي والسياسي في العقود السابقة قد سمح بتوقعه.

وفي اليوم التالي، يصمم اقتراح جديد بتكوين ديوان خاص مؤلف من ٢٨ عضواً، ثم من ١٤ عضواً مكلفين بالإعداد لمناقشات الديوان العمومي. وعلاوة على الشرقاوي، فإن أربعة علماء آخرين يلعبون فيه دوراً مهماً: البكري، الصاوي، الفيومي، المهدي (١٢).

أما الشيخ البكري فهو متعاون بحكم المصلحة. والحال أن عائلته المنحدرة من كافة أسلاف الإسلام الكبار، أبو بكر، الخليفة الأول، علي، وفاطمة، ابنة النبي، وعمر، الخليفة الثاني، قد أصبحت بعد ذلتها أخوية (طريقة) صوفية قوية، هي البكرية. ومنذ عام ١٧٨١، أصبح زعيم الطريقة نقيباً للأشراف أيضاً. وقد تميز خليل البكري في شبابه بسوء سلوكه؛ ولذا يجري إيثار ابن عم له لتولي قيادة البكرية وعمر مكرم كنقيب للإشراف. وهو لا يصعد إلى قيادة الطريقة إلا بعد موت ابن عمه. ثم يستند إلى دعم الفرنسيين لكي يحصل في آن واحد على منصب النقيب والدخول المهمة المترتبة على ذلك. وهو يصبح شخصية مهمة ومؤثرة، لكنه يصبح أيضاً رمزاً لتعاون جد مفرط، الأمر الذي سوف يكلفه غالياً عندما ينقلب اتجاه الرياح (١٣).

وأما الشيخ مصطفى الصاوي، فهو أساساً مثقف ذكي وأستاذ كبير. وقد كان ضحية في الأزهر لمناورات الشرقاوي، ويبدو أنه يلعب دوراً جد باهت في مختلف دواوين الفرنسيين (١٤). أما الفيومي، فهو بوجه خاص وسيط أصيل، وعلى الرغم من كونه أزهرياً، فإن مؤهلاته الجامعية محدودة، وقد اكتسب أهمية ما بانشغاله بشئون الأمراء. وخلال الحملة العثمانية، تولى حماية نسائهم اللاتي بقين في القاهرة. وهو يستأنف هذه المهمة عند وصول الفرنسيين. ولا يتردد في دعوة الفرنسيين مراراً إلى تناول العشاء في بيته ويلهمهم ثقة مبررة. وهذا الرجل النزيه الكريم والمحبوب من الجميع لا يترك عند موته غير ديون (١٥).

والمؤكد هو أن الشيخ المهدي هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام بين الجميع، فهذا

الرجل القبطي الأصل يهجر عائلته وديانته في الحادية عشرة من عمره لكي يتحول إلى اعتناق الإسلام ويصبح تلميذاً ومحاوراً لأحد أساتذة الأزهر الكبار. وسرعان ما يبرز بوصفه واحداً من أذكى شيوخ الجامع وأكثرهم بلاغة. ولما كان على جانب كبير من جمال الجسم، فإنه يترك انطباعاً جد قوي في نفوس معاصريه. وهو يحيا حياة شخصية زاهدة تماماً مع مضاعفته للأعمال التي تعود عليه بثروة ملحوظة. وسرعان ما يتصل بالفرنسيين ويصبح الشخصية الأوسع نفوذاً في الدواوين المتعاقبة. والجبرتي يحييه على تمكنه من تهنئة الفرنسيين بأقواله المقنعة عندما أخذت الأمور تسير سيراً سيئاً بين الفرنسيين والمصريين. وهو يتمكن من كسب إعجاب بونابارت الذي يتحدث عنه ممتدحاً له في مناسبات عديدة، وينجح في تحسين أسلوب البيانات الفرنسية. وهو يصبح صديقاً للمستشرق ج. - ج. مارسيل الذي سوف ينشر حكايات عربية يَرُدّ نسبها إليه (١٦).

القـــرارات

هؤلاء العلماء الكبار كلهم ملتزمون. ومن ثم فإنهم ليست لهم مصلحة في تغيير لنظام الضرائب في مصر. والحال أن ذلك بالتحديد هو أحد شواغل المناقشات الأساسية لهذا الديوان العمومي. أما مشايخ البلاد، فهم يبدون أنصاراً لإلغاء الالتزام الذي سوف يكونون من بين المستفيدين منه. ومن ثم فإن هناك صراعاً عنيفاً حول هذه المشكلة (١٧). أما المسائل الأخرى فهي لا تثير جدلاً كبيراً.

ويتم تثبيت تنظيم الدواوين المحلية مع الوجود الدائم لديوان عمومي لمصر كلها سوف ينبثق أعضاؤه من هذه الجمعيات. ويتعين إبقاء القواعد الخاصة بالمواريث على حالتها لأنها مستمدة من القرآن. وينطبق الشيء نفسه على تنظيم القضاء، وينتصر الملتزمون: إذ يجري الإبقاء على النظام مع الاكتفاء بإلغاء الأعباء الإضافية التي فرضها المماليك في العقود السابقة؛ «إذا وجد القائد العام أن من المناسب العمل على تنظيم الأقاليم لحساب الجمهورية، والوفاء باحتياجات صندوق الخزانة العامة [...]، فإن عليه الأمر بجباية الضرائب وفقاً للأعراف القديمة، مع إلغاء المظالم التي فرضت بشكل متتابع في ظل حكم المماليك الاستبدادي. والرعايا يتوسلون إليه أن يسمح بتخفيف أعبائهم لما فيه خير وازدهار الحكم، لأن المظالم المتراكمة هي التي خربت القرى ومحت ثروة الرعايا البؤساء وتسببت في دمار الأقوياء وفي شقاء المزارعين الذي لا حد له».

ويتمثل الحل الوسط في القضاء على الأتاوة البدوية، «عندما يغير العرب وقطاع الطرق الرئيسية على الطرق في جزء من الإقليم، سوف يتولى المساعد المسلم إبلاغ ذلك فوراً إلى القائد وإلى مستشار الحكومة، اللذين سوف يرسلان القوات الضرورية لوقف الفوضى، وإذا ما تعين ذلك، فإن القائد نفسه سوف يخرج على رأس الجيش لمعاقبة الأشرار بحسب جرائمهم؛ الأمر الذي سوف يعود بالازدهار على البلاد؛ وبالسكينة على السكان ويكفل سهولة جباية الضرائب».

ولابد من مطالبة البدو بالخضوع للسلطات عبر تقديم رهائن. أما أولئك الذين سوف يرفضون ذلك فسوف يجرى اعتبارهم متمردين؛ «إن القائد ومستشار الحكومة سوف يتخذان تدابير لدفعهم إلى التكفير عن تمردهم، مع استخدام جميع الوسائل التي تجيزها الأعراف القديمة». وتبقى المسألة الملحة الخاصة بتسجيل الملكيات. ويرى الديوان أن ذلك مستحيل في الوقت الحالي؛ «فلابد من مراعاة أن استعراض الحجج والاطلاع عليها يتطلبان الكثير من الجهد والوقت من جانب المندوبين ويسببان متاعب للملاك؛ لأنه لمراجعة جميع حجج القاهرة، لن تكفى عدة سنوات إلا بصعوبة».

ويقترح الديوان حلا مؤقتاً؛ «ومن ثم فإن الديوان العمومي يرى أنه إذا كان من الضروري تدبير أموال لدفع رواتب الجيش، فسوف يكون من الأنسب إلى أبعد حد فرض ضريبة ثابتة، تتناسب مع أهمية الممتلكات والموقع الذي توجد فيه. وهذه الممتلكات في مدينة القاهرة تتألف من الوكالات والحمامات والدور والمساكن والمعاصر والسرجات والمطاحن والملكيات للسورة والدكاكين والقهاوي [...]. وهذه الممتلكات لن تدفع غير نصف هذه الضريبة في الإسكندرية ورشيد ودمياط؛ لكن مدن وقرى مصر الأخرى لن يجرى إخضاعها لها نظراً لأنها تدفع ضرائب أرض أعلى بالفعل من قدراتها» (١٨).

ويسارع بونابارت إلى تطبيق التدابير التي يوصي بها الديوان. ويصدر الأمر في ٢٥ فينديميير من العام السابع (١٦ أكتوبر ١٧٩٨)؛ إذ يجرى الأمر بإجراء تعداد فورى لدور القاهرة من جانب المهندسين المعماريين ويتعين على الجباة الأقباط البدء بجباية الضريبة الجديدة (١٩). وبعد يومين، يتوجه بالشكر إلى الديوان من خلال المفوضين الفرنسيين ويطلب إليهما أن: «يوجه خطاباً إلى سكان البلد، لإشعارهم بمدى أهمية ألا يصغوا إلى الأقوال الكاذبة والمغرضة التي يروج لها أعداؤهم حول وصول المماليك؛ إن ذلك ليس من شأنه غير إزعاج الفرنسيين والتسبب في خراب قراهم. فليجر نصحهم بعدم الإصغاء لهذه

الشائعات الغائرة والتى لا أساس لها؛ وليبدوا الطاعة ويحيوا فى انسجام حسن مع الفرنسيين وليوحدوا جهودهم مع جهودهم من أجل القضاء على العرب قطاع الطرق ومنعهم من تخريب الأرياف ومضايقة الفلاحين التعساء؛ ولا يمكن تحقيق هذه النتيجة السعيدة إلا عبر الانسجام الحسن مع الفرنسيين» (٢٠).

انزعاج سكان القاهرة

هذا الانسجام الحسن لا يدوم طويلاً. وخلال انعقاد الديوان العمومى، يتزايد الانزعاج فى القاهرة. فالتدابير المتخذة ضد الطاعون، خاصة الإلزام بتهوية جميع الأمتعة والملابس، والمصحوبة بزيارات منزلية للتحقق من تطبيقها، وتصرفات الفرنسيين الغريبة كظهور أعلام بيضاء على القلعة، ثم هذه التفتيشات التى يقوم بها المهندسون المعماريون(٢١) إنما تنتهك خصوصية الأسرة والتى تعد عنصراً رئيسياً من عناصر الحياة الإسلامية. وبالنسبة للمسلمين، فإن كل هذه العلامات تنذر بالمذبحة الشاملة التى تنبأت بها الدعاية العثمانية.

وكان قد جرى نشر هذه الدعاية فى مساجد العاصمة من جانب «المعممين»، علماء المرتبة الأدنى. والواقع أن الفرنسيين عاجزون عن فهم ما يقال فى خطب الجمعة أو فى النداءات الداعية إلى الصلاة. وشيئاً فشيئاً، كان كبار العلماء قد فقدوا مرجعيتهم. ومسألة فرض ضرائب على دور القاهرة توضح ذلك جيداً؛ فبالنسبة لهم، كان ذلك تخفيفاً ملحوظاً بالقياس إلى الضريبة الأولى، وهو تخفيف تم الوصول إليه بفضل روحهم المتصالحة؛ أما بالنسبة للمعممين، فإن هذه الضريبة ليست غير جزية أخرى، وهى الضريبة القاصرة من الناحية النظرية على غير المسلمين. وجميع الاستعدادات التى اتخذها الفرنسيون لكفالة أمنهم، كنزع سلاح السكان، إنما يجرى النظر إليها من جانبهم على أنها إنزال للمسلمين إلى وضعية الذميين، المصريين غير المسلمين، الأشخاص الذى يتميزون بمكانة أدبية واجتماعية أدنى. والسخط عظيم بقدر ما أن المسيحيين واليهود قد استفادوا من تعاونهم مع الفرنسيين لأخذ نوع من الثأر الاجتماعى ولإذلال المسلمين بدورهم، وقد حاول المسئولون الفرنسيون تجنب هذا المسار المسىء إلى سلطتهم، ولكن شكايات المسلمين لا تصلهم فى أغلب الأحيان لأن الترجمانات يُختارون أساساً من بين هؤلاء الذميين

السابقين(٢٢). ومن ثم فإن المعممين «يدعون السكان إلى الجهاد ضد الكفار» ويمكن للفتنة القاهرية الأولى أن تبدأ (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) (٢٣).

الفــــتنة

إن مصطلح «الفتنة»، والذى يعنى فى الأصل «تجربة» ومن ثم «امتحان – محنة» إيمان شخص ما، قد أشار فى البداية، فى التاريخ الإسلامى، إلى القلاقل الأهلية للجماعة، خاصة تلك التى أدت إلى ميلاد المذهب الشيعى. ومنذ ذلك الحين، فإنه يكتسب معنى «تصدع» نظام الجماعة. وعلى الرغم من أنه يفقد نسبياً مفهومه الدينى ليعنى مجرد «التمرد»، فإنه مفهوم بالغ السلبية فى حد ذاته. وسوف يستخدم فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر للإشارة إلى الثورة الفرنسية («الفتنة الفرنساوية») (٢٤). أما أن الجبرتى يستخدمه فإن ذلك لما له دلالته، فذلك يشكل جزءاً من شجبه للفتنة الأولى التى جرى الانخراط فيها دون مراعاة لنسبة القوة العسكرية.

ويستحضر كاتب الأخبار المصرى بشكل محدد جماعتين اجتماعيتين فى هذه الفتنة. فمن جهة، نجد «المعممين»، علماء المرتبة الأدنى وطلاب الأزهر، ومن جهة أخرى، نجد سكان الأحياء الشعبية ومغاربة القاهرة، الذين يشكلون فى نظره «رعاعاً أسافل» حقيقيين، إذا ما استعدنا عبارة شهيرة لسياسى فرنسى من القرن التاسع عشر. ويؤكد الكتاب الفرنسيون هذا التحليل (٢٥). ويقول الجبرتى صراحة أنه لا يوجد زعيم حقيقى لقيادة التمرد (٢٦). وتتحدث المصادر الفرنسية عن مجلس من ثلاثين شخصاً وتعطى الدور الأول لشيخ طائفة عميان الأزهر، سليمان الجوسقى (٢٧).

وهذا الرجل يصوره الجبرتى بأنه شخص متسلط وطموح، حَـوَّلَ طريقته إلى تنظيم حقيقى لاغتصاب الأموال. ولما كان يحب الترف والحياة السارة البهيجة، فإن تورطه فى المؤامرة سوف يكون نتاج إفراط فى الطموح (٢٨). أما الزعيم الآخر فهو أحد الأشراف، السيد بدر المقدسى، الذى لا تتوافر عنه غير معلومات قليلة (٢٩). وعلاوة عليهما، كان هناك علماء شبان يتحدث عنهم الجبرتى بتعاطف.

وتظهر الحركة فى البداية كفتنة كلاسيكية من فتن الاحتجاج على المظالم، كما فى زمن الأمراء، ولكن مع الفارق المهم الذى يتمثل، هذه المرة، فى عدم وجود علماء للتوسط،

على العكس، إن التحرك يتم ضد رأى كبار المشايخ الذين يفضلون الحذر والترقب. ومن ثم توصد الدكاكين أبوابها وتتجه المظاهرة إلى مقر قاضى العسكر، السلطة العليا فى الهيراركية القضائية العثمانية، وذلك لمطالبته بالتوصل إلى إلغاء رسوم التسجيل. ويضطلع هذا الأخير بمهمة دفع الجمهور إلى التعقل. فيجرى الاعتداء عليه وتهب داره(٣٠). وتتشكل مظاهرات أخرى انطلاقاً من جامعى الحسين والأزهر الكبيرين. وعندئذ فإن قائد الموقع، الجنرال ديبوى، إذ يجرى إخباره بهذه المظاهرات، يسعى إلى لقاء القاضى حتى يتمكن من تهدئة الجمهور. ووفقاً للجبرتى، فإنه لو كان قد نجح فى الوصول إلى القاضى، لكان من الأرجح عندئذ أن تنتهى المسألة (٣١)، لكنه يصادف فى الطريق جماعة من الثائرين الذين يهاجمونه هو وحراسه، ويتم قتله، كما يتم قتل عدد من رفاقه ويسحب الناجون جثته.

والحال أن إعلان مصرع جنرال فرنسى، يحسبه عديدون بوناپارت، هو الذى يؤدى إلى تعميم الانتفاضة. ويتم ذلك نحو الساعة العاشرة من صباح ٢١ أكتوبر ١٧٩٨. وفى كل مكان تقريباً من المدينة، يجرى الهجوم على دور الأوروبيين والمسيحيين، باستثناء الأماكن التى كان ما يزال يوسع المرجعية الأدبية لكبار المشايخ أن تلعب دورها فيها [الأزبكية (الشيخ البكرى)، عابدين وقيسون (الشيخ الفيومى)، فناظر السبع (أمير الحج)] وضاحيتى بولاق والفسطاط المجاورتين. كما أن وجود جنود فرنسيين بأعداد مهمة فى تلك الأماكن يلعب دوراً رادعاً. وفى المقابل، فإننا إذا ما صدقنا ما يذهب إليه كتاب «التاريخ العلمى»، فإن الثوار يحتجزون الشيخ السادات، «ويحلقون شعره على نحو مهين، ويلبسونه بزة جندى [فرنسى] قتيل ويبيعونه فى السوق بثلاثة عشر قرشاً» (٣٢). ولابد من الإشارة إلى أن جيران الفرنسيين يفعلون كل ما فى وسعهم لإنقاذهم من هجمات السكان، مخاطرين بأرواحهم هم أنفسهم فى أغلب الحالات (٣٣). أما بيت كافاريللى، حيث توجد الأدوات العلمية للجنة، فهو يتعرض للهجوم من جانب الثوار الذين يدمرون بشكل منهجى كل أشياء الفرنسيين. وتتكاثر أعمال النهب، على حساب المسيحيين كما على حساب المسلمين.

القمـــع

كان بوناپارت قد غادر القاهرة لزيارة الروضة، فى الساعات الأولى من النهار، وذلك

بالرغم من بدء التجمهرات (٣٥). وهو يرجع إلى الأزبكية في منتصف النهار ويعهد بخلافة ديبوي إلى الجنرال بون. ولما كان منشغلاً باستعادة الاتصالات بين مختلف النقاط المنفصلة التي يتواجد فيها الفرنسيون، فإنه يدع الانتفاضة تتطور. وكما في ١٣ فنديميير، فإنه يكرس الجانب الرئيسي من جهده لإقامة مواقع للمدفعية لسحق مراكز التمرد.

وصباح اليوم التالي، يقترب بدو مشارف القاهرة من المدينة. ويرسل بونابارت فرسانه لاحتوائهم. ويلقى البولوني الرائع سولكوفسكي، معاون بونابارت، مصرعه لدى عودته من مهمة جمع معلومات عن الوضع الخارجي. وعندئذ يمثل مشايخ الديوان أمام القائد العام. وفي البداية يستقبلهم هذا الأخير بغضب، ثم يلين ويطلب إليهم تنظيم بعثة مصالحة لدى الثوار الذين يتخذون من الأزهر مقراً لقياداتهم. ويفسر الثوار هذه البادرة على أنها البرهان على ضعف الفرنسيين ويرفضون استقبال المشايخ.

وقبيل الظهيرة، يبدأ القصف الفرنسي الذي لا يرحم، ويجري ضرب جميع المناطق التي يحتلها المتمردون ضرباً قاسياً. ويركز الفرنسيون بشكل خاص طلقاتهم على حي الأزهر، ولما كان المتمردون قد زلزلهم بالكامل طوفان النار الذي يحدث دماراً جسيماً، فإنهم يتخلون تدريجياً عن متاريسهم للجنود الفرنسيين الذين استأنفوا الآن الهجوم، ويسعون إلى التفاوض. ويرفض بونابارت أية ترضية. ونحو الساعة العاشرة مساءً يستسلم زعماء التمرد؛ فهم يريدون تجنب أن يقع المتمردون الآخرون ضحايا للقمع، وتهدر طلقات متفرقة أيضاً في الساعات الأولى من الليل (٣٦). وفي فجر ٢٣ أكتوبر، يهيمن النظام على القاهرة(٣٧). ويتلقى بون الأمر باجتياح الأزهر (٣٨).

ويفزع الجبرتي من هذا العمل البربري: «ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه» (٣٩).

ويهرول مارسيل وسط الجنود لينقذ قدر الإمكان المخطوطات الثمينة، وسوف ينجح بذلك في الحفاظ على مصحف رائع مكتوب على جلد الجمل (٤٠). لقد أدت الفتنة إلى

مصرع ما بين مائتين وثلاثمائة فرنسي ويبدو أنها أدت إلى مصرع ما يزيد عن ذلك العدد بعشر مرات بين صفوف المصريين [٤١].

العقوبات

يجرى إعلان عفو عام، إلاَّ بالنسبة للزعماء ولمن قاموا بأعمال السلب والنهب. ويلاحق بارتيليمى وآغا الأنكشارية هؤلاء الأخيرين، ويكثفان الاعتقالات التعسفية ولا يترددان في اللجوء إلى التعذيب للحصول على معلومات. كما أنهما يبحثان عن الأسلحة[٤٢] ويطلب بوناپارت نفسه من مشايخ الديوان أن يقدموا إليه أسماء «المعممين» المتهمين بتحريك التمرد. ويحاول المشايخ المراوغة، لكنهم سرعان ما يدركون أن الفرنسيين قد حددوا بالفعل أسماء الزعماء واعتقلوهم فيما عدا السيد بدر المقدسي الذى كان قد نجح في الهرب، وشيخ العميان، الذى مات خلال القصف. ويطلب المشايخ معاملة هؤلاء العلماء من زاوية مكانتهم السامية، ويقبل بوناپارت احتجازهم في بيت الشيخ البكرى [٤٣].

أمَّا سكان القاهرة، الذى أثار القمع خوفهم، فإنهم يسارعون إلى ارتداء الشارة الثلاثية الألوان، لكن الجنود يجبرون على الفرنسيين فيحظرون عليهم ذلك بسبب مروقهم[٤٤]. وبناءً على طلب من القائد العام، يشجب المشايخ فرمانات السلطان بوصفها أباطيل حاكها المماليك. ويجرى إصدار الأمر إلى جميع السلطات بتسليم جميع الكتابات المحرضة على التمرد إلى الفرنسيين [٤٥]. والواقع أن بوناپارت يريد إبقاء القمع عند أدنى مستوى له، وذلك بالرغم من احتجاجات الجيش الذى يطالب بإنزال عقوبات قصوى. والموقف الأكثر حدة هو موقف العلماء والفنانين مثل فيڤان دينون الذى يكتب إلى مينو: «إن الأول من بروميير قد مزق إلى حد ما حجاب حب البشر الذى أردنا نشره على وجه مصر. وأنا أعتقد أننا مقهورون بلا ريب إلى أن نكون الأقوى؛ ثم إن هذا مبدأ من مبادئ القرآن؛ أما الكاثوليكية فهي جد مرائية وهم يصرون على اعتبارنا كاثوليك...» [٤٦]

ويصدر الحكم بإعدام «المعممين» الستة المقبوض عليهم، لكن بوناپارت، بدلا من الاتجاه إلى إعدام علنى كما فعل في حالة محمد كريم، يأمر بإعدامهم بشكل شبه سرى في القلعة (١٤ بروميير من العام السابع – ٤ نوفمبر ١٧٩٨) [٤٧]. ولا يتمكن المشايخ من الحصول على شيء من بوناپارت عبر الوساطة.

وما يجهلونه هو أن القائد العام يرى – مخطئاً على الأرجح – أن السادات نفسه هو ملهم التمرد. وتنتسب أسرة السادات إلى النبى، عن طريق الحسن والحسين، حفيديه، فى آن واحد، ومنذ القرن الرابع عشر، تقود طريقة السادات الوفائية الصوفية جد المهمة.

وكان محمد أبو الأنوار السادات قد حصل على تعليم جد ناجز كفقيه شرعى وكصوفى، وأصبح زعيماً للطريقة فى عام ١٧٦٩. ومع احتفاظه بأشكال الوقار المميزة للعلماء، برز بوصفه رجل أعمال عديم الذمة، حيث أساء استخدام مكانته الاجتماعية القوية لتحقيق الثراء لنفسه. وهو يثير خوفاً عظيماً فى صدور خصومه ومرءوسيه، ولما كان ملتزماً، فإنه يبدو بالغ القسوة تجاه فلاحيه بشكل يتجاوز ما هو معتاد فى هذا الوسط، وقد تمكن من التصدى ظافراً لحسن باشا الجزايرلى فى عام ١٧٨٦، عندما أراد هذا الأخير بيع أفراد أسر المماليك الذين لجأوا إلى مصر العليا فى سوق النخاسة. وبالرغم من تحفظه تجاه الفرنسيين، فإنه موضع اهتمامات كثيرة من جانب بوناپارت، وقد اتجه إلى دعوتهم إلى زيارته فى بيته، والجبرتى يصحبه عندما يزور الفرنسيين، وهذا الأخير يستفيد من ذلك لكى يتفرج على تحفهم الفنية وخاصة الرسوم واللوحات التى تستثير إعجابه (٤٩).

وعلى النحو التالى يقدم بوناپارت الشيخ لكليبر الذى جاء لتوه من الإسكندرية:

«هذا هو زعيم التمرد.

«لماذا إذا لا تأمر بإعدامه رمياً بالرصاص؟

«لا، إن هذا الشعب جد غريب عنا، عن عاداتنا. ولابد له من زعماء: وأنا أحبذ أن يكون له زعماء من نوع مماثل لهذا النوع، الذى لا يستطيع امتطاء صهوة جواد، ولا استخدام السيف، بدلا من أن يكون له زعماء من نوع مراد بك [...] إن إعدام هذا العجوز العاجز لن يؤدى إلى أية فائدة ومن شأنه أن تترتب عليه عواقب أسوأ مما تتصور» (٥٠).

وفى أثر الانتفاضة، يتخذ القائد العام تدابير لتأمين سلامة الفرنسيين، ويصبح أعيان أحياء القاهرة ضامنين لحفظ النظام العام ويتعهدون بإخطار السلطات بأبسط عامل من عوامل تكدير الأمن (٥١).

ويجرى تعزيز الانضباط، ويتعين على الجنود أن يكونوا مسلحين ومستعدين دائماً للوجد فى مراكز التجمع فى حالة نشوب القتال. ويتم إنشاء ثلاث وحدات يونانية لتأمين سلامة المواصلات النهرية. وهى تتألف من بحارة أسطول مراد بك السابق، الذين انضموا لأعداء الفرنسيين خلال أحداث (التمرد). وبوجه خاص، يعزز بوناپارت تحصينات

القاهرة ويميل إلى تركيز التكنات الفرنسية في جزيرة الروضة وفي الجيزة، وهي أماكن تقع خارج المدينة في ذلك العصر (٥٢). وهناك نجد صورة مصغرة لمدينة كولونيالية (استيطانية) في أرض الإسلام (٥٣).

وحد الفعل ضد الأقاليم

تمثل أحد الشواغل الأولى لبيرتييه في إخطار الجنرالات الذين يحوزون الأقاليم بما جرى في القاهرة، وذلك سعياً إلى تبديد الشائعات التي تتحدث عن مصرع بونابارت وعن انتصار المتمردين والتي انتشرت في كل مكان تقريباً (٥٤). كما يتعين تجنب امتداد الحركة إلى مجمل البلد. ويجرى إصدار أوامر في جميع الأقاليم بأن يسلم مشايخ البلاد إلى الفرنسيين جميع حملة الفرمانات العثمانية المتداولة.

فالدعاية العثمانية كان لها أيضاً تأثير خارج القاهرة، والمشارف المباشرة للمدينة هي دائماً قليلة الأمن بالنسبة للفرنسيين. وزيارة الجنرالات الفرنسيين إلى الأهرام لا تتم إلا بحراسة عسكرية جيدة تحسباً لهجوم محتمل من جانب البدو الذين اقتربوا من جهة أخرى اقتراباً خطيراً من العاصمة خلال الفتنة. ويجرى تكليف بارتيليمي بتخليص الضاحية من هؤلاء الجيران المزعجين. وهو يفعل ذلك بطريقته ويرجع من كل غارة من غاراته ببضع رؤوس للبدو. وعندما لا يجد بدواً، فإنه يرتد على الفلاحين الذين يلقون المصير المعد للبدو. والحال أن الفرنسيين، بالرغم من علمهم بفعاله، يدعونه يتصرف كما يحلو له (٥٦).

إلا أنه أساساً في إقليم طنطا، وهو موقع أكبر مزار صوفي في مصر، هو مزار السيد البدوي، بدأت الفتن، وحتى قبل أن تبدأ فتن القاهرة. وكما في العاصمة، فإن مسألة جباية الضرائب تكمن في منشأ الفتن. والحال أن الأعيان يرفضون المثول أمام السلطة الفرنسية. ويلجأ الفرنسيون في البداية إلى المداراة ولا يدخلون المدينة، بينما يراهن السكان على «عون القسطنطينية المزعوم» الذي وعد به فرمان زائف من باشا سوريا. وتتغلغل وحدة فرنسية في المدينة في ٧ أكتوبر، وهو يوم سوق يجتذب سكان الأرياف. ويهاجم الجمهور الوحدة التي تضطر إلى الانسحاب إلى خارج المدينة. ومن ثم يطلب لوجيير تعزيزات (٥٨). ويرد بونابارت بأنه يجب مراعاة هذه المدينة المقدسة قدر الإمكان وأنه سوف يعمل على

تشغل الديوان العمومى من أجل تهدئة الخواطر؛ ويرسل الجنرال لانوس مع تعزيزات لتهدئة هذا الإقليم الواقع فى الدلتا تهدئة كاملة (٥٩).

والمهمة الأكثر إلحاحاً هى القضاء على البدو الذين يدعمون المتمردين. ويعتمد دوجيير على مشايخ البلاد المحليين، ضحايا المماليك والعرب (٦٠). وينجح لانوس فى تصفية أبو شاهر، شيخ العرب القوى، الذى كان قد حرك المقاومة ضد الفرنسيين منذ البداية. وهو يستولى على خزائنه (أكثر من اثنى عشر ألف جنيه من الفضة). وتسقط فى أيدى الفرنسيين قرى هذا الشيخ العشرون (٦١). ويؤدى هبوط النيل إلى إبطاء العمليات، ويتركز الاهتمام على جباية الضرائب من القرى. وترضخ طنطا دون مقاومة خاصة، لكن الفرنسيين يفضلون عدم احتلالها بشكل دائم وذلك بسبب طابعها الدينى وسعياً إلى تجنب بعثرة قواتهم (٦٢).

وفى بلبيس، يضطر رينييه هو أيضاً إلى التصدى لهجوم فى ٢١ أكتوبر. وهو هجوم منسق قامت به عدة جماعات من البدو. وينجح رينييه فى صده بسهولة (٦٣). وهو يرى أن هذا الهجوم قد نظمه مماليك إبراهيم بك وأنه يوحد فلاحين وبدو (٦٤).

وأمام صد الفرنسيين لهم، ينسحب البدو إلى داخل الأراضى. ولما كان هبوط النيل ما يزال غير مناسب، فإن الفرنسيين يجدون صعوبة فى ملاحقتهم. ومن ثم فإن الجنرال الفرنسى ينهمك فى عمليات تخويف للسكان سعياً إلى التوصل إلى إذعانهم النهائى. ويستمر هذا الوضع على مدار شهر نوفمبر. وتتكون لدى الفرنسيين باطراد قناعة بأنه لن يكون بالإمكان الوصول إلى أى شىء دائم ما لم إبراهيم والجزار ينجحان فى إرسال عملاء لإثارة الإقليم (٦٥). وتتوقف قوة المقاومة على أهمية الروابط بين الفلاحين والبدو والتى لم يتمكن الفرنسيون بعد هذا، خلافاً للحال فى بقية الدلتا، من فك عراها.

الإنجليز قبالة الإسكندرية

لكن الأحداث الأهم تدور فى إقليم الإسكندرية. ففى ١٩ أكتوبر ١٧٩٨، يعين بونابرت مينو قائداً لمجمل منطقة البحيرة والإسكندرية ورشيد، جامعاً بذلك تحت قيادته العليا كل غرب الدلتا (٦٦). وفى اليوم نفسه تنضم سفن عثمانية إلى سفن هود الإنجليزية التى تحاصر الميناء. ووجودها يجد تفسيراً له فى الدوافع السياسية بأكثر مما فى أسباب

عسكرية، فالهدف هو إشعار الفرنسيين والسكان المحليين على حد سواء بأن العثمانيين قد دخلوا الحرب (٦٧).

ويترك مارمون القناة لكي يضم قواته إلى قوات مانسكور. وكان القائد العثماني قد أبلغ قبطان لاريال، الباقية راسياً في ميناء الإسكندرية، بأن عليه الحصول على تصريح من الفرنسيين للانضمام إلى أسطوله (٦٨). ويمتثل القبطان للأمر ويجرى اتصالات مع المحتلين. ووفقاً لهما، فإنه ما دامت الإمبراطورية العثمانية لم تدخل في حرب ضد فرنسا، فليس هناك ما يمنعه من الانضمام إلى السفن العثمانية الموجودة خارج الميناء. على أن مفاوضيه، الذين لا يثمنون غير تصديقه، يرفضون السماح له بمغادرة الميناء.

وكان مود قد اتصل بالمقاومة الداخلية خاصة بعبد الله باشى الذى انتقل فى أحد الأوقات إلى سفينته، وحاول التوفيق بين مراد بك والعثمانيين (٦٩). وينظم مارمون شبكة تجسس مخصصة على الساحل بهدف القبض على عبد الله الذى كان قد رُصد فى المنطقة(٧٠).

واعتباراً من ٢٤ أكتوبر، يقصف الأسطول الأنجلو – عثماني الإسكندرية وأبو قير بحسب الترتيب؛ وتعتبر الخسائر تافهة، لكن بوناپارت يفضل إرسال مويا لمراقبة مؤخرات الإسكندرية وأبو قير. وهو يخشى بشكل خاص من نشوب انتفاضة فى هذه المدينة الأخيرة (٧١). والواقع أن مويا يجد منطقة هادئة بشكل عام، وذلك بالرغم من أن الإنجليز والعثمانيين كانوا قد نجحوا فى تأمين اتصالات مع السكان.

وكما هى القاعدة فى تلك العصر، فبمجرد انتهاء القصف، يتم اتصال بين الفريقين المتخاصمين. وبوناپارت بحاجة ماسة إلى معلومات عن وضع مصر الخارجى وقد أوفد الترجمان براسيفيتش وموظفاً عثمانياً اسمه إبراهيم أغا وضابطين فرنسيين إلى الأسطول (الإنجليزى – العثمانى) المشترك. ويواصل المسئولون الفرنسيون الاعتقاد بأن دخول العثمانيين الحرب ليس غير شائعة كاذبة يروج لها الإنجليز والمماليك. ويتمشى هذا الاعتقاد كثيراً مع أمانيهم وقد عززته تأكيدات قبطان «لاريال» (٧٢).

وفى ٥ نوفمبر، يصعد المندوبون إلى الأسطول حيث يتم استقبالهم أحسن استقبال، ويكرر لهم الجميع أن الباب العالى قد دخل بالفعل فى حرب ضد فرنسا، وأن مالطه محاصرة وأن أسطولا روسياً عثمانياً قد اتجه إلى مهاجمة الجزر الأيونية. لكن مارمون ومانسكور يرفضان تصديق هذه الأخبار (٧٣). ولا يملك مود إلا أن يتألم لعمى الفرنسيين غير المتوقع (٧٤).

سياسة المصالح

فى بداية نوفمبر ١٧٩٨، اضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بأنه ليس من السهل الحصول على ولاء المصريين. وإذا كان من الواضح أن هناك حركة ثورية فى مصر، فإنها تتجه ضدهم، رداً على التدابير الضريبية التى فرضها إفلاس الجيش، مثلما تتجه ضد الأحكام الإدارية العسكرية التى اضطروا إلى اعتمادها لإعادة تنظيم مصر ولتأمين سلامة الفاتحين. وهذه الأعمال كلها تترجم بوصفها انتهاكات واعتداءات على الشريعة الإسلامية وهو ما يفضى إلى إضفاء شرعية دينية على التمردات. ومن الواضح أن بونابارت كانت لديه مبررات لكى يتبنى فى بياناته خطاباً إسلامياً، لكنه – لسوء حظه – يبدو أنه لم يقنع السكان المصريين البتة.

إن دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب وحرب الدعاية الفعالة التى تخوضها، يؤديان إلى تحييد العمل السيكولوجى الذى يقوم به الفرنسيون، والذى خُطط تخطيطاً جيداً على أية حال؛ إن كثيرين من المصريين قد صدقوا بالفعل أن الفرنسيين قد جاءوا لمحاربة المماليك بموافقة من الباب العالى، وهم الآن يتحررون من أوهامهم. والفشل السياسى تام على هذا المستوى. وفى المقابل، فإن السيطرة الفرنسية قد وجدت دعامتها الضرورية فى القبول السلبى أو الإيجابى من جانب جماعات اجتماعية كمشايخ البلاد وكبار العلماء الذين تتمثل الأولوية المطلقة بالنسبة لهم فى استعادة النظام العام الذى تمثل بشكل خطير من جراء أكثر من عقدين من الفتن. والحق أن حزب النظام هذا لا يقبل الفرنسيين إلا على مضض، لكنه يسمح بدعم السيطرة على البلاد على أسس راسخة.

ومن الطبيعى أن هذه السيطرة يجب أن تجد امتداداً لها فى فتح مصر العليا سعياً إلى القضاء على الخطر الدائم الذى تمثله عودة هجومية من جانب مراد بك. وعلى عاتق ديزيه تقع هذه المهمة الصعبة.

مصـــر العليا

مهمة روزيتى

بعد معركة الأهرام – وتمشياً مع منطق الحروب المملوكية – ينسحب مراد بك إلى مسافة جد بعيدة فى مصر العليا. وكان بونابارت قد أرسل إليه روزيتى للتفاوض على (شروط) ولائه للفرنسيين وأصدر أوامر من أجل احتلال الأقاليم الجنوبية الأكثر قرباً من القاهرة. ومنذ بداية شهر أغسطس ١٧٩٨، تصطدم العناصر الفرنسية الأكثر تقدماً، تحت قيادة الجنرال رامبون، بمقاومة مهمة أجبرتها، بين أمور أخرى، مصادرات الجهاد (٧٥).

ويستقبل مراد بك روزيتى استقبالاً حسناً للغاية، لكن الأول، فى أثر أخبار معركة أبو قير على الأرجح، يرفض مقترحات الفرنسيين ويعلن استعداده لدفع تكاليف رحيلهم(٧٦). والحال أن هـزيمـة الفـرنسيين البحـرية تشجـع مراد بك على إعادة تجميع القوات المملوكية فى مصر العليا. وهو يتصالح مع حسن بك الجداوى، المملوك السابق لعلى بك، والذى يسيطر، بشكل مستقل عن العاصمة، على جزء من مصر العليا ويطلب تقديم يد العون له من جانب مسلمى مدينتى مكة والمدينة المقدستين.

الفـــيوم

• فى ١٦ أغسطس، يعهد بونابارت إلى ديزيه وفرقته، وكذلك إلى الأسطول النهرى الذى يقوده العميد البحرى بيرييه، بمهمة العمليات ضد مراد بك. ولا يضم فيلق حملة ديزيه أكثر من ثلاثة آلاف رجل. وهو يخرج من القاهرة فى ٢٥ أغسطس على متن الأسطول النهرى ويصل إلى بنى سويف فى ٣١ أغسطس ١٧٩٨. وتتمثل التعليمات الصادرة إلى ديزيه فى مهاجمة مراد بك بمجرد عثوره عليه وبالحد الأقصى من القوات. ويصل إلى علم الجنرال الفرنسى أن المماليك يحتشدون فى الفيوم، تلك الواحة الشاسعة التى تغذيها ترعة متفرعة من النيل، هى ترعة بحر يوسف. وهو يشن غارة جسورة لتدمير أسطول مراد بك بعيداً عن ملتقى بحر يوسف والنيل. ثم يندفع حتى أسيوط، فى ١٥ سبتمبر ١٧٩٨، لكنه يفشل فى محاولته ويرجع إلى الوراء لكى يتمركز عند مدخل بحر يوسف حيث يحشد قواته. وفى ٢٤ سبتمبر، تدخل الفرقة إلى الترعة.

وخلال الأيام الأولى، تنشأ المصاعب الوحيدة عن بداية هبوط النيل. واعتبارًا من ٣ أكتوبر، تبدأ الاشتباكات مع المماليك بينما يغادر الجنود زوارقهم للهبوط على البر. وفي ١٦ أكتوبر، يقاتل مراد بك الفرنسيين في سيديمنت. ومرة أخرى، ينكسر سلاح الفرسان المملوكي الرائع على المربعات الفرنسية. فالآن يعرف الجنود بشكل تام قواعد المناورة وقد توقعوا أن المماليك سوف يكونون أكثر قربًا لإطلاق رصاصاتهم القاتلة. وفي إحدى اللحظات، تخلف (الجنود الفرنسيون) قليلا (عن تشكيل المربعات) وتم اجتياح أحد المربعات، إلا أنه سرعان ما يتم تشكيله (٧٨). على أن ديزيه قد اضطر إلى ترك عدد من الجرحى للمماليك لكي يتسنّى له تشكيل المربعات (٧٩).

وعندئذ يغادر المماليك الفيوم منسحبين إلى المنيا بينما يستولي الفرنسيون على المركز الأهم في الواحة، مدينة الفيوم (١٢ أكتوبر ١٧٩٨). وفي الأسابيع التالية، ينظم ديزيه ذلك الإقليم. ويحصل زايونتشيك على قيادة إقليم بني سويف. وتظل الاتصالات صعبة مع القاهرة: فمراد بك يغير تاكتيكه ويحفز الكثير من التمردات القروية الصغيرة. وكانت فرمانات معادية للفرنسيين صادرة عن الباب العالي قد وزعت في كل مكان تقريبًا في الإقليم (٨٠). وكما في الدلتا، فإن العرب هم الذين يخوضون القتال، لكنهم يتلقون هنا دعمًا مباشرًا من جانب المماليك، وهم يهاجمون مدينة الفيوم نفسها في بداية نوفمبر. وتحل حرب العصابات محل الصدام على جبهة محددة. وما أن يبدو أن الفرنسيين هم الأقوى، فإن المماليك والبدو يتركون الفلاحين ضحية للقمع الذي يمارسه الغزاة. ولا يتردد ديزيه في أن يقدم عبرةً بتدميره قريه سيرسيني (٨١). وتؤدي الأعمال الانتقامية التي يمارسها الفرنسيون وكذلك الانضباط الذي يفرضه ديزيه على جنوده سعيًا إلى منع كل نهب وكل سلب إلى تهدئة سريعة للبلاد. ثم إن ديزيه يحصل من بونابارت على جانب من التعزيزات بقيادة بيليار.

المعلم يعقوب

يتكشف مراد بك عن خصم عنيد ورهيب. ثم إنه، بفضل عبد الله باشي، يتصل بالإنجليز (٨٢). أما ديزيه فهو يجد عونًا في شخص الأمين القبطي الذي أرسله بونابارت، وهو المعلم يعقوب. وهذا القبطي، الذي ولد في عام ١٧٤٥، في القاهرة، وفقًا لبعض المصادر، وفي ملوي في مصر العليا وفقًا لمصادر أخرى، يصل إلى أروع المدارج التي يمكن

أن يطمح إلى بلوغها واحد من بنى جلدته. وبفضل قدراته، يصبح أمين سليمان بك، أحد أهم مماليك على بك ثم إبراهيم بك. وكان سيده يحوز كل إقليم أسيوط على شكل التزام. وبما يشكل فعلا استثنائيا بالنسبة لقبطى، شارك والسلاح بيمينه، إلى جانب سيده، فى المعارك ضد العثمانيين فى مصر العليا فى عام ١٧٨٦. وقد اقترن فى عام ١٧٨٢، فى زواج ثانٍ، بحلبية مسيحية، من المرجح أنها كاثوليكية يونانية من حيث الأصل، وهو ما يجعله على اتصال بهذه الطائفة جد الدينامية. ومن المؤكد أنه قد تأثر بالنزعة المصرية لكبار البكوات المماليك المتأخرين، وذلك بالرغم من أنه قد انحاز فوراً إلى الفرنسيين بعد الاستيلاء على القاهرة [٨٣]. وهو ينظم الشئون المالية لحملة ديزيه بفضل درايته التامة بالآليات الضريبية المصرية ويلعب دوراً رئيسياً فى تكوين شبكة مخابرات مكلفة بإبلاغ الفرنسيين بتحركات المماليك.

مصر الوسطى

يزور ديزيه القاهرة للتعجيل بإرسال التعزيزات ويعهد إليه بونابارت بالجانب الرئيسى من سلاح الفرسان الذى جرى تشكيله بمشقة فى ذلك الوقت: ألف فارس تحت قيادة جنرال اللواء دافو [٨٤]. وفى ١٥ ديسمبر، يتسنى لديزيه أن يحشد فى بنى سويف الجانب الرئيسى من قواته، أربعة آلاف رجل مع فرسان دافو وتسع قطع مدفعية. ويمكن لزحفه نحو الجنوب أن يبدأ فى صباح اليوم التالى.

ويتجنب مراد فى البداية كل معركة وينسحب، تاركاً الفرنسيين يصلون إلى المنيا فى ٢١ ديسمبر وأسيوط فى ٢٥ وجرجا فى ٢٩. ويعتبر يعقوب عظيم الفائدة بالنسبة للفاتحين؛ ووفقاً لشهادة بيليار: «إن السكان يعتبرونه السلطان الكبير وفرقتنا، التى تشكل جيش مصر العليا، يجرى النظر إليها على أنها جيش المعلم يعقوب. ويستفيد الجنرال من ذلك لتوفير المؤن لقواته وللحصول على معلومات عن الأعداء. والعراب (المعلم يعقوب – المترجم) له حاشية وفيرة العدد وهو يحرص، إذ يعمل لحسابنا، على ألا ينسى مصالحه.

ويسعى سليمان بك إلى دفعه إلى العودة إلى معسكر المماليك، لكن المعلم يرد عليه بأنه مستعد للتوسط لحسابهم لدى الفرنسيين [٨٥]».

ويبدو ديزيه في آن واحد في مظهر الفاتح وفي مظهر الساعي إلى التهدئة، وهو لا يتردد في وقف زحف قواته لتسوية النزاعات القروية، «جمع الجنرال ديزيه المشايخ؛ وقدم كل منهم أسبابه؛ ثم جرى وضع ما لكلٍ وما عليه في ميزان العدل، وانتهى الرجال، الذين كانوا، قبل ذلك بنصف ساعة، يريدون محو أحدهم الآخر، إلى استحسان الأفكار الحكيمة أو الأوامر التي صدرت عن الفاتح ورجعوا أصدقاء متحابين» (٨٦).

وفي جرجا، يتمنى ديزيه التوقف قليلاً. لكنه جد بعيد عن الأسطول النهري ويتوجب عليه ترقب وصوله حتى يستأنف زحفه. وهو يكفل سلامة مواصلاته بقمعه عدة حركات فلاحية في مصر الوسطى. وبوجه خاص، يجرى إحراق قرية طهطا الكبيرة وذبح جانب من سكانها في ٢١ نيفوز من العام السابع (١٠ يناير ١٧٩٩) (٨٧). وهذا التوقف الطويل يسمح لمراد بك بإعادة تنظيم قواته كما يسمح له على نحو خاص بالحصول على عون متطوعين قادمين من الحجاز، إقليم مدينتي مكة والمدينة المقدستين.

إمارة مكة

منذ القرن السادس عشر وإمارة مكة تشكل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. ثم إن السلطان هو حامي المدينتين المقدستين، وهي حماية تمثل إحدى وظائف الخليفة. لكن السلطة الفعلية كانت بيد أمير يتم اختياره دائماً من بين صفوف أحفاد النبي، الأشراف. وكان هؤلاء الأخيرون عديدين بشكل بالغ في ذلك الإقليم. وفي القرن الثامن عشر، امتدت حركة لا مَرْكَزَة السلطة إلى الحجاز وأصبحت السلالة الحاكمة الشريفية مستقلة ذاتياً تجاه العثمانيين. ولم تعد السلطة الإمبراطورية تتجلى إلا من خلال الوجود – خلال الحج– لأميرين للحج، هما قائداً قافلة مصر وقافلة الشام. أمّا باشا جده، وهو موظف يعين كل سنة من جانب الباب العالي، فلم تك له سلطة تزيد عن سلطة زميله في القاهرة.

لكن سلطة أمير مكة كانت هي نفسها جد ضعيفة. وفي شبه الجزيرة العربية نفسها، كان عليه أن يواجه صعود الوهابيين. وكان العثمانيون قد رموا بالهرطقة دعوة محمد بن عبد الوهاب، بنزعتها الپيوريتانية الراسخة ورفضها لكل ما يبعد الإسلام عن التوحيد المطلق. وقد رأى الأمير أن من المناسب فرض ضريبة على الحجاج الوهابيين، وهو إجراء كان قاصراً حتى ذلك الحين على الحجاج الشيعة، الأمر الذي أثار غضب الوهابيين. والحال أن هؤلاء الأخيرين، بفضل تحالفهم مع إمارة نجد التي يتزعمها آل سعود، قد

استحلوا حرباً ضد الأشراف. وقد ألحقت قوات آل سعود الهزيمة بالشريف غالب، الأمير منذ عام ١٧٨٨، بينما وجد الباب العالي نفسه عاجزاً من تقديم العون له. وفي عام ١٧٩٨ عقدت هدنة وأصبح بوسع الوهابيين أن يؤدوا حجهم إلى مكة دون تفرقة. على أن الجميع كانوا يدركون أن ذلك الوضع وضع هش.

لكن الأمير أيضاً لم يك غير الأول بين أشراف متساوين. فكل عشيرة شريفية (أو هاشمية) كان لها جيشها الخاص المؤلف من أتراكها ومن حلفائه بدو ومن مرتزقة يمنيين ومن عبيد سود. وكان الصراع على السلطة دائماً دائماً (٨٨).

وكان الحجاز يعتمد اعتماداً شديداً على مصر على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب إيرادات الأوقاف التي تمول صيانة الأماكن المقدسة وبسبب قافلة الحج الأفريقية ولدور جده في تجارة البن. وينزعج الأمير غالب من خطر الوهابيين. وإذ يشعر بالمرارة تجاه غياب العون من جانب الباب العالي ضد هؤلاء الأخيرين، فإنه يرى أن الفرنسيين يميلون إلى تنصيبه كمرجع ديني متميز، بل ومنافس للسلطان – الخليفة الذي يهيمن على الباب العالي. وعندئذ فإنه يختار مراعاة جانب سادة مصر الجدد.

وكما سوف يفعل خليفته الأبعد، حسين، في عام ١٩١٤، فإنه يرفض إعلان الجهاد ضد خصوم الباب العالي. لكنه لا يستطيع منع العشائر الشريفية الأخرى من الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين. والحال أن شخصاً يدعى محمد المغربي الجيلاني الهاشمي هو الذي يعلن الجهاد في المسجد الحرام في مكة، المكان الأكثر قدسية بالنسبة للإسلام. ويجد النداء صدى مباشراً بين سكان الحجاز الذين يزيدون التبرعات بينما يتدفق المتطوعون على موانئ البحر الأحمر. وهم أكثر من خمسة آلاف، وهو رقم ضخم قياساً إلى سكان الإقليم (٨٩). والحال أن هذه الحركة، الشعبية بلا جدال، إنما تترجم بشكل واضح البعث الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر والفاعل بشكل خاص في الإقليم مع الدعوة الوهابية.

الزحف على أسوان

هؤلاء إذاً هم الخصوم الجدد الذين يواجههم ديزيه عندما يستأنف زحفه إلى الأمام في ٢١ يناير ١٧٩٩. وينتظره مراد بك في سمهود ومعه، على ما يبدو، نحو ألفين من المماليك وعدة آلاف من البدو والفلاحين، والمتطوعين الحجازيين، حيث لابد أن العدد الإجمالي يصل إلى أربعة عشر ألف رجل. وإذا كانت المربعات الفرنسية، كالعادة، تصنع

المعجزات، فإن هذه هي المرة الأولى التي يجرى فيها دفع فرسان داڤو ضد المماليك. والحال أن هؤلاء الأخيرين، وفقاً لتاكتيكهم المعتاد، ينسحبون بسرعة، الأمر الذي يجر إلى تفكك جيش مراد الضخم (٢٢ يناير ١٧٩٩) (٩٠).

ويزحف ديزيه بأقصى سرعة ممكنة صوب الجنوب سعياً إلى إبادة المماليك وحلفائهم إبادة نهائية حاسمة. ويهجم المتطوعون الحجازيون بجسارة على الفرنسيين، لكنهم، إذ يتمترسون في إحدى القرى، يجرى تمزيقهم إرباً على أيدى فرسان داڤو. ويتجنبهم الفرنسيون جانباً، لأنهم لا يهتمون إلاَّ بمراد بك الذى يواصل الاختفاء. وقد تخلى الآن عن خوض أية معركة وأصبح من الصعب الإمساك به. وعلى سبيل الاحتياط، يأمر بإعدام الحليف الأخير للشيخ همام، ذلك الزعيم البدوى الذى جعل من نفسه، قبل هزيمته على يدى على بك، سلطة مستقلة في مصر العليا. وهكذا فإن الفرنسيين لن يتسنى لهم الاعتماد على الدعم القوى من جانب هذه العائلة المعادية للمماليك، وهم يكتفون بتأبين الضحية (٩١).

وفي ٢٤ يناير، يمر الجيش أمام دندره، وبالنسبة للفرنسيين، فإن آثار دندره التي تكاد تكون على حالتها الأصلية والتي لا يشتبهون في تاريخها السحيق، تبدو إلهاماً ووحياً. ويشهد ڤيڤان دينون على هذه الثورة الجمالية: «سرعان ما علمتني دندره أنه لا يجب البحث عن جمال العمارة إطلاقاً في مجرد الأنساق الدورية والأيونية والكورنثية، وأن الجمال يوجد في كل مكان يوجد فيه انسجام الأجزاء. وقد قادني الصباح إلى هذه الآثار وأخذني المساء منها شاعراً بالإثارة أكثر من شعورى بالإشباع. لقد رأيت مائة شيء وغاب عني ألف شيء؛ لقد دخلت لأول مرة إلى محفوظات العلوم والفنون [...]. إن العلوم والفنون، التي يوحد بينها الذوق الحسن، قد زينت معبد إيزيس؛ وعلم الفلك والأخلاق والميتافيزيقا تجد هنا أشكالاً، وهذه الأشكال تزين الأسقف والأفاريز والأركان، بقدر من الذوق والجمال يفكر بتزيين أرابيسكاتنا الرشيقة والصغيرة لصالوناتنا» (٩٢).

ويشير كل شيء إلى أن اكتشاف مصر القديمة، وإن كان يؤدي إلى تهديد احتكار اليونان الجمالي، لا يتم إلاَّ ضمن وعبر غرام التنوير العلمي بالأسرار.

* وفي ٢٦ يناير، يحاذى الجيش آثار الكرنك والأقصر. وهذه المرة، فإن الجيش هو الذى يفجر حماسه: «أمام ملمح هذه الأطلال الهائلة، هذه الأنقاض الضخمة والمديدة والتي تحتل مكانة جد ضخمة في تاريخ العصر القديم، دوت كل صفوف الفرقة الفرنسية

بالتصفيق. فالصفوف تتشكل بشكل عفوى وتحمل وترفع الأسلحة تحيةً على دقات الطبول والألحان الموسيقية» (٩٣).

ولا يملك ديزيه وقتاً إلاّ للقيام ببعض الرسوم ويستأنف الزحف مسيرته، ويواصل مراد محاذاة الوادى صوب الجنوب على الضفة اليسرى للنيل سعياً إلى تأمين الاتصال مع الألفى بك الذى لجأ مع جزء من المماليك إلى واحات الصحراء الليبية. وفى ٢٨ يناير، يترك ديزيه جزءاً من قواته فى إسنا تحت قيادة فريان، وإذ يصبح أكثر قدرة على الحركة السريعة، فإنه يأمل أخيراً فى الإيقاع بالمماليك. وفى ٣٠ يناير، يصل إلى إدفو وفى ٢ فبراير يصل إلى أسوان حيث ينتقل إلى الضفة اليمنى. ويحصل بيليار على مهمة التمركز فى هذا الموقع لمنع عودة المماليك. وبالرغم من مقاومة قوية من جانب السكان، فإنه يحتل جزيرة فيله فى ٢١ فبراير، بما يشكل فرصة جديدة للإعجاب بالآثار. ويتوقف الزحف هنا، لأن مراد ينسحب وراء الشلال الأول. والحال أن الفرنسيين، وإن كانوا من الناحية الاسمية سادة لمصر كلها، إنما يتعين عليهم تأمين اتصالاتهم، وذلك بقدر ما أن حسن بك الجداوى قد بدأ من جديد بالفعل حركة هبوط صوب الشمال، بمحاذاة الضفة اليمنى. كما أن ديزيه، منذ ٥ فبراير، يرتد مع الفرسان إلى إسنا، بعد أن قسم قواته إلى وحدتين تهبطان فى آن واحد ضفتى النيل. وهو يصل إلى إسنا فى ٩ فبراير دون أن يدخل فى اشتباك مع المماليك.

وبشكل رمزى، يقيم الجنود الفرنسيون عند مخرج أسوان عموداً حربياً يحمل النقش التالى «طريق باريس، رقم ١١٦٧٣٤٠» (٩٤). وشأنهم فى ذلك شأن العثمانيين قبلهم بثلاث عشرة سنة، فإنهم قد وصلوا إلى حدود مصر والنوبة، لكنهم، شأنهم فى تلك شأنهم، لم ينجحوا فى القضاء على مماليك مراد بك؛ وكل ما هناك أن هؤلاء الأخيرين قد تفرقوا، الأمر الذى لا يستبعد الخطر إلاّ بشكل مؤقت للغاية.

تنظيم الفتح والمحاولة الأخيرة للتفاوض

القـــاهرة

تؤدى عمليات ديزيه إلى تحرير بونابارت من أى انزعاج فيما يتعلق بمصر العليا. أمّا فى القاهرة نفسها، فإن شيئاً من التوتر يستمر ماثلاً فى بداية شهر نوفمبر ١٧٩٨،



٣٣ - الشيخ الشرقاوى.



٣٤ - الشيخ المهدي.



٣٥ - الشيخ البكرى.



٣٦ – الشيخ الليوسي.



٣٧ - معركة سيدمنت.



٢٨ - ميناء الإسكندرية الجديد.



٣٩ - (أ) ديزيه في أسيوط.

(ب) الديوان العسكري.





٤٠ – (أ) و(ب) رسمان كاريكاتيريان انجليزيان.

والحال أن الجنرال ديستان، الذى خلف ديبوى فى نيابة المدينة، يتلقى عدة تقارير استخباراتية عن قرب نشوب انتفاضة شعبية (٩٥). ومجرد رغبة الشيخ السادات فى ترك منزله القريب من الأزهر تكفى لإثارة الخواطر، ويتعين على الفرنسيين مطالبته بالتخلى عن عزمه (٩٦). ويجرى اتخاذ تدابير وقائية عسكرية ويتم تكثيف الدوريات فى المدينة وضواحيها. أما السكان، فيجرى إرهابهم دوماً بالقمع، وكما فى مجمل فترة الاحتلال، تتكاثر الوشايات. ولا يفلت الأقباط من هذه الوشايات. إذ يجرى اتهامهم بإخفاء ممتلكات المماليك على الرغم من تعاونهم مع الفرنسيين. لكن بوسيلج، أمين الشئون المالية للحملة، يتدخل دفاعاً عنهم: «إننى أجرؤ على تذكيركم بأن صمت الأقباط عن استثمارات للمماليك يظل نتيجة للإرهاب الذى نشره المماليك؛ وبأن الأقباط، كما أتيح لى أن أكون شاهداً على ذلك عدة مرات [...]، يخافون من الأعمال الانتقامية الخاصة من جانب المؤتمنين على ممتلكات للمماليك ومن أن يصبحوا ضحايا لهم إذا ما أعلنوا عن أسمائهم. وإذا كانوا هم أنفسهم قد حازوا أشياء لم يعلنوا عنها، فإن بالإمكان رد صمتهم إلى جشعهم. ومن المؤكد بالنسبة لى أن الخوف وحده أو المصلحة هى التى أمكن لها دفعهم إلى ذلك وليس تعلقهم بالمماليك الذى يحول دونه بما يكفى اختلاف الأديان وذلك بشكل مستقل عن الفائدة التى يمكنهم الحلم بجنيها من حكومة جديدة. وهناك حسد للأقباط؛ وقد كانوا عملاء للاستبداد؛ ولابد أن لهم كثيراً من الأعداء ومن ثم الوشاة بهم، وإذا لم يجر إرغام هؤلاء الأخيرين على إثبات صدق وشاياتهم، فإن الأقباط سوف يفقدون بشكل متتابع ثقتكم وسوف تخسرون عوناً يمكن أن يكون ضرورياً لكم على مدار فترة تالية» (٩٧).

والواقع أن الأقباط يتطلعون إلى تحرر تام من وضعيتهم الأدنى. وقد تدخل البطريرك تدخلاً مباشراً لدى القائد العام فى هذا الاتجاه، لكن هذا الأخير يرى أن عليه مراعاة الرأى العام المسلم وهو يميل بالأحرى إلى وقف هذا التطور. وهكذا فإن حق ممارسة العبادة القبطية علناً لا يتم منحه البتة. وفى المقابل، فإن العلامات العلنية للخضوع كمنع امتطاء الجياد أو حمل الأسلحة أو ارتداء ملابس كملابس المسلمين يجرى إلغاؤها. ويؤكد بونابارت بشكل واضح على المقابل الذى ينتظره من الأقباط: «إذا كانت كل الأيام قد تميزت من جانبى بأعمال الخير، وإذا كنت قد رددت إلى الأمة القبطية كرامة وحقوقاً لا تنفصل عن الإنسان، فإن لى الحق، بلا ريب، فى أن أطالب الأفراد الذين يشكلونها بالكثير من الحماس والوفاء فى خدمة الجمهورية» (٩٨).

وبالرغم من توقف اجتماعات ديوان القاهرة، فإن بونابارت يستخدم العلماء للتأثير على الرأى العام. وفى ١٠ نوفمبر، يجرى بأمره إلصاق بيان موقّع من جانب هؤلاء الأخيرين فى شوارع القاهرة يشيد برحمة بونابارت الذى، لحبه للمسلمين، منع جيشه من ذبح السكان ومن تدمير المدينة (٩٩). وفى الأسبوع التالى، يجرى التذكير على النحو نفسه بأن الفرنسيين هم أصدق أصدقاء المسلمين وديانتهم، وبأن الروس يريدون القضاء على الإسلام، وبأن إبراهيم ومراد هم أعداء الباب العالى، وبأن هذا الأخير قد قبل الوجود الفرنسى فى مصر (١٠٠).

وهذا كله لا يحول دون مواصلة أعمال تحصين القاهرة وفق خطط كافاريللى. ويبدى الجبرتى إعجابه بأدوات العمال الفرنسيين وخاصة تلك الآلة العجيبة التى توفر جانباً كبيراً من جهد النقل، العربة ذات العجلتين (١٠١).

تذمر الفرنسيين

كما يتعين على القائد العام أيضاً أن يبرر سياسته أمام الفرنسيين، المتأثرين دائماً بذكرى انتفاضة القاهرة، والذين يطالبون بقمع أكثر نموذجية. وهو يستخدم صحيفة لوكورييه دوليچيبت لتقديم روايته للأحداث: إن الفرنسيين لا يمتلكون فكرة دقيقة عما حدث «لأن قليلين جداً منهم هم الذين يعرفون مجمل الحقائق التى يعتبر النظر فيها ضرورياً لتأسيس حكم خالٍ من الأخطاء» إن رجال دين مرموسين، ملأ صدورهم الحسد تجاه المزايا الممنوحة لكبار المشايخ، هم الذين قادوا الحركة. وقد استخدموا «عدداً جد كبير من أولئك الأفراد، المعتاد وجودهم فى المدن الكبرى، إما أملاً فى النهب، أو رغبة فى التغيير، أو اشتهاءً لكل ما هو مثير، والذين يعتبرون مستعدين دائماً لتعزيز التجمهرات وللمشاركة فى التمردات» (لا يمكن لذلك إلا أن ينشط الذكريات جد الحديثة بالنسبة للفرنسيين ١٧٩٨). أما جميع الأعيان وجزء كبير من السكان فقد كانوا مخلصين للفرنسيين.

«وفقاً لهذه الاعتبارات ولعدد من الاعتبارات الأخرى التى تغيب عن الأفراد والتى وصلت إلى علم الشرطة، فمن الثابت أن جزءاً جد ملحوظ من سكان البلد قد قدم خدمات إلينا أو التزم الحياد، ومن ثم فمن غير العدل ومن الوحشية بشكل لا حد له إنزال عقاب

للسع جماعى دون الاجتهاد فى تمييز الجناة فرداً فرداً، فمثل هذه الأعمال الغاضبة قد تستولى على الحكومات الضعيفة والجهات التى، خلال سيادة السكينة، ترخى كل روابط الأمن ثم تضطر إلى التضحية بالجنس البشرى على مذبح خوفها ما إن يهددها أبسط خطر؛ ولا يمكن (لمثل هذه الأعمال الغاضبة) أن تكون لائقة بالفرنسيين المستعدين استعداداً طبيعياً للرحمة والمفعمين بالشجاعة. إن الفرنسيين يضربون أعداءهم بقوة، لكنهم لا يستسلمون لغضب أعمى. إنهم يتصرفون على مرأى من التاريخ وهم يعرفون بأية قسوة حكم (التاريخ) على الأعمال الوحشية التى اقترفها الأسبان فى أمريكا والإنجليز فى الهند» (١٠٢).

المطالبات بالعودة إلى فرنسا

لا يجهل بونابارت أن العداء لسياسته الخاصة بالتقارب مع المسلمين ليس غير ترجمة لرفض أعم، عند العدد الأكبر من الفرنسيين، لوجودهم فى مصر. والعوامل الرئيسية لهذا الرفض هى خيبة الأمل التى فجرتها مجريات الفتح، والمصاعب المادية الناشئة عن الأزمة المالية الدائمة والإحساس بالعزلة الذى خلقه الحصار الإنجليزى. وتتكاثر بين أوساط الضباط مطالبات بإجازات وبالعودة إلى أوروبا، وذلك بالرغم من مخاطر الرحلة. والحال أن الأطباء، الذين يصدرون شهادات تبرر هذه الطلبات، إنما يجرى توبيخهم علناً من خلال الأمر اليومى الصادر فى ١٩ فريمير من العام السابع (٩ ديسمبر ١٧٩٨). أما أولئك الذين يقدمون طلبات غير مبررة فيجرى التشهير بهم علناً وبالاسم أمام الجيش.

على أن بعض المقربين من بونابارت يطلبون الرحيل. ويتردد بيرتييه كثيراً، موزعاً بين حبه لمدام فيسكونتى وصحبته لبونابارت. وهذا الأخير هو الذى يفوز فى نهاية الأمر. أما سوسى، الآمر العام بالصرف، وهو صديق للقائد العام منذ ما قبل الثورة، فإنه يحصل على التصريح جد المشتهى (١٠٣). ويحل محله دور الشاب (الأول من فريمير من العام السابع – الأول من نوفمبر ١٧٩٨). وحين ترسو السفينة فى صقلية دون علم بالحرب بين نابولى وفرنسا، فإن الركاب الذين يهبطون على البر (ومن بينهم سوسى) يجرى ذبحهم على أيدى السكان (٢٠ يناير ١٧٩٩).

أما دولوميو الذى لا يحتمل تسلط بونابارت والذى فصل مذكرة مكرسة لأطلال

الإسكندرية، تم تقديمها إلى المعهد (المجمع العلمي) المصري تحت عنوان «الزمن يدمر الأشياء»، وهي مبادرة اعتبرها الجميع استفزازاً ضد بونابارت، فإنه يحصل على إجازته بمجرد طلبه لها (١٠٤). وإذ يرحل رحيلاً سافراً بعد وقت طويل من رحيل سوسي، فإن سفينته يجري اعتراضها هي الأخرى على سواحل إيطاليا الجنوبية. وعند إلقاء القبض عليه، تساء معاملته إساءة بالغة وذلك بسبب الدور الذي كان الفارس القديم من فرسان مالطه قد لعبه في استسلام لخوية الفرسان. وعند الإفراج عنه، يموت بعد ذلك بوقت قصير، لأن الأسر كان قد قوض صحته. أما الجنرال ديما، والد (الكاتب) الكسندر، والذي جمع بشكل غير متماسك بين نزعة جمهورية معارضة لبونابارت والبحث عن الكنوز المملوكية، فهو يحصل هو الآخر على الإجازة التي يطلبها (١٠٥).

اللهـــو والتسلـية

يفعل بونابارت كل شيء من أجل تقليل سأم الفرنسيين. وهو يشجع المشاريع التي يمكنها إلهاء الجيش. وتحيي فرق الموسيقى العسكرية حفلات موسيقية في جميع الأيام بعد الظهر، قرب المستشفيات العسكرية، سعياً إلى بث البهجة في صدور المرضى. ويجري تشجيع الفرق المسرحية المؤلفة من الهواة. وهي، في التو والحال، سوف تسلي الجنود، و، في المستقبل، سوف تكون وسيلة فعالة لتمدين المصريين (١٠٦). ويتم تزويد القوات بمعلبات غذائية كافية لأنْ تبدد قدر الإمكان شعورها بالاغتراب (١٠٧). ويجري التصريح بإنشاء مقاهٍ على الطراز الأوروبي. وفي ٣٠ نوفمبر يتم افتتاح منشأة للاستمتاع بوقت الفراغ على غرار تيفولي في باريس حيث توجد حديقة فرنسية الطراز وقاعات للعب ولحفلات الاستقبال، وقاعة للمطالعة.. إلخ. وفي تلك المناسبة، يلحظ بونابارت پولين فوريه، وهي زوجة ملازم في قوة القناصة (١٠٨).

وكمصدر آخر للإلهاء، تعاود الماسونية الظهور على شكل محافل غير منظمة. والواقع أن الثورة كانت قد قضت على ماسونية النظام القديم ويتواجد كثيرون من الماسون القدماء في صفوف كوادر الجيش، ويصبح بوسعهم الاستفادة من الانفراج السياسي لإعادة إنشاء محافل مستلهمين الأعراف القديمة. ولدى عودتهم من مصر سوف ينظمون وضعهم بمطالبة المراجع الأعلى بمنحهم دساتير منظمة، وهو ما سوف يحصلون عليه. وفي ظل الإمبراطورية، فإن ادعاء أصل مصري سوف يعود على هذه المحافل، وقد أصبحت

الدولة للسلطة الإمبراطورية، بهيبة سرية مؤكدة وبشهادة ولاء لشخص نابوليون في آن واحد. كما سوف يجرى الإكثار في هذه الأوساط من دعاوى الارتباط بجيش الشرق والمسيئة إليه أحياناً، وهو جيش مؤلف على الأرجح من ماسون سابقين ولاحقين بأكثر مما هو مؤلف من ماسون حاليين. وسوف يجرى التأكيد، دون أن ينفى الإمبراطور ذلك، على أن الجنرال بوناپارت قد استفاد هو نفسه من إقامته في مصر لكي يكون ماسـونياً (١٠٩).

التدابير الصحية

كما يهتم القائد العام بالحالة الصحية للجيش. وهو يبدى في مصر اهتماماً بالخدمات الصحية سوف يفتقده عندما يصبح إمبراطوراً. والحق أن الفرنسيين في مصر يتعين عليهم مواجهة أمراض غير معروفة في أوروبا، ومرض الرمد – الناشئ عن ارتداد الضوء والذي يسبب عمىً مؤقتاً أو دائماً – إنما يصيب عدداً كبيراً من الجنود. والطاعون خطر ماثل باستمرار، ويجرى تكثيف تدابير الوقاية، وذلك على الرغم من عدم الدراية دائماً بأسباب هذا الداء (١١٠). والإجراء الوحيد الفعال، وهو الحجر الصحي، يتخذ طابعاً منهجياً مع إنشاء محاجر صحية في الموانئ والمدن الكبرى. ويجرى تكليف لجان قضائية بإصدار الأحكام بشأن المخالفات للقواعد الصحية. وقد تكون عقوبة الإعدام ضرورية ضد أولئك الذين لا يراعون الحجر الصحي، وعزل المرضى وإعدام أغراضهم. وهكذا سوف يتم التوصل إلى منع انتشار الوباء في البلاد، وليس إلى منع انتشاره داخل مدينة كبرى عندما يدخلها. ويجرى إنشاء ثلاثة مستشفيات عسكرية، حيث تقام واحدة في قلعة القاهرة، وتقام الأخريان في مدخل الحي الأوروبي قرب النيل. ويسهر القائد العام بشكل خاص على ضرورة حصول المرضى على رعاية جيدة ويتم إنزال عقاب صارم بالموظفين المهملين أو المختلسين. (١١١)

المعهد [المجمع العلمي]

يشكل المعهد المصري مركزاً للتقارير حول مختلف الأمراض في البلاد وينشر التعليمات من أجل منع هذه العلل وعلاجها. وهذا جزء من نشاطاته، التي لم تكد تتوقف من جراء تمرد القاهرة، الذي كان قد تسبب مع ذلك فـي فقدان عديد مـــن الآلات العلمية (١١٢)، ويجرى تكليف رحلات التنقيب عن الآثار في أثر الجنود الذين يقومون بالفتح. كما تجرى دراسة الزراعة والحرف المصرية بهدف تسجيلي ونفعي في آن واحد،

فالاهتمام باستغلال أكثر عقلانية ماثل باستمرار. وهكذا يقترح للمعهد إنشاء حديقة للنباتات مكرسة للمحاصيل الكولونيالية (القطن، البن، النيلة، قصب السكر.. إلخ)، تحت إشراف مستوطنين سابقين في سانتو دومينجو وسوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين (١١٣).

إلا أنه لا يجرى الاهتمام إلا بالأشياء. وكان ديجينيت قد ارتأى تنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين. وسعيا إلى احتواء تحفظاتهم تجاه المنشآت الأوروبية، فإنه يرى هو وزملاؤه التحرك عبر المؤسسات الخيرية الإسلامية. وقد أدت هذه الأخيرة، والتى أعاد الفرنسيون تنظيمها، إلى تعويد السكان على الطب الجديد. وهو يؤكد بشكل خاص على ضرورة إنشاء مدرسة للحكيمات ونشر التعليم. كما أن الملاجئ سوف تصبح مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية، وتهيئ لهذا التعليم أنواع من المدارس الأولية (١١٤). على أن غياب الإمكانات المالية يحول دون تحقيق هذا المشروع الذى لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة، فى عهد محمد على.

والمعهد هو أداة الحضارة بامتياز. ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة. وقد زاره الجبرتي عدة مرات. وتلفته المكتبة التى تسمح بالوقوف على جميع العلوم. ويحوز الفرنسيون صورا تمثل عديداً من الموضوعات، من النبى والخلفاء الراشدين وأماكن الإسلام المقدسة إلى الأدوات التقنية وإلى اللوحات النباتية والتشريحية. وهم يجرون تجارب علمية أمام زائريهم، دون أن يترددوا فى التأثير عليهم بتلاعبات على الكهرباء (١١٥)، إلا أنه إذا كان العلماء يعتبرون ذلك كله، محقين، غير عادى، فإنه بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذى يعتبر، فى ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الوحى. وهكذا فإنه الشيخ المهدى، عند حضوره مناقشة فى المعهد حول أسماك النيل، يطلب الكلمة لكى يقول: إن النبى قد أعلن أن هناك ٣٠٠٠٠ نوع من المخلوقات، ١٠٠٠٠ على الأرض وفى السماوات و ٢٠٠٠٠ فى الماء، ومن ثم فإنه لا يجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوروبية، فى عصر كانت الثقافة الإسلامية التقليدية ما تزال مسيطرة فيه سيطرة تامة (١١٧).

ولا يهمل المعهد الثقافة العربية. ويعرض مارسيل أمام زملائه فى خطوط عريضة أشكال الأدب العربى: ترجمة للسورة الاستهلالية للقرآن (الفاتحة)، مقتطف من كتابات الجغرافيين العرب عن مصر، لمحة عن الحكايات العربية. وبالنسبة للشعر، يعرض قصيدة لنقولا الترك حول فتح مصر مهداة إلى بونابارت:

الشهم بونابارته   ليث الوغى والاقتدار

من فاق قدراً وارتقى   أوج العلا وسما الفخار

ندب توحد بالورى   بشهامة ذات اعتبار

قهر الممالك جملة   وغزا البلاد مع الديار

وهذا المثال يسمح لمارسيل بأن يفسر لزملائه عناصر الكتابة الشعرية العربية (١١٨). ويبتهج بونابارت بهذا النص الذى يفكر فى إحدى اللحظات فى نشره مستقلا ليتم توزيعه فى الشرق كله (١١٩).

والحال أن مارسيل، المستشرق الشاب والمثقف، وصديق نقولا الترك والمهدى، هو أيضاً مدير للطبعة الوطنية التى تنشر صحيفتى الحملة والبيانات الرسمية والأوامر اليومية واللوائح التنظيمية والتنبيهات الطبية. وهو يقوم بتشغيل أول مطابع بالعربية وبالفرنسية تقام فى القاهرة، ويدرب فى هذه المهنة متدربين مصريين من الشبان. وهكذا فإن الطباعة هى من عمل الفرنسيين فى مصر فى حين أنها من عمل الحكومة العثمانية فى استنبول ومن عمل الرهبان المسيحيين فى جبل لبنان. وعودة الطباعة إلى الظهور فى مصر فى عهد محمد على سوف تكون نتاج كل هذه المؤثرات(١٢٠).

المنطـاد

كما يشهد العلم استخدامات سياسية له. ويريد بونابارت التأثير على المصريين بإطلاق منطاد فى ساحة الأزبكية (٣٠ نوفمبر ١٧٩٨)، ويعلو المنطاد لبضع دقائق، إلا أنه بسبب خلل فنى، يسقط على الأرض. وبالنسبة للجبرتى فإن هذه المعجزة التى يجرى القيام بها على الملأ ليست أكثر من «الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح».(١٢١) ويجرى استئناف التجربة فى ١٦ يناير ١٧٩٩، حيث يقطع المنطاد شوطاً أبعد لكنه يسقط على الأرض فى مدى بصر للمتفرجين، وهو ما يلهم الجبرتى هذا التعليق الجديد: «لو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم». (١٢٢)

ويضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالفشل التام لهذه المحاولات: «لقد صدمنا من

الانعدام المطلق للفضول من جانب بعض الأفراد ولمسنا الوحيدين الذين رصدنا ذلك؛ وقد رأينا منهم من يجتازون ساحة الأزبكية دون أن يتكرموا بتوجيه أبصارهم إلى الموقع الذى شد أنظار الجميع».(١٢٣)

الأحوال المالية

كما رأينا فإن قصور الإمكانات المالية هو الذى يحد بشكل ملحوظ من مشاريع الفرنسيين التحديثية. وكان بونابارت قد نظم إدارته للشئون المالية على هيئة إدارتين تتميزان بشكل وثيق. فمن جهة، فيما يتعلق بالنفقات، نجد خزينة الجيش التى يرأسها الآن العام بالصرف سوسى والذى خلفه دور. وهو يأذن بصرف النفقات لأمين الصندوق العام استيف، الذى يقود هيراركية صرافى الفرق، ويتعين على القائد العام باستمرار أن يحظر على الجنرالات تجاوز الاعتمادات المخصصة لهم من أجل قياداتهم الإقليمية أو تعديل بنود صرفها. وهذا واحد من بواعث الخلاف الأول بين بونابارت وكليبر. ومن جهة أخرى، فإن الإيرادات تتبع الإدارة العامة للشئون المالية، وهى الإدارة المدنية الرئيسية للحملة، والتى عهد بها إلى بوسيلج. وإدارته مختلطة فهى تضم الأمناء الأقباط والموظفين الفرنسيين إلى جانب موظفى الشئون المالية العثمانيين (١٢٤).

والوضع معقد بقدر ما أن الفرنسيين بحاجة إلى عدة أشهر لفهم آليات النظام الضريبى لمصر العثمانية. والحاجز اللغوى والثقافى والتخصص الضيق للموظفين المحليين الذين يفتقرون إلى النظرة الكلية يجعلان المهمة صعبة، وذلك بالرغم من المساعدة التى لا تقدر بثمن والتى يقدمها عدد من الأقباط كالمعلم يعقوب، وخاصة المعلومات التى يقدمها القناصل عثمانيون كحسين أفندى (١٢٥).

ومن ثم فإن الفرنسيين لا يسعون إلى تعديل مبادئ إدارة لا يحسنون فهمها. وهم يكتفون بإضافة إدارة التسجيل التى تنطوى علاوة على ذلك على ضريبة عقارية وضريبة مهنة على التجار والصرافين، والقروض الإجبارية. وبما أن ثلثى الالتزامات قد أصبحا ملكيات عامة، فإنهم يعرضونها فى مزادات. ويمنى هذا العرض بإخفاق تام يهدد مجمل نظام الالتزام. ومن ثم يتعين اتخاذ إجراء تحفظى، وتمشياً مع منطق السياسة الريفية للفرنسيين والتى تمليها الظروف، يقرر بونابارت بموجب أمره اليومى الصادر فى ١٣

بلوفيوز من العام السابع (الأول من فبراير ١٧٩٩)، جعل جميع مشايخ القرى غير الممنوحة كالتزامات ملتزمين للرواسم. وعلى الرغم من أن ذلك يعتبر بالأحرى نقلاً بأكثر مما يعتبر تحولاً، فإن الدولة تصبح من جديد مخاطب الفئة الأعلى بين فئات المجتمع الريفى ويتم وقف التطور نحو تأسيس طبقة من كبار ملاك الأرض فعلياً وإن لم يك بحكم قانون. وسعياً إلى حماية الفلاحين، لا يمكن للملتزمين الجدد أن يطلبوا من دافعى الضرائب إليهم أكثر مما كان مطلوباً فى العام السابق. وهذا التدقيق لحسابات الالتزام يترافق مع انبثاق تقويم ضريبى، وهو إجراء مؤات للفلاحين لأن الملتزمين السابقين كانوا قد اعتادوا أن يقدموا بشكل متزايد موعد سداد الضرائب إلى درجة أن السنة الضريبية تقدمت سنة عن السنة الفعلية (١٢٦). ومن الواضح أن الفلاحين يواصلون مقاومتهم السلبية التقليدية لجباية الضرائب، التى لا تتم فى أغلب الأحوال إلا بفضل الوجود الفعال لوحدة فرنسية.

وهكذا فإن الفرنسيين، دون خطة حقيقية موضوعة سلفاً، وبسبب الضرورات الأكثر إلحاحاً، قد بدءوا فى تعديل هياكل مصر الريفية بشكل ملحوظ. لكن الأزمة المالية تستمر فى المدى المباشر، جارةً إلى تأخرات طويلة بشكل متزايد فى دفع المرتبات والمستحقات. على أن انتهاء هبوط النيل يسمح بالعودة إلى ظروف حركة طبيعية فى الدلتا ومن ثم يسمح بجباية أسهل للضرائب؛ ويجرى تنفيذ إحصاء للممتلكات العامة بنشاط(١٢٧). ويتم تأسيس شركة مصر، المكلفة بجميع المضاربات التجارية، والجيش مساهم فيها لكن التجار المسلمين والمسيحيين مساهمون فيها هم أيضاً. وهؤلاء الأخيرون يرون فيها بشكل خاص شكلا جديداً لانتزاع ضرائب منهم (١٢٨).

والواقع أن حصار مصر كان قد أوقف تجارة الترانزيت أو التصدير المربحة. والخاسرون الكبار هم كبار التجار المسيحيين والمسلمين. وفى المقابل، يبدو أن أسعار المواد الغذائية تنخفض فى تلك الفترة وأن النشاط الاقتصادى الذى ولده وجود الجيش إنما يفيد الطبقات الشعبية من باعة التجزئة والعمالين والحرفيين والعماريين والقوادين والمومسات.. إلخ، والمتصلين بالجنود على نحو دائم (١٢٩). وهؤلاء الأخيرون يعتادون دفع ما عليهم وهم، بوجه خاص، لا يقيمون علاقات «حماية» مع التجارة المدينية الصغيرة، خلافاً لنظرائهم العثمانيين. وحتى إذا كان عوام المدن قد قدموا الجمهور المحرك لانتفاضة القاهرة، فإنهم الفائزون على المستوى الاقتصادى. ومن جهة أخرى فإنهم يستفيدون من

الوضع، بما يثير عظيم سخط علماء متزمتين مثل الجبرتي، لإحياء عديد من الاحتفالات الصوفية الخارجة على السنة إلى هذا الحد أو ذاك (١٣٠).

استعادة الديوان

في أواخر ديسمبر، يشعر بوناپارت أن الوضع في القاهرة ملائم لاستعادة الديوان. وبيانه إلى سكان المدينة يشير إلى الصورة شبه الخلاصية التي يتصورها عن رسالته الشرقية وذلك قبيل الحملة على سوريا:

«العاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. واعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقدر في الأزل بعد ذلك أن أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وأجرا الأمر الذي أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. واعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخر إلى أمور تقع في المستقبل [...].

«واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت يظهر لكم بالمعاينة أنني كلما فعلته وحكمت به فهو حكم إلاهي لا يرد وإن اجتهاد الإنسان بغاية جهده ما يمنعني عن قضا الله الذي قدره وأجراه على يدي، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم معي مع صفا النية وخلاص السريرة»(١٣١).

ويوضح الجبرتي أن القائد العام يحسب نفسه المهدي أو النبي نفسه في حين أن مسلكه يثبت العكس (١٣٢).

وسوف يتألف الديوان العمومي الجديد من ستين شخصاً ، من علماء وموظفين منبثقين من الميليشيات ومن تجار القاهرة ومن الأقباط (١٣٣). وسوف ينتخب أعضاؤه ديواناً مصغراً ودائماً من أربعة عشر عضواً حيث يشكل العلماء الأغلبية ويستأنف دور المبلّغ والوسيط لدى السلطات الفرنسية ودور مندوب دعاية هذه السلطات نفسها لدى المصريين.

تنظيم القضاء

فى الفترة نفسها، يضطر بونابارت إلى إضفاء تنظيم انتقالى على القضاء. وكانت أحكام الإعدام قاصرة على قضاء المماليك المباشر وليس على قرارات القضاة. والحال أن مينو كان قد أحضر أمام مجلس عسكرى خادماً يهودياً كان قد قتل سيده، وهو أخ له فى الدين. وعلى الرغم من أن المجلس العسكرى قد أعلن أنه غير مختص بالنظر فى القضية، فإن مينو قد أمر بإعدام المتهم رمياً بالرصاص (١٢٥). وسعياً إلى تجنب عودة حالة مماثلة، فإن بونابارت، فى أمره اليومى الصادر فى ٢٠ نيفوز (١٢ يناير ١٧٩٩)، يقرر أن جرائم سكان مصر إنما يرجع اختصاص النظر فيها بشكل طبيعى إلى المحاكم الإسلامية. إلاَّ أنه إذا كانت هذه الجرائم تهدد الأمن العام أو إذا ما قرر قائد الإقليم تحويل القضية إلى محكمة فرنسية، فسوف تتشكل عندئذ لجنة قضائية مؤلفة من أكبر ثلاثة ضباط فى الإقليم ومفوض حربى ورئيس الديوان والمندوب الفرنسى. ولن يكون بالإمكان تنفيذ أحكام الإعدام إلاَّ بعد تصديق القائد العام عليها. والواقع أن الدواوين الإقليمية وديوان القاهرة سوف يكون لها دور نشيط فى العمل القضائى. وهكذا فإن الفرنسيين سوف يضطرون إلى مراقبة عمل المحاكم وسوف يكتشفون أهمية حكم الدية الذى يحول العدد الأكبر من أحكام الإعدام بسبب جرائم القتل إلى تعويض مالى يدفع لأسرة الضحية، وتهدف هذه القاعدة إلى الحد من أعمال الثأر الطويلة والدموية بين مختلف العشائر الفلاحية. ويأمل الفرنسيون فى القضاء يوماً ما على هذا التعويض الذى يفسرونه على أنه زلل بربرى.

انضباط الجيش

كما يسهر بونابارت على صون الانضباط فى الجيش. وهو يسعى إلى تجنب كل ما من شأنه أن يبدو فى نظر السكان المصريين على أنه استفزازات من جانب الجنود الفرنسيين. فكفالة حماية السكان تبدو بالنسبة له وسيلة دعائية رائعة. وهكذا، فإنه لا يتردد فى الحكم بالإعدام على ثلاثة جنود متهمين بقتل مصرية خلال محاولة سرقة. وكان الديوان قد عرض القضية على بونابارت (١٣٦). والأرجح أن المحكوم عليهم كانوا أبرياء ويعرف الجنرال ذلك، وفقاً لما أفضى به لديجينيت: «إن أى قائد عام يجب أن يتمتع بسلطة هائلة. فكيف يمكن بحق الشيطان محاسبة رجل تعهد إليه الدولة أحياناً بأرواح مائة ألف

رجل ويحق معاقبة الجرائم بالفئة المسلمة بما يتراءى له... فماذا بعد ذلك؟ لقد اقتنعت هؤلاء المدفعيين تقبل الحكم عليهم. وعندما جذبت أنطوان من ياقة قميصه وقلت له: «تعال، أيها الشقى، حتى أواجهك بشريكك»، كان غير مصدق؛ ومع ذلك فيالهم من رجال، يالهم من أناس يتعين عليهم وحدهم كسب معركة [...] كما أن الأتراك كانوا بحاجة إلى أن أقدم عبرة [...]. ألا تعرف كيف مات هؤلاء المدفعيون؟ لقد ماتوا كقياصرة، بل وهم يبدون حبهم لى، وقد ذهب أحد زملائهم لشرب النبيذ معهم فى السجن. وهناك قال لهم: «هناك على أية حال شىء ما حقيقى فى كل ذلك، وإلا ما كان بونابارت قد حكم عليكم فى نهاية الأمر». فأجابوه: «اسكت، إنك لا تفهم ما تقول، لقد جانبه الصواب هذه المرة أيضاً كما فى مرات أخرى كثيرة، والأمر سهل، لنشرب نخباً فى صحته». (١٣٧)

وفى غرب الدلتا، يظل الاضطراب متوطناً بفضل عمل عبد الله باشى الذى ينجح فى إيجاد اتصال بين بنى أولاد على والإنجليز والمماليك (١٣٨). ويحدد الفرنسيون دمنهور بوصفها المركز الرئيسى للمقاومة (١٣٩). وتتعرض للهجوم سفينة نهرية تقطع المسافة بين رشيد والقاهرة. وينجح الفرنسيون فى الإفلات ويستقبلهم شيخ بلد قرية الجُدابى الذى يدافع عنهم بالسلاح (١٤٠). ويقرر مينو العقاب بقسوة ويأمر بإلقاء القبض على المتصلين بالإنجليز وبالمماليك وبإعدامهم رمياً بالرصاص (١٤١). وهكذا فإن مشايخ قرية إدكو، قرب أبو قير، يجرى إعدامهم رمياً بالرصاص علناً فى رشيد فى ٢٢ برومير (١٢ نوفمبر ١٧٩٨) (١٤٢).

وفقط بعد ارتياح مينو إلى هذا القمع، يقرر إرسال مورا وطابوره للتحرك إلى دمنهور التى يتم احتلالها فى ٢٧ نوفمبر. ويجرى إعدام الزعماء المشتبه فيهم رمياً بالرصاص وفرض ضرائب باهظة على المدينة (١٤٣). وبعد ذلك مباشرة، يتحرك مورا لمطاردة البدو (١٤٤). ويجرى إحراق عدة مخيمات عربية، لكن الشخصيات الأكثر أهمية تنجح فى الإفلات. ولا يجد لوتيرك أعياناً يمكن أن يصبحوا مسئولين عن دمنهور غير أشخاص بلا مرجعية حقيقية (١٤٥). وبعد تهدئة البلد بهذه الطريقة، يستدعى بونابارت مورا إلى القاهرة ويخفف الوجود العسكرى فى المنطقة.

وفى الإسكندرية، كان مانسكور قد أثبت أنه لا يمتلك الخصال المطلوبة لتولى قيادة موقع على هذه الدرجة من الأهمية. فهو يبدو عاجزاً عن إنزال العقاب الصارم فى الوقت المناسب فى مسألة اختلاس فى الإدارة. وكان مينو ومارمون قد أبلغا القائد العام بانعدام كفاءة قائد الإسكندرية. وكان هذا الأخير قد فاقم قضيته بإرساله رسولاً إلى الأسطول

الإنجليزى دون أن يحصل على تصريح بذلك (١٤٦). ومن ثم يقرر بونابارت تعيين رفيقه مارمون لتولى هذه القيادة. ومينو هو الذى يبلغ مارمون بترقيته (١٤٧). ويتوصل مانسكور إلى الحصول على موافقة بإعادته إلى فرنسا شأنه فى ذلك شأن دولوميو.

بعثة بوشان

إذ يبدأ بونابارت فى الانزعاج من الوضع الأوروبى، إثر أخبار قليلة الوضوح تصل إلى مصر، فإنه يقرر إرسال رسول إلى الأسطول الإنجليزى. وهو يختار ملازم جنود الطليعة جيبير الذى يكلف بأن يعرض بشكل حذر إمكانية عقد صلح بين فرنسا وإنجلترا. ويتم اللقاء فى ٢٢ نوفمبر. ولا يحصل جيبير إلاّ على القليل من المعلومات الجديدة لكنه يقدم عروضاً يبدو أن محاوريه يستقبلونها استقبالاً إيجابياً (١٤٨).

وإذ يجد بونابارت فى هذه العلامات تشجيعاً، فإنه يقرر عندئذ إيفاد القنصل وعالم الفلك بوشان إلى القسطنطينية. وكان هذا الأخير قد وصل فى الوقت المناسب إلى مصر بعد رحلة سياحية فى الإمبراطورية العثمانية لكى يتولى قيادة مواقع أرصاد فلكية. وهو يرحل على متن سفينة «الأريال» العثمانية الشهيرة التى تنتظر منذ شهور التصريح لها بمغادرة الإسكندرية والتى تتصل منذ البداية بحركات المقاومة. ويتعين على بوشان التأكيد على الصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. والواقع انه يتعين عليه إجراء تفاوض حيث يجد الفرنسيون أنفسهم فى مركز القوة: «إذا طرح عليك فى أى وقت السؤال: هل سيوافق الفرنسيون على الرحيل عن مصر؟ فعليك الرد بأنه ليس هناك ما يحول دون ذلك، شريطة أن يتمكن الإمبراطوران من إنهاء تمرد پاسفان - أوغلو وأن يتخليا عن مشروع تقسيم تركيا الأوروبية؛ وأننا، من جهتنا، سوف نفعل كل ما من شأنه أن يكون مؤاتياً للإمبراطورية العثمانية ويحميها من أعدائها؛ لكن المدخل الأول إلى أى تفاوض، كما إلى أية مصالحة، هو صدور فرمان يأمر بالإفراج عن الفرنسيين فى أى مكان تم فيه إلقاء القبض عليهم، خاصة فى سوريا.

«ويجب عليك قول وفعل كل ما من شأنه أن يكون مناسباً للوصول إلى هذا الإفراج؛ ويجب عليك أن تعلن أنك لن تجيب بأننى لن أغزو سوريا، ما لم يجر الإفراج عن جميع الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم، و، فى حالة ميلهم إلى احتجازك، سوف يكون بوسعى الاتجاه إلى غزو». (١٤٩)

والواقع أن السفينة تجد نفسها عاجزة عن الخروج إلى عرض البحر ولا ترحل إلاّ فى

١٢ فبراير ١٨٠٠، فى لحظة كانت فيها الحملة على سوريا قد بدأت بالفعل. ويتم اعتراض سبيلها قبالة رودس من جانب الإنجليز الذين يقبضون على المبعوث الفرنسى. وهذه العروض تثير غضبهم؛ فهم يخشون من أن يأخذ العثمانيون العروض الفرنسية مأخذ الجد. وهم يوضحون للعثمانيين أن بوشان ليس غير جاسوس فرنسى وأن رحلته السياحية فى الشرق فى السنوات الماضية إنما كانت تهدف إلى التحضير لحملة بونابارت. وهم مستعدون للحكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس ويطالبون بعقوبات ضد القبطان العثمانى الذى وافق على أخذه على متن سفينته (١٥٠). وفى نهاية الأمر يتمكن العثمانيون من تهدئة الإنجليز. وفى ٣ مارس ١٧٩٩، يتم تسليم القنصل الملكى، وربما الجاسوس، فى رودس، إليهم. ويجرى التحقيق معه من جانب الريس أفندى فى القسطنطينية ثم إرساله للحاق بالدبلوماسيين الفرنسيين الآخرين المحتجزين فى قصر الأبراج السبعة.(١٥١)

كما يرسل بونابارت إلى فرنسا فوريه حاملا رسائل أصبح إرسالها ملحاً بقدر ما أن القائد العام يريد الانفراد بزوجة الملازم الفرنسى. ويرحل الرسول فى ٢٨ ديسمبر من ميناء الإسكندرية وفى اليوم التالى يجد نفسه أسيراً لدى الإنجليز. وبعد نقله فى البداية إلى نابولى، تجرى إعادته إلى الإسكندرية حيث يتم الإفراج عنه بناء على وعد بألاَّ يعاود المحاولة، الأمر الذى أثار عظيم ارتياب البعض فى مصر. إلاَّ أنه لا يبدو أن الإنجليز كانت لديهم نية خبيثة، نظراً إلى بطء انتشار المعلومات فى تلك العصر. والواقع أن القائد العام كان قد تمكن، فى غيابه، من أن يجعل مدام فوريه عشيقة له، دون مقاومة كبيرة، على ما يبدو، من جانب المعنية. وبفضل سلطاته كقاض، يأمر بونابارت عندئذ بطلاق الزوجين. وعندئذ فإن الجنود الذين يملكون دراية بالتاريخ يلقبون السيدة بـ «كليوباترا».

طاعون الإسكندرية

تنزل كارثة حقيقية بالفرنسيين اعتباراً من ١٥ ديسمبر ١٧٩٨؛ إن الطاعون يعاود الظهور فى الإسكندرية. وإذ يأخذ مارمون علماً بجسامة الموقف، فإنه يأمر بفرض حجر صارم (١٥٢). كما يسعى إلى تعزيز هيبة السلطات المسلمة، وذلك، على الأرجح، لكى يتمكن على نحو أفضل من الإمساك بزمام المدينة فى هذا الوضع الصعب (١٥٣) وفى ١١ يناير، كان الفرنسيون قد فقدوا بالفعل خمسة وتسعين رجلا، بالرغم من الاحتياطات

المتخذة، وكانت نسبة الوفيات عالية بشكل خاص بين الفريق الطبى؛ ومما يدعو إلى الاستغراب، أنه لا تحدث وفيات بعد بين المسلمين(١٥٤). وتؤدى حالة المواصلات التى أصبحت صعبة بسبب الوباء إلى مفاقمة الوضع الغذائى للمدينة وتجبر مارمون على طلب العون من مينو: «بحق الرب، عزيزى الجنرال، لا تتخل عنا وأرسل المال إلينا. إن الجميع يصرخون من البؤس... أرسل إلينا قمحاً؛ فنحن لا نملك منه إلا ما يكفى لثمان وأربعين ساعة. إن سخط القوات لا حد له، ولن يكون من الغريب أن تثور. ولذا يجب أن ترسلوا إلينا عوناً؛ إنهم يموتون من الجوع (١٥٥)».

إلا أنه ينبغى مواصلة منع الاتصالات بين عملاء المماليك والأسطول الإنجليزى. ويتم إلقاء القبض على مشبوه مغربى فى ٢ يناير قرب أبو قير. وبعد ذلك بثلاثة أيام يجرى إعدامه رمياً بالرصاص. ويتم رصد جماعة من المماليك مع عبد الله باشى بسبيلها إلى الاقتراب من أسطول العدو؛ إلا أنه لا يتم النجاح فى اعتراض سبيلها (١٥٧). وسعياً إلى وقف الاتصالات بين الإنجليز والمقاومين، ينظم الفرنسيون عندئذ أسطولاً صغيراً من الزوارق الخفيفة بين الإسكندرية ورشيد وذلك بالرغم من الدوريات البحرية البريطانية. ويتم على الفور قصف أى تجمع مريب على الساحل (١٥٨).

وفى شرق الدلتا، يستكمل بوناپارت فتح مصر باحتلال السويس. ويستولى الجنرال بون على المدينة دون مقاومة ملحوظة (٧ ديسمبر ١٧٩٨). وينهمك الفرنسيون على الفور فى إعادة فتح الميناء أمام تجارة البحر الأحمر، أى أمام البن الذى ينقل عبر جدة. كما يحلمون بالتمكن من الدخول فى اتصال مع الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى.

نوايا العثمانيين

على ساحل البحر المتوسط، يواصل رينييه النضال ضد البدو ويواصل بشكل خاص مراقبة ما يمكن أن يجىء من سوريا. والحال أن تقارير الجواسيس، على الرغم من تناقضها فى أغلب الأحوال، تزيد المؤشرات على نوايا إبراهيم بك وأحمد باشا الجزار الهجومية. وينجح رسل مماليك عديدون فى اجتياز الخطوط الفرنسية والانضمام إلى مراد بك فى مصر العليا (١٥٩). على أن إحدى هذه الرسائل (التى ينقلها الرسل) يتم اعتراض سبيلها وتوفر معلومات ثمينة.

إنها رسالة من الصدر الأعظم نفسه، يوسف باشا، مؤرخة فى أول ديسمبر ١٧٩٨ وموجهة إلى إبراهيم بك (من الأرجح أن نسختها الموجهة إلى مراد بك هى النص الذى تم

اعتراض سبيله). ويعد استعراض لتمرد القاهرة حيث تجرى المبالغة بشكل زائد عن الحد فى حجم الخسائر الفرنسية، يهنئ يوسف باشا الزعيمين المملوكيين على مقاومتهما الشاملة للفرنسيين، ويعلن التحضير لتحرك مشترك ضد مصر تحت قيادة والى دمشق، عبد الله باشا:

«من الضرورى إذاً أن تتهيأوا للسير فى مصر مع هذا القائد وأن تحشدوا معاً خير الإمكانات لسحق هؤلاء الكفار [...]؛ وسوف يجرى، من جهة البر، إرسال جيوش عظيمة إلى القائد المذكور سوف تنضم إلى القوات التى لديه بالفعل وسوف يجرى، من جهة البحر، تزويده على نحو بالغ السرعة بكل المؤن [...]. ولذا ينبغى عليكم أن تواصلوا بحماسة كافة استعداداتكم، وأن تستثيروا حمية البكوات والكشاف والقوات والعرب بإلهامهم مدى جلال القتال فى سبيل الله بالنسبة لهم [١٦٠]».

الرحلة إلى السويس

كل هذه المعلومات تقنع بونابارت بأن الخطر جدى، والقيام بحملة وقائية على سوريا يفرض نفسه. وهو يفكر فى البداية بأن يعهد بقيادة العملية إلى كليبر حيث أنه وضع قيادة عملية مصر العليا بين يدى ديزيه [١٦١]. وهو يكلف ريدييه بالبدء فى تهيئة المستودعات فى المواقع المحورية المحصنة. والحال أن قطية، التى تسيطر على مدخل ساحل البحر المتوسط فى سيناء، سوف تخدم كقاعدة انطلاق للجيش الفرنسى. والمشكلة الأكثر حيوية هى مشكلة نقل المؤن والذخيرة؛ ففيضان النيل، ثم هبوط النيل، وأخيراً أمطار الشتاء الشديدة فى الدلتا وغياب طرق سالكة، كل ذلك يجعل من الصعب نقل كميات ضخمة من الأشياء الضرورية لجيش يخوض حملة. ويرى بونابارت الاستخدام المنهجى للجمال كدواب نقل [١٦٢]. ويتقدم زحف الجيش.

كما ينبغى التأكد من حياد بدو سيناء، وكان الزحف على القاهرة قد أثبت أهمية ذلك، ثم أنهم هم الذين يملكون الجمال الثمينة. وفى ٢٩ فريمير (١٩ ديسمبر ١٧٩٨)، يعين رئيساً لجميع عرب مصر يحمل لقب الأغا، هو محمد أغا بن عبد الرحمن. ويتعين عليه «التعرف على جميع القبائل التى تحارب الجمهورية، وأن يكون لديه جواسيس لمراقبتها فى تحركاتها، سعياً إلى التمكن من إخضاعها وإجبارها على التزام الطاعة». [١٦٣] ويقرر القائد العام زيارة منطقة السويس بنفسه.

ولسبب هذه الرحلة استراتيجية فى المقام الأول. فلابد من صون اتصالات مع الدول المطلة على البحر الأحمر والتى يمكنها نقل رسائل إلى الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى

بل وإلى أولئك الامراء الهنود المشاهير الذين من المتصور أن المرء قد جاء لتقديم العون لهم. ويجب السهر فى الميدان على التدابير المتخذة بشأن البدو. إلا أن هناك أيضاً الرغبة فى دراسة إمكانية ربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة وإلى التعرف، فى لحظة أولى، على خط الترعة القديمة التى كانت تربط البحر الاحمر بالنيل. ويحرص بونابارت حرصاً مطلقاً على ربط اسمه بهذا العمل الضخم.

وهو يعهد بنيابة القاهرة ونواحيها الى كليبر خلال فترة غيابه ويغادر المدينة فى ٢٤ ديسمبر برفقة بيرتييه وكفاريللى ودومارتان وجانتوم ودور، أى الاركان العامة، الهندسة والمدفعية والبحرية ومعتمدية الجيش الإدارية. ويجد للمعهد (للمجمع العلمى) ممثلين له فى أشخاص مونج وبيرتو وديكوتيل ولوبير وكوستاز ومما له دلالته أن شيخ تجار القاهرة المحروقى يشارك فى الرحلة مع تجار آخرين. وتتاح لهم الفرصة للإعجاب ببساطة وباعتدال حياة القائد العام (١٦٤).

وفى السويس، يتحدث بونابارت مع قباطنة سفن البحر الاحمر وهو يبشر آنذاك باستئناف للعلاقات التجارية، خاصة مع الحجاز. والحادث المهم الوحيد هو أن القائد العام وعدداً من رفاقه، الذين يضلون طريقهم خلال ليلة ٢٨ ديسمبر، يفلتون بالكاد من الغرق حيث يصعد مد البحر بسرعة بالغة فى تلك المنطقة. وهو يشير بنفسه الى أن ذلك كان من شأنه أن يمثل موضوعاً جد رائع لموعظة تدور حول فكرة فرعون جديد (١٦٥). ويجرى عقد اتصالات مثمرة مع بدو سيناء. وعلى طريق العودة، يتفقد بونابارت تحصينات بلبيس، ويستفيد من وجود حرسه القوى لمهاجمة مخيمات البدو المتمردين. ويصل إلى علمه أن القوات العثمانية الأمامية قد احتلت العريش، ويرجع إلى القاهرة مساء ٦ يناير.

الاستعدادات لحملة سوريا

منذ تلك الساعة، يجرى تكريس بقية شهر يناير للتحضير لحملة سوريا. ويكلف بونابارت الطوابير المتحركة على طول الدلتا، لكى يخضع البدو بشكل حاسم ونهائى و، خاصة، لكى يستولى على مؤنهم وجمالهم. ويبرز لهربيه ومورا بشكل خاص فى هذا النشاط. ويجرى أخذ رهائن عديدين لضمان سكينة مصر. ويتمثل تجديد تقنى مهم فى إنشاء القائد العام لفوج من راكبى الجمال يقصد من ورائه أن يكون سريعاً سرعة البدو ومن ثم يمكنه أن يكون أقدر على صدهم (١٦٦). كما أنه سوف يكفل النقل السريع

للرسائل وتنوير الخطوط الأمامية للجيش ومراقبة للمناطق الحساسة. ويجيء الزيه من صنوف المشاة، إلا أنه يجرى تسجيهم بسلاح الفرسان. والزى العسكرى لرجاله شبه أوروبى، شبه شرقى.

ويفكر بوناپارت فى إنشاء مطبعة عربية يمكن نقلها ويصدر التعليمات للترتيبة على ذلك (١٦٧). وهو يأمر بتدفق قوافل الجمال على الصالحية وقطية، فقد حدثت تصدعات للشحن مع النقل بالزوارق فى بحيرة المنزلة. أمّا العتاد الأثقل، خاصة مدافع الحصار، فيتعذر نقلها براً بسبب عدم كفاية الإمكانات. ومن ثم يقرر القائد العام النقل بحراً، وذلك بالرغم من خطر اعتراض الدوريات الإنجليزية.

وهو يعيد توزيع القيادات الإقليمية بتوسيعها وذلك بقدر ما أنه يسحب قوات متزايدة لتعزيز جيش حملة سوريا. وهو يشكو من البطء الذى يبديه مارمون فى إرسال قوات إليه. والحال أن هذا الأخير يتمسك بمراعاة صارمة للقواعد الصحية. وفى المقابل، فإن الداء، الذى ظهر فى الوقت نفسه فى دمياط والذى يبدى تلك الأعراض التى يبديها الداء فى الإسكندرية، لا يجرى تعريفه إلا بأنه حمى وبائية أو معدية بالرغم من وجود الدبيلات الطاعونية (١٦٨). ولا يستطيع بوناپارت أن يسمح لنفسه بفرض حجر صارم فى دمياط فى الوقت الذى يتجه فيه إلى تركيز قواته فى شرقى الدلتا...

ويتمركز لاجرانج فى قطية (١٦٩)، فى ٧ يناير ١٧٩٩. ويشرع على الفور فى تحصين موقعه، خوفاً من هجوم محتمل من جانب العثمانيين من العريش. وينضم إليه بعد ذلك بوقت قصير رينييه وبقية فرقته. وفى ١٧ يناير، يتلقى كليبر الأمر بتولى قيادة فرقته السابقة وإقليم دمياط. ويتعين عليه إعداد تحرك قواته صوب قطية. أما دوجا، الذى حل محله كليبر، فإنه يحصل على قيادة إقليم القاهرة. وهذا وضع مؤقت لأن مينو قد عين لتولى هذا الموقع المهم خلال مدة حملة سوريا. وفى الساحة، يدرك كليبر الصعوبات الهامة التى يواجهها إمداد الجيش (١٧٠). وهو يصل إلى قطية فى ١٦ فبراير ١٧٩٩. وسرعان ما يتحرك رينييه فى اتجاه العريش. ويتعين على فرق الجيش الأخرى التحرك بالتتابع نحو مواقع حشد الجيش.

وبوناپارت هو آخر من يغادر القاهرة فهو ينتظر التاجر هاملان الذى وصل تواً إلى مصر، حاملاً أنباء جديدة من أوروبا. والحال أن تردى مركز فرنسا فى أوروبا مع بدء حروب الائتلاف الثانى إنما يثير الانزعاج. وعشية الرحيل إلى سوريا، يبلغ بوناپارت

حكومة الإدارة باستعداده للعودة إلى فرنسا، «إننا تأكدت، خلال شهر مارس، صحة تقرير المواطن هاملان وحملت فرنسا السلاح ضد الملوك، فسوف أرجع إلى فرنسا. وإننا لا أسمح لنفسي في هذه الرسالة بأية تأملات حول مواقع أحوال الجمهورية، إذ لم يصلني أي خبر، منذ عشرة أشهر. ونحن كلنا على ثقة تامة في حكمة وقوة القرارات التي سوف تتخذونها». (١٧١)

وفي ١١ فبراير، يغادر القائد العام القاهرة ليلحق بجيشه الصغير المؤلف من ثلاثة عشر ألف رجل (١٧٢) كلهم من المخضرمين القادرين على حمل السلاح، والذين يشكلون قوة صدامية نادرة الخصال. لكنه يستعد في الوقت نفسه للعودة إلى فرنسا. وهذا هو عين ما يصور قدرته على إجراء حسابات دقيقة للإمكانات وعلى تقدير مختلف الاحتمالات وصولاً إلى «تلك النتائج العظيمة التي يستكشفها الخيال الجامح والمتحمس». (١٧٣) والعودة ليست غير باب للخروج يدعه مفتوحاً في حالة فشلٍ للحلم الشرقي. فمصر الواقعية ليست مصر التي يحلم بها الفاتح. وعلاة على الضرورة الواضحه التي تتمثل في تدمير الحشود العثمانية الخطرة في سوريا «عبر عملية وقائية»، فإن حملة سوريا – أو بالأحرى حملة فلسطين – إنما تجد تفسيراً لها في الحسابات وفي الأحلام على حد سواء. وهي تمسك بأسرار للمستقبل بأكثرمما تمسك بالحقائق الواقعية الحاضرة. إنها افتتاحية لرواية «لعبة كبرى» لم تنته بعد.

حواشي الفصل الخامس

١ – على سبيل المثال، رسالة مينو إلى بونابرت، بتاريخ ٢٠ فنديميير من العام السابع (١١ أكتوبر ١٧٩٨) : «سوف يكون لزاماً علينا أن نوزع، بهذه المناسبة، عدداً من المكاتبات بالعربية، سعياً إلى هداية هؤلاء السكان التعساء وسعياً إلى إطلاعهم على خبث مراد وإبراهيم بك، وذلك بقدر ما أن هذين الأخيرين يوزعان هما أيضاً مكاتبات لها تأثيرها ؛ إنني أبحث عن هذه المكاتبات؛ والحال أن ديوان رشيد هو الذي نبهني إليها». ..., *Correspondance inédite*
Égypte, II, p.105.

٢ – الجبرتي، المدة وعجائب الآثار، ١٦ ربيع الثاني (٢٧ سبتمبر ١٧٩٨)، الإعلام الملقى لاثنين من حاملي الرسالة.

Ibid. CUOQ commet, semble - t - il, un contresens en traduisant : – ٣
"avis est donné aux gardiens de l'ordre public de s'abstenir de plaisanteries et de lazzis sur les affaires qui touchent à l'autorité", au lieu d'"interdire au public de faire des plaisanteries ..." (p. 59).

Arrêté du 12 vendémiaire an VII (3 octobre 1798), – ٤
Cooresponдance, V, p.36.

Aux commissaires ..., le 13 vendémiaire an VII (4 octobre 1798), – ٥
Coorespondance, V, pp.41 - 42.

٦ – المدة، ص ٦٠، لابد أن الجبرتي، الذي لم ينتم إلى الديوان الأول، قد شارك في الديوان العمومي. ويمكن استنتاج ذلك من دقة التفاصيل التي لا يمكن أن تتوافر إلا لشاهد عيان.

Jabarti donne tels quels ces noms qui diffèrent grandement, on l'a – ٧
vu, des ethniques utilisés dans l'Empire Ottoman. C'est problement pourquoi il parle de galimatias.

Dans les *Aja'ib* seulement. Cette phrase n'existe pas dans la – ٨
Mudda.

JABARTI, nécrologie de l'année 1227 ; il note que l'on mit sur son – ٩
cercueil un turban encore plus grand que celui qu'il portait de son vivant.

Le 6 octobre 1798, NAPOLÉON, XXIX, P.596. – ١٠

١١ – Extrait de *Tuhfat an - nazirin fi man waliya Misr* ..., édition de 1281, pp. 182 - 183. La traduction est de Gilbert DELANOUE, *Moralistes et politiques musulmans* ..., I, p. 85.

١٢ – JABARTI, *Mudda*, p. 63.

١٣ – JABARTI, nécrologie de l'année 1223. DELANOUE, I, pp. 251 - 254.

١٤ – الجبرتي، وفيات سنة ١٢١٦. لا يجب الخلط بينه وبين الصوفي أحمد الصاوي المعاصر له (DELANOUE, I, pp. 185 - 242.)

١٥ – الجبرتي، وفيات سنة ١٢٢٤. انظر أيضاً رسالة تاليان إلى مينو، بتاريخ ١٨ فنديميير من العام السابع (٩ أكتوبر ١٧٩٨)، والتي جاء فيها أن الفيومي هو من القلائل الذين يعتبرون أصدقاء للفرنسيين (B6 9) . ويتعلق الأمر بمطالب حول ممتلكات الوقف، انظر في ٢٠ فنديميير رفض عدد من القرى للدفع (B6 9) .

١٦ – JABARTI, nécrologie de l'année 1230. NAPOLÉON. *Campagnes d'Égypte, Correspondance* ..., XXIX, p. 575 :

«إن الشيخ المهدي، الأكثر بلاغة والأوسع علماً والأكثر شباباً بين مشايخ الجامع الأزهر، كان أيضاً الأكثر أمانة. لقد ترجم البيانات في أبيات شعرية عربية. إن أبياتاً شعرية قد جرى استظهارها ولا تزال تردد في أعماق صحراء أفريقيا وشبه الجزيرة العربية» (التأكيد نفسه في P.582) ؛ ويشير ذلك إلى مدى نجاح المهدي في مغازلة رومانسية بونابرت الاستشراقية.

١٧ – إن رواية نابوليون موحية فيما يتعلق بهذه المسألة، حتى وإن كان نابوليون يشوه المنطق ويرتكب تشويهات تتعلق بالتسلسل التاريخي للأحداث : «لم يتردد الديوان الكبير؛ لقد أعلن بالإجماع أن قوانين العرب تتمشى مع روح كتاب العقيدة [القرآن] وأن بلاد العرب كانت محكومة بهذه المبادئ في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين؛ وأن المبدأ الإقطاعي، الذي يذهب إلى أن الأرض كلها تخص السلطان، قد جاء به المغول والتتار والأتراك؛ وأن أجدادهم لم يخضعوا له إلا مكرهين. ولقد أجرى مناقشة علمية حول القضاء على الملتزمين وتحرير أراضي الأثر. وكان الأئمة خائفين على ممتلكات المساجد. وكان الملتزمون أغلبية في الديوان. أما مشايخ البلد المرسلون مندوبين من القرى فهم وحدهم الذين أثنوا على تحريرها» *Campagne d'Égypte, Correspondance* ..., XXIX, p. 592. وفي بداية نصه، يتحدث عن الإلغاء الفوري للالتزام، والذي لن يتقرر إلا بعد ذلك بكثير.

١٨ – ردود ديوان مصر العمومي على الأسئلة التي وجهها إليه القائد العام، *Correspondance Inédite* ..., *Égypte*, I, pp. 412 - 419.

١٩ – *Correspondance* ..., V, pp. 87 - 88.

٢٠ – *Correspondance* ..., p. 95. في ٢٠ أكتوبر يجري نشر القرار المتعلق

بالدواوين؛ إن ثلثها سوف يتألف من علماء وسوف يتألف ثلث ثان من تجار، بينما سوف يتألف الثلث الأخير من مشايخ البلد (PP. 107 - 109).

٢١ – JABARTI, *Mudda*, pp. 64 - 65.

٢٢ – JABARTI, *Mudda*, pp. 67. *Histoire Scientifique* ..., IV, pp. 137 - 141.

٢٣ – JABARTI, *Mudda*, p. 67.

٢٤ – Sur ces questions : voir Bernard LEWIS, "Les concepts islamiques de Révolution", *in Le retour de L'Islam*, Paris, 1985, pp. 51 - 67; From Fitna to Thawra", *Studia Islamica*, 1987, pp. 149 - 174 ; Leon ZOLONDEK, "French Revolution in Arabic Literature", *The Muslim Word*, vol. 57, n° 3, 1967, pp. 202 - 211.

٢٥ – *Histoire Scientifique* ..., IV, pp. 182 - 183. «إذا كان أوباش الناس وبعض الكبراء وزمرة الأشياع قد برزوا في التمرد من خلال ارتكاب فظائع خسيسة، فإن الطبقة المتوسطة قد بدت أكثر تعقلا وأكثر إنسانية».

٢٦ – *Mudda*, p. 68.

٢٧ – *Histoire scientifique* ..., p. 154.

٢٨ – Nécrologie de l'année 1213.

٢٩ – عجائب الآثار، ربيع الثاني ١٢١٩، قام بوساطة غير مثمرة بين محمد علي والأمراء.

٣٠ – تتفق رواية المدة ورواية «التاريخ العلمي» تماماً حول سير الأحداث، بما في ذلك حول شعارات كشعار «الموت للكفار».

٣١ – المدة، ص ٦٨. إن الشيخ الشرقاوي، المعتدل، قد رفض الانضمام إليه منكراً وجوده في بيته.

٣٢ – IV, p. 159. JABARTI ne mentionne pas cet incident.

٣٣ – Ibid, pp. 182 - 183.

٣٤ – La JONQUIÉRE, III, p. 279, qui cite le journal de Detroye.

٣٥ – إن حوليات الجبرتي تصبح مشوشة في تلك اللحظة وتميل إلى الخلط في يوم واحد بين ما يحدث في اليومين. وتعتبر المصادر الفرنسية دقيقة، فقد تم استقبال المشايخ بعد موت سولكوفسكي، *Histoire Scientifique* ..., pp. 175 - 176.

٣٦ – Bon à Bonaparte, à dix heures du soir, B6 10.

٣٧ – Bon à Bonaparte, le 2 brumaire an VII, B6 10.

٢٨ - Berthier à Bon, le 2 brumaire an VII, B6 10.

٢٩ - Traduction de CUOQ, p. 73. La Qibla est une niche qui indique la direction de la prière.

٤٠ - *Histoire Scientifique*, IV, p. 180.

٤١ - LA JONQUIÉRE, III, p.282, *Histoire Scientifique*, IV, pp. 181 - 182.

٤٢ - JABARTI, *Mudda*, p. 76.

٤٣ - JABARTI, *Mudda*, p. 77.

٤٤ - JABARTI, *Mudda*, p. 78.

٤٥ - *Histoire Scientifique...*, IV, pp. 187 - 190. LA JONQUIÉRE, III, pp.287 - 288.

٤٦ - Le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA JONQUIERE, III, p.284, III, p. 284. Sur Denon, voir Ibrahim Amin GHALI, *Vivant Denon ou la conquête du bonheur*, Le Caire, I.F.A.O., 1986.

٤٧ - يقول الجبرتي إنهم قد أعدموا رمياً بالرصاص، أما «التاريخ العلمي»... فهو يزعم أن بارتيليمي قد تولى قطع رؤوسهم (IV , P. 191) . وتؤكد صحيفة لوكوريه دو ليجيبت قطع رؤوسهم (٢٠ بروميير من العام السابع). ولا نعرف أين دفنوا. وفي تسجيله لوفيات سنة ١٢١٣، يعتبرهم الجبرتي شهداء؛ وهو ما يشير إلى تصور دال لديه، أقل عداوة للمتمردين مما في المدة.

٤٨ - Shaykh al Sadat signifie shaykh des Sayyid, des descendants du Prophète. Anwar al Sadat s'appelait originellement al Sadati, ce qui signifie "suivant de la confrérie des Sadat", c'est après la révolution de 1952, qu'il a transformé son nom en Sadat probablement plus noble à ses yeux (Mohammed HEYKAL, *L'automne de la colère*, Paris, 1983, p. 21).

٤٩ - JABARTI, nécrologie de l'année 1228, c'est une des rares occasions ou le chroniqueur parle de lui - même; DELANOUE, *Moralistes...*, I, pp. 254 - 256.

٥٠ - NAPOLÉON. *Campagnes d'Égypt ...*, XIX, p. 602.

٥١ - محضر بالفرنسية وبالعربية لتعهد تجار الغورية (بحي الأزهر) أمام الجنرال بونابارت : «إننا نتعهد أمام الملأ بأن [...] نحفظ شوارع حينا خالية من أية فتنة، وبأن نوجه كل عنايتنا إلى دفع الأشرار والأوباش، وبأن نبعدهم عنا، وبأننا في حالة علمنا بأن فرداً ما من حينا يود إثارة الفوضى، سوف نكون ملزمين بأن نوجه إلى ذلك حذر قائد الموقع أو آغا الإنكشارية. [...]. وإذا ما حدث، لسوء الحظ، أن دب في حينا اضطراب ما دون أن يتسنى لنا الإبلاغ عنه قبل

ولوعه، فإننا سوف نكون كلنا معرضين لأن نعتبر مسؤولين عنه فرداً فرداً، ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨، B6 10 [أعدنا ترجمة التعهد من الفرنسية لتعذر العثور على النص العربي. – المترجم].
انظر أيضاً في المصدر نفسه القائمة الكاملة لمشايخ أحياء القاهرة، والمسؤولين عن ضمان سكينة السكان في أحيائهم.

٥٢ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 289 - 291.

٥٣ – «وهكذا فقد خطرت لبونابرت الفكرة، غير المعروفة في عصره والتي تتمثل في الأهمية التي يكتسبها، بالنسبة لمن يفرضون الاحتلال ولمن يخضعون له، عدم الاختلاط في تداخل مزعج للطرفين، والتي تكتسبها، خلافاً لذلك، إقامة مقر وحي الطرف الأول بعيداً من سكنى الطرف الآخر. والحال أن المدينة الفرنسية، بـ «موقعها الرئيسي» الموجود في الروضة وبالخدمات التي أقامتها بالفعل بشكل منفصل في قصر العيني وفي الجيزة، قد تشكلت خارج وعلى جانب المدينة الأهلية، تماماً مثلما حدث ذلك منذ ذلك الحين في مراكش».

CHARLES - ROUX, *Bonaparte gouverneur d'Égypte,* Paris, 1936, p. 251.

٥٤ – LA JONQUIERE, III, p. 285 - 286.

٥٥ – على سبيل المثال، بيان مينو بشأن تمرد القاهرة. إن المشايخ الذين لن يحتاطوا لهذا الأمر «سوف يعتبرون شركاء للبكوات ولعملائهم وسوف يعاقبون بالإعدام»، B6 11 .

٥٦ – *Histoire Scientifique...,* IV, pp. 129 - 131. لقد اختير للعب دور الجلاد بسبب براعته في قطع الرؤوس.

٥٧ – Fugière à Bonaparte, le 15 vendémiaire an VII (6 octobre 1798), B6 9.

٥٨ – Fugière à Bonaparte, le 19 vendémiaire an VII (10 octobre 1798), B6 9.

٥٩ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 293 - 295.

٦٠ – Fugière à Bonaparte, le 30 vendémiaire an VII (21 octobre 1798), B6 10.

٦١ – Lanusse à Bonaparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 10.

٦٢ – Lanusse à Bonaparte, de Tantan, le 3 frimaire an VII (23 novembre 1798), B6 12.

٦٣ – Reynier à Bonoparte, le 2 brumaire an VII (23 octobre 1798), B6 105.

٦٤ – Reynier à Bonaparte, le 6 brumaire an VII (27 octobre 1798), B6 105.

٦٥ – Reynier à Bonaparte, le 9 frimaire an VII (29 octobre 1798), B6 105.

٦٦ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 318 - 320.

٦٧ – Manscourt à Bonaparte, le 28 vendémiaire an VII (19 octobre 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 311 - 314.

٦٨ – Dépêche de Pisani (drogman de Hood à Spencer Smith, FO 7820 et LA JONQUIÉRE, III, pp. 312. يزعج العثمانيين أيّضًا على مصير رسولهم أحمد أريب أفندي، الذي جاء للتحذير من خطر هجوم فرنسي، lettre turque au capitaine de la cambelle, du 19 octobre 1798, B6 10.

٦٩ – Hood à Spencer Smith, le 26 octobre 1798, FO 78 20. *Correspondance de Napoléon*, V, p. 94 : à Marmont, le 26 vendémiaire an VII (17 octobre). «إن المدعو عبد الله، مساعد مراد بك، قد مر، منذ ثلاثة أيام، بقرية الشعراء، مع ٣٠ من العرب ؛ ويعتقد أنه قد ذهب إلى مشارف الإسكندرية ؛ وأتمنى لو كان بوسعك إلقاء القبض عليه؛ إنني على استعداد تام لدفع ألف ريال فرنسي مكافأة على تسليمه؛ إنه الشخص نفسه الذي كان على متن سفينة الأميرال الإنجليزية. وإذا كان بوسع المرء التحدث إلى العرب، فإن هؤلاء الناس سوف يفعلون أشياء كثيرة في مقابل ألف سكين؛ [عملة ذهبية إيطالية. – المترجم]».

٧٠ – مارمون إلى بونابرت، ١٢ بروميير من العام السابع (٢٣ أكتوبر ١٧٩٨) : «جاءني عرب مسالمون لإبلاغي بأن عبد الله باشي كان البارحة بالقرب من هنا مع ملازمين؛ وقد تحدث إليهم طالباً تزويده بقارب للذهاب إلى الأسطول الإنجليزي. وقد وعدتهم بخمسمائة سكين إذا ما سلموه إليّ». وفي الرسالة نفسها، يشير إلى أنه «بعد ربع ساعة من مغادرة مراكبنا على القناة، قام الفلاحون بعمل فتحات في كل مكان، وبعد ذلك بخمس عشرة ساعة، جفت القناة».

٧١ – Bonaparte à Murat, le 9 brumaire an VII (30 octobre 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 190 - 191.

٧٢ – مارمون إلى بونابرت، ١١ بروميير من العام السابع (الأول من نوفمبر ١٧٩٨) : «إن قبطان السفينة مقتنع تماماً بمسالمة الباب العالي لنا، وهو لا يفكر في أي عمل معاد وهو يزعم أن الفرقة التركية الموجودة أمام ميناء الإسكندرية قد تم حشدها في جزر الأرخبيل من جانب الإنجليز وأنها تخضع الآن لاضطهادهم». وهو يعلن خبر الوصول الوشيك للقابودان باشا إلى الإسكندرية للاطلاع على واقع الأحداث المصرية ويطلب السماح له بالخروج للقائه، B6 11. Les mémoires du duc de Raguse (Marmont) donnent la même lettre mais datée inexactement du 2 octobre 1798 (Paris, 1857, I, p. 419.

٧٣ – Ensemble des textes dans LA JONQUIÉRE, III, pp. 334 - 339.

٧٤ – FO 78 20, le 11 novembre 1798.

٧٥ - Chef de bataillon de génie Souhait, mémoire sur la marche de la colonne du général Rampon sur Atfieh, B6 5 (une autre copie en B6 2) et lettre de Donzelot à Belliard le 24 thermidor an VI (B6 6).

٧٦ - WIET, Nicolas Turc, p. 28.

٧٧ - Bonaparte à Desaix, le 18 fructidor an VI (4 septembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 197 - 198.

٧٨ - *Mémoires du duc de Rovigo* (Savary), édité par Désiré Lacroix, Paris, 1900, I, p. 83.

٧٩ - Ensemble de textes sur la bataille de Sediman dans LA JONQUIERE, III, pp. 208 - 220.

٨٠ - زايونتشيك إلى بونابارت، ٥ بروميير من العام السابع (٢٦ أكتوبر ١٧٩٨) : «ظهر فى القرى بيان من السلطان، جرى فيه إشعار سكان مصر بأن عدداً من الباشاوات مع عدد كبير من الجنود سوف يصلون لمساعدتهم ضد الفرنسيين». SKALKOWSKI, p. 108.

٨١ - Desaix à Bonaparte, le 21 brumaire an VII (11 novembre 1798), B6 11.

٨٢ - بونابارت إلى ديزيه، ٣٠ بروميير من العام السابع (٢٠ نوفمبر ١٧٩٨) : «إن مساعد مراد بك، عبد الله باشى، والذى كان على الأسطول الإنجليزى، قد مر أمس ٢٩، بجانب الأهرامات. وكان معه سبعة من العرب واثنان من المماليك». LA JONQUIERE, III, p. 357.

٨٣ - La base des études sur Yaqoub reste Le Livre de Gaston HOMSR, son lontain descendant, *Le général Jacob et L'expédition de Bonaparte en Égypte*, Marseille, 1921.

٨٤ - كان من المقرر أن يشارك الرجل الذى سوف يصبح فيما بعد ماريشالاً فى عمليات ديزيه منذ البداية، إلا أنه اضطر إلى البقاء فى القاهرة بسبب أزمة إسهال؛ وقد استخدم بونابارت آنذاك كفاءاته فى تكليفه بإعادة تنظيم سلاح الفرسان وخاصة تدبير الخيل. voir VIGIER, *Davout, Maréchal d'Empire*, Paris, 1898, pp. 67 - 68. وإذا ما صدقنا يوميات بيليار، فإنه يبدو جد طموح : «إن الجنرال د. [دافو] شديد الغيرة على القيادة التى منحت له؛ وهو يخشى كثيراً من أن يتوصل الجنرال ديما إلى وضعه تحت إمرته؛ وهو يطمح إلى أن يكون قائد فرقة، ويعتمد على الواقع إن كان سعيد الحظ؛ وإذا لم يتم النجاح ضد المماليك باستخدام سلاح الفرسان، فإنه يبدو عازماً على الانتحار بإطلاق الرصاص على رأسه. وإذا ما نال ترقية، فإن ذلك سيكون إنصافاً له؛ إنه منذ وقت طويل قائد لواء وهو ليس عديم الإمكانات وفقاً لرأى قائد الوية

المرسلين؛ إلا أن عليه على الأقل حجب طموحه. وإذا ما حدث انتصار، فسوف يشعر بالارتياح، ونحن أيضاً؛ وإذا لم يحدث انتصار، فإنه سوف يواصل قيادته دون تنفيذ للمشروع الذى أراده.

٨٥ – Journal de Belliard, LA JONQUIÉRE, III, p. 510.

٨٦ – يوميات بيليار، LA JONQUIÉRE, III, p. 512 إنه يرى أن الفرنسيين سوف ينجحون فى القضاء على عمليات الثأر القروية.

٨٧ – سوف يولد رفاعة الطهطاوى الشهير بعد ذلك بسنتين فى تلك الناحية.

٨٨ – L'étude essentielle sur cette question est l'article de M. ABIR, "The Arab rebellion of Amir Ghalib of Mecca, 1788 - 1813", *Middle Eastern Studies*, VII, 1971.

٨٩ – Michel TUCHSCHERER a traduit le passage du chroniqueur yéménite concernant la prédication et l'expédition des volontaires en Égypte, op. cit., pp. 47 - 64.

٩٠ – LA JONQUIERE, III, p. 528 يبين الجبرتى هذه الخيانة الجديدة من جانب المماليك قياساً إلى لاجئيهم (نهاية شعبان ١٢١٣).

٩١ – NAPOLÉON, *Campagne d'Égypte*.. XXIX, pp. 628 - 629.

٩٢ – Discours du citoyen Denon, pour être lu à l'Institut du Kaire, à son retour de la Haute - Égypte, *Décade Égyptienne*, II, pp. 282 - 283.

٩٣ – *Mémoires du général baron Desvernois*, édité par Albert-Dufourcq, Paris, 1898, p. 164.

٩٤ – Vivant DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute* - Égypte, Paris an X - 1820, p. 129.

٩٥ – Destaing à Bonaparte, le 15 brumaire an VII (5 novembre 1798), B6 11.

٩٦ – Destaing à Bonaparte, le 20 brumaire an VII (10 novembre 1798), B6 11.

٩٧ – Destaing à Bonaparte, le 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

٩٨ – Bonaparte à l'intendant général de l'Égypte, le 17 frimaire an VII (7 décembre 1798), *Correspondance*, V, pp. 238 - 239. فى هذه الرسالة، يقابل من جهة أخرى بين مسلك مشايخ (القرية أم الحى ؟) المسلمين إلى تسليم ممتلكات المماليك وسوء

نية مفيدين من الأقباط فى هذا المجال.

٩٩ – JABARTI, 1 jumada al akhira 1213.

١٠٠ – JABARTI, 8 jumada al akhira 1213; *Courrier de l'Égypte* du 24 brumaire an VII (14 novembre 1798).

١٠١ – Fin du mois de jumada al akhira 1213.

١٠٢ – إن *Courrier de l'Égypte*, 7 frimaire an VII (27 novembre 1798). هذا النص غير موقع، لكن كل أسلوبه يسمح بتصور أنه يرجع إلى قلم بونابارت خاصة وأن الإشارة المستترة إلى القس رينال واضحة، وكان بونابارت الشاب معجباً كبيراً بكتاب *L'histoire philosophique et politique des Européens dans les deux Indes* ويبدو أن فوربيه قد نحى عن هيئة تحرير صحيفة الكورييه بسبب هذا النص. ونحن لا نملك غير رواية نيهينيت لرد فعل بونابارت على هذا النص: «إنه لحمق وأريد أن أقول لكم لماذا. إن هذا الرجل، الذى لم أطلب قط ولن أطلب أبداً رأيه، قد جاء إلى هنا، فى صالونى، لكى يتحدث حديثاً طناناً عن التمرد وعن أسبابه ونتائجه التى يخشى منها و، أخيراً، جاء لكى يبلغنى بما يجب علىّ عمله. وبوسعكم أن تتصوروا بأىّ شكل استمعت إليه: لقد بينت له بادئ ذى بدء أن المسألة قد انتهت، وأن التدابير الصارمة التى يقترحها علىّ لا هى سياسية ولا هى إنسانية وأن الفرنسيين يلعنون دائماً هذه المشروعات المتطرفة وأن المرء لا يجوز له إبداء رأى فى الانتفاضات لمجرد أنه قد شارك فى حفلات باريس، وإننى أملك عنها التصور الذى كونته بشأنها».

١٠٣ – Sur ce personnage, voir Jacques DECOURSAC, *Un ami dauphinois de Napoléon Bonaparte, Simon de Sucy, ordonnateur en chef du l'armée d'Égypte, 1764 - 1799,* Paris, 1932.

١٠٤ – Voir *Kléber et Bonaparte,* II, p. 541.

١٠٥ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 391 - 392; *Correspondance inédite, Égypte,* I, p. 511.

١٠٦ – فى رسالته الخاصة بنقل السلطات إلى كليبر فى عام ١٧٩٩، سوف يشدد بونابارت على هذه النقطة: «لقد طلبت بالفعل فى عدة مرات فرقة من الكوميديين؛ وسوف أولى اهتماماً خاصاً لإرسال فرقة منهم إليك. إن هذا الأمر جد مهم بالنسبة للجيش وبالنسبة للبدء فى تغيير عادات البلد». *Kléber et Bonaparte,* II, p. 514.

١٠٧ – *Campagnes d'Égypte...,* XIX, p. 605.

١٠٨ – LA JONQUIERE, III, p. 385 لم يكن مسموحاً للعسكريين الفرنسيين، الجنود والضباط على حد سواء، باصطحاب زوجاتهم معهم. وقد جرى التجاوز عن عدد معين وقامت السيدات عموماً بالرحلة من أوروبا إلى مصر متنكرات فى ملابس الذكور.

١٠٩ – Le seul témoignage certain est un diplôme d'initiation accordé à

Marc - Aurel, l'imprimeur de l'armée et ami de jeunesse de Bonaparte, publié par Georges de FROIDCOURT, "Une loge inconnue à l'armée d'Égypte en 1799", *Annales Historiques de La Révolution Française*, 1937, pp. 557 - 560. Pour l'ensemble de la question, voir les travaux de François COLLAVERI, *La Franc Maçonnerie des Bonaparte*, Paris, 1982 et *Napoléon, Empereur Franc - Maçon*, Paris, 1986.

١١٠ – Sur la peste, voir le grand livre de Daniel PANZAC, *La Peste dans l'Empire Ottoman, 1700 - 1850*, Louvain, 1985, en particulier les pages 327 à 333. في ذلك الوقت، لم يكن الطاعون متواصلا في مصر (سوف يصبح متواصلا بعد ذلك بعشرين سنة)، لكن البلد كان يصاب بالعدوى دائماً من طريق موانئ البحر المتوسط. وسوف يظل الطاعون هناك خلال مجمل مدة الحملة وسوف يتبين أن التدابير المتخذة عديمة الفعالية إلى حد بعيد.

١١١ –– Sur les questions médicales, voir DESGENETTES (le médecin chef de l'armée), *Histoire médicale de l'armée d'Orient*, Paris, trois éditions, 1802, 1830 et 1835; Larrey (le chirurgien - chef), *Relation historique et chirurgicale de l'expédition de l'armée d'Orient*, Paris, 1803; HOUDARD (L), "Le service de santé de l'armée d'Égypte", *Revue des Études Napoléoniennes*, février - octobre 1934.

١١٢ – وهو ما يأسف له الجبرتي، ١ جمادى الآخرة سنة ١٢١٣.

١١٣ – *Décade Égyptienne*, I, pp. 81 - 82 et 104 - 109. Voir aussi, l'article de C.L. LOKKE et G. DEBIEN, "L'expédition d'Égypte et les projets de cultures coloniales", *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte*, XX (1940), pp. 337 - 356.

١١٤ – Rapport sur le Môristan ou hôpital du Caire, Rapport sur le plan d'organistion d'un hospice civil au Caire, *Décade Égyptienne*, I, p. 272 et II, p. 5. Le second rapport est cosigné en plus de Desgenettes par Monge, Caffarelli, Daure, Berthollet et Larrey.

١١٥ – JABARTI, fin du mois de jumada al akhira 1213.

١١٦ – NAPOLEON, *Campagnes d'Égypte...*, XXIX, p. 589 – الجلسة المقصودة هي جلسة ١١ فيرميدور من العام السابع، وتشير روايات أخرى إلى ٥٠ ألف نوع من الأسماك في علن للهدى، voir GOBY, *Le Premier Institut d'Égypte...*, Paris, 1987, p. 51.

١١٧ – Dans un article qui a constitué une véritable révolution dans l'historiographie de l'expédition d'Égypte, Anouar LOUCA a bien montré l'échec immédiat de l'entrepris de Bonaparte, "La renaissance égyptienne et les limites de l'œuvre de Bonaparte", *Cahiers d'histoire égyptienne*, 1955, VII, pp. 1 - 20.

١١٨ – *Décade Égyptienne*, I, p. 83 et suivantes.

١١٩ – DESGENETTES, *Souvenirs...*, pp. 48 - 51.

١٢٠ – إن باشا مصر، خاصة في العقود الأولى لحكمه، إنما يستلهم أساساً أفكار المصلحين العثمانيين في القرن الثامن عشر. وينسب إنشاء مطبعة بولاق جزئياً إلى شخصية روفائيل أنطون زاخور الراهب، المسمى بدون رافاييل، وهو كاثوليكي يوناني ولد في القاهرة في عام ١٧٥٩، ويحصل على دراسات إكليركية في روما في عام ١٧٧٥، ورسم قساً في عام ١٧٨٢. وهو يوزع آنذاك وقته بين سوريا وإيطاليا ومصر التي يتواجد فيها عند وصول بونابرت. ويصبح العضو الشرقي الوحيد في المعهد (المجمع العلمي) المصري. ويعمل مترجماً للوثائق الرسمية وترجماناً للديوان في ظل مينو. وهو يمكث في القاهرة حتى عام ١٨٠٣ حيث يجيء إلى فرنسا. وعندئذ يصبح أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية حيث يكون من بين تلاميذه شامبليون ولما كان معروفاً بميوله البونابرتية في بداية عودة الملكية، فإنه يتعرض لمضايقات إدارية، الأمر الذي يقوده إلى العودة إلى مصر عام ١٨١٦. وعندئذ يدخل في خدمة محمد علي ويصبح مؤلف أول كتاب تنشره مطابع بولاق، وهو عبارة عن قاموس إيطالي – عربي. وهو يترجم الأمير لماكيافيللي إلى العربية بناءً على طلب صريح من الباشا. وفيما بعد، يشارك في تأسيس مدرسة الطب في أبو زعبل إلى جانب كلوت بك. وهو يموت في عام ١٨٣١ في القاهرة. والحال أن للسيرة العملية لهذا الكاثوليكي اليوناني إنما تمثل إحدى الصلات المباشرة الثابتة المعقدة بين الحملة ومحمد علي مع إشارتها أيضاً إلى الدور الديناميكي لمسيحيي الشرق في النهضة العربية.

Charles BACHATLY a disposé des papiers personnels de Don Raphael qui ont fourni la matière de ses deux excellents articles dans le *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, "Un manuscrit autographe de Don Raphael" (XIII, 1931, pp. 26 - 35) et " Un membre oriental du premier Institut d'Égypte, Don Raphael" (XVII, 1935, pp. 237 - 260).

١٢١ – Traduction de CUOQ, p. 87 (20 jumada al akhira 1213).

١٢٢ – Traduction de CUOQ, p. 105 (9 sha'ban 1213).

١٢٣ – *Courrier de l'Égypte*, 21 nivôse an VII.

١٢٤ – L'étude la plus globale des questions financières est celle de M. CHEVALIER, "La politique financière de l'expédition d'Égypte", *Cahiers d'histoire égyptienne*, VII (1955) pp. 165 - 185, 223 - 243, VIII (1956), pp.

47 - 68, 176 - 197, 213 - 240. Il a pu utiliser le fonds Marcel (papiers de l'orientaliste) alors conservé à l'Institut d'Égypte et qui est actuellement indisponible.

L'étude essentielle est celle de S.J. SHAW qui a traduit du turc – ١٢٥
ottoman les réponses de Husayn Effendi aux questions des Français, dans son étude *Ottoman Egypt in the age of the French Revolution*, Harvard University Press, 1966. في مصر، كان لقب الأفندي يتم حمله أساساً لذلك من جانب موظفي الشؤون المالية، والذين كانوا في غالبيتهم عثمانيين. وقد شكلت هذه الوثيقة أساساً لجميع العروض التالية حول الشؤون المالية لمصر، بما في ذلك عروض «وصف مصر».

١٢٦ – إن هذا التحديث لا يحدث إلا بشكل تدريجي للغاية خلال السنوات الثلاث للحملة، على أن الجبرتي يشهد على نتيجته : «إن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج لوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا في الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة وبلغوا أن ذلك كان يقبض ثلاثاً مع المراملة في ري الأراضي وعدمه، فاختاروا الأصلح في أسباب العمار وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك». ربيع الآخر ١٢١٦.

١٢٧ – ٢٥ بروميير من العام السابع (١٥ نوفمبر ١٧٩٨)، إنشاء لجنة مكلفة بالتعداد لمنطقة القاهرة. ٢٢ فريمير (١٢ ديسمبر ١٧٩٨)، تعيين أخ الجنرال رينيه مفتشاً للممتلكات.
LA JONQUIÉRE, III, p. 372.

LA JONQUIÉRE, III, p. 373. – ١٢٨

NICOLAS TURC, P. 31. – ١٢٩

JABARTI, 6 sha'ban 1213 et fin sha'ban 1213. – ١٣٠

Aux habitants du Caire, le 1 er nivôse an VII (21 décembre – ١٣١
1798), *Correspondance*, V, pp. 287 - 288.

١٣٢ – الجبرتي، المدة، ص ٩٥. في عجائب الآثار، يكتفي بالتشديد على حماقة هذه الأقوال.

Liste nominative dans le *Courrier de l'Égypte*, le 9 nivôse an – ١٣٣
VII (29 décembre 1798). نجد أربعة عشر عالماً، ليس من بينهم الجبرتي أو السادات.

١٣٤ – لم أنجح في إعادة رسم قائمة الأربعة عشر. إن غالبية مراسلات الديوان لا تحمل كتوقيع غير توقيع الرئيس الشرقاوي وتوقيع أمين السر المهدي. ويضم البيان المنشور لدى عودة بونابارت من سوريا علاوة عليهما أسماء البكري والصاوي والفيومي كمشايخ، وعلى كتخدا ويوسف باشا – تشاوش كموظفين وأحمد المحروقي كتاجر، بما يمثل خمسة علماء من ثمانية

العلماء. ومن المرجح إلى أبعد حد أن الديوان كثيراً ما كان يجتمع بعدد كبير من الأعضاء.

١٣٥ – LA JONQUIÉRE, IV, p. 19.

١٣٦ – JABARTI, fin rajab 1213.

١٣٧ – DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1893, pp. 10 - 12.

١٣٨ – *Rapport fait par le nommé Ahmed Mager, fellah de Rahmanieh en date du 19 brumaire an VII* (9 novembre 1798), B6 11.

١٣٩ – Leturcq (qui a remplacé Bribes à Rahmanieh) à Menou, le 19 brumaire an VII (9 novembre 1798), B6 11.

١٤٠ – *Courrier de l'Égypte*, le 20 brumaire an VII (10 novembre 1798). يعني الأمر اليومي الصادر إلى الجيش في ١٦ برومير علناً هذا الشيخ الذي سوف يحمل من يد القائد العلم على عباءة مبطنة بالفراء.

١٤١ – Menou à Dumuy (Aboukir), le 20 brumaire an VII (10 novembre 1798), B6 11.

١٤٢ – *Courrier de l'Égypte*, le 14 brumaire an VII (4 décembre 1798).

١٤٣ – Murat à Bonaparte, le 10 frimaire an VII (30 novembre 1798), B6 12.

١٤٤ – Détails dans le *Courrier de Égypte*, du 25 frimaire an VII (15 décembre 1798).

١٤٥ – Leturcq à Bonaparte, le 19 frimaire an VII (9 décembre 1798), B6 13.

١٤٦ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 419 - 428.

١٤٧ – Menou à Marmont, le 12 frimaire an VII (2 décembre 1798), B6 13.

١٤٨ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 393 - 400 et B6 11.

١٤٩ – Instructions pour le citoyen Beauchamp, le 21 frimaire an VII (11 décembre 1798), LA JONQUIÉRE, III, pp. 406 - 409.

١٥٠ – Spencer Smith au ministère ottoman, Constantinople le 17 mars

1799, FO 78 21.

١٠١ – Voir Albert ESPITALIER, "La mission de Beauchamp à Constantinople en 1799", *Revue d'Histoire Diplomatique,* 1911, pp. 591 - 606.

١٠٢ – Règlement officiel imprimé en arabe et en français daté du 18 nivôse an VII (le 7 janvier 1799) B6 16.

١٠٣ – مارمون إلى مينو، ١٢ نيفوز من العام السابع (الأول من يناير ١٧٩٩) «إنه يريد تزويد الجوربجي، التابع للسلم، بقوة حراسة من ٣٠ فارساً كقائد للوجهة مع إبراهيم الشوربجي في دمنهور، وذلك للقيام بجولة في إقليم البحيرة». B6 16 .

١٠٤ – Marmont à Menou, le 22 nivôse an VII (11 janvier 1799), B6 16.

١٠٥ – Marmont à Menou, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA JONQUI'ERE, IV, p. 39.

١٠٦ – Dumuy (Aboukir) à Menou, le 13 nivôse an VII, réponse de Menou le 15 nivôse et annonce de l'exécution par Dumuy le 17 nivôse (6 janvier 1799), B6 16.

١٠٧ – Menou à Bonaparte, le 3 pluviôse an VII (22 janvier 1799), LA JONQUI'ERE, IV, p. 41.

١٠٨ – إن سانجليه – ابريبير الذي يقود أحد هذه المراكب يشهد على تعسف التعليمات «إننا بالتصرف على هذا النحو، كنا نتجاوب مع التعليمات الصادرة إليّ، إلا أنه لابد لي من الاعتراف بأنني قد استسلمت كثيراً إلى حد ما لتقديرات بحارتي الذين رأوا في أبسط تجمع للعرب أشراراً، حتى يتمتعوا بلذة مطاردتهم. ويبدو أنني ملوم بالمسؤولية عن موت عدد من الفلاحين».
"Souvenirs de l'expédition d'Égypte", *Revue des Etudes Historiques,* XIV, 1912, p. 416.

١٠٩ – Voir le registre de correspondance de Reynier, B6 105.

١٦٠ – B6 13 . يشدد الصدر الأعظم في حاشية على توزيع البيانات على العرب «إن عليكم الاهتمام بتوفير أوسع تأكيد لكان تلك للمكاتبات الموجودة في مظروفي لم للمكاتبات الأخرى. وسوف تضيفون إليها بحسب الحال مكاتبات من صنعكم في الاتجاه الذي تتطلبه الظروف وسوف توزعون جميع [هذه الأوراق] على العرب. إننا نجهل حتى الآن المسلك الذي اتخذوه والأحوال التي هم عليها الآن».

١٦١ – *Kléber et Bonaparte,* II, p. 537.

١٦٢ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 477 - 478.

١٦٣ – *Correspondance...*, V, pp. 286 - 287.

١٦٤ – La source essentielle pour cet épisode est dans le *Courrier de l'Égypte* du 27 nivôse an VII (16 janvier 1799).

١٦٥ – *Campagnes d'Égypte...*, XXIX, pp. 610 - 611.

١٦٦ – Ordre du 20 nivôse an VII (9 janvier 1799), *Correspondance...*, V, pp. 311 - 312. Le dromadaire est le nom du soldat, chameau est celui de sa monture.

١٦٧ – Ordre du 25 nivôse an VII (14 janvier 1799), *Correspondance*, V, pp. 331 - 332.

١٦٨ – LA JONQUIÉRE, IV, pp. 42 - 43 يبدو أن الوباء كان مع ذلك أقل فتكا من وباء الإسكندرية وأن عديدين من المسئولين الفرنسيين كانوا حزينين عندما علموا أن الوباء وباء طاعون.

١٦٩ – إن لاجرانج، الذى ولد فى عام ١٧٦٢، كان قد برز خلال حملة إيطاليا. وخلافا لكثيرين من قدامى المحاربين فى مصر، فإنه لا يبدو أنه قد تعرض لنزع الحظوة عنه فى ظل الإمبراطورية، بالرغم من أنه كان قد خدم الملك جيروم فى ويستفاليا. وسوف يموت كونتيه فرنسى فى عام ١٨٣٦.

١٧٠ – Sur toute cette période, voir *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 346 - 377.

١٧١ – Le 22 pluviôse (10 février 1799), LA JONQUIÉRE, IV, p. 143.

١٧٢ – ١٢٩٤٥ بالضبط وفقا للاجونكيير (IV , P. 149) .

١٧٣ – انظر الفصل الخاص بالإعداد للحملة.

الفصل السادس

فلسطين أو بدايات اللعبة الكبرى

اللعبة الكبرى

الإنجليز والهند

«إن الجيل نفسه الذي شهد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، قد شهد حدثاً ثالثاً، لا تكاد تكون له هو الآخر سابقة، هو فرض الهيمنة الأوروبية على العالم». ونظرة المستشرق الأمريكي الكبير مارشال ج. س. هودجسون هذه تجد تأكيداً لها في السنوات الثلاث لحروب الائتلاف الثاني الذي حرضت عليه حملة مصر، وهي لحظة أساسية يكتسب فيها كامل مغزاه تحول للمصالح الأوروبية من العالم الجديد صوب العالم القديم، وهو التحول الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر. والهند هي مفتاح جميع الأبواب. ومن الواضح أن الهدف الاستراتيجي للفرنسيين، في الأجل القصير كما في الأجل الطويل، هو تدمير القوة الإنجليزية في شبه القارة (الهندية)، لكن المسئولين الإنجليز في الساحة كانوا قد توقعوا تحرك الفرنسيين.

إن ويلسيلي، منذ مستهل عام ١٧٩٨، يتذرع بالخطر الفرنسي لكي يبرر مشروعه الرامي إلى القضاء على التوازن الهندي وإقامة إمبراطورية إنجليزية. ونبأ الحملة الفرنسية يبرر بشكل بعدي تحركه. وهو يتذرع به للقضاء على القوتين المضادتين للقوة الإنجليزية، سلطنة ميسور التي يقف على رأسها تيبو صاحب وأفغانستان التي يقف على رأسها زمان شاه، واللتين يجري تصويرهما كحليفتين، ليس فقط ممكنتين بل وفعليتين، لفرنسا ثورية كان يمكنها من ثم تطويق القوة الإنجليزية في الهند. وسعياً إلى مواجهة التهديد الأفغاني الذي يستهدف الأندوس - الواقع أن الأفغان كانوا قد بدأوا من تلقاء أنفسهم زحفاً على دلهي في خريف عام ١٧٩٨ ووصلوا إلى لاهور - يعتمد ويلسيلي على

عمل يحول الأنظار عن الساحة الرئيسية القائم من فارس التي تقف على رأسها السلالة الحاكمة القاجارية. ويتمكن المسيخ في يناير ١٧٩٩ من وقف الغارة الأفغانية وتؤدي الضغوط الإنجليزية والتهديدات الفارسية إلى إجبار زمان شاه على الانسحاب إلى كابول. ومن ثم فإن أمن الهند إنما يستند على سياسة تستوعب أفغانستان وفارس. فذلك هو الطريق البري إلى الهند.

وبعد تحرره مؤقتاً من التهديد القائم من الشمال، يتجه ويلسيلي الآن إلى الجنوب لمهاجمة ميسور، نقطة نهاية الطريق البحري. وبعد معركة المسيرة، يلقى تيبو صاحب الهزيمة ويلقى حتفه في سيرينجاباتام في ٤ مايو ١٧٩٩. وعندئذ تسقط الدول الهندية الأخرى بشكل نهائي تحت النفوذ الإنجليزي إلى هذا الحد أو ذلك بأن تُستوعب أو بأن تصبح محميات(٢). وعندئذ يمكن لويلسيلي أن يفكر في التحول صوب الشمال لمواجهة غزو فرنسي محتمل، لأنه يعلم الآن أن بونابارت قد غادر مصر للزحف على سوريا.

اللعبة الكبرى

وهكذا فإن السياسة الإنجليزية الموضوعة في الهند تمد شعاع فعلها حتى فارس. ويتعين عليها بالضرورة مواجهة السياسة الموضوعة في لندن وفي السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. ولا تعود هناك سياسة أرض لا تنافس عليها بين الهند والبحر المتوسط. فكل طرف يرسل عملاءه على طول الطريق البري إلى الهند. إنها اللعبة الكبرى التي سوف يصفها كيبلينج فيما بعد بكثير في كيم. فالسيطرة الأوروبية لن تكون أبداً مشروعاً مشتركاً، بل فعل قوى متنافسة تتحارب فيما بينها. وهذه الحرب هي صراع على النفوذ.

وسوف ينقل الأوروبيون صراعهم إلى مجمل العالم القديم. والفعل إنما يعني بالدرجة الأولى مواجهة الفعل المتوقع من الخصم، لكنه يعني أيضاً اللعب على الأوتار السياسية والثقافية والاقتصادية والأيديولوجية للمجتمعات الشرقية. والحال أن الاستشراق، أي مجموع المعارف التي يراكمها الغرب عن الشرق، إنما يصبح السلاح الأساسي لعملاء كل دولة. وهو لا يخدم إلا بشكل ثانوي في تبرير الواقع الإمبريالي.

ومسرح هذه اللعبة هو سلسلة الدول الإسلامية الممتدة من البحر المتوسط إلى الاندوس. ولاعبو الأدوار هم دبلوماسيون ومغامرون وسياسيون وعلماء. والخاصية

الغربية هي أن اللعبة الكبرى تدور أولاً بين صنوف البريطانيين، وسوف يستمر ذلك حتى بداية القرن العشرين. فانطلاقاً من مركزين لاتخاذ القرار هما الهند وبريطانيا العظمى، سوف يعمل الموظفون الإنجليز بعضهم ضد البعض الآخر، وسوف يكون لكل فريق منهم مرشحوه الشرقيون ذوو الأطماع المتناقضة.

وهكذا فإن لندن ترسل هارفورد جونز مندوباً إلى بغداد، مكلفاً بأن ينظم على المستوى المحلي المقاومة لزحف فرنسي محتمل على الهند. وعندما يصل إلى الموقع في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٨، فإنه يصطدم على الفور بمعارضة السفارة (الإنجليزية) في القسطنطينية. فكل عمل سبنسر سميث إنما يستند إلى تعزيز الهياكل الداخلية للإمبراطورية العثمانية. وهو لا يستطيع قبول عمل يسير في الاتجاه المضاد: التشجيع الممنوح لشبه دولة المماليك المهمة في العراق، والتي يتزعمها سليمان الأكبر، الذي يعتبر استقلاله الذاتي أكبر بكثير من الاستقلال الذاتي لمماليك مصر. والحال أن هارفورد جونز، المشتبك مع سبنسر سميث بشأن هذه المسألة، يقرر، في المقابل، التحالف معه للاعتراض على السياسة الهندية. فالرجلان يريان أن أفغانستان السنية، لا إيران الشيعية، هي التي يجب أن تشكل العقبة الرئيسية في وجه زحف بونابارت المفترض.

وقد تمكن سبنسر سميث من تحويل التحالف الفعلي، القائم بين روسيا والإمبراطورية العثمانية، إلى حلف قانوني، تم التوقيع عليه في القسطنطينية في يومي ٣ و ٥ يناير ١٧٩٩. وتكفل المعاهدة وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم إعادة دمج مصر بها، وتنص على تنسيق عمل الدول الثلاث، أي - بالدرجة الأولى - حظر أي صلح منفرد. ويعني هذا الحلف في المحل الأول التجميد المؤقت للأطماع الروسية في الإمبراطورية العثمانية لحساب نضال ضد الخصم المشترك. لكن الجميع يعرفون أن روسيا، بمجرد القضاء على الفرنسيين، سوف تستأنف مخططاتها الرامية إلى تقسيم الإمبراطورية. وفي الأجل المتوسط، فإن الدفاع عن الطريق البري يجب أن يشمل استعراضاً للقوة أمام الخطر الروسي.

الإسلام السياسي

والأداة المباشرة لهذا الفعل ليست شيئاً آخر غير الشكل الأول للإسلام السياسي والذي يبرزه العثمانيون منذ بداية سبعينيات القرن الثامن عشر: فكرة الخلافة. ويرى

سبنسر سميث وهارفورد أنهما قد عثرا على الوسيلة الأكثر فعالية لوقف بونابارت فى زحفه إلى الهند. وقد أدركا كفاءة حرب الدعاية التى يخوضها الباب العالى منذ خريف عام ١٧٩٨. وشأنهما فى ذلك شأن جميع المسئولين الأوروبيين، فإنهما لا يستطيعان تصور الخلافة إلاّ بوصفها نوعاً من بابوية إسلامية (٣). ومن ثم فإن هدف سياستهما سوف يتمثل فى تأكيد مهمة الخليفة العثمانى على مجمل الطريق إلى الهند. وبما أن الإسلام السياسى يتغذى إلى حد بعيد على الإيمان المتواجد لدى الغربيين عن قوته، فإن من الواضح أن العثمانيين يحذرون من تصرير المسئولين الإنجليز من خلال إيمانهم. واللعبة الكبرى هى أيضاً لعبة التصورات التى يكونها الغربيون عن الشرق والتى يعيدها الشرق بالتالى إليهم.

وهكذا فإن سليم الثالث يصعد بالكتابة إلى تيبو صاحب لإبلاغه بالعدوان الفرنسى، غير المبرر بالمرة، ضد الإمبراطورية العثمانية، ويوضح له الخطر الرهيب الذى تتعرض له المينتان للتدستان فى شبه الجزيرة العربية والتهديد القاتل الذى تشكله الثورة الفرنسية بالنسبة للإسلام. وللإسهام فى النضال ضد هؤلاء «الملحدين» إلى جانب «إخوانه المسلمين»، يتعين على سلطان ميسور أن يتوصل إلى تفاهم بأسرع ما يمكن مع الإنجليز وأن يرفض جميع عروض الفرنسيين الزائفة (٤). وبشكل متعقل من جهة أخرى، لا يستخدم السلطان (العثمانى) فى هذه المراسلات صفة خليفة جميع المسلمين التى يسبغها الإنجليز عليه ببالغ السخاء.

وهذه السياسة الإسلامية الخاصة بإحياء الخلافة لا يمكن أن تجد مجالا لها إلاّ فى عالم الإسلام السنّى ومن ثم فإن أفغانستان والدول السنية فى شبه القارة الهندية هى مرتكزاتها. أما فارس الشيعية - العدو التقليدى للعثمانيين - فإنها مستبعدة من منظومة النفوذ هذه. إلاّ أنه بينما يتحرك إنجليز الإمبراطورية العثمانية للتوصل إلى تحالف أنقاذى ضد غزو فرنسى قادم من البحر المتوسط، فإن إنجليز الهند يسعون إلى تحالف فارسى ضد أفغانستان التى يجرى تصويرها على أنها حليف لفرنسا. والحال أن الخطر الحقيقى، منظوراً إليه من كلكتا ومن بومباى، إنما يجيء من الأفغان، وليس الخطر الفرنسى غير فزاعة يراد بها التبرير لدى لندن لسياسة توسع منهجى. ومن ثم يتعين على لندن أن تلعب دور الحكم بين السياستين المتعارضتين. وفى عام ١٨٠٠ يحرز خط القسطنطينية الغلبة، وسوف يجرى استخدام القوات التى يحشدها ويلسيلى لفتح أفغانستان فى البحر الأحمر.

وفى مرحلة أولى، يحتل العمل الإنجليزى ضد حملة مصر فى دعم نهاية الباب العالى الإسلامية ومدها إلى الهند، بما يشكل برهاناً إضافياً على أن إنجلترا تأخذ مأخذ الجد تماماً خطر زحف برى على الهند فى أوائل عام ١٧٩٩. وعلى المستوى البحرى، يقرر الإنجليز إتمام حصار مصر، بالتمركز فى البحر الأحمر وباحتلال جزيرة بريم، لمنع خروج الفرنسيين انطلاقاً من السويس. كما يجرى التخطيط لمراقبة الخليج الفارسى فى حالة اتجاه الفرنسيين، بعد اجتياز سوريا، إلى استخدام ميناء البصرة. وهذا المجهود الملحوظ يقود إلى سحب الأسطول الإنجليزى من المحيط الهادئ، بما يؤدى إلى ترك التجارة مع الصين عرضة للتهديد من جانب أسبان مانيلا، كما يقود إلى التخلى عن المشاريع الرامية إلى فتح المستعمرات الهولندية والفرنسية فى المحيط الهادئ وفى المحيط الهندى وهذه نتيجة غير متوقعة للحملة.

سيدنى سميث

بشكل مباشر أكثر، سوف يُعهد بالنضال ضد بوناپارت إلى أخ سبنسر سميث، سيدنى سميث، وهو شخصية تتميز بأصالة قوية. وهذا الرجل، الذى ولد فى عام ١٧٦٤، والذى يكبر بوناپارت قليلاً، يدخل البحرية فى عام ١٧٧٧. وبفضل حمايات عائلية راسخة، يحقق صعوداً سريعاً، ويصبح قبطان سفينة فى التاسعة عشرة من عمره ويشارك فى حرب استقلال الولايات المتحدة. ثم يتولى مهمات استطلاعات بحرية على سواحل نورماندى ثم على سواحل مراكش وسيكون مستشاراً بحرياً لملك السويد جوستاف الثالث فى حرب السويد ضد روسيا. وإذ يجرى منحه ألقاب النبالة والشرف بسبب مآثره الحربية، فإنه يشارك فى عملية رصد لسواحل الإمبراطورية العثمانية فى اللحظة التى تنشب فيها الحرب مع فرنسا، ويشارك فى حصار طولون. وهو يلمع مع إحراقه الأسطول الفرنسى خلال سقوط المدينة إثر عمليات قصف بوناپارت لها.

وبعد هذه المأثرة يخدم على طول السواحل الفرنسية للمحيط الأطلسى وللمانش لكى يؤمن الاتصالات مع مختلف التمردات الملكية. ويتم أسره فى أبريل ١٧٩٦، خلال غارة على مصب السين. ويتواجد معه سكرتيره الملازم رايت ومهاجر فرنسى هو الكونت دو تروملان الذى يتظاهر بأنه إنجليزى اسمه بروملى. ويجرى احتجازهم فى سجن تامپل وسرعان ما يدخلون فى اتصال مع المنظمات السرية الملكية جد القوية فى هذه الفترة من

تاريخ حكومة الإدارة. وهم يتابعون بانتباه التطور السياسى الذى يقود إلى انقلاب ١٨ فروكتيدور. ويكتب سيدنى سميث إلى بونابارت طالباً الإفراج عنه فى تبادل للأسرى، لكن هذا الأخير لا يتدخل. وفى نهاية الأمر، يهرب مع رفاقه فى فبراير ١٧٩٨ ، فى عملية قام بها فيليبو، وهو ملكى وزميل دراسة لبونابارت (*).

والحال أن خبرته المتنوعة، وواقع أنه حر من كل ارتباط وتدخل أسرته سوف تساعد على ترشيحه للخدمة فى الإمبراطورية العثمانية فى مواجهة بونابارت. وهو يحصل فى أن واحد على وظائف دبلوماسية وعسكرية. وهذا التداخل للسلطات، غير المؤذى عندما يكون أخوه سبنسر سميث قائماً بالأعمال فى القسطنطينية، سوف يكون سبب نزاع متصل مع اللورد ايلجين عندما يتولى هذا الأخير مهامه كسفير، وسوف يقود إلى كارثة حقيقية بالنسبة للسياسة الإنجليزية.

ويحصل سيدنى سميث على قيادة سفينة حربية، هى التيجر (النمر) (وهى سفينة فرنسية سابقة كان قد تم الاستيلاء عليها فى عام ١٧٩٥). وهو يأخذ فى خدمته حاشية فيليبو، شارل فروتيه، الأخ غير الشقيق للجنرال فروتيه، إلى جانب اثنين آخرين). ويصل إلى القسطنطينية فى ٣١ ديسمبر ١٧٩٨ ، فى الوقت المناسب تماماً لحضور توقيع معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية. وهو يدخل على الفور فى تفاوض مع العثمانيين لتحديد مسلسل العمليات. وفى ١٧ يناير ١٧٩٩ ، يقابل الرئيس أفندى، المتحدث بلسان الباب العالى فى مجال الشئون الخارجية. ويعرض فكرته الأساسية. وبفضل درايته التامة بالحالة الذهنية للفرنسيين فى أواخر الفترة الثورية، يبدو له أن من الممكن القضاء على خطر جيش الشرق من خلال مجرد حرب سيكولوجية. وسلاحه السرى ليس شيئاً آخر غير حاشيته من الملكيين وخاصة فيليبو الذى يحضر الاجتماع: «تابع الفارس (سيدنى سميث) حديثه موضحاً للوزراء المجتمعين أن أحد الأساليب الأكثر أهمية والتى يمكن للكولونيل فيليبو أن يكون مفيداً فيها لمصالح الباب العالى، إنما يتمثل فى أن يجتذب بتأثيره غالبية الضباط الساخطين فى جيش بونابارت، والذين يرى أن العديدين منهم ينتمون إلى الحزب نفسه الذى ينتمى هو إليه. ومن ثم سوف يكون من السهل تحقيق ردتهم، أما وسيلة جعلهم نافعين بعد ذلك للقضية السامية فهى لا تعتمد إلا على التشجيع الذى يرى الباب العالى تقديمه بأن يعرض عليهم فى أن واحد الخدمة فى الجيوش المشتركة أو حق العودة بحرية إلى حيث كانوا فى وطنهم حيث سوف يسارعون، إذ يجدون أنفسهم

محل اضطهاد أو، على الأقل، محل ازدراء من جانب حكومة الإدارة، إلى التوحد مع الساخطين ومن ثم زيادة عدد أعدائها المتغلبين. وعندما أخذ الكولونيل فيليبو الكلمة هو الآخر، أضاف أن مثل هذه العروض من شأنها أن تكون لها نتائج جيدة وأن هناك عديدين من الضباط مع بونابارت كانوا في السابق تحت إمرته وأنهم لا يريدون شيئاً أحسن من خدمة قضية الملكية؛ ومن الطبيعي أن ساخطين آخرين على الحملة يتمنون العودة إلى حيث كانوا في فرنسا؛ وأنه بين صفوف الجنود أنفسهم هناك من سوف ينتهزون أول فرصة تسنح لهم للعودة إلى حيث كانوا مع ذويهم، فهم لا يوجدون هناك (في مصر – المترجم) ألبتة إلا بحكم الإلزام والإجبار (٦).

ويرد المسئولون العثمانيون المنزعجون بأنهم لا يمكنهم استخدام جميع الضباط الفرنسيين في جيشهم. لكن سيدني سميث يسارع إلى طمأنتهم: إن المقصود بشكل خاص هو إقناع العدد الأكبر بالعودة إلى فرنسا عن طريق تبادلات لأسرى سوريين سعياً إلى تكوين بؤرة قوية للضغط ضد حكومة الإدارة. ولتأمين نجاح هذه الخطة، يجب على العثمانيين قبول العادة الأوروبية الخاصة بتبادل الرسل بين المتحاربين. وفي التو والحال، يطرح سيدني سميث مشروع هجوم على الإسكندرية سعياً إلى منع الفرنسيين من تعزيز مركزهم في مصر. ويعلن العثمانيون أنهم لن يكونوا مستعدين إلا في شهر مارس للتحرك انطلاقاً من سوريا، ويقبلون فكرة عملية مشتركة براً وبحراً. ويجد العميد البحري نفسه وقد حصل على قيادة العمليات من العثمانيين أنفسهم. وسوف تكون رودس قاعدة الانطلاق. ويدافع من شاغل إنساني حقيقي، وينطلق من روح التضامن الأوروبي وسعياً إلى كسب سمعة مؤاتية لمخططاته، ينجح في الوصول إلى تحسين ملحوظ لأحوال حبس الفرنسيين المحتجزين في العاصمة (٧). وفي ١٧ فبراير، يغادر القسطنطينية متجهاً إلى شرقي البحر المتوسط. وفي ذلك التاريخ، كان الجيش الفرنسي قد بدأ بالفعل زحفه إلى فلسطين.

حسابات بونابارت

يصدق الإنجليز إمكانية حملة فرنسية على الهند. فما هي في الواقع طموحات بونابارت؟ إنه، من جهة، يحتفظ بإمكانية العودة إلى فرنسا، ومن جهة أخرى، فإنه قد زعم طيلة حياته أنه كان يستهدف إما الهند، أو إمبراطورية الشرق أو العودة إلى فرنسا عن

طريق القسطنطينية. والشواهد عديدة، فقد أوردها فى مذكراتهم المقربون إليه من زمن القنصلية ومن زمن الإمبراطورية مثل سيجور أو مثلم دو ريموسا أو كولانكور؛ وقد كرر تلك فى مناسبات جد عديدة فى سانت هيلين؛ وأكده فى روايته لحملة سوريا. إن التوازى مع الإسكندر الأكبر دائم فى جميع هذه الأحاديث. على أن غالبية المؤرخين لا يؤمنون بواقع هذا المشروع (٨).

ولا يجب أن ننسى أن جموح الطموحات عنده يراعى دائماً حساب علاقات القوة، خاصة فى تلك الفترة. ومن ثم يجب البحث عن عناصر هذا الحساب.

إن السياسة «الإسلامية» التى اعتمدها منذ النزول إلى الإسكندرية قد فشلت فى تحقيق مطمحه الأكبر: أن يحشد حوله، كفاتح شرقى جديد، كافة المسلمين. فحرب الدعاية التى شنها الباب العالى، والتى من المؤكد أنه لم يتوقعها، قد خربت هذا المشروع. والاستعراض الوحيد الذى تسنى له التوصل إليه، هو تأكيد السلطة الدينية المستقلة لشريف مكة والسعى إلى رفعها إلى مستوى سلطة مضادة لسلطة خليفة القسطنطينية. وسوف يعاود الفرنسيون والإنجليز إجراء المناورة نفسها خلال الحرب العالمية الأولى (٩). أمَّا تأكيد شخصية سياسية مصرية أصيلة فهو فكرة ثانوية فى نهايته وهو لا يمكنه بحال أن يخدمه فى زحفه على الهند.

النزعة العربية

بما أن بونابارت لا يمكنه بعد اللعب بورقة الإسلام السياسى، التى يحتكرها العثمانيون والإنجليز، فإنه يتجه عندئذ إلى جانب آخر من جوانب البرنامج الذى رسمه فولنى: تحرير شعوب الشرق. وسوف يسعى إلى وضع النزعة العربية فى مواجهة الإسلام. وتلك هى الفكرة الرئيسية لفقرة من أكثر الفقرات غرابة فى كتابه «حملتا مصر وسوريا». وهو لم يؤرخها بشكل محدد لكنه وضعها فى روايته قبل الحديث عن حملة سوريا. وهى تبدو بوصفها محصلة للمناقشات التى أجراها بونابارت مع العلماء.

«لمس السلطان الكبير (بونابارت) وتر الوطنية العربية؛ لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ كيف تهيمن على مصر الخصيبة، وشبه الجزيرة العربية المقدسة، شعوب جاءت من القوقاز؟ وإذا ما هبط محمد اليوم من السماء على الأرض، فإلى أين سوف يذهب؟ هل يذهب إلى القسطنطينية؟ لكن هذه مدينة دنيوية، بها من الكفار أكثر مما بها من مؤمنين؛ ووجوده هناك يعنى أنه يضع نفسه وسط أعدائه. كلا، إنه سوف يفضل مياه

النيل المباركة؛ وسوف يجري الإقامة في مسجد الجامع الأزهر، تلك المفتاح الأول للكعبة المقدسة؛ عند هذه الكلمات تهللت وجوه أولئك الشيوخ الأجلاء، ومالت أجسامهم، وردوا، مكتوفي الأيدي: «طيب، طيب! أذا هذا صحيح تماماً».

«وعندما تم عزل مراد بك عزلة تامة، قال لهم نابليون: «إنني أريد إعادة ملكوت العرب؛ فمن الذي يمنعني من ذلك؟ لقد دمرت المماليك، والميليشيا الأكثر جسارة في الشرق. وعندما يسود التفاهم بيننا، وعندما تدرك شعوب مصر كل الخير الذي أريد عمله من أجلها، فإنها سوف تتعلق بي بإخلاص. إنني سوف أحيي زمن مجد الفاطميين (١٠)».

ورداً على بونابارت الذي يطلب مساندة العلماء، يشير هؤلاء الأخيرون إلى ضرورة تحول الجيش الفرنسي أولا إلى اعتناق الإسلام. وعندئذ يرد بونابارت بالإشارة إلى عقبتي الختان وتحريم الخمر. فيرد العلماء بأن الختان ليس غير عمل محبب لكنه ليس إلزامياً، وبأن المرء يمكنه شرب النبيذ مع بقائه مسلماً لكنه - نتيجة لذلك - بعد الموت لا يدخل الجنة. وعندئذ يتوصل الشيخ المهدي إلى حل وسط مبني على استشارة شريف مكة. وبعد مناقشات طويلة، يجرى اعتبار إثم شرب الخمر إثماً يمكن التكفير عنه بالإكثار من أعمال الخير.

وهذه الرواية لا تجد أي تأكيد لها في المصادر العربية، لكن الإشارات إلى أصول الشريعة الإسلامية والدور المنسوب إلى الشيخ المهدي إنما تسمح بتصديق صحة جزء على الأقل من هذه الرواية التي رويت في سانت - هيلين. ويتفق ذلك تماماً مع العلاقات التي انتهى الأمر بها إلى التعزز بين بونابارت والعلماء. وفي رواياته التالية، يتفاخر الأول بتمكنه من كسب ولائهم المخلص بهذا النوع من الكلام، أي بتمكنه من خداعهم، لكنه يعرف كيف يتدارك مبالغاته ويعترف بالواقع: «لقد كان المشايخ يعرفون جيداً أنني لست مسلماً وأنهم لن يتوصلوا إلى جعلي مسلماً، لكن الحكمة السياسية وحدها هي التي تجعلني أحابيهم وأتملقهم وأساندهم. ولم يك المشايخ يريدون الكثير مني؛ وكانوا ممتنين لمواقفي الخيرة، لأشكال المراعاة التي أبديها. وكانت السياسة تملي عليّ ذلك... (١١)».

هنا نصل إلى مفارقة نزعة بونابارت العربية. إنها من حيث الأساس علمانية وتاريخية. وهي تتبع الفكرة الرئيسية الكبرى لمخطط التاريخ الذي رسمه التنوير: العرب من حيث هم شعب - محطة للحضارة بين العصر القديم والرينسانس الأوروبي. وهذا التصور غير مفهوم لمن يتحدث إليهم. فبالنسبة لهم، لا توجد عروبة غير عروبة النسب،

أي الانتماء إلى القبائل الكبرى لشبه الجزيرة العربية، وأساساً من زاوية زمن الفتح العربي، أو فتح العالم على الإسلام، أو إذاً عروبة إسلامية لأن اللغة العربية هي لغة القرآن وهو ليس شيئاً آخر غير كلام الله نفسه.

وعندما يُدعى القائد العام في ٢١ فريمير من العام السابع (١١ ديسمبر ١٧٩٨) إلى زيارة الشيخ السادات بمناسبة عيد مولد السيدة زينب، فإن المرء يشهد حوار طرشان حقيقياً، «سبق الحديث تناول العشاء وتلاه. وقال الجنرال بونابارت للمشايخ، أن العرب قد رعوا الفنون والعلوم في زمن الخلفاء، لكنهم اليوم في جهل عميق وأنه لم يبق لهم شيء من معارف أسلافهم، ورد الشيخ السادات بأنهم يبقى لهم القرآن الذي يحوي جميع المعارف. فتساءل الجنرال عما إذا كان القرآن قد بين طريقة سبك المدافع. وعندئذ أجاب جميع المشايخ الحاضرين بجسارة أن نعم» (١٢).

وبالرغم من اطمئنان بونابارت الشديد إلى تحليله، فإنه لا يدرك أنه عندما يتحدث عن العظمة التاريخية للعرب، فإنهم يردون عليه دائماً بالحديث عن الإسلام. وهو يرى أن من الواضح أن تمرداً عربياً ضخماً على وشك النشوب في سوريا وأن من الواجب تمهيده لتولي قيادته. وبعيداً عن العرب أيضاً، فإن مجمل الفئة الثالثة الشرقية تعتبر عدوة للأتراك كما أن الفئة الثالثة الفرنسية، المنحدرة من أصول غالية – رومانية هي عدوة الأرستقراطيات ذات الأصل الجرماني. ومن ثم فإن الهدف الأول لحملة سوريا، علاوة على القضاء على خطر الجيوش العثمانية، هو تمزيق الإمبراطورية نفسها، على الأقل في جزئها الآسيوي، عبر تمرد شعوبها. ومن ثم فإن أدوات اللعبة الكبرى ماثلة بالفعل، فالإنجليز يستخدمون الإسلام السياسي والفرنسيون يستخدمون النزعة القومية، مع تشديد خاص على النزعة العربية.

__فلسطين__

من الواضح أن هذا التصور العام إنما يستند إلى تفسير أكثر تحديداً للحقائق السياسية لسوريا الطبيعية، بلاد الشام. ويبدو أن هذه المنطقة الشاسعة قد عرفت في العقود الأولى للقرن الثامن عشر نمواً اقتصادياً وديموغرافياً قوياً، خاصة في الجزء الجنوبي منها، فلسطين (١٣).

فالسكان الحضريون هناك مهمون، إذ تصل نسبتهم إلى نحو ٣٠ في المائة، أي أعلى من المتوسط الذي عرفته أوروبا الغربية في تلك الفترة. وهذه الظاهرة الكلاسيكية في المنطقة تجد تعزيزاً لها عبر إعادة فتح الساحل. وسعياً إلى الحيلولة دون عودة للصليبيين، كانت السلطة المملوكية قد منعت من الناحية العملية أي انغراس حضري ساحلي وكانت امتيازات الزراعة المزدهرة (خاصة للفلاحين) قد كرست هذا الوضع. ومنذ بداية القرن الثامن عشر، ينتهج العثمانيون سياسة مخالفة ويقررون تدعيم المدن الساحلية. وعندئذ فإن عودة الأمن تسمح بالتطور السريع لمجمل المدن الساحلية، وهي مدن جديدة، بالرغم من إنشائها في مواقع قديمة (١٤). وهذا التطور يقود إلى تكثيف للعلاقات الاقتصادية مع أوروبا، التي تصبح سوقاً متزايدة الأهمية للمنتجات الزراعية للمنطقة، خاصة القز والتبغ والقطن. وتتأسس سلطات محلية على إيرادات الزراعة المتنامية التي تسيطر عليها من خلال الالتزامات الضريبية. وبفضل تكوين جيوش محلية، تنجح هذه السلطات في استعادة الأمن الداخلي بصدها للتزايد الفعلية للبدو، وبتوسيعها كذلك للمساحات المزروعة ومن ثم زيادة دخولها. وهذا الوسط المناسب يسمح بنمو أكثر أهمية للسكان الريفيين وللصادرات.

والواقع أن الزراعة الفلسطينية إنما تتميز بوجود قرى على المرتفعات وذلك بسبب الانعدام التقليدي للأمن. ويجرى استغلال الأرض القريبة بشكل دائم من جانب أسر مستقلة. أما الأرض البعيدة، والتي تتمثل في الوديان والسهول الساحلية، والأكثر عرضة للأخطار بكثير، فهي تستغل بشكل جماعي (مشاعة) من جانب جماعات تربط بين أفرادها وحدة اسم السلف الأعلى (حَمُوله) توزع فيما بينها الأراضي بشكل دوري، وذلك عموماً، في نهاية فترات إراحة الأرض. وبحكم البعد، تظهر مراكز ثانوية، على أنقاض مراكز موجودة بالفعل في أغلب الأحيان. وخلال الفترات الطويلة لانعدام الأمن، يهجر السكان الأرض الزراعية البعيدة لكي يتركزوا في المنطقة القريبة من القرية – الأصلية (١٥). ووجود هذه الأطلال يعطي الرحالة الأوروبيين انطباعاً بانحطاط للزراعة قياساً إلى الفترات السابقة. ويجعل الملتزم الضريبة العقارية بجعله الجماعة القروية مسئولة بشكل تضامني عن مجموع المبالغ التي يجب دفعها. كما أن تأكيد الأمن المتحقق من جراء صد البدو يعتبر استثماراً اقتصادياً جد مربح لأنه يسمح باستغلال الأراضي المنخفضة.

الجـــزار

إن أول من استفاد من هذا التطور هو ضاهر العمر الزيداني، حليف وصديق علي بك. فهو إذ يجمع لحسابه الالتزامات الضريبية من الجليل إلى البحر وإذ يدخل في علاقة وثيقة مع التجار الفرنسيين، ينجح في تأسيس قوة إقليمية حقيقية حول عكا، عاصمتها وعين رمز لحياء موانئ الساحل السوري – الفلسطيني. وقاعدة سلطته محلية وتستند إلى تحالفات عديدة مع الأعيان. ولم يك بوسع الباب العالي أن يقبل تكوين كيان مستقل كهذا غير ناشئ، خلافاً لأشباه دول الإمبراطورية العثمانية الأخرى، عن جهاز الإدارة الإمبراطورية نفسه. ولذا فقد ساد منذ البداية لحمد باشا الجزار الرهيب الذي أدرك تماماً، وهو الغريب عن المنطقة، ضرورة البقاء على الدوام ضمن إطار الشرعية العثمانية، بل والاستفادة منها إلى أقصى حد لمد قوته مع احتفاظه بريبة ملائمة تجاه دسائس السلطة المركزية(١٦).

وإذ يجرى تقليد الجزار في عام ١٧٧٥ مجرد صلاحيات حكم مدينة عكا، فإنه ينكب – أولا – على القضاء على آخر آل الزيداني. وهذه الخدمة التي يؤديها تسمح له بالحصول على قيادة ولاية صيدا التي يواصل حكمها من عكا. وعندئذ يجرى تكليفه بالتوصل إلى إخضاع جميع الكيانات المستقلة المحلية لحساب الباب العالي ولحسابه هو نفسه. واعتباراً من عام ١٧٨٥، في زمن أزمة، خاصة عندما لا يتم تأمين قافلة حجاج أسيا، فإنه يحصل على مقاليد ولاية دمشق. وهو ينجح من جهة أخرى في مد سلطته إلى جنوب فلسطين. وهكذا فإنه يجمع مجمل مكونات القيادة السورية – الفلسطينية في ديسمبر ١٧٩٨ لمواجهة التهديد الفرنسي.

وممارسته للسلطة تتميز بوحشية نادرة. وعدوه الأكثر أهمية بعد القضاء على آل الزيداني هو حليفهم الأقرب، شيعة جبل عامل (جنوب لبنان الحالي). وكان هؤلاء الأخيرون قد استفادوا من حلفهم لمد سيطرتهم إلى الأراضي المجاورة. ومن عام ١٧٨١ إلى عام ١٧٨٣، يدمر الجزار كل البلد الشيعي، ويتسبب في خراب ومجازر لا تنسى أبداً. وتحتاج هذه الجماعة إلى عقود حتى تفيق من الضربات التي وجهها إليها سيد عكا. وبعد ذلك بوقت قصير، يجيء الدور على القبائل البدوية لكي تلقى معاملة مماثلة تؤدى، لفترة طويلة، إلى توقف اعتداءاتهم على السكان المستقرين. ثم ينقلب على إمارة الجبل اللبناني.

ومن الناحية الشكلية الرسمية، فإن أمير الجبل ليس غير ملتزم مكلف بجباية الضريبة من سكان الجبل) وهو يجمع ناتج امتيازات ضريبية، هي المقاطعات، التي تحوزها عائلات من أعيان الدروز والموارنة. وهذه البنية الحقوقية تتوج الواقع الاجتماعي بهيراركية سلطات وجماعات عائلية، فالأمير والأعيان هم في آن واحد ممثلو السلطة المركزية ومظهر شخصية محلية قوية (١٧). وفي اللحظة التي يمد فيها الجزار نفوذه إلى الجبل، تبدأ المغامرة الحكومية للأمير بشير شهاب. والحال أن هذا الممثل لسلالة حاكمة ذات أصل مسلم سني، إنما يعتبر هو نفسه مارونياً ويخفي عن الجميع الديانة التي يمارسها. وإذ كان مرشحاً من جانب الجزار، فإنه يتولى الحكم في عام ١٧٨٨. والواقع أن سيد عكا يساند بالتتابع جميع المرشحين لهذا المنصب، الأمر الذي يسمح له بالحصول على هدايا مالية ملحوظة وبأن يملك دائماً وسيلة للضغط على الأمير. ويتمكن بشير من تأكيد سلطته في تسعينيات القرن الثامن عشر، لكنه يظل تحت سيطرة الجزار بشكل وثيق.

وما كان لكل هذا العمل للمركز حول عكا أن يتم دون تكوين جيش قوي من المرتزقة، خاصة المغاربة، الذين يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل في أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر. ولتغطية مثل هذه النفقات، يمد الجزار سيطرته على الامتيازات الضريبية ويضغط على الفلاحين إلى درجة استثارته، على ما يبدو، لنزوح ريفي يؤدي إلى إقفار الأرياف واختزال المحاصيل. ثم إنه يدشن احتكاراً، لحسابه، لبيع المنتجات الزراعية للأوروبيين. والحال أن التجار الفرنسيين، الذين يفقدون بذلك إمكانية الشراء بسعر أرخص من المنتجين، هم الضحايا الرئيسيون لهذا الوضع. وعندئذ يتطور تناحر بينهم وسيد عكا يقود إلى طردهم في بداية تسعينيات القرن الثامن عشر. وبالنسبة لحكومة باريس، فإن الجزار هو عين النموذج الأولي للمستبد الدموي والوحشي، الذي يجهل القوانين الليبرالية للاقتصاد السياسي والمشبع بكراهية خاصة للفرنسيين.

لكن شخصية الرجل أكثر تعقيداً. فمن المؤكد أنه سياسي عظيم يشكل نموذجاً أولياً لمحمد علي، خاصة في سياسته الاقتصادية. وهو مناور رهيب يجيد البقاء ضمن الحدود التي يفرضها الباب العالي. وهو يزن تأخير مدفوعاته للخزينة، وهي إيرادات ضرورية للخزانة الإمبراطورية، وذلك بشكل يمثل معه تسليمها خسارة لمتأخرات ملحوظة. والرعب الذي ينشره في ممتلكاته هو وسيلته للهيبة في الحكم، لكنه يعرقل بذلك في تلك المنطقة صعود الأعيان المحليين الذي نجده في كل الإمبراطورية العثمانية. وهو، من حيث عمله وعزمه، يذكرنا بمؤسسي تلك الإمبراطورية.

والحال أن صراعه مع بونابارت سوف يتخذ بعداً لا يقبل الشك. إنه سوف يصبح سيف الإسلام وسوف يبدو، في ذروة المعركة، بوصفه المهدي الذي ينتظره جميع المسلمين(١٨).

خطة بونابارت

بالنسبة للفاتح الفرنسي، يمثل الجزار العقبة الأخطر أمام طموحه إلى السيطرة على الشرق. ولما كان بونابارت على علم تام بالوضع السياسي في سوريا – فلسطين، فإنه يدرك أن الوسيلة الوحيدة لإثارة السكان السوريين هي أن يحشد حوله جميع ضحايا الجزار: أنصار آل الزيداني في الجليل، شيعة جبل عامل والأمير بشير مع دروزه وموارنته الجبليين. وهذا البرنامج السياسي للملموس تماماً، لأنه لا يعدو أن يكون إعادة تشكيل للائتلاف السياسي الذي نشده ضاهر العمر وعلي بك في أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، إنما يجري تفسيره بشكل أعم على أنه ثورة العرب على الأتراك، حركة سوف تعطي دفعة إلى انتفاضة أشمل بكثير من جانب الأمم الخاضعة للعثمانيين، خاصة الأرمن واليونانيين. إن ربيع الشعوب هذا سوف يشهد انهيار الدولة العثمانية (١٩). والزحف على القسطنطينية، على رأس جميع هذه الشعوب المتحالفة، إنما يعني بالنسبة للإسكندر الجديد تحقيق مشروعه، تأمين دوام الوجود الفرنسي في مصر واتحاد الفرنسيين والشرقيين.

هذا التصور للأمور، يستعيده بشكل علوي المرشد الفكري لبونابارت، فولني (الذي عاد من الولايات المتحدة بعد رحيل الجيش الفرنسي إلى مصر)، ويعرضه في الصحافة الفرنسية في ٢٦ برومير من العام السابع (١٦ نوفمبر ١٧٩٨). فهدف بونابارت لا يمكن أن يكون هو الزحف على الهند؛ ذلك أن العقبات الجغرافية والبشرية ضخمة، خاصة في غياب البحرية. وعلي تيبو صاحب وزمان شاه تحرير البلد وحدهما. وفي المقابل، فإن بونابارت سوف يتولى إصلاح مصر، بالقضاء على علامات الاستبداد وبتشجيع الزراعة والصناعات وبنشر التعليم. «إنه، باختصار، يخلق أمة و، باستخدامه لطاقة الحماس القوية، يعيد إلى العرب مجد أسلافهم؛ ويوضح لهم أن الجيش الفرنسي هو الأداة المعجزة للدعوة إلى تطبيق أوامر العناية الإلهية، التي تريد إحياء قوة العرب القدماء، وتخليصهم من نير البرابرة العثمانيين، وتنقية شريعة النبي التي حرفها الجهلاء والزنادقة، وتدشين عصر جديد لآسيا من العظمة والعلم والمهنة».

وهدفه هو أولا إنشاء «مستعمرة فرنسية - عربية». وبمجرد تعزيز وضعه في مصر، فإنه يزحف على سوريا حيث يترقبه الدروز والموارنة والعرب. وجنبا إلى جنبهم، يثير الأكراد والأرمن والفرس والتركمان ويستولى على القسطنطينية. ومن هناك، يرجع إلى أوروبا ويحرر اليونان وألمانيا ثم بولندا، مجهزا على القوة الروسية، ويصبح بوسع الحكومات أن تحصل على السلم، وقد سئمت أخيرا من كل هذه الحروب، والمعارك والحرائق والجرائم والحماقات التى أضنتها». (٢٠)

إلا أنه لكى يتحقق الحلم، لابد له أولا من أن يمر بعكا، حيث ينتظره الجزار.

حملة سوريا

العريــــــش

تلقى رينييه وجنود فرقته أمر الزحف قبل الآخرين وتشكيل طليعة للجيش. وهم يصلون أمام العريش في ٧ فبراير ١٧٩٩. ومنذ البداية، يصطدمون بمقاومة قوية من جانب الوحدات العثمانية، التي تملأ حصون المدينة، وتنزل بهم خسائر مهمة. والحال أن كليبر – الذي يستدعى لتعزيزهم – ينضم إليهم مع فرقته في ١٢ فبراير. وينظم رينييه هجوماً في ليلة ١٤ – ١٥ فبراير ويجتاح المعسكر العثماني، مجبراً الجانب الرئيسي من قوات العدو على الانسحاب وترك قلعة العريش لقواته هو. ويصبح بوسع الفرنسيين بدء الحصار دون المجازفة بالتعرض لانقضاض عليهم من الخلف. وسوف يصف نابوليون، في سانت – هيلين، هذا الهجوم المفاجئ بأنه «واحد من أجمل العمليات الحربية التي يمكن شنها» (٢١). إلاّ أن بونابارت عندما يصل مع بقية الجيش في ١٧ فبراير يلوم رينييه على خسائره وعلى التنظيم السيء للإمدادات. والواقع أن قائد الفرقة ليس مسئولاً عن هذا التقصير، الراجع إلى سوء إعداد إمدادات الحملة؛ ففي اللحظة التي يجرى فيها الجيش حشده في العريش، لا يملك من الناحية العملية إمدادات تسمح له بمواصلة زحفه. ويحتج رينييه على ما يعتبره ظلماً (٢٢).

وإذا كان العثمانيون، منذ بداية القرن الثامن عشر، وخاصة في حروبهم مع الروس، قد قصروا في حروب الحركة في مواجهة الجيوش الأوروبية، فإنهم على العكس من ذلك خطرون في حرب الحصار (يمكن استعادة هذا التأكيد بالنسبة للقرن التاسع عشر مع حصار بليفنا الشهير بل وبالنسبة للقرن العشرين مع معركة الدردنيل) (٢٣). وهكذا، فإن المقاومة غير المتوقعة من جانب الفرنسيين والتي تبديها قلعة العريش إنما تضع جيش الغزو في وضع صعب. ويضطر بونابارت إلى طرح شروط لاستسلام جد ملائمة، فبوسع الحامية الانسحاب بكل أشكال الشرف الحربي، وذلك بشرط التعهد بعدم الخدمة في سوريا لمدة سنة وخاصة بشرط ترك مؤنها للفرنسيين.

وفي مساء ٢٠ فبراير، يستسلم العثمانيون ويغادرون القلعة. وعلى الفور، يحتلها الفرنسيون وينتهكون الاتفاقات، إذ يجرى نزع سلاح الرجال الألف ومائة. ويجرى إرسال

للمماليك (التابعين لإبراهيم بك) إلى مصر، وتهديد للرتزقة المغاربة (عدة مئات) بالقوة للعمل في الجيش. وعندئذ يرحل من تبقى من الجنود إلى سوريا، معتبرين أنهم غير ملزمين بعد باتفاق لم يحترمه الفرنسيون منذ البداية. وتسمح الإمدادات التي تم الاستيلاء عليها في العريش بالتحرك حتى مخرج سيناء. ويحتد كليبر على انعدام مسئولية القائد العام الذي، إذ يثق في حظه السعيد، يرهن مصير الجيش بمغامرة القدرة على التزود بالإمدادات بفضل مستودعات الخصم (٢٤).

ويستأنف الجيش زحفه منذ ٢١ فبراير. وتتشكل الطليعة من كليبر وفرقته التي تعززها قوة الفرسان التي يقودها مورا. وتجري إعادة رينييه ورجاله إلى مؤخرة الجيش، ويُعهد إليهم بأن ينقلوا بأسرع ما يمكن العتاد والإمدادات المتروكة في مصر. وتتوه فرقة كليبر، بعد أن ضللها دليلها. أما بونابارت الذي يتبعه بعد ذلك مباشرة، مع حاشية صغيرة، فإنهما يغامران بأن يُحسبا جملةً من المماليك. وفي ٢٤ فبراير، يستولي الفرنسيون على غزة حيث يجدون مخزونات مهمة من الإمدادات الغذائية والذخيرة، الأمر الذي يثلج صدورهم إلى أبعد حد. وتنقسم القوات العثمانية؛ فالوحدات العثمانية بالمعنى الدقيق للمصطلح تنسحب إلى يافا، بينما ينسحب المماليك والقوات المحلية إلى القدس ونابلس. وببصيرة نافذة، يفضل الجزار على الصدام الجبهوي، غير الملائم بالنسبة له، استراتيجية صدٍ باستخدام الحصون الساحلية. وسوف يسمح ذلك له بتأخير الفرنسيين وبإجبارهم على البقاء على الساحل. وعندئذ يمكن لسيد عكا أن ينتظر وصول التعزيزات العثمانية وأن يخوض حرب عصابات، انطلاقاً من داخل الأراضي، على خطوط مواصلات الفرنسيين. وهو يعرف أنه ما دامت قواته الأساسية لم تتعرض للدمار، فلن يكون هناك انحياز مهم للقرى.

يافـــا

في ٢٨ فبراير، يستأنف الجيش زحفه ويستولي على الرملة في أول مارس. وهناك يتم العثور، مرة أخرى، على مؤن ملحوظة، وهو ما لا يحول دون غارات سلب للحاصلات من جانب الجنود وعدد من عمليات النهب التي لا تبررها أية مقاومة. وفي ٣ مارس ١٧٩٩، يصل كليبر أمام يافا ويتمركز في شمال المدينة سعياً إلى عزلها عن عكا ونابلس. والحال أن عملية استطلاع، قام بها الجنرال داماس في اتجاه تلك المدينة الأخيرة، إنما تشير إلى

صعوبة التغلغل داخل الأراضي، فالمواقع الدفاعية الراسخة للقرى القائمة على المرتفعات ومجموعات الأنصار التي نظمها الجبليون بشكل عفوي تحدُّ من المجال الذي يحتله الفرنسيون في السهل الساحلي (٣٥). ويسمي الفرنسيون بوجه عام أولئك الجبليين بالنابلسيين.

وتبدأ محاصرة يافا منذ ٣ مارس. وكانت المدينة مشهورة بحصار دام عدة أشهر تحملته ضد علي بك في عام ١٧٧٣ وبالمذابح التي ارتكبها هناك أبو الذهب في عام ١٧٧٦، بعد أكثر من شهر ونصف شهر من الحصار. وهي القاعدة الأساسية لتراجع العثمانيين. ويتباحث كافاريللي الذي يقود سلاح المهندسين وبومارتان المسئول عن المدفعية لتحديد خطة الهجوم. ويرد المحاصرون على أعمال المحاصرة بغارات قوية. وفي صباح ٧ مارس، يأمر بوناپارت بالهجوم. وتسقط المدينة بعد الظهر وينكب الجنود على نهب منهجي. ومن بين جنود الحامية الذين يصل عددهم إلى خمسة آلاف، يسقط ألفان في المعارك، بينما تستسلم الآلاف الثلاثة الباقية لمساعدي بوناپارت، يوجين دو بوآرنيه وكروازييه، في مقابل وعد بالإبقاء على أرواحهم. وعندئذ يجري واحد من أكثر أحداث الأسطورة النابوليونية سوادًا. فبوناپارت يخرج من المجموعة المصريين، الذين يصل عددهم إلى نحو خمسمائة رجل، ويعيدهم إلى بلدهم. ثم يتذرع بوجود مقاتلي حامية العريش الذين حملوا السلاح بالرغم من اتفاق الاستسلام (الذي لم يحترمه الفرنسيون أنفسهم) والذين لابد أن عددهم لم يك ليزيد عن ثلاثمائة إلى أربعمائة(٣٦)، لكي يحكم على جميع الأسرى الآخرين بالإعدام رميًا بالرصاص. والحجة الأخرى التي تساق هي أنه لم يك لديه ما يكفي من القوات للسيطرة عليهم وإرسالهم إلى مصر. على أن عدة مئات من المصريين قد نقلوا بالرغم من ذلك إلى مصر. والدافع الحقيقي للقرار ليس عسكريًا، بل هو دافع سياسي. إذ لا يجهل بوناپارت أن أبو الذهب قد استولى على فلسطين بهذا الشكل. ويورد فولني قصة ما حدث آنذاك: «لقد عانت المدينة ويلات السلب والنهب، فالنساء والأطفال والشيوخ والرجال البالغون قد مروا كلهم على حد السيف؛ وأمر محمد (أبو الذهب)، الذي لا يقل جبنه عن بربريته، بتشييد هرم من جميع رؤوس هؤلاء التعساء، تحت ناظريه، ليكون أثرًا باقيًا لانتصاره؛ ومن المؤكد أن عدد هذه الرؤوس قد وصل إلى ألف ومائتين. وهذه الكارثة، التي تمت في ١٩ مايو ١٧٧٦، تنشر الرعب في البلد كله. بل إن الشيخ ضاهر يهرب من عكا.(٣٧)».

إن مذبحة يافا تخدمه بالدرجة الأولى كوسيلة للاستيلاء عبر الرعب على بقية فلسطين، وخاصة عكا. ولابد من إضافة أن استشراق بونابارت يبدى جوانب جد محيرة. فهو إذا كان يصور نفسه مخلصاً على أنه بطل تمدينى، فإن الشرقَ هو أيضاً بالنسبة له، وفقاً لما باح به لمعلم دو ريموسا، فرصة للتخلص من حضارة جد مزعجة. فمنذ بداية الحملة، يستخدم الفرنسيون فى سياستهم القمعية عدداً غير معتاد فى الأراضى المحتلة فى أوروبا. لقد استعملوا بشكل منهجى تماماً عمليات الإرهاب (الهمجى – المترجم) وحرب الفانديه. ومنذ بداية العصر الاستعمارى، فإن حقوق الإنسان، التى نشأت فى أوروبا لأجل الأوروبيين، كان من الصعب أن تنطبق على الشرقيين؛ فأياً كان ما حدث، ألم يتعود هؤلاء الأخيرون على عنف الاستبداد ؟ وهل عرفوا شيئاً آخر غير الإكراه؟ لقد قدم ميو وصفاً شهيراً لمذبحة يافا: «عندما وصلوا أخيرا إلى الكثبان الرملية فى جنوب – غربى يافا، جرى إيقافهم أمام بركة ماء راكد. وعندئذ أمر الضابط الذى يقود القوات بتقسيم الحشد إلى مجموعات صغيرة؛ وبعد توجيه هذه المجموعات إلى عدة نقاط مختلفة، جرى قتلها هناك رمياً بالرصاص. وقد استغرقت هذه العملية المريعة الكثير من الوقت، بالرغم من عدد الجنود المخصصين لهذه التضحية المشئومة والذين، ولابد لى من إعلان ذلك، لم يتحملوا، إلا ببالغ التقزز، تلك الطقوس المقيتة المفروضة على أيديهم الظافرة. والحال [...] أن الأتراك [...] يتوضأون فى هذا الماء الراكد [...]، ثم إذ يشدون على الأيدى فيما بينهم، بعد أن يضعوها على قلوبهم وأفواههم، شأن المسلمين فى تبادل التحية، يتبادلون وداعاً أبدياً. لقد بدا أن أرواحهم الجسورة تتحدى الموت. [...]

«كان جنودنا قد استنفدوا خرطوشاتهم؛ وكان لابد من ضرب [الصفوف الأخيرة] بالحربة وبالسلاح الأبيض. وتشكل – لأنه لابد من قول ذلك – هرم مرعب من الموتى والمحتضرين الذين تنزف منهم الدماء، وكان لابد من سحب الجثث التى قضت بالفعل للإجهاز على التعساء الذين كانوا لم يتم الإجهاز عليهم بعد، فى حمى هذا المتراس للرعب، المخيف».(٢٨)

ولابد أن العدد الإجمالى لضحايا المجزرة يرتفع إلى ألفين وخمسمائة. وفى ٩ مارس، يوجهُ بونابارت بياناً إلى سكان فلسطين: إنه لم يأت لمحاربة السكان، بل لمحاربة الجزار، وهو يعد بكفالة حرية ممارسة العبادات والحيازة الكاملة للممتلكات. ويواصل تصوير نفسه فى صورة كائن فوق بشرى: «يجدر بكم أن تعرفوا أن جميع الجهود البشرية غير

مهمتي ضدي، لأن كل ما أقدم عليه لابد أن يكتب له النجاح، وأولئك الذين يصادقونني سوف يكسبون وأولئك الذين يعادونني سوف يهلكون. ومثال ما حدث في يافا وفي غزة لابد له من أن يجعلكم تعرفون أنني إذا كنت لا أرحم أعدائي فإنني كريم مع أصدقائي، وأنني رؤوف ورحيم خاصة مع الفقراء (٢٩).

ويخاطب، بالأسلوب نفسه، سكان القدس والنابلسيين طالبًا منهم الإذعان: «إنني رؤوف ورحيم مع أصدقائي، لكنني رهيب كالصاعقة تجاه أعدائي» (٣٠).

كما يجد الجيش في يافا عتادًا حربيًا مهمًا وإمدادات عظيمة. وكان بوسع الجنود أن يمارسوا النهب على مهل، لكن الطاعون ماثل بالفعل، وتظهر الحالات القاتلة الأولى منذ اليوم التالي للاستيلاء على المدينة. ولتجنب أي ذعر، يجري عزل المرضى والتكذيب العلني لخبر أنهم قد أصيبوا بالداء الذي يثير الرعب. وللتأثير على الجنود، فإن بونابارت، الذي يبدي ثقته في قدره والذي يريد على ما يبدو إظهار قدرات خارجة عن المألوف، شأنه في ذلك شأن ملوك فرنسا في الأزمنة السابقة، يقوم بزيارة طويلة للمصابين بالطاعون، وهو مشهد سوف يلهم لوحة جروس الشهيرة (١١ مارس ١٧٩٩). وإذا كان بونابارت لا يصاب بالداء، فإن يافا تصبح مع ذلك بؤرة ناشئة للطاعون في مؤخرات الجيش.

بداية حصار عكا

في ١٤ مارس، يجري استئناف الزحف ويحاذي الجيش في الأيام التالية جبل الكرمل. وعندما يصل إلى حيفا في ١٧ مارس، يكتشف وجود عدو جديد، سفينتين حربيتين إنجليزيتين. إنه سيدني سميث مع السفينتين «التيجر» و «الثيسيه». ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين. فأسطولهم الصغير المكلف بنقل مدفعية الحصار، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر الصحراء، يتم اعتراضه على الفور وأسره، مما يحرم بونابارت بذلك من عتاده المخصص للحصار (٣١). ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال قافلة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد المفقود. وفي يومي ١٩ و ٢٠ مارس، يبدأ الجيش مع ذلك محاصرة عكا بينما يغطي لان وفرقته الموقع من جهة الجليل.

ومنذ ١٩ مارس، يمثل عباس ضاهر، حفيد ضاهر العمر، أمام بونابارت، وهذا الأخير يوليه فورًا على المجال التقليدي لآل الزيداني، إقليم طبرية، ويرسل رسائل إلى شيعة جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير، مبلغًا إياه بحصار عكا وبعزمه على القضاء على استبداد الجزار.

«إن نيتي تتمثل في جعل الأمة الدرزية مستقلة، وتخليف الخزينة التي تدفعها وتسليم ميناء بيروت لها إلى جانب المدن الأخرى التي تعتبر ضرورية لها لمنافذ تجارتها.

«وأرجو أن تجيئوا بأنفسكم، بأسرع ما يمكن، أو ترسلوا رسولاً للاجتماع بي هنا، أمام عكا، حتى تتخذ جميع الترتيبات الضرورية لتخليصكم من أعدائنا المشتركين.

«ويوسعكم أن تعلنوا، في جميع قرى الأمة الدرزية، أن أولئك الذين يريدون أن ينقلوا إلى المعسكر مؤناً غذائية، وخاصة النبيذ والعرق، سوف يحصلون على أثمانها غير منقوصة» (٣٢).

والواقع أن عدداً من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعسكر الفرنسي لبيع مؤن من كافة الأنواع للفرنسيين ولشراء أسلحة. ويرى الضباط الفرنسيون في ذلك علامة تحالف سياسي أخذ في التشكل مع الدروز. والواقع أن الأمر يتصل أساساً بأنصار آل الزيداني وبالشيعة بأكثر مما يتصل بالدروز وبالموارنة. ويكتفي الأمير بشير بالتغاضي عن تجارة يصعب عليه منعها على أية حال (٣٣).

وكان لوصول الأسطول الإنجليزي الصغير أثر ملحوظ على حصار عكا. وإذا كان العثمانيون قد استفادوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (فعلوا ذلك في يافا عندما انقطعت الاتصالات البرية) بشكل مستقل عن الإنجليز، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التي تمارسها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليبو، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزار. وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم في المحنة. إن سيدني سميث، الراغب في الإعلاء من دوره الخاص، سوف يتفاخر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذي كان يستعد للاستسلام. ولا يتفق ذلك بالمرة مع سيكولوجية الرجل الذي كان ينوي، منذ البداية، المقاومة بقواته الخاصة. وعلاوة على وحداته المألوفة من المرتزقة، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليحهم. وهو يأمر بذبح المسيحيين لتجنب أي ظهور خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره. ومصير يافا، بدلا من أن يرعب المدافعين، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت في المعركة أو النصر. وليس أمام الجزار أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكي يتسنى له الوصول إلى إثارة حمية قواته. وهو، من جهة أخرى، مناوئ لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالي في إقليمه، الأمر الذي يوضح أنه يهتم فعلا بالمستقبل. ويبدو الإنجليز له أكثر حيادا ونافعين في نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبناني في فلكه السياسي.

ويمر الأسبوع الأول للحصار دون حوادث مهمة. وينشئ الفرنسيون خطوط تحصينهم لمد الخنادق إلى الحصون الخارجية للمدينة. ويتم إنشاء هذه الخطوط بقدر كبير من العيوب. ويحتج كليبر على ذلك، فهناك جهل بتوزيع انتشار الخصم، وبومارتان وكافاريللي لا يتفقان على الخطة التي يجب اتباعها، ويفضل بونابارت خطة صديقه كافاريللي ولا يأخذ في الحسبان المشاريع التي يقدمها قائد المدفعية. ولا يتردد المحاصرون في شن غارات لتهديد أعمال التحصين. ويتجه مورا إلى الجليل سعياً إلى تعزيز أنصار آل الزيداني بفرسانه، ولتغطية الجيش ضد هجمات محتملة من الشمال (دمشق) أو من الجنوب (نابلس). وتجرى إقامة مستشفيات الجيش في قرية شفا عمرو، حصن ظاهر القديم، والتي تبعد عن عكا مسافة ثلاثة فراسخ.

ويجرى شن الهجوم الأول في ٢٨ مارس ١٧٩٩. وينجح الجنود في اجتياز الخندق الواقع أسفل الحصون للاستيلاء على ثغرة في السور الخارجي، إلا أنه يتكشف أن هذه الثغرة غير سالكة وأنها معرضة تماماً لنيران المحاصرين. إن العثمانيين يردون بسهولة على المعابر. وتحدث خسائر فادحة، مائة رجل من بينهم عدد من الضباط المهمين (٣٤). والحال أن الجزار، الذى انزعج للحظة على مصير مدينته، يقرر الاعتماد على نصائح فيليبو والإنجليز (٣٥). وهو يأمر بإنشاء خط ثان للتحصين خلف السور القديم ويجرى نشر جانب من مدافع البحرية الإنجليزية (ومن بينها مدافع كان قد تم الاستيلاء عليها من الفرنسيين) على البر. ويدرك المهاجمون أن الحصار قد أصبح مسألة خطيرة وطويلة وأن زمن الانتصارات السهلة قد ولى.

وفي ٣٠ مارس، يجيء الدور على المحاصرين لشن غارة عنيفة على المواقع الفرنسية. ويجرح عدد من الضباط الإنجليز، من بينهم رايت، سكرتير سيدني سميث. ويعد الفرنسيون لغماً يجب لانفجاره أن يسبق الهجوم الثاني. ويجرى شن هذا الهجوم في الأول من أبريل. وبالرغم من بطولة لان الذى يتولى القيادة في الساحة وعلى الرغم من أن الخندق قد أصبح الآن شبه مردوم بالأنقاض المختلفة، فإن الثغرة تظل دائماً غير سالكة أيضاً. ويتعين على بونابارت انتظار وصول ما تبقى من عتاد الحصار لاستئناف الهجوم. ويعيد الفرنسيون استخدام القنابل التي تطلقها السفن الإنجليزية (٣٦). ويجرى إعداد لغم جديد. ومن الجهة الأخرى، يشن الإنجليز غارة أخرى في ٧ إبريل، وينشأ نوع من الروتين،

إذ يجرى تبادل القصف، وتتقدم الخطوط الفرنسية ويكثف المحاصرون الغارات الصغيرة لعرقلة هذا التقدم.

الجليـــــل

كان الجزار قد دعا جميع سكان الإقليم إلى أن يهبوا ضد الفرنسيين باسم الذود عن الإسلام. وهو يعتمد بشكل خاص على النابلسيين وعلى السكان السديين للساحل بدءاً من صيدا. ويرسل بونابارت فيال فى هذا الاتجاه مع طابور متحرك. ويحقق اتصاله بالشيعة الثائرين تحت قيادة الشيخ نصور ويستولى على صور. وتتمركز حامية صغيرة من الشيعة والفرنسيين فى المدينة، بما يغطى عكا على الطريق الساحلى (٢ – ٥ أبريل ١٧٩٩).

وفى الوقت نفسه، يصل مورا حتى الأردن ويتوقف أمام مرتفعات الجولان. وإذ لا يجد مخاطر وشيكة فى المنطقة، يرجع إلى عكا بعد أن عين أعداء للجزار مسئولين عن المنطقة.

وكان جونو قد سار فى اتجاه الناصرة حيث يرحب به السكان الذين يعتبرون فى غالبيتهم مسيحيين. ويتعين عليه البقاء فى الموقع، وذلك بسبب خطر تمركز مهم للنابلسيين فى جنين. وينضم فلاحون عديدون من منطقة القدس إلى فلاحى نابلس. وفى ٨ أبريل، يصد جونو فى كفر قانا هجوماً للفرسان بفضل مناورة الانتشار على شكل مربع. وهذه المأثرة الحربية الرائعة، بالنظر إلى أن الخصوم كانوا أكثر عدداً بكثير، سوف يسميها بونابارت بـ «معركة الناصرة»، لاعتبارات الدعاية الأوروبية. لقد كان مضطراً إلى الاعتراف بأن قانا لا تبدو توراتية بما يكفى. وهو يقرر أن يرسل إلى الجليل على سبيل التعزيز كليبر وفرقته، المعززة بفرسان مورا.

ويصل كليبر إلى الناصرة فى ١٠ أبريل [٢٨] وفى اليوم التالى، يصد بدوره الخصم قرب قانا. إلا أنه لما كان لا يعرف من أى اتجاه سوف يصل العدو، لأن مرشديه يخبرونه بوصول قوة مسلحة مهمة قادمة من دمشق، فإنه يفضل الحفاظ على موقعه فى منطقة الناصرة، بينما يسيطر مورا مع فرسانه على طريق دمشق. وبعد نجاحات رائعة، يستولى على طبرية فى ١٧ أبريل، حيث يجد مستودعات مهمة للمؤن الغذائية. وخلال قيامه بهذه

العملية، التي أمرت بها الأركان العامة، يكتشف كليبر الذي يتحرك بدوره على طريق دمشق سعياً إلى الهجوم على جيش العدو من الخلف. وإذ يعلم بونابارت بهذه الحركة، فإنه يقرر عندئذ أن يوجد هو نفسه مع فرقة بون في منطقة الناصرة (١٥ أبريل ١٧٩٩).

وفي صباح ١٦ أبريل، تتعرض فرقة كليبر لهجوم في سهل إيسدريلون، وعلى الفور يجري تشكيل المربعات، وهي تقاوم بثبات الهجمات العنيفة التي يشنها جيش معاد، يتألف من البدو ووحدات دمشق ونابلس المحلية، الأعلى بكثير من حيث العدد (لم يقتل من فرقة كليبر غير رجلين بينما جرح ستون). وفي منتصف ما بعد الظهر، يصبح وضعه حرجاً بسبب خطر نفاد الذخيرة، وفي تلك اللحظة تعلن طلقة مدفع وصول قوات بونابارت. وعلى الفور يدفع كليبر قواته إلى الأمام بينما يتشتت شمل الجيش العثماني ويفر في اتجاه دمشق، بعد أن وجد نفسه محاصراً بين الفرقتين الفرنسيتين المؤلفتين من أربعة آلاف رجل. وهذه المعركة، المعروفة باسم معركة جبل طابور، تتيح للفرنسيين السيطرة على الجليل. ويجري على الفور إحراق ثلاث قرى، من بينها جنين. وعندئذ يوقف النابلسيون حرب عصاباتهم. ويتردد بونابارت للحظة في الزحف على دمشق نفسها، لكنه يتخلى عن الفكرة بسبب خطرها. ويعيد معه جزءاً كبيراً من القوات، تاركاً لكليبر ولعباس ضاهر مهمة الإمساك بزمام الجليل. ويمر بالناصرة حيث يحتضر فينتور دو باراديس، ترجمانه ومستشاره الشرقي، متأثراً بالإجهاد والمرض. ويحل محل الترجمان العجوز تلميذه، الشاب أميديه جوبير. والآن يمكن استئناف حصار عكا دون خطر التعرض لهجوم قادم من الداخل.

بشير والإنجليز

يبدو أن الحظ يبتسم من جديد لبونابارت، فخلال غيابه، كانت القافلة البحرية الفرنسية الثانية قد نقلت إلى يافا عتاد الحصار. إلا أنه يبدو أنه يستسلم آنذاك لفكرة الاكتفاء بالاحتفاظ بالمدينة والرجوع إلى مصر (٣٩).

إن الانتفاضة الشرقية الشهيرة لا تتحقق، بالرغم من ولاء آخر أنصار آل الزيداني وبعض الشيعة. والشخص الوحيد، القادر بالفعل على شن حركة واسعة، هو الأمير بشير. والحال أن هذا الأخير يتخذ موقفاً حكيماً قوامه الترقب والانتظار. وقد رفض الرد على رسائل بونابارت. وهو يعرف بالفعل أن الجزار يأخذ عليه عدم مجيئه لتقديم العون إليه في عكا. ومن جهة أخرى، فإن الدروز يبدون معادين بقوة لأي تعاون مع الفرنسيين.



٤١ – معركة الأهرام.



٤٢ - بونابارت يعفو عن متمردى القاهرة.



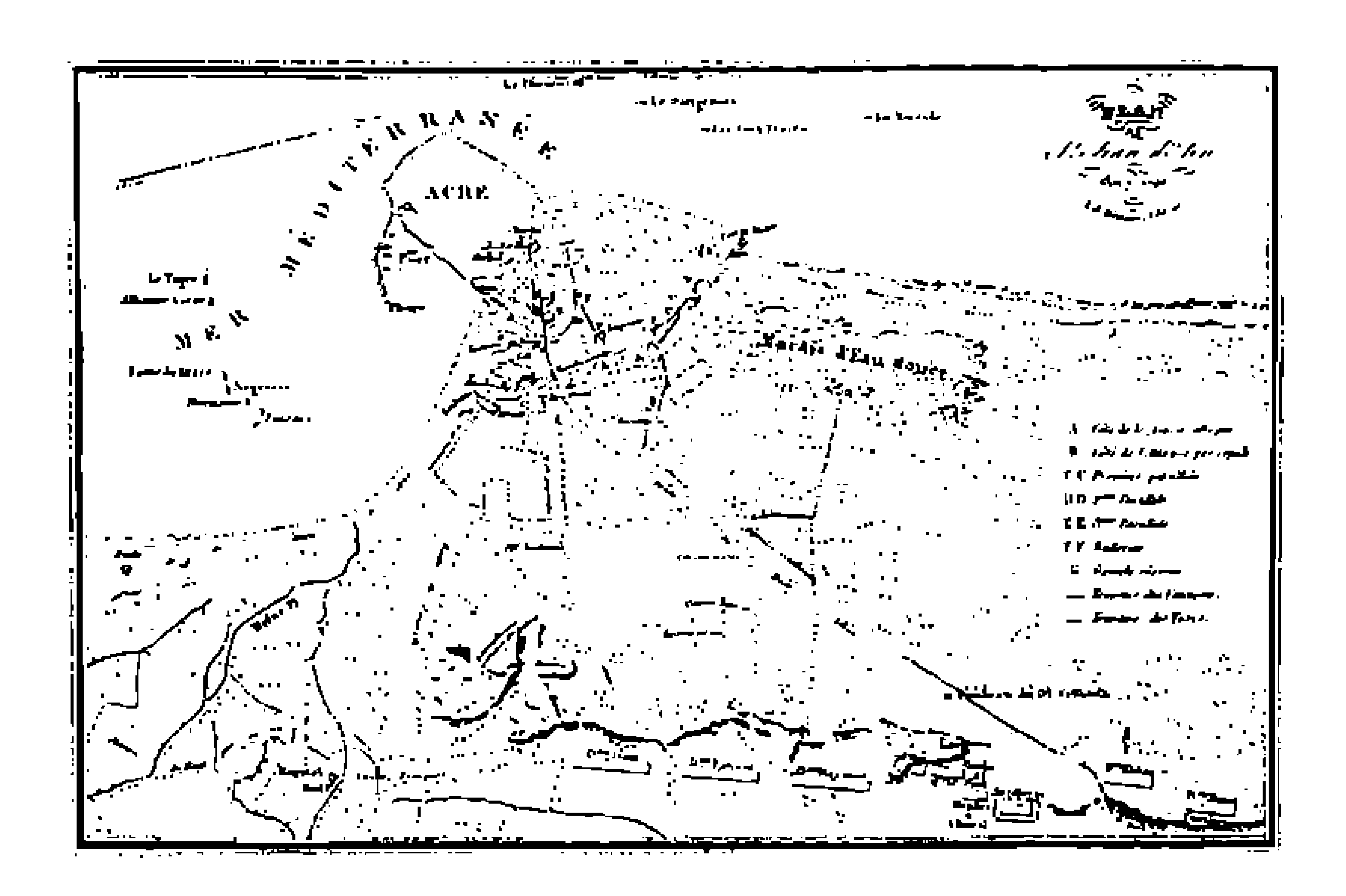
٤٢ - بونابارت يتفقد عيون موسى.



٤٤ – معركة جبل طابور.



٤٥ – بونابارت أمام أسوار عكا.



٤٦ - خريطة عكا.



٤٧ - (أ) عودة بونابارت إلى القاهرة.



(ب) الانسحاب من سوريا.





٤٨ - القصير.

ويلجأ البعض إلى إقليم حلب وإلى حوران السورية (٤٠). ويستفيد سيدني سميث من الفرصة التي يتيحها أسر اثنين من المسيحيين الذين كانوا ينقلون العرق إلى الفرنسيين لكي يدخل في اتصال مع زعماء الجبل. وفي ١٤ أبريل، يحذرهم من مشاعر بوناپارت الحقيقية:

«مع العرب، يريد بوناپارت التظاهر بأنه مسلم، متفاخرًا بأنه قد هدم الكنائس، وكسر الصلبان وخرب كرسي البابا، ولذا فلا غرابة في أن يعلن عكس ذلك لسكان الجبل، إنه يَعِد دون أن يتمسك بوعوده، وعندما يصل إلى غايته، يتخلى عن كل شفقة.

«أمّا فيما يتعلق بنا، فإننا نتمسك بما نقول، لأننا من أصل كريم وعلى ديانة المسيح، إن سياستنا مخلصة؛ وهي ضد الظالم ومن أجل إغاثة المظلوم [...]

«إننا ننصحكم بعدم الدخول في أية علاقة مع الفرنسيين حتى لا تثيروا ضيق الدول. لا تثقوا بهم على الإطلاق ولوذوا بحمايتنا. ورغبة منا بدافع الصداقة في الدخول في محادثات معكم، فإننا نطلب إليكم أن ترسلوا إلينا رسولا سوف نبلغه مخلصين بكل ما هو في صالحكم ولما فيه خيركم». (٤١)

ويستخدم سيدني سميث السلطات التي منحها له الباب العالي لكي يطمئن الأمير بشير. ويرسل هذا الأخير إلى عكا رسلا مكلفين بالإعداد لمصالحة مع الجزار. ويقدم سميث حمايته لمسيحيي لبنان ويرسل علانية للازم رايت للشفاء من جراحه لدى الأمير بشير (٤٢). والرسالة إلى بشير واضحة: «قبل إرسال رسالتي السابقة، كنت قد تحدثت عنكم مع أخي أحمد باشا الجزار، الذي أود أن تكونوا على علاقة طيبة به. وقد قررنا أن تكون علاقاتنا علاقات صداقة معكم إذا ما أعلنتم عداءكم للفرنسيين. والحال أنني، وقد بينت ذلك، أرى عرض الأمر على الصدر الأعظم وإبلاغه بأنكم حليف لنا والحصول منه على فرمانات تسير في الاتجاه الذي تتمنونه.

«إننا نطلب إليكم أن تكونوا على استعداد مع رجالكم ترقبًا لوصول الصدر الأعظم ومن المناسب نصح السكان المسلمين والمسيحيين على حد سواء بالنأي عن الأمة الملحدة وبالولاء للحكومة العثمانية. فالويل لمن لا يصغون إليكم؛ إننا نعتبر أمتكم أمتنا وأوامركم أوامرنا».

والحال أن الأمير بشير، بسماحه بذلك بتدخل الإنجليز لتسوية نزاعه مع الجزار، إنما يدخل للمرة الأولى الدول الأوروبية في السياسة اللبنانية، وهو واقع سوف يصبح دائمًا...

وكعلامة لا جدال فيها على سيطرة فكرة الانتفاضة الشرقية على ذهن بونابارت، سوف يلجأ نابوليون فى سانت – هيلين إلى تشويه صورة الواقع وسوف يخترع فى مذكراته وجود اتفاق سرى مع الأمير بشير : «لقد كان لمعركة جبل طابور الأثر المرجو منها: إن الدروز والموارنة وسكان سوريا المسيحيين و، بعد عدة أسابيع، مندوبى أرمينيا المسيحيين، قد تدفقوا على المعسكر الفرنسى. وبموجب اتفاق سرى مع الدروز، تم الاتفاق على أن يأخذ القائد العام لحسابه ٦٠٠٠ درزى و ٦٠٠٠ مارونى تحت قيادة ضباطهم، لمشاركة الجيش السورى فى الزحف على دمشق» (٤٣).

وهو يضيف فى مكان آخر أن الاتصالات تمتد أيضاً إلى فارس، وأنها بداية علاقاته مع بلاط طهران (٤٤). والأرجح أنه لم يحدث شيء من ذلك؛ إن رفض الأمير شهاب كان كافياً لإغراق حلمه الشرقى. وسوف تكون لهذه المسألة نتيجة غير متوقعة: فسوف يُعزى إلى بونابارت مشروع إنشاء دولة يهودية فى فلسطين. والواقع أن القائد العام لجيش الشرق لا يبدو أن هذه الفكرة قد راودته فى أى وقت من الأوقات. لكن مناخ نهاية العالم الذى يرافق الثورة الفرنسية قد شجع الحركات الألفية البروتستانتية والحركات الخلاصية اليهودية فى أوروبا. واستناداً إلى بعض النصوص التوراتية، يجرى التنبؤ بتجمع الشعب اليهودى فى الأرض المقدسة. كما أن وجود جيش فرنسى فى فلسطين قد بدا للبعض بداية لتحقق تلك النبوءة. والصحافة الأوروبية، الإنجليزية والفرنسية على حد سواء، سوف تعلن الخبر فى وقت حملة سوريا ذاته (٤٥).

عمل الإنجليز السيكولوجى

يطبق سيدنى سميث خطة عمله التى تتألف من إشعار أبطال الأمة العظمى بأن أفضل ما يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى له حتى يمكنهم العودة إلى أسرهم. وكذلك سوف يصبحون أعداء للسلطة التى قادتهم إلى مثل هذه المغامرة (٤٦). وهو يستفيد من العلاقات التفاوضية لترويج أخباره المدمرة للروح المعنوية عن الوضع الأوروبى ويبدأ فى نقل الأفكار الرئيسية لدعايته: إن حكومة الإدارة قد نفت الجنود عمداً لتوريدهم موارد الهلاك، وإن جيشاً عثمانياً ساحقاً يزحف عليهم لإبادتهم، إلا أنه مازال بالإمكان إنقاذهم.

«إن أولئك الذين يريدون من بينكم، أياً كانت رتبتهم، الإفلات من الخطر الذى

بتهديدهم، يجب عليهم، دون أقل تأخير، إعلان نواياهم لقادة القوات البرية والبحرية للدول المتحالفة، وليكونوا على ثقة من أنهم سوف يجرى إرسالهم إلى الأماكن التي يريدون الذهاب إليها وأنه سوف يجرى تزويدهم بجوازات سفر كي لا يتعرضوا للإزعاج خلال رحلتهم من جانب الدول المتحالفة أو من جانب السفن المسلحة التي تجوب البحر، فليسارعوا من ثم إلى الاستفادة في الوقت المناسب من نوايا الباب العالي الخيرة وليعتبروها فرصة ملائمة للإفلات من الهاوية المرعبة التي جرى دفعهم فيها» [٤٧].

والحال أن كل الإنسانية التي أبداها العميد البحري تجاه الجرحى والأسرى الفرنسيين، يبدو أنها تضمن تنفيذ هذا الوعد المغرى. وفي وجه هذا الخطر، لا يرى بونابارت غير حل واحد، فضح مسلك سيدني سميث علناً. فأمره اليومي الصادر في ١٩ أبريل، على شكل رسالة إلى بيرتييه، يتهم العميد البحري بنقل أسرى فرنسيين على سفينة يوجد الطاعون على متنها، وبالتواطؤ في قتل مسيحيي عكا وبقطع رؤوس جثث الجنود الفرنسيين الذين قتلوا خلال الهجمات. والهدف الفعلى لهذا النص هو منع أى اتصال مع الإنجليز: «بما أن هذا الضابط يرفض من جهة أخرى تنفيذ أى بند من بنود اتفاق التبادل المعقود بين الدولتين، وبما أن أقواله في جميع الاتصالات التي جرت، ومواقفه منذ أن خرج إلى البحر، هي أقوال ومواقف معتوه، فإن مرادى هو أن تصدر الأوامر إلى مختلف قادة السواحل بالتوقف عن أي اتصال مع الأسطول الإنجليزي، الذي يتجول حالياً في هذه البحار» [٤٨].

وهذه الرسالة تصيب العميد البحري في أعمق أعماقه. وهو يعلن استعداده للثأر لشرفه بالسلاح في مبارزة. ومن الواضح أن ذلك غير وارد وتستمر المبارزة الحقيقية المتمثلة في حصار عكا.

الفشل

تشهد الأيام التالية لعودة بونابارت إلى عكا مواصلة أعمال الحصار. ويرسل المحاصرون مقاتلين عسكريين ضد محاولات تلغيم الحصون. وينجحون من الناحية العملية في وقف أعمال الفرنسيين. وعندئذ يقرر بونابارت شن هجوم جديد. ويبدأ التمهيد في ليل ٢٣ أبريل ويشن الهجوم في صباح ٢٤. إنه فشل جديد. فالثغرة تظل دائماً

غير سالكة بينما تتآكل احتياطيات ذخيرة المدفعية تآكلاً ملحوظاً. وفي ٢٧ أبريل، يموت كافاريللي من جرح أصيب به قبل ذلك بعدة أيام. وبعد خسارة فينتور، يعتبر ذلك خسارة فادحة بالنسبة للجيش (٤٩). ويستمر الجمود في الأيام التالية. وأخيراً، تصل مدفعية الحصار في ٣٠ أبريل من يافا. وفي أول مايو، يُمنى هجوم جديد بفشل جديد. وفي اليوم التالي، يموت فيليبو من الإنهاك وضربة الشمس. وفي ٤ مايو، لا يعود هجوم ليلي بشيء جديد أمام مقاومة العثمانيين والإنجليز. وتصبح الخسائر الفرنسية في الضباط ملحوظة.

وفي ٧ مايو، بعد نسف المحاصرين للغم الذي أعده دومارتان، الذي حل محل كافاريللي، يقرر بونابارت شن هجوم شامل. ويؤدي وصول أسطول عثماني تعزيزي إلى اختزال القصف. وهو يحمل فوجاً بأكمله من قوات النظام الجديد التي شكلها سليم الثالث، وهي قوات جديدة دربت تدريباً أوروبياً في السنوات السابقة على أيدي ضباط فرنسيين. ويصبح من اللازم بالنسبة للفرنسيين الاستيلاء على المدينة قبل دخول العثمانيين إلى الميناء. وفي هذه المرة يتغلب الفرنسيون على الخط الخارجي للحصون. ويقاتل سيدني سميث والجزار في الصف الأمامي لرجالهم. ويتبارى العثمانيون والإنجليز في التنافس على القتال. وتتعزز معنويات المدافعين بوصول العثمانيين وذلك بالرغم من نفور سيد هكا من السماح بوجود قوات الباب العالي في عاصمته (٥٠). وفي اليوم التالي، تقود فرقة لان الهجوم. بل إن وحدة تتمكن من الدخول إلى المدينة، لكنها لا تتأخر في الاضطرار إلى التقهقر بخسائر جسيمة. ويصاب الجنرال بجراح ويتم قتل عدة ضباط آخرين.

ويدرك سيدني سميث وبونابارت رهان الهجوم القريب. فالأول، في رسالة وقعت في أيدي الفرنسيين، يكتب: «مما لا شك فيه أن بونابارت سوف يشن هجوماً جديداً، حيث يمكن اجتياز الثغرة من جانب مائة رجل في المرة الواحدة. والحال أن المدينة ليست ولم تك قط قابلة للدفاع عنها وفق قواعد الفن (العسكري)؛ إلا أنه وفقاً للترتيب مختلف تماماً، سوف يتم الدفاع عنها، ليس لأنها تستحق الجهد في حد ذاتها، وإنما لأننا نرى أن بونابارت يريد الزحف إلى فتوحات جديدة عبر هذه الثغرة. وعلى نتيجة هذه المعركة يتوقف رأي حشد المشاهدين على الجبال المجاورة، والذين لا ينتظرون غير وقوع الحدث لكي ينحازوا إلى المنتصر؛ وبمثل تلك التعزيزات المخصصة لتنفيذ مشاريعه المعروفة، فإن القسطنطينية بل وفيينا سوف تحسسان هزات عنيفة» (٥١).

والثاني يدلي بأسرار مماثلة لبوريين: «إذا نجحت، كما أعتقد، فإنني سوف أعثر في المدينة على خزائن الباشا وعلى أسلحة لثلاثمائة ألف رجل. وسوف أثير وأسلح كل سوريا،

التى طالما احتمت على وحشية الجزار، الذى رأيت أن السكان كانوا يدعون بسقوطه إلى الله فى كل هجوم. وسوف أزحف على دمشق وحلب. وسوف أزيد حجم جيشى، فى التقدم عبر البلاد، بجميع الساخطين؛ وسوف أعلن للشعب إلغاء العبودية وحكومات الباشاوات الاستبدادية. وسأصل إلى القسطنطينية على رأس جماهير مسلحة. وأطيح بالإمبراطورية التركية. إننى سوف أؤسس فى الشرق إمبراطورية جديدة وعظمى سوف تخلد مكانتى فى التاريخ، وربما أعود إلى باريس عبر أدرنه أو عبر فيينا، بعد القضاء على بيت النمساء (٥٢).

ولشن هذا الهجوم الأخير، يستدعى بونابارت فرقة كليبر التى ترجع من الجليل. ولدى وصوله، يحتج الألزاسى على الأسلوب الذى فرض به الحصار. فالخسائر جد جسيمة بالنظر إلى التهوين الملئم من قوة عتاد العدو. وبونابارت ليس «غير جنرال يحتاج إلى عشرة آلاف رجل كل يوم». وكليبر، الذى كان حريصاً على دماء جنوده والذى فقد أصدقاء عديدين فى الهجمات المتتالية، لا يستطيع قبول هجرة هذا العذاد (٥٣).

وهو الذى يقود القوات فى ١٠ مايو. ويشهد هجومان متتاليان ومكلفان فى الرجال إلى أن عكا تظل دائماً منيعة بالرغم من الدافعة التى تمكن كليبر من منحها لرجاله. وفى مساء اليوم نفسه، يقرر بونابارت رفع الحصار. فهو يعرف أن القوات منهكة وإنها سوف ترفض القيام بمحاولة جديدة. والطاعون ماثل بشكل دائم منذ الاستيلاء على يافا. وكان ديجينيت، بتطعيمه نفسه بصديد خراج، قد نجح فى التأثير على معنويات الجنود الذين أصبحوا لا يخافون من الداء كثيراً. إلا أنه بالرغم من كل شئ، لا طائل من مواصلة تعريضهم لهذا الخطر.

ويحاول بونابارت معرفة ما إذا كان بوسعه نقل الجرحى والمدفعية بحراً، لكن الأسطول الفرنسى، أمام التفوق الإنجليزى القوى، كان قد آثر الانسحاب والعودة إلى السواحل الفرنسية. واعتباراً من ١٢ مايو، تتعرض عكا لقصف عنيف، هو الوسيلة الوحيدة المتوافرة للتخلص من الذخيرة التى يتعذر نقلها على أية حال. ويتم الجلاء عن الجليل وتركه لأنصار آل الزيدانى. ويدرك هؤلاء الأخيرون أنهم لن يتمكنوا من الصمود فى الساحة ويفضلون السير فى ركاب الجيش الفرنسى.

واعتباراً من ١٥ مايو، يأمر سيدنى سميث بالتوزيع الواسع لبيان الباب العالى الذى يدعو الجنود الفرنسيين إلى الفرار من الخدمة. والحال أن ردة فعل الجيش الأولى تتمثل فى حركة غضب. على أن خيبة الأمل الرهيبة المترتبة على الإقامة فى مصر ومسلك قائده

الذي لم يوفر، في عكا، دماء جنوده، كانا قد زعزعا معنويات الجيش بدرجة ملحوظة. وسوف تقوض الوعود الإنجليزية، بلا ضجيج، عزم الجنود. وفي ١٧ مايو، يعلن بونابارت للجيش إنهاء الحصار. وهو يتستر على فشله بادعاء أنه قد تم القضاء على أي تهديد لمصر من فلسطين؛ وأنه لابد من العودة إلى مصر لمواجهة موسم عمليات الإنزال الذي كان قد بدأ مع نهاية الربيع. والواقع أن عين خطر إنزال عثماني إنما يعتبر - بشكل واضح - دليلا على أن القدرة العسكرية للعدو لم تصب بسوء، ثم إن الجيش العثماني الجرار - الذي يتشكل منذ السنة السابقة - لم يصل بعد إلى سوريا. وباستثناء وحدة قوات النظام الجديد، فإن بونابارت لم يواجه غير القوات المحلية. واعتبارا من اللحظة التي لا ينشب فيها التمرد الكبير، فإن وضعه إنما يصبح مكشوفا أكثر فأكثر، أكان ذلك في مصر أم في سوريا. وهو يدرك ذلك، ويتعين عليه التحدث عنه بكلمات ملتوية للجيش: «أيها الجنود، إن أمامنا مسيرة مجابهة مشاق وأخطار؛ وبعد أن نجحت هذه الحملة في حرمان الشرق من القدرة على عمل شيء ضدنا، ربما تعين علينا صد جهود خصم من الغرب. عندئذ ستجدون فرصة جديدة للمجد؛ وإذا ما تميز كل يوم، وسط كل تلك المعارك، بمصرع مقاتل جسور، فلابد أن ينهض مقاتلون جسورون جديدون ويأخذوا مكانهم بدورهم وسط تلك العدد الصغير الذي يهب الحمية وسط الأخطار ويمسك بناصية النصر» (٥٤).

وهو يصدر الأمر بتدمير الذخيرة والمدافع التي يتعذر نقلها. ولما لم يك لديه أي مبرر لتوفير الذخيرة، فإن قصف عكا يتواصل بعنف، الأمر الذي يعود بفائدة إضافية تتمثل في الإيحاء بهجوم وشيك. وفي ليلة ٢٠ - ٢١ مايو، يطوي الجيش الخيام ويتجه صوب الجنوب. ومنذ الوصول إلى حيفا، تثور مشكلة المصابين بالطاعون. لكن الجيش لا يملك مستوصفات نقالة ومخاطر العدوى شديدة (في عصر لا دراية فيه بآلياتها الحقيقية) بحيث أنه يجري البدء في ترك المرضى. ويندفع سيدني سميث إلى مؤخرات الجيش الفرنسي لالتقاط الرجال المتروكين. وهو يهدف إلى نقلهم إلى دمياط ليصبحوا دعاة متحمسين له(٥٥).

الانسحاب

يضحي الفرنسيون بالجزء الأكبر من المدافع ويكرسون جميع وسائل النقل للجرحى والمرضى؛ أما بقية الجيش، بمن في ذلك القائد العام - بشكل لافت للأنظار - فإنهم يسيرون على الأقدام. ويبدأ النابلسيون والبدو في ملاحقة الجيش، لكن الجزار مع

قواته يفضلون البقاء في عكا، الأمر الذي ينقذ الفرنسيين من كارثة قريبة من كارثة الانسحاب عن روسيا في عام ١٨١٢. ويرصد كليبر في يومياته مشاهد الهجر والتخلي: «يوقف عريف من الكتيبة ٢٥ مصاباً بالطاعون متروكاً على الطريق، ويقطع زناره. ويتوسل إليه المريض أن يترك له الليرات الأربعة الذهبية التي يحتويها الزنار «إنني لو قدمتها إلى عربي، فلربما أبقى على حياتي» ويرد عليه العريف «إنك تخدع نفسك، دع لي على الأقل هذا الأمل». ويصل كيرنر ويأمره برد الزنار. [...] وينادي أحدُ رماة الكتيبة ١٩، وهو مصاب بالطاعون، أحد رفاقه ويتوسل إليه أن ينهي حياته. وفي ثبات وحزم، يقدم رفيقه إليه هذه الخدمة» (٥٦).

وفي ٢٤ مايو، يتجمع الجيش من جديد في يافا. وبعد إعادة تنظيم لترتيب السير، يستأنف الانسحاب في ٢٦ و ٢٧ مايو. وتثور من جديد مشكلة الجرحى والمرضى الذين يتعذر نقلهم. وهذه المرة، وبالرغم من احتجاجات ديجينيت، يأمر بونابارت بتوزيع الأفيون عليهم. وكان قد رفض طلب مساعدة العميد البحري سيدني سميث. ولا يزيد عدد الهالكين عن ثلاثين؛ لكن الدعاية الإنجليزية والأسطورة النابليونية السوداء قد ضخمت من عددهم بشكل ملحوظ (٥٧). وسوف يصل سيدني سميث إلى يافا في ٣٠ مايو وينقذ سبعة من الضحايا الذين نجوا من الأفيون (٥٨).

ويقود كليبر المؤخرة ويحصل على أمر بتخريب فلسطين. ويتعين عليه تدمير المحاصيل وتطبيق سياسة الأرض المحروقة وراءه (٥٩). وفي ظل الإمبراطورية، سوف يبرر نابليون ذلك العمل أمام شابتال كما سوف يبرر بوجه عام كل عملية تخريب: «أذكر أنني سمعته مرة يشيد بموهبة ويلينجتون العسكرية عند انسحابه إلى لشبونة، الذي نفذه أمام ماسينا؛ لقد دمر هذا الجنرال كل شيء في طريقه؛ دمر الطواحين، وأحرق المواد الغذائية واقتاد معه السكان والبهائم. وقال الإمبراطور: ذلك رجل مضطر إلى الهرب أمام جيش لا يجرؤ على الصمود في وجهه، لكنه يُوجِدُ صحراء تمتد ثمانين فرسخاً بين العدو وبينه؛ إنه يعوق مسيرته؛ ويضعفه بحرمانات من كل نوع؛ وهو يعرف كيف يدمره دون أن يحاربه. وليس هناك في أوروبا من هو قادر على تنفيذ هذه التدابير غير ويلينجتون وأنا. إلا أن هناك ذلك الفارق بينه وبيني، وهو أن فرنسا هذه، التي تعتبر أمة، تلومني، بينما تؤيده إنجلترا. إنني لم أك قط حراً إلا في مصر. فهناك أيضاً سمحت لنفسي باتخاذ تدابير مماثلة. لقد دار حديث كثير عن حريق بالاتينات وما زال مؤرخونا التعساء يفترون في هذا

الصدد على لويس الرابع عشر. إن مجد هذا العمل لا يخص البتة ذلك الملك. إنه يخص برمته وزيره لوفوا، وهو، في نظرى، أروع عمل قام به في حياته» (٦٠).

والحال أن مرور الجيش الفرنسى التدميرى سوف يتلوه على نحو مساوق، في السنتين التاليتين، مرور الجيوش العثمانية التدميرى. إن الجزار سوف يعتصم أغلب الوقت بعكا، غير منشغل بعد بالدفاع عن التخوم الصحراوية. وهذا التدهور للنظام العام سوف يولد اقتحاماً ملحوظاً من جانب بدو سيناء والنقب للمناطق الزراعية لجمل فلسطين (٦١). وهكذا فإن نتيجة ما يزيد عن نصف قرن من إعادة الفتح البشرى للسهول الساحلية سوف تجد نفسها الآن بعد عين إلى حد كبير، شأنها في ذلك شأن النمو الديموغرافى الذى واكبها. والحال أن الفلاحين الفلسطينيين لن ينجحوا إلا في النصف الثانى من القرن التاسع عشر في معاودة الاستقرار في الأراضى المنخفضة، وذلك بفضل استعادة شاملة للنظام العام ترافق العقود الأخيرة للنظام العثمانى. لكن ذلك سوف يكون من أجل مكابدة منافسة للمستوطنين الصهيونيين الذين سوف يجبرون الفلاحين تدريجيا من جديد على الارتداد إلى خط المرتفعات. ومن ثم فإن عواقب تغلغل بونابارت في فلسطين سوف تنيخ بكلكلها بشدة على مستقبل ذلك البلد.

وطبيعى أن اجتياز سيناء في بداية شهر يونيو يعتبر مرهقاً. إن الجنود على حافة التمرد وهم يلعنون قائدهم العام علناً. لكن كليبر، بفضل هيبته الشخصية وشعبيته المتزايدة، وبرغم أنه ليس بعيداً عن مشاطرة رأى الجنود، ينجح دون قمع في منع التمردات الوليدة (٦٢). ويترك بونابارت قوة جبارة من الجنود في العريش التى سوف تصبح الموقع الأمامى الذى يحمى مصر التى يعيد إليها بقية الجيش. وقد جعله يستريح في الدلتا قليلا قبل أن ينظم دخولا ظافرا إلى القاهرة، فيما عدا فرقة كليبر التى تحصل على مهمة الدفاع عن شرق الدلتا. ويأمر القائد العام بعقوبات قاسية ضد المهيجين يمكن أن تصل إلى حد الإعدام فوراً إذا ما حدث تحلل للانضباط خلال عملية ضد العدو (٦٣).

وهذه العلامة واضحة الدلالة، لقد فقد ثقة رجاله.

مصـــر خـــلال حملة سوريا

تحول مينو إلى اعتناق الإسلام

كانت خطة الإنجليز الأولى تتمثل فى قصف الإسكندرية، على أن يتلوه إنزال للقوات العثمانية التى تجمعت فى رودس. وفى اللحظة عينها – التى يبدأ فيها الفرنسيون اجتياز سيناء – يتم تنفيذ الجزء الأول من الخطة. فالهجوم الإنجليزى يبدأ فى ٣ فبراير ١٧٩٩ ويستمر لثلاثة أسابيع مع انقطاعات ترجع إلى حالة البحر، لكن الفشل تام بسبب رسوخ التحصينات التى أقامها الفرنسيون فى الشهور السابقة؛ فالبطاريات التى نصبها مارمون، المنبثق من صفوف سلاح المدفعية، ترغم السفن الإنجليزية على التزام البعد إلى مسافة معتبرة. وضحايا الهجمات الإنجليزية أقل من ضحايا الطاعون الذى يواصل بلاياه خلال تلك الفترة. وهذه الهجمات مصحوبة بعدد من انتفاضات الفلاحين والبدو المعهودة. وتخرج الطوابير الفرنسية فورا لقمع هذه الحركات التى لا تتميز بأهمية كبيرة (٦٤). ويدرك سيدنى سميث، الذى تولى قيادة الوحدة البحرية الإنجليزية فى ٣ مارس، أن مسرح العمليات الحقيقى هو فلسطين ويقلع فى وقت مناسب بما يكفى للاستيلاء على المدافع الفرنسية المنقولة بحرا. وهكذا يفقد الاتصال مع الوحدات العثمانية التى لن تصل إلى عكا إلا متأخرة.

والحال أن الهجوم الإنجليزى لم يزعج قلة الفرنسيين الباقين فى مصر. ومينو، الذى كلفه بونابارت بقيادة البلاد مع تركه قيادة غرب الدلتا لمارمون، يستفيد من وجود سفن العدو لكى يبقى فى رشيد. وهو يكثف التدخلات والنصائح الطيبة الموجهة إلى أعيان المدينة (٦٥). أمّا دوجا، الذى يمارس النيابة فى القاهرة، فإنه يحتفظ بمنصبه. ويتضح السبب العميق لتخلف مينو عندما يجرى إعلان نبأ تحوله إلى اعتناق الإسلام وزواجه من مصرية تنتسب إلى الرسول، وهذه الزيجات من مسلمات ليست نادرة، فالعسكريون الفرنسيون يعيشون فى عزوبة اضطرارية والبعض لا يكتفون بالمومسات اللاتى تلاحقهن السلطات، بسبب الأمراض التناسلية. وحتى تتم الزيجات، يتوجب التحول إلى اعتناق الإسلام، ويحتج الجبرتى من جهة أخرى على هذه الأعمال غير النزيهة، لكن دوافع مينو بالدرجة الأولى دوافع سياسية. وهو يشير بذلك إلى تعلقه بفكرة إنشاء مستعمرة

مؤسسة على التقارب بين الفرنسيين والمصريين، بما يتطابق مع فكرة بونابارت العميقة.
وهو نفسه، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من جيله ومن وسطه، يتبنى نزعة تأليهية (تسلم بوجود الله وتنكر الرسالات والبعث)، تقوده إلى النظر إلى الإسلام بتعاطف. وسوف يمارس من جهة أخرى بعض طقوس العبادة. ويبدو أنه، فى فترته المصرية على الأقل، كان يكن حباً حقيقياً لمسلميته التى سوف تنجب له ولداً (٦٦). وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن هذا التحول إلى اعتناق الإسلام سوف يجر على الجنرال الفرنسى كثيراً من التهكمات من جانب رفاقه فى السلاح، الذين لا يحترمونه احتراماً كبيراً بالفعل.

وهذا التخلف الجديد يقود بونابارت إلى تثبيت مينو فى مناصبه كحاكم لمصر. وسوف يبدو هذا الأخير سياسياً ماهراً وإدارياً حكيماً فى ظروف سوف تصبح صعبة أكثر فأكثر. أما مينو، فهو يحصل على إدارة فلسطين التى جرى البدء فى فتحها. ومن جديد، يزيد من تخلفاته (٦٧) ولن يكون على وشك اجتياز سيناء إلاّ فى لحظة عودة الجيش. وسوف يواصل بونابارت إبداء تسامح غير عادى مع هذا الجنرال الذى لم يصل إلى موقع مسئوليته مرتين متتاليتين.

دوجـــا

تبدأ إدارة دوجا فى أفضل الظروف. فقد تطابق رحيل الجيش مع بداية رمضان، فاختزال عدد الفرنسيين يُدخل الطمأنينة على صدور سكان القاهرة الذين يمكنهم أن يواصلوا الحياة الليلية الحافلة لشهر الصوم هذا، فالاحتفالات الدينية شأنها فى ذلك شأن لقاءات الأسر والأصدقاء تتم كما لو كان ذلك فى زمن سلم، ويشجع على هذا المناخ الطيب انخفاض للأسعار فيما عدا أسعار السلع المستوردة. ويشارك الفرنسيون فى مآدب الإفطار بل ويعدونها لأجل مدعويهم المصريين (٦٨). وتتميز نهاية تلك الفترة بتبادلات للمجاملات بين الضباط الفرنسيين والأعيان. وتتميز فترة غياب بونابارت بوصول بلاغات تتحدث عن انتصارات الجيوش الفرنسية فى سوريا وفى مصر. ويتحسن أسلوبها العربى تحسناً ملحوظاً منذ تكليف الشيخ المهدى بإعادة تحرير ترجمات الترجمانات (٦٩).

ومن المؤكد أنه تثور عدة حوادث بين المسيحيين والمسلمين لكن الفرنسيين يحكمون لصالح هؤلاء الأخيرين ويجبرون الأوائل على احترام قواعد مراعاة الشعور العام

المفروضة عليهم تقليدياً خلال شهر رمضان. أما الأعمال الهمجية أو التعديات التى يرتكبها الجنود الفرنسيون فإنهم يلقون عنها عقاباً قاسياً ويجرى دفع تعويضات لضحاياها (٧٠).
وفى الأرياف، تستمر زعزعة استقرار الموقف من جراء غارات البدو فى غربى الدلتا ومن جـراء الفتن الفلاحية فـى الشـرق، والـراجعة إلى سـوء إدارة قـائد الكتيبة سـوهيه فـى الصالحية، وإلى رحيل الحاميات الفرنسية عن إقليم المنصورة والذى يؤثر على استعادة النظام هناك، وأخيراً فى مصر الوسطى من جراء هبوط للمماليك الذين أفلتوا من مطاردة ديزيه (٧١). والحال أن الطوابير الفرنسية المتحركة، بالرغم من ضعفها من حيث الفرسان والناشئ عن عمليات سحب الفرسان للعمل فى سوريا ومصر العليا، تبدو مؤثرة فى مجال القمع. وحتى أواخر مارس ١٧٩٩، يمكن لدوجا من ثم أن يرى أنه لا يواجه مشكلات كبرى.

تمرد أمير الحج

فى النصف الثانى لمارس ١٧٩٩، يأخذ الموقف فى التدهور، ويرجع ذلك أولا إلى مشكلة أمير الحج. وكان بونابارت قد عين فى هذا المنصب أهم موظف عثمانى بقى فى مصر، وكان هذا الأخير قد تعاون فى البداية تعاوناً سافراً مع الفرنسيين، غير متردد فى الاحتفاظ بعلاقات شخصية معهم (٧٢). وكان بونابارت قد أمره باللحاق به فى سوريا مع عدد من مشايخ ديوان القاهرة سعياً إلى ضرب مثل طيب للسكان المحليين. وبدلا من اجتياز سيناء، يكثف الأمير الذرائع للبقاء فى شرق الدلتا الذى تسوده القلاقل بالفعل، بينما يبحث المشايخ الذين يصحبونه عن كل المبررات الممكنة للعودة إلى القاهرة. ويثير هذا الموقف ريبة دوجا، الذى يأمره بالمثول فوراً أمام القائد العام. وهذا القرار مبرر لأن الفرنسيين يعلمون أن الأمير يدعو بشكل سافر إلى التمرد وأن أنصاره قد شنوا للتو هجوماً على طابور فرنسى. ويأمر دوجا بالقبض على أفراد بيته فى القاهرة ويبلغ الأمير بأنه لن يجرى إطلاق سراحهم إلا عندما يصل إلى سوريا (خلال النزاعات بين المماليك، لم يك يتم الهجوم على العائلات عموماً). وهو يرسل على الفور طابوراً متحركاً ضده وضد أنصاره. وفى العاصمة، تروج الشائعات عن عمل مشترك بين المماليك والبدو والأمير، لكن أعضاء الديوان الرئيسيين يتحركون لحفظ النظام، وفى مسألة أمير الحج، أحسن المشايخ

البكرى والشرقاوى والمهدى وكل الديوان التصرف تماماً؛ وقد لكنوا لى على هدوء القاهرة وعلى عجز الأمير عن أن يسبب فيها أبسط متاعب، حتى وإن كان على رأس قواته» (٧٣).

وينشط المهدى التعاون مع الفرنسيين وينشغل باعتراض سبيل جميع محاولات التمرد المصرى. وبسرعة بالغة، يجرى تبديد شمل جماعات الأمير ويهرب هذا الأخير إلى سوريا مع تظاهره أمام الفرنسيين بولائه (٧٤). ولا يوجه نوجا اتهامات إلى الشيخ الفيومى الذى، خلافاً للمشايخ الآخرين، بقى مع الأمير بينما كان تمرده واضحاً، لكنه يؤكد أنه عندما «أراد أن يجد لعذراً لهذا الخائن، قلت له: «إننى أعرف خيراً منك ما كان يجرى فى معسكر الأمير طوال الفترة التى كنت فيها هناك، إنهم لم يقولوا لك كل ما كانوا يريدون، وقد هشوك بوجه خاص، لأنه دون ذلك ما كان لك أن تتبع الأمير وأنت الذى أبديت دائماً براهين ولائك للفرنسيين. لا تحاول تبرئته، إنك لن تفلح فى ذلك. انس الوقت الذى قضيته معه، وارجع إلى مسلكك السابق وسوف تجد منى الأمن والثقة اللذين منحك إياهما القائد العام». وقد أقسم برأسه بأن يقطع كل اتصال مع الأمير، وأمرت بمراقبة مدى تمسكه بقسمه» (٧٥).

وكان يمكن لهذا الحادث أن يكون أكثر خطورة مما يوحى به فشله الذى يدعو إلى الرثاء. وهو يشكل إنذاراً لبونابارت: «إنكم سوف ترون [...] أن رجلا يتمكن من حشد للماليك المبعثرين، والعرب الأعداء، والساخطين، ويعطى لحركاتهم شيئاً من الوحدة، يمكن أن يراوده الأمل الذى يستند إلى أسس واقعية فى إلحاق أذى كبير بنا فى حالة الضعف التى نمر بها. وأنا على ثقة من أنكم قد فكرتم فى ذلك، حتى قبل رحيلكم، وإن توسلاتى لم تك مجدية فى حثكم على العودة بسرعة؛ لكن بإمكانى الإمساك عن قول إننى أرغب فى ذلك بحرارة» (٧٦).

وقف الحج

يصيره حادث الأمير إلى رحيل قافلة الحج الذى اعتمد عليه بونابارت كثيراً بالنسبة لسياسته الإسلامية. وكان القائد العام قد أمر بوجه خاص بإعداد كسوة رائعة، هى الكسوة التى تقدمها مصر بشكل تقليدى لكساء كعبة مكة. ويهتم سكان القاهرة بمصير هذه الهدية. ولا يوافق نوجا على رحيل القافلة براً ويعلن أن الكسوة سوف يتم إرسالها بحراً،

الأمر الذى يسمح له بكسب الوقت. وهو يأمر بنشر ذلك الخبر عبر قافلة أفريقيا الشمالية التى تمر دون حوادث كبرى بالقاهرة، وذلك بالرغم من عدد من انزعاجات المسئولين الفرنسيين. ويتوجب على المصريين الراغبين فى الذهاب إلى المدينتين المقدستين أن يسافروا من السويس (٧٧). والواقع أن شريف مكة كان قد تجاوب مع عروض الفرنسيين وأبدى استعداده لأن يكون وسيطاً فى التراسل مع تيبو صاحب (٧٨). وقد أرسل عدداً من المراكب الشراعية المحملة بالبن إلى السويس، طالباً إعفاءها من الرسوم الجمركية (٧٩)، وذلك بسبب الضرائب التى حصلتها الدورية البحرية الإنجليزية التى سمحت للمجازيين بمواصلة رحلتهم. ويؤدى الوجود البحرى الإنجليزى إلى دفع الشريف إلى الحد من اتصالاته مع الفرنسيين. وفى نهاية الأمر لا يتسنى للكسوة مغادرة السويس و، لأول مرة منذ الفتح العثمانى، لا يجرى احترام هذه العادة التى يتمسك بها المصريون تمسكاً شديداً(٨٠).

المماليك الأسرى

كما يهتم الديوان بمصير المماليك الذين تم أسرهم فى سوريا وفى مصر. وهو يتوسط لمصلحة الزعماء الذين لا يحتملون، بوجه عام، مهانة الهزيمة والأسر. ولما كانوا محطمين معنوياً، فإنه يجرى الاكتفاء بممارسة مراقبة خفيفة عليهم. وفى المقابل، يثير المماليك الشبان مشكلة حرجة. وكان الفرنسيون يريدون دمجهم فى الجيش، لكن الدمج يبدو مستحيلاً من الناحية العملية. أما تشكيل وحدات خاصة بهم، فهو يشكل خطراً غير مقبول. ويقترح دوجا على بونابارت بداية حل: «بينهم كثيرون من المسيحيين يرغبون فى العودة إلى ذلك الدين، أفليس بالإمكان تشكيل وحدة أو عدة وحدات منهم ثم إلحاقها بأفواج مختلفة؟ ربما كانت تلك هى الوسيلة لاجتذاب عدد أكبر من هؤلاء الأشخاص حيث يتسنى لهم أن يروا أن رفاقهم يتمتعون بحياة تحرك لديهم الأمل فى الحصول على مثيل لها هم أنفسهم بدلاً من أن يجدوا أنفسهم، كما هو حالهم إلى الآن، فى شقاء». (٨١)

ثم إن عدداً كبيراً من المماليك الشبان يحيون بهذه الدرجة أو تلك من الحرية فى القاهرة ويهددون بإثارة الفتن فيها. وينضم إليهم عدد من المجازيين الذين فروا من مصر العليا. والديوان نفسه يطلب فرض حمل أوراق تحقيق الشخصية للسيطرة على هذه

الجملة الخطرة. لكن للمشايخ أنفسهم، بشكل متناقض، يؤيدون عندهم عدداً من المماليك غير المسجلين فى الشرطة وغير الحاصلين على عفو. وتلك هى حالة الشيخ البكرى الذى يرجو بذلك أن يتمكن، فى حالة انقلاب الوضع السياسى، من أن يثبت أنه قد مارس لعبة مزدوجة. والحال أن الفرنسيين، غير الغافلين، يقدمون إليه ملاحظات ملحة (٨٢).

تورط الديوان

فى الفترة نفسها، يصطدم دوجا بالديوان فى مجال يعتبره هذا الأخير أساسياً: حماية النساء المسلمات. والقصة، الكاشفة بما يكفى للعلاقات بين الفرنسيين والمصريين، تستحق إيرادها من خلال رواية دوجا لها (وذلك بقدر ما أن الجبرتى لا يذكرها).

«إن محظية اسمها خديجة، كانت تخص سليمان كاشف البواب، قد جرت الوشاية بها لدى قائد الموقع على أنها تخبئ نوعاً من مكان مشبوه، ولم تك هذه المرأة تحوز صك حصانة كان قد منح لها منذ وقت بعيد ولم تبرزه، وغداة اقتيادها إلى قائد الموقع، مع جاريتين أخريين، يوم ٢ مساءً [كذا]، أخذت تصيح عبر نافذة، يوم ٣، عندما دخل الجنود عندها لأخذ الأعلام: «أيها المسلمون، أخرجونى من هنا، إنهم يغتصبوننى». ولم ينبهه أحد من دار الجنرال إلى هذه الصيحة، ولم ينتبه أحد إليها. لكن هذا الكلام تكرر وشكا رجال ونساء إلى الديوان من أن محارم النساء قد انتهكت وأنهن لم يعدن فى أمن. وفى يوم ٤، فى جلسة الديوان، قدم الشيخ المهدى عن هذه المسألة، دون التحقيق فيها، تقريراً ساخناً، نبهنى إليه المواطن فورييه، وفاجأنى بقدر ما أننى لم أسمعه يتحدث عن شىء، أنا الذى كنت قد دعوت جميع المشايخ فى الليلة السابقة إلى تناول العشاء عندى حيث مر كل شىء على ما يرام بالنسبة للجميع. وقد ذهبت فوراً إلى دار قائد الموقع لأتعرف هناك على هذه المسألة. ووجدت هناك الشيخ المهدى والمواطن بادوف. وطلبت إحضار الجارية وحققت معها وجعلت الشيخ يحقق معها. وقد تبين من إجاباتها أنها كانت لها تعاملات كثيرة مع الفرنسيين منذ إقامتهم فى مصر بحيث أنها كانت تفهم كل ما نقوله وترد عليه بالعربية قبل ترجمته، وأقوالها تكفى لإثبات أنها لم تك تدافع عن شرفها، عندما صاحت، بل كانت تريد إطلاق سراحها. وقد انتهزتُ تلك الفرصة لكى أوضح للشيخ المهدى الخطر الذى يكمن فى القيام بتهجمات متعجلة دون التحقيق فى الوقائع، وانعدام حكمته فى عدم تحدثه معى فى مسألة من شأنها التأثير على سكينة المدينة وتقديم ذرائع لذوى النوايا السيئة. وقد

شرحت له هيراركية السلطات العسكرية، وأن سلطتي أعلى من سلطة الجنرال ديستان، وهي فكرة لم يك قد تمكن بعد من استيعابها، وتم الاتفاق على أن يجرى في المستقبل إبلاغي من جانبه ومن جانب المشايخ الآخرين بكل ما من شأنه تعكير السلام الذي يسود التمتع به هنا. وفي المساء، طلبت إعادة خديجة عندي مع جاريتها. وتحدثت إليَّ لأول مرة عن صك الحصانة الموجود عند لقا الأنكشارية. وصرفتها هي وجاريتيها مع الأمر بتزويدهن بسكن يكن آمنات فيه و، لتوفير أسباب عيشها، دبرت الأمر بحيث يمكنها التمتع بعدة قراريط (٨٣) استردتها لقاء مقابل.

اويوجد في هذه المسألة كلها تعجل في إلقاء القبض على نساء صدر لهن صك حصانة واستهتار بتركهن يصحن، وخبث من جانب خديجة واشتهاء من جانب المشايخ إلى إزعاج ذلك الموقع إذا ما أتيحت الفرصة الملائمة (٨٤).

وتنشأ مسألة ذات طابع مماثل عندما يتم التوصل إلى اكتشاف مدفعين بمسلطة عند محظية سابقة أخرى لأحد المماليك، هي الست جولسانه. ومن سوء حظ ديستان أنه يأمر بالمتجازها في دارها، الأمر الذي يستثير تدخلاً جنبياً من جانب الديوان. وينصح بومبليج بنقل المرأة إلى بيت أحد الأعيان ويختار دوجا الشيخ البكري (٨٥).

وعلى الرغم من أن دوجا قد اصطدم بحساسية أعضاء الديوان حول هذه المسألة، فإنه يتولى حماية مصالحهم المادية. وهكذا، فإنه يتدخل لمصلحة الشيخ السرسي، اصديق الفرنسيين، ويجمع إيرادات التزاماته التي يرفض الفلاحون دفعها (٨٦). ويبدو من الواضح أن الفلاحين لا يحترمون بعد الواجبات نحو الالتزامات الأخيرة. والواقع أن جباية الضرائب تتم مباشرة على أيدي الفرنسيين وإدارتهم الضريبية. وبوجه عام، فإن السلطات الجديدة في الساحة ترى أن مطالب الملتزمين جائرة، ويحظرون، في أغلب الأحوال، كل نقل للحيازة إلى ملتزمي الضرائب السابقين (٨٧).

والديوان أيضاً أداة نافعة لتنظيم الوقاية من الطاعون، الذي يظل دائماً في موانئ البلدنا وفي سوريا خاصة، خلال الأشهر الأولى من عام ١٧٩٩. ويتعين منع الوباء، عن طريق تدابير حجر صحي فعالة، من الوصول إلى العاصمة. كما يتعين على الديوان إبلاغ مجموع السكان بالتعليمات الصحية. وهو مكلف بتنظيم شبكة تحذير من الداء عند مشايخ البلاد. وسعياً إلى تجنب العدوى، يجرى حظر البغاء بالنسبة لجميع فئات السكان(٨٨).

إن فترة النشاط الأنفلس التى تتلو المع تمرد الأمير، هى فترة جد قصيرة، وفى أواخر أبريل، يضطر دوجا إلى مواجهة خطر أكثر أهمية بكثير. وهو خطر حركة مهدية (المهدية)، تعتبر واحدة بين أوائل سلسلة طويلة سوف تميز وادى النيل فى القرن التاسع عشر. والحال أن مغربياً، يدّعى الانتماء إلى العائلة الشريفية فى مراكش، ويقدم نفسه على أنه رسول لله قادر على جعل أنصاره غالبين، ينجح فى إثارة غرب دلتا النيل وخاصة إقليم دمنهور، بؤرة المقاومة منذ بداية الاحتلال الفرنسى. ومنذ البداية تصور المصادر الفرنسية الرجل على أنه «مشعوذ بربرى [...] يعتبر نفسه قائداً لأولاد على، القبيلة العربية التى تسكن الآن مريوط. وهو يزعم امتلاك سر استخلاص الذهب من أى شىء يضع يديه عليه، والقدرة على شل الرصاصات والقنابل التى تطلق عليه وعلى جماعته والقدرة على إبقاء القنابل معلقة فى الهواء» (٨٩).

والأقل انتماءً إلى عالم السحر، هو هجومه المفاجئ على دمنهور فى ليلة ٢٤ – ٢٥ أبريل ١٧٩٩. إن الحامية الفرنسية، التى تتألف مما يزيد قليلا عن مائة رجل، تُباد عن آخرها. وعندئذ ينضم آلاف من الفلاحين إلى الحركة، وبعد معركة قصيرة يموت فيها إبراهيم الشوربجى (٩٠)، تنسحب القوات الفرنسية التى كانت قد جاءت لمساعدة حامية دمنهور. ويطلب مارمون بشكل فورى إرسال تعزيزات تعتبر ملحة بقدر ما أنه يخشى من هجوم بحرى إنجليزى ومن وصول جيش مغربى أبلغه مرشدوه بسيره فى الصحراء، فى اتجاه الإسكندرية. ويصبح الوضع أكثر إزعاجاً أيضاً لدوجا لأن مساعد مراد بك، محمد بك الألفى، الذى جاء من مصر الوسطى مع قوة من المماليك، ينجح، فى اللحظة نفسها، فى الالتفاف حول القاهرة لكى يعيث فساداً فى شرق الدلتا بينما يقوم الأسطول الإنجليزى بمظاهرة بحرية أمام السويس.

لكن رد الفرنسيين سريع. إن دافو ينجح فى تعقب الألفى وفى تشتيت شمل قواته بينما يجرى إرسال تعزيزات إلى السويس. وبوجه خاص، يجرى توجيه المجهود الحربى إلى دمنهور حيث يمارس طابور متحرك تحت قيادة لانوس أعمالا انتقامية رهيبة فى ٩ مايو ١٧٩٩. «إن الجندى يأخذ ثأره من مدينة دمنهور ومن سكانها. ففى البداية، جرى قتل ٢٠٠ أو ٣٠٠ من هؤلاء السكان على مشارف المدينة وهم يلوذون بالفرار؛ وبعد ذلك، أبيحتْ

هذه المدينة الشائنة المسلك لأعمال النهب والقتل. إن دمنهور لم يعد لها وجود، وقد تم إحراق ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من سكانها أو إعدامهم رمياً بالرصاص.» (٩١).

وتؤدي قوة القمع وعجز المهدي إلى دفع الفلاحين إلى التخلي عن قضيته. ويعيد هذا الرجل تجميع أنصاره الآخرين ويندفع إلى الدلتا على أمل الارتباط بقوات الألفي المملوكية. لكن لانوس الذي يخرج لمطاردته، يشتت بشكل حاسم قوات المهدي في ٤ يونيو ١٧٩٩ في كفر دجوم. وعلى الرغم من أن المهدي يشار إليه على أنه لم يمت، فإنه يختفي بعض الوقت من المصادر الفرنسية المعاصرة. ويزعم نابوليون في سانت - هيلين أن المهدي قد مات خلال معركة دمنهور: «كانت جثة الملاك المهدي نفسه بين جثث القتلى، على الرغم من أن أشياعه قد زعموا لوقت طويل أنه حي وأنه سوف يظهر عندما يحين الوقت لذلك. إن للمصريين، في جميع الأزمنة، كان من السهل تحريكهم باسم المعبود، أكان الحديث يدور عن العجل أبيس أم عن أوزوريس أم عن محمد» (٩٢).

وهذه الرواية للأحداث جد مماثلة لرواية الحكاية الشرقية، «القناع النبي» التي كتبها في ١٧٨٨ - ١٧٨٩ والتي يثير فيها البطل الجمهور عبر تكثيف الحيل والدجل. ففي تلك الحكاية، نجد أن النبي الزائف «يعتمد أكثر من ذي قبل على هذيان الشعوب، عندما تؤدي خسارة معركة إلى تخريب أعماله واختزال أنصاره وإضعاف إيمانهم». عندئذ لا يبقى له غير الإمكانية الوحيدة في أن يموت متخذاً الاستعدادات لكي لا يتم العثور على جثته حتى يسود الاعتقاد بأنه قد رفع إلى السماء وبأنه سوف يعود (٩٣). وهنا، حقق بوناپارت لقاءً غريباً مع أساطير شبابه التي ربما تكون قد جسدت، بشكل أفضل منه، وهمه الشرقي.

والحال أن وجود إبراهيم الشوربجي وأولاد علي ودور المغاربة في هذه المسألة إنما يذكران على نحو غريب بأعمال عبد الله بلقس في السنة السابقة في الإقليم نفسه. فهل كان المهدي والممثل السابق لمراد بك في الإسكندرية شخصاً واحداً؟ إن أي مصدر مباشر لا يشير إلى ذلك بشكل واضح. فالفرنسيون لم يقوموا بالمقارنة والجبرتي ونقولا الترك كانا لا يكادان يبرحان القاهرة بحيث يتعذر عليهما تقديم تفصيلات محددة. لكن نصاً غريباً لسيدني سميث، يتصل بمحاولاته الرامية إلى الاتصال بمراد بك في عام ١٨٠١، يشير إلى مصرع عبد الله بلقس في تاريخ غير محدد، على أيدي الفرنسيين، وهي معلومة يؤكدها مصدر فرنسي (٩٤). وفي المقابل، يشير الجبرتي ومصادر أخرى إلى أن أحد محركي تمرد القاهرة الثاني ليس أحداً آخر غير قائد تمرد البحيرة في السنة السابقة (٩٥). ويبدو من

الواضح أن المهدى وعبد الله باشى شخصان مختلفان؛ حيث لقى الأول مصرعه الثانى فى معركة دمنهور.

وخلال عيد الأضحى الإسلامى الكبير، فى ١٥ مايو ١٧٩٩، أثار حريق عظيم اهتمام دوجا. وتم اغتيال فرنسى فى حى الإفرنج. ويسمح تحقيق تـ وبنشاط مساعدو الشرطة اليونانيون، بإلقاء القبض على الجانى. وهو مملوك العشرين من عمره تصرف بمفرده بدافع من حماسة العيد الدينية. لكن هذا الـ يخشى الفرنسيون من أن يروا فيه بداية لانتفاضة بينما يخشى القاهريون من أ بداية لقمع شديد، يتضح أنه ليس غير عمل معزول بلا عواقب جسيمة، الأمر الجميع (٩٦).

تشاؤم دوجا

إن تجربة إدارة مصر فى هذه الظروف الصعبة قد جعلت دوجا متشائماً إ بمستقبل الوجود الفرنسى على الرغم من نجاحاته. وهو يطلب بإلحاح من العودة من سوريا مع جيشه. وهذه المعلومات هى أحد دوافع رفع حصار عكا. ا المؤلف، الذى هزه مصرع أصدقاء عديدين فى سوريا ومصر العليا، يرى بشكل الفرنسيين يندفعون صوب الفشل: «إننا نفتقر هنا [...] إلى المال والمال والمال، و الذخيرة والخشب والسلاح وصداقة السكان. فهل سوف تعالج عودة الجيش كل ذلك؟ إننى أتمنى ذلك من كل قلبى، لكننى أعترف لك أننى انتظر بنفاد صبر ا المأساة التى تذهب كل يوم بأرواح بعض أبطالها الرئيسيين [...] إننا نفقد يوم بأكان بالسلاح أم بالأمراض ونحن لا ندرى كيف يمكن أن يأتينا أناس من فر، يمكن تجنيدهم من هذا البلد، باستثناء عدد غير كبير من اليونانيين، لن يكونوا إ يمكن الاعتماد عليهم» (٩٧).

وليس بوسع دوجا أن يدرك أن الحركات التى مست البلدنا خلال ربيع ١٧٩٩ حركات بهذا الاتساع. وباستثناء إقليم دمنهور، فإن الفلاحين لم يشاركوا فى هذ التى حشدت أساساً عدداً من البدو والمغاربة والمماليك. وقد وجهت المعارك ضربة . إلى البدو الذين يترددون الآن فى محاربة النظام الفرنسى والذين يقبلون بشكل

معاهدات الصلح المعروضة عليهم. وكان مشايخ البلاد، فى غالبيتهم، مخلصين للنظام الجديد الذى عاد عليهم بالأمن وبتحرر معين فيما يتعلق بهياكل الالتزام. ومن ثم فإن السيطرة الفرنسية تمر بعدة مراحل: فتح سريع تتلوه انتفاضات جد عنيفة ثم تأسيس نظام جديد.

مصر العليا

وهذا التطور يوجد من جديد فى مصر العليا، مع قدر من التأخر ومع التعقيدات الراجعة إلى وجود المماليك الدائم.

وفى بداية شهر فبراير ١٧٩٩، يدرك ديزيه أنه، فى مطاردته لمراد بك حتى النوبة، قد ترك خلفه وحدات من الحجازيين وجماعات مسلحة من المماليك تتحرك بنشاط متزايد. ومنذ ٩ فبراير، يصطدم دافو بعثمان بك فى معركة فرسان عنيفة حيث تعتبر الخسائر شبه متساوية فى الفريقين. وهو ينجح فى طرده إلى الصحراء العربية (٩٨) حيث لا يمكنه مطاردته. وفى ١١ فبراير، فإن الحجازيين هم الذين يهاجمون الحامية الفرنسية فى قنا، ويتم صدهم بخسائر جسيمة، ويقيم ديزيه مركز انتشاره فى قوص لكى يتمكن من التدخل بسرعة فى كل مصر العليا، وذلك بقدر ما أنه يجرى إشعاره بوصول متطوعين جدد من الحجاز. وهو يدرك أنه لن يكون سيداً للمنطقة إلاَّ إذا سيطر على ميناء القصير على البحر الأحمر، وهو الممر الذى لا مفر منه بين مصر العليا وشبه الجزيرة العربية(٩٩).

وفى فبراير، تفشل محاولة لاحتلال ذلك الميناء عن طريق حملة بحرية، تنطلق من السويس، وذلك بسبب مقاومة الحامية وضعف الأسطول الفرنسى الصغير. ولا يمكن تحقيق العملية إلاَّ عن طريق البر، لكن ديزيه، الذى يتعين عليه مواجهة كثيرٍ من الأعداء فى الوادى، لا يستطيع الآن بعثرة قواته. وهو يطلب تعزيزات مهمة، إلاَّ أنه لا يحصل على شيء وذلك بسبب حملة سوريا. ومن ثم فإنه ينشئ تشكيل طوابير متحركة، تتحرك على طول الوادى، مدعومة بأسطول نهرى يحمل المؤن لمطاردة أعدائه الذين يشنون الهجوم انطلاقاً من الصحراء. وهو يحارب بشكل خاص حشود الفلاحين، الذين يتخلى عنهم المماليك والحجازيون، بعد أن دفعوهم إلى الثورة، عندما تشتد قوة الضغط الفرنسى. وفى ٣ مارس، يشن الحجازيون هجوماً ظافراً على أسطول ديزيه الصغير، الذى سمح لنفسه بالابتعاد عن القوات البرية. والحال أن سفينة ليتالى، وهى السفينة الفرنسية الرئيسية، يتم

إصراتها. والخسائر جسيمة، نحو خمسمائة بحار وجندى ناهيك عن المؤن (١٠٠). ومن ٨ إلى ١٠ مارس، يصطدم بيليار، الذى يقود أحد الطوابير، بالحجازيين فى معركة عنيفة قرب قوص، ويلحق بهم خسائر جسيمة، خاصة بعد معارك متلاحمة. لكن موقفه خطر، لأنه استهلك الجزء الأكبر من ذخيرته. وقد قدم فيفيان دينون، الذى يرافقه، وصفاً مؤثراً لتلك الفترة من حملة مصر العليا.

«إننا، نحن الذين كنا نتفاخر بأننا أكثر عدلاً من المماليك، قد ارتكبنا بشكل يومى وبشكل شبه اضطرارى عدداً من المظالم؛ إن صعوبة تمييز أعدائنا من حيث الشكل واللون قد قادتنا إلى قتل فلاحين أبرياء كل يوم؛ فالجنود، المكلفون بالذهاب فى عمليات تفتيشية، لا يفوتهم أن يعتبروا مكيين التجار التعساء الذين يصلون فى قافلة، وقبل محاكمتهم [عندما يكون هناك وقت لمحاكمتهم]، يتم إعدام اثنين أو ثلاثة منهم رمياً بالرصاص، ويتم نهب أو تبديد جزء من شحنتهم. [...] ونصيب السكان، الذين لا شك فى أننا جئنا إلى مصر من أجل سعادتهم، ليس أحسن حالاً؛ فإذا كان الرعب يدفعهم، لدى اقترابنا، إلى ترك بيوتهم، فإنهم عندما يعودون بعد رحيلنا، لا يجدون فيها غير القوالب الطينية التى تتألف منها الجدران. [...] وإذا ما أقمنا فى قراهم، فإننا ندعو هؤلاء التعساء إلى العودة، وإلا فإنهم سيعاملون كمتمردين متحالفين مع أعدائنا، ومن ثم فإنهم سوف يتعرضون لمضاعفة العبء الضريبى؛ وعندما يستسلمون لهذه التهديدات، ويجيئون لدفع الميرى، يحدث أحياناً أن نتصور أن عددهم الأكبر تجمهر، وأن عصيهم أسلحة، وغالباً ما يتعرضون لإطلاق النار بشكل عشوائى عليهم من جانب الرماة أو من جانب رجال الدوريات قبل أن يتسنى لهم توضيح مقصدهم. [...] وصحيح أنهم إذا ما لزموا دورهم ودفعوا الميرى واستجابوا لكل احتياجات الجيش، فإن ذلك يجنبهم مشقة الرحلة والإقامة فى الصحراء؛ وقد شهدوا استهلاك مؤنهم على نحو منظم، وكان بوسعهم استهلاك حصتهم، وكانوا يحتفظون بجزء من منافذهم، ويبيعون بعضهم للجنود، ولم يغتصب غير عدد قليل من نسائهم أو بناتهم؛ لكنهم وجدوا أنفسهم أيضاً مذنبين بالتعلق الذى أبدوه نحونا، وذلك بحيث أن المماليك عندما كانوا يحلون محلنا كانوا لا يتركون لهم مالاً أو جواداً أو جملاً؛ وغالباً ما كان شيخ البلد يدفع رأسه ثمناً للانحياز المزعوم الذى يتهم به (١٠١)».

التهدئة

اعتباراً من أواخر مارس، يبرز الانتشار العسكرى الفرنسى كفاءته. إن الخصوم يتم

الاشتباك معهم فور نزولهم إلى الوادي. وفي أبريل، يصطدمون بالقوات التي يقودها ديزيه نفسه في بير البر، وإذ يتقدم الجنرال دون تبصر، فإن فرسان داڤو يطلقونه ويدفعون ثمناً لذلك خسارة عدد من الضباط المهمين. وفي الأيام التالية، يجري ضرب الحجازيين من جهة طهطا ومن جهة جرجا على التوالي. والحال أن داڤو، الذي يطارد المماليك، يضطر إلى هبوط الوادي لكي يدخل إلى الدلتا بحثاً عن الألفي، كما رأينا من قبل. وفي أوائل مايو، يمكن لديزيه أن يعتبر أن الوادي قد أصبح هادئاً تقريباً، ويرسل بيليار لاحتلال القصير، ويقضي هذا الأخير وقتاً في الأعداد لحملته ولا يرحل إلاّ في ٢٦ مايو. وبعد مسيرة مرهقة لمدة ثلاثة أيام في الصحراء، يستولي دون مشقة كبيرة على الحصن، ساداً بذلك مدخل مصر عن طريق البحر الأحمر. ويحصل دونزلو على قيادة الموقع الجديد، الأمر الذي يعود عليه برتبة جنرال لواء بصفة مؤقتة (١٠٢). وبعد تشتيت شمل الحجازيين ورحيل الألفي إلى سوريا، فإن الخطر الباقي هو معظم مماليك مراد بك، الذين يظلون طلقاء بصعيد النيل منهم في واحات الصحراء الليبية.

وعندئذ يمكن لديزيه أن يبدأ في إدارة منطقته. وهو يكثف الإعفاءات الضريبية بسبب الخراب الذي أحدثته المعارك. ويشجع استئناف التجارة ويسعى بشكل خاص إلى الاعتماد على مشايخ البلاد. وهو يجمعهم في مجلس حيث تتم، وفقاً لڤيڤان دينون، «مناقشة مصالح الحكم والمزايا الممنوحة للمزارعين، والمكافآت التي يجب منحها لأولئك الذين يحققون تميزاً في السنة التي توشك على البدء [...]. وأوضح ما توصلت إليه حول مداولات هذا المجلس هو أنه لم يتم هناك اقتراح تجديدات دون أخذ رأي السكان، وأنهم قد وُعدوا بكافة أنواع التشجيع، وأنهم قد قالوا، تشريفاً لهؤلاء الرجال الشجعان، لدى اختتام المجلس ، «إن هذا المجلس يشبه مجلس زمن الأمير همام حيث لم يك الحديث يدور عن فرض ضرائب تعسفية، بل عن ما يمكن أن يكون أكثر نفعاً للجميع»(١٠٣).

وكما في الدلتا، فإن الفرنسيين يسعون إلى استعادة النظام بمنع تعديات البدو. وبالنسبة لديزيه، فإن الحل الدائم الوحيد هو تحويل البدو إلى سكان مستقرين. وهذا هو ما يوضحه لبيليار، في ١١ يونيو، «إنني أود أن تحيا جميع القبائل في وفاق. وللتوصل إلى السيطرة عليها، فإن هناك طريقتين: أما الطريقة الأولى، وهي طريقة المماليك، فإنها تتمثل في إضعافها عن طريق الانقسامات المستمرة، ومن ثم، دفعها دائماً إلى حمل السلاح. لكن الطريقة الثانية هي الطريقة التي يجب لها أن تكون مناسبة لنا، إنها تتألف من تهدئة جميع

القبائل والحفاظ على سيادة السلم فيما بينها كلها، حتى يمكن للبلد كله، بعد تحويلها إلى مراعاة السلم بهذا الشكل، أن يكون هادئاً وغير معرض لأى خطر. إن الهدف الكبير لسياستنا هو إما القضاء على العرب بالقوة – وتلك وسيلة بربرية – أو تمدينهم، وجعلهم مزارعين لكثر ما يمكن. وهذه الوسيلة تتمشى مع إنسانيتنا وتقاليدنا. وإذا ما تمت تهدئة جميع العرب، ومنحهم ملكيات تقرب فيما بينهم، وتشجيع الزراعات، وتحريك النفور بينهم من الاعتماد على الماشية، فسرعان ما سوف نراهم مرتبطين بأرضهم... وعند إخضاعهم، سوف يدفعون الضرائب ويقومون بتسميد الأرض... (١٠٤)».

وفى النصف الأول من يونيو، يبدأ ديزيه فى التحضير لحملة ضد مراد بك، لكن تدابير الأمن التى يجب فرضها على القبائل البدوية تحول دون تحقيق مشروعه، ويصل إلى علمه نبأ وصول بونابارت إلى مصر ويرى أن عليه التحسب لمواجهة جماعات المماليك المسلحة المتواجدة فى الدلتا والتى من المؤكد أنها سوف تجبر على التقهقر مع عودة القوات الفرنسية. وفى تلك اللحظة عينها يقرر مراد بك ترك الواحات للهبوط على مصر السفلى، ومن المؤكد أنه يسعى إلى ضم قواته إلى قوات الجيش العثمانى التى يترقب الجميع نزولها الوشيك.

رحيل بونابارت

الحرب ضد البحر المتوسط

الحرب في البحر المتوسط هي إحدى السمات المميزة للائتلاف الثاني. وهي نتيجة للتحالف الفرنسي – الأسباني ضد إنجلترا ولحملة مصر في آن واحد. وفي إيطاليا، فإن هجوم نابولي ضد الفرنسيين مع احتلال روما كان حدثاً عابراً فقد تمكنت الجيوش الجمهورية بسهولة من القضاء على هذا الخصم المغرور واستولت على نابولي في ٢٤ يناير ١٧٩٩. وعندئذ يلجأ البوربون إلى صقلية بينما ينشئ الفرنسيون جمهورية شقيقة جديدة، هي الجمهورية البارثينوبية. ومنذ تلك اللحظة، تنصب المهمة الرئيسية للأسطول البريطاني في البحر المتوسط على الدفاع عن صقلية ومحاصرة الموانئ الأسبانية. وهذه الأنباء المشجعة تدفع حكومة الإدارة إلى إعداد مجهود بحري جديد: عمل مشترك بين الأسبان والفرنسيين تحت قيادة بروي. وسوف يتولى هذا الأخير قيادة أسطول بريست، ويتغلغل في البحر المتوسط، وينضم إلى الأسطول الأسباني، ويحمل تعزيزات إلى مالطة وإلى الجزر الأيونية ثم إلى الإسكندرية (١٠٥). والحال أن الأميرال، وهو منظم ممتاز، ينجح في تحريك أسطول بريست وعلى متن سفنه مؤن غذائية تكفي لستة أشهر، في ٢٦ أبريل ١٧٩٩. وفي ٤ مايو، يصل الأسطول قرب مضيق جبل طارق الذي يجتازه دون مشكلة، حيث يهرب الإنجليز أمام تفوق الفرنسيين العددي. وفي المقابل، فإن الانضمام إلى الأسبان لا يتحقق وذلك بسبب الأوامر المتضاربة الصادرة عن الحكومتين.

وحتى لو كان هذا الأسطول القوي قد تحرك على الفور متوجهاً إلى شرقي البحر المتوسط، لوصل جد متأخر بالنسبة لحسم حصار عكا. وأياً كان الأمر، فإن بروي يفضل التحرك للرسو في طولون، التي يصل إليها في ١٣ مايو، لإصلاح بعض أعطال سفنه. ويؤدي تفاقم الوضع العسكري الفرنسي في إيطاليا وخسارة موانئ البحر الأدرياتي إلى دفع حكومة الإدارة إلى تعديل تعليماتها: فانتظاراً لإتمام الانضمام إلى الأسبان، يتولى بروي تأمين دعم الإمدادات للفرنسيين في إيطاليا في غربي البحر المتوسط. وبعد ذلك سوف يتحرك الأسطول المشترك إلى مصر، ولكن من أجل تحقيق مهمة مختلفة تماماً.

وفي بداية مارس، جرى استئناف الحرب ضد النمسا التي تنضم إلى الائتلاف

الثاني. وقد اجتازت الجيوش الفرنسية نهر الراين حيث هوجمت وأجبرت على الانسحاب إلى الضفة اليسرى للنهر. وفى إيطاليا، فى أوائل ابريل، تبدأ الانتكاسات. وتطلب بعض الأوساط الباريسية بالفعل، بتحريك من أخوة بونابارت، عودة البطل إلى فرنسا لتولى قيادة الجيوش الفرنسية. والحال أن مبعوثاً خاصاً موفداً من جانبهم، وصل إلى مصر فى ٤ مارس، قد أبلغ فى عكا القائد العام لجيش الشرق بالمصاعب السياسية وبالاستئناف العام للحرب الأوروبية (١٠٦).

إن الجهد الذى يجب بذله فى أوروبا نفسها لا يسمح بعد بسحب قوات لإرسالها إلى مصر. على العكس تماماً، إن حكومة الإدارة تدرس الجلاء وعودة جيش الشرق إلى فرنسا. وهذا هو معنى التعليمات الصادرة إلى بونابارت، والمحررة فى ٢٦ مايو ١٧٩٩. إلا أن: «عليك أيها المواطن الجنرال أن تنظر فى ما إذا كان بوسعك أن تترك فى مصر بالاطمئنان جزءاً من قواتك. وفى هذه الحالة، فإن حكومة الإدارة تخولك أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسباً(١٠٧)».

ويتلقى بروى الأمر بالاتجاه إلى مصر ومعه هذه التعليمات، ولكن بعد تحقيق الانضمام إلى الأسبان. ولا يحقق بروى هذا الانضمام إلا فى ٢٢ يونيو فى قرطاجنة، والواقع أن اسبانيا ليست فى حرب إلا مع انجلترا، وليس مع النمسا وروسيا والامبراطورية العثمانية (١٠٨). وهى لا تقبل اتحاد الأسطولين إلا لاسترداد مينوركا من الإنجليز وهى مستعدة للعمل فى مقابل ذلك فيما يتعلق بمالطة، وليس أكثر من ذلك. ويساوم بروى بحدة من أجل وحدة العمل. لكن النتيجة النهائية هى أن الأسطول المشترك المؤلف من إحدى وأربعين سفينة سريعة الحركة يتحرك إلى الأطلسي وأن السفن الفرنسية تدخل بريست فى ٨ اغسطس ١٧٩٩ ... وهذا الانقلاب لمسار الأسطول يزيل كل إمكانية للجلاء عن مصر بينما لا يتلقى بونابارت تعليمات حكومة الإدارة.

الهزائم الفرنسية

خلال ذلك الوقت، يؤدى وصول قوات روسية إلى إيطاليا وإلى سويسرا إلى التعجيل بهزيمة الفرنسيين. وتؤدى انتفاضة شعبية قادها الكاردينال روفو إلى بحر القوات الفرنسية المتروكة فى الجمهورية البارتينوبية (كان الجانب الرئيسى من الجيش الفرنسى يواجه تهديداً فى إيطاليا الشمالية). وتهبط قوة من الجنود الروس - العثمانيين المدعومين بالأسطول الإنجليزى قرب نابولى (وبهذا فإن الإمبراطورية العثمانية، المهددة فى وجودها،

تقوم بآخر عملية عسكرية لها في إقليم كثيراً ما هددته في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) (١٠٩). ويمنح الكاردينال روفو اتفاق جلاء للفرنسيين ولأنصارهم. ففي مقابل الرحيل عن نابولي، سوف يجري نقلهم إلى طولون أو العفو عنهم بالنسبة لما قاموا به من نشاطات سياسية. وينتهك نيلسون وآل هاملتون والزوجان الملكيان اتفاق الاستسلام بالرغم من احتجاجات الكاردينال ويتجهون إلى قمع رهيب. والفرنسيون وحدهم هم الذين يمكنهم مغادرة الإقليم، وهذا التنكر للاتفاق من جانب نيلسون لا يتعرض للوم علني إلا من جانب فوكس، زعيم المعارضة البرلمانية، والملك جورج الثالث. بل إن اللوردين جرنفيل وسبنسر، العضوين في الحكومة، سوف يصل بهما الأمر إلى حد تأييد مسلك البطل القومي (١١٠) (يونيو ١٧٩٩).

وفي يوليو وأغسطس ١٧٩٩، يفقد الفرنسيون الجزء الأكبر من إيطاليا، وتهبط قوة أنجلو – روسية في هولندا وينشب تمرد ملكي في الجنوب الغربي بينما يهدد الفانديه بالتمرد من جديد. ويجري اعتبار حكومة الإدارة مسئولة عن مسلسل الهزائم هذا. وفي المجالس، يؤدي دوران يعقوبي جديد، استخدمته جماعة «المراجعين» القريبة من الأيديولوجيين الذين يتمنون تغييراً للمؤسسات، إلى خروج أغلبية حكومة الإدارة التي تعتبر متهمة بالمسئولية عن تدهور الوضع. وحملة مصر تمثل أحد العناصر الأساسية في قرار الاتهام. فهناك استياء شديد من غياب الجيش الفرنسي الأفضل وقائده. وفي معمعان السجال، يجري اتهام حكومة الإدارة بأنها كانت تريد «أن تنفي وتدفن في صحراء العرب صفوة جيش إيطاليا وقائده الأشهر على مر الزمان وأكثر قادة جيوشنا كفاءة (١١١)». وهذه الهجمات المتكررة، والتي تقود إلى سقوط تاليران في ٢٠ يوليو ١٧٩٩ (يمارس لعدة أسابيع عمله بصورة مؤقتة)، والأنباء غير المباشرة التي تصور حملة سوريا على أنها كارثة دموية (كان قد تم اعتراض سبيل رسل بريد بونابارت وأدى ذلك إلى الاقتصار على قراءة الأخبار التي توردها الصحف الإنجليزية والألمانية) إنما تقود إلى التخلي عن أي أمل في مخرج إيجابي للمشروع، وفي السعي إلى الجلاء عن مصر بكل السبل. والعمل الأخير لتاليران في وزارته هو اقتراح بدء مفاوضات مع الباب العالي، من خلال م. دي بوليني، القائم بأعمال أسبانيا في القسطنطينية (١١٢).

وفي ٢٤ فروكتيدور (١٠ سبتمبر ١٧٩٩)، تقرر حكومة الإدارة الجلاء عن مصر، ولو بأقسى الشروط، ألا يخدم الجيش وقائده بعد ذلك في عمليات الحرب الجارية. وسوف

يكون بونابارت حراً فى قبول أو عدم قبول هذا الاتفاق. وعلاوة على الفائدة المباشرة فى السياسة الداخلية لهذا الإصرار على عودة بونابارت، فإنه يسمح بتصور وجود مقاصد خفية من جانب تاليران وسييس وبارا (إن الأخيرين يظلان عضوين فى حكومة الإدارة). وفى ١٨ فينديميير من العام الثامن (١٠ أكتوبر ١٧٩٩)، تكتب حكومة الإدارة إلى بونابارت إنها ما تزال مهتمة بمصر وأن الوساطة الأسبانية غير مجدية وأن الباب العالى، من جهته، قد أبلغ فرنسا باستعداده لمناقشة الجلاء دون وسيط وأن القائد العام لجيش الشرق يملك الصلاحيات الكاملة لإجراء هذه المفاوضات (١٣٣). وفى عشية ذلك اليوم، هبط بونابارت فى فريجى، لكن الخبر لن يُعرف فى باريس إلا فى ٢١ فينديميير، حيث يقابل بمظاهر الفرحة من جانب السكان...

إعادة تنظيم الجيش

إن بونابارت الموجود فى مصر معزول تماماً عن أوروبا. فلم ينجح فى الوصول إليه أحد من رسل حكومة الإدارة الرسميين وشبه الرسميين الذين أرسلوا إليه فى الفترة الأخيرة (١١٤). ومن ثم فإن عليه اتخاذ قراره على ضوء المعلومات المتوفرة فى الساحة وحدها. وكان فشل حصار عكا قد أفقده جانباً كبيراً من حماسه للشرق. وهو لم يعد يجد مسرة فى التحدث مع المشايخ (١١٥). إنه يفكر فى أوروبا. إلا أنه يتعين عليه أولا توطيد الوجود الفرنسى فى مصر ودفع خطر الجيش العثمانى، الذى احتشد فى رودس، والذى شكلت وحداته المؤلفة من قوات النظام الجديد، والموجودة فى عكا، طليعته. وهو يفعل كل شىء لكى يخفى عن سكان القاهرة فشل حملة سوريا؛ ففى ١٤ يونيو ١٧٩٩، تدخل القوات الفرنسية إلى المدينة دخولا مهيباً، فى مشهد استعراضى يشارك فيه بنشاط أعضاء الديوان المكلفون باستقبال الأبطال (١١٦). لكن مراقباً ذكياً كالجبرتى يمكنه أن يلحظ حالة الإنهاك التى تهيمن على الجنود (١١٧). وبعد ذلك مباشرة، ينهمك بونابارت فى إعادة تنظيم لجيش الشرق، إذ يجرى تفقد المستشفيات والتحصينات؛ ويجرى تشكيل طوابير متحركة لكى تجوب الأقاليم وتجبى الضرائب المتأخرة؛ ويتم إدخال تعديل على أشباه ألوية المشاة مع اختزال عدد السرايا فى الكتيبة الواحدة، وتكوين سرايا استطلاعية مكلفة بالقتال فى الخطوط الأمامية وضم مدفعية إلى كتائب المشاة. أمّا الفيالق المالطية والبحرية، التى يعتبر أداؤها من أكثر الأداءات قصوراً، فيجرى حلها ودمج رجالها بوحدات المشاة الأخرى؛ بل إن

القائد العام ينوى شراء عبيد سود من السودان لسد الفراغات الناشئة عن الخسائر الفرنسية. لكنه، بما يشكل علامة ايضاً على الرايات الجديدة، يصدر الأمر، منذ ٢١ يونيو، بتصليح الفرقاطتين، «لا موييرون» و «لا كاريير» ، الموجودتين في ميناء الإسكندرية (١١٨).

وإلى جانب تدابير إعادة تنظيم الجيش، فإن توطيد الوجود الفرنسي يمر عبر تدابير قمع صارمة سعياً إلى إثناء السكان عن المقاومة، إن جميع المغاربة والحجازيين، الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيين، والذين تم أسرهم، يجرى الحكم عليهم بالإعدام، كما يجرى إعدام المماليك الذين عادوا إلى القاهرة دون تصريح. وبالنظر إلى العدد الكبير للإعدامات في القلعة، فإن دوجا يحصل من القائد العام على تصريح بالاستعاضة عن الإعدام رمياً بالرصاص بالإعدام بقطع الرؤوس، وهو ما سوف يسمح بتوفير الذخيرة. ولابد من الإشارة إلى أن الفرنسيين يستخدمون جلادين محليين. وهم لا يستوردون الإجراء الأحدث والأكثر تمدناً والذى يتمثل في الإعدام بالجيلوتين. أما المومسات جد العديدات، واللاتي ينشرن بين الجنود الأمراض التناسلية، فيجرى إغراقهن في النيل من باب الإعمال المراعى للشريعة الإسلامية التي تحرم على مسلمة العلاقات مع كافر (١١٩).

مخاطبة النزعة القومية المصرية

بعد أن كان بونابارت قد وجه دعايته في اتجاه الإسلام السياسي ثم في اتجاه النزعة العربية، وبعد هذا الفشل المزدوج، فإنه يتحول إلى النزعة المصرية. فخشية إنزال للقوات العثمانية، يصبح من غير المعقول الحفاظ على أسطورة وجود فرنسي يستند إلى تصريح من الباب العالي. على العكس، فهو، على المستوى الرمزي، سوف يجهز على الصلة الأخيرة للتبعية الإدارية والتي تربط مصر بالباب العالي؛ ففي ٢٦ يونيو ١٧٩٩، يأمر بإلقاء القبض على ابن قاضي العسكر، رئيس الهيراركية القضائية في مصر. والحال أن هذا المنصب كان يعود، دائماً، منذ القرن السادس عشر، إلى عثماني يعينه الباب العالي. وكان حائزه الأخير قد شارك في تمرد أمير الحج ثم لجأ إلى سوريا. ويتدخل الديوان على الفور وينبه الشيخ السادات الفرنسيين إلى انعدام المنطق لديهم: «إنكم تقولون دائماً أن الفرنساوية أحباب العثمانية وهذا ابن القاضي من طرف العثمانلي. فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم وخصوصاً عند العامة».

ويقبل الفرنسيون أن يكونوا متسامحين، بشرط أن يعين الديوان قاضياً جديداً.

وبشكل منطقي، يتم انتخاب لمحمد العريشي، فقيه المذهب الحنفي (الحنفية هي المذهب الرسمي للدولة العثمانية، على الرغم من أن سكان مصر يتبعون في غالبيتهم مدارس أخرى للتفسير الشرعي). وعندئذ يكشف بونابارت، في بيان إلى العلماء، المعنى العميق لمبادرته:

«وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول. وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلي من أقاليم مصر وبطلت أحكامها منها. وأخبروهم أن حكم العثمانلي أشد تعباً من حكم الملوك وأكثر ظلماً.

«والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية. يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم في سائر الأقاليم.

«وأنتم يا أهل الديوان عرفوني عن المنافقين والمخالفين لأخرج من حقهم. لأن الله تعالى أعطاني القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم. فإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف.

«ومرادي أن تعرفوا أهل مصر أن قصدي بكل قلبي حصول الخير والسعادة لهم، مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين» (١٢٠).

وهذا العمل من جانب بونابارت يُتمّ تطوراً جرى البدء به في عصر علي بك حيث يبدأ تمصير الهيراركية القضائية. ويتولى الفرنسيون عزل آخر القضاة العثمانيين ويحصل الموظفون الجدد على راتب منتظم. لكن العثمانيين، بالنسبة لجمهرة السكان، إنما يبدون عندئذ بوصفهم المحررين الوحيدين من السيطرة الفرنسية. ويجرى النظر إليهم بشكل أساسي كجنود للإسلام وللجهاد. وسوف تجيء خيبة الأمل بعد ذلك، مع رحيل الفرنسيين.

كما يحافظ بونابارت على سياسته الخاصة بالانفتاح على أفراد الصفوة السياسية المصرية وهو ينجح في إعادة شخصين مهمين إلى مصر: الأول هو عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، الذي كان أسيراً في يافا. ويجرى تقديمه إلى القائد العام من جانب الشيخ المهدي ويتم رد ممتلكاته المصادرة إليه (١٢١). أمّا الثاني فهو حسن طوبار الذي أعلن خضوعه. وهو أيضاً يسترد ممتلكاته، إلا أنه يتعين عليه ترك ابنه رهيناً في القاهرة. وهو يتعهد بأن يضع نفسه في خدمة الفرنسيين في إقليم دمياط (١٢٢).

البحيرة

لكن الوضع فى الأرياف، خاصة فى البحيرة، جد مختلف دائماً. وهكذا فإن جماعة مسلحة من المماليك، تنهمك فى تعديات على الفلاحين، يتم الوشاية بها من جانبهم عند الفرنسيين الذين يحبسون الرائدها ويعدمون بعضهم (١٢٣). على أن الوساطة النشيطة من جانب الشيخ المسيرى، الذى يرأس ديوان الإسكندرية، تسمح بالتوصل إلى تهدئة عامة لجميع القبائل البدوية فى الإقليم (١٢٤).

والواقع أن قبيلة الهنادى وحدها هى التى تحترم الاتفاق، بل وتشترك إلى جانب الفرنسيين فى مطاردة المخالفين، إلى درجة أنه يجرى تلقيب الرادها: بـ «البدو الفرنسيين»(١٢٥). وبالرغم من كل شىء، يتم فى الإقليم نفسه الهجوم على سفينة نهرية تقل الجنرال دومارتان ويشارك فى الهجوم فلاحون وبدو. وينجح الطاقم فى الهرب. لكن الخسائر الفرنسية تعتبر جسيمة، إذ تصل إلى خمسة عشر قتيلاً، بينهم الجنرال دومارتان نفسه، الذى يلقى حتفه متأثراً بجراحه. ويغضب كليبر لعدم تكريم رفيقه. وهو عدم تكريم يرجع إلى موقفه فى عكا (ما كان لدومارتان أن يكون بلا جريرة حين يثبت أنه كان على حق فى معارضته لكافاريللى فيما يتعلق بالخطة التى يجب اتباعها بالنسبة للحصار) (١٢٦).

بونابارت وديجينيت

تتجلى آثار حملة سوريا حتى داخل المعهد (المجمع العلمى) الذى استأنف جلساته، التى كانت تلك الحملة قد أوقفتها. ويطلب بونابارت إعداد دراسة عن الطاعون، مستهدفاً من وراء ذلك على الأرجح رد المسئولية عن فشل حصار عكا إلى ذلك المرض. وهو يبدو عدوانياً بشكل خاص تجاه الأطباء، الأمر الذى يثير غضب ديجينيت، وتتصاعد حدة النبرة. ففي بداية الحملة، كان رئيس الأطباء، بناء على طلب من بونابارت بلا ريب، قد أكد علناً أن الوباء ليس وباء طاعون، سعياً إلى عدم نشر الخوف فى صفوف الجيش. أما وأنّ الظروف قد تغيرت، فإن الجنرال يريد الآن التعرف على الداء الذى لم يتمكن هذا «الدجال» ديجينيت من التعرف عليه. ويرد هذا الأخير بوصف زميله فى المعهد بأنه «مستبد شرقى» يستخدم

«حرساً مسلحاً حتى تدخل حرم جمعية مسالمة وأبية». (١٢٧) ويشير أصل هذه الحادثة إلى عزم بونابارت على العودة إلى فرنسا سليم الهيبة.

وهذه الرغبة في مغادرة مصر وهذا الجهل بالوضع الأوروبي يظهران من جديد في تقريره إلى حكومة الإدارة والمؤرخ في ٢٨ يونيو ١٧٩٩. ومن المؤكد أنه يُبدى تفاؤلا مصطنعاً، ولكن لكى يطلب تعزيزات، قوامها خمسة عشر ألف رجل على الأقل، وإلاَّ فإن فتحه معرض للهلاك. «إذا كان مستحيلاً عليكم إرسال كل هذه التعزيزات، فلابد من الجنوح إلى السلم، لأنه لابد من حساب أننا، من الآن وحتى شهر ميسيدور، سوف نفقد ٦٠٠٠ رجل آخرين [...] وسوف يختزل عددنا في الفصل القادم إلى ١٥٠٠٠ رجل، وإذا ما طرحنا منهم ٢٠٠٠ رجل في المستشفيات، و ٥٠٠ رجل من المحاربين القدماء، و ٥٠٠ عامل غير مقاتلين، فلن يبقى لنا غير ١٢٠٠٠ رجل يشملون الفرسان وسلاح المدفعية والحفارين وضباط الأركان العامة، ولن يكون بوسعنا مقاومة إنزال مصحوب بهجوم عن طريق الصحراء» (١٢٨).

هبوط مراد بك

إن فترة الهدوء الهش التى تعقب عودة الجيش من سوريا لا تدوم إلاَّ أقل من شهر. فمنذ أواخر يونيو، تفيد الأنباء أن مراد بك قد غادر الواحات وأنه يتحرك بمحاذاة الوادى. وينشئ ديزيه على الفور تشكيل طوابير متحركة مكلفة برد القائد المملوكى إلى الصحراء. وهذا الأخير جد سريع في هبوطه إلى الدلتا وهو يتواجد اعتباراً من ٢٥ يونيو على تخوم الفيوم. والحال أن كل ما يمكن لديزيه أن يهنئ نفسه عليه، هو أنه قد نجح، عبر الذكرى المشتركة لعنف معارك الشهور السابقة ولنعومة إدارته، في تفادى نشوب انتفاضة عامة في مصر العليا. وإذ يصل إلى علم بونابارت أن مراد بك يقترب من مصر السفلى، فإنه ينشئ بدوره طوابير متحركة تتحرك لاعتراض طريق خصمه. وبعد عدة مكائد ومعركة مع الفرنسيين في ٩ يوليو، حيث يفقد مراد بك متاعه، ينجح هذا الأخير في الدخول إلى إقليم الجيزة وفى إقامة معسكر قرب الأهرام في ١٢ يوليو. ويصبح مقصده واضحاً، فهو يسعى إلى الانتقال إلى البحيرة. وفى اللحظة نفسها، يتم العلم في القاهرة بمرور أسطول مهم للعدو أمام العريش ثم أمام دمياط.

ويتولى بونابارت نفسه قيادة طابور متحرك قوامه ألف رجل. ويجبر وجوده مراد بك على الانسحاب إلى الفيوم. وهناك يطارده الطابور المتحرك الذى يقوده الجنرال فريان

وفى نهاية الأمر، مع استمراره مطلق السراح، يضطر إلى العودة من جديد إلى مصر العليا.

سيدنى سميث والعثمانيون

بينما كان بونابارت يعيد تنظيم تشكيل الجيش الفرنسى، لم يبق سيدنى سميث بلا نشاط. فبعد أن تابع انسحاب الجيش الفرنسى، عاد إلى داخل فلسطين وزار الأماكن المقدسة. ومن هناك، زار لبنان ليضفى طابعاً ملموساً على التعهدات التى كان قد أبداها خلال حصار عكا تجاه الأمير بشير. وهو يتبجح، لكى يحسنى له التصرف، بسلطات خولها له سليم الثالث، ويعلن عن ترتيب عام للسلطات فى المنطقة مع الوصول القريب لجيش عثمانى يقوده الصدر الأعظم نفسه. وهذا التدخل فى نطاق سيطرة الجزار يثير سخط الأخير الذى ينسحب عندئذ من المعركة مع الفرنسيين وينهمك فى تحصين عكا، هذه المرة ضد هجوم محتمل من جانب الجيش العثمانى.

وينتقل العميد البحرى بعد ذلك إلى قبرص حيث يتعين عليه التصدى لتمرد من جانب السكان، لأسباب تتعلق بالضرائب، ضد السلطة العثمانية. وهو يتدخل من أجل تهدئتهم (١٢٩). وما أن يطمئن إلى تباعد خطر أسطول بروى، فإنه يحصل على تجاوب الباب العالى مع مطالب مختلفة له. إلا أن من المستحيل منحه قيادة القوات العثمانية التى تقرر إنزالها فى الإسكندرية، لكن قائدها، مصطفى باشا، سوف يتلقى أكثر التعليمات حزماً باتباع نصائح الإنجليز. أمَّا فيما يتعلق بزعماء الجبل، فسوف يجرى إرسال إشعار إليهم مفاده «أن الأمير بشير وأخاه وكذلك الأمير جنبلاط، أمير الدروز، لكونهم خدماً مخلصين للباب العالى، سوف يجرى توظيفهم فى مصر، وأن مسلك الشيخ [...] (١٣٠) – الذى كان مخلصاً على الدوام للباب العالى، والذى كان خلافاً لكل توقع، حيث اضطر إلى التقصير بشكلٍ ما – إنما يرجع إلى أنه قد أجبر على ذلك من جانب الفرنسيين، وأنه يستحق العفو عنه، وأن سكان جبل لبنان، لما كانوا معذورين وجديرين بتعطف الباب العالى عليهم، يجب إعادة الطمأنينة إليهم ومعاملتهم معاملة إيجابية» (١٣١).

وهكذا، فإن الباب العالى، نزولا على طلب سيدنى سميث، يمد حمايته إلى أمراء الجبل. ومن المؤكد أن مقصده الخاص إنما يتمثل فى استعادة ثقل مضاد لقوة سيد عكا التى تعززت بانتصاره على بونابارت.

وبعد أن تمكن سيدنى سميث من حشد القوات العثمانية فى البرص، فإن بوسعه المشاركة فى الهجوم للقرد فى منطقة الإسكندرية. ويصل أسطول الإنزال قبالة المدينة فى ١١ يوليو ١٧٩٩، لكن إنزال القوات لا يبدأ إلاّ فى ١٤ يوليو فى أبو قير. وفى مواجهتها، فإن المسئول عن الموقع الفرنسى، قائد الكتيبة جودار، لا يتمتع إلاّ بقوة قوامها ثلاثمائة رجل ويحصنون مزبلة. ومن الواضح أن مارمون، بصحبة الجنرال ديستان، الذى جاء إليه بطابوره المتحرك، يحاول القيام باستعراض للقوة، لكنه يدرك بسرعة عدم التناسب جد الهائل للقوى. ويتطلب الأمر من العثمانيين ثلاثة أيام لإلحاق الهزيمة بالحامية الفرنسية الصغيرة التى تقاتل ببسالة قبل أن ترضخ. وبالنسبة لخصوم الفرنسيين، فإن الحملة تبدأ بداية جيدة إذ يتسنى إتمام بقية عملية الإنزال دون مصاعب.

معركة أبو قير البرية

ما أن يتلقى بونابارت نبأ الإنزال العثمانى فى ١٥ يوليو، حتى يصدر الأمر إلى الطوابير المتحركة بالتدفق على الرحمانية. وهو، فى الحركة نفسها، يتأهب لأن يرسل إلى هناك الجانب الرئيسى من القوات المبعثرة فى البلاد، بما فى ذلك القوات المتمركزة فى مصر العليا. والشيء الأكثر إلحاحاً، فى اللحظة التى كانت فيها القوات مبعثرة لتأمين حفظ النظام فى البلاد، هو التمكن بأسرع ما يمكن من تركيز الحد الأقصى من القوات. وكلما كان الفوز بالنصر سريعاً، كلما كان أثر غياب الحاميات الفرنسية المختلفة أقل فعالية. فمن شأن معركة طويلة أن تكون ضارة إلى أقصى حد بالوجود الفرنسى، لأنها سوف تستوجب، حتى فى حالة النجاح، إعادة فتح البلاد من جديد. وسعياً إلى تأمين مؤخراته، يحرر بونابارت أيضاً واحداً من بياناته البراقة الموجهة إلى الديوان، حيث يصور نفسه على أنه البطل الذى اختاره الله للذود عن الإسلام ضد المسيحيين (القائلين بأن الله ثالث ثلاثة):

«فى هذه العمارة خلق كثير من الموسكو [الروس – المترجم] الإفرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله، يكرهون الإسلام ولا يحترمون القرآن، وهم نظراً لكفرهم فى معتقدهم، يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشركاء. ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وأن كثرة الآلهة لا تنفع. بلى، إنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذى

يعطي النصرة لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم، المساعد المعين، المقوى للعاملين الموحدين، الماحق رأى الفاسدين المشركين. وقد سبق في علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطاني هذا الإقليم، وقدر وحكم بحضوري عندكم إلى مصر لأجل تغييري الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم. وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذي عملناه، ونحن المعتقدون وحدانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر والقوى القاهر المدبر للكائنات والمحيط علمه بالأرضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما في الآيات والكتب المنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا صحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام، لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام. ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا لله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أن يكون مسلماً، ساقتهم المقادير للهلاك والتدمير مع السفالة والرذالة. وكيف لمسلم أن ينزل في مركب تحت بيرق الصليب ويسمع في حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريف واحتقار. ولا شك أن هذا المسلم في هذا الحال أقبح من الكافر الأصلي في الضلال» (١٣٢).

والواقع أن سكان القاهرة يترقبون بتحرق دنيا تحريرهم. وتحدث صدامات مع المسيحيين ويلجأ الشيخ المهدي إلى شتى الحيل لكي يقلل إلى أدنى حد أمام السلطات الفرنسية من شأن الوشايات المسندة إلى المسيحيين والتي تتحدث عن انتفاضة وشيكة الوقوع (١٣٣). وبفضل وساطة المشايخ، لا يجري اتخاذ أي تدبير من تدابير القمع.

ويرى بعض المسئولين الفرنسيين أن استقلال الديوان زائد عن الحد وأن تدخله في الأمور يتم دائماً على حساب المتعاونين المباشرين مع الفرنسيين. وفي ٦ أغسطس، يكتب بوسيلج ذلك إلى بونابارت:

«إن الشيخ السادات هو الرجل الذي أرتاح إليه أكثر من سواه. والسيد عمر [عمر مكرم] يتصرف بشكل جيد للغاية. والشيخ البكري رجل خائف. أما الآخرون فهم خونة أو متعصبون. والشيخ المهدي رجل طموح يسعى إلى كسب الشعبية والشهرة، وهو مستعد لأن يضحي بجميع الفرنسيين بدلاً من أن يفقد درجة واحدة من مكانته. على أنه يواصل الاجتماع بنا باستمرار» (١٣٤).

ويشكو أفا الأنكشارية من هذه الإعاقة لعمله و، لدى عودة بونابارت، فإنه يوجه توبيخات إلى المهدي والصاوي اللذين لم يكونا «بوتو» (طيبين). وسوف يتمكنان بسهولة

من تبرئة نفسيهما والعودة إلى كسب الحظوة لدى القائد العام بطلبهما إليه أن يحدثهما عن انتصاره. ولابد من قول أن أعضاء الديوان قد تمكنوا بجلاء من رصد انتصار أبو قير بمسارعتهم إلى تهنئة الفرنسيين (١٣٦).

وسوف تكون معركة أبو قير مباراة في السرعة سوف يتكشف فيها بوضوح احتراف الجيش المنبثق عن الثورة. إن الحشد يتم في الرحمانية من ١٩ إلى ٢١ يوليو، باستثناء فرقة كليبر التي، إذ تجيء من دمياط، تقطع الشوط الأطول. وفي اليوم التالي، يبدأ الجيش تحركه ويتمركز في بركة غيطاس، التي تقع في منتصف الطريق بين الإسكندرية ورشيد، حيث أن القائد العام لا يعرف ما إذا كان الجيش العثماني ينوي الزحف على المدينة الأولى أم على المدينة الثانية وهو يعرف عندئذ أن العدو يكتفي بتحصين رأس الجسر الذي أقامه دون الرغبة في الشروع بالتحرك. ويقرر بونابارت الزحف مباشرة على أبو قير، دون أن ينتظر كليبر الذي لا يصل إلى الرحمانية إلا في ٢٣ يوليو بعد أن اجتاز الدلتا في ثلاثة أيام. ويجرى تكريس يوم ٢٤ للاقتراب من مواقع العدو. ويتمتع بونابارت بقوة قوامها عشرة آلاف رجل على الأقل وبسلاح فرسان قوى نسبيا يتألف من ألف رجل، لكن القوات العثمانية لا تتمتع بتفوق عددى حقيقي. وكان العثمانيون يفتقدون بشكل خاص الجسارة، يدل على ذلك إيثارهم لحرب الحصون التي يجدون أنفسهم فيها بشكل مريح على الحركة والزحف إلى الأمام الذي كان من شأنه تفجير انتفاضة عامة في الدلتا. وخط الاتصال الوحيد الذي يقطع هو الخط بين الإسكندرية ورشيد. ويتوسل أعيان هذه المدينة الأخيرة إلى الفرنسيين طالبين منهم البقاء، بل ويعرضون محاربة العثمانيين. وفي حالة جلاء الفرنسيين، فإنه يبدو أنهم سوف يحملون السلاح ضدهم سعياً إلى تجنب الأعمال الانتقامية (١٣٧).

ويبدأ الهجوم في فجر ٢٥ يوليو. ويتم التقدم بصعوبة وذلك بسبب التحصينات العثمانية. وعندئذ يشن مورا واحداً من أروع هجمات الفرسان في حياته ويحطم دفاع العدو. وينتاب الجيش العثماني الذعر ويندفع صوب البحر. ويصل عدد الغرقى إلى الآلاف وينجح مورا في أن يأسر بنفسه مصطفى باشا، قائد الجيش العثماني. وفي ساحة المعركة يعينه بونابارت قائد فرقة. والحال أن هجوم الفرسان هذا الذي يستغله سلاح المشاة فوراً سوف يتكرر في مارينجو. فالفرسان لم يعد دورهم الوحيد هو الاستطلاع قبل المعركة أو استغلال النصر. ثم إن الهجوم، الذي أشير إليه في القواعد العسكرية في أواخر زمن النظام القديم، لم يك بالرغم من ذلك ممارسة مألوفة، وذلك بسبب الخسائر في الجهد في

زمن كان فيه التزود بالجهد مكلفاً وصعباً. ويمكن للمرء افتراض تأثير واع إلى هذا الحد أو ذلك بالممارسات المملوكية. أما فيما يتعلق بإغراق العثمانيين، فإنه يشكل نموذجاً تمهيدياً لإغراق الروس في أوسترليتز (١٢٨).

ولا يصل كليبر إلاَّ في المساء. وتجرفه الحماسة بسبب النجاح الرائع الذي أحرزه قائده ويعلن هذه الحماسة، «قال له كليبر في لحظة حماسة، وهو يعانقه: «أيها الجنرال، إنك عظيم كالعالم، وهو ليس عظيماً بالقدر الذي يتسع لعظمتك» (١٢٩).

ويظل هناك ثلاثة آلاف عثماني متحصنين في قلعة أبو قير، ويوجِّه بونابارت إليهم إنذاراً بالاستسلام، لكن ذكرى يافا ما تزال ماثلة بما يكفي لمنع المدافعين من الاستسلام. ويحصل لان على مهمة خوض الحصار، لكنه، إذ يصاب بجراح، يخلي المكان لمينو (٢٨ يوليو). ويشير هذا التكليف إلى رغبة بونابارت في أن يعطي لهذا النصير المخلص فرصة لكي يخوض أخيراً معركة على قدر من الأهمية. ويجرى تنفيذ الحصار وفقاً لأصول الفن الحربي بفضل النصائح الذكية التي يقدمها المسئولون عن المدفعية وعن سلاح الهندسة. وبعد مقاومة رائعة، ومن جراء الإنهاك الناشئ عن الهرمانات، وخاصة العطش، يضطر العثمانيون إلى الاستسلام في ٢ أغسطس ١٧٩٩.

ويلقى سيدني سميث المسئولية من الهزيمة على القادة العثمانيين الذين لم يتبعوا نصائحه الثمينة، خاصة النصائح الداعية إلى الاستيلاء على رشيد فوراً للتمكن من عزل الإسكندرية. والشيء الأكثر أساسية في نظره، هو أن العثمانيين لم يخصصوا قوات كافية بالقياس إلى الهدف المنشود، وهو الاستيلاء على الإسكندرية. والحال أن عدد الجنود العثمانيين لم يتجاوز سبعة آلاف رجل، ينتمي ألفان منهم إلى قوات النظام الجديد، وذلك في مواجهة جيش فرنسي أكثر تفوقاً بكثير من حيث العدد والتنظيم (١٤٠).

ويمنح نجاح أبو قير للفرنسيين عدة أشهر من التقاط الأنفاس. فموسم عمليات الإنزال قصير في مصر، فخلال الشتاء، يكون البحر بالغ السوء و، بعد شهر أغسطس، يجعل فيضان النيل كل محاولة للإنزال عبثية لأنه يشل التحركات نحو الداخل (وهذا هو ما حدث للقديس لويس) [الملك لويس التاسع الذي أسر في المنصورة – المترجم)

والحال أن ديزيه، الذي لم يفعل غير تدشين حركة جلائه عن مصر العليا، يبدأ من جديد مطاردة مراد بك. ويحاول هذا الأخير كسب الوقت بعرضه إجراء مفاوضات. وبعد أن

فاجأه الطابور المتحرك الذى يقوده قائد اللواء مويان (١١ – ١٢ أغسطس ١٧٩٩)، يظل القائد المملوكى مطلق السراح لكنه يصبح اقل خطورة لأن انصاره يتفرقون.

وفى ١٧ أغسطس، تتعرض القصير لقصف من جانب الأسطول الإنجليزى فى البحر الأحمر ولم يك من شأن الخسائر المادية الجسيمة إلاَّ أن تؤدى بشكل خاص إلى التفاف السكان حول الفرنسيين مستعدين لحمل السلاح ضد إنزال إنجليزى. لكن الهدف (الإنجليزى) إنما يتمثل ببساطة فى وقف تجارة المدينة والحد من اتصالات الفرنسيين مع قوى البحر الأحمر.

سيدنى سميث وبونابارت

يتمثل أحد شواغل بونابارت الأولى فى إرسال رسول إلى فرنسا مكلف بإعلان نبأ انتصار أبو قير الرائع. وتصل السفينة فى ٢٥ سبتمبر إلى مرسيليا ويتم إعلان المأثرة الحربية فى ٤ أكتوبر ١٧٩٩. ويحدث هذا الإعلان فى لحظة يتعزز فيها النهوض الفرنسى: فانتفاضة الجنوب – الغربى كانت قد سحقت فى موريه فى ٢٠ أغسطس، وكان برين قد ألحق الهزيمة بفيلق أنجلو – روسى كان قد نزل فى هولندا (١٩ سبتمبر) بينما احرز ماسينا انتصاراً حاسماً فى زيوريخ على سوفوروف (٢٩ سبتمبر). على أن الوقع الذى سعى بونابارت إلى إحداثه يتحقق: فسوف يجرى نسيان (هزيمة) عكا وسوف يصبح اسم الفاتح من جديد مرادفاً للنصر.

وقد أجرى سيدنى سميث التحليل نفسه. إن شيئاً لم يعد يدعو بونابارت إلى البقاء فى مصر وبونابارت وحده هو الذى يبقى الجيش الفرنسى فى ذلك البلد. وبالنسبة للعميد البحرى، فإن على السياسة الإنجليزية أن تختار. فإذا كان هناك اعتقاد بأن الدفاع عن الإمبراطورية الاستعمارية، الآخذة فى التشكل فى الهند، أكثر أهمية من الحرب الرامية إلى استعادة التوازن الأوروبى، فلابد من ترك بونابارت يغادر مصر، بالرغم من احتجاجات الحلفاء الأوروبيين. وسوف يستتبع رحيل الجنرال الفرنسى فى الأجل القصير الجلاء عن مصر، بالنظر إلى مزاج الجيش والذى يرمز إليه كليبر. ويميل مسلك سيدنى سميث إلى توفير أمن الهند قبل شن الحرب ضد الثورة. ويمكن للعميد البحرى أن يرى أن رؤساءه يوافقون على ذلك؛ إن كل الحرب السيكولوجية التى يخوضها منذ وصوله إلى شرقى البحر المتوسط تميل إلى خاتمة كهذه للمغامرة الفرنسية فى مصر وقد أبلغ رؤساءه على نحو منتظم بتفاصيل عمله.

وفي ٢ أغسطس، يدشن مفاوضات من أجل اتفاق لتبادل الأسرى ويرسل سكرتيره بجون كبث للتحدث مع بوناپارت ويسلم كبث القائد العام صحفاً حديثة نسبياً ويجري فيها استعراض الهزائم الفرنسية بالتفصيل وهو ينقل إليه شفهياً معلومات إضافية. ولن يعرف أحد أبداً المحتوى الدقيق للمناقشة([١٤١])، لكن للمراقبين المعاصرين قد شعروا على الفور بأهميتها . وفي ٥ أغسطس، يغادر بوناپارت الإسكندرية إلى القاهرة وفي ٩ أغسطس يتصنى لسيدني سميث أن يكتب إلى اللورد سپنسر : «لقد أرسلت السفينتين ثيسيوس وكاملبون مع سفينتين حربيتين تركيتين كبيرتين، للتجول على مسافة بعيدة من غرب الإسكندرية، سعياً إلى منع باى بنغازى من إرسال مؤن إلى بوناپارت وسعياً إلى اعتراض سبيل الأميرال جانتوم الذى، ولدى أسباب لاعتقاد ذلك، سوف يحاول التحرك مع فرقاطتين وحراقة وسفينة شراعية. وربما ينجح بوناپارت نفسه فى الإفلات برفقته من الطوق تاركاً القيادة لكليبر. وإذا ما حدث ذلك، فإن كليبر سوف يرضخ أمام نداءات الجيش ويتفاوض من أجل إعادته إلى الوطن، عندما يتم حشد قوة كافية ضده لتبرير مثل هذا الإجراء... إنه جندى وهو لا يراهن على فتح الهند أو على خصوبة المستعمرة الجديدة؛ وهو يفضل لو كان على ضفاف الراين على أن يكون فى أى مكان آخر وكل الباقين يحبذون لو كانوا فى أى مكان على أن يكونوا فى مصر. وقد حصلت على براهين على ذلك خلال الاتصالات التى أجريناها مؤخراً معهم، وسوف يكون من الخسران ألا نتمكن من ممارسة ضغط بالغ القوة عليهم لندفعهم إلى اتخاذ قرار بالجلاء». ([١٤٢])

لقد جرى من ثم إبلاغ بوناپارت بوضع فرنسا العسكرى الصعب والحال أنه كان قد أشار بالفعل لحكومة الادارة الى أنه سوف يسارع الى العودة فى ظرف كهذا . وهو يعرف بالتأكيد من الإنجليز أن حكومة الادارة تطلب استدعاءه (إن البريطانيين وهو على حد سواء يجهلون أن حكومة الإدارة مستعدة لقبول استسلام يحيد جيشه وفى نهاية الأمر شخصه حتى انتهاء الحرب). وتسمح معركة أبو قير البرية له بالرجوع مرفوع الرأس. وأياً كان الأمر، فإن حلمه الشرقى قد انتهى إلى الفشل، حتى وإن كان (الجنرال) بوناپارت، وقد أصبح (الإمبراطور) ناپوليون، يواصل حتى نهاية حياته الاحتفاظ بحنين إليه. وبما أن إمبراطورية الشرق سراب، فإنه ما تزال تبقى له إمبراطورية الغرب.

وكانت النية الأولى لسيدنى سميث هى أسر بوناپارت. وهو يصدر الأمر بذلك إلى مختلف الوحدات البحرية الإنجليزية فى البحر المتوسط، التى تدعوهم فى تفتيش السفن المحايدة وخاصة فى تفتيش أى بحار يمكن أن يشبه جنرالاً كورسيكياً قصيراً. لكن العميد

البحرى لا يمكنه أن يعرف فى أية لحظة محددة سوف يقرر بونابارت الرحيل. ومن الواضح أن هذا الأخير سوف يختار السرية الأتم لهذا المشروع؛ فعلاوة على خطر احتمال أسره من جانب الدوريات البحرية الإنجليزية، سوف يجازف بتمرد عام للجيش، إذا ما علم هذا الأخير بمشروع قائده.

وخلال إقامته الأخيرة فى القاهرة، يتعين من ثم على القائد العام ألا يسمح بتسرب شيء عن نواياه مع الإعداد لتسمية خلف له. وهو يتوجه بالخطاب مرة أخيرة إلى ديوان القاهرة مستعيداً الحديث عن دوره كمرسل من الله: «أو ليس حقاً [...] أنه قد جاء فى كتبكم أن كائناً أرقى سوف يصل من الغرب، مكلفاً بمواصلة عمل النبى؟ [...]

«أو ليس حقاً [...] أنه قد جاء فيها أيضاً أن هذا الرجل، هذا الوكيل لمحمد، هو أنا؟».

ويبدو المشايخ معجبين بكل الاستشهادات التى يسوقها بونابارت على نحو مكثف من الكتب المقدسة، لكنهم يواجهون ببرود جليدى كل تطبيق يجريه لها على شخصه(١٤٣).

وبشكل جدى أكثر، إدراكاً منه لواقع أن الخطر الحقيقى إنما يجيء من الجيش العثمانى الكبير، الذى دخلت عناصره الأولى سوريا منذ قليل، يتوجه بالخطاب إلى الصدر الأعظم الذى يقوده. وهو يرسل إليه رسولاً هو رشدى أفندى، سكرتير مصطفى باشا: ويذكر بمشاريع اقتسام الإمبراطورية العثمانية من جانب حلفاء الباب العالى، كروسيا والنمسا، وبالصداقة التقليدية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. وهو يقترح قلب التحالفات وقيام فرنسا والباب العالى بشن حرب مشتركة ضد روسيا، وذلك مع إيحائه بأكثر الأشكال غموضاً بإمكانية التوصل إلى ترتيب بشأن مصر (١٤٤).

تسمية الخلف

وكان عليه اختيار خلف له. ولما كانت لديه مشاريع محددة بشأن استيلاء على السلطة فى فرنسا، فقد قرر أن يأخذ معه الجانب الرئيسى من أنصاره، الذين سوف يكونون مفيدين له فى موعده مع القدر: بيرتييه، أندريوسى، مارمون، لان ومورا ومن بين المدنيين مونج وبيرتولليه. أمّا جونو ودبزيه، غير المتوفرين فى التو والحال، فيتعين عليهما الانضمام إليه فيما بعد. وسعياً إلى الغاية نفسها، فإنه يأخذ معه حرسه الشخصى، وهو جزء من قوة طلائع الجيش. وسوف يفسر السبب فى ذلك فى سانت - هيلين: «لقد كانوا ضروريين لى. كان لدى مشروعى. وكان علىّ حمايتهم، ولا شك أن ٣٠٠ رجل يمكن الاعتماد عليهم وينتمون إلى الصفوة كانوا شيئاً بالغ الأهمية».(١٤٥)

ومن ثم لا تبقى غير ثلاثة أسماء يمكن ترشيحها للخلافة: مينو وكليبر ورينييه. أما الأول، بالرغم من كل التسامح الذى يثيره لدى بونابارت وبالرغم من مواهبه الفعلية كإدارى، فإنه لا يمكن أن يكون مناسباً للمهمة، وذلك بسبب انعدام تجربته فى قيادة وحدات مهمة، وبسبب افتقاره إلى الهيبة بين صفوف الجيش. وأما رينييه فإنه يملك بلا جدال ملكة قيادة الرجال وبديهة استراتيجية من الطراز الأول، لكنه صغير (إنه أصغر من بونابارت بسنتين) وهو علاوة على ذلك سريع الغضب. وأما كليبر فهو وحده الذى يمتلك الكفاءة العسكرية (على الرغم من كونه قائد فرقة، فقد قاد فى ألمانيا قوات كانت أهم أحياناً من قوات جيش الشرق)؛ وهو متوج بهالة هيبة غير عادية أمام الجنود (فهذا الرجل الصارم فيما يتعلق بالانضباط، معروف بأنه يميل إلى توفير دماء رجاله وبأنه حريص على راحتهم)، وهو، برغم نفيه لذلك، يبدى كفاءة عظيمة فى الشئون الإدارية. وكان يمكن لدبزيه أن يكون منافساً له، لكن بونابارت يحتاج إليه فى فرنسا. وربما كان هناك أيضاً فى اختيار بونابارت نوع من الخبث من جانب بونابارت الذى كانت له علاقات خلافية دائماً مع هذا الألزاسى، إنه يرغمه على تولى قيادة عامة، وهو الذى رفض دائماً هذا الشرف المحفوف بالمخاطر.

ويوجه إليه بونابارت سلسلة بأكملها من التعليمات حول أسلوب حكم مصر. فهو يؤكد على الاختلاف بين العرب والأتراك. ولابد للعلماء من أن يحتفظوا بدورهم كوسيط وذلك بالنظر إلى تأثيرهم العظيم على الشعب، ودورهم الدينى ورقة طباعهم (إنهم ليسوا جنوداً). والمسيحيون مفيدون إلا أنه لا يمكن تحريرهم تحريراً واسعاً وذلك بسبب تحيزات المسلمين. ويجب الاعتماد على شريف مكة لمراوغة مرجعية السلطان – الخليفة. ويمكن دمج المماليك فى النظام الفرنسى، بمن فيهم إبراهيم ومراد، الذى سوف يجرى عرض لقب الأمير عليه. ولابد للجيش الفرنسى من أن يتخذ مظهراً شرقياً من حيث الزى كما من حيث التجنيد حتى يبدو فى أعين السكان جيشاً قومياً.

والخطر الحقيقى الوحيد الذى يهدد جيش الشرق، هو هجوم مشترك لجيش عثمانى يجىء براً ولإنزال لجيش إنجليزى، لكن الفرنسيين أقوياء بما يكفى لإلحاق الهزيمة بالجيشين على التوالى، ولابد من التمكن من الفصل بينهما، وهنا هو الدور الحيوى لمواقع العريش. وفى وجه الخطر، فإن الأولوية يجب أن تُعطى لتركيز حشد الجيش الفرنسى، بما يستتبع احتمال الجلاء عن الجانب الأكبر من البلد. والموقع الأخير الذى يجب

المحافظ عليه هو موقع الإسكندرية، الذي يمكنه تحمل حصار طويل بما يسمح بانتظار تغير الظرف السياسي العام.

ويجب السعي، عن طريق المفاوضات، إلى ذلك الائتلاف بوضع العثمانيين في مواجهة الروس وبإفهامهم أن هذه الحرب لا تفيد إلا الإنجليز. لكن العدو الأكبر هو الطاعون الذي يجب مكافحته بتطبيق التدابير الصحية تطبيقاً صارماً.

ومن ثم: «فإذا ما حدث، من جراء أحداث خارج الحسبان، وكانت جميع المحاولات غير مثمرة ولم تتلق في شهر مايو أية تعزيزات أو أنباء من فرنسا، وإذا ما حدث، هذه السنة، وبالرغم من جميع التدابير الوقائية، أن كان الطاعون في مصر وقتل لك أكثر من ١٥٠٠ جندي، وهي خسارة جسيمة لأنها ستكون أعلى من الخسارة التي تسببها لك أحداث الحرب غالباً، فإنني أعتقد أنك في هذه الحالة لا يجب عليك البتة المغامرة بخوض المعركة القريبة، وأنه سوف يكون مسموحاً لك بعقد الصلح مع الباب العالي العثماني، حتى عندما يتوجب الجلاء عن مصر أن يكون الشرط الرئيسي. وسوف يتعين فقط تأجيل تنفيذ هذا الشرط، إذا كان ذلك ممكناً، إلى حين عقد الصلح الشامل» (١٤٦).

عودة بونابارت

يعرف بونابارت، من خلال الأسرى الفرنسيين الذين تبادلهم مع الإنجليز، أن سيدني سميث قد استنفد احتياطياته من المياه والمواد الغذائية وأنه يتعين عليه التحرك فوراً لإعادة التزود بالمؤن من قبرص. ويتعين على بونابارت الانتظار إلى حين اختفاء الوحدات البحرية الإنجليزية التي تحاصر الإسكندرية، وهو ما يحدث في ١٢ أغسطس. وما أن يتم إخباره بذلك، حتى ينهي استعداداته الأخيرة ويغادر القاهرة في مساء ١٨ أغسطس، تحت ذريعة القيام برحلة تفقدية في مصر السفلى. وهو يدعو كليبر إلى الاجتماع به بسرعة في رشيد في ٢٤ أغسطس، إلا أنه ما إن يصل إلى الساحل، حتى يتم تأكيد اختفاء الأسطول الإنجليزي له. وهكذا، فإنه حتى دون أن يدخل الإسكندرية، يبحر في ٢٢ أغسطس مع رفاقه. وتتاح له الفرصة للتحدث مع مينو الذي يوجه إليه تعليماته الأخيرة، ويسلمه الرسائل الموجهة إلى كليبر والخاصة بنقل السلطات. وبما أن مارمون يعود إلى فرنسا، فإنه يخوله قيادة الساحل الغربي للدلتا بشرط اعتماد كليبر لهذا التخويل. ويتم إبلاغ مينو بنوايا بونابارت: «لقد ضيعت حكومة الإدارة كل شيء، وأساءت إلى كل شيء. إن فرنسا تتأرجح بين الحرب الخارجية والحرب الأهلية؛ وقد تعرضت للهزيمة والإذلال وتوشك أن تهلك. وقد نذر نفسه لإنقاذها، مخاطراً بركوب البحر. وإذا ما وصل، فالويل للثرثرة ويحذر

للنبور، ولخصائص الزمر. إنه سوف يسوى حساب الجميع. وفى مصر، كان وجوده زائداً عن الحاجة؛ ثم إن بوسع كليبر أن يحل محله فى كل شىء...» (١٤٧).

وفى أول النهار تبتعد عن الساحل المصرى الفرقة البحرية الفرنسية الصغيرة، والتى تتألف من فرقاطتين وسفينتين حربيتين صغيرتين، تحت قيادة العميد البحرى جانتوم. والعملية محفوفة بالمخاطر. وإذا كان بونابارت، فى مغادرته لمصر، لا يعرف نوايا العميد البحرى (الإنجليزى سيدنى سميث – المترجم)، فإنه يعرف أن الجزء الأكبر من البحرية البريطانية قد دخل إلى غربى البحر المتوسط بحثاً عن أسطول بروى. ومن حسن حظ الفاتح الشاب أن سيدنى سميث يضيع وقتاً طويلاً فى إعادة التزود بالمؤن، وذلك من جراء سوء نية والى قبرص (١٤٨)، ولا يتم استئناف حصار الساحل المصرى إلا بعد شهر من رحيل السفن الفرنسية. ثم إن الغالبية العظمى من السفن الإنجليزية كانت قد عادت، فى ٣١ يوليو، إلى المحيط الأطلسى مقتفية أثر الأسطولين الفرنسى والأسبانى بقدر من التأخر. أما نيلسون، الباقى فى البحر المتوسط، والذى لم يعد أمامه التحسب لمعركة بحرية، فإنه كان قد نشر قواته بشكل سكونى من أجل محاصرة للموانئ الفرنسية والأسبانية. وهكذا فإن تحرك بروى غير المتوقع قد حرر غربى البحر المتوسط من أى خطر بالنسبة لبونابارت، الذى يمر دون أن يرصده أحد (١٤٩).

وفى الأول من أكتوبر، تصل الفرقة البحرية إلى أجاشيو حيث تقيم أسبوعاً. ويصبح الخطر أكثر جسامة قرب طولون التى يرى المسافرون أنها تخضع لحصار من جانب دورية بحرية إنجليزية قوية، وهكذا، فإن الجميع ينزعجون عندما تظهر فى الأفق، فى ٨ أكتوبر، سفن شراعية، ويبتهج الجميع لعدم رصدهم من جانب هذا الأسطول الإنجليزى الخطير. وكما أشار دولن، فمن الأرجح أن السفن كانت قافلة من السفن التجارية المحايدة، لأنه لم تك هناك أية سفينة حربية إنجليزية بين كورسيكا وبروفانس فى الأيام الأولى من أكتوبر.

«إن بونابارت، الذى استولت على خياله معجزات يهوذا وذكريات مقبرة الأهرام، يجتاز البحار غير عابئ ببوارجها ومهاويها، فكل شىء يمكن اجتيازه بالنسبة لهذا العملاق، الأحداث وأمواج البحر المتلاطمة» (١٥٠).

وفى ٩ أكتوبر ١٧٩٩، ينزل بونابارت فى فريجى. ويتجه على الفور مع رفاقه إلى باريس، مجازفاً بإحداث كارثة صحية واسعة النطاق بعدم احترامه للقواعد الحجر الصحى، الإلزامية بالنسبة لكل سفينة قادمة فى بلد يعتبر الطاعون دائما فيه. وعلى امتداد طريقه، يجرى الترحيب به كمنقذ. وهو يصل إلى العاصمة فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٩.



٤٩ – تمثال الكرنك الضخم.



٥٠ - السيد مصطفى باشا.



٥١ – (أ) بوسيلج.



(ب) تاليان.

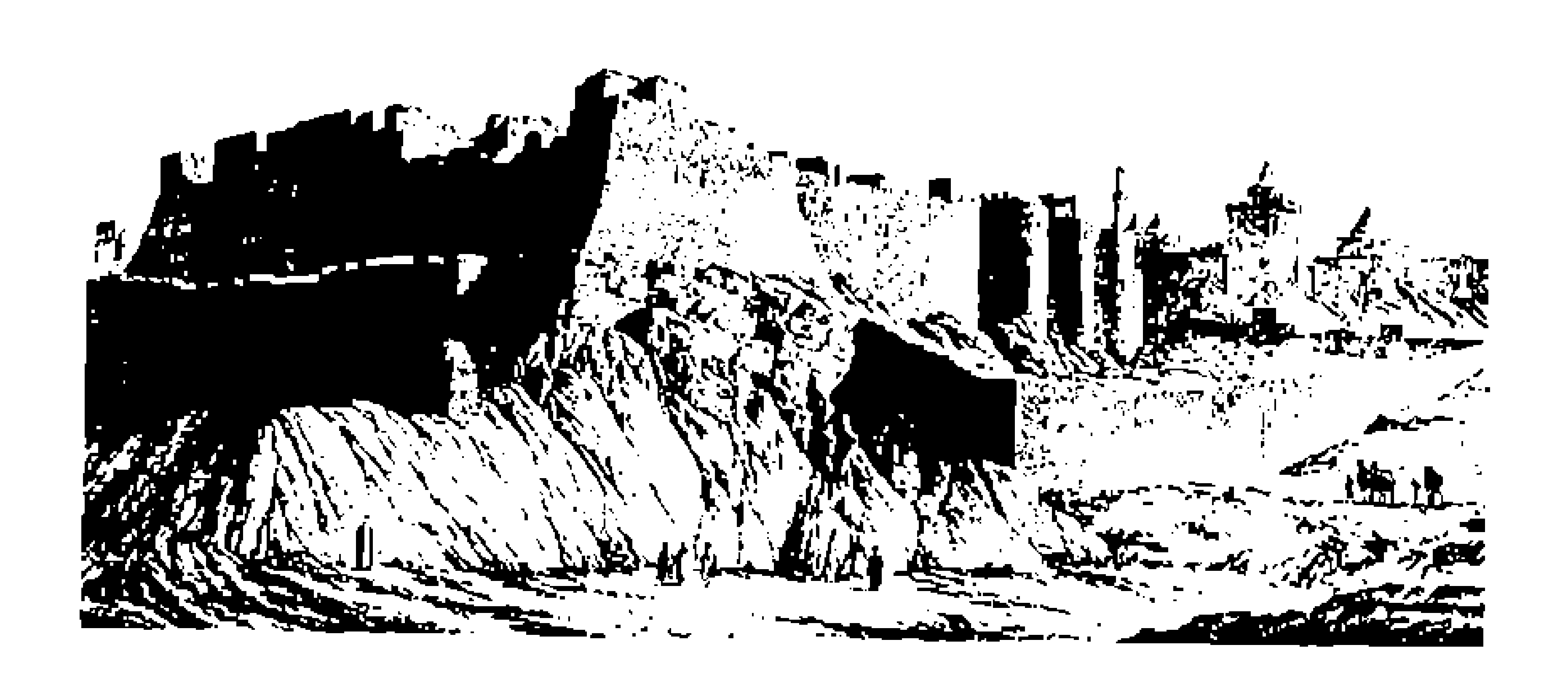


(ج) سيدني سميث.



(د) كليبر.

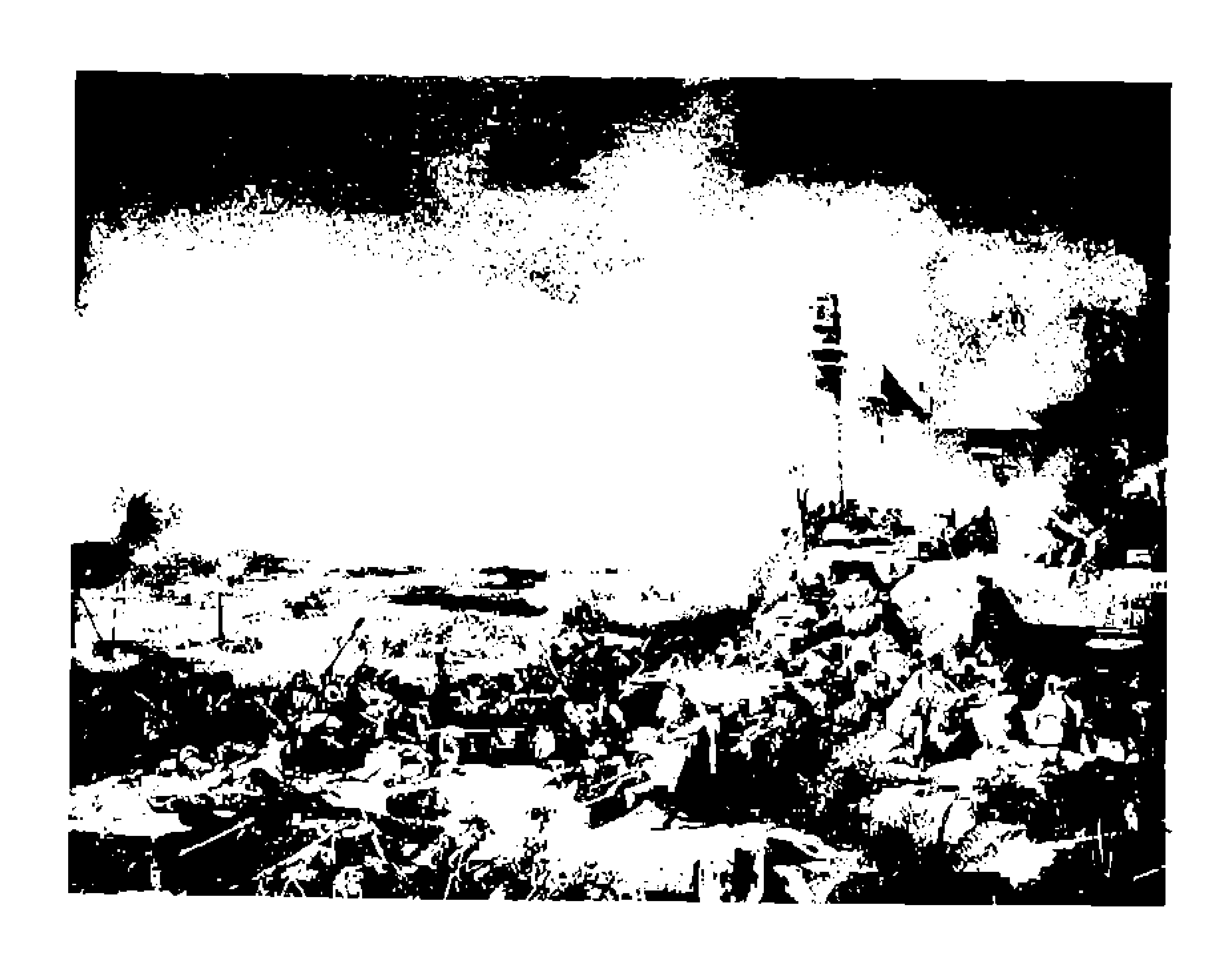




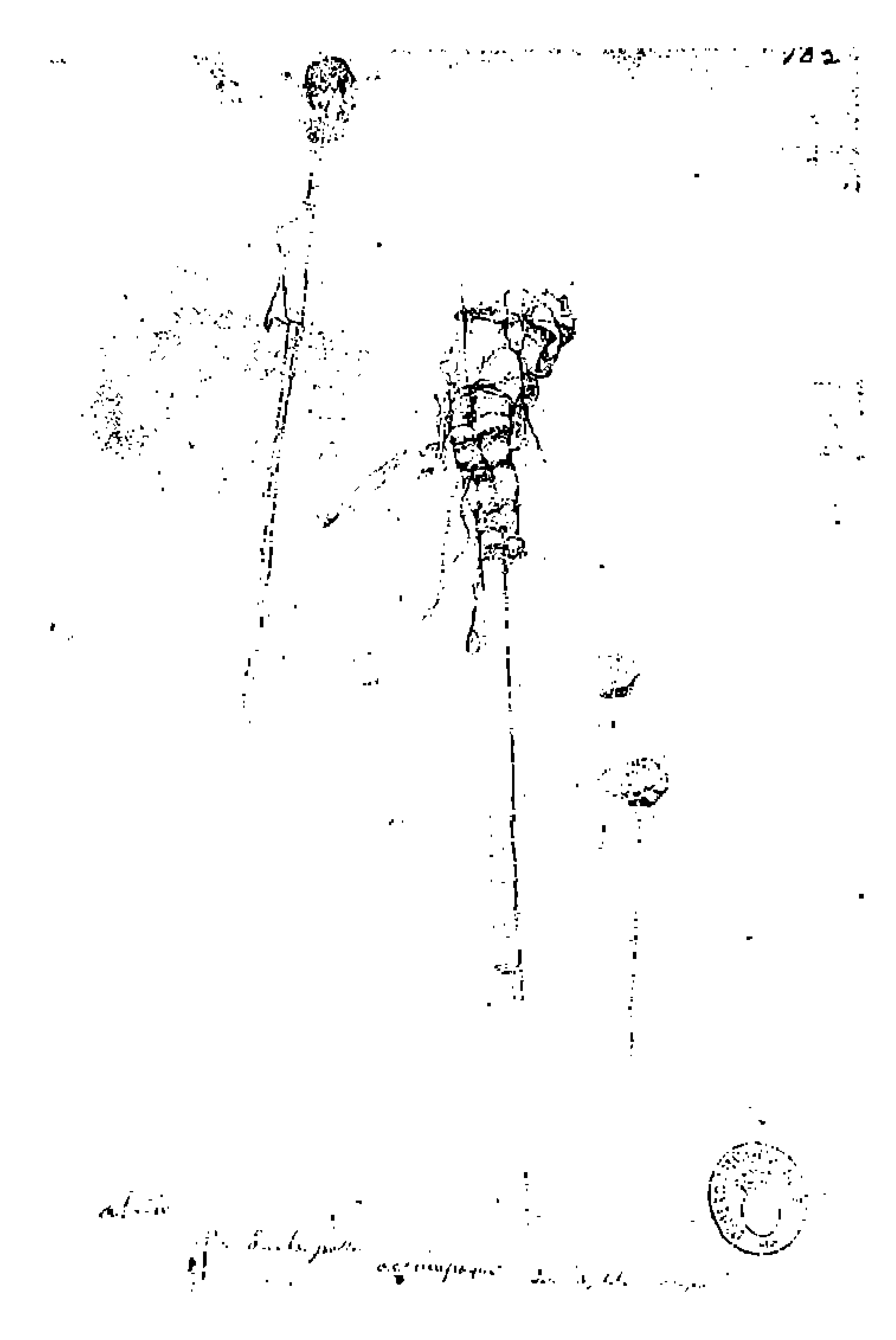
٥٢ – القلعة القاهرة.



٥٣ - خريطة عامة لبولاق والقاهرة وجزيرة الروضة والقاهرة القديمة والجيزة.



٥٤ – معركة هليوبوليس.



٥٥ - اعدام سليمان الحلبى على الخازوق.



٥٦ — مينو.

حواشي الفصل السادس

١ – *Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization,* The University of Chicago Press, 1974, T. III, p. 177.

٢ – Sur ces épisodes complexes que je ne fais que résumer ici, voir INGRAM, *Commitment to Empire...,* pp. 114 - 191. Le développement qui suit s'inspire de l'ensemble des analyses de cet historien de l'Empire britannique.

٣ – هكذا يوضح جونز أن ثمة صلاة من سليم الثالث يوجهها إلى زمان هنا كانت له «القوة لأوامر العليا إلى شعوب وملوك أوروبا في القرن الرابع عشر، وهي أوامر لا يمكن الملك عدم الانصياع لها إلا مجازفاً بضياع تاجه» cité par INGRAM, p. 258

٤ – Texte anglais dans FO 78 21.

٥ – Sur la vie de Sidney Smith, voir sa biographie par Peter SHANKLAND, *Beware of Heroel, admiral Sir Sidney Smith's War against Napoleon,* Londres, 1975. Sur l'évasion de la prison du Temple, voir DESMAREST (Pierre - Marie), *Quinze ans de haute police,* Paris, 1833, pp. 178 - 185.

٦ – FO 78 21 : Conférence tenue entre leurs Excellences Ismet Bey, Ahmed Hatif, Reis Effendi plénipotentiaires ottomans, Chelebi Mohammad Effendi Ministre de la Guerre, assistés par l'Amedgi Effendi et le Dragoman de la Porte d'une part, et le chevalier Sidney Smith (dans l'absence de M. Spencer Smith par indisposition) assisté de M. Pisani, Interpréte et accompagné par M.M. le colonel Phelyppeaux et Keith, secrétaire de l'autre dans la maison du Reis Effendi à Constantinople jeudi 17 janvier 1799 (10 Shaban 1213).

٧ – إن جوزيف نيودور دو بولينى، ممثل إسبانيا، غير المتحالفة مع فرنسا إلا في الصراع مع إنجلترا، قد أبلغ تاليران بأعمال الأخوين سميث اللذين نجحا أيضاً في العمل على أن يتم اعتبار العسكريين الفرنسيين الأسرى أسرى لإنجلترا خاضعين من ثم للقواعد اتفاق دال لتبادل الأسرى؛ [رسالة] من القسطنطينية، بتاريخ ١٨ يناير ١٧٩٩، A.F., *Correspondance Politique, Turquie,* Vol. 199 وهذا تطبيق فوري للخطة التي ارتآها سيدني سميث.

٨ – Voir la mise au point historiographique dans le livre de Jean TULARD, *Napoléon ou le mythe du sauveur,* Paris, 1977.

٩ – «إن سياسة القسطنطينية تتمثل في تحقيق أكبر اختزال ممكن للنفوذ الديني لشريف مكة؛ إن السلاطين خلفاء؛ وقد نجحوا فعلا في إلغاء [هذا النفوذ]. أما سياسة الجنرال الفرنسي فقد كانت على الضد من ذلك. لقد كان مهتماً بإحياء الاعتبار الديني لهذا الأمير الصغير، الذي كان يدور في فلك مصر بحكم احتياجاته. وقد انخفض هذا النفوذ لانخفاض نفوذ أهل الفتوى في القسطنطينية. إنه [الجنرال الفرنسي] لم يكتف فحسب، بل وشجع بمختلف السبل، اتصال العلماء بالشريف، الذي لم يتأخر عن فهم كل ما تمثله هذه السياسة من فوائد لاعتباره ولمصالحه. لقد كان الشريف مع توطيد السلطة الفرنسية في مصر، وقد اتخذ موقفاً إيجابياً إزاءها باستمرار في كل ما يتوقف عليه». *Compagnes d'Égypte et de Syrie...*, XXIX, pp. 582 - 583.

١٠ – *Campagnes...*, XIX, p. 575.

١١ – BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène*, Manuscrit déchiffré et annoté par Paul Fleuriot de Langle, Paris, 1959, II, p. 189.

١٢ – *Courrier de l'Égypte*, le 2 nivôse an VII (22 décembre 1798).

١٣ – من الصعب إجراء تقدير للعدد الإجمالي لسكان سوريا في تلك الفترة. والرقم الذي يقترحه حاييم جيربر Haim GERBER (The Population of Syria and Palestine in the Nineteenth Century, *Asian and African Studies*, XIII (1979), pp. 58 - 80)، وهو ١٢٠٠ ٠٠٠ من بينهم ٢١٨٠٠٠ بالنسبة لفلسطين، يبدو لي جد منخفض. أما انطوان عبد النور الذي يشدد على أهمية التحركات السكانية دون أن يقدم رقماً إجمالياً محدداً، فيبدو أنه يميل بالأحرى إلى اعتبار هذا الرقم ١٧٠٠ ٠٠٠ في عام ١٨٢٥ (*Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie Ottomane*, Beyrouth, 1982, p. 82)، وهو رقم لابد من أن يكون قريباً من رقم عام ١٨٠٠. ويقترح ألكسندر شولش بالنسبة لفلسطين في عام ١٨٥٠، رقم ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة (The Demographic Development of Palestine, 1850 1882, *International Journal of Middle East Studies*, XVII (1985), pp. 485 - 505) بعد فترة ركود ممتدة. ويبدو أن الاتجاه هو اتجاه نمو بالرغم من التذبذبات المعاكسة والظاهر أن فترة أواخر القرن الثامن عشر (كما في حالة مصر) كانت بالفعل مرحلة تميزت بانخفاض السكان.

١٤ – Amnon COHEN, "Ottoman Rule and the Re - Emergence of the Coast of Palestine", *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, n° 39, 1985, pp. 163 - 175.

١٥ – Sur cette question, voir l'article très éclairant de Scott ATRAN, "La Masha'a et la question foncière en Palestine, 1858 - 1948 *Annales, Économies, Sociétés, Civilisations*, 42 (1987), pp. 1361 - 1390.

١٦ – Sur Jazzar, le livre de E. LOCKROY, *Ahmed le Boucher, la Syrie*

et l'Égypte au XVIII^e siècle, Paris, 1888, est très vieilli quoiqu' agréable à lire. La synthèse fondamentale est le livre d'Amnon COHEN déjà cité, *Palestine in the XVIII th Century*, Jérusalem, 1973.

١٧ – Sur les structures et les réalités de la société du Mont Liban à cette époque, voir les premiers chapitres de l'ouvrage fondamental de Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe*, Paris, 1971.

١٨ – JABARTI, nécrologie de l'année 1219.

١٩ – ليس بونابرت هو الوحيد الذي يجري تحليلا كهذا : إن تقريراً مغفلا من التوقيع أرسل إلى تاليران في برومير من العام السابع (أواخر أكتوبر – نوفمبر ١٧٩٨) لا يرى، بالنسبة لجيش الشرق، غير إمكانية واحدة لقهر الإمبراطورية العثمانية، «الثورة» : إن بونابرت «سوف يجد في سوريا الدروز وشعوب جبل لبنان الأخرى. وسوف يدعوها إلى الاستقلال ولن تكون مهمله تجاه دعوته». وفي هذه الفترة نفسها، تشجع حكومة الإدارة الثوار اليونانيين وتنشئ وكالة أنكون للكفالة بالتحضير لانتفاضات في البلدان البلقانية العثمانية (A.E., *Correspondance Politique, Turquie*, Vol. 199).

٢٠ – *Le Moniteur*, 26 brumaire an VII : le texte est repris avec éloge dans le *Courrier de l'Égypte* des 3 et 12 thermidor an VIII, malgré l'échec de l'expédition.

٢١ – Campagnes..., XXX, p. 20.

٢٢ – Reynier à Bonaparte, le 29 pluviôse an VII (17 février 1798), LA JONQUIÉRE, IV, pp. 185 - 187.

٢٣ – يتفاخر العثمانيون بذلك، ويورد هامر هذه الجملة عن واصف : «صحيح أن الجندي المسلم إذا لم يكن محتمياً بسور نادراً ما يقاتل بكل البسالة التي هو أهل لها. إنه يذعن عندما يرى طرق النجاة مفتوحة حوله. لقد أثبتت التجربة ذلك كثيراً، وهذا ما أدى إلى دفع بونابرت، قنصل الفرنسيين الأول الآن، إلى القول بأن عشرة آلاف جندي جيدي الانضباط يكفون للانتصار في أرض مكشوفة على جيش من مئة ألف مسلم؛ لكن جيشاً من مائة ألف رجل لا يكفي لقهر عشرة آلاف مسلم محتمين بإحدى القلاع» (*Histoire de l'Empire Ottoman*, XVI, p. 361)

٢٤ – *Kléber et Bonaparte*, p. 55.

٢٥ – *Rapport sur la reconnaissance faite par le général Damas sur la route de Naplouse*, LA JONQUIÉRE, IV, pp. 245 - 246. «لقد رأيت عدة قرى مبنية بشكل جد رائع على مرتفعات ذات مدخل صعب. ووسط الصخور والأحراش، نجد حقول قمح، بما يشكل برهاناً على أن استبداد الباشاوات لم يمتد البتة إلى هذه الجبال، التي تتمتع بنظام جد سهل.

«إن سكان الجبال هؤلاء يطلقون النار بإحكام بالغ، محميين ومختبئين دائماً. وعندما يزحف المرء إلى المكان الذي تنطلق منه النيران، فإنه لا يعثر عليهم البتة ويتعرض لطلقات البنادق من الأحراش المجاورة ؛ وهذا نوع من الحرب جد قاتل. [...].

«إنهم يتوقفون عند الأحراش الأخيرة ولا يجترئون البتة على الخروج إلى الأرض المكشوفة. [...].

«وإذا ما أراد المرء التغلغل في هذا البلد، فلن تكون هناك حاجة لا إلى المدافع ولا إلى الفرسان، لأنهم سوف يجبرونك على المرور بشعاب صعبة إلى أقصى حد؛ لكن الهجوم يؤدي حتئذ إلى الارتباك»

٢٦ – لابد أن حامية العريش كانت تتألف على أقصى تقدير من ألف ومائتي جندي؛ وقد جرى إجبار جزء لا بأس به على الخدمة في الصفوف الفرنسية؛ وإذا كان جميع الآخرين قد تواجدوا في يافا، فلابد من أن ندخل في الهجوم نسبة من الخسائر مساوية لنسبة بقية الحامية. ومن ثم فإنهم لا يشكلون غير جزء طفيف نسبياً من الأسرى، والحال أن نابوليون سوف يزعم في سانت – هيلين أن الوهابيين الذين أعدموا رمياً بالرصاص في يافا هم قدماء مقاتلي العريش (LA JONQUIÉRE, IV, pp. 268 - 269).

٢٧ – VOLNEY, *Voyage...*, p. 93.

٢٨ – J. MIOT, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie*, Paris, 1814, pp. 146 - 149. C'est le frère de Miot de Melito, voir le *Dictionnaire Napoléon*.

٢٩ – *Correspondance...*, V, p. 456.

٣٠ – *Correspondance...*, V, pp. 458 - 459 «الرءوف والرحيم» من صفات الله ...

٣١ – Voir la lettre de Sidney Smith à Saint Vincent, devant Acre le 23 mars 1799, dans BARROW (John), *Life and Correspondence of Admiral Sir Sidney Smith*, Londres, 1848, I, pp. 266 - 269.

٣٢ — *Correspondance...*, le 30 ventôse an VII (20 mars 1799), pp. 477 - 478 في ذلك الزمن، غالباً ما كان الأوروبيون يخلطون بين الدروز والموارنة. والحق أن التناحرات بينهم لم تكن بعد من النوع الذي سوف يظهر في القرن التاسع عشر.

٣٣ – LA JONQUIÉRE, IV, p. 318 et Yassine SOUEID, *Histoire militaire des Muaqata'a libanais à l'époque des deux Émirats*, Beyrouth, 1985, II, pp. 561 - 562.

٣٤ – خاصة، العميدان لوجييه وليسكال؛ وقد أصيب قائدا كتيبة الهندسة سالى (أخ جان – باتيست سالى)، وسونيه والقائد السورية لوييه إصابة جسيمة وماتوا بعد ذلك متأثرين بجراحهم.

٣٥ – Sidney Smith à Saint - Vincent, devant Acre, le 4 avril 1799, BARROW, I, pp. 273 - 275.

٣٦ – بل إن نظام مكافأة للالتقاط [التقاط قنابل الأعداء] قد أنشئ للجنود ، LA JONQUIÉRE, IV, p. 368.

٣٧ – *Histoire Scientifique...*, V, pp. 278 - 281.

٣٨ – Sur la campagne de Klébre en Galilée, voir *Kléber et Bonaparte*, pp. 433 - 476.

٣٩ – Lettres de Berthier et de Bonaparte à Dugua, le 19 et 20 avril 1799, LA JONQUIÉRE, IV, pp. 434 - 437.

٤٠ – Haidar CHEHAB, II, p. 197.

٤١ – Haidar CHEHAB, III, pp. 399 - 400 et Michel CHEBLE, *Une histoire du Liban à l'époque des Émirs,* Beyrouth, (réédition) 1984, pp. 170 - 173; même référence pour la seconde lettre de Sidney Smith.

٤٢ – سيدنى سميث إلى سبنسر سميث، ١٤ مايو ١٨٠٠ : «لدى رسولان من دروز ومسيحيى جبل لبنان، جاءا تلبية لرسالتى إليهم والداعية إلى إرسال رسل، وهما يعلمننى بأن كل ما أطلبه منهم سوف يجرى عمله ضد العدو، بعد أن رأوا مدى قوتنا وقدرتنا على حمايتهم». BARROW, I, p. 298 انظر أيضاً رسالته إلى نيلسون بتاريخ ٣٠ مايو ١٧٩٩ حيث يوجز سياسته : «أخذاً بعين الاعتبار أن أفكار السوريين فيما يتعلق بمسألة هؤلاء الغزاة المزعومة التى لا تقهر لابد وأنها قد تغيرت منذ أن رأوا الخيبات التى تعرض لها الجيش المحاصرُ يوماً إثر يوم فى عملياته أمام مدينة عكا، فقد كتبت رسالة تعميمية إلى أمراء وزعماء مسيحيى جبل لبنان وكذلك إلى مشايخ الدروز، داعياً إياهم إلى حجب الإمدادات من المعسكر الفرنسى؛ وقد أرسلت إليهم فى الوقت نفسه نسخة من بيان بونابارت الكافر الذى يتظاهر فيه بالإطاحة بالبابا، وهى رسالة مرتد عديم المبادئ»؛ وقد كان لهذه الرسالة كل الوقع الذى تمنيته : فقد أرسلوا إلىَّ على الفور رسولين يعلنان لا الصداقة وحدها، بل والطاعة ويؤكدان لى أنهم، برهاناً على الطاعة، أرسلوا مجموعات لإلقاء القبض على الجبليين الذين يعثر عليهم حاملين نبيذاً وبارود مدافع إلى المعسكر الفرنسى ويضعون تحت تصرفى ثمانين سجيناً من هذا النوع. وهكذا فإننى أشعر بالارتياح إذ أجد أن زحف بونابارت إلى مسافة أبعد شمالاً قد تم وقفه عملياً من جانب شعب مقاتل يسكن بلداً يستحيل اختراقه» Ibid., p. 308

وتتحدث المصادر العربية عن ابن أخ لسيدنى سميث. ومن المؤكد أن هذا الأخير كان عليه أن

يقدمه بهذه الصفة لكى يبدو فى صورة شرقية أكثر ولكى يضفى أهمية أكبر على الثقة التى يريد إيهامها للجبليين. أما واقع أن هذا الشخص هو رايت، فيجرى الإشارة إليه فى رسالة من سيدنى سميث إلى أخيه تحمل تاريخ ١٤ مايو ١٧٩٩ : «رايت فى بيروت، القنصل»؛ HOWARD, *Memoirs of Admiral sir Sidney Smith*, Londre. 1832, II, p. 403 (لا يطول النص الذى يورده بارو إلا : «رايت على الشاطئ، القنصل»)

٤٢ – *Campagnes*..., XXX, p. 60.

٤٤ – *Campagnes*..., XXX, p. 44.

٤٥ – Voir H. LAURENS, "Le projet d'État juif en Palestine attribué à Bonaparte", à paraître dans la *Revue d'Études Palestiniennes* en fin 1989.

٤٦ – «إننى هنا أستمتع تماماً بطريقتى المفضلة، وذلك بتكبير أبطال الأمة العظمى وبجعلهم يشعرون أن أفضل شيء يمكن أن يحدث لهم هو أن يصبحوا أسرى لى، لأنهم بهذه الطريقة سوف يملأون بطونهم ويرجعون إلى عائلاتهم حيث سيقومون بطبيعة الحال بشتم ومعارضة أولئك الذين أرسلوهم إلى هذه المهمة الحمقاء»، إلى والدته، ٧ مارس، BARROW, I, p. 270.

٤٧ – *Histoire Scientifique*..., V, pp. 392 - 394. تشير غالبية المصادر إلى أن توزيع بيان الباب العالى قد تم نحو منتصف مايو، إلا أن رد فعل بونابارت يصبح غير مفهوم إن لم نفترض أن عمل سيدنى سميث السيكولوجى قد بدأ قبل ذلك بشهر.

٤٨ – LA JONQUIÉRE, IV, pp. 440 - 441. يجد المؤرخ العسكرى الكبير أن الظروف التى ألهمت هذا الأمر اليومى لم تحدد بشكل جيد. على أن التناظر واضح بما يكفى بين أمر بونابارت اليومى وبيان الباب العالى بحيث يتعذر عدم الاعتراف بانتشار الأفكار عن طريق الاتصالات بين المحاصِرين والمحاصَرين. وعلاوة على ذلك، فإن نابوليون يذكر ذلك بوضوح فى سانت – هيلين لبرتران (الذى كان مع الحملة) : «لقد تعاملت مع سيدنى سميث بوصفه معتوهاً، لأنه كان يزعجنى فى الصميم، لأنه كان دساساً، بذل جهده فى بث وتشجيع روح خبيثة فى الجيش بتكراره أنه سوف يسهل العودة إلى فرنسا. أما الشيء الجيد الذى فعله فهو أنه أخذ معه، خلال حصار عكا، فيليبو الذى قدم إليه نصائح جيدة»

٤٩ – مما له دلالة أن هاتين البيئتين هما اللتان شدتا انتباه الجبرتى (٧ ذى الحجة و ٢ محرم سنة ١٢١٣).

٥٠ – Sidney Smith à Saint - Vincent, le 9 mai 1799, BARROW, pp. 284 - 219.

٥١ – A Evan Napean, le 9 mai 1799, LA JONQUIÉRE, IV, p. 483. ليس هذا ثابتاً ، إذ تجرى الإشارة هناك على سبيل المثال إلى وصول شخص مع قوات الباب العالى يدعى السيد ثروت وهو ليس أحداً آخر غير فروتيه، وهى معلومة جرى التأكيد عليها فى رسالة سيدنى سميث التى سبق الاستشهاد بها.

٥٢ – *Mémoire de M. Bourrienne sur Napoléon,* édité par Désiré Laroix, Paris, I, pp. 363 - 364.

٥٣ – Sur cet épisode, voir *Kléber et Bonaparte...,* I, pp. 57 - 61 et II, pp. 475 - 478.

٥٤ – Proclamation à l'armée, devant Acre, le 28 floréal an VII (17 mai 1799), *Correspondance...,* V, pp. 553 - 554.

٥٥ – «لقد أرسلتهم إلى دمياط حيث سوف يحصلون على العون الإنسانى الذى تتطلبه حالتهم والذى لم يكن بوسعى منحه لكثيرين. إن إعرابهم عن الاعتراف بالجميل لنا كانت ممتزجة بإلقاء اللعنات على اسم قائدهم الذى عرضهم بهذه الطريقة، كما قالوا، إلى الهلاك، بدلا من أن يستأنف التفاوض بشكل عادل ومشرف مع الإنجليز، والذى قطعه بزعم زائف وخبيث مؤداه أننى عرضت الأسرى السابقين عمداً للإصابة بعدوى الطاعون. ومما يشرف الجيش الفرنسى أنه قال إنه لم يصدق هذا الزعم وهكذا فقد ارتد على من أطلقه». وقد تأكد وصول الجرحى إلى مصر من خلال رسالة من ألميراس إلى دوجا، أرسلت من دمياط بتاريخ ١٢ بريريال من العام السابع (٣١ مايو ١٧٩٩)؛ وكان عددهم ١٥٠. ويستفيد سيدني سميث من ذلك لكى يرسل بيان الباب العالى ويضيف : «إن كل شيء يدفعكم إلى الاستعداد للجلاء عن الإمبراطورية العثمانية دون تأخير، مستفيدين بذلك من السبيل الوحيد المقترح لإنقاذ الجيش الفرنسى». LA JONQUIÉRE, IV, pp. 591 - 593.

٥٦ – *Kléber et Bonaparte...,* pp. 543 - 544.

٥٧ – حول أحداث يافا، انظر التحليل الحاسم الذى قام به LA JONQUIÉRE, IV, pp. 575 - 583. وسوف يجرى رفع عدد ضحاياها إلى أكثر من ٥٠٠، ومن هنا اتساع المناظرة وإخلاص المدافعين عن بونابارت الذين شاركوا فى حملة مصر ؛ إنهم لن يحاولوا معرفة كنه حقيقة المسألة.

٥٨ – Lettre à Nelson du 30 mai, BARROW, I, p. 308. Curieusement, les archives militaires (B6 23) conservent une traduction de cette lettre. La présence du calendrier révolutionnaire montre qu'il s'agit bien d'une traduction d'époque. C'est peut - être une indiscrétion calculée de la part du commodore. LA JONQUIÉRE, la donne in extenso, IV, pp. 588 - 592.

٥٩ – Bonaparte à Kléber, le 9 prairial an VII (28 mai 1799), *Correspondance...,* V, pp. 568 - 569.

٦٠ – CHAPTAL, *Mes souvenirs sur Napoléon par le comte Chaptal publié par son arrière - petit - fils,* Paris, 1893, pp. 303 - 304.

٦١ – Amnon COHEN, *Palestine...*, pp. 108 - 109; Clinton BAILEY, "The Negev in the Nineteenth Century : reconstructing history from bedouin oral traditions", *Asian and African Studies*, XIV(1980), pp. 35 - 80.

٦٢ – LA JONQUIÉRE, IV, p. 597.

٦٣ – LA JONQUIÉRE, IV, pp. 612 - 613.

٦٤ – Dugua à Bonaparte les 26 pluviôse et 29 pluviôse (14 et 17 février 1799), B6 108. إن ماركو كالالاجى، عميل روزيتى، هو الذى كلف بالتفاوض مع البدو، وصولا إلى تهدئتهم وسوف يصبح مصدرا ممتازا للمعلومات (Dugua à Leclerc, le 3 ventôse an VII "21 février 1799").

٦٥ – يضم الملف B6 18 مراسلات غزيرة لمينو مع المسلمين. وهى ذات طابع تكرارى مسرف ولا تقدم الكثير، ورسالته إلى مارمون بتاريخ ٦ فنتوز من العام الثامن (٢٤ فبراير ١٧٩٩) هى هجوم حقيقى على الأقليات التى تشكل البنية التحتية للمالية لمصر ؛ وهو يهاجم بشكل خاص اليهود: "إنهم جنس ملوث وحقير لا يقدم لنا خدمة وهم بحكم مهنتهم أكبر سارقين للجنس الإنسانى [...] إن هؤلاء الناس جميعهم قد خدعوا ويخدعون يوميا إدارة القاهرة ؛ ولدى وصولى إلى هناك، سوف أشنها لهن حرب حتى الموت عليهم لأننى أكن فوق كل شىء الكراهية الأكثر حسما للمحتالين"

٦٦ – L'étude la plus complète sur le mariage de Menou qui rassemble toutes les informations que nous posssédons, y compris les actes originaux du mariage découverts au siècle dernier, est l'article de René KHOURY, "Le mariage musulman du général Abdallah Menou", *Egyptian Historical Review*, XXV (1978), pp. 65 - 93.

٦٧ – إنه لا يعلن رحيله لديوان رشيد إلا فى ١٠ مايو ١٧٩٩، B6 22 .

٦٨ – JABARTI, ramadan 1213.

٦٩ – Plusieurs mentions dans la correspondance générale de l'envoi de textes à al Mahdi : voir par exemple, B6 108, lettre de Dugua à Poussielgue le 27 pluvôse an VII (15 février 1799). JABARTI note avec plaisir l'élégance des textes obtenue grâce aux demandes insistantes des membres du diwan (14 shawwal 1213).

٧٠ – JABARTI, ramadan 1213 et B6 108, Dugua à Poussielgue le 26 pluviôse (14 février 1799).

٧١ – Dugua à Bonaparte, Précis de la situation des provinces de l'Égypte au 19 ventôse an VII (9 mars 1799), LA JONQUIÉRE, V, pp. 23 - 27.

٧٢ – *Kléber et Bonaparte...,* p. 537. على سبيل المثال، تبادل زيارات مع كليبر

٧٣ – Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), LA JONQUIÉRE, V, pp. 36 - 37 et B6 109.

٧٤ – وفقاً لدقولا الترك، فإن آغا الإنكشارية مصطفى آغا قد صحبه إلى سوريا وقد أعدمه الجزار بوصفه جاسوساً (WIET, p. 38) والواقع أن حوليات دقولا الترك هي واحدة من أكثر الحوليات تشويهاً أما حوليات حيدر الشهابي فهي أفضل إلى حدٍ ما (II , 253) .

٧٥ – Dugua à Bonaparte, le 18 germinal an VII (7 avril 1799), B6 109.

٧٦ – Dugua à Bonaparte, le 14 germinal an VII (3 avril 1799), LA JONQUIÉRE, V, p. 45.

٧٧ – JABARTI, Ramadan et Shawwal 1213; Dugua à Bonaparte, le 14 germinal an VII (3 avril 1799), LA JONQUIÉRE, V, p. 44.

٧٨ – لقد نشر سلفستر دوساسي رسائل الشريف في كتابه *Chrestomatie Arabe*, Paris, 1827, III, pp. 319 - 327 انظر أيضاً الجبرتي، ذو الحجة ١٢١٣ و B6 183 ، رسالة بوسيلج إلى الشريف، والمؤرخة في شهر جيرمينال. وقد قدم هذا الأخير له شرحاً حقيقياً للثورة الفرنسية : «منذ عشر سنوات، يعلن الفرنسيون ويروجون مبادئ الحرية المدنية والدينية. وقد باعوا في كل مكان عقائد الشعوب؛ ولم يهاجموا غير انعدام التسامح وهذا الانعدام للتسامح هو العدو الأكثر تحديداً للمسلمين. إن الفرنسيين مثلهم شأن المسلمين لا يؤمنون إلا بإله واحد وهم مثلهم يسلمون بالقدر ويخضعون لأوامره الثابتة. وتختلف قوانينهم من كل ما هو معروف بالعدل في قوانين الشعوب الأخرى، وهم رهيبون في الحرب وكرماء في النصر وفاعلون للخير في السلم».

٧٩ – Le texte imprimé de Jabarti, aussi bien dans les *Aja'ib* que dans le *Mazhar* porte la forme erronée ibn (fils), au lieu de bunn (café), ce qui conduit CUOQ (p. 136) à traduire : "quant aux Français, ils exonérèrent le fils du Chérif de toute taxe", alors que le sens évident dans le contexte est bien le "café du Chérif". Les erreurs de transcription ou même d'écriture dans les manuscrits originaux de Jabarti sont nombreuses, et il est regrettable de ne pas disposer d'édition critique de cet auteur (sauf pour la *Mudda*).

٨٠ – JABARTI, fin dhu al hijja 1213.

٨١ – Dugua à Bonaparte, le 1 er floréal an VII (20 avril 1799), B6 109.

٨٢ – B6 109: دوجا إلى بوسيلج، ٣٠ فلوريال من العام السابع (١٩ مايو ١٧٩٩) : «يجب، أيها المواطن المدير، إفهام الشيخ البكري إلى أي مدى يتعارض هذا المسلك مع مصالحه الخاصة ومع سلامته الشخصية، إلى أي مدى سوف يكسر التلك العلم الذي يمكن [لهذا المسلك] أن

يسيء إليه في نظره ولهذا) فإنه لكون الأمر يتعارض مع السكينة العامة، فإنه لا يجب أن يفتش إذا ما أصدرت أوامر بإلقاء القبض دون تمييز على الأشخاص الذين يوجدون في القاهرة دون تصريح مناسب بصرف النظر عن الشخص الذي يحميهم. وبما أن ترجمانك أفضل من ترجماني، فلتعمل على أن يستجيب الشيخ البكري عن طيب خاطر لتحذيرك لأنه بحاجة إليك، ولتعمل على إلزامه جادة الصواب هو ورفاقه أيضاً. إنهم يسعون كلهم إلى تأمين حيلٍ لاستخدامها في حالة حدث غير متوقع».

٨٣ – إن جارية للمملوك السابقة هذه تحوز من ثم جزءاً من التزام، وهو شيء مألوف في هذا الوسط.

٨٤ – Dugua à Bonaparte, le 6 germinal an VII (26 mars 1799), B6 109.
Le commandant de la place est le général Destaing. J'ai retranscrit les noms arabes du texte.

٨٥ – B6 21 : Destaing à Dugua, le 2 floréal an VII (21 avril 1799), Poussielgue à Dugua, le 3 floréal an VII (22 avril 1799) et B6 109 : Dugua à al Bakri, le 3 floréal an VII. Jabarti, là encore, ne mentionne pas cet incident.

٨٦ – B6 109, Dugua, à Lanusse, le 6 germinal an VII (26 mars 1799).

٨٧ – هذا هو موقف مارمون، الذي أصدر بياناً بهذا المعنى، في ٢ جيرمينال من العام السابع (٢٢ مارس ١٧٩٩)، بالنسبة لكل غربي الدلتا (B6 20) . وقد ألغى دوجا هذا القرار بعد ذلك بأيام قليلة (B6 109) .

٨٨ – Jabarti, 17 shawwal 1213, fin dhu al qa' da; Dugua au diwan du Caire, le 5 floréal an VII (24 avril 1799), B6 109.

٨٩ – Dugua à Bonaparte, le 11 floréal an VII (30 avril 1799), LA JONQUIÉRE, V, p. 73. لا يقدم الجبرتي ونقولا الترك غير معلومات جد ضئيلة عن أصل الرجل. ويبدو أن مؤشرات تالية تشير إلى أنه من فاس.

٩٠ – Lefebvre à Dugua, le 23 floréal (12 mai 1799), LA JONQUIÉRE, V, p. 89.

٩١ – Lanusse à Dugua, le 21 floréal an VII (10 mai 1799), LA JONQUIÉRE, V, p. 87.

٩٢ – *Campagnes...*, XXX, p. 78.

٩٣ – Voir mes *Origines intellectuelles de l'Expédition d'Égypte*, en particulier les pages 252 - 253.

٩٤ – المقصود هو إرسال رسالة إلى مراد بك ، «تأملت طويلا قائمة الزعماء العرب التي

قدمها إلى السير صمويل هود والعميد البحرى تروبريدج، ضابطى البحرية فى المركز البحرى قبالة الإسكندرية واللذان كنت قد قابلتهما هناك فى الصحبة الملكية، فور معركة النيل مباشرة، واللذان وجدا، فى اتصالهما بالشاطئ، رجالا ذوى نفوذ غير متحمسين للسيطرة الفرنسية. ولقد اخترت بعد إمعان التفكير اسماً من هذه القائمة جرت الإشارة إليه على أنه ابن عبد الله باشا، حاكم دمنهور، بين الإسكندرية والنيل، والذى كان أحد ضحايا نظام الإرهاب الذى أقامه بونابارت، والذى تجلى منذ بداية هبوطه إلى الإسكندرية؛ دون أن يأخذ فى اعتباره، وإن كان من المحتمل أن كثيرين قد استسلموا للخوف من جراء ذلك، إن أقارب الضحايا سوف يشعرون بالسخط وهو أمر من المؤكد أن من شأن كورسيكى أن يتذكره.

«وكان اسم العربى هو إبراهيم بن عبد الله باشا، وهو معروف بأنه قد انسحب من حطام بيت والده ورحل إلى درنة، على الساحل المواجه لكانديا، بعيداًعن السلطة والأسلحة الفرنسية».

وعند الإنزال البريطانى، يقابل سيدنى سميث رجله الذى يعلن له أنه سوف يحمل بنفسه الرسالة إلى مراد بك: «إننى لن أرسل رسالتك، إننى سوف أحملها بنفسى، فهذا هو واجبى، لأن الفرنسيين قتلوا والدى فى دلماتريوس، وأنتم تطاردون من قتلوه». ويشير سيدنى سميث إلى أنه هو الذى سلم الإسكندرية للإنجليز فى عام ١٨٠٧ (BARROW, II, pp. 38 - 44) أما كتاب *Victoires, conquêtes, désastres et revers des Français*, Paris, X, 1818, pp. 304 - 306 فهو يشير إلى موت عبد الله باشى فى دمنهور فى ذات الوقت الذى يموت فيه إبراهيم الشوربجى، لكنه يشير أيضاً إلى موت المهدى فى المعركة نفسها. ولا نجد بعد ذكراً لعبد الله باشى بعد ذلك التاريخ.

٩٥ – JABARTI, shawwal 1214.

٩٦ – LA JONQUIÉRE, V, p. 93 (lettres de Poussielgue et de Dugua), B6 22, Interrogatoire du coupable; JABARTI, 14 dhu al qa' da 1213.

٩٧ – Dugua au général Damas, le 17 floréal an VII (6 mai 1799), B6 109.

٩٨ – الصحراء العربية هى الصحراء الممتدة بين وادى النيل والبحر الأحمر خلافاً للصحراء الليبية التى تبدأ عند الضفة اليسرى للنيل.

٩٩ – LA JONQUIÉRE, III, pp. 553 - 569.

١٠٠ – عندما يصل الخبر إلى علم بونابارت فى عكا، يتملكه شعور داخلى بقرب ضياع إيطاليا. ووفقاً لبوريان، فإن: «هذا الخبر المحزن، بتفاصيله المريعة، واسم المركب، قد أثرا تأثيراً قوياً فى نفس القائد الذى قال لى بنبرة نبوئية: «عزيزى، إن فرنسا قد خسرت إيطاليا، لقد قضى الأمر، إن حدسى لا يخدعنى أبداً». وقد أوضحت له أنه لا يمكن أن تكون هناك فى الواقع أية علاقة بين إيطاليا ومركب جرى تدميره على بعد ثمانمائة فرسخ منها كان قد منحه اسم ذلك البلد. ولم يكن بوسع شىء أن يحوله عما استشعره فى البداية؛ وسوف يتحقق الحدس بعد قليل».

١٠١ – Vivant DENON, *Voyage*..., pp. 158 - 159.

١٠٢ – إن دونزيلو هو جندي جاء من صفوف جيش النظام القديم، وقد خدم في البداية على الراين وسرعان ما سوف يصبح من المخلصين لبونابارت.

١٠٣ – Vivant DENON, p. 190.

١٠٤ – LA JONQUIÉRE, V, p. 262.

١٠٥ – Instructions du Directoire à Bruix, le 25 ventôse an VII (15 mars 1799), LA JONQUIÉRE, V, pp. 136 - 138.

١٠٦ – المقصود هو شخص اسمه بطرس بوكتي، وهو تاجر سوري ولد في مصر وربي في فرنسا، تشهد على وجوده المصادر الفرنسية (LA JONQUIÉRE, V, pp. 666 - 668) وتقولا الترك (WIET, p. 64) وقد جرى الخلط بينه وبين يوناني اسمه بوربكي الذي يقال إنه قد ارسل بعد ذلك بوقت طويل من جانب جوزيف بونابارت والذي لن يصل ابداً. وفيما بعد سوف يتولى آل بونابارت رعاية أسرته : إن ابنيه سوف يخدمان في الجيوش الإمبراطورية وحفيده ليس شخصاً آخر غير الجنرال بورباكي الذي خدم في ظل الإمبراطورية الثانية.

١٠٧ – LA JONQUIÉRE, V, pp. 166 - 168.

١٠٨ – بالشكل نفسه، لم تدخل الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى في حرب ضد الإمبراطورية العثمانية، وخلال الحرب العالمية الثانية لم يعلن الاتحاد السوفييتي الحرب على اليابان إلا في الأسبوع الأخير للحرب.

١٠٩ – «ثم إن تعزيزاً غير متوقع يصل عندئذ للكاردينال من جهة أخرى : فبعد الاستيلاء على كورفو مباشرة، يظهر جزء من الأسطول الروسي – التركي في مياه نابولي. [...] ويضع [...] سوروكين تحت تصرف الكاردينال خمسمائة وستين رجلاً، تحت إمرة القائد بيل، وينضم إليهم أربعة وثمانون تركياً تحت قيادة أحمد بك. ومن الواضح أن هذا الدعم من جانب الكفار والمقدم إلى جيش الدين المقدس قد سبب بعض القلق للكاردينال؛ على أن بعض الهراطقة والمنشقين كانوا قد قدموا له بالفعل عوناً جد مفيد وقد قال أحمد بك بظرف بالغ : «إننا نشرب الخمر وندافع عن المسيحيين».

وبعيداً عن الطرافة، فإننا نجد بجلاء برنامج التضامن الديني بين الملل المسيحية الرئيسية والإسلام ضد إلحاد الثورة.

١١٠ – SYBEL..., p. 79.

١١١ – LA JONQUIÉRE, V, p. 179.

١١٢ – Le 3 septembre 1799, extrait du mémoire dans LA JONQUIÉRE, V, pp. 184 - 185.

١١٣ – A.E., *Correspondance politique*, Turquie, Vol. 201.

١١٤ - Le comte BOULAY DE LA MEURTHE, dans son livre *Le Directoire et l'Expédition d'Égypte* (Paris, 1885) a fit un relevé précis et minutieux de toutes les tentatives de communication du Directoire avec l'armée d'Orient et a montré que le dernier messager est arrivé comme on l'a vu le 3 mars 1799.

١١٥ - BERTRAND, *Cahiers de Sainte - Hélène...,* II, janvier 1819, p. 263. «عندما مات فينتور في مصر، كان ذلك خسارة كبيرة بالنسبة لي. ولم أعد أتحدث مع الأتراك بالاهتمام نفسه. وقد قال لي المشايخ «إننا لم نعد نفهمك. مع فينتور كان كل ما تقوله يثير الخيال ويخلدا. والآن ما زلنا نفهم، لكن الأمر لم يعد كما كان عليه»؛ ولم يكن بالإمكان بعد تقريبا إجراء مناقشات من القرآن»

١١٦ - Description dans *l'Histoire Scientifique,* VI, pp. 4 - 7.

١١٧ - JABARTI, 10 Muharram 1214.

١١٨ - Détails de toutes ces mesures dans LA JONQUIÉRE, V, pp. 191 - 226.

١١٩ - LA JONQUIÉRE, V, pp. 230 - 232.

١٢٠ - الجبرتي، ٢٤ محرم ١٢١٤؛ CUOQ, pp. 165 - 166 ذلك هو النص العربي الذي قدمه كاتب الحوليات المصري. أما النص الفرنسي فهو يبرز لختلافات. بالنسبة للجملة الأخيرة : «يترتب من ثم على ديوان وشعب مصر أن يريا في هذا المسلك برهانا جد خاص على المشاعر التي أكنها في قلبي لسعادتهم ولازدهارهم؛ وإذا كان النيل هو النهر الأول في الشرق، فإن شعب مصر، في ظل حكمي، يجب أن يكون أول الشعوب». ٩ مسيدور من العام السابع (٢٧ يونيو ١٧٩٨).

١٢١ - JABARTI, 3 safar 1214.

١٢٢ - LA JONQUIÉRE, V, pp. 236 - 237.

١٢٣ - JABARTI, 6 safar 1214.

١٢٤ - *Histoire Scientifique,* VI, pp. 169 - 170.

١٢٥ - *Courrier de l'Égypte,* 3 thermidor an VII (21 juillet 1799).

١٢٦ - LA JONQUIÉRE, V, pp. 246 - 251.

١٢٧ - LA JONQUIÉRE, V, pp. 240 - 243 et Jean Edouard GOBY, *Premier Institut d'Égypte...,* pp. 45 - 48. وقع الحادث في ٤ يوليو ١٧٩٩؛ وسوف يطلب ديجينيت أن يعود إلى فرنسا وهو طلب لن يجاب إليه. وسوف تتشابك هذه المسألة مع مسألة المصابين بالطاعون في يافا. والحال أن الكاتب الإنجليزي ويلسون هو أول من تحدث عن هذه المسألة في عام ١٨٠٢. وسوف يلهم ديجينيت الرواية التي ظهرت في كتاب *Victoires,*

والذى ظهر فى *conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français.* الأشهر الأخيرة من وجود بونابارت، وهو ما سوف يستتبع هذا التعليق فى يوميات برتران، ٥ مارس ١٨٢١ (III , PP. 90 - 91) : «قرأ الإمبراطور الجزء الخاص بحملات مصر (فى *Victoires et Conquêtes*) «إنها [الحملات] لا تروى بشكل سيىء. [...]. إن الشيء الوحيد الذى صدمنى هو أن أجد على لسان ديجينيت أنه قد دخل فى شجار معى، خلال إحدى جلسات المعهد، بدعوى أننى أردت منه أن يعلن أنه «لولا الطاعون، لما انسحب الجنرال من سوريا»؛ وأننى بعد ذلك لم أغفر له [شجاره]؛ وأنه، ديجينيت، مدعوماً من الجيش، قد احتد على بالكلام، بالرغم من وجود جنديين أمامى، إلخ. وإنه لمن الزيف أن يقال إننى قد وضعت جنديين فى أى وقت من الأوقات أمام مقعدى وأن مثل هذه المناقشة قد حدثت؛ إن هذا واضح للعيان. وخلال الجلاء من مصر، يبدو أن ديجينيت قال لويلسون إنه قد عقدت فى المعهد جلسة سرية وإنها قد تناولت تسميم الجرحى فى يافا. وعندما رأيت ذلك الكلام فى رواية ويلسون، فى باريس، كان من المفروض أن أعزل ديجينيت فوراً. وكنت أريد أن أفعل ذلك، لكننى، بوصفى رجلاً طيب القلب، كما هى عادتى، وافقت على استخدامه كرئيس لأطباء الجيش. وربما تحت إلحاح من محرر العمل بأن يشرح ما دار فى جلسة المعهد تلك التى تحدث عنها إلى ويلسون، قدم هذه الرواية الغريبة تماماً عن استئصال ما حدث فى يافا».

«والحقيقة أن المشاجرة مع ديجينيت كانت التالية : لقد قال ديجينيت للارى إن الداء ليس هو الطاعون؛ وأن الإمبراطور لم يزر ولم يلمس «المصابين بالطاعون» فى يافا إلا لأنه كان يعتقد أن الداء ليس هو الطاعون؛ وأنه لدى عودة الجنرال، قال له بيرتولليه إنه لم يكن حذراً بالمرة؛ وأنه لم تكن هناك ضرورة لأن يخاطر بحياته على هذا النحو ولا لأن يعرض نفسه لترك الجيش دون قائد، وذلك دون مبرر، دون فوائد فعلية. وقد أجاب نابوليون بأن الوباء ليس وباء الطاعون، وبأن ديجينيت قد أكد له ذلك. وقد أكد بيرتولليه العكس؛ وأنه لا شك هناك بالمرة فى أن ديجينيت قد عرضه لخطأ جد عظيم وجد خطير؛ وأن بوسعه أن يسأل لارى. وقد أمر نابوليون باستدعاء لارى الذى رأى أن الوباء هو فى الواقع وباء الطاعون؛ ثم أمر باستدعاء ديجينيت. وجرت مناقشة جد حامية. وكانت المناقشة بين ديجينيت وبيرتولليه، وليس مع الإمبراطور. وكان ديجينيت غيوراً من بيرتولليه، الذى كان طبيباً والذى كان يتناول العشاء، هو ومونج، مع الأمبراطور، الأمر الذى كثيراً ما أثار غيظ ديجينيت الذى لم يكن يتناول العشاء هناك.

«إن كل الرواية عن جلسة المعهد زائفة وهناك شهود على قيد الحياة. إننى لم آخذ معى قط جنوداً إلى المعهد، هذا غير صحيح. وأنا أعتقد أنه لم يجر قط تسميم أحد فى يافا. وعندما رحلنا، كان جميع المصابين بالطاعون قد ماتوا».

١٢٨ – Le 10 messidor an VII, *Correspondance...*, V, p. 623.

١٢٩ – فى ٣٠ يونيو ١٧٩٩، يوجه نداءً إلى سكان الجزيرة، يدعوهم فيه إلى الإذعان مع اقتراح التوسط لأجلهم، FO 78 23 .

١٣٠ – بياض فى المخطوط، إلا أن من المؤكد أن المقصود هو الشيخ ضاهر، الذى انضم إلى سيدنى سميث بدلاً من أن يتبع الفرنسيين كبعض أنصاره.

١٣١ – FO 78 24 ، تستأنف الرسالة المذكورة تحت شكل آخر بعد ذلك : «مثلما أمرتم وطلبتم تماماً، لقد جرى توجيه رسائل مختلفة من جانبنا إلى ثلاثة الدروز المذكورين وإلى آخرين من المنتمين إليهم، حيث وجهنا رسالة إلى كل واحد منهم على حدة، أبلغناهم من خلالها أنكم قد أبلغتم أنه إذا كان أي أحد منهم قد قَصَّرَ تجاه الباب العالي، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الفرنسيين قد أجبروه على ذلك، وإنهم سوف يبدون من الآن فصاعداً خضوعهم وولاءهم للمشيئة ولأوامر الباب العالي، وأنكم قد طلبتم العفو عنهم واستخدامهم في غزة ومصر وأنه نتيجة لما ذكرتموه، فإننا نوجه إليهم الرسائل المذكورة لكي نؤكد لهم على حسن معاملتنا وعلى ترحيبنا بهم وكذلك لكي نشجعهم ونحملهم إلى القتال».

١٣٢ – Le 3 thermidor an VII (21 juillet 1799), *Correspondance...*, V, pp. 624 - 625; texte arabe dans JABARTI, 16 safar 1214.

١٣٣ – الجبرتي، ١٦ صفر ١٢١٤: إن دوجا، وقد أصبح قائداً للقاهرة، يشدد في رسائله على سكينة المدينة (LA JONQUIÉRE, V, pp. 387 - 394).

١٣٤ – *L'Histoire Scientifique...*, VI, p. 229. يضيف مارسيل هناك دفاعاً من صديقه : «أما بعد حادث الشيخ المهدي (تلقى) الفشل، وقد أدى مسلكه في عدد من الظروف الصعبة إلى تبديد كل نوع من الشك فيما يتعلق بارتباطه المخلص بفرنسا». وكانت حرب عصابات الديوان ضد المتعاونين قد بدأت قبل ذلك بعدة أسابيع، انظر على سبيل المثال رسالة دوجا إلى بونابارت بتاريخ ١٩ ميسيدور من العام السابع (٧ يوليو ١٧٩٨) : «إن أعضاء الديوان يرتدون كل يوم عملاً ما ضد سلطة الأغاه. والحال أن المحرضين الأنشط في هذا التحرك هما البكري والمهدي. ويختتم دوجا رسالته بما يلي : «لقد دعوت أعضاء الديوان بالفعل إلى الاقتصار على ممارسة وظائفهم، وأرجوك، أيها الجنرال، أن تصدر أمراً إليهم بذلك وإلا فإن الأغا لن يرتاح أبداً» . (B 6 110)

١٣٥ – JABARTI, 9 rabi al awwal 1214.

١٣٦ – B 6 28، الديوان إلى دوجا (٢٣ ثيرميدور – ١٠ أغسطس ١٧٩٩) : «تلقينا رسالتكم التي تبلغنا بخبر الاستيلاء على حصن أبو قير والملابسات التي أحاطت به. لقد أدى هذا الخبر إلى عظيم فرح الديوان [...]. وقد ترجمنا رسالتكم إلى العربية وهي موجودة في المطبعة منذ البارحة. وبمجرد حصولنا عليها، سوف ننقلها إليكم. وإذا ما وصلتكم رسالة ما من القائد العام، فإننا نرجوكم أن تقوموا بإرسالها إلينا على الفور حتى يكون فرحنا تاماً بالوقوف على نجاحه وحتى نجد عزاءً من غيابه. حفظكم الله» [أعدنا ترجمة النص من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل العربي. – المترجم].

١٣٧ – *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français de 1792 à 1815*, Paris, 1818, XI, pp. 21 - 22. L'auteur de la partie concernant l'expédition d'Égypte est un ancien officier de l'armée d'Orient.

١٣٨ – Napoléon fera lui - même l'analogie pendant cette bataille;

général comte DE SÉGUR : *Histoire et mémoires,* Paris, 1873, II, p. 474 : "En un instant nous vîmes ce miroir, blanchi par les frimas, se noircir de la multitude éparse de fuyards aventurés sur ce dangereux appui, que brisaient sous leurs pas nos boulets impitoyables. A cet aspect, l'Empereur, resté sur les hauteurs, s'écria : C'est Aboukir!".

١٣٩ – Vivant DENON, p. 220.

١٤٠ – Sidney Smith à Nelson, le 2 août 17799 et causes de la défaite d'Aboukir (sans date), BARROW, I, pp. 364 - 369. إن التقديرات الفرنسية للأعداد العثمانية تصل إلى ثلاثة أضعاف تقديرات سيدني سميث. وكما يشير هذا الأخير في رسالة أخرى إلى نيلسون، فإن العثمانيين لم يكونوا يعرفون عنصر المفاجأة : «لم يكن الأتراك يعرفون أي شيء عن أعدائهم، وكانوا يقاومون كل المحاولات الرامية إلى التنظيم، الذي قد يؤدي إلى الامتثال للانضباط» (BARROW, I, p. 379)

١٤١ – يقدم كتاب «التاريخ العلمي» هذه الرواية من اللقاء : «إن الإنجليزي الذ تناول مع الجنرال موضوع المقترحات المباشرة وأسهب في التحدث إليه عن الخطر الذي تواجهه فرنسا، وخيبات الكبرياء التي منيت بها للتو، والمستقبل الخطر الذي يحدق بها، ثم اتجه إلى الحديث عن استعمار مصر وعن قلة أهميته بالنسبة للجمهورية الفرنسية في الأزمة الراهنة؛ وأخيراً، وعلى سبيل تلخيص كل شيء، انتهى إلى دعوة الجنرال إلى التخلي عن فتحه حتى يتمكن من الذهاب لاسترداد إيطاليا من الروس. وقد تظاهر بونابارت بالانزعاج؛ واكتفى بطلب إرجاء المفاوضات إلى حين عودته من رحلة سوف يقوم بها في مصر العليا» (VI , P. 264) . ولابد من الإشارة إلى أننا نجد بين محرري الكتاب تروملان الذي كان، تحت اسم بيروملي، أحد المقربين من سيدني سميث. وقد شارك في الإنزال في أبو قير وورد اسمه في النص قبل ذلك بقليل.

١٤٢ – نقلاً عن Georges DOUIN, "Le retour de Bonaparte d'Égypte en France", *Bulletin de l'Institut d'Égypte,* XXIII 1941, pp. 184 - 216. إن هذا المقال، غير الشهير، يعتبر أساسياً لفهم هذا الحدث مثار الجدل. وقد تمكن دوان، عبر تحليلات مفصلة، من استنتاج أن جون كيث قد أبلغ بونابارت بأن حكومة الإدارة قد استدعته رسمياً، بل وأضاف أنه سوف يحصل على قيادة جيش إيطاليا. والواقع أن هذه الشائعة الأخيرة قد راجت في الأوساط الدبلوماسية البروسية وكان بالإمكان من الناحية المادية لاطلاع سيدني سميث عليها.

١٤٣ – *Histoire Scientifique,* VI, pp. 273 - 275.

١٤٤ – *Correspondance...,* V, pp. 723 - 726.

١٤٥ – BERTRAND, I, pp. 96 - 97. الأرجح أنهم كانوا أقل من ذلك إلى حد ما. وفى التو والحال، فإن بوسعهم أداء خدمة في حالة صدام مع سفن إنجليزية.

١٤٦ – Ensemble des textes dans LA JONQUIÉRE, V, pp. 593 - 606. إن استخدام التقويم الجريجوري غريب (شهر مايو) ، ويبدو أن ذلك يشير بوضوح إلى أن التقويم الثوري، حتى في حالة بونابرت، لم يكن قد أصبح الإيقاع الطبيعي للزمن.

١٤٧ – *Histoire Scientifique*..., VI, pp. 292 - 293.

١٤٨ – سيدني سميث إلى نيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩ : «لقد أفلت الهارب بمعونة من ثيسيوس ومن وحدة الأسطول التركي التي كانت مرابطة غربي الإسكندرية، تحسبا لرحيله، بهدف اعتراض سبيله، والأهم من ذلك بكثير، بهدف الحيلولة دون وصول إمدادات من فرنسا إلى مصر. ومن سوء الحظ بالنسبة للهدف الأول، أن ثيسيوس قد تأخرت لأيام قليلة في بحثها عن الماء، وذلك من جراء عناد الوالي التركي في يافا في حجبه لإمدادات كان هناك وعد بالحصول عليها. وقد جرى إخطار الباب العالي بمسلكه وسوف يتم التعليق فيه على النحو المناسب» (BARROW, I, p. 380).

١٤٩ – Georges Douin, dont je suis ici l'exposé, a dépouillé tous les journaux de bord des navires de guerre anglais présents en Méditerranée dans la période considérée.

١٥٠ – CHATEAUBRIAND, *Mémoires d'Outre - Tombe, III e partie, Vie de Napoléon, l'Expédition d'Égypte*.

الفصل السابع

كليبر

ثقل التركة

سخط دوجا

يرجع كليبر إلى دمياط بعد فشله في الاجتماع مع القائد العام، وبحسب تعبيره، فإن «العصفور قد طار من العش». وهو لا يعرف بعد أنه قد عينه خلفا له. ويبلغه مينو بذلك في ٢٤ أغسطس ويحصل بدوره على اعتماد قيادته للبحيرة وللساحل الغربي. وفي التو والحال، لا يعترض كليبر على رحيل بونابارت، إنه يعرف المجازفات التي يتطلبها اجتياز البحر المتوسط، لكنه يشعر بالصدمة تجاه الشكل السري للرحيل (١).

ويسارع القائد الجديد إلى التوجه إلى القاهرة لتولي قيادة جيش حرم بضربة واحدة من جزء ملحوظ من قادته. وهو يصل إلى العاصمة في ٣١ أغسطس ١٧٩٩. وكان دوجا قد كفل النيابة المؤقتة بكفاءته المعهودة. لكن كليبر يجد فيه شخصا غاضبا على بونابارت. فقائد القاهرة لم يجر إبلاغه بقرار قائده ولم يصدق هذا القرار حتى اللحظة الأخيرة، بل وقام بتكذيبه في أمر يومي، مهدداً كل من يروج لهذه الشائعة بمعاملته معاملة العصاة. إلا أن ما يجعله ممرورا ليس واقع أنه قد جرى الهزء به؛ فدوجا يشعر أنه ضحية لامتهان حقيقي للثقة من جانب شخص كان يكن له الاحترام (٢). فبناء على طلب من بونابارت جاء هذا القائد العسكري الذي يقترب من الستين من العمر (ولد في عام ١٧٤٤) إلى مصر، مضحياً بمنصب جديد (كان قد انتُخب لتوه نائبا) وتاركا أسرته. وهو غاضب لأنه لم يك من الفريق الصغير من المميزين الذين رحلوا مع بونابارت. وقد جرى تركه في القاهرة لأكثر من عشرة أيام، مع هيئة أركان تعرضت للفوضى من جراء رحيل بيرتييه ومع خدمات مالية مشلولة:

«لم تعد هناك هيئة أركان عامة، والتزود بالكساء متوقف، والأموال قاصرة، والآن

المصرف ليست لديه موارد لتسيير خدماته. وربما أمكن لعدة أيام في وضع مماثل أن تلحق ضرراً لا يمكن إصلاحه... [...] ولذا نرفق هنا نسخة من المعلومات التي تلقيتها من سوريا. وعلى الرغم من أنها لا تشير البته إلى خطر جد ملح، فإنها تسمح بتصور حشد يمكن التعجيل بتحركه اعتماداً على الأثر الذي يمكن أن يحدثه رحيل بونابارت. [...] ولا يجب أن نهمل شيئاً حتى يتسنى لنا التصدي له على نحو جيد. إننا تنقصنا الأسلحة، وإن كان بوسعنا إنتاج شيء منها في الجيزة، كما تنقصنا الجمال لنقل ذخائر المدفعية، وتنقصنا القنابل وينقصنا أخيراً البارود، فلم يجر على الفور تنشيط المنشآة للجيزة بالفعل لإنتاج ذلك؛ والأوامر الضرورية لكل ذلك لا يمكن إصدارها إلاَّ من جانب قائد عام» (٣).

تولى كليبر لمنصبه

يرمز وقع تولى كليبر لمنصبه إلى حسن اختيار القنصل الأول. فقد تم تخفيف رد الفعل على الرحيل تخفيفاً واسعاً لدى الجنود بشعبية كليبر جد الضخمة وأمكن وقف انهيار المعنويات. وترى غالبية الجنود في رحيل بونابارت اعترافاً باستحالة إقامة دائمة في مصر دون إرسال عون ملحوظ (٤). أما كليبر، الذي يعرف أن الجيش قد مل وجوده في مصر – لأنه هو نفسه ليس ببعيد من أن يرى، منذ تلك اللحظة، أن إطالة أمد الحملة لم يعد بوسعها أن تعود بشيء على الوطن – فإنه يتكلم في أمره اليومي الأول باللغة التي يتمنى الجنود سماعها :

«أيها الجنود،

«إن دوافع قهرية قد دفعت القائد العام بونابارت إلى السفر إلى فرنسا.

«والحال أن الأخطار التي تمثلها ملاحة تتم في فصل غير ملائم تقريباً، في بحر ضيق ومغطى بالأعداء، ما كان بوسعها أن توقف عزمه؛ فهو يسافر من أجل خيركم.

«أيها الجنود، إن عوناً قوياً سوف يصل إليكم؛ وإلاَّ فإن صلحاً مجيداً، صلحاً يليق بكم وبأعمالكم، سوف يعيدكم إلى وطنكم» (٥)

وهكذا، فمنذ اليوم الأول، يتصور القائد العام الجديد إمكانية العودة إلى فرنسا، وهو ما يعزز شعبيته. كما أنه يهتم بتأمين معاملة متساوية في دفع الرواتب. وهو يعلن رغبته في استقبال مندوبي الأعداء الذين يجيئون لعقد اتفاقات لتبادل الأسرى مع إبداء

ارتيابه فى النوايا الإنجليزية؛ إذا ما أخل أى مندوب بمهمته وأحدث فى صفوف الجيش أو فى البلد استقرارًا غادرًا ما للتغلب على الانشقاق أو على التمرد، فسوف يعتبر منذ تلك اللحظة باحثًا عن تهديد عملاء أو زعيمًا لمؤامرة، وسوف يشنق فى الساحة على أول شجرة (٦).

وللتأثير على المصريين، يبدى القائد العام أسلوب تصرف قائم على القوة والهيبة. وفى مناسبات خروجه على الملأ، يحيط نفسه باستعراض متفاخر صاخب، يهدف إلى التأثير على السكان. وفى مواجهة الديوان، يهجر الهذيان الإسلامى - الدينى - القومى الذى تميز به سلفه ليعد بشكل متزن بالاهتمام بخير السكان (وهو مخلص فى ذلك لكن مصلحة الجيش هى بالنسبة له أول الأولويات):

«أنتم أيها العلماء وأنتم الذين تستمعون إلىّ جميعكم،

«إننى أود من خلال أعمالى الاستجابة لمطالبكم والتماساتكم، لكن الأعمال بطيئة ويبدو أن الشعب جد تواق إلى معرفة المصير الذى ينتظره. حسنًا! قولوا له إن حكومة الجمهورية الفرنسية، بتكليفى بحكم مصر الخاص، قد كلفتنى على نحو خاص بالسهر على رفاهية الشعب المصرى، وهذه المهمة، من بين جميع مهام قيادتى، هى الأعز على قلبى.

«إن الشعب المصرى يؤسس رفاهيته على بيده خاصة: ومن ثم فإن العمل على احترامه هو أحد واجباتى الأساسية. وسوف أفعل ما هو أكثر من ذلك؛ إننى سوف أعمل على صون كرامته وسوف أسهم، قدر استطاعتى، فى عزته ومجده.

«وبعد أخذ هذا التعهد على نفسى، فإننى لا أقيم اعتبارًا يذكر للأشرار؛ إن أهل الخير سوف يراقبونهم وسوف يطلعوننى على تحركاتهم. وبينما يمكن للنزيه والخير أن تشمله الحماية، فإن الشرير لابد من أن يرتعد؛ إن السيف مسلط على رأسه.

«لقد كسب بونابارت، سلفى، حقوق ولاء من جانب العلماء والمشايخ والكبراء من خلال التمسك بمسلك نزيه ومستقيم؛ وسوف أتمسك أنا أيضاً، بهذا المسلك، وسوف أسهر على خطاه وأحصل منكم على ما منحتموه له. فلترجعوا من ثم إلى بنى شعبكم ولتوحدوهم حولكم ثم قولوا لهم: اطمئنوا؛ إن حكم مصر قد انتقل إلى أيدٍ أخرى، لكن كل ما يمكن أن يتعلق بسعادتكم وبرفاهيتكم سوف يكون متصلاً ومستمرًا» (٧).

وهو يحاول التخويف وينجح فى ذلك. والجبرتى يقول ذلك بوضوح: فالمشايخ لا

يحدونه باسما وظريفا كبونابارت الذى نجح فى إزاحة جلسائه الشرقيين (٨). ويؤكد نقولا الترك: «شملهم الانذهال من هيبته والانذهال من صولته، إذ كان هذا المقدم أسدا ضرغام، ذا قوام واعتدال، [...] له صورة ترهش الكبود وترعب الأسود. فنزلوا من أمامه وهم فى خشية من كلامه (٩)».

والحال أن عيد أول فنديميير (٢٣ سبتمبر ١٧٩٩) التقليدى، وهو بداية العام الثامن وذكرى تأسيس الجمهورية، إنما يوضح هذا التوجه الزئبقى لكليبر. ففى مواجهة المشايخ، يحشد كل صولة ممكنة. وأمام الجنود، يعلن اقتراب الربع الأخير من الساعة: «لقد سانندتم الجمهورية، وبالدفاع عنها ببسالتكم؛ وفى الشمال، وفى الجنوب، وفى الشرق وفى الغرب، وسمعتم صوتنا، أما الأعداء، الذين راحوا بالفعل، فى حمى الغرور، يخططون لتقسيم مقاطعاتنا، فإنهم لم يكد يتاح لهم الوقت لكى يحسبوا، مرعوبين، الحدود التى يمكن لكم التوقف عندها.

«لكن وإياكم، يارفاق السلاح البواسل، مكللة بأكاليل الغار، وما أكثر الأعمال التى تحتاج إلى إنجاز، وما أكثر الأمجاد التى تتطلب ثمناً. لحظة مثابرة أخرى، وأنتم مستعدون لبلوغ ونيل الإنجاز والمجد؛ لحظة أخرى، وسوف تمنحون العالم سلاماً دائماً، بعد أن حاربتموه» (١٠).

حاشية كليبر

سرعان ما تتشكل حول القائد العام الجديد جماعة من الأصدقاء والشركاء المكلفين بدراسة وضع الجيش. وهذا ضرورى جداً بقدر ما أن كليبر، الذى خدم أساساً فى الأقاليم وسوريا، لا يعرف الملفات معرفة جيدة. وتتألف الحاشية من رجال ممتازين كديجينيت، المحبوب والمحترم من الجنود؛ والجنرال داماس، القائد الجديد للأركان العامة، وهو جمهورى متحمس، كان قد دخل الخدمة العسكرية فى حرس لافاييت الوطنى فى ١٢ يوليو ١٧٨٩ (ولد فى عام ١٧٦٤)؛ وهيكتور دور، الشاب المعجزة للإدارة (الآن الصراف العام للجيش وهو فى الرابعة والعشرين من عمره) بالغ الزهو بمواهبه الحقيقية؛ وپوسيلج، المدير العام للشؤون المالية ورجل الحكومة الذى اضطر، شأنه فى ذلك شأن توجا، إلى الشكوى من عدم عرفان بونابارت بالجميل؛ وفورييه، عالم الرياضيات الذى رأس المعهد (المجمع العلمى) والذى خدم لدى الديوان؛ وتوجا، المرتبط بكليبر باحترام وحب متبادلين، وأخيرا تاليان، محل الريبة إلى حد ما بسبب ماضيه وميله إلى الدسائس

السياسية (إن هذا الرجل الذى كان يطمح فى مسار حياة عملية ثان من خلال العمل مع بونابارت، لا يمكنه افتقار ما يعتبره تخلياً من جانب حاميه الجديد).

ويتوحد كل هؤلاء الرجال بنزاهتهم الكبرى وبكفاءتهم المعترف بها. وهم يمثلون أفضل ما أنجبته الثورة الفرنسية من رجال جدد مكلفين بأهم المسئوليات. إنهم جميعاً جمهوريون مخلصون، خيب أملهم بونابارت. ولذا فإنهم يصدرون حكماً صارماً على المحصلة النهائية لعمل الفاتح.

ولابد من الإشارة إلى أن بونابارت، قبل زمن القنصلية، قد تكشف عن إدارى متوسط القدرات؛ فبالرغم من جبايات الضرائب الملحوظة التى تمت فى إيطاليا، كان دفع رواتب جيش إيطاليا لا يزال متأخرا فى بداية حملة مصر، وتم استخدام الأموال التى دبرتها حكومة الإدارة فى تصفية متأخرات الأشهر السابقة لسلسا. والحال أن مصر أقل ثراءً بما لا حدّ له من إيطاليا الشمالية، وقد أوقفت الحرب على الفور واحدا من أهم مصادر إيراداتها: تجارة الترانزيت بين قارات العالم القديم الثلاث. والواقع أن بونابارت، وهو يتحرك خطوة خطوة، متلمسا الدرب بسبب عدم الدراية بالمنطق الضريبى العثمانى، للعرض لمقاومة السكان السلبية والتى تعد القوة الكبرى للمصريين فى مواجهة الدولة، كان مضطرا إلى مواجهة المهمة المرهقة المتمثلة فى تأمين احتياجات جيش، وإعادة تجهيزه بشكل يكاد يكون تاما، مع إنشاء شبكة من المواقع المحصنة وإنشاء جهاز إدارة يحصل على رواتب ويُحظر عليه تمويل نفسه تمويلا مباشراً من المديرين. والنتيجة تدعو إلى الرثاء. إن بيروس، الذى ترك مذكرة ثمينة حول أحوال الجيش المالية (١١)، يقدر بأقل من تسعة ملايين فرنك حجم الضرائب غير العادية التى أمكن لبونابارت جبايتها فى مالطة وفى مصر، ويقدر بما يزيد قليلاً عن ثمانية ملايين فرنك الإيرادات العادية فى عام ١٢١٣ للهجرة. ولابد من إضافة بعض الموارد التى لا نعرف حصيلتها كرسوم التسجيل. والعجز مثير لأن بوسيلج ودور يتفقان على التأكيد لكليبر، فى نهاية شهر سبتمبر ١٧٩٩، على أنه يزيد عن عشرة ملايين من الفرنكات، تمثل متأخرات الرواتب بينها أكثر من أربعة ملايين من الفرنكات (وهكذا فبينما يجرى الاقتراب من العام الثامن، تبقى رواتب شهور من العام السادس غير مدفوعة).

ومن الواضح أن عدم دفع الرواتب هو أحد المصادر الأساسية لضيق الجيش، ويعد كليبر على الفور خطة سداد تدريجى للمتأخرات، تعتبر متفائلة إلى حد ما. ويجب أولا

النجاح في سدادٍ شبه منتظم للنفقات الجارية وإعطاء الأولوية لرواتب الجنود المحليين، خاصة السرية اليونانية (١٢). وتنشأ المصاعب من الخراب الذي أحدثته الحرب. فالمعارك، وخاصة الجنود، يدمرون غالبية المراكب التي تنقل الحبوب على النيل، إذ يستولون عليها لاستخدامها كوقود للتدفئة. وفائض مصر العليا يتعذر نقله، في جانبه الأعظم، إلى مصر السفلى، والحال أن الإقليم الأول، خلافاً للإقليم الثاني، يدفع ضرائبه عيناً. وقد أسهمت العمليات العسكرية في اختلال شبكة الري الجماعية وهذا هو أحد الأبواب الأولى التي جرى التقتير في اعتماد أرصدة لها. وعلاوة على ذلك، فإن فيضان عام ١٧٩٩ يتكشف أنه أقل من المتوسط بكثير (١٣)، الأمر الذي يعني زراعة أراضٍ أقل في السنة التالية. وبما أن بونابرت قد لعب على مسكوكات النقد، مشجعاً سك عملة منخفضة القيمة، الأمر الذي عاد عليه، في البداية، بإيرادات مالية ملحوظة، فإن مصر تشكو الآن من شح نقدي، حيث تطرد العملة الرديئةُ العملة الجيدة. ويقدر بوسيلج إيرادات الأشهر التالية بما يتراوح بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف فرنك في مقابل مليون وثلاثمائة ألف فرنك للنفقات.

وهذه الخسارة للمال يمكن أن تكون قاتلة. إن الموردين الأوروبيين والمصريين يكفون عن بيع الأغذية التي يستهلكها الجيش بالخسارة. وسلاح الفرسان يعوزه الشعير والتبن ويجازف ببساطة تامة بالاختفاء. وأعمال التحصين، بما في ذلك أعمال تحصين العريش، تتوقف من الناحية العملية من جراء عدم وجود أموال لدفع أجور العمال والتحصينات التي أنشئت في ظل بونابرت يتكشف أنها تهتز، ولا تقاوم بوجه عام آثار فيضان النيل. والمدفعية تفتقر إلى البارود. والجنود بلا أحذية وبزاتهم ليست في حالة جيدة. أما البحرية فقد خسرت كل ما كان قابلا للاستخدام فوراً مع عودة بونابرت ويتوجب بذل نفقات ملحوظة للتمتع بسفن مستعدة للخدمة. وبسبب غياب الأموال، تجازف المستشفيات بالتوقف عن العمل. والمحاجر الصحية في حالة يرثى لها، الأمر الذي يجعل تدابير الحجر الصحي جد عبثية. والمسؤولون الصحيون يرون أن الوسيلة الوحيدة للنضال، في حالة ظهور وباء الطاعون، هي انسحاب الجيش فورا من المنطقة الموبوءة.

استعادة زمام الأمور

وخلال كل شهر سبتمبر ١٧٩٩، لا يتوقف الوضع المالي المريع للجيش عن مفاجأة كليبر. فمن كل حدب وصوب، تجرى مطالبته بأموال لأسباب وجيهة، حيوية غالبا بالنسبة

للمستقبل. وعلى الفور، يدشن إعادة تنظيم إدارية، موجهة إلى إحلال التماسك محل الفوضى التي تركها بونابارت. وترمز الأوامر اليومية الصادرة في ٢٨ فروكتيدور من العام السابع (١٤ سبتمبر ١٧٩٩) إلى بداية الإصلاح: إن مصر يجرى تقسيمها إلى ثماني دوائر. وفي كل دائرة، يوجد وكيل فرنسي وأمين قبطي ولأول مرة، صراف، يشرف على جميع جبايات الضرائب ويحول على الفور جميع الأموال المجباة إلى الصراف العام في القاهرة، والهدف المنشود هو القضاء على كل محسوبيات محلية:

«إن أي أمين قبطي أو وكيل فرنسي يتبين أنه قد قام بدفع، ولو كان لا يزيد عن خمسة فرنكات، دون إذن من الصراف العام، أو يتبين أنه قد احتفظ عنده بأموال لمدة تزيد عن أربع وعشرين ساعــة، سوف يجرى عزلــه وسوف يدفع غـــرامة قدرها ثلاثة آلاف تالر» (١٤).

وسوف يجرى إعداد دفتر للقرى وللضرائب وإمساكه بصورة منتظمة على نحو تلهث سعيًا إلى التمكن من الوقوف بشكل دقيق على موارد البلاد (١٥). وبما يشكل قرارًا له آثار أكثر أهمية، فإنه يلغي الالتزامات الأخيرة: «لا يجوز تأجير أية قرية على شكل التزام بالنسبة لعام ١٢١٤؛ وجميع حجج التأجير التي يمكن أن تكون قد صدرت بالفعل في هذا الصدد تعتبر باطلة ولاغية. [...] وسوف يسهر قادة الدوائر بشكل خاص على تنفيذ (هذه الأوامر) ويأمرون بإلقاء القبض على ومعاقبة كل أولئك الذين يحاولون – بصفة ملتزمين – جباية ضرائب ما، في كل أرجاء دائرتهم» (١٦).

وقبل تدشين إعادة تنظيم أعمق بكثير للإدارة المصرية، يقرر كليبر إجراء استقصاء منهجي بشأن جميع فروع إدارة الجيش ومصر من زاوية الإيرادات والنفقات، لكانت عينية أم نقدية. وعلى لجنة هذا الاستقصاء، المؤلفة من سبعة من كبار مديري الجيش، إجراء مـراجعة لمجمـل العمليات المالية منـذ مغـادرة طـولـون. وســوف يجـرى نشر نتائج هذا الاستقصاء بمجرد إنجازه (١٧).

وسعيًا إلى جعل إدارة الشؤون المالية أكثر كفاءة، ومحاربة الفساد الدائم في جهاز الموظفين هذا، أجرى كليبر مركزة للقرارات لحساب القاهرة. ويجرى اختزال سلطات الجنرالات قادة الأقاليم، وخاصة في مصر العليا. ويحتج مينو على هذا التجريد، لكنه يفضل البقاء في رشيد، بدلا من الذهاب إلى الإسكندرية، الموقع العسكري الرئيسي لدائرته. ومرة أخرى، يبرز كل ما يتميز به من انعدام للدينامية لكي لا ينفذ أوامر القائد

العام الواضحة. وفي مصر العليا، يتعزز الحد من سلطات ديزيه بالترقية (المشروعة) لفريان إلى رتبة قائد فرقة، مع تولي قيادة مصر الوسطى (أقاليم المنيا وبني سويف والفيوم) [١٨]. ويشكل ذلك الخطوة الأولى نحو عودة ديزيه إلى القاهرة، ففي أواخر سبتمبر، يستدعيه كليبر لتولي قيادة فرقة في شرق الدلتا لمواجهة جيش الصدر الأعظم الذي يقترب من مصر. وفي ١٧ أكتوبر، يصل ديزيه إلى القاهرة، أسفاً لعدم نجاحه في القضاء على خصمه الكبير مراد بك الذي يكن له احتراماً كبيراً. ومرة أخرى، في أواخر سبتمبر ١٧٩٩، تنجح القوات الفرنسية في استدراج مراد بك قرب الفيوم بفضل استخدام فوج راكبي الجمال. ويشن المماليك هجوماً ويصطدمون ثلاث مرات بالمربع الفرنسي الذي يقوده الجنرال المساعد بولييه. وفي ٢٢ أكتوبر، يعبر مراد بك النيل ليدخل إلى الصحراء العربية. ويتظاهر بالاتجاه إلى السويس، ثم يتحول صوب مصر العليا، موزعاً في سيره بيانات الصدر الأعظم وفرمانات الباب العالي التي تحض السكان على التمرد، دون أن يحرز نجاحاً كبيراً مع ذلك [١٩].

سخط كليبر

بالرغم من جميع هذه التدابير، والتي تتطلب وقتاً لكي تؤتي نتائج إيجابية، ييأس كليبر من مستقبل الفرنسيين في مصر. وفي تلك اللحظة يتعاظم سخطه على بونابارت الذي يعتبره مسؤولا عن هذه الورطة الرهيبة، ويتضاعف كل شيء بانزعاجه على مصير فرنسا، فهو لم يتلق أنباء من أوروبا منذ تلك الأنباء التي أبلغه بها بونابارت لتبرير رحيله، وعندئذ فإن استمرار الحملة يبدو له شيئاً عبثياً. فالفرنسيون، بسبب عدم وصول تعزيزات، لا يملكون إمكانات للبقاء، كما أن الوطن في خطر. ومن ثم فإنه يجب التفكير في جلاء مشرف يسمح بعودة جيش من المخضرمين إلى ساحات المعارك الأوروبية. وكما أن بونابارت قد تنبأ بنية حكومة الإدارة في استدعائه، فإن كليبر، في الظروف نفسها، يرى وهو على حق أن الحكومة تود عودة الجيش.

وسوف يدافع عن هذه القضية في سلسلة بأكملها من الرسائل التي يأمر بإرسالها إلى فرنسا في أوائل فينديميير من العام الثامن (الأيام العشرة الأخيرة من سبتمبر ١٧٩٩). ورسالته الموجهة إلى حكومة الإدارة، والتي سوف يعلق عليها بونابارت في سانت – هيلين، ليست غير عريضة اتهام طويلة لسلفه [٢٠]، لقد انخفض الجيش الفرنسي إلى

تصف قوته الأصلية؛ وهو عار ومنهك وضحية للأمراض؛ ولابد من توقع هجوم مشترك من جانب العثمانيين والروس والإنجليز، كما أن المماليك لم يقض عليهم؛ ومن شأن بدء مفاوضات مع العثمانيين أن يسمح، في أسوأ الأحوال، بكسب وقت، و، في أحسن الأحوال، بالتوصل إلى تأمين بقاء الفرنسيين إلى حين عقد الصلح العام، مع الاعتراف بسيادة الباب العالي ودفع الخزينة السنوية (وهو وضع جد مماثل في نهاية الأمر للوضع الذى سوف تعرفه مصر من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩١٤).

ويرفق كليبر بهذه الرسالة رسالة من بوسيلج تصف حالة الشؤون المالية في مصر بما يبرز استحالة الأمل في موارد إضافية، ورسالة أخرى، من صراف الجيش استيف، تكشف شبه الإفلاس المالي لجيش الشرق. وسوف يكتب تاليان بعد ذلك بوقت قصير، إلى باريًا مباشرة، في الاتجاه نفسه.

وهذه الرسائل، بالرغم من أنها قد كتبت في فينديميير، لا تخرج من الإسكندرية إلا في ١٣ برومير من العام الثامن (٤ نوفمبر ١٧٩٩). ويجرى اعتراض سبيل السفينة قرب طولون من جانب الإنجليز ويرمي حامل البريد الرسائل إلى الماء بعد قيامه بوضعها في منديل مربوط بقنبلة. لكن القنبلة تمزق نسيج المنديل، وتطفو الرسائل على وجه الماء. وعندئذ ينتشلها الإنجليز الذين يرون فيها تأكيداً لرأيهم؛ إن جيش الشرق هو من أضعف الجيوش. ويسارع البريطانيون إلى نشر هذه الرسائل لكي يوضحوا لأوروبا ولفرنسا الحالة التي ترك فيها بونابارت جيشه (٢١).

لكن سيدني سميث يجد بالفعل متعة في أن يرسل إلى كليبر صحفاً إيطالية تورد الهجمات، التي ثارت في المجالس، على سياسة حكومة الإدارة بوجه عام، وعلى حملة مصر، بوجه خاص. وينتاب كليبر الهلع تجاه تعارض القيادات السياسية وينشر في صحيفة لوكورييه دوليجيبت الجانب الرئيسي من المناقشات. وهو يريد بذلك إضعاف موقف أنصار بقاء الفرنسيين في مصر. ومن ثم يمكن للجنود قراءة التصريحات النارية التي يدلي بها النائب ريل في مجلس الخمسمائة؛

«أيها المواطنون النواب، مما لا جدال فيه أن انتهاك الأراضي العثمانية، الذى تم من خلال حملة مصر، هو المصدر الرئيسي للمصائب التي يواجهها الوطن، فهو الذى جر الأتراك إلى الانضمام إلى الائتلاف الجديد وأتاح للنمساويين وللروس، الذين تخلصوا من كل انزعاج تجاه تلك الدولة، أن يرسلوا من ثم ضدنا قوات أكثر تفوقاً، وما يزال بوسعهم

أن يرسلوا قوات حتى آخر رجل. إن حملة مصر، التى جرى الاضطلاع بها برغم أنف الدستور والتمثيل القومى، هى من ثم المؤامرة الأكثر وقاحة والأكثر خطورة التى ما تزال قائمة ضد الأمن الداخلى والخارجى للجمهورية. [...] ألا ترى فى الواقع هنا تفاهماً جلياً مع الائتلاف ومشروع تسليم كل الأرض ضدنا. ولكن هل تريدون تبديد هذه المؤامرة [...]؟ هل تريدون دفع الروس إلى العودة إلى بلادهم؟ لتعقدوا الصلح مع الأتراك [...]. وضحوا لهم أن الأمة الفرنسية لا تقبل العنف الذى ارتكب ضدهم...».

وينشر العدد نفسه بيان الجهاز التشريعى إلى الشعب الفرنسى والذى يدعو إلى النضال ضد الغزو الوشيك للتراب الوطنى (٢٢).

ويعمل سيدنى سميث على نشر بياناته المقوضة للروح المعنوية على أيدى المماليك أنفسهم الذين يوجهون رسائل مكتوبة بالفرنسية إلى المحتلين، واعدين إياهم بالعودة إلى فرنسا إذا ما استسلموا أمام الجيش العثمانى «الذى يماثل فى العدد عدد حبات رمل البحر». ويتصدع الجنرالات احتقار هذه المناورات التى يعزونها محقين إلى العميد البحرى(٢٣).

الإنزال فى دمياط

فى الساحل الشرقى للدلتا، حل محل كليبر فيردييه، الذى يفوز هناك برتبة قائد فرقة. وهو يتولى المهمة الصعبة التى تتمثل فى تأمين المواصلات مع حصنى قطيه والعريش (٢٤). وسعياً إلى ذلك، يستخدم المساعى الحميدة لحسن طوبار الذى يسعى الآن إلى تقديم نفسه فى صورة الصديق الأمين للفرنسيين؛ وهو يشكل لهم شبكة استخبارات لجمع المعلومات عن سوريا ويبلغهم بالرسائل التى يتلقاها من العثمانيين(٢٥). ويواصل هؤلاء الأخيرون الارتياب فيه (٢٦). ومع ظهور العناصر الأولى للجيش العثمانى الكبير فى فلسطين، فإن شرق الدلتا يصبح منطقة ذات أهمية حاسمة.

وكان سيدنى سميث قد اختار، بالرغم من عدم ملاءمة الموسم، تنظيم إنزال عثمانى قرب ثغر دمياط فى أواخر أكتوبر ١٧٩٩ (٢٧). وهدفه هو مواصلة الضغط على الجيش الفرنسى بدفعه إلى إدراك أنه من فرط الانتصارات لن يكتب له الوجود، وأن الجلاء أفضل(٢٨).

ويرد ألبرتييه بسرعة على التهديد العثماني، وفي أول أكتوبر، على رأس قوة قوامها ألف رجل، يشن هجوماً بالحراب على الإنكشارية. وينتهي هذا الهجوم المتهور الانتحاري بانتصار رائع، ويجري إلقاء العثمانيين في البحر بخسائر جد جسيمة.

لكن الانتصار – بما يشكل علامة على تلك الزمن – يتلوه على الفور عصيان إحدى الوحدات التي شاركت في المعركة، فهي تطالب بدفع متأخرات رواتب عدة أشهر. وينقل ألبرتييه المطالب، لكن كليبر لا يبدى مرونة. فسعيا إلى تقديم عبرة، يحل شبه اللواء (بما يشكل إجراءً متطرفاً، لأن الوحدات تعتز اعتزازا جد بالغ بوحدتها)، ويأمر بمحاكمة قادة التمرد عن طريق مجلس عسكري. وسوف يعاد تشكيل شبه اللواء بعد تلك بوقت قصير، بعد عملية تطهير. وبالنسبة لكليبر، فإن التحذير واضح؛ إن الجنود قد نفد صبرهم والجيش على حالة التمرد العلم؛ ولم يتم احتواء التمرد الآن إلاّ بسبب الحب العميق الذي يكنه الجنود له.

* وصف مصر

إذا كان كليبر قد توصل بسرعة بالغة إلى إدراك أن الحملة قد منيت بالفشل، فإنه يظل عميق التمسك بمكسبها الأكثر دواما، العمل العلمي. وشأنه في ذلك شأن ديزيه ورينييه، فإنه يحب صحبة العلماء وهو لا يرجع غيابه في القائمة الأولى لأعضاء المعهد (المجمع العلمي) إلاّ إلى رفض بونابارت لإشراك القادة الفرق (٢٩). ويجري إصلاح هذا الخلل في ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ عندما يصبح كليبر وديزيه ورينييه أعضاء في المعهد.

ويتواصل اكتشاف مصر. وبعد عودة فيفان دينون من مصر العليا، فإن لجنة من العلماء، يرأسها فورييه وكوستاز، تحل محله للاضطلاع بعمل منهجي أكثر، صار ممكنا بفضل التهدئة التي قام بها ديزيه. ويرجع الجانب الرئيسي من الكشوف الأركيولوجية إلى صيف وخريف ١٧٩٩. والحال أن كليبر، قبل تعيينه قائداً عاما، كان قد وصل به الأمر إلى حد التفكير في المشاركة في هذه الأعمال (٣٠).

وعشية معركة أبو قير البرية، فإن القائد بوشار، المكلف بإجراء تحصينات في رشيد، يكتشف حجرا يحمل نقشا ثلاثي اللغات، من بينها الهيروغليفية والحروف اليونانية. وقد أدرك العلماء على الفور أهمية هذا الحجر الذي عثر عليه في رشيد. ويخطو

ريج ومارسيل خطوة كبرى أولى فى فك لغز الحجر بتوضيحهما أن الكتابة الثالثة التى يشار إليها على أنها «غير معروفة»، هى للمصرية القديمة المكتوبة بحروف عادية سريعة(٣١).

ويهتم فورييه بالشاب إبراهيم الصباغ، حفيد الوزير السابق لضاهر العمر، والذى يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً. وكان كافاريللى قد تعلق به وبدأ فى تعليمه اللغة الفرنسية والجغرافيا والرسم. وهو يعمل كأمين مكتبة مسؤول عن الكتب العربية وكترجمان للعلماء. وكان فورييه ومونج وبيرتولليه قد فكروا فى إرساله إلى فرنسا حتى يستكمل تعليمه. وسوف يوافق كليبر على التصريح له بذلك (٣٢). والواقع أن الشاب سوف يلحق بالجيش فى فرنسا وسوف يكتب بالعربية تاريخا لضاهر العمر (٣٣). ومن المرجح أنه الشاب الشرقى الوحيد الذى تلقى تعليماً أوروبيا خلال حملة مصر. ولابد من الإشارة إلى أنه كان أيضاً كاثوليكيا يونانيا.

ويتمثل أول تجديد كبير من جانب كليبر فى إضافة لجنة جديدة مكلفة بدراسة مصر الحديثة إلى اللجان التى تدرس مصر القديمة. وهذه اللجنة، التى تتكون فى ١٩ نوفمبر ١٧٩٩، تتألف، بين آخرين، من ديجينيت وفورييه وتاليان ووينزيتى ودوجا. ووجود جميع هؤلاء المقربين إلى كليبر إنما يوضح تماماً الأهمية التى يوليها لها. إن جميع جوانب مصر الإسلامية واردة فى البرنامج: التشريع، الأعراف المدنية والدينية، الإدارة، الشرطة، الحكم والتاريخ، الحالة العسكرية، التجارة والصناعة، الزراعة، التاريخ الطبيعى للسكان، الآثار، النقوش والأزياء، الجغرافيا والهيدروليكا (٣٤). وهدف اللجنة ينم عن اهتمام عميق من جانب كليبر بالمؤرخين. إن عليها: «إعلام الأجيال القادمة من البحث، تحت أطلال القرون وفى بحر التخمينات، عما كانت عليه مصر فى الزمن الذى انتقل فيه الفرنسيون من الملكية إلى الحكم الجمهورى (٣٥)».

ولا يسمح كليبر لنفسه بأن تستولى مصر القديمة على جماع فكره : فهو يفكر فى مشروع عمل علمى ضخم يتناول أيضاً كافة الجوانب الأخرى لمصر، وسوف يشكل العلماء فريقاً تعاونيا. أما التاجر هاملان الذى كان كليبر قد استدعاه من مصر العليا – كان بونابارت قد سمح له بشراء الضرائب العينية فى مقابل دفع نقود مباشرة لخزائن الجيش – فإنه يتعهد بتقديم الأموال الضرورية للطبع والنشر (٣٦). ويتم اتخاذ القرار التأسيسى فى ٢٢ نوفمبر ١٧٩٩، ويمكن اعتبار أن الأنراسى هو بالفعل أب هذا «الأثر

الأدبى الجديد بالاسم الفرنسى»، وصف مصر (٣٧). ويوسعه أن يكتب بالمختار فى ٨ يناير ١٨٠٠ إلى حكومة الإدارة :

«لقد جرى إعطاء اهتمام خاص لوصف مصر القديمة. والحال أن الخرائط الطوبوغرافية والرسوم التصويرية والخرائط ورسوم العمارة سوف توضح هذه الآثار لأوروبا؛ وترتبط بذلك بحوث جد مسهبة عن التاريخ وعلم الفلك والفنون وعادات المصريين القدماء. وقد طلبت جمع كل أجزاء هذا العمل الأخير المتميز بطبيعة الحال عن الملاحظات الخاصة بمصر الحديثة. إن رجال الأدب والفنانين الذين يملكون هذه المجموعة مستعدون لأن يجعلوا عملهم متاحاً للجميع تحت إشراف الحكومة، وهم يجدون، فى الاتحاد الذى شكلوه، إمكانات التكفل بنفقات النشر. وهذا المشروع الأدبى الذى سوف ترحب به كل حكومات أوروبا، سوف يكون محل تقدير أكبر بكثير فى بلد تشجع فيه الحرية جميع الفنون. والكتاب الذين يؤلفون هذا العمل التجميعى إنما يتطلعون إلى شرف منح عملهم طابعاً قومياً، وهم يعرضون مشروعهم عليكم بشكل محدد.

«إن الأبحاث المتعلقة بالحالة الراهنة والحديثة لمصر إنما تقدم موضوعاً مهماً للفلسفة وللسياسة. فالقوانين والعادات والتاريخ والحكم والصناعة والتجارة وإيرادات هذا البلد تستحق دراية أشمل بها لا يمكن انتظارها من الرحالة الفرنسيين أو الأجانب الذين سيأتون، وقد جمعت الأشخاص الذين بدوا لى أكثر ملائمة للتنافس فى هذا العمل، ومنحتهم كل السلطة والإمكانات التى يحتاجون إليها» (٣٨).

اتفاق العريش

بعثة طبكورش

مع نبأ وصول بونابارت إلى فرنسا، أخرت حكومة الإدارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين، تيكورش دو سانت - كروا. ومن الواضح تماماً أن بونابارت يقدم صورة متفائلة نسبياً لوضع جيش الشرق. وهو يوافق على مشروع بعثة تيكورش، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجرى قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن)، ويحدد ما كان قد أملاه على كليبر: عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت، وتقديم وعد لهم برد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى ذلك الحين كأداة موازنة تجاه إنجلترا (٣٩).

وتجرى تسمية تيكورش بموجب قرار سرى لحكومة الإدارة فى ١٤ برومير من العام الثامن. وهو يكب على العمل فوراً، وفى ١٨ برومير يكتب مشروعاً لعرضه على الحكومة حول النهج الذى يجب اتباعه فى المفاوضات. وفى اليوم نفسه (٩ نوفمبر ١٧٩٩) يبدأ انقلاب بونابارت. ويتعرض كل شيء للتهديد ولن يجد تيكورش اعتماداً لبعثته من جانب القناصل إلا فى ٧ و ١٣ فريمير من العام الثامن. ويتوجب إرساله إلى مصر والاهتمام بإجراء مفاوضات مع العثمانيين. ويعرف بونابارت، الذى يجمع فى يديه الآن كل السلطات، انه سيكون من المستحيل قبل عدة أشهر إرسال شيء آخر إلى جيش الشرق غير الكلمات الطيبة وذلك بقدر ما إن الإسبان يرفضون بإصرار أية مشاركة فى النزاع فى شرق البحر المتوسط. وتستند التعليمات التى يصدرها القناصل إلى تيكورش فى ١٦ فريمير (٧ ديسمبر ١٧٩٩) إلى الأمانى بأكثر مما تستند إلى تحليل للعلاقات الفعلية للقوة: إن عليه اقتراح ترتيب يترك مصر الآن وإلى الأبد فى قبضة فرنسا مع سيادة إسمية للباب العالى ودفع خزينة، ويجب إبقاء مصر خارج سيطرة قوة أوروبية أخرى، ولن يتم قبول الجلاء إلا إذا فقد الجيش أكثر من ألف وخمسمائة رجل من جراء الطاعون فى غياب عون مهم حتى شهر فلوريال (٢١ أبريل - ٢٠ مايو ١٨٠٠). ويجب تأخير هذا الإجراء لأطول أمد ممكن،ويتعين فصل الباب العالى عن الإنجليز، واستعادة التجارة مع الإمبراطورية العثمانية، مع التوصل إلى فتح البحر الأسود أمام التجارة.ويجب الإفراج عن الفرنسيين الذين يحتجزهم العثمانيون، ويتوجب وقف الأعمال الحربية لمدة ستة أشهر للتوصل إلى التصديق على الاتفاقات.

ولا يتسنّى للقنصل الأول (بونابارت) إصدار الأمر إلى بروى بالخروج من بريست موحداً الأساطيل الأسبانية والفرنسية إلاّ فى فبراير ١٨٠٠. ويتعين عليه مهاجمة جزر البيلير، ثم فك الحصار عن مالطة، وتخصيص أسطول صغير لنقل عدد من الجنود والأسلحة إلى جيش الشرق (٤٠). ومرة أخرى يبدى الأسبان عزوفهم المعتاد تجاه هذه الحملات فى البحر المتوسط؛ فهم يريدون قصر مشاركتهم فى الحرب على النزاع مع إنجلترا. أما وجود روسيا والإمبراطورية العثمانية فى عداد خصومهم فإنه – قلما – يبدو ملائماً لهم.

وفى ٤ نيفوز من العام الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩)، يصل ديكوروش إلى مارسيليا. وإذ لا يجد سفناً للذهاب إلى مصر، فإنه يتجه إلى طولون. وتمر أسابيع دون التمكن من الرحيل، إمّا لأن فرنسا كانت منهكة بالفعل فى هذه النهاية لعام ١٧٩٩، أو لأن السلطة الجديدة كانت لا تزال أضعف مما كانت عليه حكومة الإدارة. وكان النظام السابق قد حاول قدر الإمكان الحفاظ على الاتصال مع مصر. وعلى مدار أشهر، فإن كليبر لن يتلقى من ثم أنباء من فرنسا إلاّ من طريق الصحف التى يجد الإنجليز والعثمانيون أن من المناسب توصيلها إليه.

تدشين المفاوضات مع العثمانيين

ما إن يدرك كليبر حالة الانحطاط التى تميز الجيش، فإنه يفكر فى استئناف المبادرة الدبلوماسية التى قام بها سلفه. ولما لم يك قد تلقى رداً من الصدر الأعظم، فإنه يرسل إليه رسالة جديدة. وهو يفكر بضرورة اتحاد الفرنسيين والعثمانيين ويستأنف استخدام كلام الدعاية التى ميزت الأشهر الأولى للحملة: فهو يوضح أن المماليك وحدهم هم أعداء الفرنسيين وأن هؤلاء الأخيرين قد حافظوا على كل علامات السلطة العثمانية فى مصر (وهو ملمح يعد حقيقياً بعد مبادرات بونابارت الأخيرة). ويقترح كليبر تدشين مفاوضات مباشرة حول وضعية مصر، قد يكون قلب التحالفات فى نهاية الأمر على حساب روسيا نتيجة لها:

«إن الفرنسيين لا يخشون لا أعداءهم ولا عدد هؤلاء الأعداء؛ كما أنهم لا يخشون الحرب، وقد قدموا البراهين على ذلك منذ عشر سنوات؛ لكنهم إن خاضوا الحرب ضد

صديقهم القديم الباب العالى، فهذا يعنى أنهم يخوضونها ضد أنفسهم، بل إننا مضطرون إلى الأسف لانتصاراتنا، لأنها تضعف جيوشكم، التى يجب أن تتحد معها بسرعة، لمحاربة أعدائكم الحقيقيين (٤١)».

ويكلف القائد العام على أغا، أمين خزانة مصطفى باشا، أسير أبو قير، بحمل هذه الرسالة إلى الصدر الأعظم، ويقدم المبعوث تقريره إلى السلطات العثمانية ويقدم بوجه خاص روايته لرحيل بوناپارت: «لقد انتقل إلى أبو قير وتماست تحت ذريعة ما مع سكرتير القائد الإنجليزى سميث. وقد اتجه السكرتير إلى تقديم تقرير عن المقابلة إلى القائد الذى سرعان ما رفع الرسالة وأمر بتحرك الأسطول الإمبراطورى واندفع فى اتجاه دمياط. ومع رفع الحصار عن أبو قير والإسكندرية، فإن بوناپارت، يتبعه خمسة جنرالات ونحو ١٨٠ جندياً، قد رحل من أبو قير ولاذ بالفرار. وقد علمنا بالخبر فى القاهرة. ولا شك أن الخوف والذعر قد دفعاه إلى هذا القرار. ولكن هل تفاهم معه القائد سميث لتسهيل هربه أم أنه قد أراد خداعه لأسره بعد ذلك فى البحر وإرساله إلى المعسكر الإمبراطورى أو إلى القسطنطينية؟ هذا هو ما يجهله الباشا رئيسى [...].

«لا شك أن بوناپارت قد هرب لكونه يرى استحالة التمكن من مقاومة قوات صاحب الفخامة الصدر الأعظم الذى لم يخيل له قط أنه مهيأ للزحف على مصر. أما الفرنسيون الآخرون فإنهم فى قلق وحيرة وانفعال وربما كان ذلك هو الذى ما زال يبقيهم فى البلاد، لكنهم يحاولون فى الوقت نفسه إخفاء قلقهم. ومن المستحيل على أحد الاقتراب منهم والتمكن من معرفة ما يقومون به. إلا أنه يبدو، استناداً إلى ما يمكن تحصيله من خلال التخمينات ومختلف الروايات وجانب من تحركاتهم، أنهم لن يبقوا لحظة واحدة لو كان ساحل الإسكندرية وأبو قير خالياً من السفن الإنجليزية والعثمانية» (٤٢).

والحال أن تحرق كليبر إلى بدء المفاوضات، وتقرير أمين الخزانة والوقوف على الانحطاط العام لمعنويات الجيش الفرنسى إنما تبين للعثمانيين أنهم فى مركز قوة، وهم لم يخطئوا فى ذلك، ففى بداية شهر أكتوبر، يرى كليبر أنه لا يتمتع إلا بقليل من القوات بحيث لا يمكنه مواجهة الجيش العثمانى الكبير:

«مهما فعلت، فإننى لا يمكننى حشد ٧٠٠٠ رجل ضد جيش الصدر الأعظم الآخذ فى الزحف، إن فرقة رينييه قد تركت هنا وحدها، قبل رحيله إلى بلبيس، ٩٠٠ رجل غير قادرين على الدخول فى معركة، وإن كان قد جرى مع ذلك التعامل معهم على أنهم

موجودون تحت السلاح؛ والشيء نفسه ينطبق على الفرقة الأخرى. وقد أحدثت أمراض الرمد كوارث مرعبة، ومن باب تعزيتي، تم التأكيد لي البارحة على أن أربعة ضباط قد ماتوا من الطاعون في الإسكندرية؛ أرجو إفادتي بما إذا كان ذلك صحيحاً (٤٣)».

والحال أن رشدي أفندي يرجع إلى القاهرة في ١٥ فيندميير (٧ أكتوبر ١٧٩٩) ومعه رد الصدر الأعظم على رسالة بوناپارت، ويتكشف الرد عن هجاء لاذع للعدوان الفرنسي الذي يتم على حساب حليف وصديق؛ إن الجيش العثماني لا يقهر؛ وهو، علاوة على ما يتمتع به من قوة، يتمتع بحق الأمم المشروع؛ وقد قضى الله بمعاقبة «الفرنسيين على المجازر التي ارتكبوها ضد فرنسيين من بني جلدتهم بشكل يتعارض مع الشرائع والقوانين». إلا أنه إذا كان فرنسيو مصر يريدون العودة إلى بلادهم لإنقاذ أرواحهم، فإن الباب العالي مستعد «بحكم شريعة محمد، التي لا تسمح بمحاربة من يطلب العفو والمغفرة» لأن يتيح لهم الجلاء دون شرط.

«ومع أن الصلح هو في جميع الأزمنة خير من الحرب، فإن هذا الصلح لا يمكن عقده في مصر بأي شكل من الأشكال. لكنكم إن رحلتم، بركوب سفن الباب العالي، فلن يكون هناك ما يدعوكم إلى الخوف خلال السفر، لا من جهة الروس ولا من جهة الإنجليز حلفائنا وسوف تتجنبون إراقة الدماء البشرية والهلاك الذي لا طائل من ورائه لكثيرين من التعساء الذين سوف يدلسون تحت سنابك جياد المسلمين».

ورداً على مصطفى باشا ورشدي أفندي، اللذين يطلبان من كليبر رده، لا يملك هذا الأخير إلا أن يلوح بالحرب وبالنصر. وعندئذ يتوصل العثمانيان، المنزعجان، إلى بدء المفاوضات هما نفساهما. وهما يشاركان القائد الفرنسي رأيه إلى درجة قبول مبدأ قلب التحالفات؛ أن تتحالف إنجلترا وفرنسا مع الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا؛ ثم إن النظام المملوكي في مصر سوف يعتبر لاغياً وسوف يحل محله حكم الباب العالي (٤٤). وسوف يتوجه رشدي أفندي على الفور إلى الصدر الأعظم لإبلاغه بهذه المفاوضات.

سيدني سميث ولبنان

خلال ذلك الوقت، ينتاب سيدني سميث القلق على حسن تنفيذ خطته. وهو يرتاب في العثمانيين، وصحيح أنه كان قد حصل من الصدر الأعظم على تأمين لأرواح مسيحيي جبل لبنان ضد الجزار، بتنقل الأمير بشير وعدد من أعيان الجبل إلى المعسكر العثماني(٤٥). لكنه لا يثق في القوة الفعلية للجيش العثماني الكبير، ويحاول تجنب كل

مواجهة، بين هذا الجيش والجيش الفرنسي. وفشل الإنزال في دمياط سوف يعزز اعتقاده هذا.

وهو يخشى، من جهة أخرى، من ندالة سريعة للعلاقات بين العدوين. والحال أن العثمانيين لم يطلعوه على الفور باستئناف الاتصالات مع الفرنسيين. ثم إن فرانكيني، ترجمان السفارة الروسية، قد أنبأه بأن الصدر الأعظم لم يبلغه على الفور بمراسلاته. وكل ذلك يدعوه إلى التدخل بنشاط في المفاوضات [٤٦].

وفيما يتعلق بالمسألة اللبنانية، سوف يحصل الأمير من الصدر الأعظم على حق ممارسة السلطة على كل جبل لبنان وعلى جزء من وادي البقاع [٤٧]. ومنطق الحدث عثماني: لقد أدرك الجزار جيداً أن الباب العالي يسعى إلى الاستفادة من الموقف لاستعادة سلطته المباشرة على الولايات العربية، وهو يرفض كل تعاون مع الصدر الأعظم. ويسعى هذا الأخير إلى موازنة سلطة سيد عكا بدعم سلطة الأمير بشير. وبذلك، يتجاوب أيضاً مع مطالب حلفائه المسيحيين الأوروبيين.

[illegible]

يلعب بطء المواصلات دوراً كبيراً في ذلك العصر. وفي ٢٣ أكتوبر ١٧٩٩، يتلقى كليبر رد الصدر الأعظم على الرسالة التي حملها أمين خزانة مصطفى باشا، بينما يشق رشدي أفندي طريقه لاقتراح قلب التحالفات. والنبرة مختلفة تماماً ، فالصدر الأعظم يتحدث الآن عن التفاوض على الصلح ويطرح المسألة الجوهرية الخاصة بصلاحيات كليبر بالنسبة للتفاوض كهذا. وبما أنه لا يثق بالمرة في أن الجنرال يملك مثل هذه الصلاحيات، فإنه يقترح الاقتصار على مناقشة الجلاء عن مصر، والذي يبدي استعداده لضمان أمنه التام [٤٨]. على أن تدشن الإمبراطورية العثمانية فيما بعد مناقشات حول الصلح مع مفوضين فرنسيين لهم كل الصلاحيات. وهذه المراسلة مصحوبة برسالة إلى مصطفى باشا يقصد بها أن يطلع الفرنسيون عليها. ويجري التأكيد في هذه الرسالة على استحالة اختراق الحصار البحري لمصر – بما يستبعد كل وصول لتعزيزات فرنسية –، وعلى الثقة التي يمكن للمرء أن يقابل بها الحديث العثماني عن سلامة الجلاء: «إن هدف هذه الرسالة هو إلزامكم بعمل كل ما يعتمد عليكم من أجل إنقاذ أرواح هؤلاء الفرنسيين التعساء الذين خدعهم الجنرال بونابارت خداعاً بالغ الفظاظة».

وبالنسبة لسيدنى سميث، فقد حان الوقت للتدخل فى المفاوضات. وفى ٢٦ أكتوبر، يكتب إلى كليبر لكى يذكره بالإطار الذى تحدده معاهدة تحالف الباب العالى مع إنجلترا وروسيا. فكل اتفاق على جانب من الأهمية لابد من أن يحصل على موافقة الحلفاء، وأيا كان الأمر، فإن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة تفاوض على الجلاء عن مصر، وليس على الصلح مع الإمبراطورية العثمانية، وهذا الجلاء يحتم موافقة إنجلترا التى تهيمن على البحر المتوسط. والحال أن العميد البحرى، المخلص لتاكتيكه، يلعب على التعارض بين كليبر وبونابارت : «لقد أجبرت الجنرال بونابارت بسماحى له بحرية المرور، على تولى قيادة جيش إيطاليا الذى لم يعد له وجود بالفعل. ووصوله دون تصريح مرور من جانبى، سوف يكون واحداً من تلك الفرص العسيرة التى يمكن للحظ تماماً حرمانه منها. لقد عزف عن أن يأخذ معه إلى وطنهم من يمثلون أدوات شهمة لطموحه ومن ثم فقد بقى لشخص آخر أن يتولى هذا العمل الإنسانى الذى سوف يجد المرء أن الباب العالى مستعد للموافقة عليه، إلا أنه لا يجب للمرء أن يستنتج من ذلك أننى أطلب إلى الجيش الفرنسى أن يقبل إحساناً».

وفى ٣٠ أكتوبر، يبلغ كليبر العميد البحرى أنه ليس مهتماً إلا بالصلح الشامل. وهو يرد بإباء على التعريضات التى يقوم بها الإنجليزى من طرف خفى: «إن المرء رائع فى أى مكان يخدم فيه بلاده؛ والحال أن من المؤكد أن مصر، البلد الأكثر خصوبة على الأرض، ليست مثلى أكثر من البحار الهائجة التى اضطررتم إلى سكناها». وفى ٨ نوفمبر، يأمر مصطفى باشا بأن يكتب إلى الصدر الأعظم أنه مستعد لإرسال مفوضين يملكون كل الصلاحيات للتفاوض على الصلح الشامل. وفى اليوم التالى، ١٨ بروميير من العام الثامن (٩ نوفمبر ١٧٩٩)، يتلقى رد الصدر الأعظم على المهمة الثانية التى قام بها رشدى أفندى. وقد تعرض هذا الأخير للتوبيخ لتفاوضه على أمور ليست من اختصاصه بالمرة. ويتعلق وقف المفاوضات دائماً بمسألة الصلح الشامل، فالعثمانيون لا يرغبون إلا فى الجلاء عن مصر. وبالرغم من هذا الاختلاف، فإن كليبر يطلب فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ بدء المفاوضات ويلمح إلى أنه مستعد للتراجع:

«إلا أنه أخيراً إذا كانت رغبات فخامتكم وحتى عندما لا يتصل الأمر إلا بمجرد الجلاء عن مصر، فمما لا غنى عنه التوصل إلى تفاهم، بل إننى أؤكد أننى سعياً إلى إجراء مفاوضات فى هذا الصدد قد أصدرت إلى مندوبينا تعليمات بحيث لا يفارقونكم دون التوصل إلى التجاوب مع الباب العالى وإلى التجاوب معكم».

التعليمات الصادرة إلى المفاوضين الفرنسيين

في ٢٨ نوفمبر، تصل إلى القاهرة رسالة الصدر الأعظم، التي يجري فيها اقتراح سفينة سيدني سميث، كمكان لإجراء المفاوضات. وهكذا فإن العميد البحري سوف يكون في مركز المفاوضات. ويتصور كليبر أن بوسعه كسب وقت وإضعاف الجيش العثماني الكبير بإجباره على المرابطة في فلسطين خلال شتاء ١٧٩٩ – ١٨٠٠. وهذا هو ما يكتبه إلى حكومة الإدارة في ٣ ديسمبر ١٧٩٩، مع تنبيهه إلى أنه، دون وصول تعزيزات، سوف يكون في حالة لا تسمح له ببدء المعركة القادمة. ويبدو أن كل شيء يسير في هذا الاتجاه لأن الوقت غير المناسب يرغم السفن الإنجليزية على مغادرة المشارف البحرية للإسكندرية. وعندئذ يقترح سيدني سميث انتظار المفوضين الفرنسيين في دمياط، ويعين كليبر هذين المفوضين، وهما بوسيلج، المؤيد الحازم للجلاء، وديزيه، الذي اختاره كليبر لتوريطه في هذه المسألة، متجنباً بذلك معارضة الجندي الأكثر هيبة بعده.

والحال أن التعليمات، المحررة في ٧ ديسمبر، إنما تتمثل في التوصل إلى وقف للقتال، وحل التحالف بين الباب العالي والحلفاء الأوروبيين، ورد الجزر الأيونية إلى فرنسا، ورفع الحصار عن مالطة وعودة العلاقات الطبيعية بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية، في مقابل الجلاء عن مصر. وهكذا يتطلع كليبر إلى إنهاء الحملة بشروط جد مشرفة، أو، على الأقل، تأخير الزحف العثماني دائماً:

«إلا أنه إذا كان وضعنا في أوروبا متردياً إلى درجة غزو حدودنا بالفعل والاستيلاء على مواقعنا الرئيسية أو مهاجمتها، وهو ما سوف يسهل على المفوضين الفرنسيين معرفته من الصحف التي لن يتأخر أحد عن إطلاعهما عليها؛ فمن المرجح جداً عندئذ أن المفوضين الخصوم لن يقبلوا الشروط الواردة أعلاه وأنهم سوف يصرون على العكس من ذلك على مجرد الجلاء عن مصر. وفي هذه الحالة، يجب على المفوضين الفرنسيين إعلان أن القائد الفرنسي لن يقبل أبداً مثل هذا الجلاء إلا بناء على أوامر من حكومته. ويجب عليهما طلب مرور آمن لإيفاد رسول غير عادي إلى حكومة الإدارة التنفيذية وطلب وقف للأعمال الحربية حتى عودته، أي لمدة أربعة أشهر».

ويجب إجراء مفاوضات إضافية مع الإنجليز حول حرية العودة الفورية للجنة العلوم والفنون ولجرحى الجيش الفرنسي. ويقبل سيدني سميث ذلك من حيث المبدأ على أمل أن

مثل هذه المناورات سوف تنمي الرغبة لدى آخرين في اقتفاء أثرها. ويصل بوسيلج وبيزيه إلى دمياط في ١٣ ديسمبر، لكن الوقت غير المناسب يبقى سيدنى سميث ملثماً في عرض البحر. على أن العثمانيين لا يريدون الوقوع في الفخ الفظ الذي ينصبه لهم كليبر ويواصلون زحفهم.

سقوط العريش

إن طليعتهم تصل أمام العريش في ٨ ديسمبر ١٧٩٩ (٤٩). وعلى الفور، يدهمك تروملان والكولونيل دوجلاس اللذان يرافقان القوات العثمانية في الحرب السيكولوجية التي يعلي سيدنى سميث من شأنها، ويدعو دوجلاس الفرنسيين إلى الاستسلام أمام تفوق خصومهم العددي الكاسح ويتمكن تروملان - الذي يلعب دور رسول - من نقل رسالة إلى الجنود تعدهم بحماية العثمانيين وبالعودة إلى فرنسا إذا ما تخلوا عن الموقع.

ويرى كازال، الذي يقود الحصن، أنه لا يملك الحديث عن الجلاء، لهذا المجال يخص القائد العام. لكن كليبر كان قد اخبر الجيش، من خلال بياناته ومن خلال صحيفة لوكورييه دوليجيبت، بالخطوط العريضة للتفاوض. ثم إن سيدنى سميث كان قد تمكن، بعد معركة دمياط، وبفضل تبادلات المندوبين، من نشر رسائله بين صفوف الجنود الفرنسيين. وليس غريباً في هذه الظروف، عندما يبدأ الحصار العثماني بالفعل في ٢٢ ديسمبر، أن يكون رجال القوة غير متحمسين لفكرة القتال في وضع على هذه الدرجة من السوء، وبينما يبدو الجلاء عن مصر قريباً. وفي مساء ٢٥ ديسمبر، يجرى تقديم عريضة موقعة من جانب ثمانين جندياً وصف ضابط إلى القائد :

«الحكمة، الحذر، تذكر ما حدث في يافا

«إن الجنود المكونين لحامية العريش إلى المواطن قائد الحصن

«يحسن بك، أيها المواطن القائد، تسليم الحصن الذي تقوده إلى العدو، في وقت لا يتأخر عن اثنتي عشرة ساعة. فاعتقاداً منا بأننا لم يعد بوسعنا المقاومة، بالنظر إلى أنه لم يعد هناك لا معدات ولا أدوية للجرحى، ندعوك إلى إنهاء هذا الأمر وسوف تحظى بتقدير رفاقك».

والحال أن كازال وضباطه، الذين أخذ منهم الغضب كل مأخذ، يجمعون الحامية في

الشهر ويحاولون تذكير الجنود بواجباتهم بالرغم من صيحات التمرد. وفي نهاية الأمر، يأمر المتمردين بالذهاب لتسليم أنفسهم فوراً إلى العثمانيين، في حين أنه والبواسل سوف يدافعون عن شرف الجيش. وهذا المشهد يخيف الرجال الذين يعودون إلى أخذ أماكنهم في الصفوف. وهم يصمدون صموداً مشرفاً خلال يومين ثم يبدءون في الفرار. وبينما يحث الضباط الجنود على القتال، فإن عدداً من الجنود يرفعون راية الاستسلام ويسلمون أنفسهم للعثمانيين، فاتحين لهم الحصن. وبما أن فرنسيين آخرين يظلون أوفياء لواجباتهم، فإن الفوضى سرعان ما تصل إلى ذروتها. ويوقع كازال في النهاية استسلاماً يتيح له الحفاظ على الشرف العسكري والعودة إلى الخطوط الفرنسية. لكن العثمانيين لا يراعون ذلك وينهمكون في ذبح الأسرى. وعندئذ ينفجر مستودع البارود بما يؤدي إلى خسائر مهمة في صفوف المهاجمين (٢٩ ديسمبر). أمَّا الفرنسيون الناجون (نحو مائة وستين رجلاً، ولابد أن أكثر من مائتين قد لقوا مصرعهم) فيسقطون في الأسر. ويجرى إرسالهم إلى يافا وإعادتهم من هناك إلى دمياط التي يصلون إليها في ١٥ فبراير ١٨٠٠ بعد رحلة مرهقة. وسوف يؤدى مجلس حربي، عقد في مارس التالي، إلى تحديد المسؤليات وسوف يرد الاعتبار إلى كازال وضباطه.

تفسخ الجيش

ليست مسألة العريش غير علامة بين علامات أخرى على انهيار معنويات الجيش. جزءاً من متمردى العامية قد جاء من شبه اللواء الذى كان قد حل في دمياط. وفي القاهرة، يكتشف ديوجا في الشهر نفسه شبكة مصرية لتهريب الجنود الفرنسيين لحساب المماليك (٥٠). وفي يناير، يحدث في الإسكندرية تمرد عسكري جديد، أكثر خطورة بكثير: «منذ مغادرتكما مصر نشبت انتفاضة جديدة للقوات في الإسكندرية، [...]. لقد جرى شهر السلاح، كما جرى الحديث بصوت عال عن الاستسلام للإنجليز. وإذا كان هذا المسعى لم ينجح، فإن ذلك إنما يرجع لحسن الحظ إلى أنه لم تك هناك ساعتها سفن للعدو قبالة الميناء» (٥١).

والحادث الذى فجر هذا التمرد هو وصول بقية حاشية بونابارت إلى الإسكندرية، بمن في ذلك مدام فوريه، والتى يسارع كليبر إلى إعادتها إلى فرنسا. وكان الجنود قد ظنوا أن كليبر نفسه قد ترك الجيش وغادر مصر.

ثم إن مراد بك يبدأ، في أواخر ديسمبر، هبوطاً جديداً صوب مصر الوسطى. وإذ يمر عبر الصحراء، فإنه يقلل مطلق السراح، بما يحتم إيفاد قوات في المنطقة، في حين أن من شأن معركة ضد الصدر الأعظم حشد القوات الفرنسية المتوافرة في شرقي الدلتا. وينبه دوجا كليبر إلى أنه يبدو له أن من الصعب الإمساك بزمام القاهرة اعتماداً على قوات تقل بنسبة النصف عما كان عليه الحال أثناء حملة سوريا أو معركة أبو قير. والحال «أن جميع منشآت الجيش الكبرى موجودة في القاهرة. وإذا ما تم تدميرها، فإن هذه الخسارة وحدها سوف تستتبع خسارة مصر والجيش الذي لن تكون له هناك بعد لا مستشفيات ولا مستودعات» (٥٢).

قرار الجلاء عن مصر

من الواضح الآن – بالنسبة لكليبر – أن العثمانيين سوف يواصلون الضغط ولن يسمحوا له بكسب الوقت. لكنه، من جهة أخرى، يعلم عن طريق الإنجليز أن بونابارت قد رسا في كورسيكا (٥٣). ولذا فإنه يطلب إلى تاليان العودة إلى فرنسا كمندوب لدى الجرحى العائدين إلى الوطن. والحال أن تاليان، الذي كتب لتوه إلى باريس ليشرح ضرورة الجلاء عن مصر، إنما يتعين عليه أن يكشف للرأي العام الفرنسي الحقيقة عن الحملة (٥٤). ومن الواضح أن المسؤولين الفرنسيين يجهلون نبأ الإطاحة بحكومة الإدارة والتي مر عليها الآن أكثر من شهر. ويواصل مينو وحده كتابة مذكرات حول ضرورة الحفاظ على مصر كمستعمرة، لكنه لا يحظى بالتفات كبير في صفوف الجيش.

وفي الأيام العشرة الأخيرة من ديسمبر ١٧٩٩، يجري استئناف الاتصالات بين المفوضين الفرنسيين والعميد البحري في دمياط. ويتبادل الطرفان مبدأ هدنة يسري مفعولها خلال مدة المفاوضات. وكالعادة، يسلم سيدني سميث صحفاً أوروبية. وتنتهي قراءتها بإقناع كليبر بعدم جدوى مواصلة المشروع المصري:

«إذا كان لابد من تطبيق الفقرة الثانية عشرة من رسالة الجنرال بونابارت على ظرف ما، فمن الواضح أن هذا الظرف هو الظرف التالي: لقد ضاعت إيطاليا، وخرج الجيش البحري من البحر المتوسط وحوصر في ميناء بريست، وسقط الأسطول الهولندي تحت سيطرة الأعداء، ووصل الإنجليز والروس إلى هولندا، وتم دحر موللر على الراين، وجرى

ترك الدفاع عن حدود الأنزاس لسكانها، وانبعثت القانديه من رملها واحترقت مهينس. والجهاز التشريعى يقترح لعتبار الوطن فى خطر ثم يتخلى عن هذا الاقتراح، ليس لأن الخطر غير موجود فى الواقع، وإنما لأن للرسوم الذى يمكنه الإشارة إليه لا يتضمن اى علاج له، فما الذى يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً من ذلك؟

«وبناءً على ذلك وبناءً على الوضع الأكثر من صعب الذى أجد نفسى فيه والذى يصبح من يوم لآخر أكثر صعوبة، فإننى أعتقد، بصفتى قائداً وبصفتى مواطناً، أن علىَّ التحرر من مزاعمى الأولى والسعى إلى الخروج من بلد لا يمكننى، من أكثر من زاوية، الاحتفاظ به؛ وهو أمر لا يبدو حتى أن هناك من يهتم به فى فرنسا، اللهم إلاَّ لمجرد البرهنة على فتحه. إن الأمل فى تعزيز سريع وكافٍ قد دفعنا إلى العمل على كسب الوقت، إلاَّ أنه مع دمار الأمل، فإن الوقت الذى نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن، فلنسارع إلى أن نقدم له عوناً لا يملك هو تقديمه إلينا.

«وترتيباً على ذلك، فإنه ما إن يعرض عليكما مجرد حياد الباب العالى خلال الحرب وحرية الخروج من مصر مع الأسلحة والمهمات والذخائر، ومع حق الخدمة فى اى مكان وضد اى كان لدى عودتنا إلى فرنسا، فإن عليكما عقد المعاهدة دون تردد وسوف أسارع إلى التصديق عليها (٥٥)».

وتأكيد خبر سقوط العريش يقود القائد العام إلى دفع ممثليه الدبلوماسيين إلى إتمام الاتفاق بأسرع ما يمكن. وفى ٧ يناير، يخاطب الصدر الأعظم لإشعاره بقبوله لمبدأ الجلاء الفورى عن مصر، فى مقابل تقديم وسائل نقل للعودة إلى فرنسا والمؤن الغذائية اللازمة للجيش الفرنسى فى تلك الفترة وانسحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف. ولا يهتم القائد العام إلاَّ بأشكال الرحيل وليس بمبدأ الرحيل. ومن باب الاحتياط، فإنه يوجد مع جميع القوات المتوافرة فى الصالحية حتى يتسنى له أن يكون أكثر قرباً من الجيش العثمانى، ومحاربته فى نهاية الأمر فى حالة فشل المفاوضات.

وسرعان ما يدرك ديزيه وبوسيلج اللذان استهلا المناقشات مع سيدنى سميث على متن الباترجة تيجر رفض محدثهما التطرق بأى شكل من الأشكال إلى مسألة تسوية سلمية، لكنهما يدركان أيضاً سعيه الحثيث إلى تسهيل كل ما من شأنه أن يؤدى إلى الجلاء، وهما يبرهنان من جانبهما على الإصرار نفسه. ويبلغهما الإنجليز، فى ٨ يناير ١٨٠٠، بوصول بونابرت إلى باريس. ويشتبه ديزيه فى أن إصرار العميد البحرى على التوصل إلى الجلاء إنما ينبع من عدم ثقته فى قيمة الجيش العثمانى ؛

«لم تك لدى حاجة لدفع السير سيدنى سميث إلى الصلح. فليس لديه غير هدف واحد، رغبة واحدة، أمنية واحدة، هى التفاوض لكى يثبت لنا أن من الواجب علينا الخروج من هنا بأسرع ما يمكن. فالمجد الذى سوف يعود عليه من وراء ذلك فى بلاده، ولدى الروس ولدى الأتراك، يدير رأسه. ويبدو أنه يخشى من أن يراه وقد طار منه، فهو يبدو منزعجاً. إن الانتكاسات التى يتعرض لها العثمانلية يبدو أنها تجعله أقل تمتعاً بحبهم. وأعتقد أنه يكفى أن تحدث بضع انتكاسات أخرى حتى يقبل هؤلاء الطيبون التصالح. اضربوا الصدر الأعظم وسوف يفعلون كل ما تريدون. فالسياسة المتعلقة لن تدخل إلى رؤوسهم إلا بعد كثير من التصحيحات؛ ضربة قوية أخرى وسوف ينتظم كل شىء، وعلى الأقل فهذا هو ما أتصوره. لقد نفد صبر سميث لأنه لا يملك أخباراً عنك؛ إنه يضرب الأرض بقدمه؛ ويصرخ » – «يجب على الجنرال كليبر أن يرد علىّ : إن ما أقدمه له نزيه؛ وأنا أعتقد أنه أكثر حكمة من الجنرال بونابارت» – وأنت ترى من ذلك، قائدى الجنرال، أنه لا يطلب أكثر من التفاوض. وكل ما يريده هو أن نرحل بأسرع ما يمكن. وعندما يطلب عدو شيئاً ما بإلحاح، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن ذلك الشىء يملك عليه فؤاده أو يسبب له كثيراً من المتاعب؛ وهذا – فى اعتقادى – سبب لعدم تقديم هذا الشىء إليه بسهولة» (٥٦)

والأرجح أن كليبر إنما يرد على هذه الرسالة عندما يقول لديزيه صراحة، إننا لن نتلقى أى نبأ من فرنسا ببساطة تامة لأنه لا وجود هناك لتعزيزات يمكن إرسالها وأن «هناك من سيجد راحة فى أن يترك لى الاهتمام بحل هذه المسألة إمَّا لكى يتكرم بالثناء علىّ أو لكى يثبت زيفى». وأياً كان الأمر، فإنه إذا كان قد تم إعداد تعزيزات، فمن المؤكد أن بونابارت سوف يصادرها «فهذه هى اللحظة المناسبة الآن أكثر من ذى قبل لكى يعمل على تأمين نجاحاته فى أوروبا، فدونها سوف يضيع ويسقط فى وقت أقل من الوقت الذى ارتفع فيه». ويبدى كليبر استعداده لترك القيادة إلى ديزيه إن كان هذا الأخير واثقاً من التصرف بشكل أفضل. وتحليله واضح: «بالنسبة لى، أنا الذى لا أريد أن أرى البتة اغتيال بقية هذا الجيش جزءاً جزءاً، دون فوائد فعلية بالنسبة للوطن، بالنسبة لى، أنا الذى اعتبرت هذه الحملة فاشلة تماماً، منذ حدث أبو قير الكارثى وإعلان الباب العالى للحرب، فإننى سوف أثابر فى قرارى دون أن أزعج نفسى بما إذا كان اللوم أو الثناء فى انتظارى. إن أجمل مكافأة لى كانت تتمثل دائماً فى راحة ضميرى، وهو يقول لى إننى أفعل الخير. ومن جهة أخرى، فإننى أعتقد أننى أملك الأسلحة الكافية للدفاع عن نفسى ضد أولئك الذين يريدون مهاجمتى» (٥٧)

وفى ١٣ يناير، يجرى استئناف المفاوضات، التى تدور هذه المرة فى العريش نفسها مع الصدر الأعظم والريس افندى (المتحدث بلسان الخارجية). وفى ١٥ يناير، يكتب كليبر إلى مفوضيه أنه يتخلى عن مطلبه الداعى إلى انسحاب الإمبراطورية العثمانية من الائتلاف. وهنا أيضاً فإن أخبار أوروبا (التى ترجع إلى أكتوبر ١٧٩٩)، والتى قام الإنجليز بتلفيقها، تلعب دوراً حاسماً. ويرى القائد العام أن من المستحيل الأمل فى الحصول على تعزيزات وأن من الأنسب «التفكير فى أن نقدم إلى وطننا العون الذى لا يسعه تقديمه إلينا، ولا حتى الوعد بتقديمه إلينا». وترتيباً على ذلك، فإنه يتخذ الخطوة الحاسمة : «إننى أصرح لكما بالتجاوز والاقتصار على التفاوض على مجرد الجلاء مع الاكتفاء بتجنب إضفاء صيغة الاستسلام على هذا الاتفاق والحرص على جانبكما، على العكس من ذلك، على إضفاء طابع معاهدة عليه».

الاتفـــاق

يرى ديزيه وبوسيلج أن قائدهما يقدم للعثمانيين تنازلات من جانب واحد، وبلا طائل، وأن قبول الجلاء – حتى وإن كان مشروطاً – والذى جرى إشعار الصدر الأعظم به، لم يؤد إلا إلى إضعاف موقف الفرنسيين فى المفاوضات. وهما يريان – فى المقابل – أن فكرة مغادرة مصر سوف تؤدى إلى الوقف الفعلى للأعمال الحربية بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا وأن بالإمكان الأمل فى التفاوض على هدنة شاملة وعلى الإفراج عن الفرنسيين المحتجزين ورد ممتلكاتهم إليهم. على أن ديزيه يؤكد لكليبر أنه سوف يكون من السهل ضرب الجيش العثمانى ثم استئناف المفاوضات من مركز قوة. لكن كليبر لا يريد معارك. فهو مع ثقته التامة فى قيمة رجاله، لا يقبل المجازفة بمصير آلاف من الفرنسيين فى مغامرة معركة. إن كل شىء فى شخصه يرفض أن يكون بوناپارتاً يلعب مع التاريخ.

ومنذ ذلك الحين تتقدم المفاوضات بسرعة. وبفضل سيدنى سميث، يتم الحصول على الموافقة على مبدأ الإفراج عن الأسرى. لكن العثمانيين، متذرعين بتحالفاتهم، يرفضون هدنة خلال الفترة الممتدة حتى الوصول إلى الصلح الشامل. والحال أن العميد البحرى هو أول من يقترح خطة جلاء تمثل أساساً للمناقشات فى مواجهة الاقتراحات المضادة التى يقدمها الفرنسيون (١٥ – ١٦ يناير ١٨٠٠). وهى تتصل خاصة بتقديم المؤن

الغذائية للجيش الفرنسي في مقابل ترك الضرائب المفروضة على مصر، كما تتصل بموعد مغادرة القاهرة التي توجد بها مستودعات الجيش. وحول هاتين النقطتين، فإن كليبر، الذي يتابع المفاوضات عن قرب والذي لا تفصله عن العريش غير مسيرة يومين أو ثلاثة أيام، يبدو مستعداً للذهاب إلى حد قطع المفاوضات. وهو، من جهة أخرى، يعقد مجلساً حربياً من ثلاثة قادة للفرق وستة قادة للألوية سعياً إلى الحصول على الموافقة على قراراته. وتتضح بعض الانشقاقات، خاصة انشقاق دافو (٥٨)، لكن الجميع يوقعون على المحضر الرسمي الذي يحدد مبررات القرارات والذي يسير في الاتجاه الذي يريده كليبر. وفي ١٨ يناير، يتسنى للمفوضين إدراك أن المفاوضات تصل إلى مرحلتها النهائية ويرسلان إلى المعسكر الفرنسي آخر صحف يتسلمانها والتي ترجع إلى الفترة الممتدة من ١ إلى ١١ نوفمبر ١٧٩٩. وبما أنها ليست صحفاً فرنسية الأصل، فإنها لا تذكر خبر استيلاء بونابارت على السلطة، والذي حدث في ٩ و ١٠ نوفمبر.

وفي ٤ بلوفيوز (٢٣ يناير)، يتم توقيع الاتفاق. ويصدق عليه كليبر في ٨ بلوفيوز مع بعض التحفظات على نقاط في الترجمة التركية. ويتعهد الفرنسيون بالجلاء عن مصر، في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر، على سفن يتولى العثمانيون تقديمها. وسوف تستمر الهدنة ما دام رحيل الفرنسيين لم يتم. وسوف يترك هؤلاء الأخيرون مواقعهم في مصر بدءاً بشرق الدلتا. وسوف يتم الرحيل عن القاهرة في اليوم الخامس والأربعين بعد ذلك. أمَّا الساحل الغربي (إقليم الإسكندرية) فسوف يكون آخر إقليم يُوجد فيه الفرنسيون. وسوف يُوجد الجنود العثمانيون على بعد مسافة معقولة لتجنب أي احتكاك. أما المحتجزون فسوف يجري الإفراج عنهم وسوف يستردون ممتلكاتهم. ولن يكون أي أحد من سكان مصر عرضة للتكدير بسبب علاقاته مع الفرنسيين. ويلزم الاتفاق حلفاء الباب العالي بما يلي:

«المادة ١١

«سوف يجري تسليم الجيش الفرنسي، من جانب الباب العالي كما من جانب بلاطي حلفائه، أي بلاطي بريطانيا العظمى وروسيا، جوازات السفر وتصاريح المرور الآمن والقوافل الضرورية لضمان عودته إلى فرنسا».

«المادة ١٢

«عندما يخرج الجيش الفرنسي من مصر، فإن الباب العالي وكذلك حلفاءه يعدون بأنه، حتى عودته إلى أرض فرنسا، لن يتعرض البتة للتكدير، كما أن القائد العام كليبر

والجيش الفرنسي في مصر يعدان من جانبهما بعدم ارتكاب أي عمل عدواني خلال المدة المذكورة، لا ضد الأساطيل، ولا ضد بلاد الباب العالي وبلاد حلفائه وأن السفن التي سوف تنقل الجيش المذكور لن تتوقف في أي ساحل آخر غير ساحل فرنسا اللهم إلاّ في حالة الضرورة القصوى».

ويتعهد العثمانيون بتوفير مبالغ مهمة لإعاشة الجيش خلال الفترة الممتدة حتى نهاية إقامته في مصر، وهو ما يحرر المسؤولين الفرنسيين من شاغل مهم.

والحال أن سيدني سميث – الذي شارك بنشاط بالغ في المفاوضات – لا يوقع على الاتفاق، لكن أحداً لا يشك في قيمة التعهد المأخوذ باسم إنجلترا. والواقع أن العثمانيين والفرنسيين يفكرون بالفعل في مستقبل علاقاتهم وهم غير مستائين من رؤية غياب العامل الإنجليزي.

نوايا كليبر

يمكن لكليبر من ثم أن يعلن لرجاله النبأ الذي طال انتظارهم له :

«أيها الجنود»

«إن التقاءً رئيسياً للظروف لست في حل الآن من إطلاعكم عليه، قد دفعني إلى وقف مسار انتصاراتكم وإلى التفاوض مع أعدائكم، بدلا من محاربتهم. وهكذا فبموجب المعاهدة التي عقدتها للتو، سوف ترون وطنكم من جديد في غضون أربعة أشهر وسوف تواصلون خدمته بأسلحتكم وبجبروتكم بأسلوب أكثر كفاءة مما تسنّى لكم عمله حتى الآن في هذه البلاد.

«أيها الجنود! لو كنت قد استشرت في تكليفي بحمل العبء الذي خلفه لي الجنرال بونابارت، فإن من المؤكد أنني ما كنت لأقبل تلك البتة، لأنني أشعر شعوراً بالغ القوة بأن قواي لا تتناسب البتة مع أهمية الموقع الذي احتله، في ظروف جد صعبة، لكنكم تعرفون أنني لم يك بوسعي الاختيار.

«على أنني أجد عزاءً في الإيمان بأنني إن كنت لم أفعل لكم كل ما تستحقه شجاعتكم وإخلاصكم للجمهورية، فإنني قد فعلت على الأقل كل ما كان ممكناً عمله من الناحية الإنسانية في الوضع الصعب الذي وجدت فيه الجيش. إن أولئك الذين لا يسدون

الأكفاء من بينكم أمام صوت العقل سوف يعترفون لى بذلك، وأنا لا أشتهى كثيراً رضاء الآخرين.

«أيها الجنود ! إن تعهدات رسمية وتبادلية تربطنا بالجيش العثمانى؛ ولدى الاقتناع الأكثر عمقاً بأنه لا يدور برأس الصدر (الأعظم) ولا برأس أحد من قادة المسلمين خيانتها، ولكن هل يمكن لهم دائماً فى مؤسساتهم التى تبيح كل شىء أن يعتبروا مسؤولين عن مسلك مرؤوسيهم ؟ كلا بالتأكيد، ولذا فإن عليكم أنتم الذين تعيشون فى ظل انضباط حكيم ومتعقل أن تتفادوا أو أن تتجنبوا الاحتكاكات التى قد تستتبع أوخم العواقب، وأخطر النتائج. إننى لن أترك بلا عقاب أية إهانة قد تمسكم، لكننى سوف أعاقب أيضاً بموجب كل صرامة القوانين من يكونون سبباً لها من بينكم».

والحال أن نابوليون فى سانت – هيلين وفى أثره، عدد كبير من المؤرخين الاستعماريين، خاصة شارل رو، قد شجبوا موقف كليبر (٥٩). والواقع أنه يجب أن نفك مسلكه إلى لحظتين. فهو – فى البداية – قد سعى إلى كسب الوقت بالرغم من المصاعب المالية، حيث كان هدفه هو ترقب وصول التعزيزات. ثم، وبسبب الانعدام المتواصل للاتصال المباشر مع فرنسا وتحت تأثير تمردات الجيش المتتالية، أراد التعجيل بالأمور سعياً إلى التمكن من التدخل مع رجاله فى ساحات المعارك الأوروبية التى يتوقف عليها مصير فرنسا.

ومن المؤكد أن المشكلات العسكرية المطروحة عليه فى مصر هى مشكلات واقعية: صعوبة تحقيق حشد القوات فى مواجهة بكوات مصر العليا، خطر التمردات الحضرية والريفية والخطر الذى يمثله الجيش العثمانى الكبير الذى يعتبر عدده أكثر أهمية بكثير من عدد جنود الجيوش التى جرى إلحاق الهزيمة بها فى جبل طابور وأبو قير. إلا أنه لم يشك قط فى حقيقة الأمر فى القدرة على الانتصار على أولئك الخصوم. والخطر بالنسبة له بعد ذلك إنما يكمن فى الضعف المتواصل لجيش لا يتلقى تعزيزات.

ومن المؤكد أن كليبر، سعياً إلى تبرير قراراته، قد قلل من قيمة الإمكانات العسكرية لقواته. فأعداد القوات المقاتلة التى يعلنها فى مراسلاته مع فرنسا والتى اعترض الإنجليز سبيلها، هى أعداد أقل من الأعداد المتوافرة فى الواقع بكثير. والبرهان على ذلك إنما يكمن ببساطة تامة فى تفكيره المتواصل فى المشاركة فى المعارك الأوروبية فى ربيع ١٨٠٠، وهو أمر من شأنه أن يكون مستحيلاً لو كانت القوات الواقعة تحت إمرته فى الحالة التى يصفها فى مراسلاته بالفعل.

لقد حصل كليبر في العريش على شروط أفضل بكثير من الشروط التي كانت حكومة الإدارة مستعدة لقبولها في أواخر صيف ١٧٩٩. وانقطاع الاتصالات مع فرنسا والسوابق العديدة التي ترجع إلى بونابارت نفسه منذ عام ١٧٩٧ تجيز له التصرف بمثل هذه الدرجة من حرية الحركة. وتتمثل سخرية التاريخ المأساوية في أن كليبر قد تصرف، حتى النهاية، من زاوية حكومة كان يكن لها الاحتقار، هي حكومة الإدارة، ومن زاوية مثل أعلى كان يعزه، هو الجمهورية. والحال أن الحكومة والمثل الأعلى لم يعد لهما وجود بعد انقلاب ١٨ برومير، وهو من عمل رجل احترمه في البداية ثم اختلف معه – ليس بسبب أعماله المباشرة بقدر ما كان ذلك – بسبب الخطر الذي يمثله، وهو خطر التضحية بالوطن في سبيل طموح شخصي.

هليوبوليس

نبأ ١٨ برومير

يسمى كليبر مساعده وصديقه، أوجوست داماس (شقيق الجنرال داماس)، لحمل اتفاق الجلاء إلى جانب مبررات مسلكه إلى حكومة الإدارة. أما هو فإنه يرجع إلى القاهرة التي يصل إليها في ٣ فبراير ١٨٠٠. وبعد ذلك بأيام قليلة، يرسل إليه سيدني سميث صحيفة ذي صن الإنجليزية التي تروي انقلاب ١٨ برومير. ويترجم ديجينيت المقال الإنجليزي، بينما أخذ كليبر «يردد في كل لحظة وهو في حالة من التأثر والذهول: «هذا هو مشهد كرومويل تماماً» [٦٠]». أما مينو، الموجود في الإسكندرية، فإنه يسارع إلى إبقاء أوجوست داماس ليتمكن من حذف الانتقادات الموجهة إلى عمل بونابارت في الرسائل. وعلى العكس من ذلك، يتمسك كليبر بعدم حذف شيء من رسائله ويحث رسوله على السفر بسرعة. «إن ما كان صحيحاً البارحة هو صحيح اليوم أيضاً وسوف يظل صحيحاً على مر القرون. وليس هناك ما يدعو الجنرال بونابارت إلى الخوف مني؛ فهو الآن - بدلا من أن يكون طرفاً، أصبح قاضياً في مسألة يعرفها مثلما أعرفها تماماً. وإذا كان عادلاً، فلابد للجيش ولي أيضاً من توقع الاستقبال الأكثر تميزاً. وإذا كان غير عادل، فإنه سوف يجر العار على نفسه بالرغم من قوته وعندئذ فإن جريرة ذلك ستكون من عمله [٦١]».

إن ما يزلزل كليبر في أعمق أعماقه، ليس هو مصير مصر - فهو متأكد من أنه قد اتخذ القرار الصحيح -، بل هو بالأحرى مصير الجمهورية. وشأنه في ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين المخلصين، فإنه يجد نفسه موزعاً بين رفض اليعقوبية التي تعني الإرهاب، ورفض البونابارتية التي لا تعني سوى الديكتاتورية. وهذه المعضلة تجد تعبيراً عنها في الملاحظات التي يكتبها في تلك اللحظة في مفكرته الشخصية:

« - ما رأيك في أحداث ١٨ برومير ؟

« - إن فرنسا ما كان يمكن إخضاعها على يد مهرج أحقر من هذا المهرج.

« - من ثم فإنه لن ينقذ الوطن البتة ولابد لي من أن أستنتج أيضاً مما تقوله إنك لست نصيراً للدستور على الإطلاق ؟

« - إنه (الدستور) ليس غير قناع خبيث، رأى الطاغية أن من المناسب التستر به

مؤقتاً وسوف يلقيه من النافذة إن لم يجبر إلقاؤه هو نفسه منها، قبل أن يصبح غير مجدٍ بالنسبة له...

« – إنني لم التقط قط من الوحل شارة الملكية الممزقة وقد وجدت أن مما لا يليق بي – بعد الدور الذى أجبرنى القدر على لعبه فى هذه الثورة – تأمين سيد ولو للعبيد.

« – أنت لا تؤمن إذن بأن بوسع الجمهورية أن توجد ؟

« – بلى، لأنها لـــم تعد موجودة، علـى الأقـــل وفقاً للمعنى الذى يرتبط بهذه الكلمة» (٦٢).

والحال أن جيش الشرق – الجمهورى للغاية – ليس شديد التعلق ببونابارت الذى سحب، من جهة أخرى، الضباط الذين يشكلون حاشيته العسكرية المباشرة. وهو يشكل خطراً بالنسبة للنظام الجديد، البالغ الهشاشة، كما سوف تبين ذلك الدسائس السياسية الدائمة حتى مارينجو. ويرى كثيرون فى باريس أن كليبر يمكن أن يشكل معارضة جمهورية انطلاقاً من جيشه. وتروج شائعات مفادها أن كليبر قد عقد مجلساً حربياً جرى فيه اعتبار بونابارت متهماً بالتخلى عن جيشه (٦٣). ولهذا فإن القنصل الأول (بونابارت)، غير المهتم بمهمة ديكوريش – الموجود دائماً فى طولون فى انتظار سفينة – يهتم بإمكانات إرسال رسول عسكرى إلى مصر (٦٤). وهذا الرسول هو الجنرال المساعد لاتور – موبور، الذى يصل إلى القاهرة فى ١٤ فينتوز (٥ مارس ١٨٠٠). وهو يحمل معه رسائل من بيرتييه، وزير الحربية، ومن الجنرال كلارك، مدير المستودعات الحربية، لكنه لا يحمل أى رسائل من القنصل الأول. وتشيد الرسائل بإصلاح أحوال فرنسا الذى تم بفضل عمل القناصل، لكنها لا تقدم أية تعليمات حول المسلك الذى يجب اتباعه. ويصل الأمر ببيرتييه إلى حد قول: «لقد علمنا عن طريق القسطنطينية أن الصدر الأعظم قد تراجع إلى دمشق دون أن يظهر أمام جيشكم. وهذه أمجاد جديدة يحول دون كسبها».

وتثير هذه الوقاحة غضب كليبر الذى يرد بشكل جارح على بيرتييه: «لقد كنت أنتظر بعض التعليمات الجديدة، وتأكيداً إيجابياً بإرسال عون من الرجال والأسلحة، وبدلاً من ذلك، فإننى لا أقرأ غير استبشارات مبهمة بالذكريات.

«إننى أمتنع، أيها المواطن الوزير، عن إبلاغك بالتأملات التى توحى إلىّ بها هذا المسلك، وبوسعك أن تخمنها بسهولة تامة. كما أننى أمتنع عن إبلاغك بأنباء من هذا البلد،

إذ يبدو أن بوسع القسطنطينية أن تخضعك بشكل بالغ الروعة. لكن مالا يمكنني الامتناع عنه، هو إفادتكم بتسلم الرسالة التي تفضلتم بكتابتها إليّ عند سفركم إلى فرنسا، وبما أن الظروف قد تبدلت، فإنني أناشدكم اليوم بإخبار الجمهور المتأثر بما عرضتم توضيحه بأقوى الألوان لحكومة الإدارة (١٥)».

لكن كليبر يفعل ما هو متوقع منه وينظم حشد ولاء الجيش للدستور الجديد «إنك تدرك جيداً، أيها المواطن الجنرال، أن الدستور الجديد هو أكثر ما يهمنا من بين كل ما أرسلته إليّ من صحف وكتب وكراسات. لقد قرأته وتسنّى لي أن أدرك أن الشجرة قد غرست بشكل بالغ الرسوخ؛ لكن هذه هي الشجرة الرابعة التي نزرعها منذ عشرة أعوام. والحال أن الشجيرات الأولى لم تؤت ثماراً البتة أو أن ثمارها كانت مرة تماماً. وأنا أرجو الكثير من هذه الشجرة الأخيرة، على أنني قبل أن أقدم لها ضريبة مديحي، أود أن أتذوق بواكير ثمارها. إن الجيش، ولا يجب الشك في ذلك بالمرة، سوف يقبل هذا العقد الاجتماعي للعام الثامن، وسوف أقبله معه. وسوف يجري تقديمه إليه ما إن يجد نفسه أكثر وحدة إلى حدٍ ما (١٦)».

ويسارع مينو بالفعل إلى الكتابة إلى بونابارت لشجب ترك مصر وتفنيد الأسباب التي أدت إلى ذلك (١٧). وإذا كان جميع الضباط لا يتقاسمون رأي مينو، فإن البعض يبدون في الانزعاج على مستقبل حياتهم العملية؛ ويبدو مستقبل فرنسا أقل عرضة للخطر وذلك بفضل النجاحات التي أحرزتها حكومة الإدارة في آخر عهدها وبفضل وجود سلطة أقوى في باريس. وحتى إذا ما حافظ كليبر على قراراته، فسوف يبرز توتر للوضع الفرنسي عندما تبدأ المصاعب.

اللورد إيلجين والأخوان سميث

لكن الفرنسيين ليسوا الوحيدين الذين يعرفون نزاعات الأشخاص والسياسات. فعندما كان شقيق سيدني سميث قائمٌ بالأعمال في القسطنطينية، كان هذا الأخير يتمتع بكل هامش المناورة الضروري للتصرف كما يحلو له. واتفاق العريش هو محصلة سياسة متماسكة تماماً جرى اتباعها منذ وصوله إلى شرقي البحر المتوسط. ويتعزز وضع العميد البحري من جراء الهيبة التي اكتسبها خلال حصار عكا، وهو النجاح العسكري الإنجليزي

الوحيد فى حرب الائتلاف الثانى كما أنه عزاء للرأى العام من إخفاقات الإنزال فى هولندا. والحال أن المؤتمر الأخير الذى عقده سبنسر سميث مع الريس أفندى فى القسطنطينية، فى ٣٠ أكتوبر ١٧٩٩، كان قد وافق على بدء المفاوضات مع كليبر مع إشارته بالفعل إلى تناقض السياسة الإنجليزية، فالواقع أن سبنسر سميث يدرك الخطر الذى تشكله عودة جيش الشرق، بالنسبة لحلفاء إنجلترا الأوروبيين، ويختار المؤتمر عدم تقرير شىء وإبلاغ الصدر الأعظم والعميد البحرى بذلك (٦٨).

وبعد ذلك بوقت قصير، فى مستهل نوفمبر ١٧٩٩، يصل السفير الإنجليزى اللورد إيلجين أخيراً إلى القسطنطينية. وشاغله الأول هو إعفاء سبنسر سميث من وظائفه الدبلوماسية. وينكب هذا الأخير على نشاطاته فى شوكة شرقى البحر المتوسط ويشن حرب عصابات إدارية ضد اللورد إيلجين. ويكتشف السفير الجديد أن سيدنى سميث يتطلع هو الآخر إلى اللقب الدبلوماسى لوزير مفوض. ولذا فإنه يكتب فوراً إلى الريس أفندى ليؤكد له أن صلاحيات العميد البحرى لا تسرى إلا على توقيع معاهدة التحالف إلى جانب أخيه (٦٩). وعند وصول نبأ وصول اللورد إيلجين، يسأل الصدر الأعظم العميد البحرى عن الدور الذى لابد له من لعبه. ويحاول سيدنى سميث طمأنة العثمانى موضحاً له أن إيلجين هو مالك أرض اسكتلندى كبير له نفوذ بالغ على الحكومة الإنجليزية. ويفهم الصدر الأعظم أن الإنجليز لهم أيضاً «ملوك جبال» يجب مراعاتهم، لكنه يجد أن اسم إيلجين يعنى بالعربية الجن، مما يعد نذير شؤم (٧٠).

ومنذ ١٧ ديسمبر ١٧٩٩، يكتب العميد البحرى إلى اللورد إيلجين ليرسم له لوحة من الموقف، وهو يؤكد على عدم انضباط الجيش العثمانى الذى يعتبره عاجزاً عن خوض معركة جادة ضد الفرنسيين (٧١). وبسرعة بالغة، يقف السفير فى وجه عمل العميد البحرى، خاصة فيما يتعلق بعمليات تبادل الأسرى. ويرد عليه سيدنى سميث بأنه يجازف بذلك بدفع الجيش الفرنسى إلى اليأس وإطالة أمد الحرب (٧٢). لكن إيلجين يخشى من أن العثمانيين قد يفكرون، بعد الجلاء عن مصر، فى قلب التحالفات.

ومنذ ما قبل التوقيع على الاتفاق، يعرف العميد البحرى معارضة السفير الذى يرى أن هناك من يعمل على اغتصاب صلاحياته. وعندما يصل نبأ الاتفاق إلى القسطنطينية، فى منتصف فبراير ١٨٠٠، يدخل إيلجين معركة ضد سيدنى سميث. فهو يرى أن هذا القرار يتعارض مع مصالح السياسة البريطانية التى يجب لها أولا أن تسعى إلى الحلول

محل فرنسا في القسطنطينية وهو ما يستلزم إطالة أمد الحرب. وبالرغم من كل شيء فإنه مستعد لاحترام التعهدات المتخذة ويهتم بوسائل النقل التي يجب إرسالها إلى مصر. ويفكر البعض في حاشيته في عدم تطبيق للاتفاق أو على أية حال في تهديد جزئي للشروط الممنوحة للفرنسيين [٧٣]. ومثال نابولي، مسلك نيلسون في السنة السابقة، ماثل لتهجيرهم. وسعياً إلى السيطرة على نحو أفضل على العميد البحري، فإن اللورد إيلجين يرسل سكرتيره جون فيليب موريير للانضمام إلى السفن الإنجليزية في شرقي البحر المتوسط وللعمل كمفوض لدى الجيوش العثمانية [٧٤].

ويبدو من الواضح أن موريير يقترح على سيدني سميث تطبيق خدعة حربية تتألف من أسر الفرنسيين، ما إن يركب هؤلاء الأخيرون البحر، وهم مصطلون للاتفاق. ومثل هذا الاقتراح يثير غضب العميد البحري. وهو يكتب إلى اللورد إيلجين في ٢٠ فبراير ١٨٠٠ أنه قد أدى دائماً واجباته على النحو الذي يليق بضابط إنجليزي وأن مثل هذه الحيلة غير شريفة. وسوف يعارض بكل قوته هذا الحدث بالعهد [٧٥].

حرج الحكومة البريطانية

إذا كان إيلجين يبدو معادياً لتطبيق الاتفاق، فإن المقاومة الرئيسية تجيء من لندن. على أن سيدني سميث كان قد أبلغ حكومته بصفة منتظمة بسياسة عمله السيكولوجي الذي يعتبر قرار الجلاء محصلتها. لكن أعضاء الوزارة أكثر انجذاباً إلى صورة الأحداث التي رسمها لهم نيلسون. فالرجل الظافر في أبو قير يرى أن انتصاره البحري قد حكم على الجيش الفرنسي بالدمار على نحو لا سبيل إلى علاجه. وهو لا يستطيع قبول فكرة جلاء بسيط ويعارض منذ البداية مشروع العميد البحري [٧٦]. والحال أن هذا الأخير، وهو من الناحية النظرية مرؤوس لنيلسون، لم يتبع تعليمات رئيسه متذرعاً في ذلك بالمهام الدبلوماسية التي يعتبر مسؤولا عنها من جهة أخرى.

وكان نيلسون قد احتج منذ البداية على هذا الخلط للمهام العسكرية والدبلوماسية [٧٧]. وهو يرى أن سياسة سيدني سميث، خاصة في تسوية المسألة اللبنانية، إنما تجر بريطانيا العظمى إلى التدخل في أعمال لا تخصها وتهدد بجرها إلى عمليات عسكرية لا طائل من ورائها كمطاردة أحمد باشا الجزار [٧٨].

ولقد هاجم نيلسون باستمرار عمل المعهد المصرى، ولم يك من شأن رسائل الفرنسيين التى تم اعتراض سبيلها، والحافلة بالشكايات، سوى إباحة للمسئولين الإنجليز إلى هذا الرأى. ولخيرا، فإن الصورة الكارثية التى تستمد من التقارير التى يرسلها كليبر، إنما تبرر هذا التفسير. ويجد الإنجليز لذة خبيثة فى نشر هذه النصوص المهينة لبونابارت وترويجها فى أوروبا.

وبناءً على إشعار من خلال رسائل اللورد إيلجين الأولى، فإن الأميرالية الإنجليزية تقرر فى ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ عدم الاعتراف بقيمة جوازات السفر التى منحها سيدنى سميث وتقرر أن تعيد إلى مصر كل فرنسى يحاول العودة إلى بلاده فى هذه الظروف (٧٩). ويرى المسئولون الإنجليز أن اتفاقاً وقعه العثمانيون وحدهم ليس ملزماً للأعضاء الآخرين فى الائتلاف. ومن ثم فإن الاتفاق، قبل أربعين يوماً من التصديق عليه، يجرى اعتباره باطلا. والحال أن نيلسون، المعادى للفرنسيين بعنف بالغ دائماً، يوافق على هذا القرار ويؤكد فى ٢٢ ديسمبر : «لقد قرأت بسرور كل ما دار بين بونابارت وكليبر والصدر الأعظم وأنا أرسل إلى اللورد إيلجين بعض الوثائق البالغة الأهمية التى تشير إلى وضع الفرنسيين جد المؤسف. إلا أننى لا أستطيع إرغام نفسى على الاقتناع بأن بوسعهم مغادرة مصر تماماً؛ وإذا ما فعلوا ذلك، فإننى لن أقبل أبداً أن يعود واحد منهم إلى القارة الأوروبية خلال الحرب. إننى أرغب فى أن يهلكوا فى مصر وفى أن يقدموا بذلك للعالم مثلا عظيماً على عدالة العلى القدير (٨٠)».

والحال أن اللورد كيث، وهو رئيس نيلسون فى البحر المتوسط، الأمر الذى يثير عظيم غم هذا الأخير من جهة أخرى، إنما يسارع مخلصاً إلى الكتابة إلى كليبر، منذ تلقيه تعليمات الأميرالية فى ٨ يناير ١٨٠٠، لكى ينبهه إلى النوايا الإنجليزية. وسوف يتعين على سيدنى سميث نقل الرسالة فوراً. لكن عوامل تأخر النقل كثيرة بحيث إن كل شىء يحدث بعد تبادل أوراق التصديق. وعندما يبلغ سيدنى سميث نيلسون، فى ٣٠ يناير ١٨٠٠، بإبرام الاتفاق، فإنه بعيد عن الشك فى أهمية المعارضة التى أثارها (الاتفاق) بالفعل لدى مسئولى بلاده. وفى المقابل، فإنه يوضح جيداً رهاناته الحقيقية: «بما أن الهدف العظيم لعملياتنا فى هذه المنطقة هو رد مصر إلى حليفتنا (الإمبراطورية العثمانية) ورد الأمن إلى الممتلكات البريطانية فى الهند، وهى مزايا لا تقارن بعدد من التضحيات الزهيدة، فإننى لا أشك فى أن سيادتكم سوف توافقون معى فى أننا قد حصلنا عن طريق المفاوضات على كل

ما كان يمكن الحصول عليه عن طريق انتصار (عسكرى)، فى الوقت الذى لا يمكن فيه للمرء أن ينوى إبادة أو حتى إذلال عدو شجاع ربما ضرورة لذلك. وبشكل مستقل عن ذلك، فإنه لا يجب أن يغيب عن النظر أن جيشاً منضبطاً من المخضرمين، حتى وإن كان مستاءً من وضعه، إنما يمكنه، إذا ما دفع إلى اليأس، أن يحافظ لمدة طويلة على امتلاك بلد شبه محصن، ملىء بالسدود وبالقنوات، التى تجعل من الصعب دخوله، حتى عندما يمكن فى نهاية الأمر وضعه فى حالة من الدونية، اعتماداً على إمكانات ثلاث إمبراطوريات، عندما يجرى استخدامها (٨١).

الهند أو أوروبا

إن المسألة الحقيقية تكمن هنا. وبالنسبة للعميد البحرى، فإن العثمانيين ليسوا فقط عاجزين عن تدمير الجيش، بل إن وجود هذا الجيش الأوروبى فى الشرق، حتى وإن كان ضعيفاً، إنما يعتبر عامل زعزعة لاستقرار المواقع البريطانية على طريق الهند. وما إن يفكر المرء من زاوية للمصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية الآخذة فى التشكل، فإن الأولوية يجب أن تولى لجلاء الفرنسيين عن مصر. وبالنسبة للندن، فقد حانت لحظة الاختيار، إن الاعتراف بالحل الذى يقترحه سيدنى سميث إنما يعنى الإعلاء من شأن المصالح الإمبراطورية على حساب التوازن الأوروبى (٨٢). وعند وصول خبر الاتفاق، فإن الحلفاء فى الائتلاف يحتجون بقوة لدى حكومة لندن (٨٣). وبالنسبة لهم، فإن الاضطرار إلى محاربة جيش فرنسى إضافى ليس منظوراً بالغ الجاذبية، خاصة إذا كان تحت قيادة كليبر.

ومن ثم فإن الحكومة البريطانية سوف تتردد طويلا. إن مالم يك بوسع كليبر قط أن يحلم به فى حساباته الأكثر مكراً بسذاجة يوشك أن يحدث؛ إن مصير الائتلاف ذاته هو الذى يصبح عرضة للخطر. وفى نهاية الأمر، فإن السلطات البريطانية تفضل اللجوء فى أن واحد إلى التنصل علناً من سيدنى سميث وتحمل المسؤولية فى الوقت نفسه عن قراراته. فاجتماع مجلس الوزراء المنعقد فى ٢٨ مارس ١٨٠٠ يوافق على الاتفاق بقدر ما أن سيدنى سميث قد نفذ كلام بريطانيا العظمى، بالرغم من أنه لم يك يملك صلاحيات لذلك، وبقدر ما أنه لم يعد هناك وقت للتراجع. وسوف يتعين على الدبلوماسيين البريطانيين أن يشجبوا بشدة أمام الحلفاء مسلك العميد البحرى وأن يعتذروا.

ومن المؤكد أن الأسباب التي جرى التذرع بها للتصديق على الاتفاق كانت شاملة. لكن السبب الأقوى، مع كونه على ما يبدو أقل وضوحاً، هو إدراك مجمل مشكلات طريق الهند التي تكشفت خلال أشهر النشاط الدبلوماسي المحموم بين البحر المتوسط وخليج البنغال. فقد أدرك المسؤولون البريطانيون أن روسيا تهدد أيضاً مصالحهم الشرقية (٨٤). وقد أعلن بول الأول نفسه راعياً كبيراً لأخوية مالطة وطالب بالجزيرة. وبوجه خاص، فإن هزائم سوفوروف في مستهل خريف ١٧٩٩ قد قادت القيصر إلى استدعاء القوات الروسية من أوروبا الغربية. وهذا التنصل يسمح بالتفكير في عودة من جانب روسيا إلى سياستها الشرقية، إمّا على شكل وضع الإمبراطورية العثمانية تحت الحماية بحجة الدفاع عنها ضد الفرنسيين الموجودين في مصر، أو عبر حرب توسع على حساب فارس (سوف تبدأ هذه الحرب بعد ذلك بأربع سنوات). ومن ثم فإن إنهاء الوجود الفرنسي في مصر يصبح أكثر إلحاحاً.

ويجرى إرسال التعليمات التي تصرح بعودة الجيش الفرنسي إلى اللورد كيث واللورد إيلجين وسيدني سميث. لكن الوضع في مصر، في تلك الأثناء، كان قد تبدل تماماً.

تطبيق الاتفاق

على أن الأمور كانت قد تحركت بالفعل. فمنذ توقيع الاتفاق، قدم الصدر الأعظم عروضاً إلى الفرنسيين. فهو يرى أن الصلح قد تحقق ويقترح وساطة عثمانية في النزاع الأوروبي. وهو يطلب إرسال مفوض فرنسي إلى القسطنطينية، تتمثل مهمته الرسمية في مناقشة رد الممتلكات الفرنسية، بينما تتمثل مهمته الفعلية في مناقشة الصلح الشامل(٨٥). ويسمح مصطفى باشا لكليبر بفهم أن الباب العالي يمكن تماماً أن يكون بحاجة إلى فرنسا لمواجهة أطماع روسيا (٨٦). ويحرر بوسيلج مذكرة بناءً على طلب الصدر الأعظم. ومن الضروري الحصول على موافقة إنجلترا، «ولابد لذلك من أن يكون أكثر سهولة اليوم بقدر ما إن إنجلترا مهتمة لاهتمام الباب العالي بالتصدي لتوسع روسيا، لأن هذا التوسع سرعان ما سوف يهدد ممتلكاتها في الهند».

وإلا فإن فرنسا سوف تجد نفسها مجبرة على التحالف مع روسيا. ومن ثم فإن على الباب العالي أن يلعب دوراً دبلوماسياً كبيراً في أوروبا.

«إذا ما أرادت كل دولة تفهم مصالحها أخيراً، فسوف يكون من السهل التوصل إلى

صلح شامل وضمانه عبر نظام جديد للتوازن السياسي يجب للباب العالي أن يكون مركزه.

«ويجب على إنجلترا وفرنسا تقديم قدر من التضحية ويتعين على القدماء، من أجل توازن أوروبا، ومن أجل صالح الباب العالي، ألا تكون بالغة القوة في إيطاليا، ويتعين عليها أن تعيد دولة البندقية أو أن تتنازل عن فتوحاتها التي تمت منذ استئناف الحرب، مع حفظ الحق في رؤية ما سوف يكون من الأنسب عمله من بين هذين الأمرين، حتى تتخلى روسيا عما تحتله في البحر المتوسط.

«وسوف يكون من السهل إحكام ترابط هذا النظام، بتوحيد الدول التي يناسبها كالباب العالي وبروسيا وإنجلترا وفرنسا وإسبانيا.

«تلك هي الأفكار التي يمكن للباب العالي بموجبها أن يقرر ضرورة الصلح وأن يهيىء الأطراف المتحاربة لهدنة شاملة، يتم العمل خلالها في مؤتمر لجميع دول أوروبا على إقامة هذا الصلح على الأسس التي من شأنها أن تجعله دائماً (٨٧)».

وهكذا فإن الباب العالي، الذي يبدأ بالكاد في الاندماج في اللعبة الدبلوماسية الأوروبية، يتصور أنه قادر بالفعل على أن يصبح المحور الأساسي لأوروبا متصالحة. ويدرك كليبر وبوسيلج على حد سواء إدراكاً جيداً أنهما غير مفوضين لمناقشة مثل هذه المنظورات الضخمة؛ ويحيلان المسألة إلى الحكومة الفرنسية (وهي حكومة الإدارة بالنسبة لهما دائماً، في تلك اللحظة)، إلا أن بوسعهما أن يريا أن الاتفاق يقود إلى آفاق ملائمة بالنسبة للسياسة العامة لبلدهما.

والآن، يخاطب كليبر ديوان القاهرة لإبلاغه بعودة السلطة العثمانية. وهو يبرر هذا الاتفاق بتذكيره بأن بونابارت لم ينازع قط السيادة العثمانية على مصر. وهو يهنئ الديوان على عمله في تهدئة النزاعات، لكنه ينبه إلى أنه لن يجرى اغتفار أية فوضى خلال فترة الجلاء (٨٨). وبالنسبة لأعضاء الديوان، فإن أول اتصال مع السلطات العثمانية يمثل خيبة أمل مريرة. فالموظفون المرسلون إلى القاهرة هم موظفو الضرائب المكلفون بجباية الضرائب الموجهة إلى تغطية نفقات جلاء الجيش الفرنسي. ويعبر الجبرتي عن أله من هذه المصيبة الجديدة (٨٩).

لكنه يلاحظ بعد ذلك أنه لم يحدث قط دفع للضرائب بمثل هذا السرور. والأعيان

والعوام لا يخفون فرحتهم ويكيلون الإهانات للفرنسيين الذين يعدون للرحيل. كما أن تقولا الترك يتحدث هو أيضاً عن الفرحة التي لا توصف والتي استولت على جميع المصريين (٩٠). على أن النشوة لا تدوم إلا لمدة أسابيع، وهو ما يسمح بأن يمر صيام رمضان دون حوادث، إذ تجلو القوات الفرنسية في نظام جيد عن شرق الدلتا ومصر العليا، وتتجمع في غرب القاهرة، في مدخل الحي الأوروبي الذي ظهر بين المدينة والنيل. وفي تلك الأثناء، يحتل العثمانيون المواقع التي يتركها الفرنسيون أما مراد بك، المنزعج على مصيره بالرغم من كلمات العثمانيين المطمئنة، فإنه يقيم معسكره على الضفة الغربية للنيل(٩١). بينما يبقى إبراهيم بك مع الصدر الأعظم.

وتجيء الحوادث الأولى من تمركز الطليعة العثمانية في المطرية، في شمال شرقي المدينة. ويؤدي القرب الشديد جداً إلى زيارة جنود الصدر الأعظم للمدينة وينشب احتكاك مع الجنود الفرنسيين. والحال أن مصطفى باشا، الذي يحكم المدينة باسم الصدر الأعظم، يتدخل على الفور ويأمر بقطع رؤوس الجنود المسؤولين عن الحادث (٩٢) بينما يكثف الضباط الفرنسيون تعليمات التحلي بالحكمة والانضباط الصادرة إلى رجالهم. وفي المقابل، يطلب العثمانيون جلاءً أسبق عن القاهرة. ويرفض الفرنسيون مذكرين بأن الانسحاب من مصر العليا لم يستكمل وبأنهم لا يمكنهم ترك مستودعات الجيش الرئيسية (٩٣).

وتجيء الأخبار السيئة من جهة الإنجليز. ففي ١٧ فبراير، تظهر أمام الإسكندرية دورية بريطانية جديدة. ويرسل الجنرال القائد للمدينة إليها مندوباً لإبلاغها بقرب رحيل سفينة حراسة فرنسية وفقاً لشروط الاتفاق، لكن محدثيه يردون بأنهم مزودون بأوامر أعلى من أوامر سيدني سميث وبأنهم سوف يعيدون فرض حصار تام للميناء. ويطلب كليبر تدخلا فورياً من جانب الصدر الأعظم لتبديد سوء التفاهم هذا ويعلن أنه سوف يرفض الجلاء عن القاهرة مالم تجر تسوية مسألة حرية مرور الجيش الفرنسي (٩٤). وفي الأيام التالية، يتمسك الفرنسيون بهذا القرار، بالرغم من سماحهم للعثمانيين بإرسال وحدة إلى مصر العليا. على أن ديزيه ورفاقه (دافو، سافاري، راب، كولبير...) يتمكنون، بسبب اختفاء السفن الإنجليزية، من مغادرة الإسكندرية في ٣ مارس ١٨٠٠. ويستعد دوجا وفيال وبوسيلج للحاق بهم.

رسالة اللورد كيث

في ١٠ مارس ١٨٠٠ ، يتلقى كليبر رسالة مزعجة من سيدني سميث، مرسلة من قبرص في ٢٠ و ٢١ فبراير. والحال أن جون كيث، سكرتير سيدني سميث، هو الذي يحملها. ويسارع الفرنسي فوراً إلى إبلاغ الصدر الأعظم بمضمونها ويعلن له أنه يوقف جميع تدابير الانسحاب مالم يسمح مؤتمر جديد بتسوية المشكلات الجديدة (٩٥). والواقع أن سيدني سميث كان قد نقل رسالة اللورد كيث الموجهة إلى القائد الفرنسي والمكتوبة في أوائل يناير ١٨٠٠:

«على متن سفينة صاحب الجلالة «الملكة شارلوت»، في مينوركا، في ٨ يناير ١٨٠٠.

«سيدي

«بالنظر إلى أنني قد تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة بعدم الموافقة على أي اتفاق مع الجيش الفرنسي الذي تقودونه في مصر وفي سوريا، اللهم إلاَّ في حالة إلقائه للسلاح واستسلامه كأسير حرب وتخليه عن جميع السفن وعن جميع الذخائر في ميناء ومدينة الإسكندرية للدول المتحالفة وفي حالة حدوث استسلام بعدم السماح لأي جنود بالعودة إلى فرنسا مالم يكونوا مبادلين، فإنني أرى لزاماً عليَّ إبلاغكم بأن جميع السفن التي يوجد على متنها جنود فرنسيون والتي تبحر من هذا البلد بموجب جوازات سفر موقعة من جهات أخرى غير الجهات التي تملك حق منحها، سوف يجبرها ضباط السفن التي أقوبها على العودة إلى الإسكندرية، وأن السفن التي سوف تقابل عائدة إلى أوروبا، بموجب جوازات سفر ممنوحة بناءً على اتفاق خاص مع إحدى الدول المتحالفة، سوف يجري الاستيلاء عليها وسوف يعتبر جميع الأفراد الموجودين على متونها أسرى حرب(٩٦)».

ويؤكد سيدني سميث أنه سوف يحترم الآن الهدنة، فعندما تعلم حكومته بالدور الذي لعبه في المفاوضات، لن يكون بوسعها سوى الاعتراف بمشروعيتها. وهو الآن يحضر أمام الإسكندرية على أمل تنظيم لقاء مع كليبر. وعند وصوله، يجد هناك پوسيلج الذي يتحادث معه. ويتناول الرجلان عدداً معيناً من القرارات:

«في هذه الحالة التي تمر بها الأمور، يرى السيد سميث أن الجلاء يجب أن يبقى عند النقطة التي وصل إليها الآن، باتخاذ ترتيبات في هذا الاتجاه مع الصدر الأعظم؛ وهو يود أن

تتاح له إمكانية التحدث معك بشكل مباشر حتى يتحقق توافق بينكما. وهذا يبدو مستحيلا فى هذا الظرف، فأنت لا يمكنك مغادرة القاهرة، وسميث لا يمكنه مغادرة السفينة «تيجر» لكى يذهب بعيداً جداً عن دوريته البحرية، فهو يريد أن يظل هناك لكى يتصدى لجميع الحالات التى قد تنشأ، وهو يريد بحزم تنفيذ الاتفاق على نحو ما تم الاتفاق عليه. وقد أطلعنى على الرسالة التى كتبها بناءً على ذلك إلى الصدر الأعظم والتى تتمشى تماماً مع هذا الاتجاه. وهو يكلف السيد كيث سكرتيره بالتفاهم معكم على ما تعتبرونه ملائماً – أى التروى – مع بقاء الأمور على ما هى عليه، حتى يتمكن من إزالة جميع المصاعب، وهو ما لن يؤدى إلى تبديد وقت كثير، ما دام أنه لم يتم بعد من جهة أخرى إعداد شىء من الأشياء الضرورية للجلاء ولا من الأشياء التى يجب على الأتراك تقديمها. ولابد من الذهاب للبحث عن السفن وعن البراميل وعن ألف شىء آخر فى صقلية ومن جانب القسطنطينية. فلا شىء يوجد لا فى قبرص ولا فى سوريا».

وسوف يمارس بوسيلج مهمة موازية لمهمة سكرتير العميد البحرى وسوف يمثل أمام اللورد كيث لرده إلى رشده (٩٧).

مهمة جون كيث

منذ وصول جون كيث إلى القاهرة، بحجة استطلاع إمكانات تأمين المدفوعات للجيشين العثمانى والفرنسى، فإنه يقوم بزيارة الأعيان الرئيسيين المرتبطين بالفرنسيين. ويبدو الأقباط الأكثر انزعاجاً. ويرى كيث أنهم كانوا مجبرين على التعاون مع الفرنسيين وينصح للمعلم يعقوب بالذهاب إلى معسكر الصدر الأعظم لعرض خدماته. وهو يحصل على ضمانات من جانب إبراهيم بك، الذى أصبح من جديد شيخ البلد على مصر ومن نصوح باشا (٩٨)، الوالى المسمى للحلول محل مصطفى باشا فى القاهرة. وينزعج الجميع من إمكانية انتفاضة معادية للمسيحيين من جانب سكان المدينة. كما أن سكرتير العميد البحرى يخشى من تعارض عنيف بين مراد بك والعثمانيين. ولذا فإنه يحاول التفاوض على ولاء الزعيم المملوكى الكبير بالاجتماع مع الست نفيسة وروزيتى (٩٩).

وفى ١٠ مارس – بعد لقاء مع كليبر – يزور جون كيث المعسكر العثمانى، ويشدد على ضرورة وقف زحف الجيش إلى المطرية حيث توجد الطليعة. والشىء الأساسى

بالنسبة له هو تجنب حدوث اتصال بين الجيشين. وفي ١٢ مارس، يلتقي مرة أخرى بكليبر الذي يهنئه على أمانة واستقامة سيدني سميث. وفي اليوم التالي، يسارع إلى فحص موقف مراد بك مع الست نفيسة ووزيلي. وبعد ذلك بوقت قصير، يتحفظ عليه الفرنسيون في مقر مراقب، مع الكثير من وجوه المراعاة من جهة أخرى. ولن يجرى الإفراج عنه إلا في ١٦ مارس، مع وصول رسول بريطاني جديد، هو الملازم رايت.

والحال أن جون كيث، وهو مراقب ممتاز، كان قد رصد خلال إقامته القصيرة وجوه قوة ووجوه ضعف الوجود الفرنسي. وهو يختتم تقريره بالإشارة إلى أن الفرنسيين سوف يأسف على رحيلهم الفلاحون وجميع مشايخ وعلماء مصر لأنهم لم يرتكبوا المظالم المألوفة من الأتراك ومن المماليك ولأنهم قد عملوا بوجه عام على تخفيف العبء الضريبي عن الأرياف. كما أن المسيحيين، على الرغم من أنهم قد تعرضوا لعبء ضريبي جسيم وإن كانوا قد استفادوا من سلم وأمن لم يسبق لهم الإحساس بهما، يبدون أنصاراً لبقاء الفرنسيين. وفي المقابل فإن أعداء الفرنسيين هم البدو، المتمردون دائماً بحكم طابع حياتهم، والمماليك الذين جردوا من سلطاتهم وامتيازاتهم، والطبقات المتوسطة في المدن الكبرى والتي جرى إخضاعها لانضباط ولتنظيم لم تعرفهما من قبل. والجيش الفرنسي يتميز بمعنويات جيدة؛ فهو سعيد بالعودة إلى الوطن، لكنه مستعد، وهو جيد التسليح، للقتال تحت قيادة قائد يثق به ثقة عظيمة. والحال أن نبأ ١٨ برومير قد ترتبت عليه إعادة تنشيط اتجاه مؤيد للبقاء في مصر (١٠٠).

الاتصالات مع مراد بك

الواقع أن كليبر – على الرغم من اعترافه بأمانة سيدني سميث – إنما يشعر بسخط عميق على تهديد اتفاق العريش. وبحسب التعبير الرائع الذي استخدمه نقولا الترك، فإنه «أخذ يعج عجيج الوحوش بصوت أفظ من صوت الوحوش» (١٠١). وهو يتخذ على الفور تدابير احتياط ويضع على أهبة القتال جيشه، الذي أصبح الآن محتشداً بالكامل في الجيزة، باستثناء حاميات الساحل الغربي للدلتا. وهو يشعره بتأجيل الرحيل وبأسبابه، ويطلب منه الثقة:

«أيها الجنود! إنني مكلف بالسهر على حمايتكم بقدر ما إنني مكلف بالسهر على

تيلكم للمجد. وسوف أحقق أملكم، لكنني أطلب منكم، في جميع الأحوال، الثقة والطاعة(١٠٢)».

ويرسل كليبر فورييه إلى الست نفيسة سعياً إلى اقتراح حلول حازمة، إن الفرنسيين على وشك القطيعة مع العثمانيين، ويجب على مراد بك الانحياز إليهم. وعند تحقيق الصلح الشامل، سوف يجلو الفرنسيون عن مصر وسوف يصبح سيداً لها. والحال أن زوجة مراد بك «قد قالت إن زوجها سوف يغضب بلا شك إن لم يتلق ببالغ الصرامة إشعاراً على هذه الدرجة من الأهمية، وإنه الآن جد قريب من القاهرة، وإنها قد أرسلت إليه هذا الصباح خصيها الأول الذي لم يعد بعد على أية حال. [...] وإنها سوف ترسل إليه في الساعة رجلاً موثوقاً به سوف يحمل إليه بإملاء الاقتراحات المشار إليها، وإنها لا يمكنها أن تعرف تماماً نوايا زوجها حتى ترد بأنه سوف يقبلها، لكنها تعرف أنه مستعد بشكل خاص للتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين. [...] وأضافت أنه لو كانت الظروف قد سمحت ببذل هذا المسعى قبل ثمانية أيام خلت، لكان نجاحه مؤكداً، [...] وإنها علاوة على ذلك لا يمكنها أن تستقبل إلاَّ بالسرور اقتراحاً يميل إلى منع زوجها من القتال، بالنظر إلى أنه قد يهلك في ذلك العمل. وقد أضافت بعض الأقوال الأخرى وقالت إنها تفضل على أي شيء آخر الصلح بين الفرنسيين والعثمانية والمماليك والإنجليز، وإنه إذا ما أصر هؤلاء الأخيرون على سد طريق البحر، فعلى الصدر الأعظم أن يخرج بنا عن طريق البر» (١٠٢).

والحال أن كليبر – شأنه في ذلك شأن الرسول البريطاني – يرى أنه يجب – قبل كل شيء – التوصل إلى أن يوقف الجيش العثماني زحفه على القاهرة. وفي ١٥ مارس يوفد كمفوض لدى الصدر الأعظم الجنرال داماس وجلوتييه، الذي حل محل بوسيلج في الإشراف على الشؤون المالية. ويتعين عليهما التوصل إلى بقاء الفرنسيين في القاهرة وفي الدلتا وكذلك التوصل إلى دفع النفقات الإضافية لإعاشة الجيش الفرنسي خلال هذا التمديد غير المتوقع لإقامته في مصر. ومن غير الوارد التساهل فيما يتعلق بهاتين النقطتين ولن يجلو الجيش إلاَّ عندما يتلقى تعهداً من قادة الأساطيل الإنجليزية والروسية بضمان اجتيازه الحر للبحر المتوسط (١٠٤)

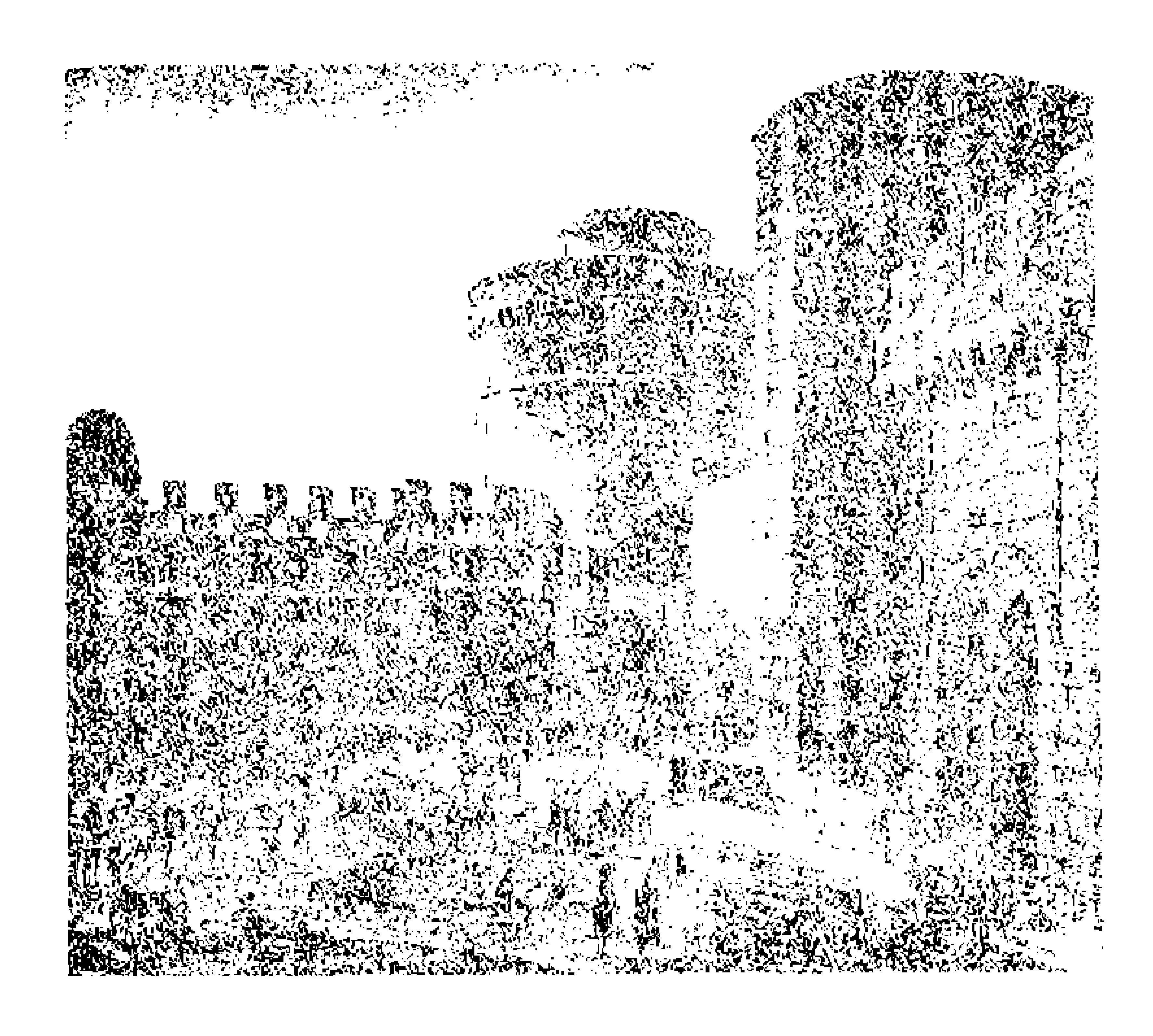
ويكتب مينو من جهته من رشيد إلى كليبر أنه مستعد للموت إذا كان ذلك ضرورياً في سبيل الجمهورية. وعلى ذكرى أغنية الرحيل هذه، سوف يرد كليبر من خلال داماس في الأسبوع التالي بأن مينو، لكونه لم يأت إلى موقع القاهرة الذي انتدب إليه قبل ثلاثة



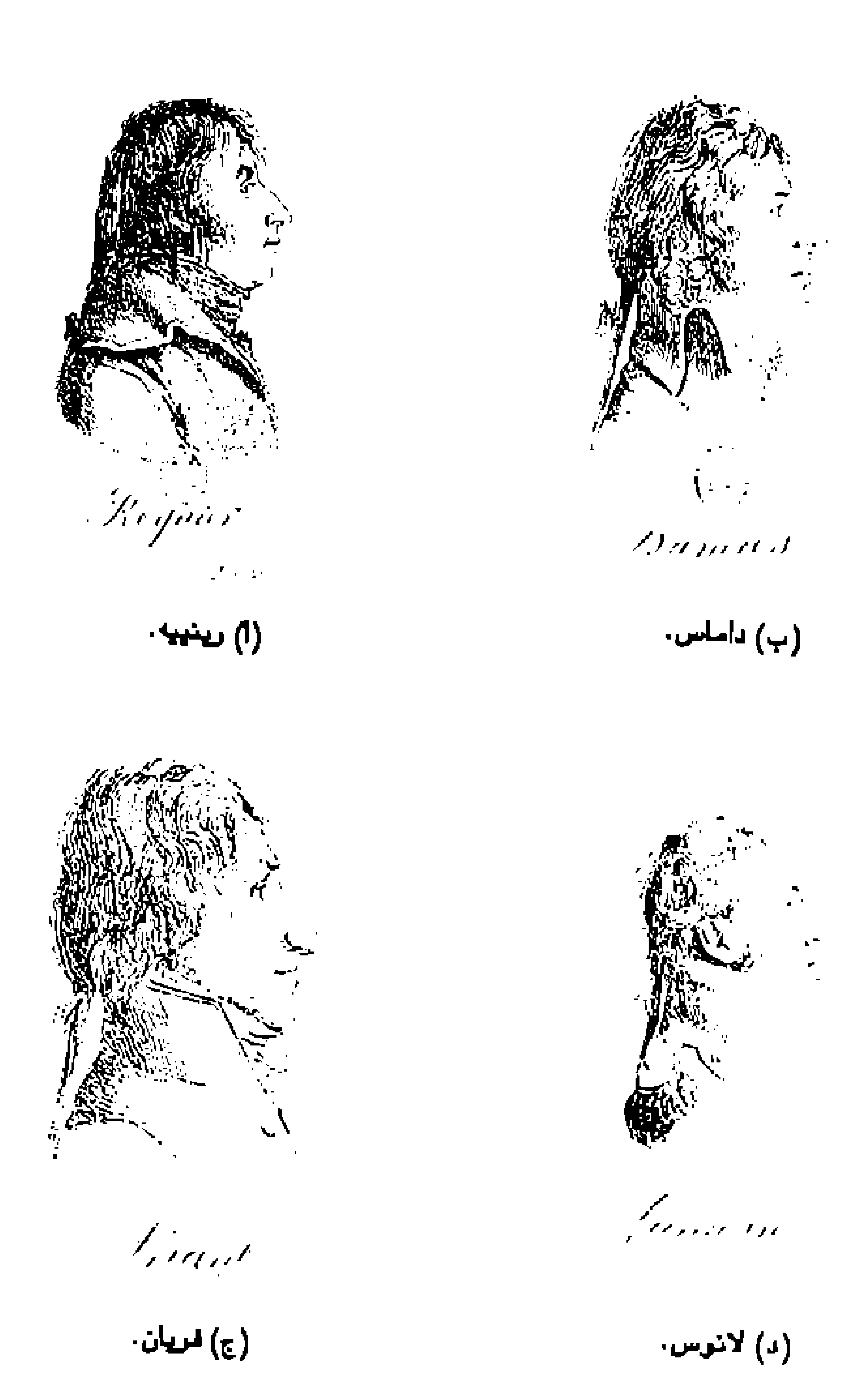
٥٧ – (أ) لاسكاريس.



(ب) رهبان أقباط.



٨٥ — القوالة المسماة برج الرجال.



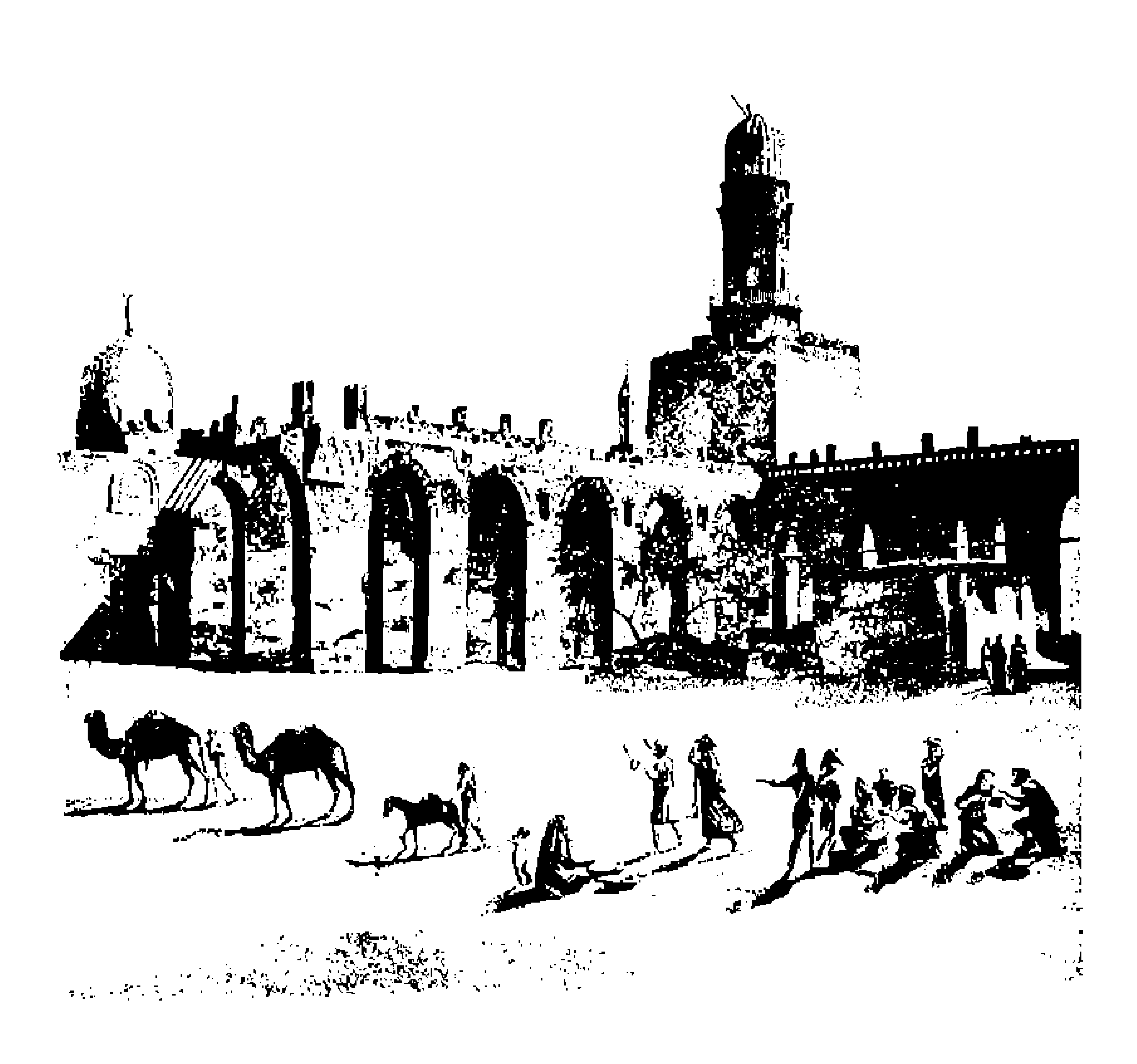
(أ) رينييه.

(ب) داماس.

(ج) فريان.

(د) لانوس.

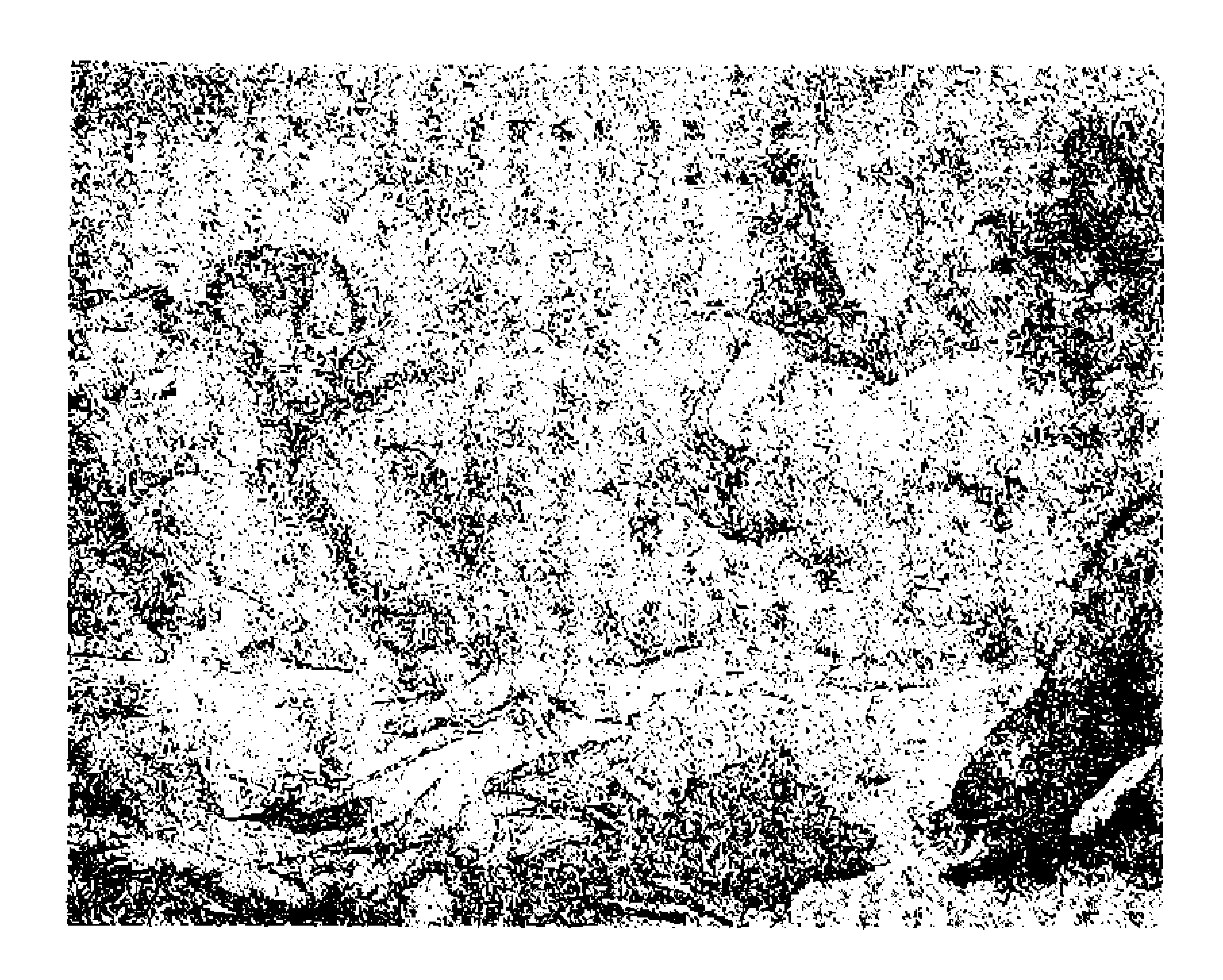
٥٩ – قادة فرق جيش الشرق :



٦٠ – مسجد قديم قرب باب النصر (مسجد الحاكم بأمر الله الفاطمي).



٦١ — سيدني سميث والجزار في عكا



٦٢ - صورة على لوح الجير.



٦٢ - كليبر، القائد العام.



٦٤ - معركة كلنوب.

الشهر، قد أصبح نسياً منسيا وجرى تركه لمكرانه من الاقتصاد السياسي (١٠٥). والحال أن مينو لن يقدر أبداً هذا الرد المهين.

مفاوضات الفرصة الأخيرة

في تلك الأثناء، يتوجه الصدر الأعظم بالخطاب إلى سيدني سميث ويوضح له عدم فهمه للموقف البريطاني. وهو يحثه بإلحاح على أن يرسل إلى كليبر رسالة تطمئن هذا الأخير إلى أنه ليس هناك ما يدعوه إلى الخوف. ومن الصعب أن نحدد هنا ما إذا كان الصدر الأعظم قد أدرك بالفعل خطورة الموقف أو ما إذا كان يدبر خدعة للتوصل إلى رحيل الفرنسيين (إن نسخة من الرسالة الموجهة إلى الصعيد المصرى يجرى نقلها إلى الفرنسيين) (١٠٦). والحال أن موريبه، الموجود في المعسكر العثماني يحث محدثيه على الحزم وينصحهم بالتمسك بصرامة ببنود الاتفاق خاصة فيما يتعلق بمواعيد الجلاء عن المدن المصرية.(١٠٧) بل إنه يقترح تكذيب رسالة اللورد كيث. وسوف يؤدى هذا الموقف المتناقض للرسل الإنجليز إلى تعقيد الموقف تعقيداً خاصاً.

ويصل الملازم رابت إلى المعسكر العثماني في صباح ١٥ مارس. وهو يناشد الصدر الأعظم إدراك خطر استئناف المعارك، ويؤكد أن الجيش العثماني إنما يوجد في وضع غير مؤات على المستوى العسكري. لكن موريبه يتصرف في الاتجاه المضاد، ويدفع العثمانيين إلى المطالبة بالجلاء عن القاهرة، وتمركز جميع القوات الفرنسية في الجيزة على الضفة الغربية، حيث يعتبر النيل بذلك الخط الفاصل. لكنه عاجز عن ضمان تطبيق الاتفاق باسم اللورد إيلجين. ويشتبه رايت في أن فرانكيني، ترجمان السفارة الروسية، يستخدم دوره المهم كمترجم لدفع الأمور إلى استئناف الأعمال الحربية سعياً إلى السماح بإرسال جيش روسي إلى مصر (١٠٨). وفي هذا التشوش الذهني بالتحديد، يدخل العثمانيون المؤتمر الأول مع الفرنسيين، حيث لم يدع الرسولان الإنجليزيان إلى المشاركة فيه.

ويؤكد العثمانيون في ذلك المؤتمر اقتناعهم بأن البريطانيين سوف يرفعون قريباً الحظر الذي فرضوه على الخروج. وفي المقابل، يتهم الفرنسيون سيدني سميث بسوء النوايا، ويرفضون الجلاء عن القاهرة وإقليمها، بالرغم من مطالبات محدثيهم الملحة. ويقابل هؤلاء الأخيرون الطلب الخاص بتقديم الأموال والمؤن الغذائية الإضافية. وسرعان ما

يتم الوصول إلى طريق مسدود، «ما الضمانات التى سوف يقدمها الأتراك إلى الفرنسيين وما طابعها؟

» – سوف يتم تسويتها فى مؤتمر آخر.

» – إذا أصر الإنجليز على منعنا من الخروج من مصر، فما السبل التى سوف يتخذها الصدر إذن ؟

» – إن الباب العالى يضمنُ بالكامل سلامة رحلة الفرنسيين من الإسكندرية وحتى فرنسا. وهو يضمن أيضاً جميع نقاط معاهدة العريش. وإذا كانت هذه الوعود تلهمكم الثقة، فلا داعى لإثارة المصاعب، إن لم يك كل كلام لا داعى له.

»– إن حسن نوايا الأتراك لا يدع أى مجال للشك؛ لكن للمفوضين الفرنسيين بلكرونهم برسائل الأميرالات الإنجليز ويبينون لهم أنهم لا يمكنهم البتة الإبتعاد من التعليمات الصادرة إليهم وأنهم سوف يبلغون القائد العام بملاحظاتهم» (١٠٩).

وأمام هذا الوضع، يقرر المتفاوضون رفع الجلسة إلى اليوم التالى حيث سوف تجرى دعوة الرسولين الإنجليزيين إلى الحضور. ويزور رايت وجون كيث على الفور المعسكر الفرنسى. ويجرى استقبال الأول استقبالا وديا جداً من جانب كليبر الذى يبلغه بانزعاجه، إذا كان الجلاء سوف يؤخر إلى الخريف انتظارا للرد النهائى من جانب الحكومة البريطانية، فإنه لن يصبح محل احتمال كبير من جانب الفرنسيين. وهذه النقطة توضح تماماً الأهمية التى يمثلها بالنسبة لكليبر الدور الذى يمكن لجيشه أن يلعبه فى الحرب الأوروبية. وتستمر المحادثة خلال العشاء. ويعبر الجنرال الفرنسى عن إعجابه باستقرار النظام السياسى الإنجليزى: وهو لا ييأس من أن يرى فرنسا يوماً ما متمتعة بمثل هذا النظام. كما أنه لا يدافع عن بونابارت عندما يعرض له رايت، بناءً على طلبه، تصور الرأى العام البريطانى للرجل. وفى المساء، عندما ترجع المحادثة إلى تناول مصر، يشدد كليبر على رفضه ترك القاهرة، ويطلب انسحاب العثمانيين حتى الحد الشرقى للدلتا.

ولدى عودة رايت إلى المعسكر العثمانى، فى اليوم التالى، فإنه يرجع إلى الحديث عن خطر استئناف القتال. ولا يقبل الصدر الأعظم بقاء الفرنسيين فى القاهرة إلاّ لمدة ثمانية أيام إضافية. ويشرح موربيه لرايت أهمية القضاء على الجيش بفضل خدمة حربية؛ فعلاوة على القضاء على الخطر الفرنسى على الهند، سوف تؤدى هذه العملية إلى إفساد الأمور

بشكل نهائى بين الفرنسيين والعثمانيين (١١٠). وتبدأ الجلسة الثانية للمفاوضات بين المفوضين ذوى الصلاحيات الكاملة، لكن المأزق هو هو دائماً، فالعثمانيون يطالبون بانسحاب الفرنسيين إلى الجيزة وهؤلاء الأخيرون يتمسكون بمواقعهم.

بوح كليبر بالأسرار

فى المساء يستقبل كليبر رايت. ويناشده هذا الأخير الإبقاء على سريان مفعول الاتفاق، لكن الجنرال يرد عليه بأن موقف المفوضين العثمانيين لا يدع له غير القليل من الأمل. بيد أنه يقبل أن يواصل رايت التحرك بين المعسكرين. وفى ١٧ مارس، يجرى استئناف الحديث بين الرجلين. ويتحدث كليبر عن خلافاته مع بوناپارت خلال حصار عكا، ثم يتحدث عن آرائه حول الثورة؛ وهو يتكلم بكره عن روبسپيير وعن حزبه، ويستفسر عن أخبار پيشيجرو (هذا الجنرال من جنرالات الثورة الذى انتقل إلى المعسكر الملكى، وتم ترحيله إلى جوايانا بعد ١٨ فروكتيدور، ولجأ فى النهاية إلى لندن بعد أن تمكن من الهرب). وهو يتناول المسألة الملكية؛ إن الملكيين دمويون تقريباً كاليعاقبة، وقد فقد الأمراء اعتبارهم لرفضهم القتال إلى جانب أنصارهم فى الڤانديه أو فى أى مكان آخر (فيما عدا الأمير دو كوندييه). وكان لابد من إقصاء فرع الأورليانيين عن العرش بسبب موقف زعيمهم فى السنوات الأولى للثورة. وإذا كان لابد لعودة (الملكية) أن تحدث، فلابد لذلك من اختيار عائلة غريبة عن فرنسا، ليست بحاجة إلى إشباع روح الثأر (١١١). أما فيما يتعلق ببوناپارت، فإنه يقول: «إن الأوامر بيننا ليست جد حميمة». إلا أنه لا يمكن للمرء بعد أن يحكم على طابع حكمه وإذا ما رأى، لدى عودته إلى فرنسا، أن الشرفاء يؤيدون الحكم الجديد، فسوف تراوده عندئذ آمال ما فى أن يرى أخيراً قيام حكم مستقر.

وإذ يرجع كليبر إلى الحديث عن المسائل المباشرة أكثر، فإنه يعبر عن ريبته تجاه ترجمان سفارة روسيا وتجاه موريه. أما فيما يتعلق بجيش الصدر الأعظم، فإنه، من الناحية العسكرية، لا يساوى أكثر من قافلة كبيرة. والجيش الفرنسى مستعد للمعركة والانتصار أكيد. ويحاول رايت أن يثنيه عن ذلك بتذكيره بأن جيشه، حتى فى حالة انتصاره، سوف يكون دائماً عرضة لأن يصبح أضعف إلى حد ما وذلك بسبب غياب العون. إلا أنه يجرى التأكيد له على أن بوناپارت سوف يرسل بالتأكيد تعزيزات على سفن منفصلة يمكنها اختراق الحصار الإنجليزى. ويبدو كليبر واثقاً من إمكانية البقاء فى مصر ويبين له أنه قد اتخذ قراراً بخوض المعركة فور تلقيه رسالة اللورد كيث. والتحول

السيكولوجى الآن كامل. ويسأل رايت كليبر إن كان، بعد استئناف القتال وفى حالة قبول الحكومة البريطانية للاتفاق، سوف يقبل تطبيقه. ويرد عليه القائد العام بأنه إذا ما هـزم، فإنه هو ورجاله سوف يموتون وهم يقاتلون لأنهم لا يمكنهم التفكير فى الحصول على أى عفو من جانب أعدائهم، أما إذا انتصر، فإنه لن ينسى أبداً مسلك الإنجليز ولن يصغى بعد إلى مقترحاتهم. وهو ينهى حديثه بتوجيه الشكر مرة أخرى إلى سيدنى سميث لإشعاره فى الوقت المناسب.

ويدرك رايت أن الجيش الفرنسى مستعد بالفعل للقتال وأن بعض الزعماء المماليك قد أبلغوا الفرنسيين بأنهم على وشك التحالف معهم ضد العثمانيين. ويصدر كليبر الأمر بإلقاء القبض على العثمانيين الموجودين داخل الخطوط الفرنسية (١١٢).

معركة هليوبوليس

فى ١٨ مارس، يجتمع المفوضون الفرنسيون والعثمانيون مرة أخرى. ويشدد العثمانيون دائماً على الجلاء عن القاهرة لأن الجنود متذمرون ويهددون بعدم الانصياع لأوامر قادتهم. ويطلب ممثلو الجانب الفرنسي ضمانات ويذكرون بأن الإمدادات الموعودة بموجب الاتفاق لم تسلم حتى الآن إلا بصورة غير منتظمة إلى حد بعيد. ووفقاً للجانب الآخر، فإن حالات عدم الانتظام هذه إنما ترجع بالفعل إلى واقع أن العثمانيين لا يحتلون عاصمة مصر. وإذا كان قد تسنى تصور حل ممكن للإمدادات، فإن المأزق يظل كلياً دائماً فيما يتعلق بانسحاب الفرنسيين إلى الساحل الغربى لمصر. وفى اليوم نفسه، يتخذ كليبر خطوة أخرى وينشر فى الأمر اليومى للجيش رسالة اللورد كيث مع التعليق الموجز والشهير: «أيها الجنود، إننا سوف نرد على مثل هذه الرسالة الوقحة بإحراز انتصارات: فلتتهيئوا للقتال».

وهذا الإعلان الموجز الرابط الجأش يشعل حماس الجيش، الساخط سخطاً عميقاً على غدر الإنجليز. إن التفسخ الذى كان قد أدى إلى عصيانات يتلاشى مرة واحدة ولا يتطلع الجميع إلا إلى القتال. ويعقد كليبر فى صباح اليوم التالى مجلساً حربياً يوافق على استئناف القتال ويكتب إلى الصدر الأعظم لإبلاغه بالقطيعة: «إن النزاهة التى أبديتها فى التنفيذ الدقيق لاتفاقياتنا سوف تعطى لسموكم فكرة عن حجم الأسف الذى أشعر به من جراء قطيعة غير عادية إلى هذا الحد فى هذه الظروف تتعارض مع الفوائد المشتركة لمصالح الجمهورية الفرنسية والباب العالى. وقد برهنت تماماً على عمق رغبتى فى أن أرى بحثاً

لأواصر المصلحة والصداقة التي جمعت منذ زمن طويل بين الدولتين. ولقد فعلت كل شيء لتوضيح صفاء نواياي. إن جميع الأمم سوف تشهد بذلك وسوف يؤيد الله بالنصر عدالة قضيتي. والدم الذي نحن مستعدون لإراقته سوف يرتد على المسؤولين عن هذا الشقاق الجديد.

ويكثف الصدر الأعظم الفرمانات لدعوة المسلمين إلى الجهاد ضد الفرنسيين ويرفض الانسحاب مع جيشه إلى شرقي الدلتا. وفي مساء اليوم نفسه، يتخذ الجيش تشكيل قتال. ويتحمل الجنود القتال. والحال أن كليبر يتمتع بفرقتين، هما فرقتا فريان ورينييه، وقوامهما نحو احد عشر ألف رجل مع الفرسان. وفي الساعة الثانية صباحاً، في ٢٠ مارس ١٨٠٠، يجري تشكيل مربعين بكل فرقة. وفي الساعة الرابعة، يبدأ الزحف على المعسكر التركي. ويبقى مراد بك ومماليكه بلا حركة على مقربة من ساحة المعركة. ويتم التغلب على المعسكر العثماني بسرعة. ويقبل كليبر التفاوض مع خصومه، لكن هؤلاء الأخيرين يقبضون على المساعد بودي، المكلف بالتفاوض، ويسيئون معاملته. وعندئذ يجري استئناف القتال. ومرة أخرى ينكسر سلاح الفرسان الشرقي على المربعات الفرنسية. على أن قائده، نصوح باشا، ينجح في حشد جانب منه ويهرب إلى القاهرة. وفي المساء، تلحق الهزيمة بالجيش العثماني. ويرسل كليبر لاجرانج، مع لواء، لتعزيز حامية القاهرة ويبدأ مطاردة الجيش العثماني مع بقية قواته.

وفي اليوم التالي، ٢١ مارس، يدخل بلبيس. وتستسلم الحامية العثمانية في اليوم التالي وتحصل على الإذن باللحاق ببقية الجيش في الصالحية. ويحاول الصدر الأعظم إجراء مفاوضات جديدة، لكنه، أمام صلابة كليبر، يتخلى عن جيشه ويهرب مع قوة حرس ممتازة إلى سوريا. ويؤدي رحيله إلى التفكك التام لكل ما بقي من جيشه الكبير. وعندئذ ينهمك العرب في نهب وذبح جامح لكل ما هو عثماني، الأمر الذي يثير عظيم خيبة أمل الجنود الفرنسيين الذين لا يجدون بعد من الناحية العملية ما يمكن الاستيلاء عليه. وتشير استطلاعات الفرسان، الذين تم إرسالهم إلى الخطوط الأمامية، إلى أنه لم يعد هناك شيء غير الجثث حتى في داخل الصحراء. لقد تم القضاء على الخطر العثماني. لكن التقارير تتعلق عن الوضع في القاهرة حيث نشبت للتو ضد الفرنسيين انتفاضة قوية، أعنف بكثير من الانتفاضة الأولى. ويضطر كليبر إلى العودة إلى العاصمة بينما يتولى جزء من قواته محاربة الانتفاضة التي نشبت في الدلتا.

إعادة الفتح

انتفاضة القاهرة

كان سكان القاهرة على غير علم بالحادثات التى أدت إلى انهيار الاتفاق. وعندما يسمعون طلقات مدافع معركة هيليوبوليس، فإن شعورهم بالمفاجأة يبلغ أقصى مدى له. وسرعان ما يتحول إلى انتفاضة ضد الفرنسيين، وإذا ما صدقنا الجبرتى، فإن الحركة تنبع أساساً من تلك الطبقات الخطرة المميزة لأكبر مدينة فى مصر. وبعد ذلك بوقت قصير، تبدأ الحركة فى اتخاذ طابع منظم تحت تأثير عمر مكرم، نقيب الأشراف السابق، وأحمد المحروقى، شيخ التجار.

وفى الساعات التالية، تصل العناصر الناجية من المعركة. فيَصِلُ - أولا - إبراهيم بك ومماليكه، ثم نصوح باشا وعدد من المسؤولين العثمانيين - ووفقاً للجبرتى - فإنهم هم الذين يعطون الأمر بالهجوم على المسيحيين، لكنهم - وفقاً لنقولا الترك - يفعلون على العكس من ذلك كل شيء لتهدئة السكان باسم المبدأ العثمانى التقليدى الخاص بحماية جميع رعايا السلطان (١١٣). وتبدأ المذبحة التى تشكل إيذاناً حقيقياً بنهاية الزمان وفقاً للكاتب الكاثوليكى اليونانى. وبمساعدة من الفرنسيين، يقاوم المسيحيون بالتمترس فى بيوتهم وبإطلاق النار على المعتدين عليهم. ويتضامن الجنود الأرمن فى الجيش العثمانى مع إخوتهم فى الدين ويحاربون العامة.

وفى الحى القبطى، ينظم المعلم يعقوب المقاومة. وبفضل عمله، لا ينجح المهاجمون فى الدخول. ولا يتردد الجبرتى فى مقارنة شجاعته بشجاعة أكثر البكوات المماليك جسارة، حسن بك الجداوى (١١٤). وسوف ينجح فى الصمود لعدة أيام وفى استعادة الاتصال مع القوات الفرنسية. وفى ٧ أبريل ١٨٠٠، سوف يعينه كليبر فى منصب «آغا الأمة القبطية» وسوف يمنحه قوة حراسة من ثلاثين جندى فرنسى «للدفاع عن سلامته الشخصية ولتأمين احترام سلطته» (١١٥). أما الأعيان الأقباط الآخرون فإنهم يلجأون إلى ضباط عثمانيين يكفلون سلامتهم، وكما حدث فى الانتفاضة الأولى، فقد لوحظت أيضاً أعمال شهامة من جانب مسلمين سعوا إلى إنقاذ المسيحيين من المذبحة، ويشير كليبر إلى ذلك فى تقريره:

وخلال هذا العصيان، تسببت أشكال الكُره بين الأفراد في عدد من أعمال الاغتيال؛ كما لوحظت أيضاً علامات سخاء ووفاء، وهذا الدين نفسه الذى يبدو أنه يدفع العدد الأكبر إلى الانتقام، إنما يلهم آخرين العزم على التصدى للمذابح، بما يعرض أرواحهم للخطر(١١٦).

وفى ٢١ مارس ١٨٠٠، تجرى إقامة متاريس فى شوارع القاهرة، ويبحث المقاتلون بنشاط عن كل ما يمكن أن يصلح كأسلحة، وفى الأيام التالية يجرى إخراج جميع الأسلحة التى كانت مخبأة، والتى أفلتت من عمليات التفتيش التى قام بها الفرنسيون، وتجرى تعبئة العمال لإصلاحها، بل ويجرى سبك مدافع جديدة، وهذه المعرفة التقنية التى تثير دهشة الفرنسيين إنما ترجع فى جانب كبير منها إلى معارف صناع الأسلحة اليونانيين الذين كان مراد بك قد جلبهم. والحال أن القنابل التى تطلقها المدافع الفرنسية يجرى ردها وهى ما تزال ساخنة على من يطلقونها، ويحاول جزء من السكان – خاصة الأعيان – الهرب إلا أنه يجرى منعهم عن ذلك. وينظم المقاتلون أنفسهم بحسب الأحياء، وعلى هذا الأساس يتحد سكان القاهرة والمماليك والجنود العثمانيون. وبوجه عام، فإن قادة الأحياء هم كبار المماليك المنتمين إلى حزب إبراهيم بك، وهذا التنظيم العفوى والكفء يدهش الفرنسيين ويستثير إعجابهم (١١٧). وتنضم مدينة بولاق إلى الانتفاضة. أما مراد بك، الذى جرت دعوته إلى الانضمام إلى المعركة، فإنه يرفض كل تحرك، ومما يدعو إلى السخرية أنه يرد بأنه يهتم بحفظ النظام فى قطاعه وأنه قد حاول الحصول على أوامر من الصدر الأعظم، لكن رسوله كان بطيء التحرك إلى الشرق ولم يجده.

ويخفى القادة العثمانيون عن السكان خبر هزيمة الصدر الأعظم ويزعمون أن هذا الأخير سوف يهب سريعاً لتقديم العون إلى المدينة. ويجرى البحث عن المتعاونين مع الفرنسيين وإعدامهم. بل إن الشيخ البكرى يتعرض للإذلال وتنهال عليه الشتائم. ومن المؤكد أن اغتصابه لمنصب نقيب الأشراف هو السبب فى ذلك. ويهتم التجار والبورجوازيون بتوفير المؤن للسكان. فالتعاون ملحوظ، لكن الفرنسيين ينجحون تدريجياً فى فرض حصار قاس حول المدينة وسرعان ما ترفع المجاعة رأسها. ويكسب المقاتلون الأولوية فى الحصول على الطعام (١١٨). ويرى الأعيان التقليديون سلطتهم وقد أصبحت محل استهزاء. إن قادة أكثر شعبية يظهرون كذلك كالمغربى الشهير الذى من المرجح تماماً أنه مهدى البحيرة السابق (١١٩). وهو يحشد حوله قوة بأكملها من المتهوسين

وكذلك من الحجازيين الناجين من معارك مصر العليا. وهم يرتكبون أسوأ الفظائع ويكثفون عمليات النهب على حساب المسيحيين – ووفقاً للجبرتي – فإن مسلكه لا يليق بالمرة بمسلك مقاتل من مقاتلي الجهاد (١٢٠).

وتنسحب القوات الفرنسية الباقية في القاهرة إلى مقر القيادة العامة، في قطاع الأزبكية الذي دمرته المعارك تماماً، وهو الأمر الذي أثار عظيم حزن الجبرتي. وخارج هذا المقر، يمسك الفرنسيون بزمام الحصون الخارجية والقلعة. وانطلاقاً من هذه المواقع، يقصفون المدينة الثائرة. ويحاول المتمردون اقتحام هذه النقاط التي تطوق المدينة، لكنهم يفشلون متكبدين خسائر ملحوظة أمام قوة نيران خصومهم. ومنذ تلك الحين، يصبح محكوماً عليهم بأن يظلوا في وضع دفاعي في وجه جيش فرنسي يتزايد أهمية، مع عودة القوات التي كانت قد خرجت لمطاردة الصدر الأعظم. وفي ٢٢ مارس بعد الظهر، تصل طوابير النجدة الأولى إلى القاهرة وتفك الحصار عن مقر القيادة العامة. وفي ٢٤ مارس، يجيء فريان بتعزيزات جيدة ويتولى قيادة العمليات. وتصطدم محاولاته الرامية إلى دخول المدينة بمقاومة شرسة من جانب السكان وتمنى بالفشل. ويكثف الخصمان الحرائق وأعمال التخريب.

عروض كليبر

يرجع كليبر في ٢٧ مارس. وهو يدرك على الفور أن حرب الشوارع تنذر بأن تكلفه أرواح الكثيرين من الرجال. وتفتقر مدفعيته إلى الذخيرة ويتعين عليه انتظار إرسالها إليه من الإسكندرية ورشيد. ومن ثم فإنه يوقف الهجمات ويعد لتطويق منهجي للأحياء المتمردة. وهدفه هو خوض حرب حصار حقيقية. كما أنه يسعى إلى اللعب على تدهور الوضع وانقسام خصومه. وهو يستخدم في ذلك مصطفى باشا الذي أصبح من جديد أسيراً في هليوبوليس. ومن خلاله يكثف التهديدات والوعود. ويرد المشايخ الرئيسيون على رسائله ويذكرون بأنهم مدينون بالطاعة للسلطان. وسواء أكان ذلك من باب الجهل أم من باب الهزل، فإنهم يطالبون بذلك في الوضع الذي كان سائداً قبل هليوبوليس، ويعبرون عن استعدادهم للعمل على تأمين انسحاب سلمي للفرنسيين من القاهرة (١٢١).

وهذا الموقف يدفع كليبر إلى تعديل سياسته المصرية. وهو يقدر عدد المتمردين بنحو تسعة آلاف إلى عشرة آلاف عثماني وهو رقم من المؤكد أنه مبالغ فيه إلى حد بعيد

وبألفين من المماليك وبثلاثة آلاف من مصريىّ الأرياف وبخمسة عشر ألفاً من سكان القاهرة (دون حساب العمال):

«إن هؤلاء السكان قد غرر بهم الشيخ السادات، وشجعهم ومولهم المصريون وتجار البن وعدد أكبر من هذه الطبقة، لكن الشيء الملحوظ بشكل خاص، هو أن جميع الرجال الذين كانوا مرتبطين بخدمتنا، والذين شملناهم بالمراعاة وأغدقنا عليهم الجميل، هم الذين بادروا بالفعل بتزعم المتمردين وأصبحوا أشرس أعدائنا. وربما كان ذلك هو الأسلوب الأكثر فعالية لنيل العفو عنهم. وإذا كان ذلك هو دافعهم، فمما لا شك فيه أننا سوف نشهد عودتهم إلينا بانصياع أكثر، عندما نسترد السلطة. وفي هذه الحالة للأمور، كان الشيء الرئيسي هو فصل المماليك عن الحزب العثمانلي، والحال أن العداوة القائمة منذ زمن طويل بين هاتين الطبقتين من الرجال، يبدو أنها تجعل الأمر سهلاً، لكن الفرحة التي يستشعرها المماليك في العودة إلى رؤية العاصمة، مقر حكم إمبراطوريتهم، بعد نفي دام نحو عامين، والأنصار العديدين الذين سوف يجدونهم من جديد، والفكرة التي كونوها عن أنفسهم والتي تجعلهم يتصورون أنهم لا يمكن محوهم، تحول الآن دون تطور هذه العداوة، وإذا ما واصلوا اعتبار العثمانيين أعداء، فإنهم يعتبرونهم مع ذلك أقل خطراً منا. وسوف يقولون لي بأي حق تود استبعادنا من أرض نملكها منذ خمسمائة سنة ».

المفاوضة مع مراد بك

إذا كانت عروض كليبر تمنى بالفشل مع مماليك إبراهيم بك، فإنها تجد صدى إيجابياً من جانب حزب مراد بك. والحال أن هذا الأخير، الذي شجعته الاتصالات التي جرت من خلال الست نفيسة والمنزعج لنزعاجاً مشروعاً من نوايا العثمانيين، قد آثر الحفاظ على حياد متعقل خلال معركة هيليوبوليس. وما يعرضه كليبر عليه هو تسوية مماثلة تماماً للتسوية التي كان العثمانيون قد قدموها إليه بعد فشل محاولتهم الرامية إلى إعادة الفتح قبل ذلك بعدة سنوات. وكل شيء متماثل: فمن الواضح أنه بسبب الفشل في القضاء على قوته بالرغم من مطاردة حتى الشلال الأول يتوجب التفاوض معه، بشرط التخلي عن الذرائع المستخدمة لغزو مصر، كتحرير الشعب المصري من طغيان المماليك.

وبعد عدة أيام من التفاوض، يجرى عرض المقترحات الفرنسية [١٢٢] ويقبلها الزعيم المملوكي الكبير. والمفاوض هو عثمان بك البرديسي. ويعلن الفرنسيون تقديرهم لهذا الخصم الذي قاومهم بهذه الدرجة من الشجاعة. ويجرى الاعتراف له بصفة الأمير الحاكم

لمصر العليا كما يتم التنازل له «بهذه الصفة عن الأرض على كل من الضفتين، بدءاً من وبما فى ذلك ناحية بلصفورة، بإقليم جرجا، وحتى أسوان» مع الالتزام بأن يدفع إلى الجمهورية الفرنسية الميرى المقرر لحاكم مصر». وهو يتعهد من جهة أخرى بأن يدع الفرنسيين يعيدون احتلال ميناء القصير على البحر الأحمر وبأن يزود حاميته بالإمدادات الغذائية.

وهــذا الحكم لا يعنى امتــلاك امتيازات ضريبية فهذه ســوف تظل مــن اختصــاص الدولة: «بما أن التمتع بالإيراد وحده هو من اختصاص حاكم مصر العليا، فإنه لن يتمتع بملكية أية قرية لحساب أشخاص مرتبطين به، مع حفظ حقه فى تدبير إعاشتهم بالشكل الذى يراه مناسباً.

«وتكفل الحكومة الفرنسية الملكيات التى حصل عليها الأفراد بشكل شرعى ولا يجوز اقتراف أى تعد عليها.».

ويتعهد كل من الطرفين على نحو تبادلى بإعادة الفارين والفلاحين الساعين إلى الهرب من الضرائب. وسوف يقدم المماليك المساعدة إلى الفرنسيين إذا ما تعرض هؤلاء الأخيرون «لخطر عدوان معاد لهم». ويلتزم الفرنسيون بالدفاع عن مصالح مراد بك عند التوصل فى نهاية الأمر إلى تسوية عامة للمسألة المصرية. (١٢٤)

وفى التو والحال سوف يحاول مراد بك إغراء أقصى عدد ممكن من مماليك بيت إبراهيم بك المقاتل فى القاهرةبالفرار، وسوف يتعاون مع المعلم يعقوب فى نقل أكبر كمية ممكنه من الحبوب من مصر العليا، كما أنه سوف يطرد من تلك المنطقة جميع العثمانيين المتواجدين فيها، بمن فى ذلك القائد العثمانى، الذى أرسل لجباية الضرائب (مع قوات مهمة) قبل انهيار اتفاق العريش. وفى المقام الأخير «فإن مراد بك سوف يذيع فى مدينتى القاهرة وبولاق خبر الصلح الذى تعاقد عليه مع القائد العام وسوف يكون بوسعه أن يعد من جانب هذا الأخير بالعفو العام والفردى عن كل الذين ينفصلون عن العثمانلية للانضمام إمّـا إلى حزبه أو إلى حزب الفرنسيين (١٢٥)».

وسوف ينفذ مراد بك بشكل صارم جميع بنود المعاهدة وسوف يحرص على أن يعلن على الملأ، فى مناسبات عديدة، صداقته وإخلاصه للفرنسيين.

تحطم الانتفاضة

مع تفاوضه مع مماليك مصر العليا، يواصل كليبر سياسته الخاصة بالتفرقة وذلك باتصاله بالقادة العثمانيين فى القاهرة. والحال أن هؤلاء الأخيرين، أمام تدفق القوات

الفرنسية حول العاصمة، قد أدركوا أن جيش الصدر الأعظم قد أبيد. وعندئذ فإن التمرد يبدو بالنسبة لهم بلا طائل وتبدو للمفاوضات فشل. وهم يكلفون مشايخ الديوان بالتفاوض على خروجهم الحر إلى سوريا. وهؤلاء الوسطاء يلقون، في مراسلاتهم مع الفرنسيين المسؤولية عن الانتفاضة على العثمانيين. ويتم التوصل إلى الاتفاق في ١٠ جيرمينال (٣١ مارس ١٨٠٠)، إن القوات العثمانية يجب أن تجلو عن المدينة في ٢ أبريل، وسوف يقدم الفرنسيون المؤن الضرورية لاجتياز الصحراء. ولابد للمعارك أن تتوقف فوراً (١٣٦).

وعندما يعلم سكان القاهرة باستسلام قادتهم، فإنهم يثورون ويسيئون معاملة عدد من المشايخ. والمغامر المغربي من بين أنشط قادة التمرد. وبالنسبة للكثيرين، فإن عرض الفرنسيين هو برهان ضعفهم. ويضطر العثمانيون إلى إبلاغ كليبر بأنهم قد فقدوا السيطرة على الموقف. «صحيح تماماً، كما تقولون، إنه بعد توقيع معاهدة فإنه يتعين بذل جميع المساعي لتنفيذ بنودها، لكن هذه استحالة من جهتنا. فمنذ حركة هذه الليلة، وصل الغليان الذي يسود في القاهرة إلى مدى بعيد لا يسعني وصفه لكم. إن جميع الجنود قد جاءوا لمهاجمتي [...] والجنود لا يتحدثون إلا عن تمزيق القائد إرباً. ومنذ هذا الصباح، فإن جميع سكان القاهرة، حتى النساء والأطفال، يملأون الشوارع ويهتفون بأنهم لن يسمحوا بخروج أحد [...] وقد توحد السكان والجنود معاً؛ ويجري التهديد بقتل كل من يتحدثون عن الخروج؛ إنها فوضى يستحيل وصفها. والجنود جد عديدين بحيث لا يمكننا الآن معاقبة أحد منهم على هذه القلاقل. وفي ظرف كهذا، لابد من التحلي بالصبر والسماح بمرور يوم أو يومين» (١٣٧).

ويرفض كليبر السماح بأي تأجيل إضافي. وبينما يقوم بهذه الدبلوماسية الفعالة، يباشر مساعدوه إعادة فتح الدلتا. ويتم الاستيلاء على دمياط من جانب بيليار الذي يسحق تمرداً من نفس نوع تمرد القاهرة. ويحدث الشيء نفسه في المحلة الكبيرة وفي طنطا. ويحكم على المدن الثلاث بدفع غرامات حرب جد باهظة. وتؤدي السرعة التي تم بها قمع الانتفاضات الحضرية الإقليمية إلى منع تعميم الحركة. والواقع أن الأرياف كانت قد عانت من غياب النظام الفرنسي بأكثر بكثير من معاناتها من إعادة الفتح. والحال أن زوال وضع السيطرة على البدو كان قد جر إلى عودة هجومية من جانب هؤلاء الأخيرين الذين كثفوا التعديات على حساب الفلاحين وسكان المراكز. ووفقاً للجبرتي، فإن الفوضى كانت شاملة، فلم يك بوسع أحد أن يخرج من المدن، واستولى النهابون على الدواب وصادرت

ثمار المحاصيل، وعودة الفرنسيين هي التي تسمح بطرد هؤلاء الأعداء للسكان المستقرين(١٢٨). وفي هذه الظروف، فمن الواضح تماماً أن من المستبعد أن تكون هناك إمكانية لانتفاضات ريفية ضد الفرنسيين الذين يجرى استقبالهم لهم كمنقذين.

الهجوم الأخير

في نهاية الأسبوع الأول من أبريل ١٨٠٠، يمكن لكليبر إذاً أن يعتبر أنه يمسك في يديه بجميع الأوراق؛ لقد أعيد فتح مصر السفلى؛ وسوف يهتم مراد بك بمصر العليا؛ ولم يعد هناك خطر عثماني؛ والذخيرة الضرورية من أجل إعادة الاستيلاء على القاهرة قد وصلت. وفي ١٠ أبريل، يرجع رينييه مع فرقته من الشرقية. إن كل شيء جاهز للمرحلة الأخيرة لإعادة الفتح. وبما أن المقاومة تظل دائماً جد شرسة، فإن كليبر يقرر أن يقدم عبرة وأن يركز مجهوده على ضاحية بولاق (١٢٩). وكانت هذه المدينة قد رفضت الاستسلام برغم وعود العفو المتكررة. وفي ١٥ أبريل (١٣٠)، تتعرض المدينة لقصف مكثف، ثم تهجم القوات الفرنسية عليها. ولا يكفي ذلك لزعزعة عزم المدافعين. وعندئذ يمارس الفرنسيون أعمال الحرق المنهجي للبيوت. والحال أن المدينة التي يتم الاستيلاء عليها هي مدينة مدمرة بالكامل. وتتفق روايات الجبرتي وروايات نقولا الترك فيما يتعلق بأعمال النهب والاغتصابات العديدة التي ارتكبت عندئذ من جانب المهاجمين. ومن جهة أخرى، فإن كليبر يأخذ ذلك في الحسبان بالنسبة للهجوم التالي على القاهرة. والأمر اليومي الصادر في ١٦ أبريل يتميز بنبرة قاسية:

«إلى الجيش»

«أيها الجنود، إنكم سوف تهاجمون بعض أحياء مدينة القاهرة. وإذا ما أقدمتم على النهب فستكون تلك نهايتكم: إن كل بيت سوف يصبح قبراً لكم. إن الغنيمة لن تفوتكم البتة، إنني أعدكم بها؛ إلا أنه قبل ذلك لابد من قهر وتدمير أعدائنا.

«وبناءً على ذلك، فإنني أصدر الأمر بمعاقبة كل من يضبط متلبساً بالنهب بالإعدام»(١٣١).

وتؤدي عاصفة عنيفة، وهي حدث غير متوقع في هذا الفصل، إلى تأخير الهجوم الأخير على القاهرة. وعند هذا الهجوم، فإن بيليار ورجاله، الذين وصلوا في ١٨ أبريل، هم الذين يعتبر قدومهم ميموناً. ويحدث هذا الهجوم في الليلة نفسها، مع تفجير لغم يدمر المركز الرئيسي للعثمانيين في الأزبكية، بينما يضطر المدافعون عن المدينة إلى التراجع.

والحال أن المشايخ، الذين دخلوا من جديد في اتصال سري مع كليبر، إنما يحثون نصوح باشا على الاستسلام (١٣٢). وكان مراد بك قد أرسل عثمان بك البرديسي إلى القاهرة للتفاوض على الاستسلام. ويوجه إعلان خبر التحالف بين مراد والفرنسيين ضربة بالغة القسوة إلى معنويات المماليك الآخرين، وكذلك الحال بالنسبة لخبر إرسال الضباط العثمانيين الذين تم أسرهم في البلدا. ويؤدي ذلك إلى تكذيب رسائل الصدر الأعظم الزائفة، التي اختلقها المحروقي، والتي كانت تتحدث عن الوصول الوشيك للجيش العثماني. ويدفع ذلك السكان إلى احتقار العثمانيين الذين يعتبرونهم مسؤولين عن هذا الوضع الكارثي. ويحاول المغربي شن انتفاضة شعبية جديدة، ضد الاستسلام الذي يتوقع اقترابه، لكن الضباط العثمانيين ينجحون هذه المرة في قمع الحركة. وفي ٢١ ابريل، يجري قبول الاستسلام؛ ويلزم على العثمانيين والمماليك الجلاء عن المدينة في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام، ويتم منح العفو عن السكان. على أن قادة التمرد الرئيسيين يفضلون الرحيل مع العثمانيين وكذلك الحال مع عدة آلاف من السكان (١٣٣).

ويخفر رينييه وفرقته القوات العثمانية. ويثير نظام الجيش الفرنسي عظيم إعجاب نصوح باشا. فكل شيء يتم دون حوادث وجلاء العثمانيين ينتهي بسرعة. ويبدو إبراهيم بك راغباً في الانضمام إلى الفرنسيين، بشروط مشابهة لشروط مراد، لكنه يتخلى عن ذلك في آخر لحظة (١٣٤). ويجري استكمال إعادة فتح مصر عن طريق حملة صغيرة على السويس حيث كان البريطانيون قد نزلوا مع حجازيين. وفي أوائل فلوريال من العام الثامن (٢١ – ٢٦ أبريل ١٨٠٠)، يرد الفرنسيون خصومهم بسهولة ويترك الإنجليز الميناء بعد إحراق السفن التجارية ومنشآت الميناء. ويذكر التقرير: «إن الإنجليز، بتدميرهم ثروة الرجال الذين دفعوهم إلى القتال من أجلهم البارحة، وبتخليهم عنهم، سرعان ما سوف يحولون إلى تأييدنا أذهان السكان، الذين فوجئوا بأن يجدوا في تصرفات المنتصرين عليهم مروءة تقابل ما كابدوه من غدر من جانب حلفائهم.» (١٣٥).

الضريبة الاستثنائية

كانت القاهرة مدمرة تماماً عندما عاد الفرنسيون إلى دخولها، في ٢٦ ابريل ١٨٠٠. وعلى الفور يدعو القائد العام المشايخ إلى الاجتماع به ويعلن لهم أنه يمنح عفواً عاماً لجميع السكان. ويهنئ الجميع أنفسهم على شهامة الفرنسيين. لكن السكينة لن تدوم طويلاً. إن كليبر، الذي نجح في استعادة السيطرة الفرنسية بكفاءة تشهد على امتياز قدراته كرجل

حرب وسياسة، إنما يقرر الاستفادة من الوضع لكي يسوى المسألة المالية تسوية نهائية.
ومن باب العقاب على التمردات الحضرية، فإنه يفرض ضريبة استثنائية باهظة: والهدف من هذه الضريبة هو الوصول إلى المبلغ الضرورى، الذى يسمح بتصفية المتأخرات وبتأمين النفقات على اختلاف طابعها، حتى نهاية العام الثامن. والحال أن إجمالى الضريبة، التى يجب دفعها عدة مرات نقداً وعيناً، سوف يبلغ نحو ثمانية عشر مليون فرنك، يقع عبء أكثر من عشرة ملايين فرنك منها على القاهرة وحدها. أما المسيحيون واليهود، الذين تم إعفاؤهم من الضريبة، فسوف يجبرهم مينو على دفعها بناءً على طلب المسلمين. ومن جهة أخرى، فإن بعض التخفيفات سوف تؤدى إلى تخفيضها إلى سبعة عشر مليون فرنك(١٣٦).

وفى الاجتماع غير العادى للديوان فى ٣ مايو ١٨٠٠، يجرى إبلاغ المشايخ بالمصير الذى ينتظرهم. إن كليبر يلومهم من جهة على تعاونهم مع العثمانيين، ويلومهم، من جهة أخرى، على عدم منعهم لتمرد السكان؛ لكنهم يردون بأن الفرنسيين هم الذين أعانوهم إلى الانضواء تحت سلطة السلطان وبأنهم قد تم تجاوزهم بالكامل. وهم أول من سوف يدفعون الضريبة، خاصة السادات، الذى يجرى إلزامه بدفع نصف مليون فرنك. أما البكرى، بسبب أشكال سوء المعاملة التى تعرض لها، والمهدى، الذى نجح، كعادته، فى مداراة الفريقين فى آن واحد، فيجرى إعفاؤهما من دفع الضريبة. ويجرى كل شيء بفظاظة بالغة وفى مناخ تخويف جسدى (١٣٧).

ويكلف المعلم يعقوب بجباية الضريبة المفروضة على المدينة، بينما يقرر المهدى والأقباط توزيع الضريبة بحسب فئات السكان. وتخضع نقابات الحرفيين والتجار فى جمع الضريبة. ولا يمر ذلك دون مغانم بالنسبة للبعض ودون حركات احتجاج شعبية على الجباة. وهكذا فإن نقابة الإسكافية قد ألزمت بدفع اثنى عشر ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين قرشاً إسبانياً؛ ويتولى رئيسها التحصيل رافضاً أى إشراف. وتجتمع النقابة من تلقاء نفسها، وتختار لنفسها رئيساً آخر وتطلب حسابات الرئيس السابق. وبما أن هذا الأخير يرفض، فإن الإسكافية يطلبون حماية الفرنسيين، الذين يجرون تحقيقاً ويلزمون الرئيس السابق بدفع مبلغ ألف ومائتى قرش كان قد احتفظ به دون وجه حق (١٣٨).

الشيخ السادات

لكن أول دافع للضريبة فى مصر هو الذى يبدو جموحاً أكثر من سواه. وقد رأينا أن

كليبر قد اشتبه فى أنه المسؤول عن انتفاضتى القاهرة. على أن الجبرتى، الذى لا يراعى جانبه بشكل خاص، لم يعطه دوراً معيناً فى روايته للأحداث. ويجرى إلقاء القبض على السادات، وسجنه فى القلعة، وضربه مرتين فى اليوم لإجباره على دفع ضريبته الضخمة. وهذا العجوز الذى يبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً يتوسل إلى كليبر أن يجنبه هذه المعاملة المهينة، «أقسم لك بالله الذى خلق كل شيء وجعلك سلطاناً منصوراً، أن كل ما قيل لك عنى هو نتاج دسائس أعدائى وأنه زائف. ولقد كنت على الدوام منذ وصول القائد العام بونابارت والفرنسيين إلى القاهرة صديقاً لهم. وأقسم بالله أننى أميل إليهم. وعندما دخل العثمانية وسلكوا سبيل القتال، لم أكف عن تمنى انتصاركم. والجميع يشهدون على ما أقول، ومن بينهم الشيخ المهدى. والمال الذى أخذوه، إنما أخذوه بالقوة وبالاحتيال كالمال الذى أخذه أحمد المحروقى [...].

«ولم يحدث قط أن والدى ولا من ربونى قد ضربونى. على العكس، إن الكبراء والعلماء قد كرمونى واحترمونى دائماً. ولقد أبدى الأمراء الاحترامات نفسها [...]

«وإذا ما أمتنى فما هى الثمرة التى سوف تتأتى من موت عجوز عاجز له أطفال وعائلة. إن أصدقائك أنفسهم سوف يغضبون من ذلك، وسوف يكون دمار بيت السادات المكرم منذ خمسمائة سنة هو نتيجة ذلك وسوف يكتب فى التاريخ أن الجنرال كليبر قد دمر أول بيت فى القاهرة، وهو مالا تريدونه بالتأكيد. أما فيما يتعلق بأولئك الذين يؤكدون أننى دفنت المال، فليجيئوا إذاً لإخراجه ما داموا عليمين بالأمر» (١٣٩).

ويشهد الجبرتى على مناخ الاضطهاد واليأس الذى يصيب عاصمة مصر فى أثر تدابير كليبر. إن السكان يغادرون المدينة لكى يقيموا فى الريف، لكنهم لا يستطيعون العيش هناك طويلاً بسبب غياب الموارد، ويسارعون إلى العودة بقدر ما أن الفرنسيين يهددون بمصادرة ممتلكات الغائبين. ويبدو المسيحيون متبجحين ويتصرفون كما لو كانوا يريدون القضاء على الإسلام. ويمر عيد الأضحى دون إحساس به فالسكان جد مرهقين. ومن خلال أمره اليومى الصادر فى ٢٩ فلوريال من العام الثامن (١٩ مايو ١٨٠٠)، يحاول كليبر الحد من أعمال العنف هذه :

«إن القائد العام يتلقى يومياً شكاوى من سكان مدينة القاهرة حول المظالم والتعديات الأخرى التى يرتكبها فى حقهم بأكثر الأشكال تعسفاً قادة الأقسام؛ وإلى هذه الشكاوى، يضيفون اليوم الشكوى من تعد ليس أقل استحقاقاً للعقاب. إن عدداً من الإفرنج والمسيحيين الآخرين المعادين إلى هؤلاء القادة، يحددون لهم زياً، أو صبغاً،

البيوت المعنية التي يجرى فيها إخفاء الأشياء التي كانت قد نهبت منهم، خلال التمرد؛ واستناداً إلى هذه الوشايات، يأمر قادة الأقسام، اعتماداً على سلطتهم الخاصة، بزيارات تفتيشية إلى المنازل، ويسمحون للمسيحيين بأن يأخذوا - دون أي إجراء آخر - الأشياء التي يقولون إنها كانت ملكهم. وحيث إن مثل هذه الإجراءات لا يمكن إلا أن تثير الذعر والخوف في الصدور، بدلا من أن تعيدها إلى السكينة والثقة اللذين تستند عليهما الراحة العامة، فمن الملح القضاء عليها» (١٤٠).

كما يحظر كليبر على قادة الأقسام اتخاذ أي إجراء من هذا النوع دون تصريح من قائد الموقع. وتجب الإشارة إلى أن اللذين منهم يؤكدان براءتهما ويقدمان شهادات من الأعيان المسلمين في تسميهما تدافع عن شرفهما (١٤١).

تشكيل قوات محلية

تفرض إعادة الفتح توقع إقامة طويلة الأجل في مصر. والحال أن المشكلة الأساسية، بسبب غياب إرسال تعزيزات، هي مشكلة الأعداد. وسوف يتجه كليبر إلى تجنيد قوات محلية. وهو لا تخامره أية أوهام فيما يتعلق بقيمتها العسكرية بالمقارنة مع القيمة العسكرية للقوات الأوروبية. ويمكن لفائدتها أن تكون عظيمة، بالنسبة لحفظ النظام الداخلي، بما يسمح بإرسال الجانب الرئيسي من القوات الفرنسية إلى حدود مصر، في حالة هجوم أنجلو - عثماني. وهو يشكل فيلقاً يونانياً انطلاقاً من السرايا الموجودة بالفعل، ويعهد بقيادته إلى بلياس أوغلو، الرجل الذي كان في السابق محل ثقة مراد بك. أما فلسطينيو الجليل الذين كانوا قد هبوا لنصرة قضية آل الزيداني، والذين لحقوا بالجيش الفرنسي، فإنهم يشكلون نواة قوة انكشارية راكبة للجهاد. ويجرى ضم المماليك الذين انتقلوا إلى خدمة الفرنسيين إليها. وسوف يصبح هؤلاء كلهم، في ظل ميدو، كتيبة المماليك، التي يقودها اليوناني بارتيليمي سيرا. وينتقل عدد من الإنكشارية الذين كانوا يخدمون في وظائف الشرطة إلى وحدات قتالية أكثر. كما أن عدداً من العبيد السود المجلوبين من السودان، والذين تم شراؤهم لكي يصبحوا جنوداً، يجرى دمجهم في شبه لواء فرنسي ويخدمون كرماة بالبنادق وضاربين للطبول ونافخين للمزامير. وأخيراً يكلف كليبر المعلم يعقوب بتشكيل فيلق قبطي. وكان هذا الرجل الأخير قد اضطلع بنشاط عظيم جداً في المجال الضريبي، لكان ذلك فيما يتعلق باطلاع الفرنسيين على أسرار نظام

الضرائب الذي خلفه العثمانيون لم فيما يتعلق بجباية الضرائب. وهو مرتبط بواحد من فرسان مالطة السابقين، هو تيودور دو لاسكاريس، الذي استولى عليه حب مصر وتعلم العربية. وقد أصبح لاسكاريس مستشاراً للمعلم وهو يساعده على أن يصوغ في لغة سياسية أوروبية، ما يستشعره القبطي، بهذه الدرجة أو تلك من التشوش، بالنسبة لمستقبل بلاده. وقد أصبح هذا الارتباط جد وثيق بحيث إنه من غير الممكن أن نميز، في المشاريع المتعاقبة لكل من الرجلين، ما يخص الأول وما يخص الثاني (١٤٢). ويتم الاضطلاع بتجنيد هذا الفيلق بشكل نشيط في مصر العليا. وهكذا فإن أكثر من ألف من الأقباط يشكلون وحدة مشهورة بتماسكها وانضباطها. وقد تباينت أعداد هذه القوات الشرقية بحسب الفترات، لكن العون ملحوظ ويلعب دوراً عظيماً في النمو العددي للقوات المجهزة للقتال؛ فهي تصبح خمسة عشر ألفاً وثلاثمائة وسبعة وثلاثين رجلا في ٢٥ مايو ١٨٠٠، ثم تصبح ثمانية عشر ألفاً ومائتين وستة وستين رجلا في ٢ أكتوبر ١٨٠٠، ثم تصبح عشرين ألفاً ومائة وثلاثة وسبعين رجلا في ٢٠ فبراير ١٨٠١ (١٤٣). وكثيرون من هؤلاء الشرقيين سوف يلحقون بالفرنسيين في عام ١٨٠١، عند الجلاء عن مصر، وسوف يخدمون في الجيوش الفرنسية للإمبراطورية. وسوف نجد، من جيرار إلى جويا، شواهد كثيرة عليهم في مجموعة الرسوم الخاصة بالجيش العظيم، والتي تشكل مقدمة للرسم الاستشراقي في القرن التاسع عشر.

إعادة التنظيم المالية

وهذه الضرورة الخاصة بالاندراج في الاستمرار إنما تجد نفسها مرة أخرى في استئناف إعادة تنظيم الهياكل المالية التي كان قد جرى البدء بها بعد رحيل بونابارت والتي تركت عند التوصل إلى اتفاق العريش. وتسمح الضرائب الاستثنائية بتصفية متأخرات الرواتب والديون المختلفة وبتأمين للمدفوعات خلال عدة أشهر. ويضاف إلى ذلك مصادرة السفن العثمانية، مع شحناتها، والتي كانت قد دخلت إلى موانئ مصر واثقة من سريان مفعول اتفاق العريش. ويلغى الأمر اليومي الصادر في ٨ فلوريال من العام الثامن (٢٨ أبريل ١٨٠٠) إدارة الشؤون المالية. ويجرى تكليف أمين الصرف العام لستيف بالإشراف على الإيرادات العامة. ويتم إلغاء تواجد وكلاء فرنسيين في الأقاليم. ويجرى الخلط بين جميع مكونات الضرائب الخاصة بالأرض تحت المسمى الشامل الخاص بالضريبة العامة النقدية. ولا يتصل ذلك إلا بالأراضي التي انتقل فيها الالتزام إلى الفرنسيين (الغالبية

الكبرى). وسوف يجرى تحديد الضرائب سنوياً من زاوية نتائج فيضان النيل. والأمناء الأقباط هم الذين سوف يتولون جبايتها، لكن جميع المدفوعات سوف تكون مصحوبة بمسوغات، ولتغطية نفقات الأمناء، فسوف يكون لهم الحق فى ثمانية فى المائة من ناتج الضريبة، هى المكافأة الوحيدة لهم. ولن يكون هناك بعد تأجير التزامي للقرى المنتمية إلى المجال العام (١٤٤). والقرى، التى لم تسجل على أنها التزامات، تصبح ملكية للجمهورية(١٤٥).

ومن ثم فإنه يجرى الانتقال من الامتياز الضريبى العثمانى إلى ضريبة مباشرة حقيقية. والحال أن الرسوم العديدة التى أدت، بحجة نفقات الإدارة الإقليمية أو الجباية، إلى زيادة ملحوظة للضريبة التى تطلبها الدولة (المهرى)، قد جرى دمجها بهذه الأخيرة. وهذا القضاء على الوسطاء يسمح بالأمل فى غلة أعظم للضريبة. ولا يحدث مساس بالالتزامات الأخيرة إلا أن بالإمكان طلب دفع رسومها نقداً (يجرى الجانب الرئيسى من المدفوعات العينية من مصر العليا التى عهد بها إلى مراد بك الذى لا يجب عليه أن يدفع للفرنسيين غير المهرى). ويمكن اعتبار أن الالتزام قد اختفى، بالفعل، فى جزء كبير من مصر بالنسبة لسنة ١٢١٤ الضريبية. كما أن الرسوم الضريبية الأخرى تدار بشكل مباشر إلا فى بعض الحالات التى يجرى الحفاظ فيها على نظام المزايدات. ويحصل حسن طوبار على معاملة خاصة ويحتفظ بالتزاماته الضريبية. ومن المؤكد أن كليبر لا يرى فى عمله الإدارى غير عمل ظرفى يهدف إلى تأمين الحصول على المزيد من الإيرادات النقدية. لكنه يجرى بالتوازى مع ذلك تحقيقاً للتعرف بدقة على إيرادات مصر. وهو يشرح مقصده لشانالييل، فارس مالطة السابق، الذى أصبح وكيلا فرنسيا وخبيراً فى مجال الشؤون المالية لمصر :

إن إجراء إصلاحات عظيمة فى الإدارة إنما يتطلب إعادة تنظيم عظيمة، وليس ذهنى متفتحاً جداً البتة لابتكار عمل كهذا فى أربع وعشرين ساعة، حتى وإن طلبت عوناً معرفياً من بعض الأشخاص العليمين. [...] لقد قطعنا بالفعل شوطاً بعيداً فى إعداد ذلك الكتاب الشهير الخاص بطبيعة الضرائب فى مصر؛ ولم يعد أمامنا غير معرفة مالا حد له من تلك الرسوم الصغيرة غير المسجلة بالمرة والتى يبدو أنها مكرسة بحكم العرف فقط، ثم معرفة حصة كل قرية ومسميات هذه الأخيرة؛ وكل ذلك يحتاج إلى وقت جد طويل، ما دام يجب العمل مع الأقباط (١٤٦)،

غموض موقف كليبر

وتشير كل هذه الأعمال إلى الغموض البالغ للأسابيع الأخيرة فى حياة كليبر، ومن

الصعب للغاية تحديد نواياه الحقيقية بعد هيليوبوليس. ومن المؤكد أنه يجهز نفسه بوسائل امتلاك جد طويل لمصر. إن جانباً كبيراً من العوامل التي كانت قد قادته إلى الرغبة في الجلاء قد تلاشى؛ فقد جرى القضاء على تفسخ القوات بإحساس كل جندي بأن الإنجليز قد أهانوه شخصياً، والمسألة المالية تجد تسوية لها لعدة أشهر؛ والجيش العثماني قد كف من أن يكون خطراً. وأياً كان رأي كليبر في نظام بونابرت، فإنه يدرك أن النهوض قد بدأ في الأشهر الأخيرة لحكومة الإدارة، وأن بونابرت يملك إمكانات مواصلته وقد عمل بنشاط من جهة أخرى على حشد ولاء جيشه للنظام الجديد :

«أيها الجنود !

«إن مصالح الجمهورية قد جعلت من الضروري تأكيد دستور جديد، وأنا مكلف بعرضه عليكم لقبوله. وأنا أود أن يكون قبولكم إجماعياً وأن تعملوا، بالرغم من المسافة التي تفصلكم عن مواطنيكم، على توحيد آرائكم ومشاعركم وأمانيكم مع آراء ومشاعر وأماني الأمة بكاملها» (١٤٧).

ومع انهيار الاتفاق، يجد جيشه نفسه في استحالة التدخل في أوروبا، في المعارك الكبرى التي تتهيأ للوقوع. إن كليبر محكوم عليه بالبقاء في مصر. وفي بياناته إلى الجيش، لا يتحدث بعد عن العودة، لكنه لا يقدم كذلك أي مؤشر على نواياه في الأجل الطويل. ويشهد حواره الأخير مع مينو إلى دوام تحفظاته. إن قائد رشيد السابق لم يصل أبداً إلى العاصمة بالرغم من مطالبات كليبر الملحة له بالحضور، وهو يرفض الآن عرض تولي قيادة القاهرة. وعندئذ يقترح عليه كليبر تولي قيادة مصر الوسطى؛ ويتكرر الرفض. وهو لا يصل إلى المدينة إلا بعد الاستيلاء على العاصمة. وأمام نفاد صبر كليبر الذي يوضح له أنه، فيما عدا تولي القيادة العامة، لا يعرف ما هو المنصب الذي يمكن أن يقترحه عليه، فإنه يقبل تولي قيادة مصر الوسطى و، كعادته، لا يصل إلى موقعه. على العكس، إنه يستغل إقامته في القاهرة لكي يحول كليبر إلى قبول الفكرة الاستعمارية. وهو يفعل ذلك بشكل بالغ السوء، حيث يصف اتفاق العريش بأنه خطأ سياسي. ويجر على نفسه هذا الرد القاسي من الألزاسي:

«إن ذهولي لا حدّ له لأنني مازلت إلى اليوم لا أعتقد أن اتفاق العريش كان خطأ سياسياً، ولأنني لا أعتقد أن الانتصار الذي أحرزه الجيش يمكن أن يكون موضوعاً للنشوة، ولأنني مازلت إلى اليوم على إيمان بالغ العمق بأنني قد تمكنت، عن طريق هذه

المعاهدة، من إيجاد مخرج معقول من المشروع الأكثر تبذيراً، ولأنني مازلت إلى اليوم على اقتناع بأننا لا يمكننا الأمل في أي عون من فرنسا وبأننا لن نشكل مستعمرات في مصر أبداً، أو على الأقل خلال هذه الحرب، ولو لمجرد أن زراعي القطن وزراعي النخل لن ينتجوا بسرعة جنوداً وبحارة مسيوكاً. [...] وفي جميع الحالات، سننهي عند هذا الحد مناقشاتنا السياسية. إنك، أيها الجنرال، تدير وجهك صوب الشرق، أما أنا، فإنني أدير وجهي نحو الغرب؛ ونحن لن نتلاق أبداً» (١٤٨).

مشاريع سيدني سميث

أمّا سيدني سميث – المتألم لفشل عمله – فإنه يتطلع إلى استئنافه بإعطاء اتجاه إضافي له، إنه لا يمكنه بعد انتظار شيء من الإمبراطورية العثمانية، إن الجانب الرئيسي من قواتها المسلحة قد دمر في معركة هيليوبوليس وفي الأيام التي تلتها. أمّا الجزار، الساخط على إعادة توطيد سلطة الأمير بشير، فإنه يتصرف كملك مستقل ويرفض التعاون مع الصدر الأعظم. بل إنه يبدو مستعداً لإعلان الحرب عليه. وأيًا كان الأمر، فإن الجيش العثماني الكبير نفسه، بسبب عدم انضباطه، ما كان ليقدر على أن يمثل خطراً جدياً بالنسبة للفرنسيين. والحال أن العميد البحري كان قد فكر بالفعل، قبل الهزيمة العثمانية، في العودة إلى فكرته الأولى الخاصة باستخدام جنود جيش الشرق في الصراعات السياسية الداخلية في فرنسا، وما دام بونابارت يتصرف ككرومويل جديد، كديكتاتور جمهوري، فإن كليبر سوف يكون مونكاً ممتازاً، جنرالاً يعيد الملكية (١٤٩). وتستند هذه الفكرة إلى تصريحات كليبر لرسل العميد البحري عشية معركة هيليوبوليس. ويلاحظ سيدني سميث أن الجنرال قد أسقط اسم الشرق من التسمية الرسمية لجيشه إلا فيما يتعلق بخاتمه، وهو يحلل الحالة الذهنية للجيش الفرنسي في اتجاهين: حزب «استعماري» يؤيد إقامة دائمة في مصر، ويستشعر تعززاً بانتصار هيليوبوليس، وحزب مؤيد للجلاء، بحكم الملل من مصر وبحكم الرغبة في الخدمة في أوروبا، حيث تدور المعارك الحاسمة. ومن شأن وصول جنود فرنسيين أن يعزز الاستعماريين. والحال أن العميد البحري لا يملك السفن الضرورية لمنع هذا الإرسال. ومن ثم يجب استئناف المفاوضات مع كليبر (١٥٠).

وتصبح المسألة معقدة بشكل خاص. فمن جهة، ينتاب العثمانيين الغضب مما حدث

فى مصر، ويرون أن استئناف الأعمال الحربية كان حنثاً باليمين من جانب الفرنسيين وخيانة حقيقية، وقد يرفضون أى اتصال جديد مع الفرنسيين. ومن جهة أخرى، فإنه لو جرى استئناف هذه الاتصالات، فلابد من مراعاة أن كل شيء سوف يجرى هذه المرة من غير الإنجليز وأن العثمانيين سوف يقترحون على الفرنسيين جلاءً برياً مصحوباً فى نهاية الأمر بقلب للتحالفات؛ إن جيش الشرق سوف يحارب الروس إلى جانب العثمانيين. ويعرف صيدنى سميث الاتجاه العام للمقترحات التى قدمها كليبر قبل معركة هليوبوليس وهو لا يجهل أن هذه الأفكار تسر أكثر من مسؤول عثمانى. ومن جهة أخرى، فإنه يحاول دون طائل كسب مراد بك إلى صف القضية العثمانية، ويعرف أن القوة التى استمالها الزعيم المملوكى الكبير تزعج الباب العالى إزعاجاً ملحوظاً (١٥١).

القطيعة مع الإنجليز

على أن الصدر الأعظم كان قد سعى، منذ وصوله إلى سوريا، إلى استئناف الحوار مع كليبر، ولكن لكى يطالب، بنبرة تهديدية، بالتطبيق الفورى لاتفاق العريش. وقد أعاد كليبر الرسالة مع التعليق التالى: «حيث إن الرسالة أعلاه غير لائقة فى تعبيراتها وزائفة وبلا معنى فى مزاعمها، ومثيرة للسخرية فى تهديداتها، فليس بالإمكان الرد عليها» (١٥٢). إلا أنه لابد من التحدث ولو لمجرد تسوية حالة الرهائن. فالعثمانيون يحتجزون عدة ضباط من بينهم بودو، مساعد كليبر، والفرنسيون يحتجزون وجهاء عثمانيين، من بينهم مصطفى باشا (١٥٣). ويجرى إرسال هذا الأخير إلى دمياط، لمبادلته، لكنه يموت فى هذا الميناء. وسوف يدفن هناك بمظاهر التكريم العسكرى من جانب الفرنسيين. والحال أن مسألة التبادل هذه سوف تتأجل كذلك لبعض الوقت قبل أن يتسنى تحقيقها.

وعلى الرغم من أن كليبر يعترف لسيدنى سميث بأمانة مسلكه، فإنه يقرر عدم الحفاظ على الاتصالات مع الإنجليز، أو على الأقل، الحد من هذه الاتصالات قدر الإمكان. وعندما يبلغ اللورد كيث كليبر بأنه قد حصل على تصريح بالسماح بانتقال الجيش الفرنسى إلى أوروبا، فإن الأمر يصل بكليبر إلى حد عدم الرد. ويعزز من هذا الموقف الاكتشاف الذى يتم فى دمياط لأوراق موريبه، التى تركها هذا الأخير وراءه، بعد معركة هليوبوليس. ففى تلك الأوراق يشار فى عدة مواضع إلى مشروع «الخدعة الحربية» الذى لا يمكن أن يكون غير أسر الفرنسيين خلال جلائهم عن طريق البحر. ويجرى نشر هذا

النص في صحيفة لوكوريبه دوليجيبت مع الإشعار بأن أي شخص يجيء من طرف موربيه إلى جيش الجمهورية سوف يعتبر جاسوساً ويشنق على شجرة. والشيء نفسه سوف يحدث له إذا ما جاء هو نفسه (١٥٤). والحال أن موربيه كان قد كلف من جانب اللورد إيلجين بتوضيح أنه لم تعد هناك عقبة أمام تنفيذ اتفاق العريش. والإشعار واضح ويأسف سيدني سميث لرفض كليبر (١٥٥). وفي أوائل يونيو، يحاول العميد البحري استئناف الاتصال ويرسل الملازم رايت إلى الإسكندرية للتحدث مع كليبر. على أن لانوس الذي يقود الميناء يحظر عليه الذهاب إلى القاهرة ويعيده إلى الأسطول الإنجليزي (١٥٦).

المفاوضات مع العثمانيين

على أن كليبر يحرص على الحفاظ على علاقات مع العثمانيين. وهو يخشى من عودة هجومية لجيش الصدر الأعظم. وعندما تشير معلومات إلى وجود حشود عثمانية في سيناء، فإنه يرسل رينييه مع تعزيزات إلى شرق الدلتا (١٥٧). لكن ذلك ليس غير إنذار زائف. وبعد ذلك بوقت قصير، يضطر سيدني سميث إلى التخلص من حصار الإسكندرية لإعادة تزويد السفن بالمؤن ولإجراء بعض الإصلاحات. ويحل محله الأسطول العثماني، الذي يقوده القابودان باشا. لكن هذا الأخير معاد لسيدني سميث الذي يعتبره مسؤولاً عن الكارثة العثمانية الأخيرة. وتبدو هذه الحركة مزعجة ويقرر كليبر الوجود بنفسه مع تعزيزات في منطقة الإسكندرية. وبما أن رينييه لم يك قد عاد بعد إلى العاصمة وبما أن مينو لم يك قد ذهب أبداً إلى موقعه في مصر الوسطى، فإن كليبر يعهد إلى الثاني بقيادة القاهرة (٢ يونيو ١٨٠٠)، مع أمره بالتنسيق مع رينييه حول التدابير التي يجب اتخاذها عندما يعود. والواقع أن نية الأميرال العثماني مختلفة تماماً، فهو هناك من أجل بدء مفاوضات مستقلة عن المفاوضات التي يضطلع بها الصدر الأعظم من جانبه من أجل تطبيق اتفاق العريش (١٥٨). وفي أول يونيو، يرسل القابودان باشا إلى البر، إسحق بك، صديق سليم الثالث في شبابه، والذي اعتاد التردد في السابق على بلاط فرساي.

وما أن يعرف مينو الخبر حتى يبلغ كليبر بأنه قد سمع عن إسحق بك من صديقه السابق، شوازول – جوفييه، السفير الأخير للملكية في القسطنطينية. فهذا الموظف العثماني الكبير، وهو أحد أول المتكلمين (العثمانيين) بالفرنسية بطلاقة، هو وصولي

خطير سار، بعد أن كفلت له فرنسا معاشاً، في أثر شولسول - جوفيه في خدمة روسيا(١٥٩). ويطمئن كليبر مينو على اللورد إنه يعرف منذ وقت بعيد سمعة «إسحق بك، الشديد الود والشديد التأمر». إنه لن يجد هذه المرة الفرصة «لاستخدام صيغه الجميلة وبلاغته المفرية» (١٦٠). إلا أنه يبدو من الواضح أن كليبر ينوى استئناف المفاوضات؛ وهدفه هو إجراء مراسلات مع القسطنطينية، سعياً إلى تحريك الريبة فيما بين الإنجليز والعثمانيين وإلى التوصل إلى الفوز بحياد الإمبراطورية العثمانية إلى حين عقد الصلح الشامل (١٦١).

مصرع هليوبوليس

في الوقت الذى يسبق انهيار اتفاق العريش، تصدى لعدة مسؤولين فرنسيين مغادرة مصر. وهكذا فإن دوجا قد عاد إلى فرنسا، وكذلك بوسيلج، بعد مهمتهما لدى اللورد كيث. أما ديزيه فقد رحل هو الآخر، بناء على تعليمات من بوناپارت، مع حاشيته القاهرة في ٣ مارس ١٨٠٠. ويعد لعتراض الأسطول الإنجليزى لسبيله، عومل معاملة فظة من جانب اللورد كيث الذى اعتذر عنه في نهاية الأمر، بسبب القبول المتأخر للاتفاق من جانب الحكومة البريطانية. وهو ينزل في طولون في ٥ مايو، ويقضى مدة طويلة في الحجر الصحى ثم يصل إلى مقر القيادة العامة للجنرال بوناپارت في إيطاليا، في ١١ يونيو. ويعهد إليه القنصل الأول بقيادة فرقتين، تشكلان قوة منفصلة عن بقية الجيش الفرنسى. وفي صباح ١٤ يونيو ١٨٠٠، فإن بوناپارت، الذى لا يصدق وجود الجانب الرئيسى للقوات النمساوية، لم يك قد بدأ بعد حشد القوات الفرنسية، وعندئذ يتم الهجوم عليه في مارينجو. وفي أوائل ما بعد الظهر، يضطر الفرنسيون إلى التقهقر بنظام جيد، أمام مطاردة جد فاترة من جانب النمساويين. لكن ديزيه، الذى سمع دوى المدافع، يصل مع رجاله. ويقرر مجلس حربى سريع أن جنود ديزيه، مدعومين بمدفعية مارمون والقوات التى أمكن إعادة تشكيلها في ترتيب قتالى، سوف يخوضون معركة مؤخرة تهدف إلى السماح بإفلات الجيش الفرنسى. والحال أن ديزيه بمشاته، وكيلرمان بفرسانه، يهجمان باندفاع على الجيش النمساوى الذى لم يتوقع مثل هذا الانقلاب. وتتحول الهزيمة إلى انتصار غير متوقع. ويلقى ديزيه مصرعه في بداية المعركة، لكن سلطة بوناپارت التى كانت حتى تلك الحين مزعزعة، تصبح الآن راسخة بشكل حاسم (١٦٢).

اغتيال كليبر

فى اليوم نفسه، وتقريباً فى تلك الساعة التى يظهر فيها نيزيه فى ساحة معركة ماريجو، فإن كليبر، الذى يتنزه فى حدائق مقر القيادة العامة بالقاهرة مع المهندس المعمارى بروتان، يرى فرداً يقترب منه. ولما كان قد حسبه صاحب التماس، فإنه يمد إليه يده. وعندئذ يجرى طعنه هو ورفيقه عدة طعنات بسكين. ويندفع جنود الحراسة الذين استنفرتهم الصرخات ويجدون قائدهم العام مشرفاً على الموت (١٦٣). وينتشر النبأ فوراً فى القاهرة. ويخشى السكان من مذبحة شاملة، انتقاماً من الاغتيال، بينما يتصور الفرنسيون أن الاغتيال هو إشارة لبدء انتفاضة جديدة. ولحسن الحظ يتم العثور على القاتل الذى كان قد لاذ بحديقة مجاورة. وهو حلبى اسمه سليمان. ويجرى على الفور التحقيق معه وتعذيبه على يد بارتليمى الذى يحصل على كل حقائق المسألة.

لقد تصرف الرجل بمفرده. وقد اكتفى بكشف مشروعه لمشايخ من الأزهر حاولوا ثنيه عنه دون أن يقوموا مع ذلك بإبلاغ السلطات الفرنسية. ويجرى دعوة الشيخين الشرقاوى والعريشى إلى الاجتماع فوراً وتصدر إليهما الأوامر بالتحرك لإلقاء القبض على عدد من الأزهريين. وتجتمع محكمة عسكرية فى ١٥ و ١٦ يونيو، وتحكم على الحلبى بقطع زنده، وبخوزقته علناً. ولا يحق للأزهريين غير الاكتفاء بقطع رؤوسهم. والحال أن الجبرتى، وهو يحرر النسخة الأخيرة من حولياته فى عصر فتن وأعمال تدمير، سوف يعلن الجانب النموذجى للإجراءات التى اتبعها الفرنسيون؛ إن هؤلاء الناس الذين لا يسترشدون إلا بالعقل، قد سلكوا مسلكاً أكثر لياقة وأكثر عدلاً من مسلك المسلمين المزعومين الذين يخربون مصر. وخلافاً لبعض التعليقات، فإن ذلك لا يعنى تأكيداً لتفوق العقل على الوحى الإسلامى، بل هو مجرد إدانة أدبية لأولئك الذين يحكمون مصر فى وقت التحرير النهائى للحوليات (١٦٤).

ومع مصرع البطل، يطلق المدفع طلقة كل نصف ساعة. وفى صباح ١٧ يونيو، تعلن سلسلة من طلقات المدفعية الصادرة من القلعة ومن مختلف الحصون بداية المراسم الجنائزية. والحال أن الجثمان، الذى يجرى نقله على عربة مغطاة بمفرش مخملى أسود موشى بعبرات فضية، والمحاط بمجموعة من الأسلحة تذكاراً للنصر وبخوذة وبسيف الجنرال، إنما يخترق أولاً شوارع القاهرة ثم يتوجه إلى مزرعة إبراهيم بك فى مدخل الحى الأوروبى خارج المدينة. ويتلو فوربيه التأبين، ثم يتتابع الجيش، وهو يضع أكاليل الغار

والصدوير. وبعد الدفن، يتحرك الحاضرون لمشاهدة مقلب إعدام القاتل. ويجرى البدء بقطع رؤوس للشايخ المرتصين، ثم يحرق بارتيليمى زند القاتل ويتجه إلى خوزقته. ويتصرف الحلبى بشجاعة، مردداً الشهادتين وآيات من القرآن. ويمج الحاضرون المشهد بسرعة ويتفرقون. على أن الحلبى يحيا مع ذلك أربع ساعات. والحال أن جنديا فرنسيا شفوقاً، ما إن يغادر الجميع المسرح، يناول الشقى كأساً ليشرب منه بما يعجل، وهو على علم بالسبب، بموته فى الحال.

وهذه الطقوس الغريبة، حيث تجتمع المهابة الكلاسيكية الجديدة للأبطال القتلى فى سبيل الوطن مع الشعائر الإسلامية، من المرجح أنها آخر تجلٍ جنائزى للجمهورية. فبرحيل كليبر، يختفى مفهوم جمهورى معين عن الوطنية والثورة. وبالنسبة له، فإن صعود بوناپارت ليس هو سبب انهيار النظام، بل هو عرض من أعراضه. وشأنه فى ذلك شأن كثيرين من الجمهوريين المخلصين والمتقززين، كان قد وصل إلى تمنى تجربة ملكية ليبرالية ودستورية.

وبما أن الروح العلمية لا تغيب أبداً، فإن لارى ينجح فى أخذ جثمان سليمان الحلبى لضمه إلى مجموعته. وعلى مدار سنوات سوف يجرى عرض جمجمة قاتل كليبر على طلبة الطب سعيا إلى تمكينهم من رؤية علامة الجريمة والتعصب، قبل أن تنتهى إلى متحف الإنسان (١٦٥).

حواشي الفصل السابع

١ – *Kléber et Bonaparte...,* II, pp. 506 - 508 .

٢ – من هنا منف رسالته إلى بونابارت والمؤرخة في ٢٦ أغسطس ١٧٩٩ : «أمن الممكن أنك لم يكن لديك ما يكفي من الثقة في أحد ممن تركتهم هنا لكي تقول لهم إنك تتركهم هنا وأن الأحوال في أوروبا قد فرضت ذلك ولو؟ إن جميع أولئك الذين جاءوا إلى هنا لم يفعلوا ذلك إلا لأنك كنت قائد الحملة وأنهم بسبب تعلقهم بك قد ضحوا أيضاً بأعز ما لديهم وذلك دون إبداء شكوى. إن الأمل في رؤية عائلاتهم من جديد، وصحتك وهربك قد أصابهم باليأس لأنك لم تقدم مبررات لذلك. لقد كان بوسعك أن تفعل ذلك وأنا على ثقة من أن ذلك كان واجباً عليك». B6 100

٣ – Capitaine de LA GREVERIE, *L'armée d'Orient sous Kléber*. Cet officier avait été désigné aprés la mort de La Jonquiére pour continuer la grande entreprise. Ce travail a été certainement interrompu par la guerre mondiale. On ne dispose que d'une étude préliminaire, concernant les deux premiers mois, parue dans la *Revue d'Histoire Rédigée àl'Etat - Major de l' Armée*, en 1911 et 1912. l'auteur y marque un intéret plus grand pour la psychologie des personnages que La Jonquiére, qui était plus intéressé par une stricte érudition militaire. On ne peut que regretter l'inachévement de cette entreprise. Citation de Dugua, 1911, p. 186.

٤ – MIOT (pp. 270 - 271). يرصد ميو جيداً المراحل المختلفة لردود فعل الجيش على رحيل بونابارت : «لقد كانت ثقتنا فيه جد عالية بحيث إننا رأينا أننا قد كتب علينا الموت في أفريقيا، عندما علمنا أنه قد أبحر من الإسكندرية. تلك هو الانطباع الأول الذي تركه لدى الجيش رحيل القائد العام. وسوف يحل مزاج سيىء بعد الأسف وسوف يصبح هذا المزاج عاماً. لقد تذكر البعض ما قاله عندما علم بضياع أسطولنا وأخذوا عليه فصله مصيره عن مصير الجنود الذين فعلوا كل شيء من أجل مجده؛ وسعى بعضهم الآخر إلى إيجاد عذر له بالحديث عن دوافع القوية لرحيل جد سري وجد سريع إلى هذا الحد: إن شواغل عظيمة هي وحدها التي يمكن أن تكون قد دفعته إلى ترك مصر؛ لقد ذهب لإنقاذ فرنسا ، لكن بعض الأشخاص الأكثر ذكاءً رأوا أن لديه غايات طموحه، على أن الجميع، من خلال تأمل لموقفنا السابق، قد اتهموه بنكران الجميل وبسوء النية. وتلك هي مسيرة الذهن الإنساني، فهو بعد أن يستنفد جميع السياقات الأكثر انفعالاً للإيجابية، جميع إمكانيات مستقبل محزن، يتعلق تعلقاً ملحاً بالهسيس الأكثر خلوداً لأمل غالباً ما يكون كاذباً. وهكذا فإن الأمل في تغيير مؤات في فرنسا والأمل الأكثر خداعاً أيضاً في سلام قريب وكريم قد أديا شيئاً فشيئاً إلى تهدئة القلق الذي كنا فيه. لقد وعدنا بونابارت بعون عاجل، وقد اعتمدنا على ذلك مراهنين على الأهمية التي لابد وأنه سوف يوليها للحفاظ على فتحه.

وأخيراً، فإن اسم كليبر قد أنهى همهمة الضباط الأكثر انزعاجاً؛ لقد كان يحظى بالاحترام والثقة من جانب الجنود، ولقد كان أهلاً لهما.

٥ – Kléber á l'armée, Le Caire, le 14 fructidor an VII (31 août 1799), ROUSSEAU, *Kléber et Menou en Egypte depuis le départ de Bonaparte,* Paris, 1900, p. 8 .

٦ – Ordre du Jour du 19 fructidor an VII (5 septembre 1799), ROUSSEAU, p. 14.

٧ – Kléber aux membres du diwan du Caire, le 17 fructidor an VII (3 septembre 1798), ROUSSEAU, p. 10.

٨ – JABARTI, 29 rabi al awwal 1214.

٩ – WIET, p. 83.

١٠ – *Courrier de l'Egypte,* le 10 vendémiaire an VIII.

١١ – "Les finances de l'Égypte pendant l'occupation francaise", *La Revue Britannique,* 1882, pp. 437 - 497.

١٢ – Kléber àl'ordonnateur en chef, le 3 vendémiaire an VIII (25 septembre 1799), B6 113.

١٣ – JABARTI, 7 jumada al ula 1214

١٤ – Textes dans ROUSSEAU, pp. 31 - 34. في ٢٢ فروكتيدور، اعتبر كليبر بالفعل الصرافين والوكلاء الماليين مسؤولين مالياً عن جميع تحويلات الأموال (PP. 24 - 25) .

١٥ – Ordre du jour du 30 fructidor an VII (16 septembre 1798), ROUSSEAU, pp. 41 - 42.

١٦ – Ordre du jour du 2e jour complémentaire an VII (18 septembre 1799), pp. 52 - 53.

١٧ – Ordre du jour du 2 frimaire an VIII et *Courrier de l'Égypte* du 10 frimaire an VIII (1er décembre 1799).

١٨ – ١٩ فروكتيدور من العام السابع (٥ سبتمبر ١٧٩٩). إن فريان، الذي ولد في عام ١٧٥٨، كان قد قام بخدمة عسكرية أولى في ظل النظام القديم، ثم دخل الحرس الوطني. ولقد خدم على الراين ثم في إيطاليا. وسوف يخوض جميع الحملات الإمبراطورية حتى ووترلو .(*Dictionnaire Napoléon*).

١٩ – *Histoire Scientifique,* VI, pp. 411 - 413. Kléber au Directoire, le 25 Brumaire an VIII (16 novembre 1799), ROUSSEAU, p. 114.

٢٠ - Je l'ai publiée en l'annotant dans *Kléber et Bonaparte*, II, pp. 515 - 532.

٢١ - Cela constitue tout le tome III des *Copies of Original Letters from the French Army*, Londres, 1800.

٢٢ - لم *Courrier de l'Égypte* du 9 brumaire an VIII (31 octobre 1799). يصل رسل إلى مصر في تلك الفترة. ومن ثم فلم يكن بالإمكان تقديم الصحف إلا من جانب الإنجليز، وهو ما يتطابق تماماً مع استراتيجية تدمير المعنويات التي ابتدعها سيدني سميث. ومن جهة أخرى، فإن كليبر يكتب إلى مينو في ٢٦ أكتوبر أنه قد تلقى للتو الصرة التي تضم رسائل جون كيث الخاصة باتفاق تبادل الأسرى (ROUSSEAU, p. 100).

٢٣ - B6 110, Dugua á Lagrange, le 16 vendémiaire an VIII (8 octobre 1799).

٢٤ - إن [فيردييه] الذي ولد في عام ١٧٦٧، ودخل الخدمة في عام ١٧٨٥، قد خدم في جيش البيرينيز، ثم في جيش إيطاليا. وسوف يكون ملازماً من مورا وسيقضي جزءاً كبيراً من خدمته التالية في إيطاليا فيما عدا مشاركة في حرب إسبانيا ومشاركة أخرى في حملة روسيا. (*Dictionnaire Napoléon*). وكانت زوجته من أصل إيطالي، ومحبوبة من جانب الجنود، خاصة خلال حملة سوريا. وقد زعم البعض أنها كانت عشيقة لكليبر في مصر.

٢٥ - على سبيل المثال B6 31, 16 et 21 septembre 1799, رسائل زعيم عرب العريش، قاسم يعقوب، إلى زعيم عرب الملقا، حسن طوبار، وفرمان الباب العالي ضد الفرنسيين. إن مضمون النص هو مضمون النصوص السابقة: «إن الفرنسيين هم أعداء المسلمين والمسيحيين، ولا يجب الانسياق لكلامهم المعسول. وإن الجيش الذي لا يقهر والجرار الذي يقوده الصدر الأعظم سوف يخلص مصر قريباً».

٢٦ - B6 133، كليبر إلى فيردييه، ٢ برومير من العام الثامن (٢٤ أكتوبر ١٧٩٩): «إن حسن طوبار يلهينا بقصاصات ورق تافهة يقدمها إلينا على أنها رسائل مهمة ويطلب تصاريح بتصدير بعض الأمتعة، في حين أنني على يقين من أن القوافل التي تذهب إلى سوريا تعمل كلها تقريباً لمصلحته. إلا أنه يجب التحلي بالصبر والاستفادة من الرجل لعدم وجود بديل أفضل. لا تسمح إذن بانكشاف شيء».

٢٧ - انظر FO 78 24 : Minutes du conseil de guerre tenu á bord du vaisseau de sa Majesté Britannique le Tigre, á l'ancre devant Limassol, le 8 octobre 1798. إن تروملان (بروملي) هو الذي يلعب دور الرسول بين سيدني سميث والصدر الأعظم في دمشق. وكان على سيدني سميث أن يهدئه في الأيام التالية عصبياً من جانب الإنكشارية الذين اغتالوا باترونا بك، لمسؤوليته عن هزيمة أبو قير (FO 78 24 : Sidney Smith au Caimecam Pacha le 10 octobre 1799).

٢٨ - سيدني سميث إلى نيلسون، ٨ نوفمبر ١٧٩٩ : «إن إقناعهم بأن انتصارات

كالانتصارات على قوات سوف تتقاتل معهم قتالا تلاحميا، بالرغم من أنها غير نظامية، لابد وأن تكلفهم غاليا في نهاية الأمر، هو حقيقة أسمى، بطبيعة الحال، إلى إضطرارهم بها من أجل حثهم على التصالح مع الجلاء دون مزيد من إراقة الدماء، BARROW, I, p. 379.

٢٩ – Bonaparte avait proposé la désignation de Berthier, mais Monge s'y était opposé en rappelant les railleries de ce dernier savant. Pour ne pas vexer son chef d'état - major, Bonaparte avait envers les alors décidé de ne désigner aucun général de division (GOBY, *Le Premier Institut d' Égypte...*, pp. XIII - XIV).

٣٠ – *Kléber et Bonaparte...*, II, p. 504.

٣١ – *Histoire Scientifique...*, VI, p. 435.

٣٢ – Note concernant le jeune Ibrahim Sabbach par Fourier, secrétaire de l'Institut, mars 1800, B6 42.

٣٣ – Notre Ibrahim Sabbagh doit etre le Mikhail Sabbagh auteur de cette biographie, voir Abdul Karim RAFEQ, *The Province of Damascus*, Beyrouth, 1966, p. 331.

٣٤ – *Histoire Scientifique...*, VI, pp. 417 - 418 et *Courrier de L' Egypte*, 10 frimaire an VIII et 10 nivôse an - VIII (31 décembre 1799).

٣٥ – Kléber au président de la commission, le 4 frimaire an VIII (25 novembre 1799), ROUSSEAU, p. 122.

٣٦ – Kléber au président de l' Institut, le 1er frimaire an VIII (22 novembre 1799), ROUSSEAU, pp. 123 - 124.

٣٧ – HAMELIN, " Douze ans de ma vie", *La revue de Paris*, novembre - décembre 1926, pp. 830 - 831 : «إن هؤلاء السادة (العلماء) الذين انهالت عليهم الغنيمة التي كانوا معتزين بها من حق، كانوا يحيون في حذر متواصل أحدهم من الآخر وكانوا يرفضون تبادل بحوثهم فيما بينهم. وقد قال لهم فورييه دون طائل إن هذه الأعمال المبعثرة لا تصمد للنشر وأن من الضروري جمعها وتنسيقها حتى يتسنى تحويلها إلى هيكل عمل كبير عن مصر. والحال أن الجنرال كليبر الذي كان يرى الرأي نفسه قد جمعهم عدة مرات عنده دون أن يتمكن من التوصل إلى شيء حاسم؛ وفي نهاية الأمر، خطر له أن يقترح عليهم أن أكون ناشراً لهذا العمل المهم. وقد وافقوا على ذلك، وأرسل الجنرال في طلبي. وجرى الاتفاق على عقد اتفاق يدخل فيه كل واحد من زاوية أهمية ومساحة أعماله. وكان هذا التقييم هو النقطة الأصعب. إلا أنه بفضل قوة كلام الجنرال، أمكن التغلب عليها. وقد تعهدت بتقديم الأموال اللازمة وخصص لكل واحد جزء من الأرباح يتناسب مع العمل الذي سوف يسلمه إليّ في فرنسا. وقد وقع الجميع على هذا الاتفاق كما وافقت عليه». توجد نسخة من الاتفاق في (B6 62) .

٢٨ – *Courrier de l'Égypte*, le 3 pluviôse an VIII.

٢٩ – M. A. E., *Correspondance politique, Turquie*, Vol. 201 et BOULAY DE LA MEURTHE, *Le Directoire...*, pp. 215 - 217.

٤٠ – Détail de toutes ces mesures dans Jean THIRY, *L'aube du Consulat*, Paris, 1948, pp. 235 - 239.

٤١ – B6 111, Registre secret du général Kléber (contient toutes les piéces de la négociation dont un grand nombre d'inédites, sauf indications contraires, je renvoie á ce registre), le 5e jour complémentaire an VII (21 septembre 1799).

٤٢ – FO 78 24, Extrait du rapport du Capigi Bashi Ali Aga, Haznadar de Moustafa pacha, ci - devant seraskier d' Ahranone (?) et aujourd'hui prisonnier au Caire, envoyé au camp impérial avec des lettres.

٤٣ – B6 111, Kléber á Menou, le 12 vendémiaire an VIII (4 octobre 1799).

٤٤ – B6 111, Notes de la conférence tenue le 20 vendémiaire an VIII (12 octobre 1799) entre le général Kléber et l'Effendi Mahmed Ruchdy en présence du citoyen Poussielgue, administrateur général des finances, et de Moustafa Pacha, le citoyen Brasewich ayant servi d'interpréte.

٤٥ – FO 78 22 ، سيدني سميث إلى سبنسر سميث، ٢٠ أكتوبر ١٧٩٩ : «أرجو أن تراقب الوزارة الجليلة دسائس الفرنسيين عن قرب حيث إنهم يستأنفون الآن تظاهراتهم الغادرة الأولى بالإسلام مع أن بوسعي أن أؤكد واثقاً أن معظمهم لا دين له. أما وأن الحال كذلك، فإنني أحاول إبعاد المسيحيين منهم بتحريرهم من الخديعة لهم يدعون الأمور تمر عندما تأخذ الحرباء لون الأرض. وأرجو أن أكون قد نجحت في إبعاد كل أنصارهم عنهم بين مسيحييّ جبل لبنان والقدس ويمكنني الزعم بأن ولاءهم وإخلاصهم للسلطة الشرعية سوف يتميزان بالثبات والاستمرارية إذا ما وافق صاحب الجلالة الإمبراطورية على الإلتماس لرجائي بأن يشمل برعايته هذا النوع من رعاياه، بحيث يتم منع مظالم ووحشية الولاة المعينين الذين يتهكمون الفرمانات الخيرية التي أصدرها لأجل راحتهم. إن قانون وتاريخ المسيحيين ليسا غير معروفين للوزارة العليمة والجليلة، إنهما يوصيانهم بالتحلي بالصبر وبطاعة حكومة البلد الذي يسكنونه وأنا على ثقة من أنه لا يمكن لشيء سوى التكبير أن يدفعهم إلى اشتهاء نير كالنير الفرنسي بديلا عن الحكومة الأبوية للإمبراطور السلطان سليم الأكثر عدلا والأكثر شهامة».

٤٦ – FO 7823, Franckini á Sidney Smith le 27 octobre et Sidney Smith á Spencer Smith le 9 novembre 1799.

٤٧ – Dominique CHEVALLIER, *La société du Mont Liban...*, p. 96.

يشير إلى أهمية دور سيدني سميث في هذه المسألة وأثر هذا العمل على المدى الطويل ، إنه سوف يكون عنصراً تاريخياً مبرراً لمطالب إقليمية في عصور تالية.

Quand Kléber parle de préliminaires de paix bien qu'Il ne soit pas – ٤٨
mandaté par le Directoire, il a á l'esprit le précédent de Leoben oú en avril 1797, Bonaparte, en même temps qu'un armistice avait conclu des préliminaires de paix sans en avoir recu les pouvoirs du gouvernement.

Gaston WIET a publié en 1945 au Caire le journal du capitaine – ٤٩
Bouchaud (l'inventeur de la pierre de Rosette rédigé en 1805 sur la prise d' El Arich. Il l'a complété d'un certain nombre de piéces. Il faut y ajouter le récit du commandant du fort, Cazals (B6 38), les dépéches de Tromelin et du colonel Douglas á Sidney Smith (FO 78 23) et une traduction en francais d'un journal de marche d'un membre de l'entourage du Grand Vizir (FO 78 29). On posséde rarement autant de documents sur un événement de ce genre.

٥٠ – B6 36 ، دوجا إلى كليبر، 4 نيفوز من العام الثامن (٢٥ ديسمبر ١٧٩٩) : «علمت مساء البارحة عند عودتي إلى منزلي من المواطن سلسيدا، حارس مستودع اللحوم، أن شخصاً غير معروف له قال في المقهى أمامه وأمام المواطنين أيميني ويوبجو أن الفرنسيين الذين تُركوا في يافا قد انضموا إلى الأتراك للزحف ضدنا، وأن عددهم أربعمائة وأنه قد جرى تجنيد فرنسيين للعمل لحساب المماليك». وفي اليوم التالي، تسمح عمليات تفتيش بإلقاء القبض على عدد من الفرنسيين الفارين والمصريين الذين يوفرون لهم المأوى. ويكتب كليبر في اليوم نفسه إلى دوجا أمراً بقطع رؤوس المصريين وبتحويل الفارين إلى مجلس حربي وأنه قد توصل بنفسه إلى «اكتشاف مؤامرة أخرى ليست أقل أهمية وأكثر سرية». ويشتبه في أن رونيتي يريد الدخول في اتصال مع الإنجليز ويتلقى تحذيراً بشأن علاقاته الاجتماعية (بلماس إلى دوجا، ١٩ نيفوز – ٩ يناير ١٨٠٠). ومن المؤكد أن حالات الفرار تصبح كثيرة في تلك الفترة. وسوف تشكل أساس جماعة «المماليك الفرنسيين» الذين سوف يلعبون دوراً معيناً بعد عام ١٨٠١.

Kléber au général Desaix et au citoyen Poussielgue, Au quartier – ٥١
général de salahieh, le 29 nivôse an VIII (19 janvier 1800).

B6 36, Dugua á kléber, le 15 nivôse an VIII (5 janvier 1800. – ٥٢

B6 38, Friant á Kléber, le 2 nivose an VIII (23 décembre 1799). – ٥٣

B6 38, Tallien á Kléber, le 10 nivôse an VIII (31 décembre 1799). – ٥٤

٥٥ – Kléber á Desaix et Poussielgue, le 13 nivôse an VIII (3 janvier 1800).

٥٦ – Sans date, Desaix á Kléber, *Histoire Scientifique*..., VII, pp. 15 - 16.

٥٧ – Rousseau, pp. 190 - 191.

٥٨ – *Histoire Scientifique*..., VII, pp. 72 - 73. للموقعون هم سانسون، سونجى، روبين، دانو، لاجرانج، رامبون، فريان، رينييه، دامس، كليبر ودور، سكرتير للمجلس.

٥٩ – Voir en particulier son article "La Convention d'El Arich", *Revue d'Histoire Diplomatique*, XXXVII (1923), pp. 48 - 88 et 304 - 347.

٦٠ – DESGENETTES, *Souvenirs d'un médecin*... , p. 32.

٦١ – A Auguste Damas, le 25 pluviose an VIII (14 février 1800). La copie qui se trouve en B6 41 porte en marge une annotation du général Damas évidemment postérieure : lettre du général Desaix au général Bonaparte d' Alexandrie le 2 ventose pour s'excuser d'avoir signé le traité dEl Arich, faire sentir la différence de cette lettre avec celle par laquelle le général Kléber écrivait dans le même temps sur le même sujet telle que la réponse ci - jointe.

٦٢ – *Kléber et Bonaparte*..., II, pp. 556 - 557.

٦٣ – نشر أولار في كتابه *Paris sous le Consulat,* تقارير الشرطة. ونجد بينها في ٢٥ جيرمينال (١٥ أبريل ١٨٠٠) :

«إن بعض متحزبى الجنوب، اللاجئين في باريس، يبدو أنهم بحاجة إلى زعيم لحشد متهوسى وساخطى المديريات الجنوبية. وقد تطلعوا بأبصارهم إلى الجنرال كليبر و، دون أن يعرفوا رأيه، يقولون إن بلادهم سوف تزوده بثلاثمائة ألف رجل للإطاحة بالحكومة الحالية» (I, P. 269) ؛ وكذلك في ٦ فلوريال من العام الثامن (٢٥ أبريل ١٨٠٠) :

«إن المرجفين الذين يرون أن بوسعهم أن يجدوا في الأقوال الغامضة التي يتلوه بها العمال الذين بلا عمل، دلائل على الاستعداد للحركة، يلمحون إلى أن جيش مصر سوف يرجع جد ساخط، خاصة الضباط، وإنه قد انعقد مجلس حربي بعد رحيل الجنرال بونابرت، برئاسة الجنرال كليبر، تقرر فيه أن هذا الرحيل فرار» (I, p. 292).

٦٤ – إن غياب معلومات بشأن مشروع عودة أسطول بريست إلى البحر المتوسط دال بالنسبة للسرعة التي جرى بها إرسال لاتور – موبور. وقد قام أموري فيفر دلرسيه بإعداد قائمة بالسفن المرسلة إلى مصر بعد ١٨ برومير حتى نهاية الحملة. ومن بين إجمالي ٤٢ سفينة قبل أغسطس ١٨٠٠، لم يرحل إلا سفينتان في يناير ١٨٠٠. ولا يدل ذلك على افتقار للاهتمام من

جانب القنصل الأول، فالسفن الـ ٤٠ التي ترحل بعد ذلك في أقل من سنة توضح ذلك تماماً، بل يدل على العجز الذي يواجهه عن إرسال رسائل، ولا حتى تعزيزات، في الفصل الأنسب لاختراق الحصار الإنجليزي، والأصعب بكثير دائماً على مواصلته خلال الشتاء، *Réflexions sur la perte de l'Egypte, 1798 - 1801*, maîtrise, paris I, 1985 (bibliothéque Albert Soboul), pp. 192 - 194.

٦٥ – Kléber au ministre de la guerre Berthier, le 16 ventôse an VIII (7 mars 1800).

٦٦ – Kléber au général Clarke, directeur du dépot de la guerre, le 16 ventôse an VIII (7 mars 1800).

٦٧ – B6 42، ٢٨ فينتوز (١٩ مارس ١٨٠٠). لا يجري الهجوم على كليبر بالاسم. ويجري إلقاء المسؤولية الرئيسية على كاهل إدارة الأقباط الذين حالوا دون الاستفادة من ماليات مصر. وقد أدخل بونابارت إشارات وعمليات شطب على النص.

٦٨ – FO 78 23.

٦٩ – FO 78 28, sans date mais début de l'année 1800.

٧٠ – BARROW, I, p. 381 : «عندما أعلن السير سيدني سميث خبر تعيين اللورد إلجين للصدر الأعظم، انتابه الأسى الشديد لاستبدال صديقه وتساءل : «ولكن لماذا يجب أن يكون هناك أي تغيير ؟ لقد سارت الأمور بيننا على خير ما يرام؛ سارت الأمور على خير ما يرام». وقد أبلغه السير سيدني أن السفير المعين الجديد هو من كبار ملاك الأرض في اسكتلنده، وأنه يتمتع بنفوذ قوي وأن الحكومة الإنجليزية قد اعتادت إرضاء مثل هؤلاء الأشخاص، بتعيينهم في مناصب رفيعة، وهو الحل شيء يمكنها تقديمه. وعندئذ قال الصدر : «آه ! يمكنني أن أفهم من ذلك إذاً أن حكومتكم لها أيضاً زعماء جبالها الذين يتعين عليها إرضاؤهم».

«ثم سأل عن اسمه؛ ما هو الاسم. وذكر له سير سيدني الاسم بالعربية، فقال : «أوه ! لكن إلجين اسم سيئ جداً – إنه «الجن» – إنه الشيطان. كيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن ترسل إلينا شخصاً كهذا ». وكان «بكوات الجبال» (ديريبكوات) أعيان ولايات تحرروا عملياً من سلطة الباب العالي في الأناضول.

٧١ – FO 78 23.

٧٢ – A Lord Elgin, d'El Arich le 18 janvier 1800, FO 78 29.

٧٣ – CHARLES - ROUX, *La Convention d'El Arich*..., pp. 305 - 309.

١ – كانت أسرة موريه مستقرة في أزمير. وقد احتل إيزاك موريه هناك منصباً). وكان له أربعة أبناء من بينهم سكرتير إلجين وجيمس جوستينيان، مؤلف الكتاب اجي بابا. انظر Georges KROTKOFF, "Hammer - Pugstall, Hajji Baba

and the Moriers", *International Journal of Middle East studies*, XXIX (1987), pp. 103 - 108.

٧٥ – Sidney Smith á Lord Elgin, le 20 février 1800, BARROW, II, pp. 19 - 23.

٧٦ – على سبيل المثال، رسالة نيلسون إلى سيدني سميث بتاريخ ١٨ مارس ١٧٩٩، بشأن منح تصاريح سفر للفرنسيين لمغادرة مصر: «إن هذا يتعارض تعارضاً مباشراً مع رأيي والذي يتمثل في عدم السماح لأي فرنسي بمغادرة مصر. ولذا فإنني أجد لزاماً على أن أكلفك وأن أصدر إليك الأمر بألا تمنح أية سفينة فرنسية أو أي رجل فرنسي تصريحاً بمغادرة مصر» *Letters From Lord Nelson*, compiled by Geoffrey Rawson, Londres, 1949, p. 222.

٧٧ – نيلسون إلى سيدني سميث، ٨ مارس ١٧٩٩: «إن منصبك كوزير مشارك لدى الباب العالي يحتم بصورة مطلقة أن أعرف من الذي يخاطبني – ولذا فإن عليّ أن أوجهك، متى كان عليك إبلاغ أمور وزارية، إلى أن يتم ذلك بالاشتراك مع أخيك الموقر، وعدم خلط الأمور البحرية بالأمور الأخرى، لأن ما قد يكون لغة جد لائقة بالنسبة لمندوب لصاحب الجلالة، قد يكون مخرباً لتلك المراعاة للاحترام من الصنوف المختلفة في خدمتنا. إن بوسع مندوب أن يستخدم نبرة إملاء مع أحد الأميرالات لكن ضابطاً برتبة نقيب سوف يتعرض للتوبيخ لو فعل الشيء نفسه» (Ibid, p. 220).

٧٨ – نيلسون إلى اللورد كيث، ٢٠ مارس ١٨٠٠: «إنني لا يمكنني الموافقة تحديداً على تدخله كضابط بريطاني في النزاعات بين الحكومة العثمانية وباشا عكا، ودون أي اتصال آخر مع اللورد إلجين، لا يمكنني الموافقة أبداً على أن نهاجم عكا، لكنني قد كونت رأياً حول هذا الموضوع، وإنني لأجرؤ على القول بأنه سوف يكون متفقاً مع رأيك». (Ibid, p. 281).

٧٩ – Texte dans H. G. PERIN and C. LLOYD, *The Keith Papers : Selected From the Letters and Papers of Admiral the Viscount Keith*, Londres, Navy Records Society, 1927 - 1955, III, pp. 203 - 204 et BARROW, II, pp. 9 - 11.

٨٠ – Cité et traduit par CHARLES - ROUX, p. 343, d'aprés *Dispatches and letters of Vice - Amiral Nelson*, Londres, 1845, IV, p. 157.

٨١ – Traduction de CHARLES - ROUX, p. 315 et texte original dans BARROW, II, p. 78.

٨٢ – INGRAM, *Commitment to Empire...*, pp. 356 - 357. .

٨٣ – *Keith Papers*, III, p. 214.

٨٤ – INGRAM, pp. 364 - 366.

٨٠ – Desaix et Poussielgue á Kléber, le 5 pluviôse an VIII (25 janvier 1800).

٨١ – Notes de la conversation qu'a eue le général kléber avec Moustafa Pacha le 10 pluviôse an VIII (30 janvier 1800).

٨٧ – Mémoire remis le 8 pluviôse au Grand Vizir sur la dimande qu'il en avait faire au citoyen Poussielgue.

٨٨ – Kléber au diwan du Caire, á ceux des différentes provinces de l'Égypte, quartier général de Salheyeh, le 12 pluviôse an VIII (1er février 1800).

٨٩ – JABARTI, 3 ramadan 1214 (29 janvier 1800).

٩٠ – WIET, p. 95.

٩١ – Curieusement, CUOQ (p. 200) traduit "Khayyama" par "couvrir d'honneurs", au lieu d' "établir son camp".

٩٢ – JABARTI, 5 shawwal 1214, Wiet, p. 96. Le récit de Nicolas Turc pour cette période est trés précis et correspond parfaitement au contenu des archives francaises.

٩٣ – Damas au Reis Effendi, le 28 pluviôse an VIII (17 février 1800).

٩٤ – Damas au Reis Effendi, le 7 ventôse an VIII (26 février 1800).

٩٥ – Kléber au Grand Vizir, le 19 ventôse an VIII (10 mars 1800).

٩٦ – Traduction de la lettre de Lord Keith, commandant en chef la flotte anglaise de la mer Méditerranée au général en chef Kléber recue dans la lettre de Sir Sidney Smith du 21 février. L'original en B6 42 et le registre B6 111 portent tous les deux le soulignement indiqué ici.

٩٧ – Poussielgue au général en chef Kléber , le 19 ventôse an VIII (10 mars 1800) .

٩٨ – Selon les sources européennes comme arabes, la graphie de ce nom prend des formes différentes et souvent trés éloignées les unes des autres, voir les exemples donnés par WIET, p. 99.

٩٩ – John Keith á Sidney Smith, le 10 mars 1800, ADMI 402.

١٠٠ – John Keith á Sidney Smith, le 16 mars 1800, ADMI 402, voir aussi une traduction francaise d'une lettre de John Keith au même le 12 mars 1800 en B6 42.

١٠١ – WIET, p. 97.

١٠٢ – Kléber á l'armée, le 20 ventôse an VIII (11 mars 1800), ROUSSEAU, pp. 238 - 239.

١٠٣ – Fourier á Kléber, le 23 ventôse an VIII (14 mars 1800), 6 42.

١٠٤ – Kléber á Damas et Gloutier, le 24 ventôse an VIII (15 mars 1800).

١٠٥ – ROUSSEAU, p. 239.

١٠٦ – Le texte turc avec la traduction francaise se trouve en B6 42.

١٠٧ – Morier á John Keith, le 13 mars 1800, ADMI 402.

١٠٨ – Rapport de Wright á Sidney Smith, ADMI 402. ce document extrêmement riche est, á ma connaissance, totalement inédit. Il permet de suivre l'évolution psychologique de Kléber.

١٠٩ – Conférence tenue le 24 ventôse an VIII entre les commissaires francais et les commissaires turcs, le Reis Effendi et le Defterdar, á la mosquée de Sibilli Hallem en avant de la Coubée.

١١٠ – تقرير رايت، لم يكن على علم باجتماع ١٦ مارس بين الفرنسيين والعثمانيين. وفي نهاية الأمر، قرر الطرفان الاجتماع دون المبعوثين الإنجليز.

١١١ – يمكن الاعتقاد بأن رايت يخترع هذا الجزء من المحادثة في تقريره، لكن هذه الأفكار نجد تعبيراً عنها في كراس يوميات كليبر.

١١٢ – كليبر إلى ناصف، ٢٦ فيتوز من العام الثامن (١٧ مارس ١٨٠٠) : «يجب إلقاء القبض على عثمانلية بولاق والقاهرة القديمة والقاهرة متى كان ذلك ممكناً دون حرمانهم من الزعامة ودون تعريضهم لأية معاملة سيئة» (B6 42) .

١١٣ – يشهد دخول الأتراك بصورة منتظمة على رفض ممثلي السلطة الشرعية فرض أي مصير سيء على الأقليات. وقد رأينا أنه قد اتهم عمر مكرم بأنه كان يريد ذبح للمسيحيين عند إعلان نزول الفرنسيين. ولابد من الإشارة إلى أن الجبرتي قد حمّل العثمانيين مسئولية الجهاد ضد المسيحيين لكان ذلك في «مظهر التقديس» ثم في «عجائب الآثار» .

وتتحدث «الملاحظات حول انتفاضة القاهرة» عن بيان «باسم الباشا» يدعو إلى مراعاة للمسيحيين والمحليين والأقباط والوطنيين واليهود والأوروبيين، داعياً الشعب إلى مهاجمة

الفرنسيين» .218 - 203 .Revue d'Egypte, 1895, pp وهى ترجع جزئياً إلى قلم كليبر وتشكل مسودة للتقرير، الذى بدأه كليبر وأتمه دلماس، والمقدم إلى الحكومة الفرنسية عن الأحداث التى جرت فى مصر، منذ عقد معاهدة العريش وحتى نهاية بريريال من العام الثامن. وقد نشر هذا النص الرسمى فى القاهرة بعد موت كليبر. كما أن كتاب *Revue d'Égypte* ينشر يوميات معركة هليوبوليس وحصار القاهرة، والتى كان سكالكوفسكى قد أعاد نشرها ناسباً إياها إلى لازوفسكى (PP. 371 - 405) .

١١٤ – فى عجائب الآثار، لكنه فى مظهر التقديس، خلافاً لذلك، لعين كريه.

١١٥ – B6 43, Ordre du général Kléber le 17 germinal an VIII (7 avril 1800).

١١٦ – *Rapport fait au gouvernement...*, p. 30.

١١٧ – *Victoires, Conquêtes...* XII, pp. 124 - 125. «إن الجمهور الأكثر خروجاً على المألوف، الأمر الذى ما كان يمكن لأحد قط توقعه من أناس جد متأخرين فى الحضارة والصناعة، قد تجلت فى هذا الظرف غير العادى إلى أبعد حد. لقد طور الأتراك والسكان نشاطاً لا يمكن لشىء آخر أن يمنحه لبلد بربرى غير التعصب، حيث يحل محل حب الوطن».

١١٨ – يزعم كتاب «التاريخ العلمى» أن الثوار وحدهم هم الذين سوف يستفيدون من المحصص اليومية (VII , P. 413) .

١٩٩ – هذا هو ما يؤكده الجبرتى، ويؤكد «التاريخ العلمى» جزئياً : «إن بعض الروايات ذات السند الضعيف، لابد من قول ذلك، قد تحدثت عن وجود فى القاهرة لذلك الولى محمد أو الرسول المهدى، الذى كان قد حرض سكان البحيرة، وهذا يعنى أن الرسول المهدى لم يهلك فى دمنهور بطلقة مدفع أو أن رجلاً آخر من النوع نفسه قد انتحل اسمه وأعماله» (VII , P. 414) .

١٢٠ – فى عجائب الآثار، أما فى مظهر التقديس، فإنه يجرى تصويره بشكل مجاهد أكثر ويتم الاعتراف بقدراته كمقاتل، انظر .Delanoue *Moralistes...*, I, p. 61 وهذا التغيير مماثل للتغيير الخاص بالمعلم يعقوب.

١٢١ – (B 6 42)، ٢٩ مارس ١٨٠٠، الموقعون هم السادات والبكرى والشرقاوى والصاوى والمهدى والفيومى والعروسى وأحمد محرم وإبراهيم ملطى.

١٢٢ – Notes.., pp. 214 - 215

١٢٣ – Le général en chef Kléber á Mourad Bey, le 12 germinal an VIII (2 avril 1800).

١٢٤ – Traité avec Mourad Bey, le 15 germinal an VIII (5 avril 1800).

١٢٥ – Note officielle de la part du général en chef Kléber, concernant

la conduite á tenir par le trés illustre et honoré Mourad Bey, en conséquence de la convention du 15 germinal an VIII.

١٢٦ – Conditions convenues entre le général en chef Kléber commandant l'armée francaise et Nessif Pacha, commandant l'armée turque pour l'évacuation du Caire, le 10 germinal an VIII.

١٢٧ – B6 43, Nassouf, gouverneur d'Égypte á Moustafa Pacha, 6 Zei el Cade 1214 11 germinal an VIII (1er avril 1800).

١٢٨ – Jabarti, événements de l'année 1214.

١٢٩ – Sur l'histoire de Boulaq, voir Nelly HANNA, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, Le Caire, I. F. A. O., 1983.

١٣٠ – من الغريب أن الجبرتي في مظهر التقديس كما في عجائب الآثار يعطي تاريخ ١٧ أبريل ويخلط تاريخ الهجوم على بولاق بتاريخ للعاصفة الكبيرة، في حين أن كتاب *Victoires et conquêtes* يوضح أن الاستيلاء على بولاق قد سبق العاصفة (XII, P. 736). وتسمح وثيقتان في الملف (B 6 43) بالتحقق من تاريخ ١٥ أبريل : أمر من كليبر بتاريخ ١٥ أبريل إلى الجنرال قائد سلاح المهندسين بشأن الهجوم على بولاق والعفو الممنوح للسكان في ١٦ أبريل.

١٣١ – B6 43, Kléber général en chef á l'armée, Au quartier général du Caire, le 16 germinal an VIII (16 avril 1800).

١٣٢ – *Victoires et Conquêtes...*, XII, p. 138.

١٣٣ – الجبرتي، ذو القعدة ١٢١٤. إن التقرير، المكتوب بقلم دلماس في هذا الجزء، يقدر عدد القاهريين الذين سقطوا في أثر العثمانيين بثلاثة إلى أربعة آلاف.

١٣٤ – *Histoire Scientifique...*, VII, p. 462.

١٣٥ – p.55.

١٣٦ – PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte....* pp. 459 - 461.

١٣٧ – الجبرتي، ٨ ذو الحجة ١٢١٤. يرفع كتاب «التاريخ العلمي» الضريبة المفروضة على المسلمات إلى ٨٠٠٠٠٠ فرنك (VII , P. 470).

١٣٨ – PEYRUSSE, op. cit., p. 460.

١٣٩ – B6 45, lettre du shaykh al Sadat à Kléber, original arabe et traduction d'époque.

١٤٠ - ROUSSEAU, P. 293.

١٤١ - B6 45, Déclaration en faveur du capitaine Gervais par les notables du 8 e arrondissement, idem pour le capitaine Giraud (3 e section).

١٤٢ - Sur la question trés controversée des rapports de Lascaris et du mu'allim, voir mon essai de mise au point : "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu", *Cahiers de l'Orient*, 7 1987), pp. 189 - 210.

١٤٣ - MICHALON et VERNET, op. cit, p. 33.

١٤٤ - ROUSSEAU, pp. 273 - 277.

١٤٥ - Ordre du 23 prairial an VIII (12 juin 1800), B6 45.

١٤٦ - Le 2 prairial an VIII (22 mai 1800), ROUSSEAU, p. 296.

١٤٧ - Ordre du jour du 18 floréal an VIII (8 mai 1800), B6 44 et ROUSSEAU, p. 286.

١٤٨ - Le 3 prairial an VIII (23 mai 1800), Rousseau, p. 301.

١٤٩ - ADMI 402 : Sidney Smith à Nelson, le 1 er mars 1800, à Lord Keith, le 8 juin 1800. Voir aussi Historical Manuscripts Commission : *Reports of the Manuscripts of J.B. Fortescue, Esq, Preserved at Dropmore* (vulgairement) *Dropmore Papers*, VI, pp. 161 - 162.

١٥٠ - Sidney Smith à Lord Keith le 5 avril 1800 et à Lord Elgin le 21 avril 1800, BARROW, I, pp. 390 - 393 et pp. 403 - 411.

١٥١ - FO 78 29 : Sidney smith à Morier (et par là à Lord Elgin), le 20 avril 1800, au Caimacam Pacha le 9 juin 1800; extrait d'une dépêche du Grand Vizir à la Porte, le 1 er avril 1800; Morier à Elgin le 12 et le 13 avril 1800 et le 28 avril 1800.

١٥٢ - B6 43 : Le Grand Vizir au général en chef Kléber, au quartier général de Jaffa (sans date), arrivée au Caire par un Tartare le 30 germinal an VIII (20 avril 1800) et réponse à la lettre ci - dessus, mise en bas non signée et expédiée par le même Tratare, parti le 8 floréal (28 avril 1800).

١٥٣ - B6 44 : Kléber à Sidney Smith, le 16 floréal an VIII (6 mai 1800), à Damas, le 1 er prairial (21 mai 1800).

١٥٤ - *Courrier de l'Égypte* du 21 prairial an VIII, du 18 messidor et du 27 messidor (10 juin, 7 et 16 juillet 1800). B6 45 : correspondance entre Morier et Kléber.

B6 45 : Sidney Smith à Kléber, devant Jaffa, le 9 juin 1800. – ١٥٥

B6 45 : Lanusse à Kléber, le 25 prairial an VIII (14 juin 1800). – ١٥٦
La lettre arrivera après la mort de Kléber.

B6 45 : Kléber à Reynier, le 20 floréal an VIII (10 mai 1800). – ١٥٧

B6 45 : traduction d'une lettre du Grand Vizir arrivée au Caire le – ١٥٨
8 juin 1800.

B6 45 : Menou à Kléber , le 17 prairial an VIII (6 juin 1800). – ١٥٩

B6 45 : Kléber à Menou, le 19 prairial an VIII (8 juin). – ١٦٠

Mémoires du Comte Reynier, 11 e édition, Paris, 1800, pp. 88 - – ١٦١
89.

Dictionnaire Napoléon, articles Desaix et Marengo. – ١٦٢

١٦٣ – أما بروتان فسوف يشفى من جراحه.

١٦٤ – الجبرتي، ٢١ محرم ١٢١٥ و DELANOUE, *Moralistes...,* I, pp. 81 - 82
يجب وضع المسألة كلها في سياقها، فقد استخدم الفرنسيون التعذيب لدفع الحلبي إلى تقديم اعترافات. وما يهم الجبرتي هو انتظام الإجراءات وعدم إنزال عقاب بأحد غير الأشخاص المتهمين.

١٦٥ – كانت لدى لاري مجموعة من جماجم من لجأوا إلى الاغتيال السياسي. وقد حصل من القنصل الأول على جمجمة كليبر التي لن ترد إلى أسرته إلا في ظل عودة الملكية.

الفصل الثامن

مينــو

الخيار الاستعماري

تسمية مينو

لم يكن قد جرى التحسب لاختيار خليفة لكليبر. والمسافة جد بعيدة، بحيث لا يمكن لباريس تسمية أحد. وكل شيء يدور بين قادة الفرق في القاهرة، أو بشكل أدق بين الأكبر سناً بينهم: رينييه الذي تعتبر قدراته العسكرية مماثلة لقدرات أكثر جنرالات الثورة روعة والذي رقى إلى هذه الرتبة في عام ١٧٩٦ وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ومينو الذي لم يتميز قط حقاً في القتال مع أنه كان قائد فرقة في الثالثة والأربعين من عمره، في عام ١٧٩٣. ومنذ وصول نبأ الاغتيال، يتأبى كل من الرجلين على القرارات التي يجب اتخاذها. وفي نهاية الأمر يقنع رينييه مينو قليل الحماس بتولي القيادة العامة بصورة مؤقتة إلى حين وصول قرار من باريس. وكان مينو قد قدم حججاً جدية: إن تغييره لدينه قد جعله قليل الشعبية بين الجنود، وهو لا يحوز خبرة حربية حقيقية. لكن القواعد العسكرية محددة: فمن الواضح أن مينو هو الأكبر سناً في الرتبة الأعلى. ويعلن رينييه وجميع الجنرالات استعدادهم لتقديم المشورة إليه في مجال العمليات العسكرية...(١)

وفي الظاهر، فإن هذا الحل الوسط قد يبدو ممتازاً. أما في الواقع، فإنه يهمل تماماً التفاعل بين الخيارات الكبرى لحكم مصر، خاصة بين إدارة البلاد والعمليات العسكرية. ثم إن رينييه سرعان ما يأسف لتنازله عن الموقع لمينو ويتصرف كقائدٍ متزايد العداوة لخليفة كليبر. بل إنه، خلال جنازة كليبر، يغضب من المكانة البروتوكولية الأعلى التي اختص بها مينو نفسه من دون قادة الفرق الآخرين (٢). وعندما يتخذ مينو قراراته الأولى بصفته قائداً

علماً مؤقتاً، فإنه (رينييه. – المترجم) يبدى علناً استياءه من تلقى أوامر، ويؤكد أن على مينو أن ينتظر تثبيته من جانب جنرالات مجتمعين فى مجلس حربى. وبالنسبة له، فإن: «ذلك هو السبيل الوحيد الذى يمكنه من خلاله إضفاء الشرعية على سلطته، فالبعد عن المتروبول وصعوبات الاتصال تحول دون تلقى أوامر». وهو يقول: «ومن جهة أخرى، فإن كل حقوق الأقدمية قد أبطلها الدستور الجديد، وجميع التعيينات يجب أن تتم بالاختيار»(٣).

مغزى الحملة

إن مصرع كليبر، هذا القائد المحبوب جداً والمحترم من الجنود، قد وجه ضربة بالغة القسوة إلى معنويات الجيش. فالنفور الذى كان يكنه دائماً لمصر، يتحول إلى كره حقيقى. والحال أن الرغبة فى العودة (إلى فرنسا)، والتى احتجبت مؤقتاً بعد انتصار هليوبوليس إنما تعاود الانبثاق بدرجة أكبر وذلك بقدر ما أن القائد العام الجديد لا يتمتع بخصال سائس الرجال الضرورية لدفع الجنود إلى نسيان مشاق المنفى.

والحال أن معنى الحملة لم يك واضحاً قط للجنود. لقد قيل لهم إنهم قد جاءوا إلى مصر لتحريرها من المماليك. إلا أنه قد تم للتو عقد اتفاق معهم. وقد جرى التأكيد لهم على أنهم حلفاء للإمبراطورية العثمانية، وها هم يقاتلون جيوشها منذ عامين. والتفسير الذى بدا لهم أكثر منطقية والذى دعمه موقف كليبر فى الأشهر الأولى لقيادته، هو أن حكومة الإدارة قد أرسلتهم إلى مصر للتخلص من بونابارت؛ وبما أن هذا الأخير هو الآن السيد الجديد لفرنسا، فإن البقاء فى مصر لم يعد له أى معنى.

ويعرف مينو هذا القلق الذى ينتاب الأذهان. وفى بيان موجه إلى الجيش، فى ٥ ميسيدور من العام الثامن (٢٤ يونيو ١٨٠٠)، بعد عشرة أيام من مصرع كليبر، يشرح له السبب فى وجوده فى مصر: لقد كانت الحملة عملية وقائية تهدف إلى منع أعداء الجمهورية من الاستيلاء على مالطه وعلى مصر؛ وكان لابد من إنقاذ تجارة شرقى البحر المتوسط المهمة «والتى ترتفع مكاسبها سنوياً إلى نحو خمسين مليوناً» (من الفرنكات. – المترجم)؛ ومما يؤسف له أن الباب العالى قد خدع من جانب أعداء فرنسا وشن الحرب عليها؛ وقد أدت انتصارات جيش الشرق إلى تدمير آماله، وهذا هو السبب فى أنه قد لجأ إلى الاغتيال حتى تدب الفوضى فى صفوف الجيش؛ واليوم، لا يمكن أن يكون من الوارد التفكير فى معاهدة للجلاء، فبونابارت هو وحده الذى يمكنه اتخاذ مثل هذا القرار. (٤)

وهذا النص يخدمه كرد عندما يسأله ضباط شبه لواء، جاءوا للاضطلاع بمسعى جماعى، متى ينوى إعادة الجيش إلى فرنسا. ويحاول دامادس، فى الفترة نفسها، أن يبين له أن حالة الجيش لا تسمح بالبقاء فى مصر وأنه يجب الاستفادة من الموقف للتفاوض على جلاء فى أحسن الشروط. والحال أن مينو، الذى يأخذ على هذا الجنرال أنه قد أثار كليبر عليه، إنما يحيل مرة وإلى الأبد إلى بيانه. وينحاز رينييه، فى مواجهة مينو، إلى صف دامادس(٥).

ويأمر مينو بنشر بقية أوراق مورييه ويتهم الباب العالى علناً بأنه مسؤول عن اغتيال سلفه، وذلك سعياً إلى تحويل الجنود عن الآمال الزائفة التى أشاعتها الدعاية الأنجلو – عثمانية. ثم إن الملازم رايت، الذى كان قد طرد من الإسكندرية بناءً على أمر من كليبر، والذى عاد عبر طريق سوريا كمفاوض نلشا، إنما يطرد مرة أخرى من مصر. وكان قد ضبط متلبساً بجريمة إغراء جنود فرنسيين وكان بالإمكان القبض عليه كجاسوس (٦). وقد أدرك سيدنى سميث على الفور أن صعود مينو إلى القيادة العامة إنما يعنى انتصار الحزب الاستعمارى (٧) ولا يدهش لرفض مينو أى نقاش إلاّ فيما يتعلق بمسألة الأسرى. على أن الصدر الأعظم ما يزال يحلم باستئناف للمفاوضات، وهو يوجه بياناً إلى الجيش الفرنسى ينفى أية مسؤولية عثمانية عن اغتيال كليبر (٨). وهو يصطدم بذات الدافع بعدم القبول، كما أن العروض التى يقدمها القابودان باشا وإسحق بك تقابل بالرفض، والاتصالات الوحيدة المسموح بها إنما تتعلق بإطلاق سراح بودو الذى هو الآن أسير عند القابودان باشا. ويعطى ذلك مجالاً لتبادل الرسائل والهدايا بين مينو والقابودان باشا حتى عودة بودو إلى مصر (٩).

تصالح الجيش مع الواقع

وهذا الرفض الواضح والبات لاستئناف المفاوضات حول المسائل الأساسية إنما يضع نهاية لالتباسات سياسة كليبر، لكنه يضع أيضاً نهاية لحماية أعداء الفرنسيين الصريحة. وإذا كان لم يعد هناك ما يدعو الإنجليز إلى الانزعاج من قلب للتحالفات يتم فى نهاية الأمر من جانب العثمانيين، فإنهم يجدون أنفسهم مرغمين على هجر العمل غير المباشر العزيز على قلب سيدنى سميث . وحتى إذا كانت الحكومة البريطانية تضطر، فى استرجاعها لما كان، إلى الاعتراف للعميد البحرى بأنه كان يتميز ببعد النظر فى مسألة اتفاق العريش،

فإن الحرب الإدارية ضد الأخرين سميث والتى يخوضها اللورد إيلجين، تجد ترجمة لها، بعد بضعة أشهر، فى سَحْب سبنسر من القسطنطينية (١٠) وفى تصميم لوضع سيدنى والنتيجة المنطقية هى تورط عسكرى أكبر لبريطانيا فى مصر وذلك بسبب إخفاقات العثمانيين المتتالية.

وفى الحق والحال، فإن تأكيد سياسة واضحة، إنما يبدو أنه قد لقى استقبالا طيباً من جانب جمهرة الجيش. وعلى الأقل، فإن فريان يؤكد، «إن كل فرد، وقد اقتنع بأنه سوف يظل فى مصر لفترة طويلة، قد سعى إلى نسيان فرنسا قدر الإمكان. وفى كل مكان، فإن الضباط القادة والعاديين لم يهتموا إلاّ بتزيين مساكنهم. وقد أقيمت الحفلات والمآدب وأعيد فتح قاعات العروض المسرحية، وأخيراً، ساد القول بأننا ها نحن مستعمرون (١١)».

ويشير غياب العصيانات فى الأشهر التالية إلى أن الجنود قد تخلوا عن الأمل فى عودة قريبة وأنهم غير قادرين على ممارسة ضغوط على القيادة. والحال أن معركة هيليوبوليس كانت قد حررت رأى الجيش العام من الأوهام. لكنه ليس متحمساً على الإطلاق للمشروع الاستعمارى. فالرضوخ للأمر الواقع هو الشعور السائد الذى أثاره نزاع الجنرالات. ويرتكب مينو الخطأ الجسيم الذى يتمثل فى اعتبار هذا الموقف تأييداً. إن قصور الاحترام الشخصى الذى يتمتع به يؤدى إلى أن تهجج خطابه لا يثير البتة أرواح الجنود الذين يتذكرون بلاغة كليبر البسيطة والمؤثرة.

والحال أن مينو، المتورط بالفعل فى مشاحنات مع المقربين من كليبر، سوف يزيد من احتداد سخريتهم الخبيثة عندما يطلب تسليم تركة الجنرال القتيل إلى خزائن الجيش. فداماس يعارض ذلك بتأكيده أن هذا الإجراء إنما يتعارض مع القوانين ويعلن أنه مسؤول عن حقوق الورثة. ويريد مينو تمرير المسألة بإصدار أمر إلى اللجنة الإدارية ببيع متعلقات كليبر الشخصية. لكن اللجنة ترفض مشيرة إلى أن ذلك لا يدخل فى اختصاصاتها. وبعد عدة أيام من المناقشات، ينتصر داماس، إن تصفية الممتلكات تتم على يد دور، إلاّ فيما يتعلق بالأشياء التى يحتفظ بها مينو. لكن الثمن يسلم إلى داماس، ممثل الورثة الذى يجرى تسليمه أيضاً عشرين ألف فرنك، هى الثمن التقديرى للأشياء التى يحتفظ بها القائد العام. لكن مينو يحاول أن يعرف ما إذا كان كليبر قد دفع من راتبه ثمن الأشياء المشار إليها (خاصة الكتب) ويختزل بنحو ثمانية آلاف من الفرنكات التعويض المقرر. ووفقاً لرينييه، على أية حال، فإن هذا التعويض لن يسلم أبداً إلى داماس (١٢). ومن جهة أخرى، فإن هذا الأخير يخفى كتابات كليبر الشخصية لأنه يخشى – وهو على حق فى ذلك – من أن يحاول مينو وفيما بعد بوناپارت الاستيلاء عليها، وذلك بسبب صراحة الألزاسى المعروفة تماماً (١٣).

المشروع المستعمرة

إن الرغبة في الاحتفاظ بمصر ورفض مواصلة التلاعب بالكلمات بمحاربة العثمانيين مع ادعاء المجيء لاستعادة سلطتهم، إنما يسمحان لمينو برفع الستار عن الهدف الحقيقي للمشروع المصري: إيجاد مستعمرة. وعلى الفور، يرى ربيعيه وبلماس في ذلك لمتصلاً جديداً، لأن الحكومة الفرنسية وحدها هي التي تملك الحق في تأكيد قرار كهذا، وأن من الأفضل الحفاظ على ضبابية فكر سلفيه حول هذا الموضوع. ولا يتصل النزاع بمجرد مبرر الوجود الفرنسي في مصر، بل يتصل كذلك بالتحديد الحقوقي لصلاحيات مينو. فإذا كانت مصر مستعمرة، فإن مينو عندئذ هو حاكمها الذي يمثل الداخل. وبسبب انقطاع الاتصالات مع فرنسا، فإنه يملك حق سن القوانين كرئيس دولة والاضطلاع بإصلاحات أساسية. وبالنسبة لخصومه، فإنه لا يمارس غير مهام حكم مؤقت، انتظاراً لتسمية الحكومة الفرنسية لخليفة حقيقي لكليبر. ومن ثم فإن عليه الحد من قراراته وألا يتصرف إلا بالتشاور مع نظرائه، قادة الفرق.

الشؤون المالية

في مرحلة أولى، يستأنف مينو فحص إدارة مصر الذي بدأه كليبر ومطاردة الأعمال التعسفية. وفي أول يوليو ١٨٠٠، يصدر الأوامر إلى أمنى الصرف وإلى الجنرالات الذين يتولون سلاحي المدفعية والهندسة، وإلى مسؤولي مختلف الخدمات، بأن يقدموا إليه تقريراً تفصيلياً عن حالة مجالات كل منهم، يتضمن عدد الأفراد ووظائفهم ورواتبهم وعدد الحصص الغذائية اليومية التي يتمتعون بها. وسوف يسمح ذلك «بالتوصل إلى إيجاد نظام حكيم ومقتصد للإدارة» (١٤).

وتؤدي سلسلة بأكملها من الأوامر اليومية الصادرة من أغسطس إلى نوفمبر ١٨٠٠ إلى تحديد إجراءات للتحقيق المنتظم من النفقات كما تؤدي إلى مراجعة عامة لهذه النفقات منذ بداية الحملة. ويطمح القائد العام الجديد إلى أن يسوي بصورة نهائية مسألة تبذير الأموال التي اشتكى منها سلفاه . ومرة أخرى يجري حظر للمصادرات التي تتم دون تصريح من القائد العام (١٥). ويجري تغيير وظيفة الصراف العام للجيش إلى وظيفة مدير عام ومحاسب لجميع إيرادات مصر العمومية. والحال أن المدير الجديد، استيف، يعاونه محصل رئيسي وصراف رئيسي (١٦).

ومسألة الإيرادات الضريبية هي المسألة الأصعب على التسوية، فهي تطرح مسألة

مكانة الأقباط. والحال أن مينو لا يكن احتراماً يذكر لهم وهؤلاء الأخيرون غير مرتاحين لتحوله إلى اعتناق الإسلام. ويتعين من جديد على المعلم يعقوب وموظفي المالية الآخرين أن يرسموا لوحة للإدارة المالية لمصر (١٧). وسوف يجرى التحقق من صدق حسابات الأمناء الأقباط وسوف يتعين على الأمناء الخمسة الكبار أن يردوا إلى السكان جميع المبالغ التى تجبى دون وجه حق من جانب مرؤوسيهم (١٨). لكن الصراف العام استيف يتولى الدفاع عن موظفيه، إن شكايات الفلاحين لها ما يبررها، لكن الفرنسيين هم الذين يتحملون المسؤولية وذلك بسبب الضريبة العامة التى فرضوها. ويجرى إلزام الأقباط بتوزيع عبء الضريبة على الأراضى المروية بمياه الفيضان كما على الأراضى غير المروية والمعفاة عادة من دفع الضرائب. ويرى استيف «أن من المناسب تركهم يتصرفون حتى لا يتوقف تحصيل الإيرادات من جراء الاصغاء فى هذه اللحظة لشكايات الفلاحين التى اعتادوا تقديمها» (١٩). ويتمسك مينو بموقفه مجبراً الأقباط على المشاركة بمستوى مليون ونصف المليون فرنك فى الضريبة غير العادية التى فرضت على المدن بعد انتفاضات مارس – ابريل ١٨٠٠ (٢٠).

الاسكاريس

يسمح قرار البقاء فى مصر بعودة مشاريع إعادة تنظيم البلد إلى الظهور. وفى أوائل يوليو ١٨٠٠، نجد أن لاسكاريس، رفيق المعلم يعقوب، يقترح على مينو «وسيلة بقائنا بشكل دائم فى مصر عبر مجرد سلم التعصبات المتعارضة لسكانها». وهو يرى، اعتماداً على واقع أن مصر كانت دائماً «مهد التعصب» أنه إذا كان الدين الجمهورى لا يستطيع، فى التو والحال، أن يجد أتباعاً له بسبب بساطة ممارساته، فإنه بالقضاء على جميع أشكال التفرقة الدينية من خلال رفع «جميع الطوائف (الدينية) إلى درجة واحدة من النفوذ السياسى»، سوف يتسنى لتلك (الطوائف) التى نال منها الإسلام وحط من شأنها أن تزدهر على حسابه، إلى الدرجة التى تمكنها من الوصول إلى عدد مساو من المشايعين. ومنذ تلك اللحظة، فسوف يكون بوسع الفرنسيين أن يحكموا عبر «هذا التوازن للتعصبات المتعارضة». وفى المرحلة الثانية، فإن الأنصار الجدد للفلسفة سوف يصبحون عديدين بشكل متزايد إلى درجة تحويل المصريين «إلى طائفة واحدة ومتماثلة هى طائفة الفرنسيين». ومطبق هذه السياسة الرائعة لا يمكن أن يكون غير القائد العام الذى،

باجتذابه ثلة السكان، سوف يعمل على إعادة هذا البلد الشهير «إلى ما كان عليه في الزمن الماضي، مركزاً للوفرة وللمعارف ولتجارة العالم».

ويرد عليه مينو بأنه لا ينوى أن يصبح زعيم طائفة وأن «ديانته العقلية الصغيرة» تكفيه. والشهادة مثيرة للاهتمام فيما يتعلق بالوقوف على مدى إخلاص تحول مينو إلى اعتناق الإسلام.

على أن لاسكاريس لا يفقد الأمل، وفي ٢٥ تيرميدور من العام الثامن (١٣ أغسطس ١٨٠٠)، يكتب من جديد إلى مينو. وهو يعترف بأنه يضع المشاريع كما يصنع الآخرون المقتوحات والأحذية وكما يضعون الدساتير والأطفال، إلخ. وهذا المشروع الجديد، الذي لا يمكنه أن يعود عليه إلاّ «بشهادة حماقة يمنحني الجميع إياها بالفعل»، إنما يتمثل في بناء سد ضخم عند رأس الدلتا، يجتمع معه بناء عاصمة جديدة لمصر، هي مينوبوليس، التي سوف تكون نقطة التقاء بين منتجات أفريقيا ومنتجات البلدان التي تطل على البحر المتوسط، وستكون موقع الانصهار بين الغرب والشرق. وهذا المشروع يستبق القناطر الشهيرة، التي شيدها محمد على، لتنظيم رى الدلتا.

والواقع أن المغامر يكشف في بقية نصه عن هدفه الحقيقي. إنه يدرس إمكانية تخلى فرنسا عن مصر إثر مساومة على الصلح الشامل: «في هذا الفرض، سوف يكون من المهم للغاية ترك حزب قوى، يمكنه البقاء هناك مسلحاً لكي يحافظ هناك على نفوذنا السياسي والتجاري ومساندة الفرنسيين في نهاية الأمر في حالة تعرضهم للهجوم من جانب الحزب الآخر»

والحال أن الحديث إنما يدور عن الاضطلاع في مصر العليا بتوحيد جميع أعوان الفرنسيين مع مماليك مراد بك. كما أن هؤلاء الأعوان سوف يكونون مراد بك في الحزب الفرنسي. وحتى يتم ذلك، فإنه يجب في التو والحال تعزيز الفيلق القبطي الذي يقوده يعقوب تعزيزاً ملحوظاً. لأن كل شيء، مرة أخرى، إنما يتوقف على القبطى. ولاسكاريس يعرف وفقاً لموضة بعث مصر، وهي الإيديولوجية الرسمية للحملة: «إنه حفيد أولئك المصريين القدماء الذين مازالوا يثيرون دهشة العالم بآثارهم؛ يالها من ذكريات تستحضرها هذه الآثار ! يالها من معارف ! يالها من سياسة ! باختصار، يالها من حضارة تبوح بها للشعوب التي تتخيل هذه الأهرامات، هذه المعابد، هذه البحيرات، هذه القنوات !»

ويمكن أن نرى في لاسكاريس واحداً من أسلاف النزعة الفرعونية السياسية التي عرفتها أواخر القرن التاسع عشر.

ويرد عليه مينو بأنه ليست لديه أية ثقة في الأقباط. وعندئذ يواصل لاسكاريس مشروعه القبطي بعد تعديله وذلك في رسالة إلى القائد العام مؤرخة في ٢٩ فروكتيدور من العام الثامن (١٦ سبتمبر ١٨٠٠). فهو يواصل الدفاع عن صديقه ويقترح هذه المرة إرساله، مع بعض الجنود الفرنسيين وخمسة آلاف أو ستة آلاف من المسيحيين الشرقيين إلى النوبة لإنشاء مستعمرة دائمة هناك ومربحة بالنسبة لفرنسا. فهناك سوف يكون للحزب المصري الموالي لفرنسا قاعدة راسخة في حالة جلاء الفرنسيين عن مصر، وسوف يكون لاسكاريس هو مفوض الحكومة الفرنسية هناك، ومن ثم فإن عودة الفرنسيين سوف تكون سهلة.

والحال أن مينو، الذي يكن قدراً من التعاطف لفارس مالطة السابق، يعينه، في الشهر نفسه، مديراً للرسوم الالتزامية. ويواصل لاسكاريس الإصرار على مشروعه النوبي ويرسل إلى بوناپارت مرثية يعقوب المترجمة على روح ديزيه. وخلافاً لما يؤكده نص التقديم المنشور في الأمر اليومي والذي ينسب القصيدة إلى المعلم، فإن المعجم المستخدم والإشارات الضمنية إلى العصر الإغريقي الروماني الكلاسيكي إنما تسمح بافتراض أن كاتبها الحقيقي هو لاسكاريس:

«إلى الأبد ستحيا في الأجيال القادمة وفي عرفاني بالجميل، إن طيفك العزيز يرفرف بالفعل في رحابة الفضاء مع طيف أبطال العصر القديم، وهو يتحد بالفعل مع روح بوناپارت الحارسة، ومن هذا الاتحاد الذي يحرك شديد رهبة الأعداء وشعوب الأرض سوف تولد رفاهية وحضارة الشرق» (٢١).

مشاريع الإصلاح المُجهضة

يتهز خصوم مينو الخيال الظاهر لمشاريع لاسكاريس للإيحاء بأن مشاريع القائد العام ليست أفضل حالاً (٢٢). ويرسل أشخاص آخرون إلى مينو مقترحاتهم الإصلاحية الخاصة بمصر. إن لوپير، مدير الجسور والطرق، يقترح إعادة حفر القناة التي تربط الإسكندرية بالنيل، والبدء فوراً في عمليات المساحة (٢٣). وهذا المشروع، الذي ينسب مبادرته إلى كليبر، لن يتحقق إلا في بداية حكم محمد على تحت اسم ترعة المحمودية.

وفي ٢٥ ميسيدور من العام الثامن (١٤ يوليو ١٨٠٠)، يوجه شخص يدعى دالماس،

وهو وكيل فرنسى سابق فى إقليم البحيرة، مذكرة حول إدارة ماليات مصر. وهى من حيث الجوهر عبارة عن لوحة جد مثيرة لوضع الزراعة. ويقترح بالناس نظاماً جديداً لضرائب الأرض يسمح بالاستغناء عن خدمات الأقباط وبزيادة إيرادات الفرنسيين. وينطوى هذا الإصلاح على تعداد الأراضى وتصنيفها بحسب قيمة إيراداتها، كما ينطوى على علاقات مباشرة بين الفرنسيين والفلاحين. ويفسر بالناس عدم التناسب للهم بين إيرادات المماليك العقارية وقلة الضرائب فى العهد الفرنسى بمسلك الوكلاء الأقباط :

«لابد أن أولئك الذين أطلعونا على موارد مصر كانوا غير أمناء إلى حد بعيد تجاهنا ولابد من إرجاع الصعوبات التى يجدها الشعب فى دفع ضرائبه، ليس إلى عجزه، بل إلى سوء نيته، وتعصبه، والتعريضات الفاجرة التى قام بها أعداؤنا، وخاصة إلى الضرائب السرية التى دفعها (الشعب) للبكوات وللعرب والتى يمكن للمرء أن يشتبه فى أن الأقباط قد قاموا بجبايتها لحسابهم» (٢٤).

أما المدير السابق للدواشر، باجليانو، فهو يقترح من جانبه مشروع امتيازات خاصة بالأرض يسمح بمكافأة الجنود وأولئك الذين تعاونوا معهم فى فتح مصر، دون تجريد السكان المخلصين للفرنسيين من ملكية الأرض. والحال أن الحديث إنما يدور عن جعل الفلاحين مالكين تماماً لأراضيهم فى مقابل دفع رسم إضافى. ولما كانوا أكثر اهتماماً بريع محصولهم، فسوف يكون بوسعهم أداء هذا الرسم بسهولة. وينطوى هذا المشروع على الإلغاء النهائى للالتزام، وفى الأجل الطويل فى نهاية الأمر، الانتهاء من خدمات الأقباط، وهو سوف يربط الفلاحين على نحو حاسم ونهائى بالقضية الفرنسية (٢٥).

ولمناقشة كل هذه المشاريع، واستخلاص مشاريع أخرى منها وإعداد تصور شامل للتنظيم الذى يجب إعطاؤه للمستعمرة الجديدة، ينشئ مينو مجلساً خاصاً «لمساعدته على تحمل العبء الذى كلف به مؤقتاً، إلى حين وصول أوامر حكومة الجمهورية الفرنسية» (٢ سبتمبر ١٨٠٠). وسوف يضم المجلس جميع قادة الفرق والألوية، وأقدم الضباط القادة لمختلف الأسلحة ورؤساء الخدمات الإدارية الرئيسية. ولا يجب على المجلس الخاص أن يناقش مسائل الحرب والسياسة الخارجية، فهذا مجال محفوظ للقائد العام، بل يجب عليه أن يناقش جميع الأمور الأخرى «المتصلة بالتجارة وبالزراعة وبالشؤون المالية وبالتشريع المدنى والجنائى وبالعلوم وبالفنون وبالعلاقات التى يجب أن تنشأ بين المتروبول ومصر، وبين سكان البلد والفرنسيين المقيمين فيه» (٢٦). والواقع أن مينو قد

بالغ في تقدير شعبية برنامجه بين صلوف المسؤولين الرئيسيين من الحملة وهو يدرك بسرعة أن هذا المجلس الكبير العدد يهدد بأن يصبح موقع لاحتشاد جميع معارضي سياسته الذين يتزعمهم رينييه. ولذا فإن المجلس لن ينعقد في الموعد الذي تحدد له (٢٧).
وفي المقابل، سوف يدعو مينو جميع الفرنسيين الموجودين في مصر إلى أن يقدموا إليه بشكل سري جميع مشاريعهم ومقترحاتهم الخاصة بتنظيم البلاد (٢٨).

مشايخ القرى

لكن مينو لا يقنع بتلقي ومناقشة المشاريع، فهو يبدأ في التصرف. إن الضرائب غير العادية التي فرضها كليبر قد سمحت، كما هو متوقع، بتصفية متأخرات الرواتب، وبتكوين فائض طفيف. لكن الوضع سرعان ما يصبح مزعجاً من جديد، إن نفقات الجيش تتجاوز الإيرادات إلى حد بعيد. ثم إن مينو، الذي لا يملك لا هيبة بونابارت ولا هيبة كليبر، لا يمكنه الأمل في تأمين شعبيته لدى الجنود إلاّ بتأمين راحتهم ودفع مرتباتهم. ولابد له من استخلاص موارد جديدة.

وهو يتجه عندئذ إلى مشايخ القرى. وفي ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، يحدد نظاماً ضريبياً جديداً خاصاً بهم. وهو يزعم، بشكل مراءٍ، أنه إنما يتصرف باسم حماية مصالح الفلاحين ضحايا تعديات المشايخ ويرى أن الهدايا، التي جرى العرف على أن يقدمها المشايخ للملتزمين، إنما تشبه ضريبة شخصية. واعتباراً من بداية العام التاسع، سوف يتعين على المشايخ، بمن في ذلك أولئك الذين لا يزالون في الالتزامات الخاصة، أداء رسم سنوي يدفع نقداً حتى يتسنى تثبيتهم في وظائفهم وسوف يحصلون على فرمان بتقليدهم هذه الوظائف. والحال أن القرى التي يصل عددها إلى ألفين ومائتين وثلاث وخمسين قرية والخاضعة للسلطة الفرنسية قد جرى تقسيمها إلى ثلاث فئات، وسوف يتعين على المشايخ الدفع تناسباً مع ذلك، بحسب إيراداتهم (٢٩). وسوف تجرى مضاعفة الرسم السنوي بالنسبة للعام التاسع وذلك سعياً إلى تدارك عدم الدفع الذي ميز السنوات السابقة.

وسوف يجرى تشكيل جهاز مفتشين من مشايخ البلد سعياً إلى الإشراف على دفع الرسوم وتأمين حسن سلوك المشايخ تجاه فلاحيهم. وسيتم إنشاء موقعين للمديرين العموميين للمشايخ، موقع يحتله فرنسي وآخر يحتله مصري. وهما اللذان سوف يشرفان على نشاطات المفتشين (٣٠). وسيكون الشيخ الفيومي هو أول حائز للمنصب (٣١).

ويتواصل التطور الذى جرى البدء به فى السنتين السابقتين. وتتمثل قوة الأشياء فى أن مشايخ القرى يصبحون تدريجياً موظفين فى الدولة.

التدابير المالية الأخرى

يتواصل العمل فى مجال الزراعة بإنشاء لجنة للزراعة تتبع للمعهد (المجمع العلمى) وتتألف من شامبى ودوليزل ونيكتو. وهى مكلفة بإنشاء حديقة عليها تلقى حبوب مرسلة من فرنسا وتحسين النباتات الأصلية فى مصر (٣٢). ومن جهة أخرى، يكلف القائد العام لوبير بأن يأمر مهندسيه بإجراء فحص شامل لشبكة الرى فى وادى النيل وتحديد الأعمال الأكثر إلحاحاً التى يجب الاضطلاع بها، ولن يتم اتخاذ أى قرار بشأن الأعمال غير المألوفة دون موافقة مينو الذى سوف يستشير هو نفسه مهندسى الجسور والطرق (٣٣). ويثير ذلك سخط المهندسين الذين يرون، بحكم كونهم أعضاء فى لجنة العلوم والفنون، أنهم ليسوا مدعوين إلى تسوية عملهم طبقاً لتعليمات القائد العام. وأمام احتجاجاتهم، يرد مينو على لوبير :

«إننى أقول إن بيترون، عندما كان والياً على مصر، كان يعتقد أنه لن يتمكن من أداء خدمة أكبر للجمهورية الرومانية إلا ببعث زراعة البلد الذى نحتله الآن. وقد تم ذلك عبر إنشاء شبكة رى بالطبع.

«ويبدو أننى قد أخطأت فى التدابير التى اتخذتها، فقد نسيت أنه لا يجب على المرء أبداً إصدار أوامر إلى العلماء. وسوف أصحح خطئى؛ وسأكتفى بإصدار الأوامر إلى الجنود الذين لا يملكون، كما لا أملك مثلهم، لا المواهب ولا الادعاءات (٣٤)».

وسعياً إلى تدبير إيرادات إضافية دائماً، يبتدع مينو رسوماً جديدة غير مباشرة. وبحجة مكافحة غش السبائك، يجرى فرض رسم دمغة على أعمال الصياغة، قيمتها ٥ فى المائة من قيمة السبائك المشغولة. وسوف يتولى ديتيوفر نقش ثلاث سكات تمثل النيل على شكل عجوز مضطجع يستند إلى جرة ينبثق منها هنا النهر، وأبا الهول ورأس إيزيس(٣٥). واختيار هذه الرموز، التى تعتبر من الناحية العملية انتهاكاً للمقدسات فى نظر المسلمين، إنما يكشف عن المسافة الفاصلة بين مينو – برغم تحوله إلى اعتناق الإسلام– وبين رعاياه المصريين.

وتتعلق تدابير أخرى بتحديد رسوم جمركية جديدة على الواردات والصادرات مع سيطرة بيروقراطية على توزيع السلع (٣٦). ويجرى طرح ضرائب الملح فى مزايدة: وسوف تجبى الضريبة فى مواقع الإنتاج بحيث لا يتسنى لأحد فرض احتكار على تجارة هذا المنتج. ويجرى فرض ضرائب على القنص وعلى صيد الأسماك (٣٧). أما الضرائب المفروضة على إنتاج العرق فيعهد بها إلى ملتزمين، وهو ما يجر إلى إنشاء جهاز من المفتشين على المشروبات مكون من بين أكثر أفراد الجيش إصابة بالعجز (٣٨).

كما يفرض مينو ضرائب منتظمة على الاستهلاك (سوف يتم اختيار المفتشين هذه المرة من بين سكان البلد) (٣٩)، وعلى سفن النقل فى وادى النيل (ومن هنا التسجيل الضرورى للسفن وتعداد الملاك) (٤٠). أما وظائف الصراف والقباني والكيال فيجرى تحويلها إلى وظائف عمومية، حيث يتعين على حائزيها دفع عمولة سنوية حتى يتسنى لهم مزاولة مهنهم (٤١). وسعياً إلى توزيع الضريبة توزيعاً أفضل على مجموع السكان المصريين، يفرض مينو ضريبة سنوية على طوائف الحرفيين والتجار (١٢٩٤٠٠٠ فرنك بالنسبة لكل مصر، من بينها مليون فرنك بالنسبة للقاهرة وحدها) وعلى الطوائف الدينية غير المسلمة (١٢٧٠٠٠٠ فرنك من بينها مليون فرنك بالنسبة للأقباط) (٤٢). وتنزع كل هذه القرارات إلى إيجاد إدارة عقلانية من طراز أوروبى فى مصر.

وفى نسق الأفكار نفسه، يحول مينو نظام بيت المال القديم (جباية متعسفة إلى هذا الحد أو ذاك لضرائب على التركات) إلى ضريبة منتظمة ذات معدل موحد نسبته ٥ فى المائة على التركات مع الإلزام بالإعلان الفورى لجميع الوفيات التى تؤدى إلى تركة (٤٣). ولما كان القائد العام يعتبر مصر مستعمرة، فإنه يطبق الإجراء على جميع الأفراد الموجودين دون تمييز على أساس الجنسية أو الدين؛ «فى زمن المماليك، كانت كل أمة تسعى إلى نيل امتيازات خاصة. وفى ظل حكم عادل ومسترشد بقوانين صالحة، فإن هذه الامتيازات تعتبر لاغية، وكل من يملك ذلك الحق فى أن تحميه القوانين والحكومة لابد له من دفع حصته من النفقات العامة وأن يخضع من ثم لذات الضرائب» (٤٤).

وجميع المزادات ومزايدات الضرائب المتاحة للملتزمين سوف تعلن عن طريق ملصقات بلغتين، العربية والفرنسية. وسوف تجرى قراءة قائمة الشروط باللغتين قبل افتتاح المزادات. ولا يسري مفعول مجمل القرارات الضريبية إلا مع بداية العام التاسع وسوف يتطلب الأمر مرور عدة أشهر حتى تعود بإيرادات مهمة. وبما أن إيرادات الزراعة

تجد نفسها في الوضع نفسه بسبب فيضان النيل وبما أن دفع الرواتب قد استهلك بسرعة ما تبقى للنفقات الجارية في الخزانة، فإن مينو يأمر بالسحب من الاحتياطي غير العادي الذي راكمه كليبر لمواجهة الاحتياطات غير المتوقعة لمعركة عسكرية. وذلك لأن القائد العام الجديد، الراغب في ربط الجنود به، لا يمكنه أن يسمح لنفسه بوقف دفع المرتبات ولو بصورة مؤقتة (٤٥).

مينو والجيش

يتوجه مينو إلى الجيش بلغة مزدوجة. فهو يذكره دون توقف بأنه قد حصل على رواتبه بصورة منتظمة بفضله (٤٦). وهو يبدو مهتماً بحسن إدارة المستشفيات (٤٧)، وبتوفير الثياب (٤٨) وبنوعية الخبز المقدم إلى الجنود (٤٩). وهو يشدد على المراعاة الصارمة للأحكام الصحية وذلك بقدر ما أن الطاعون يعاود الظهور في الإسكندرية (٥٠). لكنه يهاجم أيضاً مسلك الجنود السيِّيء تجاه السكان وهو يعلن أنه سوف يعاقب بقسوة المصادرات غير المشروعة، والاعتداءات على النساء، وخاصة السرقات التي يبدو أنها تصبح الظاهرة الأكثر انتشاراً. وبما أن هذه التحذيرات لا تكفي، فإنه يعهد التذكير بها في أمر يومي مسهب يعبر فيه عن استيائه من مسلكهم.

«أيها الجنود، فلتكونوا إذاً نبلاء في تعاملكم مع المصريين. ولكن، ماذا أقول؟ إن المصريين اليوم فرنسيون؛ إنهم إخوتكم. فلتحرصوا على مراعاة الشيوخ؛ ولتحرصوا على احترام النساء، ولتحرصوا أخيراً على أن تكونوا عادلين. ما هو المجد الذي سوف تكسبونه عندما تسيئون معاملة رجل يرتعد من مجرد مظهركم، عندما تخطفون أو تهينون امرأته؟ فلتعاملوه إذاً بمثل ما تريدون منه أن يعاملكم به، إن كنتم في مكانه وكان في مكانكم. أيها الجنرالات، بالقادة الأسلحة، أيها الضباط من جميع الرتب، فلتكرروا بلا توقف هذه اللغة على الجنود الذين يأتمرون بأمركم؛ قولوا لهم إنهم عندما يضطرون إلى استخدام أساليب القسوة، فإنني أكون أكثر حزناً من أولئك الذين أعاقبهم؛ وقولوا لهم إنني بينما أقضي الأيام والليالي في الاهتمام بما قد يعود عليهم بخير ما، فإنهم مدينون لي، بل وبدرجة أكبر، مدينون لشرفهم هم، بأن يتصرفوا كجمهوريين حقيقيين ونبلاء» (٥١).

وهذه المساواة بين الفرنسيين والمصريين، يعلي مينو من شأنها حتى في المجال الاقتصادي. ففي أوائل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص أقمشة الثياب مسؤولي الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع في مصر. ويرى مينو في ذلك على الفور فرصة لتحويله إلى مركز تعليم لتدريب المصريين على الطرق الحديثة. لكن المديرين، الذين يخشون من منافسة في

المستقبل للصناعة الفرنسية، يرفضون ذلك. ويؤكد كونتيه على الملأ أنه لن يعلم المصريين شيئاً وأنه لا يقبل الاشتراك فى المشروع إلاّ بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وأن يتم، فى حالة الجلاء عن مصر، إخراج المعدات أو تدميرها. ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج الصمائيين (٥٢).

صيف ١٨٠٠

إذا ما قرأنا الجبرتى، لتبين لنا أن الشاغل الرئيسى للمصريين، أو للقاهريين على أية حال، خلال صيف عام ١٨٠٠، كان هو دفع الضرائب غير العادية. والحال أن التدابير الضريبية الجديدة، التى من المتوقع سريان مفعولها فى الخريف، قد أوّلت كمصائب جديدة. بل إن الأمر سوف يصل بكاتب الحوليات المصرى إلى حد القول بأن الفرنسيين وأعوانهم الأقباط هم أبالسة حقاً. إن الملتزمين أنفسهم لم يتصوروا بمثل هذا الشكل مع رعيتهم... (٥٣)

وكان الأثر المباشر لهذه التدابير هو تخفيف المبادلات واستثارة ارتفاع للأسعار، فى حين أن الفترة السابقة كانت قد تميزت بأسعار جد منخفضة (٥٤). كما أن الجنود الذين يحصلون الآن على رواتبهم نقداً يصبحون ضحايا لهذا الارتفاع. والواقع أن الاقتصاد الحضرى منهك تماماً من جراء الضرائب جد الباهظة، أما مزاعم مينو بشأن رفاهية البلاد فى ظل حكمه فهى لا تتمشى مع أى شىء فى الواقع. وتستفيد الأرياف لسنتانة أفضل من الوضع، لكن أزمة المواصلات تحول دون مراكمة احتياطيات مهمة من المؤن الغذائية التى يحتاج إليها الجيش.

والأقاليم المصرية هادئة. وحسن طوبار الذى يموت فى ١٠ ميسيدور من العام، الثامن (٢٩ يونيو ١٨٠٠)، يحل محله دون صعوبات أحد أقاربه (٥٥). أما البدو فهم محتوون دائماً من جانب الطوابير المتحركة وقد عقدت معاهدات تهدئة جديدة مع القبائل. ويرجع محمد بك الألفى مرة أخرى إلى الصحراء الشرقية ويزعم أنه يريد اللحاق بمراد بك فى مصر العليا. وبما أنه لا يقرر الذهاب للحاق به، فإن مينو يرسل راكبى الجمال لاقتفاء أثره. وهم لا ينجحون فى اعتراض سبيله، لكنهم يستولون على متاعه ويرغمونه على الانسحاب (٥٦). وبعد ذلك يؤدى الفيضان إلى جعل كل حركة من المستحيلات.

وبما أن إعادة تنظيم مصر قد قطعت فى نظر مينو شوطاً بعيداً، وبما أن البلد والجيش يبديان سكينة تامة، فإنه يصبح بوسعه الاقتراب من الجناح الثانى لسياسته والذى يتمثل فى استعادة سياسة التعاون مع المصريين.

السياسة المصرية

القضـــاء

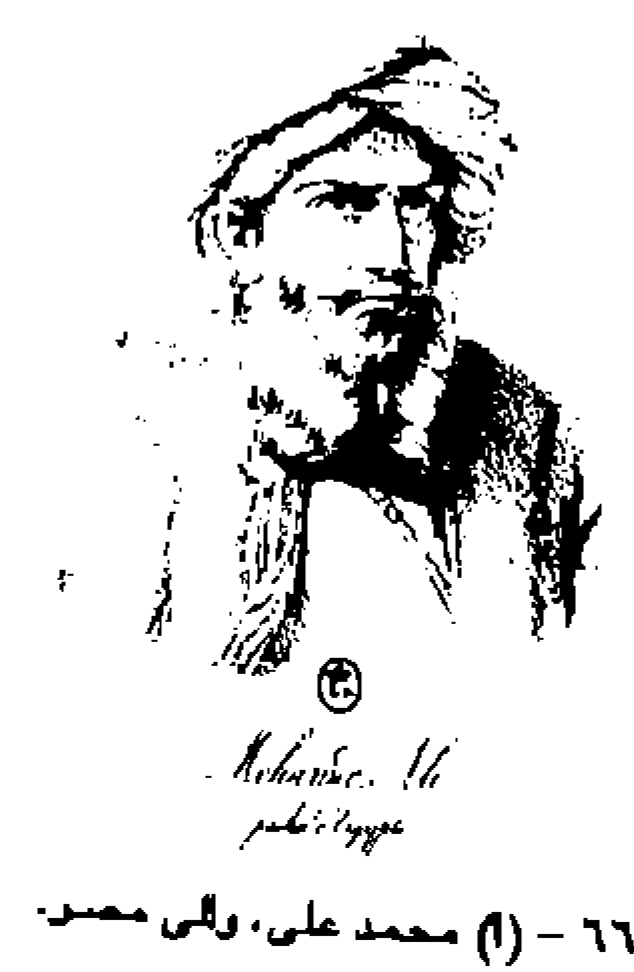
إذا كان مينو يجد الدافع إلى قراراته الضرورية في حرصه على خير السكان المصريين، فإنه لم يستأنف بعد سياسة بونابارت، وهذه السياسة، المبنية على التعاون بين المصريين والفرنسيين، لابد لها من أن تؤدى فى الأجل الطويل إلى صهر الشعبين فى إطار الحضارة الظافرة، وتحوله إلى اعتناق الإسلام إنما يبدو له وسيلة إضافية تسمح بتحقيق هذا الهدف، وهو، فى المقام الأول، يجيز له إصلاح المؤسسات الإسلامية. وهدفه هو تطبيق الإصلاحات الثورية على مصر، وهو يكاشف الجيش بهذا الهدف منذ بداية شهر أغسطس ١٨٠٠. «إن مدينة القاهرة هادئة للغاية، والضرائب فيها تدفع بشكل جد ممتاز – حتى وإن كان توزيعها بالغ السوء –، إن أرستقراطية الثروات تهيمن فى هذه المدينة هيمنة ربما تكون أقوى مما فى أى مكان آخر، وذلك بشكل يؤدى معه نفوذ الأقوياء فيها إلى سحق لا يتوقف للشعب الذى يتحمل مجمل عبء الضرائب تقريباً. ويندرج بقوة فى مقاصد القائد العام اختزال هذا النفوذ إلى أقصى حد ممكن وإنهاض طبقة الفلاحين العاملة» (٥٧).

وفى ٢٢ أغسطس ١٨٠٠، ينشئ لجنة فرنسية مكلفة بدراسة سير عمل القضاء والتحسينات التى يجب إدخالها عليه. ويشكل أوسع «التنظيم الداخلى للبلد والعلاقات المدنية التى يجب أن تنشأ بين الحكومة الفرنسية والسكان». ثم إن لجنة ثانية مؤلفة من المشايخ الأوائل علماً سوف تجتمع للإجابة على تساؤلات المفوضين الفرنسيين (٥٨). والخطوة التالية هى الأمر اليومى الصادر فى ١٠ فيندميير من العام التاسع (٢ أكتوبر ١٨٠٠) والذى يعيد تنظيم إدارة القضاء.

واعتباراً من ذلك التاريخ، فإن محاكم كل مصر (بما فى ذلك المحاكم الموجودة فى الأراضى التى تم التنازل عنها لمراد بك) سوف تمارس عملها القضائى باسم الجمهورية الفرنسية. وسوف يكون على جميع القضاة، أياً كانت ديانتهم، نيل تعيينهم فى وظائفهم من الحكومة الفرنسية. ويجرى إلغاء شراء وظائف القضاة. ويتم استعادة ديوان مؤلف من مسلمين فقط ومهمته هى السهر على كل ما يتعلق بسير عمل المؤسسات الإسلامية (تعيين القضاة الشرعيين، المساجد، الأوقاف، التعليم، الحج...). وسوف تكلف القوة العامة



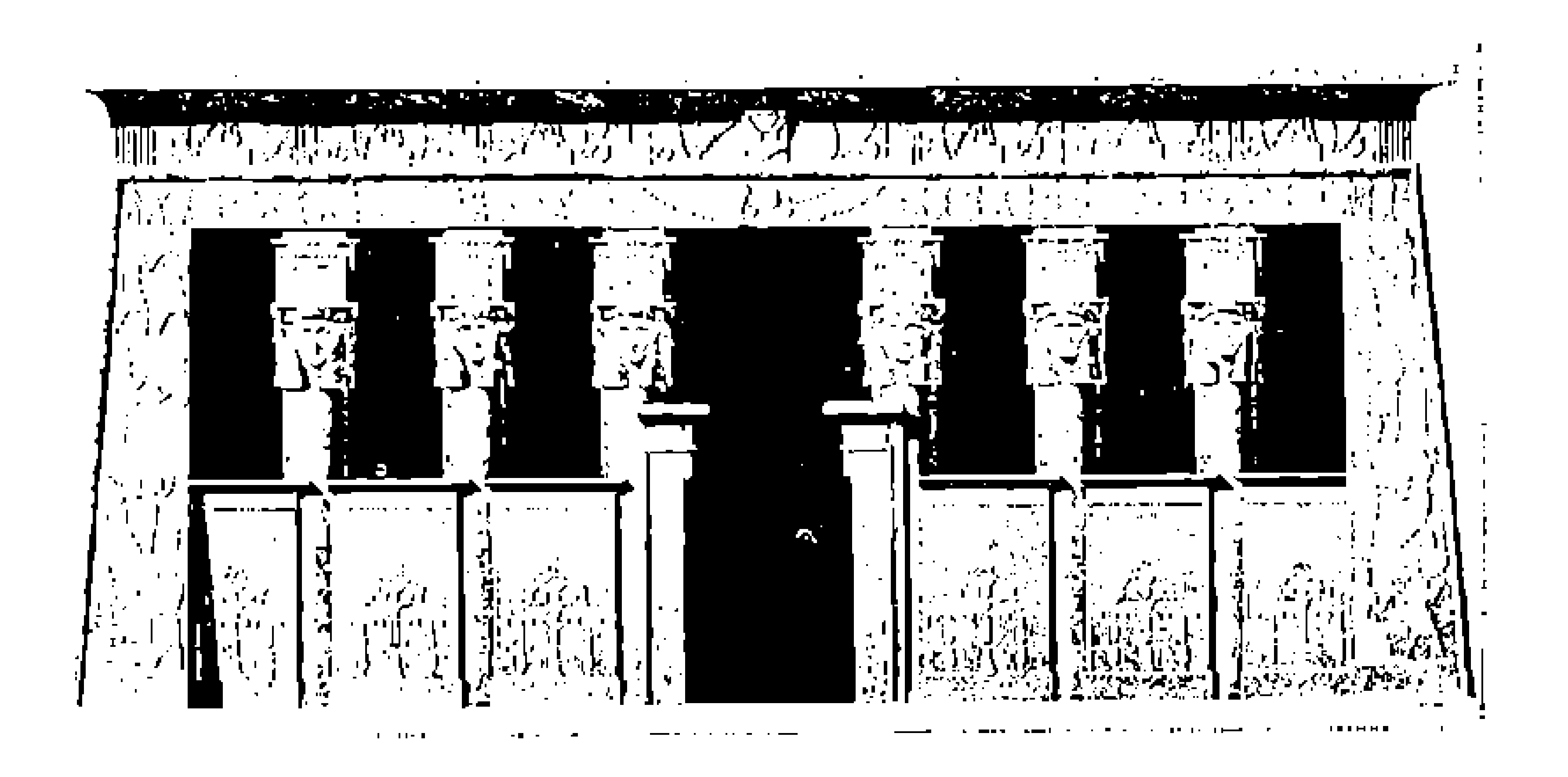
٦٥ – سيدنى سميث عند الانزال قرب الإسكندرية.



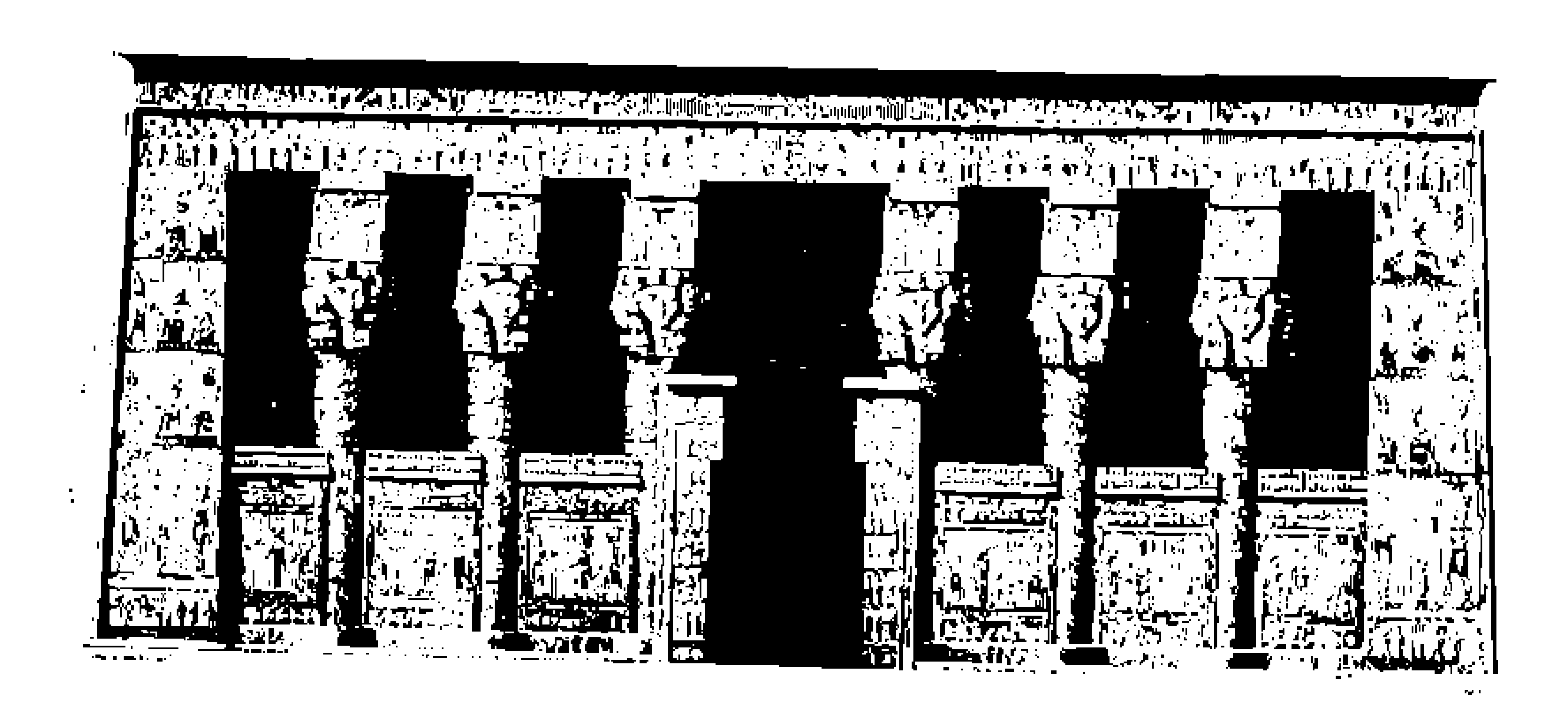
٦٦ – (أ) محمد على، والى مصر.



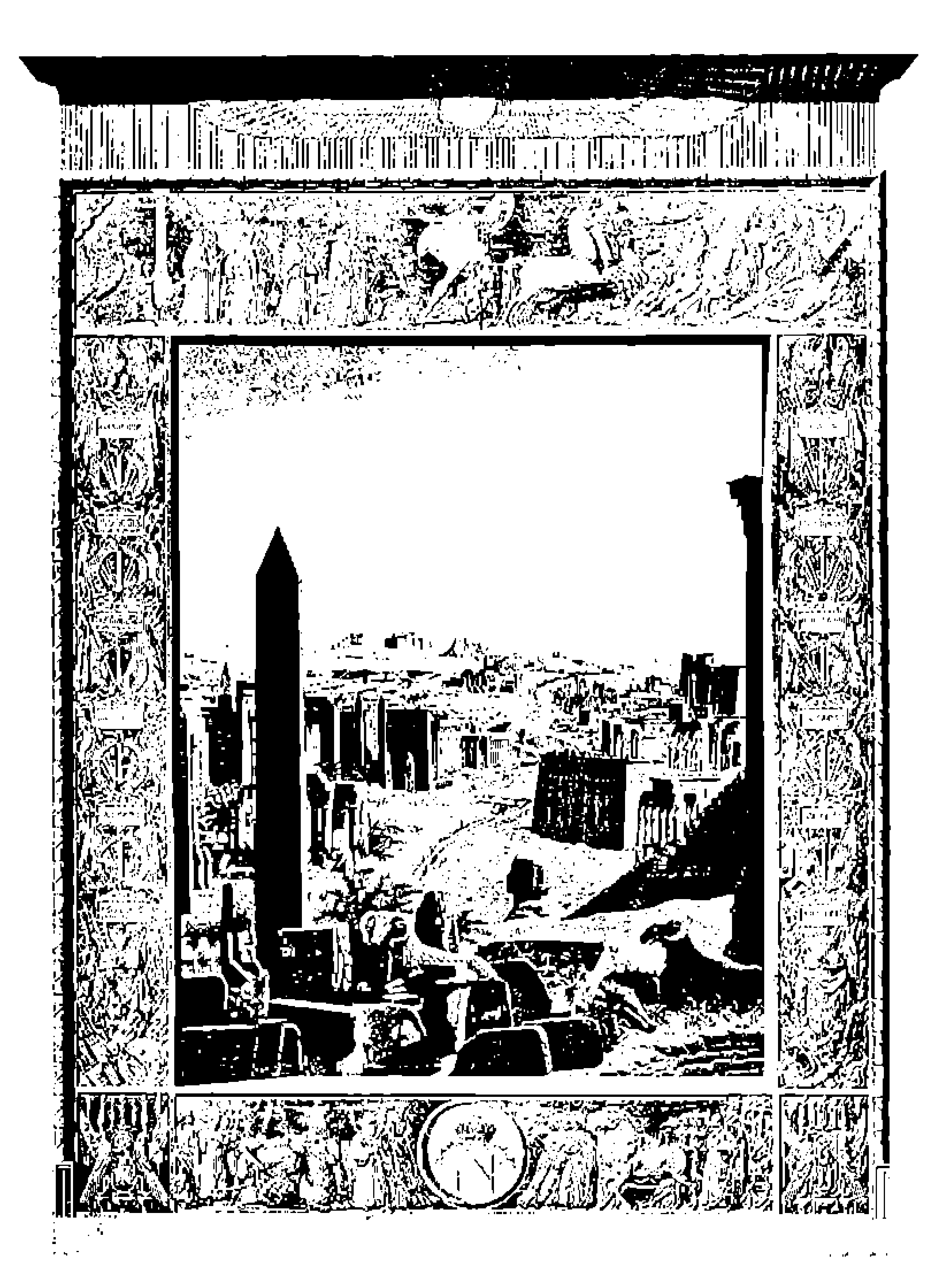
(ب) جنديان من فيلق راكبي الجمال.



٦٧ – واجهة معبد دندره. استرجاع فيفان دينون.



٦٨ – واجهة معبد دندره. استرجاع بولوا وديفيلييه.

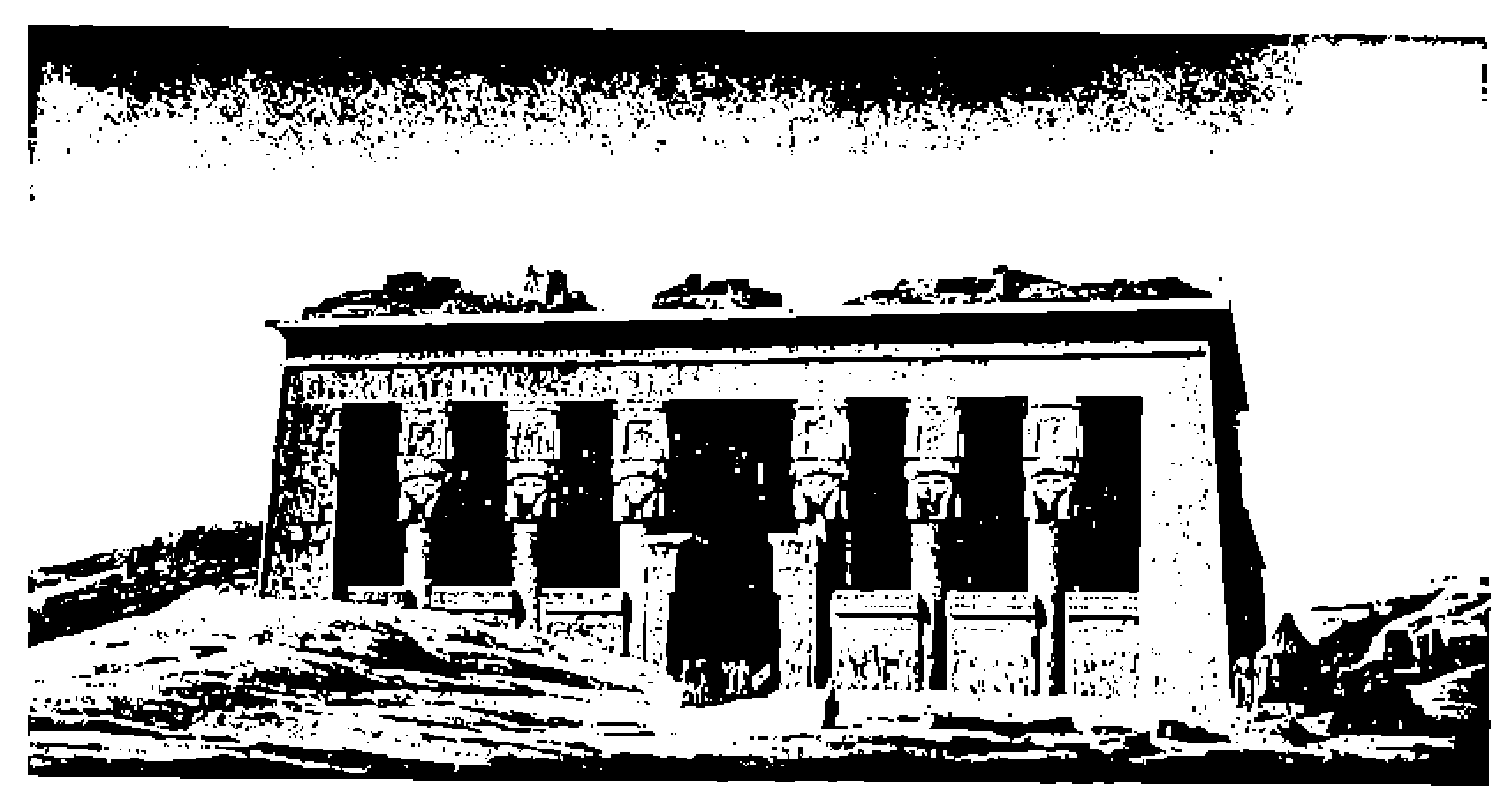


٦٩ – الرسم المواجه لعنوان كتاب وصف مصر.

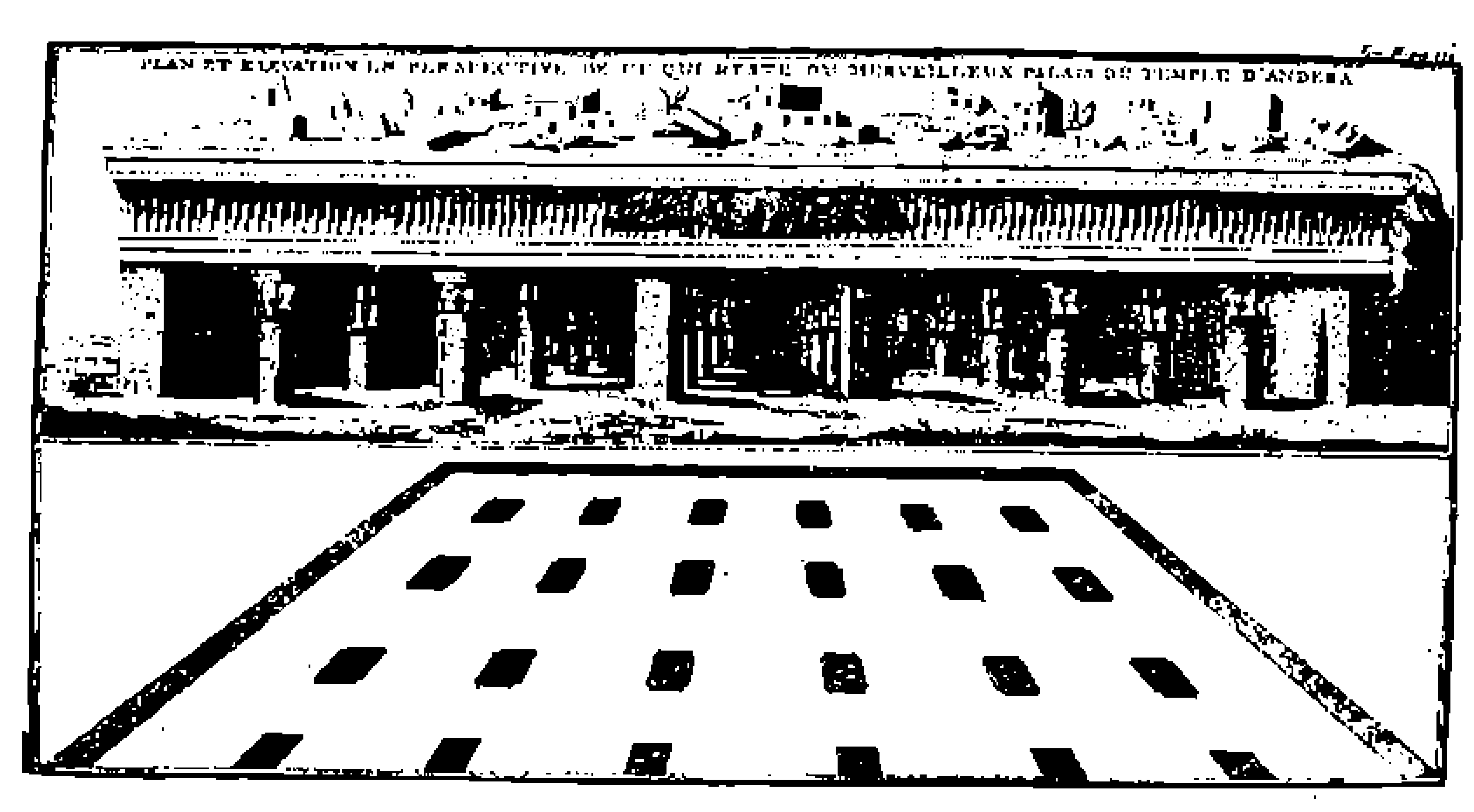


٧٠ – الكرنك. بوابة ايفرجيت ومعبد خونسو كما صورهما دينون.

٧١ – الكرنك. بوابة ايفيرجيت ومعبد خونسو كما صورهما سيسيل.



(ا) رسم سيسيل فى عام ١٧٩٩.



(ب) رسم لوكاس فى عام ١٦٩٩.

٧٢ - واجهة معبد دندره.

بتطبيق القانون، لكنها سوف تكون تابعة على نحو صارم لقرارات القضاة الشرعيين. وسوف يتمتع غير المسلمين بمحاكمهم الخاصة للنظر في أحوالهم المدنية. أما جرائم القتل فسوف يجرى إصدار الأحكام فيها بموجب التشريع المصرى، وسوف تنفذ السلطات الفرنسية عقوبة الإعدام. ويجرى على نحو صريح إلغاء العادة، جد المتأصلة في الأرياف المصرية، والخاصة بدفع الدية، أو تقديم تعويض مالى للأسرة التى يتعرض أحد أقاربها للقتل، سعياً إلى تجنب ظهور مسلسل ثأر دموى. وأما السرقات وأعمال العنف المرتكبة بين فرنسيين ومصريين، وبين غير مسلمين من طائفة واحدة أو من طوائف مختلفة، فسوف يحكم فيها عن طريق لجنة خاصة يسميها القائد العام. لكن الجرائم ذاتها فى حالة ارتكابها بين مسلمين وغير مسلمين سوف تتبع محاكم القضاة الشرعيين.

الديوان الجديد

كان عدد أعضاء الديوان الجديد تسعة : المشايخ الشرقاوى والفيومى والأمير والمهدى والبكرى والسرسى والجبرتى (كاتب الحوليات نفسه) والشريف السيد على الرشيدى(٥٩). وكان مينو قد أخرج عن السادات، إلا أن هذا الأخير قد جرد من الجزء الأعظم من ممتلكاته وهو لا يمارس بعد تدخلا عاماً. ومن جديد يصبح فورييه مفوضاً فرنسياً لدى الديوان.

وجنباً إلى جنب إعادة تكوين الديوان، يوجه مينو بياناً مطولا إلى سكان مصر، لقد جاء الفرنسيون لجلب السعادة إلى مصر. وهو، مينو، يتعهد بالعمل على الزوال النهائى للمظالم، وبتأمين إدارة منتظمة تحترم حقوق السكان، وبحماية الفلاحين من تعديات الملتزمين ومشايخ البلد الذين لن يكون بوسعهم طلب أكثر مما يبيحه القانون وإلا فإنهم سوف يقعون تحت طائلة تجريدهم من ممتلكاتهم، ولن تتكرر بعد كافة الاختلاسات التى تتحمل المسؤولية عنها الطبقات العليا.

«إلام آلت الممتلكات التى تخص المساجد؟ إلام آلت الأوقاف الخيرية الضخمة التى أنشأها أجدادكم؟ هل آلت إلى صيانة المساجد؟ إننى أراها فى كل مكان خربة أو على وشك الانهيار. هل آلت إلى إطعام الفقراء؟ إنهم فى كل مكان يموتون جوعاً؛ والشوارع والطرق غاصّة بهم. هل آلت إلى رعاية المرضى والعجزة والعميان وجميع من لا مورد لهم؟ إن النقود التى كان من المتصور أن تحصل عليها هى كالمساجد فى أفدح اختلال: والتعساء

المعزولون فيها إنما يشبهون بالأحرى ضحايا حكم عليهم بفقدان الحياة، يشبهون رجالا مجتمعين لتلقي ما يخلف نكبتهم. فمن إذاً الذي استهلك كل هذه الممتلكات، كل هذه الأوقاف؟ إنهم رجال الوباء نجحوا حتى الآن في خداعكم، وقد انقضى هذا الزمن. كما أنني أكرر لكم أنني قد تلقيت الأمر من الجمهورية الفرنسية ومن القنصل بونابارت بأن أعمل على سعادتكم؛ وأنا لن أتوقف عن عمل ذلك، لكنني أنبهكم أيضاً إلى أنكم إن لم تكونوا مخلصين للفرنسيين، وإن سولتْ لكم أنفسكم من جديد – مدفوعين بنصائح خبيثة – أن تهبوا ضدنا، فإن ثأرنا سوف يكون رهيباً، وأشهد الله ونبيه على أن جميع المصائب سوف ترتد على رؤوسكم. هل تتذكرون ما حدث في القاهرة وفي بولاق وفي المحلة الكبيرة وفي مدن أخرى في مصر؟ إن دماء آبائكم وأخوتكم وأبنائكم ونسائكم وأصدقائكم قد سالت كأمواج البحر؛ وقد دمرت بيوتكم، وخربت ممتلكاتكم والتهمتها النار. فما الذي كان سبباً في كل ذلك؟ النصائح الخبيثة التي استمعتم إليها، الرجال الذين خدعوكم. فليكن هذا الدرس عبرة لكم إلى الأبد! كونوا حكيمين، وودعاء؛ اهتموا بأعمالكم، بتجارتكم؛ أحرثوا أراضيكم؛ وفي جميع الأماكن لن تجدوا في الفرنسيين غير أصدقاء كرماء، وحماة ومدافعين؛ أقسم لكم على ذلك باسم الله الحي القيوم، باسم الله الذي هو على كل شيء شهيد، الذي بيده أمر كل شيء، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» (٦٠).

وبالنسبة للمشايخ، فإن استعادة الديوان هي وسيلة للتمكن من جديد من التوسط لدى الفرنسيين ولتخفيف معاناة السكان إلى حد ما. وفي الجلسة الأولى، في ٣ نوفمبر ١٨٠٠، يسترد الشرقاوي والمهدي وظيفتيهما كرئيس وكاتم بحسب الترتيب. ويدرك المشايخ بسرعة بالغة أن مجال اختصاصهم قد أصبح محدوداً أكثر مما في السابق. فالديوان الجديد ليس أكثر من محكمة استئناف في مجال القانون الإسلامي. والمسائل المالية كالمسائل المتعلقة بالالتزام ليست من اختصاصهم (٦١).

وأحد الأعمال الأولى التي يطلبها مينو منهم هو كتابة رسالة إلى بونابارت، والأرجح أن المهدي هو الذي يحررها، وليس النص غير تقريظ طويل لعمل بونابارت وبالتبعية لعمل مينو.

«نحن أصدقاء الفرنسيين، الذين نسعد لسعادتهم، كما يسرهم ما يسرنا، غمرنا الفرح حين علمنا أنكم قد سرتم لإحراز نصر مبين، وأنكم قد اجتزتم الجبال مع قواتكم ومدفعيتكم، وأن سرعة زحفهم لم تدع لأحد أية برهة لالتقاط الأنفاس؛ وأنكم قد انضممتم

إليهم بشخصكم في اللحظة التي كان وجودكم فيها ضرورياً لهم لإحراز النصر؛ وإنكم قد شملتكم رعاية السماء؛ وإن بشير النصر قد أعلن انتصاراتكم؛ وأن ألطاف السماء قد أحاطت بكم دون أي انقطاع؛ وإن الحماية الإلهية قد صاحبت كل مساعيكم. ومن ثم فقد أحرزتم النصر. إننا نحمد الله على نجاحاتكم ونسميكم سيف الله، الذي يصيب نصله أعداءكم ومن يقاومونكم. واليوم نؤكد لكم بأكمل الإخلاص وبصراحة تتناسب مع ثقتكم أن الطائفتين المصرية والفرنساوية ليستا بعد غير شعب واحد توحده الصداقة الوثيقة والمخلصة؛ وهذا الاتحاد لم يكف عن التزايد يوماً بعد يوم، وذلك برعاية صديقنا المشهور عبد الله مينو، المتميز بين جميع الرجال، والذي تجعله حكمته ونبل مشاعره جديراً بالاحترام بين جميع أهل زمانه. إننا ندعو العلي القدير أن يتكرم وأن يثيبه على رحمته وحكمة إدارته».

وسوف ينتشي بونابرت انتشاءً عظيماً بهذا النص بحيث إنه سوف يأمر بنشره بالعربية مع ترجمة فرنسية بقلم سلفستر دوساسي في المونيتير (٦٢). ويؤثر مينو بتر المجاملات الموجهة إليه في مقتطف الرسالة الذي يقدمه في أمره اليومي الصادر في ٣ فريمير من العام التاسع (٢٣ نوفمبر ١٨٠٠).

ولم تكن تنبيهات مينو كلاماً في الهواء. إن تاجر زيت، تمت الوشاية به، وفقاً للجبرتي، لإدلائه بعبارة مشؤومة ضد الفرنسيين، يجري الحكم عليه فوراً بالموت ويتم إعدامه (٦٣). وفي بيان جديد إلى السكان، يستشهد القائد العام بهذا المثل لكي يذكر بإصراره على إنزال العقاب القاسي بكل من يدلي بأقوال من شأنها التحريض على التمرد(٦٤).

القضاء على الالتزام

إن موضوع الانزعاج الرئيسي بالنسبة للطبقات المصرية العليا هو مصير الالتزام. وقد فسر الفلاحون المصريون بيان مينو بأنه دعوة إلى الكف عن دفع أي شيء لملتزمي الضرائب. والحال أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد تعرضوا لعبء ضريبي جسيم فرضه الفرنسيون عليهم خلال فرض الضرائب غير العادية وكانوا مضطرين إلى الاستدانة. ولما كانوا قد خنقوا مالياً، فإنهم يوجهون عريضة جماعية إلى ديوان القاهرة ويوضحون أن

الالتزام يجب أن يعتبر ملكية حقيقية؛ «إن السادة، بدفعهم الميرى للباب العالى، قد أصبحوا ملاك القرية وليس الفلاحون والبرهان على ذلك هو أنهم قد تمتعوا بحق التصرف فى هذه الممتلكات وبيعها أو شرائها خلال حياتهم، وبعد موتهم، تصبح هذه الأراضى حرة، وعندئذ، كان أقارب الميت يستردونها بدفع رسوم التسجيل ويتصرفون فيها بالشكل الذى يحلو لهم، وهذا هو السبيل المتبع فى مصر وفى البلدان الأخرى لمراعاة جانب الرعية لا تجريدهم من أسباب عيشهم».

وإذا لم يدع الفرنسيون لهم ما يحبون به، فإن الملتزمين مستعدون لمغادرة مصر والعيش كمتسولين (٦٦). ويعلن الديوان عدم اختصاصه بمعالجة الأمر ويحيل المسألة إلى السلطات الفرنسية (٦٧). ويرد مينو من خلال فورييه بأنه لا ينوى القضاء على الالتزام، فكل ما يهدف إليه هو العمل على مراعاة حقوق الشعب المصرى (٦٨). وكما هى العادة مع مينو، فإن كل شىء ينتهى بتوجيه بيان إلى سكان مصر يوبخ فيه مقدمى العريضة، المشتبه فى أنهم يكنون مشاعر عصيان بل وتمرد، ويوبخ الديوان الذى نسى واجباته، على قبول العريضة (٦٩).

والواقع، أن احتجاجات الملتزمين إنما تدفع الفرنسيين إلى إعادة فتح ملف الضرائب الريفية. ويدرك استيف أن من المستحيل تمييز الضرائب، التى يحصل عليها ملتزمو الضرائب بشكل شرعى، من الجبايات غير المشروعة؛ «إن كل شىء مشروع وفقاً لهم ووفقاً للعرف ولا شىء يدل على ذلك». على أن استيف يرى أن الدخل الحقيقى للملتزم يرتفع فى المتوسط إلى ثلث الضريبة الإجمالية التى تؤديها القرية وهو يقترح ترك $\frac{٧}{٢٤}$ من الضريبة للملتزم، وهو ما لابد له من أن يكفيه. «بل إن هناك كثيرين منهم يكسبون من النظام الجديد للأمور» (٧٠). وبعد ذلك بوقت قصير، فإن قائد الكتيبة دوسار الذى لا يعرف جيداً غير مصر العليا يقترح إلغاء الزراعة الجماعية والتوزيع السنوى للأراضى كما يقترح جعل جميع الفلاحين ملاكاً، الأمر الذى سوف يسمح بزراعة أكثر كثافة. ولابد لذلك من القضاء على سلطة الملتزمين ومشايخ البلد؛ وبعد ذلك بوقت قصير، سوف يجرى العمل على جلب مستوطنين فرنسيين «سوف يحملون إلى المصريين بذرة وقدوة الجد والنشاط» (٧١).

ويحظر استيف على الملتزمين التواجد فى أراضيهم. وهو يخشى من أنهم، بحجة البحث عن متأخرات الميرى عن عامى ١٢١٣ و ١٢١٤، سوف يبحثون بالفعل عن جباية الميرى عن عام ١٢١٥ فى حين أن الفرنسيين لم يتخذوا – بَعْدُ – قراراً نهائياً. وبعد ذلك

بأربعة أيام، يفرغ مينو من مشروعه الخاص بالإصلاح الشامل للضرائب الريفية، الذي يبدو أنه لم ينشر قط في الأوامر اليومية. على أن هذا المشروع هو المحصلة المنطقية للتطور المتبع منذ بدايات الحملة (٧٣).

ويبدأ النص بالضرب صفحاً عن الماضي: «إن جميع الرسوم المستحقة والمدفوعة حتى اليوم، تحت أي مسمى ولأي سبب أياً كان، من جانب فلاحي قرى مصر، تعتبر وتظل ملغاة بالكامل اعتباراً من عام ١٢١٥ للهجرة» (٧٤).

ولن توجد بعد غير ضريبة واحدة وسوف يخضع لها جميع الملاك بلا استثناء. وسوف يجرى تقسيم الأراضي إلى ثلاث فئات بحسب نوعياتها. وهذه المرة يعتبر الالتزام ملغياً تماماً: «إن قرى مصر التي تخص ملتزمين خاصين سوف تخضع بالمثل لأداء واحد للضريبة المشار إليها ولن تدفع بعد أياً من الرسوم القديمة التي كانت مدينة بها، لكن الجمهورية الفرنسية [...] سوف تترك لمدى الحياة لحساب هؤلاء الأفراد [الملتزمين] معاشاً سنوياً، مأخوذاً من ضريبة هذه القرى، وذلك ليحل محل جميع الرسوم العينية والنقدية التي يتمتعون بها الآن على أراضي فلاحي قراهم».

وسوف يتم تحديد المعاش كما أعلن استيف ذلك بنسبة ٧/٢٤ من الضريبة المحصلة. وسوف يتعين على الملتزمين الامتناع عن أي تدخل في شؤون القرى. وسيحصل مشايخ البلد على نسبة ٣/٢٤ من الضريبة التي سوف تتم جباية رسومها المقررة عليها من المنبع. أما شيخ البلد المكلف بجباية الضريبة والمعاون القبطي الذي يساعده، فسوف يحصلان على نسبة ١/٢٤ من الضريبة (بنسبة ٢/٣ للشيخ وبنسبة ١/٣ للأمين). والحال أن المعلم هو الذي سوف يعين الشيخ الذي سيأخذ اسم الأمين، والمعاون القبطي. وسوف يجرى تكريس نسبة ١/٢٤ لأعمال الري. ويتم إلغاء أعمال السخرة المجانية تماماً. وسيجرى الاضطلاع على الفور بمسح عام للأراضي حتى يتسنى تحديد الملاك وإنجاز تصنيف الأراضي. ويتم إلغاء المدفوعات العينية ويتوجب دفع كل شيء نقداً. وتتحرر الزراعة من كل نظام جماعي.

لكن قوة الأشياء سوف تحول دون تطبيق إصلاح مينو. لكن هذا الإصلاح يؤذن بإصلاحات مستهل حكم محمد علي، خاصة فيما يتعلق بإلغاء الالتزام وإيجاد مساحة للأراضي، وهي الإصلاحات التي سوف تحدث بعد ذلك بعشر سنوات. على أن منطقها لن يكون هو نفسه وذلك بقدر ما أن محمد علي سوف يسعى على العكس من ذلك إلى القضاء على أي اتجاه نحو ملكية الأرض (في العقود الأولى لعهده على الأقل). وليست

هنالك ضرورة لاستدعاء أواصر نسب مباشر بين عمله وعمل مينو. ومن حيث الجوهر فقد استفاد محمد على من الضريبة القاضية التى وجهت إلى الالتزام خلال السنوات الثلاث لسيطرة الفرنسيين. وحتى إذا كان الالتزام سوف يحاول، بعد رحيلهم، إعادة التشكل، فإن الاستنزاف المالى للطبقة السائدة القديمة واستمرار الفتن حتى عام ١٨١١، سوف يؤديان إلى إيجاد نظام جديد سيضع الدولة، مثلما وضع نظام الفرنسيين، فى علاقة مباشرة مع مشايخ القرى. وخلافاً للحال فى الأقاليم الأخرى للإمبراطورية العثمانية، فإن عائلات الملتزمين فى القرن الثامن عشر لن تكون هى عائلات كبار ملاك الأرض فى الشطر الثانى من القرن التاسع عشر (٧٥).

مينو والمشايخ

إلى جانب المسائل الضريبية، يهتم مينو بنشر المعارف. وهو يخطط لإنشاء صحيفة عربية تحمل اسم التنبيه، التى يتوجب تحريرها والإشراف عليها من جانب أعضاء الديوان. وسوف يكون عليها نشر مراسيم الحكومة الفرنسية، ومراسيم الديوان، وأخبار الأحداث الأوروبية والآسيوية، وبعض المناهج المتصلة بالفنون وبالعلوم. وبطبيعة الحال، فسوف يتعين إضافة مقالات حول الأخلاق ومبادئ كل حكم صالح (٧٦). ويبدو أن هذا المشروع لم يصل إلى شىء، ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى لا مبالاة أعضاء الديوان.

وينصب اهتمام مينو أيضاً على الحشيش. ويجرى فرض حظر صارم على التعاطى على شكل سائل مركز أو على شكل عشب للتدخين. ولا يستهدف ذلك سوى المسلمين. وسوف تجرى معاقبة المخالفين بالحبس لمدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر (٧٧). ومن هذا النوع من العلامات ندرك ظهور الحداثة فى مصر.

وفى المقابل، فإن أعضاء الديوان يشكرون مينو على الإصلاحات التى أدخلت على مقياس النيل. والأرجح أن المهدى هو الذى كتب هذا النص المليء بالمدائح للجنرال الفرنسى، «إن هذا الإصلاح هو نصب تذكارى لكم حتى آخر الزمان. فليحفظ الله صنيعكم للشعوب، وليمد فى عمركم وليحقق الاستقرار إلى الأبد لأسلوب إدارتكم وليأذن بأن تكونوا دائماً موفورى الفضيلة والرحمة من أجل شعوبكم. ولتعلموا أنكم للثناء أهل كقائد وكإنسان» (٧٨).

وفى ذات الوقت الذى يوجه فيه الديوان إليه المديح والثناء، فإن الديوان يطلب إلى مينو إنزال عقاب قاس باحتفالات الطرق الصوفية المسرفة، ويسارع مينو إلى النزول على رغبات

الديوان ويأمر السلطات العسكرية بتوقيف وحبس «الرجال الذين، كما يوضح ذلك ديوان القاهرة، يزعمون أن لهم قداسة ويجوبون الشوارع عرايا أو شبه عرايا، وينهمكون على الملأ في أعمال تدان وتقمع ببالغ الحرص في جميع البلدان التي يتواجد فيها أبسط احترام للآداب العامة (٧٩)».

وتتواصل العلاقات الطيبة مع التهنئات التي يوجهها الديوان إلى مينو بمناسبة مولد ابنه سليمان مراد جاك مينو. والحال أن مينو، الذي تأثر بذلك تأثراً مخلصاً، إنما يغتنم تلك الفرصة ليوجه خطاباً مطولاً تجرى قراءته في الديوان. وقد سجل الجبرتي نصه العربي. ويجرى فيه تمجيد القرآن الذي يفصح عن النظام الذي فرضه الله على الكون، أكان ذلك في الطبيعة أم في أخلاق البشر. وهو يعلن إنشاء سجل مدنى حقيقى للمصريين : فإلى جانب التسجيل الإلزامى بالفعل للوفيات سوف يضاف تسجيل المواليد والزيجات وحالات الطلاق (٨٠). ويرد الديوان برسالة مطولة يجرى فيها الثناء من جديد على مآثر مينو: إن السجل المدنى سوف يكون في الواقع جد مفيد على نحو خاص فيما يتعلق بتسوية مسألة التركات (٨١). والحال أن مينو، المنتشي، يأمر بنشر هذا النص الذي يجرى فيه تصويره على أنه الرجل الذي يبدو أنه «قد قُدِّرَ له أن يواصل، في بلاد مصر، وأن ينجز جميع المشاريع المجيدة لبونابارت ولخليفته الأول (لتكن العزة لاسميهما على الدوام!)» (٨٢).

الصلات الثقافية

من جديد، يتردد المشايخ وأعضاء الطبقة السائدة على مؤسسات الفرنسيين. وهم يترددون بشكل خاص على الأوبرا التي أقامها الفرنسيون للتو (٨٣). ويرد المعلم يعقوب على ذلك بإقامة مأدبة عظيمة لكبار ضباط الجيش، يقدم بعدها تمثيلا لكوميديا عربية(٨٤).

ولعل الشيء الأكثر أهمية بالنسبة للمستقبل، هو أن المشايخ يزورون المطبعة الوطنية التي يديرها مارسيل. ويتردد عليها المهدى والفيومى والصاوى عدة مرات. ويندهش الشيخ محمد الفاسى، الذى عرف مطبعة القسطنطينية، وعدد من السوريين الذين شهدوا مطبعة كسروان في لبنان، من سرعة ودقة العمال الفرنسيين. ويكتشف الشيخ البكرى عالما جديداً :

«إنه، بين أسئلة أخرى، يسأل ما إذا كانت فرنسا تحوز الكثير من المطابع، وما إذا كان

هناك عدد كبير منها فى الأجزاء الأخرى من أوروبا، وفى أى بلاد تعتبر أكثر كثافة، إلخ. وعند إجابته على جميع هذه الأسئلة، فإنه يتساءل أيضاً عما إذا كانت هناك منشآت طباعية فى روسيا، ويبدو جد مستغرب من الإجابة التى قدمت إليه وهى أن هذه الدولة لم تبدأ التمدن بالفعل، ولم تبدأ التحضر إلا عندما أدخلت المطبعة إليها. وهو يتساءل عندئذ عن الأثر الذى يمكن أن يكون للمطبعة على حضارة شعب، ويبدو أنه قد فهم واستحسن الأسباب التى قدمت إليه، خاصة تلك المستمدة (أولا) من سهولة النسخ الطباعى وترويج عدد كبير جدا من نسخ المؤلفات الجيدة التى عندما تظل مخطوطات لايمكن أن يطلع عليها غير عدد قليل من الأشخاص ؛ والمستمدة (ثانيا) من استحالة ضياع كل هذه النسخ أو دمارها التام من جراء أى نوع من الأحداث، وهو ما يمكن أن يحدث لأفضل المخطوطات. وهو يقول عندئذ أن هناك عدداً كبيراً من الكتب الجيدة العربية التى سوف يكون طبعها مفيداً إلى أبعد حد فى هذا البلد ؛ وأنها مجهولة من جانب العدد الأكبر من الناس وأنه يتمنى مخلصاً أن يكون بالإمكان نشرها عن طريق الطباعة. ثم خرج وهو يقول إن جميع العلوم مصدرها الله وأنه إذا ما شاء الله، فلن يكون هناك أى شىء يتعذر على الناس الاضطلاع به أو يتعذر عليهم النجاح فيه» (٨٥).

وعبر الإدخال البطىء لهذا النوع من الأفكار فى أوساط العلماء، المتجاوبة بالفعل فيما يتعلق بالعلوم، وبالنسبة للآداب، وهى الأوساط التى يسميها جيلبير ديلانو بالعلماء أنصار التنوير (٨٦)، تتهيأ النهضة الثقافية التى سيشهدها القرن التاسع عشر. إن الطهطاوى الشاب سوف يجد أساتذة منفتحين على أفكار وعلى أوضاع أوروبا. وسوف يشجعونه على زيارة فرنسا وعلى تسجيل قصة رحلته، التى تعتبر معلماً أساسياً فى تاريخ الفكر العربى (٨٧).

الأقليات

يكن مينو عداوة عميقة للأقليات المسيحية واليهودية التى يعتبرها متطفلة على الاقتصاد المصرى. وبين الأقباط، فإنه لا يحترم إلا المعلم يعقوب. وهدف سياسته هو القضاء فى نهاية الأمر على أقباط المال والضرائب. ومينو، الرجل الذى ينتمى إلى زمن التنوير، يتخذ موقف التشجيع للتجارة ومصر تعانى معاناة شديدة من انقطاع العلاقات التجارية. على أنه يهاجم مباشرة الكاثوليك اليونانيين ويأمر بمراقبة نشاطاتهم فى دمياط من جانب الجنرال رامبون. ويتيح ذلك له الفرصة لكى يعبر بوضوح عن رأيه فى المسيحيين:

«سأقول لك، بهدناء، إننى قد عرفت، منذ أن جئت إلى مصر، أن المسيحيين هم أكثر سكان هذا البلد خسة وحقارة وبين المسيحيين، يحتل الشوام المقام الأول. بخلاء، مخادعون، جبناء، حقودون، وخسيسون إلى أقصى حد، تلك هى صورتهم [...]. ومهمتى هنا هى أن أجلو تقريباً كل وجه مصر، بالتوفيق دائماً بين مصالح الجمهورية ومصالح الجيش ومصالح السكان. ولابد للوصول إلى ذلك من القضاء على تلك الروح المدمرة والتى تمثلت نتيجتها، فى ظل حكم البكوات، فى تركيز كل الثروة العامة فى أيدى عدد صغير من الأفراد.» [...] [وعندما] جئنا إلى هنا، فإنهم [المسيحيين] قد تصوروا أننا لسنا غير مماليك فرنسيين ومسيحيين سوف يحلون محل مماليك جيورجيين ومحمديين. وقد تصوروا أن السادة الجدد سوف يستخدمونهم بالشكل نفسه الذى استخدمهم به السادة السابقون، وهنا بالتحديد بدلوا يخطئون لأول مرة فى حياتهم، لأننى أريد تأسيس المستعمرة الجديدة على الأمانة والأخلاق» (٨٨)

مراد بك

بما أن مينو قد قرر أن يجعل من مصر مستعمرة، فإنه لا يسعه ألا يرتاب فى مراد بك. وكان هذا الأخير قد توصل إلى اتفاق مع الفرنسيين لأنه يخشى، وهو محق فى ذلك، من نوايا العثمانيين، ولكن أيضاً لأن كليبر بدا له راغباً فى إعادة جيشه إلى أوروبا فى مستقبل قريب، الأمر الذى يضع الزعيم المملوكى فى وضع ممتاز لإعادة الاستيلاء على مصر بسهولة.

ويلوم مينو كليبر على أنه قدم كثيراً من التنازلات إلى مراد (٨٩). وهو لا يستطيع سوى الحفاظ على الاتفاق الذى وقع عليه سلفه مع تمسكه بتطبيقه تطبيقاً صارماً وبمراقبة تحركات الزعيم المملوكى الكبير. ولا يمكن أن يكون هناك، بينه وبين مراد، الاحترام المتبادل الذى وجد بين هذا الأخير ومقاتلين مثل ديزيه وكليبر.

وينصب الخلاف على درجة استقلال مراد عن الفرنسيين. وقد أراد مينو توضيح نواياه علناً بسعيه السافر إلى مد تطبيق لحكامه العديدة إلى أراضى الزعيم المملوكى لكى يوضح تماماً أن هذا الأخير إنما هو تابع لفرنسا. على أن العلاقات كانت طيبة فى بداية حكم مينو: وقد سارع مراد إلى تهنئة الجنرال الفرنسى على صعوده إلى المنصب الأعلى(٩٠).

ويجرى الاضطلاع بمفاوضات سعياً إلى إدخال تعديلات على الشروط المالية المتعلقة بالزعيم المملوكى ويتم التنازل له عن قرى إضافية فى مقابل زيادة للخزينة التى يدفعها

سيد مصر العليا (٩١). وفي المقابل، وبالرغم من رأي بلمليس المعاكس، يرفض مينو أن يسلم له المدافع العشرة التي يطلبها من أجل الدفاع عن القصير ما إن ظهرت سفن بريطانية في عرض البحر قبالة هذا الميناء. فهو يخشى من انقلاب المماليك في حالة إنزال إنجليزي في البحر الأحمر (٩٢). على أن مراد بك يتعهد بتأمين مصر العليا في حالة هجوم عثماني (٩٣) ويؤكد أن جميع المماليك، بمن فيهم مماليك إبراهيم، مستعدون للانضمام إليه، فإن إبراهيم بك وحسن بك لا يريدان بعد أن يعاود الانضمام إليهما أحد من أولئك الذين معنا. وبعون الله، فإن أولئك الذين معهما سوف يجيئون إلينا. إنهما الآن تحت تحفظ العثمانية، مع أولئك الذين كانوا معهما من جماعتيهما في يافا. ولولا أنهم مراقبون نهاراً وليلاً، لكان الجزء الأعظم قد جاء بالفعل. وعندما تتحرك القوات، سوف يتمكنون بمشيئة الله من الهرب والمجيء إلينا. إنهم موجودون الآن [هناك] مرغمين وليس من باب الصداقة، فهم يعرفون أن العثمانيين لا يريدون خيراً للمماليك. إننا نقول لكم الحقيقة دون أي لف أو دوران. وما نخبركم به صحيح، إننا لن نحجب أي شيء خاص أو عام، وليس لدينا أي سر نخفيه عنكم لأننا ننتظر كل الحماية من الجمهورية وبدونكم لن نتمكن من أن نكون في سلام مع العثمانلية (٩٤)».

والحقيقة المباشرة، التي تظهر لمينو، هي أن مراد قادر على أن يوحد خلفه جميع المماليك، وأنه على اتصال بهم ومن ثم بالمعسكر العثماني، وأنه يستطيع، عن طريق البحر الأحمر، الدخول في اتصال مع الإنجليز. ومنذ ذلك الحين، فإنه يطلب إلى دونزيلو، المراسل الرئيسي لمراد بك، أن يراقبه بانتباه (٩٥). ويعلم مراد بك بذلك ويعلن براءته؛ وهو يرى أنه قد تعرض للافتراء عليه (٩٦). على أنه يواصل تقديم معلومات عن القوات العثمانية في سوريا (٩٧)، الأمر الذي لا يمكن له إلا أن يقوي ريبة القائد العام.

وفي مستهل بلوفيوز من العام التاسع، يعاود مهدي البحيرة الظهور في تلك الإقليم الذي يسعى إلى دفعه إلى الثورة مرة أخرى. لكن البدو، المرهوبين من قسوة عمليات القمع السابقة، يرفضون مشايعته. وإذ تطارد الطوابير المتحركة الفرنسية المهدي؛ فإنه يضطر إلى الهرب إلى الجنوب ويدخل في أراضي مراد بك. والحال أن الزعيم المملوكي، المخلص لتعهداته، إنما يتمكن بسهولة من تبديد شمل الجماعات المسلحة الأخيرة التي تتبع للمهدي القديم، ولكن دون أن يتمكن من الإمساك بشخص للراكشي الملغز (٩٨).

ويتوسط مراد بك لدى مينو من أجل الألفي، الذي انتهى أخيراً إلى الانضمام إلى معسكره، ويرسل عثمان بك البرديسي إلى مينو (١٨ بلوفيوز من العام التاسع - ٧ فبراير ١٨٠١). ويلوم القائد العام مراد بك على عدم تسليمه إليه عدو الفرنسيين هذا. والبرديسي مكلف برسالة أخرى. فهو يخبر مينو بقرب إنزال جيش إنجليزي على ساحل

البحر المتوسط، والذى سوف يتزامن معه اجتياز سيناء من جانب الصدر الأعظم مع القوات العثمانية. ومن المقرر أن يتم إنزال ثان لقوات إنجليزية – هندية فى السويس. ويرى مراد أن الفرنسيين لا يمكنهم الصمود أمام هجوم ثلاثى، أو أنهم، على أية حال، سوف يخرجون منه ضعفاء بشكل لا يمكن إصلاحه. ولذا، فإنه إذا اختار مينو التفاوض، فإنه يرجوه ألا ينسى مصالحه. أما إذا اختار مينو القتال، فإن مراد على استعداد للانضمام إليه مع مماليكه للنضال ضد الغزاة. وقد نقلت إليه هذه المعلومات الثمينة عن طريق إبراهيم بك نفسه، الذى ما يزال يتراسل معه. ويمتد مينو على عثمان بك البرديسى ويتصنع عدم تصديق صحة المعلومات المنقولة. ويرد عليه، «بأنه ليست لديه حاجة لا إلى العون ولا إلى وساطة أحد ؛ وبأن من الأفضل لمراد أن يبقى هادئاً فى الأقاليم التى منحت له وألا يتراسل مع سوريا. وقد ذكره عثمان بأن مراد بك قد احتفظ بعلاقات تخابر مع جيش الصدر الأعظم، بناءً على طلب الجنرال كليبر نفسه، ولإبلاغه بمخططات العدو المشترك؛ وقد رد مينو بأنه لا يقتدى بمسلك كليبر وبأنه لا يريد مثله بيع مصر؛ وبأن هذه المراسلات التى يجريها مراد بك لا تسره، وبأنه يشتبه فى وجود مخططات شريرة لديه وبأنه لا ينظر دون انزعاج إلى استقباله وتسليحه للمماليك الذين يجيئون من سوريا للانضمام إليه. وقد رد عليه عثمان بك بأن مراد قد سُمح له دائماً بأن يستقبل أولئك الذين ينتمون إلى بيته، وكذلك أولئك الذين مات بكواتهم، وذلك سعياً إلى اختزال جيش الصدر أيضاً» (٦٩).

وهكذا فإن مينو يهمل اتخاذ احتياطات خاصة خشية الإنزال الإنجليزى ويحرم من المساعدة الثمينة من جانب مراد بك الذى كان بوسعه استخدامه مع مراقبته عن قرب. ويرجع ذلك إلى أن الزعيم المملوكى، فى تصوره، ليس مجرد عقبة أمام سياسته الاستعمارية، بل هو أيضاً رمز لسياسة كليبر. والحال أن مينو قد نجح فى خلق شقاق لا علاج له مع جميع رفاق كليبر الذين يشكلون قيادة الجيش.

تمرد الجنرالات

الزمر العسكرية

فى كتبهم الخاصة بالذكريات أو بالمذكرات، غالباً ما يذكر من كانوا من قبل فى مصر بأن الجيش كان منقسماً إلى فريقين كبيرين يجمع أحدهما أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) إيطاليا ويجمع الآخر أولئك الذين جاءوا من جيش (حملة) ألمانيا. وهذا التمايز، الواقعى للغاية بالتأكيد، خاصة فيما يتعلق بالجنود العاديين المضطرين إلى اكتساب روح الفريق، إنما يخفى واقع المسألة. فالتباين الأساسى يتعلق بعالم الضباط، خاصة فى المراتب

العليا. إن تشكل وظيفة عسكرية حقيقية، بدءاً من التجنيدات الضخمة التي شهدتها الفترة الممتدة من عام ١٧٩١ إلى عام ١٧٩٤، إنما يقود إلى تشكل زمر من الضباط تلتف حول قادة كبار. ومن الواضح أن زمرة بونابارت كانت تتألف ممن سبق لهم العمل في جيش (حملة) إيطاليا، على الرغم من أن المرء يجد في هذه الزمرة بعض الجنرالات المنتمين إلى جيوش أخرى، والذين التفوا حول الجنرال الشاب، كما هي الحال مع ديزيه. والواقع أن بونابارت، حتى يتسنّى له تحقيق طموحاته الشخصية، كان قد أعاد معه إلى فرنسا الجانب الرئيسي من رجاله ولقد رأينا مدى قوة خيبة أمل أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار. ويشكل مينو استثناءً. وعلى الرغم من أنه جد مخالط للأوساط السياسية الجمهورية، فقد آثر بونابارت تركه في مصر وذلك على الأرجح لأنه قدر فيه حماسه للمغامرة المصرية والذي صار نادراً.

أما كليبر، دون أن يسعى إلى ذلك بالفعل، فقد شكل حوله، خلال قيادته، زمرة جديدة من الضباط، يعتبر داماس ورينييه أفضل ممثلين لهم. والحال أن الهيبة والمحبة اللتين نجح الجنرال الألزاسي في بثهما في صدور القواد حاشيته، كما في صدور جميع قواد الجيش، قد تحولتا بعد الاغتيال إلى عبادة حقيقية. ومثلما يحدث غالباً في مثل هذه الظروف، فإن الإخلاص تجاه شخص ميت إنما يحول الى جسدٍ مذهبي جامدٍ ومقدسٍ ما كان، في حياة البطل، مواقفاً ومسلكاً عمليين، أو على أية حال قابلين للتعديل، تبعاً للظروف. وهكذا فإن تكون وفياً لذكرى كليبر إنما يعني أن تصبح نصيراً لإجراء مفاوضات مع الباب العالي لإيجاد نهاية مشرفة لمشروع سيىء الترتيب، باختصار أن تكون «معادياً للاستعمار».

ولا يستثير مينو احتراماً كبيراً في صدور رفاقه في السلاح. إن احتقارهم المتزايد للقيادة السياسية المدنية للثورة قد دفعهم إلى إدانة ماضيه كرجل سياسي. وعمله العسكري يخلو من مآثر حربية بالرغم من رتبة قائد الفرقة التي وصل إليها. وهو يبدو بوجه خاص جنرالاً سياسياً. وتملقه لبونابارت إنما يستثير التقزز. ومسلكه في مصر، تحوله الى إعتناق الاسلام،وامتناعه أوتخلفه عن المسؤليات التي كانت تعهد إليه، ليس من شأنها تجميل الفكرة التي يمكن للمرء أن يكونها عن شخصه. وحماسه للاستعمار ومبتكرات الاقتصاد السياسي للسهبة التي حررها تسير في اتجاه مضاد للسياسة التي اتبعها كليبر،وقد بدا منذ وقت مبكر بوصفه زعيم اتجاه «الأستعماريين». وبينما كان

يتشبث بالبعد عن المسؤليات خلال الأشهر الأولى للقيادة كليبر.لقد يتكلم بنبرة ظافرة وحاسمة عندما علم باستيلاء بونابارت على السلطة ومن المعروف أنه قد حافظ على إجراء مراسلات خاصة خارج الطريق الهيراركي، مع القنصل الأول. ومن السهل استنتاج أنه قد شجب فيها سياسة كليبر.

على أن القواعد العسكرية واضحة. وهي تجعل منه ثالث قائد عام لجيش الشرق. وعند صعوده إلي ذلك المنصب، كان قد أعلن أنه سوف يعتمد على نصائح كبار الضباط. وسرعان ما يدرك هؤلاء الأخيرون أنه لا مجال لشيء من ذلك. فمينو يعتكف في مكتبه الخاص بمختلف الوثائق، موحياً بأنه منكب على العمل ليل نهار وبأنه يفعل كل شيء بنفسه. ويضطر زائروه إلى المكوث طويلا في قاعة الانتظار وينتهون أحياناً إلى عدم إجراء اللقاء. ولهذا فإن الزيارات تصبح نادرة وتقتصر على مسائل الخدمة (١٠٠).

إن التأكيد الفورى والمفاجئ لتحويل مصر إلى مستعمرة إنما يقابل بوصفه هجراً لسياسة كليبر وشجباً لها. وفي هذا الاتجاه نفسه يسير إعلان ٥ ميسيدور من العام الثامن حول أساليب الوجود الفرنسي في مصر، وإعادة تنظيم الإدارة تتم دون استشارة الكوادر العليا للجيش التى لا يتم إبلاغها بالقرارات المتخذة إلاّ عبر نشرها في الأوامر اليومية. والوعود الكثيرة المقدمة إلى الجنود والخاصة بتحسين حالتهم الراهنة إنما تبدو بالقدر نفسه كلوم لعمل سلفه. ثم إن النبرة الخطابية والمتمسحة بالفضائل والتى يستخدمها القائد العام الجديد إنما تبدو باعثة على السخرية ومزرية بالمقارنة مع اقتضاب ووضوح كلام كليبر.

الخلاف السياسي وتنازع الأشخاص

إن النزاع بين مينو وجنرالاته مزدوج، فهناك أولاً المسائل الواضحة التى تتعلق بالأشخاص، خاصة مع رينييه، الذى يأسف بمرارة لأنه لم يك حاضر الذهن بما يتيح له تولى القيادة عند مصرع كليبر، إلا أن هناك أيضاً، وبسرعة بالغة، خلافاً كلياً وعميقاً حول السياسة التى يتبعها مينو، والتى تعتبر كارثية من جميع زوايا النظر. وكما هو معتاد في هذا النوع من المواقف، فليس من شأن اختلاف الرأى إلا أن يزيد من احتداد التوتر ويجرى تفسير كل شيء على أنه تهجمات شخصية ومباشرة. وعيب مينو الأكبر سوف يتمثل في تحويل ما لا يعدو أن يكون في البداية غير تصورات سياسية متناقضة إلى عداوات تؤدى إلى استحالة سير العمل الصحيح للآلة الحربية وتصبح سبباً للفشل النهائي.

وقد رأينا، خلال جنازة كليبر، أن رينييه يحتج على الدور الذى يغتصبه مينو لنفسه، ثم رأينا أن تركة الجنرال الألزاسى تصبح سبب جدل عنيف بين داماس والقائد العام. والحال أن رينييه وداماس لا يخفيان، فى الشهور التالية، معارضتهما للجنرال، وهما ينتقدان علناً التدابير المتخذة، والتى تعتبر عموماً حماقات، خطرة أحياناً. على أن تسوية الحساب الأولى قد حدثت بين مينو ولانوس الذى كان قد خلفه فى قيادة الإسكندرية وغرب الدلتا.

كان لانوس قد هنأ القائد العام الجديد بحرارة عند توليه لمنصبه (١٠١)، إلا أنه بينما كان خصماً لاتفاق العريش، فإنه ينهمك الآن فى الثناء على الجلاء عن مصر. ويدرجه مينو على الفور فى زمرة خصومه (١٠٢). وتؤدى مسألة زادت من تعقيدها الاختلاسات والتحايلات (وهى تتعلق بعمليات بيع الشحنات المصادرة من السفن العثمانية التى دخلت ميناء الإسكندرية بعد انهيار اتفاق العريش) إلى إلهاب الموقف، ويرى لانوس أنه قد أهين فى شرفه ويطلب لجنة تحقيق. وسوف تنتهى هذه اللجنة إلى تبرئته من الاختلاسات المزعومة، لكن مينو، فى تلك الأثناء، ينحى لانوس عن قيادته التى يعهد بها إلى فريان (مستهل أكتوبر ١٨٠٠) (١٠٣).

وسعياً إلى تقديم مبرر معقول لهذا القرار، فإن القائد العام يأمر بالمناسبة نفسها بالتبديل الكامل للقوات المرابطة فى الإقليم، وهو إجراء يعتبره البعض عديم المسؤولية بسبب عودة الطاعون إلى الظهور فى الإسكندرية؛ لهذه التحركات تبدو لهم أفضل وسيلة لنشر الوباء. وعندما يرجع لانوس إلى القاهرة فإنه يصبح العدو الشخصى لمينو. ويرى فريق من الجيش أن مينو قد أساء استخدام مناصبه الرفيعة لكى يسوى مسألة شخصية؛ إنه ما كان ليغفر للانوس أبداً أنه قد حل محله فى قيادة رشيد والإسكندرية هذه التى كان شديد الغرام بها (١٠٤).

وفى القاهرة، يتواصل تدهور العلاقات بين مينو وداماس الذى أصبح المدافع الشرس عن تركة كليبر المادية وتراثه السياسى. إن داماس، قائد الأركان العامة للجيش، ينفذ حرفياً أوامر مينو مع انتقاده لها ومع إمطاره لها بالسخرية علناً (١٠٥). ويرد مينو على ذلك بألاعيب حقيرة على أمل إرغام مرؤوسه على التنحى. لكن هذا الأخير يعاند:

«إننى أحيطك علماً [...] أنه بالرغم من أنك لن تفلح فى زيادة اشمئزازى بأكثر مما فعلت، فإنك لن ترغمنى على ترك موقعى إلا بأن تجعلنى أتحقق من عدم الترقى على شغله، إلا أنه بما أننى قد وفيت بتبعاته على نحو مشرف منذ سنة، وبما أننى لا أبدو خيال

مالة [كذا] أيضاً فى أعين الجميع، فسوف يكون عليك محاكمتى قبل تجريدى منه. وإذا ما أمكننى، من خلال التوقف عن الخدمة تحت أوامرك، تفادى الاضطهاد الذى ينتظرنى، فإن علاقاتنا سوف تنتهى سريعاً.

«وبالإضافة إلى ذلك، أيها المواطن الجنرال، فإنه أياً كانت للضايقات التى تعدها لى، فسوف تكون لدى الشجاعة لتحملها، دون أن تتأثر بذلك الخدمة التى كلفت بها» (١٠٦).

ويبدأ مينو العمل بتنحيته دامايس عن وظائفه فى ٥ سبتمبر ١٨٠٠. ويطلب هذا الأخير تحويله إلى المثول أمام مجلس حربى. ويتدخل فريان ورينييه، و، سعياً إلى إظهار أن دامايس لم يجرد من الاعتبار، يتم منحه قيادة مصر الوسطى. إن كل شىء واضح، بالنسبة لخصوم مينو: لقد قرر القائد العام اضطهاد جميع أصدقاء كليبر القدامى. وبالنسبة لكثيرين فإن مينو قد أظهر برهان ضعف بسماحه بإمكانية مناقضة قراره، إنها رخاوة كان من المستحيل تصورها فى ظل سلفيه (١٠٧).

توطد وضع مينو

على أن مينو يستشعر تعزز وضعه من جراء وصول أوجوست دامايس فى أواسط سبتمبر ١٨٠٠ حاملاً رسائل من فرنسا. إنها موجهة إلى كليبر. وبقدر معين من سوء النية، كتب وزير الحربية، كارنو، إلى كليبر أن أسطول بريست سوف يتحرك متجهاً إلى مصر مع تعزيزات قوامها أربعة آلاف رجل ومدد من الذخيرة، وذلك فى الوقت الذى ذاع فيه خبر معاهدة العريش. وتؤدى معركة هيليوبوليس إلى تبديل الموقف ويلزم القنصل الأولُ كليبر رسمياً بالحفاظ على فتحه حتى الصلح القادم ليكون وسيلة مقايضة. وهو يرى أن العثمانيين مستعدون لترك الجيش الفرنسى فى مصر كقوة مساعدة بدلاً من ترك الاستحواذ عليها للإنجليز. وسوف تصل خلال الشتاء تعزيزات قوية. وتجرى تهنئة كليبر على انتصاره ويتم إبلاغه بمصرع ديزيه (١٠٨). والواقع أن بونابارت لم تكن لديه الوسائل لإرسال ديكورش وحده إلى مصر (١٠٩)، وتحليل موقف العثمانيين إنما يبدو صدى لرغبات القنصل الأول بأكثر مما هو صدى للواقع.

ومن جهة أخرى فإن مينو، الذى تتسلط عليه فكرته الاستعمارية، لا يتجه إلى استئناف الاتصالات مع العثمانيين كما تدعوه الرسالة إلى ذلك ضمناً. وفى خطابه فى الأول من فنديميير من العام التاسع (٢٣ سبتمبر ١٨٠٠)، عيد الجمهورية، يتذكر علم

الحرية الذى يرفرف فى الشرق بفضل الجنود الفرنسيين: «هذه الأعلام المقدسة التى أوامها وسط كتائبكم، ليست هى إشارة الحضارة بالنسبة لجزء من العالم، كان مرموقاً فى الأزمنة الغابرة، ثم عاد الاستبداد وقضى عليه، لكنكم سوف تعملون على بعثه من رماده!»

وهو يكتف المديح لبونابارت: «أيها الجنود، لا تخافوا كثيراً إذاً على الحرية : إن عبقرية بونابارت وسواعد الفرنسيين قد كسبتها إلى الأبد؛ فالجمهورية موجودة وسرعان ما سوف يقودكم السلم إلى غاية لمعالكم».

وهو يستند إلى رسالة كارنو محاولاً الإيحاء بأنها من بونابارت ويشير إلى أهمية إقامة جيش الشرق فى مصر بالنسبة لمجد ومصالح الجمهورية (١١٠). وفى اليوم نفسه، يرقى ستة ضباط كبار إلى رتبة قائد اللواء، متجها بذلك إلى تكوين زمرته العسكرية الخاصة (تؤثر التعيينات على مجمل الهيراركية). وبالنسبة لكثيرين من الطموحين فإن الولاء لمينو يبدو بوصفه وسيلة الترقى السريعة. إن له الآن حزبه فى الجيش (١١١).

وسعياً إلى مواصلة تكثيف حس الكرامة لدى جنوده، ينشر مينو مقتطفات من بيانات الوزير الإنجليزى داندلس أمام مجلس العموم، ففى هذه البيانات يجرى التهجم بعنف على الجيش الفرنسى :

«إن هذا الجيش الفاجر يجب أن يكون عبرة، فمصلحة الجنس البشرى تتطلب دماره. ولابد لنا من أن نأمل أنه، إذ يتعرض للمضايقات على جميع الجبهات، وإذ يدخل فى صراع مع الأوبئة وتأثير المناخ، لن يرجع ألبتة ناعم البال إلى الضفة التى بدأ حملته منها»(١١٢)

ومن الواضح أن بوسع مينو بعد ذلك أن يندد بالوزراء الإنجليز الذين ارتكبوا «حماقة توجيه الإهانة إلى جيش الشرق فى مهاتراتهم البرلمانية» (١١٣).

دافور

فى أوامره اليومية، خاصم مينو بصورة منتظمة الإدارة المالية ومصلحة الجيش الإدارية. ومن الطبيعى أن أمين الصرف العام دور قد استشعر أنه مستهدف من وراء هذه التهجمات واحتج على ذلك بقوة. وعندئذ يحاول مينو كسب مودته، لكن الاهتمام الذى يوجهه القائد العام إلى المسائل الإدارية إنما يختزل بطبيعة الحال استقلال أمين الصرف الشاب والطموح، والمناوئ لروح الإصلاحات التى يجرى الاضطلاع بها. وهو يشكك فى

فعاليتها وينتقل للمناقشة إلى التدابير التي يجب اتخاذها من أجل استئناف العمليات العسكرية؛ إن الأموال التي كان كليبر قد خصصها لهذا الاحتمال توشك على أن تستهلك للسماح بالدفع الفوري للمرتبات ومخازن المواد الغذائية التي كان كليبر قد ارتأى إنشاءها لا يتم إمدادها بالمؤن؛ والإسكندرية التي كان عليها تخزين ما يكفي كل الجيش من المواد الغذائية لمدة عام، تجد أن المخزون لا يكفي إلا لمدة شهرين. لقد أصبح أمن الجيش مهدداً (١١٤).

وعندئذ يعرض عليه مينو وظيفة المفتش العام على المراجعات، وهو ما يعادل ترقية. ويقبل دور هذا التغيير ويتولى سارتيلون في ٢٢ أكتوبر ١٨٠٠ وظائف آمر الصرف العام. وعندئذ يكتشف سلفه أن مينو قد عينه في وظيفة مفتش عادي، وهو يغضب على هذه المعاملة غير الشريفة، ويطلب تحويله للمثول أمام مجلس حربي ليحكم ما إذا كان قد فقد اعتباره. وعندئذ يتعهد مينو بالوفاء بوعده. لكن دور لا يحصل في الواقع على أية مسئولية ولا يُدفع له راتبه بسبب عدم توفر الأموال، وهو يتهيأ لمنازعة سلطة مينو الذي، وفقاً له، لكونه قائداً عاماً لا يملك السلطة الشرعية لكي ينحيه أو لكي ينقله دون تصريح من الحكومة. ويرد مينو بأنه بوصفه حاكماً للمستعمرة، فإنه يمثل تلك الحكومة، وأن الشرعية إلى جانبه. وفي هذه المناقشة القانونية، يبدو أن دور قد حصل على المشورة من تاليان الذي يطور الفكرة التي تذهب إلى أن مينو لا يمثل الجمهورية إلا تجاه السكان المغلوبين وليس تجاه الفرنسيين. ومن ثم فإن هؤلاء الأخيرين، مدنيين كانوا أم عسكريين، إنما يخضعون لقوانين المتروبول وليس للأحكام التي يصدر بها مينو مراسيم. وهكذا، على سبيل المثال، فإن المراسيم المتعلقة بحقوق الوراثة لا تنطبق على الفرنسيين، بالرغم من قرارات مينو المعاكسة (١١٥).

المعهد [المجمع العلمي]

كما ينجح مينو في إثارة استياء أعضاء لجنة العلوم والفنون. فعند التوصل إلى اتفاق العريش، كان مينو قد منحهم الأولوية، مع من أصيبوا بعجز ما في الجيش، في الرحيل عن مصر. إلا أنه لم يتسن تحقق هذا الرحيل. وإذ يبقون في مصر مرغمين، فإنهم يقترحون تنظيم حملة استكشاف جديدة في مصر العليا كان عليها أن تقودهم حتى النوبة، بل والحبشة. ويحكم عليهم مينو بالانتظار وقتاً طويلاً ويرفض في نهاية الأمر تقديم موافقته على هذا المشروع. وهو يريد استخدام العلماء في مشاريعه الاستعمارية. والحال

أن المهندسين، خاصة مهندسي الجسور والطرق، يرون أنفسهم وقد جردوا من حرية اختيار موضوعات دراساتهم لكي يجرى إلحاقهم بالمشاريع الكبرى الخاصة باستغلال مصر. ومنذ ذلك الحين، فإن العلماء يستأنفون بشكل فردى بحوثهم التى يركزونها على الدلتا ومصر الوسطى. على أن مينو يواصل الإيمان بمشروع وصف مصر الذى دشنه كليبر. وهو يلغى عقد هاملان الذى جعل منه عملية تجارية خاصة، ويقرر أن تتحمل الدولة جميع تكاليف النشر. (١١٦)

تحرك قادة الفرق

إن استياء كوادر الجيش العليا هو من ثم استياء عام. والأمر اليومى الصادر فى ٦ بروميير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠) يشعل البارود. فمينو، فى تعليقه على الأنباء الطيبة الواردة من فرنسا، ومستريحاً إلى نجاحات بونابارت، يهاجم معارضيه: «أيها الجنرالات والضباط والجنود، وأنتم يا جميع الفرنسيين الموجودين فى مصر، خذوا عبرة مما يحدث فى فرنسا؛ إن كانت هناك بينكم، وإنا بعيد عن تصور ذلك، أحزاب ومصائب وخلافات فى الآراء وفى الرغبات فيما يتعلق بالشأن العام، فلتنسوا كل ذلك. ولتتذكروا أن هذه الشقاقات لا تليق بالجمهوريين، الذين لا يجب لهم أبداً أن يفكروا إلا فى الكرامة والوطن. [...] وإذا كان هناك بينكم بعض الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم أعداء شخصيين لى، فإننى أصفح عنهم سلفاً، إلا أنه إن كان هناك أعداء للجمهورية، فإننى سوف أكون صارماً تجاههم، وسوف يجدون أننى أتميز بقسوة لا يمكن لشيء تهدئتها؛ إننى إن لم أتصرف على هذا النحو، فلن أكون أهلاً لأن أكون قائداً لكم».

وإذ يشعر داماس ورينييه بأنهما قد تعرضا لهجوم، فإنهما يجران قادة الفرق الآخرين الموجودين فى القاهرة، فيردييه ولانوس وبيليار، إلى تحرك جماعى لتقديم احتجاج إلى القائد العام. وبدون إعلان ذلك، فإنهم يقتحمون من الناحية العملية مكتب مينو ويعرضون شكاواهم: لا يمكن منح مصر اسم المستعمرة دون الحصول على تصريح بذلك من الحكومة الفرنسية؛ إن مثل هذا الإجراء الذى يزعج السكان يهدد بتعزيز الائتلاف المعادى لفرنسا؛ وإصلاحات الضرائب تزعج السكان ومن شأنها استثارة تمردات؛ «يجب تخفيف وتقويم التدابير التعسفية لا القضاء على ما هو قائم. إن العديد من الرسوم الجديدة غير عادلة، وجائرة، وباهظة. وذلك هو حال الرسوم المفروضة على الصرافين وعلى اليونانيين وعلى الطوائف ومن بينها بشكل خاص الرسم المفروض على مشايخ البلد،

والذين يعتبر تنظيمهم قوياً، بما يتيح لهم امتلاك الوسائل الأكثر ملاءمة لتحريك الثورة التى يريدونها فى مصر»

والفرنسيون لا يجب أن يخضعوا لذات القوانين التى يخضع لها السكان المغلوبين. بل إنه يجرى الاعتراض على عين أسلوب الحكم الذى يمارسه مينو:

«إن اللغة التى كتبت بها غالبية الأوامر اليومية غير لائقة من جميع النواحى، فالجيش وجميع الفرنسيين الذين جاءوا فى أثره يجرى يومياً تصويرهم كزمرة من قطاع الطرق، كرجال لا شرف لهم، ويبدو كما لو أن هناك سعياً حثيثاً إلى تبرير تهجمات دانتلس وكما لو أن هناك رغبة فى دفع أوروبا وفرنسا إلى اشتهاء أن يتأوه الجيش كله فى هذه الملفات.

«إن الجيش لا يمكن أن يقاد بالأسلوب الذى يقاد به أحد الأندية؛ فالجيش له قوانينه ولوائحه الإدارية الداخلية ومن ينتهك هذه القوانين واللوائح مذنب آثم.

«ولا مراء فى أن سلطة قائد جيش ما هى سلطة عظيمة، لكن الحكومة تضع فى مقابلها عناصر ثقل مضادة وعناصر مقابلة لها. وهذه العناصر تتمثل فى أذن الصرف العام وبشكل خاص فى استقلال الخزانة؛ والحال أن الجنرال مينو قد تلاعب بهاتين السلطتين، بل وقام بإلغائهما».

ويجرى النظر إلى تدابير النقل والعزل على أنها غير مشروعة، فى غياب حكم صادر عن مجلس حربى. ولابد من إلغاء الجانب الرئيسى من التدابير التى اتخذها مينو (١١٧).

ويبرر الجنرالات تحركهم الجماعى بضرورة الاحتجاج على الشائعة الرائجة التى تذهب إلى أنهم يشكلون تكتلا معادياً للجنرال مينو وخاصة للقنصل الأول، وبضرورة السهر على سلامة الجيش التى تهددها تدابير مينو: فالتعيينات، خارج ساحة المعركة، لجنرالات الوية، إنما تلحق الضرر بانضباط الجيش؛ وتعيين الفيومى مسؤولا عن مشايخ القرى غير مناسب وذلك بسبب موقف الرجل فى الماضى (انتفاضة القاهرة الأولى وتمرد أمير الحج)، وموقف مينو تجاه ذكرى كليبر موقف شائن: «عندما عُلم فى القاهرة إنه قد جرى فتح اكتتاب فى فرنسا لإقامة تمثال للجنرال ديزيه، انضم كثيرون من الأشخاص إلى ذلك موافقين على اكتتاب مماثل، ومقترحين إرسال اكتتاب آخر إلى فرنسا لإقامة تمثال للجنرال كليبر أيضاً. وقد قدمتْ هاتان القائمتان اللتان تضمان توقيعات عدد كبير من المكتتبين إلى الجنرال مينو الذى رفض التوقيع على القائمة الخاصة بالجنرال كليبر، ولم يدرج فى جدول الأعمال غير القائمة الخاصة بالجنرال ديزيه».

ويرد مينو على جميع هذه المطالب بالإشارة إلى ضرورة منحه وقتاً للتفكير ولا يتزحزح إلا فيما يتعلق بمسألة الاكتتاب في إقامة تمثال لكليبر وبمسألة حقوق الوراثة(١١٨). والواقع أن للمحصلة الوحيدة للمقابلة إنما تكمن في زيادة احتداد العلاقات إلى حد ما بين القائد العام وقيادة الفرق. ويتلقى مينو رسائل بلا توقيع تدمغه إلى محاربة «كاثيلينات» (خونة) الجيش (١١٩).

ويخشى داماس من أن يكون مينو قد صادر التقرير الأخير لكليبر الذى حرر خاتمته؛ وهو يرسل نسخة منه إلى مورو فى ألمانيا حتى يعمل على نشره خارج فرنسا فى حالة منعه من النشر (١٢٠). وهو يفسر هذا المنع برغبة مينو فى أن ينسب إلى نفسه مآثر قرارات كليبر المتعلقة بالضرائب غير العادية ومن بين هذه المآثر دفع متأخرات الجنود وتكوين وحدات عسكرية محلية. ويكتب رينييه من جهته إلى مورو شاكياً من مسلك مينو، ويؤكد لاختيار مورو بجلاء إن معارضى مينو إنما يحتمون إلى ذلك التيار من الجيش الذى لا يميل بشكل خاص إلى بوناپارت.

تثبيت مينو

تميل علاقة القوى فجأة إلى صف مينو مع وصول رسالة إلى القاهرة تثبته فى وظائفه كقائد عام للجيش. وينشر مينو الرسالة فوراً فى الأمر اليومى الصادر إلى الجيش (١٣ بروميير من العام التاسع - ٤ نوفمبر ١٨٠٠). ويرفق كاردو بهذا التعيين خلاصة موجزة عن الوضع الأوروبى؛ إن فرنسا الظافرة تعرض الصلح على أوروبا.

«إنكم سوف تعجلون بهذه اللحظة المنشودة، أيها المواطن الجنرال، بسيركم على خطى سلفيكم وبتدعيمكم بحزم لا يتزعزع، وباستكمالكم بكل ما لديكم من إمكانات، للقواعد الراسخة لصون وازدهار مصر، إلى أن يحسم الصلح الشامل بشكل نهائى مصير هذا الفتح التاريخى والثمين. ولتكونوا على ثقة بأن الحكومة لا تهمل على الإطلاق ما يمكن أن يهم جيش الشرق: إنه موضع اهتمامها الثابت» (١٢١).

ويبدو أن بوناپارت قد تردد فى تسمية خليفة لكليبر. فرينييه، على الرغم من كونه جندياً ممتازاً، لا يبدو له (لبوناپارت) أنه يملك مواهب سائس الرجال الضرورية للقائد. أمّا مينو فإنه لا يملك خبرة عسكرية كافية لقيادة جيش مقاتل. وهو يفكر للحظة فى لانوس،

الثالث في ترتيب الأقدمية، والذي كان يمكن أن يكون اختياراً مناسباً (وبشكل حكيم في الخطوة نفسها، كان يمكن له – لبونابارت – أن يستدعي مينو وريدنييه إلى فرنسا). لكن مينو يحتل المنصب بالفعل، وقد كان خصماً لاتفاق العريش، وقد تحول إلى اعتناق الإسلام، الأمر الذي لابد له من أن يسهل علاقاته مع السكان، وهو يملك قدرات الإداري الضرورية لمثل هذا المنصب وهو بوجه خاص أحد الأتباع الأوفياء الأكثر جهراً بالولاء للقنصل الأول (١٢٢). ورسائل مينو التي تقدم رؤية من أكثر الرؤى تفاؤلاً عن المشروع الاستعماري، إنما تذهب إلى حد بعيد أحلام بونابارت العميقة بحيث يصعب ألا تؤثر على اختياره.

ومع سعي مينو وأنصاره إلى الوصول إلى تسوية مع قادة الفرق بعرض جوازات سفر عليهم للعودة إلى فرنسا – وإن كان هؤلاء الأخيرون يرفضون، مؤثرين أمر استدعاء من باريس يطلبونه بإلحاح من القنصل الأول – (١٢٣)، فإنهم يهاجمون الموقف بالتهجم على ذكرى كليبر. إن شاسيبيه، قائد اللواء، يكتب إلى القنصل الأول متحدثاً عن عدم كفاءة واختلاسات كليبر ولانوس وريدنييه وآخرين (١٢٤). ولاجرانج، الذي أصبح رئيساً للأركان العامة بعد تنحية داماس، يكتب إلى بونابارت أن كليبر لم يتصرف إلا بدافع الحسد، وأنه ليس له أي فضل في انتصار هليوبوليس وأن أنصاره، خاصة داماس، يتآمرون على تسليم مصر إلى العثمانيين (١٢٥). والرسائل النادرة الموجهة إلى فرنسا مليئة بالوشايات المتبادلة.

ويراكم مينو المضايقات تجاه ريدنييه ويتجسس على خصومه. ومن جراء الرعونة أو التحدي، يسمي ابنه الذي ولد للتو، سليمان، وهو عين اسم قاتل كليبر...

مناورة سيدني سميث الأخيرة

وهكذا فإن الرجل قد أصبح مهيئاً تماماً لكي يكون ضحية لواحدة من تلك المناورات التي أصبح سيدني سميث أستاذاً فيها (١٢٦). فالعميد البحري ينقل إلى فريان (١٢٧)، الذي يتولى القيادة في الإسكندرية، أعداداً من صحيفة جازيت دو فرانس. وهي تنقل رسائل من صحيفة كورييه دو لوندر، خاصة مقتطفات من رسائل إنجليزية مؤرخة في ١٠ و ١٥ يوليو ١٨٠٠ قادمة من سواحل سوريا (١٢٨). وتقدم هذه الرسائل تقريراً جد دقيق عن وضع جيش الشرق عند موت كليبر وتنتهي إلى ما يلي: «يبدو اليوم أن اتفاق العريش لا يمكن

إعماله من جديد إلا عبر ثورة للجنود الفرنسيين يعزلون من خلالها الجنرال مينو ليحلوا محله قائداً مستعداً للجلاء عن مصر» (١٢٩).

ويحتد غضب مينو عند قراءة هذه الوثيقة ويكتب إلى بيرتييه، الذى أصبح وزيراً للحربية، إنه قد وجد فى صحيفة جازيت دو فرانس خطة أعدائه: «لقد أرسلت إلىّ هذه الصحيفة من فرنسا، ولا أعرف من الذى أرسلها. ويبدو أن أولئك الذين يريدون زعزعة مصر قد وجدوا وسيلة لنقل مشاريعهم إلى أوروبا سعياً إلى معرفة ما إذا كانوا سوف يجدون فيها أنصاراً» (١٣٠).

وفى الوقت نفسه، تصل أنباء محاولة اغتيال القنصل الأول فى شارع سان - نيكيز والاتهام الموجه إلى إنجلترا بأنها قد نظمت، أو على أية حال شجعت، محاولة الاغتيال هذه. والحال أن مينو، فى أمره اليومى الصادر فى ٢٣ بلوفيوز من العام التاسع (١٢ فبراير ١٨٠١)، يورد المعلومتين خالطاً الحابل بالنابل ويهاجم خصومه: «أيها الجنود، بلى، لا مراء فى أننى لابد وأن أكون مستبشعاً لهذه الزمرة الغريبة؛ فأنا، منذ اللحظة الأولى التى شرفت فيها بقيادتكم، قلت لكم إنه لا أحد سوى حكومة الجمهورية هو الذى يمكنه إصدار الأمر إليكم بالجلاء عن مصر؛ وقد قلت لكم إن الإخلاص الذى تدينون به لوطنكم إنما يلزمكم ببذل كافة التضحيات؛ وقد قلت لكم وأكرر من جديد إن الموت هو بالنسبة للجندى أفضل ألف مرة من ضياع الشرف. وإذا كان علينا أن نهلك فى مصر، فإننا سوف نموت كجمهوريين صادقين يؤدون واجبهم؛ أما إذا رحلنا عنها دون أمر من الحكومة، فإننا سوف نفقد كرامتنا أمام العالم».

ويشعر قادة الفرق أنهم مستهدفون بهذه التعريضات، وهو لم يسم فى هذا الأمر اليومى غير الإنجليز: «إنهم يريدون محاولة دفع الجيش إلى العصيان؛ وقد ألصقوا بيانات تدعو إلى الثورة فى مدينة القاهرة. وكما أبلغنا بذلك الجنرال فريان، فإن لهم مكاتبات فى الإسكندرية. ومن الواضح أنهم هم الذين كتبوا المقال المنشور فى العدد ١٠١٧ من الجازيت دو فرانس» (١٣٣).

وهو ما يرد عليه رينييه، محقاً فى ذلك، بأن مينو قد لعب لعبتهم بنشره المقال فى الأمر اليومى (١٣٤).

ومن ثم ففى مناخ العداوة السافرة هذا بين مينو وقادة فرقه يعلن فريان ظهور سفن شراعية إنجليزية عنيدة قبالة الساحل الغربى لمصر.

أوروبا ومصر

لم تكن الدول الأوروبية قد نسيت مصر. وتبدأ معركة هيليوبوليس وإعادة فتح مصر بصل إلى فرنسا بعد انتصار مارينجو، وتبدأ مفاوضات مع النمساويين، وهي تتقطع في نوفمبر ١٨٠٠، لكن مورو يلحق بالنمساويين بعد ذلك مباشرة هزيمة حاسمة في هوهينلينديين (٣ ديسمبر ١٨٠٠)، وتعهد هدنة ستيير (٢٥ ديسمبر ١٨٠٠) وصلح لونيفيل (٩ فبراير ١٨٠١) بين فرنسا والنمسا الوضع الذي أوجده صلح كامبو فورميو. أما القيصر بول الأول الذي أخذ منذ أواخر ١٧٩٩ يشعر بخيبة الأمل من جراء موقف النمساويين الذين يعتبرهم مسؤولين عن الهزائم الروسية في سويسرا، فهو يرى في صعود بونابارت عودة إلى النظام الملكي. ومنذ أوائل عام ١٨٠٠، يتقارب مع فرنسا ويوحد دول الشمال (بروسيا، الدانمرك، السويد) ضد دعاوى إنجلترا بحق السيطرة على البحار. ومن المفارقات أنه على الرغم من حفاظه على معاهدة التحالف مع الإمبراطورية العثمانية، والتي تبدو له وسيلة لفرض حماية حقيقية على تلك الدولة، يعقد الصلح مع فرنسا ويفكر في عمل ضد الهند. والحال أن رفض الحكومة البريطانية التنازل له عن مالطة، بالرغم من أنه قد أصبح راعياً كبيراً للأخوية، صاحب السيادة الشرعي الوحيد على الجزيرة، هو الذي دفعه إلى ذلك الطريق (١٣٦). وتصبح المخاوف التي ساورت بريطانيا خلال اتفاق العريش واقعاً. وبشكل ملائم بالنسبة لبريطانيا العظمى، سيتم اغتيال القيصر في ٢٤ مارس ١٨٠١، وسوف يغير سياسته ابنه وخليفته ألكسندر. والحال أن مصرع بول الأول، بعد اغتيال كليبر، ومحاولات اغتيال القنصل الأول، سوف تبدو في نظر الفرنسيين بوصفها ممارسة منتظمة يلجأ إليها أعداؤهم. وهكذا، فإن عام ١٨٠٠ قد شهد التفكك التدريجي للائتلاف، الذي تشكل كرد فعل للحملة على مصر.

القنصل الأول

إن بونابارت، وقد أصبح الآن أكثر اطمئناناً إلى رسوخ سلطته في فرنسا، يمكنه أن يكرس قوى أكثر لإنقاذ المشروع الشرقي. وفي سبتمبر ١٨٠٠، يحاول توسيع الهدنة البرية، التي تم التوصل إليها عن طريق معركة مارينجو، حتى تشمل العمليات البحرية، الأمر الذي من الواضح أنه كان من شأنه أن يسمح بتعزيز حامية مالطة وجيش الشرق. ويرفض البريطانيون هذا الاقتراح، غير المناسب إلى حد بعيد بالنسبة لهم. ويجدون

تعزيزًا لإصرارهم فى سقوط مالطة فى الشهر نفسه. وتهدئة العثمانيين، فإن استئناف التحركات من أجل صلح يبقى مصر تحت الاحتلال الفرنسى مع سيادة نظرية للباب العالى، إنما ينتهى إلى الفشل، وذلك بالرغم من أوهام بونابارت المتكررة فى هذا الصدد(١٣٧). على العكس، إن الإمبراطورية (العثمانية)، بالرغم من هزائمها فى السنوات السابقة، تنهمك فى مجهود جديد من أجل استرداد مصر بمساعدة الإنجليز.

ومنذ ذلك الحين، لا يبقى بعد سوى إرسال تعزيزات تخترق الحصار الإنجليزى. ويشكل ضياع مالطة صعوبة إضافية، لكن فصل الشتاء يقلل كفاءة الانتشار البريطانى ويسمح بمرور عدة سفن. ثم إن استرداد إيطاليا يتيح إمكانية استخدام موانئ فى وسط البحر المتوسط. وهكذا يتسنى إبلاغ جيش الشرق على نحو منتظم بنجاحات السياسة الفرنسية فى أوروبا. ويصل إلى علمه أن الجهاز التشريعى والمحكمة الدستورية قد أجازا قانونًا يشهد له بخدمة الوطن على نحو مرموق. وتشيد خطب بارين – ريال وجان – باتيست ساى (١٢٨) بمآثر «الجيش – المستوطنة»، الذى يحمل أمل الحضارة. (١٢٩)

وعلاوة على هذه التشجيعات الأدبية، فإن السفن تنقل تعزيزات (أقل من ألف رجل) وبعض الذخيرة. لكن هذه السفن هى طليعة أسطول فرنسى عهد بقيادته إلى جانتوم، البحار المقرب إلى بونابارت منذ أن كفل عودته من مصر. وفى ٢٣ يناير ١٨٠١، ومستفيداً من المناخ غير المناسب الذى يشتت الأسطول الإنجليزى، ينجح الأميرال مع سفنه الحربية السبع فى الخروج من بريست. إلا أنه كما هى عادة القوات البحرية الفرنسية، فإن الأسطول الفرنسى، بدلاً من أن يتوجه إلى مصر مباشرة وفقاً للتعليمات الصادرة إليه وبينما كان الساحل المصرى خالياً من السفن البريطانية إنما يتحرك إلى طولون. وكان لابد من صدور أوامر متكررة من القنصل الأول لإجبار جانتوم على العودة إلى اجتياز البحر فى ٢٥ أبريل ١٨٠١. وإذا يخشى عندئذ من أن يجد الأسطول البريطانى وقد عاد مع الربيع، فإنه يقرر إنزال القوات الفرنسية فى برقه حيث يمكنها الزحف من هناك على مصر، ويتم الإنزال على مقربة من درنه فى ٢٣ يونيو. وعلى الفور، يدرك المسؤولون الفرنسيون إنهم لا يمكنهم العثور هناك على وسائل اجتياز ستمائة الكيلو متر الصحراوية التى تفصلهم من مصر، ويعيدون رجالهم بحكمة إلى السفن. وترجع الحملة الصغيرة إلى طولون فى ٢٠ يوليو ١٨٠١ (١٤٠).

القرار الإنجليزى

بالنسبة لإنجلترا، فإن خروج روسيا من الائتلاف ومعركة مارينجو ومعركة

هيليوبوليس إنما تشير بشكل حاسم إلى ترتيب الأولويات. إن الائتلاف الثاني، أي حلفاء بريطانيا العظمى، قد فشل في أوروبا كما في مصر. ولما كانت لا تستطيع من ثم التصرف بشكل مباشر، خلافاً لعادتها، فإن عليها تسوية للمسألة المصرية قبل التوصل إلى الصلح الشامل الذي يتوقع الجميع عقده في عام ١٨٠١. وإلا فإنها سوف تضطر إمَّا إلى الاعتراف ببقاء الجيش الفرنسي في مصر، والتهديد الدائم الذي يشكله بالنسبة للهند، أو إلى مواصلة حرب أصبحت عديمة الشعبية.

وفي ٢٠ أكتوبر ١٨٠٠ يتم اتخاذ قرار باستخدام القوات التي عادت إلى الوطن من هولندا ثم أرسلت إلى إسبانيا، من أجل القيام بحملة على مصر. وسوف يكون على هذه القوات تعزيز القوات العثمانية. ثم إن مصر سوف تكون ملتقى طرق بين أوروبا والهند مع إرسال حملة انجلو – هندية مكلفة بإنزال إضافي على سواحل البحر الأحمر. ولن يكون بوسع الباب العالي إلا أن يقبل هذا القرار الثاني، لأنه يسمح بممارسة ضغط كاف على شريف مكة الذي تحلل إلى حد بعيد من ارتباطاته بالسلطة المركزية. وهو مشبوه بالرغبة في إيجاد توازن إقليمي في الشرق الأدنى على حساب الباب العالي: سوريا تحت حكم الجزار، مصر السفلى في أيدي الفرنسيين، مصر العليا تحت سيطرة مراد بك وحجاز مستقل ومتحالف مع الثلاثة الآخرين (١٤١). وترمز خيارات خريف ١٨٠٠ إلى تتويج الاتجاه الذي تم تدشينه في السنوات السابقة، والإرسال المتزامن لجيش قادم من الهند، ومن ثم من الشرق، ولجيش آخر قادم من أوروبا، ومن ثم من الغرب، إنما يعني أن كل ما هو موجود بين البحر المتوسط والأندوس يصبح مجالا جغرافيًا موحدًا في نظر المسؤولين السياسيين الإنجليز.

الانهيار

الحملة الإنجليزية

على الرغم من أن معركة هليوبوليس قد بررت التحليل السياسى الذى قام به سيدنى سميث، فإن خيبة أمل العثمانيين وعداوة اللورد إيلجين تحولان السلطات البريطانية إلى تنحيته جانباً. بل إنه كان بالإمكان سحبه من شرقى البحر المتوسط لو لم تكن درايته بالساحل المصرى قد جعلت وجوده ضرورياً. والحال أن قيادة العمليات البحرية إنما يعهد بها إلى اللورد كيث، القائد الأعلى لأسطول البحر المتوسط (كان نيلسون قد أرسل إلى بحر الشمال وإلى البلطيق لمحاربة عصبة الحياد المسلح التى تستمد الوحى من روسيا). ويحصل أبيركرومبى على قيادة قوة الحملة. وهو جندى محترف، مجرب (ولد فى عام ١٧٣٤)، ومحترم من جانب أقرانه. وهو يتخذ كمستشار له بالدوين، القنصل البريطانى السابق فى الإسكندرية والنصير المتحمس لسياسة إنجليزية فى مصر، وكان سيدنى سميث، من جهته، قد جند هامر، المستشرق النمساوى الشهير فيما بعد، واعداً إياه بالسماح له بزيارة مصر فور انتهاء العمليات العسكرية.

والحال أن مالطة، التى تم الاستيلاء عليها مؤخراً، إنما تخدم كموقع حشد للقوات البريطانية اعتباراً من أواخر نوفمبر ١٨٠٠. وكما فعل بوناپارت من قبل، فإن الإنجليز يجندون قوة من الجنود المالطيين تتألف من خمسمائة رجل. ولا يرفع ذلك عدد القوات البريطانية إلا إلى خمسة عشر ألف رجل من بينهم اثنا عشر ألف رجل من المقاتلين. ويجب أن نضيف إلى ذلك دور جيش الصدر الأعظم والقوة الأنجلو - هندية التى يتعين عليها الوصول عن طريق البحر الأحمر، ويجىء الجانب الرئيسى من القوات المجندة من الهزائم المتتالية فى هولندا وإسبانيا. إن الإنجليز ليسوا معتادين على النصر كخصومهم. وتراهن الوزارة البريطانية كثيراً على حالة التدهور المميزة للجيش الفرنسى، والتى أكدتها بصورة منتظمة رسائل الفرنسيين التى تم اعتراض سبيلها، وهى ترى أن الفرنسيين، بعد بضع انتكاسات، سوف يطلبون الاستفادة من اتفاق قريب من اتفاق العريش. وبما أن الحرب قد انتهت فى القارة (الأوروبية)، فإن الحكومة البريطانية لا ترى هناك أى اعتراض. ويمكن للخطر أن يجىء من الخارج، من أسطول جانتوم ومن عودة هجومية للأسطول الروسى إلى البحر المتوسط (١٤٢).

ويتم الاتحاد مع الوحدات العثمانية فى خليج مرمريس، فى جنوب مطل الأناضول

على بحر إيجه، فى أوائل شهر يناير ١٨٠١. وعلى طريقه، يعترض اللورد كيث السفينة التى تعيد تالبان إلى فرنسا. والحال أن تقدير قوة الجيش الفرنسى الذى يقدمه العضو السابق فى المؤتمر إلى الإنجليز إنما يبدو لهم مبالغاً فيه إلى حد بعيد (١٤٣).

وفى مرمريس، يجرى إنزال القوات إلى البر سعياً إلى تمكينها من الاستراحة. ويجرى تدريبها على تقنيات الإنزال. ويشعر الفرسان بخيبة أمل عظيمة فى الجياد التى يقدمها لهم العثمانيون. ولا يمكن استخدام غير مائتى جواد بالنسبة للفرسان وخمسين بالنسبة للمدفعية، أما المتبقى فيعاد بيعه أو يجرى إعدامه، ويمكن تفسير هذه المفاجأة السيئة بالشقاق بين اللورد إلجين وسبنسر سميث. فهذا الأخير، الذى يمثل شركة المشرق (ليفانت كومبانى)، كان قد حظر على موظفيه التعاون مع السفارة، الأمر الذى أدى إلى إصابة نشاط هذه المؤسسة بالشلل التام (١٤٤). وهكذا فإن الفرنسيين يتمتعون بتفوق قوى فى سلاح الفرسان.

كما أن الأنباء الأخرى مزعجة للإنجليز. فجيش الصدر الأعظم يبدو أقل وزناً مما كان متوقعاً وهو يبدو، فى نظر العسكريين البريطانيين، فى حالة متقدمة من التفكك. وبالنسبة للإنجليز، فإن العيوب العثمانية الكثيرة هى أيضاً علامات على انحلال الإمبراطورية (١٤٥). وقد حصل الفرنسيون على تعزيزات وهم أوفر عدداً من الإنجليز بكثير.

على أن أبيركرومبى يظل مخلصاً للتعليمات الصادرة إليه ويعيد قواته إلى ركوب البحر فى ٢٣ فبراير. وبسبب ضعف الجيش العثمانى، فإنه لا يسعى إلى التقاء سريع بين الحملتين، كان يعنى العمل فى منطقة دمياط. وهو يفضل العمل فى منطقة الانتشار الفرنسى الصغرية، أى منطقة الإسكندرية – أبو قير – رشيد (١٤٦). وفى أول مارس، يرى الساحل المصرى، وفى اليوم التالى، يدخل الأسطول، ومجموع سفنه مائة وخمس وتسعون (١٤٧)، إلى خليج أبو قير. ويحول المناخ السيىء دون أى إنزال قبل ٨ مارس ١٨٠١.

الإنزال الإنجليزى

يؤدى مشهد السفن الإنجليزية الأولى، التى سبقت وصول الأسطول بأيام قليلة، إلى إثارة انزعاج فريان فى الإسكندرية. لكن مينو يهون من الخطر. فهو يعتقد أنه «أمر جهد كبير من جانب الإنجليز الذين يعرقلون صلحنا مع الروس وتحرك أساطيلنا» (١٤٨). وهو يوجه بيانات طنانة إلى الديوان بأسلوب قريب من أسلوب بونابارت: «إن الله هو الذى

يقود الجيوش، وهو الذى يعطى النصر لمن يشاء. وسيف ملائكته الوهاج يسحق الفرنسيين دائماً ويجهز على أعدائهم»(١٤٩).

وهو يحذر من أن القمع سوف يكون مريعاً فى حالة سوء السلوك، فهو سيكون كالقمع الذى أعقب لانتفاضة القاهرة الثانية. والديوان بدوره ينبه مشايخ الأحياء إلى أنهم مسؤولون عن حفظ النظام. وبما أن الضرائب غير العادية تجىء دائماً، وبما أن الفرنسيين، من جهة أخرى، يكثفون التدابير القمعية لمحاولة وقف انتشار وباء الطاعون الذى وصل إلى العاصمة، فإن الخوف من نشوب انتفاضة شعبية يدفع كثيرين من المصريين إلى مغادرة القاهرة. ويلاحظ الجبرتى أن الفرنسيين يفعلون الشىء نفسه بالانسحاب إلى القلعة التى يجرون إليها عدة أعيان كرهائن من بينهم الشيخ السادات وعدداً من أعضاء الديوان (١٥٠)

ويعتقد مينو أن الهجوم الإنجليزى ليس غير عمل ثانوى لتحويل الأنظار، وأن العمل الرئيسى سوف يحدث فى شرقى الدلتا، مع وصول جيش الصدر الأعظم. وهو يقلل من قيمة القيادة البريطانية (١٥١).

أما فريان فهو يخطئ لأنه لا يطلب على الفور إرسال تعزيزات مهمة. بل إنه يوافق على آراء القائد العام. لكن مينو ينسى أسلوب بونابارت الأساسى، والذى طبق خلال معركة أبو قير البرية وأشير إليه مجدداً فى التعليمات الصادرة إلى كليبر: فى حالة هجوم متزامن، يجب حشد جميع القوات المتوافرة لمقاتلة القوات المعادية، قوة بعد الأخرى، مع إيلاء الأولوية لمقاتلة القوات التى تهبط من البحر. ولا يمكن أن يكون له عذر بقدر ما أنه يعرف ضعف الجيش العثمانى وبقدر ما أنه يرى أن القوات البريطانية قليلة. ومع وجود ثلاثة وعشرين ألف رجل تحت السلاح، فإنه يتمتع بقوة تساوى تقريباً ضعف قوة الإنجليز.

ثم إنه، بدلا من أن يركز القوات الفرنسية، يبعثرها بين شرق وغرب الدلتا حتى يواجه الهجوم المزدوج. ويقود رينييه وقادة الفرق على هذه الأوامر التى يعتبرونها خرقاء وإجرامية ويتوسلون إلى مينو أن يركز جميع القوات فى أبو قير (١٥٢). فهم يرون أن الصدر الأعظم لن يجتاز سيناء إلا بعد نبأ انتصار إنجليزى. ويظل مينو أصمّ تجاه نصائح مرؤوسيه. والحال أن التأخر الذى تتخذه الإنزال البريطانى يبدو له برهاناً على امتياز الأسلوب الذى نشر به القوات. ويفكر رينييه للحظة فى خلع مينو، لكنه يتخلى عن تلك من باب المراعاة للانضباط (١٥٣). وهذا النزاع الجديد بين الجنرالات، فى مثل هذه الظروف،

إنما يستدعى انزعاج الجيش. وخبر النزاع واسع الانتشار بحيث أن الجبرتى نفسه يتحدث عنه، بشكل بالغ الدقة.

ويرسل فريان بضع قوات لدعم السيطرة على رشيد وذلك سعياً إلى تجنب وقوع هذه المدينة ضحية لهجوم عسكرى إنجليزى مفاجئ ويتمركز مع ألف جندى فى أبو قير، تاركاً الدفاع عن الإسكندرية للعاجزين وللبحارة. وهو يخوض معركة غير متكافئة ضد الإنزال الإنجليزى فى ٨ مارس، وبالرغم من أيات الجسارة التى تبديها قواته فإنه يضطر إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. ويدين الإنجليز بنجاحهم إلى العدد الكبير لزوارق المدفعية والقوارب والذى سمح باجتياح الخطوط الفرنسية (١٥٤).

وعند وصول خبر نجاح الإنزال الإنجليزى، يقرر مينو الزحف على أبو قير مسلماً قيادة القاهرة لبليار. وهو يريد ترك قوات مهمة لدالماس ولرينييه للسيطرة على طريق سوريا، لكن هذين الجنرالين يخالفان أوامره ويصحبان كل قواتهما إلى القاهرة (إن هذا الطريق، بالرغم من كونه أطول، إلا أنه أسرع للزحف على منطقة الإسكندرية، وذلك بتجنب الاجتياز العمودى للدلتا). ويغادر معظم الجيش العاصمة فى ١٢ مارس. ويعتقد مينو أن غيابه لن يدوم طويلاً وأن «الروح الطيبة التى ترف على فرنسا وحظ بونابارت» لن يتخليا عن الفرنسيين (١٥٥).

الإخفاقات الفرنسية الأولى

بعد رحيل مينو، يكتب بليار إلى مراد بك لإبلاغه بالسحق الوشيك للقوات الإنجليزية ولإبلاغه، فى التو والحال، بسحب القوات الفرنسية من مصر الوسطى والتى يقودها دونزيلو. ويتلقى الزعيم المملوكى تعليمات بتأمين الحفاظ على النظام فى المناطق التى يجلو عنها الفرنسيون (١٥٦). ويرسل فورييه إلى مينو رسالة من الديوان. ووفقاً له فإن الرسالة بنت تحركاً عفوياً تماماً، وهو ما لا يتمشى مع رأى الجبرتى. ويشدد الفرنسيون على واقع أن الإنجليز مسيحيون وأن غايتهم هى إعادة الصليب إلى مصر(١٥٧).

وفى تلك الأثناء، كان لانوس، مع فرقته، قد انضم إلى فريان فى الإسكندرية، فى ١١ مارس ١٨٠١. وترتفع القوات التى يتمتع بها الجنرالان إلى خمسة آلاف رجل، وقد أثر

فريان انتظار وصول مينو حتى يتحرك (١٥٨)، لكن لانوس يلتمه بمهاجمة الإنجليز فوراً. فهما إن لم يقوما باحتواء الإنجليز فى شبه جزيرة أبو قير، فإن هناك خطر قطع الاتصالات مع بقية الجيش.

وفى ١٣ مارس، يندفع لانوس إلى مهاجمة القوات الإنجليزية التى تنجح فى استيعاب الصدمة. وبعد عدة ساعات من المعارك العنيفة (١٥٩)، يضطر الفرنسيون إلى الانسحاب إلى الإسكندرية. وفى رسالة إلى لان، ينتقد لانوس مينو وشأنه فى ذلك شأن رينيه عشية معركة مارينجو، يستشعر نهايته القريبة؛ «إن وضعنا ليس ميؤساً منه، لكنه ليس جميلاً. وقبل مغادرة القاهرة، قلت أنا والجنرال رينييه للقائد العام إنه يجب أن يدفع جيشه إلى أبو قير دون إضاعة للوقت؛ إلا أنه لم يتكرم بالإنصات إلينا. وليست هذه هى اللحظة المناسبة للبكاء على ما فات. إن ما نفكر فيه هو القتال. وليت طالعى أن أكون محظوظاً فى المعركة القادمة مثلما كنت محظوظاً البارحة! إننى لم أعان إلا من كدمة قوية فى الكتف أصابتنى بها رصاصة كروية عند ملامستها لى» (١٦٠).

وفى ١٧ مارس، فإن حصن أبو قير، العاجز عن الصمود أمام القوات الإنجليزية، يستسلم بحاميته المؤلفة من مائة وتسعين رجلاً (١٦١). وفى اليوم التالى فقط، يصل مينو إلى الإسكندرية مع الجيش. وقد استغرق وصوله وقتاً أطول بكثير من الوقت الذى استغرقه وصول بونابارت فى عام ١٧٩٩ (وإن كان صحيحاً أن هذا الأخير قد جمع بشكل خاص الطوابير المتحركة التى كانت تتحرك بالفعل). ويتمتع القائد العام بعشرة آلاف رجل مع ألف وخمسمائة من الفرسان. ويستفيد الإنجليز من تفوق عددى طفيف ومن مواقع أقوى (لقد تحصنوا قرب المدينة بين المعدية والبحر)، لكن الفرنسيين لديهم سلاح فرسان مهم، وهو سلاح غير موجود من الناحية العملية لدى خصومهم.

معركة كانوب

يقترح رينييه ولانوس على مينو مهاجمة الأعداء بأسرع ما يمكن، بالرغم من عدم مؤاتاة الموقع (بالنسبة للفرنسيين). إن أى تأخر إضافى سوف يفيد الغزاة الجدد. ويوافق مينو ويقرر اتباع خطة قادة الفرق. وكان على المعركة أن تحدث فى ٢١ مارس. وكان على رينييه الذى يقود الجناح الأيمن أن يشن هجوماً زائفاً مع راكبى الجمال، بينما كان على

الهجوم الحقيقى لن يحدث بعد ذلك بوقت قليل اعتماداً على الجناح الأيسر الذى يقوده لانوس، والمدعوم بالقلب الموزعة قيادته بين رامبون ودبيستان. ويتمثل الهدف فى عزل الإنجليز عن البحر ودفعهم إلى بحيرة المعدية، وسوف تبدأ العمليات قبل الفجر سعياً إلى تضليل الإنجليز فيما يتعلق بنوايا الفرنسيين.

ويبلغ زعيم بدوى سيدنى سميث بوصول مينو وبقراره شن الهجوم فى ٢١ مارس ولا يصدق المسؤولون البريطانيون صحة المعلومة بالرغم من إلحاح العميد البحرى على صحتها (١٦٢). إلا أنه يجرى تعزيز بطاريات المدفعية الإنجليزية.

ويبدأ الهجوم الفرنسى فى الساعة الثالثة صباحاً. ويبدو هجوم رينييه جد ضعيف فى نظر الإنجليز (١٦٣). وهم يتهيئون لتلقى الصدمة الرئيسية على ميمنتهم. ويشن لانوس هجومه، لكن طوابيره تصطدم بتحصينات أقوى من المتوقع وتنحرف عن الاتجاهات المحددة لها. وفى سعيه إلى ضمها وإلى ردها إلى محور الهجوم المناسب، يعرض لانوس نفسه لنيران الإنجليز ويسقط جريحاً جرحاً قاتلاً. ويؤدى اختفاؤه إلى تردد معين وإلى قدر من الارتباك فى الهجوم الفرنسى.

ومنذ الساعات الأولى للمواجهة، والتى سوف تأخذ اسم معركة كانوب، لا تنفذ الخطة بالشكل المتوقع. فرينييه لم يهاجم بقوة بالغة أما لانوس فقد كان شديد الحذر. لكن ما هو أساسى لا يضيع. فبعد فشل المناورة، تبقى لمينو إمكانية الانسحاب إلى الخط الذى انطلق منه وتجريب الحظ بعد ذلك بوقت قليل. وهذا هو ما يقترحه عليه رينييه. لكن مينو لا يريد الإصغاء، فما دام مساعدوه الرائعون قد فشلوا، فإنه سوف يثبت لهم قيمته العسكرية الحقيقية. وإدراكاً منه لواقع أن الفرنسيين أكثر تفوقاً فى الفرسان خاصة، فإنه يريد محاولة تكرار هجوم الفرسان الذى كان مورا قد شنه فى أبو قير والذى كان كيلرمان قد شنه فى مارينجو. وهو يأمر الجنرال رواز الذى يقود سلاح الفرسان بمهاجمة الإنجليز. ويرتاب رواز المذهول لهذا الأمر الأخرق والذى يتمثل فى مهاجمة التحصينات البريطانية على طول الجبهة. وهو يطلب تكرار الأمر على مسمعه ويقول لرجاله: «إنهم يرسلوننا إلى المجد والموت، فلنتقدم!» (١٦٤)

وبأكثر مما فعلت الهجمات الفرنسية السابقة له مباشرة، فإن هذا الهجوم يشكل سابقة لهجوم ناى فى ووترلو. وفى لحظة من اللحظات يتم كسر الخطوط الإنجليزية ويسقط أبيركرومبى بدوره جريحاً جرحاً قاتلاً. لكن الجنود البريطانيين ينجحون فى إعادة

تشكيل وحملتهم وفى إبادة الفرسان الفرنسيين بنيران المدفعية وبنيران المشاة. وكما فى ووترلو، فإن أية مشاة فرنسية لم تتبع الفرسان. والواقع أن رينييه مع رجاله لم يكن قد وكب التحرك. ولكى يبرر موقفه، فإنه يؤكد أن مينو لم يخطره بتحرك الفرسان، وهو أمر يبدو مرجحاً لأن أمر الهجوم الصادر إلى الفرسان كان غير متوقع تماماً. ويهلك روايز وجزء من ضباطه فى هذا الهجوم البطولى. ويواصل مينو إصدار الأوامر إلى رجاله بالقتال بالرغم من تحذيرات رينييه من عدم جدوى مواصلة العمليات. ولا تنسحب القوات الفرنسية إلى الإسكندرية إلا فى العاشرة والنصف صباحاً. ولا يطاردها الإنجليز المنهكون والذين تعوزهم الذخيرة.

• وإذا كانت الخسائر مرتفعة، نحو ألفى رجل وجزء كبير من الفرسان (بلغ عدد قتلى الإنجليز مائتين وتسعة وثلاثين بينما بلغ عدد جرحاهم ألفا ومائتين وخمسين) (١٦٥)، فإن الأضرار المعنوية تعتبر أهم بكثير. لقد فقد الفرنسيون فرصة تدمير الجيش البريطانى قبل أن يعززه الأنجلو – هنود والعثمانيون. وبالنسبة لكثيرين فإن المعركة قد انتهت ومن العبث مواصلة القتال. والقيادة العليا أكثر انقساماً عن ذى قبل. وكل واحد يلقى على كاهل الآخرين المسؤولية عن الهزيمة. فمينو ورامبو وديستان يتهمون رينييه بالتسبب فيها بملء إرادته وذلك بتخلفه عن دعم هجوم الفرسان. ورينييه وداماس وأنصارهما يندون بالتقصير الإجرامى الذى أبداه القائد العام. ويجمع الجنود بين مطاعن الفريقين ويرون أن هناك ما هو صحيح فى كل هذه المزاعم، وهو ما لا يعتبر مشجعاً البتة بالنسبة لمستقبلهم...(١٦٦)

أزمة القيادة

يمكن تسمية الفترة التى تلت معركة كانوب بأنها فترة عدم الحسم. إن رينييه وداماس يدعوان إلى تركيز القوات الفرنسية انطلاقاً من القاهرة سعياً إلى التمكن من مواجهة الجيش الإنجليزى مرة أخرى فى ساحة المعركة. ولا مفر من أن يتوقف على نتيجة هذا الصدام الجديد قرار الاحتفاظ بمصر أو الجلاء عنها (١٦٧). أما بيليار، الذى بقى فى القاهرة، فإن عزيمته تخمد من جراء الروايات المحزنة لما حدث فى معركة كانوب والتى يبلغه بها رفاقه، خاصة داماس ورينييه، ومن جراء غياب تعليمات من مينو، وهو يأمر بالجلاء عن الحى الأوروبى ويحشد جميع السكان الفرنسيين فى القلعة، ثم إنه يكتب إلى مراد بك أن يرسل إليه واحداً من البكوات يملك صلاحيات كاملة لإجراء مفاوضات شاملة

تالية (١٦٨). ومشروعه هو ترك القاهرة والانضمام إلى مينو فى الإسكندرية مع جميع قواته، بحيث يصبح مراد أثناك ضامناً للوجود الفرنسى. «عندما يهبط مراد، سيدى الجنرال، سيكون بالإمكان، إذا ما قررتم إصدار الأمر إلينا بالخروج بجميع إمكاناتنا، أقول، سيكون بالإمكان السماح له بالوجود فى الجيزة، قبالة القاهرة ولجعل مصر العليا نيابة من الفرنسيين خلال غيابهم وسيكون بالإمكان إجباره بهذا النوع من الثقة التى سوف نبديها تجاهه على أن يظل وفياً لتعهداته، وعلى أن يعمل، إن لم يكن على الاتحاد معنا فى القتال، فعلى الأقل على صون وتأمين وصول الإمدادات الغذائية» (١٦٩).

وفى هذا الوضع الحرج، يذكر بأن بونابارت لم يتردد فى المضى فى عقد مجالس حربية وفى إقرار خطة مرؤوسيه... وهو يخبره من جهة أخرى بأن جيش الصدر الأعظم فى طريقه إلى اجتياز سيناء. والمشروع الذى يقترحه هو الجلاء عن كل شرقى الدلتا وتركيز قواته لمقاتلة الجيش العثمانى الذى لا يمثل خطراً رئيسياً (١٧٠).

والواقع أن مينو كان قد فقد كل ثقة فى قادة فرقه الذين يعتبرهم خونة، وهو لا يرى خلاصه إلا فى وصول جانتوم مع التعزيزات، وهو ما لا يعدو أن يكون وهماً علاوة على ذلك، حيث إن عدد القوات التى غادرت طولون ليس غير ألفين وخمسمائة رجل (١٧١). ويبدو له أن الحل الوحيد إنما يتمثل فى كسب الوقت بالتحصن فى القاهرة والإسكندرية. فالشىء الرئيسى هو الحفاظ على وجود فرنسى فى مصر إلى حين عقد الصلح الشامل، وتخامره الأوهام من جهة أخرى فيما يتعلق بوضع الإنجليز، وهو على ثقة من أن «الروس يزحفون ضد الأتراك وأن السلطان قد أرسل أوامر بالامتناع فى هذه الولايات عن تقديم مواد غذائية إلى الإنجليز» (١٧٢).

وبعد ذلك بوقت قصير، يبلغ بيليار بـ «إننا على عتبة خاتمة كبرى، لأن السيد بيت واللورد جرانفيل قد عزلا من الوزارة [...] وهو ما يدل على الصلح بوضوح. وترقباً لذلك [...] دافعوا عن أنفسكم إلى أقصى مدى ضد العثمانلية، على فرض أنهم سوف يهاجمونكم، وهو ما أشك فيه تماماً» (١٧٣).

سقوط رشيد

إن ما يدعم أوهام مينو هو موقف الجيش الإنجليزى. وتمثل معركة كانوب أول نجاح بريطانى كبير للجيوش الإنجليزية منذ عقود. لكن الجيش يعانى من مشكلات إمداد ضخمة ويأمل سيدنى سميث فى أن يقبل الفرنسيون فى الحال التفاوض على أسس

اتفاق العريش. ومنذ ٢٣ مارس، وبلفضل هدنة، يسعى العميد البحرى إلى بدء مفاوضات. لكن مينو يرد بعدم الموافقة.

وفى ٢٥ مارس، يصل القابودان باشا مع ستة آلاف رجل من الجيش العثماني. ويمثل ذلك تعزيزاً ملحوظاً بالنسبة للإنجليز. وفى ٢٩ مارس، يجدد سيدنى سميث محاولته الرامية إلى إجراء مفاوضات. ويرافقه إسحق بك الذى يعمل ترجماناً للقابودان باشا. وتفشل هذه المحاولة كسابقتها. وفى اليوم نفسه، يموت أبيركرومبى متأثراً بجراحه. ويخلفه الجنرال هتشنسون. ووضعه الشخصى صعب؛ فنجاح العملة كله سوف ينسب إلى سلفه، لكن الانتكاسات الممكنة سوف تعزى إليه هو. وهو يرى انه لا يملك إمكانات الاستيلاء على الإسكندرية. ويرفض اتباع نصائح سيدنى سميث الذى يحثه على التقدم بأسرع ما يمكن سعياً إلى استثمار الكسب المحرز فى كانوب (١٧٤). ويستأنف العميد البحرى علاقاته مع زعماء البدو ويتوصل إلى الدخول فى اتصال مع مراد بك. ويطلب إليه الزعيم المملوكى الكبير التوسط له لدى العثمانيين وتهيئة انضواء مماليكه. والحال أن ابن عبد الله باشي، المسمى فى النصوص الإنجليزية بعبد الله المغربى، هو الذى يلعب دور الوسيط (١٧٥).

ولا يرسل هتشنسون قواته للاستيلاء على رشيد إلا فى ٨ أبريل، أى بعد أسبوعين من معركة كانوب ! وعلى الفور، يجلو عن المدينة لوجيير الذى يقود رشيد مع قواته الهزيلة، لكن الإنجليز يخشون من مواجهة مقاومة قوية ويترددون فى التقدم. وبعد يومين من المناوشات، يستولون على المدينة. أما حصن جوليان الذى تدافع عنه حامية صغيرة فسوف يصمد لعشرة أيام أخرى. وينسحب لوجيير إلى الرحمانية. وهو يطلب الحصول على تعزيزات لتأمين المواصلات بين الإسكندرية والقاهرة ولمنع الإنجليز من دخول الدلتا. ويرسل مينو إليه لاجرانج مع فرقة رينييه. ومنذ تلك اللحظة فإن هذا الأخير يجد نفسه مجرداً من أية قيادة، الأمر الذى يدفعه إلى مضاعفة هجومه العلنى على الأسلوب الذى يدير به مينو الأمور. ويكثف القائد العام من الترقيات إلى رتب قائد الفرقة وقائد اللواء، سعياً إلى التمتع برجال مخلصين له.

زوال الحظوة عن سيدنى سميث

فى أواسط أبريل ١٨٠١، نجد أن الجيش الفرنسى، بعيداً عن أن يحقق تركزاً ما، قد أصبح موزعاً إلى ثلاث مجموعات؛ خمسة آلاف مع بيليار فى القاهرة لمواجهة العثمانيين،

أربعة آلاف مع لاجرانج فى الرحمانية فى مواجهة الجانب الرئيسى من الجيش الإنجليزى، وستة آلاف مع مينو للدفاع عن الإسكندرية، وعدة حاميات مبعثرة فى الدلتا. لكن هتشنسون ليس مريصاً على شن هجوم مباشر على الفرنسيين. وفى ١٣ ابريل، يأمر بكسر السدود بين بحيرة المعدية (ذات الماء المالح) وبحيرة مريوط المجففة القديمة. وتلك كارثة بيئية، فالإسكندرية تحاط عملياً بالمياه فيما عدا كوردون ساحلى ضيق (١٧٦). والحال أن البيئة الطبيعية تجعل من الصعب على لاجرانج وبليار الاتصال بالإسكندرية.

وإثر الاستيلاء على رشيد، نجد أن العثمانيين، بالرغم من بيان من السلطان يمنح عفواً عاماً لسكان مصر، إنما يكثفون المعاملة السيئة على حساب المسيحيين. ويحتج سيدنى سميث على ذلك ويتدخل فى الأمر بقوة. والحال أن القابودان باشا الذى لم يغفر للعميد البحرى المسئولية عن معركة هيليوبوليس، إنما يطلب سحبه. ويقبل ذلك هتشنسون، الذى لا يقدر من جهته نشاط العميد البحرى الزائد عن الحد. وعندئذ يتعين على بطل عكا البقاء بلا حراك على متن سفينته (١٧٧)، مما يستثير عظيم أسف الجيش الإنجليزى الذى يتمتع فى صفوفه بشعبية بالغة. ويجرى إعادة كل جماعته من المهاجرين الفرنسيين إلى القسطنطينية.

تراكم الأخطاء

عندئذ يعلم الإنجليز والفرنسيون على حد سواء بموت مراد بك الذى حدث نحو ٢٠ ابريل ١٨٠١ (١٧٨). وكان الزعيم المملوكى قد بدأ هبوط الوادى مع رجاله، لكن وباء الطاعون الذى يعيث دماراً فى البلد قد أرغمه على تفريق مماليكه، الذين أصيبوا إصابة قاسية بالوباء (١٧٩). ومع دخوله فى اتصال مع الإنجليز، فإنه قد احترم احتراماً دقيقاً تعهداته تجاه الفرنسيين بتقديمه لهم إمدادات غذائية من مصر العليا. ويجتمع البكوات ويعينون عثمان بك الطنبورجى زعيماً لهم. وهو يواصل الهبوط سعياً إلى التمكن من توحيد جميع الجماعات المسلحة المملوكية وربما لمراقبة تطور الوضع فى مصر السفلى(١٨٠)

وفى بداية شهر مايو، يزحف الأنجلو – عثمانيون على الرحمانية فى طابورين موحدى الاتجاه، حيث يأخذ الطابور الأول طريق دمنهور، بينما يأخذ الطابور الثانى، والأكثر أهمية، المسار المحاذى للنيل انطلاقاً من رشيد. ويدعمهم أسطول نهرى جد قوى

وعلى الطريق، ينضم إليهم مهدى دمنهور السابق الذى يقال إن مراد بك هو الذى أرسله(١٨١). ويواصل لاجرانج سد طريق القاهرة، لكنه يجد نفسه الآن فى دونية عددية سافرة. وهو لا يمكنه أن يأمل إلا فى حركة هجومية من جانب مينو تأخذ خصومه من الخلف. والحال أن الانتشار الأنجلو – عثمانى، الذى لا يتبع مبدأ التركيز الأولى بأكثر مما يتبعه الفرنسيون، إنما ينقسم الآن إلى أربعة أجزاء: أبو قير، دمنهور، رشيد، بلبيس (جيش الصدر الأعظم). ويمكن القول إن الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين يراكمون الأخطاء الاستراتيجية دون قلق ما، لكن هتشنسون، بالرغم من حذره وتمهله، وهو ما يؤدى إلى تعرضه لانتقادات عنيفة كتلك التى يتعرض لها مينو، لا يتردد فى تحريك رجاله. أمّا مينو، بعد أن كان قد وعد لاجرنج بالتحرك، فإنه لا يتحرك من الإسكندرية.

وكان بيليار قد تلقى من مينو تعليمات بتدمير الجيش العثمانى فى مصر السفلى: فعلى أية حال، ألم يتمكن ألف وخمسمائة فرنسى من إلحاق الهزيمة بعشرين ألف عثمانى فى جبل طابور؟! (١٨٢) لكن بيليار يرى أنه لو سحب من القاهرة الجزء الأكبر من حاميتها للتصدى للعثمانيين، فإن المدينة سوف تصبح بلا دفاع وهو يرى أن العثمانيين سوف يكون بوسعهم الاستيلاء عليها عن طريق هجوم عسكرى جسور تدعمه انتفاضة محلية. ومن ثم فإنه يسحب من المواقع الفرنسية فى الدلتا حاميات فرنسية هزيلة ويركز إمكاناته للدفاع عن عاصمة مصر. وهو يبرر قراره عن طريق مجلس حربى يجمع كبار الضباط، الأمر الذى يسمح له بدعوة مينو إلى ضرورة تحقيق الانسجام فى صفوف القيادة (١٨٣). وفى تلك الأثناء، يواصل لسنقاوه فى الإسكندرية الوشاية له بمسلك مينو، إن هذا الأخير يبدو أنه ينوى معاملة بيليار بالطريقة التى عامل بها رينييه ودامانس (١٨٤).

ويحاول لاسكاريس اللعب بورقة المعلم يعقوب ويقترح على مينو تعيين القبطى رسولاً خاصاً للفرنسيين مكلفاً بالتوفيق بين الفصائل المملوكية المختلفة وزيادة عدد عملاء فرنسا فى مصر العليا (١٨٥). وهو يرجع إلى فكرته الخاصة بتشكيل حزب «مصرى» يضمن المصالح الفرنسية، ويلتف حول يعقوب وسليمان بك، الحامى السابق للقبطى(١٨٦).

أما عثمان بك فإنه يجدد إمارات صداقته للإنجليز وللفرنسيين. ويصرح له هؤلاء الأخيرون بالدخول مع رجاله إلى مصر الوسطى (١٨٧). وأما يعقوب، الذى نظم شبكة استخبارات فعالة، فهو يبلغ الفرنسيين بأن الطليعة العثمانية التى تمركزت فى بلبيس

تتألف من ستة آلاف رجل، بينما يتمركز الصدر الأعظم فى الصالحية مع الفين من الانكشارية (١٨٨).

والحال أن بيليار، إذ يرى نفسه مهدداً فى أن واحد بحشد القوات الإنجليزية التى تجتاز المسار المحاذى للنيل عن طريق الرحمانية وبالقوات العثمانية التى تصل من شرق الدلتا، فإنه يطلب إلى مينو التحرك مع قواته إلى القاهرة لكى يواجه جيوش الأعداء فى الأرض المنبسطة للكشوفة (١٨٩). إلا أن الوقت كان قد تأخر كثيراً؛ فأمام الضغط الأنجلو - عثمانى، يترك لاجرانج الرحمانية وينسحب إلى القاهرة (١٠ مايو ١٨٠١). ويصبح الجيش الفرنسى منقسماً بشكل نهائى إلى جزءين، وتتأثر بذلك تأثراً ملحوظاً معنويات القوات(١٩٠).

ترحيل بيليار الغريب

تتضاعف الانتقادات والتهجمات ضد مينو. ويقرر هذا الأخير أن يبدو نشيطاً، وذلك بقدر ما أن الإنجليز، المعتادين تماماً على الحرب السيكولوجية دائماً، قد روجوا إشاعة مفادها أن رينييه قد عين للتو من جانب القنصل الأول قائداً للجيش، بينما لا يحتفظ مينو إلا بإدارة مصر (١٩١). ويأمر مينو بإلقاء القبض بالقوة المسلحة على رينييه وداماس ودور وعدة ضباط ومسؤولين آخرين عن الجيش (١٣ - ١٤ مايو ١٨٠١). ويجرى احتجازهم على سفن سوف تبحر إلى فرنسا وبعد ذلك بعدة أيام، يغادرون مصر نهائياً. وسوف يعترض الأسطول الإنجليزى سبيل السفينة التى تقل داماس ودور، ويتم أسر الرجلين، فى حين أن رينييه سوف يصل دون مشكلات إلى فرنسا، وهو ما سوف يسمح له بمواصلة حملته ضد مينو.

والحال أن التعزيزات التى جاء بها لاجرانج إنما تسمح لبيليار بمحاولة القيام بحملة ضد الطليعة العثمانية فى بلبيس، ويمكنه الآن توحيد نحو ستة آلاف رجل مع ترك حامية مهمة فى القاهرة، وهو يخرج فى ١٥ مايو ويقابل العدو فى اليوم التالى، ويختفى العثمانيون ويتجنبون أية معركة حاسمة. «وهكذا فعندما رأيت أن العدو جد عازم على عدم الرحيل عن مصر، وأننى إن حاربت بهذه الطريقة، فسوف أستخدم جزءاً من ذخيرة مدفعيتى، وسوف أخسر رجالاً دون أن يتسنّى لى انتزاع أى مكسب، ولأننى كنت أخشى من أننى لو تقدمت فإن كل سلاح الفرسان التركى سوف يستدير من وراء ظهرى لمحاولة

عمل شيء في القاهرة، ولأنني كنت أعتقد أن الإنجليز سوف يواصلون زحفهم، فقد قررت العودة إلى القاهرة للعمل على سد طريق النيل ووضع بطارية قوية قادرة على وقف الأسطول النهري الإنجليزي وتهيئة الجيزة للدفاع» (١٩٢).

والحال أن تردد بيليار الغريب، والذي تبرره جزئياً ذكرى مناورة سلاح الفرسان العثماني خلال معركة هليوبوليس، إنما يؤدي إلى ضياع آخر فرصة لضرب القوات الأنجلو – عثمانية بالتتالي. والواقع أنه لا الضباط ولا الجنود يريدون القتال. إن الخلاف في صفوف القيادة العليا وعجز مينو الواضح عن توجيه العمليات العسكرية قد جردا الجنود، الذين تهاوت عزيمتهم بعد هليوبوليس، من أي إصرار على مواجهة معركة جديدة.

ويجد هذا الانهيار للجيش الفرنسي تعبيراً جديداً عنه في استسلام كتيبة راكبي الجمال. فالكتيبة – التي غادرت الإسكندرية في ١٤ مايو تحت قيادة قائد اللواء كافالييه للبحث عن بعض المؤن للمدينة المحاصرة – والمؤلفة من خمسمائة رجل تصادف الجيش الإنجليزي قرب الرحمانية (١٧ مايو ١٨٠١). وهي تتخذ تشكيل استعداد للقتال وتستفيد للحظة من تفوق عددي واضح على القوات التي تواجهها. ولذا تسعى إلى كسب الوقت، بينما الضباط الإنجليز مفاوضات ولا يجدون، لعظيم دهشتهم، غير صعوبة قليلة في التوصل إلى استسلام الفرنسيين. ويكفي طمأنتهم على العودة الفورية إلى فرنسا وحرية التصرف في ممتلكاتهم الشخصية حتى يستسلموا (١٩٣).

الجيش الإنجليزي القادم من المستعمرات

وهذه النجاحات الأخيرة ترفع معنويات الإنجليز والعثمانيين إلى أعلى مستوى، أما البدو فإنهم – طموحاً منهم إلى المشاركة في عمليات سلب ونهب مربحة، ينضمون بأعداد كبيرة إلى جيش الصدر الأعظم. ويزور إبراهيم بك هتشنسون ليطلب إليه تأمين حماية إنجلترا له (١٩٤). وفي ٣٠ مايو، ينضم إليه عثمان بك مع مماليك مصر العليا، المرتابين هم أيضاً على الدوام في النوايا العثمانية (١٩٥). ويجتمع المسؤولون الإنجليز والعثمانيون لتحديد بقية العمليات، بينما يجلو الفرنسيون عن مواقعهم الأخيرة في الدلتا. وبالنظر إلى عدم تمكنهم من الذهاب إلى الإسكندرية أو القاهرة، فإنهم يركبون البحر متجهين إلى أوروبا. ويأسر الإنجليز بعضهم لكن آخرين ينجحون في الوصول إلى موانئ إيطاليا.

وعلى خلاف رجل كبونابارت تماماً، فإن هتشنسون يتقدم ببطء بالغ ويحتاج إلى خمسة أسابيع لقطع المسافة من الرحمانية إلى القاهرة، وهو يخشى دائماً من عودة

هجومية للفرنسيين ويحرص على تأمين تنسيق تحركات جيشه مع تحركات جيش الصدر الأعظم. كما أنه ينتظر أنباء عن القوة الأنجلو - هندية.

وكان ريتشارد ويلسلى، الذى أصبح مركيزاً فى عام ١٧٩٩، قد عهد إلى الجنرال بيرد وإلى أخيه هو، آرثر، ويلينجتون فيما بعد، بقيادة هذه الحملة (الأنجلو - هندية). لكن آرثر ويلسلى يضطر إلى ترك الجيش لمرضه، وسوف تتاح له فرص أخرى لكى يلمع فى الحرب ضد الفرنسيين، وبما أنه لاوجود هناك لخطر بحرى، فإن السفن تتحرك بشكل مهمل ولا يتسنى تحقيق أى اجتماع لها لا فى مخا ولا فى جده. ولا يتم تركيز السفن إلا فى القصير فى أوائل مايو ١٨٠١، مع وصول وحدة أخرى من القوات قادمة من مستعمرة الكاب الجديدة. وهذا الجيش القادم من المستعمرات والذى يتألف من نحو سبعة آلاف رجل يجتاز الصحراء مكثفاً الاحتياطات لتجنب المعاناة من العطش، ثم يهبط ببطء وادى النيل ولن يصل إلى مصر السفلى إلا بعد أن يكون كل شىء قد انتهى (١٩٦). وعلى الرغم من أن الجيش الأنجلو - هندى لم يشارك مباشرة فى المعارك، فإنه قد لعب دوراً بالغ الأهمية فى إثناء مماليك مصر العليا عن البقاء فى الحلف الفرنسى. كما سمح أيضاً بممارسة ضغط بالغ القوة على شريف مكة. بل إن الإنجليز، الذين يعتبرونه قريباً من الفرنسيين، قد فكروا فى إحدى اللحظات فى تجريده من وظائفه (١٩٧).

استسلام القاهرة

خلال أشهر عدم النشاط العسكرى هذه، لا يحاول مينو الخروج من الإسكندرية، ويتولى بيليار دون اقتناع فعلى تعزيز تحصينات القاهرة. والآن يصيب الطاعون مصر كلها. ومما يدعو للاستغراب أنه يبدو أن الساحل، الأكثر تعرضاً للإصابة بالأوبئة فى العادة هو الذى أفلت من الإصابة، بما يشكل مكسباً عظيماً للإنجليز. وعدد الوفيات كبير للغاية؛ ويرى الجبرتى أن ثلث سكان مصر العليا قد سقطوا ضحية لوباء الطاعون (١٩٨). أما فرنسيو القاهرة، بالرغم من الاحتياطات المتخذة، فإنهم يتكبدون خسائر جسيمة من جراء الوباء، إن أكثر من خمسمائة من بينهم يموتون فى غضون أسابيع قليلة (١٩٩). ويجر تلاشى النظام الفرنسى إلى عودة هجومية من جانب البدو الذين يقطعون الطرق ويكثفون عمليات السلب والنهب على حساب الفلاحين. أما مهدى دمنهور السابق، فقد نجح من جهته فى دفع القرى المجاورة للقاهرة إلى الثورة (٢٠٠).

وفى القاهرة، يكثف استيف التصريحات المطمئنة والكاذبة الموجهة إلى الديوان.

والحال أن المشايخ، الذين لا يمكن تضليلهم فيما يتعلق بجسامة الوضع، إنما يردون بالعزف على الوتر نفسه (٢٠١). ويلتزم سكان المدينة الهدوء. وكان الفرنسيون قد كثفوا التهديدات والجميع يتذكرون القمع الرهيب الذي شهده العام الماضي.

ولا ينهمك الأنجلو – عثمانيون في حصار حقيقي لعاصمة مصر، ولا يتمركزون قرب المدينة إلا في أواسط يونيو ١٨٠١. وهم يكتفون بفرض حظر على الدخول والخروج تتزايد صرامته كما يكتفون بترقب رد فعل من جانب الفرنسيين. ويواصل مينو إمداد هؤلاء الأخيرين بالأنباء الزائفة: «إن جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من الجنود الفرنسيين قد استولى على أيرلندا، وفي البحر المتوسط يتحرك جيش بحري فرنسي وإسباني»، ويواصل توجيه نصائح لم يطبقها قط مثل: «فلتطاردوا الإنجليز والعثمانلية؛ ولا تدعوا لهم لحظة لالتقاط أنفاسهم» (٢٠٢). وهذه المعلومات التي تصل في ١٥ يونيو يجري الاحتفال بها على الفور بإضاءات ليلية، الأمر الذي يدفع الإنجليز إلى تصور أن الفرنسيين يتهيئون للخروج في غارة (٢٠٣). ويتلو استيف رسالة من مينو في ديوان يجمع كل أعيان القاهرة ويعلن لهم «إننا قد تلقينا رسالة من [...] مينو و [...] هو يبلغنا بأن فخامته قد تلقى أنباء من القنصل الأول بونابارت تقول إنه قد احتل جزءاً كبيراً من بلاد الإنجليز وأن أسطولاً فرنسياً وإسبانياً يوجد جهة الأرخبيل [بحر إيجه]».

ولا يرى الجبرتي في ذلك إلا أحلام يقظة وأوهاماً وأكاذيب تهدف إلى تهدئة السكان(٢٠٤). وهو ليس الوحيد الذي يرى ذلك. فبليار يكتب ذلك صراحة إلى مينو: «ما عاد من الجائز للمرء، سيدي الجنرال، أن ينخدع فيما يتعلق بوضعنا. فأنا أعتقد أن انتظار وصول عون إنما هو من قبيل التعلل بالأوهام. إن الحكومة التي تعلم منذ ثمانية أشهر بحملة الإنجليز، كان بوسعها أن ترسل إلينا مثل هذا العون لو كان ذلك ممكناً [...]. وحملة أيرلندا التي تتحدث عنها في رسالتك لابد لها من أن تبدد أي أمل في رؤية أسطول مشترك في البحر المتوسط».

ويمكن الصمود حتى النهاية في الإسكندرية فسوف يجري الجلاء بعد ذلك مباشرة إلى أوروبا. أما في القاهرة، خلافاً لذلك، «فإننا إذا ما أجبرنا على إلقاء السلاح، فكيف يمكن اجتياز الطريق من القاهرة إلى البحر، ونحن محاطون بجيش من الفرسان الأتراك، الذين لا ذمة لهم ولا شفقة عندهم، ومعرضون للهجوم من جانب العرب، ومطوقون بجميع سكان البلد الذين هم أعداء أيضاً؟».

إن الإنجليز لا يحوزون إمكانات لتأمين انضباط العثمانيين، ويرى بليار أن «جيش

مصر قد أدى واجبه. وأياً كانت الأحداث، فإنه سوف يكسب دائماً احترام العالم. فمنذ ثلاثة أعوام، ظلّ دون أن يتزود بمجندين جدد، ومنذ ثلاثة أشهر ونصف الشهر، لم يهبط على (أو بر) العدو وإتاح للحكومة وقتاً لإرسال عون. وإذا كانت لم تفعل ذلك فهذا يرجع إلى أنها لم تتمكن من ذلك. لأن الجنرال بونابارت، الذي يعتبر هذا الجيش أسرته، كان سيفعل كل ما هو ممكن من أجله، لو كان ذلك بمقدوره» (٢٠٥).

وهكذا، فحتى قبل استئناف المعارك، كان قائد القاهرة مستعداً للاستسلام بشرط الحصول على شروط قريبة من شروط اتفاق العريش. وهو يعقد مجلساً حربياً يحشد جميع الضباط القادة. وهو يشير أمامهم إلى المخاطر (الفعلية) التي يمثلها الطاعون، وإلى حالة الإمدادات (التي لا تكفي إلا لأسابيع قليلة)، وإلى صعوبة الدفاع عن محيط بهذه الدرجة من الاتساع استناداً إلى قوات جد قليلة كهذه، وإلى خطر نشوب انتفاضة شعبية، وهو يميل إلى الاستسلام. أمّا لاجرانج، نصير مينو، فهو لا يعترف بحق التفاوض مع الإنجليز، دون تصريح من القائد العام؛ وأما دونزيلو، المتخصص في شؤون مصر العليا، فهو يقترح الانسحاب وشن حرب مماليك ضد الإنجليز؛ وأما دوپا، قائد القلعة، فإنه يدعو إلى المقاومة حتى آخر رجل. لكن جميع الضباط الآخرين أنصار للاستسلام: إن الفرنسيين أقل عدداً بكثير مما في وقت معركة هليوبوليس وأعداؤهم الآن أوروبيون جيدو التنظيم؛ ومن ثم فإن مواصلة القتال لن تغنم شيئاً. والنتيجة مقررة سلفاً (٢٠٦). ولا يشير أحد إلى واقع أن هناك ما يكفي من الإمدادات حتى بداية فيضان النيل (٢٠٧). والذي كان يمكن له أن يجعل وضع الأنجلو – عثمانيين مزعزعاً. وعلاوة على ذلك فإن ذلك كان هو ما يخشاه هتشنسون أكثر من أي شيء آخر (٢٠٨).

وفي ٢٢ يونيو ١٨٠١، يرسل بيليار رسولا لطلب وقف للقتال. وتتم الاستجابة إلى هذا الطلب على الفور. وتبدأ المفاوضات في اليوم التالي. ويتم توقيع الاتفاق في ٢٧ يونيو. وتعتبر الشروط مماثلة لشروط اتفاق العريش إلا فيما يتعلق بالآجال، (إذ يجب للجلاء أن يبدأ) بعد عشرة أيام من التصديق على الاتفاق؛ وفيما يتعلق بالشروط المالية؛ فقد رفض العثمانيون بقوة تقديم أية مساهمة، وهم يتذكرون التضحيات المالية الجسيمة التي فرضها اتفاق العريش وليسوا على استعداد لتكرار المعاناة. وفي المقابل، فإن الفرنسيين، خاصة العلماء، يمكنهم أن يأخذوا معهم كل الأشياء التي تخصهم، وسوف يجرى إرسال ضابط فرنسي إلى مينو لكي يقترح على حامية الإسكندرية الاستفادة من معاملة مماثلة.

وفي الأيام التالية لذلك، يجرى الإفراج عن جميع الأسرى المسلمين، ويرفرف العلم

العثماني على أسوار القاهرة. أما بيان العفو العام الذي نص عليه اتفاق الاستسلام فيجري إلصاقه على الجدران. ويمكن لجميع المصريين الراغبين في الرحيل مع الفرنسيين أن يفعلوا ذلك. ويلقى استيف خطبة وداع أو بالأحرى خطبة وعد بلقاء جديد أمام أعضاء الديوان:

«أيها المشايخ والعلماء، لا تسمحوا للشكوك أن تخامركم، ففراقنا لا يمكن إلا أن يكون مؤقتاً. إنني على أتم ثقة من ذلك. ذلك أن دولتينا لن تفشلا، مع الوقت، في إعادة نسج أواصر الصداقة القديمة التي وجدت بينهما والباب العالي العثماني، الذي وصل إلى شفير الهاوية التي حفرها له الإنجليز، حيث لن يرى بعد أخيراً في استلام مصر الذي أراده الفرنسيون غير الرغبة الواضحة التي أبدوها في الاتحاد معه من أجل إذلال كبرياء ونزوات أولئك الغاصبين لملكوت البحار وتجارة العالم» (٢٠٩).

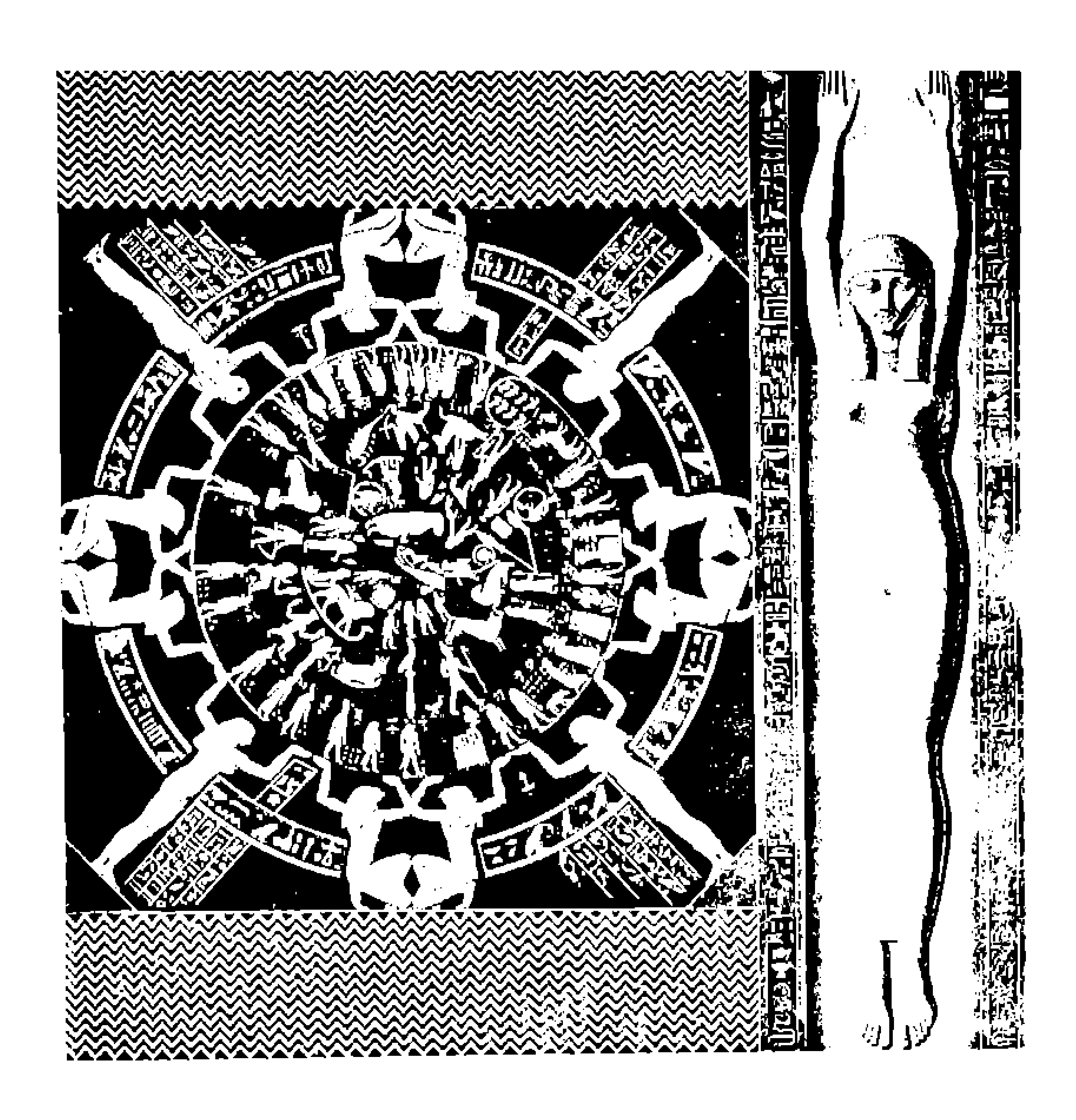
ويلاحظ الجبرتي لنا إزاء نسيج من البلاهات والأقوال الاحتياطية التي لا فائدة من إيرادها (٢١٠). وفي اليوم نفسه، يزور المشايخ الصدر الأعظم الذي يصحبه إبراهيم بك والمحروقي وعمر مكرم.

وفي تلك الأثناء، يخرج الجيش الفرنسي جثمان كليبر من مقبرته. وتقام مراسم جنائزية تأبينية جديدة بينما يبكي الجنود أمام تابوت قائدهم المحبوب. وسوف يعيدونه إلى فرنسا، لكن نابوليون سوف يتركه على مدار عهده، معتقلا سياسياً حقيقياً في قبو قلعة إيف بمرسيليا(٢١١) وسوف يتعين الانتظار إلى حين عودة الملكية حتى يتم دفن الجنرال الألزاسي في ستراسبور.

وفي ١٤ يوليو، يغادر الفرنسيون القاهرة ويهبطون النيل حتى رشيد، وينتهي ركوب السفن الإنجليزية في ٩ أغسطس ١٨٠١. ويرتفع عدد الراحلين إلى ثلاثة عشر ألف وستمائة رجل من بينهم تسعة آلاف جندي عامل، أما الباقون فإنهم يتألفون من المرضى ومن موظفين مدنيين ومن مصريين (٢١٢).

مشروع استقلال مصر

كان لاسكاريس ويعقوب ومارسيل قد فكروا في إحدى اللحظات في تطبيق مشروع دونزيلو الخاص بالانسحاب إلى النوبة، إلا أنه بما أن أحداً لا يريد السير معهم، فإنهم

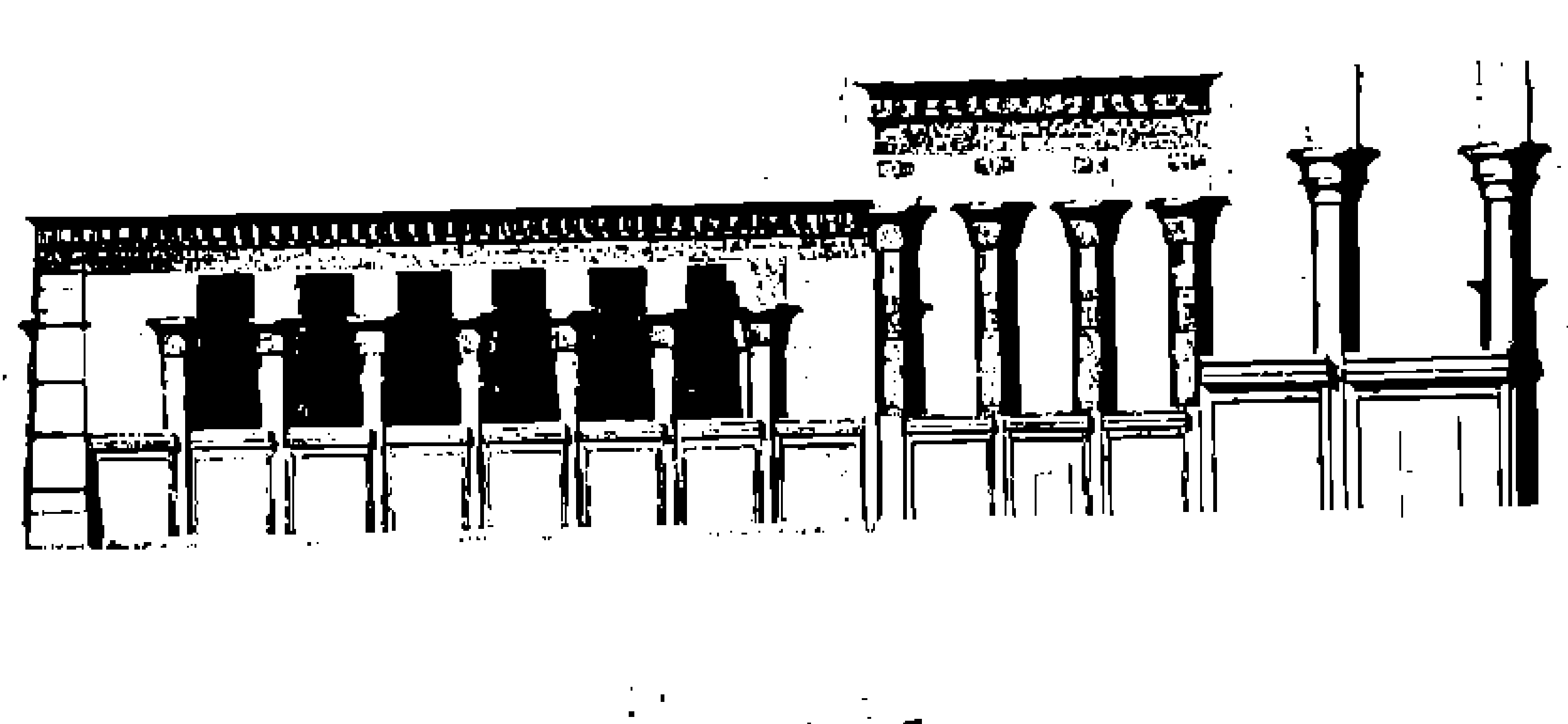


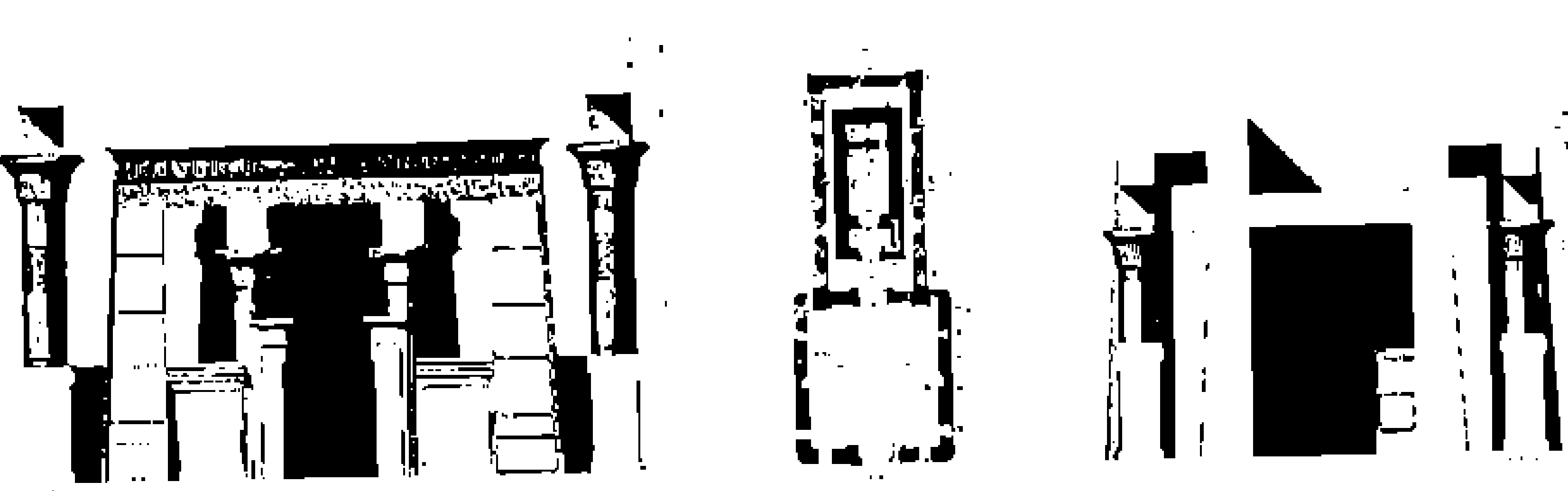
۷۳ – زودیاک دندره.



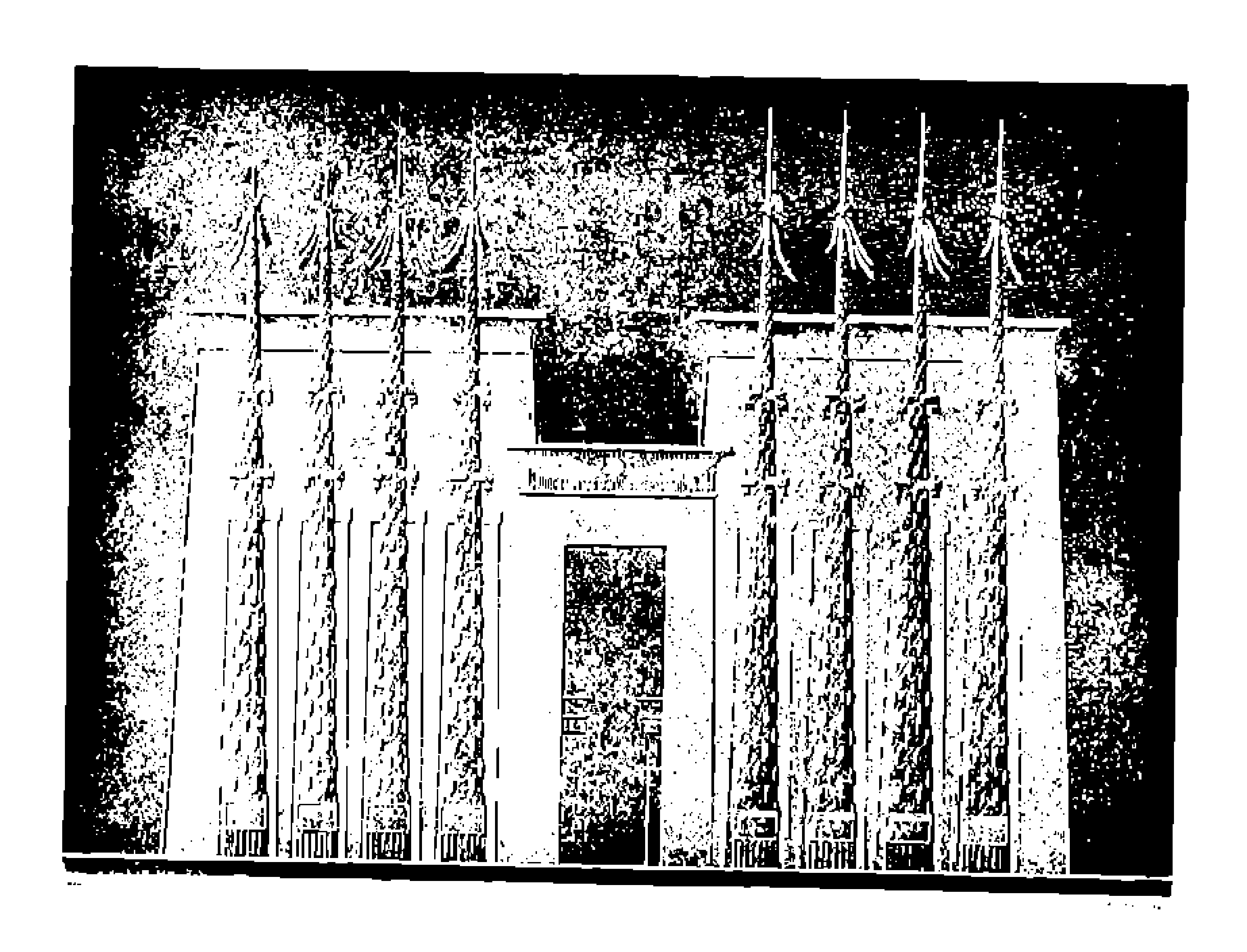
(أ) رسم لوتيورتي.　　　　٧٤ – معبد أرمنت.

(ب) رسم لوكاس.

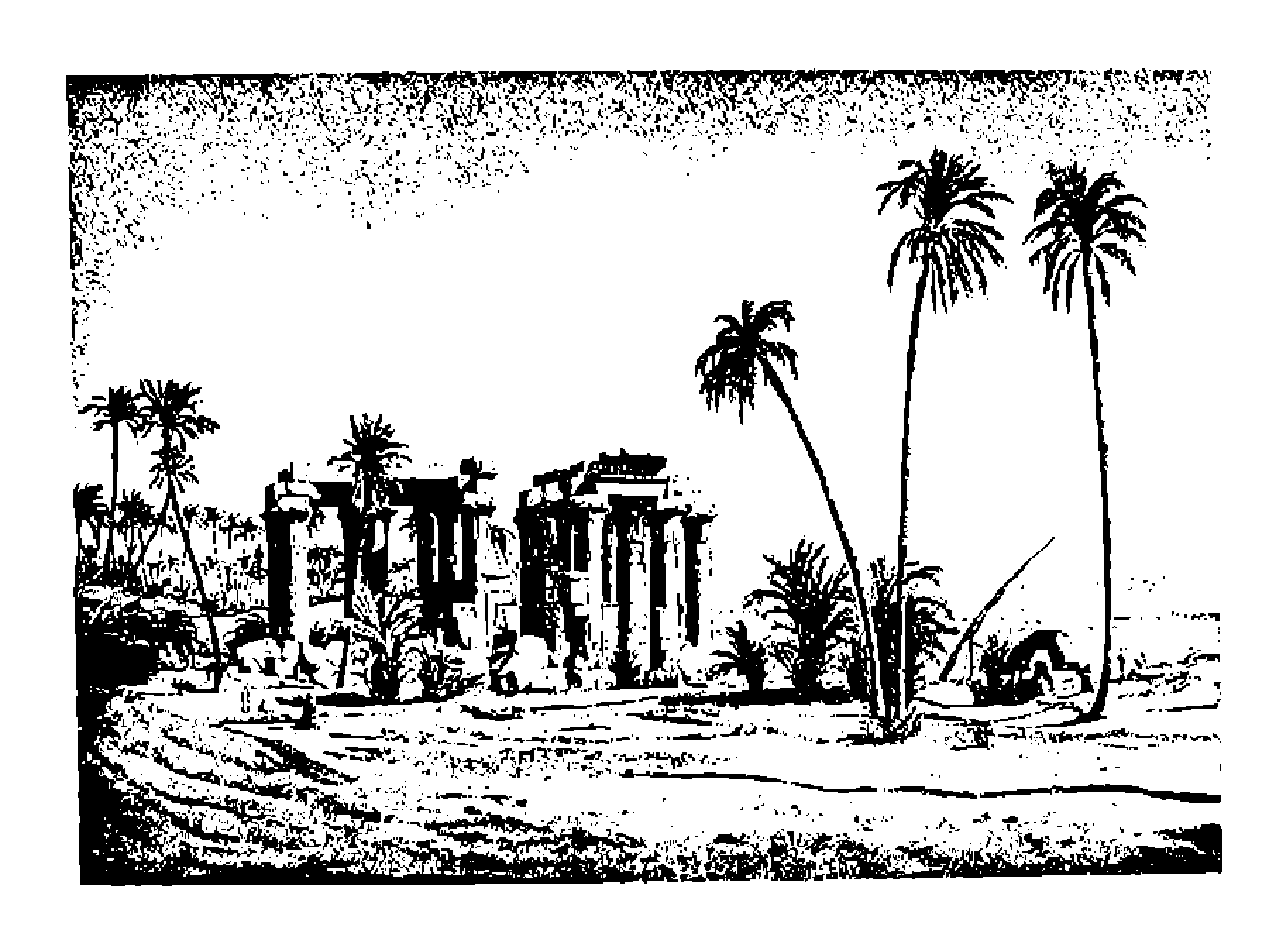




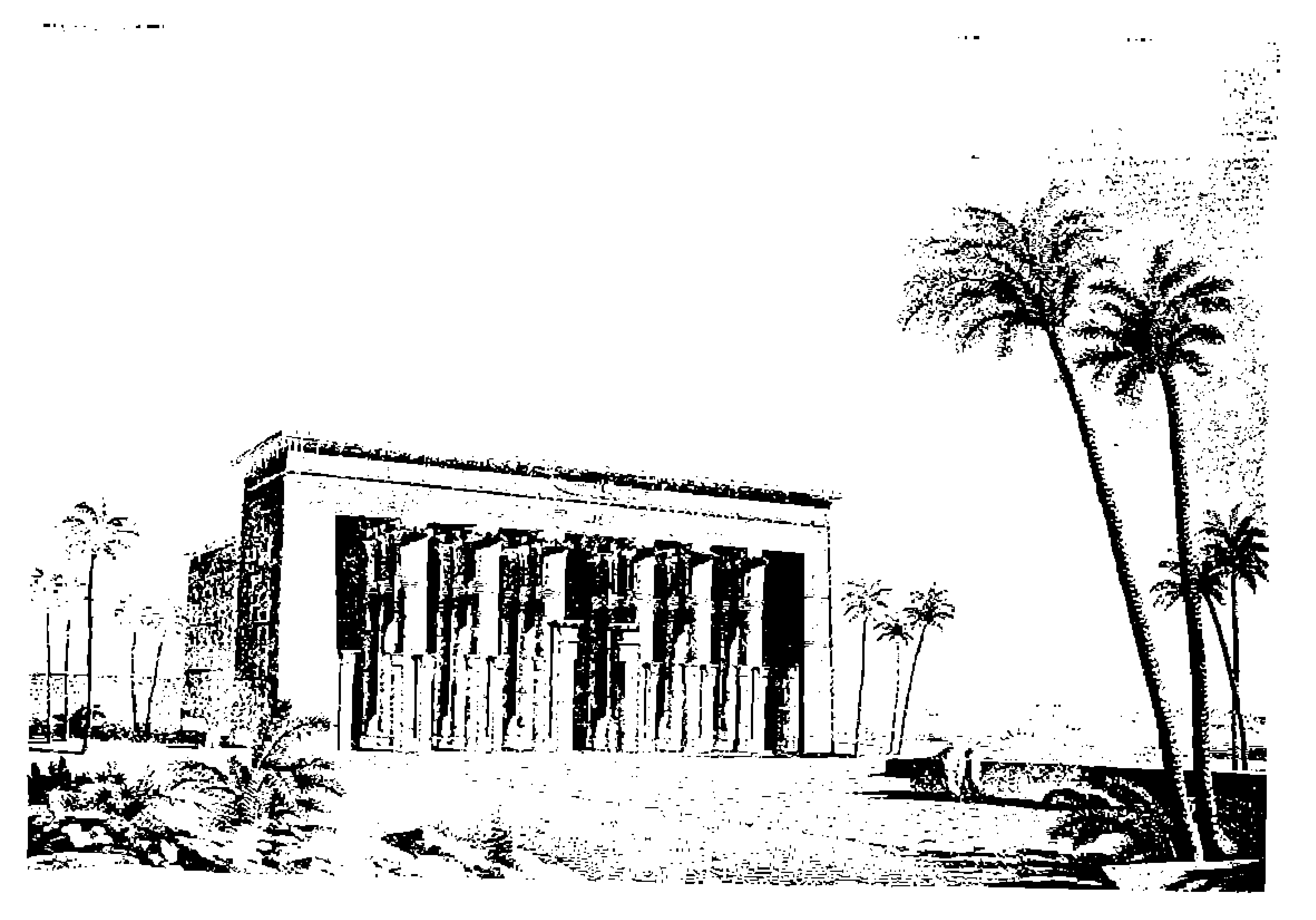
٧٥ – مخطط ومقطع ورفع معبد أرمنت.



٧٦ – نقش معبد خونسو.

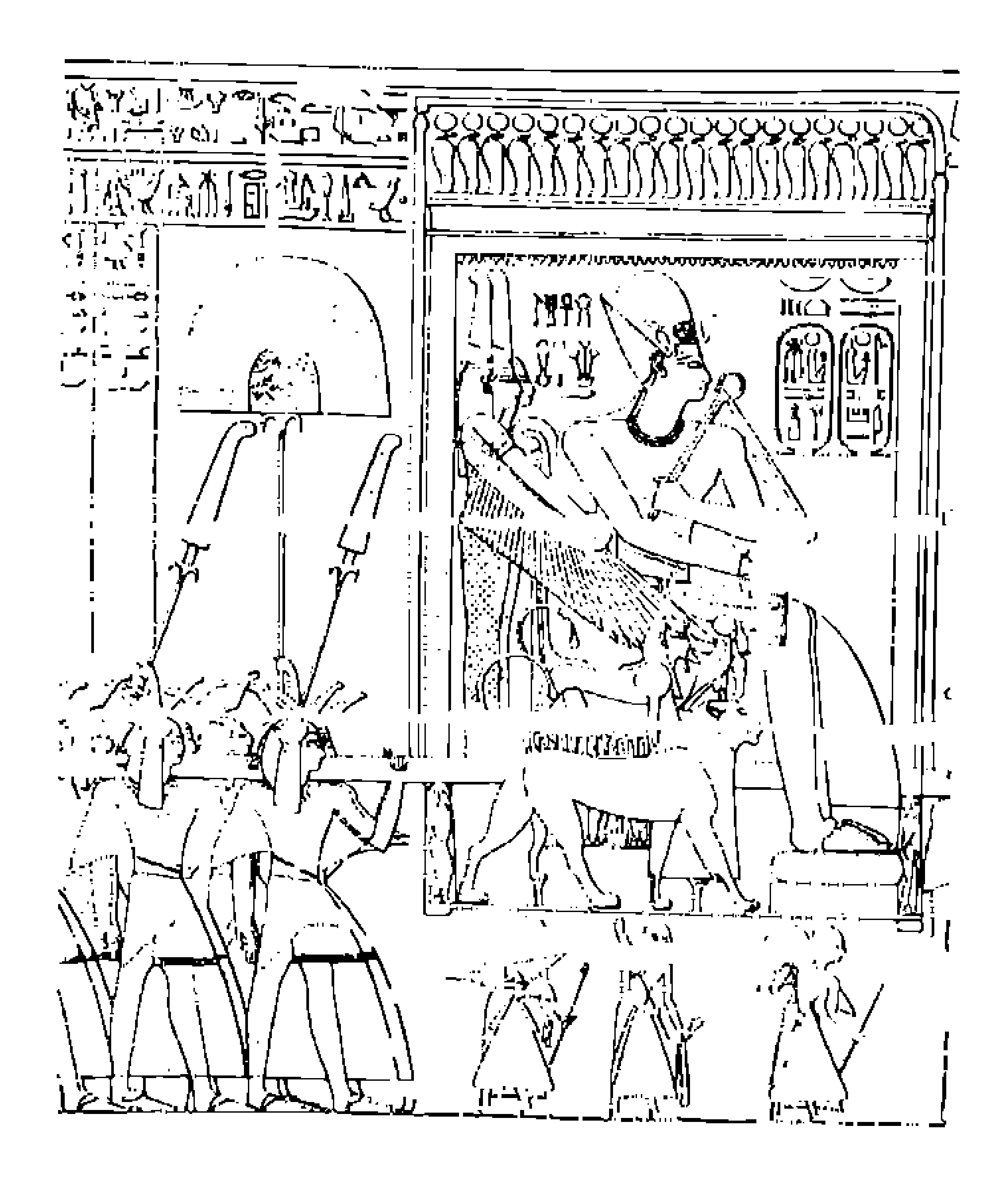


٧٧ - معبد قاو الكبير. رسم حالة الأماكن.



٧٨ – معبد قاو الكبير.

٧٩ – الملك محمولاً على كرسيه.



٨٠ – الملك محمولاً على كرسيه. استرجاع حديث.

يضطرون إلى السير مع بقية الجيش. ويقوم العثمانيون بجهود لدى المعلم حتى يدخل فى خدمتهم (٢١٣). لكنه يرفض. وهو يركب البحر مع لاسكاريس على متن السفينة «لا بالاس» فى ١٠ أغسطس ١٨٠١.

ومنذ إقلاع السفينة، أجرى قبطانها، جوزيف إدموندز، لقاءات عديدة مع المعلم، حيث كان لاسكاريس يقوم بالترجمة. وسوف يلخص إدموندز لرؤسائه مناقشاته على النحو التالى:

«قال لى إنه يرى أن أية حكومة مهما كانت إنما تعتبر أفضل لبلاده من حكومة الأتراك؛ وأنه قد انضم إلى الفرنسيين بدافع من الرغبة الوطنية فى تخفيف معاناة مواطنيه؛ [...] وأنه ما زال يتطلع بالاستعانة بالدول الأوروبية إلى عمل الخير لبلاده وهو يتصور أن رحلته إلى فرنسا سوف تؤدى إلى هذه النتيجة. وقد دفعه الفرنسيون إلى تصور أن بلدهم يتمتع بقوة مهيمنة فى أوروبا؛ وهو لا يكاد يعلم شيئاً عن قوة إنجلترا البحرية العظمى، على أنه يدرك أن رغبته فى أن يرى مصر متمتعة بالاستقلال، هى رغبة محكوم عليها بالفشل، فى غياب تأييد من جانب بريطانيا العظمى. وقد قال لى صديقه لاسكاريس [...] الذى تولى ترجمة كلامه فى محادثاتنا، أن الجنرال المعلم يعقوب هو رئيس مفوضية حصلت على سلطات أو عينت من جانب أعيان مصر بهدف التفاوض مع دول أوروبا على استقلال هذا البلد» (٢١٤).

ويموت يعقوب بعد أيام قليلة من ركوب البحر، وقد جرى اتهام العثمانيين بأنهم قد دسوا السم له قبل رحيله (٢١٥). ولا تخمد عزيمة لاسكاريس من جراء ذلك ويكتب مذكرة موجهة إلى الإنجليز يستعيد فيها الأفكار الرئيسية التى تم الإعراب عنها فى المحادثة: على إنجلترا حماية مصر مستقلة تشترى المنتجات الإنجليزية، فهى ليست غير قوة زراعية. وسوف تكون الحكومة الجديدة سلطة مستقرة، تستند إلى سكان معترفين بالازدهار المستعاد. وسوف تتحرك فى اتجاه استعادة الحضارة فى مصر. ويقترح لاسكاريس إشراك «المفوضية المصرية» فى المفاوضات العامة التى لابد وأن تتلو انهيار الأعمال الحربية للائتلاف الثانى.

ويشير مجمل الأفكار المستحدثة إلى أن واضعها هو الفارس المالطى السابق؛ فمعجمها هو معجم الاقتصاد السياسى لأواخر القرن الثامن عشر، ومفهوم الحضارة هو الذى قدم التبرير الأيديولوجى لعمل بوناپارت فى مصر. ومن الصعب للغاية معرفة ما

كان بوسع يعقوب أن يفكر فيه بالفعل، والشيء المهم هو أنه للمرة الأولى يعزى معجم سياسي غربي إلى أحد الشرقيين. وسوف يتعين الانتظار عشرين سنة حتى يستخدم محمد على بدوره مفهوم الحضارة.

ويأمل لاسكاريس في أن يبقى على اتصال بالإنجليز. والواقع أن تقرير القبطان إدموندز سوف يهجع لأكثر من قرن من الزمان في الأرشيفات الإنجليزية حتى اللحظة التي سوف يكتشفه فيها جورج دوان وينشره في عام ١٩٢٤. وسوف يرجع لاسكاريس إلى الشرق بمشاريع جديدة لاستقلال لبنان ثم لاستقلال العالم العربي.

والحال أن مشروع استقلال مصر، الذي يعاد اكتشافه في اللحظة التي سوف تؤكد فيها مصر بصوت عال وبقوة إرادتها في التحرر من السيطرة البريطانية، سوف تعتبره مدرسة بأكملها من المؤرخين المصريين أول نص قومي مصري عظيم. لكننا لا نعرف بدقة كافية فكر المعلم يعقوب لكي نعرف ما كانت عليه نواياه الحقيقية.

النزاعات الأولى بين العثمانيين والمماليك

في التو والحال، وبرغم العفو الذي أعلنه العثمانيون (٢١٦) وضمنه اتفاق القاهرة، يجري إعدام بعض المتعاونين مع الفرنسيين. لكن غضب السلطات ينصب بشكل خاص على النساء اللاتي اعتدن التردد على الفرنسيين. ويتم الحكم على عدد من بينهن بعقوبة الإعدام، ومن بين هذا العدد ابنة الشيخ البكري. ولم يفعل والدها شيئاً من أجل الدفاع عنها. والحق أنه يهتم بالأحرى بإنقاذ حياته هو. وهو الشيخ الوحيد الذي يتحول إلى ضحية للملاحقات. ويجري تجريده على التوالي من منصب نقيب الأشراف الذي يتم تسليمه إلى عمر مكرم، ثم من منصب رئيس الطريقة البكرية. وتتم مصادرة جزء كبير من ثروته ويضطر إلى أن يحيا حياة متواضعة ومنزوية (٢١٧).

ويجري رد المسيحيين واليهود إلى وضعيتهم السابقة، لكن السلطات العثمانية تسارع إلى التذكير بأنهم تحت حمايتها. ومنذ دخول الجنود العثمانيين، وبالرغم من أوامر النهي المتكررة الصادرة عن قادتهم، فإنهم يعيدون فرض علاقات الحماية على تجار وحرفيي القاهرة في مقابل مبلغ مالي، وبسرعة بالغة يتم إدراك أن هناك خطر استئناف الحرب بين المماليك والعثمانيين وأن عودة النظام العام لن تتم بسهولة (٢١٨).

ويتدخل الإنجليز بالفعل لحساب المماليك. فالقادة العثمانيون يطردون المست نفيسة من بيتها ولا يتمكن إبراهيم بك من العودة إلى بيته، وبناءً على نصيحة من روزيتي، يطلب هتشنسون أن يسترد البكوات جميع حقوقهم ومناصبهم. ويُقَدَّمُ إليه فرمان بهذا المعنى. كما يحصل من المماليك على تعهد بدفع الخزينة للباب العالي بصورة منتظمة وباحترام سلطة الباشا العثماني. ويتفاخر الإنجليز بهذه الماجنا كارتا، لكن المماليك الذين لا يثقون في العثمانيين، محقين في ذلك كما سوف يثبت ذلك المستقبلُ، يفضلون الإقامة في جزيرة الروضة بدلاً من الإقامة في القاهرة (٢١٩).

تلفحات مينو

ترتفع معنويات حامية الإسكندرية عندما تصل إلى الميناء في ٩ يونيو الحراقة «هيليوبوليس» التي انفصلت عن أسطول جانتوم. ويجري إبلاغ الحامية بقرب وصول تعزيزات. والواقع انه يجري إبلاغ مينو بفشل الإنزال في درنه وبعودة الأسطول إلى طولون (٢٢٠). لكنه، لعدم استعداده للتخلي عن أوهامه، يرفض استقبال الرسول الذي بعث به بيليار لنقل نص اتفاق الاستسلام. وهو يندد بالاتفاق في أمره اليومي: «إن القوات الفرنسية التي كانت في القاهرة والحصون المجاورة قد استسلمت دون قتال، ودون أن تتعرض المدينة والحصون للهجوم بشكل منتظم. وإنا لا أجهز لنفسي إصدار أي حكم على هذا الحدث، الذي ربما كان أغرب حدث يحدث في الحرب، لأنني أخشى أن أحيط بالعار رجالاً أثبتوا استحقاقهم لأن يسموا فرنسيين وجمهوريين» (٢٢١).

وفي رسالته إلى بوناپارت، يبدو أكثر عنفاً بكثير: «إن المؤامرة التي حيكت منذ رحليك من أجل الجلاء عن مصر قد وصلت أخيراً إلى ذروتها [...]. ويبدو أن جزءاً من معاهدة العريش قد استخدم كأساس لهذا الاتفاق الاستسلامي. وكان بوسع الجميع أن يعرفوا أنني وإنا أعلن تلك مرة أخرى أمام العالم بأسره إنني قد أبديت احتجاجي على معاهدة العريش البشعة تلك، وهي ثمرة الكراهية التي كان بعض الأفراد يكنونها للجمهورية ولذلك الذي هو اليوم رئيسها الأول بكل ما يستحقه من تشريف، وهي أيضاً ثمرة انعدام الأخلاق وعشق المال الذي يراد نقله بأمان إلى فرنسا، إنني أحتج أيضاً على اتفاق القاهرة الاستسلامي وسوف أدافع عن نفسي حتى نهاية النهاية داخل أسوار الإسكندرية، إنني أعرف الموت لكنني لا أعرف الاستسلام».

وهو يعرف أن بوسعه الصمود أيضاً لنحو ثلاثة أشهر ويطلب إرسال ما بين خمس

وعشرين وثلاثين سفينة حربية كبيرة وما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف رجل حتى يتسنى له استرداد مصر (٢٢٢). ولا تملك فرنسا إمكانات إرسال كل هذه القوات إليه، أما هو فمن المؤكد أنه لا يملك قدرات قيادتها.

والحال أن تشدد مينو سوف يقوده إلى مسلك غريب على أقل تقدير تجاه أعضاء لجنة العلوم والفنون. فهؤلاء، الذين كانوا قد أعربوا بالفعل عن رغبتهم في مغادرة مصر خلال فترة قيادة كليبر، يجددون للقائد العام طلبهم منذ بداية حصار الإسكندرية. فليس هناك ما يمكنهم عمله في مدينة محاصرة. وبالنسبة لمينو، فإن هذا الطلب إنما ينطوي على اعتراف بالفشل النهائي ويقرب الجلاء عن مصر. وهو يبدو معاديا، وإذا كان يقبل مبدأ رحيلهم، فإنه يفعل ذلك لكي يحظر عليهم أن يأخذوا معهم مجموعاتهم الشخصية وأبحاثهم؛ فالمجموعات تخص الحكومة لا الأفراد، أما الأبحاث، فإنها إن وقعت في أيدى الأعداء، سوف يكون بإمكانها «تزويدهم بأفكار مفيدة عن البلد، من الناحية السياسية أو العسكرية أو المالية» (٢٢٣).

ومن ثم فإن العلماء يرحلون على متن السفينة الشراعية «الوازو»، تاركين في مستودع بالإسكندرية أشياءهم. ولما كان مينو لا يريد التصديق على اتفاق القاهرة، فإنه يرفض السماح بتطبيقه على العلماء (وهو أمر كان ممكناً تماماً). ولذا فإنه لا يجرى إشعار الإنجليز بخروج السفينة. لكن قبطان السفينة يستسلم على الفور لأول سفينة بريطانية يقابلها دون أن يحاول الهرب. وبما أن العلماء ليسوا مدرجين في اتفاق استسلام، فإن اللورد كيث يعيدهم إلى الإسكندرية، فهو لا يستطيع قبول خروج أى كان من مواقع محاصر (١٥ يوليو ١٨٠١). ولدى عودتهم إلى الميناء، فإن مينو، الذى يريد معاقبتهم على استسلامهم للإنجليز، يحظر عليهم النزول إلى البر ويأمرهم بالعودة إلى الأسطول الإنجليزى. لكن كيث، بالرغم من تدخل سيدنى سميث لحساب الفرنسيين، يرفض مرة أخرى السماح لهم بالمرور (٢٢٤). وفى هذه المرة، يلزمهم مينو بالبقاء على متن سفينتهم لعدة أيام قبل أن يسمح لهم بالنزول إلى البر حيث يجرى ضمهم إلى الحرس الوطنى.

الشقاقات الإنجليزية

ليست الشقاقات حكراً على الفرنسيين. فعلى الأسطول البريطانى، يتهم بعض الضباط حاشية اللورد كيث بالإثراء من وراء شراء تجهيزات للبحرية. وبعض قباطنة

السفن يأخذون عليه عدم الاهتمام بتزويد أطقم السفن بالأغذية الطازجة وأنه مسئول بسبب إهماله عن انتشار مرض الإسقربوط بين البحارة. وتدار حرب عصابات إدارية حقيقية ضد الأميرال الذى يضطر إلى رفع الأمر إلى لندن لتبرئة ساحته. وسوف تبرئ لجان التحقيق التالية ساحة اللورد كيث، لكن هذه المتاعب تؤثر على معنويات الأسطول.
وعلى البر، تنشب الأزمة بين أنصار سيدنى سميث وأنصار هتشنسون. إن المستشرق هامر – صديق العميد البحرى – يظل فى الجيش ويلعب دور مترجم رسمى، لكنه يكتب رسائل إلى عدد من الأصدقاء، يوجه فيها اللوم إلى مسلك هتشنسون، الذى كان قد طرد سيدنى سميث فى أثر دسيسة شائنة، والذى يتغاضى عن ابتزازات العثمانيين الكثيرة التى تتم على حساب المسيحيين والمصريين عموماً. ويجرى نقل هذه الرسائل إلى اللورد إيلجين الذى يجد متعة فى إرسالها إلى هتشنسون وفى اتهام العميد البحرى بالتمتع بشبكة تجسس شخصية. وعلى الفور يطرد الجنرال المستشرق المترجم ويجد نفسه مضطراً إلى استخدام التُرجمانات الإسطنبوليين الذين جاءوا مع الجيش العثمانى (٢٢٦). ويكتب العميد البحرى عدة رسائل احتجاج على المعاملة الشائنة التى تعرض لها صديقه وبشكل أعم، على خطر تلويث شرف الجيش البريطانى بالسكوت على مسلك الجيش العثمانى الشائن (٢٢٧).

وإذا كانت هذه المشاحنات بين الإنجليز لا تنحط إلى مستوى أزمة فى القيادة، بالرغم من عنف الشتائم المتبادلة، فإن ذلك إنما يرجع إلى أن الجيش الإنجليزى، خلافاً للجيش الفرنسى، يسير من نجاح إلى نجاح.

استسلام الإسكندرية

ترمز عودة هتشنسون من القاهرة مع رجاله إلى استئناف المعارك حول الإسكندرية وفى يومى ١٧ و ١٨ أغسطس ١٨٠١، يشن الأنجلو – عثمانيون هجوماً قوياً سعياً إلى إحكام وضع الحصار الذى اتخذوه فى غرب الإسكندرية. وفى ٢١ أغسطس، يستولون على حصن مربوط، وهو ما يفتح الطريق أمامهم إلى ميناء الإسكندرية القديم. وفى ٢٥ أغسطس، يستأنفون الهجوم ويدنون من المواقع الفرنسية إلى السور المسمى بـ «برج العرب» وفى هذه المعارك، خسر الفرنسيون ما بين ثمانمائة وتسعمائة رجل.

ويصبح وضعهم حرجاً بشكل متزايد ويخشى كثيرون من أن يطبق مينو نيته فى

الموت فى الإسكندرية مع رجاله، ويعارض زايونشيك وبيستان أى اعتداء على مينو، ويرى فريان ورامبون وسونجيس أنه يجب التخلص منه. وهم يوقفون رامبون لمطالبته بالتفاوض مع الإنجليز. وبعد انتصار مينو على هذه الخيانة الجديدة فإنه يقبل مبدأ التفاوض. وفى ٢٦ أغسطس يطالب بهدنة مدتها ثلاثة أيام ويحصل عليها.

وفى ٢٨ أغسطس ينعقد مجلس حربى، وتتصل الحجج المقدمة تأييداً للاستسلام بالعدد الكبير للمرضى (خاصة المرضى بالإسقربوط)، وبخطر انتشار الطاعون وبضعف الإمدادات. ويجرى إلقاء المسؤولية من الفشل النهائى على استسلام القاهرة الذى سمح للعدو بتركيز جميع إمكاناته ضد الإسكندرية. ويحاول مينو كسب الوقت ويحصل على تمديد طفيف للهدنة. لكن هتشنسون يرفض تقديم مهلات جديدة ويستسلم مينو فى ٣٠ أغسطس ١٨٠١. وكان بوسعه أن يقاوم لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، لكن ذلك ما كان يمكن أن يعود إلا بمعاناة لا طائل من ورائها. ومنذ عدة أشهر يتمتع الإنجليز بوضع بالغ القوة فى مصر بحيث لا يمكنهم احتمال بقاء الفرنسيين فيها فى إطار المفاوضات الجارية فى لندن. وفى هذه المفاوضات، كانت بريطانيا العظمى قد جعلت من الجلاء عن مصر الشرط الأساسى للصلح وسوف يتم توقيع الاتفاقات المبدئية على الصلح فى لندن فى أول أكتوبر ١٨٠١، أى قبل ثمانى ساعات من وصول نبأ إرسال مينو لمندوب إلى الجيش الإنجليزى (٢٢٨).

ومن المشكوك فيه، حتى فى حالة انتصار فرنسى على القوات الإنجليزية، أن حكومة لندن كانت ستقبل تحول مصر إلى مستعمرة فرنسية. والتفوق البحرى البريطانى كاف لتأمين حصار دائم لمصر وكان من شأن الجيش الفرنسى أن يتعرض لضعف مستمر، على الأقل من جراء معارك ١٨٠١ ووباء الطاعون الرهيب. والحال أن الإصرار الإنجليزى على عدم قبول مصر فرنسية سوف يتجلى بوضوح فى السنوات التالية؛ فاستئناف الحرب فى عام ١٨٠٣ سوف يكون سببه هو الرفض البريطانى للجلاء عن مالطة بالرغم من التعهد المتخذ فى معاهدة أميان: فالخوف الذى تستثيره مشاريع بونابارت الشرقية كاف، وسوف يكون كافياً، لأن يلهم قراراً على هذه الدرجة من الخطورة. والحال أن الاحتفاظ بمصر وعقد الصلح مع بريطانيا العظمى إنما يشكلان هدفين يستبعد أحدهما الآخر (٢٢٩).

العودة إلى فرنسا

يقبل الإنجليز أن يعود إلى فرنسا عشرة آلاف وخمسمائة وثمانية جنود وستمائة

وستة وثمانون مدنياً استسلموا فى الإسكندرية. وخلال حملة ١٨٠١، ترتفع الخسائر الفرنسية إلى ثلاثة آلاف قتيل ماتوا متأثرين بجراحهم فى المعارك المختلفة وألف وخمسمائة ماتوا من المرض وثلاثة آلاف وخمسمائة أسير (٢٢٠). ومن ثم فإننا نظل بعيدين عن القرابين الجماعية التى قدمتها الإمبراطورية (الفرنسية) فى أعوامها الأخيرة.

ثم إن هتشنسون بتحريض من المدعو هاملتون، يطلب تسليم مجموعات العلماء إليه والتى لا تعتبر أشياء شخصية، وتترتب على ذلك مراسلات نشطة مع مينو الذى يتنازل فى نهاية الأمر بعد أن كان قد جرب عدة تحايلات (على سبيل المثال تصوير حجر رشيد على أنه تذكار لإقامته فى مصر) (٢٢١). ويحتج العلماء. بل إن بعضاً منهم سوف يصل بهم الأمر إلى حد التفكير فى الذهاب لاسترداد أوراقهم فى إنجلترا نفسها. وعندئذ يتخذ جيفروا سانت - هيلير قراراً قوياً ويرد على هاملتون الذى جاء ليطلب تسليمه المجموعات: «كلا، كلا، إننا لن ننصاع لهذا، إن جيشكم لن يدخل الموقع إلا فى غضون يومين. حسناً ! من الآن إلى ذلك الحين ستكون التضحية كلية. وسوف يكون بوسعكم بعدئذ أن تتصرفوا فى أشخاصنا كما يحلو لكم. كلا، أقول لك، إنه لن يقال إن مثل هذا التسليم قد أمكن له أن يتم، إننا سوف نحرق بأنفسنا ثرواتنا، إنكم تسعون إلى أن يذكركم التاريخ. حسناً إن التاريخ يمكن أن يذكركم بالفعل، لقد كان بوسعكم أيضاً أن تحرقوا مكتبة فى الإسكندرية» (٢٢٢).

وهذه الكلمات تهز هاملتون الذى يقنع هتشنسون بالتراجع فيما يتعلق بالأبحاث وعدم التمسك إلا بالتحف الفنية كحجر رشيد.

ويتم جلاء الجيش عن الإسكندرية فى سبتمبر وأكتوبر ١٨٠١. ومينو، الذى أصيب بدوره بالطاعون والذى يسهر لارى على علاجه، هو آخر الراحلين. والحال أن وصول آلاف من الرجال، كثيرين منهم مصابون بالطاعون، إنما يرغم السلطات الصحية على تعبئة لجميع الإمكانات المتوافرة فى موانئ جنوبى فرنسا. ومرة أخرى تقدم كفاءة نظام الحجر الصحى أدلتها ولا يتجاوز الداء منابر الحجر فى الموانئ.

وفى باريس، يدرك بونابارت أن الفشل النهائى للحملة إنما يرجع إلى خلاف الجنرالات. وهو يتردد فى إنزال العقاب القاسى بسبب التوزع المتكافئ للمسؤوليات عن الأزمة. وفى نهاية الأمر يصدر عفواً عاماً ، إن جميع القادة المتورطين فى الخلاف مقربون من مورو، منافس بونابارت فى الجيش، والذى يصل مجده إلى عنان السماء مع انتصار

موهيليديين الحاسم. لكن رينيه يريد الثأر لنفسه وينشر مذكراته التى تعتبر مرافعة ادعاء عنيفة ضد مينو. ويصدر القنصل العام قراراً بحظر الكتاب. ويقرر ديستان ورينيه تسوية المسألة بالسلاح ويتقاتلان فى مبارزة فى ١٥ مايو ١٨٠٢. ويلقى ديستان مصرعه، الأمر الذى يستثير غضب بوناپارت. ولا يمكن السماح برؤية قادة الفرق يتقاتلون فى مبارزات. ويتم نفى رينيه بصورة مؤقتة.

أما مينو، فسوف يحتفظ حتى موته، فى ١٨١٠، بحظوة بوناپارت؛ فسوف يعهد إليه هذا الأخير بوظائف إدارية مختلفة فى إيطاليا مع الحذر تماماً من توليته مسئوليات عسكرية حقيقية. وبوجه عام، فإن زمرة كليبر العسكرية (داماس، رينيه، بليار ومشايعيهم...) والتى يجرى التوحيد بينها وزمرة موروسوف تستبعد من السلطة الإمبراطورية. وسوف تدخل فى خدمة إخوة وأصهار بوناپارت، وفى خدمة مورا خاصة، ولن تشارك فى حروب الإمبراطورية إلا فى جيوش الدول التى تدور فى فلك فرنسا (٢٢٣). وسوف يصل ساڤارى وداڤو إلى أعلى المراتب، بعد أنهما كان ينتميان إلى حاشية ديزيه. أما برتران، الذى اتخذ موقف العداء لتسليم الإسكندرية، فسوف يكون الضابط الوحيد المقرب إلى ناپوليون من بين الضباط الذين خاضوا معارك ١٨٠١.

ويحرص بوناپارت على اختتام الحملة ببيان يذكر بمطمحها التمدينى: «لقد تركوا [الجنود] لمصر ذكريات لا تموت، لعلها تؤدى يوماً ما إلى بعث الفنون والمؤسسات الاجتماعية هناك. والتاريخ، على أية حال، لن يورد موارد النسيان ما فعله الفرنسيون لنقل حضارة ومعارف أوروبا إلى هناك. وسوف يروى بأية درجة من الانضباط حافظوا عليها طوال تلك المدة ولعله سيأسف على ضياعها بوصفه نائبة لخسرى ألمت بالجنس البشرى» (٢٢٤).

حواشي الفصل الثامن

١ -*Mémoires de Reynier*, pp. . 90 - 91 et *Journal de Reynier*, Vincennes, Mr. 571.

٢ - *Journal de Reynier* : «لم يكن في القاهرة غير أربعة من قلب الفرق، بمن فيهم مينو، وكان عليهم أن يتحركوا على الزوايا الأربع لعربة الموتى، إلا أن مينو، لدى تحرك الطابور، وقف بمفرده خلف العربة وعهد إلى قائد لواء الحلول محله في الزاوية الرابعة».

٣ -B6 147 : rapport du général Friant sur l'évacuation de l'Égypte. Le soulignement vient du manuscrit.

٤ - *Courrier de l'Égypte*, le 18 messidor an VIII.

٥ - Rapport de Friant.

٦ - *Mémoires de Reynier*, pp. .96 - 97.

٧ - John Keith á Mr. Tooke, le 27 juin 1800, BARROW, I, p. 393.

٨ - Texte non daté dans FO 78 30.

٩- في رسالة إلى القابودان باشا بتاريخ ٢٢ ثيرميدور من العام الثامن (١٠ أغسطس ١٨٠٠)، يشير مينو إلى علاقاته مع إسحق بك : «لقد تألمت كثيراً لأن الظروف لا تسمح لي باستقبال إسحق بك الذي عرفته في الماضي والذي أكن له تقديراً خاصاً تماماً» (B 6 122).

١٠ - سوف يجري تعيين سبنسر سميث في ألمانيا. وسوف نجده متورطاً في قضايا مؤامرة كادودال وإعدام الدوق دينجاين، كما أن النقيب رايت قد سجن في عام ١٨٠٤، متهماً بنقل كادودال وبيشيجرو إلى فرنسا وقد عثر عليه «منتحراً» في السجن في ٢٦ أكتوبر ١٨٠٥. انظر.

ويحمل قبره في بيير لاشيز شاهدة لاتينية كتبها سيدني سميث تنتهي بما يلي : «إن النقيب، وسط الزنازين والمعاملات الأكثر هولاً من الزنازين، قد وجد في الصباح قتيلاً في سريره، في سجن الهيكل، السجن الشهير بالقتلة الليليين» (pp. 175 - 176). وبعد عام ١٨١٥، سوف يقيم العميد البحري في فرنسا وسوف يحرك بالتحديد محفل هيكل ماسونيا... وبحسب علمي، فإن المؤرخين لم يهتموا بالذكريات التي تركتها، في حاشية الفصل الأول، دسائس الإنجليز في مصر، والدور الذي لعبه المهاجرون الملكيون فيها وواقع أننا نجد الأسماء نفسها في المؤامرات التي عرفتها الفترة الأخيرة للقنصلية.

١١ - Rapport de Friant, soulignement dans le manuscrit. Voir aussi les témoignages réunis par Georges RIGAULT, *Le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Égypte*, Paris, 1911, pp. 100 - 101. Dans

cet ouvrage, l'auteur a voulu réhabiliter Menou et a, en tout cas, remis un certain nombre de choses en place.

Journal de Reynier et rapport de Friant. B6 122, Menou á Damas, – ١٢
le 6 thermidor an VIII (25 juillet 1800).

١٣ – (B 6 49)، داماس إلى مينو، ١٠ تيرميدور من العام الثامن (٢٩ يوليو ١٨٠٠) :
«لقد تركتَ لحسن تقديري لاختيار الأوراق الخاصة للجنرال كليبر؛ واعتقد إنني سوف أكون مخالفاً للتقاليد الرسمية ولواجبي إن لم أسلمك جميع الأوراق التي من شأنها مساعدتك على الوقوف على جميع الأحداث التي جرت بحسب ترتيبها الزمني وبأكبر قدر من التفاصيل خلال المدة التي كان فيها الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش». وهو يحتفظ بالأوراق الأخرى، خاصة كراسات اليوميات الشهيرة ذات النبرة الانتقادية المعادية لبونابارت الذي سوف يبحث عنها في مناسبات مختلفة في ظل القنصلية والإمبراطورية لإعدامها. وقد نشرتُها في كتاب «كليبر وبونابارت...».

Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1er juillet 1800). – ١٤

Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800). – ١٥

١٦ – الأمر اليومي الصادر في ١٢ فروكتيدور من العام الثامن (٣٠ أغسطس ١٨٠٠). لقد جرى تحديد مجالات اختصاصات موظفي الشؤون المالية الرئيسيين في منشور تعميمي أصدره استيف في ٣٠ فروكتيدور من العام الثامن (١٧ سبتمبر ١٨٠٠).

١٧ – B 6 47، ١٤ ميسيدور من العام الثامن (٣ يوليو ١٨٠٠)، مذكرات واردة من حسين أفندي والمعلم لطف الله والمعلم يعقوب حول أسلوب حيازة الأراضي.

Ordre du jour du 21 messidor an VIII (10 juillet 1800). – ١٨

B6 47, Estéve á Menou le 24 messidor an VIII (13 juillet 1800). – ١٩

PEYRUSSE, *Les finances de l'Égypte...*, p. 458. – ٢٠

Sur Lascaris et ses projets, voir AURIANT, *La vie du chevalier*– ٢١
Théodore de Lascaris, Paris, 1940, et mon article dans *les Cahiers de L'Orient* no 7, "Le chevalier de Lascaris et les origines du Grand Jeu".

C'est ainsi que Reynier dans ses *Mémoires* cite in extenso l'un des– ٢٢
projets de Lascaris.

B6 47, Lepére á Menou, le 17 messidor an VIII (6 juillet 1800). – ٢٣

B6 47, *Observations sur l'administration des finances de l'Égypte*.– ٢٤
Comme l'auteur, ce travail s'appuie surtout sur sa connnaissance de la situation en Bahireh.

B6 50, Pagliano á Menou, le 2 fructidor an VIII (20 août 1800). – ٢٥

٢٦ – Ordre du jour du 15 fructidor an VIII (2 septembre 1800).

٢٧ – RIGAULT, pp. 121 122.

٢٨ – Ordre du jour du 21 fructidor an VIII (8 septembre 1800). On trouve en B6 53 plusieurs de ces notes confidentielles concernant généralement la fiscalité rurale.

٢٩ – ٨٣٨ قرية من الفئة الأولى مع ضريبة بالنسبة للمشايخ حجمها ٢٥٠ تلار؛ ٦٨٠ قرية من الفئة الثانية مع ضريبة حجمها ١٧٥ تلارا ٧٢٥ قرية من الفئة الثالثة مع ضريبة حجمها ٧٥ تلار. وحيثما يوجد عدة مشايخ، فإن السداد سوف يكون جماعيا.

٣٠ – Ordre du jour du 5 fructidor an VIII (23 août 1800).

٣١ – Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800).

٣٢ – Ordre du jour du 3 fructidor an VIII (21 août 1800).

٣٣ – Ordre du jour du 4 fructidor an VIII (22 août 1800).

٣٤ – Menou á Le Pére, le 6 fructidor an VIII (24 août 1800), ROUSSEAU, p. 342.

٣٥ – Ordre du jour du 14 fructidor an VIII (1er septembre 1800).

٣٦ – Ordre du jour du 16 fructidor an VIII (3 septembre 1800).

٣٧ – Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800).

٣٨ – Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800).

٣٩ – Ordre du jour du 24 fructidor an VIII (11 septembre 1800).

٤٠ – Ordre du jour du 7 vendémiaire an IX (29 septembre 1800).

٤١ – Ordre du jour du 16 vendémiaire an IX (8 octobre 1800).

٤٢ – Ordre du jour du 20 vendémiaire an IX (12 octobre 1800).

٤٣ – Ordre du jour du 20 fructidor an VIII (7 septembre 1800).

٤٤ – الأمر اليومي الصادر في ٢٨ فروكتيدور من العام الثامن (١٥ سبتمبر ١٨٠٠). ويوضح الأمر اليومي الصادر في ١٩ فينديميير من العام التاسع (١١ أكتوبر ١٨٠٠) أن هذا يشمل الفرنسيين، بمن في ذلك العسكريين.

٤٥ – RIGAULT, pp. 134 - 135.

٤٦ – Ordre du jour du 12 messidor an VIII (1re juillet 1800). لابد للجيش من أن يشعر بأن الرواتب تشكل الجزء الأكثر أهمية في الدين؛ لكن القائد العام يلتزم بأنه، بمجرد دفع المرتبات بالكامل للجيش، سوف يصدر أوامر بالوفاء بجميع التعويضات ومتأخرات

الرواتب أو المستحقات المالية الأخرى التي تؤكد شرعيتها. Ordres du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800), du 25 messidor an VIII, du 4 thermidor an VIII (23 juillet 1800).

٤٧ – Ordres du jour du 7 messidor an VIII (26 juin 1800), du 9 messidor (28 juin 1800).

٤٨ – Ordre du jour du 20 messidor an VIII (9 juillet 1800).

٤٩ – Ordre du jour du 2 thermidor an VIII (21 juillet 1800).

٥٠ – Ordres du jour du 11 messidor VIII (30 juin 1800), des 27 et 28 thermidor an VIII (15 et 16 août 1800), du 9 fructidor an VIII (27 août 1800).

٥١ – Ordre du jour du 18 fructidor an VIII (5 septembre 1800). بتصرف.
النص: «لقد وصلتني شكايات حول بعض التجاوزات المرتكبة في الحمامات العامة. إن عدداً من الرجال يريدون اقتياد نسله إلى هناك والاستحمام معهن. وفي جميع البلاد المتحضرة، تدان هذه الجريمة وتعاقب القوانين عليها: إنها مدمرة للآداب العامة؛ وبدون آداب عامة، لا يمكن أن يوجد مجتمع. وبناءً على ذلك، فإنني أصدر الأمر إلى جميع الجنرالات والقادة العسكريين أياً كانت رتبهم بأن يمنعوا ويعاقبوا بأكبر قدر من القسوة، مرتكبي جميع الجرائم المذكورة أعلاه».

٥٢ – RIGAULT, pp. 170 - 172.

٥٣ – الجبرتي، جمادى الأولى ١٢١٥. كما في جميع فترات التوتر الشديد والسلم، يكتفي كاتب الأخبار بإشارات قصيرة.

٥٤ – *Histoire Scientifique*, VIII, p. 82.

٥٥ – *Courrier de l'Égypte*, le 9 thermidor an VIII.

٥٦ – *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 58 - 59.

٥٧ – *Courrier de l'Égypte*, 18 thermidor an VIII (6 août 1800).

٥٨ – Ordre du jour du 4 fructidor an VIII.

٥٩ – وفقاً للجبرتي، فإن هذا الرجل هو أخ زوجة الجنرال مينو.

٦٠ – 60 6 B، بيان بتاريخ ٦ برومير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). على الرغم من أنه قد ترجم ووزع بالعربية، فإن الجبرتي لا يذكره.

٦١ – الجبرتي، ١٥ جمادى الآخرة ١٢١٥. لكنهم قد تناولوا على سبيل المثال شكايات مرفوعة إلى القاضي في الأمور الضريبية كما تشهد على ذلك تلك الرسالة غير المؤرخة والرسالة من الديوان إلى رينييه حاكم الشرقية: «نبلغكم، أيها الجنرال، أن الشكوى الصادرة من سكان قرية مرصفا والتي يتهمون فيها إبراهيم عاشور، شيخ قرية بلبس، لم تصل إلينا بعد، وأنه إذا كان حكم

محكمة القاضي الذي رفعت إليه هذه الشكوى غير مرض للشاكين، فإننا سوف ننظر في مطالبهم بعين العدل وعدم التحيز، أكان ذلك في صالحهم أم ضدهم، بحسب ما يتطلبه العدل. إن عزمنا هو أن نتبع في كل شيء القواعد التي تؤسس العدل تأسيساً محكماً، واثقين، إذ نتصرف على هذا النحو، من عدم الخروج على رغباتكم وتأييدكم؛ (B 6 50، مدرجة في أكتوبر ١٨٠٠، لكن النص العربي لا يحمل تاريخاً غير عام ١٢١٥) [أعدنا ترجمة النص من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل. - المترجم].

Supplément au *Moniteur*, no 184, an IX, B6 56. Jabarti se contente- ٦٢
de mentionner l'existence de la lettre sans en donner le contenu.

٦٣ - الجبرتي، ٢٩ جمادى الآخرة (١٧ نوفمبر ١٨٠٠). يذكر الجبرتي، بالنسبة لليوم نفسه، أربعة إعدامات لقرى لا يعرفُ أسبابها. والحال أن الأمر يتعلق بأربعة من قطاع الطرق الرئيسية ويتذرع مينو بالقرآن لتبرير حكمه (الأمر اليومي الصادر في ٣٠ بروميير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠).

٦٤ - «يا أهل مصر، تذكروا ما حدث خلال حصار القاهرة الأخير. إن أناساً أشراراً قد قدموا إليكم نصائح فاسدة وتم جركم إلى التمرد؛ وسالت دماؤكم. إنني أريد تجنيبكم كوارث مماثلة. والبارحة، أمرت بقطع رأس المدعو يوسف، تاجر الزبد. لقد أراد إثارة الفوضى بين سكان القاهرة، بإعلانه بأعلى صوته أنه لا يجب بيع شيء للفرنسيين، لأن العثمانية سوف يصلون. إن الأشخاص الذين يريدون إثارة حركة هم أعداء لكم؛ إنهم يسعون إلى جركم إلى التمرد، لأنهم يعرفون جيداً أن ثأر الفرنسيين سوف يكون مريعاً، وأن الآلاف من بينكم سوف يهلكون. كونوا واثقين من التحذيرات التي أوجهها إليكم: إنني خير صديق لكم. تفرغوا لأعمالكم، ازرعوا أراضيكم وانبذوا جميع النصائح الفاسدة. إن كل من سيتصرفون تصرف التاجر يوسف، سوف يعاقبون بالإعدام؛ (أمر يومي صادر في ٣٠ بروميير من العام التاسع (٢١ نوفمبر ١٨٠٠). لا يورد الجبرتي هذا الأمر اليومي الذي يتضمن مع ذلك بياناً إلى المصريين والذي يتصل بحدثين تحدث عنهما. النص العربي المطبوع موجود [أعدنا ترجمة النص عن الفرنسية لتعذر الوصول إلى النص العربي.- المترجم].

٦٥ - الجبرتي، ٩ رجب ١٢١٥ (٢٦ نوفمبر ١٨٠٠) و٢٢ رجب ١٢١٥ (٩ ديسمبر ١٨٠٠). قام مينو في بيانه الصادر في ١٦ بروميير من العام التاسع (٧ نوفمبر ١٨٠٠) بتذكير السلطات العامة بضرورة الاهتمام بألاّ يحصل الملتزمون إلاّ على ما هو منصوص عليه في النصوص القانونية.

٦٦ - يقدم الجبرتي، ٢٧ رجب ١٢١٥ (١٤ ديسمبر ١٨٠٠)، تلخيصاً للشكوى التي يوجد نصها في الملف B 6 58 (١٤ فريمير من العام التاسع). ومما له أهمية ملاحظة أن التراجمة يترجمون الملتزم بالسيد؛ إن التوحيد يتم بسرعة بين نظام الامتياز الضريبي ونظام الإقطاع، الأمر الذي يعتبر ضاراً بالنسبة للملتزمين في فترة ثورة فرنسية.

B6 59 : le diwan du Caire à Menou, le 27 frimaire an IX (18 - ٦٧
décembre 1800).

٦٨ – B 6 123 ، مينو إلى فورييه، ٢٥ فريمير من العام التاسع (١٦ ديسمبر ١٨٠٠) ، «يجب أخيراً أن يبدأ الشعب في التمتع في مصر بحقوقه الطبيعية، لكنني في الوقت نفسه لا تراودني ولم تراودني ولن تراودني النية ولا الرغبة في تجريد أي فرد مما يخصه شرعاً». الجبرتي، الأول من شعبان ١٢١٥ (١٨ ديسمبر ١٨٠٠).

٦٩ – B6 59 : Proclamation de Menou du 1 re nivôse an IX (22 décembre 1800).

٧٠ – B6 59 : Estéve á Menou, le 30 frimaire an IX (21 décembre 1800).

٧١ – B6 59 : Tousard á Menou, le 10 nivôse an IX (30 décembre 1800).

٧٢ – B6 62 : Estéve á Menou, le 26 nivôse an IX (16 janvier 1800).

٧٣ – Le manuscrit daté du 30 nivôse an IX (20 janvier 1800) commence par "Menou, général en chef, ordonne". Il se trouve en B6 62. Certains articles sont rédigés deux fois. Rousseau l'a publié sans en donner les variantes (pp. 382 - 393).

٧٤ – بنات سنة ١٢١٥ في ٢٥ مايو ١٨٠٠.

٧٥ – Pour une vision de ces problémes voir, le livre d'Afaf LUTFI al-Sayyid MARSOT, *Egypt in the reign of Muhammad Ali*, Cambridge University Press, 1984 et ma critique de cet ouvrage dans *Bulletin Critique des Annales Islamologiques*, III, Le Caire, I. F. A. O., 1986, pp. 127 - 130.

٧٦ – Ordre du jour du 5 frimaire an IX (25 novembre 1800).

٧٧ – الأمر اليومي الصادر في ١٧ فنديميير من العام التاسع (٩ أكتوبر ١٨٠٠). ويطالب الأمر اليومي نفسه على الإفراط في تناول الكحول عند الفرنسيين. وكان قد نشر من
A. CHUQUET, " Menou et le Hachich ", *Feuilles d'Histoire*, 1909, I,
. pp.81 - 82.

٧٨ – B6 83. Non daté, mais une lettre de Fourier á Menou du 6 nivôse an IX (27 décembre 1800) évoque l'envoi de ce texte á Menou (B6 59) ainsi que la demande de répression des manifestations des Santons. La réponse á Fourier est du 9 nivôse et se trouve dans B6 123.

٧٩ – الأمر اليومي الصادر في ٩ نيفوز من العام التاسع (٣٠ ديسمبر ١٨٠٠). يزعم الجبرتي أن المبادرة جاءت من مينو (شعبان ١٢١٥)، لكن رسالة فورييه تشير إلى العكس.

٨٠ – Jabarti, texte arabe 25 sha'ban 1215 (11 janvier 1801); B6 (minute du texte francais) et B6 83 (copie); pas de variantes significatives entre les textes francais et arabe.

٨١ – B 6 61، ٢١ نيفوز من العام التاسع (١١ يناير ١٨٠١)؛ رسالة الإرلاق من الوديه الذي يشير إلى ملاحظات المشايخ: «لقد لاحظوا فقط أن العدد الكبير لحالات الطلاق يزيد من مصاعب هذا التسجيل وأن الحالات لم تسجل حتى الآن بقدر كبير من الحرص لأن مقدمي البيانات تجري مطالبتهم برسم طفيف أصبح ملحًا لتقليل عدد حالات تقديم البيانات».

٨٢ – *Courrier de l'Égypte*, le 6 pluviôse an IX (26 janvier 1801).

٨٣ – الجبرتي، ١١ شعبان ١٢١٢ (٢٨ ديسمبر ١٨٠٠). وتشير صحيفة *Courrier de l'Égypte* في ٦ بلوفيوز من العام التاسع إلى أوبرا صغيرة ألفها في مصر بلزاك ووضع موسيقاها ريجيل، اسمها «الطحانان»، إلى جانب عروض مسرحية هزلية، وتوضح: «إن عددًا من كبار شخصيات القاهرة بين الأتراك وكثيرين من المسيحيين والسيدات الأوروبيات قد حضروا هذه العروض المختلفة».

٨٤ – *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٥ – *Courrier de l'Égypte*, le 24 pluviôse an IX (13 février 1801).

٨٦ – *Moralistes et Politiques....*, II, pp. 343 - 379.

٨٧ – Anouar LOUCA, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle*, Paris, 1970.

٨٨ – B 6 123، مينو إلى رامبون، ٥ نيفوز من العام التاسع (٢٦ ديسمبر ١٨٠٠). رسائل رامبون موجودة في الملف B 6 59، وهي تتعلق خاصة بالتاجر الكبير بازيل فخر.

٨٩ – في رسالته إلى وزير الشؤون الخارجية، بتاريخ ٢ فينديميير من العام التاسع (٢٤ سبتمبر ١٨٠٠)، يبحث من أعذار لكليبر في الوضع العسكري وقت حصار القاهرة (ROUSSEAU, pp. 357 - 359). وهو ما يعني اعتبار الوضع الحالي مؤسفًا.

٩٠ – B 6 47، مراد بك إلى مينو، ١٥ صفر ١٢١٥ (٨ يوليو ١٨٠٠): «تقول لنا في رسالتك أن الجمهورية الفرنسية قد وضعت الحكم بين يديكم. وهذا مما يزيد من فرحتنا لأننا قد سمعنا عنكم من قبل بالفعل أشياء طيبة والثناء عليكم على الصحة الجميع» [أعدنا ترجمة النص من الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل. – المترجم].

٩١ – B 6 47، معاهدة موقعة من جانب استيف وبلماس مع ممثل مراد بك (ميسيدور من العام الثامن).

٩٢ – B6 118, Damas á Mourad Bey le 1er thermidor an VIII (20 juillet 1800) et B6 122, Menou á Donzelot le 2 themidor an VIII.

٩٣ – B6 49, Mourad Bey á Menou, le 9 rabi' al awwal 1215 (31 juillet 1800).

٩٤ – B6 61, Mourad á Donzelot, 26 safar 1214 (19 juillet 1800, daté par erreur dans les archives au 2 août 1800).

٩٥ - B6 123, Menou á Donzelot le 13 vendémiaire an IX (5 octobre 1800).

٩٦ - B6 55, Donzelot á Menou, le 8 Brumaire an IX (30 octobre 1800).

٩٧ - B6 59, Donzelot á Menou, le 25 frimaire an IX (16 décembre 1800).

٩٨ - B6 63, Delegorgue á Menou le 12 et 13 pluviôse an IX (1 et 2 février 1801), Friant á Menou, le 13 pluviôse; *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 110 - 111.

٩٩ - *Mémoires de Reynier*, pp. 153 - 155.

١٠٠ - *Journal de Reynier*.

١٠١ - B6 46, Lanusse á Menou, le 2 messidor an VIII (21 juin 1800).

١٠٢ - RIGAULT, pp. 102 - 104.

١٠٣ - RIGAULT, pp. 187 - 190. B6 123، مينو إلى لانوس، ١٢ فنديميير من العام الثامن (٥ اكتوبر ١٨٠٠)، إنه يستخدم مصطلح «متلازمات الزوجين» لوصف نزاله مع لانوس.

١٠٤ - *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 59 - 61.

١٠٥ - Rapport de Friant.

١٠٦ - B6 118, Damas á Menou, le 8 fructidor an VIII (26 août 1800).

١٠٧ - *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 63 - 66.

١٠٨ - B6 47, le ministre de la guerre au général Kléber, le 13 messidor an VIII (2 juillet 1800). L'arrivée au Caire d' Auguste Damas, le 1er jour complémentaire de l'an VIII (18 septembre 1800), est annoncée dans le *Courrier de l'Égypte* du 3 e jour complémentaire de l'an VIII et la mort de Desaix est indiquée dans le numéro suivant.

١٠٩ – كان قد أصدر الأمر بالفعل إلى بروى بالتواجد فى البحر المتوسط مع أسطول بريست، لكن ذلك كان بهدف فك حصار مالطة، وإذا أمكن، إرسال تعزيزات إلى مصر، *Correspondance de Napoléon*, VI, pp. 181 - 182 : á Bruix, le 3 ventôse an VIII (22 février 1800). وفى أواخر مارس، ظل الأسطول الفرنسي – الأسبانى فى بريست بسبب الحصار الإنجليزى الذى لا يجترىء البحارة على محاولة كسره ويفكر بونابرت فى استخدام القوات البحرية فى القيام بعمل فى الأنتيل (Ibid, pp. 262 - 263). وعند وصول نبأ

الفائق المريض، أمر بإبلاغ الصحف بأن قوات التعزيز قد ارتفعت إلى ستة آلاف رجل (p. 358).
وقد كتب كارنو رسالته بإيعاز من بونابرت، الذي كان آنذاك في ميلانو (1re messidor an VIII
- 20 juin 1800, pp. 476 - 477).

١١٠ - *Courrier de l'Égypte*, le 6 vendémiaire an IX (28 septembre 1800).

١١١ - *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 67 - 68.

١١٢ - *Courrier de l'Égypte*, le 30 vendémiaire an IX (22 octobre 1800).
١١٣ - *Courrier de l'Égypte*, le 6 brumaire an IX (28 octobre 1800).

١١٤ - *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 74 - 75.

١١٥ - RIGAULT, pp. 194 - 198. A. DE TARL`E, "Menou et Daure en Égypte", *Feuilles d'Histoire*, 1910, I, p. 517 - 525.

١١٦ - *Histoire Scientifique*, VIII, pp. 90 - 93; Menou á Bonaparte, le 2 vendémiaire an IX (24 septembre 1800) (ROUSSEAU, pp. 345 - 347) ; B6 62, lettre de protestation de Hamelin (rentré en France), le 26 nivôse an IX (16 janvier 1801) ; B6 124, Menou á l'Institut le 16 pluviôse an IX (5 février 1801) : «إن التاريخ إذا ما تحدث للأجيال القادمة عن معارك وانتصارات الجنود الفرنسيين في مصر، فلابد له من أن يحدثها أيضاً عن أن فرنسيين آخرين جديرين بالاحترام لما لديهم من علم ومعرفة قد أوجدوا في الوقت نفسه الحضارة وأعادوا العلوم إلى مهده كما لو كانوا يعيدونها إلى مهدها القديم. إن تاريخ حملة الفرنسيين الصليبية الحديثة في مصر لن يكون من ثم كتاريخ حملة القرن الثالث عشر الصليبية، وهو تاريخ جنون ديني؛ إنه سوف يصبح تاريخ بعث لشعب ربما كانت جميع الشعوب الأخرى مدينة له بعناصر جميع العلوم، وجميع المؤسسات».

١١٧ – B 6 55، ملاحظات قدمت إلى الجنرال مينو من جانب قادة الفرق في لقائهم به في ٦ برومير من العام التاسع (٢٨ أكتوبر ١٨٠٠). إن فريان الموجود في الإسكندرية يوافق على تحرك قادة الفرق وهو يتخذ موقفاً معادياً لتجديدات مينو ؛ فريان إلى دلماس، الإسكندرية في ٢٦ برومير من العام التاسع (١٩ نوفمبر ١٨٠٠) B 6 57. أما في تقريره الخاص بالجلاء عن مصر، فإنه، خلافاً لذلك، يوجه اللوم إلى التحرك الجماعي ويتهم رينييه بأنه كان يريد إقصاء مينو.

١١٨ – B 6 55، مذكرة تفسيرية للأسباب التي دفعت قادة الفرق [...] إلى عقد اجتماع مع الجنرال مينو في ١٦ برومير من العام التاسع حول مصالح جيش الشرق وسرد ما حدث في هذا الصدد.

١١٩ - B6 56, le 11 brumaire an IX (2 novembre 1800).

١٢٠ - B6 118, Damas á Moreau le 12 brumaire an IX (3 novembre 1800).

١٢١ – Ordre du jour du 15 brumaire an IX (6 novembre 1800).

١٢٢ – Campagnes d'Égypte..., XXX, pp. 153 - 156. يزعم نابليون أنه لم تكن لديه أية فكرة عن هذا الافتقار التام إلى أية مؤهلات عسكرية والذى جرى تعيينه منذ ذلك الحين فى مينو. وهو يسكت عن خلافات الجيش ويرى أن الحزب المؤيد للجلاء قد أمكن لمينو تشتيت شمله فى غضون أسابيع قليلة.

١٢٣ – Par exemple, en B6 118, Damas au Premier Consul, le 6 frimaire an IX (27 novembre 1800). لا يحلم مينو إلا فى التخلص من داماس الذى يتهمه بأنه مسئول عن كل شيء: «إن هذا الرجل، الضليع جداً فى نظرية التحركات إن لم نقل ما هو أكثر من ذلك، قد أراد إثارة تمرد هنا. إن عدداً من الرجال الذين كان عليهم بحكم مواقعهم أن يكونوا قدوة للجيش، قد أصغوا السمع إلى تلميحاته، لكن الجنود وضباطهم قد ظهروا فى كل مكان بالمظهر الذى يجب عليهم الظهور به، متمسكين بلا حدود بالقنصل الأول وبالشرف وبالسلطة الشرعية»، B6 83, au Premier Consul, le 7 frimaire an IX (28 novembre 1800).

١٢٤ – 55 B 6، الأول من بروميير من العام التاسع (٢٣ أكتوبر ١٨٠٠)، لكن الرسالة لا ترسل إلا فى ١٥ ديسمبر ١٨٠٠. ويقدم رينييه نصها فى مذكراته، مستعيضاً بشكل جزئى عن الأسماء بأحرف أولى (pp. 183 - 190).

١٢٥ – B6 62, le 29 nivôse an IX (29 janvier 1801), repris dans les *Mémoires de Reynier*, pp. 172 - 176.

١٢٦ – لا توجد أدلة مباشرة فى الأرشيفات على عمل من جانب العميد البحرى، لكن رسائل سيدنى سميث نادرة فى الأشهر الأولى من عام ١٨٠١. ومنذ ما قبل مصرع كليبر، كان قد حلل انقسام الجيش إلى استعماريين ومعادين للاستعمار. وقد أدرك بسرعة أنه لن يمكنه الحصول مباشرة من مينو على شيء، و، منذ بداية يوليو، اقترح استراتيجية قائمة على التعارض بين مينو وكبار ضباطه: «حيث إننى أعرف مواقف الضباط الرئيسيين، الذين سوف يكون من السهل فصلهم عن رجل لا يمكنهم احترامه، وتلك هى لعبتنا الوحيدة» (á Lord Elgin, le 3 juillet 1800, BARROW, II, p. 64).

١٢٧ – من الواضح أن فريان هو الذى تلقى النص، انظر رسالة الشكر الموجهة من مينو بتاريخ ١٠ بلوفيوز من العام التاسع (٣٠ يناير ١٨٠١) فى الملف B 6 124. ومن جهة أخرى، فإن الجبرتى يشير إلى توزيع نصوص بالفرنسية من أربع ورقات من جانب عملاء عثمانيين فى مصر وذلك، فى ٩ رمضان ١٢١٥ (٢٤ يناير ١٨٠١): إن التزامن هو أكثر من مزعج...

١٢٨ – وهو ما يتطابق من حيث التاريخ والمكان مع رسالة سيدنى سميث التى أشرنا إليها بالفعل.

١٢٩ – Texte intégral du document dans RIGAULT, pp. 272 - 274.

١٣٠ – B6 63, Menou á Berthier, le 18 pluviôse an IX (7 février 1801).

١٣١ – B6 63, le 25 pluviôse an IX (14 février 1801).

١٢٢ – B6 63, le 26 pluviôse an IX (15 février 1801).

١٢٣ – RIGAULT, p. 281.

١٢٤ – *Mémoires de REYNIER*, pp. 178 - 179.

١٢٥ – B6 63, Friant á Menou, le 30 pluviôse an IX (19 février 1801).

١٢٦ – بعيداً عن تأثير شخصية بول الأول الغريبة الأطوار، فإن السياسة الخارجية المتبعة في عهده هي من وضع حلقة من كبار المديرين الروس المعادين لدور الأجانب في تصعيد السياسة الإمبراطورية، انظر. Boris MOURAVIEFF, *L'alliance russo - turque au milieu des guerres napoléoniennes*, Paris, 1954, pp. 67 - 74.

١٢٧ – يبلغ العثمانيون الإنجليز بتفاصيل المحادثات التي أجراها تاليران مع السفير العثماني الموجود في باريس. FO78 31, protocole de la conférence entre M. Talleyrand, ministre des Affaires étrangéres de France, et Seyd Ali Effendi, ci - devant ministre de la Sublime Porte de l'autre, tenue en conséquence de l'invitation du premier le 19 de la lune de Gemaziel Evel (8 octobre 1800).

١٢٨ – سوف يصبح هذان الرجلان في المستقبل معارضين للإمبراطورية، انظر اللمحتين اللتين تخصهما. م. تولار في *Dictionnaire Napoléon*. إن جان – باتيست ساي، عالم الاقتصاد الكبير، هو أخ هوراس ساي، رئيس هيئة أركان سلاح المهندسين، الذي مات في عكا.

١٢٩ – الأمر اليومي الصادر في ١٢ فينتوز من العام التاسع (٣ مارس ١٨٠١). يظهر مصطلح الحضارة في خطب الخطيبين.

١٤٠ – Sur cette affaire, AURIANT, "Le contre - amiral Ganteaume et l'Égypte", *Revue Bleue*, pp. 647 - 652 et Charles - Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine*, Paris, 1929.

١٤١ – INGRAM, *Commitment...*, p. 383.

١٤٢ – Instructions de Lord Keith, in *Keith Papers*, p. 241.

١٤٣ – Robert Thomas WILSON, *History of the British Expedition to Egypt*, Londres, 1803, p. 3.

١٤٤ – Lord Elgin á Lord Grenville, le 21 novembre 1800, FO 78 30.

١٤٥ – Lord Elgin á lord Grenville, le 9 février 1801, FO 78 31.

١٤٦ – Abercromby á Lord Elgin, le 21 janvier 1801, FO 78 31.

١٤٧ – Détail des bâtiments dans les *Keith Papers*, pp. 267 - 269.

١٤٨ – B6 125, Menou á Reynier, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801).

١٤٩ – B6 125, Menou au diwan, le 14 ventôse an IX (5 mars 1801), JABARTI 20 shawwal 1215.

١٥٠ – JABARTI, shawwal et dhu al qa'da 1215.

١٥١ – B6 126 et B6 64, Menou á Reynier, le 16 ventôse an IX (7 mars 1801). «إنني أميل دائماً إلى الاعتقاد بأنه إذا ما حدث تحرك حقيقي ما، فإنه سوف يجيء من جهة سوريا. ولا يود الإنجليز شيئاً أفضل من أن تتم إبادة الصدر الأعظم، لأنهم يريدون الدخول في عملية اقتسام والأرجح أن تلك كانت غايتهم عندما استدعوا في رودس.

«وقد وصل إلى علمي أيضاً أنه لا يوجد اتفاق بين جنرالاتهم البريين والبحريين. إن اللورد أبيركرومبي الذي يقود القوات البرية هو رجل قليل الجسارة لا يريد الإساءة إلى سمعته ويعتبر السيد سيدني سميث مغامراً».

١٥٢ – B6 64, Reynier à Menou, le 13 ventôse an IX (4 mars 1801).

١٥٣ – *Mémoires de REYNIER*, pp. 202 - 205 خاصة pp. 204 - 205، «لاشك أنه لما كان مصراً على البقاء في القاهرة وعلى شق صفوف الجيش، فإن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مصر كانت تتمثل في اختيار قائد آخر؛ وربما كان بوسع الظروف وبعد الحكومة أن تسمح بقرار كهذا، لكن ذلك كان سيشكل مثلاً خطيراً بالنسبة للانضباط، ما كان يمكن إلاّ لنجاحات كبيرة أن تبرره، ولم يكن هناك ما يسمح بنيل هذه النجاحات ؛ ولم يكن بالإمكان التنبؤ بأن الإنجليز سوف يمكثون سبعة أيام بلا نزول، ومن جهة أخرى، فإنه كان سيكون بالإمكان القول، بعد النصر، إن الجنرال مينو هو الذي أحرزه أيضاً».

١٥٤ – قدرت خسائر الفرنسيين بأربعمائة قتيل وجريح (*Victoires et Conquêtes*, XIV, p. 41)، أما خسائر الإنجليز فقد قدرت بأكثر من خمسمائة (WILSON, pp. 15 - 16).

١٥٥ – B6 126, le 20 ventôse an IX (11 mars 1801). La formule se retrouve dans plusieurs lettres de Menou.

١٥٦ – B6 132, Belliard à Mourad Bey, le 24 ventôse an IX (15 mars 1801).

١٥٧ – B6 64 : Fourier à Menou, le 28 ventôse an IX (19 mars 1801) et lettre du diwan. JABARTI, 3 dhu al qa' da 1215 : "le commissaire donne ordre aux membres du diwan d'envoyer une lettre au général en chef pour le saluer, ce qui fut fait" (CUOQ, p. 297).

١٥٨ – تقرير فريان الذي يلقي كل المسؤولية عن أحداث اليوم على كاهل لانوس، غير الموجود بعد للدفاع عن نفسه.

١٥٩ – فى رغبته الرامية إلى الدفاع عن سمعة مينو، يصل الأمر بريجو إلى حد التلميح إلى أن الجنرالين قد تصرفا بلامبالاة وتنصل معيبين وأن ما حدث فى ١٢ مارس هو بالأحرى مظهر معركة (pp. 298 - 299). وهذا ليس رأى ويلسون الذى يقدر الخسائر الانجليزية بـــ ١١٠٠ جريح وقتيل فى مقابل ٥٠٠ عند الفرنسيين (p. 23) ، وهذا ليس شيئاً تافهاً بالقياس إلى الأعداد المنخرطة فى المعركة...

١٦٠ – Lanusse à Lannes, le 23 ventôse an IX (16 mars 1801).

١٦١ – WILSON, p. 29.

١٦٢ – WILSON, p. 29.

١٦٣ – WILSON, p. 30. ، «كان كل شيء هادئاً فى الثالثة والنصف صباحاً، عندما سمع دوى رصاصات بندقية على طرف الجهة اليسرى. وبعد ذلك مباشرة أطلق أحد المدافع نيرانه، وتلت ذلك طلقات متناثرة من البنادق، ثم بدأت طلقات مدفعين آخرين. وللحظة تحول الانتباه إلى تلك الجهة. وكان الجميع على ثقة من أن هجوماً عاماً على وشك الوقوع، إلا أنه سرعان ما اتضح أن النيران كانت جد ضعيفة على الجهة اليسرى بحيث يصعب أن تكون الجهة التى يستهدفها العدو بشكل أساسى. والواقع أن هذا كان هو الشعور العام؛ والحال أن الجنرال مور، الذى كان الضابط العام فى تلك الليلة، والذى تحرك إلى الجهة اليسرى لدى أول إنذار، قد تأثر تأثيراً كبيراً بهذه الفكرة، بحيث إنه تحول إلى الجهة اليمنى».

١٦٤ – RIGAULT, pp. 304 - 405.

١٦٥ – WILSON, p. 37.

١٦٦ – هذا على سبيل المثال هو ما يمكن فهمه من موقف فيجو – روسيون الذى يلقى اللوم بالطبع على مينو ورينييه ، - "Fragment des mémoires militaires du colonel Vigo Roussillon (1793 - 1837)", *Revue des deux Mondes*, août 1890, pp. 745 - 746.

١٦٧ – Rigault, pp. 311 - 312. B6 65, Damas à Belliard, le 6 germinal an IX (27 mars 1801).

١٦٨ – B6 133, le 5 germinal an IX (26 mars 1801), Belliard à Mourad Bey et à Donzelot.

١٦٩ – B6 133, Belliard à Menou, le 6 germinal an IX (27 mars 1801).

١٧٠ – B6 133, Belliard à Menou, le 14 germinal an IX (4 avril 1801).

١٧١ – ٢٥٩٠ رجلاً بالضبط ، Amaury FAIVRE D'ARCIER, *Réflexions sur la perte de l'Égypte, 1798 - 1801*, mémoire de maîtrise, Paris, I, 1985 (bibliothèque Albert Soboul), p. 187.

١٧٢ – B6 127, Menou à Belliard, le 15 germinal an IX (5 avril 1801).

B6 127, Menou à Belliard, le 19 germinal an IX (5 avril 1801). – ١٧٣

SHANKLAND, Beware of heroes..., pp. 135 - 136. – ١٧٤

BARROW, II, pp. 42 - 43. – ١٧٥

Gratien LE PÉRE, "Extrait d'un mémoire sur les lacs et les – ١٧٦ déserts de la Basse - Égypte", *Description de l'Égypte*, T.XVI, Paris, 1825, pp. 202 ؛ «قطع الجيش الانجليز – تركي سدود قناة الإسكندرية على بعد سبعة آلاف وخمسمائة متر من بوابة رشيد، الواقعة إلى شرقي السور القديم لتلك المدينة. إن مياه هذه البحيرة، المالحة ملوحة مياه البحر، والذي يرتبط بها عن طريق المعدية، قد تدفقت بشكل متعاقب من خلال ثلاث أو أربع فتحات، حتى نهاية شهر بريريال (١٥ يونيو ١٨٠١) واحتاجت إلى ستة وستين يوماً لكي تملأ تماماً حوض ماريوتيس القديم».

١٧٧ – هتشنسون إلى كيث، ٢٠ أبريل ١٨٠١، كيث إلى القابودان باشا، ٢١ أبريل ١٨٠١. كانت الذريعة هي عروض الصلح للتعالية التي قدمها العميد البحري إلى الفرنسيين دون التشاور مع الأميرال العثماني.

١٧٨ – يقدم ريجنيه و «التاريخ العلمي» تاريخ ٢ فلوريال من العام التاسع، أي ٢٢ أبريل ١٨٠١، لكن الجبرتي يشير إلى ٤ ذو الحجة، أي ١٨ أبريل ١٨٠١. ويعرف الخبر في القاهرة في ٦ فلوريال من العام التاسع (B 6 133، بيليار إلى مينو). أما رسالة عثمان بك الطنبورجي إلى سيدني سميث والتي يعلن فيها موت الزعيم فهي مؤرخة في ٢١ أبريل.

B6 67, Belliard à Menou, le 4 floréal an IX (24 avril 1801). 5 mai– ١٧٩ 1801), BARROW, II, p. 46.

Uthman Bey al Tanbourgi à Sidney Smith le 21 avril 1801. – ١٨٠

١٨١ – WILSON, pp. 69 - 70 ؛ «على الطريق، انضم إلينا مولاي محمد، أمير فاس، الذي جاء من طرف مراد بك؛ وكان ملازموه قليلين، لكنهم رجال جد رائعين، مجهزين تجهيزاً جيداً وكان هو نفسه على صهوة فرس عربية، جد ممتازة. كان السكان يعتبرون الرجل الغريب قديساً، وقد اكتسب ورعه هذا الطابع، ولا يمكن إرجاع شجاعته إلا إلى إحساسه بأنه لا يقهر. ولما كان على الدوام عدواً حازماً للفرنسيين، فقد قاد الانتفاضة في دمنهور، عندما كان بوناپارت في سوريا، وقد أسهم بالكثير في تأخير استسلام القاهرة التالي. وتم تخصيص مكافأة لمن يأتي برأسه، لكنه أحرز من ولاء جماعته انتصاراً أعظم ؛ إن عينيه السوداوين حادتان بشكل ملحوظ، ووجهه متورد، وهو أنيق إلى أبعد حد ؛ وهو يرتدي عمامة وعباءة بيضاوين، لهما حواف مذهبة، ويتدلى من على كتفيه حزام عريض مقصب بالذهب كيس موشى باللون الأحمر ومقصب بالذهب ؛ وذراعاه بارعان بشكل فائق؛ وفروسيته ورشاقته جديرتان بالإعجاب ؛ والواقع أن كل حركة من حركاته تتميز بالرشاقة؛ وهيئته المتواضعة ولكن النبيلة، وتعبير معين من القداسة في كل أفعاله، بإمكانه فكرة مباشرة عن مزاعمه وشخصيته. وقد تنبأ بالنجاح للإنجليز، وظل صديقاً متحمساً لهم؛ إلا أنه بعد سقوط القاهرة، أحرز الجشع له أعداءً، واضطر إلى الهرب من الاضطهاد

التركي. وقبل أيام قليلة، جاء في طلب الجنرال، الذي حصل منه على كل آيات المحاباة والاحترام، لكنه الآن قد ذهب إلى القاهرة لسوء الحظ. ولقد فقد صحباه حيويته، وتبدو روحه كسيرة.

ومن المحتمل أنه قد جاء مع العثمانيين في مصر السفلى، ويرصده بليار بين قتلى معركة قرب بلبيس: «مات في ساحة المعركة خمسة من قادة الأعداء من بينهم المدعو ملّا محمد، وهو مغربي كان في القاهرة في العام الماضي خلال الحصار». B 6 133، بليار إلى مينو، ٢٤ جيرمينال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١).

١٨٢ – B6 67, Menou à Belliard, le 30 germinal an VIII (20 avril 1801).

١٨٣ – B6 67, Belliard à Menou, le 4 foréal an VIII (24 avril 1801), plusieurs lettres.

١٨٤ – B6 67, Plusieurs lettres dont celle de Minot, aide de Friant, le 5 floréal an IX (25 avril 1801).

١٨٥ – B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 6 floréal an IX (26 avril 1801).

١٨٦ – B6 67, Lascaris (du Caire) à Menou, le 7 floréal an IX (27 avril 1801) مات سليمان بك في تلك الوقت الذي مات فيه مراد بك (الجبرتي، وفيات سنة ١٢١٥).

١٨٧ – B6 133, Belliard à Uthman Bey, le 11 floréal an IX (1 er mai 1801).

١٨٨ – B6 133, Rapport de Mallem Jacob du 18 floréal (8 mai 1801) transmis au général en chef.

١٨٩ – B6 133, Belliard à Lagrange, le 18 floréal (8 mai 1801).

١٩٠ – *Victoires et Conquêtes*..., XIV, p. 67: «إن هذا الحدث يهدم كل شجاعة، ولقد انتهى الجيش في صخب تذمر ضد الجنرال الذي أهمل وسائل درء كارثة من هذا النوع. والحال أن مينو، بالرغم من طمأنينته العالية، يبدو قلقاً من النتيجة المشؤومة لتراخياته السابقة. لقد فقد المصدر الأخير الذي بقي له لإمداد الإسكندرية وكان على وشك أن يرى هلاكاً من الجوع للجنود ولجميع الفرنسيين المحاصرين معه في هذا الموقع».

١٩١ – *Mémoires de REYNIER*, p. 251.

١٩٢ – B6 134, Belliard à Menou, le 28 floréal an IX (18 mai 1801).

١٩٣ – إن رواية ويلسون هي رواية دقيقة بقدر ما أنه هو الذي حصل على استسلام راكبي الجمال: «الخبر» أعلن الكولونيل كافاليه «أنه إذا ما سمح له بإلقاء سلاحه في مقر القيادة وليس في الصحراء أمام البدو، وإذا ما سمح للضباط بالاحتفاظ بممتلكاتهم الخاصة وسمح للجنود بالعودة إلى فرنسا مباشرة، دون أن يعتبروا بعد وصولهم إلى هناك أسرى حرب، وإذا ما سمح بإرسال ضابط إلى القاهرة لتأمين متاعهم من أجل سلامة المرور بالمعسكر البريطاني، فإنه سوف

يوافق على هذه الشروط. وبما أن كل هذه الشروط كانت تتمشى مع تعليمات الحكومة الصادرة إلى الجنرال هتشنسون، وكانت كالشروط المعروضة على الجنرال مينو، فإن الميجور ويلسون قد قبلها وصدق عليها الجنرال هتشنسون بنفسه عند وصوله. والحال أن العرب، الذين كان بعضهم قد سلبوا في أثر الطابور بمجرد مغادرته للإسكندرية، قد صعقوا عندما رأوا العدو يرضخ بهذه السهولة، وسوف تبقى ذكرى هذا الحدث في أذهان أبنائهم لأجيال قادمة» (p. 105).

إن قرار استسلام كالثالييه المصدق عليه من هتشنسون موجود في الملف B 6 69.

ويمجد مؤلفو كتاب Victoires et Conquêtes (XIV, p. 69) مثلا لكالثالييه الذي نجح بذلك في حفظ أرواح عدة مئات من الجنود وفي إعادتهم إلى فرنسا بدلا من أن يبقوا في الأسر عند الإنجليز.

١٩٤ – WILSON, p. 113, le 25 mai 1801.

١٩٥ – WILSON, p. 119.

١٩٦ – Maurice BESSON, "Un corps anglo - indien en Égypte en 1802", *Revue d'Histoire des Colonies Françaises*, 1933, pp. 71 - 78.

١٩٧ – *Keith Papers*, pp. 324 - 325 : Home Popham à Elgin, le 26 juin 1801. «استنادًا إلى الطابع العام للشريف، الذي أظن أنك تعرف أنه مغتصب وأن الوريث الشرعي سجين، لا يمكنني أن أتوقع الكثير من أي اتصال به، خاصة وأن الفرنسيين قد وعدوا بأن يخلوا ساحة لمصر [...].

وإن مسلك هذا الرجل كان معاديًا بشكل صريح للقضية العامة وبشكل محدد في كل شأن إنجليزي بحيث إنني أعتقد بالفعل أن بالإمكان استصدار طلب احتياطي من الباب العالي إلى اللورد ويليسلي بإزالة هذا المغتصب ووضع الوريث الشرعي على العرش في الوقت الذي نتمتع فيه بكل هذه القوة في البحر الأحمر؛ وبدلا من أن يكون ذلك عملا عديم الشعبية يمثل تدخلا ضد رئيس الديانة المحمدية، فإنه سوف يحوز قبولا عامًا لأنه مكروه من الجميع بسبب مسلكه الاستبدادي والتوحشي.

Pour une étude d'ensemble des relations entre les Anglais et le chèrif voir Mordecaï ABIR "Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798 - 1801", *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1965, pp. 35 - 42.

١٩٨ – أحداث سنة ١٢١٥.

١٩٩ – *Histoire Scientifique*, VIII, p. 241.

٢٠٠ – *Histoire Scientifique*, VIII, p. 255 - 256.

٢٠١ – Jabarti, 17 dhu al Hijja 1215 (1 er mai 1801); 70, le diwan du Caire à Menou le 16 prairial IX (5 juin 1801). Extrait du discours d'Estève

du 12 juin 1801 dans Jabarti, 30 muharram 1215, avec son commentaire, "Un aveuglement sans borne comme l'Océan" et texte français et arabe complet en B6 70, ainsi que dans les actes du diwan du Caire (B.N. fonds arabe 2455).

٢٠٢ – Be 70 , Menou à Belliard le 19 prairial an IX (8 juin 1801).

٢٠٣ – WILSON, p. 124.

٢٠٤ – J'ai suivi le texte des actes du diwan du Caire. Dans les *Aja'ib*, Jabarti a transcrit de façon incomplète le texte en le rendant incompréhensible d'où de longues discussions chez ses exégètes à propos de ses connaissances géographiques. Ainsi la traduction de Cuoq donne "Il ajoutait qu'ils avaient appris l'arrivée d'une flotte française dans la mer Caspienne (Bahr al Khazar) et que bientôt cette flotte parviendrait à Alexandrie, car elle avait attaqué le territoire anglais et s'en était emparé d'une bonne partie", p. 341. Le passage de mer Caspienne (Bahr al Khazar) à mer Egée (Bahr al Juzur) s'explique par un déplacement de points diacritiques. Le reste de la transformation se comprend par le fait que probablement Jabarti ne disposait pas du texte original lors de sa rédaction et qu'il a restitué de mémoire le texte de la lettre.

٢٠٥ – B6 134, Belliard à Menou, le 26 prairial an IX (15 juin 1801).

٢٠٦ – *Histoire Scientifique*, VIII, p. 258 - 262.

٢٠٧ – لتبرير الاستسلام، تشير النصوص اللاحقة إلى احتياطيات تكفي حتى ٥ يوليو ١٨٠١ (*Victoires et Conquêtes*, XIV, p. 83) ، لكن بيليار في رسالة جد متشائمة إلى مينو والمؤرخة في ٢٦ بريريال (١٥ يونيو) يقول : «إن لدينا أغذية تكفي لشهرين، لكن ذلك من الحبوب أم من الأرز أم من الدقيق أم من الخبز». وفي تقريره إلى القنصل الأول، ١١ ميسيدور من العام التاسع (٣٠ يونيو ١٨٠١)، يتحدث عن أغذية تكفي لما بين ٢٠ و٢٥ يوما (B 6 71).

٢٠٨ – WILSON, pp. 152 - 153.

٢٠٩ – B6 71, 17 messidor an IX (6 juillet 1801), discours d'Estève au diwan du Caire.

٢١٠ – ٢٤ صفر ١٢١٦.

٢١١ – THIBAUDEAU, préfet des Bouches du Rhône sous l'Empire, utilise l'expression de "prisonnier d'État" pour le séjour de la dépouille de Kléber au château d'If (*Mémoires*, Paris, 1913, p. 288) En raison de la

publication tardive du texte, il est difficile de savoir si cette comparison est en partie inspirée par le Comte de Monte Cristo.

٢١٢ – انظر في الملف B 6 187، مختلف جداول الأعداد. الإجمالي في الملف B6 73، ١٣ ٦٧٢ من العسكريين و٨٥ من المدنيين.

٢١٣ – B 6 71، القابودان باشا حسين إلى بليار، ١١ يوليو ١٨٠١ : «إنه ليس الوحيد الذي خدمكم، لقد خدمكم أناس من الجميع وخاصة من الأمة الإسلامية؛ لكنهم يستحقون العفو».

٢١٤ – L'ensemble du dossier a été publié par Georges Douin en 1924 au Caire sous le titre *L'Égypte indépendante, le projet de 1801*, imprimerie de l' I.F.A. O.

٢١٥ – يقال إن المعلم، الذي دعي من جانب القابودان باشا عشية رحيله، قد شرب قهوة مسمومة، انظر رواية فيجو – روسيون الذي شهد اللقاء مع القابودان باشا (pp. 748 - 749).

٢١٦ – وجه العثمانيون بيانًا لدى دخولهم مصر. ولا يشير إليه لا الجبرتي ولا نقولا الترك. والنص التركي المطبوع في القسطنطينية موجود في FO 78 31 مع مخطوط ترجمة فرنسية. وهو موجه إلى سكان مصر الذين يجب عليهم وقف التعاون مع الفرنسيين.

٢١٧ – JABARTI, nécrologie de l'année 1223.

٢١٨ – JABARTI, suite de l'année 1216.

٢١٩ – WILSON, pp. 168 - 169 et lettre de Hutchinson à Sidney Smith sans date, mais juillet 1801, BARROW, I, pp. 433 - 434.

٢٢٠ – RIGAULT, p. 354.

٢٢١ – *Victoires et Conquêtes...*, XIV, p. 101 : ordre du jour 20 messidor an IX (9 juillet 1801).

٢٢٢ – B6 71, Menou à Bonaparte, le 21 messidor an IX (10 juillet 1801); ROUSSEAU, pp. 412 - 413 (texte partiel).

٢٢٣ – Menou à Fourier, le 1er prairial an IX (21 mai 1801), ROUSSEAU, p. 405.

٢٢٤ – Voir la lettre de Lord Keith à Menou, *Keith Papers*, pp. 334 - 335.

٢٢٥ – Sur toutes ces affaires, voir les *Keith Papers*, en particulier l'introduction du chapitre sur l'Égypte, pp. 235 - 237.

٢٢٦ – SHANKLAND, pp. 141 - 142.

٢٢٧ – Ensemble de lettres de juin à août 1801, dans BARROW, I, pp. 425 - 438.

٢٢٨ – Rigault, pp. 381 - 382.

٢٢٩ – Sur cette question, voir mon article, "L'Égypte en 1802 : un rapport inédit de Sébastiani", *Annales Islamologique*, Le Caire, I.F.A.O., XXIII (1987), pp. 99 - 116.

٢٣٠ – B6 73 : État de la distribution de l'armée française en Égypte par les forces combinées de la Grande - Bretagne et de la Turquie.

٢٣١ – Cette correspondance se trouve en B6 74.

٢٣٢ – *Histoire Scientifique...*, VIII, p. 421.

٢٣٣ – إن حالة الجنرال البارون ديفيرنوا هي حالة نموذجية : "إن سلاح ضباط الهوسار المسلح قد فقد الحظوة، بسبب تعلقه الديني بذكرى قائده المجيد (كليبر). إن أحداً منهم لم يدع إلى الخدمة لا في الحرس القنصلي ولا في الحرس الإمبراطوري، وقد أرسل إليهم من باريس الثلث ويلوسه سرايا في حين أن الضباط الذين كانوا يختارون لهذه الوظائف كانوا منذ وقت طويل يجيئون من بين الضباط العائدين من مصر. والحال أن الفوج نفسه لم يتأخر في تحمس نقمة نابليون الشديدة، لأنه (الفوج) أعرب بصوت عال عن السخط الذي أحس به. ويجري حل الفوج ويتجه ديفيرنوا إلى نابولي للعمل تحت إمرة جوزيف بوناپارت ثم مورا!"
Mémoires du général baron Desvernois publiées par Albert Dufourcq, Paris, 1898, p. 273.

٢٣٤ – *Correspondance de Napoléon*, le 22 novembre 1801.

خاتمة

الثورة الفرنسية والإسلام

«إن فاتحي أيامنا، شعوباً كانوا أم أمراء، إنما يريدون ألا تمثل إمبراطوريتهم غير أديم أرض موحد، ترنو إليه عين السلطة المتكبرة، دون أن تصادف أي تباين يجرحها أو يحجب نظرها. القانون الواحد، التدابير الواحدة، القواعد الواحدة، وإذا ما أمكن الوصول إلى ذلك، اللغة التي تغدو تدريجياً واحدة؛ ذلك هو ما يجري اعتباره تمام كل نظام اجتماعي. والدين يشكل استثناءً، وربما كان ذلك بسبب كونه عرضة للازدراء، حيث يجري النظر إليه بوصفه زيفاً بالياً، يجب تركه يموت في سلام. لكن هذا الاستثناء هو الاستثناء الوحيد، ويمكن الاستعاضة منه بالعمل على فصل الدين من المصالح الدنيوية، إلى أبعد حد ممكن.

«وفيما يتعلق بكل ما عدا ذلك، فإن شعار اليوم العظيم، هو التجانس. وإنه لأمر مؤسف أنه لا يمكن هدم جميع المدن، حتى يتسنى إعادة بنائها كلها على مستوى واحد، كما أنه مما يؤسف له أنه لا يمكن تسوية جميع الجبال، حتى تصبح الأرض مستوية في كل مكان؛ وإني لأدهش لعدم صدور الأوامر إلى جميع السكان بارتداء لباس موحد، حتى لا يصادف السيد بعد برقشة متنافرة وتبايناً مزعجاً. ويترتب على ذلك أن المغلوبين، بعد النوائب التي كابدوها في هزائمهم، لابد لهم من مكابدة نوع جديد من النوائب، إنهم في البداية ضحايا لوهم البطولة؛ وهم بعد ذلك ضحايا لوهم التجانس.»

بنيامين كونستان

عن روح الفتح والاغتصاب، ١٨١٤

المحصلة

إن حملة مصر هي المحصلة المنطقية لسياسة التوسع الثوري، التي أكدها انقلاب ١٨ فروكتيدور. وبما أن النضال يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى وأن الاضطلاع بإنزال

فى إنجلترا مستحيل بسبب التفوق البحرى البريطانى، فإن حكومة الإدارة لا يمكنها تصور خيار آخر غير فرض حصار قارى أو الاضطلاع بعمل ضد الهند. والحال أن تصور تاليران للتوسع فى البحر المتوسط من جانب فرنسا وحلم بونابارت الشرقى قد قادا إلى الخيار الثانى. وقد رأى الإنجليز أن التهديد الفرنسى هو فى واقع الأمر بالغ الخطورة بالنسبة لممتلكاتهم فى الهند ولتجارتهم مع تلك المنطقة من العالم. وأياً كان الأمر، فإن الحل المتمثل فى الحصار القارى كان يمكن له، هو أيضاً، أن يجر بالضرورة إلى تشكيل ائتلاف ثان ضد فرنسا.

ومن المؤكد أن غياب واحد من أفضل الجيوش الفرنسية كان محسوساً بصورة قاسية خلال اللحظات الحرجة لهزائم صيف ١٧٩٩. على أن حكومة الإدارة قد نجحت، حتى قبل عودة بونابارت، فى صد خطر الغزو، وفى عام ١٨٠٠، أنجز القنصل الأول هذا العمل بإرغام دول القارة (الأوروبية) على الانسحاب من الائتلاف. ولم تكن هناك حاجة لاستدعاء جيش الشرق خلافاً لتصور كليبر.

وبما أن الجيش قد عاش أساساً على موارد البلد [مصر]، فقد كانت التكلفة المالية للحملة جد متواضعة. أما الخسائر البشرية فهى بعيدة عن أن تكون جسيمة: فى ثلاثة أعوام، ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة ضابط وجندى وإدارى وموظف يجب طرح نحو ألفين منهم عادوا إلى الوطن. ومن المؤكد أن السبب الرئيسى للوفيات هو الأوبئة، وخاصة الطاعون (١). إننا بعيدون عن المذابح الجماعية التى شهدتها الفانديه والحروب النابوليونية. وحملة سانتو دومينجو وحدها، فى عام ١٨٠٢، سوف تجر، فى وقت أقل بكثير، إلى موت واحد وعشرين ألف جندى بسبب الوباء وسبعة آلاف جندى فى المعارك (٢). أما آثار معركة أبو قير البحرية فهى أكثر جسامة، ليس بسبب تدمير عدد معين من السفن الحربية الفرنسية بقدر ما هو بسبب فقدان روح المبادرة والرغبة فى تجنب المعارك واللتين سوف تميزان مسلك ضباط البحرية الفرنسية فى السنوات التالية.

وقد فشلت الحملة أخيراً بسبب رغبة بريطانيا العظمى المتأصلة فى عدم التسامح مع هذا التهديد الدائم لإمبراطوريتها الآخذة فى التشكل فى الهند، وبسبب إصرار الباب العالى الشرس على الدفاع عن وحدة أراضى الإسلام، وبسبب استحالة إرسال تعزيزات إلى مصر من جراء غياب الأسطول، وبسبب الأزمة المعنوية للجيش، أولا بين صفوف الجنود العاديين ثم فى داخل القيادة. والحال أن موقف بريطانيا العظمى وحده هو الذى كان محل دراسة من جانب من شجعوا على الحملة. وسوف يدرس نابوليون، وقد أصبح

إمبراطور)، الاضطلاع بحملة جديدة ضد الهند، لكنها في هذه المرة تارية بشكل خالص، مع تعاون الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية (٣). ولابد أنه قد استوعب دروس حملة مصر.

الحملة الاستعمارية

إن التركة الأساسية لحملة مصر هي تركة علمية وإيديولوجية. ونحن ندين لها أولا بهذا الأثر المهم، «وصف مصر»، وهو عمل يثير الإعجاب ويكمن في أساس أية معرفة علمية عن مصر لكانت مصر القديمة أم مصر الإسلامية. وبعد ذلك ببضع سنوات، سوف يسمح اكتشاف حجر رشيد بفك أسرار الهيروغليفية من جانب شامبليون. وهكذا، سيتم الانتقال من إجيبتومونيا أواخر القرن الثامن عشر إلى إجيبتولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم إن الفن الفرنسي والأوروبي في القرن التاسع عشر سوف يتميز بالتيمات المصرية والشرقية، خاصة في ميداني الرسم والزخرفة.

وسوف تجرى استعادة التجربة المصرية مع فتح الجزائر. إن عدداً كبيراً ممن سبق لهم أن خدموا في مصر سوف يخدمون هناك وسوف ينقلون خبراتهم. لكن الأزمنة لابد وأنها قد تغيرت، فبدلاً من الرغبة في إنشاء مستعمرة فرنسية – عربية قائمة على صهر الشعبين في إطار الحضارة الظافرة كما أراد ذلك بونابارت بوصفه تلميذاً نجيباً لفولتير، سوف يجرى تشكيل نظام سيطرة واستيطان مع تشديد على المحتوى المسيحي. والحال أن نابوليون الثالث وحده هو الذي سوف يتمكن من استعادة فكر عمه بمشروع المملكة العربية، لكنه لن يتمكن من تحويله إلى واقع ملموس. وفي الجزائر، سوف يجرى الابتعاد من ثم عن أفكار الثورة الفرنسية.

وفي المقابل، سوف تسمح حملة مصر بنسج علاقات مركبة بين فرنسا ومصر على مدار القرن التاسع عشر.

نقل الإيديولوجيات

لقد كانت لدى الفرنسيين بشكل واضح رغبة في أن يطبقوا في مصر برنامج التجديد الاجتماعي العزيز على أفئدة الثوار. وقد حالت قوة الأشياء دون تحقيق ذلك البرنامج من الناحية العملية. فالأرياف وحدها هي التي استغلت لمدة جد قصيرة من

استعادة النظام العام. على أن هياكل ملكية الأرض، أى نظام الالتزام، قد تعرضت لانقلاب حاد بحيث أن العودة إلى النظام الزراعى القديم سرعان ما تتكشف استحالتها. إن مشايخ القرية سوف يصبحون من الآن فصاعداً فى علاقة مباشرة مع جهاز الدولة.

وصعود محمد على إلى السلطة إنما يتم وسط انتفاضة للفلاحين ضد سادتهم العثمانيين. ويحدث ١٨٠٥ هو المحصلة المنطقية للنداءات الموجهة إلى المصريين أولا من جانب العثمانيين ضد المماليك فى عام ١٧٨٧ ثم من جانب الفرنسيين. ويشكل مشروعاً يبدأ فى الظهور وعى قومى، إلا أن الأمر سوف يتطلب عدة عقود أخرى حتى يتسنى له التعبير عن نفسه بوضوح. إن السيد الجديد لمصر هو قبل كل شىء مصلح عثمانى ووريث عن جدارة لأحمد باشا الجزار ولعلى بك الكبير. والواقع أن الجزء الأول من عمله الداخلى (القضاء النهائى على الالتزام، وفرض احتكارات اقتصادية على الإنتاج الزراعى والحرفى، والأشغال العامة الكبرى) إنما يعد عودة إلى ممارسات مؤسسى الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم فإنه يشكل نفياً لثلاثة قرون من التطور السياسى والاقتصادى. وبناء صرح إمبراطورية توحد الجزء الأكبر من الشرق العربى ليس غير استئناف على نطاق أوسع لمشاريع عظماء مماليك القرن الثامن عشر.

لكن الأزمنة قد تغيرت هنا أيضاً. فمحمد على، السياسى العظيم، قد أدرك بسرعة بالغة أن عليه أن يأخذ فى الحسبان السياسات الأوروبية فى المنطقة. إن حملة مصر قد أنهت إلى الأبد عزلة مصر وإذا كانت فرنسا تبدو أكثر من محبذة لمشاريعه، فإن إنجلترا، منذ عام ١٨٠٧، تعلن أنها خصم لها. وذلك الذى يسمى الآن والى مصر يحب مجالسة القناصل والرحالة الأوروبيين. ومنذ بداية عشرينيات القرن التاسع عشر، يدرك ضرورة البحث عن سند من جانب الرأى العام الأوروبى وخاصة الفرنسى، وهو ينظم عملا دعائياً منهجياً يهدف إلى تصويره فى صورة المواصل المسلم لعمل بونابارت. وهو يستعيد لغته، فهدفه هو أن يوطد أركان «الحضارة» إلى الأبد فى مصر وبوجه عام فى الولايات التى يحكمها. وبينما يصور نفسه فى العالم الإسلامى على أنه المدافع عن الإسلام، فإنه يسعى إلى الظهور فى أعين الأوروبيين بوصفه المخلص للثورة الفرنسية. بل إن ابنه ومساعده إبراهيم باشا سوف يمضى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير وسوف يتفاخر بأنه المعيد لجبروت العرب.

وإذا كانت كل هذه الأفكار الرئيسية قد وجهت بشكل أولى إلى الرأى العام الأوروبى، فإنها لن تتأخر عن أن تصبح حقائق شرقية. إن محمد على يرسل بعثات دراسية إلى

فرنسا، وأحد التلامذة الشبان المؤيدين للعلماء أنصار التنوير، رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣)، يكتب قصة رحلته إلى فرنسا. وقد أمر الوالى بنشرها فوراً بالعربية (١٨٣٤) وبالتركية (١٨٣٩)، كما يأمر بتوزيعها على موظفيه؛ وهذه القصة هى بالدرجة الأولى تبرير لسياسة «الحضارة». إن النقل عندئذ ناجز، فالإيديولوجية التمدينية تصبح الفكرة الرئيسية، الإيديولوجية الكبرى المبررة لسلالة محمد على. لكن الإسلام عند دعاتها الشرقيين، بدلا من أن يكون عدو الحضارة، إنما يصبح مكوناً أساسياً من مكوناتها. وهكذا نصل، فى أواخر القرن التاسع عشر، إلى الإصلاح الإسلامى الشهير الذى مثلته السلفية التى، مع منازعتها لهيمنة أوروبا السياسية، لا ترفض بالضرورة مكتسباتها الفكرية والأخلاقية.

وإذا كان من الواضح أن فكرة «الحضارة» هى الفكرة الرئيسية الأولى من بين عاجلات الفكر الثورى التى يتم تبنيها فى الشرق، فإن فكرة الوطن سوف تتلوها بسرعة. إن الطهطاوى يعلن بصوت عال أن الجماعة المسلمة التى يريد العمل على تقدمها، إنما هى الوطن، مصر [4]. واستقلال مصر الفعلى المتزايد، والتمصير التدريجى لجهاز دولتها والاتصال بالأفكار الغربية إنما تفسر كلها هذا التجديد التام الذى يتوج تطوراً جرى تدشينه فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وسوف يسمح اكتشاف مصر القديمة بإضافة بعد «فرعونى» إلى هذه النزعة القومية المصرية الوليدة.

ويتواجد هذا التأكيد لفكرة الوطن بين جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية. إلا أن تحديد إطار جغرافى سوف يبدو صعباً من جراء تداخل الشعوب واختلافات الدين، خلافاً لما هو عليه الحال فى مصر، وعندئذ فإن اللغة سوف تصبح معياراً للتجمع وسوف نشهد ظهور نزعة جامعة تركية ونزعة جامعة عربية. وسوف يتمثل حل آخر فى مطابقة الدين ليس بطائفة بل بأمة: تلك حالة الجامعة الإسلامية. والحال أن محاولات إقليمية محدودة أكثر، كالنزعة القومية اللبنانية التى يجرى مطابقتها غالباً بالطائفة المارونية، أو كالصهيونية القادمة من الخارج، سوف تكون نتاج هذا المزيج من الدين والأمة.

إن «الحضارة» و «الأمة» سوف تكونان الفكرتين الأساسيتين من بين أفكار الثورة الفرنسية اللتين يتم تبنيهما من جانب شعوب الشرق. وسوف توجد هاتان الفكرتان الرئيسيتان العظيمتان بشكل دائم فى خطابات فرنسيى حملة مصر. فهل يعنى هذا أن الكتابة التاريخية الليبرالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين محقة فى اعتبار أن هذه السنوات الثلاث تكمن فى أساس إدخال الحداثة إلى الشرق ؟ الواقع أن الفكرة مغرية وقد

أشار أيديولوجيو هذه الحركات المختلفة إلى هذا الأصل، أيديولوجيو النزعة المصرية فى القرن التاسع عشر بالنسبة للحضارة وللأمة وأيديولوجيو النزعة اللبنانية الذين اختلقوا تفاهماً لم يوجد قط بين بونابارت والأمير بشير (*)، وأيديولوجيو النزعة العربية الذين أشاروا إلى نداءات بونابارت إلى الوطنية العربية، وأيديولوجيو الصهيونية الذين نسبوا إلى البطل نفسه مشروع دولة يهودية. كما أن الإسلام السياسى للباب العالى وللإنجليز، والذى طرح بهدف مواجهة أفكار الثورة الفرنسية، هو أيضاً الاتجاه الممهد لنزعة الجامعة الإسلامية فى القرن التاسع عشر ولحركات الإسلام السياسى المعاصرة. وفى كل مرة تتوطد فيها حركة إيديولوجية وسياسية فى الشرق العربى، يمكننا أن نجد اتجاهاً ممهداً لها فى هذا الحدث المنبثق عن الثورة الفرنسية. إلا أنه من الواضح، اللهم إلا إذا سلمنا بأزمنة كمون جد طويلة أحياناً (نحو قرن بالنسبة للصهيونية وبالنسبة للنزعة العربية)، أنه يجب الاعتراف بأننا لا ندرك جيداً النسب التاريخى بين معاصرى الحدث وأيديولوجيات أحفادهم البعيدين.

ولابد من العودة إلى أصل المشكلات. وإذا ما رأى المرء أن حملة مصر هى أيضاً نتاج استشراق، هو استشراق التنوير، الذى هو سياسى بقدر ما هو علمى، وإذا ما اعترف المرء بأن الاستشراق ليس مجرد لغو أيديولوجى، فإن الحل يتكشف. إن رجال التنوير لم يفهموا الشرق المعاصر لهم -، وفشل دعايات الحملة المختلفة يثبت ذلك بوضوح -، لكنهم قد فهموا الشرق فى صيرورته إلى المستقبل. وعندئذ فإن ما جرى بين عامى ١٧٩٨ و١٨٠١ فى المكان الممتد بين البحر المتوسط والإندوس إنما يظهر بوصفه مختبر سياسات للمستقبل، مدخلاً يجرى فيه إعلان كل الأفكار الرئيسية الكبرى. وفى أوروبا، كانت الثورة الفرنسية هى أيضاً ذلك الإسقاط الضوئى البارز لصيغ المستقبل السياسية وبهذا المعنى أيضاً فإن حملة مصر إنما تنتمى إليها تماماً.

حواشي الخاتمة

1 VERNET et MICHALON, p. 34.

2 Paul ROUSSIER, *Lettres du général Leclerc, commandant en chef de l'armée de Saint-Domingue en 1802*, Paris, 1937, p. 8.

3 Voir sur toute cette question, Édouard DRIAULT, *La politique orientale de Napoléon*, Paris, 1904.

4 DELANOUE, *Moralistes et politiques*..., II, p. 451.

5 Voir à ce sujet, le remarquable article de Joseph MOUAWAD, "Bonaparte et les communautés libanaises", *Cahiers de l'Orient* n° 14 (1989), pp. 225-241.

الفصل التاسع

الحملة الفرنسية في مصر العليا بحثاً عن مواقع الآثار أو كشف العمارة الفرعونية

بقلم : جان - كلود جولفان

من المؤكد أن مصطلح «الكشف» هو المصطلح الذى يصف على أحسن نحو رد الفعل المتميز بالانبهار من جانب أفراد الحملة عندما يكتشفون المعابد العظيمة فى مصر العليا. وهو يعبر أيضاً وبالدقة نفسها تماماً عن الوقع الذى يحدثه فى أوروبا اكتشاف لوحات وأوصاف سوف تتمكن، بقوة لأول مرة، من عرض مصر القديمة الفاتنة هذه والتى هى مألوفة وغنية بالأسرار فى آن واحد.

واتساع العمل الذى أنجزته الحملة هو من الرحابة بحيث أنه لن يتسنّى لنا استحضاره إلا فى سماته العريضة. وإذا كان واقع أن تقديم صورة إجمالية جد أمينة له فى صفحات قليلة ليس بالأمر السهل، فلنحاول على الأقل الإشارة إلى أهميته وأصالته.

والعنوان الذى اخترناه يعبر دفعة واحدة عن خيار لا يمكن لطابعه الاختزالى أن يغيب عن البال. وهو لا يبرر نفسه إلا بالرغبة فى تركيز اهتمامنا على العصر ومن باب التفضيل على البلد أيضاً، واللذين كانا أنذاك من بين العصور والبلدان غير المعروفة بشكل جيد، لكنه قلما يهدف إلى اتخاذ موقف يتجاهل عن عمد جودة الأعمال المنجزة الأخرى، خاصة دراسة العمائر القبطية والإسلامية. ومن ثم فلن يكون بوسعنا ذكر اللوحات الرائعة المكرسة للمساجد وللقصور القاهرة أو لعمائر الكثير من المدن المصرية الأخرى، وهى لوحات سوف تكون هى أيضاً، فى أوروبا، مصدر كشف. كما أننا لن نشير أيضاً إلى تلك

اللوحات التى تستحضر المشاهد الطبيعية والنشاطات البشرية التى لا حصر لها والتى تصور أيضاً فى إطارها اليومى. وإذا كنا نضرب صفحاً أصلين عن الصفحات الخاصة بالفترات الأحدث فى التاريخ المصرى، فإننا سوف نفضل انتقاء أثر الحملة فى اكتشافها لأقدم آثار وادى النيل. إلا أنه لابد لنا من التذكير على نحو موجز بما كانت عليه حالة المعارف المتعلقة بالآثار الفرعونية فى عشية هذا الحدث.

الأسلاف

لقد أتيحت لنا الفرصة لكى نشير إلى أهمية أعمال رحالة عديدين قادتهم الأقدار، فى ظروف مختلفة، إلى زيارة مصر العليا وتسنى لنا أن نوضح أنها قلما سمحت بتكوين فكرة محددة عن الواقع (١). والحق أن هؤلاء الكتاب لم يكن بوسعهم فى أغلب الأحوال أن يمكثوا طويلا فى مواقع الآثار أو حتى مجرد أن ينزلوا إليها. وكان على الكثيرين أن يكتفوا بتسجيل مجرد ملاحظات سريعة وقليل من الرسوم الكروكية. ولم يكن بوسعهم أن يستحضروا إلا بشكل تقريبى ما لمحوه فى اجتيازهم لهذه البلاد (٢) من أجل غاية مختلفة تماماً عن القيام بما نسميه اليوم بالأركيولوجيا.

وتلك، على سبيل المثال، هى حالة القبطان الدانمركى ف. ل. نوردين الذى وجد لزاماً عليه العزم، فى ١١ ديسمبر ١٧٣٧، على رسم معبد آمون رع فى الكرنك من سفينته (٣). على أن رسماً رسمه بعد ذلك بشهر ر. بوكوك، القس البريطانى الشاب، يقدم بالفعل صورة للموقع الأثرى تحدد جيداً الجانب الأساسى من خصائصه. ولابد من قول إن بوكوك، وهو محاور أذكى من سلفه المباشر، قد توصل إلى التجول فى الأماكن وإلى إعداد وثائق ؛ وسوف تسمح له هذه الوثائق بنشر لوحات تعتبر جودتها مدهشة خاصة إذا ما تذكرنا قصر إقامته فى الساحة (٤). وقد تسنّى له أن يقدم لهذا المعبد رسوماً وأوصافا لا مثيل لها آنذاك. على أن هذه الأعمال، بالرغم من مآثرها التى لا يمكن الشك فيها، لم تكن كافية لكى يتمكن المرء فى أوروبا من تكوين فكرة كاملة عن العمائر ومن تكوين دراية عميقة بجميع مواقع الآثار.

على أن تصورة الظروف الواقعية التى اصطدم بها الرحالة آنذاك قلما تتضح من كتابة أحد المعجبين بروسو، وهو كلود سافارى الذى قضى ثلاثة أعوام فى مصر (١٧٧٦ -

١٧٧٩) دون أن يغادر القاهرة. وقد لذ لساڤاري أن يترجم عشقه للطبيعة وأن يقدم صورة مثالية للبلد، من شأنها إغراء جمهور شعبي، مهيأ لتقدير المفاتن. والحال أن كتابه «رسائل عن مصر» ، والذي يشيع هذا التهيؤ، سوف يعرف لهذا السبب نجاحاً واسعاً. لكن كل ما يتعلق بمصر العليا ما كان يمكن أن يتلمس إلا على أعمال سابقة. إن البلد، الغارق في حرب أهلية، يجري تصويره كما لو كان فردوساً أرضياً حقيقياً حيث كل شيء هو حسن وجمال ورفاهية عيش. (٥)

وفي مقابل المقام الفاتن الذي جعل ساڤاري معاصريه يحلمون به، نجد تصور ڤولني الذي قضى سبعة أشهر، في عام ١٧٨٣، في مصر مختلفة تماماً بشكل بات ا فالصورة، في هذه المرة، هي صورة بلد منزو يسود فيه البؤس والفوضى والتجهيل. وتقدير العمارة سلبي بقدر ما أنها تبدو له منبع طغيان ملوك قدماء وتعبيراً تذكارياً عن سلطة استبدادية بغيضة. وبالنسبة لڤولني، فإن هذه العمارة لم تنتج غير «أعمال بربرية» ، وهو يريد إضفاء الشرعية على تدميرها، الذي يجري النظر إليه إجمالا بوصفه انتقاماً عادلا من جانب الشعب المضطهد في مواجهة أعمال تثني على غطرسة المستبدين القدماء.(٦)

والشعور الذي يعبر عنه ا. س. كاترمير دو كوينسي في عمله، «عن العمارة المصرية» ، قلما يعتبر إيجابياً أكثر، وصحيح أن الكاتب الذي لم يستطع الرجوع إلا إلى أعمال نوردين وبوكوك يعترف بالطابع القاصر للمصادر ، «إن رسوماً على هذه الدرجة من السطحية لعمائر اليونان كرسوم الرحالة التي سوف نشير إليها لا شك أن من شأنها حفز أفكار جد قاصرة أو جد خاطئة عنها» . لكن هذا الاعتراض قلما يجعله أكثر تسامحاً؛ ومن الواضح أن المقارنة مع العمارة اليونانية، استناداً إلى مثل هذه الوثائق، لا يمكنها إلا أن تكون ظالمة. إن كل شيء في العمائر المصرية، التي ينظر إليها بهذه الطريقة، إنما يبدو له خليقاً بالإدانة : «التماثل الممل، الثقل الجسيم، الفجاجة، انعدام نسق الأبعاد، الزخرفة التي لا تعدو «أن تكون نتاج المصادفة، وتعبيراً عن ذوق متقلب» . وليست هناك كلمات أقسى من هذه الكلمات لترجمة تقدير عام يظل سلبياً، وشبه تجريبي، وهو يضيف أن من المؤكد أنه يجري القضاء على كل تنبه للشعور بالجمال لدى الإنسان «إذا ما حكم عليه بمشاهدة التماثيل المصرية، أو حتى بمشاهدة تيجان أعمدة العمائر، إذ «ليس هناك تاج عمود واحد بينها يمكن للنظرة المتلونة تحمل مشاهدته» (٧) .

باختصار، ليست هناك رغبة لا في تقدير هذا الفن، ولا في بذل جهد لتكوين دراية أفضل بهذه العمارة، والحال أن هذا التصور المشوه للأمور، هذا الانعدام للشك في نسق القيم المؤسس على قواعد الفن الأغريقي التي لا تناقش، هو الذي يسود في عشية الحملة. ويجري الاعتراف للفن المصري بالحيوية والرسوخ في أحسن الأحوال ؛ وهو اعتراف نادر تماماً، وتعارض آراء سافاري وفولني عن البلد نفسه لا يمكنه هو الآخر أن يسهل فهماً، من أوروبا، لواقع ما يزال معزولا بدرجة بالغة السوء. وأخيراً فليس هناك غير معنى واحد يمكن فيه لهذه العمارة الفرعونية، وهي النتاج الخالص للاستبداد والتي كانت منذ قليل جديرة تماماً بالاحتقار، أن يكون لها فضل في نظر فولني. «إن أمة صديقة للفنون الجميلة... سوف تجد هناك موارد للوقوف على العصر القديم...»، لأن «هذه العمائر المدفونة في الرمال تحافظ على نفسها هناك كوديعة للجيل القادم»؛ وهو يستشعر أن «من الواجب تعليق تمنياتنا وأملنا على هذا الزمن الذي ربما كان أقل بعداً مما يحسب المرء» (٨).

وبعد أقل من خمس عشرة سنة، يجري الاضطلاع بالحملة وكان أفرادها قد اطلعوا على كتابات هؤلاء الكتاب، ولكن أي مصر التي سوف يتم اكتشافها وخاصة في أية حالة ذهنية، من تلك البلد الفاتن الذي صوره سافاري أو من ذلك الواقع القاسي الذي تحدث عنه فولني ؟

فيفان دينون

إن غزارة الوثائق تفرض، هنا أيضاً، القيام باختيار صعب وتفرض علينا الاستناد من باب أولى إلى شهادة أفراد الحملة الأكثر اهتماماً بالمسألة.

ومن بين هؤلاء، يحتل فيفان دينون مكانة فريدة. فهذا الرجل الأكبر سناً بكثير من غالبية رفاقه، سوف يبدو بسنوات عمره الإحدى والخمسين شيخاً لو لم يكن قد حافظ على فضوله الفكري ومواهبه المتنوعة كرسام وكراوية، وشجاعة وروح مبادرة تليقان بشاب. إن ثقافته الواسعة، وسحر شخصيته وفطنته أيضاً كجليس ملوك سابق تمكن دائماً من أن يجتاز بتوفيق جميع انقلابات عصره، وأفكاره أخيراً، قد جعلت من هذا الفولتيري الجسور رجلا سوف يتمكن من فتح جميع الأبواب أمامه، ومن أن يجتذب دفعة واحدة عطف ورعاية مينو الذي يقترب عمره من عمره أيضاً، ومن أن يلفت أيضاً العسكريين الذين سرعان ما سوف يتحرك معهم إلى مصر العليا. والحال أن شخصيته

القوية وعمره ومسيرته العملية للتقنية تماماً بالفعل إنما تجعل منه مراقباً ذكياً، يتميز أساساً بتنوع نظره إلى الأشياء وإلى الناس بأكثر مما يتميز بالحرص على الدقة العلمية. وخلافاً لأفراد الحملة الشبان والذين غالباً ما يشكلون فريقاً، فإن هذا الرجل سوف يعمل منفرداً.

وهذا الاستقلال الذهني جد الراسخ بشكل، هو أيضاً، أصالة على تجربته في هذا البلد الذي يحب فهم جميع جوانبه. وهكذا، فإن العمائر، بعيداً عن أن تشكل بالنسبة له موضوع اهتمام وحيد أو رئيسي، سوف يجري استحضارها في الوقت نفسه جنباً إلى جنب الأحداث التي تثيرها إلى الأماكن، في سياقها العام، على نحو ما تبدو له. وفي القاهرة، وأينما يهتم بأبي الهول قدر اهتمامه بالسكان المجاورين. إن دينون يلقي دائماً حوله نظرة فضولية تبدو، مع مراعاة جميع الاختلافات، أقرب اليوم إلى نظرة صحفي منها إلى نظرة أحد علماء الأركيولوجيا. وفي مصر العليا أيضاً، سوف يبدو منجذباً بقدر واحد من الدقة إلى العمائر القديمة كما إلى العادات والأشياء والحكايات التي يرويها دائماً بقدر كبير من الرهافة ومن الحبور. ومن ثم فإن عمله يتميز بالحيوية والتنوع ويجتذب التعاطف. إنه عمل شاهد جيد الرؤية وجيد الرواية. وقد أمكن أن يقال عنه « إنه يفكر ككاتب، كفنان وليس كعالم. الأمر الذي يجعل قراءة مخطوطه أكثر إمتاعاً من قراءة مذكرات المعهد العلمية (٩)»

ومن خلاله، يمكننا أن نتتبع التحول الحقيقي لنظرة أوروبي مثقف يدخل في اتصال مع واقع جديد عليه. والواقع أن من الواضح أن العمارة الفرعونية تثير لديه، في البداية، تأملات تتناسب مع أفكار قرائه التي تشربها. فالأهرامات، على سبيل المثال، قلما تستحق ثناءً « فإن حجم الغطرسة الذي أدى إلى الاضطلاع ببنائها إنما يبدو أنه يتجاوز حجمها المادي » ولا يعرف المرء ما الذي يجب أن يكون أكثر إثارة للدهشة في هذا الأثر، الجنون الاستبدادي الذي لجأ على إصدار أمر بتنفيذه، أم الرضوخ الأحمق من جانب شعب مد سواعده من طيب خاطر إلى بناء مثل هذه العمائر.

إلا أنه لن يتأخر في تغيير رأيه خلال الرحلة التي قام بها بعد ذلك بوقت قصير في مصر العليا في أثر جيش ديزيه، لأنه قد تمكن من أن يرى ومن أن يتمعن. وسوف يتطور رأيه وسوف تعبر استجاباته عن نفسها بكل الاستقلال الذهني الذي يميزه. ولما كان منخرطاً في سياق الحملة وناضجاً تماماً بحيث لا يمكنه إلا يحكم بموضوعية على حدود

هذه الحملة وجوانبها الواضحة، فإنه لا ينظر إلى هشاشة الوضع وأهوال الحرب إلا على أنها مجاوزة للحد. ولا يستثمر طاقته بشكل أكبر من ذى قبل فى الانكباب على فنه، كما لو كان لكى ينسى الجانب الأليم لهذه الحملة، فإنه يلتقط بقدر كبير من الاهتمام كل ما يمكن لمصر الحية هذه أن تمنحه إياه. وقد جرى التعبير عن مجمل موقفه الثابت بهذه الكلمات : «ما الذى يفعله فى معمعان المعركة ؟ إنه يراقب. وما هو سلاحه ؟ قلم رصاص... لأنه لا يحارب المماليك بل يحارب النسيان» (١٠).

وأمام عمائر طيبة، يتقاسم بحماسة فتية لانبهار البهجة الحقيقى الذى يستولى على الجيش ويترجم تطور شعوره تجاه تلك العمارة، التى يتم النظر إليها هذه المرة فى إطار طبيعى ملائم لفهمها، فى عين أماكن عظمتها. لقد كانت هذه المدينة أيضاً «شبحاً بالغ الضخامة بالنسبة لخيالنا بحيث إن الجيش، أمام مظهر هذه الأطلال المبعثرة، يتوقف من تلقاء نفسه، وبحركة عفوية، يصفق، كما لو أن احتلال آثار هذه العاصمة كان هدف أعماله المجيدة، وكما لو كان قد أنجز فتح مصر».

ويجرى تدشين الاندفاع إلى تقدير كامل لمشهد هذه العمائر وسوف يجد دينون من جانب الجنود، بحسب كلماته نفسها «ركباً يستخدمها كمنضدة وأجساداً توفر له الظل».

وفى دندره، كان للمعبد الكبير هو الآخر قد أثار فتنة الجميع والرأى المعبر عنه يتعارض بشكل صارخ بالفعل مع الأفكار التى كان مشهد الأهرامات قد تمكن من انتزاعها من دينون فأعرب عنها : «منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها هذا الأثر، فإن ما لا يمكننى الشك فيه، هو أن الإغريق لم يبتكروا شيئاً ولم يشيدوا شيئاً يتميز بطابع أعظم من طابع هذا الأثر».

وليس بالإمكان التعبير بشكل أفضل عن التحول الحقيقى الذى يحدث فى ذهنه بصرف النظر عما فى كلامه من مبالغة، تعمد اللجوء إليها بلا شك لكى يترجم بشكل أفضل الدهشة التى أحس بها.

إلا أنه سرعان ما نجد أن قسوة ظروف الحياة وسط حملة معرضة للمناوشات وغالباً ما تنجر إلى القمع خلال مطاردتها لمراد بك الذى يتعذر الإمساك به، والمحن، والحر اللزج، تصل بدينون إلى حد الاستنزاف. وفى طريق عودته من أسوان، يكف عن الشعور ببهجة الاكتشاف الأول لطيبة. فعندما يرى أطلالها من جديد تعاوده الكراهية القديمة : «أية رتابة ! [...] أية كآبة ! إننى أستغرب برعب نظام حكم كهذا ! إن الآثار التى خلفها تخيفنى وتروعنى !».

لكنه سوف يواصل بلا كلل عمله، فهو يعثر فى مرات كثيرة أيضاً على أسباب للتحمس ويبقى مثلما كان فى الواقع على مدار حياته «منكباً دائماً على التعلم، وتواقاً إلى أن يزيد بلا توقف ذخيرة معارفه الوفيرة».

وعندما يرجع إلى فرنسا مع بوناپارت منذ يوليو ١٧٩٩، فسوف يكون بوسعه أن يفكر بشكل أسرع من أفراد الحملة الآخرين فى نشر أعماله، لكنه، إذا كان يصل بذلك إلى استباق الجميع، فإنه يدرك أيضاً حدود عمل شخصى يعرف أنه لا يمكن أن يقارن بالنشر التالى لأعمال فريق بأكمله. ولا يمكن اتهامه، على أية حال، بأنه قد تباعد عن رفاقه عندما قرر النشر، لأنه ما من شىء كان يسمح بمعرفة ما إذا كانت ظروف الحرب سوف تتيح بعد إنجاز أعمالهم أو عودة وثائقهم. وإذا كان الوضع قد كان، لسوء الحظ، جد كارثى بالنسبة للحملة بالدرجة التى كان يمكن معها الخوف من ذلك، أفلن نكون على أية حال مرتاحين إلى التمتع، بفضله، بشهادة قادرة على أن تقدم لنا فكرة أكمل بكثير عن مصر ؟

وعندما علم أن العلماء سوف ينشرون أخيراً عملهم، قرر دينون أن يجرد عمله من كل ما يشكل «مغامرة بالبحث»، وقد فعل ذلك بشكل ناجز بحيث أن كتابه يمثل خلاصة، ولحسن الحظ بلاشك، يوميات رحلة، وهو جنس كتابة تفوق فيه الكاتب بشكل خاص. وهكذا، فإن هذه «الرحلة فى مصر السفلى والعليا خلال حملات الجنرال بوناپارت فى مصر»، والتى صدرت فى عام ١٨٠٢ عن دار نشر ديدو، إنما تعتبر قصة تتميز بتلقائية عظيمة حظيت بنجاح ملحوظ جسده صدور طبعات جديدة عديدة. فهذا العمل، الأسهل والأكثر إمتاعاً فى قراءته من كتاب «وصف مصر» المتعدد المجلدات الذى سوف يليه، قد شهد انتشاراً واسعاً، ومارس تأثيراً أدبياً لا جدال فيه.

لقد شددنا كثيراً على خصال الرجل وخصائص العمل الإيجابية بحيث لا يمكننا التردد فى الإعراب عن الانتقادات التى تفرض نفسها من زاوية النظر التى تهمنا هنا وحدها، المساهمة المقدمة إلى فهم العمائر الفرعونية. وعلى هذا المستوى، فإنه لابد تماماً من الاعتراف بأن لوحات دينون قلما تتميز بمأثرة أخرى غير مأثرة نشرها قبل لوحات «وصف مصر» فهى، بالقياس إليها، من زاوية تسجيلية خالصة، أدنى مرتبة للغاية. ومن المؤكد أننا سوف نجد أنها أقرب إلى لوحات بوكوك منها إلى العمل الدقيق الذى راكمه العلماء الشبان الذين سوف يؤمنون كفريق تقديم بيان دقيق عن هذه العمائر نفسها. وقد قلنا إن دينون لم تكن لديه اهتماماتهم. إن هذا الرجل الأكبر سناً منهم، وذا التكوين

المختلف والذي يجمع مواهب الكاتب مع مواهب الرسام، إنما يبدو بشكل خاص بوصفه شاهداً يتميز بخبرة حياتية غنية ومتنوعة. وعمله هو عمل فنان، مستقل ومنفتح في آن واحد على جمال المنظر الطبيعي كما على حياة السكان، وهو ليس عمل مهندس يحسب ويستنبط ويفكر بشكل علمي. والكاتب لا يملك لا الوقت ولا اشتهاء الانكباب على دراسة منهجية لهذه العمائر، وإذا كان قد نشر بعض الخطط الهندسية التي تصور القواعد والارتفاعات التي لا تخلو من أهمية، فإن ذلك إنما يحتل مساحة جد محدودة في عمله. والبيان الموجز الذي يتضمن الأشكال الهيروغليفية والنقوش المنقولة إنما يسمح بقياس كل البون الموجود بين رسومه والواقع. والعلامات فيها جد مشوهة والوجوه والأوضاع ليس فيها شيء مصري حقاً ولا حتى «شبه مصري» في الأغلب؛ وتأثير الفن الإفريقي الذي لم ينجح الكاتب في التخلص منه واضح فيها.

وفي الحلية، يخلط التفاصيل الأكثر تنوعاً خلط الحابل بالنابل، دون نظام. وهكذا فإن اختيار الأشياء المتضمنة في بعض لوحاته هو انعكاس لجموح خياله بأكثر مما هو تعبير عن تصنيف منطقي. (١١) ولا تجري مراعاة النسب الواقعية لعناصر العمارة، وإذا ما استثنينا لوحتين جد جميلتين تستعاد فيهما واجهات العمائر، فإن جميع الرسوم الأخرى تتضمن تشويهات، وأخطاء قياس مهمة أو اتجاهات خاطئة. وميل جدران بوابات المعابد وميل جدران أبواب العمائر مبالغ فيهما دائماً تقريباً، وذلك بحيث إن هذه اللوحات لا يمكنها أن تقدم عن العمارة التي تصورها غير فكرة تقريبية (١٢).

والحق أن الكاتب يكتفي في الأغلب بتمثيل العمائر من حيث هي عناصر منظر طبيعي. وهو حريص على استحضار البيئة المحيطة بالأطلال بأكثر من حرصه على أن يتتبع بدقة شكل الكتل المبنية. ويتخذ الأثر مكاناً في لوحة إجمالية غالباً ما يكون بهاؤها المثير مبالغاً فيه بشكل مقصود. وهكذا يكتشف المرء «منظر معبد الأقصر وسط عاصفة»، أو الأقصر «عند بزوغ النهار»، أو كذلك أشعة الشمس المشرقة على فيلة (١٣)

ولابد من الاعتراف بأن هذه الأعمال لا تتميز إلا بالقليل من القيمة على المستوى الأركيولوجي منذ ظهور «وصف مصر». إلا أن من المؤكد أنها كان بإمكانها إشباع الجمهور متى كانت الأعمال الوحيدة المنشورة. ولابد من القول إن غزارة اللوحات والتصويرات، والتي لا يفتقر كثير منها إلى الجمال (١٤) وبشكل خاص حيوية النص إنما تتميز بشيء فاتن، إلا أن من المؤكد أن المرء لا يمكنه أن يجد هناك وثائق جد مرضية على المستوى العلمي.

يختلف من ذلك تماماً العمل الذى جرى الاضطلاع به بمبادرة من جانب أفراد الحملة الشبان الذين يرأسهم جيرار، مهندس الجسور والطرق. وكان هذا الفريق مكلفاً بجمع معلومات نافعة عن الزراعة والتجارة والفنون وقد حدد لها كهدف رئيسى دراسة نظام النيل ونظام الرى فى الإقليم. وهذا الفريق المؤلف من «جولوا وديفيلييه دى تيراج ودوبوا – أيميه ودوشانوا (مهندسى الجسور والطرق)، وديكوستيل ودوزنيد وديبوى (مهندسى المناجم) وكاستيبه (النحات)، لا يزيد المتوسط العمرى لأفراده عن عشرين سنة. و«يوميات» و«ذكريات» ديفيلييه، التى نشرها حفيده، تقدم عبر التجربة التى عاشها شاب فى التاسعة عشرة من عمره، قصة دقيقة ومؤثرة عن حياة الحملة فى مصر العليا، منذ مغادرتها القاهرة فى ١٩ مارس (٢٩ فينتوز) وحتى عودتها فى ٢٧ أكتوبر ١٧٩٩ (٥ بروميير من العام الثامن). وسوف ننهل من هذه القصة لكى نقدم، على نحو مباشر قدر الإمكان، فكرة عن الظروف الصعبة التى جرى فيها الاضطلاع بأهم عمل ينجز حتى الآن فى مثل هذا الوقت القليل عن عمائر مصر القديمة (١٥).

× ويتلقى ديفيلييه من رئيسه أمر رحيل محدد بشكل خاص : «أحيطك علماً أيها المواطن بأن يوم رحيلنا إلى مصر العليا قد تحدد الآن بيوم غد ٢٩. وترتيباً على ذلك أرجو منكم التواجد فى الجيزة فى الساعة التاسعة صباحاً للاستفادة من قافلة مرسلة إلى الجنرال ديزيه المتواجد الآن فى أسيوط ، وأرجو أن تهتموا اليوم بأن تدبروا حصولكم على الأشياء الآتى بيانها : عدد من أقلام الرصاص؛ ٤ رزم ورق؛ ٤ أنابيب لاصق؛ ٦ أقلام. ومن المقرر أن نصل إلى أسيوط بعدكم، ولذا فسوف يكون من المناسب أن تكفلوا المؤن الضرورية لهذا الجزء من رحلتنا. تحية وأخوة، جيرار».

ويجد المرء صعوبة فى أن يتصور أن مثل هذه الإمكانات الهزيلة يمكن أن تكفى للاضطلاع بعمل على هذه الدرجة من الأهمية كالعمل الذى سوف يلى والذى غالباً ما لابد أن «تؤدى إلى إبطاء عمليات الجيش الذى لم ينجز بعد البتة فتح مصر العليا».

ومنذ الرحيل، فإن جاذبية مواقع الآثار القديمة سوف تفرض نفسها بشكل لا يقاوم على ديفيلييه وصديقه الذى لا ينفصل عنه، جولوا. وسوف يلى الاثنان بسرعة بالغة بمهمتهما الخاصة بتسجيل الصور الجانبية للنيل حتى يسارعا إلى اكتشاف أطلال من

بينها أطلال أنتينوى «المدينة الرومانية التى شيدها الإمبراطور هادريان لكى تنافس «
وإلى أسيوط بالتحديد سوف يبدأ حقاً، بعد ذلك بوقت قصير، تعاونهما النموذجى،
يشكل مقدمة لهذا التنقيب المنهجى عن الآثار المصرية والذى سوف يبادران به.
يقودهما إلى تلك المقابر العظيمة المدفونة تحت الأرض، تحدياً لأبسط مقتضيات ا
.. ويعترف ديفيلييه «إننا لم نذكر شيئاً من مشاريعنا مخافة أن يعارض قائد الموقع ف
الاستطلاعى من باب الحرص على سلامتنا».

* على أن المخاطر لم تكن خيالية كما يشهد على ذلك آنئذ ضياع السفينة الذهبية ا
التى هاجمها وضربها «المكيون» بكل الأسلحة الممكنة أو الاشتباكات التى يتعرض
الجيش فى تلك الفترة لخسائر فادحة. وعلاوة على هذه النوائب، فإن كثيرين
الفرنسيين يصابون بالرمد. والحال أن الاهتمام باكتشاف مواقع الآثار إنما يظل با
لديفيلييه ولجولوا الاهتمام الأقوى من سواه وتزيد من تأجيجه الأنباء التى تصله
دينون، لأنه «ما من ضابط لا يبدى إعجابه بالأشياء الجميلة التى رآها فى طيبة».
يخشيان خشية عظيمة فى تلك اللحظة من ألا يتمكنا من الوصول إلى هناك بد
ويخشى ديفيلييه من ذلك، خاصة وأنه يمنى نفسه أيضاً بأن يتمكن من الاضطلاع
بعمل أكثر أهمية بكثير من العمل الذى أثار للتو قدراً كبيراً من الإعجاب. وبهذا المعنى
الأقل يمكن للمرء تفسير ملاحظته: «إن دينون فى طيبة. وهو لم يسجل غير
كروكية ومشاهد، دون أن ينقل أى تخطيط هندسى ودون أن يجرى أى قياس». وهو
بشكل بالغ الوضوح عن الموقف المختلف الذى سوف يتخذه هؤلاء الرجال لفهم
عينه.

وبعيداً عن أسيوط، تستمر الرحلة براً ، لكن هذه الفترة هى فترة هبوط مياه
ويجب اتخاذ قرار بالترند على ضفافه «المرصعة بالمماليك». وما إن يصل صاحبانا إ
بعد كثير من المتاعب، فإنهما لا يفكران إلا فى هدف واحد : رؤية دندره بأسرع ما يمك

والقول بأن المهمة التى أوكلها أغلب هؤلاء الرجال الشبان لا تكافأ مكافأة
سوف يكون تهويناً للأمر، فهم يتعرضون لعقوبات حقيقية. إن عشقهم للآثار الذ
يروق لقائدهم باطراد. فدوبوا - أيمية، الذى دخل فى الطريق فى شجار عنيف مع .
إنما يجرى نفيه إلى القصير على البحر الأحمر. ومن حسن الحظ أن الآخرين يجد
شخص الجنرال بيليار، الملقب بلقب «الصديق الصدوق للفنون»، محاوراً متفهماً

يحصلون على إذن بمواصلة أبحاثهم الخاصة بمواقع الآثار بل ويحصلون على قوة حراسة لحمايتهم. إلا أنه بما أن هذه القوة لا يمكن أن تكون متوافرة فى أغلب الأحوال التى يتمنون فيها ذلك، فإنهم يقررون، عند الضرورة، الاستغناء عنها «بالرغم من النهى المعلن من جانب الجنرال الذى يعرف» فيما يقول ديفيلييه «إن بإمكاننا أن نصادف فى خروجنا الاستطلاعى أشخاصاً جد خطرين». وحماسة هؤلاء الرجال هى من القوة بحيث إنهم يضيفون إلى ازدراء الخطر المجازفة بإثارة انزعاج ونفور ذلك الرجل عينه الذى أعرب لهم عن تفهمه لرسالتهم وساندهم فى مشروعهم.

طلحاو

يعبر اكتشاف بنفسه عن نفسه بلغة تؤدى إلى نسيان جميع التقديرات السلبية التى كان بالإمكان أن تكون العمائر المصرية هدفاً لها قبلهم : «... لقد تم اكتشاف المعبد الكبير الذى يشكل أساس أروع اللوحات. وسوف يكون من الصعب وصف كل ما يستثيره من انطباعات متباينة مشهد تلك الأشكال الضخمة لإيزيس والتى تحمل سقف الرواق. ويبدو أن المرء ينتقل فى لمح البصر إلى عالم السحر والفتنة. إن الدهشة والإعجاب يستوليان فى آن واحد على المرء».

ألا يرجع هذا التسليم بلا تحفظ فى جانب كبير منه إلى حساسية هؤلاء الرجال، التى تتشكل بالفعل فى اتصال مباشر مع الفن المصرى، والذى غالباً ما جرى الحط من شأنه منذ وقت غير بعيد من جانب أولئك الذين لم يروا منتجاته الأصلية فى المواقع ذاتها ؟ إن فهم هذه العمارة إنما يرجع إلى السعى أخيراً إلى فهم هذه الحضارة بشكل جديد، دون كثير من التحيزات. ولا مراء فى أنه يرجع أيضاً إلى أن أفراد هذا الفريق، الأحدث سناً من دينون، سوف يتوصلون بشكل أفضل منه إلى التحرر من النفوذ، المدرك أو غير المدرك، للفن الإغريقى والأوروبى : «إن ما يراه المرء ليست له أية علاقة بآثار عمارة الإغريق ولا بالآثار التى أنجبتها ثلاثة الفنون الأوربية . والحال أن المرء إذ يدرس مشهداً جد جديد كهذا، إنما يجرب فى بداية الأمر شعوراً بالارتياح وبالإشباع...».

وبالنسبة لديفيلييه ولجولوا، فإن الفراعنة ليسوا بعد بالطغاة المقيتين الذين تحدث عنهم فولنى أو دينون. إن مهندسينا الشبان، وهم أفراد حملة يتمثل أحد أهدافها المعلنة فى تحرير مصر من التجهيل لإدخال «التنوير الأوروبى» إليها، إنما يتجهون إلى عمل

للمصريين القدماء تمية غير عادية بالمرة بالنسبة لزمانهم : «إن القرية عربية، مكونة من أكواخ طينية حقيرة، تهيمن على الأثر الأجمل من بين آثار العمارة المصرية، ويبدو أنها موجودة هناك لكي تشهد على انتصار الجهل والبربرية على قرون من الأنوار رفعت الفنون في مصر إلى أعلى درجات الجمال».

والهدف ليس بعد هو الاكتفاء بالمشاعر وبالتقديرات، حتى وإن كانت إيجابية، بل هو الاضطلاع بعمل منهجي وصولاً إلى تعميق، بفضل تحرك علمي حقاً، للمعرفة التي لا تزال مليئة بالثغرات عن حضارة يتم الاعتراف بها اعترافاً صادقاً منذ ذلك الحين تماماً كواحدة من أعظم حضارات العالم. والمسألة تتمثل في القياس والتحليل والوصف والتركيز على أهداف جد محددة والعمل بشكل منطقي بصرف النظر عن تقلبات العمل.

ودراستهم للزودياك (رسم فلك البروج) الشهير تجمع تماماً بين المغامرة والصرامة. إن موريه الشاب، الذي يجرى إدخاله عبر منفذ ينفتح على الحجرة التي يوجد فيها هذا النقش الدقيق (١٦)، إنما يدرك على الفور أنه يطأ هيكلاً عظمياً ويتخيل المقتحمين الشركاء بسرعة بالغة أنهم قد صادفوا هناك رفات عاشق ما للفنون، على غرارهم، رفات سلف مجهول لعله قد قتل في هذه الأماكن ضحية لحماسته !

والحال أن ديفيليه وجولوا، وقد فاتا بسرعة من نشوتهما، إنما يتوليان، بالرغم من انزواء المكان ومن ضعف النور، التسجيل الصعب للزودياك بتقسيمه إلى قطاعات بمساعدة أسلاك ممدودة أفقياً على السقف. وهما يريدان «تقديم تمثيل أمين له يسمح بالدراسة الدقيقة لمعارف المصريين القدماء الفلكية». وعندما يأخذ المرء في حسبانه الصعوبات المادية التي تعين عليهما العمل فيها، فإنه لا يمكنه إلا أن يبدى إعجابه بروعة النتيجة التي تم التوصل إليها، لسرعان ما ينفد كل شيء. ويكتب ديفيليه إلى صديقه ديبوى في القاهرة ويحثه على التحرك لمساعدته :

«إنكم إن لم ترسلوا إلينا أقلام رصاص، أيها الصديق العزيز، فلن يكون بوسعنا أن نقدم إليكم شيئاً عن رحلتنا. لقد استهلكنا جميع أقلامنا، ونحن يائسون. تحدث إلى كونتيه الذي لابد وأنه قد جهزها؛ وإذا كان الأمر خلافاً لذلك، استعر من أصدقائك، واشتر وجهز ما سوف تجده عند كونتيه الذي سيتولى تسليمها إلى الجنرال ديجا، الذي سوف يرسلها مع أحد راكبي الجمال، هذا أمر متفق عليه».

والحال أننا لا نجد إشارة لا على اللوحات التي تزين «وصف مصر»، ولا في

ملاحظات دينيفيه، إلى استخدام مادة مركبة. لقد كانت أقلام الرصاص والألواح الخشبية والحبال الرفيعة والمساطر والشاقول كافية لإنجاز هذه المهمة بالرغم من انعدام الأمن والمتاعب. ولا شىء يثبط همم أولئك الرجال، ولا حتى أسوأ الأنباء التى تصل إليهم أحياناً، كنبأ الكوارث التى حلت بقوة الحملة المرسلة إلى سوريا.

«أى عدد إذن من رفاقنا لا مفر لنا من أن نراه يهلك فى هذا البلد المقدس؟ أم أنه قد كتب علينا بالفعل أن نخلف كل عظامنا فيه؟»

وتتواصل الرحلة بلا كلل صوب الجنوب. وبعد الطواف بأطلال قوص، تصل الحملة أخيراً، فى ٢٨ يونيو، «على مرأى من مواقع مدينة طيبة القديمة»، إلا أنها لا تتمكن من البقاء هناك غير يوم واحد. ويبدى دينيفيه وجولوا إعجابهما فى مرة أولى بأطلال الكرنك ويضطران إلى التحرك من جديد، مع عزمهما على العودة إليها عند أول فرصة تسنح لذلك.

وبعد ذلك بأيام قليلة، يكتشفان فى إسنا، بين الأطلال المتراكمة فى وسط المدينة، الإفريز الجميل لمعبد «كان من المحتمل، لولا هذه المناسبة، أن يظل مجهولاً لزمن طويل من جانب الرحالة المعاصرين». وبعد أن سلكا ممراً ضيقاً، نفذا إلى الداخل، وهناك، يحدث الافتتان:

«إن عمارة هذه القاعة... والتى لم تقدم عمائر مصر الأخرى لنا منها غير فكرة جد هزيلة، إنما تترك لدى كل منا انطباعاً مشتركاً؛ لقد استولى علينا إعجاب غامض معين لا نجرؤ على الإفصاح عنه بشكل ما، وبينما أخذنا نجيل النظر بشكل تناوبى على الأثر وعلى رفاقنا فى الرحلة، أخذ كل واحد منا يحاول التأكد مما إذا كان قد خدعه بصره أو ذهنه، مما إذا كان قد فقد فى لمح البصر الذائقة والمبادئ التى تلقاها فى دراسته للآثار الإغريقية».

ولا يمكن الإفصاح بقدر أكثر من الصراحة عن القلق الذى أثارته هذه الأشكال، هذه الجمالية الجديدة، عند الأذهان الشابة المتأثرة تأثراً عميقاً بالنزعة الهيلينية وإن كانت قد تحمست بالفعل الطابع الأصيل للعمارة الفرعونية. إنهم يعون تماماً عندئذ أنهم منفتحون على جمال معين، جمال «آخر»، وهم يعبرون عن ذلك بوضوح:

«إن هذا النضال الفعلى الذى تشنه العمارة، التى نرنو إليها بأبصارنا، ضد أوهامنا الميالة إلى النسب والأشكال الإغريقية، إنما يصيبنا بالذهول لوقت معين؛ إلا أننا سرعان ما اجتاحتنا حركة إعجاب إجماعية».

وكلمة الوهم التي يستخدمها ديفيليه إنما تعبر تماماً عن عمق التهديد الذي تعرضت له أفكارهم وعمق الجهود اللازمة من أجل فهم حقيقي لهذه العمائر والتي تبدو لهم وظائفها أيضاً، لا مجرد أشكالها، مختلفة عن أشكال ووظائف العمائر التي عرفتها أوروبا. وبعد أن رصدوا أن القاعة الكبرى للمعبد مسورة من الجهة الخارجية بأسوار تعلو إلى ثلث ارتفاعها، يستنتجون : «لابد من افتراض أن المصريين لم يقوموا ببنائها إلا لأن رواقات معابدهم ليست لها ذات الوظيفة التي تميز المعابد الإغريقية». إنها ليست مجرد حمى، بل هي «مكان مقدس يجب تحريمه على أنظار الغرباء ذاتها» (١٧).

ولم تعد المسألة مجرد مسألة رسم وقياس، بل هي مسألة بذل جهد لفهم الدور الذي تلعبه القاعات ومختلف العناصر المكونة لهذه العمارة، باختصار، لا يجب إهمال شيء. ويجري تحليل الأثر وتسجيل عناصره بدقة، أكان ذلك فيما يتصل ببنيته أم بزخرفته التي تشمل هنا أيضاً، في السقف «زودياكاً» جميلاً. لقد حدث إدراك تام لواقع أن المشاهد التي تظهر على الجدران لها غاية مختلفة عن غاية زخرفة القاعات وإن كانت لها وظيفة محددة وأن بوسع هذه التمثيلات أن توضح الأمور للمراقب فيما يتعلق بدور مختلف أجزاء العمائر. ومن ثم فإن النقوش المنقوشة تستحق الدراسة بالقدر ذاته الذي تستحقه به الهياكل المبنية. والحال أن دقة الرسوم التي تجري لها إنما تتعارض بوضوح من هذه الزاوية مع التسجيل المتحرر الذي قام به دينون، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق هنا أيضاً، من جراء ضيق الوقت بلا شك، برسوم مطابقة للأصل تماماً.

وتنكب الحملة على إعداد بيان منهجي بجميع الآثار وعلى تسجيل أكبر عدد ممكن من خصائصها. وفي مواجهة إسنا – على ضفة النيل اليمنى – يجري تسجيل معبد كونتراالاتوبوليس، وهو عمل يسترعي اليوم اهتماماً بالغاً بقدر ما أن موقع الأثر قد دمر. ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للمعبد الصغير الذي كان موجوداً آنذاك في شمال إسنا. (١٨) ويتم أداء كل هذا العمل بهمة، ولكن ها هو جيرار يعبر من جديد عن عدم ارتياحه إلى الأعمال التي يقوم بها معارفه من تلقاء أنفسهم. وهو يذكرهم بمراعاة النظام ويطلب إليهم التركيز خاصة على مهامهم المتعلقة بقياس وادي النيل. ولا يمتثل هؤلاء لكن الوسط العلمي يعتبر متحمساً :

«لقد انكببنا على هذا العمل بسرعة بالغة وأيضاً بعناية بالغة، لكن ذلك، لأننا نتجه بلا توقف إلى رسم ودراسة الآثار القديمة، إنما يحزن جيرار، الذي يرى أن ذلك ليس من

«اختصاصنا»، وبلا توقف تجرى معه مناقشات مزعجة. بل إنه قد أراد منعنا من الذهاب إلى أسوان، بالرغم من أن كل العمل الذى كان قد حدده لنا كان قد تم ونال قبوله».

وهم يعزون أنفسهم قدر الإمكان بالكتابة إلى دوبوا - أيميه، المنفى فى القصير، ويتوجه النقد إلى جيرار : «إننى أخشى لك أنه غير محب للآثار، لقد أمضى أربع ساعات فى دندره نام خلالها لمدة ثلاث ساعات»، هكذا يتحدث ديفيلييه ليس دون خبث. وأخيراً، فإن رد فعل قوياً يجرى القيام به بمناسبة وصول دينون إلى إسنا يسمح بالتفاهم ويتحييد كل نوايا سيئة جديدة. وهكذا، فبعد أن قضت الحملة عشرة أيام فى هذه المدينة، تستأنف طريقها صوب الجنوب، وفى ١٠ يوليو، يحدث إعجاب فى الفور بالعمائر التى سوف يسجلها فيما بعد جومار، ثم يتم الوصول إلى طرق جبل سلسلة وكوم أمبو، حيث يجرى رصد بقايا معبد جميل «يختلف عن جميع المعابد التى رأيناها حتى الآن من حيث إن له مدخلين؛ يلتصقان جنباً إلى جنب وبوابة ضخمة شبه مهدمة تشبه بوابة دندره».

وفى يوم ٢٥، يتم الوصول إلى أسوان وتجرى زيارة الفنتين، ثم جزيرة فيلة المليئة بالعمائر الهامة ويختار كامستييه جداراً من جدران بوابة معبد إيزيس الضخمة لكى يسجل عليه نقشاً تذكارياً (١٩).

ومنذ ٢٦ يوليو، يتعين الرجوع ويتم الطواف من جديد بمواقع الآثار الرئيسية حتى إسنا حيث يرسل ديفيلييه من هناك رسالة ملحة جديدة إلى ريبو : «إنك لم ترسل إلىّ أقلام الرصاص وأنت تضعنى فى ورطة كبيرة».

طـــيبة

بعد مرور القصير بأرمنت، يتم الوصول إلى طيبة فى ٨ أغسطس (٢١ ثيرميدور). وفى هذه المرة، فإن فرصة التمكن أخيراً من اكتشاف الآثار الضخمة لـ «المدينة ذات المائة باب» والتى تغنى بها هوميروس لن تغيب عن الصديقين اللذين يخيمان فى قرية قريبة من مدينة هابو. ويعترف ديفيلييه «منذ تلك اللحظة لم أحتفظ بيوميات منتظمة لرحلتى. فقد كان على رسومى أن تكفى لتذكرياتى». وإدراكاً منهما للأهمية غير العادية لعملهما، فإن حماستهما لا تعرف بعد حداً لها :

«إننا نستشعر سروراً ما عندما نفكر بأننا سوف ننقل إلى وطننا منتجات العلم القديم ومنتجات صنعة المصريين؛ إن هذا الفتح حقيقى سوف نسمى إليه باسم الفنون».

وإزاء برنامج كهذا، قلما يتاح وقت للتفكير في الخطر القريب تماماً ويجرى التصرف كما لو أن هذا الخطر لا وجود له، وذلك بالعمل تحت حرارة شهر أغسطس الملتهبة، في ظروف مادية دائماً ما كانت أقل من أولية. وديفيلييه محروم بحيث يمكنه أن يكتب أخيراً إلى ريبو :

«... لقد استخدمت في المساحة الأقلام التي أرسلتها إليّ. وأنا أشكرك على ذلك شكراً لا حد له. لقد وصل بنا الأمر إلى حد عمل أقلام من كريات الرصاص التي نقوم بصهرها وسكبها في البوص...»

ويجرى تكثيف الجهد ويمتد إلى مجمل العاصمة الجديدة :

«لقد انكببنا عندئذ على رسم ووصف وتسجيل الخطط الهندسية لجميع العمائر القديمة التي تحيط بنا. وفي أغلب الأحيان، كنت أنا وجولوا نقوم بالعمل وحدنا، إلا أنه في عدة مناسبات كان ديكوستيل وروزيير ودوشانوا وديبوى وخاصة ديترتر ونيكتو يجيئون للانضمام إلينا وقد قدموا لنا العون» (٢٠).

وسرعان ما يرجع ديكوستيل وروزيير وديبوى إلى القاهرة وتواصل بقية الفريق الصغير مهمتها مضيفة إلى عمل التسجيل بالمعنى المحدد للمصطلح بذل جهد تفسيرى للآثار وللسياق الذى تتواجد فيه. ومن اللافت للنظر أنهم قد فسروا آثار الارتفاع العام لوادى النيل فيما يتعلق بالانغراس الأصلى للآثار وكذلك توازيها التدريجى تحت تأثير التراكم، سنة بعد سنة، لطبقات رقيقة من الطمى مترسبة عن النهر. ويصرف النظر عن الانفعال أو عدمه فإن النظرة تظل نظرة مهندس يرصد ويقيس ويفسر الظواهر.

وبمجرد الانتهاء من استكشاف جميع عمائر الضفة اليسرى، يجرى الانكباب على دراسة عمائر الضفة اليمنى ويجرى نقل قاعدة العمل إلى الأقصر التى تثير معابدها ومصلاتها الأعجاب، لكن «... هذه الأطلال ليست شيئاً بجانب أطلال الكرنك».

إن الكرنك، الذى يجرى النظر إليه دائماً بوصفه مجموع عناصر قصر عظيم، إنما يصبح موضوع دراسة عميقة وإنه لمدهش أن نأخذ فى اعتبارنا بأية حدة ذهن جرى تفسير التفاصيل التقنية العديدة. فتآكل قاعدة الجدران، الملحوظ تماماً فى بوابة ايفرجيت يجرى تفسيره من زاوية الدور الذى لعبته الرطوبة فى التأثير على الأحجار. والعمارة نفسها يجرى فهمها بشكل محدد. وسرعان ما يدرك ديفيلييه أن الفتحات التى تتخذ شكل نوافذ

والتي يلاحظها المرء على واجهة البوابات الضخمة إنما تساعد في الواقع على تسكين ألواح خشبية ضرورية لتعليق ساريات ضخمة كانت مزودة بأعلام حربية في قمتها. وهو يقدم البرهان الذي لا يدحض على ذلك مشيراً إلى نقش دقيق يرجع إلى زمن خونسو، حيث يجري تمثيل بوابة عظيمة بجميع تفاصيلها الأصلية. وتبدو في هذا النقش الدقيق الساريات ونظم التثبيت والأعلام الحربية الطويلة المرفرفة في الهواء. أليس مما يثير الدهشة أن هذا النقش الدقيق المتآكل والواقع في قطاع صعب المنال وسيء الإنارة لم يفلت من نظر القائمين بالاستكشاف ؟ ويلاحظ هؤلاء الأخيرون أيضاً أن معبد خونسو قد بني في جانب كبير منه بمساعدة كتل منتزعة من عمائر أقدم... وأن الكهنة قد نقشوا على أعتابه رسم أقدامهم... وليس بالإمكان الإشارة إلى جميع الملاحظات التي أبديت لمحاولة فهم مواقع آثار الكرنك الضخم. إن عدد وجودة التسجيلات ليست مثيرة فحسب، بل إن ذهنية التركيب الفكري التي دل عليها هؤلاء المهندسون الشبان لكشف أسرار حضارة لم يكن بالإمكان بعد قراءة كتاباتها ولا فهم تاريخها فهماً جيداً تماماً، إنما هي ذهنية غير عادية !

والحق أن هؤلاء الرجال المنفتحين على الفن وعلى الواقع، ولكن غير الخاضعين لإغراء الاستسلام لكل ما يمكن لمصر هذه أن تستحضره بحيث يتولون اكتشافها دون ذهنية انتقائية، إنما يتصرفون كأركيولوجيين (علماء آثار) حديثين حقيقيين ولا يغيب عنهم سوى القليل جداً من التفاصيل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن إعادة تركيب الشكل المعماري لعديد من العمائر التي تلاشت ثلاثة أرباعها إنما يثير الدهشة بسبب ما تتميز به من دقة. لقد عبروا بالفعل عن أقصى ما كان يمكن رصده واستخلاصه وافتراضه في زمنهم. كما أن المرء يفتنه الحرص الذي أبدوه على تخيل حياة العمائر الكبرى التي طافوا بها، والوسط الداخلي لقاعاتها خلال احتفالات معينة. ومن الواضح أنهم إذ يرصدون النقوش الدقيقة إنما يحاولون أن يكونوا عنها فكرة لأن النصوص ما كان لها أن تمثل أي عون.

وتتجاوب مع الأوصاف المصحوبة بالأرقام خطط هندسية ومقاطع موضوعة تماماً وتتلوها أحياناً إعادات للشكل المعماري ذات شكل هندسي أو منظوري. ومن المؤكد أن المرء يدهش اليوم إذ يتابع التفسيرات المقدمة للجزء الأوسط من معبد الكرنك الكبير، إلا أنها ليست محالة بقدر ما أن مجمل الأثر قد نظر إليه على أنه قصر. لقد لذ لهم فجأة أن يحلموا بسير عمله وقد ظهرت لهم رؤى وصور ، ولا شك أن الملوك الذين سكنوا هذا القصر قد قضوا أيامهم في القاعات التي تستند أسقفها إلى أعمدة وفي الأبهاء ذات الأعمدة

التي كانوا يتحركون فيها بحرية وكانوا يحتمون فيها من حرارة الجو؛ وكانوا يأوون بشكل خاص إلى الغرف الجرانيتية».

وربما يجد المرء سذاجة مثل هذه السطور، النادرة إجمالا في مجمل العمل المنجز، في حين أن شامبوليون نفسه، وبالرغم من درايته بالهيروغليفية، سوف يصف لنا أيضاً الانطباع الذي خلفه لديه «قصر» الكرنك. (٢١)

والآن يواصل ديفلييه وجولوا مهمتهما في طيبة دون أن تثبط همتهما الأنباء الأكثر إزعاجاً. لقد استولى الأتراك للتو على حصن أبو قير ويتذكر ديفلييه : «في اللحظة التي نما فيها إلى علمنا هذا النبأ، كان مصيرنا مقرراً؛ لأن هذا النبأ كان قد مر عليه شهر وكنا بعيدين عن القاهرة بمسافة مائة وخمسين فرسخاً وعن موقع المعركة الفاصلة بمسافة مائتي فرسخ. وقد نظرنا إلى أنفسنا وقلنا : هل ذلك هو جزاء الاستمرار ؟!».

إنهم لن يعرفوا إلا فيما بعد أن نتيجة المعركة كانت ظافرة؛ لكن انعدام اليقين لم يدفعهم إلى التخلي عن عملهم ولم يؤد إلى إضعاف عزيمتهم.

اللجان العلمية

في ١٢ سبتمبر يرجعون إلى إسنا التي وصلت إليها للتو اللجنتان العلميتان اللتان كان بونابارت قد شكلهما، قبل رحيله إلى فرنسا، حتى يتسنى الاضطلاع بدراسة مصر العليا وآثارها، وذلك دون أن تكونا على علم بأن جانباً كبيراً من العمل كان قد جرى البدء به تلقائياً من جانب ديفلييه وجولوا ورفاقهما.

وكانت اللجنة الأولى بقيادة كوستاز (عالم الهندسة)، بينما كانت عضويتها تتألف من بلزاك ولوبير (مهندس معماري)، وسان - جينيس (مهندس الجسور والطرق) وكورابوف (جغرافي) ولينوار وكوتيل (المتخصصين في الآليات) ونويه وميشان (عالمي الفلك) وفيار (عالم الهندسة) ولابات (طبيب) وكوكيبير (عالم النبات) وسافيني (عالم الحيوان) وريبو (متخصص في الآثار).

وكانت اللجنة الثانية بقيادة فورييه (عالم الهندسة) وكانت مهمتها، بين مهام أخرى، دراسة النقوش القديمة والسعي إلى تفسيرها. وكانت عضويتها تتألف من : أرزوليه وشابرول ولانكريه (مهندسي الجسور والطرق) وجومار (جغرافي) ولنسان (عالم

الهندسة) وسيسيل (المتخصص فى الآليات) وريدوتيه (رسام) ولاسيبيير (طبيب) وديليل (عالم النبات) وروييه (الصيدلى) وجيفروا سانت – هيلير (عالم الحيوان) وفيلوتو (المؤلف الموسيقى) (٢٢).

وعندما يكتشفون ضخامة العمل الذى أنجز قبل وصولهم، سوف يستخلص المسؤلون النتائج التى تترتب على ذلك. ويلاحظ ديفيلييه : «... لقد أدركوا أنه بدلا من الشروع من جديد إلى حد بعيد بعمل ما قمنا به بالفعل، فإن من الأنسب مخاطرتنا ما كان لا يزال بعد بحاجة إلى دراسة، ومنذ ذلك الحين، واصلنا أعمالنا بالاتفاق معهم».

وهكذا يجرى تقديم دعم جدى إلى المشروع. إن الجميع سوف يتجمعون فى طيبة للعمل هناك ثم يهبطون وادى النيل حتى القاهرة، مراكمين وفرة غير عادية من الوثائق. وسوف يجرى تسجيل آثار دندره وأبيدوس وأنتينوى والعديد من مواقع الآثار الأخرى. إلا أنه بدلا من الاضطلاع بالتعداد الطويل لهذه الأعمال وكلها يتفوق بعضها على البعض الآخر فى روعته، فإنه يبدو لنا أن اللحظة قد حانت لرسم صورة محصلة العمل وللإشارة إلى الأهمية العلمة للإسهام العلمى لهذه الحملات المثمرة.

إن النتائج المكتسبة مثيرة. فمن آلاف الرسوم والملاحظات المتراكمة تجيء اللوحات الـ ٤١٩ التى سوف تتناول الآثار الفرعونية فى «وصف مصر». وهى تشكل أهم كتلة وثائق نشرت حتى الآن دفعة واحدة حول هذا الموضوع (٢٣).

ولا مراء فى أن أكبر جانب فى مأثرة هذا العمل إنما يرجع إلى ديفيلييه وجولوا، ليس لمجرد أنهما قد مهرا بإمضائهما أكبر عدد من اللوحات، بما لا يقاس، وإنما أيضاً لأن هذه النتيجة تجسد المساهمة الشخصية التى مثلتها كافة الوثائق الأولى التى أعدت بمبادرتهما وحدهما. ولابد من الإشارة بعد ذلك إلى الأعمال التى لا تقل روعة من حيث جودتها والتى قام بها جومار وشابروك وديترتر ولوبير، والتى تحتل المرتبة الثانية من حيث عدد اللوحات المنشورة. كما أن سيسيل وريدوتيه ولانكريه قد قدموا مساهمة مهمة فى حين أن تدخل أفراد آخرين مثل كوستاز أو فورييه يتجلى بشكل أكثر مراعاة للتحديد.(٢٤)

وتمدت أشكال تعاون بين خبراء ذوى تخصصات مختلفة وذلك سعياً إلى الوصول بشكل أفضل أحياناً إلى بعض الأهداف كتسجيل تخطيط هندسى عام لمواقع الآثار الكبرى. وهكذا فإن سان – جينيز وكورابوف سوف يسهمان فى إعداد سلسلة خطط

هندسية إجمالية جداً إلى جنب ديفيلييه وجولوا (٢٥). والأهمية الوثائقية لمثل هذه الأعمال ملحوظة. وهي في جميع الحالات تصور لنا حالة رائعة للأماكن وتتيح لنا في الوقت نفسه، في أغلب الأحيان، الوسيلة الوحيدة لكي نكون اليوم دراية بالهيئة العامة للمواقع والتي تعرض كثير منها لخراب جسيم. ولابد من الإشارة هنا على سبيل المثال إلى أنتينوى وأرمنت أو هيليوبوليس. وبدون هذا العمل لوجدنا مشقة كبيرة، بل ولما وجدنا أقل إمكانية لتصور الخصائص العامة التي كانت واضحة لذلك لمواقع الآثار والتي تعتبر أهميتها التاريخية رئيسية. ومثال أنتينوى في هذا الصدد مثال صارخ بشكل خاص. إن رسم المخطط الهندسي الذي قام به جومار وشابرول واللوحات التي ترجع إلى أفراد آخرين في الحملة إنما تتيح الوسيلة الوحيدة الباقية لدينا لفهم تنظيم المدن وللوقوف على شكل العمائر العامة لحاضرة طيبة العظيمة التي أسسها هادريان.

البيـــانات

إلا أنه، علاوة على القيمة المكتسبة بهذا العمل التسجيلي المنهجي، فإن ما يثير الدهشة أيضاً هو هذا الفضول الذهني وتعدد مواهب بعض أفراد الحملة، الذين يتصرفون على ما يبدو بحرية في إعداد الخرائط ورسم تصميم العمائر، كما يتصرفون بحرية أيضاً تماماً في رسم تفاصيل البناء أو النقوش الدقيقة. والحال أن بيان هذه الأخيرة (٢٦)، إن كان يمثل مصدر معلومات أساسياً، فإنه يتميز على أية حال، بالرغم من كل شيء، بأهمية مباشرة أقل بالنسبة لحديثنا من الأهمية المباشرة للمجموعات الأثرية بالمعنى المحدد للمصطلح، ولتفاصيلها (الأعمدة، تيجان الأعمدة، العتبات وعناصر العمارة الأخرى). إن أهمية وجودة التوثيق الذي تم الاضطلاع به تعتبران فائقتين بحيث يصبح من المناسب أن نتوقف أمامها قليلاً.

ولابد لنا من الإشارة في المقام الأول إلى الأهمية الأساسية التي يمثلها، بالنسبة للوقوف على الآثار القديمة، مجموع البيانات التي تحدد الأشكال الهندسية والمقاطع والارتفاعات، والتي قام بتسجيلها ديفيلييه وجولوا ولوبير خاصة وكذلك بلزاك ولانكريه وشابرول في حين أن الأفراد الآخرين لم ينتجوا منها غير القليل جداً بل إن البعض لم ينتجوا شيئاً منها. (٢٧)

والحال أن أعمال لوبير في الكرنك هي التي تقدم لنا هنا لمحة عنه و، بشكل أخص، فإن التخطيط الهندسي المنشور في «وصف مصر» مقابلاً لمقطع طولي كبير يعيد لنا لأول

مرة تركيب للمشهد الإجمالي لمعبد آمون - رع الكبير (٢٨). وهذا التخطيط الهندسي أكثر دقة من رسم بوكوك وترجع بعض عيوبه إلى واقع أن أجزاء عديدة من مواقع الأثر كانت آنذاك ما تزال مطمورة. ومن ثم فإن المرء لا يجد على تخطيط لوبير الهندسي أثراً للرواق الذي يوجد في نهاية بهو الأعمدة الغربي ، فلم يكن هناك ما يسمح بتخمين وجوده. وفي المقابل، فإن المجاز نفسه قد أعيد تركيب صورته على نحو جيد في حين أن اثنين فقط من تماثيل أبي الهول هما اللذان كانا ظاهرين فوق الأرض. ويشير عمل لوبير وكذلك الشروح والوثائق التي ترجع إلى ديفيليه وجولوا إلى أن المسألة ليست مجرد مسألة تسجيل طوبوغرافي، بل هي، بوجه عام، مسألة تتويج لجهد فكري بشأن المعبد.

والحال أنه يجري تقديم أنسب للملاحظات وتحليل الآثار وتفسيرها وتحليلها بعناية. ولا يجري الاكتفاء بتسجيل أي لبنيتها، بل إن هناك رغبة حقيقية في التفسير قدر الإمكان، وذلك بتخصيص جانب كبير من النص للأوصاف وللافتراضات. وعلى سبيل المثال، فإن ديفيليه وجولوا هما أول من فهم أن بناء بوابة الكرنك الضخمة قد ظل غير مستكمل. والبرهان على ذلك يقدمه لهما الشكل جد الخشن للجدران والتي احتفظت بنتوءات بارزة مهمة. ومن الواضح لهما أن هذه الجدران لم تكن قد صورت بعد وأنها لم تكن موضع زخرفة. ويتم استحضار دقيق أيضاً لمبدأ البناء الأصلي لتيجان أعمدة كشك ترافه، والمركبة من قطع متراكبة عديدة (٢٩).

ثم إنهما يؤكدان، وهو ما سوف يتكشف أنه صحيح تماماً، أن معبد رمسيس الثالث لابد وأنه قد شيد قبل رواقات الصحن الكبير التي تحتويه، لو أنهما يرجعان حالة خراب البوابة الضخمة الثانية إلى كارثة سوف تكون افتراضاً سيتم إثباته فيما بعد، هي نتيجة ضعف بنائها بأكثر مما هي نتيجة زلزال : «من المنطقي تصور أن مثل هذا الخراب إنما ينبع من عيب في البناء» (٣٠). وهذا هو السبب، بالرغم من المظهر الفعلي للأثر (ركام من الأنقاض لا يتميز بشكل محدد)، في أن رسم محيطه هو رسم بوابة ضخمة جد منتظمة. والرسم الهندسي للقاعة التي يستند سقفها إلى أعمدة رسم دقيق وهذه الأخيرة هي أيضاً موضع وصف رائع. ويجري استعراض أبعادها وعناصرها التكوينية وزخرفتها ويدهش المرء من أنه كان هناك تحسس للأسباب الحقيقية لانهيارها. وهكذا، فقد أشير إلى أن بعض الأعمدة قد فقدت انتصابها، «وهو ما يجب للمرء أن يرده إلى ضعف رسوخ الأرضية والتي تتسرب إليها الآن، كما قلنا، مياه الفيضان. وليس بعيداً جداً الزمن الذي سوف تستسلم فيه القاعة التي يستند سقفها إلى أعمدة لهذا السبب للدمر الشامل بأسره» (٣١).

أما وضع البوابة الضخمة الثالثة وخاصة شكلها، فسوف يجرى أيضاً تخمينهما بأكثر مما سوف يجرى رصدهما، إلا أن محيطها يعاد تركيب صورته بشكل جيد. وسوف تكون المهمة أصعب بكثير فيما يتعلق بمنطقة المعبد الوسطى، المعقدة والمطمورة والتى تنتثر عليها آلاف الكتل. والحال أن الرغبة فى إعادة تركيب صورة مجموعات معمارية فى أغلب الأحيان من خلال تحقيق التناظر قد أدخلت هناك أخطاء، لكن المرء يدهش بالرغم من كل شيء من أن الرسم الهندسي للمقترح هو فى نهاية الأمر جد قريب من الواقع.

وببصيرة محيرة بشكل حاسم، يدرك ديفيلييه وجولوا أيضاً أن الكنيسة الجرانيتية الوسطى (كنيسة فيليب أريديه)، والتى كانت مزينة فى قديم الزمان برسوم ملونة «نابضة ورائعة»، إنما بنيت فى جانب منها بالاعتماد على كتل توظيف جديد ضخمة كان بعضها أجزاء من مسلات »

«تلك حقيقة تثبت، بإضافتها إلى جميع الحقائق التى أشرنا إليها بالفعل، أن قصر الكرنك القديم هذا قد شيد فى جانب منه بأنقاض آثار أقدم منه بكثير».

وهكذا فإن جميع أجزاء المعبد الكبير يجرى التعليق عليها بدقة وصواب رأى ليس من شأنهما إلا أن يثيرا دهشتنا اليوم أيضاً.

ويجب أن نحيى جهدهم فى إعادة تركيب الصورة الأصلية للعديد من معابد الوادى، علاوة على حس الملاحظة غير العادى الذى تدل عليه هذه التأملات وتسجيل تفاصيل العمارة من جانب أفراد الحملة (٣٢)، ليس فقط لأن الافتراضات التى جرى تقديمها تظل من حيث الجوهر مرضية، وإنما أيضاً، فى كثير من الحالات، لأنها الافتراضات الوحيدة التى قدمت إلى اليوم (٣٣). والحال أنه لما يتميز بأهمية بالغة فى نظرنا أن أولئك الذين كانوا يعرفون العمارة المصرية آنذاك بشكل أفضل قد واتتهم الشجاعة لمحاولة إعادة تركيب شكلها، لأن ذلك قد أسهم كثيراً فى المساعدة على فهم ما كان بالإمكان أن تكون هذه العمائر شبيهة به.

وهكذا فإن كشف العمائر الفرعونية قد أضاف إلى مأثر تقديم نتائج بحث دقيق ثمار تأمل فكرى عميق قام به رجال تمكنوا من التوفيق بين خصائص الصرامة العلمية المميزة لمهندس وفضول المؤرخ وحساسية الفنان. وثراء الوثائق المترتبة على ذلك ضخم، خاصة إذا ما قارنه المرء بجميع الأعمال التى سبقتها، أياً كانت مآثر أصحابها.

إن هذه الحساسية للمائلة دائماً، بالرغم من الصرامة العلمية للمصورة، لا يبدو البتة في نظرنا أنها تهد تعبيراً عنها أفضل مما في مشاهد البيئة المنشورة في «وصف مصر».

وإذا كان ديفيلييه وجولوا ولوبير يظلون رائعين على هذا المستوى أيضاً، فإن ذلك ضروب تميز لدى دينزلر وسيسيل بالتأكيد (٣١). إن الجميع سوف يسعون إلى أن يستحضروا بشكل مفعم بالحيوية اكتشافاتهم لمواقع الآثار أو إلى أن يستعيدوا تحت أبصارنا مشهداً ما من مشاهد حياة المعابد كما تسنى لهم تخيله. وسوف يفضل المهندسون والمعماريون إعادة تركيب صور المشاهد القديمة على استحضار الجمال والشعر اللذين سوف يكون لهما مع تلك مواقع يطوفون بها خلال رحلتهم المصرية.

وهكذا فإن المرء يتأمل بتلذذ اللوحات التي كرسها ديفيلييه وجولوا لإعادة تركيب صور موكب الزوارق المقدسة وهي تجتاز مقدمة هيكل معابد إسنا أو دندره أو الصور التي قدمها لوبير للجزء الداخلي من معبد دير المدينة الصغير (٣٢). إلا أن الشيء الأكثر جاذبية يظل هو تثبيت نظرنا على الشخصيات التي تضفي حيوية على غالبية مشاهد البيئة بشكل يدفعنا إلى استرجاع ملحمتها بشكل بسيط وواقعي. وعلى كثير من اللوحات، هنا وهناك، غير بعيد عن قوة الحراسة ذات الزي الرسمي للوحد أو عن خيام الجيش، فإن العلماء الشبان يجلسون على كتل حجرية أو على مقاعد صغيرة، وفي اليد ورق رسم وعلى الرأس قبعة ذات قرنين أو القلنسوة والملابس سترة طويلة، وعلى الجنب سيف وبندقية في متناول اليد. وأحياناً ما تذكرنا شمسيات كبيرة بأننا في الفترة الأشد حرارة في السنة(٣٦). والخيط المضاف إلى انعدام الأمن وأحياناً إلى أمراض العيون إنما يجعل أهمية المأثرة المنجزة أبلغ تأثيراً في النفس.

إن ما يقدم إلينا هذه المرة ليس مجرد ريبورتاج، ليس مجرد استحضار عادي للمعالم، ليس شيئاً يتم عمله «على نحو مشابه لها»، بل هو نتيجة عمل انتقادي ومُلْهَم. وأخيراً، فإن اللمسة «الرومانسية» الصغيرة التي غالباً ما تزين اللوحات إنما تضعنا في العصر تماماً. والأسلوب أو بالأحرى التعبير الذي يجري إضفاؤه على بعض تيجان أعمدة دندرة الحتحورية أو الملمح «النابوليوني» تماماً لبعض الوجوه الملكية على اللوحات التي تستحضر النقوش البديلة في قاعة الكرنك التي يستند سقفها إلى أعمدة إنما تعتبر بلا جدل أيضاً انعكاساً لذلك (٣٧). وإذا كانت كل حقبة من تاريخنا الحديث تتميز بأسلوبها الأصيل في النظر إلى حضارة قديمة وتشوه بذلك إلى حد ما، بشكل غير واع تماماً في

لغالب الأحيان، تمثيلاتها للواقع الذي يجري النظر إليه، فإن حملة مصر لا تفلت من هذه القاعدة. لكن هذه التبديلات للجمدة في اللحظة التي رسمت فيها اللوحات لا تحول بالفعل دون تكوين فكرة مناسبة عن التيمات الرئيسية والشكل العام لزخرفة المعابد. وأمام جهد تسجيلي بهذه الدرجة من العظمة وبهذه الدرجة من التملم وبهذه الدرجة من الأمانة بالرغم من كل شيء، والذي بذل حتى يتسنى الكشف في أوروبا عن جوانب جديدة مميزة لمصر، فإن الانتقادات المتصلة بمثل هذه التفاصيل لا تعدو أن تكون شكلاً لإبراز درجات شعور الإعجاب الفعلي الذي يهيمن تجاه عمل استثنائي كهذا العمل.

وبهذا المعنى وبسبب القيمة العلمية التي يحتفظ بها هذا العمل النموذجي اليوم، فلا مفر من الاعتراف بأن حملة مصر، في هذا المجال المحدد، قد أنجزت ما يمثل دون شك، وبالنسبة لكل العالم اليوم أيضاً، أحد الجوانب الأقل إثارة للجدل في المهمة التي قامت بها.

والواقع أن عدداً من الرجال المثقفين، المدركين تماماً للوضع الذي يجدون أنفسهم فيه، والمستنكرين للجوانب غير الإنسانية للحرب التي استحضرها ديزون أو ديفيلييه غالباً ودون مواربة، قد وصلوا هناك، بفضل جودة أعمالهم، إلى تحقيق أنبل غاية حددتها الحملة لنفسها : أن تنقل إلى الأجيال القادمة كل ما يمكنها إدراكه من الميراث الضخم لواحدة من أعظم حضارات العالم.

الكرنك، ١٢ أغسطس ١٩٨٨.

حواشي الفصل التاسع

1 Sur les premiers voyageurs en Haute-Égypte, voir : C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Résurrection d'un site*, Paris, Fribourg 1984, pp. 35-102 et bibliographie pp. 227-229, voir aussi C. TRAUNECKER, *Deux missionnaires franciscains en Haute-Égypte (mai-août 1691)* dans *Orbis Biblicus et Orientalis*, 1989, pp. 171-241.

2 JOLLOIS et DEVILLIERS, conscient des avantages dont ils bénéficient, évoquent ainsi les conditions de visite de leurs prédécesseurs : « on s'empresse comme si le monument devait incessamment s'écrouler et disparaître pour toujours. Après cet examen mal dirigé, dont l'esprit et les yeux sont également fatigués, on rentre dans sa barque, plus étonnés que satisfaits », *Description de l'Égypte*, éd. Panckoucke, tome II, p. 365 (*Description* II, p. 365).

3 F.L. NORDEN, *Voyage d'Égypte et de Nubie*, Copenhague, 1755, p. 164 et p. 101. Sur les dates de passage de F. Norden et R. Pococke, voir TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 89, 94, 220.

4. R. POCOCKE, *A Description of the East and some other Countries, I : Observations on Egypt*, Londres 1743, p. 90 et s.

5 C. SAVARY, *Lettres sur l'Égypte*, Paris, 1785. Les descriptions des monuments de la Haute-Égypte sont tirés de l'ouvrage de R. Pococke, C. Savary ne s'étant pas aventuré au sud du Caire. Voir à ce sujet le témoignage de SONNINI de MONONCOURT dans ses *Voyages dans la Haute et Basse-Égypte*, Paris, 1799, p. 12 et TRAUNECKER, GOLVIN, *op. cit.*, pp. 96-8.

6 VOLNEY, *Voyage en Égypte et en Syrie*, Paris, 1783 ; réédité par J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 156.

7 QUATREMÈRE DE QUINCY, *De l'architecture égyptienne*, Paris, 1803 (rédigé en 1785), passages cités, pp. 5, 210, 224.

8 VOLNEY, *op. cit.*, p. 129.

9 Pour une bibliographie sur V. Denon, on consultera J.-M. CARRÉ, *Voyageurs et écrivains français en Égypte*, Le Caire, 1956, p. 143 et J. CHATELAIN, *Dominique Vivant Denon et le Louvre de Napoléon*, Paris, 1973, pp. 347-50 : l'épisode égyptien : pp. 77-95 ; I. A. GHALI, *Vivant Denon, ou la conquête du bonheur*, Le Caire, 1986. Les quelques citations faites ici sont extraites de ce dernier ouvrage, *op. cit.*, pp. 149-185.

10 I. A. GHALI, *op. cit.*, p. 163, cette citation est de l'éditeur du *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*.

11 V. DENON, *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte*, Paris, 1802. (Nous citerons les planches selon l'édition de Londres de 1809). Ce mélange d'éléments est évident, pl. L : une palette de scribe a été dessinée à côté de serrures à clé en bois, en usage à l'époque de l'expédition, et des fragments de tissus coptes

12 On doit citer quelques belles restitutions de façades, commes celles du temple de Dendara (pl. XIV) et d'Esna (pl. XXXII). Les erreurs d'échelle sont très sensibles, par exemple sur la représentation de la porte d'Evergète à Karnak (pl. XVIII), les personnages sont beaucoup trop grands par rapport à celle-ci. Les proportions des éléments d'architecture représentés sur certaines planches (pl. XLVI) sont très fausses. L'exagération de la pente des pylônes et des portes est particulièrement sensible sur les planches XIII, XVIII, XX, XXIII. Les édifices ne sont pas correctement orientés les uns par rapport aux autres sur la vue de l'entrée de Medinet Habou (pl. XXI).

13 V. DENON, *op. cit.*, pl. XXII, XXVI, XXIX.

14 Certaines vues générales sont habilement rendues comme celles du temple de Louqsor (pl. XXV) ou d'Esna (pl. XXI).

15 Tous les extraits qui vont suivre proviennent de l'ouvrage de Marc DE VILLIERS DU TERRAGE, dont toute la matière provient des notes et documents d'un témoin direct des événements : E. DE VILLIERS DU TERRAGE, membre de la Commission des Sciences et des Arts, *Journal et souvenirs sur l'expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 (DEVILLIERS, *Journal*, pp. 94-216).

En ce qui concerne la bibliographie relative à la Commission des Sciences et des Arts, on pourra se reporter à J.-M. CARRÉ, *op. cit.*, pp. 162-7 ; et H. MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte*, C.C. GILLISPIE, dans *Monuments of Egypt, the Napoleonic edition*, pp. 1-39 et bibliographie, pp. 43-45.

16 Publié dans *Description de l'Égypte*, Atlas de planches III, pl. 21 (D.E., III, 21). Le cadavre fut découvert dans la seconde chapelle est de la deuxième salle hypostyle (salle B' dans F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hathor*, Le Caire, 1969, pl. II).

17 Voir *supra*, p. 354

18 *D.E.*, I, 84.

19 DEVILLIERS, *Journal*, pp. 174-5. Sur les inscriptions laissées en Haute-Égypte (Dendara, Karnak, Edfou, Philae) par les membres de l'expédition, voir G. LEGRAIN, *Inscriptions françaises de Haute-Égypte*, Paris, 1911.

20 Les fonctions de ces membres de l'expédition étaient les suivantes : Descotils (ingénieurs des Ponts et Chaussées), Dupuy et Rozière (minéralogistes), Duchanoy (zoologiste), Duterre (dessinateur, graveur), Nectoux (botaniste).

21 Voir *supra*, p. 355

22 Liste donnée par E. DE VILLIERS (*Journal*, p. 213). D'une façon générale, pour tout ce qui concerne la liste des membres de l'expédition et leur fonction on se reportera à : Marc de Villiers dans E. DE VILLIERS, *Journal*, pp. 335-354 ; J.-M. CARRÉ, *op. cit.*, pp. 148-152 ; et aux travaux de J.-E. GOBY, cités par C.C. GILLISPIE (*op. cit.*, pp. 45).

23 Sur ce total, les édifices de Haute-Égypte ont fait l'objet à eux seuls des 330 planches des 4 premiers volumes. Ceux des environs du Caire et les sites du delta représentent seulement 43 planches du V^{e} volume. Les 46 dernières planches sont consacrées aux documents et inscriptions recueillis.

24 Devilliers et Jollois, qui ont presque toujours fait équipe, sont les auteurs de près de 110 planches. Chabrol et Jomard en ont signé près d'une centaine à eux deux (dont une vingtaine ensemble). Duterre en a fait une soixantaine et Le Père plus de quarante. Cécile et Balzac en ont signé chacun une trentaine, Redouté et Lancret, une vingtaine. Les autres membres n'en ont guère produit plus de dix et même parfois beaucoup moins si l'on exclut Saint-Genis et Coraboeuf associés le plus souvent à de Villiers et Jollois.

25 Il faut citer ici : le plan général de Thèbes (*D.E.*, II) de Medinet Habou (II, 2) et ceux des secteurs incluant le *Ramesseum* (II. 19). Deir-el-Bahari (II, 38), le temple de Seti I^{er} à Gournah (II, 40), ainsi que les plans de la Vallée des Rois (II, 77), de Louqsor (III, 1), Medamoud (III, 68), Dendara (IV, 2) *Antaeopolis* (IV, 38) et celui des trois enceintes de Karnak (III, 16). Saint-Genis et Coraboeuf ont dressé seuls celui d'El Kab (I, 66). D'autres plans généraux sont dus à Le Gentil, Éléphantine (I, 30 en collaboration avec Jomard), Esna et *Contralatopolis* (I, 73). Le plan de Behbet el-Hagar est du à Dubois Aymé et Jollois (IV, 30). Jacotin dressa ceux d'*Héliopolis* (V, 26), de Memphis (V, 1), des pyramides (V, 6) et de Tanis (V, 28). À Jomard revient le mérite d'avoir réalisé ceux d'Abydos (IV, 35 et 37), d'Antinoé (IV, 53 ; aidé de Chabrol), d'*Hermopolis* (IV, 50), d'El-Tell (Tell el-Amarna) (IV, 63), de *Cusae* (IV, 67) et d'*Athribis* (V, 27).

26 Le dessin des bas-reliefs n'est pas l'exclusivité des artistes (dessinateurs et peintres) tels que Duterre ou Redouté. Jomard (géographe) en a dessiné lui aussi un grand nombre ainsi que les ingénieurs des Ponts et Chaussées, Chabrol, Lancret, Devilliers et Jollois. Cécile (ingénieur) et Balzac (architecte) en ont exécutés quelques-uns et Le Père (architecte) aucun. D'autres, au contraire, n'ont signé que des planches relatives à des objets ou des bas-reliefs, en petit nombre toutefois, comme Rozière, Bigant, Pomel, Fèvre, Lenoir, Protain, Viard s'est consacré au relevé des cartouches royaux. Le dessin des parois décorées offre un intérêt direct pour la compréhension de la fonction des salles, mais nous ne pourrons pas ici citer toutes les planches concernées. Le relevé du bas-relief du temple de Khonsou par Duterre, représentant la façade du deuxième pylône en offre un bon exemple (*D.E.*, III, 57), tout comme les scènes de la salle hypostyle de Karnak (*D.E.*, III, 32, 33).

27 On doit à Devilliers et Jollois, un très grand nombre d'excellents relevés. Le souci de précision de l'ingénieur y est évident et le plus souvent, un grand nombre de cotes est indiqué. Ont été relevés :

les monuments de *Philae* (*D.E.*, I, 5, 6, 24, 25, 29), le temple ptolémaïque d'Assouan (I, 38), Kom Ombo (I, 42), Edfou (I, 61), Esna (I, 72, 85), *Contralatopolis* (I, 84), Médinet Habou (II. 18), les colosses de Memnon (II, 20), les ruines de Qous (IV, 1), Dendara (II, 8, 31) et plusieurs tombes hypogées d'Assiout (IV, 44, 47-49).

28 Le Père a réalisé le plan du grand temple d'Amon-Rê à Karnak (*D.E.*, III, 21) et celui du temple de Khonsou (*D.E.*, III, 54), ainsi qu'une importante série de plans, coupes et élévations relatives à Edfou (I, 50-54, 62), Ermerit (I, 94), Médinet Habou (II, 4-6), au *Ramesseum* (II, 27) et aux tombes de la Vallée des Rois (II, 39). On peut admirer aussi la grande coupe de la pyramide de Khéops (V, 14) ou le relevé de l'« aiguille de Cléopâtre » à Alexandrie (V, 33). Balzac a relevé le temple sud d'Éléphantine, aujourd'hui détruit (*D.E.*, I, 35, 38), dessiné les élévations et les coupes de la grande porte de Medinet Habou (avec Jomard II, 16) et des tombes de Gournah (II, 45).
Grâce à lui, on connaît la forme du cirque antique d'Alexandrie (V, 39) et celle de la grande enceinte d'Abou Fedah (V, 62) car il n'en reste rien aujourd'hui. À Karnak, Jomard fit le levé du temple d'*Opet* (III, 58, 65 ; en collaboration avec Chabrol), et il a publié des planches concernant certaines tombes de la Vallée des Rois (II, 45 ; avec Dutertre, Redouté et Cécile), ainsi que l'obélisque oriental de Louqsor (III, 11 ; avec Devilliers, Jollois et Lancret). Chabrol réalisa les relevés du temple de *Contralatopolis* avec Lancret (*D.E.*, I, 89), de l'obélisque occidental de Louqsor (III, 12 ; avec Devilliers et Jollois) et une belle coupe la grande porte nord de Dendara (IV, 5). Lancret a assuré le levé du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 34), celui de la porte d'Evergète à Karnak (III, 52-53). En ce qui concerne le plan du grand temple d'Amon-Rê, nous avons pu disposer du dossier de publication du *Plan topographique de Karnak* et de l'étude historique des plans de Karnak, grâce à notre collègue, M. Azim, auquel nous adressons nos remerciements.

29 À propos de cet édifice, on consultera notamment G. Legrain, *Les temples de Karnak*, pp. 64-74 ; P. Barguet, *Le temple d'Amon-Rê à Karnak*, Le Caire, 1962 ; J. Lauffray, *Kêmi* XX, 1970, pp. 111-164 avec bibliographie des travaux de H. Chevrier, p. 111, n. 4.

30 Telle est bien la conclusion à laquelle nous ont conduit les travaux les plus récents concernant ce sujet : M. Azim, *La structure des pylônes d'Horemheb à Karnak* dans les *Cahiers de Karnak, vol. VII*, Paris, 1982, pp. 127-166.

31 Devilliers et Jollois avaient pressenti l'événement qui survint effectivement le 3 octobre 1899. Une partie de la salle hypostyle s'effondra brutalement en raison de la faiblesse des fondations dont le grès avait été détérioré par l'effet pernicieux des eaux d'infiltration ; Traunecker-Golvin, *Karnak*, pp. 161-168, *D.E.*, Texte (Édition Panckoucke), II, p. 441.

32 On ne saurait faire état ici des nombreux détails d'architecture observés (colonnes, chapiteaux, gargouilles, etc.) et des relevés partiels souvent cotés. Nous sommes heureux de pouvoir parfois disposer ainsi également de documents relatifs à des monuments qui ont disparu. Devilliers et Jollois ont étudié de nombreux détails des édifices de *Philae*, Kom Ombo, Edfou, Esna, Louqsor, Abydos, Antinoé, tout comme Le Père à Médinet Habou ou au Ramesseum. Jomard et Chabrol en ont fait autant à Médinet Habou, Gournah, Karnak, Dendara, Antinoé et Alexandrie. Dutertre, Lancret, Balzac ; c'est dans une moindre mesure que Redouté et Girard ont contribué à cet effort. Nous ne citerons pas toutes ces planches, mais seulement les remarquables études comparatives des chapiteaux d'Esna faites par Cécile (*D.E.*, I, 75), de *Contralatopolis* par Lancret (I, 89) et d'Edfou par Devilliers et Jollois (I, 56-57).

33 Les restitutions architecturales en plan, coupe, élévation, perspective, constituent une part importante du travail des auteurs de la *Description de l'Égypte*. Elles représentent bien la synthèse de toutes les observations faites sur le terrain et des hypothèses qu'ils bâtirent pour évoquer l'aspect d'origine probable des témoins majeurs d'une architecture dont les qualités étaient ainsi révélées pour la première fois. Cet effort est d'autant plus méritoire qu'il est resté inégalé. Bien peu de temples ont depuis fait l'objet de recherches en ce sens. Mis à part Karnak dont les principales phases d'évolution viennent tout juste d'être restituées et dessinées à l'ordinateur, on serait en peine de citer beaucoup d'autres exemples de restitutions même « classiques », à part celles de Medinet Habou, faites par U. Hölscher, *The excavations of Medinet Habu*, Chicago 1934.
En revanche, nous pouvons énumérer un grand nombre de restitutions faites par Devilliers et

Jollois (relatives à Kom Ombo, Esna, au *Ramesseum*, au temple de Louqsor, ou à ceux de Medamoud, Dendara et *Hermopolis*). D'autres ont été réalisées par Le Père, surtout en ce qui concerne le grand temple d'Amon-Rê à Karnak ou le *pronaos* du temple de Dendara (*D.E.*, III, 21-28 et 41, 55 ; IV, 29). La restitution de la grande porte de Dendara par Chabrol et Jomard (*D.E.*, IV, 6), ou de la façade du temple d'*Antaeopolis* (*D.E.*, IV, 41) sont également remarquables.

34 Ces qualités sont nettement celles d'un artiste comme Dutertre, connu en outre pour ses talents de portraitiste des membres de l'expédition ; DE VILLIERS, *Journal*, pp. 355-365. Il n'a livré aucune restitution à caractère trop technique en « géométral », mais une éblouissante série de vues d'ambiance de *Philae* (*D.E.*, I, 18), Edfou (I, 49), Erment (I, 93), des colosses de Memnon (II, 20), du *Ramesseum* (II, 25), de Karnak (III, 17, 20, 54), Dendara (IV, 4), *Antaepolis* (IV, 43), d'Assiout (IV, 43) et des pyramides (V, 10, 12). De même, Cécile présente toute une série de sites de façon très vivante : le kiosque de Trajan à *Philae* (*D.E.*, I, 25), le temple de Kom Ombo (I, 40), le mammisi d'Erment (I, 94) et de magnifiques vues de Medinet Habou (II, 3), Louqsor (III, 3), Karnak (III, 18, 19, 43, 48, 49), Dendara (IV, 7), *Antaeopolis* (IV, 40), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Memphis (V, 1), et des pyramides (V, 10, 12). Devilliers et Jollois nous ont offert de belles perspectives de *Philae*, Éléphantine ou du temple de Seti I[er] à Gournah restitué, ainsi que de très belles vues intérieures du *pronaos* d'Esna (*D.E.*, I, 80) et de Dendara (IV, 30). Le Père aime à évoquer l'ambiance des monuments, telle qu'il l'imagine dans l'antiquité : nous retiendrons surtout ses vues de la grande salle hypostyle de Karnak (II, 42), de la cour du temple de Khonsou (II, 25), du petit temple de Deir-el-Medineh (II, 37) et du portique du grand temple de *Philae* (I, 18). Jomard s'est plu à évoquer la première cataracte et l'île d'Éléphantine, mais nous citerons surtout les monuments qu'il a dessinés à Antinoé (IV, 54), El Deir (IV, 63), Qasr Qaroun (IV, 69), ainsi que ses vues des pyramides (IV, 72 et V, 16). Balzac a représenté Edfou (I, 48), Erment (I, 93), Médinet Habou (II, 14-15), le *Ramesseum* (II, 24), Karnak (II, 18, 46), Memphis (V, 4) et les pyramides (V, 8). L'unique planche publiée par Conté offre une image saisissante du sphinx et de la grande pyramide (IV, 11). Le peu de planches signé par Dubois Aymé est sans doute une conséquence de l'exil à Qosseir qui lui fut imposé par Girard : citons l'obélisque d'*Heliopolis* (IV, 26) et la forteresse de Babylone (IV, 11). Tous ces travaux sont infiniment plus critiques que les foisonnantes évocations qui allaient suivre au cours du XIX[e] siècle : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 143-152. À la rigueur de savants conscients du rôle scientifique qu'ils devaient jouer s'opposera l'imagination débridée d'auteurs plus récents, pour qui l'Égypte ancienne était devenue un sujet propre à susciter rêves et phantasmes. Les planches de la *Description de l'Égypte*, au contraire, sans être dépourvues de poésie et de sensibilité montrent bien que leurs auteurs ne se sont jamais laissé entraîner à des excès quel qu'ait été leur enthousiasme. Il est rare que celui-ci atteigne le seuil de fantaisie qui est celui de la restitution de la grande porte d'Evergète à Karnak : *D.E.*, III, 51.

35 À ces vues déjà citées, on comparera celle dessinées par Chabrol représentant la procession de la barque d'Isis à *Philae* (*D.E.*, I, 11).

36 Sur aucune planche on ne peut observer l'emploi d'instruments topographiques perfectionnés. Les dessinateurs n'ont qu'un simple carton sur les genoux et des crayons. Devilliers, *Journal*, évoque bien l'emploi d'une lunette de visée, mais on ne sait si celle-ci provient du matériel qui put éventuellement avoir été récupéré sur les épaves comme celle du *Patriote* coulé à Alexandrie au début de l'expédition ou s'il s'agit d'une fabrication locale due à l'ingéniosité de Conté.
Sur de nombreuses scènes on aperçoit les savants au travail. Citons celles dessinées par Balzac au *Ramesseum* (*D.E.*, II, 24-26), à Louqsor (II, 24) et à Karnak (III, 18, 46, 56). À Gizeh où on les observe en train de relever le sphinx (V, 8). Cécile les a figurés à Louqsor (III, 2), ainsi qu'à Karnak avec leurs parasols (III, 43), où ils parcourent le site en redingote, sabre au côté (III, 48, 49). On les voit encore à Dendara (IV, 7), Assiout (IV, 46), *Hermopolis* (IV, 51), Gizeh (V, 9, 13) et Alexandrie (V, 32). Dutertre en a donné des images très vivantes à Karnak (III, 17, 20), Assiout (IV, 43), et Memphis (V, 3).

37 L'expression particulière des visages des personnages royaux dessinés par Lancret sur ses planches de bas-reliefs de la salle hypostyle de Karnak (*D.E.*, III, 39) rappelle incontestablement beaucoup plus le portrait de l'empereur des Français au moment où furent gravées celles-ci que le profil de Seti I[er] ou de Ramsès II. L'expression poupine que Le Père confère aux chapiteaux du *pronaos* de

Dendara (IV, 12) ou le visage encore plus bouffi qu'y ont les têtes de la déesse Hathor sur d'autres planches (IV, 29) marquent bien leur époque. Au sujet de ces inévitables altérations selon les époques : TRAUNECKER-GOLVIN, *Karnak*, pp. 99-152 et 205-212. Le Père place dans la salle hypostyle un personnage qui nous évoque plus un éphèbe grec qu'un authentique égyptien (III, 42). D'une façon générale, sur toute les planches, les traits des Égyptiens se trouvent sensiblement « européanisés ».

الفصل العاشر

مصر القديمة في «وصف مصر»

بقلم : كلود تروابكر

في ١٦ أغسطس ١٧٩٩، تغادر القاهرة مجموعة من ستة وعشرين شخصاً. وهؤلاء هم أعضاء لجنتين، الأولى يرأسها عالم الرياضيات فورييه، والثانية يرأسها المهندس كوستاز. وهاتان اللجنتان مكلفتان بجرد آثار مصر القديمة. وهذه الرحلة محصلة لأمنية أعرب عنها بونابارت منذ يناير ١٧٩٩ ؛ فلقد بدا أن القائد العام يرغب في أن يتجه أعضاء المعهد ومختلف أعضاء اللجنة إلى مختلف مواقع مصر، حتى يدرسوا الأشياء الغريبة التي قد يجدونها هناك. والحال أن هذه الرغبة كانت بمثابة أمر. هكذا يروي لنا جولوا، أحد المهندسين الشبان في اللجنة، أصل هذه الرحلة إلى مصر العليا، في يومياته (١). ولم يكن هؤلاء الرجال هم أول أعضاء في لجنة العلوم والفنون يشقون طريقهم إلى مصر العليا. فمنذ أكتوبر ١٧٩٨، كان الفنان دينون قد سار في ركب جيش ديزيه الذي يطارد مراد بك وأنصاره في مصر العليا. ولدى عودته إلى القاهرة، في أوائل يوليو ١٧٩٩، تمكن من إطلاع بونابارت على حصيلته من رسوم العمائر والمناظر الطبيعية في مصر العليا. ومن المرجح أن وجود هذه الأوراق هو الذي عاد على دينون بامتياز مرافقة بونابارت عند رحيله من مصر وعن جيشه بعد ذلك ببضعة أسابيع، في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩. والحال أن نشر رسوم وقصة رحلة دينون سوف يكون مفيداً لقضية بونابارت. لكن هذا الأخير يصدر قبل إبحاره أوامر بأن تتحرك لجنتا مصر العليا بأسرع ما يمكن.

وبعد دينون، ترحل لجنة برئاسة جيرار إلى مصر العليا في ١٩ مارس ١٧٩٩ لكي تتولى القيام بسلسلة من القياسات والملاحظات سعياً إلى تحديد النظام الهيدروجيولوجي للبلد وتحديد وسائل تحسين الري واستغلال الأراضي. ويين أعضاء هذه اللجنة التسعة

يبرز الشاب بروسبير جولوا، المهندس المتعدد التخصصات الفنية الذى يبلغ عمره اثنتين وعشرين سنة والشاب الصغير إدوارد ديفيلييه، تلميذ كلية الهندسة، الذى يبلغ عمره ثماني عشرة سنة بالكاد عند وصوله إلى مصر (٣). ويتحمس الاثنان معاً لعمائر مصر ويتوليان، بمبادرتهما الخاصة، إعداد بيان بجميع الأطلال التى يمكنهما الاقتراب منها خلال مهمتهما، (٤)، ليس دون تحدى نوبات غضب جيرار، غير المنفتح على ما يبدو على الفن القديم.

وقد دام هذا التعاون مدة جد طويلة وإلى اقلامهما ترجع فصول عديدة من «وصف مصر». والحال أن ديفيلييه، الجاد والمجتهد، ينادى زميله الأكبر منه سناً، والذى يشير إليه كثيراً فى يومياته، بصيغة «أنتم». وهما لن يرفعا الكلفة بينهما إلا فيما بعد بكثير، لدى عودتهما إلى فرنسا. وكان التخصص الأول لجولوا هو العمارة. ولذا فإن يومياته، الأكثر انتقالاً إلى الحديث عن أحواله الشخصية من يوميات ديفيلييه، تخصص مساحة واسعة للملاحظات المتعلقة بتقنيات البناء. وعندما يلتقيان باللجنة التى يرأسها كوستاز، ثم باللجنة التى يرأسها فورييه، والتى كانا قد سبقاها، فإن الجميع يقررون توحيد جهودهم وتنسيق أعمالهم (٥).

ولم تذهب هاتان اللجنتان إلى أبعد من الشلال الأول. وكان من المقرر القيام بحملة إلى النوبة، إلا أنه لم يتسن لها أن تتم. (٦) لمَّا عالم الفلك نيكتو، وهو أحد أعضاء اللجنة، فقد تمكن من السير فى أثر الجنرال بيليار، فى تغلغله القصير فى النوبة. (٧) ولدى العودة إلى القاهرة، يجرى توزيع أعضاء اللجنتين على أعمال متباينة، جد بعيدة فى أغلب الأحوال عن الأعمال المتعلقة بالعصر القديم، لكن كل واحد يظل حائزاً للبيانات التى قام بإعدادها(٨). وإلى الجنرال كليبر ترجع مأثرة فكرة نشر جماعى لرسوم ولأعمال وملاحظات لجنة العلوم والفنون (٩).

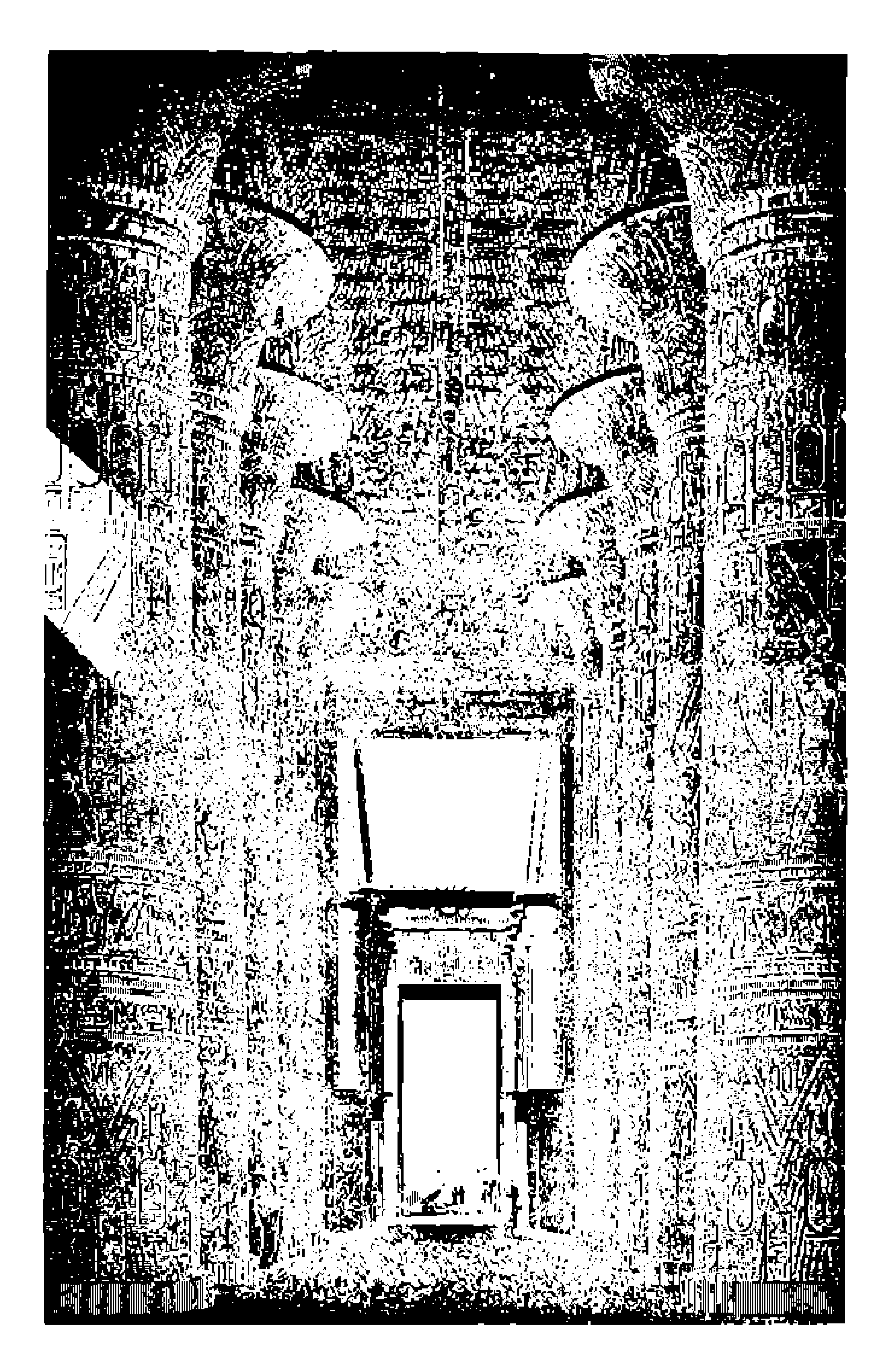
وخلال البحث عن الآثار، يكتشف العلماء والمهندسون الشبان حضارة. لكن استحالة فهم النصوص التى تزين جدران المعابد إنما تمثل عقبة جسيمة. وغالباً ما يكتفى المهندسون بوصف وقياس ورسم الآثار ويظلون جد حذرين فيما يتعلق بالتفسيرات وبالتعميمات التى يمكن استخلاصها منها. وهذه الموضوعية (١٠) تجعل من «وصف مصر» الضخم مرجعاً لا يزال مستخدماً بين الأركيولوجيين. فهو غنى بالمعلومات المهمة المتعلقة

بالمواقع الأثرية التي اختفت أو تهدمت اليوم. ثم إنه يزدحم بالإشارات وبالملاحظات المعمارية التي تعد في الغالب جد ذكية.

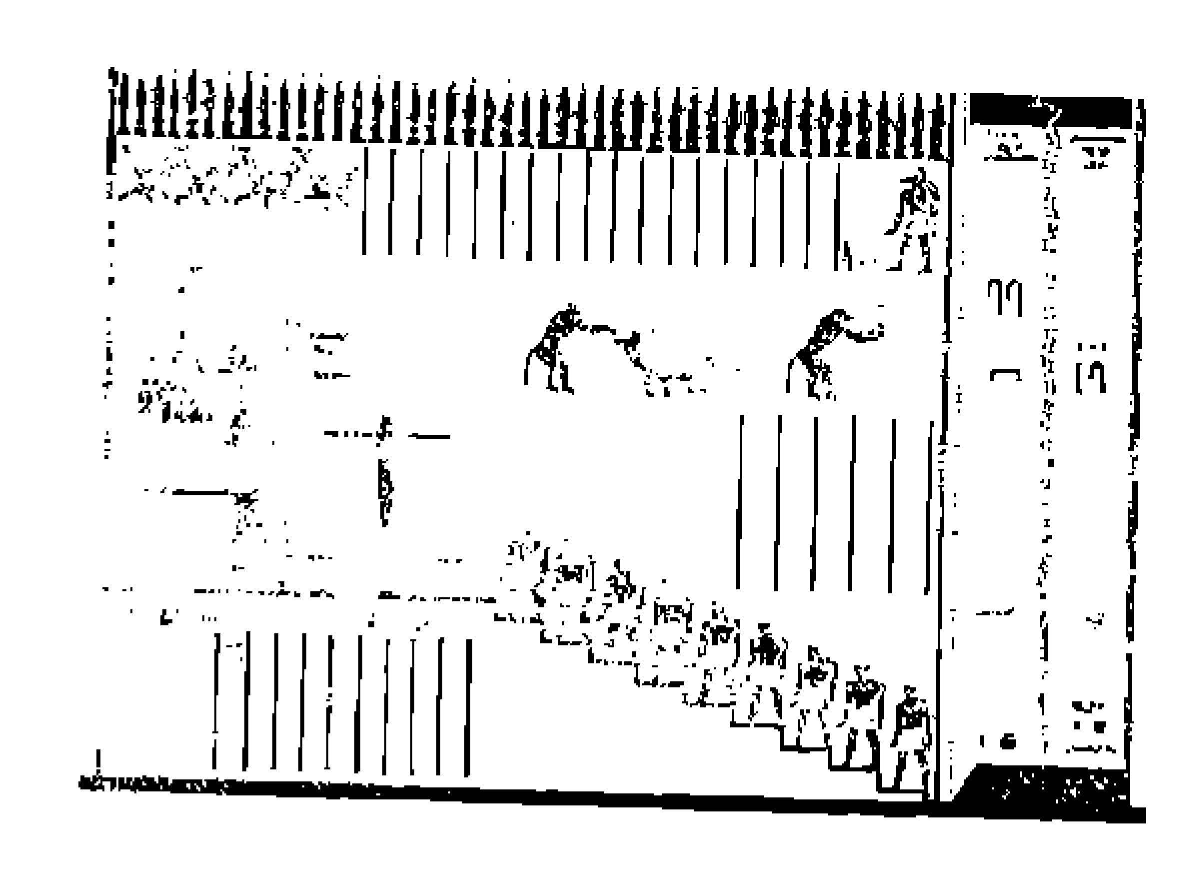
إلا أنه عندما يصادف القارئ المعاصر، هنا وهناك، سعياً إلى التفسير أو محاولة لتحديد وظيفة بناية ما، بل ونظرة إجمالية تركيبية، فإنه يبتسم ويهز كتفيه ويصرف النظر. فالآن وقد أصبح بالإمكان قراءة الكتابة الهيروغليفية ككثير من الكتابات القديمة الأخرى وحيث يفصلنا نحو قرنين من البحوث الإجيبتولوجية من ذلك العصر البطولي، فإن أطروحات جولوا وديفيلييه وجومار ورفاقهم تبدو لنا بالية، إن لم تكن شاذة. على أن التصور الذي قاموا بعرضه على قراء «وصف مصر»، بالرغم من كونه جد بعيد عما نلمحه من الواقع القديم، إنما يعتبر متماسكاً بشكل فريد. وهو انعكاس مصر أخرى، مصر التي حملها في أنفسهم هؤلاء الرجال المنتمون إلى أواخر القرن الثامن عشر، وهي نوع من جنة عدن ينتصر فيها العقل، ملكوت كامل يحكمه ملك حكيم.

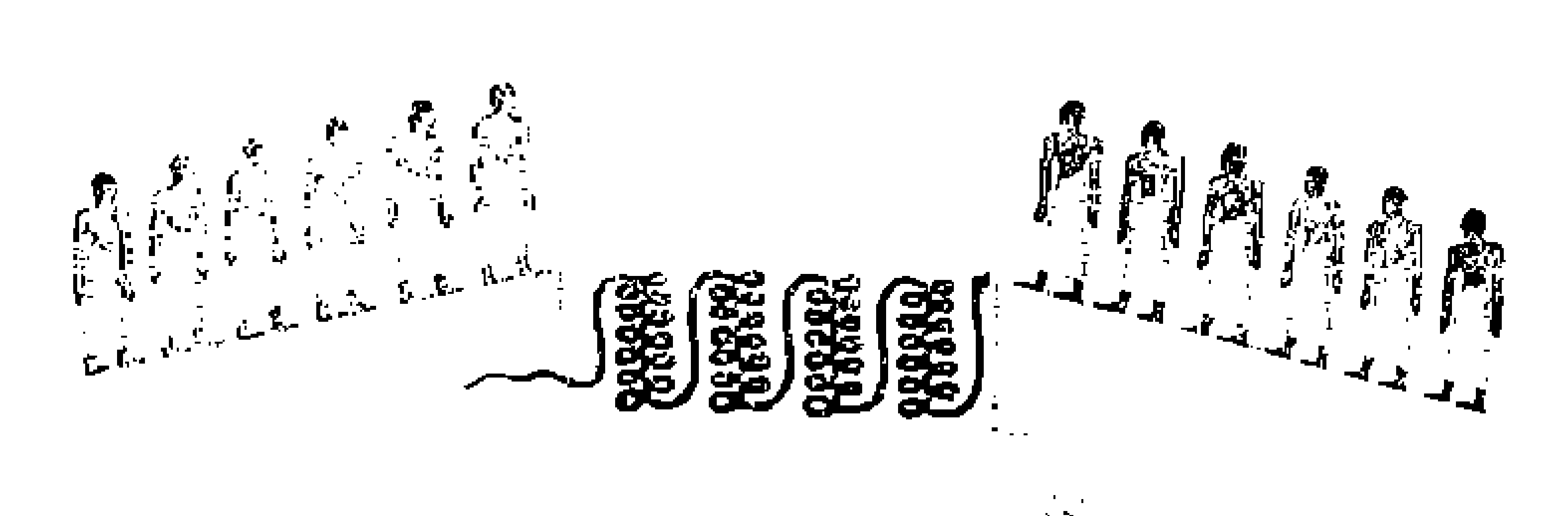
ولما كنت مشغول البال بمصر تلك الغريبة والمثالية في آن واحد، فقد وجدت نفسي ملزماً بقراءة كل «وصف مصر»، سعياً إلى جمع التفسيرات والاستنتاجات النهائية للقدماء. ولابد أن من السهل رسم لوحة للأخطاء والتحليلات الخاطئة، لكن مثل هذه المهمة ستكون ظالمة وسخيفة في آن واحد، إن لم تكن خطرة. فالواقع أن المرء بعد استبعاده بابتسامة رثاء تفسيراً ما ساذجاً بشكل خاص، غالباً ما يضطر إلى الاعتراف بأن الفكرة الرئيسية الماثلة، أياً كان ما تتميز به من جدية وإحكام، إنما تبدو جد فارغة. وكان بوسعي أيضاً أن أبين نقاط النقاط، وهي عديدة، التي تمكن فيها المهندسون وعلماء الهندسة والمعماريون من رؤية الأمور بشكل صائب. لكن مثل هذا النهج كان من شأنه أن يكون متهافتاً و، في نهاية الأمر، مغلوطاً من الناحية التاريخية. وفي المقابل، فإن وحدة مصر الغريبة الصالحة تلك، المنبثقة من الاتصال بين آثار مصر العليا ورجال لم يكن هناك البتة ما أعد لهم سلفاً الاضطلاع بمثل هذه المغامرة، إنما تحفز المرء على تقديمها كما هي.

ومن ثم فإنني أقترح، في الصفحات القليلة التالية، إعادة تركيب الخطوط العريضة لمصر تلك التي يتحدث عنها «وصف مصر»، وسوف أقتصر، في هذا التناول الأول، على أهم حقائق الحضارة.

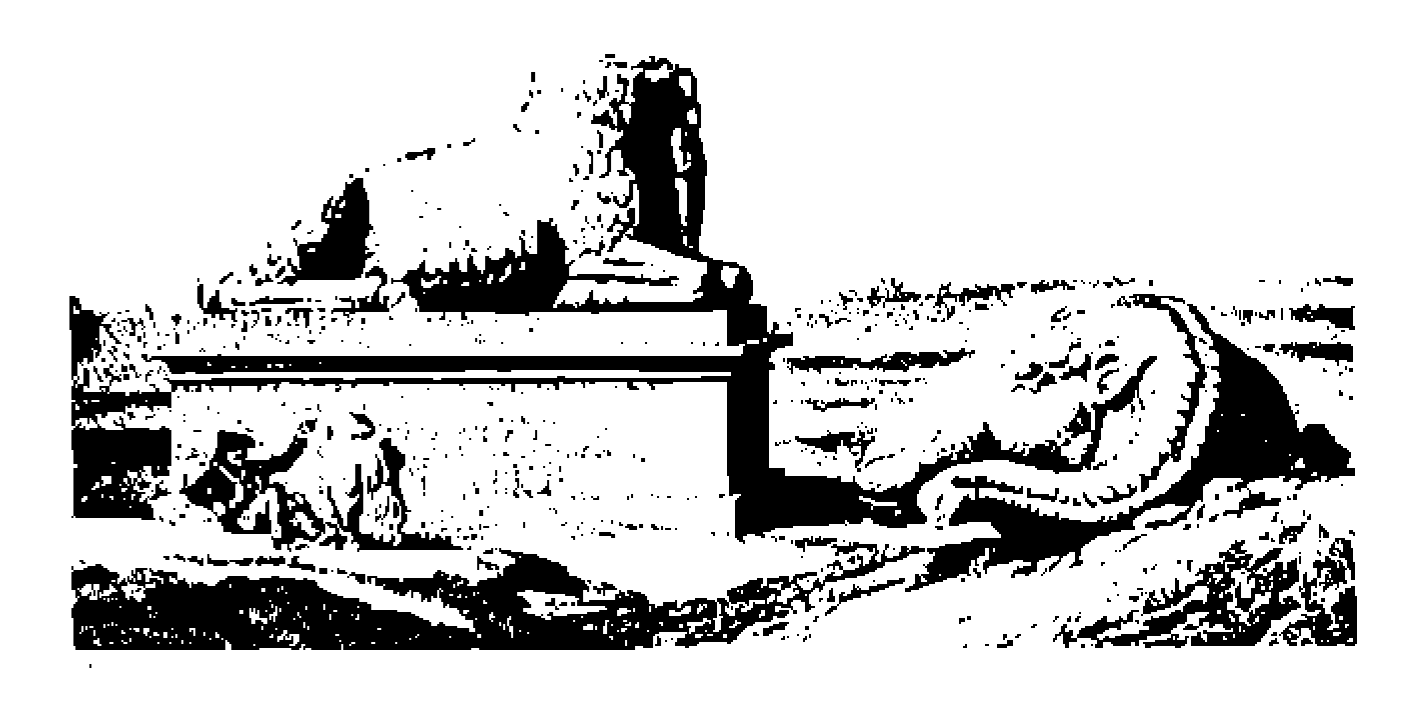


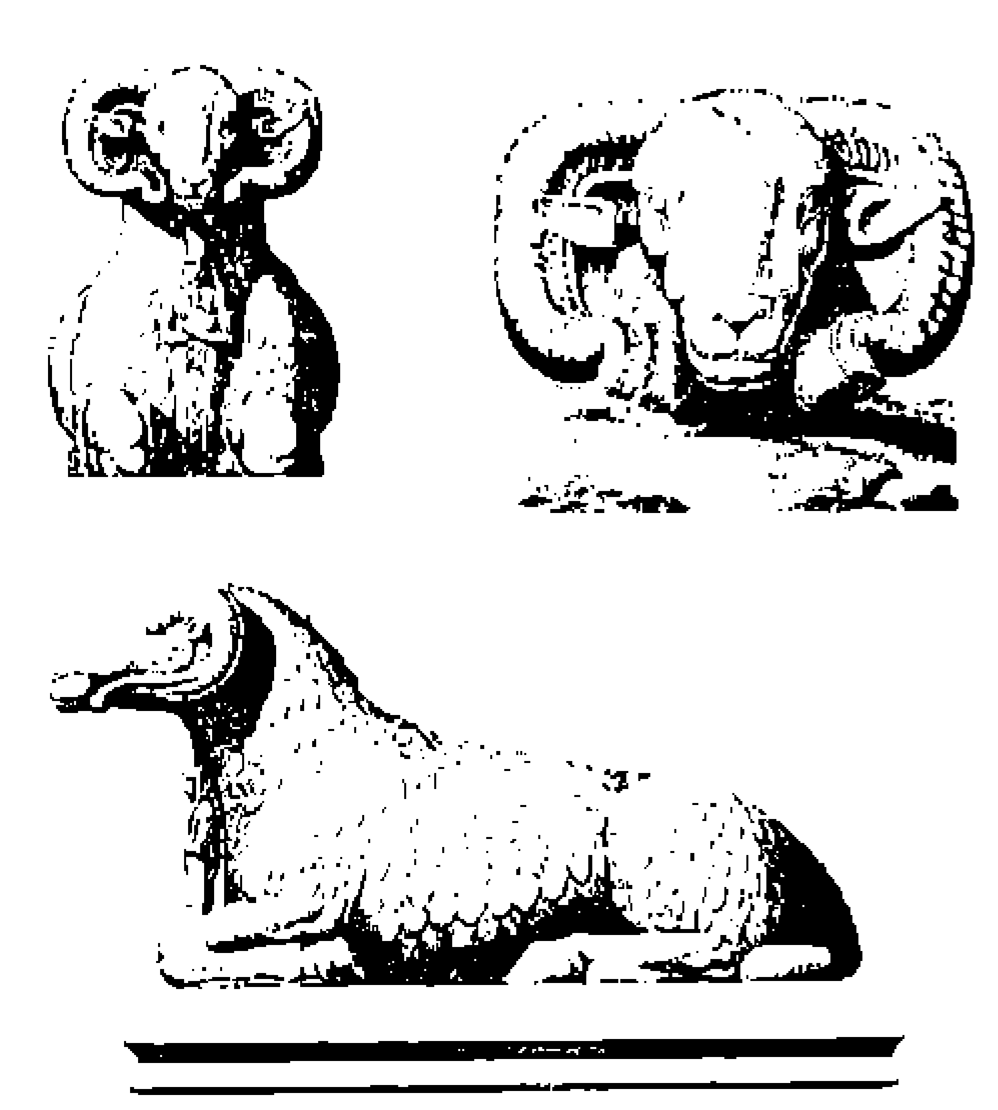
٨١ – القاعة ذات الأعمدة لقصر الكرنك.





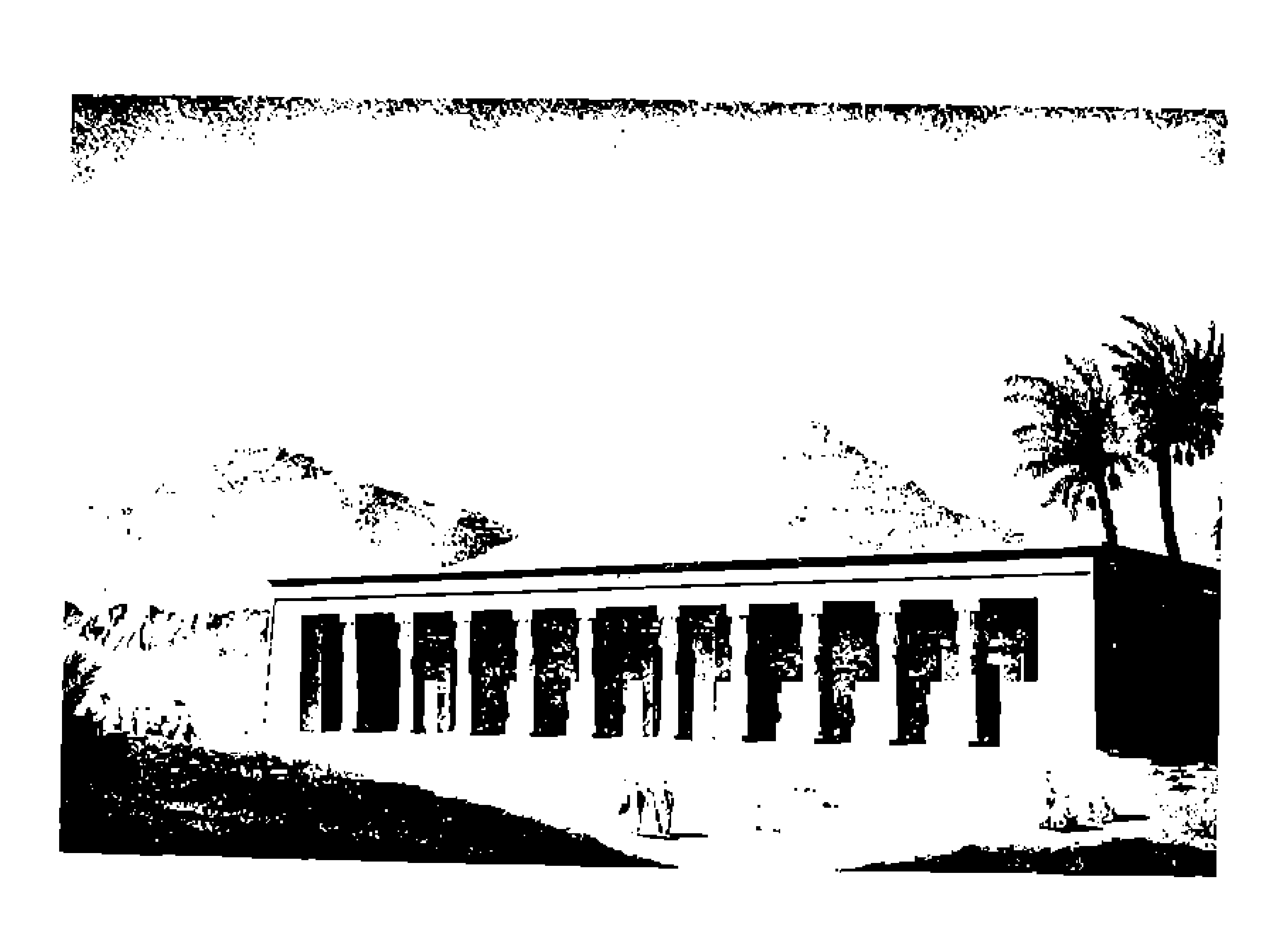
٨٢ - الوجه الجنوبي لمذبح الزورق الجرانيتي.



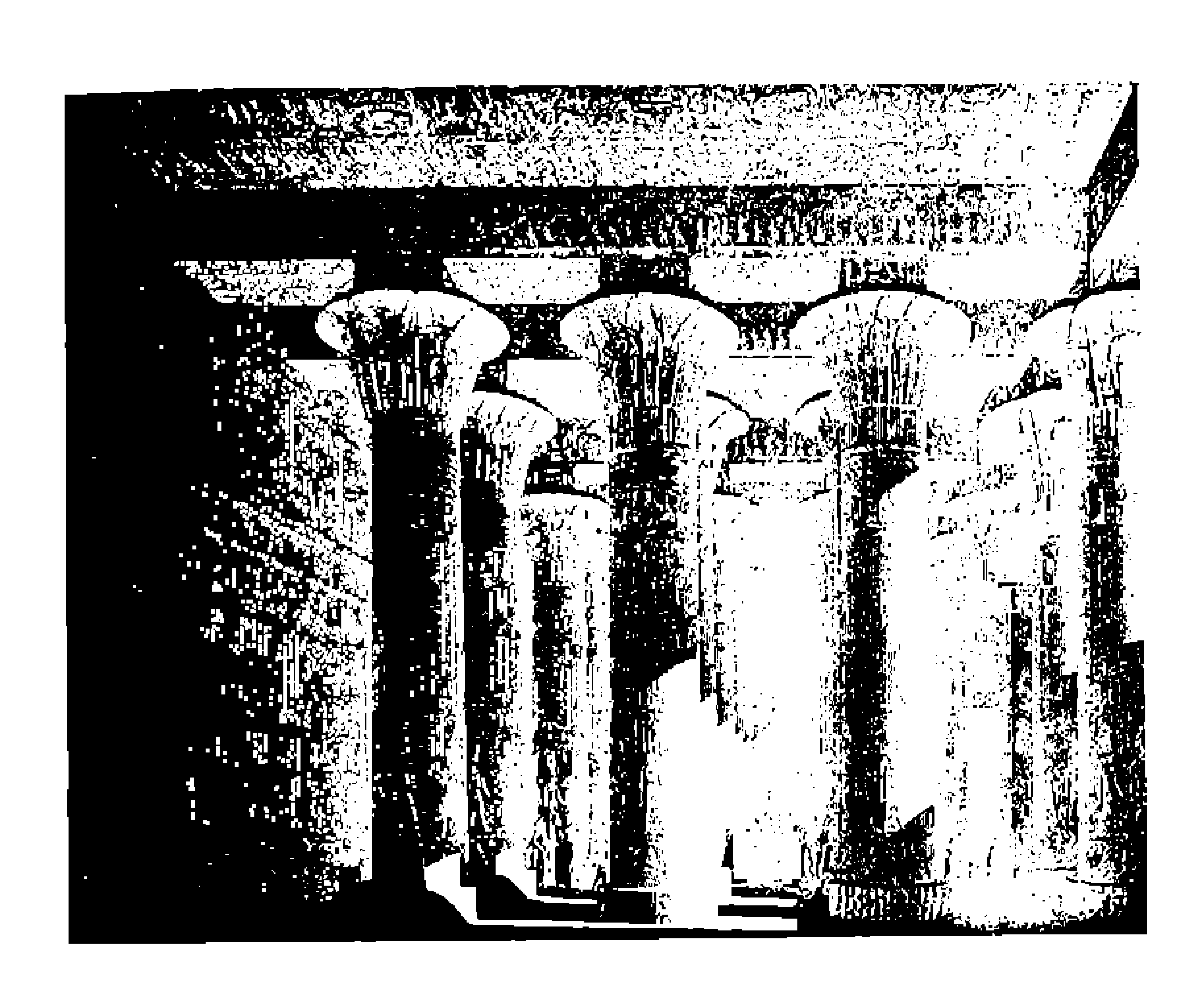


ا

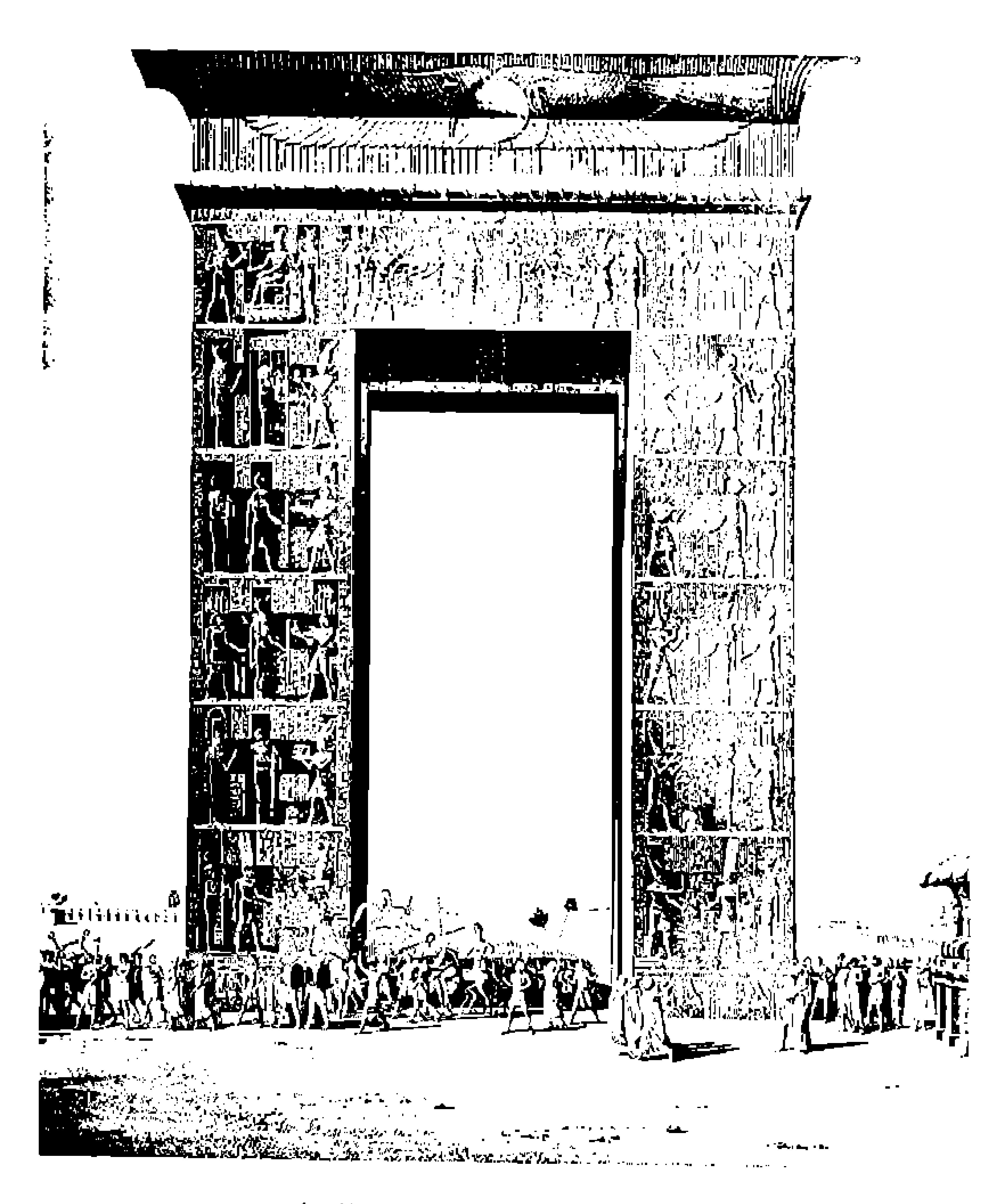
٨٣ - أبو هول كبشي بالكرنك.



٨٤ - قصر الجرنة.



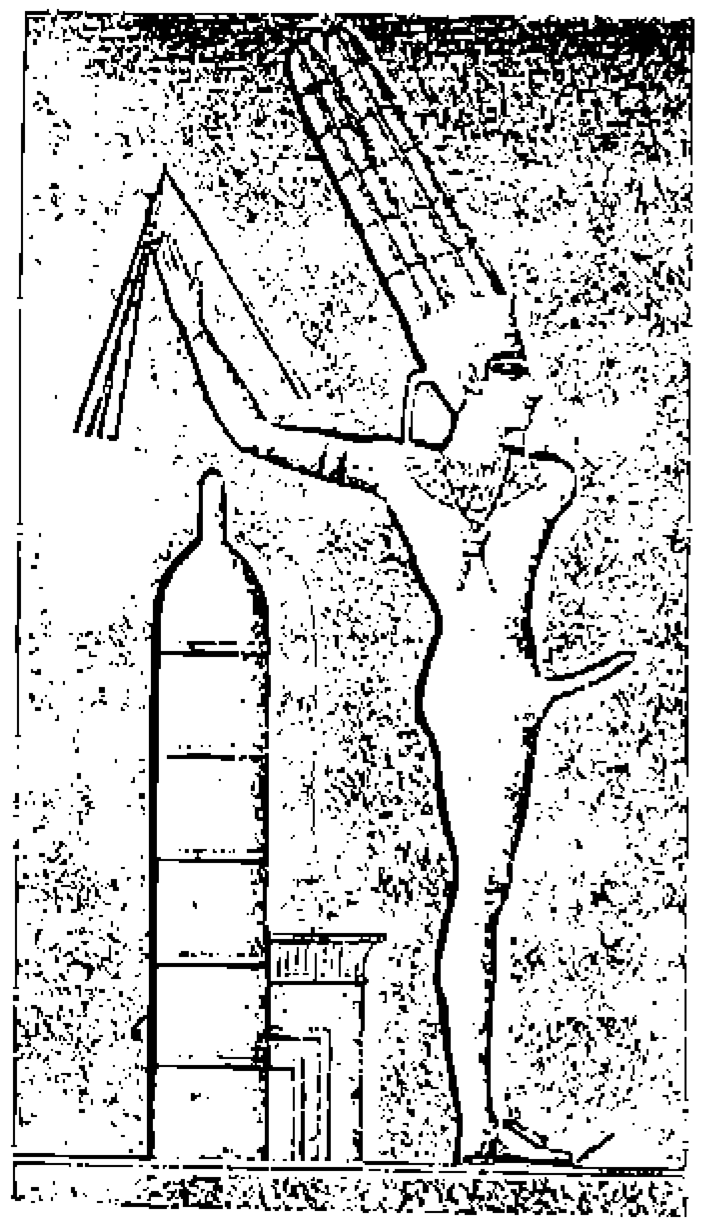
٨٥ – معبد إسنا.



٨٦ – بوابة النصر الجنوبية بقصر الكرنك.



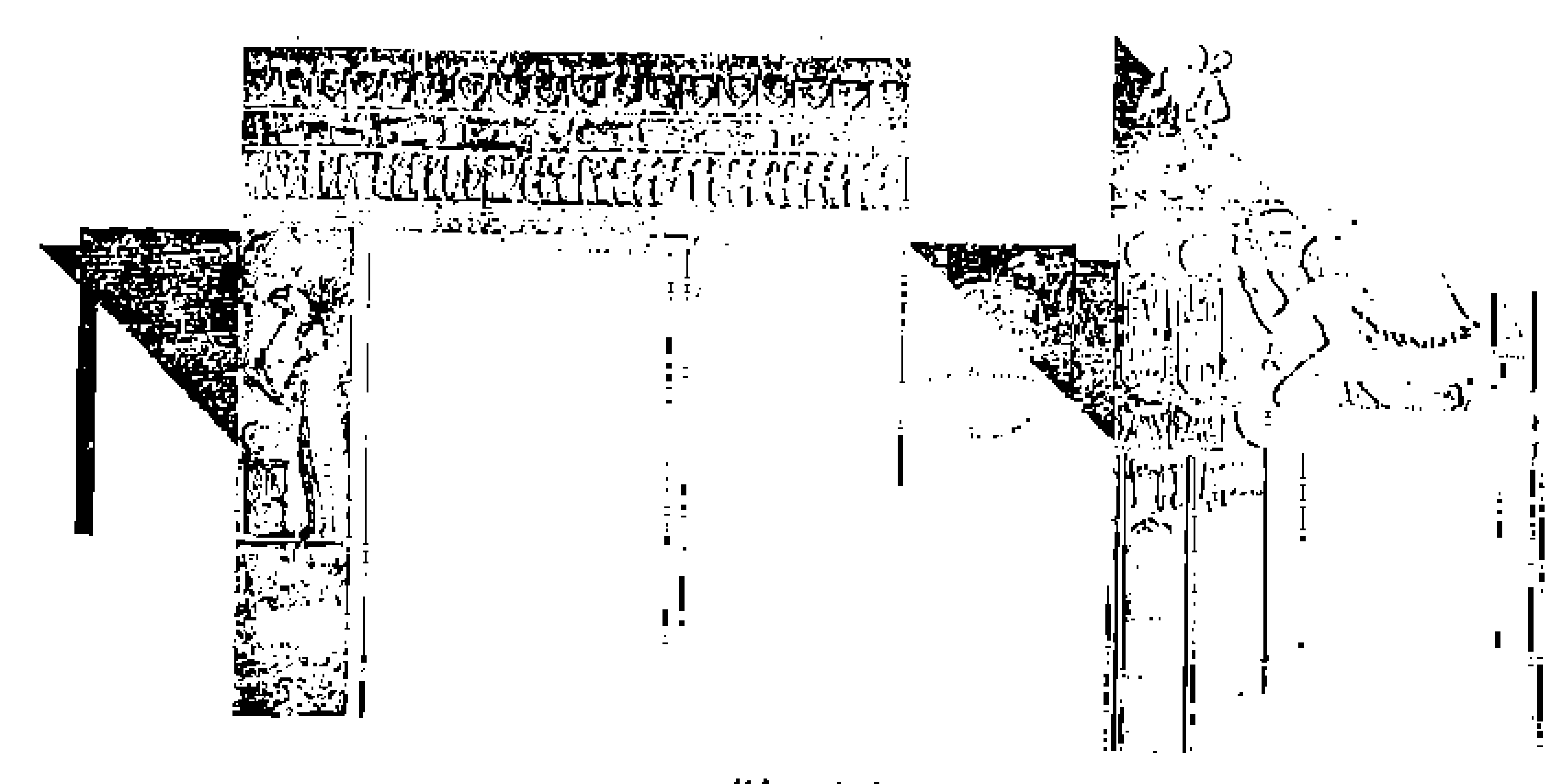
٨٧ – معبد فى دندره.



٨٨ – (أ) هاربوكرات، إله طيبة.



(ب) أحد «الهنود» يحارب فرعون.



(ج) «ملاك».

الملك الحكيم

إن مصر جولوا وبيفيليه وجومار ولانكريه وزملائهم هي بلد تهيمن عليه الحكمة. إن ملوكها يتحلون بأسمى الخصال:

«على مدار قرون عديدة، تمتعت مصر بحكم مستنير وقوي: فالقوانين والأعراف العامة والعادات المنزلية كانت تتبارى في تحقيق غاية واحدة؛ وكانت مؤسسة على إدراك لطبائع الإنسان، وعلى مبادئ النظام والعدل السرمدية التي تعمر بها جميع الأفئدة».

وهذا الحكم «كان ملكياً، مؤسساً على قوانين قديمة ومقدسة؛ لقد جرى تحويل الأمثلة التي ضربها لحكم الملوك إلى أعراف ثابتة» (١١). وهذا النص الذي كتبه فورييه إنما يوجز التصور الذي ساد بين مؤلفي كتاب «وصف مصر» عن الملكية المصرية.

إن الملك، وهو حاكم مثالي، كان قبل كل شيء قائداً عسكرياً يخضع للآلهة. وفي نقش دقيق في مدينة هابو، نجد أن «المنتصر، الجالس على (نوع من محفة مزخرفة زخرفة ثرية)، يحمله على الأكتاف «اثنا عشر رجلاً من الفئة العسكرية» (١٢)، إلا أننا نجد «على جانبيه رموز الخصال البارزة التي تميزه: الأسد، الذي يدل على شجاعته؛ الصقر، وهو رمز انتصاراته؛ الثعبان الذي يشير إلى اتساع فتوحاته وسيطرته؛ أبو الهول، الذي يحيل بلا ريب إلى درايته في كل ما يتعلق بالديانة وبالآلهة» (١٣). فبالنسبة لجولوا ولديفيلييه، كان الملك شجاعاً ومنتصراً وقوياً وحكيماً وورعاً.

والقوة والشجاعة لا قيمة لهما إن لم يتوفر إلى جانبهما دعم الإله وخاصة كهنته. وتشير لوحة للكرنك إلى: «البطل وهو يتلقى الأسلحة من يدي الإله نفسيهما»؛ وهكذا فإن جميع أعمال الملوك المصريين كانت ترتبط بالدين؛ وقد كانوا يستشيرون الآلهة للاضطلاع بحملاتهم البعيدة، وأسفل هياكل وقدس أقداس المعابد كانوا يضعون، عند عودتهم، شعارات غلبتهم. ومن ثم فقد كان للكهنة، في جميع شؤون الحكم، نفوذ لا تسمح لنا النقوش الدقيقة التي تسنى لنا وصفها بالشك فيه، حتى وإن كانت جميع آثار العصر القديم لن تجمع على تأكيد وجوده» (١٤).

ومعبد فناء قصر الكرنك الكبير (١٥) هو في آن واحد مصلى الملك ومكان حفظ الكتابات البطولية التي سوف تملي عليه مسلكه:

«ربما كان هنا، في حرم القصر، المكان الذي كان الملوك يجيئون إليه لتقديم قرابينهم

قبل أن ينكبوا على شواغل الحكم. وهنا، مخاطبين بكل أفراد بلاطهم، كانوا يحضرون هذه الصلاة للنعمة بالمعرفة، والتى كان الكاهن الأكبر يتضرع فيها إلى الآلهة أن تنعم على الملك بجميع الخصال الملكية الحميدة، داعياً إياها أن يكون متزناً ورحيماً وفاعلاً للخير وعطوفاً تجاه الآخرين، وعدواً للكذب. وهنا، عند فتح الكتب المقدسة، كانت تتلى على الملوك نصائح وأعمال العظماء، حتى تكون قاعدة يلتزمون بها فى إدارة الإمبراطورية»(١٦).

وتترك الأعمدة الأوزيرية فى معبد مدينة هابو أثراً عظيماً فى نفس جوليا ودييليبه:

«إن هذه الأنواع من الكرياتيدات [التماثيل التى تستخدم كبديل عن الأعمدة] تضفى على الأثر المعمارى طابع عظمة ورصانة، يستحيل على المرء الا يتأثر بها : ويبدو أنها قد وضعت هناك لكى تذكر البشر القادمين بالخشوع وبالاحترام الذى يجب على المرء الإعراب عنه، وهو يتغلغل فى ملاذات الدين والجلال الملكى هذه» (١٧).

«كيف.. لا يستولى على المرء خشوع دينى وعميق أمام مشهد هذا الجمع للآلهة المجتمعين، بشكل ما، لإملاء شرائع الحكمة وحب الخير للبشر والتى يراها المرء مكتوبة فى كل مكان على جدران القصر ؟» (١٨)

وعلى مسافة أبعد قليلاً، فى القاعة العظيمة التى يستند سقفها إلى أعمدة فى القصر، «كان يجرى تطبيق هذه الشرائع المفعمة بالحكمة والتى رفعت مصر إلى درجة جد سامية من الجلال. وهنا، كان الملوك، المنكبون على شواغل الحكم، يهتمون بتسوية مصالح أبسط رعاياهم؛ وهنا، كان الملك الجالس على عرشه، يفصل فى المنازعات ويستقبل سفراء الأمم الصديقة وإذعان الشعوب المغلوبة؛ وهنا يجرى الثناء على الأبطال، وكان يجرى التهاد الأسرى أمامهم، وكانت الجزية وتقدمات التقرب توضع عند أقدامهم»(١٩).

لكن شواغل الحكم تفرض أيضاً الكتمان والحذر، ومن هنا بعض الترتيبات المعمارية الخاصة.

«ربما كان بهو الأعمدة هذا المكان الذى كانت تعالج فيه الشؤون الكبرى للدولة، والذى كان الملك يأذن فيه لسفراء الأمم الأجنبية بالاجتماع به، ويتلقى فيه جزية الشعوب المغلوبة؛ إلا انه لم يكن مسموحاً البتة الدخول إلى مسافة أبعد فى ملاذ عظمة الملوك هذا وربما كانت كل المنشآت التى تلى بهو الأعمدة مكرسة لما هو سرى ولابد أنها قد ووريت

بحرص عن أنظار الغرباء. ولامراء في أن تلك هي الأسباب التي تبرر وجود حاجز يبدو لنا جد مزعج لأول وهلة(٢٠).

وكان للمعبد والقصر مدخلين بسور، وذلك لأنه :

«كان يتجمع هناك كل أولئك الذين كانوا متصلين على نحو مباشر أكثر بشخص الملوك المقدس وبديانة البلد للدفاع من أغلى شيء عندهم؛ الدين والحكم(٢١).

بل ويبدو، إذا ما صدقنا أ. جومار وهو يتحدث عن أطلال حورات (٢٢)، أن مصر قد تمتعت بنوع من برلمان، إلهي ومدني في آن واحد :

«يبدو لنا أن الهدف الرئيسي للمبنى كان يتمثل في أن يكون مكان اجتماع لولاة أقاليم مصر. وبما أن جميع عناصر الأمة كانت تجتمع هناك، فإننا نرى هناك معابد مقامة لجميع الآلهة، حتى يجد هناك كل إقليم فرصة لممارسة العبادة التي ينتمي إليها. ومن ثم فقد كان هذا المبنى في آن واحد نوعاً من مجمع للآلهة ومكاناً يعالج فيه قادة الدولة الشؤون السرية. والسرية التي يبدو أنه كان لابد لها من أن تهيمن على مداولاتهم، إنما تتخذ شكلا محسوساً في عتامة الممرات التي كان على النواب اجتيازها حتى يصلوا إلى دواوينهم الخاصة.

«ومن المرجح أن تلك كانت هي الوظيفة الخاصة للتيه [الممر السرى]؛ وهو ما لا يحول دون الاعتراف بأنه كان مكرساً لإله الشمس؛ وبأن الملك منديس أو إماندس كان له قبر هناك، أو كذلك للملوك الآخرين الذين أسهموا في بنائه؛ كما لا يحول أخيراً دون الاعتراف بأن قاعات أدنى مرتبة قد استخدمت في دفن التماسيح المقدسة» (٢٣).

الملك المنتصر والشعب

لقد كانت الخصال الحربية الحميدة وتقوى الملك أمثلة ثابتة بالنسبة للشعب. إن مشاهد المعركة التي نقشت على الواجهات الخارجية للبوابة الضخمة لمعبد الأقصر «والظاهرة دائماً أمام أعينهم [...] كانت تبث [في صدور المصريين] حب المجد واحتراماً مصوناً لملوكهم، وتبجيلاً عميقاً للآلهة، في المعابد التي كان هؤلاء الفاتحون يضعون تحت أقدامها في تواضع رموز انتصار حملاتهم البعيدة» (٢٤).

وفي مدينة هابو، نجد أن زائراً قديماً، لا مراء في أنه «محارب» قد سعى «وقد تأثر

بالمآثر السامية التى نقشت صورها على جميع أسوار القصر، إلى أن ينتقل اسمه إلى الأجيال التالية بنقش اسمه «بالأحرف القبطية» قرب صورة «البطل» (٢٥).

وكانت واجبات الملك تتصل ليس فقط ببلده وبآلهته، وإنما أيضاً بأسلافه :

«لقد بجل الملوك الآلهة بتزيين المعابد؛ وقدموا التحية إلى ذكرى أجدادهم بترميم وتجميل وتوسيع قصورهم القديمة، وأشبعوا زهوهم الشخصى بالتفوق على أسلافهم فى الترف وفى البذخ» (٢٦).

وأخيراً، فعندما كان الملوك يموتون، كان قبرهم يصبح «مستودع جميع معارف مصر القديمة... وهناك كان يجرى تصوير الخدمات التى أدوها للوطن، والأعمال التى عادت عليهم بالمجد فى الحرب، والجزية التى كانوا يجبونها من الشعوب المغلوبة، والعلوم والفنون التى قاموا بتشجيعها وبحمايتها» (٢٧).

قصر أم معبد ؟

«أين هى دور هؤلاء الملوك جد المبجلين بحيث إن حكمتهم قد وضعتهم فى مصاف الآلهة ؟» (٢٨). لم يكن من السهل، بسبب الجهل التام باللغة، تحديد الآثار المعمارية التى يجرى الوقوف أمامها. هل هى معابد أم قصور ؟. واعتماداً على كتابات كتاب قدماء، خاصة كتابات سترابون، يحاول جولوا وديفيلييه تحديد الخصائص المعمارية المميزة للمعابد وللقصور :

«إن المعابد هى، بشكل ما، زوايا معزولة وسرية كانت تمارس فيها الأسرار الأكثر احتجاباً للديانة المصرية؛ إن السراديب المحفورة تحت بلاطها، وفى الجدران التى تحيط بها لا تدع أى مجال للشك فى ذلك» (٢٩).

ووفقاً لهذا التعريف، فإن مجمع الكرنك المعمارى لا يمكن أن يكون معبداً ! وبالنسبة لهؤلاء الرجال المنتمين إلى أواخر القرن الثامن عشر، فإن مكان العبادة إما أن يكون مكاناً يمكن فيه للمؤمنين ممارسة عبادة علنية، أو مكاناً سرياً، زاوية مقصورة على المطلعين على أسرار الديانة.

وفى هذه الظروف، فمن الطبيعى تماماً اعتبار الكرنك قصراً كبيراً :

«إن السؤال الذى يثور لدى المرء بشكل طبيعى تماماً عندما يطوف بهذا المبنى،

والذى يثير بأبلغ حيوية فضول الرحالة، هو معرفة الوظيفة التى كانت مستهدفة من ورائه. ويبحث المرء، حتى فى أدق التفاصيل، عن كل ما يمكنه إلقاء ضوء ما على هذا الموضوع. ولما كان المرء غريباً عن أعراف وعادات المصريين القدماء، فإنه لا يمكنه فى أغلب الأحيان إلا أن يغامر بتخمينٍ فى الوقت الذى يسعى فيه المرء إلى يقين. وتثبت جميع شواهد التاريخ أن المصريين كانوا شعباً عميق التدين، وأنهم فى جميع عادات الحياة المدنية قد سمحوا بتغلغل الروح التى تهيمن عليهم، تقريباً : ومن هنا يجب للمرء أن يستنتج أن المساكن الخاصة كان عليها أن تقدم، فى زخارفها، آثاراً للعبادة الممارسة بوجه عام فى مصر؛ ومن هنا تنشأ، فى كثير من الحالات، صعوبة التمييز بين مساكن البشر ومعابد الآلهة.

حين بدأنا هذه الكتابة، افترضنا تقريباً أن أثر الكرنك المعمارى عبارة عن قصر : وبوسع المرء أن يرى الآن أن ذلك ينتج بوضوح من الوصف الذى قدمناه له؛ وإذا ما درس المرء الأمور بانتباه، فسوف يجد قليلاً من العلاقات بين هذا الأثر المعمارى والمعابد المصرية، كتلك التى تسنى لنا بالفعل الإشارة إليها. فما هى العلاقة، فى الواقع، بين توزيع الرواقات وتوزيع القاعات التى تستند أسقفها إلى أعمدة، بين غرف الملوك الخاصة وأماكن العبادة ؟ وهل يوجد، مثلاً، فى الغرف الجرانيتية المفتوحة من جميع الجهات، شىء يذكر بالتوزيعات المعتمة والتى تكتنفها الأسرار والتى تتميز بها معابد إدفو ودندره ؟

لكن موضوعات النحت، بحكم الأسباب التى أشرنا إليها آنفاً، قد تلقى شيئاً من انعدام اليقين فيما يتعلق بالتمييز بين المعابد والقصور ، على أن هناك قاعدة لا استثناء لها، وهى أن المرء لا يجد فى المعابد غير نقوش دقيقة تتصل بالدين أو بعلم الفلك، الذى كان الدين مرتبطاً به ارتباطاً أساسياً؛ وذلك فى حين أن القصور تقدم، بالإضافة إلى تلك موضوعات تتصل بمشاهد مألوفة، ونقوشاً دقيقة تاريخية تشير إلى الحروب وإلى الفتوحات التى قام بها ملوك مصر القدماء.

والنتيجة التى نستخلصها من كل هذه الملاحظات ومن كل المقارنات، هى أنه لا شك هناك فى أن أثر الكرنك المعمارى الكبير كان قصراً. ومن المرجح أن الملوك الذين أقاموا فيه كانوا يقضون جانباً من النهار فى القاعات التى تستند أسقفها إلى أعمدة وفى أبهاء الأعمدة، حيث كان الهواء يتحرك بحرية وحيث كان المرء يجد ملاذاً من الحر؛ وكانوا يأوون خاصة إلى الغرف الجرانيتية » (٣٠)

ولكن لماذا لا يتحدث سترابون، فى وصفه لطيبة، إلا عن معابد ولماذا لا يشير بالمرة إلى قصر الكرنك ؟

«لا مراء فى أن ذلك إنما يرجع إلى أنه توجد، فى معابد الكرنك والأقصر، زاوية صغيرة، تبدو كما لو كانت معبداً، وذلك من حيث الاعتناء الذى بنيت به ومن حيث اختيار المواد وثراء التماثيل. إن هذا المبنى الذى أقام فيه الملوك متى كانت مصر محكومة بملوك مصريين، قد تمكن الكهنة من الاستيلاء عليه فى زمن سيطرة الفرس والبطالمة والرومان لتخصيصه للعبادة وحدها...»

وعند زيارة سترابون، أدت الوظيفة الروحية إلى «عدم السماح بدخول الأجانب إليه. ومن جهة أخرى، فكيف يمكن تصور أن الملوك، الذين كان المصريون يبجلونهم تبجيلاً بالغ العمق، لم يكن بوسعهم الإقامة فى قصر لا يقل عظمة وزهوا وديمومة عن المعابد نفسها التى أقيمت للآلهة ؟» (٣١)

على أن هذه التفسيرات كانت بالرغم من كل شىء مترددة وأحياناً ما يتواصل الشك فى أوصاف جولوا وديفيلييه. وهكذا، فيما يتعلق بموضوع «الغرف الجوانية» (٣٢)، «يبدو أن كل شىء يشير هنا إلى مكان محاط بالأسرار والتبجيل، لم يكن يحق الدخول إليه إلا للكهنة أو لوزراء الملك» . (٣٣)

وفيما يتعلق بإدفو، يقدم جومار حجة أخرى : إن تمثيلات الجياد، النادرة فى زخرفة المعابد، غزيرة فى زخرفة القصور (٣٤) ؛ لكن المقابلة بين عمارة قصر مفتوح يدخل الهواء إليه من جميع الجهات وعمارة المعابد المغلقة والمصمتة، إنما يتم، بوجه عام، التمسك بها عن طيب خاطر، وذلك إلى درجة أن جولوا وديفيلييه، عندما تختفى الأسوار الجانبية، يؤثران تجنب اتخاذ موقف (٣٥).

القصــــر

إن القصر، شأنه فى ذلك شأن المعبد، تؤدى إليه بنايات ضخمة فخيمة كالمداخل التى تصطف على جانبيها تماثيل أبى الهول والمسلات. وتحت تأثير النموذج الكلاسيكى، يرى جولوا وديفيلييه فى تماثيل أبى الهول فى الكرنك - الشمالى وفى الأقصر تماثيل كائنات أنثوية. (٣٦) أما فورييه فهو، فى يومياته، أكثر حذراً وأكثر دقة فى آن واحد : رأس بشرى أو رأس حمل، أو جسم حمل برأس أسد (٣٧). وبالنسبة لجولوا وديفيلييه، فإن «الزخارف ليست البتة نتيجة الهوى أو المصادفة ؛ على العكس، إن كل شىء هناك إنما يكمن وراءه

نائم» وتماثيل أبى الهول هذه إنما تمثل من ثم «رموزاً مفعمة بالمعنى وبالحكمة، وهى رموز مؤسسة على دراية عميقة بظواهر الطبيعة». إنها صور زودياكية ولابد أن هذه المداخل قد بنيت لكى «تذكر بالعصر الفلكى الذى كان فيه الحمل السماوى يحتل اعتدال الخريف». وعندما بنى المصريون هذه الرواقات، كان هدفهم من وراء ذلك هو أن «ينقلوا إلى الأجيال التالية مؤشرات أكيدة على معارفهم الرفيعة فى مجال علم الفلك» (٣٨).

أما المسلات المقامة أمام واجهة المعبد الخارجية فهى أنواع من نذور يقدمها الشعب احتفالا بانتصارٍ ما :

«إلا أنه يبدو من المؤكد أيضاً أن بعض المسلات كانت نصباً تذكارية أقيمت تمجيداً لملوك عظماء، للحفاظ على ذكرى الشعوب التى غلبوها، وعلى ذكرى لأشكال الرفاهية العظيمة التى تمتعوا بها، وعلى ذكرى الجزية التى فرضوها على الأمم المغلوبة. وغالبا ما كانت هذه المسلات المنحوتة من قطعة حجر واحدة هبات تقدمها إلى المعابد شعوب مصر : لقد كانت تشهد على حب الرعايا للملك وعلى تمسكهم بالدين». (٣٩)

ويرفض چولوا وديڤيلييه الفكرة التى تذهب إلى أن المسلات قد تكون مزولات شمسية، كما كان قد قيل ذلك، فوضعها أمام بناية كان غير مناسب بالمرة لهذا الاستعمال. وفى المقابل، وبما أنهما قد ميزا فى النقوش التى تزين المسلات بعض علامات الزودياك، فإنهما يريان «أن من المرجح تماماً أن المصريين القدماء قد سجلوا عليها، بلغتهم الهيروغليفية، معارفهم فى مجال علم الأفلاك السماوية» (٤٠)

أما البوابات الضخمة، بوابات القصر المماثلة لبوابات المعابد، فإنها مأخوذة من «قلاع حصينة» قديمة، سوف تكون قلعة مدينة هابو آخر شاهد عليها : «الواقع أنها لابد وأنها سبقت بناء العمائر المقدسة؛ وهكذا فإن المصريين قد وضعوا فى آثارهم المعمارية لأشكالا من العمائر التى كان عليها أن تذكرهم بالحياة الحربية التى عاشوها فى البداية» (٤١). وقد حدد چولوا وديڤيلييه بشكل جيد وظيفة التجويفات الموشورية الشكل والتحززات المميزة لواجهات البوابات الضخمة : لقد كانت تخدم فى تركيب ساريات مزينة بالأعلام. ويتأسس هذا التحديد على مقارنة العمائر بتمثيل واجهة البوابة الضخمة الثانية للكرنك والذى يزين جدار معبدٍ جنوبى (معبد خونسو) (٤٢). وإذ يرصد چولوا وديڤيلييه وجود زخرفة فى أسفل الكوى، فإنهما لا يترددان فى الاعتقاد بأن هذه «الساريات لم تكن ثابتة وأنه لم يكن يجرى وضعها إلا فى مناسبات خاصة وفى أيام أعياد معينة» (٤٣).

أمـا الحجرات المـرتبة فـى بعض البوابات الضـخمـة فهى لا يمكـن أن تكـون غيـر مساكن[٤٤]. والحال أن لانكريه، فى دراسته لبوابات فيلة الضخمة، إنما يرى فيها مساكن الحراس ومستودعات لأجهزة الرصد الخاصة بالكهنة الفلكيين (٤٥). والواقع أن البوابات الضخمة، فى المعابد، إنما تخدم أيضاً كمرصد فلكى (٤٦). وكثيراً ما تم العثور فى هذه الحجرات على بقايا مومياوات، أكان ذلك فى إدفو أم فى فيلة، لكن هذه الاكتشافات لا تكفى لاعتبار هذه الآثار مقابر (٤٧).

وفى الكرنك، فى الفناء الذى يلى البوابة الضخمة الأولى، ينتصب المعبد الذى يلعب دور كنيسة صغيرة فى القصر :

«لقد حددنا حتى الآن باسم المعبد الأثر الذى وصفناه؛ ويمكن الآن الاعتراف بكل صواب هذه التسمية؛ فهى تنبع من عين شكل التخطيط الهندسى، والتوزيع الداخلى، ونظام الحركة. إن التشابه التام لهذا المبنى مع المعبد الجنوبى الكبير لا يدع مجالا للشك فى أنه كان مخصصاً للعبادة المصرية» (٤٨).

وقد رأينا أعلاه وظيفة هذا المبنى، فهو مكان تلقى الملك للإلهام من الآلهة، كما رأينا وظيفة البهو ذى الأعمدة والذى كان الملك يعقد الاجتماعات ويستقبل فيه السفراء الأجانب.

لكن المبنى الأوسط فى القصر هو القاعة التى يستند سقفها إلى أعمدة. وفى الكرنك، يحيط تمثالان ضخمان بمدخل القاعة العظيمة التى يستند سقفها إلى أعمدة :

«هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التمثالين الموجودين فى مدخل البوابة الضخمة واللذين يبدوان تقريباً، بحكم وضع أحدهما فى مواجهة الآخر، حارسين للقصر، إنما يقدمان تمثيل آلهة معينة، أو أيضاً مجرد تمثيل ملوك وأبطال لهم صفات إلهية» (٤٩).

أما فيما يتعلق بالقاعة نفسها فهى فى آن واحد ساحة تذكارية ومقر لحكم الملك المسترشد بوصايا الآلهة :

«هنا، ربما كانت تتلاقى هذه التماثيل الثلاثمائة والخمسة والأربعون للملوك الأحبار، المولودين كلهم أحدهم للآخر، والذين عرضهم الكهنة المصريون لهيكاتييه لتفنيد الزعم الكاذب الذى راوده لرد نسب عائلته إلى أحد الآلهة (هيرودوت، الجزء الثانى، الفصل ١٤٣). فما أكبر عظمة المكان التى لابد وأنها قد تزايدت من جراء اجتماع هذه التماثيل الضخمة !!

«لقد أوردنا أعلاه الفقرة التى تشير إلى الملك وهو يمارس مسؤولياته فى القاعة التى يستند سقفها إلى أعمدة (٥٠)» «هنا أخيراً كانت تدور جميع المشاهد الجليلة التى مازلنا نراها ممثلة على جدران القصر نفسها» (٥١).

ومن بين هذه المشاهد، شد انتباه جولوا وديفيليه المشهد الجدارى الداخلى الذى يصور الملك وهو يحتفل بالقداس أمام زورق آمون الذى يتحرك فى موكب، فى الداخل الغربى للقاعة التى يستند سقفها إلى أعمدة، على الجهة الشمالية (٥٢) :

«ربما [...] لا يعتبر هذا النقش الدقيق كله غير نادر، وربما كان للملوك أو الأبطال المصريين قد أمروا بأن تنحت، فى القصر الكبير فى طيبة، لوحات من نوع اللوحات التى وصفناها، عند نجاتهم من خطر محدق، أو عند إحرازهم هدف رغباتهم المشتهاة أكثر من سواها» (٥٣).

وبعد أن ينجز الملك واجبات مسؤوليته، فإنه يخلد إلى الراحة فى حجراته الصغيرة «الجرانيتية». وهى «مكان عامر بالأسرار ومحل تقديس» لا يدخله غير عدد نادر من الأشخاص المميزين (٥٤)، وهو مزين «بمشاهد مألوفة» وبلوحات «تتصل بالقربان وبالصداقة» كما تتصل «بموضوعات غرامية» «تصور شخصاً، لا شك فى أنه ملك، جالس إلى جانب زوجته، التى يبدو أنها تعانقه برقة» (٥٥). ويمكن أن تبدو مشاهد تلقين لأسرار الديانة على أحد الجدران الداخلية لهذا الأثر المعمارى (٥٦).

وكانت خدمة القصر تتطلب عدداً مهماً من الخدم الذين لابد وأن تحركاتهم كانت جد سرية قدر الإمكان. وهذه الرواقات المخصصة للخدم جد واضحة فى قصر أبيدوس ؛ «التخطيط الهندسى يدل على رواقات جد ضيقة، ومن ثم فإنه يكاد يكون من غير الممكن للمرء متابعة المنحنيات دون أن يتوه. وليس من السهل بدرجة أكبر تحديد الهدف من ذلك»... «على أن بوسع المرء افتراض أن هذه الأنواع من الرواقات كانت مخصصة لخدمة رجال القصر، شأنها فى ذلك شأن الرواقات الضيقة التى نراها فى قصورنا» (٥٧).

أما فيما يتعلق بالأشـــخاص البارزين الذين كانوا يـعيـشون فى حاشيـــة الملك، فمن الواضح أنه كان لابد من إسكانهم، وقد خصصت بنايات عديدة من قصر الكرنك لهذا الهدف. وفى المنطقة الوسطى للأثر، رصد جولوا وديفيليه «غرفتين صغيرتين أو حجرتين شبه مربعتين يبدو أنهما كانتا سكناً خاصاً»... «وربما كانتا سكناً للكهنة الذين لم يكونوا يفارقون الملك، أو أيضاً سكناً لمقاتلين كانوا يحرسون شخصه المقدس» (٥٨). وبالنسبة للمهندسيّن، فإن للمبنى الذى يشرف على البوابة الضخمة العاشرة كان «سكناً خاصاً»(٥٩).

وعندما ينجز سكان القصر مهامهم ويفرغون من واجبات مسؤوليتهم، فإنهم يمكنهم أخيراً أن يخلدوا إلى الراحة. ووفقاً لجولوا ولديفيليه، فإن القاعة الصغيرة التى يستند سقفها إلى أعمدة والتى تقع شرقى الغرف الجرانيتية «كانت مكاناً لالتقاء جميع

الأشخاص الذين كانوا يسكنون داخل القصر؛ وربما كانت أيضاً قاعة يتم فيها عرض آثار الفنون والمفروشات الثمينة التى ترك لنا المصريون القدماء نماذج منها فى مقابر الملوك وفى تلك المنحوتات التى تزين القصر الذى نصفه» (٦٠).

إلا أنهم ربما كانوا يؤثرون استنشاق الهواء فى الخارج على مصاطب القصر الفسيحة : «لقد كان بالإمكان أن تكون روايات استراحة كان سكان القصر القدماء يجيئون إليها، عند انتهاء النهار، لاستنشاق الهواء العليل؛ ولعلهم كانوا يقضون هناك ليالى الصيف الجميلة، التى يستريح خلالها حتى أيامنا هذه سكان مصر الحاليون على مصاطب بيوتهم» (٦١).

وينطبق هذا الوصف على قصور الكرنك والأقصر الطيبية العظيمة. لكن ملوك البلاد كانوا يتمتعون أيضاً بمساكن أكثر تواضعاً.

وليس هناك شك بالنسبة لهولوا ولديفيليبه فى أن أثر الجرنة المعمارى كان «مسكناً ملكياً». فارتفاع واتساع القاعات وأسلوب توزيع الأضواء، تعتبر كلها مختلفة فيه عما يراه المرء فى المعابد (٦٢).

«إن المرء لا يجد هنا لا تماثيل لأبى الهول ولا مسلات ولا تماثيل ضخمة... ولا يرى المرء هناك البتة بوابات ضخمة، ولا أبهاء أعمدة واسعة؛ ولا شىء يشير إلى أبهة القصور العظيمة فى طيبة : إن كل شىء، على الضد من ذلك، بسيط، ويبدو أن المهندس المعمارى حريص على بناء سكن ملائم ومناسب لأكثر متطلبات الحياة اعتيادية. ووسط هذه البساطة نفسها، يثير انتباه المرء ملمح عظمة معين، لا يدع مجالا للشك فى أن مبنى الجرنة كان سكنا الملك : فاتساعه وزخارفه وطبيعة المواد المستخدمة فى بنائه قد تطلبت نفقات تتجاوز إمكانات أغنى الأفراد» (٦٣).

وأخيراً، لابد من الإشارة إلى وجود قصور محصنة، كقصر مدينة هابو حيث «يدل كل شىء على سكن محصن للفاتح مزهو بنجاحاته» (٦٤).

المعابد

إن المعابد، وهى آثار معمارية صارمة الملامح لديانة متقشفة وعامرة بالأسرار، إنما تتميز بوجود غرف صغيرة معتمة تحيط بقدس الأقداس المركزى (٦٥).

ولا يبدو أن المهندسين والفنيين قد حاولوا تحديد نماذج تخطيطات المعابد. ولابد من

معروفة أن قاعات العبادة فى عدة عمائر كمعابد إدفو ودندره وخونسو لم يكن بالإمكان دخولها بالمرة. ويكتب جولوا وديفيليبيه «إن توزيع المعابد لابد وأنه كانت له صلة حميمة بالطقوس التى كانت تقام فيها، ومن ثم، بالديانة نفسها» (٦٦). وفيما بعد، عند مقارنة تخطيط معبد بتاح بتخطيط إحدى غرف معبد الجرنة، فإنهما يتصوران أنهما قد رصدا فى التوزيع الثلاثى مؤشراً على مكان عبادة. (٦٧) ولم تكن المعابد ذات وجهة مميزة، على الرغم من أن جومار يرى أن الوجهة العادية هى وجهة الشرق (٦٨). والمصطلحات المستخدمة هى المصطلحات التى استخدمها سترابون : بروبيليه (مدخل معبد يونانى)، ناوس (الجزء الداخلى من معبد رومانى)، بروناوس (مقدمة هيكل)، سيكوس، التى يعلق عليها جولوا وديفيليبيه بإسهاب (٦٩).

أما زخرفة وعمارة المعبد خاصة المنحوتات التى تزين أعمدة الأبهاء، فهى موجهة إلى «تذكير البشر الفانين بالخشوع والاحترام الذى يتوجب على المرء إبداءه عندما يدخل إلى هذا الحمى للديانة وللجلالة الملكية» (٧٠). ولما كان المعبد دعامة للدين وللملكية، فإنه يجب أن يكون متين البنيان (٧١)، ويجب حمايته، أحياناً، بسور حصين (٧٢).

فما الذى كان يُعبد فى تلك البنايـــات ؟ إن جولوا وديفيليبيه يتحدثان بحذر عـــن «صورة» الإله الموضوعة فى كوة فى قلب المعبد (٧٣). ويعبر جومار عن الرأى نفسه.(٧٤) وبقدر أقل من الاحتراس، فإن لانكريه يطابق بين الناوسات الحجرية الباقية فى المجال فى قاعات العبادة فى معبد إيزيس فى فيله والأوكار الحجرية للصقر المقدس (٧٥). والحال أن فورييه يتقاسم، فى يومياته، هذا الرأى (٧٦).

وكان يجرى استخدام القاعات ذات الأسقف المستندة إلى أعمدة فى المعابد فى عرض الصور الإلهية على الشعب. ويكتب جولوا وديفيليبيه بشأن معبد إسنا : «كان الكهنة يعرضون هناك صورة الإله محركين خشوع الجماهير؛ وكان هذا المكان مكاناً وسيطاً بين الكهنة والشعب، مكاناً مقدساً، ويجب تحريمه على نظر الغرباء نفسه» (٧٧). وعلى هذا النحو، يفسران وجود جدران بين براح الأعمدة، وهو تنظيم جد مميز للعمارة المصرية وأثار دهشة الزائرين كثيراً فى عام ١٧٩٩ (٧٨). وفى القصور، رأينا آنفاً أن هذه الجدران - الصواتر كانت تستخدم كستارة لحجب الملك ووزرائه عند معالجتهم لشؤون الدولة.

وفى المعابد، لم يكن بالإمكان استخدام المصاطب لراحة الكهنة. ووجود مزاريب ضخمة يشكل نشازاً فى بلد من الواضح أن مناخه بلا أمطار : «يبدو لى أن الشىء الأرجح

تماماً هو أن هدفها إنما كان يتمثل في صب الماء الضروري للوضوءات وللتطهيرات التي كانت الديانة توصي بها في حالات معينة ، إن هذا الماء كان يتدفق من المعبد نفسه وكان يعتبر أكثر روحانية وأكثر فعالية» (٧٩).

والحال أن البحيرة المقدسة إمَّا أنها كانت تستخدم في وضوءات الكهنة (٨٠)، أو أنها كانت تستخدم كمقياس للنيل (٨١).

ولم تكن الأكشاك المقامة في أفنيـــة المــعـابد مسـقوفة دائماً وذلك بالنظر إلى اتساعها(٨٢). وكانت هذه العمائر الغريبة مكرسة للإله ست الذي يزين وجهه الصارم تيجان الأعمدة (٨٣).

وبالنسبة لديانة قائمة أساساً على تأمل الأفلاك ورصد الظواهر الطبيعية (٨٤)، كان من الطبيعي أن يشكل جزء من المعبد مرصداً. وفي دندره، فإن «غرفة الزودياك يبدو أنها كانت نوعاً من قدس الناس، نوعاً من مكان مكرس لتأمل الأفلاك ولتمثيل الظواهر الأرضية التي ترتبط بالظواهر السماوية. وربما كانت سكن أحد الكهنة المصريين الذي انشغل بشكل خاص بدراسة السماء، في خدمته لمعبد دندره» (٨٥).

وفي فيلة وإدفو، كانت البوابات الضخمة تستخدم كمراصد (٨٦).

وكما هو الحال بالنسبة للقصر، فقد كان لابد من توفير سكن لخدمة المعبد. ويروق لجومار أن يتخيل «الكهنة القدماء [...] المقيمين في المعبد، وهم يتنزهون تحت هذه الرواقات العالية ويتكبون على تأملاتهم الحكيمة» (٨٧). وهناك أيضاً، كان من الممكن أيضاً للغرف المرتبة في البوابات الضخمة أن تخدم كمسكن (٨٨). بل إن جولوا وديفيلييه يفكران في تخصيص الزوايا الباهرة في معبد دندره لهذه الوظيفة :

«إن الغرف الصغيرة الغامضة ليست أقل تزييناً بالمنحوتات من الممر. ولكن ما عسى تكون وظيفتها ؟ هل كانت مخصصة لسكن الكهنة الذين يخدمون المعبد ؟ أم أن كل واحدة منها كانت مخصصة لأحد الآلهة العديدة التي كان الشعب المصري يعبدها ؟ ليس من السهل تحديد ذلك. وربما كانت لها وظيفة أخرى تماماً، لا يسمنا مجرد تخيلها وذلك بالنظر إلى عدم الوضوح الذي تركه لنا القدماء عما كان يجري في الزوايا الأكثر سرية في المعابد المصرية» (٨٩).

ويبدو أن بعض المعابد كانت لها وظيفة تلقي للوحي بشكل أساسي، كما هو حال معبد قصر قارون، الواقع على منفذ الدرب الذي يقود إلى معبد سيوه الشهير المخصص

لتلقى الوحى (٩٠). ومن المرجح أن الثنية للمعابد كانت تستخدم فى هذه الوظيفة (٩١)، وهو ما ينطبق على بعض الرواقات الغامضة التى تشكل امتداداً للمعبد كما فى الماميزيس الرومانى فى معبد دندره، «وربما كان يجرى عبر ذلك دخول الكهنة الذين كانوا يتلقون فى المعبد وحى الآلهة» (٩٢)

وأخيراً، هل من الممكن أن للمعابد كانت أماكن للدفن ؟ إن هذا السؤال قد شغل كثيراً جولوا وديفيلييه وزملاءهما. وهم يقترحون، بين أمور أخرى، هذا التفسير لزاوية الزودياك فى معبد دندره : «ربما كان هذا المكان أيضاً مكان معبد كانت لأوزوريس فيه مقبرة؛ فنحن نعرف، وفقاً لشهادات هيرودوت وديودور الصقلى، أن مقابر هذا الإله كانت جد مقدسة وجد كثيرة فى مصر، وأن المدن المهمة التى لم تكن بها مقبرة له هى مدن قليلة» (٩٣).

وربما كان المعبد الصغير فى مدينة هابو مقبرة. وقدس أقداسه يحتوى على منحوت حجرى مقلوب ولم يكن بالإمكان «الوصول إلى تحديد، بشكل إيجابى، لماذا إذا كان [هذا المنحوت] واحدة من تلك الزوايا التى نجدها عادة فى المعابد والتى كانت توضع فيها الحيوانات المقدسة». والحال أن عدة رحالة وعدداً من زملاء جولوا وديفيلييه قد حددوه على أنه تابوت حجرى. ويستنتج هذان الأخيران «أنه يترتب على ذلك عندئذ أن الغرفة التى تحتويه كانت مخصصة للدفن» (٩٤).

أما فيما يتعلق بمعبد دير المدينة، فإن المهندسين قد اقتنعا بأنه كان كذلك مقبرة. وتحتوى إحدى القاعات على مشهد وزن الأرواح، وبالاستناد إلى ديودور وهيرودوت، يستنتجان : «إن كل شىء يدفع من ثم إلى الاعتقاد بأنه عندما كان كبار الكهنة يموتون كانت مومياواتهم توضع فى داخل هذه التماثيل الخشبية [التوابيت] التى كانوا، خلال حياتهم، يضعونها فى المعبد» (٩٥).

المدينـــــة

من الواضح أن أطلال إقليم الأقصر هى أطلال طيبة، المدينة الملكية الشهيرة التى كان بوسويه يحلم باكتشافها، قبل أكثر من قرن من الحملة [الفرنسية] (٩٦). إلا أنه لا يبقى غير القليل جداً من أشياء المدينة التى كانت تحيط بالقصور وبالمعابد. فكيف يمكن تخيل

العاصمة الشهيرة من خلال الآثار النادرة الباقية ؟ إن اللوحة التى رسمها مؤلفو «وصف مصر» إنما تجرنا إلى عالم أقرب إلى مدينة إمبراطورية رومانية مما إلى حاضرة شرقية.

ويعد أن فند جولوا وديفيلييه الافتراض القديم الذى ذهب إلا أن «المصريين القدماء لم يشيدوا عمائر إلا للآلهة، وأن جميع السكان كانوا يسكنون خياماً منتشرة حولها» (٩٧)، بوصفه افتراضاً سخيفاً، فإنهما يلذ لهما مقارنة طيبة بالمدن الرئيسية القديمة (٩٨)؛ لكن هذه المقارنات تتعلق بالعمائر بأكثر مما تتعلق بالمدينة نفسها، حيث يظل مجمع الكرنك هو النموذج. ويستبعد جومار بجرة قلم الفكرة القديمة التى ذهبت إلى أن المقابر كانت مساكن، بما يفصح عن «الطابع السوداوى للأمة». وبما أن بوسع الناس الاستفادة من مساكن مبنية من الحجر، فمن المرجح للغاية أن الآثار القليلة المحيطة ببهو الأعمدة، خارج حرم الكرنك – الشمالى، كانت مساكن خاصة (٩٩). وبالنسبة لجومار، فإن أهل طيبة كانوا يسكنون «بيوتاً من القرميد» جد متواضعة. أما عمائر الشعب الحقيقية فهى المقابر، مثلما كانت المعابد والقصور هى عمائر الدولة (١٠٠).

ومن المؤكد أن المرء يدهش لغياب سور (للمدينة) : «هل كان لطيبة سور عام، وهل لا تزال توجد بعض بقاياه ؟» (١٠١). لقد كان من الصعب التسليم بفكرة مدينة مفتوحة. على أن جولوا وديفيلييه يقترحان أمام عدد وتبعثر الأطلال، افتراض مدينة مكونة من سلسلة من الكفور أو من الضواحى ويستشهدان دعماً لتوضيح افتراضهما ببعض قرى مصر العليا (١٠٢). وقد كانت مساحتها أكثر من ضعف مساحة القاهرة ونحو نصف مساحة باريس (١٠٣). أما فيما يتعلق بالبيوت، فبالإمكان تحديد نموذجها من تمثيلات فسيفساء باليسترينا، ولكن كيف يمكن لهذه الوثيقة التى ترجع إلى فترة انحطاط أن تعيد تكوين صورة البيوت المصرية «فى زمن أكثر إيغالا فى القدم» ؟ (١٠٤)

وتتمثل وظيفة الجمال فى بث مشاعر الإعجاب والخشوع فى نفوس الشعب ؛ ويكتب فورييه فى مقدمته التاريخية : «لقد كانت العمارة تتميز بطابع وقور وجليل؛ وكان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت وعلم الفلك يبث خشية الآلهة ويبث التقوى والخشوع»(١٠٥). ومن ثم فإن المدينة هى المكان المميز الذى يمكن فيه للجمال أن يؤدى وظيفته الاجتماعية. ومن هنا دهشة لانكريه أمام عمارة آثار موقع جد مقفر كجزيرة فيلة، والتى «تتميز بتنفيذ جد محكم كما لو أن الملك قد أقامها فى وسط عاصمته» (١٠٦). ويميل جولوا وديفيلييه إلى تصور أن التماثيل العديدة المبعثرة بقاياها على أطراف الصحراء كانت

مخصصة لتزيين المدينة : «لقد كانت كافية لأن تزين زينة رائعة جميع الأماكن العامة لمدينة كبيرة» (١٠٧).

وفى المقابل، فإنهما لا يترددان أمام آثار مالجاتا : إن هذه الساحة الواسعة الكبيرة التى تحيط بها سلسلة مزدوجة من ركام الأطلال كانت ساحة استعراض للمدينة الملكية :

«لقد كانت مضماراً، ساحة شاسعة لإله الحرب، حيث كان يجرى تدريب القوات على استخدام الأسلحة، وعلى سباقات العدو، وعلى سباقات الخيل والعربات، و، بوجه عام، على جميع التطورات العسكرية. ومن هذا المكان كانت القوات المصرية تنطلق، فى ظل أسرة أو سمانديلس وأسرة سيزوستريس، إلى فتوحات مؤكدة. وهناك كان عدد غفير من الناس يكرم الشجاعة والبراعة بمكافآت وبتصفيقات. وهناك أخيراً كان الناس يتعلمون حسن التصرف وتقديم كل شىء من أجل رفعة الدين والوطن» (١٠٨).

أما فيما يتعلق بالمعبد الصغير فى شمال الساحة، فإنه «ربما كان المكان الذى كان الظافرون فى المباريات العلنية يجيئون إليه لتقديم الشكر إلى الآلهة عن الانتصارات التى أحرزوها» (١٠٩). كما كان بالإمكان عرض الأبهة العسكرية على الجمهور. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأطلال ربما كانت بوابات نصر، تدل الرحالة القادمين من الجنوب «على عاصمة مصر القديمة، وذلك بأسلوب مهيب تماماً» (١١٠). وفى الاتجاه نفسه، فإن البوابة المقامة أمام «معبد الجنوب»، فى مجمع قصر الكرنك، هى بوابة نصر (١١١). وفى إحدى لوحات «وصف مصر» (١١٢)، يصور لانكريه جيش فرعون وهو يتقاطر تحت هذه البوابة بعد أن اجتاز طريق الكباش الذى يسبقها. ثم «يتوزع» الموكب فى اتجاه الجنوب، ويتحرك الملك على الأرجح للعودة إلى مقره فى وسط قصر الكرنك. ويقف ثلاثة من الكهنة، جد متأثرين، لاستقبال الملك. ويحتمى جمع جد قليل بظل البوابة، ويتحرك عاشقان ويختبئ طفل بين الكباش. ووراء ذلك، فإن سهل طيبة، شبه المهجور، ينشر طرقه التى لا نهاية لها وهى طرق تماثيل أبى الهول وتماثيل الكباش والتى تتحرك بينها بعض وحدات الجيش.

فلماذا عرفت هذه المدينة الموجودة فى مصر العليا مثل هذا المصير ؟ يقدم جولوا وديفيلييه سببين. أما السبب الأول فهو دينى : إن طيبة «قد اجتذبت، فى عصور محددة، جمعاً من الحجاج : ولابد أنه قد ترتب على ذلك بالضرورة نشاط عظيم فى العلاقات، وقد تسنى لقرابين الحجاج الإسهام فى زيادة بهاء العمائر. وبهذا الشكل، مثلاً، شهدت روما الحديثة إقامة كاتدرائية القديس بطرس الرائعة بالاعتماد على جميع ثروات الجماعة المسيحية» (١١٣).

وأما السبب الثاني فهو اقتصادي : إن ازدهار طيبة وكل مصر إنما يرجع إلى التجارة، وبالأخص التجارة مع الهند : «إن المصريين قد قاموا بالتجارة مع الهند، منذ أقدم العصور القديمة» (١١٤). ووفقاً لجولوا وديفيليه، فإن العاصمة المصرية كانت على نحو ما استشرافاً لبالميرا، المدينة التي جاء ثراؤها أيضاً من التجارة مع الهند (١١٥)، لكنها بوجه خاص «أول وأجمل ثمرة معروفة للقوة والثروات التي تعود بها التجارة على الشعوب التي تزاولها» (١١٦).

المجتمـــع

أمام صورةٍ لرفع سارية مِين في معبده (١١٧)، يتساءل جولوا وديفيليه عن مغزى هذه الصورة الغريبة. هل هي صورة للمجتمع المصري ؟ لابد أنهم كانوا «يريدون هنا تصوير مشهد الاطلاع على أسرار إيزيس، مبدأ ومصدر الحكمة والحقيقة، التي كانت رموزها مرفوعة على السارية. وهذه الشخصيات التي توجد ريشة على رؤوسها، والتي تشد إلى أعلى السارية، هل تتألف من مطلعين على الأسرار يشار إلى درجة علمهم بالمكان العالي الذي وضعوا فيه ؟ وهؤلاء الرجال الذين لا يتميزون بأية ميزة محددة، والذين يبدو أنهم يدعمون السارية، ألا يمثلون الشعب، الذي ينحصر دوره في مجرد الإبقاء على بنيان الدين، دون أن يكون له أي حق في ادعاء معرفة أسراره ؟» (١١٨).

إن الشعب، على الرغم من كونه قد حُكم عليه بالبقاء في الجهل، لم يكن على أية حال مستبعداً عن الدين. وصور القرابين التي تزين جدران المعابد والصور مصحوبة بنصوص هيروغليفية ربما كان بعضها يعبر، وفقاً لفورييه، عن «مشاعر الورع التي كان لابد للشعب أن يتحلى بها» (١١٩). فبالنسبة له، لا توجد أية حاجة إلى تأويلات سامية، لأن مشهد أبهة الملكية ورصانة الطقوس الدينية يكفيان لتربيته. والأعياد الكبرى هي مصدر تسلية له. وأخيراً، فإن وجود مومياوات الأسلاف في بيت الأسرة إنما يمثل «مشهداً مثيراً، قادراً على حفزه إلى أن يكون نداً لأسلافه [...] ناهيك عن الفائدة الأدبية الموجودة لدى المشرع، بتعويده الأذهان على فكرة وصورة الموت وبعدم تركه للموت أي شيء بوسعه أن يكون منفراً منه» (١٢٠)

ووفقاً لهيرودوت، فإن المجتمع المصري ينقسم إلى فئات مغلقة على نفسها :

للزارعون والعسكريون والكهنة. ومن ثم فإن جومار يدهش إذ يجد في مقبرة واحدة مشاهد زراعية مجاورة لتمثيلات عسكرية. فهل يتوجب وضع المعلومات التي نقلها هيرودوت موضع الشك ؟. يستنتج جومار : «إننا سوف نتوصل إلى فهم الأمر عندما يتسنى لنا أن نقرأ بشكل مناسب الأشكال الهيروغليفية المصاحبة لكل صورة» (١٢١). وأياً كان الأمر، فإنه يرى أن النساء لابد وأنهن كن مستبعدات من مجامع الكهنة، لأنه «سوف يكون من السخف تصور أنهن كان بوسعهن المشاركة في الشواغل المعرفية والمهام الخطيرة للكهنة المصريين» (١٢٢).

إن الأشكال الهيروغليفية التي تغطي جدران المعابد والقصور هي كتابة. ووفقاً لجومار، فإن حروف الكتابة العادية السريعة على البرديات مستمدة من الأشكال الهيروغليفية الموجودة على العمائر (١٢٣). وبالنسبة لهذا الكاتب نفسه، فقد كان يجري استخدام نوعين من الخط من الكتابة : الأولى سرية، وتخص الكهنة وحدهم، والثانية يستخدمها الشعب (١٢٤). أما فيما يتعلق بالبرديات التي تم العثور عليها في المقابر، فلابد من الاعتراف باستحالة تحديد محتواها. لكن جومار يأمل أن تكون متضمنة لجميع علوم ومعارف مصر : القانون، الفلك، التاريخ الطبيعي، الميكانيكا، وهو يعترف بأن كل من يفسرها «إنما يسير على خطى الدراسات التي يميل إليها». وإذا ما حدث، لسوء الحظ «أنه لا يوجد فيها مع ذلك غير نصوص صلوات وشعائر، فسوف ينكب المرء على الأقل على أن يستخلص منها دراية باللغة الحقيقية للبلد» (١٢٥). وأخيراً، فإن هذا الكاتب نفسه، الذي حيره حجر أجر مصنوع اكتشف في مدينة الأموات، ينسب إلى المصريين فضل تجريب الطباعة (١٢٦).

وقد زعم البعض أن المصريين القدماء كانوا ينتمون إلى الجنس الأسود (١٢٧)، أو حتى الصيني. ويكتب آخرون أنهم من جنس الأقباط نفسه. ويرفض جومار هذه الافتراضات. فهو يرى أنهم ينتمون إلى ذلك الجنس الذي ينتمي إليه عرب مصر العليا الحاليون. وحتى إذا كان المرء يقابل، هنا أو هناك، تمثيلاً لشخص ذي سمات زنجية، «فإن المرء لا يمكنه مع ذلك أن يستنتج أن المصريين كانوا ينتمون إلى الجنس الزنجي»، يواصل جولوا وديفيلييه ساخرين، «بقدر ما أنه لا يمكنه أن يستنتج أنه كان بين صفوف هذا الشعب أناس لهم رؤوس ابن آوى أو صقر أو إيبيس، لأنه يرى هذه الأنواع من الأشكال منحوتة على العمائر. ألا نعرف غرام المصريين بالأشكال الرمزية ؟» (١٢٨).

لقد كان المصريون مسالمين ومفعمين بالنزعة الإنسانية. وكانت عبادة الحيوانات المقدسة خرافة «ترتب عليها على الأقل الأثر السعيد الذي يتمثل في إلهام وصون رقة الأعراف» (١٢٩). وحتى في ساحة المعركة، فإن النزعة الإنسانية لا تفقد ما لها من حقوق: ففي مشهد حربي في قصر مدينة هابو، نرى جنديا مصريا يصل به الأمر، في اندماج الرحمة والرأفة، إلى أن «يمد يديه إلى عدو يرجو الشفقة». ثم إن المصريين عندما يقطعون أيدي وأعضاء الأعداء التناسلية، فإنهم لا يفعلون غير مسايرة عادة مألوفة في إحصاء القتلى ويمتنعون تماماً من استخدام هذه العادة مع الأسرى الأحياء (١٣٠). أما فيما يتعلق بمشاهد ذبح الأعداء، والممثلة كثيرا على واجهات القصور والمعابد، فإنه لا يجب النظر إليها إلا على أنها رمز، إما للتذكير بالقرابين البشرية القديمة أو للإشارة إلى ثأر الفوادين ومعاقبة الجناة (١٣١).

إن مصر الحافلة بالأسرار هذه هي في آن واحد بعيدة وقريبة. بعيدة في الزمان، ولكنها قريبة بتأثيرها، فكل شيء مصدره مصر (١٣٢). وبالنسبة للانكريه، فإن معبد فيلة هو «قدس أقداس ديانة قديمة، هي الديانة الأم لكثير من الديانات الأخرى» (١٣٣) ويجيء كثير من الأشكال المعمارية من وادي النيل، كالتماثيل التي تلعب دور الأعمدة أو النظام المعماري الدوري (١٣٤). وأيا كان الأمر، فإن مصر أم الحضارات هي الحضارة الأقدم، الحضارة التي ساعدت حجارتها على بناء بعض المعابد الحالية، كمعبد خونسو (١٣٥). لكن وجود الأجنبي، خاصة الروماني، في الأزمنة الأخيرة لهذه الحضارة، إنما يدل على انحطاط محسوس في الفنون (١٣٦).

الديانة الرمزية

إن الديانة المصرية هي قبل كل شيء ديانةُ طبيعة (١٣٧). ولا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن تخدعنا الأشكال الغريبة التي تزين جدران المعابد. فهذه «التكوينات الخيالية [...] قد استحضرها المصريون لكي يصوروا الظواهر الطبيعية ولكي يقدموا صورة محسوسة لها بشكل ما». والصورة الغريبة لأسد صقر، والمصحوبة بتمثيل لإيزيس في أرض سبخة ليست غير إجراء تصويري للاحتفال بانقلاب الشمس الصيفي. والصورة الأولى تمثل الأرض وميلاد الفيضان، بينما تشير الصورة الثانية إلى أن الشمس كانت لذلك في برج

الأسد (١٣٨). والحال أننا نعرف أن دورة الزودياك ليست ثابتة وأن وضع الشمس وقت اعتدال الربيع (نقطة الاعتدال الربيعي [حوالي ٢١ مارس. – المترجم]) تتزحزح حركته العكسية بمقدار ٣٠ درجة، أي بمقدار برج واحد كل ٢١٥٠ سنة. ونحو بداية عصرنا (بداية التاريخ الميلادي. – المترجم]، فإن الشمس، في الانقلاب الشمسي الصيفي، تدخل في برج السرطان. وربط الفيضان، الذي يتزامن مع الانقلاب الشمسي الصيفي، بالأسد، إنما يشهد على وضع الشمس وقت بناء المعبد ويقدم العناصر التي تسمح بتحديد زمانه. وهكذا، فإن جومار وجوليا ودبفيلييه وجميع رفاقهم يميزون بينهم بين صور المعابد من جميع الأشكال التي يمكن تفسيرها على أنها برج زودياكي، خاصة برج الأسد الذي يزين عرش إله في معبد دير شيلويت (١٣٩) وينتهي إلى تماثيل أبي الهول في الكرنك (١٤٠) مرورًا بالأسد المقام في معبد لوبيت (١٤١) ومزاريب معبد فيلة. وبالنسبة للانكريه، فإن هذا المثال الأخير هو مثال بليغ : إن مياه المصرف تذكر بالفيضان والأسد يذكر بوضع الشمس وقت الانقلاب الشمسي. ومن ثم فإن معبد فيلة إنما يرجع على الأقل إلى ٢٥٠٠ سنة قبل ميلاد يسوع المسيح (١٤٢).

ويكتب لانكريه «عند المصريين [...] تعتبر كل زخرفة رمزًا» (١٤٣). ويشدد جومار على هذا الجانب في زخرفة المعبد. إن الثياب المركبة والتيجان والأغطات ليست غير رموز تخفي دراية عميقة بالعالم (١٤٤). وأخيرًا، فإنه يبدو تمامًا أن الديانة المصرية التي يتحدث عنها مؤلفو «وصف مصر» تجهل ما هو مفارق للطبيعة بالرغم من قبول فكرة السر. ويكتب جومار :

«إن خصائص الحيوانات، وخصائص النباتات والمحاصيل الفائدة للروح، قد تبارت، مع الظواهر الطبيعية والظواهر السماوية، في بناء هذه الديانة الرمزية؛ وهي ديانة يصعب مع ذلك علينا فهمها، بقدر ما أنها، حتى في زمن مصر القديمة، كانت غارقة في ظل السر»(١٤٥).

على أننا نعرف بعض الآلهة، كآمون الرب الحمل (١٤٦)، وهاربوكرات، وهو إله عضو ذكورة غريب يبدو ماثلاً بشكل خاص في الكرنك وفي طيبة (١٤٧). لكن هذا الإله الذي يجري عرض صورته الذكورية على الشعب الذي يعبده، ليس في الواقع غير رمز كامل للانقلاب الشمسي الصيفي :

«يجرى تصوير الإله فى كامل قوته مع علامات لا لبس فيها على الرجولة : فساقاه ملتصقتان الواحدة بالأخرى، ولا شك أن هذا يرمز إلى أنه لا يسير بعد، إلى أنه واقف فى مكانه... فما هو الشكل الرمزى الذى يمكنه أن يعبر على نحو أفضل مما يعبر به هذا الشكل عن حالة الشمس التى وصلت إلى أعلى درجات مسيرتها نحو الانقلاب الصيفى، حيث تكون على مدار وقت معين ثابتة وفى كل اكتمال قوتها وحيويتها ؟ إن العضو الذكورى المنتصب يشير، كما نعرف، إلى فضيلة الإخصاب والإنتاج؛ والواقع أنه خلال الانقلاب الشمسى الصيفى يبدو فعل الشمس أكثر فعالية» (١٤٨).

وتعارضات الآلهة هى انعكاس لظواهر طبيعية متعارضة. ووفقاً لهومار، ففى إدفو يعتبر أوزوريس فى آن واحد رمزاً للنار وللهواء وللماء، للشمس وللنيل. أما إيزيس فهى رمز وصورة القمر. وأمّا فيما يتعلق بأسطورة إدفو، فإنها تشير، من خلال نضال حورس، إلى نضال أبوللو [حورس] ضد تيفون [ست]. ويخرج حورس ظافراً من المعركة ويصل إلى أعلى درجات مسيرته السماوية. ويتدفق النهر من فراشه، وتعود الحياة إلى الأرياف «وجميع هذه المآثر الخيرة هى من عمل حورس، أو من عمل الشمس وقت الانقلاب الصيفى» (١٤٩).

ويتصل مصير الإنسان بدرجة معرفته بأسرار الطبيعة. ولاكتساب هذه المعرفة، لابد من تلقينه. وهناك سلسلة من اللوحات المنقوشة تصف عملية التلقين :

«إن الشخصية الرئيسية، وهى شخصية ملك بلا ريب، تمر بدرجات التلقين المختلفة.

«ففى البداية يجرى تطهيره على أيدى اثنين من الكهنة يرشان على رأسه مياه النيل المهدئة.

«وفى المشهد الثانى، يجرى لمسه لمباركته، كما يحدث حتى اليوم فى بعض طقوس الديانة المسيحية، ويجرى وضع تاج كهنوتى على رأسه له شكل تاج أسقف كاثوليكى.

«وفى اللوحة الثالثة، فإن الملقَّنَ، الذى يقوده كاهنان، يتحرك نحو نوع من قدس الأقداس حيث توجد صور الآلهة؛ وهو ما يعنى على الأرجح أنه يصل، بعد كثير من الاختبارات، إلى معرفة الإله والأسرار المقدسة للديانة» (١٥٠).

وهذه المشاهد جد عديدة (١٥١). فليس هناك نقص فى أماكن التلقين الغامضة والسرية بالضرورة. وفيما يتعلق بإحدى مقابر أساسيف العظيمة، يكتب جولوا ودوفيلييه: «إن العدد الكبير للرواقات والقاعات، وللآبار العمودية التى تؤدى إلى غرف سفلية، إنما

تقدم مظهر مكان مخصص لعمليات التلقين والاحتفال بالأسرار (١٥٢). وينسب جومار الوظيفة نفسها إلى بعض قاعات الهرم الأكبر (١٥٣)

وليس من السهل تفسير التمثيلات جد الوفيرة في المقابر، لكن مؤلفي «وصف مصر» لا يشكون في أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بالتناسخ (١٥٤). وتصور الزخارف المحفورة في «كتاب الموتى» الاختبارات التي لابد من أن يتعرض لها الميت قبل صدور الحكم الذي يحدد مصيره (١٥٥). ووفقاً لمشهد في مقبرة في وادي الملوك، فإن المدانين يعودون إلى الأرض على شكل «حيوان نجس»، هو الخنزير هنا (١٥٦).

مصر «الوصف»

كيف يمكن لنا أن نشخص في بضع كلمات مصر «الوصف» القديمة هذه ؟

تتبادر إلى الذهن فكرتان. الأولى هي الدنيوية، السياسية والفكرية على حد سواء، فالسلطة بين يدي ملك، مستبد مستنير وحكيم، لكنه يمارسها دون التسامح وفي سرية عميقة مع اهتمامه بسعادة أبسط رعاياه. والتراث ومثال الأسلاف هما المرجع. أما الأبهة الملكية فإن المقصود بها هو التأثير على الشعب. والمثقفون والعلماء يتركون الشعب لخرافاته.

والخاصية الثانية لمصر هذه هي هيمنة العلم. فالكهنة باحثون مهتمون بقوانين الطبيعة أكثر من كونهم لاهوتيين. والملوك والمثقفون يجرى تلقينهم العلم في سرية أماكن محتجبة. والآلهة ليست غير تعبير يجرى تلقينه للعامة عن المبادئ التي تحكم الطبيعة. والدين نفسه يجرى النظر إليه بعين الريبة. وما يثير الاستغراب والحيرة يرد إلى الأوهام الدينية. وهكذا فإن لانكريه، إذ لا يتمكن من التصالح مع غياب المنظور في الرسم المصري، ينسب هذا العيب في الفن المصري إلى نزعة الكهنة المحافظة (١٥٧). أمّا جومار، الأكثر تصالحاً، فهو يوافق على أن الوضع الغريب للشخصيات ليس دون نموذج «فهذا هو بالضبط الوضع العادي للمسايفة» (١٥٨). ويعترف جومار بأنه سوف يصاب بخيبة الأمل إذا كانت البرديات تتضمن نصوصاً دينية لا أعمالاً علمية. وأخيراً فإن جوليا ودبيلييه يصوران الملك الحاكم في طيبة، خاضعاً لسلطة الكهنة السرية.

وليس من السهل أن نحدد بدقة العوامل التي قادت مؤلفي «وصف مصر» إلى رسم لوحة كهذه للحضارة المصرية.

X ويميل المرء في البداية إلى أن يرى في تصورهم عن مصر سمات مميزة للعالم المعاصر لهم. والحق أن «الوصف» يتضمن أمثلة كثيرة على الإسقاطات السائرة إلى هذا

الحد أو ذاك. لكنها تتعلق خاصة بتناول الشكل المعماري أو عدد من التفاصيل. وهكذا، فوفقاً لجومار، كان مثقفو مصر القديمة ينتمون إلى طبقة أعلى وكانوا يتمتعون بلباس خاص. فهل كان يفكر في زي الأكاديميين، الذي صممه دافيد في عام ١٨٠١ بأمر من بونابارت ؟ ومن الأمور المميزة للغاية أيضاً تلك المقارنات العديدة بين المعمار المصرية والمدن والبنايات الشهيرة آنذاك (١٥٩).

ويمكن للمرء أن يدهش من أن هؤلاء الجمهوريين لم يكونوا ميالين إلى أن يجدوا في مصر القديمة نوع مجتمع مماثل لمجتمعهم. إلا أنه لا يجب أن ننسى أن النصوص الأولى لـ «الوصف» قد ظهرت في عام ١٨٠٩، أي بعد تدشين الإمبراطورية بكثير. أمّا فيما يتعلق بيوميات جولوا وديفلييه، فقد أعيدت كتابتها كلها بعد الرحلة إلى مصر العليا. وقد وضع ديفلييه يومياته في صورتها النهائية في عام ١٨٠١، قبيل رحيله إلى فرنسا (١٦٠).

وأحياناً ما تظهر الخلفية السياسية بين السطور. وهكذا فإن الفكرة التي تذهب إلى أن رخاء مصر ينبع من تجارتها مع الهند إنما تستحضر بشكل مؤكد غاية الحملة الفرنسية. أليس بوسع فرنسا أن ترد إلى مصر إمبراطوريتها التجارية القديمة ؟

وفي إحدى فقرات الجزء الأول من الطبعة الإمبراطورية، يتعجب جولوا وديفلييه أمام تعاقب الآثار القبطية ثم الإسلامية في مدينة هابو :

«ربما تخلي الديانة المسيحية مكانها سريعاً لعبادة أخرى ما إن يتمكن واحد من أولئك المغامرة ذوي الحمية والمتحمسين، واحد من أولئك الفاتحين الذين يظهرون على فترات معينة في البلدان الشرقية، من أن يستحضر من السماء شرائع جديدة ومؤسسات دينية أخرى». ويلذ للمرء أن يتصور أن هذا الفاتح، بالنسبة لجولوا وديفلييه، يمكن أن يكون بونابارت. والحال أن المقدمة التاريخية التي كتبها فورييه، والتي تُصَدِّرُ طبعة بانكوك، قد راجعها وصححها بونابارت بنفسه. ثم، قبل طبعها في عام ١٨٢١، تعرضت لمقص الرقيب في زمن عودة الملكية، حيث حذفت منها التلميحات الأكثر وضوحاً إلى بونابارت.(١٦١).

وعندما يطوف المرء بمصادر أدبية مختلفة، فإنه يخمن المصادر التي جاءت منها فكرة الملك الحكيم والفاضل. إن المسؤولين الأوائل هم الكتاب القدماء، الذين يجري الاستشهاد بهم واستغلالهم بوفرة. وفي عدة مناسبات، يستنسخ جولوا وديفلييه النصوص اللاتينية والإغريقية التي استمدا منها حجاجهما. ويعتبر بوسويه واحداً من الملهمين الأكثر حضوراً، وإن كان الاستشهاد به لا يحدث إلا فيما ندر. إن راح جولوا وديفلييه يحاكي أو حتى ينتحل، هنا وهناك، مقتطفات كبيرة من «مقال حول التاريخ الطبيعي» المنشور في عام ١٦٨١ (١٦٢). وفي الفصل المكرس في هذا العمل للاسكندريين

وللإثيوبيين وللمصريين (١٦٣)، يجد المرء بالفعل جانباً كبيراً من الأفكار الرئيسية لـ «الوصف»، خاصة حكمة وفضائل الملك. ويستمد هذا الفصل الجانب الرئيسي من مادته من نصوص ديودور وهيرودوت. وفي المقابل، فإن النزعة العلمية والنخبوية غائبتان عن نص بوسويه.

إن فكرة دين نخبوي هي فكرة قديمة، فهي موجودة بالفعل في الصفحات التي كتبها كليمون السكندري ولوسيان الساموساتي (١٦٤). وبالنسبة للكتاب المسيحيين، فإن العقيدة المحتجبة المخصصة للملقّنين هي الوحدانية (١٦٥). وفي عمله، «بحث حول العادات (١٧٥٣)، يستعيد فولتير، فيما يتعلق بمصر، الأفكار الرئيسية نفسها : «وما هو البلد الذي لم يكن فيه جمع من المؤمنين بالخرافات وعدد صغير من الحكماء ؟»، إلا أنه قلما يقدر فكر المصريين وهو ينزعج من «الوضيع فلسفتهم» (١٦٦).

إن السمة الخاصة لمصر «الوصف» هي من ثم التداول العلمي (١٦٧). وهي أيضاً السمة الأكثر شخصية. ألا يحوز غالبية المؤلفين تكويناً علمياً ؟ ويفكر المرء أيضاً في سان سيمون. إن هذا الأخير سوف يحس بأنه على راحته في مصر «الوصف». فبالنسبة له، يجب للسلطة أن تكون بين أيدي العلماء، ويجب للشعب أن يظل خارج المجتمع الجديد. وحتى مع أن السان سيمونية سوف تلعب فيما بعد دوراً كبيراً في مصر، فإن الكونت سان سيمون كان غير معروف وقت صدور «الوصف». على أن مصر «الوصف» تقدم سمات تسمح بمقارنة مع الأدب الطوباوي.

وقد كشف جان سيرفييه في دراسته عن اليوتوبيا عن النقاط المشتركة بين يوتوبيات جميع العصور. وينطبق عدد من معاييره على موضوعنا : إن اليوتوبيا هي خارج الزمن، والمجتمعات الطوباوية تتميز بحنين إلى الماضي، والعالم يتحول عن طريق العمل والزراعة، والملوك والحكماء يحتلون الصدارة وينقلون المعرفة، والعلم الرسمي هو وحده المعترف به، والفكر الديني الطوباوي غامض، والكهنة هم رقباء أبديون مكلفون بالتوبيخ وبالتعليم بأكثر مما هم وسطاء لدى الآله. وفي «الأطلانطس الجديدة» لفرنسيس بيكون، يجتمع العلم والدين معاً في عمل امسيلفيالقرابين يتحول إلى كنيسة صغيرة في مصر.

إن مصر «الوصف» هي الحلقة الأخيرة في سلسلة من اليوتوبيات قبل أن تساعد عبقرية شامبوليون على الاتجاه مباشرة إلى هذا الواقع البعيد.

حواشي الفصل العاشر

1 P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 84.

2 Biographie de P. Jollois par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, pp. 1-34. L'école polytechnique a été créée en 1794.

3 E. de Villiers du Terrage, *Journal et souvenirs sur l'Expédition d'Égypte*, mis en ordre et publiés par le Baron Marc de Villiers du Terrage, Paris, 1899 ; il passe l'examen de sortie de polytechnique au Caire et est nommé ingénieur le 3 novembre 1798.

4 Jollois et Devilliers, II, p. 409. Le texte de la *Description* de l'Égypte sera cité, d'après l'édition Panckoucke 1821-29, avec le nom de l'auteur du passage. L'orthographe du nom de Devilliers est celle de la *Description*. Les planches seront citées sous la forme : Atlas, I, pl...

5 Pour une liste des membres de la commission des sciences et arts qui ont voyagé en Haute-Égypte, voir J.E. Goby, dans *BIE* 35, 1952-3, p. 90.

6 Ce projet a été discuté au cours des dernières réunions de l'Institut, voir J.E. Goby, *op. cit.*, p. 88.

7 Jollois et Devilliers, III, p. 262-263 ; Nectoux avait 58 ans.

8 P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, pp. 21, 23, 72.

9 P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, p. 23 ; H. Laurens, *Kléber en Égypte 1798-1800*, V.O.E. 25, 1988, pp. 79-80 ; Devilliers, cité par P. Lefèvre-Pontalis dans P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, p. 14 et pp. 24-5 ; déjà en 1787, Kléber, alors architecte départemental, avait dessiné les projets des pavillons égyptiens du parc d'Étupe, près de Monthéliard.

10 Conventions graphiques pour séparer les faits des hypothèses : Jollois et Devilliers, II, p. 387 ; voir aussi Lancret, I, p. 112.

11 Fourier, *Préface historique*, I, pp. XII-XIII

12 Atlas II, pl. II n° 18 et 23. Il s'agit d'une scène de la « Fête de Min » : PM II², pp. 499 (96-97).

13 Jollois et Devilliers, II, pp. 94-95. Ces animaux font partie du décor habituel du trône royal.

14 *Ibidem*, II, p. 484.

15 Temple reposoir de Ramsès III : P. Barguet, *Le temple d'Amon-Rê*, pp. 52-53. Cet édifice servait de station pendant les grandes liturgies de sortie, notamment la « Belle fête de la Vallée ».

16 Jollois et Devilliers, II, p. 428.

17 *Ibidem*, II, p. 13.

18 *Ibidem*, II, p. 76.

19 *Ibidem*, II, p. 435.

20 *Ibidem*, II, p. 89. Cette barrière est l'ensemble des murs-rideaux entre les pilliers de la façade ouest de la seconde cour du temple des Millions d'Années de Ramsès III, à Médinet Habou.

21 *Ibidem*, II, p. 43.

22 Ensemble funéraire d'Amenemhat III, à l'entrée du Fayoum.

23 Jomard, IV, p. 513.

24 Jollois et Devilliers, II, p. 378. Identification du « héros » avec le roi : Jollois et Devilliers, III, pp. 374-375 ; P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 111 (scènes du Ramesseum). Le plus fréquemment, les auteurs de la *Description* prennent l'image du roi guerrier pour celle d'un simple « héros » (par exemple, Jollois et Devilliers, II, p. 86).

26 *Ibidem*, II, p. 401.

27 *Ibidem*, II, p. 30.

28 *Ibidem*, II, p. 8.

29 *Ibidem*, II, p. 579.

30 *Ibidem*, II, pp. 487-89.

31 *Ibidem*, II, p. 571.

32 Reposoir de la barque processionnelle construit par Philippe Arrhidée. P. Barguet, *op. cit.*, pp. 136-141.

33 Jollois et Devilliers, II, p. 461 ; voir aussi II, p. 450.

34 Jomard, I, p. 310 ; Atlas, I, 57, n° 8.

35 Par exemple, pour les ruines du temple de Médamoud, dont seule une colonnage était alors visible, Jollois et Devilliers, II, p. 607 ; Atlas III, pl. 68.

36 Jollois et Devilliers, II, pp. 23, 493, 365.

37 *Journal* de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. Jollois *Journal d'un ingénieur*, p. 206. Rectifier : un corps de lion avec une tête de bélier.

38 Jollois et Devilliers, II, pp. 511, 513.

39 *Ibidem*, II, p. 459.

40 *Ibidem*, II, p. 457. Obélisques consacrés au culte solaire, voir p. 459.

41 *Ibidem*, II, p. 66 ; Lancret, I, p. 47.

42 *Ibidem*, II, p. 525, Atlas III, p. 57, fig. 9.

43 *Ibidem*, II, pp. 527 et 501. Cette idée, matériellement impossible étant donnée la masse de ces mâts (voir *Karnak* VII, 1982, pp. 75-92), garde quelque adeptes parmi les guides actuels, locaux ou européens.

44 Jollois et Devilliers, II, p. 414 ; P. Barguet, *op. cit.*, p. 264.

45 Lancret, I, p. 47.

46 Edfou : *Journal* de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, pp. 189-91.

47 Lancret, I, p. 46 ; E. Jomard, I, p. 276.

48 Jollois et Devilliers, II, p. 428. Il s'agit du temple reposoir de Ramsès III.

49 *Ibidem*, II, p. 431. Statues de Ramsès II : Atlas III, pl. 120.

50 Voir *supra*, p. 354.

51 *Ibidem*, II, p. 435.

52 Atlas III, pl. 33, 1 ; H. Nelson, *The Great Hypostyle Hall at Karnak*, I, n° 151-2.

53 Jollois et Devilliers, II, p. 450.

54 *Ibidem*, III, p. 243.

55 *Ibidem*, II, pp. 462-3. Voir aussi le journal de J.D. publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. Jollois, *Journal d'un ingénieur*, p. 241 ; ces scènes sont en réalité des scènes d'offrande et d'accolade.

56 *Ibidem*, II, 467 ; Atlas III, pl. 34. Il s'agit de la série liturgique de l'introduction royale : pl. 23.

57 E. Jomard, IV, p. 29, à propos du palais d'Abydos. Pour Jomard, il s'agissait du palais de Memnon (IV, p. 32).

58 Jollois et Devilliers, II, p. 472. Il s'agit des magasins nord (P. Barguet, *op. cit.*, pp. 205-209). Même interprétation pour les magasins sud : Jollois et Devilliers, II, p. 477 (P. Barguet, *op. cit.*, pp. 159-161).

59 *Ibidem*, II, p. 504. Chapelle reposoir d'Aménophis II, reconstruite par Séthi Ier (PM II², p. 185).

60 *Ibidem*, II, p. 474. Salle centrale de l'ensemble culturel appelé Akhmenou et connue sous le nom de la « salle des fêtes ».

61 *Ibidem*, II, p. 442 et n. 2. Voir aussi II, p. 398 (hypothèse d'un second étage en « charpente et en toile » au temple de Louqsor ; pour le second étage de la salle hypostyle, voir aussi *Journal* de J.D., publié par P. Lefèvre-Pontalis, dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 239. Cette dernière hypothèse avait déjà été avancée par N. GRANGER (*Relation du voyage fait en Égypte*, Paris, 1745, voyage en 1730).

62 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 19. Temple des Millions d'Années (dit temple funéraire) de Séthi Ier.

63 *Ibidem*, II, pp. 352-353. Jollois pensait que ce « palais » était destiné à la « translation des rois », sans préciser toutefois s'il pensait au transport du corps du roi ou plus simplement au transfert de l'autorité royale dans une résidence royale secondaire (P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, publié par P. Lefèvre-Pontalis, p. 109).

64 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 66.

65 Temple de Khonsou, appelé le grand temple du sud : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 534.

66 *Ibidem*, I, p. 374 (temple d'Esna).

67 Temple de Ptah : « Nous avons retrouvé dans d'autres temples trois pièces semblables à celles qui existent ici, et qui sont évidemment des sanctuaires » : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 492 ; temple de Gournah : II, p. 359 (chapelles du culte funéraire de Ramsès Ier). Cette hypothèse a été confirmée.

68 JOMARD, IV, p. 174.

69 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 573-78.

70 *Ibidem II*, p. 13, voir aussi p. 79.

71 *Ibidem*, II, p. 76.

72 *Ibidem*, II, p. 318 (temple de Deir el-Médineh).

73 *Ibidem*, II, p. 427 (temple-reposoir de Ramsès III à Karnak).

74 JOMARD, II, p. 374.

75 LANCRET, I, p. 21, pp. 64-65.

76 Journal de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 193.

77 JOLLOIS et DEVILLIERS, I, p. 374.

78 LANCRET, devant le *mammisi* de Philae, souhaite même les supprimer afin que la vue puisse « jouir de toute la hauteur des colonnes » (I, p. 23).

79 LANCRET, I, p. 90 (gargouilles de Philae) ; pour JOLLOIS et DEVILLIERS, les deux usages ne sont pas incompatibles, quoique le second soit plus fréquent (Dendara), III, 314.

80 SAINT-GENIS, I, 349 (Elkab).

81 JOMARD, I, p. 435 (Erment).

82 LANCRET, I, p. 94 (kiosque de Trajan à Philae).

83 Lancret compare le kiosque de Philae avec ceux d'Erment et de Dendara. Thyphon est en réalité le dieu Bès, gnome hilare à l'aspect grotesque chargé d'apaiser et de désarmer les divinités hostiles.

84 Par exemple, JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 514 ; JOMARD, I, p. 306, III, p. 166.

85 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 370.

86 Voir *supra*, p. 358

87 JOMARD, I, p. 275 (temple d'Edfou).

88 Voir *supra*, p. 358

89 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 351.

90 JOMARD, IV, pp. 463, 472.

91 LANCRET, I, p. 21 (Philae) ; JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 556 (temple d'Opet à Karnak).

92 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 302-3.

93 *Ibidem*, III, p. 370. Cette hypothèse est très proche de l'usage réel de ces chapelles consacrées à la fabrication de la statuette de l'Osiris végétant des fêtes de Khoiakh (F. DAUMAS, *Dendara et le temple d'Hathor*, pp. 67 et s.).

94 *Ibidem*, II, p. 57.

95 *Ibidem*, II, pp. 334 à 336. Ils suggèrent que les débris de momies trouvées dans les salles des pylônes de Philae pourraient être en rapport avec cet usage.

96 *Ibidem*, II, p. 12 ; C. TRAUNECKER, J.-C. GOLVIN, *Karnak, Résurrection d'un site*, pp. 58-63.

97 *Ibidem*, II, p. 571.

98 *Ibidem*, II, p. 593 à 598.

99 *Ibidem*, II, p. 493.

100 JOMARD, III, p. 3.

101 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 8.

102 *Ibidem*, III, p. 245 ; la ville de Piramsès, dans le Delta, semble avoir été composée de hameaux (*LÄ*, V, col. 128).

103 *Ibidem*, III, p. 240.

104 *Ibidem*, III, p. 244.

105 FOURIER, p. XIV.

106 LANCRET, I, p. 28.

107 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 16.

108 *Ibidem*, II, pp. 12 et 139.

109 *Ibidem*, II, p. 133 ; Temple de Qasr el-Agouz, PM II[2], p. 527.

110 Ces monticules sont des buttes de déblais, produits par le creusement du grand bassin-port de Malgata. Jollois et Devilliers rapprochent ce monument des cent portes de Thèbes chantées par Homère.

111 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 509.

112 Atlas III, p. 51.

113 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 279.

114 *Ibidem*, III, p. 269.

115 *Ibidem*, II, p. 594.

116 *Ibidem*, III, p. 269.

117 Il s'agit de l'érection de la charpente d'une sorte de tente, sanctuaire archaïque de Min.

118 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, pp. 376-7.

119 Journal de Fourier, publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 185.

120 JOMARD, III, p. 4.

121 JOMARD, III, p. 53.

122 JOMARD, I, p. 195.

123 JOMARD, III, pp. 113, 146-7.

124 JOMARD, III, p. 138. Plusieurs auteurs antiques proposent trois types d'écritures, dont les normes sont discutés par Jomard qui n'a pas reconnu le caractère spécifique de l'écriture démotique (JOMARD, III, p. 122 ; Atlas, II, pl. 60 avec les annotations démotiques en marge du papyrus).

125 JOMARD, III, p. 110.

126 *Ibidem*, III, p. 134.

127 J. LECLANT, « La modification d'un regard (1787-1826) : du voyage en Syrie et en Égypte de Volney au Louvre de Champollion », dans *CRAI* 25, 1987, pp. 9-11.

128 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 265.

129 JOMARD III, p. 88.

130 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 115.

131 LANCRET, I, p. 69, 49 (Philae) ; JOMARD, I, p. 310 (Edfou) ; voir aussi la longue argumentation de Costaz : VI, pp. 151-4.

132 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 403.

133 LANCRET, I, p. 9.

134 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 61, 77-79 ; JOMARD, IV, p. 341.

135 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, 537. Sur les réemplois et les interprétations qu'ils suscitent : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, pp. 48, 466, 536 ; LANCRET, I, pp. 19-20, 111, 118.

136 *Ibidem*, II, p. 269 (Les magasins du Ramesseum sont voûtés parce que romains). Les Ptolémées ont au moins respecté la religion, mais sous les Romains, les rites ne sont plus qu'apparence (*Ibidem*, p. 164).

137 JOMARD, I, p. 232.

138 *Ibidem*, I, p. 335 (Mammisi Edfou).

139 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 143.

140 *Ibidem*, II, p. 511.

141 *Ibidem*, II, p. 556.

142 LANCRET, I, p. 115. Pour d'autres raisonnements de ce type, voir JOMARD, I, p. 322 (Edfou), 428 (Erment) ; JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 398 (Zodiaque de Dendara).

143 *Ibidem*, I, p. 115.

144 JOMARD, III, p. 59 ; voir aussi LANCRET, I, p. 66.

145 JOMARD, III, p. 166.

146 JOLLOIS et DEVILLIERS, III, p. 305.

147 *Ibidem*, II, p. 53, 376, 431. En fait, il s'agit d'Amon-Min.

148 *Ibidem*, III, p. 309-310.

149 JOMARD, I, p. 319.

150 *Ibidem*, II, p. 80 (Médinet Habou), p. 467 ; Journal de Fourier publié par P. Lefèvre-Pontalis dans P. JOLLOIS, *Journal d'un ingénieur*, p. 185.

152 *Ibidem*, II, p. 18 (tombe de Padiamenope, n° 33).

153 JOMARD, IX, p. 491.

154 JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 329.

155 JOMARD, III, p. 132.

156 COSTAZ, III, pp. 211-212 : Catacombe de la Métempsychose.

157 LANCRET, I, p. 106.

158 JOMARD, I, p. 314.

159 Par exemple : JOLLOIS et DEVILLIERS, II, p. 436 (salle hypostyle de Karnak et Notre-Dame de Paris) ; p. 411 (Ier pylône et façade de l'Hôtel des Invalides) ; III, p. 3 074 (surfaces de Thèbes et de Paris).

160 Marc DE VILLIERS du TERRAGE, *op. cit.*, p. I.

161 CAMPOLLION-FIGEAC, *Fourier et Napoléon, L'Égypte et les cent jours*, 1844, p. 169.

162 BOSSUET, *Discours sur l'Histoire universelle*, Garnier-Flammarion, 1966, pp. 360-361, à comparer avec JOLLOIS et DEVILLIERS, p. 428.

163 BOSSUET, *op. cit.*, pp. 357-373.

164 Dialogue de Momos, cité par E. Hornung, dans *Les dieux de l'Égypte*, pp. 7-8.

165 B. de Maillet, *Description de l'Égypte*, 1735, rédigée par l'abbé Le Mascrier.

166 Voltaire, *Essai sur les mœurs*, Garnier, 1963, p. 77, 81.

167 En 1844, Champollion-Figeac accompagne son édition de la version originale de la préface historique de notes, où il nuance l'approche scientiste de Fourier (par exemple, p. 97, n. 2).

168 S. Carlety, *Histoire du saint-simonisme*, Gonthier, 1964, pp. 12-13.

169 J. Sevrier, *L'Utopie*, 1985, pp. 95 et s., 116, 50.

الفصل الحادى عشر

الجوانب العلمية لحملة مصر

(١٧٩٨ - ١٨٠١)

بقلم : شارل سى. جيليسبى

«لقد أسهمت إقامة الفرنسيين فى مصر إسهاماً كبيراً فى توسيع مجال العلوم كلها». تلك هى الكلمات التى تحدث بها الطبيب العسكرى جاينانو سوتيرا، فى مذكرته من الطاعون (١). ففيم تمثل هذا التوسيع ؟ تلك هى المشكلة التى يهدف هذا البحث إلى التصدى لها.

. إن لجنة العلوم والفنون، وهى أول لجنة من نوعها على الإطلاق نشهد ضمها إلى حملة عسكرية، كانت تضم فى البداية نحو ١٥١ عضواً، كان ٨٤ منهم يتمتعون بتكوين تقني وكان عشرة منهم من الأطباء (٢). والحال أن المعهد (المجمع العلمى) المصرى، وهو مثيل فيما وراء البحار للمعهد الفرنسى، قد افتتح جلساته فى ١٦ فروكتيدور من العام السادس (٢٣ أغسطس ١٧٩٨). وخلال السنوات الثلاث التى تلم الاحتلال فيها، دعى إلى المشاركة [فى المعهد] ما مجموعه ٥١ عضواً. ومن بين هذا العدد، التحق ٢٦ عضواً بهذه الشعبة أو تلك من الشعبتين العلميتين، أى شعبة الرياضيات وشعبة الفيزياء، وكانت الشعبتان المكونتان الأخريان هما شعبة الاقتصاد السياسى وشعبة الأدب والفنون.

وكان على المعهد أن يجتمع عند الحاجة، وقد عقد ٦٢ جلسة، انعقدت الجلسة الأخيرة من بينها فى الأول من جيرمينال من العام التاسع (٢٢ مارس ١٨٠١). وكان الرئيس الأول للجنة هو مونج، أما النائب الأول لرئيس اللجنة فهو بوناپارت، وقد انتخب الاثنان معاً لمدة ولاية من ثلاثة أشهر. وكان فورييه هو السكرتير الدائم للجنة، من البداية إلى النهاية. وقد نظمت أعمال اللجنة وفق القواعد التنظيمية لأعمال الأكاديميات الفرنسية.

وتمت تلاوة مذكرات، أو جرى تقديمها مكتوبة، وشُكّلت هيئة مراقبين مكلفة بتقديم تقرير عن هذه الأبحاث؛ وكان بوسع الحكومة – وهى، فى هذه الحالة، السلطة العسكرية – أن تطلب رأى المعهد حول مشكلات معينة؛ وفى كل مرة كان يعهد بهذه المهام، وكذلك بنشاطات مختلفة، إلى لجان مشكلة لهذا الغرض (٣).

وكان نشر الأعمال يتم بأشكال مختلفة، إن صحيفة لوكوربيه دو ليجيبت، التى تنقل الأخبار والأوامر اليومية الصادرة عن السلطات القائمة، شأنها فى ذلك شأن صحيفة المونيتير اونيفرسيل، كانت تنشر، عند الحاجة، مقتطفات من تقارير المعهد. أما صحيفة لاديكاد إيجيبسيان، فقد كانت تستعيد نموذج صحيفة لاديكاد فيلوسوفيك. والحال أن بحوث المعهد التى نشرت فيها قد أعيد نشرها، فى غالبيتها، فيما بعد فى المجلدات الأربعة التى صدرت تحت عنوان «مذكرات حول مصر» فى باريس، عن دار نشر ب. ديدو، من عام ١٧٩٩ إلى عام ١٨٠٢. وقد اغتنت هذه المجموعة الأخيرة بعدد من الكتابات التى لم تتمكن من نشرها صحيفة لاديكاد إيجيبسيان، التى توقفت عن الصدور فى عام ١٨٠٠. وقد ظهرت بعض المذكرات أيضاً فى نشرات علمية محكمة – فى «أنال دى ميزيم دستوار ناتوريل» وفى «بولتان دو لاسوسييتيه فيلو ماتيك» وفى جورنال دى مين، إلخ. وكتب عدد من أفراد الحملة كتبا عما شاهدوه وعما وقفوا عليه من معارف، وهذا هو حال ديجينيت، الذى نشر كتابه «التاريخ الطبى لجيش الشرق»(١٨٠٢). أما العمل الأشهر، فى هذا الباب، فلا يزال هو عمل فيفان دينون «رحلة فى مصر السفلى والعليا» (١٨٠٢) وأخيراً، الكتاب الضخم، «وصف مصر» الذى ظهر، من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٨، مؤلفاً من «المقدمة التاريخية» التى كتبها فورييه ومن الأطالس الثلاثة التى تضم لوحات والتى نشرت فى عشرة مجلدات، ومن المجلدات التسعة التى تتضمن النص المكتوب، والموزعة كلها إلى ثلاثة أقسام، «العصور القديمة» و«الحالة الحديثة» و«التاريخ الطبيعى»، الذى يحوى أطلساً، يضم خريطة طوبوغرافية وجغرافية (٤).

تلك هو العمل المنشور. أما فيما يتعلق بالعلماء أنفسهم، فقد كان خمسة من بينهم شخصيات شهيرة بالفعل، وقت ركوبهم البحر، فى مايو ١٧٩٨ ؛ وهم مونج وبيرتولليه وفورييه ودولوميو ونوبه. وسوف يحوز ثلاثة آخرون الشهرة، عند عودتهم إلى فرنسا ؛ ماليس وجيفروا سانت – هيلير وسافينى؛ ولا مراء فى أن لانكريه كان من الممكن أن يحوز الشهرة مثلهم، لولا موته، وهو ما يزال فى ريعان الشباب. والحال أن عدداً من المذكرات

التى تليت أمام المعهد من جانب هذه الشخصيات العظيمة قد عالج موضوعات تتصل ببحوثهم الشخصية، بأكثر مما تتصل بمصر (٥). وقد أتت هذه البحوث إلى إشباع جدول الأعمال بنماذج بحث تتصل بالعلم الخالص، ولن نتوقف أمام هذه الأعمال. كما اننا لن نتوقف، على الطرف المقابل، أمام العلم التطبيقى، من نوع تلك الإجابات على الطلبات التى كان يجرى إشعار اللجنة بها، لتلبية الحاجات المباشرة للجيش (٦). إن الموضوع الذى يهمنا إنما يتجلى تحت ملمح مزدوج : فى المقام الأول، العمل العلمى بالمعنى الدقيق للمصطلح، والذى أنجز بحكم الوجود الفرنسى فى مصر؛ وفى المقام الثانى، الدراسة العلمية لهذا البلد نفسه.

علوم الرياضيات والفيزياء

من بين المذكرات التى تعالج ظواهر قوبلت فى مصر، فإن المذكرة الأشهر تظل هى مذكرة مونج حول السراب (٧). وقد قام بتلاوتها فى الجلسة الثانية للمعهد، فى ١١ فروكتيدور من العام السادس (٢٨ أغسطس ١٧٩٨)، بعد شهر بالكاد من الزحف المؤلم من الإسكندرية إلى القاهرة. إن شبح قرى تظهر كما لو كانت جزراً مرتعشة ومنعكسة فى بحيرة تأخذ فى التراجع شأنها فى ذلك شأن الأفق، بقدر تقدم المرء نحوها، قد أخضع الجيش لعذاب الأمل فيما لا يمكن بلوغه، معرضاً إياه لخيبة الأمل المجانية والقاسية. وقد قدم مونج تفسيراً لتلك الظاهرة مبيناً أن حرارة الرمل، التى يزيد من سخونتها ضوء الشمس، فى الهاجرة، وسط الصحراء، تمدد الهواء القريب مباشرة من الأرض، وذلك بدرجة كبيرة بحيث إنه يتميز بكثافة أقل من كثافة غلاف الهواء المحيط. والحال أن أشعة الضوء القادمة من أجزاء السماء المنخفضة، والقريبة من الأفق، إنما تنعكس، كما فى مرآة، على السطح الأعلى لهذه الطبقة قليلة الكثافة. وينتج عن ذلك أثر مزدوج. فهو يجعل الأفق يبدو أقرب، من جهة صور مباشرة لقرى ولنخلات توجد بعيداً، فى ذات الوقت الذى يقلبها فيه، مكسباً إياها صورة الغرق والانعكاس فى مياه ليست غير حد السماء المعكوس. ويرد علم البصريات الحديث الظاهرة إلى أثر انكسار مزدوج للأشعة - مباشر، ومقلوب - وسط الطبقة السطحية، بأكثر مما يرده إلى انعكاس على السطح الأعلى لهذه الطبقة، لكن المبدأ الفيزيائى الأساسى يظل هو مبدأ الأثر الذى تحدث عنه مونج.

والحال أن تحولاً حاسماً من جهة أخرى هو الذى تمثله، فى المسيرة العلمية لكاتبها،

«ملاحظات» بيرتولليه «حول كربونات الصوديوم» والتى تعتبر المذكرة - المترتبة على دراسة مصر - الأكثر إثارة للانتباه، بعد المذكرة السابقة (٨). لقد اتخذت مسيرة بيرتولليه العملية مساراً على نقيض النهج المعتاد، فهو يحقق الشهرة فى مجال العلم التطبيقى وتنبع مساهمته فى العلم الأساسى، ليس من واقع زخم الشباب التجديدى، بل من واقع تأملات رجل فى عنفوان العمر، يعتمد على خبرة حياة، فى مجال التفاعلات والعمليات الكيميائية. وقد تخصص فى البداية فى الكيمياء وفى تقنيات الصباغة، وقدم بالفعل مذكرات قصيرة حول استخدام النيلة والحناء والزهر فى مصر (٩). ولدى عودته إلى فرنسا، فإن العمل الذى سوف يضطلع به فى فترة نضوجه سوف يرسى أسس الكيمياء - الفيزيائية الحديثة. إن «البحث حول الاستاتيكا الكيميائية»، المنشور فى عام ١٨٠٢، يعالج أثر العوامل الفيزيائية - الحرارة، الضغط، الضوء، الكثافة النسبية - من حيث كونها محددة لمدى وسرعة استمرار تفاعل ما، بل وفى حالات معينة، لما إذا كان هذا التفاعل سوف يحدث أم لا. ولا يمكننا على وجه اليقين أن نقرر أن تجربة بيرتولليه المصرية هى التى دفعته إلى النظر فى هذه المسائل. لقد كان بالفعل غير مرتاح إلى النظرية، السائدة آنذاك، عن التآلفات الاختيارية، والتى تستند إلى اعتبارات كيميائية بصورة خالصة، ولا مراء فى أنه قد انتقل من النقد إلى البحث، على أية حال. لكن مصر كانت الفرصة لذلك، والمشكلة التى طرحت نفسها عليه هى مشكلة التكوين الطبيعى لكربونات الصوديوم فى بحيرات النطرون [كربونات الصوديوم]، التى تستمد اسمها من التسمية اليونانية لهذا المنتج، والذى قامت مصر بتجارة واسعة فيه منذ العصر القديم.

وفى أواخر يناير ١٧٩٩، قام بيرتولليه، يرافقه مساعده رينو، بمصاحبة الجنرال أندريوسّى فى الجولة الاستطلاعية والتى قام بها فى ستة أيام فى الوادى - الواقع على مسيرة أربع عشرة ساعة من غرب القاهرة - والذى يضم هذه البحيرات، وكذلك فى الوادى، المجاور، لنهر لا ماء فيه. وقد وجدوا أن التكوينات الكلسية التى تحيط بالبحيرات - والمالحة بدرجة عالية - مشبعة بالملح ومغطاة برواسب قلوية. وبشكل واضح، فإن الملح (كلوريد الصوديوم) والكلس (كربونات الكالسيوم) يدخلان فى تفاعل تحلل مزدوج، بما ينتج الصودا أو النطرون (كربونات الصوديوم) وكلوريد الكالسيوم. ولا يتكون النطرون إلا على التربة الكلسية. وإذا كانت التربة طينية بشكل خاص، فلن نجد غير الملح البحرى، والقليل أو لا شىء من الصودا (كربونات الصوديوم). ولا تشير الأجزاء الرملية إلى وجود هذا أو ذاك فى الرواسب، لأن مياه المطر تحلل الملح وتدفع به إلى البحيرات. وفى أجزاء

البحيرات التى تنصب فيها مياه جريان التربة الكلسية، فإن المياه تؤدى، على أية حال، إلى تحلل الصودا (كربونات الصوديوم) بأكثر مما تؤدى إلى تحلل الملح. ويترتب على ذلك أن الكلس، فى هذه المناطق الكلسية، يؤدى إلى تحلل الملح، فى وجود الرطوبة والحرارة، فى حين أن النطرون الناتج بهذه الطريقة يبرز إلى السطح ليفقد عليه ماءه ويكون طبقة صلبة. أما الناتج التابع، كلوريد الكالسيوم، لكونه مشبعاً بالرطوبة، فإنه يتشبع بالماء ويغيب فى التربة، وما هو مثير فى ذلك بالنسبة لبيرتولليه، هو أن التفاعل المعروف جيداً للكيميائيين، فى المعمل، هو عكس ذلك تماماً. ومن ثم فإن تلك إنما هى حالة نموذجية، حيث تحدد الظروف، بدرجة أكثر من العناصر الكيميائية الماثلة، الاتجاه الذى سوف يأخذه التفاعل.

وفى ٤ فبراير ١٧٩٩، قدم أندريوسّى تقريراً سريعاً حافلاً عن المنطقة وطوبوغرافيتها وأديرتها القبطية التى انتهت إلى التدهور وطرق القوافل فيها التى يجوبها البدو والجوابون (١٠). ثم يتدخل بيرتولليه بعده بتقرير حول ملاحظاته ويعلن اعتزامه تفسير تكوين النطرون، فى جلسة تالية. والواقع أنه يرحل فى ١٠ فبراير مع مونج، لمرافقة بونابارت فى غزوه للأرض المقدسة، التى كانت آنذاك جزءاً من سوريا. وفى ٢٩ يونيو، وفى أول جلسة للمعهد بعد عودتهما إلى القاهرة، يتم انتخاب بيرتولليه رئيساً ويتم انتخاب أندريوسّى نائباً للرئيس. وكان عليه أن يبدأ بتلاوة المذكرة التى أعلن عنها، «أبحاث حول قوانين التآلف الكيميائى»، فى ٨ أغسطس، ولم يستكملها قط. ففى ٢٢ أغسطس، اتجه من جديد إلى الرحيل، بصحبة مونج، إلى جانب بونابارت، وصار هذه المرة، للعودة إلى فرنسا. وبحكم هذا الواقع، كان عليه أن يتلو مذكرته أمام المعهد الأم، أمام المعهد الفرنسى، خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر. وهذه المذكرة التى ظهرت فى عدد نشرة «ميموار» الصادر عن أعمال المعهد فى عام ١٨٠٠، والتى نشرت بشكل منفصل بالإضافة إلى ذلك، إنما تشكل عرضاً أولياً للأفكار الرئيسية لـ «البحث حول الاستاتيكا الكيميائية»، بشكل مكثف، و – لابد من قول ذلك – أكثر وضوحاً. (١١)

التاريخ الطبيعى

إن علماء الطبيعيات هم الوحيدون الذين كان يمكن للمرء أن يتوقع أن تسهم إقامتهم فى مصر إسهاماً تاماً فى تطوير علمهم، وليس بشكل عرضى، كما هى حالة علماء الرياضيات والفيزياء والكيمياء. والواقع أنه باستثناء المهندسين، فإن علماء الطبيعيات هم

الذين كانوا يشكلون الوحدة الأوفر عدداً. وفي البداية، كان من المتصور أن يكون عددهم خمسة عشر، بحيث يكون لكل فرع علمي كبير خمسة. والواقع أن اثنى عشر فقط هم الذين سوف يركبون البحر : بالنسبة لعلم المعادن، دولوميو وفرانسوا - ميشيل دو روزيير، يرافقهما ثلاثة من مهندسي المناجم الشبان، بيير - لوى كورديبه وفيكتور دوبوى ولوى دیشانوا (الذين كملوا فيما بعد سلاح الجسور والطرق)؛ وبالنسبة لعلم الحيوان، إيتيان جيفروا سانت - هيلير وجيل - سيزار لورين دو سافيني، إلى جانب تلميذ ومساعد جيفروا، الكسندر جيرار؛ وبالنسبة لعلم النبات، أنطوان - فرانسوا كوكيبير دو مونتبريه وألبير رافينو - ديليل، وإيبوليت نيكتو وهنرى - جوزيف ريدوتيه. والحال أن ريدوتيه، الفنان - المصور، والملحق بحديقة النباتات، لم يكن عالماً، بل كان متخصصاً في رسم الزهور، شأنه في ذلك تماماً شأن أخيه الأكبر، والأكثر شهرة، والمسمى بـ «روفائيل الزهور». ولم يكن سافيني عالم حيوان من حيث إعداده التعليمي، بل كان عالم نبات. وكان بيرتولليه قد طلب من كوفييه، الذى اعتذر، أن يكون عضواً في الحملة مع إلحاحه على سافيني، الذى كان آنذاك في الثامنة والعشرين من عمره، بأن يوافق على الحلول محله، مشيراً إلى أنه سوف يتمكن دائماً من تثقيف نفسه في هذا العلم. أما جيرار فقد تكشف أنه شخص غير مبال بالمرة. وأما كوكيبير، الذى لا يعدو أن يكون حدثاً، هو الآخر، فسوف يصبح أميناً لمكتبة المعهد؛ وسوف يموت بالطاعون في ٧ أبريل ١٨٠١، عشية الجلاء عن القاهرة.

ومن بين علماء المعادن، فإننا ندين بالعمل الأساسي لروزيير، وليس لدولوميو، كما كان متوقعاً بشكل مشروع. والحق أن الحملة سوف تدمر حياة دولوميو. فهذا الفارس القديم من فرسان أخوية مالطة كان أحد رسولين - كان الآخر هو مدير الشؤون المالية بوسيلج - أرسلهما إلى ألبير بونابارت، قبل نزوله، لكى يطلبا من الراعى الأكبر تسليم الجزيرة. وفيما بعد، تعرض دولوميو للإحساس بضغينة ما تجاه بونابارت، لوضعه إياه بهذه الطريقة في وضع الخائن لأخويته. ولم يكن لديه الاستعداد ولا الأصل لكى يلعب دور جليس لهذا الفاتح الجديد. «إن ارتباطى بمشروع عسكرى، وضعنى (ولو بشكل غير مباشر)، تحت قيادة جنرال، قد أرهق خيالى [...]» حتى وإن كان هذا الجنرال هو بونابارت (١٢). وبعد قضاء ثمانية أشهر في مصر، يرحل عنها، مغادراً الإسكندرية مع مساعده كورديبه، في ١٠ مارس ١٧٩٩. ولما كانت العاصفة قد أرغمت سفينته على

الاحتماء بمرسى تارينت، فقد جرى الإلقاء به فى السجن، ومنعه من مخالطة أحد، على سبيل العقاب له من جانب فرسان مالطة اللاجئين، الذين تمكنوا من التوصل إلى تفاهم مع البوربون، الرعاة المتحمسين، فى مملكتهم فى نابولى، للثورة المضادة. وقد تم إخلاء سبيله بعد ستة وعشرين شهراً، نالت من حالته الصحية. وبعد عودته إلى باريس فى مارس ١٨٠١، حيث حاز على كرسى فى المتحف، لم يعش إلا ثمانية أشهر، ومات فى نوفمبر، بعد رحلة أخيرة فى جبال الألب.

إن اللوحة التذكارية الأكثر بلاغة لفتوحات العلم التى سوف تسجلها الحملة فى قائمة إيجابياتها، سوف يجدها المرء فى القسم الثالث من «وصف مصر»، فى هذه الألبومات الثلاثة للوحات، والمصاحبة لمجلدى نصوص، مكرسين للتاريخ الطبيعى. ولنشر على الفور أن المحصلة كلها تقدم فى آن واحد أكثر، وأقل، من ذلك التاريخ الطبيعى لمصر والذى كانت هناك رغبة فى تقديمه. فهو يظل دون المراد، من حيث أنه يظل جزئياً، بالرغم من ضخامة حجمه، ومن حيث إن تركيب النصوص قليل التوفيق، إن لم نقل أنه مشوش، بأكثر مما هو منهجى. وتتأكد أهميته بعد ذلك، من زاويتين : أولاً، من حيث إن المشاركين فيه سوف يواجهون مشكلات، وأحوالاً سعيدة غير عادية، سوف يكون لها صداها على عمل كل منهم وعلى تخصصاتهم، إيجاباً أم سلباً؛ ثانياً، من حيث إن المشروع بأكمله يجمع بين عوامل علمية وعوامل تاريخية واقتصادية واجتماعية وسياسية، أوثق ارتباطاً مما حدث قبل ذلك – أو حتى مما كان يمكن تصوره – بهذا التاريخ، فى دراسة أى بلد آخر.

فما الذى نجده فى التاريخ الطبيعى؟ كما هو الحال مع القسم الأول من «وصف مصر»، القسم الخاص بالعصور القديمة، سوف يجرى تناول (التاريخ الطبيعى) بشكل جد مرض بدراسة اللوحات، حيث تظل الإحالة إلى النصوص ثانوية، على شكل تتمة. وسوف يكون الأمر على خلاف ذلك بالنسبة للقسم الثانى الكبير من العمل، والخاص بالحالة الحديثة لمصر، الذى تعتبر مذكراته أكثر أهمية بكثير من لوحاته. وقد تم تسجيل لوحات التاريخ الطبيعى بين عامى ١٨٠٥ و ١٨١٤. وكان أربعة من المشاركين مسؤولين عن ذلك: جيفروا سانت – هيلير وسافينى، بالنسبة لعلم الحيوان، وديليل، بالنسبة لعلم النبات، وروزيير، بالنسبة لعلم المعادن. ومن حيث المبدأ، كان كل واحد منهم ملزماً بتقديم سلسلة من «الشروح» الملحقة بلوحاته، فى المجلدات التى تتضمن النصوص. والحال أنه لا

جيفروا ولا سافيني قد قاما بهذه المهمة، جيفروا لأنه لم يعد يريد ذلك، وسافيني لأنه لم يعد بوسعه عمل ذلك. وكان لابد من أن يقوم آخران بتقديم شروحهما، بعد نحو عشرين سنة من إنجاز اللوحات، فقد عهد بتقديم شروح لوحات جيفروا إلى ابنه، إيزيدور، وعهد بتقديم شروح لوحات سافيني إلى عالم طبيعيات ينتمي، هو أيضاً، إلى الجيل التالي، وهو فيكتور أودوان.

ويضم الجزء الأول الفقاريات، في ٦٢ لوحة، جرى تنفيذ ٤٢ لوحة منها وفقاً لمجموعات جيفروا، وجرى تنفيذ ٢٠ لوحة منها وفقاً لمجموعات سافيني. وهي تنقسم بحسب الفئات الأربع : الثدييات والطيور والزواحف والأسماك. وقد تكفل جيفروا بكل ما يتصل بعلم الأسماك، بينما تكفل سافيني بكل ما يتصل بعلم الطيور، وفي تلك الأثناء قدم سافيني، على شكل ملحق للوطاويط وللنمس وللأرانب البرية وللكباش وللتماسيح ولسلاحف جيفروا الأخرى، كاسرات وثعابين من عنده هو. ويشمل الجزء الثاني اللافقاريات، موزعة في ١٥ مجموعة – ثلاث فئات من الرخويات؛ قسم الحلقيات؛ ثلاث فئات من شبيهات الإنسان وثلاث مراتب من الحشرات؛ قسم شوكيات الجلد؛ وأربع مراتب تتمشى أيضاً مع اسم المريجات : الاسفنجات، القربيات، المليخات والطحالب – ، حيث يجرى تصوير المجموع في ١٠٥ لوحات، تضم الآلاف من الأشكال، وترجع كلها إلى سافيني. ويضم الجزء الثاني مكرر ٦٢ لوحة من المملكة النباتية، ترجع إلى ديليل و ١٥ لوحة للمعادن، قام بها رونيير.

أما اللوحات التي تترك الانطباع الأكثر قوة، من حيث وضوح السمات، ودقة التفاصيل، ورشاقة الكل، فإنها تظل السلسلة المؤلفة من ١٤ لوحة للطيور، الملونة، في الجزء الأول، ومجمل سلسلة الفقاريات في الجزء الثاني واللوحات الخمس عشرة للمعادن، الملونة أيضاً، في الجزء الثاني مكرر. ومثل هذا الوقع لا يرجع إلى المصادفة. إن سافيني ورونيير كانا يراقبان بدقة، وقد قدما عونهما النشيط إلى إعداد لوحاتهما، في حين أنه يبدو أن جيفروا وديليل قد اكتفيا بترك المهمة إلى فنانين رسامين، مكلفين برسم الرسوم الإيضاحية. وفقاً لنماذج من مجموعاتهما، ثم تسليم الرسوم إلى نقاشين. وبالنظر إلى المهارة والفن المتقن اللذين تمكن هذان الفريقان المهنيان من البرهنة عليهما، فإن النتائج تعتبر جيدة، دون أن تدعي أنها ممتازة. والواقع أن قوة الجاذبية التي أضفاها سافيني على اللوحات التي كان مسؤولاً عنها، إنما تتضح إذا ما اقتصر المرء على مقارنتها

باللوحات التى ترجع إلى جيفروا، فى الحالات النادرة التى حدث أن صورا فيها، كلا على حدة، حيوانات واحدة، كالنمس الأكل للفئران والحيات، أو إذا ما قمنا بمقارنة سلاسل كل منهما الخاصة بالثعابين. والنتيجة عظيمة بحيث إن لوحات سافينى سوف تشكل رصيداً، فى علم الزخرفيات بشكل أخص، بدلاً من أن ترد إلى مرتبة مجرد تصويرات عادية للنباتات وللحيوانات المصرية مخصصة لرحالة ملازمين لبيوتهم. (١٣)

وبالنظر إلى الأهمية الممنوحة للتاريخ الطبيعى، فإن المرء يندهش بادئ ذى بدء من أن إسهام علماء الطبيعيات كان أحد أكثر الإسهامات اختزالاً فى صحيفة لاديكاد إيجيبسيان كما فى مذكرات حول مصر. وخلال مداخلة جيفروا الأولى فى المعهد المصرى، كان عليه تلاوة مذكرة حول النعام، لا تعدو أن تكون مثالاً يتميز بالتبسيط، كما أنه اعتذر لكوفييه من «الكتابة للجيش» (١٤). وخلال إقامة سافينى فى مصر، فإنه لم يكتب غير مذكرة واحدة، حول زهرة اللوتس الزرقاء، لا تعدو أن تكون أثراً من آثار تكوينه كعالم نبات. وقد أسهم «أسلوبه جد الحاذق» فى إقناع زملائه الأكبر سناً، والذين كانوا حتى ذلك الحين متحفظين، بجدية الشاب وبدقته كعالم طبيعيات – إذا ما استعدنا كلام جيفروا الموجه إلى كوفييه (١٥). ومن جهة أخرى، فإن روزيير سوف يكتب مذكرة حول معادن وادى القصير، وقد قدم ديليل تقريرين، حول نبات السَّنا وحول فرع جديد، هو الليمون البحرى المصرى، أما جان – لوى – انطوان رينييه، شقيق الجنرال، فقد قدم مذكرتين، واحدة حول نخيل البلح والأخرى حول تأبير الجميز.

هذا هو كل ما هناك، وهو ليس شيئاً كبيراً. وأخيراً، فإن علماء الطبيعيات لم يكونوا هناك لنشر مذكرات، بل لأداء مهماتهم الرئيسية، إجراء ملاحظات وجمع عينات. وقد مروا بانتكاسة، حتى قبل أن يتسنى لهم الانكباب على العمل، وذلك عندما حدث، فى يوليو ١٧٩٨، إن السفينة لوباتريوت، التى كانت تنقل معداتهم العلمية، انقلبت بعد الاصطدام برصيف بحرى وغرقت. إن المباضع والميكروسكوبات وملاقط التشريح والكحول والأوعية والدبابيس وكراسات جمع الأعشاب والبراويز وأدوات صد الفراشات – كل أجهزتهم قد استقرت فى قاع مرسى الإسكندرية (١٦). وبالرغم من كل شىء، ففيما عدا الميكروسكوبات، كانوا قادرين على تجهيز ارتجالى لمعدات مرتجلة، وذلك بصعوبة أقل من الصعوبة التى واجهت المهندسين، الذين حرموا هم أيضاً من أدواتهم الدقيقة جداً، المعقدة والمتطورة من جهة أخرى. وينكب الجميع بحماسة على العمل، بالرغم من الموانع. وقد طاف جيفروا بمجتمع العلماء وصيادى السمك والفلاحين والحواة والأسواق والكهوف

تحت الأرضية وساحات عمليات الحرث تحت التربة، لكي يرسم ويُشَرِّحَ ويبين كل ماله – في زمنه أو في الأزمنة الأكثر إيغالاً في القدم – الفار، والقع بداه عليه. وقد استمرت حماسته حتى عودته من مصر العليا، في أوائل عام ١٨٠٠. ومنذ تلك الحين، وعلى فترات، سوف يؤدي المرض والإرهاق إلى وقف هذه الاهتمامات. وفي الأشهر الأخيرة لإقامته في الإسكندرية، من مارس إلى سبتمبر ١٨٠١، سوف ينكب بشكل خاص على التأمل الفلسفي. ومن بين علماء الطبيعيات، كان سافيني هو الوحيد الذي رافق قوة الحملة في سوريا. ومن جهته، لقد حافظ على نشاطه حتى في مرارات الأيام الأخيرة. وعندئذ، فإن خطر استيلاء الإنجليز، كغنيمة، على الرصيد العلمي الذي قاما بجمعه، سوف يوقظ طاقة جيفروا وسوف يعيده إلى العمل إلى جانب زميله الأصغر سناً.

وما أنقذاه هو مجموعات مهمة تماماً. وعند عودتهما إلى مارسيليا، سوف يحتاجان إلى ما بين أربعين وخمسين صندوقاً لتأمين نقلها الكامل إلى باريس. وكان على جيفروا أن يستخدم نحو ٣٠٠ بنتة – ١٥٠ لتراً – من الكحول الجديد، لكي يجدد السائل العكر الذي كانت تحضيراته التشريحية معرضة فيه لخطر التحلل. وقد وصل إلى تحقيق أهدافه وكلل عن طريق زملائه إهداء مجموعاته التشريحية من الفقاريات للمتحف. وكانت اللجنة المكلفة بفحص المجموعة مؤلفة من كوفييه ولامارك ولا سيبيد. والحال أن هذا الأخير هو الذي قدم التقرير، حيث توقف بشكل أخص أمام واقع أن الأشكال للحنطة تبدو مطابقة لأشكال الأنواع الحالية المماثلة لها (١٧). وبما أن سافيني لم يكن عضواً في الهيئة، فإنه، من جهته، سوف يحتفظ، في حوزته، بمجموعته الخاصة، وذلك لإعداد اللوحات التي كان عليه تسليمها لـ «وصف مصر». ويبدو أن الحشرات هي التي تشكل الجزء الأكثر ثراءً فيها وأنها هي التي سوف تقدم مادة مساهمته الجليلة في العلم المورفولوجي، دراسة أجزاء أفواه الحشرات والقشريات. وعلاوة على ذلك، فإنه قد ركب الهياكل العظمية لعدد من الطيور، وخاصة إيبيس، وهو موضوع كتاب سوف ينشره في عام ١٨٠٥، وسوف يرسخ سمعته لدى الجمهور (١٨).

جيفروا وسافينيه

لقد كانت لجيفروا وسافيني اهتمامات متماثلة واستعدادات متباينة. فلا الأول ولا الآخر قد ارتاح إلى التشريح لمجرد غايات علم قوانين التصنيف. وبوصف الأول والآخر من علماء الحيوان، لقد كان عليهما الانتقال من التصنيف إلى المورفولوجيا، لكن جيفروا كان

يستند إلى ذهنية الرومانسية بينما كان سافيني يستند إلى حرص على الدقة. وكان جيفروا يتميز بطبيعة سخية. ورسائله من مصر تفيض بتجليات التقدير والحب تجاه زملائه في المتحف، وبالأخص تجاه كوفييه، الذي يوجه إليه الجزء الرئيسي من رسائله. وسرعان ما يسبب حماسه حرجاً، بقدر ما أنه يظل دون تجاوب، ودون أن يجد تهدئات له، في المرات - التي لم تكن نادرة البتة - التي يتناوبه فيها الانزعاج والتساؤل عما إذا كان لم ينس. وقد بدأ بالفعل تحصص لستقطاب اهتماماته الأساسية. ففي العام ونصف العام الأولين لإقامته واللذين قضاهما بالكامل في التعرف على البلد، مرتبطاً بأوساط المعهد الأكثر اعتزالاً، ومرافقاً للمهندسين في استكشافاتهم لمصر العليا ولسيناء، والمشرط في يديه دائماً، كان مشغولاً بعلم الأسماك وبعلم الطيور وبعلم الزواحف وبالتشريح الأركيولوجي للحيوانات المحنطة، المستخرجة من سقارة أو من أماكن أخرى. وفي نهاية المطاف، سوف يتجاوز كل ذلك، في تأمل حول الأسباب النهائية، الأصلية، للأشياء. وما أدى إلى هذا التحول هو الإمساك، في البحر المتوسط، بعينات من الشفنينات البحرية الرعادة والأسماك المكهربة. وقد كتب إلى كوفييه، في ٤ فيندميير من العام العاشر (٢٦ سبتمبر ١٨٠١)، أنه فور وصوله إلى المعهد المصري، سوف يرسل «عملاً جد واسع حول الفيزياء والكيمياء و الفسيولوجيا » إن اكتشاف السائل العصبي والعنصر الحيوي قد قادني إلى نظرية جد واسعة؛ وأنا أرجو أن أعود إلى فرنسا جديراً بك وبزملائي المرموقين». ويتصل اكتشافه بتماثل السائل العصبي والسائل الحراري، وينطوي على إمكانية استخلاص الظواهر الطبيعية، بدءاً من تفاعل العناصر المكونة للسائل الحراري - الذي يتحد مع الأوكسجين، لتكوين الضوء - وللسائل الكهربائي. وبشكل لا مفر منه، كان لابد لمثل هذه الجهود [التي بلا طائل] أن تجعل من جيفروا هدفاً لسخرية فورييه الذي تمسك، منذ رحيل بيرتولليه، عن طريق «تهكمات جارحة»، بإثبات أن زملاءه جهلاء وأن تلامذته وحدهم، وهم مهندسون مدنيون، هم الذين يتمتعون بقدر من المعرفة. والحال أن هدف فورييه، في رأي جيفروا - كما أوضحه من مارسيليا -، كان يتمثل في «أن يكسب في أوساط الرأي العام صيت التبحر العلمي الفائق الذي جرت العادة في باريس على اختصاص لاجرانج ولا بلاس به (١٩)».

ذلك تماماً هو التأكيد الذي سوف نجده من جديد، ولكن بحجم أكبر، عندما نوثق تطور جيفروا في مرحلة النضوج، على مدار عمله العلمي، في مرحلته الأكثر إنتاجاً. ومنذ عودته إلى باريس، بدأ في نشر مذكراته، في مجلة آنال دي ميزيم دستوار ناتوريل، حول

الاكتشافات التى قام بها فى مصر : حول سمكة نيلية، غير معروفة قبل ذلك، مزودة بزعنفة ظهرية تتألف من ١٦ إلى ١٨ فرعاً منفصلاً، هى سمكة مزدوجة التنفس - بشكل أدق، سمكة براشيوبتيريجينية - سماها بالشتمية بيشير، نسبة إلى اسمها العربى؛ وحول سمكة مفلطحة، أو سمكة مبططة، هى الأشير باريو [سمكة مسطحة ذات زعانف بشكل اللحية] التى، بعينيها الماثلتين على جهة واحدة من الرأس، تسمحان بشكل لا يقاوم بالتفكير فى رسم لبيكاسو؛ وحول الأعضاء الكهربية للشفنينات البحرية الرعادة وللأسماك الكهربية المنملة وللجريات [أسماك نهرية بلا حراشف] الرعاشة؛ وحول تمساح النيل (٢٠). والحال أن استمارة عدد لا بأس به من هذه المذكرات، المعززة بتصوير لـ «السلحفاة النهرية»، أو سلحفاة مصر الكبرى، إلى جانب دراسة إجمالية لمجموعة الوطاويط، سوف تشكل الجانب الأساسى من مساهمته الشخصية فى كتاب «وصف مصر». ومن الواضح أن إيثاره يذهب إلى الحيوانات المثيرة. وفى هذا الصدد، فإنه يرتبط بشخص مثل بوفون، وفى هذا أيضاً، فإن أوصافه تنفتح على تصويرات، على الحيوانات بوصفها شخصيات، على عاداتها، ومسلكها، وربما على أخلاقها. إن إحدى مقالاته فى مجلة أنال تحمل عنوان «ملاحظات حول المودة المتبادلة بين بعض الحيوانات، وخاصة حول الخدمات التى يقدمها سمك الزامور [سمك صغير يتبع السفن] إلى سمك القرش (٢١)». على أن تشريحاته هى نتاج عمل بالغ الاحتراف. إن التفاصيل واضحة وضوحاً تاماً. والرسوم والأوصاف بينة. لقد استوعب استيعاباً عميقاً الأعمال التى تعالج المسألة. وكان قادراً على أن يميز، ببصر ثاقب، ما تمثله الجدة.

وخط القوة الحقيقى، الذى وجه اهتماماته، إنما يظهر فى سلسلة من ثلاث مذكرات حول تشريح الأسماك فى مجملها، نشرها فى عام ١٨٠٧. وقد أعلن أنه قد خطر له، «وأنا منشغل، هذه السنة، بمناسبة الإصدار الذى سوف يتم قريباً للعمل الرئيسى عن مصر، أن أضع اللمسات الأخيرة على دراستى عن علم أسماك النيل». وحتى ذلك الحين، كان منحازاً إلى الرأى الذى كسب التأييد، بين علماء الطبيعيات، والذى يذهب إلى أن التنظيم الداخلى للأسماك لا يبدى، من نواح عديدة، أى تشابه مع التنظيم الداخلى للفقاريات بوجه عام. والحال أنه عند استئناف الدراسة المتنبهة لمجموعة عيناته الخاصة التى عاد بها من مصر، والتى لا تقل عن المجموعة الثرية التى جمعها كوفييه، فإن ما يكتشفه بابتهاج هو أن الأعضاء نفسها، التى بدت عصية على أى مشروع للدراسة المقارنة، إنما تبدى فى الواقع تشابهات عميقة مع أعضاء فقاريات أخرى.

والحال أن هذا الانتقال إلى المورفولوجيا سوف يحول جيفروا عن علم التصنيف ويقوده، في النهاية، إلى تأليف كتابه الكبير، «الفلسفة التشريحية» (٢٢). وسوف تتمثل نتيجته في المواجهة المباشرة التي سوف تضعه في تعارض مع كوفييه، في عام ١٨٣٠، والتي أثارت الشك في فكرة جيفروا المحورية، وحدة المستوى التحتي لكل تنظيم عند الفقاريات (٢٣). وهو لن يقترب بعد البتة من تعليقات المخصصة لكتاب «وصف مصر». أما فيما يتعلق بالمساهمين، فقد تعين عليهم انتظار ذلك. وقد امتد انتظارهم وطال ولم ينته إلا في عام ١٨٢٤. وفي ذلك التاريخ، كان ابن جيفروا، إيزيدور، قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، وكان والده هو الذي حوله عن مسيرته العملية كعالم رياضيات، والتي كان الشاب قد استهدفها لنفسه، لكي يجعل منه مساعداً له ومعاوناً له في المختبر، ولكي يتولى أخيراً وضع تلك «اللمسات الأخيرة» على علم أسماك النيل، التي كان والده قد وعد بها بينما كان [إيزيدور] في الثانية من عمره بالكاد. وينطبق الشيء نفسه على ما يتعلق بالفصائل الأخرى، الزواحف والثدييات. وفي هذا القسم الأخير، فرغ جيفروا بنفسه من الجزء الخاص بالوطاويط، لكن ذلك هو كل ما حدث.

أما سافيني، من جهته، فسوف يدخل المسيرة العملية بعمل يتميز باتساع عظيم لوجوه النظر لكي ينتهي، خلافاً لجيفروا، إلى التخصيص الذي يبلغ أقصى مدى له. إن كتابه «التاريخ الطبيعي والميثولوجي لإيبيس» (١٨٠٥) هو عمل يتميز برهافة جميلة، يجمع بين التبحر الكلاسيكي والدقة التي يستوجبها علم الحيوان، في حجم موجز، متناسب تناسباً مرهفاً. ومع حفظ كل النسب، ومع مراعاة التفاوت العرض وسلطة الحجم، يمكن للمرء القول بأن سافيني قد حقق، على الضفة العلمية للحملة، ما تمكن دينون من تحقيقه على الجانب الأركيولوجي، بكتابه «رحلة في مصر السفلى والعليا» (١٨٠٢). لقد أثار خيال الجمهور. ورد الاعتبار إلى هيرودوت وإلى الكتاب الكلاسيكيين الآخرين الذين تحدثوا عن نوعين لإيبيس في مصر، الأبيض والأسود، مع تشكيكه، استناداً إلى نصوص عبرية، في زعم هؤلاء الكتاب أنفسهم أن هذين الطائرين غير معروفين في الأماكن الأخرى. إن علماء الطبيعيات المعاصرين، الذين لم يتمكنوا من تمييز إيبيس الأبيض، في بيئته الطبيعية الأصلية، قد خلطوا بينه وبين مالك الحزين في مصر السفلى، ولكونهم قد عزفوا عن تعريض أنفسهم للخطر في مصر العليا، حيث كان (الطائر) واسع الانتشار، فقد اكتفوا بأدلة النقوش الدقيقة، حيث تظهر صوره، بدلاً من أن يقوموا بتشريح المومياوات التي كان بالإمكان الحصول عليها بسهولة. أما فيما يتعلق بابن عمه، إيبيس الأسود، فإن علماء

الطبيعيات المحدثين لم يكونوا أقل ضلالاً، فهم لم يتمكنوا من أن يعرفوا بالمرة النوع المهاجر واسع الانتشار، والمعروف بالفرنسية باسم الكوروليس، وبشكل أدق باسم كوروليس إيطاليا. وهنا أيضاً منحوا لشهادات العصر القديم ثقة غير ملائمة بالمرة، من حيث إنهم قد انكبوا على البحث عن طائر يتغذى على الثعابين. إن سمعة إيبيس، في الأزمنة القديمة، قد جاءت إليه من التطور الذي أبداه تجاه الثعابين والعقارب، ومن الخدمات التي أداها بالتهام الثعابين، وبالأخص الثعابين المجنحة، والتي لولا ذلك لغزت بلاد الفراعنة ولمات بسمها سكانها. أما في الطبيعة، في واقع الأمر، وهو ما اكتشفه سافيني، فإن معدات إيبيس، أكان إيبيس الأبيض أم إيبيس الأسود، مليئة بالرخويات وبالقشريات. إنها طيور طويلة الساق تدبش بمنقارها الملوى إلى أسفل وحل المستنقعات وضفاف النهر، وهي عاجزة تماماً عن قتل الثعابين أو عن أكلها.

فمن أين إذاً جاءها هذا الدور الذي تنسبه إليها الميثولوجيا ؟ إن سافيني سوف يحاول تركيب عناصر الموضوع معتمداً على مخيلة تبرز ملامح معرفة راسخة بالكتاب اليونانيين واللاتينيين الذين تحدثوا عن مصر. فالواقع أن هذا الطائر لا علاقة له بالثعابين، التي لا تهدد مصر بحال من الأحوال، اللهم إلا بوصفها رموزاً للشر. كلا، لقد كان إيبيس محبوباً لأنه طائر يشتهي المياه العذبة والرطوبة، يصل مع الرياح الموسمية. إنه يجيء إلى حواف النهر، مبشراً بصعود المياه الآتية بالخصوبة. وهو يتبعها في انحسارها، حتى القنوات ومصارف المدن والكفور، بوصفه كائناً يتميز بالجمال وبالتعاطف، تذكر انحناءة منقاره الملطفة بالحياة وبالإنسانية، سمة اتحاد بين العالم المنزلي والطبيعة. ومن خلال دورته الموسمية، فإنه يدع نفسه يتطابق مع الزوديهاك ومع توت، الشبيه برأس إيبيس عطارد، الحائز لجميع المعارف والعلوم ورسول الآلهة، المختص بالشهر الأول من العام. وإذا كانت لجواف مومياوات إيبيس قد تحتوى على بقايا ثعابين، وهو ما يتأكد في أغلب الأحوال، في الواقع، فما ذلك إلا لأن من قاموا بالتحنيط كانوا حريصين على احترام حقائق تتجاوز التاريخ الطبيعي.

والحال أن سافيني، الذي يبلغ الآن السنة الثامنة والعشرين من عمره، ينكب على ذلك بترتيب وبدراسة مجموعته الخاصة، دون أن يهمل مجموعات اللافقاريات الموجودة في المتحف أو في أماكن أخرى، وذلك بهدف إعداد لوحات لكتاب «وصف مصر» ويحمل عدد من بينها الإشارة التالية : «رسمت ونقشت في ١٨٠٥ – ١٨١٢». وفي ٢٩ أغسطس ١٨٠٨، قدم تصنيفه الخاص بالطيور إلى الجمعية العمومية للجنة المحررين (٢٤). وهو يولي أكبر

حماسة للمهمة بين عامى ١٨١٠ و ١٨١٤، لأن القسم الخاص بالتاريخ الطبيعى قد تأخر منذ الآن عن القسم الخاص بالعصور القديمة، والقسم الخاص بالحالة الحديثة. وكان ينوى إتمام العمل وإرضاء هيئات الإشراف، التى كانت تبدى أمارات نفاد صبر متزايد. وسعياً إلى ذلك، فإنه يقرر تأجيل تسليم «شروح» لوحاته، على أساس أنها تبدو أسهل تنفيذاً، وروتينية تقريباً، منكباً بالأحرى على إتمام التصويرات نفسها، وعلى تقديم الاكتشافات المترتبة على أعماله، والمؤثرة على علم الحيوان فى مجمله.

وكان عليه أن يجمع هذه الاكتشافات فى كتاب، يظل كتابه الأهم، وهو «مذكرات حول الحيوانات اللافقارية»، المنشور فى عام ١٨١٦، والذى يشكل عملاً من أعمال المورفولوجيا، على غرار كتاب «الفلسفة التشريحية» لجيفروا، والذى يظهر من جهة أخرى فى الوقت نفسه تقريباً، وإن كان ينفصل عنه، أكان ذلك من حيث الروح أم من حيث الموضوع. ويتألف الكتاب من جزءين، حيث يضم الجزء الأول مذكرتين بينما يضم الجزء الثانى ثلاث مذكرات وكانت قد تليت كلها أمام الصف الأول للمعهد [العلمى الفرنسى]، فى الفترة الممتدة من أكتوبر ١٨١٤ إلى يناير ١٨١٦. والحال أن الكراسة الأولى، والتى ينحصر فيها الجزء الأول، المتمشى مع العنوان الفرعى «نظرية أعضاء أفواه القشريات والحشرات»، إنما تشكل نقطة الانطلاق، فى علم الحيوانات، لدراسة التماثلات بوجه عام، والتى سوف يواصلها القرن التاسع عشر. ونحن لا نجد فى هذه الكراسة أية تخمينات تأملية أو أية معالجة فلسفية حول مخطط الطبيعة أو أدنى قول مأثور أو حكمة أو خروج عن الموضوع. كما أننا لن نجد أى أثر لشىء من ذلك فى أى محرر آخر من محررات سافينى.

وهكذا فإن سافينى عندما شرع فى عام ١٨٠٢ فى ترتيب المادة التى جمعت فى مصر، كما يبين للقارئ فى تمهيده للموضوع، قد وجد أن من المستحيل عليه أن يحدد، لعائلات الحشريات والقشريات العديدة، خصائص تتطابق تماماً مع التصنيف الذى حدده لينيه، أى نظم أعضاء مرتبة دائماً ترتيباً واحداً، بحيث يمكن للشبه أن يتضح من نوع إلى آخر. وهو يلمح إلى أنه، بوصفه عالم نبات، هو القادر، بحكم تكوينه العلمى، على أن يفعل ذلك، فى حين أن علماء الحشرات يميلون دائماً إلى التنافس فى زيادة الملاحظات ممتنعين عن تعميمها أو عن إرساء أسس علمهم. والواقع أن ما لم يكن أحد قد حاول القيام به بعد قد اجترأ هو على الاضطلاع به. ولا مراء فى أن المهمة كانت فوق مستوى قواه: «لكننى أود بقوة أن أسهم بشىء فى اكتمال هذا العمل الرائع عن مصر، والذى يعتبر نشره مصدر شرف كبير للفرنسيين» (٣٥).

وقد بدأ بفصل الأجزاء الفمية والأعضاء الأخرى الخارجية، ورسمها كل واحد على حدة، وقد فعل ذلك بالنسبة لأعضاء الاغتذاء والحواس والتنفس والحركة، في نحو ١٥٠٠ نوع. وكان طول هذه الحيوانات، في غالبيتها، أقل من أربعة إلى خمسة خطوط (أقل قليلا من سنتيمتر واحد)، وكان طول بعضها أصغر من ذلك بكثير. وأمام هذه الآلاف من الرسوم المرتبة أمامه، وجد أن عناصر أجزاء الفم الواحدة تظهر في جميع الأشكال، وأن دراسة تبدلها، من نوع إلى النوع التالي، ومن جنس إلى آخر، ومن نظام إلى آخر، هي التي تقدم سلسلة المقارنات الأكثر انتظاماً والأكثر إيحاءً. وتتصل مذكرته الأولى بالفراشات وبالأرقيات (٣٦). وهو يتصدى في تلك المذكرة لحالة تعرضت لأنشط جدل، وذلك لأن باحثاً بحمى لاتريل كان يرى أيضاً أن العرشفيات، مع ذوات الجناحين، تمثل نظامي الحشرات اللذين تعتبر أعضاء الاغتذاء فيهما مختلفة اختلافاً جذرياً، في الحالة الأولى وفي الحالة الثانية لوجودها. وقد رأى كوفييه، من جهته، أن فكي دودة الفراش يختفيان تماماً، عند تحولها إلى فراشة. ووفقاً لما اكتشفه سافيني، الذي وجد أن من يكبرانه مخطئين، فإن الأمر ليس كذلك. فالفراشات وكذلك دوداتها، وكذلك مقدمات الأجنحة وعصبيات الأجنحة و جميع الحشرات الهراسة للأغذية، لها شفتان، شفة عليا، وشفة سفلى، ومخطمان وفكان، تحتل دائماً عين المواضع الخاصة بها. والحق أنها جد متبدلة، وجد مختلفة وجد مصغرة، بحيث أنه قلما يكون غريباً ألا يتمكن المرء البتة من التعرف عليها. إن الفكين، بوجه خاص، يبدوان كما لو كان مرشفاً دقيقاً، ملموماً على نفسه، ومؤلفاً من شطرتين لا يشبهان الفكين في شيء. والواقع أن سافيني، بهذا التشخيص، إنما يحدد التعريف المورفولوجي لمجموعة الحشرات بالمعنى المحدد للمصطلح، أي لمجموعة سداسيات القوائم، التي تتميز بست قوائم وبقرني استشعار، المجنحة أو غير المجنحة، الخاضعة للتحول أو غير الخاضعة للتحول.

ويبقى التقسيم الفرعي الثاني للافقاريات المفصلية (ترجع تسميتها بمفصليات الأرجل إلى زمن تال)، الخلخليات (كثيرات الأرجل)، والعنكبوتيات والقشريات، والتي كان لينيه قد أعاد تجميعها تحت اسم الحشرات. وهي موضوع مذكرة سافيني الثانية، حيث كان عليه أن يتذرع بالتماثلات، ببراعة وبجرأة تثيران الانبهار، مؤكداً أيضاً، وبرهانه، التشابهات التي حددتها الدراسة الأولى (٣٧). فهنا أيضاً، نجد أن الأجزاء الفمية هي مفتاح التصنيف فيما عدا أن بعض الأعضاء الموجودة في سداسيات القوائم غائبة تماماً في عدد من النظم والعائلات. وفي الحالات المشابهة، فإن الأعضاء التي تساعد على المضغ سوف

تكون مماثلة لتلك الأعضاء التي تخصصها نظم أخرى للتحرك. والمثال الأكثر وضوحاً لذلك هو السلطعونات. فهي تتميز بمخطمين ومزدوجين من الفكاك، و، بعد هذه الهياكل، تتميز كذلك بثلاثة أنواع من الفكاك الإضافية. ومن ثم يتضح أن الأعضاء المكونة للقوائم سلسليات القوائم قد تحولت إلى فكاك في السلطعونات، التي تتميز علاوة على ذلك بخمسة أنواع من الزوائد للحركة ؛ ومن هنا جاءها اسم عشاريات الأرجل، حتى عندما تحوز، إذا ما أخذنا في حسابنا القوائم – الفكاك، ستة عشر عضواً على شكل قوائم، تختص الستة الأولى منها بالاغتذاء. وفي المقابل المخالف تماماً، فإن النقّابات (حيوانات مفصلية بحرية تنقب الأرض) تتميز، شأنها في ذلك شأن العنكبوتيات، بغياب قرون الاستشعار، كما تتميز بغياب المخطمات والفكاك. لكنها تتميز، في المقابل، بزائدتين تؤديان دور الفكين، وتتلوان خمسة أنواع من القوائم الدوارة، والتي تشكل، عن طريق قواعدها، ما يشبه الفكاك، وتشكل، عن طريق أطرافها، كلابات مشابهة لكلابات مخطمات ملوية. ويحدث ذلك بشكل كامل بحيث يمكن للمرء القول بأن النقّابات تتحرك بمساعدة عشرة فكاك، هي في الواقع قوائم أيضاً، يشبه الأولان منها قوائم – فكاك العنكبوتيات، وهي مجسات لمسية محرومة من وظيفة التحريك – وتشبه الثمانية الأخرى قوائم هذه الحيوانات نفسها، وهي لا تملك عموماً وظيفة أكل بالمرة.

وقد جمعت المذكرات الثلاث التي تكوّن الجزء الثاني من المجموعة في ملزمة تحمل العنوان الفرعي «أبحاث تشريحية حول القربيات المركبة وحول القربيات البسيطة». والحال أن عدداً جد قليل من المذكرات التي تليت أمام المعهد، في تلك السنوات، هو الذي نال تقارير جد قوية وجد تفصيلية كتلك التي سوف تكرسها لأبحاث سافيني لجان من بين أعضاء مشاهير مثل كوفييه ولا مارك ولا تريبل. وسوف يستفيد كوفييه من المذكرتين الأوليين في هذه المجموعة، لكي يستعرض مجمل مجال المديخات (جنس حيوانات بحرية من المجوفات) والمريجات (حيوانات نباتية الشكل كالإسفنج وغيره) والقوارض المحارة، فالحق أن ملاحظات سافيني «تشكل فتحاً في تاريخ الحيوانات المركبة» (٢٨). والخلاصة أن سافيني قد بين أن تنظيم الألسيونات – وهو اسم يميل إليه منذ ذلك الحين، بدلاً من اسم المديخات، الأكثر غموضاً – هو أكثر تعقيداً مما كان متصوراً، وأن عدة أجناس من المريجات إنما تتصل بحيوانات مركبة، هي، في هذه الحالة، مستوطنات القربيات، وأن مجمل نظام هذه الحيوانات يبدو قريباً إلى أبعد حد من الرخويات.

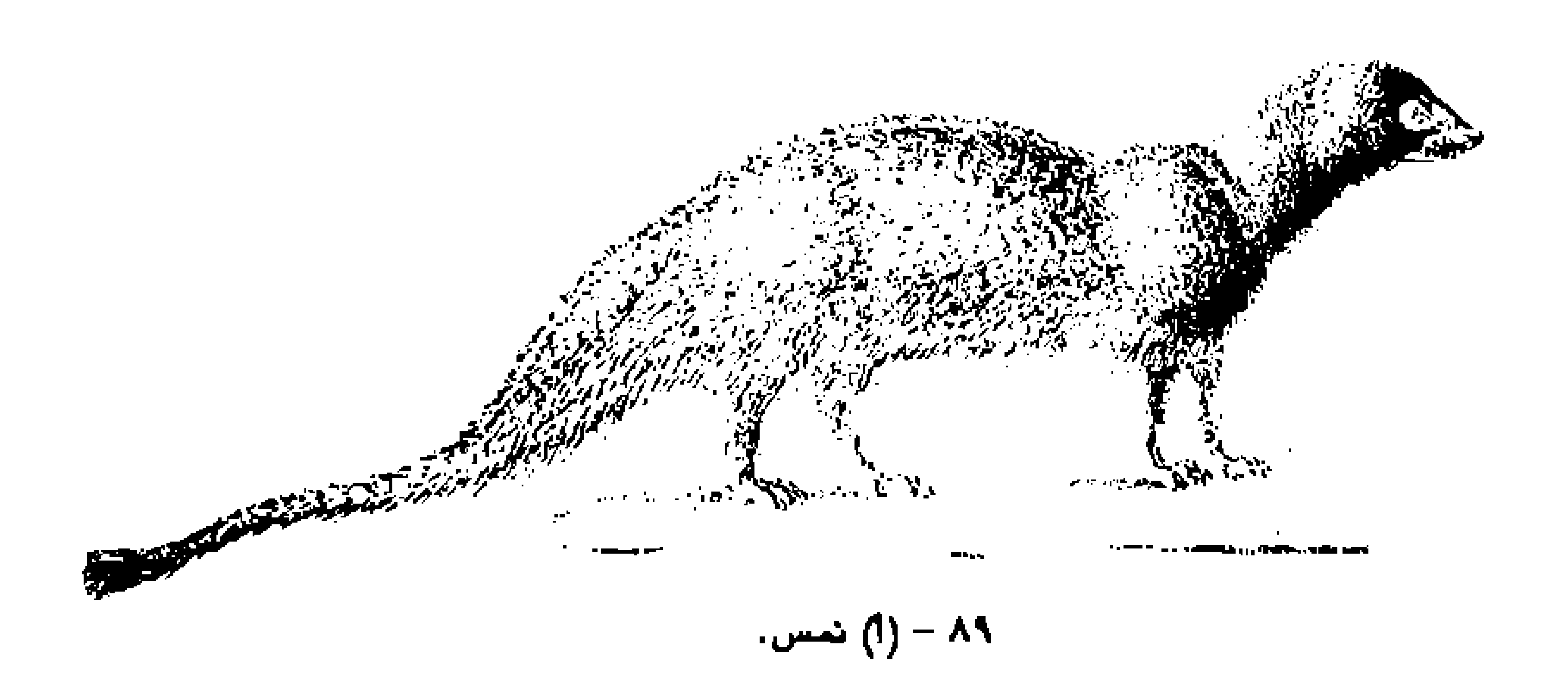
والحال أن الجزء الثاني من هذه المذكرات حول الحيوانات التي بلا فقارات والتي كتبها

سافينى، وهو الجزء الخاص بالقربيات – وليس الجزء الأول، الذى لا تزال له أهمية أكبر، حول نظرية الفم – ، سوف يجرى تنقيحه، لكى يظهر فى «وصف مصر»، شأنه فى ذلك شأن العمل الأخير الذى تمكن من استكماله، «نظام الحلقيات» (٢٩). وعند مواجهة الأنواع التى كان قد جمعها من البحر الأحمر ومن البحر المتوسط مع تلك الموجودة بالفعل فى المتحف، عمل على تطوير تصنيف هذه المجموعة جد الواسعة من الكائنات، والتى تتميز بتشوش معين، والتى كان كوفييه قد جمعها تحت اسم «الدودات ذات الدم الأحمر». وقد قام سافينى بتلاوة بحثه أمام المعهد، فى ثلاث مرات، من مايو إلى يوليو ١٨١٧، قبل أن يقدم نصها النهائى، فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٠. وفى تلك الأثناء، كان قد تعرض للإصابة الأولى بآفة عصبية سوف تحرمه، عملياً، من حاسة البصر، وتجعله عاجزاً مدى الحياة، عندما تعاوده من جديد، فى عام ١٨٢٤، «وهو فى ريعان العمر، ضحية لإخلاصه للعلم» – إذا ما استعملنا كلمات لا تريبل ولا مارك ، فى حين أن هذا الأخير قد وجد نفسه هو الآخر، فى أخريات أيامه، قريباً من أن يكون أعمى (٣٠). وقد افترض كل منهما أن سافينى لابد وأنه قد أصيب بـ «جرثومة» آلمته فى مصر، حتى مع أنه كان، وهذا من سخريات القدر، واحداً من القلائل الذين لم يصابوا البتة بـ «الرمد» جد المنتشر فى الصحراء.

ولم يتسن لسافينى قط أن يقدم للملاحظات التى كان من الواجب أن تكون مرافقة للوحاته. ولا يقتصر الأمر على أنه لم يكن بوسعه بعد أن يعمل، فلم يكن بالإمكان التحدث إليه عن عمله. ويأساً من القضية، فإن اللجنة المكلفة بالنشر قد قامت، تحت إلحاح من وزير الداخلية، الماركيز دو لاكوربيير، وفى عمل يؤكد ما لها من سلطة، بتكليف عالم الطبيعيات الشاب، فيكتور أودوان، بالوفاء بمهمة التعديلات والتفسيرات، قدر الإمكان، استناداً إلى مصادر ثانوية وإلى مجرد شهادة اللوحات نفسها (٣١). ويبدو تماماً أن أوليمب لوتيلييه دوسانتفيل، الذى صحب سافينى فى حياته، والذى لم يدخر جهداً فى رعايته رعاية مخلصة، قد اضطر إلى الانحياز إلى الفريق الداعى إلى عدم إبلاغه البتة بهذا القرار. والحال أن أودوان سوف يقترف العديد من الأخطاء ويهمل أشياء كثيرة أيضاً. أما فيما يتعلق بسافينى، فإنه لم يصب قط بالعمى التام، بل كان يجد أحياناً سبيلاً إلى القراءة إلى حد ما، وكان بوسعه أن يدرك ما حدث. وما تزال اعتراضاته وتصحيحاته واضحة، على نحو ما سجلها فى نسخته من «وصف مصر» ، والموجودة فى المكتبة البلدية لمسقط رأسه، مدينة بروفان (٣٢). ولما كان لم يعد بوسعه احتمال ضوء النهار، فقد اضطر، على مدار سنوات، وحتى موته فى عام ١٨٥١، إلى أن يلف رأسه بحجاب أسود، إذا ما تعين عليه أن

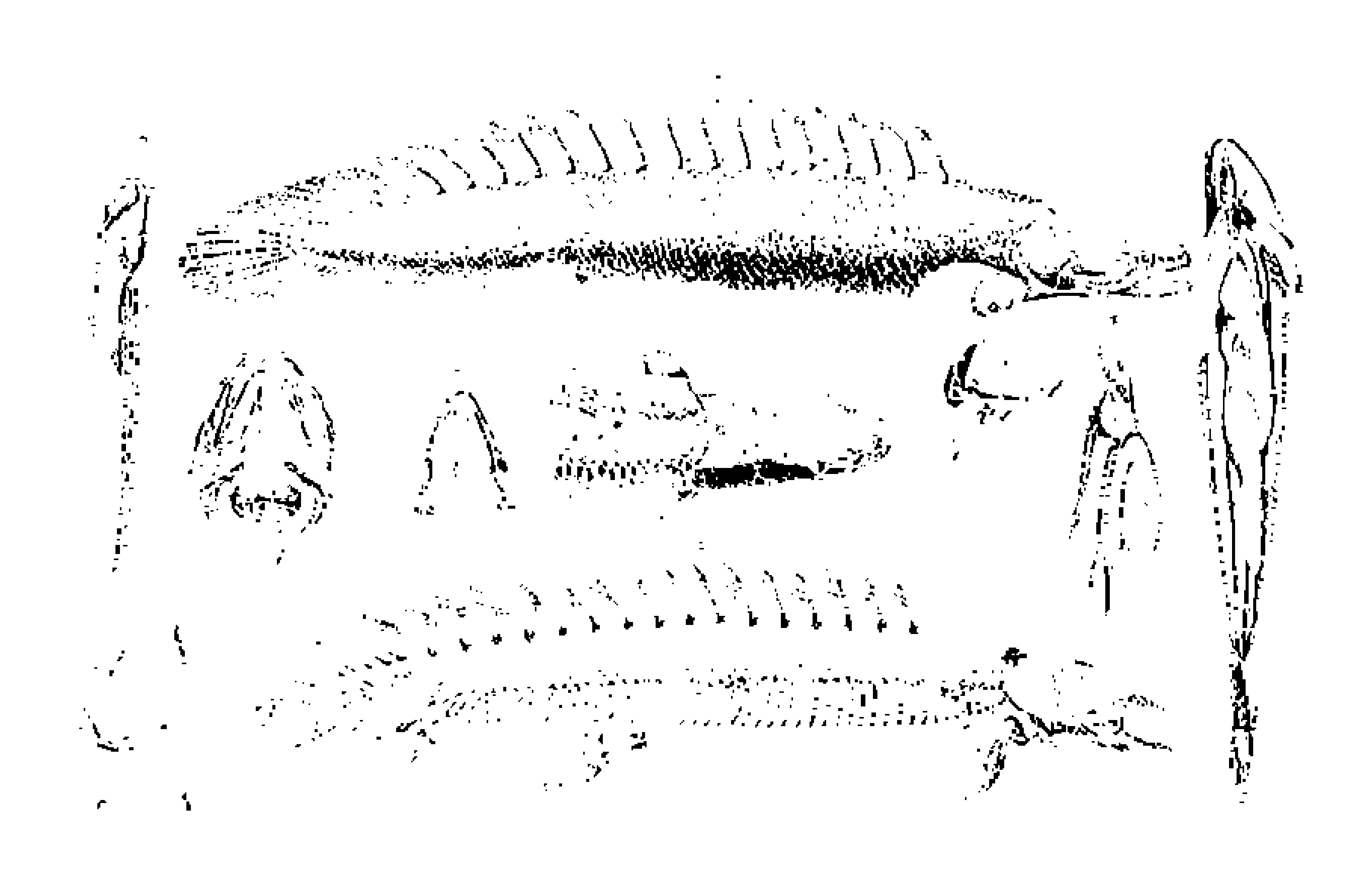
يستريح فى غرفة مفتوحة النوافذ. والحال أن المنشور الوحيد الذى بقى عليه الاضطلاع به هو عبارة عن وصف وتصنيف للهذبانات، ذات البنية شديدة التميز، والتى نتجت عن الانهيار المتواصل لإمكاناته البصرية (٣٣). وقد عاش حتى آخر أيامه، تقريباً، وفى رأسه نهار دائم.

ويظل علم النبات، فى صفحات «وصف مصر»، أقل تماسكاً، على المستوى العلمى، مما هو عليه الحال مع علم الحيوان (٣٤). وسوف يذكر جيفروا، فى رسالة مؤرخة فى بدايات إقامته، أن علماء النبات سرعان ما أحسوا بخيبة الأمل فى أن يجدوا فى مصر شيئاً لا يعرفونه بالفعل فى أوروبا (٣٥). وقليل جداً ما نشره عن مصر إيبوليت نيكتو، الذى كان قد مارس وظائف عالم نبات الصراى للملكى ومدير بستان الصراى الملكى فى بورت – أو – برنس (٣٦). أما (الباحث) الشاب كوكيبير فسوف يهلك من الطاعون، فى الأيام الأخيرة للاحتلال. والحال أن مذكرة صغيرة كان قد حررها، مقارناً فيها بين أزهار فرنسا وأزهار مصر، تظهر فى «وصف مصر»، من باب تكريمه بعد موته (٣٧). وفيما عدا هذا الاستثناء، فإن كل شىء إنما يرجع إلى ديليل. وسوف يسلم ٦٢ لوحة إلى الجزء الثانى مكرر، مصحوبة بـ «شروحها» فى المجلد الذى يتضمن النص الذى تتصل به (٣٨). وهو يجرى تصنيفاً لعدد من النباتات التى عمل على تصويرها، مع إرفاق أسمائها العربية، والتسمية الاصطلاحية التى وضعها لينّيه، إلى جانب مجموعات كبيرة أخرى (٣٩). وقد سلم، علاوة على ذلك، مذكرات حول النباتات البرية وحول النباتات المزروعة. ومذكرة أخرى أيضاً حول شجرة الدوم، كانت موضوع بحث مقتضب كان قد تلاه (٤٠). وكان ديليل مجتهداً، دون أن يبدى البتة الحماسة التى أبداها بلمث مثل جيفروا أو مثل سافينى. وفى عام ١٨٠٢، ذهب إلى أمريكا كنائب القنصل، مكلف بالشؤون التجارية فى القنصلية ويلمينجتون فى كارولينا الشمالية. وكان قد انهمك فى دراسات حول الطب قبل أن ينخرط فى حملة مصر، وسوف يستأنف هذه الدراسات، فى نيويورك وفى فيلادلفيا، ليصبح أستاذاً فى الطب فى عام ١٨٠٧. وقد جرى استدعاؤه آنذاك إلى باريس ليتولى الإشراف على الجزء الخاص بعلم النبات فى «وصف مصر». وسوف يقدم، فى عام ١٨٠٩، رسالته العلمية النيويوركية (حول الهزال الصدرى) أمام كلية الطب، وينشئ عيادة ويواصل فى آن واحد مهنته وإعداد نباتاته المصرية استعداداً للنشر. وفى عام ١٨١٩، سوف يعين أستاذ كرسى لعلم النبات فى كاندول، فى مونبلييه، التى أقام فيها حتى موته، فى عام ١٨٥٠ (٤١).

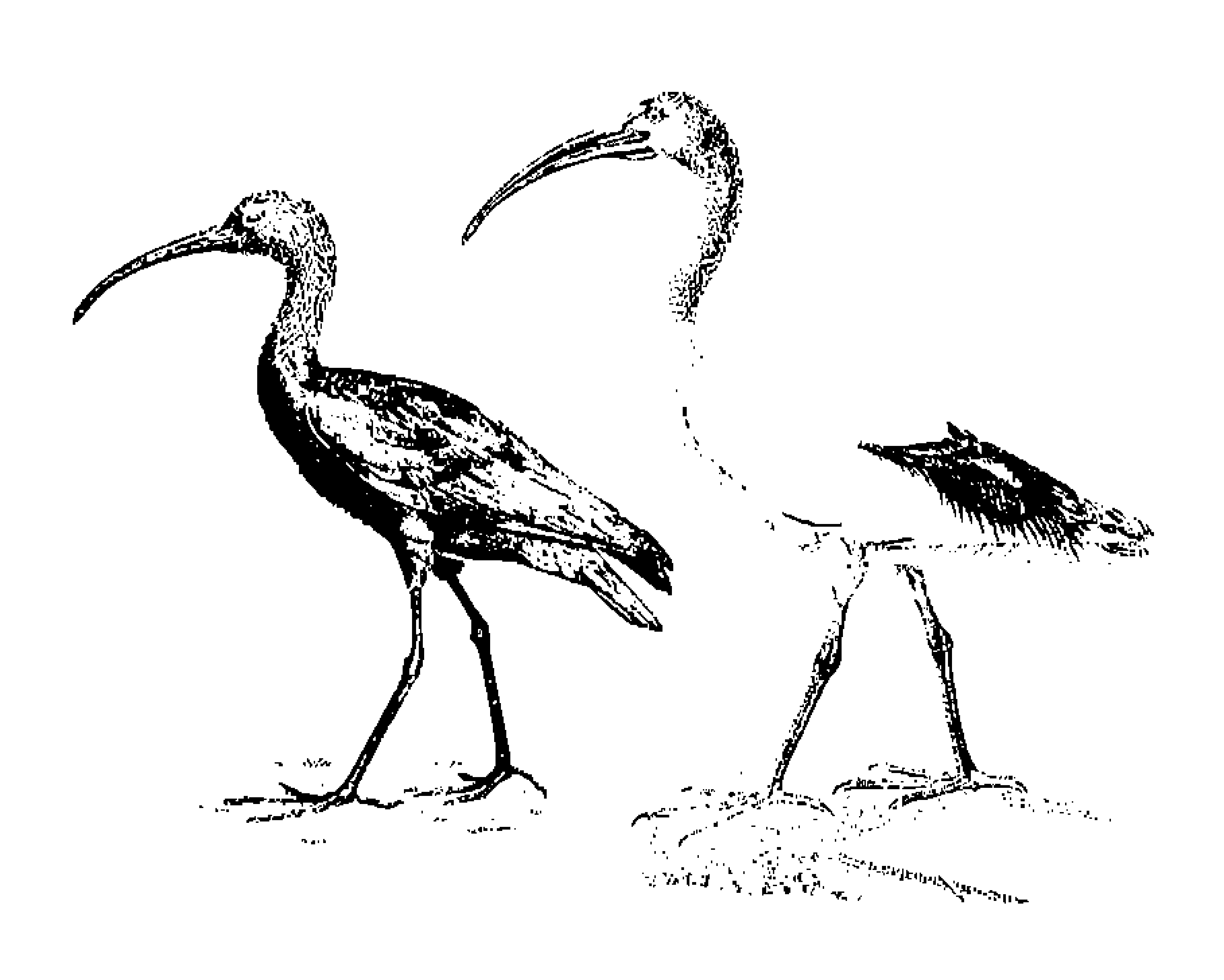


٨٩ – (أ) نمس.

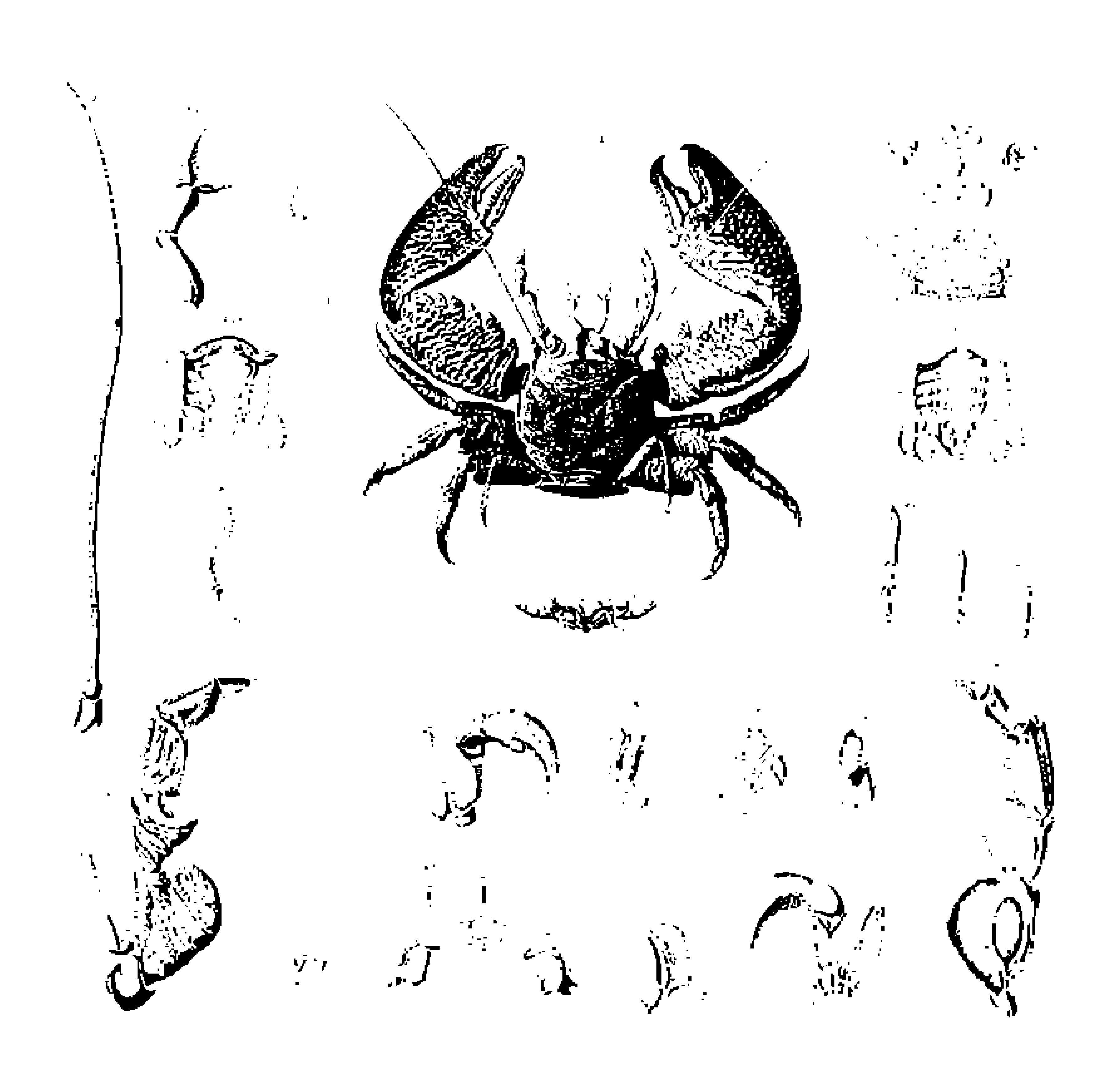
(ب) جرانيت شرقي.



٩٠ – السمكة النهرية الشنعية بيشير.



٩١ – ايبيس الأبيض أو المقدس، ايبيس الأسود.



٩٢ – سلطعونيات.

إن علم المعادن الذى يقدمه «وصف مصر» هو، فى المقابل، أكثر إثارة للاهتمام بكثير. فاللوحات الخمس عشرة تتميز بجمال فائق. وهى تتضمن ١١٢ تصويراً، كلها ملونة، تصور الصخور والتحجيرات الرئيسية، التى قوبلت خلال استكشاف البلد ودراسة آثاره. والحال أن صاحبها، فرانسوا – ميشيل دو روزيير، كان مهندس معادن. وسوف تشكل مساهمته فى «وصف مصر»، مساهمته الأولى والأخيرة التى قدمها إلى العلم والبحث. ويبدو تماماً أنه قد تعرض لنسيان كامل، ظالم تماماً بقدر ما أن هذه المساهمات تعتبر رائعة. لقد كان روزيير، بشكل واضح، رجلا واسع الاطلاع ومجتهداً فى آن واحد، يتميز بثقافة وبذوق وبمخيلة غير مألوفة، وإن كان الحديث يدور عن رجل ينتمى إلى جيل لم تكن هذه الخصال نادرة فيه البتة، بين أولئك الذين يميلون إلى فنون المهندس. وقد تمكن من أن يؤمن لنفسه تعاون مهندس آخر للمعادن، هو إيبوليت – فيكتور كوليه – ديكوتيل، إلى جانب تعاون مهندس شاب للبارود، هو جان – نيكولا شامبى.

وفى تلك المرحلة من تطور علم الأرض، كان علم المعادن لا يزال فى طريقه إلى الانفصال عن صميم التاريخ الطبيعى، ليتحول إلى جزء لا يتجزأ من علم الجيولوجيا الجديد تماماً. وقد خطط روزيير لوحاته بشكل واضح بحيث تشكل نماذج، موضحاً الخدمة التى يمكن أن يقدمها إلى العلم الجديد رسم الصخور، المنفذ تنفيذاً مناسباً. وكانت فنون الجرافيك، المستخدمة فى تصوير أشياء الطبيعة، قد وصلت إلى الكمال، فى السنوات الثلاثين السابقة. وقد استفاد روزيير من التباين الواضح، فيما يتعلق بالجمال وبالدقة، بين لوحات واحد مثل بوفون، والتى وصلت إلى الامتياز، فى زمانها، والتصويرات الأرقى بكثير، خاصة للزنبقيات، والتى تدين بها إلى ريدوتيه الأكبر. وكان لابد أيضاً من أن يتمكن الجيولوجيون من صوغ تصنيف دقيق وتسمية مصطلحية راسخة، تسمح بتعريف الأنواع المعدنية، باستخدام لغة منهجية. وكان يكفى روزيير أن يستشهد بأوصاف مختلفة لصخور مصر – كوصف دو سوسير : «صخرة ناتجة عن خليط من الصوان الشفاف والفلدسبات الصفر والتورمالين الأسود على شكل صفائح صلبة بدرجة متوسطة» – حتى يبين أنه لا رجل العلم ولا الرجل العادى، حين يقرأ هذه السطور، لا يمكن أن يرضى عنها إلا إذا كانت مصحوبة بعينة أو تصوير للمعدن المقصود. وحتى من يمكنه دخول

معمل لعلم المعادن، يمكنه أن يحصل على فوائد معينة من تحليل تصويرى. ويمكن الاضطلاع بذلك بحيث يبدى السمات المميزة لمعدن محدد، لا مراء فى أن المرء لا يجدها البتة مجتمعة فى أية عينة. وكان بالإمكان، ومن الضرورى من جهة أخرى، توضيح عناصره بالكتابة، لكن الشكل الخاص وحجم كل عنصر من العناصر، والألوان والفوارق الدقيقة، وخاصة التراكيب، هذه السمات لا يمكن توضيحها إلا عن طريق التصوير الجرافيكى [٤٢].

تلك كانت الاعتبارات النظرية التى هيمنت على تخطيط ورسم لوحات علم المعادن. وقد جرى تنفيذ أغلبها على يدى كلوكيه، أستاذ الرسم السابق فى مدرسة المعادن، بينما كانت اللوحات الأخرى من عمل أميهيه وريتميه. وقد تقاسم ستة نقاشين مهمة إعداد اللوحات، معتمدين فى أغلب الأحيان على تقنيات متنوعة - الرسم بالنقش، الرسم بالنقط، الرسم بواسطة المنمت - لتوضيح تنوعات وجه الصخرة الواحدة. وكان الخط جد دقيق بحيث يصعب تصور سحب طباعى ملون عن طريق تمرير لوحات متعاقبة. ومن ثم فقد تم اللجوء إلى لوحة واحدة، تسحب فقط اللون المهيمن. وبعد ذلك، كان يجرى إضفاء لمسات جديدة باليد على كل ورقة، كما كانت تتطلب تلك التقنية التى أعلى من شأنها بوتيه. وفور تجهيز التصاوير، كانت تقدم، ليس البتة وفقاً لنظام تصنيف خاص بعلم المعادن، بل بالأحرى وفقاً للتوزيع الأشياء نفسها، فى مصر، والحال أن غاية «وصف مصر»، على أية حال، لم تكن تتمثل إلا فى «تقديم دراية تامة بهذا البلد». وهكذا فإن اللوحة الأولى تبين أنواع الجرانيت، «صوان» الكتاب القدماء، والملحوظة فى منطقة أسوان والشلالات؛ وتبين اللوحة الثانية الرخام السماقى فى الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر؛ وتبين اللوحة الحادية عشرة الأصناف الأحفورية لضفاف البحر الأحمر. ومن جهة أخرى، فى مدخل المؤلف، وفى الجزئين الخاصين بالعصور القديمة وبالحالة الحديثة، كما فى الجزء الخاص بالتاريخ الطبيعى، فإن مذكرات أخرى مكرسة للطوبوغرافيا أو للزراعة - ويرجع عدد منها إلى روزنيير نفسه - قد عالجت من آن لآخر أحوال معادن أقاليم مختلفة. لكن الاستعراض كان بعيداً عن أن يكون تاماً، وقد اضطلع بإغفال الكثير من المعلومات التفصيلية عن الأقاليم المهملة، بحيث تكون «شروحه» ملحقاً لهذه المذكرات [٤٣]. وفى عداد هذه المذكرات يبرز، فى مكان مناسب، عرضه الخاص عن «التكوين الطبيعى لمصر»، والذى أضاف إليه، من ثم، هذه «الشروح»، على شكل ملحق [٤٤].

ويحدد عنوان هذه المذكرة أيضاً «وعلاقاته بالمؤسسات القديمة لذلك البلد». والواقع أن مثل هذا العرض، الذى يتخذ حجم كتاب، للجغرافيا الطبيعية، والذى يرجع إلى مهندس معادن، غير معروف من جهة أخرى، إنما يعتبر جد مميز للمسؤوليات ذات الأهمية البالغة الاتساع التى أخذها المشاركون فى «وصف مصر» على عاتقهم. وكان من شأن هذا العمل، لو تولاه آخرون، أو لو جرى الاضطلاع به فى سياق أيديولوجى آخر، أن يبدو عملاً متعجرفاً. ويتمثل الأمر فى أن روزيير قد أراد إثبات كيف أن الحضارة تنبع من شروطها المادية. على أن تحركه يلتزم التزاماً رصيناً بالحقائق. وهو يرى أن مصر، أكثر من أى بلد آخر، تستدعى مثل هذا التحليل وذلك، أولاً، بحكم أهميتها التاريخية، من حيث كونها أصل الحضارة، وثانياً، لأن الظروف الطبيعية، التى تحكم الحياة فى المجتمع، إنما تتوقف هناك بدرجة كبيرة إلى ظرف الاعتماد على النيل. فما من بلد آخر يوضح مثل هذا الاعتماد لمجتمع جد متطور، خاضع لمجموعة فريدة من العوامل الطبيعية، التى يمكن دراسة كل منها على حدة.«[...] ذلك هو ما أملى بشكل إجبارى الأعراف الأولى، وحدد طابعها وذلك أيضاً، على ما يبدو، هو الأقل تغيراً» (٤٥). والحال أن الوقوف على الحالة الطبيعية لمصر هو الذى سوف يزيدنا علماً، ليس فقط فيما يتعلق بشعوبها الأصلية فى العصر القديم، وإنما أيضاً فيما يتعلق بإدراك أعراف الشرق واليونان وشعوب أوروبا القديمة. إن عناصر أنساب آلهتها، وفنونها ونظم مقاييسها وأساليب تقاويمها ومفاهيمها الطبيعية والفلكية، إنما ترجع كلها إلى مصر. وكان روزيير نفسه على علم بما كان معروفاً عن أصول الزوديك وتقسيمات السنة والشهور واليوم والمقاييس ووحدات القياس الخطية وذوات الزوايا. والحال أن بحثه لنظام المصريين المترى، وهو موضوع يتميز بجاذبية شديدة لدى العلماء، والذى سوف يستلفت انتباه مهندسين آخرين من زملائه، إنما يظل بلا مراء المساهمة الأكثر استحقاقاً للاهتمام فى هذه المذكرة الضخمة والتى تعتبر مصدراً غنياً بالإيحاءات المثيرة (٤٦).

الطوبوغرافيا والإحصاء وعلوم الإنسان

فى الترتيب الأولى المحدد لكتاب «وصف مصر»، كان من المقرر أن تشكل الطوبوغرافيا القسم الرابع، أو بالأحرى الأول، من العمل، حيث يسبق، إذا ما رسمنا إطاره، العصور القديمة والحالة الحديثة والتاريخ الطبيعى (٤٧). لكن هذا الترتيب سوف يتعرض

للاختلال وذلك بسبب ضروريات الأمن العسكرى حين جرى إبلاغ اللجنة المكلفة بالعمل، حيث لم يكتب الدوام طويلاً لصلح أمبان، بأن الإمبراطور قد أمر بوجوب أن «تظل» خريطة مصر «سراً وأن تكون سراً من أسرار الدولة» (٤٨). وفى عام ١٨١٤، يصدر أخيراً التصريح، من جانب عهد عودة الملكية، بنشر الخريطة الطوبوغرافية لمصر ولعدة أجزاء من البلدان المجاورة، على شكل ملحق للعمل فور إنجازه. ولن تظهر إلا فى عام ١٨٢٨. ولهذا، فإن المذكرات التى قصد بها أن تشكل ملحقاً لها، سوف يجرى توزيعها فى مجلدات النص التى تتضمن الأقسام الثلاثة الأخرى، حيث تبرز، فى غالبيتها، فى نهاية الأمر، فى الأجزاء الثلاثة الخاصة بالحالة الحديثة. أما الخريطة نفسها، ومقياس رسمها 1/100 000 ، فهى مقسمة على ٤٧ ورقة، مرقمة ترقيماً مرتباً، من الجنوب إلى الشمال، حيث تبدأ بالشلالات وتنتهى من خلال التدرج بشكل يشمل الدلتا وسيناء وسوريا. وفى ارتباط معها، وبشكل يؤدى إلى تحقيق التركيب، تجىء «الخريطة الجغرافية» المؤلفة من ثلاث ورقات، ومقياس رسمها 1/100 000. كما أن «لوحة تجميع»، فى ورقة واحدة، تضع كل جزء فى مكانه، فى مشهد كلى لمصر برمتها. والواقع أن إجمالى سبعة وثلاثين فرداً من قوة الحملة كانوا قد اتجهوا إلى عدد من عمليات قياس، على هذه الدرجة أو تلك من الأهمية : سبعة مهندسين جغرافيين، ثلاثة عشر ضابطاً من ضباط سلاح الهندسة، اثنا عشر مهندساً من مهندسى الجسور والطرق، اثنان من طلبة الهندسة، وثلاثة جنرالات (أندريوسى ورينييه وسانسون) (٤٩). ولدى عودتهم إلى فرنسا، تلقوا كلهم أمراً بأن يسلموا ما لديهم من رسوم كروكية، إلى جانب البيانات التى قاموا بجمعها، إلى مستودع الحرب العام. وقد تم هناك رسم الخرائط ونقش الزنكات، تحت قيادة الكولونيل بيير جاكوتان، من قوة المهندسين الجغرافيين، والذى كان هو نفسه قد وجه الأعمال فى الساحة، فى مصر. وسوف يتطلب إعداد الخرائط جهد ٢٢ نقاشاً.

والحال أن اللوحات تشكل روناً رائعاً وأن الأطلس يشكل انتصاراً للفنون الجرافيكية. وعند مقارنته برسم الخرائط المتوافر لذلك، عن مصر، فإن المرء يكون محقاً عندما يرى فيه عمل محترفين. والحال أن ما وجه خطوات الحملة هو عبارة عن خريطة جميلة تماماً. وكانت قد رسمت فى عام ١٧٦٥ من جانب راسم خرائط غير مهنى، هو الفارس دانفيل، الذى فعل ذلك من خلال جمع الكتب والخرائط السابقة. إلا أننا إذا سعينا إلى تقييم الخريطة الطوبوغرافية لمصر، استناداً إلى القواعد المقررة لرسم الخرائط فى عام ١٨٠٠، فإن الحكم سوف يكون مع ذلك بين بين. فالواقع أنها لم تكن، من الناحية الفنية،

على المستوى، ولا يرجع ذلك إلى مجرد أن النموذج المرجعي، خريطة فرنسا التي رسمها كاسيني، كان قد أصبح قريباً من أن يكون بائداً؛ بل إن الظروف نفسها قد حالت دون تطبيق إجراءات ذات دقة مماثلة في الساحة – وفي المقابل، على مستوى المفاهيم، فإن خريطة مصر، قد مثلت تقدماً على زمانها. فقد بشرت برسم خرائط الموضوعات الذى سوف يطوره القرن التاسع عشر، استجابة لاحتياجات السلطات العامة، التى لا يمكن أن يلبيها مجرد رفع للتضاريس الطبيعية – فمن بين هذه الاحتياجات بيان طرق المواصلات، مثلاً، أو الموارد الطبيعية والتوزيعات السكانية أو التوزيعات الإقليمية للنشاط الاقتصادى.

والحال أن المرجو، وطبقاً لاعتراف جاكوتان نفسه، فى مذكرته، (مذكرة حول تركيب خريطة مصر)، كان يتمثل فى استخدام الإجراءات العلمية الأكثر دقة للاضطلاع برفع محكم للبلد. ذلك أن الهندسة قد ابتكرت فى مصر. وكان لابد من قياس خطوط القياس فى الساحة، وتحديد طول قوس من أقواس خط الزوال، وهى عملية لم تستكمل قط، فى خطوط العرض التى كان المرء متواجداً فيها، وتكوين سلاسل مثلثات على كل الأرض، على نحو ما فعلت تلك خريطة كاسينى بالنسبة لفرنسا، وتحديد المجمل المساحى المستنتج من الملاحظات الفلكية. ولم يكن بالإمكان تصور شيء على هذه الدرجة من الطموح. وكان لابد لوحدات الطوبوغرافيين أن تطلب إرسال حراسات مسلحة، كما كان ذلك هو الحال بالنسبة للمهمة التى تصدت للمشروع الذى تمتع بتأييد بونابارت، أى المهمة المحددة المتمثلة فى الاضطلاع من جديد بتحديد المسار القديم الذى كان يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، فى العصور القديمة (٥٠). وكان لابد للنتائج من أن تتأثر بضياع معدات التحديد، التى اختفت فى أغلبها عند جنوح السفينة لوباتريوت، والتى اختفى ما بقى منها خلال نهب المقر العام، الذى كان يشغله كافاريللى، خلال انتفاضة أكتوبر ١٧٩٨. إلا أنه حتى لو كانت هذه المعدات المتقنة متوافرة، لما كان بالإمكان استخدامها لإجراء رفع طوبوغرافى لمجمل البلد. فلم يكن هناك توافر لمشغلين مؤهلين لها. ولم يكن هناك وقت. وكل ما كان يمكن تصوره هو الارتداد إلى الإجراءات الأكثر قصوراً، القياسات أو الرسوم الكروكية للاستطلاع، اعتماداً على مهندسين طوبوغرافيين يعمل كل واحد منهم من جهته.

ويتصل الأمر بمجموعتين من الإجراءات التى لا يستهان بها، وعلى أيدى المطبقين الأذكياء لها، فإنها تلبى بشكل طبيعى متطلبات القضية. ومن مساحة إجمالية قوامها ٣٠١٠ فراسخ مربعة (لأن المهندسين، فى مجموعهم، كانوا ما يزالون يفكرون، ويجرون

حساباتهم ناشئاً، من زاوية الوحدات القديمة، مخصصين النظام المترى للتقارير الرسمية)، كانت مساحة نسبتها نحو ٤٠٪ فقط رفع بآلة المسح وبالمطمار (قياس من ١٠ أمتار) وبمقياس المساحة (مقياس زوايا مدرج، مزود بعضادة (جزء من آلة لمسح الأراضى) متحركة)، فى حين أن بقية المساحة قد رفعت بالخطوة، لقياس المسافات، وبالبوصلة، فيما يتعلق بالزوايا. وفى الحالة الثالثة، لرفع منفذ عن طريق التثليث (مسح أرض بالاستعانة بعلم حساب المثلثات تسهيلاً لرسمها)، فإنه يكفى، من الناحية النظرية، تحديد نقطة فلكية واحدة لتحديد إحداثيات (خطوط العرض والطول التى تتعين بواسطتها المواقع على سطح الأرض) الشبكة. وفى الظروف المتواجدة، فى مصر، فإن عالم الفلك الأكثر حنكة فى اللجنة، وهو نيكولا – أنطوان نويه، قد كثف الملاحظات، لتحديد خطوط عرض وخطوط طول إجمالى ٣٦ موقعاً، لتخفيف الأخطاء المرتبطة بتنفيذ عمليات القياس (٥١).

ومنذ وقت بعيد، فإن نويه، عميد المعهد (المجمع العلمى) المصرى، قد ظهر فى مظهر كادح، إن لم نقل دابة حمل، علم الفلك. فعمله فى مصر، وقد كان عملاً غير عادى، كان مكرساً برمته لتحديد ولتبويب البيانات الفلكية والأرصادية. ويبدو أنه قد تمكن من صون أجهزته، بين أمتعته الشخصية. وهكذا فقد كانت بحوزته دائرة مضاعفة من طراز بوردا، قطرها ٢٥ مم، ومنظار أكروماتى (منفذ للضوء بلا تحليله) من طراز دولوند يتميز بانفراج قدره ٣٣مم، مركب على قائم نحاسى، وربع دائرة نصف قطرها ٢٥سم، مركبة على عمود نحاسى أيضاً، وميقات من طراز لوى بيرتو، رقم ٣٤ فى سجلات الصانع، إلى جانب بوصلتين، واحدة لرصد الانحراف وواحدة لرصد الميل. ومن المؤكد أن تحديد خطوط العرض لم يستتبع سوى تدخل العملية البسيطة نسبياً، التى تتمثل فى رفع ارتفاع الشمس، فى موعد محدد. وبالنسبة لتحديد خطوط الطول، كان لابد من إجراء مقارنة، بالنسبة لتلك الأحداث الفلكية المحددة، بين الساعة التى تحدث فيها فى مصر، وساعة ظهورها المتوقع، من زاوية المتوسط الزمنى فى خط الزوال فى باريس. ويقدم تفاوت المواقيت قياساً للتفاوت فى خط الطول، بواقع ساعة لكل ١٥ درجة. وقد استند نويه، من جهته، فى أغلب الأحوال، على ملاحظة خسوف توابع كوكب المشترى، ليس دون مراعاة احتجابات كوكب الزهرة وكوكب المشترى بالقمر، وكذلك احتجاب النجم δ من مجموعة برج العقرب. وكان بوسعه الرجوع إلى نسخته من كتاب معرفة الأوقات، إلا أنه لم يتخلف عن التحقق من عدد من تقويماته الفلكية، لدى عودته إلى باريس. وفى أيامنا أيضاً،

يستطيع السائح أن يرى النقوش التى تذكر بتحديداته، على نحو ما نقشها إزميل الخدمات كاستيكس على حجارة معابد فيلة والكرنك. ولابد أنها كانت صحيحة تماماً. فقد حدد موقع الإسكندرية ما إن تمكن من وضع قدميه على الأرض، حيث نفذ أيضاً تثليثاً للمدينة وللمناطق المجاورة لها، بالإتفاق مع ضابط البحرية فرانسوا - مارى كينو، مثلما فعل بعد ذلك، مع شركاء آخرين، فى القاهرة. إلا أنه، قبل وصوله إلى هناك، أدى حدث وقع فى رشيد إلى إفساد حركة ميقاته. وقد شاءت الصدفة أن يكون عضو آخر فى فرقة الحملة، هو عالم الفلك جوزيف بوشان، حائزاً هو الآخر لميقات من طراز بيرتو، رقم ٢٩، وقد تركه لذويه حتى يتسنى له استخدامه. على أن صعوبات درجة الحرارة سوف تؤثر على انتظام حركته، وذلك بشكل أخص خلال حملة سوريا. وسوف يستأنف ذويه رصد مؤشرات المواقيت، المرفوعة بعد ذلك، بإحالتها إلى الملاحظات التى اضطلع بها فى الإسكندرية، لتحديد التصحيح الذى يجب إدخاله عليها، بما يعوض هذا المصدر الجديد للخطأ، دون أن يتمكن على أية حال من الوصول إلى ذلك، إلا جزئياً. ولدى عودته إلى باريس، وهو بسبيله إلى نقل النتائج التى توصل إليها، اعتمد الإجراء الذى حدده نيودبز دو سيهور بالنسبة لخريطة كاسينى، لحساب الإسقاط على خط الخريطة. وسعياً إلى ذلك، فإن نقاط تقاطع على فواصل قدرها ٣٠ دقيقة من قوس الطول أو قوس العرض قد وضعت بشكل تدريجى، وكذلك النقاط الجغرافية الأساسية الست والثلاثين، فى نظام الإحداثيات المتعامدة المحدد بخط الزوال المار على قمة هرم الجيزة الأكبر، وبالخط الموازى لخط العرض المار على النقطة نفسها.(٥٢)

والحال أن «وصف مصر»، فى مذكراته ودراساته المكرسة للطوبوغرافيا، يستجيب بأكمل الأشكال لهدفه المعلن، على نحو ما يبينه عنوانه. ويتضح أن المصطلح إنما يتضمن فى آن واحد إعادة تركيب السمات الظاهرة لمكان، ورصد ما يجرى فى هذا الإطار، لأن الوصف، وهو إلى حد بعيد من عمل مهندسين، إنما يتصل بمجتمع البشر، الذى يعاد وضعه فى إطاره الطبيعى. وفى ٢٨ بروميير من العام الثامن (١٩ نوفمبر ١٧٩٩)، منذ عودة أعضاء البعثة المكلفة بدراسة آثار مصر العليا إلى القاهرة، أنشأ كليبر «لجنة المعلومات حول الحالة الحديثة لمصر»، والمؤلفة من أعضاء المعهد. وقد توزعت على عشر لجان فرعية الأعمالُ التى كان عليها الاضطلاع بها، حيث تألفت اللجنة العاشرة، لجنة «الجغرافيا والهيدرولوجيا»، من جاك - مارى لوبير، رئيس مهندسى الجسور والطرق،

الذي كان قد قاد عمليات رفع قناة القدماء، من السويس إلى البحر المتوسط، ومن بيير جاكوتان، القائد للمهندسين الجغرافيين. ولا يبدو بشكل واضح ما إذا كان الأمر الصادر بإجراء «استقصاء» يكون جزءاً لا يتجزأ من رفع الخريطة قد صدر بمبادرة منهما أم بمبادرة من لجنة الإشراف. وأياً كان الأمر، فإن جاكوتان ولوبير هما اللذان وضعا التوجيه الدقيق، الموجه إلى المهندسين الذين اضطلعوا بعمليات القياس.

وينقسم (هذا التوجيه) إلى ثلاثة أجزاء. فقد حدد الجزء الأول الإجراءات التي يجب استخدامها لرفع الخريطة، في الساحة. وحدد الجزء الثاني عناصر جدول يجب ملؤه، من عشرة خانات. وقد حدد الجدول رقم ترتيب لكل موقع، وقد ورد اسمه بالعربية وبالفرنسية. وكان على المهندس أن يسجل الاسم، من زاوية علم الأصوات أو «بالأحرف العربية»، بأكبر قدر من الدقة يتيحه له إدراكه، وذلك انتظاراً لإخضاعه للتصحيح، ما إن يصبح ذلك ممكناً، من جانب شخص جد متضلع في اللغة العربية. وتتلو تلك الخانات المخصصة لإدراج عدد السكان والأسر، و «حالتهم» وعملهم ونوع زراعة البلد، وأنواع الأشجار وطبيعة التجارة والصناعة، وأخيراً للملاحظات والإشارات الخاصة. وقد أضيفت إلى ذلك كراسة إضافية، مخصصة لوصف جميع الأشياء الجديرة بالملاحظة. أما الجزء الثالث فقد بين الملاحظات، الأكثر عمومية، التي يجب الاضطلاع بها في الإقليم. ماذا عن وسائل المواصلات، برية كانت أم نهرية ؟ ما هي حالة القنوات وشلالها ؟ وما هي حالة الجو ومياه الشرب؟ ماذا عن تربية الماشية، ومدى وفرة الحيوانات البرية والزواحف، مزعجة أو خطرة؟ ما الذي يمكن أن يقال عن الأشجار والغابات، والزراعات والأحجار والمحاجر والأتربة الصالحة للأعمال الفنية ؟ وكان على المهندسين أن يتحدثوا قبل كل شيء عن السكان، وعن طابعهم؛ وأن يوضحوا لماذا يعتبر بلد مأهولاً بالسكان أكثر من بلد آخر؛ وأن يحددوا القبائل البدوية في الأراضي المجاورة، وعددها، وأماكن تخييمها، وتحركاتها، وكمية الجياد والجمال التي تملكها. ماذا عن تطور الزراعة وكيف يمكن تحسينها ؟ وما هي الفنون والحرف الممارسة في الإقليم ؟ وهل تتم التجارة بالمقايضة، أم بالنقود، وما هي السلع التي يتم الاتجار فيها ومع من تتم التبادلات ؟

ولم يكن هناك غير عدد قليل من الأقاليم التي توافر فيها ما يكفي من الوقت لاستكمال هذا الجدول، في تمامه، لكن عين مفهوم المشروع لا يصبح مع ذلك أقل استحقاقاً للاهتمام. وسوف تشهد مسألة اللغة على مدى الجدية ومدى الحماسة اللتين

أبدتهما اللجنة، في حرصها على الاضطلاع بكل شيء وتقديمه بشكل صحيح. ويشد الأنظار دومان من المعلومات، عندما يفتح المرء الأطلس. إن الكتابات، التي تبرز على وجه الخرائط، إنما تشير إلى أسماء مواقع ساحات معارك الحملات المتعاقبة، وأسماء المدن والقرى والكفور، حيث تظهر هذه الأسماء بالفرنسية وبالعربية في آن واحد. وسعياً إلى تسجيل أسماء المواقع هذه، اعتمدت اللجنة على خدمات نقاش، يدعى ميللر، الذي اضطلع بتعلم الكتابة بالعربية. والحال أن مستشرقاً كان مع الحملة، وهو ريمي ريج، سعياً منه إلى ضمان تعلمه السريع، قد قدم له دروساً خاصة. ولم يبدأ نقش الأسماء على الزنك إلا بعد أن اجتاز الامتحان الذي أجراه له لانجليه، الأستاذ بكلية اللغات الشرقية، والمستعرب الشهير، سلفستر دوساسي. وعندما تم إنجاز المهمة بسرعة، قام فولني، العليم بجميع أمور الشرق الأدنى والشرق الأوسط، بزيارة مستودع الحرب. وقد أثنى على الخريطة، وعلى رسم الأسماء العربية، لكنه وجد أن النظام المعتمد في التسجيل والمنقول إلى القارئ الفرنسي كان معقداً ومرهقاً للعينين ومفتقراً إلى التماسك. ويرجع ذلك إلى أنه لم يكن هناك نظام مضبوط سارى المفعول. وقد استفادت اللجنة من هذا الظرف لكي تستحدث نظاماً كهذا، على شكل تسجيل سوف يظل متصلا ومفهوماً من جميع المستشرقين، وسارى المفعول في أية لغة أوروبية. وسعياً إلى هذه الغاية، فإن مدير مستودع الحرب، وهو الجنرال سانسون، قد شكل لجنة خاصة، مؤلفة من باحثين ورجال علم – من بينهم فولني وسلفستر دوساسي ولانجليه ومونج وبيرتولليه ولاكروا، أضيف إليهم عدد من الأعضاء، ناطقون بالعربية كلغة أم. وقد اجتمعوا في أربع جلسات واتفقوا على التمسك بالنظام الذي اقترحه المدعو إيلليوس بقطر، الترجمان السابق للجيش. ونجد بياناً لهذا النظام في ختام مذكرة جاكوتان التي تعالج تركيب الخريطة. والحال أن إجراء جميع التسجيلات من جديد قد تطلب ثمانية عشر شهراً أخرى من العمل. ويتصل الأمر بالعمل بحيث تكون الخريطة منسجمة مع النصوص، وبحيث تسجل على الخريطة جميع أسماء الأماكن – أو جميعها تقريباً – التي تظهر في المذكرات، بحيث يمكن للمرء التعرف عليها بسهولة، بالرغم من أشكال الخط المتباينة، التي اعتمدها مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المختلفين.

وقد استعان الطب، بدوره، بالطوبوغرافيا. ومن المؤكد أن طب القرن الثامن عشر، بشكل عام، قد عبر عما سماه واحد كروزيير بالتكوين الطبيعي لإقليم من الأقاليم،

بلتكيله انكباباً خاصاً على المناخ، والتكوين الفسيولوجي للرجال والنساء والأطفال. وكان ديجينيت رئيس أطباء قوة الحملة، بينما كان لارى رئيس جراحيها. ولما كان الوسط المصرى قد بدا بوصفه مثيراً للانتباه، في نظر الأوروبي، على أية حال، فمن الطبيعى تماماً أن ديجينيت كان يريد، مخولاً إلى الموضوع، رسم «طوبوغرافيا طبيعية وطبية لمصر»، سوف يستفيد في إعدادها من تعاون نوييه، فيما يتعلق بالجزء الجغرافي (٥٣). وعلى مدار مدة إقامته، لم يكف عن إبداء اهتمامه بديناميكا السكان، في مصر، وسوف يعد قوائم وفيات لمدينة القاهرة، عن سنوات الاحتلال الثلاث. ويبدأ كتابه «التاريخ الطبى لجيش الشرق» بمسائل الإدارة، ويعرض تطور السياسة المطبقة، في مجال تدابير الرعاية الصحية العامة والصحة وتنظيم المستشفيات. أما لارى فسوف يتناول بالبحث الأمراض خاصة.

وإنها لمدرسة جديدة، في مجال كتابة التاريخ الطبى، تلك التى تقدم تفسيراً ذا طابع سياسى، لهذا التحول لنظرة الطبيب، من المريض إلى علم الأمراض. والحال أن المدرسة الباريسية هى التى سوف تتحول، وفقاً لهذا المنظور، إلى مؤسسة تمارس فيها المهنة الطبية، المؤلفة من الآن فصاعداً بهذه الصفة، سلطة على ممثلى الطبقات العاملة المعرضة للأمراض، مشيدة بنية معرفتها وسلطتها، على حساب سلامتهم البدنية (٥٤). ومن المؤكد أن لارى كان ينتمى إلى جيل أمثال بيشا وبيتيل. على أنه لا يمكن اعتباره مديناً للأول أو للأخير فيما يتعلق بالأوصاف التى قدمها للأمراض التى صادفها في مصر، كما لا يمكن أن نرى في ذلك آثار النظام الجديد الذى جرى تدشينه في الأوتيل - ديو في باريس، وبالمقابل، إذا ما شئنا الاتجاه إلى مسافة أبعد، لإعادة تحديد لمركز موقع السلطة في بنية المجتمع الفرنسى. أما فيما يتعلق بالأمراض التى قدم وصفاً لها، فإن الأمر يتصل بـ «الرمد» (غالباً، نوع من التراكوما)، والطاعون الدبلى، والتيتانوس، والحمى الصفراء، وضمور وتضخم الخصيتين، والجذام، وداء الفيل. ولم يكن هناك شك، في تصوره، في أن علم أسباب الطاعون والحمى الصفراء والتيتانوس، على أية حال، قد أدخل عاملا خارجياً، سماه تارة بمصطلح «الفيروس» وتارة أخرى بمصطلح «الجرثومة». والحال أن مفهومه للمرض لن يجعله يتخلى عن شيء، فيما يتعلق بالنوعية وبالموضوعية، لأى من المفاهيم التى سوف تشق طريقها إلى طب القرن التاسع عشر، والمنبثقة من بيئة الممارسة الإكلينيكية، المؤسسة حديثاً في باريس (٥٥). ومنذ أن أدى وجوده في مصر إلى إبعاده عن كل ذلك، فلابد من تصور أن المفاهيم التى طبقها لارى، من الممكن أن تكون قد جاءته من الملاحظة.

ويضم «وصف مصر»، على وجه الإجمال، نحو ١٢٦ مذكرة متميزة. ويشكل عدد منها دراسات ذات موضوع واحد. ولا يكاد يوجد بينها غير عدد طفيف من الدراسات ذات الحجم المتواضع. ومن بين هذا الإجمالي، يتصل ٣٠ عنواناً بما جرى العرف على تسميته، منذ تلك اللحظة فصاعداً، بأركيولوجيا العصور القديمة ويتصل ٢١ عنواناً بالتاريخ الطبيعي، بالمعنى الدقيق للمصطلح. وإذا ما كان على المرء أن يصنف المذكرات الخمس والسبعين الباقية، وفقاً لأسلوب مفارق تاريخياً، تبعاً للشكل الذي يمكن به لموضوعها الرئيسي أن يندرج في جدول التخصصات المعاصرة، فإن توزيعها سوف يكون على النحو التالي :

الجغرافيا الطبيعية	٢٤	التاريخ	٢
الهيدروجرافيا	٣	تاريخ العلوم	٤
علم أحوال الجو	٢	الطب	٢
علم الزراعة	٢	علم الاجتماع	٢
التكنولوجيا	٧	الديموجرافيا	٢
علم المقاييس والموازين	٤	الأنثروبولوجيا – الإثنولوجيا	٨
الاقتصاد	١	اللغويات	٣
العلم السياسي	٣	علم الموسيقى	٤

فهل يمكن القول بأن المعلومات التي تضمها هذه الآلاف من الصفحات تتصل بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ؟ كلا على الإطلاق، إذا كان العلم الاجتماعي يتحدد بوصفه معرفة ينتجها رجال علم، جرى تكوينهم لمثل هذا التخصص في العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولكن على أي نحو يمكننا أن نصف، عندئذ، المعرفة، الدراية بمجتمع، التي ينتجها عدد مهم من الرجال الذين يحوزون تكويناً علمياً، وتقنياً، والذين يضعون كل طاقاتهم وموهبتهم، في وصفه، وتحليله ؟ وعندما يبحث الجراح لارى البنية الجسمانية للمصريين، القدماء والمحدثين، هل يقوم بعمل من أعمال الأنثروبولوجيا الجسمانية ؟ وعندما يصف مهندس الجسور والطرق ديبوا – أيميه بدو إقليم القصير، والقبائل العربية التي تسكن الصحراء بوجه عام، هل يتعلق الأمر بالأنثروبولوجيا الثقافية ؟ وعندما يجرى المهندس الجغرافي إدم جومار دراسة مقارنة لسكان مصر القديمة وسكان مصر الحديثة، هل تعتبر تلك الدراسة دراسة ديموجرافية ؟ وعندما يبحث مهندس الجسور والطرق

ميشيل – أنىّ لانكريه مسائل الضرائب والإدارة المحلية فى السنوات الأخيرة لنظام المماليك، هل يجب على المرء أن يرى فى تلك الدراسة دراسة من دراسات العلم السياسى ؟ أو، ربما، دراسة من دراسات التاريخ الإدارى ؟ وعندما يكتب رئيس للمهندسين جيرار بحثاً حقليًا من صناعة وزراعة وتجارة مصر كلها، إقليماً بعد إقليم، ألا يعتبر ذلك بحثاً فى الاقتصاد ؟ (٥٦)

من المؤكد أنه توجد بين هذه النصوص بعض النصوص التى كانت من عمل كتاب خبراء بالفعل فى الموضوع، فيما يتعلق بالجزء الأوروبى من موضوعهم. وهكذا فإن الدراسة التى كتبها الإدارى استيف، حول شؤون مصر المالية، إنما تشكل أول دراسة منهجية للإقطاع، فى الإمبراطورية العثمانية. والمذكرات الأربع التى، مأخوذة فى مجموعها، تعرض مجمل نظرية، وتطبيق، الآلات الموسيقية المصرية، القديمة والحديثة، ترجع إلى الموسيقى فيلوتو، الذى كان قد تعلم العربية وكان من علماء الموسيقى (٥٧). لكن المذكرات قد كتبت، فى غالبيتها العظمى، إن لم يكن حرفياً كرد على جدول استفسار طرحه جاكوتان، على مهندسيه الطبوغرافيين، فمن المؤكد على أية حال، إنها قد كتبت فى عين روح هذا الجدول. ولا مراء فى أن كون الكتاب غرباء، ظلوا خارجيين تجاه ما يعرضونه، يجب أن ينظر إليه على أنه ميزة. فموقفهم يظل موقف المراقب، المنتبه إلى الظواهر. وكان من الشائع، بالنسبة لهم، أن أى بلد آخر، فى العالم كله، لم يكن موضع دراسة جد متصلة كمصر، ولا حتى فرنسا بالتأكيد. لكن الأمر لا يتصل فقط بالمثابرة. إن أية مجموعة من الفرنسيين ما كان بوسعها أن تبدى، فى دراسة مجتمعها الخاص، مثل هذا التجرد، بالنظر إلى دينامية السياسية الداخلية. (٥٨)

ولا يمكن القول بأن المعلومات التى جمعت بهذا الشكل قد أثرت تأثيراً مباشراً على قيام العلوم الاجتماعية من حيث هى تخصصات، اللهم إلا فيما يتعلق بالجغرافيا. فبالنسبة لهذا التخصص، من المؤكد أن الحالة كانت كذلك. فقد كان استكشاف مصر أشبه بالمدخل، الذى ساعد على اختراق أفريقيا، وكانت الجمعية الجغرافية، المؤسسة فى عام ١٨٢١، تضم فى عداد مؤسسيها جاكوتان وكوستاز وجومار وفورييه وشابرول دو فولفيك (٥٩). إلا أنه، فيما عدا هذا الاستثناء، فإن قيام بونابارت بإلغاء شعبة العلوم الأدبية والسياسية التى كانت قد تأسست فى البداية، خلال التغيير الذى فرضه على المعهد الفرنسى، فى عام ١٨٠٢ ، سوف يكبح، من الناحية الرسمية، تطور العلوم الاجتماعية، ولن

يشهد شيء على الإطلاق، أو تقريباً، على أن المرشحين للقب ممارس العلوم الاجتماعية، الذين تركوا بهذا الشكل لمصيرهم الخاص، قد استفادوا من المواد ذات المصدر المصرى، على مدار مراحل نشرها. وسوف يتبدى أثرها بالأحرى بالنسبة لما يتصل بالسيرة العملية التالية للمشاركين الذين كانوا قد جمعوها، والذين سوف يبقى عدد معقول منهم فى خدمة الدولة. فالأسلوب الذى تحملوا به مسؤولياتهم، إنما ينبع من عين تلك المكونات التى سوف يتمكن واحد كسان سيمون، وكأوجست كونت من بعده، من استخلاصها من الملصقات، المنبثقة من عبقرية جيلهم - عدد من المهندسين المخول لهم ممارسة السلطة المدنية، إدارة تبحث أحوال الحقائق. والحال أن فورييه قد كتب «المقدمة التاريخية» لكتاب «وصف مصر» عندما كان مديراً لايزير. وفى هذه الصفحات، يحرص على التذكير بأن «سلسلة اللوحات تمثل من ثم الأشياء الموجودة، القابلة لأن تلاحظ وتوصف بدقة، والتى، لهذا السبب، يجب اعتبارها عناصر وضعية سواء بسواء لدراسة مصر» وكان شابرول دو فولفيك، وهو مهندس للجسور والطرق، فى الخامسة والعشرين من العمر فى عام ١٧٩٨، قد رسم عدداً من هذه اللوحات، بالاشتراك مع زملائه. وسوف يسلم أيضاً «بحثاً حول عادات سكان مصر المحدثين»، ويدخل فى تعاون مع ميشيل - أنج لانكريه، فى كتابة «مذكرة حول قناة الأسكندرية» (٦٠). والحال أن شابرول، الذى كان مديراً لدائرة مونتنوت من عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨١٠، سوف يجمع، بقصد النشر، كل ما أتيحت له معرفته عن الأقاليم الليجورية، التى كان مسؤولاً عنها، فى ظل الإمبراطورية العظمى. وقد أصبحت كلمة «الإحصاء» التى تستعيد عنوان مذكرته، كلمة رائجة، لوصف ما سوف يظل سمة مميزة لإدارة، مغرمة بالإحصاءات وبتعدادات الأشياء، وهذا منذ زمن حكومة الإدارة. (٦١) وسوف ينهى شابرول مسيرته العملية بمنصب مدير السين. وهناك يبدأ إعداد طوبوغرافيا للمدينة، على غرار مجموعات «إحصاءات حول مدينة باريس»، التى لم تدرس بعد دراسة كافية، والتى مثلت، فى مصدر إلهامها نفسه، سجل «حالة حديثة» لعاصمة فرنسا. (٦٢)

الحق أنه، حتى بعيداً عن الاجتهاد الضخم فى تصنيف البيانات والمعلومات، حول مصر نفسها، حول عصورها القديمة وحالتها الحديثة وإطارها الجغرافى، فإن الجانب الأكثر استحقاقاً للاهتمام فى مشاركة العلماء هذه فى حملة مصر إنما هو العلاقة التى تبرز بشكل أولى على هذا النحو بين المعرفة المؤسسة على قواعد استنباط والسلطة فى

النظام السياسى. والحال أن ما اضطلع به بوناپارت، باحتلاله لمصر، يمكن تماماً اعتباره محاولة أولى لتلك الإمبريالية التى تولد فى القرن التاسع عشر، من حيث إن المشروع كان له مكون ثقافى، تمدينى، كان غائباً حتى ذلك الحين، فى الاستعمار السابق، المنبثق عن الميركانتيلية. وما توصل الفرنسيون إلى تسميته، بعد ذلك، بـ «رسالتهم التمدينية»، إنما يستمد أصوله من حركة التنوير فى جانب منه ومن أيديولوجية الثورة فى الجانب الآخر. وقد مثلت الدراية – العملية التقنية الوجه الإجرائى للثقافة، للمعرفة المتمدينة. وقد أدرك بوناپارت كل ذلك، ليس بشكل مجرد، وإنما بشكل حدسى، عملى، مثلما فعل ذلك بالنسبة لكل ما بدا أن له صلة ما بممارسة السلطة. ومن المؤكد أن ذهنيته الابتكارية هى التى تخيلت غرس فسيلة من فسائل العلم الفرنسى على ضفاف النيل، فى وسط كان لا يزال مختلفاً بشكل جذرى، غير أوروبى، خلافاً لما كانت عليه حالة المستعمرات الفرنسية أو البريطانية، فى تلك الأيام. إن الإنجليز، من جهتهم، لم يضطلعوا بشىء من هذا القبيل فى الهند.

وعناصر المعرفة الوضعية التى نجمت عن ذلك ليست عديمة الأهمية – فيزياء السراب؛ التماثل الذى يسمح بأن تستخدم السلطعونات، فى اغتذائها، أعضاء تخصصها الحيوانات القريبة منها للحركة، أو الذى يسمح بأن تستخدم النَّـقَّابات، فى الحركة، زوائد لا تستخدم، فى حالات أخرى، إلا فى الاغتذاء؛ معدل الوفيات من جراء الطاعون الدبيلى. على أنه من غير المحتمل أن العلوم التى نشأ كل منها عن هذه النتائج، كان يمكن أن يتغير تغييراً محسوساً، لو اكتشف هذه النتائج علماء آخرون فى ظروف مختلفة. على أن هذه الظروف سوف تكتسب فى الواقع أهمية، وأهمية حاسمة، بالنسبة لرجال العلم الذين جرى إقحامهم (فيها). والحال أن الوضعية الاجتماعية والإدارية والمهنية لعلماء منخرطين بالفعل فى عملهم، من أمثال مونج وبيرتولليه وفورييه وجاكوتان وديچنت ولارى وديجينيت، قد بلغت أوجها، بحكم عين قربهم من هذا المحرك للعملية التاريخية، وهو بوناپارت. أمَّا ما إذا كانت الحملة قد نالت، فى المقابل، قدراً زائداً من المجد، من جراء دعوة العلم إلى المشاركة فيها، فإن ذلك سوف يظل، بلا مراء، مسألة رأى.

وفيما يتعلق بالعلماء الأقل حنكة، من أمثال جيفروا وسافينى ودودنيو ومالوس وعشرات المهندسين والفنيين الذين اتجهوا إلى عمليات الرفع الطوبوغرافية، وإلى رفع الآثار، وإلى تنفيذ رسمها، والذين انكبوا على دراسة البلد، فإنهم قد وجدوا فى مصر فى

الفترة التكوينية من حياتهم، عندما كانوا لا يزالون، بالنسبة لعدد من بينهم، فى مرحلة تلميذ حالى فى المرحلة الدراسية الثالثة. والمشكلات التى سوف تؤدى إلى خوضهم لبداياتهم، على المستوى العلمى، إنما تنشأ من واقع وجودهم فى مصر. ومن المؤكد أنه يمكن قول الشىء نفسه عن الظروف التى هيمنت على بدايات غالبية العلماء الشبان. لقد كان عليهم أن يتمكنوا من مواجهة، ومن الرد على كل ما كان من شأنه أن يحدث لهم، على شكل مشكلة يجب حلها. وما ميز التجربة المصرية هو الطابع الاستثنائى للظروف التى تعرضوا لها.

لكن الحوادث التى لا سابق لها قد تحولت إلى سابقات. وهذا التحول يرمز إلى بدايات نشر العلم الأوروبى، واستدامته، وسط مجتمعات أفريقيا وآسيا، تحت رعاية الفتح العسكرى والسلطة السياسية سواء بسواء. وبالرغم من صعود النفوذ السياسى البريطانى، الذى سرعان ما أصبح مهيمناً، بعد افتتاح قناة السويس - التى أشرف الفرنسيون على شقها - فى عام ١٨٦٩، فإن وجوداً فرنسياً دائماً، على المستوى الثقافى والتقانى، هو الذى سوف يصوغ تطور النظام التعليمى، والتنظيم الاقتصادى والإدارى، لمصر، وهذا، حتى منتصف هذا القرن الذى مازلنا نحيا فيه.

حواشي الفصل الحادي عشر

1 Gaetan[o] SOTIRA, « Mémoire sur la peste observée en Égypte pendant les années 7, 8, et 9 », *Mémoires sur l'Égypte* 4 (An XI-1802), p. 156.

2 Jean-Édouard GOBY, « Composition de la Commission des Sciences et Arts d'Égypte », *Bulletin de l'Institut d'Égypte* 37, 1er fascicule, 1955-1956, pp. 315-342. M. Goby a publié nombre de mémoires, d'une méticuleuse érudition, portant sur l'histoire de l'expédition. Pour un inventaire détaillé de ces titres, on se reportera à la Bibliographie qui suit mon Introduction historique à l'ouvrage cité *infra*, note 4. Je tiens à signaler ce que je dois à M. Goby, qui a pris la peine de relire une première version de l'essai que je présente ici, et dont la vigilance m'a évité de laisser passer certaines erreurs et inexactitudes. Et je suis également redevable, à cet égard, à M. Jean-François Roberts, qui a su en relever quelques autres, à l'occasion de la présente traduction.

3 Les comptes rendus de l'Institut, dont les procès-verbaux furent perdus peu après le retour en France du corps expéditionnaire, ont été restitués par M. Jean-Édouard GOBY, « Premier Institut d'Égypte : Restitution des comptes rendus des séances », *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* 7 (nouv. série), Institut de France, 1987. Les références renvoyant à ce mémoire se conforment à la numérotation des notices de l'auteur, pour identifier les activités.

4 L'ouvrage sera désigné ci-après par l'abbréviation *D.E.*, suivie des initiales *A.*, *E.M.*, ou *H.N.* Pour ce qui est de la genèse et de la publication de l'ouvrage, et quant à son importance dans la fondation de l'égyptologie, on se reportera à l'Introduction et aux notes, *in* Charles C. GILLISPIE et Michel DEWACHTER (éd.), *Monuments de l'Égypte* (Paris, Hazan, 1988), qui reproduit les cinq volumes de planches d'Antiquités. Une deuxième édition de la *D.E.* fut mise en chantier par l'éditeur Panckoucke, avant même que la première n'eût été terminée. La parution s'échelonna de 1820 à 1829. Dans cette édition, les textes sont publiés en 26 volumes in-octavo. Les références du présent essai renvoient toujours à la première édition. Une table des matières détaillée, donnant la localisation des mémoires et explications, avec la concordance des deux éditions, est fournie par Henri MUNIER, *Tables de la Description de l'Égypte* (Le Caire, 1943). Voir encore Michael W. ALBIN, « Napoleon's *Description de l'Égypte* : Problems of Corporate Authorship », *Publishing History* 8, 1980, pp. 65-85. Je remercie M. Robert S. Bianchi, du Brooklyn Museum, de m'avoir indiqué cette référence. [Les planches d'Antiquités sont également reproduites, avec les planches d'Histoire naturelle, et de l'État moderne, *in* Michel SIDHOM (éd.), *Description de l'Égypte*, t. I, *Planches*, Paris, Institut d'Orient, 1988 — *N.d.T.*]

5 C'est ainsi que, le 11 thermidor an VII (29 juillet 1799), MONGE donna lecture d'une première version d'un mémoire de géométrie infinitésimale, publié par la suite dans le *Journal de l'École polytechnique* (11e cahier, 1802). C'était là le premier de trois mémoires, réunis par la suite dans son *Application de l'analyse à la géométrie* (1807) ; voir GOBY (1987), n° 313, et René TATON, *L'Œuvre scientifique de Monge* (Paris, Presses universitaires de France, 1951), pp. 221-228. FOURIER présenta quatre mémoires traitant de mathématiques pures (GOBY [1987], nos 203 et 221, 263, 274, 533). Le premier, avec l'intitulé de « Notes sur la Mécanique générale », était sans doute issu de l'étude qui avait fait l'objet de sa première publication, un mémoire sur les vitesses virtuelles, paru dans le *Journal de l'École polytechnique* (5e cahier, 1798), son seul travail publié, en matière de mécanique classique, auquel il avait mis la dernière main peu avant de partir pour l'Égypte. Les titres des trois autres mémoires se rapportent à la théorie des équations, qui devait former le second grand volet de ses recherches mathématiques, le premier volet ayant été constitué par l'investigation de la diffusion de la chaleur. On a souvent dit que ce dernier intérêt était né de son séjour de trois années sous le climat d'Égypte, mais, dans les attestations écrites, rien ne vient soutenir cette hypothèse. Parmi les autres mathématiciens, CORANCEZ, un disciple, somme toute mineur, de Lagrange, devait présenter une communication sur la théorie des équations, ainsi qu'une autre, portant sur la construction du balancier des montres, permettant de minimiser l'effet de la dilatation due à la chaleur (GOBY [1987], nos 171 et 232, 483). MALUS, un élève de Monge, lui-même officier

du génie, et ne faisant pas partie, initialement, de la commission des Sciences et Arts, soumit un mémoire sur les équations différentielles (GOBY [1987], n° 396). Un mémoire sur la lumière, marquant son entrée dans la carrière, dans le domaine où il allait développer l'essentiel de son œuvre, en physique, était destiné à être lu devant l'Institut, mais n'y fut jamais présenté. Arago l'a résumé pour nous (« Malus », *in* François ARAGO, *Œuvres complètes*, t. III, 1859, pp. 131-134). BERTHOLLET, enfin, devait lire un mémoire sur la formation de l'ammoniaque, et un autre sur l'analyse eudiométrique de l'atmosphère. Ce dernier mémoire comparait les proportions d'oxygène et d'azote dans l'atmosphère au Caire et à Paris, mais restait sans autre incidence, pour ce qui est de l'Égypte (GOBY [1987], n° 031, 301). [Pour les autres aspects de l'œuvre accomplie par les scientifiques qui participèrent à l'expédition d'Égypte, ainsi que pour ce qui est du contexte plus général, où s'insèrent leurs travaux, on se reportera à l'ouvrage de Nicole et Jean DHOMBRES, *Naissance d'un nouveau pouvoir : Science et savants en France, 1793-1824*, Paris, Payot, 1989 — *N.d.T.*]

6 GOBY (1987), pp. 95-96, dresse l'inventaire des demandes soumises à l'Institut par Bonaparte, portant sur des questions telles que la fabrication de la poudre à canon, l'amélioration des fours pour la cuisson du pain, l'approvisionnement en eau, le remplacement du houblon dans la fabrication de la bière, etc.

7 Gaspard MONGE, « Mémoire sur le phénomène d'Optique, connu sous le nom de *Mirage* », *Décade égyptienne* 1, an VII-1799, pp. 37-46 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1 (1800), pp. 64-78.

8 Claude-Louis BERTHOLLET, « Observations sur le natron », *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 271-279. Des extraits de ce mémoire furent également publiés in *Annales de Chimie* 33, 1800, pp. 343-348. L'ouvrage de référence sur Berthollet est celui de Michelle SADOUN-GOUPIL, *Le Chimiste Claude-Louis Berthollet, 1748-1822, sa vie — son œuvre*, Paris, Vrin, 1977.

9 GOBY (1987), n° 064, 165, 202.

10 Antoine-François ANDRÉOSSY, « Mémoire sur la Vallée des Lacs de Natron, et celle du Fleuve sans eau... », *Décade égyptienne* 2, pp. 93-122.

11 Académie des sciences, *Procès-Verbaux* 2 [t. CXIII, an VIII], pp. 18, 20, 21, 38, 39 ; C.-L. BERTHOLLET, « Recherches sur les lois de l'affinité », Institut de France (Sciences mathématiques et physiques), *Mémoires* 3, 1801, pp. 1-96.

12 Déodat GRATET DE DOLOMIEU, extrait d'un mémoire rédigé en prison à Messine, en juillet 1799, *in* Alfred LACROIX, *Déodat Dolomieu, membre de l'Institut national (1750-1801). Sa vie aventureuse. Sa captivité. Ses œuvres. Sa correspondance* (Paris, Perrin, 1921 : 2 vol.), t. I, p. 3. Pendant son bref séjour en Égypte, Dolomieu devait se montrer plus curieux d'archéologie et d'agronomie, que de minéralogie et de géologie. Les mémoires et rapports qu'il rédigea sont réunis *in* A. LACROIX et G. DARESSY, « Dolomieu en Égypte, 30 juin 1798-10 mars 1799 », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 3, 1922. Voir encore Tønnes Christian BRUUN-NEERGARD, *Journal du dernier voyage du C^en Dolomieu dans les Alpes* (1802).

13 Ce sont des considérations d'ordre scientifique, plutôt que d'érudition historique, qui amenèrent Paul PALLARY à reproduire, en 1926, les planches de Mollusques de Savigny, en identifiant les espèces que V. Audouin n'avait su nommer, et en rectifiant ses attributions incorrectes, *in* « Explications des planches de J.C. Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 11, Le Caire, 1926.

14 Étienne GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'aile de l'Autruche », *Décade égyptienne* 1, pp. 46-51 ; ID., *Lettres écrites d'Égypte*... (E.-T. HAMY [éd.], Paris, Hachette, 1901), Lettre n° XXIII, 29 vendémiaire an VII (20 octobre 1798), pp. 95-96. Geoffroy devait encore livrer une « Note relative aux appendices des Raies et des Squales », traitant de ces organes sexuels que présentent les mâles, et dont la fonction lui apparut, par l'analogie des structures, de conformation semblable, qu'il avait observées lors de la dissection de reptiles de Haute-Égypte (*Décade égyptienne* 3, pp. 230-233). Il devait par ailleurs solliciter une assistance pour un plan d'expériences visant à déterminer si les sexes coexistent « dans les germes de tous les animaux ». Ce sujet constituerait l'un de ses

thèmes de prédilection, dans les recherches qui occupèrent une période ultérieure de son existence, mais rien n'indique qu'il ait poussé la question plus avant en Égypte. Le Rapport apparaît dans les *Mémoires sur l'Égypte* 3, pp. 385-387.

15 Marie-Jules-César LELORGNE DE SAVIGNY, « Description d'une nouvelle espèce de *Nymphaea* », *Décade égyptienne* 1, pp. 69-74 ; repris in *Mémoires sur l'Égypte* 1, pp. 105-112 ; une version modifiée parut sous le titre plus spécifique, « Description du *Nymphaea caerulea* », in *Annales du Muséum d'Histoire naturelle*, an XI-1802, pp. 366-371. La lettre de Geoffroy est celle indiquée *supra*, note 14.

16 Pour ce qui est de la récupération des restes de la cargaison, en 1985, voir Patrice BRET, « Opération *Patriote* : EDF sur les traces de Bonaparte », *L'Histoire*, n° 105, novembre 1987, pp. 88-90.

17 Georges CUVIER, Jean-Baptiste DE MONET, chevalier DE LAMARCK, Bernard-Germain-Étienne DE LA VILLE, comte DE LACEPÈDE, « Rapport des professeurs du Muséum, sur les collections d'histoire naturelle rapportées d'Égypte, par E. Geoffroy », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, an XI-1802, pp. 234-241.

18 Marie-Jules-César LELORGNE DE SAVIGNY, *Histoire naturelle et mythologique de l'Ibis* (1805). La collection de Savigny, ainsi que cinq volumes des vélins originaux des planches, échut à sa compagne, Olympe Letellier de Sainteville, qui en fit legs à la ville de Versailles, où ils avaient vécu, et où ils s'étaient éteints, l'un et l'autre. On pouvait encore voir la collection à la bibliothèque de la ville de Versailles, et ce, jusqu'en 1919. Cette année-là, un bibliothécaire indiscret, impatient de faire de la place, et peu soucieux de démarches qui auraient pu en assurer la conservation au Muséum, ou en quelque autre lieu, fit descendre les spécimens à la cave. Et c'est là qu'on les laissait se délabrer, jusqu'à ce que Paul Pallary en identifie les pièces subsistantes, en 1927. Voir P. PALLARY, « Marie Jules-César Savigny. Sa vie et son œuvre », 1[re] Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17, 1931.

19 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte*, *op. cit.*, Lettres n[os] LVIII, 4 vendémiaire an X (26 septembre 1801), et LXII, 29 frimaire an X (19 décembre 1801).

20 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Histoire naturelle et Description anatomique d'un nouveau genre de poisson du Nil, nommé Polyptère », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 1, 1802, pp. 57-68 ; ID., « Description de l'Achire barbu... », *ibid.*, pp. 152-155 ; ID., « Mémoire sur l'anatomie comparée des organes électriques de la Raie torpille, du Gymnote engourdissant, et du Silure trembleur », *ibid.*, pp. 392-407 ; « Observations anatomiques sur le Crocodile du Nil », *Ibid.* 2, 1803, pp. 37-52. Geoffroy écrivait d'abondance. On trouvera une bibliographie complète de ses publications *in* Théophile CAHN, *La Vie et l'œuvre d'Étienne Geoffroy Saint-Hilaire*, Paris, Presses universitaires de France, 1962.

21 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, « Observations sur l'affection mutuelle de quelques animaux, et particulièrement sur les services rendus au *Requin* par le *Pilote* », *Annales du Muséum d'Histoire naturelle* 9, 1807, pp. 469-476.

22 Le premier tome (1818) constitue ce que l'on s'accorde à considérer comme le chef d'œuvre de Geoffroy. Dans ce volume, il défend la thèse de l'unité de type, en se fondant sur l'examen comparatif de cinq groupes de structures anatomiques chez les Vertébrés de classes et d'ordres fort divers. Le deuxième tome (1822) témoigne d'un déplacement ultérieur de son centre d'intérêt, en ce qu'il s'attache à l'étude des variations au sein même des espèces, en mettant l'accent sur la tératologie, et spécifiquement sur les déformations anatomiques chez l'Homme.

23 Toby A. APPEL, *The Cuvier-Geoffroy Debate : French Biology in the Decades before Darwin*, New York, Oxford University Press, 1987.

24 Marie-Jules-César LELORGNE DE SAVIGNY, « Système des Oiseaux de l'Égypte et de la Syrie », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. I, 1[re] partie, 1809, pp. 63-114. Une note liminaire avertit le lecteur de ce que « Ce système des Oiseaux devoit faire partie d'un travail plus considérable. » Cela ne devait jamais être. Il s'agit là de l'un des deux seuls mémoires scientifiques à paraître exclusivement dans la *D.E.*, plutôt que d'y être repris, après une longue existence antérieure, sous forme de publication en

revue. Quant à l'autre mémoire, il s'agit du « Système des Annélides », du même SAVIGNY (voir *infra*, note 29).

25 Marie-Jules-César LELORGNE DE SAVIGNY, *Mémoires sur les animaux sans vertèbres* (1816), t. I, pp. III-IV. Pour toutes précisions bibliographiques sur ces mémoires, on se reportera à Henri DAUDIN, *Cuvier et Lamarck : Les classes zoologiques et l'idée de série animale, 1790-1830* (Paris, Alcan, 1926, 2 vol.), pp. 314-315.

26 M.-J.-C. LELORGNE DE SAVIGNY, « Observations sur la bouche des Papillons, des Phalènes et des autres Insectes lépidoptères ; suivies de quelques considérations sur la bouche des Diptères, des Hémiptères et des Aptères suceurs », lues à la première classe de l'Institut, le 16 octobre 1814 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres, op. cit.*, t. I, pp. 1-37. Le Rapport présenté par LAMARCK figure *in* Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, 24 octobre 1814, pp. 408-411.

27 M.-J.-C. LELORGNE DE SAVIGNY, « Observations générales sur la bouche des Arachnides, des Crustacés et des Entomostracés », lues à la première classe de l'Institut, le 19 juin 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres, op. cit.*, t. I, pp. 39-117. Voir le Rapport de LAMARCK, CUVIER, et Pierre-André LATREILLE *in* Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 5, le 3 juillet 1815, pp. 521-526.

28 M.-J.-C. LELORGNE DE SAVIGNY, « Observations sur les Alcyons gélatineux à six tentacules simples », lues à la première classe de l'Institut, le 6 février 1815 ; in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres, op. cit.*, t. II, pp. 1-23 ; ID., « Observations sur les Alcyons à deux oscules apparens, sur les Botrylles et sur les Pyrosomes », lues le 1er mai 1815, *ibid.*, pp. 25-66. Voir le Rapport présenté par CUVIER, *ibid.*, pp. 67-81, et in *Procès-Verbaux* 5, le 8 mai 1815, pp. 496-500. Le troisième mémoire de cette série était constitué par les « Observations sur les Ascidies proprement dites, suivies de considérations générales sur la classe des Ascidies », in *Mémoires sur les animaux sans vertèbres, op. cit.*, t. II, pp. 83-132.

29 M.-J.-C. LELORGNE DE SAVIGNY, « Tableau systématique des Ascidies, tant simples que composées, mentionnées dans les trois Mémoires suivans ; offrant les caractères des ordres, familles, genres, et l'indication sommaire des espèces », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. I, 2e partie, pp. 1-58 ; ID., « Système des Annélides, principalement de celles des côtes de l'Égypte et de la Syrie, offrant les caractères tant distinctifs que naturels des ordres, familles et genres, avec la description des espèces », *ibid.*, 3e partie, pp. 1-128. Savigny inséra une note, signalant que, après communication de sa monographie à l'Académie des Sciences, il l'avait enrichie de quatre genres nouveaux, et ajouté cinq espèces à cinq autres genres, sans y apporter de modification par ailleurs.

30 P.-A. LATREILLE et LAMARCK, « Rapport sur le travail de M. Savigny relatif aux *Annélides* », Académie des Sciences, *Procès-Verbaux* 7, le 6 mars 1820, pp. 22-28.

31 Pour les attendus officiels de ces dispositions, on se reportera à la Note introductive à la 4e partie du premier tome de texte de l'*Histoire naturelle*, qui réunit les « Explications sommaires des planches dont les dessins ont été fournis par M.J.C. Savigny pour l'histoire naturelle de l'ouvrage », dues à Victor AUDOUIN, ainsi qu'un court extrait de l'*Histoire naturelle et mythologique de l'Ibis*.

32 Sur la maladie de Savigny, voir Paul PALLARY, « Marie Jules-César Savigny, sa vie et son œuvre », 1re Partie, « La vie de Savigny », *Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte* 17 (1937), chapitres XII-XIX ; 2e Partie, « L'œuvre de Savigny », *ibid.* 20 (1932), pp. 97-107 ; 3e Partie, « Documents concernant la vie et les œuvres de M.J.-C. Savigny de 1798 à 1845 », *ibid.* 23 (1934), pp. 87-146. PALLARY donne retranscription des notes de SAVIGNY concernant les explications d'AUDOUIN, 2e Partie, *op. cit.*, pp. 28-38.

33 M.-J.-C. LELORGNE DE SAVIGNY, « Remarques sur certains phénomènes dont le principe est dans l'organe de la vue, ou fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », *Mémoires de l'Académie royale des sciences de l'Institut de France* 18, 1840, pp. 385-416 ; ID., « Remarques sur les Phosphènes ; Fragments du journal d'un observateur atteint d'une maladie des yeux », Académie des sciences, *Comptes rendus* 7, 1838, pp. 69-75. Selon l'opinion de mes collègues du Wilmer Ophthalmological Institute de l'Université Johns Hopkins, l'affection dont souffrait Savigny n'était pas sise dans les yeux. Ils concluent que les symptômes constituent une « description classique d'épilepsie du lobe temporal ». L'étiologie habituelle, chez l'adulte, se rapporte à l'existence

d'une tumeur, quoiqu'il soit rare qu'un adulte présentant une telle atteinte survive à la manifestation initiale aussi longtemps que le fit Savigny. Une autre éventualité, fort rare, serait un gliome de faible activité. Communication personnelle à l'auteur, du docteur Alfred Sommer, en date du 19 septembre 1988.

34 Voir cependant Paul ASCHERSON et Georg SCHWEINFURTH, « Illustration de la flore d'Égypte », *Mémoires présentés à l'Institut égyptien* 2, 1889, pp. 25-260, Avant-propos.

35 E. GEOFFROY SAINT-HILAIRE, *Lettres écrites d'Égypte*, *op. cit.*, Lettre n° XV, à Antoine-Laurent de Jussieu, 25 thermidor an VI (12 août 1798), p. 67.

36 GOBY (1987), p. 107. Je tiens mes informations, quant aux activités antérieures de Nectoux, de M. James E. McClellan III, qui vient d'achever la rédaction d'un ouvrage sur Science et colonialisme à Saint-Domingue. NECTOUX devait cependant publier son bref *Voyage dans la Haute-Égypte au-dessus des cataractes, avec des observations sur les diverses espèces de séné qui sont répandues dans le commerce* (1808), illustré par Redouté.

37 Antoine-François-Ernest COQUEBERT DE MONTBRET, « Réflexions sur quelques points de comparaison à établir entre les plantes d'Égypte et celles de France », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. I, 1re partie, pp. 59-62.

38 Alyre RAFFENEAU-DELILE, « Flore d'Égypte. Explication des planches », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 145-320.

39 Alyre RAFFENEAU-DELILE, « *Florae Aegyptiacae illustratio* », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 49-82.

40 A. RAFFENEAU-DELILE, « Mémoire sur les plantes qui croissent spontanément en Égypte », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 1-10 ; ID., « Histoire des plantes cultivées en Égypte — 1er Mémoire. Sur les céréales graminées, les fourrages, et les grains de la classe des plantes légumineuses », *ibid.*, pp. 11-24 ; ID., « Description du *Palmier Doum* de la haute-Égypte, ou *Cucifera Thebaica* », *ibid.*, t. I, 1re partie, pp. 53-58 : voir GOBY (1987), n° 085.

41 Sur Delile, voir la notice due à Jean MOTTE, in *Dictionary of Scientific Biography*, vol. IV (1971), pp. 21-22.

42 François-Michel DE ROZIÈRE, « Discours sur la représentation des roches de l'Égypte et de l'Arabie par la gravure, et sur son utilité dans les arts et dans la géologie », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 41-48.

43 François-Michel DE ROZIÈRE, « Explication des planches de minéralogie », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 683-725.

44 F.-M. DE ROZIÈRE, « De la constitution physique de l'Égypte, et de ses rapports avec les anciennes institutions de cette contrée », *D.E.*, *H.N.* (Texte), t. II, pp. 407-682.

45 ID., *ibid.*, p. 408.

46 ID., *ibid.*, 3e partie, Section première, pp. 497-534 ; pour d'autres examens de la question, voir Pierre-Simon GIRARD, « Mémoire sur le Nilomètre de l'île d'Éléphantine et les mesures égyptiennes », *D.E.*, *A.*, *Mémoires*, t. I, pp. 1-48 ; Edme-François JOMARD, « Mémoire sur le système métrique des anciens Égyptiens, contenant des recherches sur leurs connoissances géométriques et sur les mesures des autres peuples de l'antiquité », *ibid.*, pp. 495-802 ; Samuel BERNARD, « Notice sur les poids Arabes anciens et modernes », *D.E.*, *E.M.*, t. II, 1re partie, pp. 229-248 ; ID., « Mémoire sur les monnoies d'Égypte », *ibid.*, pp. 321-468.

47 Le 18 février 1802, Chaptal, alors ministre de l'Intérieur, convoqua les membres de l'Institut d'Égypte à son bureau, pour procéder à la désignation de la Commission chargée de l'exécution de l'ouvrage. Furent choisis : Monge, Berthollet, Fourier, Costaz, Desgenettes et Conté. Voir Pierre JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », *D.E.*, *E.M.*, t. II, 2e partie, pp. 1-118 : pp. 18-19.

48 D'HUNEBOURG, pour le ministre de la Guerre, à Berthollet, en 1803 (mais sans date), Bibliothèque nationale NAFr. 3577, Registre 2, où se trouvent réunis les procès-verbaux de la Commission chargée de la *D.E.*

49 Un mémoire manuscrit, dû à P. JACOTIN, donne une liste différente, et plus complète, s'écartant de celle que publie l'atlas, à la page recensant les collaborateurs : « Exposé des moyens employés pour parvenir à la confection de la Carte de l'Égypte », Bibliothèque nationale, département des Cartes et Plans, GeDD. 2564. Il s'agit, manifestement, d'une première mouture de certains passages du mémoire cité *supra*, note 47.

50 Jacques-Marie LE PÈRE, « Mémoire sur la communication de la mer des Indes à la Méditerranée par la mer Rouge et l'isthme de Soueys », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 21-186. Sur cette équipée, voir C.C. GILLISPIE, *Monuments de l'Égypte, op. cit.*, pp. 10-12 ; voir encore Jean-Édouard GOBY, « Histoire des nivellements de l'Isthme de Suez », *Bulletin de la Société d'études historiques et géographiques de l'Isthme de Suez* 4, 1951-1952, pp. 99-170.

51 L'exposé que donne JACOTIN de ces deux procédés, *loc. cit.* (*supra*, note 47), pp. 12-13, est d'une clarté admirable, et pourrait bien figurer, tel quel, dans un traité de topographie moderne. Chaque secteur de territoire, imparti à un ingénieur, était délimité de manière à y faire entrer au moins deux des points de référence de Nouet, en en plaçant un à chaque extrémité, où le secteur adjacent venait s'abouter, en ménageant une marge de recouvrement. Ils permettaient ainsi de contrôler l'exactitude des cheminements effectués dans chaque secteur, tout en les raccordant aux suivants.

52 P. JACOTIN, « Mémoire sur la construction de la carte d'Égypte », *loc. cit.*, pp. 29-30 ; Nicolas-Antoine NOUET, « Observations astronomiques faites en Égypte pendant les années VI, VII et VIII [1798, 1799 et 1800] », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 1-20.

53 René-Nicolas DUFRICHE DES GENETTES, *alias* DESGENETTES, « Lettre circulaire... aux Médecins de l'Armée d'Orient, sur un plan propre à rédiger la Topographie physique et médicale de l'Égypte », 25 thermidor an VI (12 août 1798), *Décade égyptienne* 1, pp. 29-33. Voir GOBY (1987), p. 99.

54 Telle est la thèse que défendent ceux qui se réclament de Michel FOUCAULT, *Naissance de la clinique, une archéologie du regard médical* (Presses universitaires de France, Paris, 1963).

55 Jean-Dominique LARREY, « Mémoires et Observations sur plusieurs maladies qui ont affecté les troupes de l'armée Française pendant l'expédition d'Égypte et de Syrie, et qui sont endémiques dans ces deux contrées », *D.E., E.M.*, t. I, pp. 417-524.

56 Les titres de ces mémoires étant parfois fort longs, peut-être suffira-t-il d'en donner les localisations : Jean-Dominique LARREY, *D.E., E.M.*, t. II, 1re partie, pp. 1-6 ; Jean-Marie-Joseph-Aimé DUBOIS, dit DUBOIS-AYMÉ, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 193-202 ; ID., *ibid.*, pp. 577-606 ; Edme-François JOMARD, *D.E., A., Mémoires*, t. II, pp. 88-142 ; Michel-Ange LANCRET, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 233-260 ; Pierre-Simon GIRARD, *D.E., E.M.*, t. II, 1re partie, pp. 491-714.

57 Martin-Roch-Xavier ESTÈVE, *D.E., E.M.*, t. I, pp. 299-398 ; Guillaume-André VILLOTEAU, *D.E., A., Mémoires*, t. I, pp. 181-206 ; ID., *ibid.*, pp. 357-426 ; ID., *D.E., E.M.*, t. I, pp. 607-846 ; *ibid.*, pp. 1012-1016.

58 L'examen le plus intéressant de cet aspect de la question, est apporté par une thèse de 3e cycle, inédite, présentée par Stéphane CALLENS, « Étude sur la *Description de l'Égypte*, Histoire d'une enquête (1798-1830) », en septembre 1985. Je tiens à exprimer ma reconnaissance à M. Callens, d'avoir bien voulu me laisser un exemplaire de son étude remarquable.

59 Alfred FIERRO, *La Société de Géographie, 1821-1946* (Centre de recherches d'Histoire et de Philologie, Hautes Études médiévales et modernes 5, n° 52, Paris, Librairie Champion, 1983). L'auteur de cette thèse reste sceptique, quant aux prétentions de la Société. À mon sens, son *Bulletin* semble bien montrer une discipline en cours de constitution.

60 Gilbert-Joseph-Gaspard-Antonin CHABROL DE VOLVIC, *D.E., E.M.*, t. II, 2e partie, pp. 361-526 ; GOBY (1987), n° 403 : CHABROL DE VOLVIC et M.-A. LANCRET, *D.E., E.M.*, t. II, 1re partie, pp. 185-194.

61 G.-J.-G. CHABROL DE VOLVIC, *Statistique des provinces de Savone, d'Oneille, d'Acqui, et de partie de la province de Mondovi, formant l'ancien département de Montenotte* (1824 : 2 vol.). L'histoire de la statistique, en son état pré-mathématique, commence à retenir l'attention des chercheurs, tels Jean-Claude PERROT, *L'Âge d'or de la statistique régionale française (An IV-1804)*, Paris, Société des études robespierristes, 1977 ; Liliane VIRÉ *et al.*, *La Statistique en France à l'époque*

napoléonienne, Paris, École des Hautes Études en sciences sociales, 1982 ; et Marie-Noëlle BOURGUET, *Déchiffrer la France : la statistique départementale à l'époque napoléonienne*, Paris, Éditions des archives contemporaines, 1988.

62 *Recherches statistiques sur la Ville de Paris et le département de la Seine* (4 vol. : 1821, 1823, 1826, 1829). Fourier avait reçu la charge, à titre essentiellement honoraire, de directeur du Bureau de la Statistique, qui réunissait les données. Sur ce programme, on pourra se reporter au compte rendu, fort intéressant, publié par Edme JOMARD, in *Bulletin de la Société de Géographie*, 1[re] série, 2 (1824), pp. 305-322 ; ainsi que celui qu'il publia in *Revue encyclopédique* 21, 2[e] série, t. I, janvier 1824.

ثبت الخرائط والأشكال ومصادرها

المحتويات

الفصل الأول - الحملة

الفصل الثالث - السلطة والمجتمع في مصر العثمانية ٧٣

الفصل السابع - كليبر ٤٢٧

الفصل الثامن - مينو

المسهمون في هذا الكتاب

- هنري لورنس: أستاذ بجامعة السوربون – باريس – فرنسا.
- شارل جيليسبي: أستاذ بجامعة برنستون – برنستون – الولايات المتحدة.
- جان – كلود جولفان: مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي – فرنسا.
- كلود ترونيكر: مسؤول عن البحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي في ستراسبور – فرنسا.
- بشير السباعي: كاتب ومترجم مصري.
- منير الشعراني (عماد حليم): فنان وناقد ومصمم للخطوط وللمطبوعات وخبير في الخط العربي والطباعة.

للمترجم

١ - تروبادور الصمت، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.

٢ - مرايا الاثنوجنوسيا، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

من الأعمال المترجمة :

١ - ز. ١. ليفين : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، دار ابن خلدون، ١٩٧٨.

٢ - ز. ١. ليفين : التنوير والقومية، تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٧.

٣ - تيموثي ميتشل : استعمار مصر، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

٤ - تيموثي ميتشل : مصر في الخطاب الأمريكي، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.

٥ - جورج حنين : لا مبررات الوجود، أصوات، القاهرة ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).

٦ - كونستانتين كافافي : القصائد، دار إلياس، القاهرة ١٩٩١.

٧ - تزفيتان تودوروف : فتح أمريكا، مسألة الآخر، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٢.

٨ - روبير مانتران (إشراف) : تاريخ الدولة العثمانية، جزآن، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.

٩ - فيليب فارج ويوسف كرباج : المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٤.

١٠ - ادواردو جاليانو : الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان).

١١ - توماش ماستناك : الإسلام وخلق الهوية الأوروبية، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.

أعمال أخرى لهنري لورنس

١ - الأصول الفكرية لحملة مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا من عام ١٦٩٨ إلى عام ١٧٩٨، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٧ (بالفرنسية).

٢ - كليبر في مصر، كليبر وبونابارت، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٨ (بالفرنسية).

٣ - «عصر التنوير في مواجهة الإمبراطورية العثمانية : صورة تصور» في كتاب : الإمبراطورية العثمانية وجمهورية تركيا وفرنسا، تحرير جان لوي باكي - جرامون وحميد باطو، دار نشر إيزيس، المعهد الفرنسي للدراسات الأناضولية، اسطنبول - باريس، ١٩٨٦ (بالفرنسية).

٤ - «العقل في التاريخ»، في كتاب : المرأة المصرية، مارسيليا، ١٩٨٤ (بالفرنسية).

٥ - «صورة الشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر» في كتاب : الشرق : المفهوم والتصورات، أعمال ندوة معهد البحوث حول حضارات الغرب الحديث، دار نشر جامعة باريس - السوربون، ١٩٨٨ (بالفرنسية).

٦ - «الشرق والأصل»، في كتاب : البدائية وأساطير الأصول، ١٦٨٠ - ١٨٢٠، الناشر السابق (بالفرنسية).

٧ - «بونابارت والشرق والأمة العظمى» أنال إستوريك دو لا ريفولوسيون فرانسيز، العدد ٢٧٣، يوليو - سبتمبر ١٩٨٨، ص ص ٢٨٢ - ٣١٤.

الحملة الفرنسية في مصر

بونابرت والإسلام



لتطور المجتمعات الشرقية والأوروبية، وبين بورتريهات المشاركين في الأحداث ومسيرة العمل العلمي الملحوظ الذي قام به الفرنسيون في مصر، إنما يُعدُّ تاريخاً كلياً لتلك اللحظة الأساسية في مسار العلاقات بين الغرب والإسلام.

إن قوة استحضار الأحداث الدرامية للثورة الفرنسية الآخذة في الانتهاء، والغموض المحير الذي تميز به بونابارت المنبهر بالشرق وبتحولات عالم إسلامي يمر بالفعل بتجديد سافر، وهي قوة استحضار تدعمها وفرة من الصور المندمجة اندماجاً وثيقاً بالنص، سوف تفتن القارئ الراغب في اكتشاف أصول عالمنا المعاصر.

اندريه ميكيل

استاذ بالكوليج دو فرانس

